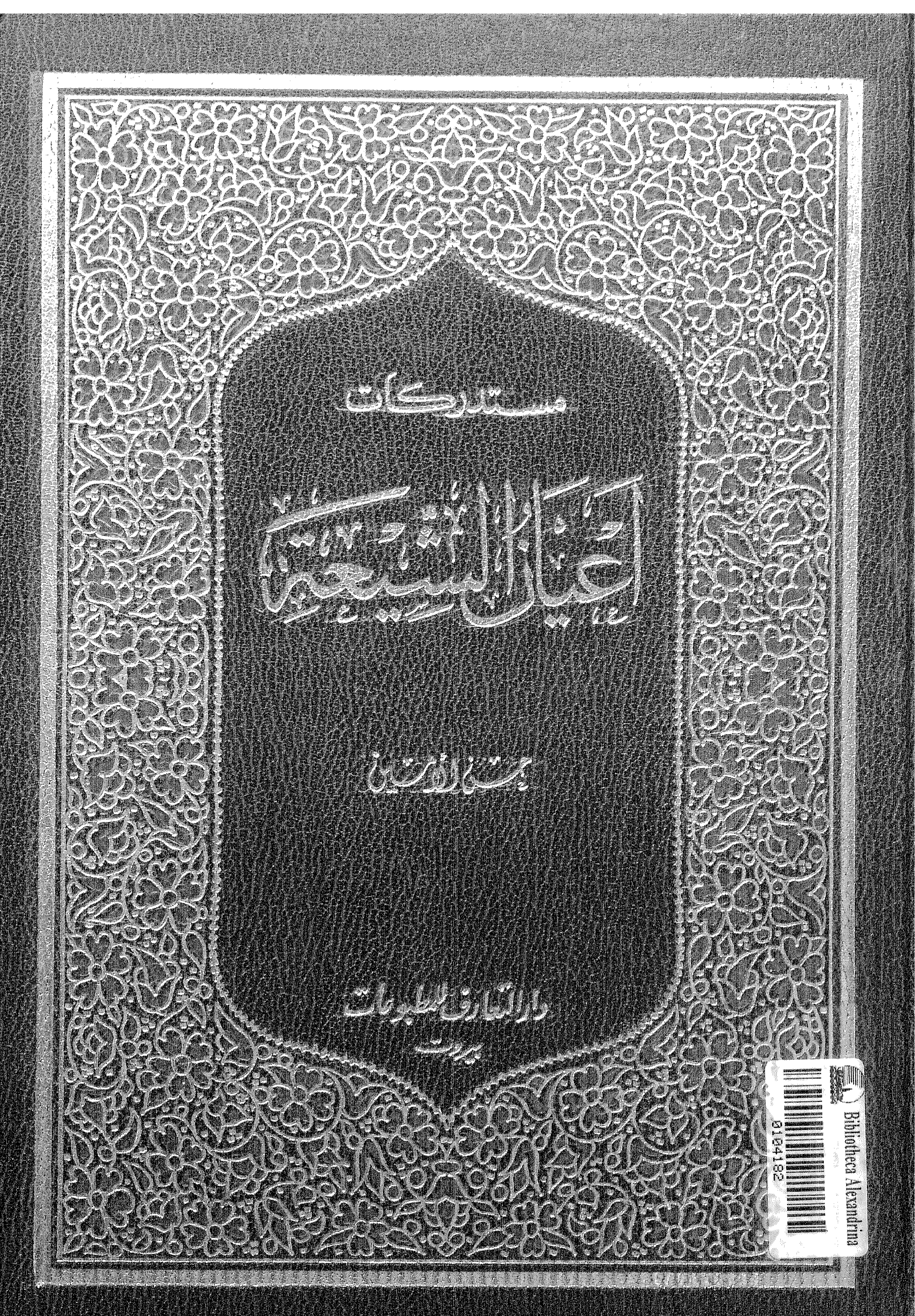
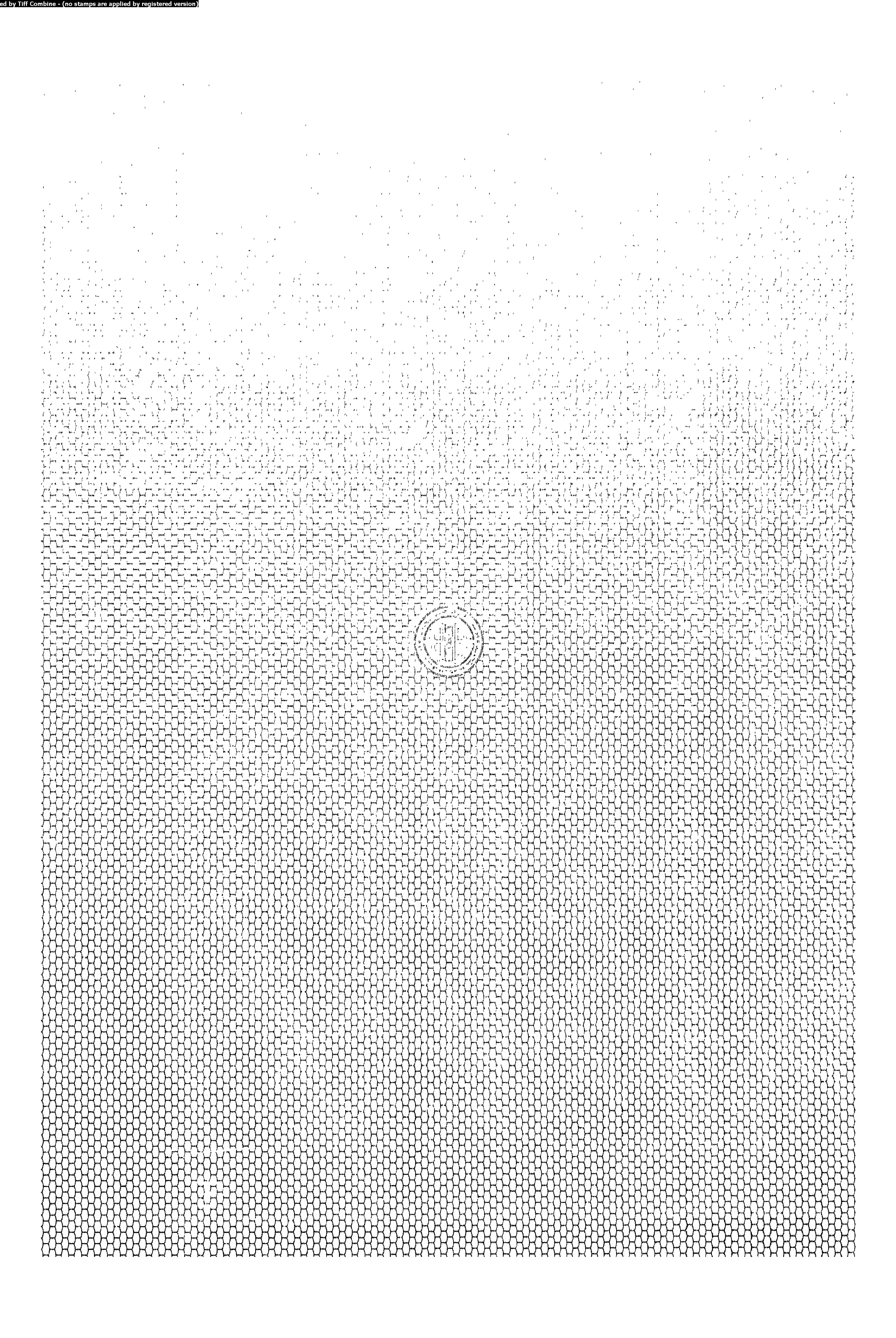
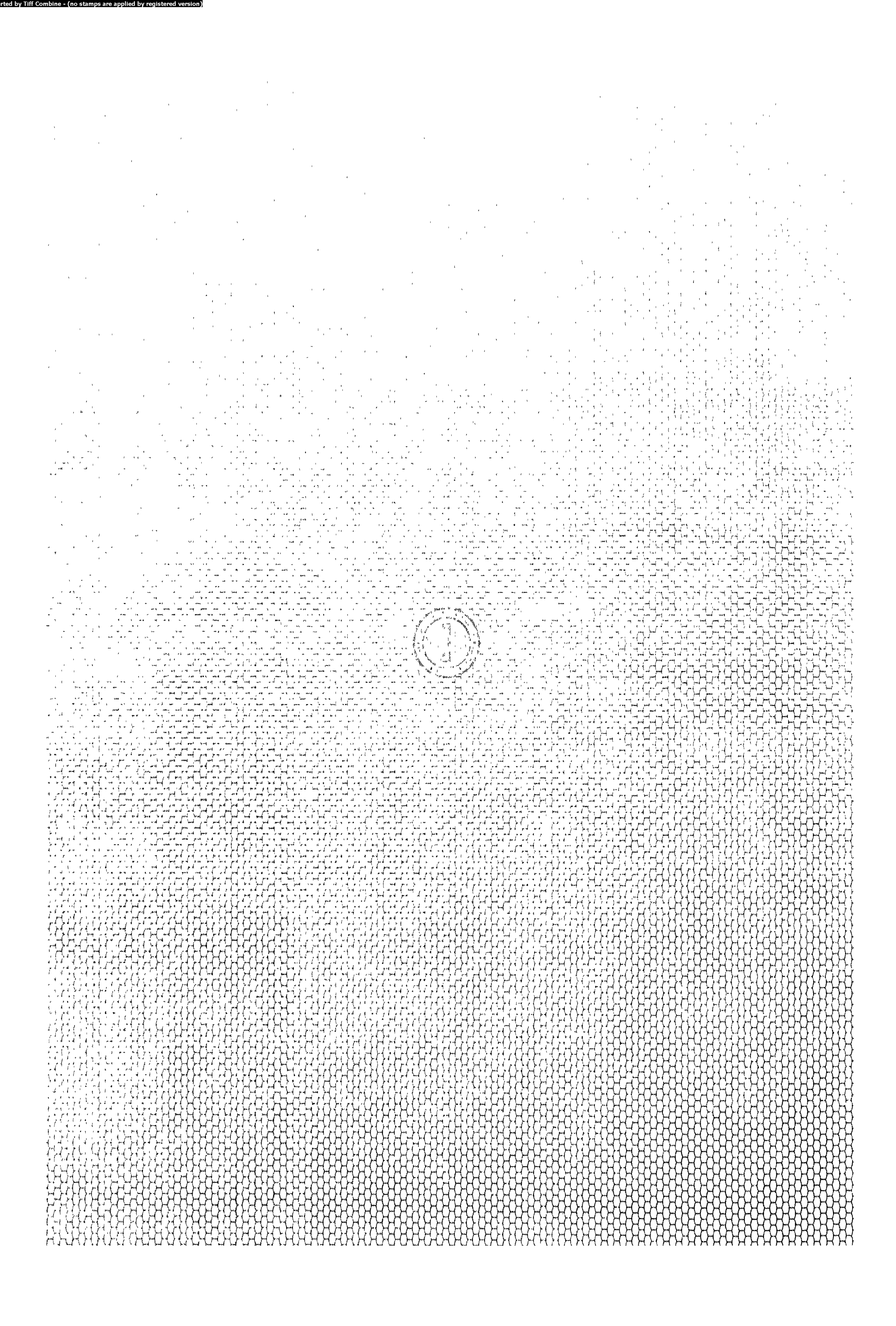
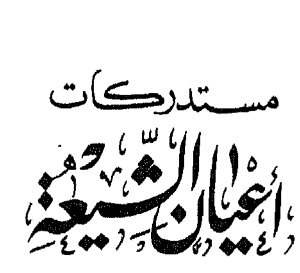

مستدركات
أعيان الشيعة
حسن الأمين
دار التعارف للمطبوعات
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0104182






مستدركات
أعيان الشيعة

مستدركات

أعيان الشيعة

المجلد الثالث

حسن الأمين

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم



المكتب : شارع سوريا ـ بناية دوريش ـ الطابق الثالث
الادارة والمعرض ـ حارة حريك ـ المنشية ـ شارع دكاش ـ بناية الحسنين
تلفون - ٨٣٧٨٥٧
ص. ب ٨٦٠١ ـ ١١

هذا هو المجلد الثالث من (المستدركات) نقدمه للقراء تنفيذا لما وعدناهم به في المجلد الثاني ، ونسأل الله أن يوفقنا لمتابعة العمل فنصل بالقارىء الى المجلد الرابع .

ولقد لقينا في اعداد هذا المجلد من المشاق والمصاعب ما يضعف العزائم لولا التصميم على اكمال الشوط ومتابعة الرسالة مهما اعترض طريقنا وقام في وجهنا من سدود . . .

ولقد كان يهون علينا كل شدة ، مناصرة المناصرين ، وهم وان قلّوا ، فانهم بما قدموه من عون كتابي وتأييد معنوي يسدّون مسدّ الكثرة الكاثرة .

فالى هؤلاء المتطوعين الذين يرى القارىء اسماءهم مقرونة بمقالاتهم اجزل الشكر واطيب الثناء، ولأسمائهم اخلد الذكر وأبقى الدوام .

وهنا لا بدَّ لي من أن اذكر بكل خير (دار التعارف) التي بفضل صاحبها الغيور المخلص الحاج حامد عزيزي استطاعت (المستدركات) أن تأخذ طريقها الى الطباعة بلا توقف .

والى اللقاء في المجلد الرابع إن شاء الله .

حسن الأمين

بيروت ـ ٥ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ

٣ كانون الأول ١٩٨٩ م

ابش خاتون بنت الأتابك سعد بن أبي بكر الزنكي

توفيت سنة ٦٨٥ في تبريز ثم انقلت رفاتها إلى شيراز ودفنت في مدرسة (آبش خاتون) المعروفة باسمها .

ملكة جليلة نشأت وترعرعت في بلاط أبيها وكانت ذات عقل راجح ورأي صائب ذات دين وصلاح وشجاعة وهي آخر ملكات آل الأتابك السلغري في شيرازوبها انتهت حكومتهم في إيران وفي سنة ٦٦٢ هجرية وبعد وفاة سلجوقشاه استولت على حكومة فارس وكانت عاصمتها مدينة شيراز

كانت عالمة فاضلة من ربات الفصاحة والبلاغة اتلقت من العلم والثقافة ما جعلها من أندر وأعلم نساء عصرها وكانت محبة للعلم، وتجالس العلماء كما أنها نشرت التشيع في ربوع حكومتها ويظهر إنها كانت متأثرة بأفكار السيد شرف الدين إبراهيم الذي ادعى بعد ذلك المهدوية وقام بسببه بعض الإضطرابات في ناحية فارس ولم تقف آبش خاتون موقفاً حازماً أمامه فأثارت غضب أرغون خان فأمر بنفيها من شيراز إلى تبريز حتى توفيت سنة ٦٨٥هـ في تبريز ودفنت في مقابر (جرنداب) وبعد مدة من الزمن نقلت بنتها (كردوجين) رفاتها الى شيراز ودفنت في مدرستها التي تعرف باسمها (مدرسة آبش خاتون) أو مدرسة خاتون قيامة وقد وقفت جميع أموالها وثروتها على أن يصرف ريعها في سبيل الإسلام ونشر العلم: ذكرها أكثر المؤرخين والكتاب منهم رشيد الدين فضل الله في جامع التواريخ والأيتي في تاريخ الوصاف وحمد الله المستوفي في تاريخ كزيدة وخواندمير في تاريخ حبيب السير والفسائي في فارسنامة ناصري ج ١ ص ١٠٥ وج٢ ص ١١٩٢ ودانشنامة إيران وإسلام[1].

المولى آتشي المراغي

من الفقهاء المجتهدين في القرن الثالث عشر الهجري شاعر أديب مؤلف محقق لم أقف على اسمه قال صاحب (حديقة الشعراء) كان شيخ الإسلام في عصر فتح علي الشاه القاجاري بمراغة ومن فحول الشعراء المشاهير في عصره له مؤلفات كثيرة ولم يذكر اسماءها واكتفى بذكر ديوان شعره وكان ينظم باللغتين التركية والفارسية ومعظم أشعار ديوانه باللغة التركية، ذكره محمد علي تربيت في كتابه (دانشمندان أذربايجان) ونقل عنه شيخنا آغا بزرك الطهراني في الذريعة[2].

آتوني حياة الهروي

أديبة فاضلة من ربات الفصاحة والبلاغة وشاعرة من شواعر هرات وخراسان في القرن العاشر الهجري.

نشأت في هرات وخراسان أحدى المراكز العلمية آنذاك وتزوجها العالم الشاعر ملابقائي وكانا من المقربين إلى الوزير الأمير نظام الدين علي شير الجغتائي الهروي المتوفى سنة ٩٠٦ هـ وكان يستشيرها الوزير المذكور في إدارة شؤون المملكة وكانت ذات سلطة ونفوذ وعقل راجح ورأي صائب ذكرها معظم كتب التراجم ووصفوها بأنها من ربات الجمال البارع والحسن الباهر لها اليد الطولى في الأدب والشعر، بديعة النظم ذات لسان فصيح ومنطق مبين سريعة البديهة خفيفة الروح حسنة الحديث جميلة الصحبة كانت تجالس العلماء والشعراء وتمازحهم في شعر الغزل.

وصفها المير علي شيرلودي في كتابه (مرآة الخيال) ص ٣٣٦ قال إنها مشهورة بآتوني ولم يذكر اسمها وأدرج قسما من شعرها وقال صاحب كتاب (جواهر العجائب) اسمها حياة وهي من مدينة هرات وزوجة الشاعر ملابقائي ثم ذكر عن حياتها ونقل قسماً من شعرها وأما الميرزا محمد ملك الكتاب الشيرازي فذكرها في كتابه (تذكرة الخواتين) ص ٧٦، ولم يذكر اسمها وقال كانت تتخلص في شعرها بـ توني ثم ترجم لها وذكر قسماً من شعرها ووصفها شيخنا الآغابزرك الطهراني في الذريعة ج ٩ قسم الأول ص٢ بالفاضلة الشاعرة ونقل الأستاذ علي أكبر المشير عن مجموعة مخطوطة في مكتبة ملك الوطنية بطهران أن اسمها بي بي آتوني ثم ترجم لها وذكر أكثر أقوال المؤرخين[1].

السيد المير آزاد بن السيد المير عبد الباقي بن السيد المير محمد صالح ابن السيد المير محمد زمان الطالقاني القزويني

من أعلام القرن الثالث عشر فقيه أصولي حكيم متأله أديب شاعر.

تخرج في الفقه والأصول على الشيخ محمد صالح البرغاني القزويني الحائري وشقيقه الشهيد وأخذ الحكمة والفلسفة من الأخوند ملا آغا الحكمي القزويني ثم هاجر إلى الهند وسكن هناك وانقطعت أخباره وهو من سادات طالقان وتعرف اسرته اليوم في قزوين بـ آل الرفيعي من الأسر العلمية المشهورة نبغ منها أعلام وكان المترجم له ينظم باللغتين العربية والفارسية ذكره المولوي محمد مظفر حسين في كتابه (روزروشن) ص٧ وأدرج قسماً من شعره[2].

الأميرة آغابيكم الملقبة بآغاباجي:

المتخلصة في شعرها بـ طوطي بنت إبراهيم خان بن بناه خان جوانشير عالمة فاضلة أديبة شاعرة عابدة زاهدة توفيت في قم سنة ١٢٤٨هـ ودفنت فيها.

قرأت على أكابر علماء آذربايجان ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى السلطان فتح علي الشاه القاجاري وتحركت من آذربايجان نحو طهران مع موكب مهيب بلغ فيه عدد أفراد حاشيتها أكثر من مائتي شخص من خدم وجواري، من جملتهم ملك بيك الذي كان مرافقها الخاص وقيل انها لم تعتن بالسلطان زوجها. ولها قصيدة في هجائه وكانت تكره الأمراء القاجاريين وتناهض البلاط. ثم هاجرت إلى مدينة قم واعتكفت هناك وانصرفت إلى العبادة والتبتل. كانت ذات طبع سليم وذوق أدبي رائع ومن ربات الفصاحة والبلاغة متكلمة خطيبة ولها ديوان شعر ذكرها الوزير محمد حسن خان إعتماد السلطنة في كتابه خيرات حسان ج ١ ص ١١ وصاحب تذكرة الخواتين من ص١١ ــ ١٢ والأستاذ محمد علي تربيت في (دانشمندان آذربايجان) ص ٨ وغيرهم[3].

آزروئي خانم السمرقندية:

أديبة فاضلة شاعرة متكلمة من ربات الفصاحة والبلاغة في القرن الحادي عشر للهجرة في سمرقند توفيت بعد سنة ١٠٥٢هـ.

ذكرها صاحب تذكرة صبح كلشن ومير علي شيرلودي في كتابه مرآة الخيال ص ٣٣٧ ووصفها بأنها صاحبة جمال بارع وحسن باهر، وان لها طبعاً موزوناً، وصلت إلى أعلى مراتب الكمال والمجد الأدبي، ذكرها شيخنا آغابزرك الطهراني في الذريعة قائلاً: (ديوان آرزوئي لارزوئي السمرقندية الشاعرة. ترجمها مير علي شيرلودي في كتاب مرآة الخيال ص ٣٣٧ المؤلف

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي. (٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

سنة ١١٠٢ وذكر شعرها وكذا في تذكرة الخواتين ص ٥٩).

وذكرهـا جمـع من المؤرخين في مؤلفـاتهم وأدرجـوا شعـرهـا منهم صاحب ريحانـة الأدب ج ١ ص ٤٧ والأستاذ علي أكبـر مشير السليمي في (زنان سخنور) ج١ ص٣ وغيرهم (١).

آسية أم فتـح علي الشاه القاجاري:

من أهـل البر والاحسـان عابـدة زاهدة تـوفيت سنـة ١٢١٧ هـ ونقـل جثمانها إلى العراق ودفنت في الروضة الحيدرية بالنجف الأشرف.

كانت ملكة سيدة ذات عقل ورأي وحكمة ومعرفة وخبرة في الأمور لها صدقات جارية تحب العلم وتسعى في ترويجه وتجالس العلماء. من آثارها الباقية حتى اليوم مدرسة دينية في طهران تعرف باسم مدرسة (مادرشاه) أي مدرسة (أم الشاه) جمعت فيها فحـول العلماء للتـدريس وكانت تـدفـع لهم رواتب شهرية واسست دوراً خاصة للسكن وأوقفتها على المدرسين الذين يدرسون في هذه المدرسة ومن أشهر المدرسين فيها الشيـخ محمد جعفر الأسترابادي المتوفى سنة ١٢٦٣هـ قال شيخنا آغـابزرك الـطهراني (.. فـاجتمـع (فتـح علي الشاه) بالمترجم وعرف فضله فـطلب منه المجيء إلى طهـران فأجـابه ولمـا حلها عين لـه السلطان داراً متصلة بدور السلطنـة في جنب (مـدرسـة الحكيم هاشم) التي عمرتها أم السلطان وتعرف تلك المدرسة من أجل ذلك بـ (مدرسة مادرشاه..)(٢).

ووصفها الوزير الايراني الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة في كتـابـه (خيـرات حسـان) (.. صـرفت جميـع عمـرهـا في بث الخيـرات والصدقات وقضاء حوائـج الناس والعبادات..)(٣).

آشوبـي النطنزي

المتوفى قبل سنة ١٠٠٢هـ.

كـان أحد خـطاطي الخط نستعليق وشاعـراً بليغاً في القـرن العـاشـر للهجرة في أوائل حكومة الشاه عباس الأول الصفوي. ومن آثاره ديوان شعر ذكره شيخنا الأستاذ آغابزرك الطهراني في الذريعة إلى تصانيف الشيعة الجزء التاسـع من القسم الأول ص٧ عن كتاب كلشن ص ٦ وذكره أيضاً الـدكتور مهدي البياني في كتابه (أحوال وآثار خوشنويسان) ج٢ ص١ ولم أقف على اسمه وساير خصوصياته إلاَّ أنه كان يعيش في قزوين العاصمة في العصر الصفوي قبل انتقال العاصمة إلى أصفهان(٤)

الأميرة آغاكوجك بنت الأمير سيف الله ميرزا سردار مفخم القاجاري

من ربات الفصاحة والبلاغة في القرن الثالث عشر للهجرة.أديبة فاضلة شاعرة متكلمة ولدت في البلاط القاجاري وترعرعت في سرادقات السلاطين وأخـذت العلم على جملة من أفاضـل عصـرهـا ونبغت في الأدب والشعـر وكانت أمها الأميرة آغابكم بنت الميرزا عبد الكريم من الأميرات الصفويات لذا ينتهي نسبها من جهة الأب إلى السلطان فتـح علي شاه القـاجاري ومن جهة الأم إلى السلاطين الصفوية، ومعتمد الدولة ميرزا عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٤٤ هـ من أعاظم شعـراء العصر القـاجاري ومؤسس جمعيـة نهضة التجدد الأدبـي واحياء السبك الخراساني في الشعر الفارسي في أصفهان من أقرباء أمها؛ «ترجم لها الوزير ميرزا محمـد حسن خان اعتمـاد السلطنة في كتابه (خيرات حسان) ج١ ص١١ وذكرها الأستاذ علي أكبر مشير سليمي في

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) آغابزرك الطهراني الكرام البرره ج١ ص ٢٥٤ الطبعة الأولى.
(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٤) الصالحي.

(زنان سخنور) ج١ ص٨ والمحلاتي في (رياحين الشريعة) ج٣ ص٣٢٢(١).

آغنة دويست ويقال آغا دوست بنت درويش قيام السبزوارية:

وصفها صاحب مرآة الخيال في ص٣٣٧ بأنها كـانت عالمـة فاضلة، نابغة عصرها في علم العروض والقوافي ولها أشعار جيدة ذكر ديوانها شيخنا آغا بزرك الطهراني في الـذريعة قـال (ديوان آغنـة دوست بنت درويش قيام السبزواري الفاضلة الشاعرة العالمة بالعروض والشعر...) وذكرهـا الأستاذ علي أكبر مشير سليمي في كتابه (زنان سخنور) ج١ ص٨. وقد اعتبر الوزير الايراني ميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة في كتابه (خيـرات حسان) آغادوست وآغنة دوست اثنتين حيث ترجم لآغادوست في ج١ ص١٢ وترجم لآغنـة دوست في ج١ ص ١٥٣ من كتابـه (خيـرات حسـان) وأمـا الأشعـار المذكورة في ترجمة كل منهما فواحدة، فالصحيـح إتحادهما كما ذكرنا(٢).

السيد آفات حسين ابن السيد مقصود حسين الرضوي:

ولد سنة ١٣١٢ وتوفي في مدينة (بها ولنكـر) في سنة ١٣٨٤هـ ودفن بجوار المسجد الجامـع بها.

ولد في مدينة بجنور التابعة للواء أوترپرادش في الهند ثم هاجـر إلى العاصمة دهلي وأخذ العلوم الإسلامية من الفقه والأصول على علماء الشيعة هناك ومنها توجه إلى لكنهـو إحدى المـراكز الشيعيـة في الهند وتخـرج في مدارسها الدينية وأخذ الطب على الطبيب الشهير منى آغا ثم توجه إلى مدينة ملتان واستقر هنـاك وقام بـالوظـائف الشرعيـة من الوعظ والتبليـغ والأرشـاد فـانتهت هناك إليـه المرجعيـة الدينيـة. هذا وكـان عمدة وارداتـه من مهنتـه الطبية (٣)

آمنة الصدر المعروفة بـ (بنت الهدى) بنت السيد حيدر بن السيد إسمـاعيل الصدر:

ولدت في الكاظمية سنة ١٣٥٦هـ واستشهدت مـع أخيها السيد محمد باقر الصدر في بغداد ١٩ جمادي الأولى سنة ١٤٠٠هـ.

فقدت والدها في أوائل عمـرها وأخـذت العلوم الإسلاميـة عن أخيها وشريكها في النضال والجهاد ضد الطغمة الفاسدة في العراق السيـد محمد باقر الصدر حتى حصلت من العلم والثقافة العالية ما جعلها من أندر وأعلم نساء عصرها وقد اشتغلت في مدارس الزهراء الأهلية للبنات فترة من الزمن وكانت تقود النساء المسلمات في العراق ولها نشاط إسلامي وعلمي عـظيم كتبت ونشـرت في الصحف العراقيـة مقالات بتـوقيـع ــ بنت الهدى ــ لهـا مؤلفات عديدة مخطوطة ومطبـوعة من كتبهـا المطبـوعة أمنيـة ودعوة للمـرأة المسلمة، بطولة المرأة المسلمة، الفضيلة تنتصر، كلمة ودعوة، المرأة مـع النبي، المرأة وحديث المفاهيم الإسلامية (طبـع بتوقيـع أم الـولاء)، صراع وهو مجموعة قصصية نشرتها بتوقيـع ــ بنت الهدى ــ في النجف ١٩٧٠م، وغير ذلك.

في يـوم الثلاثـاء ١٧ رجب سنة ١٣٩٩ هـ دخـل ما يقـارب المـائتي مسلـح من جماعة النظام بيت أخيها والقوا القبض عليها وعلى أخيها السيد محمد باقر الصدر ثم أطلق سراحهما بعد مدة من الزمن وفي جمادي الأولى سنة ١٤٠٠هـ ألقي القبض عليهما ثانية واستشهدت مـع أخيها(٤).

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٣) الصالحي.
(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

هذه الصفحة (٥) هي في الواقع الصفحة (٦) أما الصفحة (٥) فقد جاء رقمها (٨)، في حين أن مكانها هنا. وعليه فالقصيدة المنشورة هنا تتبع ترجمة الشيخ إبراهيم اطيمش.

والورق تفصح عن لحن له رقصت ... من الحسان غداة اللهو قينات
والروض تضحك عن زهر خمائله ... مطلولة فوقها تبكي الغمامات
يا حبذا زمن اللذات: إنَّ به ... وافت إليَّ مع البرق البشارات
مسرَّة ترقص الأغصان بهجتها ... شوقاً فكيف إذا وافت مسرَّات
والراح يسعى بها للصب ذو هيف ... وما سوى ثغره المعسول راحات
كأن راحته في راحة جهلت ... فما تبين لها في الشرب جامات
نعيم وجنته كالنار ملتهب ... فأعجب لخدٍّ به نار وجنات
يا بدر طالعت في خديك لي شبحاً ... كأن خديك للرائين مرآة
عليك أقسم في لام العذار أما ... للصب منك بواو الصدغ عطفات
أديم خدّك مصقول أخال به ... عكساً بأن خيال الهدب خالات
بالله يا حكمي عطفاً علي فلي ... إن جرت أحمد تخشاه الحكومات
كأنه البدر في أفق الفخار وقد ... دارت عليه من الطلاب هالات
أنى يضل سبيل الرشد طالبهم ... وذا محيّاه مصباح ومشكاة
أجاب داعي الهدى لما أثاب به ... وللكرام إذا تدعى إجابات
قرّت بطلعته عين الكمال وكم ... له من الله عن نقص عنايات
يفرّق المال والتفريق سيئة ... لله كم أحسنت تلك الاساءات
للفضل والجود والتقوى أضيف فكم ... تتابعت منه في العليا إضافات
لا تعجبوا إن طغت كالبحر راحته ... فتلك أيدي نداه جعفريات
علائم العلم شعّت في أسرّته ... وللعلوم كما قالوا: علامات
بالمسك يكتب في طرس الهوى قلم ... سطورها حين تملى عنبريات
علامة العصر والأحكام شاهدة ... وليس تنكر منهن الشهادات
سمعاً أبا الفتح فالفتح المبين أبى ... تنمى لغيرك في الدنيا الفتوحات
رايات فضلك يوم الفخر خافقة ... عنها نكصن من الحساد رايات
راموا سباقك للعليا واذرعهم ... عن قيد فترك لو قيست قصيرات
يا آل جعفر هذا عهد جدكم ... جددتموه وذي تلك الزعامات
كشف الغطالكم ينمى فعلمكم ... في الدين وحي مبين وانكشافات
شمل العلى بينكم ما انفك مجتمعاً ... وشمل وفركم للوفد أشتات
منكم (عليّ) المعالي من سمت شرفا ... مناقب من مساعيه وضيئات
أخبار فضلكم صحت روايتها ... نقلاً فهن صحيحات صريحات
دمتم بدوراً بآفاق الهدى سفرت ... وليس تبعدكم عنها إنتقالات

وديوان شعر كبير في عدة مجلدات[1].

الشيخ أبو تراب الشهيدي القزويني ابن الشيخ الميرزا أبو القاسم ابن الشهيد الثالث آل الشهيدي:

ولد في قزوين سنة ١٢٧٨هـ وتوفي في سلخ ذي القعدة سنة ١٣٧٥هـ في طهران.

أخذ المقدمات والسطوح على جملة من علماء المدرسة الصالحية بقزوين ثم هاجر إلى العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى فحضر في كربلاء المقدسة على مدرس الطف الشيخ الميرزا علي تقي الحائري آل الصالحي والشيخ الميرزا علامة آل الصالحي ثم توجه إلى النجف وأخذ الفقه والأصول عن الآخوند ملا محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية والسيد كاظم اليزدي صاحب العروة الوثقى وحصل على إجازات من مشايخه المذكورين وله اجازة من الشيخ فضل الله النوري مؤرخه ٥ ذي الحجة سنة ١٣٢٦هـ ثم رجع إلى موطنه قزوين سنة ١٣٣٠هـ وتصدر للتدريس والفتيا وإدارة الأمور الشرعية ورجع إليه الناس ثم طلب منه أهالي طهران الهجرة إليهم فأجاب وسكن طهران وكان من مراجع التقليد واشترك في الانقلاب الدستوري في إيران (المشروطة) وكان من دعائمها وهو سبط الشيخ محمد صالح البرغاني شقيق جده المولى الشهيد الثالث وله مؤلفات منها تفسير للقرآن الكريم باسم (التبيين في شرح آيات القرآن الحكيم) في خمسة أجزاء ضخام فرغ من تبييض الجزء الخامس منها في ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٦٥هـ، وكتاب في الاستصحاب ومباحث الألفاظ، وكتاب في أقسام النجاسات وأحكامها، ورسالة في الخراج والمقاسمة، وله مؤلفات مطبوعة منها رسالة في التوحيد، وتفسير آية النور.

وبعد الحرب العالمية الأولى نزح إلى العراق وسكن كربلاء وساهم في الثورة العراقية الكبرى على بريطانيا وحين أراد الانكليز القبض عليه هرب إلى إيران ثانية[2].

السيد أبو جعفر الإمام بن المير محمد حسين الأخوندي التنكابني:

ولد في حدود ١٢١٠ في تنكابن وتوفي بها قبل سنة ١٢٨٥.

درس المقدمات والسطوح في موطنه ثم ذهب إلى الأعتاب المقدسة وحضر على أعلامها ثم رجع إلى موطنه وقام بالوظائف الشرعية إلى أن توفي بها ـ وهو خال الميرزا محمد التنكابني مؤلف كتاب قصص العلى[3].

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٣) الشيخ محمد السمامي.

آمنة بنت عباد بن علي بن حمزة الطباطبائي العلوي الأصفهاني :

عالمة فاضلة محدثة ذات صلاح ودين ومن ربات الفصاحة والبلاغة والمحدثات في أواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس للهجرة في أصفهان .

سمعت الحديث من أبي محمد رزق الله التميمي وتصدرت للتدريس بأصفهان ذكرها الأستاذ عمر رضا كحالة في أعلام النساء عن كتاب التحبير للسمعاني المخطوط قال (آمنة بنت عباد بن علي بن حمزة بن طباطبائي العلوي : محدثة من محدثات القرن الخامس والسادس للهجرة بأصفهان سمعت على الإمام أبي محمد رزق الله التميمي)[١] ونقل عنه المحلاتي في رياحين الشريعة ج٣ ص٣٢٣ .

أقول أسرتها آل الطباطبائي في أصفهان من أشهر الأسر العلمية في أصفهان وأعرقها في الزعامة و الرئاسة والجاه نبغ منها علماء أعلام وشعراء أفذاذ وتفرعت إلى بطون وفروع يطول علينا شرحها نزح قسم منهم إلى العراق والخليج الفارسي ومن أشهر هذه البطون في العراق آل الحكيم الذين نزحوا في العصر الصفوي إلى النجف الأشرف وآل بحر العلوم وال الطباطبائي صاحب الرياض في كربلاء وآل البروجردي في قم وبروجرد وغيرهما من الفروع والبطون[٢] .

آمنة بنت أبي محمد الشريف قريش بن السُبيع بن المهنا بن السبيع بن المهنا بن السبيع بن المهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ عليهم السلام ـ العلوي الحسيني المدني البغدادي .

كانت حية في رجب سنة ٥٦٠ هـ .

عالمة فاضلة محدثّة فقيهة من أكابر نساء الشيعة في مطلع القرن السابع للهجرة في بغداد .

ولدت في بغداد وقرأت على أبيها الشريف قريش البغدادي المتوفى سنة ٦٢٠هـ ثم حضرت على الشيخ أبو طالب المبارك بن علي بن محمد بن خصير الصيرفي البغدادي وقد قرأت عليه كتاب (فضل الكوفة) تأليف أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن عبد الرحمان الحسيني الشجري المتوفى سنة ٤٥٥هـ وقد كتب أبوها الشريف قريش بخطه الشريف في آخر النسخة من كتاب (فضل الكوفة) في مجالس آخرها يوم **الثلاثاء عاشر رجب سنة ٥٦٠هـ وقرأت معه زوجته شرف النساء بنت أبي** طالب أم المترجم لها الأتي ذكرها وأولاده محمد وآمنه (المترجم لها) وبنته **الأخرى فاطمة**[٣] الأتي ذكرها وهذه النسخة النفيسة من كتاب (فضل الكوفة) من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق ونسخة فتوغرافية منها في مكتبة أمير المؤمنين العامة في النجف الأشرف[٤] .

آمنة بنت فتح علي خان دولوي القاجاري :

من ربات الفصاحة والبلاغة وعالمة في الفنون العسكرية شجاعة توفيت سنة ١٢٣٠هـ ونقل جثمانها إلى العراق ودفنت في الروضة الحسينية .

تزوجها فتح علي الشاه القاجاري وهي أم ولي العهد عباس ميرزا قيل انها كانت تشارك مع ولدها عباس ميرزا في الحروب بكل بسالة وشجاعة وتبدي رأيها في الفنون العسكرية وفي الأعياد والمناسبات الرسمية كانت في مقدمة صفوف المستقبلين تقف بجانب زوجها فتح علي الشاه القاجاري وكان الشاه يستشيرها في إدارة أمور الدولة ويأخذ برأيها .

ذكرها الأمير عضد الدولة سلطان أحمد ميرزا في كتابه (تاريخ عضدي) ص١٢ و١٦٦ و ٣٠١[١] .

(١) عمر رضا كحالة : أعلام النساء ج١ ص١٤ الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م بيروت مؤسسة الرسالة .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي ، وهي منتزعة من كتابه المخطوط (رياحين الشيعة) .

(٣) أنظر الثقات العيون في سادس القرون ص٢٣٧ ـ ٢٣٨ والأنوار الساطعة في المائة السابعة ص١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي ، وهي منتزعة من كتابه المخطوط (رياحين الشيعة) .

السيد إبراهيم بن أبو الحسن بن هادي بن محمد رضا الحسيني التنكابني القزويني :

ولد حدود ١٢٥٥ وتوفي بقزوين سنة ١٣٢٤ .

مرت ترجمته في الجزء الثاني / ١١٥ ونزيد عليها هنا ما يلي :

تنكابن ـ بضم التاء وسكون النون . . مقاطعة تقع بين مازندران وجيلان على ساحل بحر الخزربحر قزوين،طولها أكثر من خمسة عشر فرسخاً وعرضها خمسة فراسخ تقريباً فيها عدة مدن وقرىٰ . . منها ، مدينة رامسر ، وشهسوار ، وخرم آباد ، **جالوس** . . والسيد إبراهيم قرأ المبادى والمقدمات عند والده وبعض الأعلام في مدينة قزوين ثم هاجر إلى النجف الأشرف وأدرك قليلاً من درس الشيخ الأنصاري ثم حضر عند أعلامها واختص بالميرزا حبيب الله الرشتي .

وفي أوائل القرن الرابع عشر رجع إلى قزوين بطلب من أهاليها واشتغل فيها بالتدريس والتأليف والامامة وبنى مدرسة هناك للطلاب ومن مؤلفاته :

١ ـ منظومة في أصول الفقه .
٢ ـ منظومة في فنون البلاغة .
٣ ـ كتاب الأربعين[٢] .

الميرزا إبراهيم بن الميرزا شاه حسين الأصفهاني القزويني .

توفي في قزوين سنة ٩٨٩هـ ودفن في سرداب الايوان الشمالي من روضة شاه زاده حسين ابن الإمام الرضا عليه السلام بقزوين .

شاعر أديب لغوي متبحر نحوي متفنن خطاط ماهر ولد في أصفهان وأخذ العلم من أعلامها وكان والده الميرزا شاه حسين المقتول في ٢٨ جمادى الأولى سنة ٩٢٩هـ من كبار البلاط الصفوي ووزير الشاه إسماعيل الصفوي (٩٠٦ ـ ٩٣٠هـ) وبعد قتل أبيه **تدهورت** حالته المعاشية مما اضطره إلى الهجرة في سنة ٩٥٠هـ إلى قزوين فاستقبله علماء وأدباء وشعراء وفضلاء قزوين والتفوا حوله وكان حاد الذكاء قوي الأسلوب فتمكن من التركيز في المجامع العلمية وكانت له حوزة معمورة وله نظم في أسلوب بديع وترك شعراً كثيراً .

ومن آثاره ديوان شعر وكتاب فرهنك إبراهيمي ويقال فرهنك جها نكشا ويقال فرهنك مختصر ويقال فرهنك فارسي ، كلها متحدة منها نسختان في مكتبة جامعة طهران ونسختان في مكتبة سبهسالار ومجلس الشورى (مجلس النواب) بطهران ذكره شيخنا الأستاذ الإمام الطهراني في موسوعته الذريعة تارة بعنوان فرهنك جهانكشا وطوراً بعنوان فرهنك فارسي ثم ذكر اتحادهما . ذكر المترجم له صاحب كتاب (عالم آراي عباسي) وقال : له كتاب فرهنك جمع فيه اللغات المتداولة في شعر الشعراء القدماء وفسر معناها . وأشار إليه الدكتور مهدي البياني في كتابه (أحوال وآثار خوشنويسان) الجزء الأول صفحة ١٥ ـ ١٦ وذكره من كبار الخطاطين في العصر الصفوي[٣] .

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) الشيخ محمد السمامي .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

الميرزا أبو الحسن بن حسين بن تقي الكلان محلة أي الرانكو هي التنكابني الشهير بالجيلاني.

توفي بعد سنة ١٣١٣.

ولد في (الكلان محلة) وهي من قرى تنكابن الواقعة بين رودسر ورامسر. كانت تابعة لتنكابن وهي حالياً تتبع محافظة جيلان.

درس المقدمات والسطوح فيها وحضر عند الميرزا محمد التنكابني مؤلف قصص العلماء برهة من الزمن ثم ذهب إلى طهران ومن هناك ذهب إلى النجف الأشرف للدراسة وله مؤلفات منها.

١ ـ شرح قصيدة الفرزدق الميمية ٢ ـ جامع المكاسب ٣ ـ ألغاز ومغالطة ـ ٤ ـ الصيغ المشكلة ـ ٥ ـ سبب اختلاف الأخبار ـ ٦ ـ جامع المطالب ـ ٧ ـ المعاد والتوبة ـ ٨ ـ أحوال السيد محمد المجاهد ـ ٩ ـ أحوال خواجه نصير الدين الطوسي ـ ١٠ ـ ومجموعة جمعها سنة ١٣٠٥[1].

السيد أبو الحسن بن هادي بن محمد رضا الحسيني التنكابني:

ولد حدود ١٢٢٢ في رامسر.

وتوفي في ١٩ ربيع الأول ١٢٨٦ في قزوين وتعلم المبادى والمقدمات تحت رعاية والده ثم ذهب مع أخويه السيد مرتضى والسيد صادق إلى أصفهان وحضر في الفلسفة على المولى علي النوري وفي الفقه والأصول على الشيخ إبراهيم الكلباسي فلما توفي استاذه النوري ذهب إلى طهران ثم إلى قزوين واشتغل في الفقه والأصول والفلسفة والتفسير والكلام على السيد هاشم القزويني والسيد قوام الدين والمولى عبد الوهاب. والسيد علي القزويني ـ وامره استاذه المولى عبد الوهاب بالمهاجرة إلى العتبات المقدسة. فنزل النجف الأشرف وحضر بحث الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر مدة ثم ذهب إلى كربلاء المقدسة وحضر بحث السيد إبراهيم القزويني صاحب الضوابط وعندما هجم نجيب باشا على مدينة كربلاء في سنة ١٢٥٨ تفرق أهاليها ورجع مع أقاربه إلى إيران فسكن قزوين بدعوة من أهاليها واشتهر صيته فصار مرجعاً بها. وتخلف بأولاده السيد إبراهيم والسيد زين العابدين والسيد علي والسيد أحمد وله مؤلفات منها:

١ ـ البضاعة المزجاة. وهي رسالة في الوجود الكلّي.

٢ ـ شرح نتائج الأفكار ـ في أصول الفقه

٣ ـ براهين الأحكام في شرح شرائع الاسلام في الفقه.

٤ ـ حقائق الأحكام.

٥ ـ خطب أهل البيت وأشعارهم وأنصارهم.

٦ ـ مصالح المؤمنين.

٧ ـ درّة تنكابني.

٨ ـ باقيات صالحات ـ رسالة فارسية في بعض الأدعية والزيارات توجد نسخة منها في مكتبة السيد المرعشي العامة في مدينة قم[2].

السيد أبو الحسن الرفيعي القزويني:

ابن السيد الميرزا إبراهيم المعروف بالسيد الميرزا خليل بن السيد مير رفيع بن السيد مير علي بن السيد مير عبد الباقي بن السيد مير محمد صالح بن السيد مير محمد زمان الطالقاني الأصل القزويني المولد والمنشأ ولد في قزوين سنة ١٣٠٦هـ كما حدثني بذلك وتوفي في اليوم الأول من محرم الحرام سنة ١٣٩٦هـ في طهران ونقل جثمانه إلى قم ودفن في روضة السيدة المعصومة داخل الحرم الشريف في جامع فوق الرأس بجوار مرقد استاذه الشيخ عبد الكريم الحائري كان من مراجع التقليد وائمة الفتيا وعلماء الحكمة والفلسفة في العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري وآل الرفيعي من البيوتات العلمية العريقة في قزوين وظهر منهم غير واحد من العلماء الأعلام ابتداء من القرن الحادي عشر الهجري واشتهروا بآل الرفيعي منذ عهد جدهم السيد مير رفيع بن السيد مير علي بن السيد مير عبد الباقي المتوفى سنة ١٢٧٢هـ الذي كان من أعلام القرن الثالث عشر ومن علماء هذا البيت في القرن الثاني عشر السيد مير محمد صالح بن السيد مير محمد زمان الطالقاني القزويني المولود سنة ١٠٨٩ والمتوفى ١١٧٥هـ من تلاميذ الآغا جمال الخوانساري. ومن أكابر هذه الأسرة أيضاً في القرن الثالث عشر السيد مير عبد الباقي بن السيد مير محمد صالح الطالقاني المولود في سنة ١١٥٥ والمتوفى سنة ١٢٤٠هـ وغيرهم أخذ المترجم له المقدمات على جملة من اساتذة قزوين ثم حضر في السطوح على الشيخ ملا علي الطارمي والخارج على الشيخ ملا علي أكبر السياه داني في المدرسة الصالحية بقزوين ثم هاجر إلى قم فالتحق بحوزة الشيخ عبد الكريم الحائري المتوفى سنة ١٣٥٥هـ وتخرج عليه في الفقه والأصول ثم أولع بالحكمة والفلسفة على كوكبة من فحول علماء الفلسفة منهم الشيخ الميرزا حسن الكرمانشاهي والميرزا إبراهيم الزنجاني والسيد محمد التنكابني و الشيخ عبد النبي النوري والشيخ محمد رضا النوري والشيخ علي الرشتي والميرزا محمود الرضواني القمي والميرزا هاشم الأشكوري وغيرهم حتى عرف بالتحقيق وأصالة الرأي وغزارة المادة والأفكار ونظرياته العميقة في حل معضلات المسائل الفلسفية المعقدة وانتهى إليه كرسي تدريس الفلسفة العالية في قم فكان يدرس منظومة السبزواري والأسفار لصدر المتألهين الشيرازي فتخرج عليه جمع غفير من العلماء والفضلاء، ومن أشهر تلامذته مؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران السيد روح الله الخميني والشيخ حسن زادة الأملي أحد مدرسي الفلسفة الآن في قم والسيد جلال الدين الأشتياني وغيرهم من الأعلام والفضلاء.

والمترجم له من رواد مدرسة صدر المتألهين الشيرازي ومجدد هذه المدرسة في العقد الثاني من القرن الرابع عشر وكان من أشد خصوم الشيخ أحمد الأحسائي المعادي لصدر المتألهين الشيرازي ويرد على الأحسائي بعنف في حواش له على كتاب (جامع الكلم) للأحسائي.

وكان يربطني مع المترجم له صلة قرابة وعاشرته سنين فرأيته بحراً لا ينال قعره وقد ترك مؤلفات قيمة ورسائل فلسفية وعرفانية كثيرة تدل على غزارة علمه وتبحره ورسوخه في جميع أبواب العلم وفنون الإسلام منها حواشي على المنظومة للسبزواري وحواشي على الأسفار لصدر المتألهين الشيرازي وحواشي على جامع الكلم للأحسائي رداً على الأحسائي وله كتب فقهية تشتمل على كتاب الصلاة والزكاة والخمس ومن مؤلفاته المطبوعة (إتحاد عاقل به معقول) تحقيق تلميذه الشيخ حسن زادة الأملي، الرجعة والمعراج، المعاد، هداية الأنام، أسرار الحج حول عقائد الإمامية في جزئين طبع مراراً، شرح دعاء السحر وله أيضاً النظرية الجوهرية التي ترجمت إلى الفرنسية وله تفسير الحروف المقطعة للقرآن نشر منها تفسير (الرتلك آيات..)[1].

أبو الحسن كوشيار بن لبان

توفي بعد سنة ٣٥٠

بن الحسين بن عيسى بن مهدي الجيلي توفي بعد سنة ٣٥٠ حكيم رياضي من أعاظم علماء الفلك، جامع العلوم والفنون الإسلامية.

---

(١) الشيخ محمد السمامي.

(٢) الشيخ محمد السماحي.

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

السيد إبراهيم بن محسن بن زين العابدين الحسيني الجورسري الرامسري.
توفي في سنة ١٢٧٣ في رامسر.

ولد في رامسر[١] وتعلم المبادى بها ثم ذهب إلى أصفهان واشتغل بتحصيل الطب وبرع في هذا العلم ثم رجع إلى موطنه واشتهر بالحكيم له مؤلفات في الطب توجد عند أحفاده[٢]

الشيخ إبراهيم بن المولى الشيخ عبد الرسول الحموزي النجفي.

ولد في النجف سنة ١٣١٥هـ وتوفي في خارج مركز مدينة الناصرية ١٣٧٠هـ فحمل إلى النجف الأشرف ودفن بها.

خطيب، فقيه، أديب، شاعر ولد في النجف ونشأ بها ودرس على أبيه وعلى جملة من أكابر العلماء في النجف.

من شعره قوله يرثي الحسين (ع) من قصيدة:

ظمأته عصابة الشرك ظلماً ... وسقته الردي يد العدوان
منعوه من الورود لماء ... وبكفيه يلتقي البحران
وأثاروا عليه حرباً عوانا ... واستثاروا كوامن الأضغان
حر قلبي له وروحي فداه ... من وحيد يجول في الميدان

الشيخ إبراهيم بن الشيخ مهدي بن الشيخ محمد بن الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن الشيخ أحمد أطيمش النجفي:

ولد في الشطرة سنة ١٢٩٢هـ وتوفي في النجف الأشرف سنة ١٣٦٠هـ.

آل أطيمش من الأسر النجفية المعروفة نبغ منها غير واحد من العلماء والشعراء هاجر من لواء المنتفك بعض رجالها إلى النجف لطلب العلم وترجع بنسبها إلى قبيلة ربيعة احدى القبائل العراقية الكبيرة المتعددة الفروع وهم من أحد أفخاذها المعروفين بـ (البسارجة) وكان أول من هاجر إلى النجف وغرس بذرة العلم في هذه الأسرة الشيخ أحمد أطيمش في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة ويقال في سبب تسمية هذه الأسرة بـ (أطيمش) انه كان أشهب اللون شديد البياض على خلاف ما كان عليه أفراد قبيلته من سمرة اللون فعرف بأطيمش على اللغة الشعبية ووصف هذه الأسرة الشيخ جعفر محبوبة في كتابه ماضي النجف وحاضرها (.. كانت هجرة بعض أولاده الى النجف وكانوا موضع احترام وتبجيل بين الطبقات النجفية من أهل العلم والأدب ولهم علاقة أكيدة ومصاهرة مع آل الشبيبي وبعض البيوت العلمية الأخرى ولا تزال دورهم في محلة البراق معروفة ومشهورة وفيها بعض قبورهم وقد انتقل بعض دورهم إلى آل الشبيبي بالارث ولا تزال بأيديهم حتى اليوم وخلت النجف اليوم من آل أطيمش ولهم بقية في الشطرة وبعض الأنحاء العراقية الأخرى)[٣]

ومن اعلام هذه الأسرة المترجم له كان من حملة العلم وأهل الفضل والأدب ومن الشعراء المجيدين ولد في مدينة الشطرة وفيها أخذ الأوليات في العلوم من تعليم القرآن والكتابة إلى غير ذلك ثم هاجر إلى النجف الأشرف وهو ابن خمس عشرة سنة أخذ المقدمات والسطوح والأدب على جملة من أفاضل النجف منهم الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ جواد البلاغي والسيد محمد حسين القزويني وتخرج في الفقه والأصول على الفاضل الإيرواني والشيخ محمد الشربياني والشيخ حسن المامقاني والسيد كاظم اليزدي واختص أخيراً باستاذه الشيخ أحمد آل كاشف الغطاء فكان من الملازمين له برز وكان من شعراء النجف في عصره أليفاً لجمع من الأدباء كانوا يأنسون به ويأنس بهم.

وهناك شعر كثير نظمه في المناسبات المختلفة منه قوله مؤرخاً الضريح الذي وضع في سنة ١٣٥٥هـ على مرقد السيد أحمد بن هاشم الغريفي المشهور بالحمزة الشرقي:

مقامك يا بن حيدرة مقام ... به الأملاك تنزل ثم تصعد
تبين به المعاجز كل يوم ... وضوء الشمس باد ليس يجحد
عكوفاً حوله الزوار تتلوا ... وخير الذكر «صل على محمد»
رقدت من النعيم بخير دار ... وأفضل بقعة واجل مرقد
أضف عدد الأئمة ثم أرخ ... على أوج السماك ضريح أحمد

وله شعر راثياً الشيخ محمد طه نجف المتوفى سنة ١٣٢٣هـ من قصيدة:

لا تأمنن غدر الزمان العادي ... من بعد نازلة بخير عماد
هيهات أن يصفو الزمان وخلقه ... سقم الكرام وصحة الأوغاد
شلت يد الدهر الخؤون فإنها ... ذهبت من العلياء بالأمجاد
وإنجاب عن أفق الهداية بدرها ... الموفي السنا فخبا ضياء النادي
يا ناعي الشرع الشريف ومعدن ... الدين الحنيف ومقصد الوفاد
أوحشت ربع العلم حتى لم يكن ... من رائح فيه ولا من غاد
ونعيت للأفق الرفيع كواكب ... الشرف المنيع وكل بدر هاد
من بعده يولي الندى لبني الرجا ... كرماً وينقع من غليل الصادي
فهو الذي كانت مواهب فضله ... للناس كالأطواق في الأجياد
ما خصّ فادحك الغريّ وإنما ... سارت نوادبه بكل بلاد

ومن نظمه مادحاً الشيخ أحمد كاشف الغطاء:

رقت من الدهر يا بشراي أوقات ... للأنس فيها إعادات وعادات
وقد تجلت رياض البشر ناضرة ... تجلى لخمر الصبا فيهن كاسات

---

(١) رامسر تقع على ساحل بحر الخزر (بحر قزوين) وكانت تسمى قبل حكومة رضا البهلوي بـ (سخت سر) وهي من مدن تنكابن الواقعة بين مازندران وجيلان.

(٢) الشيخ محمد السمامي من كتابه (بزركان رامسر).

(١) الشيخ جعفر محبوبة ماضي النجف وحاضرها ج٢ ص١ المطبعة العلمية النجف سنة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م

ولد في بيأة شيعية كيلان ونشأ بها وكانت كيلان في القرن الثالث والرابع احدى حصون الشيعة في إيران واشتهر المترجم له في سنة ٣٥٠هـ عصر الدولة البويهية وقد هاجر من مسقط رأسه كيلان إلى قزوين وأخذ العلم عن جملة من علماء قزوين منهم علي بن أحمد بن يوسف القزويني وأحمد بن محمد بن رزمة القزويني وغيرهم ثم هاجر إلى بغداد وحضر على علمائها حتى برع في مختلف العلوم وانتهى إليه كرسي التدريس في بغداد. وذكر الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ جملة من مشايخه في تاريخ بغداد وسرد نسبه هكذا (كوشيار بن لياليزور بن الحسين بن عيسى بن مهدي أبو علي الجيلي سكن بغداد وحدث بها..).

ويروي الخطيب البغدادي عنه بواسطة ثلاثة رجال من مشايخه، ووصفه كارل بروكلمان في تاريخ الأدب العربي قائلاً (كوشيار بن لبان الجيلي اشتهر حوالي سنة ٣٥٠هجرية /(٩٦٦م) كان شيخاً لعلي بن أحمد النسوي وأخذ من مؤلفات أبي الوفاء وابن الأعلم المتوفى ٣٧٥هـ/ (٩٨٥)م وذكره البيروني). ذكر شيخنا الأستاذ آغابزرك الطهراني مؤلفاته في أجزاء الذريعة، وقال صاحب لطائف الظرائف رصد المترجم له في سنة ٤٥٩هـ وتبعه حاجي خليفة في كشف الظنون وتنبه شيخنا الأستاذ آغابزرك الطهراني إلى هذا السهو فرد عليهم وقال (... وفي لطائف الظرائف قال انه رصده في ٤٥٩ وتبعه في كشف الظنون، ولعل التاريخ غلط كما يأتي.. ويروي الخطيب المتوفى سنة ٤٦٣ عنه بواسطة ثلاثة رجال من مشايخه فتكون وفاته أوائل القرن الخامس ويكون ارصاده قبل سنة ٤٥٩ بكثير وذكره في كشف الظنون.. وقال أرصده ٤٥٩..).

ذكره قطب الدين محمد اللاهجي الأشكوري في محبوب القلوب ص ١٥٤ وحاجي خليفة في كشف الظنون ج٢ ص٩٦٨ و ٩٧١ و١٤٥٣ و١٦٠٤ و١٦٠٥ و١٦٤٤ و١٨٨٣ ووصفه البغدادي في هدية العارفين قائلاً (أبو الحسن كوشيار بن لبان بن باشهري الجيلي بالياء المثناة ويقال الجبلي بالباء الموحدة من جملة المنجمين سكن بغداد ومات في حدود سنة ٣٥٠هـ صنف من الكتب..)[1].

ترك المترجم له مؤلفات هامة المعروف منها:

١ ـ الزيج الجامع والبالغ ويقال زيج كوشيار وعندنا منه نسخة قريبة من عصر المؤلف.

٢ ـ مقالة في الحساب.

٣ ـ الأسطرلاب.

٤ ـ تجريد أصول تركيب الجيوب.

٥ ـ أصول حساب الهند.

٦ ـ المدخل.

٧ ـ رسالة الأبعاد والأجرام.

وكلها من مخطوطات مكتبتنا في كربلاء[2].

الشيخ أبو الحسن المشكيني:

وجدت ترجمته بخطه محفوظة عند السيد مرتضى الخلخالي. قال:

أبو الحسن بن عبد الحسين المشكيني الأردبيلي:

ولد في قرية من قرى مشكين في ست وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية على مهاجرها ألف سلام وتحية أو خمسة.

واشتغل بتحصيل العلم على صغر في السن وهاجر إلى بلدة أردبيل

(١) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين ج١ ص٨٣٨.

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

في عشرين وثلاثمائة وألف لتحصيل العلم وفرغ من جميع السطوح في ست سنين مع أنه ما كان يتيسر له الاقامة والأشتغال بالتحصيل في كل سنةٍ منها إلا مقدار سبعة أشهر. واشتغل بالدروس الخارجية سنتين فمدة اقامته في هذه البلدة ثمان سنوات ثم هاجر منها في أواخر ثمانٍ وعشرين وثلاثمائة وألف إلى النجف الأشرف زادها الله علواً وشرفاً وكان يحضر بحث العلمين العلامتين آية الله الخراساني وشيخ الشريعة الأصفهاني أصولاً وفقهاً وبعدما توفي آية الله الخراساني طاب ثراه كان يحضر بحث تلميذه المحقق التقي والمدقق النقي حجة الإسلام والمسلمين الشيخ علي القوجاني طاب ثراه أصولاً وفقهاً ثم هاجر في أول سنة سبعٍ وثلاثين إلى كربلاء وقطن فيها سنتين وحضر بحث الورع التقي العلامة العلام آية الله في الانام الآغا ميرزا محمد تقي الشيرازي وبعد وفاته في شهرذي الحجة في الليلة الثالثة منها سنة ثمان وثلاثين رجع إلى النجف الأشرف وصار مشتغلاً بالتدريس والتأليف وخرج من قلمه إلى الآن وهو سبع وخمسون وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية كتابة في الأصول علقها على كفاية الأصول وهو مجلدان وطبع المجلد الأول المتعلق بمباحث الأصول.. إلخ

السيد الميرزا أبو الحسن الانكجي:

ولد في تبريز سنة ١٢٨٢، وتوفي فيها سنة ١٣٥٧.

اشتغل بالتحصيل في صغره ثم هاجر إلى العراق سنة ١٣٠٤هـ ومكث في النجف الأشرف حتّى سنة ١٣٠٨هـ وتتلمذ لدى الأساتذة: الفاضل الشربياني والميرزا حبيب الله الرشتي والشيخ حسن المامقاني.

كان من كبار علماء تبريز في عصره وأعاظم الفقهاء في إيران وكان مرجعاً للتقليد ومفتياً بارعاً، ذا وقار وسكينة وحافظة قوية وكثيراً ما كان يفتي من دون الرجوع إلى أي كتاب ونقل بعض من عاصره وعاشره، غرائب وطرائف من قصص حافظته وكان في أواخر أيامه قليل الكلام. وفي سنة ١٣٤٧هـ وقعت فتنة بهلوي في ايران، تلك الفتنة التي عارضها العلماء الأحرار الدينيون وهو أحدهم وفي طليعتهم. فاقصي إلى المشهد الرضوي ثم رجع إلى تبريز ومكث هناك بقية عمره.

من آثاره في الفقه

ازاحة الالتباس عن المشكوك فيه من اللباس طبعت سنة ١٣١٣[1].

الشريف السيد أبو القاسم عبد الله:

محمد بن محمد بن الحسين الحسيني البلخي وينتهي نسبه إلى أبي عبد الله الأعرج.

كان حياً سنة ٦٧٦هـ.

من علماء الشيعة البارزين في بلخ وأكابر المحدثين في القرن السابع للهجرة.

آل البلخي

من الأسر العلوية الحسينيين المنتسبين إلى أبي عبد الله الأعرج نبغ منهم علماء أعلام ونقباء وزعماء كبار في بلخ وخراسان منهم الإمام الأجل ضياء الدين أبو الحسن محمد بن الحسين الحسيني الأعرجي البلخي المتوفى سنة ٥٣٧هـ والد نظام الدين محمد والحسن رئيس خراسان وغيرهم ومنهم المترجم له، كان من علماء بلخ ومن آثاره المطبوعة ترجمة كتاب (فضائل بلخ) تأليف صفي الدين شيخ الإسلام أبي بكر عبد الله بن عمر بن محمد بن داود الواعظ البلخي ألفه بالعربية في رمضان سنة ٦١٠هـ وترجمه إلى الفارسية المترجم له سنة ٦٧٦هـ وطبعت الترجمة الفارسية بطهران

(١) السيد إبراهيم السيد علوي.

بتحقيق وتقديم عبد الحي الحبيبي الأفغاني وذكره شيخنا الأستاذ آغابزرك الطهراني في طبقات أعلام الشيعة[١] وفصّل عنه عبد الحي الحبيبي الأفغاني في مقدمة الترجمة الفارسية وذكر تاريخ أسرته[٢].

السيد أبو القاسم التنكابني:

ولد في تنكابن ونشأ بها ثم توفي حدود ١٣٥٥هـ. ذهب إلى النجف الأشرف وحضر على أعلامها واختص بالشيخ شعبان الجيلاني ثم انصرف إلى التدريس إلى أن توفي[٣].

أحمد بن الجزار:

ولد في القيروان (تونس) سنة ٢٨٥ ومات فيها سنة ٣٦٩ ولا بد قبل الحديث عنه من الحديث عن أسرته، وهو ما كتبه عنه وعن الأسرة المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب.

بنو الجزار

في أواخر الدولة الأغلبية اشتهر بالقيروان أفراد بيت واحد برعوا في علم الطب واحترفوا به في حذق زائد وأمانة، وقد توارثوه خلفاً عن سلف وتناقلوه ما يزيد عن المائة عام وهم: (بنو الجزّار). ومن دواعي الأسف أن أغفل أصحاب الطبقات تراجمهم ولم يذكروا لنا منهم سوى واحد وهو أحمد الذي غمرت شهرته بقية الأُسْرة.

أما (أبو بكر محمد بن أبـي خالد بن الجزّار) عمّ أحمد، فقد تلقّى علم الطب في صغره عن إسحاق بن عمران وعن تلميذه إسحاق الاسرائيلي كما أخذ عن زياد بن خلفون وعن غيرهم من أطباء بني الأغلب، وقد وصفه ابن أخيه وتلميذه أحمد في تأليفه «نصائح الأبرار» فقال: «كان عَمُّنَا عالماً بالطب حسن النظر فيه» ــ وذكر في كتابه هذا عدة أدوية واشربة ومعاجين وترياقات ركّبها عمه محمد، وقال: «وعالج بها سادة من ذوي الأقدار العالية وأهل الترفه والنعمة» ثم قال: «قد جرّبتها فحمدتها» ــ ويقصد بأهل الأقدار الخلفاء والأمراء من الفاطميين برقّادة والمهدية. ونقل ابن حماد[١]: ان ابن الجزار ــ أبا بكر ــ عالج المهدي عبيد الله في مرضه الذي مات به وسقاه دواء (حب السور نجان) لنقرس كان يشكوه ــ سنة ٣٢٢هـ (٩٣٣م) ــ ونعلم من ناحية أخرى ان من كبار حرفاء أبـي بكر بن الجزار، الحاجب جعفر بن علي البغدادي، حاجب المهدي، ويظهر من كلام ابن أخيه أحمد أن لأبـي بكر هذا مؤلفات في الطب والنبات ولم نقف على أعيانها ولا على أسمائها لفقدانها.

وكانت وفاة أبـي بكر في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة، وقد جاوز السبعين من العمر.

٢ ــ إبراهيم بن أبـي خالد بن الجزّار، هو أخو أبـي بكر السالف ووالد الطبيب أحمد.

كان ممن تعلم الصناعة الطبية وزاول فنونها مع أخيه، وكان يباشر مهنة الكحالة في القيروان في آن واحد مع أخيه، ولا ندري من أخباره إلا ما ساقه ابن جلجل في ترجمة ولده أحمد حيث يقول: «هو طبيب ابن طبيب وعمّه أبو بكر طبيب» وفي يقيننا أن شهرة ابنه أحمد حولت أنظار الباحثين عن أخبار سلفه، وذلك لنبوغه النادر وبعد صيته وكثرة تصانيفه، وهو بلا ريب مفخرة الأُسرة.

أحمد بن الجزار

هو الدرّة الفريدة من القلادة وإحدى المفاخر الدائمة للعلوم للبلاد التونسية بل للعالم العربـي بأسره، ونعني به أحمد بن إبراهيم بن أبـي خالد بن الجزّار. ويكنى بأبـي جعفر، ثالث الأطباء من أُسرته الفاضلة. ولد بالقيروان على عهد الأمير إبراهيم الثاني من بني الأغلب، وأخذ عن عمه وأبيه. وصحب كبير أطباء القيروان في عصره إسحاق بن سليمان الاسرائيلي واستفاد من تعليمه كثيراً كما يذكره في مصنفاته، وبرع أحمد في غير ما علم لاسيما في الطب والطبيعة والفلسفة والتاريخ، وكان في زمن دراسته على غاية من الاجتهاد في البحث وحبّ الاطلاع والمواظبة. قال الطبيب ابن جلجل:

«كان ابن الجزار من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم. حسن الفهم لها».

ولما آنس من نفسه حصوله على الملكة الكافية والتدربة المطلوبة فتح باب داره لمعالجة المرضى، وربما كان ذلك بإشارة من أبيه وبالإجازة من معلّميه.

يستفاد مما حكاه ابن جلجل وغيره انه كان قد بنى عند باب داره محلاً مستقلاً لعيادة الزائرين، واتخذ فيه قسماً خاصاً للصيدلة أقعد فيه غلاماً له يسمّى «رشيقاً» أعد بين يديه جميع الأدوية من معجونات وأشربة ومَرَاهِم وغير ذلك من المستحضرات، فإذا زاره المريض يفحصه ملياً ثم يصف له ما يناسب من الأدوية ويكتب ذلك في ورقة يتحوّل بها المريض إلى «رشيق» فيعطيه الدواء المشار به ويقبض الثمن، وكان أحمد يتفقد في كل يوم قوارير الأدوية ويرى ما نقص منها ويخرج من داره إلى تابعه رشيق مقدار الأدوية الناقصة، ويحاسب غلامه على ما قبض من ثمن الأدوية المباعة، نزاهة بنفسه أن يأخذ من أحد شيئاً.

قال ياقوت: «وكان له معروف كثير. وأدوية يفرّقها على الفقراء» يعني يوزّعها على المعوزين بغير ثمن إحتساباً لله.

وحكى ابن جلجل: «حدثني عنه من أثق به قال: كنت عند ابن الجزار في دهليزه وقد غصّ بالناس إذ أقبل ابن أخي القاضي النعمان، وكان حدثاً جليلاً بأفريقية يستخلفه القاضي إذا منعه مانع عن الحكم، فلم يجد في الدهليز موضعاً يجلس فيه إلا مجلس أبـي جعفر فخرج أبو جعفر فقام له ابن أخي القاضي على قدم فما أقعده ولا أنزله، وأراه قارورة ماء كانت معه لابن عمه ولد القاضي النعمان، واستوفى جوابه عليها وهو واقف، ثم نهض وركب وما كدح ذلك في نفسه، وجعل يكرّر المجيء إليه بالماء في كل يوم حتى بُرِئَي العليل ــ ابن النعمان القاضي» ــ قال ابن جلجل: قال لي الذي حدثني: فكنت عنده ضحوة نهار إذ أقبل رسول النعمان القاضي بكتاب شكره فيه على ما تولىَّ من علاج ابنه ومعه منديل بكسوة هدية وثلاثمائة مثقال، فقرأ ابن الجزار كتابه وجاوبه شاكراً ولم يقبض المال ولا الكسوة. فقلت له: «يا أبا جعفر، رزق ساقه الله اليك، فقال لي: ــ والله، لا كان لرجال مَعَدّ (الخليفة الفاطمي) ــ قِبَلي نعمة».

اتفقت كلمة من ترجم لأحمد بن الجزار انه كان قد أخذ لنفسه مأخذاً عجيباً في سمته وهدْيه. وإنه لم يحفظ عنه مدة حياته زلة قط. ولا أخلد إلى لذّة. وكان يشهد الجنائز والأعراس ولا يأكل فيها، ولا يركب قط لأحد من رجال الدولة ولا إلى سلطانهم، إلاّ إلى أبـي طالب أحمد بن عبد الله المهدي، عم الخليفة المعز، وكان له صديقاً قديماً، فكان يركب إليه يوم الجمعة من كل أسبوع لا غير. وزاد ياقوت «إنه لم يكن يقصد أحداً إلى بيته» لعلو همته وصيانته.

ولربما يفهم من ذلك انه كان متكبِّراً ومعجباً بنفسه، بل الأمر الواقع انه كان على خلاف ذلك، وقد تقدم انه كان يشهد جنائز الفقراء ويحضر أعْراسهم. ومن عادته انه كان ينهض في كل عام إلى المرابطة فيذهب إلى

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) الشيخ محمد السمامي.
(٣) ابن حماد: كتاب أخبار بني عبيد وسيرتهم، ط، الجزائر سنة ١٣٤٦ ص١٥.

المنستير ــ وهو الرباط المشهور البركة ــ فيكون هناك طول أيام القيْظ، ثم يعود منه إلى القيروان على ما جرت به عادة العلماء الزهاد المتواضعين. وبالجملة لو أردنا استقصاء أخبار أحمد بن الجزار من الشيء القليل الذي وصل إلينا لطال بنا الكلام ويكفي للدلالة ما نقلنا من كلام المتقدمين فيه وما وصفوه به من الصفات النادرة كقول ياقوت: «كان أحمد طبيباً حاذقاً دارساً، كتبه جامعة لمؤلفات الأوائل، حسن الفهم لها، وكان مع حسن المذهب صائناً لنفسه».

ورأيت عبارة أوردها المالكي عَرَضاً في كتابه. «رياض النفوس» تشير إلى أن ابن الجزار ربما كان يميل إلى شيء من التشيّع. حيث قال: «كان ابن الجزار الطبيب على خلاف السنة»[١] وربما كان مَيْله هذا لآراء الشيعة هو السبب الذي حمل أصحاب الطبقات من الأفارقة المالكيين على التغافل عن إيراد ترجمته في مصنفاتهم، لأنا لم نر من بينهم من تكلم عليه لا بالكثير ولا بالقليل. وأول من أطال في التعريف به هو الطبيب الأندلسي سليمان بن حسّان المعروف بابن جلجل، فجلّ أخباره منقولة عنه مع العلم بأن ابن جلجل قَرَأ الطب على بعض تلاميذ ابن الجزار.

ومهما يكن من اهمال أصحاب الطبقات لترجمته فإن الأطباء التونسيين لم يرتابوا في تقدير علم ابن الجزار الواسع وتعظيم قدره، وبالأخر الانتفاع بفوائده الغزيرة. فقد قال الطبيب أحمد الخميري ــ من الأطباء التونسيين في القرن العاشر للهجرة ــ في «تحفة القادم» من تأليفه: «إن غالب المصنفات الكبيرة التي تنظر في علم الطب، مصنّفوها من غير هذا الاقليم الافريقي، كابن سينا والرازي والمجوسي وغيرهم، والمناسب النظر في هذا الاقليم في تصانيف ابن الجزار لأنه أفريقي، أما سائر كتب الطب فلا ينبغي لغير الطبيب الماهر المداواة بنصّها على ما هي عليه إلاّ بعد مراعاة قدر اختلاف الطبائع واعتبار الأقطار وتأثير الأدوية في قطر دون قطر، بحسب اختلاف عروض الأقاليم والعادات.. إلخ».

ولا مشاحّة أن تآليف ابن الجزار نالت شهرة بعيدة المدى حتى في مدة حياته. فهذا كُشَاجم الشاعر المشهور ــ ولم يدخل القطر الأفريقي ــ يقول في مدح أبـي جعفر أحمد ويصف كتابه «زاد المسافر».

أبا جعفر أبقيتَ حيّاً وميّتاً ... مفاخر في ظهر الزمان عِظاما

رأيتُ على «زاد المسافر» عندنا ... من الناظرين العارفين زحاما

فأيقنتُ أن لو كان حيّاً لوقته ... يُحَنّا لما سمّى التمام تماما[٢]

سأحمد أفعالاً لأحمد لم تزل ... مواقعها عند الكرام كراما

والواقع ان من يستعرض ما صنّفه ابن الجزار من الكتب في غير المادة الطبية ومن أبحاثه في التاريخ والفلسفة والأدب، يتبيّن ما كان لهذا الفذ النابغ من الثقافة الواسعة الأفق ومن قوة العارضة مما يجعله مفخرة من مفاخر عصره، ويكفيه مزية عن أبناء العربية أن مؤلفاته الطبية ــ لاسيما زاد المسافر ــ حازت من العناية بها في القارة الأروبية ما جعلها تُترجم إلى سائر اللغات العلمية المنتشرة فيها حينئذ، وتُتّخذ أصلاً متيناً للبحوث من لدن أطباء الافرنج في القرون الوسطى. فقد ترجمت إلى اليونانية واللاتينية والعبرية. وأخيراً إلى الفرنسية. كما ستراه عند ذكر مصنفاته.

ولا ننس أن ابن الجزار لم يفارق بلاده قط فيما علمنا ولم يتعلم في غير وطنه، والأمر الوحيد الذي نقل في ترجمته انه كان هَمّ في وقت ما بالرحلة إلى الأندلس. ولم ينفّذ ذلك.

وعاش ابن الجزار موقّراً محترماً في البيئة التي قضى فيها حياته الطويلة وقد بلغ من العمر الثمانين وربما جاوزها. ومات عُتيّاً بالقيروان سنة ٣٦٩هـ (٩٨٠م) على ما رواه المحقق ابن العذاري نقلاً عن الرقيق فيما أظن.

وقد حصل اضطراب كبير بين من عَرّفوا به في تعيين تاريخ وفاته. فقد قال ياقوت انه «كان في أيام المعز لدين الله في حدود سنة ٣٥٠هـ أو ما قاربها» وقال الحاجي خليفة في كشف الظنون وكررها مراراً «المتوفى بعد سنة ٤٠٠» وهذا لا يصح أصلاً. وآخر من ذكر ذلك المستعرب بروكلمان وجعل موته في سنة ٣٩٥ هـ نقلاً لا محالة عن غيره. والصواب ما اثبتنا آنفاً.

وترك أحمد ثروة لا يستهان بها. قال ابن أبـي أُصيبعة: «وجد له أربعة وعشرون ألف دينار ذهباً. وعشرون قنطاراً من الكتب بين طبيّة وغيرها».

ومن أشهر الأطباء الذين تلقّوا العلم والعمل عن ابن الجزار (أبو حفص عمر بن بريق الأندلسي) فإنه قدم إلى القيروان ولازمه مدّة، وأخذ عنه الصناعة وروى عنه تآليفه ثم عاد بعد ذلك إلى الأندلس، وخدم بالطب الأمراء الأمويين خصوصاً عبد الرحمن الناصر الذي استخلصه لنفسه. وابن بريق هذا هو الذي ادخل كتب استاذه إلى جزيرة الأندلس فتلقاها عنه جماعة من الأخصائيين بالصناعة الطبية ما بين مسلمين ويهود ونصارى ــ منهم سليمان بن جلجل المتقدم ــ فراجت كتبه بينهم ايما رواج وتُرْجمت إلى لغاتهم كما يأتي بيانه.

ولاحمد بن الجزار مصنفات كثيرة في شتى العلوم والمواضيع وأهمها الطب، وهنا نذكر منها ما وصل إلينا خبره، آملين أن تتاح لنا أو لغيرنا الفرصة للوقوف على ما لم يذكر منها ليعرّفوا بها.

في الطب

١ ــ «زاد المسافر. وقوت الحاضر» في علاج الأمراض، مجلدان وهو من أهمّ الكتب الطبية العَمَلية التي وضعها المسلمون، والمظنون أن المؤلف أهداه إلى صديقه الأمير أبـي طالب أحمد بن عبد الله المهدي كما يفهم من مقدمته الرائعة، ويوجد منه نُسخ عديدة في المكتبات العمومية والخصوصية بأروبا وبالمشرق، منها في مكتبة الشعب بباريس وفي الجزائر ودرسدن بالمانيا وفي البدلية في أكسفورد، وفي رنبور بالهند ومكتبة هافانا بهولاندا وغير ذلك.

وقد اتجهت عناية الباحثين إليه من زمان قديم. وتقدمت الإشارة إلى ما مدحه به كشاجم الشاعر. وأول من عرّفه إلى العالم العربـي هو الحكيم قسطنطين المشهور بالأفريقي الآتي ذكره، فقد عمد إلى هذا الكتاب حينما كان يرأس كلّية (سالِرنو) في جنوب ايطاليا وترجمه إلى اللاتينية في أواسط القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) بعنوان (peregrinantis Viaticum) وهي ترجمة كلمة «زاد المسافر» بالحَرْف لكنّه نسب الأصل إلى نفسه، كما تُرجم إلى اللغة اليونانية باسم (Ephodes) ويوجد من الترجمتين نُسَخٌ عديدة بمكتبات أروبا. منها في باريس، وفي المتحف البريطاني، وفيورنسا بايطاليا. وأقدم هذه النُسخ هي المحفوظة بمكتبة الفاتيكان في رومة وتاريخها أراخر القرن العاشر للميلاد يعني بعد وفاة ابن الجزار بقليل.

ونقل زاد المسافر إلى اللغة العِبْريّة طبيب مشهور من يهود الأندلس

---

(١) هذا القول من المالكي لا يدل على أن المترجم له ربما كان يميل إلى شيء من التشيع، بل يدل على انه كان من التشيع في الصميم. وعراقته في التشيع هي التي حملت أصحاب الطبقات من الأفارقة المالكيين على تجاهله وعدم ذكره (ح).

(٢) يشير إلى الطبيب البغدادي الطائر الصيت: يحنا بن ماسويه.

يعرف بموسى بن طَيِّبون. بعنوان (تزداد دراشم). ويوجد من هذا النقل أربع أو خمس نُسخ بايطاليا وإنكليترا.

ونشر الحكيم شارل دارنبير (Daremberg) الفرنساوي في خلال عام ١٨٥١ بحثاً طويلاً عن زاد المسافر تحت عنوان:

Recherches sur une ouvrage qui a pour titre: zad al mouçafir en arabe —— Ephodes, en grec —— Viaticum, en latin — et qui est attribué dans le texte arabe et grec a Abou Gafar et dans le texte latin a Constantin(1)

وكتب بعده المستعرب الفرنساوي كوستاف دوقا (Gustave Dugat) مقالة ضافية في المجلة الأسيوية في عام ١٨٥٣ بحث فيها عن زاد المسافر وحلّل فصوله وابان فوائده وأهميته، وترجم منه إلى الفرنسية مقالتين وهما المتعلقتان بالعشق وبداء الكَلَب(٢).

ثم جاء الحكيم التونسي أحمد الشريف وبعد أن عرّف بابن الجزار ترجم إلى الفرنسية أيضاً من زاد المسافر ثلاث مقالات: في أسباب سقوط الشعر، وفي الاغماء وعلاجه، وفي دود المصران، نشرها في أطروحته في تاريخ الطب العربي بالقطر التونسي(٣).

٢ ــ «العُدّة، لطول المدّة» ــ قال ابن أبي اصيبعة «هو أكبر كتاب وجدناه له في الطب» ولا نعرف عنه شيئاً.

٣ ــ «الاعتماد» ــ في الأدوية المفردة، ذكر فيه الأدوية المفردة التي عليها اعتماد الأطباء في معالجة الأمراض، يشتمل على أربع مقالات وقد ألفه لصاحبه الأمير أبي طالب بن عبد الله المهدي، وهذه النسخة مؤرخة بسنة ٥٣٩هـ. وعدد أوراقها ١٤٠، ومنه نسخة موجودة بالجزائر وفي أياصوفيا وفي المتحف البريطاني. وكان الطبيب الأندلسي المشهور عبد الرحمن بن إسحاق ابن الهيثم انتقد هذا الكتاب في بعض فصوله وسمّى اعتراضه: «الاقتصار والإيجاد، في خطأ ابن الجزار في الاعتماد» وليس لهذا الرّد وجود اليوم. وقديماً تُرجم كتاب «الاعتماد» إلى اللغة اللاتينية نقله إليها قسيس اسباني هو (اسطيفان السَرَقُسْطِي) في سنة ١٣٣٣م (٧٣٤هـ) وسمّى الكتاب(Pantegni) والمؤلف (ابن زيزار) وعرّبه إلى (Filius Carnificis) وهذه الترجمة توجد مخطوطة في مكتبة ميونيخ بالمانيا. وكتاب «الاعتماد» نُقِلَ أيضاً إلى اللغة العبرية بقلم الطبيب موسى بن طيبون المتقدم.

٤ ــ كتاب «البغية» ــ في الأدوية المركبة. لا نعلم عنه شيئا.

٥ ــ «نصائح الأبرار» ــ وقد رأيت النقل عنه في كثير من كتب الطب، من ذلك في رسالة «طب المشائخ» الآتي.

٦ ــ «قُوت المقيم» ــ وهو غير زاد المسافر وقوت الحاضر المتقدم ذكره. وقال ابن أبي أصيبعة: «حكى الصاحب جمال الدين بن القِفطي انه رأى له بقفط ــ في مصر ــ كتاباً كبيراً في الطب اسمه «قوت المقيم» وكان عشرين مجلداً».

٧ ــ «المعدة وأمراضها ومداواتها» ــ جزء ذكره ابن الجزار في كتابه «طب المشائخ» الآتي ونقل عنه.

٨ ــ «أصول الطب» ــ ذكره المؤلف في كتابه «طب المشائخ».

٩ ــ «مُجرّبات» في الطب ــ جزء.

١٠ ــ «المختبرات» ــ جزء. وهو غير المتقدم قبله.

١١ ــ «البُلْغَة» ــ في حفظ الصحة ــ جزء.

١٢ ــ «الفرق بين العِلَل التي تشتبه أسبابها وتختلف اعراضها» ــ جزء.

١٣ ــ «أبدال الأدوية» ــ رسالة. موجودة بمجموعة طبية في خزانة السيد أحمد خيري في البحيرة بمصر. وهو يأتي عقب «طب المشائخ» ومنه نسخة مصورة في مكتبتي.

١٤ ــ «التحذّر من إخراج الدم من غير حاجة دعت إلى إخراجه» ــ رسالة.

١٥ ــ «طب الفقراء والمساكين» وهو غريب في بابه، موجود في مكتبة غوطة، والأسكوريال وقديماً في خزانة السيد عبد الحي الكتاني بفاس. وقد ترجم إلى العبرية قديماً.

١٦ ــ «النّصح» ذكره ــ في «طب المشائخ» وقال إنه جمع فيه أدوية الملوك والخواصّ.

١٧ ــ «طب المشائخ» ــ رسالة تخرج في عشرين ورقة عالج فيها الحالات التي تعتري المسنّين والمعمّرين وما يجب عليهم اتباعه للمحافظة على العافية واستدامة صحتهم، وهو الفن المعروف اليوم عند الافرنج باسم(Gèronthologie) وهذه الرسالة لم يرد ذكرها في قائمة مصنفاته التي جلبها ابن أبي أصيبعة. ويوجد أصلها في مجموع طبّي مخطوط محفوظ في مكتبة أحمد خيري من أعيان البحيرة في مصر. وقد أتيح لي استنساخها وجلبها إلى تونس. وعساها تنشر مع ترجمتها والتعليق عليها.

١٨ ــ «سياسة الصبيان وتدبيرهم» ــ موجود في مكتبة نيانة بالبندقية بايطاليا وفي الأسكوريال. ومنه نسخة مصورّة بمكتبتي.

١٩ ــ «الخواصّ» ــ وقد ترجم قديماً إلى العبرية.

٢٠ ــ «الزكام» ــ وأسبابه وعلاجه، رسالة.

٢١ ــ «الجُذام» ــ وأسبابه وعلاجه، مقالة.

٢٢ ــ «الوباء ونعت الأسباب المولدة له في مصر، وطريق الحيلة في دفع ذلك وعلاج ما يتخوّف منه» ــ جزء.

٢٣ ــ «المُقْعدة» وأوجاعها ــ رسالة.

٢٤ ــ «الحمّامات» ــ منافعها ومضارها ــ مقالة.

٢٥ ــ «أسباب الوفاة» ــ رسالة.

وله في التاريخ والجغرافية:

٢٦ ــ «التعريف بصحيح التاريخ» ــ قال ابن أبي أصيبعة: «يشتمل على وفيات علماء زمانه وقطعة جميلة من أخبارهم» وقال ياقوت: «رأيت كتابه «التعريف بصحيح التاريخ» في مجلدات تزيد على العشر» وقد ينقل عنه كثير من المؤرخين وأصحاب الطبقات كالقاضي عياض في «المدارك» وياقوت في حوادث سنة ٢٠٨هـ (معجم البلدان ج٢ ص ٦١ اسم طنبذة) وغيرهما ــ ولا أثر اليوم لهذا الكتاب.

٢٧ ــ «تاريخ الدولة» ــ وقيل «أخبار الدولة» يعني الدولة الفاطمية. وهو تاريخ حافل بسط فيه القول عن ظهور عبد الله المهدي بأفريقية وانتشار

(١) ظهر هذا البحث في مجموعة: Les Archives des Missions scientifiques Paris. 1851 — T. 11 P. 490

(٢) Journal Asiatique. Paris. 1853 P.289

(٣) Dr Ahmed Chérif —— Histoire de la Médecine Arabe en Tunisie Tunis 908 P.P.51 a70

دعوته بها وسقوط دولة بني الأغلب وما حصل من الأحداث في تلك المدة. وعنه ينقل المقريزي في كتابه «اتعاظ الحنفاء» وغيره من المؤرخين. والغالب على الظن أن قطعة منه محفوظة في مكتبة غوطا وهي التي ترجم منها المستعرب نيكلسون Nicholson بحثه المنشور في سنة ١٨٤٠ بعنوان:

An account of the establishment of the Fatimite dynasty in Africa

ولا يبعد أن يكون هذا الكتاب موجوداً كاملاً في بعض خزائن الإسماعيليين (البهرة) بالهند.

٢٨ ــ «مغازي أفريقية» ــ في أخبار فتح العرب لبلاد تونس، ولم نر من بين المؤرخين من ذكره سوى أبي عبيد البكري في «مسالكه» فقد قال فيه: وقال أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المتطبب القيرواني في «مغازي أفريقية» ولا شك أن البكري نقل عن إبراهيم الرقيق الذي استفاد من هذه المغازي ما أورد من أخبار الفتح في تاريخه الكبير لأفريقية[1].

٢٩ ــ «طبقات القضاة» ــ وكأنه مخصّص لتراجم العلماء الذين تداولوا على قضاء أفريقية إلى عصره. ينقل عنه القاضي عياض كثيراً في المدارك فيقول: قال ابن الجزار في كتابه «طبقات القضاة» ولم يرد في جملة مؤلفاته عند ابن أبي أصيبعة.

٣٠ ــ «عجائب البلدان» ــ وقيل «عجائب الأرض» وهو في تقويم البلدان ووصفها، ورد ذكره مراراً في الكتاب المعروف بجغرافية المأمون المنسوب إلى الفزاري، ونقل عنه فصلاً في وصف مدينة رومية، كما نقل ابن البيطار في مادة (زمرد) قال: «قال ابن الجزار في كتاب «عجائب البلدان» جبل الزمرد من جبال البّجاة موصول بالمُقَطَّم جبل مصر»[2]. وذكره في كشف الظنون باسمه المتقدم ولم يزد عليه، وقد أخبرت ممن أثق به انه يوجد منه نسخة في خزانة كتب الباشا المصلوحي قائد بني رزين من بلاد غُمارة في ناحية الريف من المغرب الأقصى.

وله في الأدب وغيره:

٣١ ــ «المُكَلَّل» ــ في الأدب والسياسة.

٣٢ ــ «الفصول» ــ في سائر العلوم والبلاغات.

٣٣ ــ كتاب «**الأحجار الكريمة**» ــ ومعادنها ومنافعها وخواصّها، ذكره مرات كثيرة التيفاشي القفصي الآتي في تصنيفه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار»، ومن جملة ما نقل عنه العبارة الآتية. قال أحمد بن خالد المعروف بابن الجزار في كتابه في الأحجار: «وعالجتُ أنا وصيفاً الخادم (الفاطمي) صاحب المظلّة من حصاة عظيمة كانت به وامتنع من الفتح عليها بالحديد. فلما فعلتُ به هذا الفعل (يعني إدخال مرود من فِضّة ألصق برأسه حجر الماس في مجرى البول) تشلّخت الحصاة حتى صغرت وسهل عليه خروج ما بقي منها مع البول» ونقل عنه أيضاً في الكلام على حجر المغنطيس وعلى الفيروزج وفي غير ما موضع من كتابه المتقدم ــ ولم نقف له على أثر.

٣٤ ــ «العطر» ذكره عرضاً في كتابه «طب المشائخ» ويظهر انه خصصّه لصناعة الروائح العطرية وطرائق تقطيرها من النباتات والعقاقير التي يستخرج منها.

٣٥ ــ «**النفس واختلاف الأوائل فيها**» رسالة.

(١) البكري ــ ص ٤٢ من الطبعة الثانية.

(٢) كتاب جامع المفردات لابن البيطار ٢: ١٦٧.

٣٦ ــ «النوم واليقظة» ــ رسالة. قال الحاجي خليفة: كتبها إلى ابن أبي فضالة المتوفى سنة ٣٦٠هـ وهو شخص لا نعرفه ويظهر انه كان من أصدقائه.

٣٧ ــ «الاستهانة بالموت» رسالة كتب بها أيضاً إلى بعض أحبابه.

ونختم هذه القائمة الطويلة بذكر مخطوط مجهول المؤلف موجود في المكتبة الظاهرية بدمشق عنوانه «طبائع العقاقير على مذهب ابن الجزار» ولا ندري ما اشتمل عليه.

وليس من شك ان لابن الجزار غير ما حصرنا من المصنفات. وان طبيبنا هذا محتاج لأن يوضع بحث مستقل في ترجمة حياته وتحليل مؤلفاته. وهو الأمر الذي نتمنى أن يقوم به بعض شبابنا التونسي المثقف.

ومما تقدم من احصاء مآثره المتنوعة الأغراض في مختلف العلوم والفنون يتضح لك أن ابن الجزار كان في المرتبة الأولى بين أعلام عصره من أصحاب الثقافة الواسعة المحيطة. وإنه كان في الضفّة الغربية للعالم العربي بمثابة الفارابي وابن سينا والبيروني في المشرق، فإنه درس مثلهم علم الأوائل ــ من اغريق وفرس وهنود وعرب ــ وهضم أقوالهم واستدرك عليها ما فاتهم وانتقدهم عند الحاجة، علاوة على ما استنبطته قريحته ودّلته عليه تجاربه، وساقته إليه اختباراته وفطنته الوقّادة. والله يؤتي الحكمة من يشاء.

أحمد الطبيب التنكابني بن الحسين بن أحمد:

ولد حدود ١٢٥٠ في تنكابن

وتوفي بعد سنة ١٢٩٧ نشأ في تنكابن وبعد أن تعلم القراءة والكتابة انصرف إلى تعلم الطب وبرع في ذلك له مؤلفات منها:

ترتيب فصول أبقراط في الطب[1].

احمد بن الحسين المتنبي.

مرت ترجمته في الصفحة ٥١٣ من المجلد الثاني، كما مرت دراسات عنه في المجلد الثاني من المستدركات. وننشر هنا بحثاً عن رسالة الحاتمي التي انتقد بها المتنبي، مكتوباً بقلم الدكتور عدنان قاسم:

اتجاه النقد في الرسالة الموضحة

لأبي علي محمد بن الحسن الحاتمي

لم تحظ رسالة الحاتمي بكبير اهتمام من النقاد العرب المحدثين على الرغم من أنها أسهمت إسهاماً جاداً في تنشيط الحركة النقدية في القرن الرابع الهجري وما بعده. كما أثارت معظم القضايا النقدية التي عني بها الباحثون آنذاك.

ولما كانت هذه الرسالة النقدية تشكل مع بعض المؤلفات النقدية الأخرى ــ كالموازنة للآمدي والوساطة للقاضي الجرجاني ــ الأسس الرئيسة التي يعتمد عليها الاتجاه الكلاسيكي المحافظ كان لا بد لنا أن نلقي مزيداً من الضوء تحليلاً وتفصيلاً حتى تتضح الرؤية النقدية التي ينطلق منها الحاتمي لتدعيم ذلك الاتجاه الذي كان يهيمن على النظرية الأدبية آنذاك، ويحتل فيها مكان الصدارة.

ولعل الذاتية المسرفة والأهواء المحمومة التي صدر عنها الحاتمي كانت من الأسباب التي أدت إلى عزوف الباحثين المحدثين عن العناية بهذا المؤلف. ولا نحتاج إلى كبير عناء للوقوف على تلك الذاتية الزاعقة بالهوى الشخصي. فالمؤلف يوفر علينا الجهد حين يستهل بحثه بتصويره المتنبي

(١) الشيخ محمد السماحي.

متكبراً متعالياً مزهوّاً بنفسه يقول: «التحف [المتنبي] رداء الكبر، وأذال ذيول التيه.. ونأى بجانبه استكباراً، وثَنى عطفه جَبَرِيّة وازوراراً، فكان لا يلاقي **أحداً إلاّ أعرض عنه تيهاً، وزخرف القولَ عليه تمويهاً يُخيّل عجباً إليه، أن الأدب مقصور عليه، وأن الشعر بحر لم يرد نميرَ مائه غيره،** وروض لم يَرَ نُوّاره سواه، فهو يجني جناه، ويقتطف قطوفه دون مَنْ يتعاطاه..»(١).

وقد أدّى ذلك التصور بالحاتمي إلى أن يحمل على المتنبي، بل إنه يفاخر حين يعلن تحديه له، فيقول «.. نهدتُ له متتبعاً عَوارَه، ومقلّماً أظفاره، ومُذيعاً أسراره، وناشراً مطاويه، ومنتقداً من نظمه ما تسمّح به..». بل لقد خرج الحاتمي عن النقد الأدبي بعامة حين عرض لثياب المتنبي وهيئته فقال: «.. ودخلت فأعظمت الجماعة قدري، وأجلستني في مجلسه، وإذا تحته أخلاق عباءة قد ألحت عليها الحوادث فهي رسوم داثرة وأسلاك متناثرة.. وحين لقيته تمثلت بقول الشاعر:

وفي المَمْشى إليك عليَّ عارٌ
ولكن الهَوَى مَنَع القرارا

وإذا به لابس سبعة أقبية كل قباء منها لون، وكنا في وَغْرةِ القيظ وجمرة الصيف، وفي يوم تكاد ودائع الهامات تسيل فيه..».

ويكشف الحاتمي ــ كذلك ــ عن ذلك الجو النفسي الذي دارت فيه تلك المبارزة التي نقد فيها شعر المتنبي وحكم على شاعريته بالسقوط، فقد صور ذلك بقوله «.. فجلست مستوفزاً وجلس متحفّزاً، وأعرض عني لاهياً وأعرضت عنه ساهياً. أؤنب نفسي في قصده، وأستخف رأيها في تكلف ملاقاته. فغبر هنيهة ثانياً عطفه لا يعيرني طرفه، وأقبل على تلك الزِّعنفة التي بين يديه، وكل يومىء إليه ويوحي بطرفه، ويشير إلى مكاني بيده، يوقظه من سِنةِ جهله، ويأبى إلاّ ازوراراً ونفاراً، وعُتُواً واستكباراً..»(٢).

وقد كان لهذه الذاتية المفرطة أثر كبير في الحركة النقدية في القرن الرابع وما بعده، وحاول النقاد ــ من معاصري الحاتمي ــ أن يكبحوا من جماح الهوى، ويضعوا القوانين الموضوعية التي تضمن عدم الانحراف. كما أنهم نبّهوا إلى خطورة العنصر الذاتي ــ إذا أسيء استغلاله ــ في تعويق الفكر النقدي، والوقوف في طريق نضجه واكتماله. وفي إطار ذلك دعا القاضي الجرجاني إلى الحكم العادل الذي لا يحيف عن الحق. يقول «.. ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لها عن الحق، أو تميل في نصرها عن القَصْد، فكذلك ليس من حُكْم مراعاة الأدب أن تعدِل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج في بابه إلى الأسراف، بل تتصرفّ كيف صَرَفك، وتقف على رسمه كيف وقفك..».

ويبين القاضي الأسباب التي تكمن وراء هده الدعوة إلى الإنصاف في الحكم النقدي؛ ويرجعها إلى موقف النقاد من المتنبي، ويذهب إلى أنهم انقسموا إزاء المتنبي فئتين: فمنهم من أطنب في تقريظه ومنهم مَنْ بالغ في الانتقاص منه، ثم يرى أن كلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه..»(٣).

(١) الرسالة الموضحة ٦.

الحاتمي (ت ٣٨٨هـ) كاتب شاعر ناقد، شهد له مؤرخو الأدب بوفرة الاطلاع، وغزارة العلم، نقل عنه عدد من النقاد منهم ابن رشيق (ت ٤٥٦) وابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦) وأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤) وقد ترك كثيراً من الكتب منها: حلية المحاضرة، المجاز، الموازنة، المعيار، عيون الكاتب وغير ذلك. كما ترك رسالتين في نقد الشعر هما: الرسالة الحاتمية والموضحة وهي موضوع بحثنا..

(٢) الرسالة الموضحة ١٠.

(٣) أنظر الوساطة ٣.

وكان لموقف الحاتمي من المتنبي أثر كبير على النقاد بعده، «فكان كثير مما استخرجوه من الأبيات المستهجنة لدى المتنبي هو ما استخرجه الحاتمي.. وستكون حجج المؤيدين له منتزعة من الحجج التي وضعها الحاتمي على لسانه، كما أن شواهد خصومه هي الشواهد التي استخرجها الحاتمي من شعره..»(١).

الحاتمي ناقد كلاسيكي محافظ

احتدم الصراع الأدبي حول شاعرين كبيرين في العصر العباسي كانا نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحركة الشعرية والنظرية الأدبية عند العرب هما أبو تمام والمتنبي، لأنهما حوّلا مسيرة الشعر العربي وواجها ذلك التيار القوي الذي كان يسيطر على الذوق الأدبي منذ أن عرف الشعر عند العرب(٢).

ولعل أبا تمام كان أشدهما خطراً لأنه سابق زمنياً وكان من أوائل الشعراء الذين خرجوا على الأصول الفنية الكلاسيكية للشعر. ولكنه كان أولهم تعميقاً لذلك الاتجاه وإبرازاً له، بل وجعله مذهباً أدبياً عمل على ترسيخ أصوله. وقد عرف فيما بعد بالمذهب البديعي. وهو مذهب تجديدي. سار في ركابه جمع من الشعراء وسانده بعض النقاد، وإن كانوا قلة. وقد أدت نشأة المذهب البديعي إلى خلق بعض الظواهر النقدية التي لم تكن معروفة قبل ذلك من أهمها: القدم والحداثة وما يتصل بها من تفسير لعملية الخلق الفني، منها ما يتعلق بالتقليد الذي يرتكز على ملء القوالب المعدة سلفاً التي ابتدعها الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي أو التفرد الذي يخلو من كل تقليد واتباع يلجأ فيه الشاعر إلى ذاته ومكوناتها وطبعه المفطور. كما وجدت ظاهرة نقدية أخرى نقلت الصراع بين هذين الاتجاهين المتقابلين إلى دائرة أخرى، دائرة القوى المتحررة من أسر المنطق، وما يفرضه من علاقات والقوى التي تعمل على استبداله بقوانين لا تخضع إلا للمنطق الخاص بالقلب الذي يحطم كل القوانين الخارجية ويتمرد عليها تمرّداً محموماً.

وكان الخيال محور ذلك الصراع، فالخيال الكلاسيكي خيال مصنوع حدوده ما يتقبله العقل وما تقع عليه الحواس أو امكانية وقوعها عليه. أما الخيال المحدث فهو الذي يفضي إلى خلق لون جديد من العلاقات المبتدعة التي تعلو فوق الواقع، بل وتشتط في كثير من الأحايين، فتفلت من قبضة العقل، وتخرج من حدود مملكته.

وإذا كان قد وجد كثير من النقاد الذين يساندون الاتجاه الكلاسيكي ــ المتمثل في عمود الشعر وما ينضوي تحته من أصول فنية ــ فإن ناقداً واحداً فقط وقف إلى جانب الاتجاه المتحرر من أسر العمود هو عبد القاهر الجرجاني (٣).

ويقف الحاتمي ــ في مؤلفه الذي بين أيدينا ــ إلى جانب النقد الكلاسيكي في مواجهة الاتجاه البديعي المحدث، ينتصر لعمود الشعر، يتخذ أصوله الفنية قاعدته الصلبة في تقييم الأعمال الشعرية التي يعرض لها. واستحق بذلك أن يوضع إلى جانب الآمدي والقاضي الجرجاني كأساطين للاتجاه الكلاسيكي في النقد العربي القديم.

ومقاييس الجودة ــ عند الحاتمي ــ هي بعينها في عمود الشعر كما سجله القاضي الجرجاني، الذي عاصره في معظم سني عمره. يقول «.. وحدود الشعر أربعة: وهي اللفظ والمعنى والوزن والتقفية. ويجب أن تكون

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٢٧٠.

(٢) عرف الشعر عند العرب قبل أمرىء القيس بمائتي سنة تقريباً.

(٣) أنظر «دلائل الاعجاز» و «أسرار البلاغة» للمؤلف.

ألفاظه عذبة مصطحبة ومعانيه لطيفة واستعاراته واقعة، وتشبيهاته سليمة. وأن يكـون سهل العـروض رشيق الوزن متخيّر القـافيـة، رائـع الابتـداء بـديـع الانتهاء»[١].

وفي إطار هذه المقـاييس التي وضعها الحـاتمي لجودة الشعـر، فقد عاب الألفاظ الجافية عند المتنبي في قوله:

أيفطمه التَّوْرابُ قبلَ فِطامِه
ويأكلُهُ قبلَ البُلوغ إلى الأكل

ثم يذهب إلى أن لفظة التوارب على سلامة مصدرها جافية جداً» [٢].

وعلى ذلك فإنه يرى أن صحة اللفظ من حيث وضعه اللغوي لا يكفي لاستساغة استعماله وتذوقه. وهذا تحرك مرن في دائرة الاتجاه الكلاسيكي، لأن جفاء اللفظ لا يعني عدم صلاحيته، بل قد يكون أكثر ملاءمة للمقام أو الموقف العاطفي أو الفكري الذي تعبر عنه تلك الألفاظ. وقد ورد في القرآن الكريم كثير من الألفاظ الخشنة التي يتعذر إستبدالها بغيرها لعميق إرتباطها بالسياق ككلمة (ضيزى) في قوله تعالى: «.. قسمة ضيزى» أي جائرة، وفي تلك الخشونة ما يتلاءم وطبيعة الجور.

والشيء اللافت للنظر عند نقادنا العرب القدامى هو سلخ اللغة وغيرها من العناصر الأصلية في البناء الأدبي عند التجربة الأدبية، ثم تقويمها والنظر إليها منفصلة عن سياقها، لأن النظرة هي التي تتحكم في ذلك التقويم وتوجهه. فالعمل الأدبي عمل فني متكامل لا يمكن تقويم أي جزء فيه بدون النظر إلى الأجزاء الأخرى.

والنقد اللغوي يبرز في نقد الكلاسيكيين بكثرة وهو متوافر في مواجهة الحاتمي للمتنبي. ولست أعترض على ذلك النمط النقدي ولكني أرى أنه يظل جزئياً يدور في فلك النقد الفني بعامة. فكل لغة من اللغات لها قوانينها وقواعدها التي يمكن عن طريقها فهم العلاقات بين الكلمات، بل العلاقات بين الجمل المختلفة في التراكيب اللغوية، وينتج عن تجاوزها وإهمالها غموض اللغة وانحلالها، بل قد يؤدي ذلك إلى ذوبان كثير من خصائصها الجوهرية، ولكن هذه الأهمية التي نوليها للغة وتراكيبها لا يعني أن نقف متسمرين عند القوالب اللغوية الجامدة الجافة وأن نستهلك كل ما لدينا من إمكانيات في تتبع هفوات الأدباء، والوقوف عند تلك الوظيفة الفرعية كما يفعل النقاد الكلاسيكيون.

والحاتمي واحد من أولئك النقاد القدامى الذين عنوا بالنقد اللغوي عناية بالغة. وفي رسالته الموضحة وقف عند حد تتبع سقطات المتنبي ولم يضع أيدينا على تلك المواطن التي أجاد في اختيار ألفاظها حتى نتمكن من اكتشاف الخصائص التي بتوفرها تتحقق الجودة. فقد عاب الحاتمي استعمال المتنبي لكثير من الألفاظ منها كلمة (كَلْوذا) في قوله:

طَلَبَ الإمارةَ في الثغورِ ونشؤه
ما بين كَرْخايا إلى كَلْوذا

ثم خاطب المتنبي قائلاً «من أين لك هذه اللغة في (كلو ذا)؟ ما أحسبك أخذتها إلّا عن الملاحين. وإنّك أخطأت فيها خطأً تعثرت فيه ضالاً عن وجه الصواب، لأن الصواب كِلْواذ بكسر الكاف وإسكان اللام وإسقاط الياء. قال: وما الكلواذ؟ قلت: تابوت التوراة بها سُمّيت المدينة، والدليل على ذلك قول الراجز:

(١) الرسالة الموضحة ٢٥.
(٢) المصدر السابق ٣١.

كأنّ أصواتَ الغبيط الشّاذي
زَبْرُ مهاريقٍ على كِلْواذِ

والكِلْواذ: تابوت توراة موسى.

والحقيقة أن العودة إلى التراث للاحتكام إليه والاستناد عليه من سمات التفكير الكلاسيكي المحافظ الذي ينتمي إليه الحاتمي، فالاقتراب أو الابتعاد عن النماذج الفنية والأصول الأدبية التي تمّ التواضع عليها هما جوهر الحكم.

وثمة مثال آخر يدعم ما ذهبنا إليه. فقد خطّأ الحاتمي المتنبي في قوله:

وَصَلَتْ إليك يَدٌ سواءٌ عندها الـ
بازيُّ الأشهبُ والغرابُ الأبقعُ

ثم وجه إليه الخطاب «فإنك شدّدت الياء في (البازيّ) تشديداً لا وجه له، ووصلت ألف القطع في الأشهب. ولا أعلم أحداً من الفصحاء شدّد الياء في البازي إلّا البحتري، وعليه اعتمدت، وعلى لفظ بيته ركنت في قوله:

وبياض البازيِّ أحسنُ لَوْناً
إن تأمَّلْتَ مِنْ سوادِ الغُرابِ

وقد رُدَّ هذا على البحتري وخطّىء في تشديده الياء[١].

وعلى الرغم من أن البحتري من الشعراء الذين يُعتد بأشعارهم ويستشهد بها لأنه يمثل العموديين فقد خطأه النقاد لخروجه عن القواعد الثابتة للغة العربية.

وقد أدى ذلك الموقف النقدي المتحجر ــ الذي يتصدى للتطور مهما كان طابعه ــ إلى توقف النمو والإزدهار للغة ومفرداتها.

ولم يكن خط موسيقى الشعر وقوافيه أكثر وفرة، لأن ما ورد عن العرب كان النموذج الأرقى والمثال المحتذى، فالقافية ــ مثلاً ــ لها أهمية كبيرة ــ عنده ــ كما كان لها ذلك القدر عند العرب القدامى. وفي تطبيقه للمقاييس التي وضعها لجودة الشعر أخذ على المتنبي تكلف القافية في قوله:

وأظُنّهُ حَسَبَ الأسِنَّةَ حُلْوَةً
أو ظَنّها البَرْنِيَّ والأزاذا

ورأى أن كلمة (الأزاذا) قافية قلقة مجتذبة مجتلبة معلولة غير مقبولة. ثم قال «وسبيل الشاعر أن يعنى بتهذيب القافية فإنها مركز البيت حمداً كان ذلك الشعر أو ذمّاً، وتشبيباً كان أو نسيباً، ووصفاً كان أو تشبيهاً. وأن يتأمل الغرض الذي يرميه فكره، فينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمراراً، ومع أي القوافي يكون أشد إطراداً، فيكسوه أشرف معارضه، ويبرزه في أسلم عباراته، ويعتمد إقرار المعاني مقارّها، وإيقاعها مواقعها، وقد حكي عن الحطيئة أنّه قال: نقحوا القوافي فإنها حوافر الشعر. ويرى أنه شتان بين قول المتنبي (الأفخاذا) في البيت:

فغدا أسيراً قد بللت ثِيابَهُ بدَمٍ وَبَلّ بَبَوْلِهِ الأفخاذا

وبين قول الحطيئة:

همُ القومُ الذين إذا ألَمَّتْ من الأيّامِ مُظْلِمَةٌ أضاءوا

فلقوله «أضاءوا» موقع لطيف وذلك أنّها لفظة لا يستطاع تبديلها بغيرها

(١) الرسالة الموضحة ٥٧.

ولا تغييرها بما يسدّ مسدَّها. . »[١].

وقد كان لهذا التفكير النقدي تأثير كبير على النقاد بعد الحاتمي كابن رشيق في موقفه من أهمية دور القافية، كما تأثر الكلاسيكيون الجدد تأثراً كبيراً وكان على رأسهم مصطفى صادق الرافعي[٢]. واستمر الأثر واضحاً عند كل المدارس النقدية الحديثة في معظم الأقطار العربية.

الاستعارة عند الحاتمي

لم تختلف نظرة الحاتمي ــ في الرسالة الموضحة ــ عن نظرة كلّ من القاضي الجرجاني والرماني وأبي هلال العسكري لمفهوم الاستعارة من حيث كونها «نقل كلمة من شيء قد جُعِلت له، إلى شيء لم تجعل له. . »[٣]. وهو من المؤسسين لفكرة النقل التي حاربها عبد القاهر الجرجاني فيما بعد[٤].

وقسم الحاتمي الاستعارة إلى ثلاثة أضرب:

أولها: الاستعارة المستحسنة وهي التي موقعها في البيان فوق موقع الحقيقة كقوله تعالى «إنا لما طغى الماء» [الحاقة ١١] فحقيقة طغى علا. فلما قال تعالى طغى جعله علواً مفرطاً، فصار لهذه الاستعارة حظ في البيان لم يكن للحقيقة.ومن الاستعارة المستحسنة قول الشاعر:

وردْنَ لتغوير وقد وَقَدَ الحصى
وذاب لُعابُ الشمس فوق الجماجم

فاستعار للحَصَى وَقْدةً، إخبَاراً عن توقّد الهاجرة. واستعار للشمس اللّعَاب اخباراً عن شدة الحر.

وعلى الرغم من أن الاستعارة في الآية تصريحية وفي بيت الشعر مكنية فهو لم يفرق بينهما، ووصفهما على حد سواء من حيث مبالغتهما في المعنى الحقيقي، ولم يتنبه ــ كما فعل عبد القاهر بعده ــ إلى ما تمتاز به الاستعارة المكنية من حيث قدرتها على التشخيص والتجسيم، إلى جانب قدرتها ــ كأداة فنية ــ على خلق لون من الترابط والتجانس بين الأشياء التي يستطيع الأديب أن يكشفها بين الأشياء غير المتجانسة.

ثانيها: وهو الاستعارة المستهجنة؛ ويرى أنها استهجنت لأنهم إستعاروا لما يعقل اسماء وألفاظ ما لا يعقل كقول الشاعر[٥]:

فما بَرِح الوِلدانُ حتى رأيته
على البَكر يمريه بساقٍ وحافر

ويعقب بقوله «وهذا الشاعر إنما وصف رجلاً أُضيف وأكرم فقال: ما برح الإماء والولدان يكرمنه حتى رأيته قد ركب راحلته وانصرف شاكراً عنهم فالمعنى في نهاية الحسن، إلا إنه قال في آخر البيت يَمْريه بساقٍ وحافرٍ» فقبح لما استعار للرجل موضع قدمه حافراً.

وثمة حقيقتان تجدر الإشارة إليهما هنا أولاهما: أن النقاد لم يستهجنوا

(١) الرسالة الموضحة ٤٣.
(٢) أنظر وحي القلم، الجزء الثالث.
(٣) الرسالة الموضحة ٦٩ ــ يقول القاضي الجرجاني «وإنما الاستعارة ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها». [الوساطة ٤١]. ويقول الرماني «إنها تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة إلى غيره». [النكت في إعجاز القرآن ٧٩] ويقول أبو هلال «الاستعارة نقل العبارة من موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره». [كتاب الصناعيين ٢٧٤].
(٤) أنظر أسرار البلاغة ٣٩٠ وما بعدها.
(٥) نسب الحاتمي هذا البيت خطأ إلى الحطيئة علماً بأن جل الكتب النقدية القديمة اثبتته للمزرّد.

هذا النوع للأسباب التي ذكرها الحاتمي وهي استعارة ما لا يعقل لما يعقل بل ان العوامل الكامنة وراء الاستقباح ترجع بدرجة كبيرة إلى إنعدام الغرض الفني من ذلك النقل. أما الحقيقة الأخرى أن عبد القاهر تنبه إلى فساد ذوق الحاتمي واستدرك عليه خطأه حين أقرّ أن آخر البيت «يمريه بساقٍ وحافر» ليس قبيحاً وإنما جاء مشوباً بالأحاسيس ثم قال «فليس بالبعيد أن يكون فيه شوب مما مضى [وصفه بسوء الحال]، وأن يكون الذي أفضى به إلى ذكر «الحافر» قصده أن يصفه بسوء الحال في مسيره، وتقاذف نواحي الأرض به، وأن يبالغ في ذكره بشدة الحرص على تحريك بكره، واستفراغ مجهوده في نفسه. . »[١].

أما الضرب الثالث من الاستعارة أحسن من الثاني لأنهم استعاروا لما لا يعقل اسماً لما يعقل كقول الراجز:

وهاطِلِ الجَرْيِ أتيِّ مَقْدَمُهْ
ما لَثَمَتْ كَفُّ الصّعيدِ قدمُهْ

فجعل له مكان حافره قدماً»[٢].

وقد تأثر عبد القاهر الجرجاني ــ في تقسيمه الاستعارة إلى قسمين: مفيدة وغير مفيدة وما يشتبه فيه الطرفان ــ بالحاتمي في تقسيمه الاستعارة إلى مستحسنة ومستهجنة وما يقف بينهما، بل إنه استشهد بالأمثلة ذاتها التي أوردها الحاتمي[٣]. ولكن عبد القاهر لم يقف عند الحد الذي وقف عنده، بل طورّ ذلك تطويراً جعل البلاغة تقفز قفزات رائعة في ميدان الفن الأدبي.

ولعل الفارق بين عبد القاهر ــ كممثل لاتجاه ثائر ــ وبين الحاتمي كناقد كلاسيكي محافظ يتضح في موقفيهما من حدود الخيال الذي تتحرك في عالمه الصورة الاستعارية، فعبد القاهر ــ على الرغم من اعتماده على العقل في توليد الصورة الأدبية ــ لكنه لم يحكمه في قوانينها، بل جعل القلب مصدر الحكم عليها. أما الحاتمي فإن حدود الخيال تقف عند الحدود التي يقبلها العقل. وهو الموقف ذاته الذي استمسك به الكلاسيكيون من معاصريه وعلى رأسهم الأمدي والقاضي الجرجاني[٤]. فقد رأى الحاتمي أن الاستعارة في بيت المتنبي التالي استعارة قبيحة:

أليسَ عجيباً أنّ وصفَك معجزٌ
وأن ظنوني في معاليك تَظلَعُ

ويقول مخاطباً الشاعر «. . استعرت الظلع لظنونك، وهي استعارة قبيحة، وتعجّبت في غير متعجب منه، لأن. من أعجز وصفه لم يُستنكر قصور الظنون وتحيرها في معاليه. . » ثم يعلل لحكم الاستعارة، فيذهب «إلى أنه ليس للظنّ فعل حقيقي استعرت الظلع موضعه. وإنما يقال ظن عازب، وظن كاذب، وظن المعي، وظن مصيب. وهذه كلها استعارات واقعة. ولم يسمع شاعر فصيح ولا عربي صريح: ظنّ ظالع،واستعارة الظلع للريح وإن كانت بعيدة أولى وأقرب، من أجل أنه يقال: ريح حَسْرى، وريح مريضة يراد كلالها ونقصان هبوبها، فجاز أن يوضع مكان الكلال الظلع، لأنه من جنس قصور الهبوب. وكذلك الظلع في الريح موضوع في غير موضعه، وإنما يقال في هذا المعنى ريح حسرى؛ وحسرى ليست على الحقيقة إنما تورد استعارة. موقع تحسر في البيان أحسن من موقع تظلع. فاستبدلت استعارة واقعة لطيفة. . باستعارة خافية بعيدة. . »[٥]

(١) أسرار البلاغة ١٣١.
(٢) الرسالة الموضحة ٧٢.
(٣) أنظر أسرار البلاغة ١٢٣ وما بعدها.
(٤) انظر الوساطة ٣٧ وما بعدها ــ وانظر الموازنة ١: ٢٢، ٢٤٥ ــ ٢٦٥.
(٥) الرسالة الموضحة ٦٩ وما بعدها.

وعلى ذلك فإنه يرى أنه لا بد لكل صورة خيالية من حقيقة واقعية: وذلك ما يبرز الفارق بين الاتجاه الكلاسيكي وبين الاتجاه الثائر الذي يمثله **عبد القاهر الذي يذهب إلى أن التشبيه كلما كان أشد خفاء كانت الاستعارة** أروع، ولذا فإن الاستعارة المكنية أقوى من الاستعارة التصريحية لما فيها من الخيال الذي يجعل «الصور التي تحدث للمعاني بسببه، آنق وأعجب»[١]. ولأنها الأقدر على إعادة بناء العلاقات بين الأشياء عن طريق الكشف عن خصائص الأشياء وجواهرها. كما يرى النقد الحديث.

موقف الحاتمي من القدم والحداثة

يقف الحاتمي إلى جانب الاتجاه الكلاسيكي القديم في مواجهة الاتجاه المحدث، فإذا دعا المتنبي إلى أن يتجه الشاعر بكليته إلى طبعه، متجاوزاً أحياناً الأصول الموروثة إذا اقتضى الأمر واستملح التجديد فإن الحاتمي يأخذ على الشاعر قوله:

تُمِرّ الأنابيب الخواطر بيننا
وتذكر إقبالَ الأمير فتحلَوْلي

لأنه أتى فيه ببيت مردف في قصيدة غير مردفة، وعدَّ هذا شاذّاً. وعندما ردّ عليه المتنبي بأن هذا الشعر «عذب على اللسان غير قلق في الأنشاد» ذهب إلى أن «قوماً لا علم لهم لا يرون هذا شاذّاً، ولا يرون الواو المفتوح ما قبلها ولا الياء شاذّاً رِدْفاً، يزعمون أنهما ليسا بحرفي مدّ، لأن الصوت لا يمتد بهما كامتداده بالياء والواو المكسورة والمضموم ما قبلها. وذلك غلط من قائله. ثم يقول «.. فليس لمحدث أن يرتكب مثل ذلك، ولا يتسمح في قوافيه بشيء من المعائب وإن كانت موجودة في أشعارهم على طريق الشواذ»[٢].

وعلى ذلك فإن الحاتمي لا يفسح مجالاً واسعاً للابداع والتفنن، بل يقيس الأمور بمقياس كلاسيكي محافظ؛ يقوم على قدر قرب ذلك النتاج أو بعده عن الأصل النموذجي الموروث. ومن أدلتنا على ذلك الموقف قوله معقباً على قول الشاعر:

شاحبٌ باطنٌ كصَدرِ يَمانٍ
صارِمِ الوَقع لُفَّ في غير جفن
ومتى ثَمّ عاد عضباً حساماً
وجَلا شَفرتَيه جِدُّ المِسَن
لم يكُنْ عن جنايَة لحقتني
عن يَساري ولا جنتها يميني
بلْ جَناها أخٌ وخلٌ كريم
وعلى أهلها براقشُ تَجْني

ثم يعقب على هذه الأبيات متسائلاً «أفيجوز لمحدثٍ أن يأتي بمثل هذا ويحتج به أو بمثله؟ كلا». فيقول المتنبي مؤكداً اتجاهه المضاد ـ وبالضد يظهر الضد ـ «قد أكثرت القول فيما لا اعتد بشيء منه، وإنما أجري على طبعي، وأقول ما يسوّغه لساني»[٣].

وهكذا يتضح موقفه في مناصرته للقديم ومواجهته لكل حديث.

ويلجأ الحاتمي ـ كذلك ـ إلى المقاييس الكلاسيكية في تقويم معاني الشعراء، ذلك المقياس الذي يبني على ما ألفه العرب من المعاني وما تداولوه وتعارفوا عليه، دون أن يطلق العنان للشعراء كي يبدعوا ويضيفوا بذلك رصيداً هائلاً إلى القيم الفنية والفكرية التي تركها أسلافهم، لا أن يقتفوا آثارهم ويعيشوا على فتاتهم يجترون ما تصل إليه أيديهم؛ فهو يعقب على قول المتنبي:

خف الله واسْتُرْ ذا الجمال ببرقُع
فإن لُحْتَ حاضَتْ في الخدور العواتِقُ

ويذهب إلى أن هذا البيت مخالف للموروث من التعبيرات الجارية، ثم يقول «أهكذا يُنسب بالمحبين؟..»[١]. وكذلك يعيب قول المتنبي في وصف الغيث:

لسَاحِيه على الأجداثِ حَفْشٌ
كأيدي الخيل أبصَرت المخالي

ويقول «فأما أن يستقي **مستسق** للقبور غيثاً يَحْفش تربها وينبش ثراها، فلم يقله أحد. وإنما يستسقي لديار الأحبّة ولقبور الأعزة لتكلىء تلك الأرض، وتعشب تلك البلاد فتنتجع. فيُتذكرُ أهلوها ويتُرحّمُ على مَنْ واراه التراب فيها، وينتجع كلّ مَنْ نأى عنها ثم يحترسون في السّقيا من أن تدرس مغانيها وآثارها كما قال طرفة:

فسقى ديارَك غيرَ مُفْسِدِها
صَوْبُ الرّبيع وديمةٌ تَهمي»[٢]

وهذه دعوة صريحة إلى التّحجر في أُطر القوالب التّعبيرية الجاهزة التي ألفها الشعراء. ولعل تلك الدعوة قد وقفت حاجزاً بين الشعر العربي وبين النماء والتقدم والإزدهار، ولبس الكسوة ذاتها مع بعض التزويق والزخرفة الخارجية طوال الفترة الممتدة حتى الحرب العالمية الأولى.. إلى أن قامت ثورة عارمة على الاتجاه الكلاسيكي الجديد، تلك الثورة التي قادها فرسان مدرسة الديوان في مصر العقاد والمازني وشكري، وإن كان قد سبقتهم دعوات بدأت مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من أمثال سليمان البستاني وإبراهيم اليازجي وخليل مطران وغيرهم من الذين تأثروا بالاتجاه الرومانسي في الغرب.

السرقات عند الحاتمي

حظيت قضية السرقات الشعرية باهتمام كبير عند النُقاد العرب القدامى من أمثال القاضي الجرجاني والآمدي وأبي هلال العسكري وابن طباطبا العلوي وغيرهم؛ ولم يخرج الحاتمي عن الدائرة التي رسمها أولئك النقاد، ولكن الاسراف في الذاتية والتحامل المحموم الذي اتسمت به رسالة **الحاتمي هو الذي جعلها تأخذ طابعاً خاصاً. فقد اتفق معظم أولئك النقاد على أن** النسخ سرقة لا مجال للتأويل فيها أو الدفاع عنها، وذلك ما أكده الحاتمي حين أشار إلى إساءة المتنبي في قوله:

الأديبُ المُهَذَّبُ الأَصْيَدُ الضَّرْ
بُ الذَّكيُّ الجَعْدُ الرَّئيسُ الهُمامُ

ويقول «فإنك (أي المتنبي) نسخته نسخاً من قول البحتري:

سالمَتني الأيّامُ لمّا تَحَرّمْ
تُ بظِلّ الرئيس ذي الأنعام
بالأديب المُهَذّبِ الفاضِلِ القَـْ
مِ الأبي النّدْبِ الوفيّ الهمام»

ثم يعقب على ذلك بقوله «وما ظننت أحداً تَجرأ على هذا اجترائك

(١) دلائل الإعجاز ٣٥٥.
(٢) الرسالة الموضحة ٧٧.
(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(١) الرسالة الموضحة ١٤.
(٢) المصدر السابق ٤١.

عليه، فإن أحداث المتأدبين ممن يتعاطى نظم الشعر يترفع عن مثله..»(١).

ولكن الحاتمي ـ وفي ظل هجومه المندفع ضد المتنبي ـ يتهم الشاعر بالإغارة والسرقة لمجرد اتفاق معانيه مع معاني الشعراء الآخرين، أو لمجرد اتفاق وجود بعض ألفاظهم عنده، وكأن المعجم الشعري الذي يستخدمه أحدهم لا يحق للشعراء الآخرين أن يردوه. وعندما قال المتنبي يرثي أم سيف الدولة:

مَشَى الأمراءُ حَوْلَيْها حُفاةً ... كأنَّ المَرْوَ من زِفِّ الرِّئالِ
وأبرزتِ الخدورُ مخبّآتٍ ... يَضَعن النِّقْسَ أمكنةَ الغوالي
أتتهُنّ المصيبةُ غافلاتٍ ... فَدمْعُ الحُزْنِ في دمعِ الدّلالِ

فأرجع الحاتمي البيت الأول إلى قول الصنوبري:

نَؤومُ الضحى أهْبُ القنافذِ عندَهُ ... إذا ما عراه النَّوْمُ وَجَدْتَهُ كالفَنَك

أو عن قول ابن الرومي:

لو أنها استلقتْ على شَوْكِ الحَسَكْ ... تحت الزِّباةِ وَجَدْتَهُ كالفَنَكْ

والبيت الأخير ينظر فيه إلى قول العباس بن الأحنف نظراً خفياً، وهو من معانيه التي اخترعها:

بَكَتْ غيرَ آسِيَةٍ بالبكاءِ ... ترى الدّمعَ في مُقْلَتَيْها غريبا

والمدقق في هذا الاتهام وغيره من الاتهامات التي غصت بها رسالة الحاتمي، تلك التي أنشأها لتتبع سرقات أبي الطيب وساقط شعره، يجد أن فيها كثيراً من التعسف والتحامل لأن فيها تناسياً لعنصر التجربة الشعرية والصدق الفني الذي يغذيه؛ فالشاعر الصادق هو الذي يستمد معانيه وصوره من تجربته التي يرفدها ثقافاته من أسفار وقراءة وممارسات حياتية وميول وذوق بلورته الخبرة الفنية. وتتجمع في حصيلته الفكرية والفنية كثير من روافد الثقافة التي تتعدد منابعها وتختلف، ولكنها تنصهر في بوتقة ذاته، وتصبح ملكاً له. وبقدر ما تكون أسيرة له على قدر ما يتحكم فيها ويوجهها بشخصية مستقلة قوية يكون نجاح ذلك الشاعر. أما إذا كان أسيراً لتلك الثقافات فإنه يكون فاقد الذات الفنية المتفردة، متصنعاً وهذه أمور تكشفها عملية الابداع الشعري.

وقد حاول الحاتمي أن يناقش قضية السرقات وصلتها بثقافة الشاعر وأثرها في الإبداع الشعري، وعرض ذلك بطريقة موضوعية في ظاهرها وذهب إلى أن المتنبي دافع عن نفسه حين اتهم بالسرقة على أساس فكرة التأثر بما يحفظ ويخاطب الحاتمي قائلاً «.. أمّا ما نعيته علي من السَّرق فما يدرك أنّي اعتمدته، وكلام العرب آخذ بعضه برقاب بعض، وآخذ بعضه من بعض، والمعاني تعتلج في الصدور، وتخطر للمتقدم تارة وللمتأخر أخرى، والألفاظ مشتركة مباحة.. ثم يتساءل نافياً «.. فمن هذا الذي تعرّى من الاتباع، وتفرّد بالاختراع والابتداع، لا أعلم شاعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلّا وقد احتذى واقتفى..»(٢).

(١) الموضحة ٨٨، وللاطلاع على أمثلة أخرى أنظر ١٣٦ وما بعدها.
(٢) الموضحة ١٤٨.

ويناقشه الحاتمي فيما ذهب إليه ويقول «.. وإنما حكم لهم [للشعراء الجاهليين والإسلاميين] بالفضل، وسُلّم إليهم خُصْلُه من أجل ما ابتدعوه من المعاني، وسبقوا إليه من الاستعارات، وابتكروه من التشبيهات الواقعة والأمثال الشاردة، وذلّلوه من طرق الشعر الحزنة ولما تعايروا بالسرق والاجتلاب والنقل والاجتذاب..» ثم يقول «.. فلا يتسمح الشاعر بأن يكون جمهور شعره عند التصفح مُسْتَرَقاً ملصقاً، ومجموعاً ملفقاً، ولا أن يكثر الاعتماد في شعره، ويتناصر السرق في كلامه. ومن سبيل المحتذي أن يأخذ المعنى دون اللفظ، ثم أن يطويه إن كان مكشوفاً، ويكشفه إن كان مستوراً، ويحسن العبارة عنه، ويختار الوزن العذب له، حتى يكون بالاسماع عبقاً وبالقلوب عَلِقاً..» ويذكر الحاتمي العديد من الأمثلة التي حدث فيها احتذاء وحدث مع الاحتذاء إجادة منها قول الأعشى:

وذَرْنا وقوفاً إن هُمْ عمدوا لنا ... أبا ثابتٍ واقْعُدْ فإنك طاعِمُ

فأخذه الحطيئة، فأحسن العبارة عنه، واستوفى المعنى فيه، فصار أحق به من المخترع له بقوله:

دَعِ المكارم لا ترْحَلْ لبُغيتها ... واقصد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي(١)

وعلى ذلك فإنه يقر بالاحتذاء لا على أنّه نوع من النقل والسرقة الذي تنمحي فيه شخصية الشاعر، بل على أنه نوع من التأثر بطريقة الشاعر وأسلوبه. وهذا ما أكده عبد القاهر وطوّره تطويراً ناضجاً منحه طابعاً فنياً راقياً، فقد لام النقاد القدامى الذين يعيبون على الشعراء المبتدئين احتذاءهم لأشعار غيرهم من المبرّزين، ويرى أن ذلك سبيل المبتدئين وأنه طريقهم لتفتح شاعريتهم وصقلها وتدريبها على النظم، فالفرق بين الاحتذاء والسرقة كبير، ويعرّف الاحتذاء بقوله «أن يبتدىء الشاعر من معنى له وغرض اسلوباً (والاسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه) فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب؛ فيجيء به في شعره، فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلاً على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال قد احتذى على مثاله»(٢). ويذهب الدكتور مصطفى هداره إلى أن الاحتذاء والاقتداء الذي أشار إليه القدماء هو الاحتذاء الذي أقرّه المحدثون، يقول «ولو أننا قارنا بين شروط السرقة الممدوحة كما قررها نقاد العرب، وشروط الاحتذاء الفني كما قررها النقاد الأوروبيون، فسنجد التطابق بينهما شديداً. وما ذاك إلّا لأن السرقة الممدوحة عند العرب إنما تعني الاحتذاء بمعناه الفني، وهي التي يرضى عنها نقاد العرب الذين لا يتعصبون للقديم»(٣).

وفي النقد العربي الحديث عالج الدكتور محمد مندور هذه القضية معالجة دقيقة أوجب بمقتضاها التمييز بين أشياء هي:

١ ـ **الاستيحاء**: وهو أن يأتي الشاعر أو الكاتب بمعانٍ جديدة تستدعيها مطالعاته فيما كتب الغير.

٢ ـ **استعارة الهياكل**: كأن يأخذ الشاعر أو الكاتب موضوع قصيدته أو قصته عن اسطورة شعبية أو خبر تاريخي وينفث الحياة في هذا الهيكل حتى ليكاد يخلقه من العدم.

٣ ـ **التأثر**: وهو أن يأخذ شاعر أو كاتب بمذهب غيره في الفن أو

(١) المصدر السابق ١٥٣.
(٢) دلائل الإعجاز ٣٦٠، ٣٦١.
(٣) مشكلة السرقات في النقد العربي ٢٣٧، انظر رأي ابن طباطبا (عيار الشعر ورقة ١٣) نقلاً عن مشكلة السرقات ٩٣.

الأسلوب، وقد يكون هذا التأثر تتلمذاً، كما قد يكون عن غير وعي، وإنما النقد هو الذي يكشف عنه.

٤ ــ وأخيراً هناك السرقات وهذه لا تطلق اليوم إلاّ على أخذ جمل أو أفكار أصلية وانتحالها بنصها دون الإشارة إلى مأخذها[1]

وفي نهاية هذا البحث يمكننا القول ان الرسالة الموضحة للحاتمي جديرة بالعناية والدرس، فهي ركن أساسي من أركان الاتجاه الكلاسيكي المحافظ في النقد من ناحية. كما أنها أثارت قضايا على قدر كبير من الخطورة والأهمية من ناحية أخرى كما أوضحت. وفي النهاية هي لبنة من لبنات تراثنا النقدي العريق.

أحمد أبو العلاء المعري

مرت ترجمته في مكانها، كما مرّت عنه دراسات في المستدركات ونضيف هنا الى ذلك ما يلي مكتوباً بقلم آمينة عصن

أوجه التشابه والاختلاف بين

غفران أبي العلاء وكوميديا دانتي

إذا كانت المقارنة مصدراً خصباً من مصادر المعرفة الانسانية فان الانسان في مختلف دراساته اتخذ المقارنة سبيلاً للوصول الى الحقائق الجوهرية المتعلقة بميادين بحثه. ففي علم الحيوان مثلاً قارن الدارسون بين الحيوانات المختلفة فصنفوها الى أجناس وأنواع. وكان هذا التصنيف مبنياً على الملاحظة وملاحظة الخصائص الجوهرية لكل جنس من الأجناس وكل نوع من الأنواع المتباينة. ولقد خضعت اللغات وهي أدوات التعبير عن الأدب لمثل هذه الدراسة المقارنة، فكان لها اثرها العميق في التعرف الى أصولها، والاحاطة بما تحقق لها من تطور خلال العصور. لقد طبقت الدراسة المقارنة على المفردات اللغوية، كما طبقت على المركبات، وكان من نتائج تطبيق الدراسة المقارنة على المفردات أن وجد لدينا علم اللغة بفروعه المتعددة، كما كان من نتائج تطبيقها على المركبات في اللغات المختلفة، ذات الأصل الواحد، ان وجدت لدينا دراسات كثيرة في النحو المقارن، فأدى ذلك الى تصنيف لغات العالم الى أسر لغوية تضم كل اسرة منها مجموعة من اللغات يجمع بينها أصل واحد مشترك.

أما الأدب فيمثل مشكلة قائمة بذاتها، تختلف عن الحالات السابقة التي أشرنا اليها. ان الدراسة الأدبية المقارنة لا تتناول قضايا محسوسة بل هي تدور حول تأثيرات قد تتضح وقد تخفى. ولا يكون وضوحها بالضرورة مقتبساً من مميزات الأعمال الأدبية المقارنة، بقدر ما يكون مقتبساً من قرائن خارجية على هذا التأثير. اما الاقتصار على مجرد المشابهة فكثيراً ما قاد الى أخطاء كان منشؤها الاقتناع بظواهر الأمور بدون غوص الى بواطنها.

وفي ضوء هذا الفهم، لا بدّ لنا، ونحن بصدد دراسة رحلتي أبي العلاء ودانتي من دراسة بواعث الرحلتين الظاهرة والخفية، والاشارة الى نقطة انطلاق هذين الرحالين وتحديد محطة السفر الأولى، لأنه بحيث انطلق أبو العلاء من الجنة وأبدع في تصويره لحياة الفردوس، انطلق دانتي في المقابل من الجحيم الملغز، والنيران المتأججة هذا الى جانب انطلاق أبي العلاء في رحلته متقمصاً شخصية ابن القارح، في حين ذهب دانتي بنفسه يستطلع ويستكشف.

وتعود كتابة «رسالة الغفران» الى أسباب مباشرة وأخرى غير مباشرة.

١ ـ دراسة الأسباب غير المباشرة:

٢ ـ الأسباب الظاهرة:

ظاهر الأمر ان الرسالة كتبت رداً على رسالة بعث بها ابن القارح الى أبي العلاء، فخرج بذلك الى النور في وقت لم يسجله تقويم الزمن، من الربع الأول للقرن الخامس الهجري، نص أدبي كتب له ان يخلد مع روائع الآثار الباقيات، فكانت «رسالة الغفران».

٣ ـ التراسل كنوع أدبي:

غير أن وراء السبب الظاهر دواعي اخرى ان تخف على البعيدين عن دراسة ذلك العصر، فلن تخفى على من تعرفوا حياة أهله، وعرفوا ولع أدبائه بالتراسل، لسبب ولغير سبب، سوى اظهار البراعة، وعرض البضاعة.

ورسالة ابن القارح تأخذ في شكلها وظاهرها صورة الرسائل الاخوانية، لكن كاتبها الذي لم تكن تربطه بأبي العلاء معرفة سابقة، لم يعن بالمسائل الإخوانية بقدر ما عناه سرد محفوظه من اللغة، والأخبار والأشعار، والاعلان عن براعته، والتحدث عما لقي من الأئمة والشيوخ.

وقد جرى أبو العلاء ـ مثل ابن القارح ـ على عادة عصره، واقتفى أثر الأدباء قبله، وتبع سنتهم، فمضى مثلهم يعرض بضاعته، ويترجم بحديثه عن حاجة في نفسه.

الأسباب المباشرة:

لكننا مع القبول بهذه الأسباب الظاهرة، ومع فهمنا لروح العصر وتقديرنا لأثر أبي العلاء، قد نستغرب تلك الرحلة الخيالية الطويلة المثيرة التي قاد صاحبه اليها، فطاف به في ارجاء العالم الآخر، وأذاقه من الوان النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ويقربنا هذا الاستغراب الى تعرف الأسباب المباشرة، للقيام بهذه الرحلة، وتقديمها بالشكل الذي قدمت به، ومنها:

أ ـ الخصائص الخاصة بحياة المعري:

إذا قلنا ان أبا العلاء كان يعرض بضاعته من العلم واللغة والفن، فلقد كان الى جانب هذا يحلم، وينال من عالم الخيال ما لم ينله من عالم الواقع، خاصة إذا ما عرفنا ان حياة أبي العلاء قد انشطرت الى شطرين واضحين ومتميزين:

ـ كان في أولهما يعيش في دنيا الناس، ويأخذ فيما يأخذون فيه من لهو، وجد محاولاً ان يشارك في حياتهم، ومناضلاً بكفايته وامتيازه ليظفر بما كان له فيها.

ـ في حين كان معتكفاً في دنياه منصرفاً الى التأمل والاملاء في عهده الثاني.

ب ـ حالة أبي العلاء النفسية:

وبتحديدنا للزمن الذي كتبت فيه الرسالة، وهو في أخريات الربع الأول للقرن الخامس الهجري، يسهل علينا ان نتعرف الى الحالة النفسية لأبي العلاء حين أملاها. غير أننا لا نملك أن نحدد بالضبط مبدأ كل عهد من حياته ومنتهاه، لأن العلائي انصرف بنفسه عن دنيا الناس، قبل ان ينسحب منها، ونفض يديه منها وهو لا يزال فيها، وفكر في اعتزالها طويلاً قبل ان يجمع أمره على العزلة في محبسه بمعرة النعمان. لكننا نملك ان نقول انه كتب «رسالة الغفران» في صميم الشطر الثاني من حياته، وكان إذ ذاك يستهل العقد السابع من عمره.

ج ـ يأس أبي العلاء ونضجه:

وكتب العلائي «رسالة الغفران» بعد أن هزم في النضال مع الدنيا ونبا به مكانه بين الناس، كتبها بعد أن يئس من بلوغ ما اشتهاه من مجد

الحيـاة ونعيمها . وكتبهـا في السبعين بعد ان أنضجتـه الأيـام بتجـاربهـا ، ومصائبها وكشفت له عن أشواقـه الكامنـة ، وجراحـه التي لم تندمـل قط ، وطالت صحبته لنفسه حتى عرفها على حقيقتها ، وأزال عنهـا حجب الوهم وأستار المداراة .

وأخيراً كتبها في شيخـوخته ، بعـد ان قطع مـراحل الحيـاة الدنيـا ، وأشرف على العالم الآخر ، وانصرفت نفسه الى التأمل الحزين الطويل في مصير الانسان .

في ذاك الجـو القاتم ظهـرت « رسالـة الغفران » ، وفي تلك الحـالة النفسية الأليمة ، أملى « أبو العلاء » رسالته ، وانهـا لحالـة تفسر لنـا ما في « الغفران » من أشواق مستثارة الى الرغبات الماديـة ، وعرض متفنن لنعم الدنيا منقولة الى العالم الآخر.

وتفسر لنا كيف جمع أبو العـلاء ، الأدباء والشعـراء في جنته ، وهـو المعتزل المنفرد، وكيف حشد فيها ملذات الدنيا من نساء، وطعام وشراب، وهـو الذي كفـر بالخمـر ، وتجنب النساء ، وحـرم نفسـه طيبـات الـطعـام والشراب.

وتفسـر لنا كيف مـلأ جنته حـركة وانفعـالاً ، من صيد ونـزهة ورقص ومآدب ومجالس وطـرب وخمر ، وهـو الذي حكم على نفسـه بالحبس في منزله بمعرة النعمان نحـو نصف قرن من الـزمان مقيـداً سجيناً . لـذا أطال الحـديث عن الحياة الآخـرة ، وتفنن في تصويـرها لغيـر ضرورة ظـاهـرة ، واستمـر حلمه الـطويل حتى شغله عن الـرد على ما جـاء في رسـالـة « ابن القـارح » ولم يشرع بـه إلاّ بعد أن أتم رحلتـه وفرغ من رسم صـورة الحياة الأخرى.

انعكاسات البواعث على رسالة المعري

جاءت رسالة الغفران آية من آيات المعري . وكان سر عظمتها دلالتها الأمينـة على نفس صاحبهـا وعلى الحياة من حـوله . فلو لم نعـرف صـورة صاحبها لرسمت لنا صورة بينة السمـات ، ولدلتنـا على شخصيته ، وعـرفنا انه : أديب يائس معتزل محروم .

ولو لم نعرف الزمن الذي أملي فيه « الغفران » لحـددت لنا الـرسالـة ذلـك الزمن ، إذ ان فهم الحيـاة فهماً نـامـوسيـاً ، يجعلنـا نـطمئن الى ان « التفات » أبي العلاء الى العالم الآخر لا يكون إلاّ مع يأسه من هذه الدنيا ، لأنه ما كان ليسرح الى الأخرى هائماً حالماً وهو في غمار الحياة والمجتمع قبل عزلته.

وربما كانت هذه البواعث كافية لأن يخترق أبو العـلاء خط السير في الممالك الإلّهية ، فيبدأ من حيث يحلم ، وتكون الجنة العـالـم الأول الذي يطالعنا به ، وكأن ابواب المرور من الأرض السفلى مفتوحة وعلى مصراعيها على أبواب الجنة.

بواعث كوميديا دانتي

لكن دانتي لم يختـرق حيث اخترق أبـو العلاء ، ولم يبـدل وجهـات السير، ولم يغير مقاييس العالم الآخر ، بل بدأ كتابته للكوميديا من حيث تبدأ الأديان ، وانتهى الى حيث تنتهي ، وكان تقسيم الكوميديا تقسيماً كـلاسيكياً دينياً مسيحياً . كيف لا ، وقد كان دانتي الانسان المسيحي المؤمن ، المشبع بقراءة التوراة والانجيل والكتاب المقدس بخاصة . غير ان هذا التقسيم يبقى السبب الظاهر ، في كتابة الكوميديا بحيث تطالعنـا أسباب أعمق وأبعـد في تصور الشاعر ، وفي تاريخ حياته : الذاتية ، والسيـاسـية ، والوطنية . . .

ربما كانت هي الباعث الأصدق والأهم في كتابتها .

وقد نورد هذه البواعث والأسباب ولكن بايجاز ، وذلك بسبب اهميتها في خلق جو الكوميديا الإلّهية العام ، وفي جو من الينابيع ، والمناهل التي استقى منها دانتي رائعته.

١ ـ ونبدأ أولاً بحياة الشاعر الذاتية

الكل يعلم أن دانتي شرد وجرد من كل شيء : الأسرة ، والأصدقاء ، والمال ، والوطن ، فاشتد عليـه المد واتعبـه . وربما أفـاد كثيراً من حيـاته الشبيهة بالبوهيمية على فارق واحد أو أكثر ، وهو أن البـوهيمي قريـر العين مرتاح الى حياته لأنه ليس له أهداف ، وليست به طموح .

ومن فوائد منفاه انه تنقل بين كثير من المقاطعات ، فشاهد المـدن ، والقرى ، والجبال ، والأودية ، والخمائل ، والأرض القاحلة . وكلها مناظر خلابة ـ من الأرض الايطالية ـ ممـا عزاه بعض الشيء عمـا كان يـلاقيه من الحرمان ، وقد ذكر أكثر تلك الأمكنة في الكوميديا ، وأدخلها في طوبوغرافية العالم الآخر ، وجعلها قسماً من جغرافيته .

٢ ـ المؤثرات الوطنية وانعكاسها في نفس دانتي

كأن النفي كان ضرورياً لـدانتي ، لأنه ضـاعف فيه حبـه لأرض وطنه الذي تحده جبال الألب من الشمال ، والبحار من جميع الأطراف . وحمل دانتي بين حناياه فكرة الوطن الواحد الموحد ايطالية الكبرى. وقد كانت حتى الساعة ـ أي زمنـه ـ نهباً مقسمـاً بين عدة دويـلات أجنبية ووطنيـة ، وملكية وجمهورية ، واقطاعية وبابوية ، وأشباه ذلك.

وملك هذا الاحساس على دانتي جميع مشاعره ومنافـد الفكر منـه ، فكرة الوطن الموحد . فلم يقتصر على رسم حدود وطنه المقدسة على حد قوله ، بل كانت ذاكرته تزخر بأمجاد روما وعظمتها ، فحلم بمملكة عـالمية تضم بتنـاغم مثالي الأمـراء جميعهم ، والممالـك كلها ، وتسـوسهم قوانين حكيمة عادلة ، وتعمل في هذه المملكة العالمية الشاملة جنباً لجنب السلطة البابوية وهي الروحيـة والسلطة الامبراطـورية وهي السلطة الـزمنية . وانـاط دانتي بهذه المملكة انقاذ الانسانية التائهة في أدغال الشـك ، والتي تنهشها الفوضى والبلبلة . وما ذلـك اليوم ببعيـد عن روما مـركز السلطتين الـروحية والزمنية ، وعن ايطاليا كلها ، جنة الامبراطورية ، ومهد الحضـارة اللاتينيـة الكبرى.

وكي يعد دانتي النفوس الى تقبل هذه النبوءة الكبرى والأمنية الغاليـة نشـر بين الناس طـرفته المسمـاة « الكوميـديا الإلّهيـة » حيث اتصل الـزمن بالأبدية ، وانعكس وجها الفضيلة والرذيلة على صفحة مرآة.

٣ ـ ثقافة دانتي وانعكاسها في الكوميديا

لقد وصف لنا دانتي في بعض صفحات من كتابه « الوليمة » الصراع الداخلي الذي كان يعتمل في نفسه عندما اجتاز مرحلة النظم في الغـزل ، والنسيب والتشبيب بالحسان ، الى دراسة الفلسفة . فأكب على دراسة بوزيو وشيشرون ، مما أجج فيه حب المعرفة ، ودفعه ذلك الى أن يقود خطاه نحو مدارس رجال الدين وتتبع جدال أهل العلم والفلسفة .

فتردد على احدى الحلقات للأباء الدومينيكيين في دير القديسة ماريـا نوفلله ، وبات من المؤكد أنه تابع الدراسات للاباء الفـرنسيسكان في سنت كروتشه ، ودرس ارسطو الذي بدأت مؤلفاته تروج وتنتشر . أما توما الاكويني وبـونا فنتـورا فقد كـانا منهله الفيـاض العذب . وعكف دانتي على دراسـة القـانـون ، والـطب ، والمـوسيقى ، والتصـويـر ، والنحت ، والفلسفـة ،

والطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ، والسياسة ، والتاريخ ، واللاهوت ، ودرس تراث اللاتين ، وألم بتراث اليونان والشرق بطريق غير مباشر ، وعرف ثقافة العصور الوسطى ، وتعلم الفرنسية ولغة البروفنس ، ودرس أدب التروبادور.

هكذا اجتمعت لدى دانتي الحكمة المشرقية كلها ، وبلاغة اليونان ومحبة الله في المسيحية ، وعظمة المدينة الرومانية ، وكان يحترم أرسطو ، ويتبع توما الاكويني ، ولا يحجم عن الاطلاع على التراث العربي وفلاسفته ويستلهم مادته من التوراة والانجيل وما أمكنه الاطلاع عليه من الفكر والتراث الاسلامي من هذا المضمار . غير أن مرد التأليف بين الأضداد في نفس دانتي يعود الى قدرة التوحيد الطبيعي في عبقريته . وقد نفذت بشتى الثقافات.

وبفضل هذه الكونية التامة التي كانت تؤاخي بين الماضي والحاضر والمستقبل استطاع دانتي ان يجعل من نفسه في « الكوميديا » رمزاً للجنس البشري أجمع . وطرفة دانتي من الفها الى يائها بطابعها الخاص وأهدافها ، ليست إلّا تكافؤاً جميلاً غريزياً لشقاوته وضعفه.

استناداً الى ما قدمنا من بواعث وأسباب مباشرة وغير مباشرة في أوجه المقارنة في رسالة الغفران ، والكوميديا الإلّهية ، حق لنا اتهام النقاد بالتجني على دانتي ، والقول بأخذه فكرة الرحلة الى الممالك الإلّهية عن أبي العلاء ، ومحاكاته من ثم وتقليده.

كثيرون هم الجناة والمدعون ، أمثال قسطاكي حمصي الذي قال « بسرقة دانتي لموضوع أبي العلاء وتخلفه عنه في السمو والبيان »[١] ، وقول الدكتور عمر فروخ « ان المعري سبق دانتي الى بعض تخيلاته »[٢] وتعصب مصطفى آل عيال[٣] الذي لا يريد بدوره « ان ينقص من حق المعري الذي هو بغنى عن ان يضاف الى مجده مجد آخر » ، وذلك بتلقيبه « ملهم دانتي » أو قول زيدان « باقتباس دانتي فكرة الكوميديا من « الغفران » أو قول « كرد علي » ان شاعرنا كان معلماً لنابغة ايطاليا في الشعر والخيال.

فذلك ومثله مما يمكن حمله على محمل التعصب ، وهو أيضاً مما يمكن اغفاله والسكوت عنه ، لأنه لم يأخذ سمة البحث العلمي .

غير أن المهم في آراء النقاد هو كتاب « سيجويل اسين بلاسيوس » . وليس بلاسيوس بالعربي ، أو الشرقي ، أو المسلم ، حتى يحمل قوله على التعصب ، وليست دعواه ، احكاماً سريعة مرتجلة حتى تقابل بالاستهانة .

انما هي شهادة من أهلها .

شهادة كاثوليكي ، من الأسبان المعروفين بالتعصب.

وجاء بلاسيوس يقرر بعد دراسة واسعة متخصصة ، قضى منها خمساً وعشرين سنة ، باحثاً منقباً في التفكير الاسلامي في العصور الوسطى - جاء يقرر « أن أصولاً اسلامية - من بينها الغفران - قد كونت أسس الكوميديا الإلّهية تلك القصيدة التي طبعت كل الثقافة الأوروبية المسيحية في العصور الوسطى » .

ولكن بلاسيوس وقف في مظاهر التشابه عند رسائل جزئية غير ذات بال ، وظواهر سطحية لا يمكن ان يحتكم اليها في مثل تلك القضية.

ومن أمثلة الحكم على دانتي بأخذه من أبي العلاء ، في رأي بلاسيوس ، نورد المثلين الآتيين[٤]:

(١) قسطاكي حمصي: المقال الرابع من مجلة الرسالة الصادرة عن المجمع العلمي في دمشق سنة ١٩٣٤.

(٢) عمر فروخ : حكيم المعرة - ص ٩٧.

(٣) مصطفى آل عيال: سلسلة اقرأ رقم ١٦٤ - ص ٩٥.

(٤) الغفران : لعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ص ٣٢٨.

١ - لاحظ بلاسيوس مثلاً ان اباء العلاء لكي يحقق هدفه المزدوج ، الأدبي والديني ، يلقى الشعراء في جهنم منفردين واحداً بعد الآخر ، أما في الجنة فيلقاهم جماعات . وكذلك فعل دانتي ، فهذه الحلقات الأدبية لأبي العلاء تعادل الحلقات والتيجان التي نظمها دانتي في السماوات من رجال الدين والجنود والقضاة وغيرهم.

وقد جاء بلاسيوس في دليله بما يضعفه ، فأبوا العلاء لا يلقى إلّا الشعراء ولا يريد سواهم ودانتي يريد أقواماً آخرين ، اكثرهم لا يمتون الى الشعر بسبب.

٢ - كذلك رأى بلاسيوس ان الطريقة التي كان أبو العلاء يلقى بها من اراد من الشعراء تشبه الطريقة التي اتبعها دانتي : « فهو اما ان يستعلم عن روح بعينها فيرشد الى صاحبها ، واما ان تظهر له فجأة روح يخطىء معرفتها ، فيسأل عن اسم صاحبها » .

وبحسبنا في التفريق ما بين الشاعرين هنا ، ان « ابن القارح » كان يلقى الأشخاص بأجسامهم ، ولم يحدث قط ان لقي روحاً أو تحدث الى روح على حين لم يلق دانتي سوى الأرواح.

نكتفي بهذين المثلين شهادة على تجني آسين بلاسيوس على دانتي ، وليس بوسعنا الاطالة ، وكشف نقاط أخرى، وقد اعتمدنا في ذلك على بنت الشاطىء ، لعجز منّا في قراءة نص بلاسيوس الأسباني.

وكدراسة مقارنة ، أؤيد أحكام بنت الشاطىء في بحثها الرصين المتعمق والموضوعي ، ويكفيني اثباتاً ما قدمته من بواعث كتابة لرسالة الغفران والكوميديا الإلّهية ، الى جانب دراسة وجوه التشابه والاختلاف في كل من الرحلتين ، وهي وجوه نابعة من اصالة عالمين داخليين مختلفين ، ومن عمق ثقافتين متمايزتين ، ومن غايتين مفارقتين - قصد اليهما الأديب والشاعر :

- ان الفكرة عند المعري كانت بسيطة في حد ذاتها . فقد أراد أن يسخر بعالم الأدباء ، وقد أصاب الهدف اصابة محكمة .

وكان له أيضاً هدف ثانوي ذكره طه حسين في كتابه « مع ابي العلاء المعري في سجنه » حيث قال:

« لقد ألف أبو العلاء رسالة الغفران ليبرهن عن واسع خياله وعظيم مقدرته بالعلوم اللسانية واللغوية ، وغريب الشعر والألفاظ والمفردات ومعانيها المختلفة ، ولم يكن همه العالم الأخروي ، ولم يعنه تركيب هذا العالم ، ولا سيما التركيب المعنوي والخلقي للجنة والجحيم . ولم يصف الصراعات التي تتأكل بين البشر تكالباً منهم على حطام الدنيا في شتى المناحي والميادين . لقد ركز همه في الشعراء فقط وبغريب الأبيات من الشعر » . وما كان بهتان صوره وعبثيته وسخريته إلّا لتأكيد ذلك.

- أما كوميديا دانتي ، في صورتها الأدبية ، فتعد عملاً مبتكراً لم يسبق اليه الشاعر ، كما ان هذا العمل استعصى نظيره على من جاء بعده فكثير من الشعراء حاول تقليده أو مجاراته في هذا الميدان الذي فتحه ، لكن ذلك كان بدون جدوى، فلم تكد الأعمال التي انبثقت من هذا التقليد تولد حتى تداعت وانزوت الى ظلال كثيفة من النسيان.

وعد بحق الدكتور عبد السلام كفاني[٥] الكوميديا « بأنها ملحمة عن الانسان وحياته وموقفه في مواجهة العدالة الإلّهية » .

في حين قال حسن عثمان[٦] « الكوميديا مرآة الحياة وقصيدة الانسان

(٥) الدكتور عبد السلام كفاني: « في الأدب المقارن » ص ١٨١ .

(٦) مقدمة جحيم الكوميديا ص ٦٣ ترجمة حسن عثمان.

الكبرى. وهي فن رفيع يهدف الى تغيير الانسان واصلاح المجتمع . وقصد دانتي ان يجعل منها بداية لعصر جديد، وكأنه أراد بذلك أن يضع كتاباً مقدساً جديداً يهدي البشر الى سواء السبيل، ويبدأ فيها دانتي أورفيو جديد لعالم جديد » .

وفي حين تناول النقاد جوهر الكوميديا ومواضيعها ، فقد تناول الشاعر والناقد (T.S.ELIOT) ت. س. اليوت لغة الكوميديا فقال: « ان أول درس يستفاد من دراسة دانتي انه لا يوجد شاعر من مستواه بذل من العناية والجهد في دراسة فن الشعر مـا بذلـه دانتي ولا يستثن من هذا فـرجيل » . كمـا أن اليوت يقول « انه لا يعرف شاعراً انكليزياً قـدم للغته من الخـدمات مثـل ما قدمه دانتي لايطاليا » . ويكون أليوت قد رفع دانتي هنـا الى قمة البـارناس الشعرية ، وتجاوز به شكسبير وشعر شكسبير .

إذن ، انطلاقاً من دراستنا ، وانطلاقاً من آراء النقّاد الجادين ، وانطلاقاً من الاحتكام الى نص « الرسالة » و« الكوميديا » نحكم بعدم وجود التشابه المدعى، لنؤكد التقاء الأثرين عند فكرة واحـدة هي « الرحلة الخيـالية الى العالم الآخر » ، وهي فكـرة انسانيـة مشتركـة لم تنحصر في حضـارة ، ولا قوم ، ولا دين ، فمنذ سمعت البشرية ان هناك عالمـاً آخر ، راحت تتمثـل ذلك العالم ، ثم جعلت تقوم برحلة خيالية اليه .

وتصوير ذلك العالم قديم العهد ، تحدثت به الأساطير قبـل أن يولـد « أبو العلاء » بدهور ، وعرضته الأديان عرضاً مفصلاً لا يـدع لنا سبيـلاً الى ايثار « أبي العلاء » به .

بين أبي العلاء والوزير المغربي

قال الدكتور احسان عباس:

تدور لزوميـات أبي العلاء في معـظمها حـول المشكلات الـوجوديـة والقضايا الميتافيزيقية : هنالك يجد المـرء وقفات كثيـرة عند مشكلة الجبـر والقـدر ، والخيـر والشـرّ ، والنفس والجسـد ، والتقـوى والنفـاق والعقـل والخمر ، والمرأة والتناسل ، والعـدل والجور ، والـرعية والـرعاة ، والـدنيا والانسان ، الى غير ذلك من قضايا انسانية وشؤون كونية ، ولذلك فليس من الغريب أن يحسّ القارىء ـ مثلما أحسستُ ـ بمفاجـأة لافتة تستـوقف النظر وتستثير التعجب ، إذا وَجَدَ بين ذلك العدد الغزير من القصائد والمقـطّعات مقطوعة في رثاء أحد الناس ؛ إذ يكاد يكون عهد المعري بالاهتمام بشؤون الأفراد قد تولّى مع فترة سقط الزند ، وحلَّ محله الاهتمام بالجماعة والمصير الانساني في اللزوميات . والتوقّف عند رثاء فرد في حومة ذلك الديوان الكبير لا بدَّ أن يعني أن ذلك الفرد الذي أخرج المعري عن خطته الكبرى لا بدَّ وأن يكون ذا مقام خـاصّ في نفسه ، ولا بـدَّ من أن يكون فقـده عميق الأثر في مشاعره .

أما ذلك الفرد فهو الـوزير أبـو القاسم المغـربي الحسين بن علي بن الحسين ، وأما المقطوعة فهي قول المعرّي :

ليس يَبقى الضربُ الطُّوالُ على الدَّهـ ـرِ ذو العبـالَـةِ الـدِّرحـايَـه[1]
يـا أبـا القـاسم الـوزيـر تـرَحَّلـ ـتَ وغـادرتني ثِفـال رحـايـه[2]
وتـركت الكُتب الـثمينـة لـلنـا س ومـا رُحت عنهُمُ بسحَـايَـه[3]
ليتني كنت قبـل أن تشـرب المـو تَ أصيـلاً شـربْتُـهُ في ضُحـايَـه
إن نَحْتَـك المَنُـون قبلي فـإنّـي مُـنْتَحـاهـا وإنَّهـا مُـنْتَحـايَـه
أمُّ دَفْـرٍ تـقـولُ بـعـدكَ لـلذا تِي لا طَعْمَ لي فـأين فِحَـايَـه[4]
إن يَحُطَّ الـذَّنب اليسيـرَ حفيـظا كَ فكَـمْ مـن فـضيـلةٍ محَّـايَـه

هي أبيات قليلة ـ كما نرى ـ غير أنها ، على تضايق في القافية يحول دون الاسترسال ، مفعمة بالأسى لفقد ذلك الرجل ، حتى ليحسّ أبو العلاء أنّه أصبح بعده « ثفال رحاية » ، محض خرقة تدور فوقها رحى الحياة ، وأنَّ الحياة قد فقدت طعمها الشهيّ بعد أن ترحَّل عنها ما كان منها بمكان الأفاويه والتوابل .

وقبل أن نغادر هذه الأبيات علينا أن نتذكَّر أموراً هامّة ، قد تفيدنا كلما تقدَّمنا في غمرة هذا البحث :

○ **الأول** : أنَّ أبـا القاسم الـوزير تـرك للنـاس كتبـاً ثمينـة ، وتقـول مخطوطات اللزوميات إنَّ ذلك يشير الى كتب وقفها الوزير بمدينة مِيّافَارِقين ، وقد تكون هذه الكتب مكتبته الخاصة ، وقد تكون مجموعة ما ألَّفه من كتب .

○ **الثاني** : أنَّ الوزير توفي سنة ٤١٨ هـ، وهذه اللزومية من أواخر ما جاء في الديوان ، فإن كانت اللزوميات قـد نُظمت ولاءً بحسب القـوافي ، فهذا التاريخ يفيدنا في تحديد الزمن الذي انتهت فيه ، وإلاَّ فهو تاريخ صالح يدلّ على أنَّ أبا العلاء كان معنيّاً بنظم جانب من اللزوميات في تلك الفترة .

○ **الثالث** : أنَّ أبا العلاء كان مشغول الذهن بـالنهايـة التي سينتهي اليهـا الوزيـر في الآخرة ، فهـو قـد احتقب ذنـوبـاً سجَّلهـا عليـه المَلَكـان الحافظان ، إلاَّ أنَّها ذنوب يسيرة تمحوها فضائله الكثر ، وأنَّ الغفران مرجـوّ له .

فمن هو الوزير المغربي ؟ وما مدى صلته بأبي العـلاء المعري ؟ أمَّـا التعريف بالوزير المغربي فحسبي منه الإيجاز ؛ إذ لست أزيد في هذا المقام على ما كتبه الدكتور سامي الدهان في مقدمته على رسالة في السياسة للوزير نفسه ، جمع في ختامها أيضاً معظم ترجماته من المصادر المتيسِّرة حينئذٍ ، كما لا أستطيع أن أتجاوز تلك الترجمة المسهبة التي صدَّر بها شيخنا حمد الجاسر كتـاب الوزيـر المغربي « أدب الخـواصّ » ، فالإيجـاز هو الـطريق السويّ في هذا المقام .

يقول الوزيـر المغربي في إحـدى رسائله: « . . . إذ كـان أصلي من البصرة ، وانتقل سلفي عنها في فتنة البـريدي إلى بغـداد ، وكان جـدّ أبي ـ وهو أبو الحسن علي بن محمـد ـ يخلف على ديوان المغـرب ، فنسب به إلى المغربي ، وولد له جدّي الأدنى ببغداد في سوق العطش ، ونشأ وتقلَّد أعمـالاً كثيـرة ، منهـا تـدبيـر محمـد بن يـاقـوت عنـد استيـلائـه على أمـر المملكة . . . وأقام والدي وعمّي بمدينة السلام وهما حدثان » . ثم يصف كيف انتقل الجدّ وأبناؤه الى مصر ثم عادوا جميعاً إلى حلب ، وعـاشوا في ظل سيف الدولة : « واستولى جدّي على أمره استيلاءً تشهد به مدائح أبي نصر ابن نباتة فيه ، ثم غلب أبي من بعده على أمره وأمر ولده غلبة تدل عليها مدائح أبي العباس النامي فيه ، ثم شجر بينهما ما يتفق مثله بين المتصاحبين في الدنيا . . . » وأخيراً استقرَّ الأب بمصر ، ونقل اليها ابنه وسائر عائلته من حلب ، ولقي حظوة بمصر إلى أن تغيَّرت الظروف .

فأبو القاسم الحسين ـ إذن ـ ليس مغربيّاً ، وإنَّما هو عراقي الأصل ، يرتفع نسبه الى الفرس . وقد ولد بحلب حين كان أبوه وزيراً لسيف الدولة . ثم وزر لابنه من بعده . وبحلب نشأ ونال ثقافته . يقول أبوه في ذكر نشأتـه وثقافته : « وُلِدَ ـ سلَّمه الله وبلَّغه مبلغ الصالحين ـ أول وقت طلوع الفجر ، من ليلةٍ صباحُها يـوم الأحـد الثـالث عشر من ذي الحجـة سنـة سبعين وثلاثمائة . واستظهـر القرآن وعـدَّةً من الكتب المجرَّدة في اللغـة والنحو ،

(١) الضَّرْبُ: الرجل الخفيف اللحم ، وذو العِبَالة : الغليظ الضخم ، والدِّرْحَايَة : الكثير اللحم القصير السمين.

(٢) الثّفال : الجلد الذي يبسط تحت رحى اليد ليقي الطحين من التراب.

(٣) السُّحاية أو السُّحاءَة : قطعة من القِرْطاس.

(٤) أمُّ دَفْر : الدنيا ، الفِحَا (بفتح الفاء وكسرها): التوابل والأبزار.

ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم . ونظم الشعر ، وتصرَّف في النثر . ويلغ من الخطّ ما يقصر عنه نظراؤه ، ومن حساب المولَّد والجبر والمقابلة وجميع الأدوات الى ما يستقلّ بدونه الكاتب . وذلك كله قبل استكماله أربع عشرة سنة . واختصر هذا الكتاب [يعني « إصلاح المنطق » لابن السكّيت]، فتناهى باختصاره ، وأوفى على جميع فوائده ، حتى لم يفته شيء من ألفاظه ، وغيَّر من أبوابه ما أوجب التدبير تغييره للحاجة الى الاختصار ، وجمع كل نوع إلى ما يليق به ، ثم ذكرتُ له نظمه بعد اختصاره ، فابتدأ به ، وعمل منه عدة أوراق في ليلة . وكان جميع ذلك قبل استكماله سبع عشرة سنة . وأرغب إلى الله في بقائه وسلامته » .

وعلى هذا ، فإنَّ المعري كان يكبر أبا القاسم المغربي بما لا يقل عن ثماني سنوات ، أي أنّه كان في الخامسة والعشرين حين كان أبو القاسم في السابعة عشرة . ومع أنَّ أبا القاسم انتقل بصحبة أبيه وسائر آل المغربي إلى مصر سنة ٣٨١ (أي وهو في سن الحادية عشرة) ، فإنّه كان شديد الحنين إلى عهد نشأته بحلب ، فيقول في بعض شعره ـ من بعد ـ :

حنَّ قلبي إلى معالم با ... بلا حَنين المُوَلَّهِ المَشْغوف
مطلب اللهو والهوى وكنا ... س الخُرَّدِ العِيْنِ والظِّباءِ الهيف
حيْثُ شَطَّا قُوَيْقٍ مسرحُ طرفي ... والأسامي مُؤانِسي وأليفي
ليس مَنْ لم يَسْلُ حنيناً إلى الأو ... طانِ إن شَتَّت النَّوى بظريف

كما أنّه يَحِنُّ إلى مَعَرَّة النعمان ، مما قد يدلّ على أنّه عرفها قبل الرحلة الى مصر ، وليس بمستبعد أن يكون في تلك السنّ قد تعرَّف الى ابي العلاء ، وأعجب به ، وقرّر أن يشأى شأوه في الدرس والاطلاع ، إذ من المرجَّح أن يكون لوالده ـ وهو وزير سيف الدولة ـ صلة قوية بالمعرَّة ، مما جعل أبا العلاء المعرّي يهتمّ بأخباره ، بل لعلّه سمع منه مباشرةً أخباراً لم تضيّعها ذاكرته القوية ، فهو يروي في « رسالة الصاهل والشاحج » أنّ عليّ بن الحسين المغربي حدَّث أنّه كان مع سيف الدولة علي بن حمدان ، وهما خاليان ، فسأله سيف الدولة عن التزويج ، فقال له علي بن الحسين : لي بنت عم وأنا أنتظر قدومها عليّ ، فتلفّت سيف الدولة يميناً وشمالاً ، هل بقربه من يسمع كلامه ، ثم قال : لا تفعل ، بنت العمّ نبت الغم . ومما يقوّي القول بهذه العلاقة أنّ علي بن الحسين لم يكد يعود من مصر الى ديار الشام على رأس جيش صدَّ هجوماً رومياً عند حارم ، حتى سجّل أبو العلاء ذلك بقصيدة له ، مطلعها :

هو الهجرُ حتى ما يُلِمُّ خيالُ ... وبعضُ صُدود الزائرين وِصَالُ

أشاد فيها بانتصار ابن المغربي في تلك الوقعة ، ومدحه بقوله :

فلا زلتَ بدراً كاملاً في ضيائه ... على أنّه عند النَّماء هلالُ
فما لخميسٍ لم تَقُده عرامةٌ ... ولا لزمانٍ لست فيه جمالُ

وقد تمت هذه المعركة في أيام العزيز بالله صاحب مصر (الذي توفي سنة ٣٨٦) ، فهي قد حدثت قبل ذلك العام ، ببضع سنوات ، وكان القائد الأعلى هو بنجوتكين التركي ، وابن المغربي قد عُيِّنَ من قبله ، غير أن القصيدة لا تشير الى القائد الأعلى ولا الى العزيز ، وإنما تقتصر على مدح الجيش المقاتل وقائده ، وتكاد أن تقتصر على إعجابه الشخصي بعليّ بن الحسين المغربي لما حقَّقه من نصر ، وهو إعجاب عاش مع الزمن ، حتى أنّه حين تذكّره بعد وفاته بسنوات عديدة قال فيه: « فقد كان ذلك الرجل سيِّداً ، ولمن ضعف من أهل الأدب مؤيِّداً ، ولمن قَوِيَ منهم وادّاً ، ودونه للنُوبِ مُحادّاً . وكان كما قال القائل:

وإذا رأيت صديقه وشقيقه ... لم تدرِ أيُّهما ذوو الأرحام

وكان كما قال الطائي :

كلُّ شِعْبٍ كنتم به آل وَهْبٍ ... فهو شِعْبي وشِعْبُ كُلِّ أديب

وفي هذا البيت الأخير الذي استشهد به إشارة إلى أنّه كان يعدُّ آل المغربي « شِعْبَه وشِعْبَ كلّ أديب » ، مُصِرّاً على موالاتهم ومحبتهم ، رغم كل ما قد يقوله فيهم الشائنون المبغضون .

لا عجب إذن ـ وهذا الإعجاب متبادَلٌ ـ أن يكون أبو العلاء هو المرجع الكبير الذي يُعْرَضُ عليه أول نتاج يحقّقه الفتى أبو القاسم المغربي ـ أعني اختصاره « إصلاح المنطق » لابن السكّيت . وإذا لم يكن ذلك بدافع من نصيحة الأب نفسه ، فقد تمَّ بدافع من إيمان الفتى أبي القاسم ، لأنّه ـ فيما يبدو ـ لم يكن يقلّ عن أبيه إعجاباً بقدرة أبي العلاء . واختصار كتاب ـ مهما يبلغ من الجودة والاتقان ـ لا يعدّ عملاً ابداعياً ، حتى يُجرِّد له أبو العلاء المعرّي همته ويملي فيه رسالة طويلة نسبياً ، تعرف بـ« الإغريضية » أو « رسالة الإغريض » ، افتتحها بقوله : « السلام عليكِ أيتها الحكمة المغربية والألفاظ العربية ، أيُّ هواء رقاك ، وأيُّ غيث سقاك ، برقه كالإحريض وودْقُهُ مثل الإغريض » (ومن هنا جاء اسم الرسالة) . فإهداء مختصر إصلاح المنطق لم يكن إلاّ سبباً واحداً حدا إلى إملاء هذه الرسالة من بين عدة أسباب ؛ إذ يبدو أنها توكيد لاستمرار علاقة طيبة بآل المغربي : « إنْ كاتبتُ فلا ملتمسُ جواب ، وإن أسهبتُ في الشكر فلا طالبُ ثواب ، حسبي ما لديّ من أياديه ، وما غَمَرَ من فضل السيد الأكبر أبيه ، أدام الله لهما القدرة ما دام الضربُ الأول من الطويل صحيحاً ، والمنسرح خفيفاً سريحاً . . . » .
وإنّ المراسلة بين آل المغربي والمعرّي كانت مستمرة ، فهو يذكر في « الإغريضية » أنّه استقبل رسولين من لدن ابن المغربي : أحدهما اسمه موسى ، والآخر هو الزهيري . ثم إنَّ الكتاب لم يصل وحده ، وإنما وصل معه ـ فيما يبدو ـ قصيدة أو قصائد من نظم أبي القاسم ، ولذلك وقف أبو العلاء عند شعره يقرّظه ويثني على قدرته في ممارسة مختلف الموضوعات ، قبل أن يتحدث عن اختصاره « إصلاح المنطق » . فلمّا عرض لهذا الكتاب بالغ في الثناء : « . . . شرفاً له تصنيفاً شفى الريبَ ، وكفى من ابن قُرَيْب ، ودلّ على جوامع اللغة بالايماء ، كما دلَّ المُضْمَرُ على ما طال من الأسماء » . حتّى لقد فضَّله على أصل ابن السكيت. وأبرز ما في الرسالة أمرين : قدرته ـ أعني أبا العلاء ـ على التصرّف بالصور النحوية واللغوية والعروضية ، ومعرفته بكتاب « إصلاح المنطق » وبعيوبه ، معرفة حفظ ودرس ، ثم ختم رسالته بالشكوى من أنّه يقطن في موطن لم تَجُدْهُ عِهادُ الأدب ، وأمّا من حيث النَّشَب فإنَّ لديه بُلْغَتين : بلغَةَ صبر ، وبلغَة وَفْر (أي أنّه ليس في حاجة إلى عون مادي) . واعتذر عن مكاتبة الابن بدلاً من الأب بقوله : « وأنا في مكاتبة حضرة سيدنا الجليلة ، والميل عن حضرة سيدنا الأجلّ والده ـ أعزَّ الله سلطانه ـ كسَبَا بن يعرب ، لما ابتهل في التقرّب إلى خالق النور ، ومُصَرِّف الأمور ، نظر فلم يرَ أشرف من الشمس يداً ، فسجد لها تعبّداً . . . » .

إنَّ هذه الرسالة التي أقدِّر أنّها صدرت في حدود سنة ٣٣٨ هـ ، لم تكن ، على وجه التأكيد ، أول رسالة من المعري الى الوزير المغربي ، بل تشير الدلائل جميعها الى أنَّ « رسالة المنيح » كتبت قبلها . ولم تكن « رسالة المنيح » جواباً على رسالة خُصَّ بها المعري، وإنّما كانت جواباً عن رسالة عامة بعث بها أبو القاسم المغربي إلى أهلِ المعرَّة جملة : « وذلك أنّا معشرَ أهلِ هذه البلدة وُهِبَ لنا شرفٌ عظيم ، وأُلقي إلينا كتابٌ كريم ، صَدَرَ عن حضرة السيد الحبر ، ومالكِ أعنّةِ النظم والنثر ، قراءته نُسك ، وختامه بل سائره مِسْك ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » . وفي رسالة ابن المغربي

سلام للمعري أدخل السرور على قلبه : « فحمل فؤادي من الطرب على رَوْقِ اليعفور ، بل فوق جناح العصفور ، وكأنَّما رَفَعني الفلك ، أو ناجاني الملك » . وإنما أحكم بأنَّ هذه الرسالة قبل « الإغريضية » ، لأنها جاءت جواباً عن رسالة عامة لأهل المعرّة ، وفيها يشير المعرّي إلى العهد الذي قضاه المغربي فيها ، فكأنَّما هو حديث عهد بالرحلة عنها ، « فظعن وأرَجَهُ مقيم ، وارتحل وللثناء تخييم » . كما أنَّ « تَرَسُّم » المعري فيها في خطاب أبي القاسم يبدو وكأنَّه غير قادر على « رفع الكلفة » بينهما ، فهو حين يقرأ ثناء ابن المغربي عليه يستشعر التواضع ، ويقول : « ومن أنا . . . هل أدبي في أدبه إلَّا كالقطرة في المطرة » . وعندما يريد أن يسأله شيئاً من نظمه ونثره ينتحل التهيّب ويقول : « لقد هممت باسترفاد حضرته البهية من بدائعه ما يَفْضُلُ المالَ ويكون الجمال ، فعداني عن ذلك إعظامي له واستحقاري نفسي ، وارعوت بي الهيبة الى إرمامي وكفى ، وأبى الله إلَّا أن يكون التفضّل من قبله ، فوعد التشريف بما سنح من المنثور والمنظوم » . وفي الرسالة لفتة لا نجدها في « الإغريضية » ، وهي تنويه المعرّي برعاية ابن المغربي للمعرّة « بكتاب حكمةٍ يوفده ، وعهدٍ بصيرة يعهده » ، أو برعاية مزالفها وحماية مزارعها ، ويذكّره ببؤس حال أهلها لإحاطة العدو بها ، « فهم يتوقّون كِفّة الحابل ، ويتوقّعون رَشْقَ النابل ، وسالِمُهم هامةُ اليوم أو غدٍ ، وإن لم يكن ما خافوا فكأنْ قَدْ » ، وكأنَّما المعرّي يخاطب في هذه الرسالة المغربي الأب ـ أبا الحسن ـ لا ابنه أبا القاسم ، وفي هذا ما قد يشير الى ما كان يعلّقه المعرّي من آمال على آل المغربي ، منذ أن أصبحوا ذوي مكانة عالية في الدولة الفاطمية ، للنظر الى حال البلاد الحلبية ، أو إن شئت الشام ، وفي مقدمتها المعرّة .

هذا من جانب المعرّي ، أما من جانب أبي القاسم المغربي فلم أعثر إلَّا على رسالة واحدة موجّهة الى المعرّي وإلى شخص آخر ، مبنية على التثنية : « سيِّدَيَّ » ، وفيها تشوّق كثير ، ومراوحة بين النثر والنظم ، وليس فيها ما ينبيء عن سببٍ باعثٍ لكتابتها سوى ذلك ، وفيها لمحة من شكوى الحال : « وأمَّا حالي وما أنا عليه فجملتها أنِّي أمسي وأصبح في غلّ التدبير ، وأروح وأغدو في سجن المقادير ، هدفاً لسهام الليالي والأيام ، وعرضةً لأسنَّة الأحوال والأعوام ، أجد ما لا أريد وأريد ما لا أجد » . وهي شكوى عامة لا تحدِّد وضعاً ، وربما كانت أدلَّ على مزيد من الطموح لا على بؤس الحال أو تردّيها . ولا نجد لأبي العلاء جواباً عن هذه الرسالة ، وإنَّما نجد له قطعة تدلّ على أنَّها كانت في تاريخ متأخر ، ولعلها كانت بعد خروج أبي القاسم من مصر بسنوات ، وهذه هي القطعة : « كلَّما همَّ خبري بالهمود ، وأشرفت ناري على الخمود ، نعشني الله بسلامٍ يَرِدُ من حضرته ، يجعلِ أثري كالروضة الحَزْنِيَّة والبارقة المُزْنِيَّة ، ولو كنتُ عن نفسي راضياً لشرَّفتُها بزيارة حضرته ، ولكنّي عنها غير راضٍ ، وما أقربني الى انقراض ، وإنما أنا قَمِيصُ التَّمْرادِ ومتخلّف المَراد ، فقد عُدِدْتُ في أناس قيل فيهم ﴿ تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ وإن نعمتُ أو شقيت فدعائي يتصل بحضرته ما بقيت » . فقوله : « لشرّفتها بزيارته » ، لا يمكن أن يعني أن أبا العلاء كان ينوي زيارته في مصر ، وإنما كان ابن المغربي منه دانياً حينئذٍ ، إمَّا في الرملة ، وإمَّا في بغداد ، وإمَّا في مكان آخر يسهل على مثله السفر اليه ، وقوله : « وما أقربني الى انقراض » ، يشير الى وهن في العزيمة واستشعار لوطأة العمر . وبين اليأس الذي تنضح به هذه الرسالة والآمال العراض فى « رسالة المنيح » بونٌ شاسع . فما السرّ في ذلك يا ترى ؟ .

أعتقد أنَّ ذلك كله يعود الى إخفاق الوزير المغربي في ثورته على الدولة الفاطمية ، فقد ذهب العزيز وجاء الحاكم ، فقتل والده وعمه وأخوين له ، وهرب أبو القاسم الى الشام مع بعض العربان ، وحصل عند حسَّان بن المفرج ـ زعيم طيِّىء ـ واستجار به ، وأشار عليه بمباينة الدولة الفاطمية ، وبمراسلة أبي الفتوح الحسن بن جعفر العلوي أمير مكة ومبايعته ، ليصبح خليفة . وترسَّل أبو القاسم بنفسه في انجاز هذا الأمر ، وسار الى العرب كلها من سُليم وهلال وعوف بن عامر وغيرهم ليبايعوا أبا الفتوح خليفةً عليهم بدلاً من الفاطمي ، ثمَّ جاء بابن جعفر العلوي أمير مكة ودخل به الرملة ؛ فتلقاه بنو الجرَّاح ، وقبَّلوا الأرض بين يديه ، وسلَّموا عليه بإمرة المؤمنين . وأمَرَ بالمعروف ونهى عن المنكر ، وخطب بذلك على المنبر . غير أنَّ هذا التدبير لم يتم ، إذ كتب الحاكم الفاطمي الى حسَّان وإلى المفرج والد حسَّان ، وبذل لهما من الوعود ما جعلهما يتردَّدان في نصرة هذه الثورة ، فضعف أمر أبي الفتوح ، وعاد إلى موطنه مكة ، وهدأت الثورة التي تريد قلب الدولة الفاطمية ، كأنَّها لم تكن . وفي الوقت نفسه كتب الحاكم إلى أبي القاسم يقوّل له : « إنَّك آمن بأمان الله ورسوله محمد المصطفى وأبينا علي المرتضى والأئمة من آلهما مصابيح الدجى ، وأمان أبينا الأقرب نزار أبي المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين . . . أماناً ماضياً لا يُتَعَقَّبُ بتأويل ، ولا يتبع بنسخ ولا تبديل » . وشفع هذا كله بالأمان المؤكّد . ولكنَّ الوزير المغربي كان قد وصل قبل بلوغ الأمان الى العراق يؤمّ فخر الملك أبا غالب وزير مشرف الدولة أبي علي . ولكن الخليفة العباسي ، القادر لم يكن مرتاحاً لوروده ، فاتهمه بنيّة إفساد الدولة العباسية .

إنني لن أحاول في هذا المقام تتبّع خطوات الوزير المغربي ، ولكن يكفي من هذا أن أقول إنه أخفق في زعزعة الدولة الفاطمية ، وإنَّ ثورته ببني الجرَّاح الطائيين لم تسعف على تغيير الأوضاع .

المهم أنَّ هذه الثورة أو إخفاقها ، واكب عودة المعرّي من بغداد ، وهو الذي كان يعرف معرفة اليقين تلك الحركة البدوية ، ودورها في محاولة زعزعة الحكومات القائمة حينئذٍ ، وهي التي يصورها بقوله ، بعد العودة :

ومـا أذهـلتني عن ودادِكَ روعـةٌ	وكيف وفي أمثـالهـا يجِبُ الغَبْطُ
ولا فتـنـةٌ طـائـيَّـةٌ عـامـريَّـةٌ	يُحَرَّق في نيرانها الجَعْـدُ والسَّبْطُ
وقد طَرَحَتْ حولَ الفُراتِ جرانها	إلى نِيْـلِ مِصْرٍ فـالوَسَاعُ بها تَقْـطُو

ولكن هذه الآمال التي واكبت عودته من بغداد ، وثورة الوزير المغربي ، حينئذٍ ، أوقعته في يأس عميق . ولقد كنّا نقرأ من قبل أنَّ أبا العلاء بعد عودته من بغداد خاطب أهل بلده بأنّه مزمع على العزلة ، ولكنّا حين نقرن ذلك بالاخفاق الذي مني به الوزير المغربي ندرك أنَّ العزلة لم تكن أرباً شخصياً ، وإنَّما لعلَّها كانت نتيجة لأحلام كان المعرّي يعقدها على أبي القاسم المغربي وثورته . ولهذا ، فإنَّ الوزير حين كتب له بعد إخفاق تلك الثورة رسالته التي أشرت اليها ردَّ عليها أبو العلاء بما يشرح موقفه اليائس الذي لا يرجو له انتعاشاً .

وتلفّ المعرّي عزلته ، وتتقلّب الأيام بالوزير المغربي تقلّباً ليس هذا موطن شرحه ، ولكن التباعد بين الرجلين ـ الصديقين ـ لم يوقظه إلَّا ناقوس الموت ، موت الوزير ، فإذا بأبي العلاء يرثيه ، وهو مشغول بالتحدّث عن القضايا الانسانية لا عن الأفراد .

ولكن سخرية القدر لا تقف عند هذا الحدّ . لقد مات الوزير المغربي وأبَّنه أبو العلاء على نحو لم يفعله مع أحد آخر ، وأصبحت ذكراه موضع حديث طويل ، بل أخذ أبو العلاء يقيس الناس بعلاقاتهم به ، وتشاء الأقدار ذات يوم أن يذكروا على مسمع منه رجلاً اسمه ابن القارح فيقول أبو العلاء : « أعرفه خَبَراً ، وهو الذي هجا أبا القاسم بن الحسين بن علي المغربي » . فيكتب ابن القارح رسالة يتحدّث فيها عن نفسه ، وعن علاقته ببني المغربي ، وعن الخطيئات وأصحابها على مرّ الزمن ، وكأنَّما يسائل المعري : أين يقع صاحبك الوزير المغربي بين أصحاب ذوي الخطيئات ؟

ذلك أنّه صوّره في رسالته امرءً شديد الطموح، حتى كان والده نفسه يخاف مغبّة طموحه، وأنَّ أبا القاسم قال له يوما: ما نرضى بالخمول الذي نحن فيه. فقال له: وأيّ خمول هنا؟ تأخذون من مولانا ـ يعني الخليفة الفاطمي ـ في كل سنة ألف دينار، وأبوك من شيوخ الدولة، وهو معظّم مكرّم. فقال: أريد أن يصار إليَّ ديوان الكتّاب، والمواكب والمقانب، ولا أرضى بأن يُجْرَى علينا كالولدان والنسوان. ويلمّح ابن القارح الى أنَّ الوزير أبا القاسم كان يُسِرُّ حسواً في ارتغاء، وأنّه كان يريد الثورة على الدولة الفاطمية، وأنَّ أباه نفسه كان يتخوّف هذه العاقبة، ويقول: «ما أخوفني أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه». وقبض على لحيته. ويمضي ابن القارح فيعدّد سيئات أبي القاسم، ويصفه بأنّه كان مجنوناً، ويقول: وكان أبو القاسم ملولاً والملول ربما ملّ الملال. ولكنه كان يدري أو لا يدري محبة أبي العلاء لأبي القاسم، بل لعلّه كان يستثيره ليعلن رأيه فيه.

ولكن خاب فأل ابن القارح، إذ ردَّ أبو العلاء على كل ما جاء في رسالته، وعلى أشياء لم تجيء فيها، فسخر منه سخرية عريضة في «رسالة الغفران»، ووضعه في مواضع مضحكة، وتهكّم به ويفهمه لمعنى الذنوب ولمعنى المغفرة تهكماً لا نظير له في الأدب العربي، وكتب في ذلك رسالة تُعَدّ من روائع الأدب العالمي ـ لا الأدب العربي وحده ـ ولكنه سكت فيها عن كل إشارة لأبي القاسم لأنه كان قبل ست سنوات (وهي المدة بين رثاء الوزير المغربي وكتابة رسالة الغفران) قد قال:

إن يَخْطَ الذنبَ اليسيرَ حَفِيظاك فكَمْ من فضيلةٍ مَحّايَهْ

كانت مشكلة الغفران لدى أبي العلاء هاجساً مثيراً قبل أن يكتب اليه ابن القارح رسالته، حتى إنّه في «رسالة المنيح» يقول: «أفبلدتنا جنان أم وضح لأهلها الغفران»؛ فقد كانت تلك المشكلة تلحّ على خاطره، فلمّا طالعه «دَوْخَلَة» أعني ابن القارح بالسؤالات عن أصحاب ذوي الذنوب، كتب اليه «رسالة الغفران»، ليسخر به، وسكت عن أيّ ذكر للوزير المغربي، كأنّما يقول له: عليك أن تقرأ اللزوميات، لتعرف رأيي فيه، فقد كان الوزير المغربي كغيره من البشر ذا هنات يسيرة قيّدها الحافظان، ولكن ما أقربها من الغفران. ولذلك يصدق في رسالة الغفران ما قلته فيها منذ زمن بعيد: «نخطىء كثيراً إذا اعتقدنا أنَّ رسالة ابن القارح الى أبي العلاء هي التي دفعت فيلسوف المعرّة الى انشاء «الغفران» دفعةً واحدة، دون أن تكون مقدماتها حاضرة في نفسه منذ زمن بعيد. ولو أنَّ ابن القارح لم يكتب رسالته، لكان لا بدَّ لرسالة الغفران أن تكتب على نحو ما حين بلغ التهيّؤ النفسي حدَّه الأقصى لابداعها». هذا ما قلته بدافع الحدس القويّ، وأنا اليوم أجد شواهده بالاستقراء، وخير شاهد على ذلك هذه العلاقة التي حاولت رسم خطوطها العريضة بينه وبين الوزير المغربي.

السيد أحمد الحسيني التنكابني:

ولد في تنكابن حدود سنة ١٢٤٥ وتوفي فيها حدود ١٣٠٠ وقرأ المقدمات والمبادىء في تنكابن ثم ذهب إلى طهران واشتغل بالتحصيل وفي شوال ١٢٦٧ ذهب إلى قاشان وبقي بها مشتغلاً بالتحصيل حتى شعبان ١٢٦٨ ثم ذهب إلى أصفهان حتى سنة ١٢٧٣ وكان يحضر عند اعلامها. ثم عاد إلى موطنه وبقي فيه منشغلاً بالتدريس والتأليف وقضاء حوائج العامة له مؤلفات منها:

١ ـ رسالة في المعاد.
٢ ـ رسالة في شرح بعض الأدعية والاحاديث.
٣ ـ الحاشية على شرح الجغميني في الهيئة: فارسية وأخرى عربية[1].

الشيخ أحمد بن الشيخ حمد الله:

كان حياً سنة ١٢١١هـ.

من شعراء القرن الثالث عشر المنسيين لم أقف على تاريخ حياته في كتب السير والتراجم إلا أن الشيخ علي آل كاشف الغطاء ذكره في كتابه الحصون المنيعة في طبقات الشيعة المخطوط وكان من معاصري الشيخ جعفر الكبير صاحب كشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٢٨هـ وله قصيدة في تهنئته عند عوده من الحج سنة ١٢١١هـ قال صاحب الحصون المنيعة (الشيخ أحمد بن الشيخ حمد الله شاعر ماهر جيد القريحة كان في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة لم أقف على شرح حاله ولا ترجمة أحواله سوى إني عثرت له في بعض المجاميع العتيقة على قصيدة نظمها في تهنئة جدي الشيخ جعفر عند مجيئه من الحج عام ١٢١١ ذكرنا بعضها، وعلى بعض مقاطع في الغزل والنسيب منها قوله:

إليك اعتذرنا والفتى يقبل العذرا ... فمن كان يمحو الذنب يكتسب الأجرا
فلا تحسبن تركي الزيارة جفوة ... ولا تحسبن تركي الوصال لكم هجرا
وحقك يوم واحد من فراقكم ... لديّ إذا ما غبتم يعدل الدهرا
أحن إلى رؤياكم كل ساعة ... كما حنّت الخنساء ذاكرة صخرا
وانشق أنفاس النسيم لعلني ... أشمُ بها من طيب أنفاسكم عطرا
وأكتم سري في هواكم مخافة ... وسيما الهوى تبدو وإن كتمت جهرا
وإني على العهد الذي تعهدونه ... حفيظ ذمام لا اذيع لكم سرّا
هواكم بقلبي طائر يستفزني ... ولم يتخذ إلا فؤادي له وكرا
فمنوا على الخلّ الوفي بنظرة ... أسرُّ بها يوما وإن وقعت شررا
هبوني إليكم قد أسأت فأحسنوا ... فواحدة الاحسان تجزى بها عشرا
أسرت فؤادي في هواكم محبة ... ودون التلاقي لن أفك له أسرا
فلا ورد لي إلا جميل صفاتكم ... أردّده شوقاً وامعنه فكرا
ولا زال دهري تعتريني همومه ... إذا ما اتت صبحا اتاني بها عصرا
فدمعي طليق في هواكم مسلسل ... وقلبي بقيد البين قيدته قسرا
أغالط خلي في هواكم مخافة ... ورب خليل يبطن الغش والغدرا
واعرض عمن في هواكم يلومني ... كأن بسمعي عن ملامته وقرا

(1) الشيخ محمد السماوي.

وليس امتناعي عن مزارك رغبة
ولكن لأمر أنت في كتمه ادرى
يعزُّ على مثلي فراقك ساعة
وربَّ فراق في الهوى يهدم العمرا
فلا أحسب الخسران فقدان درهم
ولكن فراق الخل أحسبه خسرا
لعل زماني أن يمنَّ بعودة
ويبدل ذاك العمر في قربكم يسرا

وله قصيدة يمدح فيها الشيخ جعفر الكبير صاحب كشف الغطاء عندما رجع من سفر الحج سنة ١٢١١هـ:

روت لنا سحراً ريح الصبا خبرا
عن النسيم صحيح النقل معتبرا
اضحت تحدث عنه وهي صادقة
ولم يكن بالذي قد حدثته مرا
أن البشير من الأحباب يخبرنا
ان المهنا إلى أوطانه سفرا
فقمت اسعى قرير العين من فرح
أجرُّ ذيل الهنا عجلان مبتدرا
ابشر النفس فيما كنت نائله
ولن يضيع إلهي أجر من صبرا
فيا له خبراً تمَّ السرور به
وضاع منه الشذا في الكون وانتشرا
والدهر أضحى يهنينا وينشدنا
أهلاً وسهلاً بمن قد حج واعتمرا
ومن سعى طائفا بالمروتين ومن
نال المنى بمنى والعز والظفرا
ومن إلى مشعر البيت الحرام مضى
وقد قضى بالصفا ما فيه قد أمرا
ومن إلى عرفات قد مضى وجلاً
يبغي الوقوف لها لله مبتدرا
ومن تجرد للأخرى وتاق لها
شوقاً إليها وللدنيا لقد هجرا
شمرت ذيل السرى لله منتدباً
لم تخش أينا ولم ترهب له خطرا
لله نوق سرت فيكم ميممة
بيتاً مشيداً لمن قد حج واعتمرا
تسابق الريح جريا في السرى بكم
إذا قفوت ثراها لم ترّ الأثرا
على وصول إلى بيت يطوف به
غر الملائك في أفلاكها زمرا
حتى انيخت بأعتاب مقدسة
غرثىٰ البطون لها السير المجد بَرا
اعتاب قدس بها الأملاك محدقةً
طوبى لمن خده في تربها عفرا
فبتّ فيها تناجي الله مبتهلاً
تذري دموعاً تحاكي الدر منتثراً

وله قوله:

ألا يا نسيم الوصل خذ لي تحية
إلى العالم الحبر الذي ما له مثل
ومن جرذيل الفخر كهلا ويافعا
وداست على هام الثريا له نعل
نتيجة آباء كرام اعزة
لهم منزل سامي الذرى حيثما حلوا
وحقك إني ما قطعت وصالكم
ولا عافني عن قرب ناديكم شغل
ولكن قضاء الله جل جلاله
غدا مانعاً والمرء يخطئه الفضل
وكيف ابث الوصل بيني وبينكم
وإني لكم فرع وانتم لي الأصل
أحن إليكم في الدجى كل ليلة
حنين خليل شاقه الالف والخل
وإني على ما تعهدون من الوفا
وما شاب قلبي في ودادكم غل
وإني وفيّ بالعهود وما اعترى
عقود مواثيق الوداد لكم حل
أروم وصالا والمقاديرتلتوي
ويمنعني داء الخصاصة والقل(١)

الشيخ أحمد

ابن الشيخ عبد الإمام بن صالح آل سيف الأحسائي البحراني.

وصفه في (طبقات أعلام الشيعة) بقوله: (عالم فاضل) ووالده الشيخ عبد الإمام كان أيضاً من العلماء.

ولد المترجم له في (البحرين) وبها كان مسكنه ووفاته ولهذا يقال له (البحراني). وأصله من (الأحساء)، ولا نعلم سنة مولده ولا تاريخ وفاته غير أنه كتب بخطه بعض الكتب العلمية بتاريخ ١٢٣٣هـ ــ كما في (طبقات أعلام الشيعة) ــ.

وكان قد تلقى دروسه العلمية على يد علماء عصره الأعلام ومنهم والده الذي له الرواية عنه أيضاً.

وللمترجم له أخ عالم أيضاً اسمه الشيخ علي كان حياً سنة ١٢٠٧هـ، ولا نعلم عن حال المترجم له أو أخيه شيئاً غيرهذا(٢).

الشيخ ميرزا أحمد:

ابن الشيخ ميرزا علي أصغر بن الشيخ حسين بن الشيخ محمد صالح القزويني آل الصالحي ولد حدود سنة ١٢٩٧ وتوفي سنة ١٣٣٩.

كان من علماء عصره البارزين وائمة الجماعة والفتيا أخذ أوليات **العلوم وشطراً من السطوح على اعلام رجال أسرته في المدرسة الصالحية في** قزوين ثم هاجر إلى العراق فحضر في الفقه والأصول في كربلاء على ميرزا علي نقي الصالحي الحائري ثم استقر في النجف وتخرج على الأخوند الملا محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية ثم رجع إلى موطنه قزوين بعد سنة ١٣٣٦ **فانتهت** إليه الرياسة وشغل كرسي التدريس والفتوى والامامة ورجع إليه الناس في أمر التقليد. إلا إنه لم تطل أيامه فاختطفته يد المنون. **له في الأصول مغنى الكفاية وفي الفقه كفاية الفقه من العبادات وبعض المعاملات.**

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) السيد هاشم الشخص.

وله حواشي على كفاية استاذه الأخوند الخراساني وغيرها.

السيد أحمد الغريفي بن السيد علوي البحراني:

ولد في المنامة (البحرين) سنة ١٣٦٥هـ وتوفي فيهاسنة ١٤٠٥ بحادث سير في سن السابعة صحب والده في رحلته إلى مدينة النجف الأشرف حيث واصل أبوه الدراسة فيها وهناك أكمل المترجم الدراسة الابتدائية وواصل دراسته فأكمل الثانوية ثم عاد مرة ثانية إلى العراق والتحق بكلية الفقه في النجف الأشرف ونال شهادة البكالوريوس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية عام ١٩٧١م. كما واصل الدراسة الحوزوية فحضر عند والده وعند السيد محيي الدين الغريفي والسيد علي الفاني والسيد محمد باقر الصدر والسيد أبو القاسم الخوئي. ثم سافر إلى القاهرة وهناك حصل على شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية سنة ١٩٧٩م. ثم عاد إلى مسقط رأسه البحرين حيث حل فيها مرشداً هادياً فترك أثراً في محيطه. بما كان يلقيه من خطب ودروس وإرشاد ووعظ.

له من المؤلفات:

كتاب البراءة الأصلية في الشريعة، الاسلامية وهو رسالته للماجستير، وكتاب ضم محاضراته التي كان يلقيها على الناس، وأغلبها في تفسير القرآن [١].

السيد أحمد بن فضل الله الحسيني الأشكوري:

كان حياً في أواخر القرن الثاني عشر.

كان من العلماء الفقهاء لم نعلم من حياته شيئاً وقد رأيت من تأليفاته ترجمة لكتاب (الحيدرية) في الفقه ــ تدل على سعة علمه وإطلاعه [٢].

الشيخ أحمد بن الشيخ محمد التألهي القزويني:

ولد في قزوين سنة ١٣٢١هـ كما حدثني به وتوفي بها في سنة ١٣٨٦هـ ودفن في مقبرة آل الصالحي في روضة الشاه زاده حسين بن الإمام الرضا عليه السلام.

قرأ المقدمات على والده الشيخ محمد والنحو والصرف والمطول على الشيخ يونس القزويني وأخذ السطوح عن الشيخ علي الطارمي والشيخ محمد الطارمي وحضر الفقه والأصول على الشيخ يحيى المفيدي ثم التحق بحوزة السيد أبي الحسن الرفيعي القزويني وأخذ عنه الفقه والأصول والحكمة والفلسفة في المدرسة الصالحية واختص باستاذه الرفيعي، ثم زوج ابنته لابن استاذه الرفيعي فتوطدت علاقتهما وأصبح من حواريي استاذه المذكور. تصدر للتدريس في مدرسة الالتفاتية بقزوين والتف حوله جمع من الطلاب والفضلاء فتخرج عليه جماعة من العلماء. نزح إلى العراق سنة ١٣٧٥هـ وحل في دارنا بكربلاء عند والدي قدس سره وهذا أول لقاء لي معه وكان يحفظ من أخبار العرب وقصصهم وأشعارهم الشيء الكثير وخاصة في التاريخ والسير وصاهرته على ابنته ثم سافر إلى النجف وحصل على إجازات من علمائها الأعلام. وله مؤلفات جميعها بالعربية [٣].

أبو بكر احمد بن محمد بن السري:

مرت ترجمته في الصفحة ١١١ من المجلد الثالث، ونزيد عليها هنا ما يلي:

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء:

الإمام الحافظ محدث الشيعة. كان موصوفاً بالحفظ والمعرفة إلا إنه يترفض، قد ألف في الحط على بعض الصحابة وهو مع ذلك ليس بثقة في النقل. وقال محمد بن حمّاد الحافظ: كان مستقيم الأمر عانه دهره، ثم في آخر أيامه كان أكثر ما يُقرأ عليه المثالب.

الملا أحمد الرمل بن محمد:

ولد في مدينة سوق الشيوخ (العراق) سنة ١٣٠٧ وتوفي في مسقط ودفن في النجف الأشرف وآل الرمل عشيرة شهيرة في البحرين.

درس النحو والصرف والبيان في سوق الشيوخ، واتقن فن الخطابة الحسينية ومارسها واحتذى فيها حذو أبيه الملا محمد فقد كان خطيباً حسينياً. ثم انتقل إلى بلدة (أبو الخصيب) من أقضية مدينة البصرة وأقام فيها حوالي العشر سنين ثم نزح إلى مدينة المحمرّة في خوزستان وهناك لازم الخطيب الشهير السيد سلمان البحراني المتوفى سنة ١٣٣٥ الذي كان قد انتقل من البحرين إلى المحمرة، وأخذ بطريقته في الخطابة حتى صار هو بنفسه ممن يشار إليهم بالبنان. وكان يمتاز بصوته الشجي الرقيق، وقد ظل خطيباً بارعاً محبباً إلى أهالي تلك المنطقة.

وإلى ذلك كان يجيد النكتة ويستحضر الطرفة ويتقن صنعها ويحفظ الكثير من أمثالها، وكان سخياً كريماً يساعد الفقراء ويعين الضعفاء، ذا عقيدة راسخة لا سيما في الحسين عليه السلام، فكثيراً ما كان يرقى المنابر لا بداعي المال بل بداعي حبه للحسين عليه السلام خصوصاً في بيوت الفقراء.

كان في المحمرة ملازماً بيت السيد عدنان الغريفي، وكانت له به وبأنجاله بعده أكثر من علاقة صداقة.

من شعره قوله في علي عليه السلام:

أليس به النص يوم الغدير
بلى رغم الناكر الغادر

فبيعته في رقاب الورى
إلى يوم يحشرنا الحاشر

وقوله في الزهراء عليها السلام:

أملي ببنت محمد خير الورى
أم الأئمة صفوة الجبار

إذ تسأل الرحمن إلحاقي بمن
كانوا أخلائي بهذي الدار

وله قصيدة طويلة يمدح بها ابناء السيد عدنان الغريفي:

اهنيك عدنان في فتية
كما طبت طابوا وطاب الخبر

اعادوك حياً ولولاهم
فقدناك فقد الحقول المطر

وقال محمد بن محمد علي جبران يمدح المترجم من قصيدة:

ذاك ابن رمل أحمد بن محمد
رقف الرجاء ببابه المقصود

هو شمس افق المكرمات ومن له
نظم بديع مزدر بعقود

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٢) السيد علي العدناني.

(٣) الشيخ محمد السمامي.

ان قال أخرس قسّ عند مقاله
أو جاد أخجل حاتماً في الجود

السيد أحمد بن محمد حسين شريف الحسيني التنكابني:

ذكره في أعيان الشيعة: ١٠٣/٣ في ترجمة السيد أحمد بن المير محمد حسين الحسيني التنكابني المذكور في تتميم أمل الآمل: ٦٣ ثم اعترض على صاحب الذريعة وقال: والعجب أن القزويني يصفه بهذه الصفات وصاحب الذريعة يقتصر في وصفه على الطبيب الماهر.

أقول: بل هما شخصان ـ الذي ذكره القزويني في تتميم أمل الآمل هو من العلماء وتوفي قبل تأليف تتميم أمل الآمل (أي سنة ١١٩١) وأمّا مترجمنا فكان من الأطباء وكان طبيباً خاصاً لفتح علي شاه القاجاري (١٢١٢ ـ ١٢٥٠) وله مؤلفات منها.

١ ـ بدء الساعة ـ وهو مترجم عن كتاب الرازي وأهداه إلى فتح علي شاه القاجاري طبع في طهران طباعة حجرية.

٢ ـ مطلب السؤول ـ كتبه باسم محمد شاه حفيد فتح علي شاه.

٣ ـ اسهاليه ـ في مداواة مرض الاسهال.

٤ ـ شرح الصلوات على النبي [١].

الشيخ أحمد بن الشيخ مهدي نصر الله:

مرت له ترجمة في مكانها من (الأعيان) **ونعيدها هنا بتفاصيل أوسع** مكتوبة بقلم الأستاذ محمد العوامي.

ولد في مدينة القطيف.

ولا يوجد في المصادر المترجمة لحياته تاريخ دقيق لولادته. ولعله ولد في العقد الخامس من القرن الثاني عشر الهجري وبالتحديد في الفترة ما بين ١٢٥٤ إلى ١٢٦٠هـ وعلة ذلك ان قصائده المسماة (العلويات السبع) **كان قد انشاها وهو ابن ٢٧ سنة حينما كان مبعداً عن البلاد كما يقول الشيخ** البلادي ومن خلال التتبع نعلم انه هجر البلاد مرتين الأولى ١٢٨١ والثانية إلى نهاية ١٢٨٧ والفترة الأولى كانت أطول من الفترة الثانية ولعله نظم شعره في الفترة الأولى.

اسرته

عرفت اسرته في الأوساط الاجتماعية بتصديها للزعامة السياسية والاجتماعية في منطقة القطيف. فيهم الشعراء والأدباء والعلماء:

* منهم والده الشيخ مهدي بن أحمد نصر الله أبو السعود القطيفي كان وجه القطيف في عهد الحاكم السعودي فيصل بن تركي. توفي سنة ١٢٨١.

* ومنهم عمه الشيخ ناصر بن أحمد نصر الله أبو السعود القطيفي: له شعر كثير وله منظومة في الأصول الخمسة. . توفي سنة ١٢٩٩ وأرخ بعض الأدباء وفاته بقوله «تبكي المدارس فقد ناصرها».

* ومنهم الشيخ مهنا بن أحمد بن مهدي بن مهنا، أبي السعود. المتوفى في أواسط القرن الثالث عشر الهجري.

صنفه المرحوم الحاج الملا علي بن رمضان الخطي في قصيدته (ماضي **القطيف وحاضرها) من النوابغ وقال فيه في تلك القصيدة التي مطلعها:**

يا خط يا وطن الكرام إلا اسمعي
ماذا يقول فتاك ذاك الالمعي

(١) الشيخ محمد السمامي.

كم قد علوت على القرى بنوابغ
نبغوا وصاروا في المقام الأرفع

إلى أن يقول. .

مثل المهنا كان أكبر حاذق
في الطب ليس لفضله من مدفع
كم أبرات كفاه مضني مدنفا
امسى كميت لا يحس ولا يعي

* ومنهم ابن عمه الشيخ عبد الله بن الشيخ ناصر بن أحمد نصر الله ابو السعود القطيفي، له وكالات من كبار علماء عصره كالشيخ محمد طه نجف والشيخ محمد حسين الكاظمي.

وفي سنة ١٣٢٣هـ تولى رئاسة القضاء والفتوى في البلاد[١].

له شعر كثير، توفي سنة ١٣٤١ إلى غيرهم من رجال الأسرة في عصرنا هذا.

بلدته

القطيف: مدينة كبيرة، اشتق اسمها من القطف وهو القطع من العنب ونحوه، وكانت لها قبل الاحتلال السعودي واحة خضراء تمتاز بخصوبة أرضها، مما جعلها تنتج مختلف المحاصيل الزراعية وتصدر انتاجها إلى دول الخليج المجاورة.

وتقع هذه المدينة على الساحل الغربي من الخليج، على بعد (٥٠) درجة من خطوط الطول شرقاً، و ٢٦ درجة و ٣٢ دقيقة، من خطوط العرض شمالاً.

وكان يطلق عليها اسم «الخط» وفي بعض كتب التاريخ كان هذا الأسم يطلق على الساحل الشرقي من الجزيرة العربية الذي يبتدي من البصرة شمالاً وينتهي إلى عمان جنوباً.

كانت القطيف في الماضي عاصمة اقليم البحرين الذي كان يشمل **الأحساء والقطيف واوال (البحرين حالياً) وكان ذلك في أدوار مختلفة ففي القرن** الأول والثالث والتاسع الهجري كانت عاصمة الأقليم، بل هي أزهى مدينة فيه، وإليها كانت تنسب الرماح الخطية الشهيرة، وقد تردد اسمها كثيراً في الشعر العربي القديم، قال عمر بن اسوى:

وتركن عنترة يقاتل بعدها
أهل القطيف قتال خيل ينقع

وقال حمد بن المعني العبدي:

نصحت لعبد القيس يوم قطيفها
وما خير نصح بعد لم يتقبل
فقد كان في أهل القطيف فوارس
حماة إذا ما الحرب شدت بيذبل

امتازت هذه المنطقة بأنها كانت مهداً لشعوب عريقة في الحضارة وبها من الآثار ما يدل على قدمها وحضارتها. .

وسبق لها أن كانت عرضة للاحتلال البرتغالي والهولندي وخضعت للسيطرة العثمانية قبل أن تخضع للاحتلال السعودي لما كانت تتمتع به من موقع جيد على الخليج، ولوجود الثروات الضخمة في أراضيها حتى قبل أن يخرج البترول فيها.

(١) كانت البلاد حينها تحت سلطة الدولة العثمانية في أواخر سنواتها حيث احتل عبد العزيز القطيف والاحساء في منتصف ١٣٣١ هـ.

الفوز والنجاح على رأسه وتربع على دست العز والأمارة أخذت روحه السامية تنازعه إلى اصلاح الوطن العزيز وكان عليه بالطبع قبل كل شيء بجمع زعماء الوطن على الرأي السديد وهذه ضالته المنشودة فأخذ يجد في ذلك قولاً وفعلاً ويشهد بذلك تضمينه هذا البيت في احدى قصائده التي يدعوهم فيها إلى احتماع الكلمة:

ما ان تركت بأرض الخط من رجل
ألا أحق بضرب الرأس من صنم[1]

وهكذا بقي الشيخ سيداً على البلاد حتى توفي في الأول من ربيع الأول سنة ١٣٠٦هـ وشيع تشييعاً كبيراً، ودفن في مقبرة الحباكة المعروفة إلى اليوم في غرب مدينة القطيف والتي دفن فيها عشرات العلماء الأعلام.

بعد وفاة الشيخ تولى الزعامة صهره منصور بن جمعة ثم أخذه عبد الحسين بن جمعة الذي أعدمه الملك عبد العزيز حين احتل الاحساء والقطيف.

شعره وأدبه

التصدي للعمل الاجتماعي والسياسي يأخذ الجزء الأوفر من الوقت مما يسبب في إضعاف الاهتمام بالاولويات الأخرى.

الشيخ نصر الله رغم مشاغله كزعيم سياسي واجتماعي لقومه يتصدى لإدارة البلاد والعباد ويطمح في حل مشاكلهم فإنه كان يولي الأدب والشعر إهتماماً خاصاً.

فله قصائد مدح ورثاء ومجاراة ومناجاة كثيرة منها:

السبع العلويات التي جارى فيها ابن أبي الحديد في علوياته السبع.

وله مجارات المعلقات السبع لشعراء العصر الجاهلي.

وله قصائد في الاحتجاج والمناقضات العقائدية.

وله قصائد كثيرة في مناجاة الله سبحانه وتعالى.

وله قصائد ينظمها لمجالس الإمام الحسين عليه السلام وقد فاقت المائة قصيدة وذكر انه في بعض السنين كان ينظم في كل ليلة من ليالي عاشوراء قصيدة يعطيها لخطباء المنبر ليقرأوها.

وله اشعار في مدح السلاطين العثمانيينكالسلطان عبد الحميد الثاني كما ذُكر ذلك في ترجمته في كتاب (أنوار البدرين) الذي قال عنه إنه لم يكن يقصد في شعره الجوائز إنما كان من أجل إبراز الصوت وإثبات الوجود.

ومن شعره غير المنشور في الأعيان قوله:

هي المعالم خف القاطنون بها
فأصبحت بعد عهد القوم غيطانا
وكنت يوم رحيل الحي شاهدها
أخفقت من غمرات الوجد وسنانا
ترى هوادج يحملن البدور ضحى
والشمس كاسرة عنهن أجفانا
كانت ديار لنا بالجزع فابتدرت
لها الليالي فابلتهن عدواناً
هي الحوادث كم أودت بذي شرف
وشرفت حفدا منها وعبدانا
أودت بآل رسول الله فاقتنصت
منها حبائلها صيدا وفرسانا
فما رعت منهم حقا ولا حفظت
لهم ذماما ولا راقبن حسباناً
كم سيد لعبت أيدي المنون به
وفارس أوردته الحتف لهفانا
كابن البتولة مأوى كل مكرمة
ومستفاض الندى منا واحسانا
فتى يرى الأسد أنعاما وإن مثلت
عند الكريهة اسادا وفتيانا
كم جحفل فر زحفا من صواعقه
والخيل تنعل في الهيجاء جثمانا
في فتية ملكوا الأمكان واقتحموا
إلى طلاع العلا شيبا وشبانا
واوردوا غمرات الموت • انفسهم
مشى الوحا مرحا مثنى ووحدانا
كم واصلوا بالمواضي خطوهم وجلوا
على حياض الردى للصيد خرصانا
شم المعاطس أوابين ما غضبوا
صفحا على من جنى منهم وأهوانا
وفوا ذمام رسول الله فاتخذوا
حدب المنايا لهم في الوخد بعرانا
حلوا من العزفي اعلا معاقده
والبسوه من العلياء تيجانا
وجاوروا المصطفى في الخلد من نزلوا
إلى جوار بنيه الغر كوفانا
وادركوا غاية الفضل الذي منحت
به المكارم اعضادا وأركانا
تحميهم العذبات البيض مشرقة
صحما من الوحش في المشوى وذوبانا
وفي رؤوس القنا من هامهم غرر
تكشف الليل أظلاما وأدجانا
كم البس الملأ الأعلى لهم حللا
من المنا وثوى في الوجد غيطانا
صلى الإله عليهم كم قضوا وطراً
من العلا وشفوا في العيش اشجانا
لم يزمع القوم وردا المردي طمعاً
في الخلد إلّا هدى رشدا وعرفانا
لم أنس خامس أصحاب الكسا فردا
ومنبرا نخد الهيجاء عيدانا
يغشاهم بكميت اللون منحرد
قيد الأوابد يغشى الروع غضبانا
اسمى من الفلك الأعلى مظاهره
فيه
أساخ
لولا
يا منز

(١) ساحل الذهب الأسود للأستاذ محمد سعيد المسلم، ص ١٨٦.

وأهم شيء امتازت به القطيف إنها كانت بلدة علم وأدب وثقافة منذ مئات السنين حيث خرج منها ولفترات طويلة عشرات المجتهدين ومئات العلماء والأدباء وسميت في فترة من الفترات بالنجف الصغري لأهميتها ومكانتها العلمية.

احتلها السعوديون عام ١٩١٣م (١٣٣١هـ)، ومنذ ذلك التاريخ حتى الان يمارس الحكم السعودي فيها الاضطهاد والظلم وتلقى منه الاهمال في شتى ألمجالات. إذ تقوم سياسة هذا الحكم على التمييز المذهبي البشع.

كما ان أبناءها قد حرموا من الوصول إلى المراتب المهمة في السلطة في جميع المجالات السياسية والعسكرية والادارية وغيرها.

حياته

تربي المترجم بالقرب من والده الذي كان عين أعيان منطقة القطيف[1] في عهد الحاكم السعودي فيصل بن تركي بن عبد الله بن سعود الكبير مؤسس الدولة السعودية في دورها الثاني. وبحكم أن والده كان وجيهاً سياسياً واجتماعياً فقد ساعد ذلك أن يأخذ هو ايضاً دوراً مشابهاً. وبعد وفاة والده الشيخ مهدي سنة ١٢٨١ كان هو المقدم في منطقة القطيف فترة من الزمن حتى حدثت خلافات بينه وبين الحاكم السعودي فيصل بن تركي[2] مما دعى الحاكم إلى اعتقاله ونقله إلى سجن الاحساء ومن هناك إلى سجن الرياض وصودرت أمواله وأملاكه.

ثم أرداوا إعادته إلى الاحساء وفي الطريق تمكن من الفرار. وسار في الصحراء متوجهاً إلى قطر مستدلاً بدليل يعرف الطريق ينام معه النهار ويسير الليل.

ومن قطر توجه إلى البحرين وكان أخوه قد سبقه بالهرب إليها مع عائلته.

وفي البحرين حيث عائلة آل خليفة الحاكمة كانت على خلاف مع الأسرة السعودية استطاع الاستقرار ومواصلة كفاح السعوديين.

وقد عانى ما عاناه من المشاكل والمصاعب الكثيرة في نفسه وفي أهله وعائلته وتحمل وصبر أجمل الصبر.

وبقي في البحرين قرابة العام.

وبعد وفاة الحاكم السعودي فيصل بن تركي سنة ١٨٦٥م/ (١٢٨٢هـ) رجع إلى البلاد. وكان الصراع على الملك يزداد احتداماً بين فئات الأسرة السعودية الحاكمة، فقد تناحر سعود وعبد الله ابناء تركي على الحكم وغلب عبد الله اخاه سعود بطريقة دموية عنيفة.

(١) إلى ما قبل حوالي ٣٠ سنة لم يكن للمدن الكبرى المعروفة اليوم بالمنطقة الشرقية كالدمام والخبر والظهران.. أي وجود وكانت القطيف وضواحيها المعروفة بالخط والاحساء وضواحيها بهجر تشكل ما يعرف اليوم بالمنطقة الشرقية.

(٢) هو فيصل بن تركي بن عبد الله (الأول) بن سعود الأول بن عبد العزيز بن محمد بن سعود كان أخر الذين نفاهم إبراهيم باشا إلى مصر، وفجأة ظهر في الرياض سنة ١٢٤٢هـ ـ ١٨٢٦م وسلمه ابوه قيادة جيشه، ووجهه إلى الاحساء، وبها سمع باغتيال ابيه فرجع، وأخذ بثأره، حكم البلاد مرتين: الأولى من سنة ١٢٥٠ ـ ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٥ ـ ١٨٣٩م. وفي هذه المدة راح يتوسع ويفتح البلاد ويدخلها في طاعته، فحاصره خورشيد باشا القائد المصري في بلاد الخرج حتى استسلم له، فنفاه إلى مصر، وظل فيها أربع سنوات استطاع بعدها أن يهرب منها ويعود إلى الرياض حاكماً ثانية. وامتدت هذه المدة سنة ١٢٥٨هـ ـ ١٢٨٢هـ/١٨٤٢ ـ ١٨٦٥م، وفي هذه الحقبة انسحبت الجيوش المصرية من نجد نتيجة لمعاهدة لندن سنة ١٢٥٦هـ (١٨٤١م) فخلا الجو له. كف بصره في أواخر ايامه، وتوفي سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م)، ودفن بالرياض.

واستنصر سعود باخواله العجمان كما استنصر ايضاً بالشيخ أحمد نصر الله كقوة سياسية تمثل الأهالي ليعينه على أخيه عبد الله وقد ابدى الشيخ تجاوباً مع الأمير المهزوم سعود.

وجرت معركة دامية في البادية قرب الأحساء بين جيش سعود وجيش أخيه عبد الله عرفت بمعركة الجودة وذلك في (رمضان ١٢٨٧هـ) حتى أخذ سعود البلاد من أخيه بعد أن أسر أخاه محمداً (قائد جيش أخيه عبد الله) واودعه سجن القطيف وظل حتى اطلق الأتراك سراحه سنة ١٢٨٨هـ.

ذهب الشيخ إلى الأحساء مقر إقامة الحاكم الجديد ليتفاوض معه نيابة عن أهالي القطيف لعل يجد خيرا ولكن الحاكم تنكر له وصادر أمواله وأملاكه وأخذ في مضايقته مما اضطره إلى مغادرة البلاد مرة أخرى إلى البحرين وبعد فترة وجيزة اشتد الصراع من جديد بين الأخوين وزاد سعود في توسعه واحتل الرياض في المحرم ١٢٨٨ وهرب حاكمها أخوه عبد الله إلى حائل ليستنجد بأميرها كما استنجد ايضاً بوالي بغداد مدحت باشا الحاكم العثماني المشهور لمساعدته لانتزاع الملك من أخيه سعود.

ولم يضع الشيخ الفرصة هذه المرة، فقد ذهب إلى بغداد واستحث الأتراك على انتزاع كافة البلاد من آل سعود جميعاً، كحل جذري للمشاكل المتفاقمة في البلاد. (حيث المجاعة وارتفاع الأسعار وصار الناس يأكلون جيف الحمير، ومات الكثيرون بسبب الجوع، وترك الناس يواجهون الموت والمصائب والنهب والقتل والفساد..

وفي بغداد اتفق مع واليها مدحت باشا على تخليص البلاد من يد آل سعود وتوجه مع الأسطول التركي في صفر ١٢٨٨ نحو القطيف والاحساء.

وحول تلك الظروف وتلك الفترة يقول الأستاذ محمد سعيد المسلم:

تشاء الصدفة أن يكون أحمد بن مهدي نصر الله الشاعر المعروف الذي ورث الزعامة من أبيه سيء العلاقة مع النجديين فيسعى هو الأخر إلى تقويض سلطانهم من هذه المنطقة، فقد قام بمغامراته المشهورة بين بو شهر (في إيران) والبصرة واتصالاته بالمسؤولين الأتراك فشجعهم على الاستيلاء على هذه المنطقة، فصدرت الأوامر العليا من الدولة العثمانية (كان ذلك في عهد السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني (١٢٧٧ ـ ١٢٩٣هـ) إلى والي بغداد مدحت باشا، باحتلال القطيف والاحساء وضمها إلى حظيرة الدولة العلية.

ففي سنة ١٢٨٨هـ وجه والي بغداد حملة عسكرية بقيادة محمد باشا نافذ الفريق يرافقه أحمد بن مهدي نصر الله، فاقلعت من ميناء البصرة عبر الخليج، تقلها باخرتان إلى ميناء القطيف، كما صدرت الأوامر إلى عبد الله بن صباح أمير الكويت (يومها كانت الكويت خاضعة لنفوذ الدولة العثمانية) بأن يشترك في الحملة فجهز جيشاً في السفن وجيشاً آخر سار عن طريق البر بقيادة أخيه مبارك الصباح، فلما وصل الجيش العثماني إلى القطيف استقبلته البلاد بارتياح بالغ وفتحت أبوابها في وجه القائد العثماني بسبب ما لاقته من ضروب الفوضى واختلال الأمن في عهد كانت الدولة تعتمد في قوتها على مساندة قبائل البداة[3]

وتولى الشيخ أحمد السلطة كوال للسلطان العثماني على البلاد بعد أن تحقق له طرد السعوديين وأمرائهم المتناحرين منها.

وينقل لنا الشيخ فرج العمران عن عبد الرسول الجشي تلك الحالة فيقول: فكان الحاكم المطلق ذا الهيبة والسلطان وبعد أن انعقدت أكاليل

(٣) تاريخ العربية السعودية لفاسليف ص ٢٣٥.

عليك لا سقت الجرباء ثعبانا
يا مانح الأرض بعد الجدب وابلها
كيف انثنيت بجنب النهر عطشانا
ويا منيع الحمى والدهر شانئه
كيف استباحت لك الأيام أجبانا
إليه برسول الله لو نظرت
عيناه كيف وردت الموت ظمآنا
وكيف رضت قراك الخيل وانتعلت
من شلو جسمك أوصالاً وجسمانا
إذا أقام عليك الدهر من وصب
مآتماً وارتماه الخطب أسوانا
من الفوارس يغشاها إذا اقترعت
تحت العجاجة أقرانا فاقرانا
والخيل عابسة يجري النجيع بها
على الكواثب واللبات غدرانا
هذي المكارم في الحمراء من مضر
امست تجر عرانينا واذقانا
هذي الجياد إلى الغارات صافنة
تدعو من القوم في الألحاد أجسانا
هذي الضيوف وقوف في مجاثمها
تبغي القرى فيثمن الوفد حيرانا
اين العماد لهذي والمثبر لذي
والمستغاث لهذي اينما كانا
في معشر وطأوا هام العلا وجلوا
من المعالي براهينا وتبيانا
امسوا تمج المواضي من نحورهم
دما وتكسوهم الأرياح أكفانا
والهام في قلل الخرصان مشرفة
تتلوا من الآي بين الركب قرآنا
يا لهفتاه لا تراب محجبة
بالمشرفية عزا والقنا شانا
بين النبي وسبطيه وفاطمة
والمرتضى لا ترى ذلا وأهوانا
تسبى جهاراً وما لله منتصر
فيها وتطوي بهن العيس وديانا
من كل بارزة كالشمس مفرقها
أضحت تقنع بعد الستر قضبانا
كم حرمة هتكت فيها لفاطمة
وكم حمى مستباح لابن عمرانا
فأين عنها رسول الله ينظرها
مغانماً لبني حرب وسفيانا
بنو النبي خذوني في جواركم
فقد سقيت من البأساء قدحانا
ودونكم من قسيم المدح رائقة
ولهاء تتلو من الأرزاء فرقانا
تقبلوها بلطف من نوالكم
فقد اتتكم تريد العفو إحسانا
تهفو ولوعا على اعتاب مجدكم
ترجو اقالتها صفحاً وغفرانا
يهديكموها بعيد الدار مغترب
عن الأحبة أوطاراً وأوطانا
فاز (ابن مهدي) إن كنتم له سندا
فقد تورط ليل الاثم حيرانا
فلا تردوا يدي مما علقت به
فقد رجوتكم غوثا واعوانا
في كل يوم لكم مني مغردة
تجلو من المدح آيات وتبيانا

الأمير أردشير ميرزا:

ويقال آكاه ميرزا بن الأمير عباس ميرزا ولي العهد ابن السلطان فتح علي شاه القاجاري المتخلص في شعره بآكاه والملقب بركن الدولة ولد في طهران سنة ١٢١٩ وتوفي فيها سنة ١٢٨٢.

ولد في بلاط جده فتح علي شاه القاجاري وترعرع فيه وأخذ العلم **عن جمع من علماء طهران وبرز في الشعر والأدب والفنون الحربية. له نظم** رائق في أسلوب متين عين في عصر أبيه والياً على عدة مناطق كروس وصائين قلعة، وبعد وفاة أبيه وجده فتح علي شاه انتهت الملكية إلى عمه محمد شاه وفي سنة ١٢٥٢هـ حينما ذهب السلطان محمد شاه لفتح هرات عينه في طهران وصياً على العرش يخلفه في إدارة الدولة اثناء غيابه وعند عودة السلطان إلى طهران عينه على ولاية مازندران وبعد وفاة محمد شاه وتسلطن ناصر الدين شاه سنة ١٢٦٤ عينه الأمير الصدر الأعظم ميرزا محمد تقي خان الملقب بأمير كبير والياً على لرستان وخوزستان وفي سنة ١٢٧٣هـ لقبه السلطان ناصر الدين شاه بلقب ركن الدولة وفي سنة ١٢٧٥هـ عين والياً على آذربايجان. ذكره جمع من المؤرخين منهم ميرزا رضا قلي خان الهداية **في كتابه مجمع الفصحاء ووصفه قائلاً: (.. برع في المعقول والمنقول ونبغ في** العربية والأدب والرياضيات والحكمة، والأخبار، والتاريخ، والسير، والأخلاق، ذو خط جميل. وله نظم ونثر وكان من أعلام علم العروض والبديع وكان يقضي أوقات فراغه بنظم القصائد والغزليات..) ثم نشر قسماً من قصائده وغزلياته.

أقول: له مؤلفات وتحقيقات منها ديوان شعر مخطوط منه نسخة في مكتبة ملك الوطنية بطهران، وطبع له كتابه (مخزن مراثي) فارسي سنة ١٣٠٠ في طهران[1].

أسامة بن منقذ:

مرت ترجمته في **الصفحة** ٢٥٢ من المجلد الثالث، كما مرت في الصفحة ١٩ من المجلد الأول من المستدركات كلمة عن تشيعه. ونأخذ هنا ما ذكره الذهبي في الصفحة ١٦٥ من الجزء ٢١ من كتاب (سير أعلام النبلاء):

ولد بشيزر سنة ثمان وثمانين واربع مئة. وسمع سنة ٤٩٩ نسخة أبي هدبة من علي بن سالم السنبسي وروى عنه ابن عساكر وابن السمعاني وأبو المواهب والحافظ عبد الغني والبهاء عبد الرحمان وابنه الأمير مرهف وعبد الصمد بن خليل الصائغ وعبد الكريم بن أبي سراقة ومحمد بن عبد الكافي الصقلي.

وله نظم في الذروة كأبيه. قال السمعاني: ذكر لي أنه يحفظ من شعر الجاهلية عشرة آلاف بيت.

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

قلت: سافر إلى مصر، وكان من امرائها الشيعة، ثم فارقها، وجرت له أمور، وحضر حروباً ألفّها في مجلد فيه عبر.

قال يحيى بن أبي طيء في تاريخه: كان إمامياً حسن العقيدة، إلا إنه كان يداري عن منصبه ويتاقي، وصنف كتباً منها التاريخ البدري، وله ديوان كبير.

قلت: عاش سبعاً وتسعين سنة، ومات بدمشق في رمضان سنة أربع وثمانين وخمس مئة.

ومات ابنه الأمير الكبير عضد الدولة مرهف بن أسامة في سنة ثلاث عشرة وست مئة عن ثلاث وتسعين سنة وله شعر رائق. روى عنه الزكي المنذري، والقوصي، وجمع من الكتب مالا يوصف. (انتهى ما أورده الذهبي).

ولعل في هذا القول ما يقنع جمال الدين **الآلوسي** بتشيع أسامة، وإن صاحب (أعيان الشيعة) لم يقل ذلك عن غير تحقيق.

الشيخ إسحاق ابن الشيخ أقا محمد إمام الجمعة ابن الشهيد البرغاني القزويني الشهيدي آل قرة العين المتوفى حدود سنة ١٣١١ هـ.

أخذ العلوم الإسلامية من والده الشيخ آقا محمد إمام الجمعة وأمه قرة العين وحضر في الحكمة والفلسفة على الشيخ ملا آغا الحكمي والشيخ ملا يوسف الحكمي القزوينيين وخاله الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني في المدرسة الصالحية ثم توجه إلى العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى وأدرك الشيخ مرتضى الأنصاري وحضر على الشيخ علامة الحائري البرغاني ومدرس الطف المولى الشيخ ميرزا علي نقي الحائري آل الصالحي ثم تخرج على الإمام الشيرازي الميرزا محمد حسن المتوفى سنة ١٣١٢هـ ثم رجع إلى موطنه قزوين فاستقبله كافة طبقاتها وانتهى إليه كرسي التدريس والفتيا ورجع إليه الناس في أمر التقليد وكان من أكابر علماء إيران وله حوزة تدريس معمورة في مدرسة جده الشهيد الثالث يحضرها جملة من الطلاب والفضلاء وقد شارك في نهضة تحريم التنباك وثار ضد ناصر الدين الشاه القاجاري ومعاهدات البلاط مع بريطانيا، له مؤلفات هامة بالعربية والفارسية موجودة كلها عند أحفاده منها تفسير القرآن، تقريرات استاذه الشيرازي في الفقه والأصول، تقريرات استاذه مدرس الطف، ديوان شعر. وكان ينظم باللغتين الفارسية والعربية ذكره شيخنا آغابزرك الطهراني في نقباء البشر قال (... تلمذ في العراق على أعلام الدين كالمجدد الشيرازي وغيره ورجع إلى قزوين مع تأييد وتمجيد من المجدد فصار مرجعاً للأمور إلى أن توفي حدود ١٣٠٧ ومر ذكر أخيه الشيخ **إبراهيم ويأتي ذكر أخيه الشيخ المتوفى قبله ذكرت المترجم له في (هدية الرازي)** وجاء قريب من **هذا** الكلام في كتابه (هدية الرازي إلى الإمام المجدد الشيرازي).

أقول لم يتحقق لي سنة وفاته لأنه توفي قبل استاذه الإمام الشيرازي بـ قليل[1].

أسد الله بن نظر علي خان التنكابني:

هو من العلماء المؤلفين له تأليف منها رسالة في النصائح والتجارب. وهي رسالة فارسية في نصائح المعصومين عليهم السلام وكتاب في كلمات الأئمة ومائة كلمة ــ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام أتمها في سنة

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

١٢٩٣ ــ توجد نسختها بخطه في (مكتبة ملي) بطهران ــ[1].

السيد أسد الله بن عبد الحسين الموسوي النبوي الدرفولي

ولد في صفر ١٣١٣ توفي في شعبان ١٤٠٣.

ولد في مدينة دزفول ونشأ بها وقرأ المقدمات والسطوح عند أعلامها ثم حضر بحث الشيخ محمد رضا الدزفولي أكثر من عشرين سنة في الفقه والأصول، ثم ذهب إلى النجف الأشرف وحضر على أعلامها منهم الشيخ محمد حسين الغروي الأصفهاني والشيخ آغا ضياء العراقي في الفقه والأصول والسيد البادكوبي والشيخ حسين الوصية **الأستانه أي** في الفلسفة والعرفان ثم عاد إلى موطنه وقام باعباء أمور العامه والتدريس والتأليف وقلده مئات من أهالي خوزستان. وتخرج عليه عشرات من الفضلاء والمحققين وفي سنة ١٣٦٣ أنشأ مدرسة علمية في دزفول، كما أنشأ فيها مستشفى وهو من أعظم مستشفيات خوزستان. وعندما قامت الحرب العراقية الإيرانية هاجر إلى قم وبقي أياماً إلى أن مرض واشتد مرضه وذهب مع ولده السيد محمد إلى لندن للتداوي وإجراء العملية ثم رجع إلى طهران وبقي بها مدة ثم ذهب إلى بروجرد ودزفول ولكن عادت إليه الأمراض واشتد مرضه وحمل إلى طهران وبقي بها أياما حتى توفي يوم الجمعة عشرين من شهر شعبان عند طلوع الشمس، وحمل جثمانه إلى قم وشيع تشييعاً حافلاً ثم حمل إلى دزفول بوصية منه ودفن في مدرسته **العامرة** ومن مؤلفاته:

١ ــ رسالة عملية لمقلديه بالفارسية.
٢ ــ حاشية الرسائل.
٣ ــ أصول الفقه.
٤ ــ كتاب الصلاة.
٥ ــ حاشية على الشمسية. وغير ذلك من الكتب والرسائل[2]

اسماء ويقال حبابة بنت السيد صالح بن السيد مهدي القزويني.

ولدت في مدينة الحلة بالعراق حدود سنة ١٢٨٣هـ وتوفيت بها سنة ١٣٤٢هـ ونقل جثمانها إلى النجف الأشرف عالمة فاضلة أديبة شاعرة من ربات النفوذ ذات عقل راجح ولدت في بيت علم وزعامة واسرتها آل القزويني من الأسر العلمية المعروفة في الحلة والنجف نبغ منها علماء أعلام.

أخذت العلم والأدب من والدها السيد صالح القزويني وحين بلغت سن الرشد زفوها إلى ابن عمها السيد موسى بن السيد جعفر القزويني وأولعت منذ صباها في الأدب والشعر وحضرت على جملة من رجال أسرتها حتى نبغت بذلك ولها نثر وشعر جيد. كما لها نظم باللغة المحكية، وقد وصفها في كتاب (أدب **الطف**) قائلاً: (.. ونشأت في كنف والدها وكان للبيئة في نفسها أثر في بلورة ذهنيتها فالأجواء العلمية التي كانت تعيشها والمجالس الأدبية التي تعقد في مناسبات كانت تؤثر أثرها وتدفع بهذه الحرة للشعر والأدب فلا تفوتها النادرة الأدبية أو الشاردة المستملحة فهي تكتب هذه وتحفظ تلك، وتتحدث بالكثير منها.. كانت واسطة لحل **النزاعات** العائلية فكثيراً ما قصدت العوائل المتنافرة ولطفّت الجو وأماتت النزاع والخصام حتى ساد الوئام، وتتحدث عن أمها وملكتها الأدبية وتروي شعرها باللغتين الفصحى والدارجة واشتهر عنها انها تميزت بشخصية قوية وبأسلوب جميل في الحديث وكان مجلسها في الحلة عامراً بالمتأدبات وذوات المعرفة..)

(١) السمامي.
(٢) الشيخ محمد السمامي.

من آثارها مجموعة مكاتبات ورسائل وديوان شعر(١).

أبوالعتاهية إسماعيل بن القاسم:

مرت ترجمته في المجلد الثالث، وننشر هنا هذه الدراسة عنه، وهي بقلم الدكتور حسين مروة:

يدور هذا السؤال في نفسي منذ زمن ليس بالبعيد، هل كان أبو العتاهية زاهداً بالحياة حقاً؟ وكنت قبل هذا على يقين بأن أبا العتاهية شاعر زهد بالحياة حقاً واعتزل طيباتها اعتزال الناسك المتبتل دون ريب، غير أن هذا اليقين عندي كان مصدره التقليد والتلقين والمحاكاة ليس غير.

وقد تناقلت أجيالنا الأدبية كلها هذا الرأي الشائع بمحض التقليد والتلقين والمحاكاة كذلك، وبمحض النظر إلى ظاهر هذا الشعر الكثير الذي نظمه أبو العتاهية في ذم دنياه، وفي إنذار الناس بالموت، وتزهيدهم بالحياة.

ولكني أخذت أشك في هذا الرأي، مذ رأيت في سيرة هذا الشاعر ما يدل ان الزهد والتنسك ليسا من طبيعته، ومذ اتيح لي أن أفهم ان إنساناً يزهد بالحياة هذا الزهد الذي ينسبونه إلى أبي العتاهية، لا بد أن يكون على شيء من النقص في حيويته وإنسانيته، وما وجدت أبا العتاهية إلا إنساناً مستوفز الحس، مستكملاً كل عناصر الكائن الحي المدرك، متأهباً ابداً لتذوق الحياة والاقبال على ما تستطيع أن تقدمه إليه من صنوف الطيبات ومتع الحس والنفس والعقل جميعاً.

ولكن الشك في زهد أبي العتاهية، لا بد أن يستتبع هذا السؤال: ترى، كيف صح لهذا الشاعر، إذا لم يكن قد زهد حقاً بالحياة، أن يقف معظم شعره على هذا اللون القاتم من الشعر، لا ينفك يذكر الموت فيه، ويردد أنه مصير كل حي، وإن أمجاد الحياة كلها صائرة إلى الفناء؟

وجواب هذا السؤال، هو ما نريد أن نعالجه في هذا الفصل عن أبي العتاهية.

وليس يمكننا أن نبلغ القصد هذا، دون أن نرجع إلى نشأة الشاعر وظروف زمنه ومجتمعه.

لقد ولد شاعرنا عام ١٣٠ هجرية (٧٤٨م) في قرية عين التمر بالعراق، وهي الآن بلدة إلى الغرب قليلاً من مدينة كربلاء، ثم نشأ بالكوفة يصنع الجرار الخزفية الخضر هو وأهله، وقد ظل على هذه الصنعة عهداً طويلاً من عمره، وفي بعض أخباره انه ظل في صنعته هذه حتى بعد أن قال الشعر واشتهر به، فقد روى الصولي عن عبد الحميد بن سريع مولى بني عجل انه رأى أبا العتاهية وهو جرّار (أي يصنع الجرار) يأتيه الأحداث والمتأدبون، فينشدهم اشعاره، فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبون فيه هذه الأشعار.

وفي الأغاني رواية أخرى تقول ان أبا العتاهية، اجتاز في أول أمره، وعلى ظهره قفص فيه فخار يدور به في الكوفة، ويبيع منه، فمر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه، فسلم عليهم ووضع القفص عن ظهره، ثم قال:

ـ يا فتيان، أراكم تتذاكرون الشعر، فأقول شيئاً منه فتجيزونه(١) فإن فعلتم فلكم عشرة دراهم، وإن لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم.

فهزىء الفتيان منه، وقالوا: نعم. فاشترط أن يُشْتَرى بقيمة الرهان رطب يأكلونه معاً حتى لا يكون قماراً، ثم أنشد هذا الشطر:

ساكني الأجداث انتم

وجعل بينه وبينهم وقتاً، إذا مضى ولم يجيزوا البيت، فاز هو بالرهان وجعل يهزأ بهم حتى انقضى الوقت، فتممه:

ساكني الأجداث أنتم مثلنا بالأمس كنتم
ليت شعري ما صنعتم أربحتم أم خسرتم

ومضى هكذا ينشد حتى قال قصيدة طويلة على هذه المعاني، وسنرجع إلى هذه القصة والقصيدة نستفيد منها أمراً آخر ذا شأن.

واسم شاعرنا إسماعيل بن القاسم، وتنتهي نسبته إلى عنزة بالولاء، فقد كان جده «كيسان» في عين تمر حين غزاها خالد بن الوليد، وكان يتيماً صغيراً يكفله قرابة له من عنزة، فسباه خالد مع جماعة صبيان من أهل عين تمر، وبعث بهم إلى أبي بكر، وهناك استوهبه عباد بن رقاعة العنزي من الخليفة، فوهبه اياه، ثم اعتقه (أي حرره من الأسر) فتولى كيسان عنزة منذ ذاك (أي صار موالياً لهم)، تقديراً لصنيع عباد هذا معه.

وقد نال ابا العتاهية من أصله هذا، شر كثير وعيره به كثيرون، ومن ذلك ما قاله ابن الأعرابي حين أنشده أحدهم هجاء أبي العتاهية لعبد الله بن معن بن زائدة:

ـ اعجب لعبد يهجو مولاه (أي سيده).

ويبدو ان شاعرنا كان يتأذى بهذا، وكان يدفع عن نفسه تعيير الخصوم بمثل قوله:

ألا، إنما التقوى هو العز والكرم وحبك الدنيا هو الفقر والعدم
وليس على عبد تقي نقيصة إذا صحح التقوىٰ، وإن حاك أو حجم

وفي هذا إشارة إلى ما قيل من أن أباه القاسم كان حجاماً، وقد تركت هذه الصنعة في نفسه أثراً بعد ذلك، فقد قيل انه حين التزم النسك في أخريات عمره، أخذ يحجم اليتامى والفقراء بالسبيل (أي من غير أجر).

وقد سئل عن سبب ايثاره هذا العمل، فقال:

ـ أردت أن أضع من نفسي حسبما رفعتني الدنيا، وأضع منها ليسقط عنها الكبر، وأكتسب بما فعلته الثواب.

ولكن الصولي يقول أن حمدويه الذي كان يتتبع الزنادقة، أراد أن يقبض أبا العتاهية بتهمة الزندقة، فتستر بالحجامة.

وكنيته، بالأصل «أبو إسحاق» ثم كني «أبا العتاهية» لأن الخليفة العباسي المهدي، قال له يوماً: أنت إنسان متحذلق متعتّه.. فكنوه «أبا العتاهية» وقيل ان سبب هذه الكنية انه كان يحب الشهرة والمجون والتعتّه (أي التظاهر بالجنون).

وقد عرف الناس شاعرنا في الكوفة، وفي بغداد بعد ذلك، إنه رجل متخنث وقالوا إنه كان يحمل لبعض المتخنثين حاجاتهم وقالوا ـ إلى ذلك ـ إنه كان رشيق القامة أبيض اللون أسود الشعر، له وفرة(١) جعدة، وهيئة حسنة، ولباقة، وحصانة.

ولعلهم نسبوا إليه التخنث لهذه الصفات فيه، ولأناقته ونظافته، رغم كونه عاملاً يصنع الجرار كما علمنا.

وفي سيرة أبي العتاهية، وفي شعره الكثير، دلالات ظاهرة واضحة،

(١) تجيزونه: يقصد تكملونه.

(١) الوفرة: الشعر المجتمع على مقدم الرأس.

على انه كان يحب المال حباً جماً، وكان يحب المرأة كذلك، وقد عرف بهواه لعتابة الجارية، وسعدى مولاة عبيد الله بن معن بن زائدة، وشعره في الحب بادي الرقة، قوي العاطفة، مشرق الروح، وتروى نوادر كثيرة عن شدة بخله وحرصه.

أما حبه المال فيدل عليه مدحه للخلفاء الذين عاصرهم، وهم: المهدي، والهادي، والرشيد، والمأمون، وطمعه بالجائزة منهم، ثم مطالبته لكثير من اصدقائه ذوي الشأن والسلطان في الدولة بالهبات والجوائز، ومعاتبته اياهم، أو هجره لهم كلما قصروا عنه في العطاء. وهناك روايات متواترة تقول انه كان يكنز الذهب والفضة.

ولقد هجا عبد الله بن معن بن زائدة هجاء عنيفاً، رائعاً، ثم مدحه حين أجزل له العطاء ورثى يزيد بن منصور فقال في رثائه:

يا ساكن الحفرة المهجور ساكنها
بعد المقاصر، والأبواب، والحجر
وجدت فقدك في مالي وفي نشبي
وجدت فقدك في شعري وفي بشري

فهو إنما يحسُّ فقدان المال والنشب بفقدان صاحبه إذن!.

ومن الشواهد على أثر الحب في نفسه، قوله:

رأيت الهوى جمر الغضى غير انه
على حره، في صدر صاحبه حلو
أخلاي بي شجو، وليس بكم شجو
وكل امرىء عن شجو صاحبه خلو
وما من محب نال ممن يحبه
هوى صادقاً، الا سيدخله زهو
بليت، وكان المزح بدء بليتي
فأحببت حقاً، والبلاء له بدو
وعُلقت من يزهو عليّ تجبراً
وإني، في كل الخصال، له كفو

ليس في حياة أبي العتاهية، ما يدل انه زاهد حقاً بالحياة، فهو يحب المال، ويحب عيش الترف والرخاء، ويكنز الذهب والفضة، ويمدح للعطاء، وهو يحب المرأة ويحس لذعة الحب وغبطته معاً، وهو يقبل على الجمال ويتذوقه وتتهلل له نفسه، وهو أنيق الهندام حسن الهيئة والمظهر بحيث اتهموه بالتخنث، ومن كان حاله كذلك، ليس يصح أن يذكر في الزاهدين قطعاً.

ولكن كيف نظم هذا الشعر الكثير في الزهد، وكيف أكثر من ذكر الموت في شعره، وكيف حبسه الرشيد مرات، لأنه أبى أن ينظم له الغزل، زهدا بلهو الحياة ومتاعها كمايقولون، وكيف احتمل ضيق محبسه وحجر حريته وامتهان كرامته، مؤثراً ذلك كله على أن يستجيب لرغبة الخليفة فينظم له ابياتاً من الغزل يغنيها له إبراهيم الموصلي في مجالس انسه؟.

ثم ان لهذا الشاعر منزلة رفيعة عند الخلفاء الذين عاصرهم وعند الشعراء والأدباء في جميع العصور، فقد شهد له بالشاعرية المفضلة: بشار، وأبو نواس، وأبو تمام وأضرابهم، وهم من أعلام الشعر العربي في كل عصوره، فكيف اتفق لشاعر هذا المجد الأدبي وهو لا يمجد إلا الموت؟.

ومضاف إلى هذا كله، أن أبا العتاهية شاعر كسب شهرته ومجده الأدبي بصنع يده، فإنه لم يصل إلى بلاط الخلفاء إلا وهو شاعر مشهور، وإنما لم يستطع أن يكسب المال والرفاه إلا من بلاط الخلفاء. فقد خرج من الكوفة هو وإبراهيم الموصلي ثم افترقا، فذهب شاعرنا إلى الحيرة، وذهب الموصلي إلى بغداد، ثم التقيا في بلاط المهدي بعاصمة الخلافة بعد أن اشتهر أمر أبي العتاهية الشاعر، وزال عنه اسم «أبو إسحاق الجرار» أو «الخزاف»، وخرج إلى النهاية من طبقة العمال والكادحين.

ويجب أن نضيف إلى ذلك أيضاً، إن أبا العتاهية شاعر جماهيري، من حيث بساطة تعبيره وسهولة فهمه عند الجماهير، وقد كان هو على وعي تام لهذه الخاصة في شعره وهو يعللها تعليلاً صحيحاً في ما جاءنا مع أخباره. فقد قال يوماً، لابن أبي الأبيض الشاعر: «إن الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين، أو مثل شعر بشار وابن هرمة، فإن لم يكن كذلك، فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري، ولا سيما الأشعار التي في الزهد، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب، وهو مذهب اشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه».

وهذا كلام واضح، يدل أن أبا العتاهية كان يقصد إلى السهولة والبساطة في شعره قصدا، لكي يفهم جمهور الناس.. فلماذا كان يهتم بأن يفهم جمهور الناس شعره في الزهد؟.

أحسب الآن، انني قد رسمت، في هذا الفصل، خطوطاً واضحة من حياة الشاعر، وبقي أن نستهدي هذه الخطوط في الإجابة عن الأسئلة المتقدمة.

ولكن يجب، قبل هذا، أن نضيف إلى هذه «الخطوط» كلها، «خطا» آخر يدل على حياة المجتمع في عصر الشاعر، وأكبر الظن ان هذا لا يحتاج إلى إيضاح كثير، فقد يعرف قراء هذا الفصل إن المجتمع العباسي يومئذ، كان ممتحناً أشد امتحان بأهوال هذا الصراع السياسي العنيف، والآم هذه الفوضى الاجتماعية الطاحنة وآثام هذا التفاوت المهين بين طبقاته المتعددة.

ولسنا نحتاج إلى أكثر من هذه اللمحة، لنصل بين حياة الشاعر أبي العتاهية وحياة هذا المجتمع الذي نشأ منه أول ما نشأ، في غمار العمال والكادحين.

* * *

في ضوء هذه الخطوط جميعاً نبسط في الفصل الآتي وجهة الرأي عندنا في كيف اتفق لأبي العتاهية أن يكون شاعر الزهد وهو ليس بزاهد.

شاعر اجتماعي لا ذاتي

أنشد أبو العتاهية يوماً في مجلس حضره ثمامة بن الأشرس المعتزلي (أبو معن النميري)، ابياتاً قال فيها:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه
تملكه المال الذي هو مالكه
الا إنما مالي، الذي أنا منفق
وليس لي المال الذي أنا تاركه
إذا كنت ذا مال، فبادر به الذي
يحق، وإلا استهلكته مهالكه

فسأله ثمامة: من أين قضيت بهذا؟ قال أبو العتاهية:

— من قول رسول الله: «إنما لك من مالك ما اكلت فافنيت، أو لبست فابليت، أو تصدقت فامضيت».

فقال ثمامة: أتؤمن ــ يا أبا العتاهية ــ بأن هذا قول رسول الله، وإنه الحق؟.

قال: نعم. فقال ثمامة:

ــ فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة[١] في دارك، ولا تأكل منها، وتشرب، ولا تزكي، ولا تقدمها ذخرا ليوم فقرك وفاقتك؟.

فقال أبو العتاهية: يا أبا معن والله إن ما قلت لهو الحق، ولكني أخاف الفقر والحاجة إلى الناس.

قال ثمامة: وبم تزيد حال من افتقر على حالك، وأنت دائم الحرص، دائم الجمع، شحيح على نفسك، لا تشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد [٢]

* * *

وجاء في «الأغاني»:

كان علي بن يقطين صديقاً لأبي العتاهية، وكان يبره في كل سنة ببر واسع، فابطأ عليه بالبر في إحدى السنين، وكان إذا لقيه أبو العتاهية أو دخل عليه يُسر به ويرفع مجلسه ولا يزيده على ذلك. فلقيه ذات يوم، وهو يقصد دار الخليفة، فاستوقفه، فوقف له فانشده:

حتى متى، ليت شعري يا ابن يقطين ... أثني عليك بما لا منك تولينى؟

إن السلام، وإن البشر من رجل ... في مثل ما أنت فيه، ليس يكفيني

هذا زمان ألح الناس فيه على ... تيه[٣] الملوك وأخلاق المساكين[٤]

أما علمت، جزاك الله صالحة ... وزادك الله فضلاً يا ابن يقطين

أني أريدك للدنيا وعاجلها ... ولا أريدك، يوم الدين، للدين؟!

فقال علي بن يقطين: لست والله أبرح ولا تبرح من موضعنا هذا إلا راضياً.. وأمر له بما كان يبعث به إليه في كل سنة [٥].

* * *

في هاتين القصتين نجد مفتاح المعضلة التي نريد أن نعالجها، في هذا الفصل، من أمر أبي العتاهية، شاعر الزهد.

فهو ــ إذن ــ يعرف قدر المال معرفة إنسان ومعرفة مفكر معاً، وهو مدرك اعمق الإدراك ــ إذن ــ ان المال ضرورة لا غناء عنها ولكنه ليس غاية لذاته، بل لا تزيد قيمة المال عنده عن كونه وسيلة «يعتق بها نفسه»، أي يحرر بها إنسانيته من عبودية الخوف: «خوف الفقر والحاجة إلى الناس».

ولذلك يرى أبو العتاهية ان المال الحق إنما هو المال الذي تتخذ منه هذه الوسيلة، أي ما تنفقه أنت لحاجتك، لدفع الفقر عن نفسك، لتحرير ذاتك من هوان الطلب وذل السؤال، فإذا ادخرته أو استعملته لغير هذه الوسيلة، ذهبت عنه صفة المال، وانقلب من شيء تملكه أنت إلى شيء هو يملكك ويستعبد إنسانيتك.

ومن هنا كان أبو العتاهية يحب المال، ومن هنا كان دائم الحرص عليه، دائم الجمع له، شحيحاً على نفسه، لا يشتري اللحم إلا من عيد إلى عيد، كما يقول ثمامة بن الأشرس، وكما اعترف هو بذلك.

وإذا كان يبدو هذا الحرص، وهذا الجمع للمال، وهذا الشح البالغ على النفس ــ غريباً إلى حد الشذوذ، فإن وراء ذلك أمراً يدل عليه حال أبي العتاهية أوضح دلالة، وهو أن الرجل كان يعيش في زمن يبلغ به خوف الناس من بؤس الفقر وذلة الحاجة هذا المبلغ الرهيب، حتى ليضطر شاعر مثل أبي العتاهية، له جاه وصيت وصولة لسان، أن يحرص على المال ويدأب في جمعه، ويشح بإنفاقه على نفسه ويحرم اللحم على معدته إلا يوماً في السنة أو يومين، لأن شبح الفقر لا يبرح خياله، ولأن ذل السؤال لا ينفك يساور نفسه، فما بالك بغير هذا الشاعر، السائر الذكر، من طبقات العمال الضعفاء والمغمورين والمنبوذين؟..

* * *

فإذا انتقلنا إلى قصة أبي العتاهية مع علي بن يقطين، تزداد هذه الدلالة عندنا وضوحاً، إذ نرى شاعرنا يعترض صديقه هذا، وهو في طريقه إلى دار الخليفة، فيبدي له الغضب إلى حد السخط، لأنه يثني عليه منذ زمن فلا يلقى جواب الثناء إلا السلام وحسن اللقاء، وهو يريده لشيء غير هذا، يريده لدنياه، لحاجته العاجلة في دنياه، لهذا البرِّ الذي عوّده ايّاه ابن يقطين في كل عام، وليس يريده لأمر في دينه يدخره إلى يوم الدين!

وأبو العتاهية لا يترك ملامته اللاذعة يوجِّهها لصديقه الجليل ابن يقطين، دون أن يُفصح عن سبب هذه الملامة، فهو يصف له حال مجتمعه وكأنه يعتذر إليه بأن حال مجتمعه هذه هي التي تضطره أن يقصده بالثناء لغير شيء سوى البر والعطاء:

هذا زمان الح الناس فيه على ... تيه الملوك، وأخلاق المساكين

فهو، إذن، في زمان ينقم الناس فيه من الملوك صلفهم واستكبارهم على العامة بما عندهم من أسباب الترف والنعمة والسلطان، على حين يعيش المساكين والفقراء، أي جمهور الناس، في باليات الثياب وتافهات العيش.

وأبو العتاهية، واحد من تؤلاء الناس الذين كانوا يلحون بالنقمة على تيه الملوك، وسوء حال المساكين،وهو ــ من هنا ــ لا يرى بأسا عليه أن يطلب إلى هذا الشيخ الجليل ابن يقطين جزاء الثناء، أمراً غير السلام وحسن اللقاء.

يتبين لنا من كل ما تقدم أن نظرة أبي العتاهية إلى المال، نظرة واقعية علمية سليمة لا غبار عليها، وانه بهذه النظرة يختلف كل الاختلاف عن الزهاد في تقديرهم المال ونظرتهم إليه.

ثم يتبين لنا، من ذلك، أيضاً ان خوف أبي العتاهية من الفقر، وما يتبع ذلك من لجاجة في طلب المال وحرص عليه شديد، إنما كان انعكاساً لحالة اجتماعية واقعية، هي انتشار الفقر في طبقات المجتمع واستئثار العلية وذوي السلطان بالغنى والترف، حتى كان من هذا وذاك أن ساد جمهرة الناس شعور بالقلق الدائم واستعبدهم هذا الخوف الشديد من الفقر والاعواز، الذي كان يمتلك أبا العتاهية نفسه.

ويتبين لنا، أخر الأمر، ان هذا الشاعر لم يتخذ شعر الزهد تعبيراً عن ذاته، و «فرديته»، أي عن حالة من التصوف أدركته، فانصرف عن طيبات الدنيا إلى التبتل والتقشف والتنسك، لأن نزعته السلوكية لم تكن كذلك قطعاً

---

(١) البدرة: عشرة آلاف درهم.

(٢) ضحى الإسلام جزء ٣ ــ ص ١٥٣.

(٣) التيه: الكبر والصلف والضلال.

(٤) أخلاق: جمع خلق، وهو البالي من الثياب.

(٥) قطوف الأغاني ج ٥ ــ ص ٨٠.

كما رأينا.

وقد يقول لنا الكثيرون، ان هذا صحيح، لكن الزهد أدرك أبا العتاهية في أخريات عمره، وشعر الزهد عنده تعبير عن حالته هذه التي انتهى إليها في هذه المرحلة من حياته.

قلنا في جواب ذلك، إن هذا غير صحيح قطعاً، لأن شعر الزهد الذي عرف عن أبي العتاهية، قد استغرق معظم شعره، إن لم نقل أنه استغرق كل شعره حتى المديح وشعر الهجاء، ليس بمعقول أن يكون قد نظم كل هذا الشعر في المرحلة الأخيرة وحدها من عمره، ثم لأن هناك ما يدلنا أن أبا العتاهية كان يقول هذا الشعر الذي يسمونه شعر الزهد حتى في أوائل عمره، وفي عنفوان قوته وفتوته.

ولعلك تذكر قصته، في الفصل السابق، مع بعض فتيان الكوفة حين مر بهم، في أوائل أمره ــ كما يقول الأغاني ــ وعلى ظهره قفص فيه فخار يدور به في الكوفة ويبيع منه، فرآهم يتذاكرون الشعر ويتناشدونه، فحيّاهم، ثم عرض عليهم أن يقول شطر بيت من الشعر وراهنهم بعشرة دراهم أن يجيزوه، فإن فعلوا دفع هو الرهان وإن عجزوا دفعوه هم، وقد رأيت أن الفتيان قد خسروا الرهان فأكمل هو الشعر، وكانت قصيدة، وإذا موضوع القصيدة، كلها يدور على الموت والاعتبار بهذه الدنيا ومفارقتها بما بعد الموت، ويجب أن تتذكر هنا قول الأغاني، مرة أخرى، بأن هذا كان في أوائل أمره، أي في شباب عمره، لا في آخر حياته، ولعلك تذكر أن الشطر الذي اقترح على الفتيان أن يجيزوه، كان نداء للأموات: «يا ساكني الأجداث أنتم». ثم أكمله هكذا:

يا ساكني الأجداث أنتم ... مثلنا بالأمس كنتم

يا ليت شعري، ما صنعتم ... أربحتم أم خسرتم؟

فقد كان أبو العتاهية ــ إذن ــ منصرفاً إلى هذا اللون من الشعر، منذ بدأ يقول الشعر، ويبدو انه لم يقله، منذ أوائل أمره، فينصرف إليه ويكون غاية له «وعملاً» بعد ذلك، بل قاله وهو يصنع الجرار ويدور في الكوفة وقفص الفخار على ظهره يبيع منه، أي انه قال الشعر تعبيراً عن إحساس هذه الطبقة التي عاش حياتها، وعانى مأساتها، وحمل ثقلها على ظهره وزنده وفي أعماق نفسه وفي مطاوي معدته...

ثم كان شعره تعبيراً عن كل هذه الطبقات الاجتماعية التي كانت تمتحن امتحاناً شديداً بالفقر وكان يستعبدها الخوف الدائم من الحاجة، حتى كان الموت أحب إليها من الحياة، لأنه كان للموت في نفوسها وأذهانها معنى الراحة من المأساة الدائرة على رؤوسها في زمان كان «يلح الناس فيه على تيه الملوك وأخلاق المساكين»..

ويبدو لنا إن هذا الذي نقول، هو مصدر هذه البساطة والسهولة والوضوح في شعر أبي العتاهية، فقد كان شعراً جماهيرياً، لأن قائله كان في أعماق الجماهير حين انبثق عنه الشعر أول الأمر، ثم صار طوال حياته يعبر عن روح مجتمعه، وعن نفسية جمهوره وعن إحساس عصر الترف المفرط إلى جانب الفقر المفرط، وهو إحساس بالخلل الاجتماعي أولاً، ثم تطور فصار إحساساً بتفضيل الموت على حياة يسودها هذا الخلل الاجتماعي الفادح الفاحش.

وإنه ليبدو لي ان أبا العتاهية، قد وعى مهمته في ذلك المجتمع، وإنه بعد أن كان يصدر «شعر الزهد» عن مجرد إحساس باطني ينعكس عن إحساس جمهور الكادحين، صار يصدر هذا الشعر عن قصد إليه وعن وعي كامل واضح، وعن تطوع لنقد الملوك وذوي الترف من أهل القصور وأهل السلطان، بهذا الأسلوب الجماهيري، وبهذه الطريقة الرمزية ــ إذا صح التعبير ــ لكي ينجو من أذى الملوك، ولكنه لم ينجُ من ذاك.

ولعل كل ما لقيه من أذى السجن، كان بسبب هذا، لا بسبب ما قيل مثلاً من إبائه على الرشيد أن ينظم له شعر الغزل، أو بسبب تهمته بالزندقة، وقد يكون الرشيد قد حبسه فعلاً لأبائه نظم الغزل، وهو يقصد أن يصرفه عن ذلك الشعر الذي يدس فيه سخط الناس ونقمتهم على ما في حياتهم من مكاره وما في مجتمعهم من خلل فادح فاحش، وقد تكون الزندقة أيضاً، ليست إلا للانتقام منه ذلك لأن الرجل كان أبعد أهل زمانه عن الزندقة كما يدل شعره، وتدل سيرته.

ولدينا من سيرته مع الخلفاء الذين عاصرهم جميعاً، ما يصح أن يكون دليلاً على ما نقوله، ومن ذلك ما رواه[1] لنا أبو العتاهية نفسه من انه حين ماتت بنت الخليفة المهدي، وحزن عليها حزناً شديداً حتى امتنع عن الطعام والشراب، جاءه ــ أي أبو العتاهية ــ يعزيه عنها، فانشده قصيدة يخاطبه فيها:

لا تلعبن بك الدنيا، وأنت ترى ... ما شئت من عبر فيها، وأمثال

ما حيلة الموت إلا كل صالحة ... أو لا، فما حيلة فيه لمحتال

فكأن الشاعر قد اغتنم الفرصة ليقرع سمع الخليفة بأن الدنيا تلعب به، وقد كان هذا دأبه مع المهدي في كثير من المناسبات، فقد روى لنا هو نفسه أيضاً ــ كما في الأغاني ــ إن المهدي أخرجه معه إلى الصيد مرة، فأبعد الخليفة في الأرض وتفرق رجال الحاشية في طلبه، وكان الشاعر معه فاجتازا وادياً فاجأهما فيه مطر شديد، وتدفق السيل في الوادي، فإذا هناك ملاح يعبر الناس، فلجأ الخليفة والشاعر إليه، فأدخلهما في كوخ له، وكاد المهدي يموت برداً، فغطاه الملاح بجبة صوف له، ونام حتى أدركه رجال الحاشية، فعرف الملاح منهم إنه الخليفة فهرب، وتبادر الغلمان فازاحوا لبدة الصوف عن المهدي، والقوا عليه الخز والوشي والديباج، فلما انتبه وسأل عن الملاح قيل له إنه هرب، فجعل يلوم نفسه على ما أغلظ له من القول حين لقيه، وطلب من أبي العتاهية أن يهجوه جزاء ما فعل بالملاح، فأظهر أبو العتاهية، أول الأمر، امتناعه عن هجو الخليفة، ثم قال، مغتنما هذه الفرصة، يخاطب الخليفة:

يا لابس الوشي على ثوبه ... ما أقبح الأشيب في الراح

فقال المهدي: زدني بحياتي، فقال أبو العتاهية:

لو شئت أيضاً، جلت في خامه[2] ... وفي وشاحين واوضاح[3]

فانتفض المهدي هنا، لأنه أدرك ما يعني أبو العتاهية، وقال له:

ــ ويلك! هذا معنى سوء يرويه عنك الناس، وأنا استأهل. زدني شيئاً آخر، فقال أبو العتاهية: «أخاف أن تغضب». فقال المهدي: «لا والله». فأنشد:

كم من عظيم القدر في نفسه ... قد نام في جبة ملاح

---

(١) قطوف الأغاني ج ٥ ــ ص ١١٨.

(٢) يعني القماش الخام من القطن.

(٣) الأوضاح: حلى من فضة أو الخلاخيل.

فقال المهدي: معنى سوء عليك لعنة الله!

اترى إلى هذا الشعر؟. إنه من طبيعة «شعر الزهد»: شعر أبي العتاهية فهل هو الزهد حقاً، أو هي الفرصة السانحة يقرع فيها سمع الخليفة بحقيقة أمره؟.

ثم، اترى كيف انتفض الخليفة لهذه «الغمزة»، وكيف خشي الناس أن يرووا هذا «الهجاء» وان يثير فيهم كوامن ما تنطوي عليه جوانحهم من غيظ؟

وقالوا إن أبا عبيد الله دخل على المهدي، وكان غاضباً منه، وأبو العتاهية حاضر، فجعل المهدي يشتم أبا عبيد الله ويتغيظ عليه، ثم أمر به فجروه برجله وحبسوه، ثم أطرق المهدي طويلاً، فلما سكنت نفسه أنشده أبو العتاهية:

أرى الدنيا بمن هي في يديه ... عذاباً كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر ... وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه

فهذا شعر إذا جردته من هذه المناسبة، وجدته وعظاً خالصاً، يخيل لقارئه أو سامعه ان صاحبه شاعر يتزهد في الدنيا، ولكن كيف تراه في مناسبته هذه؟. أيدلك على زهد الشاعر، أم يدلك ان الشاعر قد واتته المناسبة ليبعث بصوت المجتمع إلى نفس الخليفة وهو يظلم رجلاً من هذا المجتمع على هذا الوجه الذي عرفته؟

وهكذا كان موقف أبي العتاهية من الهادي، والرشيد، والمأمون، ينتهز مثل هذه الفرص السوانح، ليلقي إلى سرائرهم بهذا الصدى الذي يضجّ في نفوس الجماهير، ثم يجد وسيلته إلى التعبير عن نفسه في لسان شاعر تسنح له مثل هذه الفرص في لقاء الخلفاء وأهل السلطان وسائر العلية المستأثرين بالترف والنعماء، وما يمنعني عن سرد الشواهد على ما أقول غير تجنّب الاطالة، ولكن شاهداً واحداً أراه يغالبني، فلا استطيع ردّه:

قالوا إن القاسم بن الرشيد، مر في موكب عظيم، وأبو العتاهية جالس مع قوم على قارعة الطريق، فقام أبو العتاهية حين رآه، احتراماً له، فلما اجتازه الموكب، أنشد:

يتيه ابن آدم من جهله ... كأن رحى الموت لا تطحنه

فبلغ القاسم ذلك، فبعث إلى أبي العتاهية وضربه مئة مقرعة، ــ (أي مئة سوط ــ وقال له: «أتعرض بي في مثل ذلك الموضع؟». ثم حبسه في داره، فدس أبو العتاهية إلى زبيدة هذه الأبيات:

حتى متى ذو التيه في تيهه ... أصلحه الله، وعافاه
يتيه أهل التّيه من جهلهم ... وهم يموتون، وإن تاهوا
من طلب العز ليبقى به ... فإن عز المرء تقواه
لم يعتصم بالله، من خلقه، ... من ليس يرجوه ويخشاه

فالقاسم ــ إذن ــ قد غاظه أن يكون التعريض به في ذلك الموضع حيث يسمع نفر من عامة الناس علي قارعة الطريق، وهو كذلك لا يرى بأساً عليه أن ينتقم لنفسه فيضرب شاعراً، كأبي العتاهية، ذا قدر في الناس ومنزلة، مئة سوط، ثم يحبسه، وهل ذاك إلا لأن هؤلاء «العلية» كانوا يخشون إنتشار مثل هذا القول في الناس، وإلا لأن شعر أبي العتاهية كان يسير في الناس ويشيع لأنه يعبر عنهم، لا عن ذاته «الفردية» ولا عن نزعة سلوكية إلى الزهد وكراهة الدنيا؟

غرام أبي العتاهة[1]

هذه قصة حب استغرقت من حياة صاحبها اكثر من عشرين سنة ، وهو على هذا الحب مقيم ، ولصاحبته في الحاح مستديم ، لقي في سبيله الواناً من الاعنات والايلام ، وتجشم من أجله صنوفاً من المذلة والهوان ، وعلى الرغم من ذلك كله لم يظفر بصاحبته ، ولم تصل به جميع السبل التي طرقها الى غايته منه .

في هذه القصة تصدق نظرية المحبين التي تقول ان الحب يبدأ مازحاً عابثاً ، ثم لا يلبث أن يتحول الى جد خالص وبلاء لازم ، والتياع دائم ، والم دفين ، وفي ذلك يقول صاحبنا الشاعر المحب أبو العتاهية :

بُليتُ، وكان المزح بدءَ بليّتي ... فأحببت حقاً ، والبلاء له بدو

والذين يعرفون أبا العتاهية معرفة عابرة انما يعرفون فيه الجانب الأشهر من حياته وسلوكه وشعره ، وهو جانب الزهد الذي ترك فيه ـ على حد قول المؤرخين ـ نحواً من عشرين الف بيت من الشعر ، لم تصلنا كلها بطبيعة الحال ، ولكن وصلنا منها قدرٌ يكفي أن يكون ديواناً لا بأس به من الشعر الزهدي . ومع ذلك فلأبي العتاهية قصة غرام طويلة مع احدى جواري الخليفة المهدي ، أو هي كانت ـ على وجه الدقة ـ جارية للخَيْزران زوجةِ المهدي وأمِّ الخليفتين الهادي والرشيد .

وقصة الغرام هذه ، بين شاعر الخليفة أبي العتاهية وجاريته عتبة ، ثمينة بالتسجيل والوقوف عندها بالأقلام التي سجلت قصص غيره من الشعراء المحبين ، ممن احتفل التاريخ بروعة حبهم ، على اختلاف في نوع هذا الحب ودرجته ، تبعاً لاختلاف الظروف والملابسات والبيئات والأجناس.

ان أبا العتاهية ، وهو الشاعر المتحضر في عصره ، الذي نشأ في سهول العراق ، وعاش في مدينة بغداد الكبيرة ، أحبَّ واحدة من الإماء تشبهه في جنسه ومكانه الهيِّن من المجتمع حينذاك.

ولم تخل قصة أبي العتاهية من عناصر التضحية والروعة والاستمرار والالحاح ، بحيث كانت فريدة في عصرها ، فريدة في بابها بين أترابه من شعراء ذلك العصر ، إذ لا نكاد نظفر بواحد من هؤلاء الشعراء لم يحب ، ولم يتيم بأكثر من واحدة من الجواري اللائي انتشرن في القصور ومنازل الأمراء والقواد والوجهاء ، ودور اللهو والعبث، وامتزن بملاحة الوجه ومياسة القد وعذوبة الصوت واتساع الثقافة احياناً .

إن أبا العتاهية لم يرد عنه أنه أحب واحدة سوى عتبة ، منذ رحل عن الكوفة ونزل بغداد ، حيث رآها فأُغرم بها ـ ونترك له الحديث ليروي لنا كيف « وقع » له حبها وكيف احتال فيه شتى الحيل ـ انه يقول:

« قدمنا من الكوفة ثلاثةَ فِتيان شباباً أدباء ، وليس لنا ببغداد من نقصده . فنزلنا بالقرب من الجسر . وكنا نبكّر فنجلس في المسجد الذي بباب الجسر في كل غداة ، فمرت بنا يوماً امرأة راكبة معها خدمٌ سُودان ، فقلنا : من هذه ؟ قالوا : خالصة، فقال أحدنا : قد عشقت خالصة ، وعمل فيها شعراً ، فأعنّاه عليه . ثم لم نلبث أن مرت أخرى راكبة معها خدمٌ

(١) مقال الدكتور محمد محمود الدش

بيضان ، فقلنا : من هذه ؟ فقالوا : عُتبة ، فقلت : قد عشقت عتبة . فلم نزل كذلك في كل يوم إلى أن التأمت لنا اشعار كثيرة . فدفع صاحبي بشعره الى خالصة ، ودفعتُ أنا بشعري الى عُتبة ، والححنا الحاحاً شديداً ، فمرةً تُقبَل أشعارنا ومرة تُطرد ، إلى أن أجدوا في طردنا » .

« فجلست عتبة يوماً في أصحاب الجوهر ، ومضيت فلبست ثياب راهب ، ودفعت ثيابي الى انسان كان معي ، وسألت عن رجل كبير من أهل السوق ، فدُلِلْتُ على شيخ صايغ ، فجئت اليه ، فقلت : إني قد رغبت في الاسلام على يدي هذه المرأة ، فقام معي ، وجمع جماعة من أهل السوق ، وجاءها فقال لها : إن الله قد ساق اليك أجراً . هذا راهب قد رغب في الاسلام على يديك ، فقالت : هاتوه . فدنوت منها ، فقلت : أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله . وقطعتُ الزُّنّار ، ودنوت فقبلت يدها ، فلما فعلت ذلك رفعت البرنس فعرفتني ، فقالت : نحُّوه لعنه الله ، فقالوا : لا تلعنيه فقد أسلم ! فقالت : إنما فعلت ذلك لقذره . فعرضوا عليّ كسوة ، فقلت : ليست لي حاجة الى هذه ، وإنما أردت أن أشرّف بولائها ، فالحمد لله الذي منّ عليّ بحضوركم . وجلست ، فجعلوا يعلمونني الحمد ، وصليت معهم العصر ، وأنا في ذلك بين يديها انظر اليها لا تقدر لي على حيلة .

فلما انصرفت لقيت خالصة فشكت اليها فقالت: ليس يخلو هذان من أن يكونا عاشقين أو مستأكلين . فصح عزمهما على امتحاننا بمال على أن ندع التعرض لهما ، فان قبلنا المال فنحن مستأكلان ، وان لم نقبله فنحن عاشقان . فلما كان الغد مرت خالصة ، فعرض لها صاحبها ، فقال له الخدم : اتبعنا . فاتّبعهم . ثم لم نلبث أن مرت عُتبة فقال لي الخدم اتبعنا . فأتبعتهم ، فمضت بي الى منزل خليطٍ لها بزّاز ، فلما جلست دعت بي فقالت لي : يا هذا ! إنك شاب ، وأرى لك أدباً ، وأنا حُرمة خليفة ، وقد تأنّيتُك ، فان كففت وإلاّ أنهيت ذلك الى امير المؤمنين ، ثم لم آمن عليك ، قلت : فافعلي ، بأبي أنت وأمي ، فانك إن سفكت دمي أرحتني ، فأسألك بالله إلاّ فعلت ذلك ، إذ لم يكن لي فيك نصيب ، فأما الحبس والحياة ولا أراك فأنت في حرج من ذلك ، فقالت : لا تفعل هذا وأبقِ على نفسك ، وخذ هذه الخمس مائة دينار واخرج عن هذا البلد . فلما سمعت ذكر المال ولّيت هارباً . فقالت : ردُّوه . فلم تزل تردني . فقلت : جُعلت فداك ، ما أصنع بعَرَض من الدنيا وأنا لا أراك ، وانك لتُبطئين يوماً واحداً عن الركوب فتضيق بي الأرض بما رَحِبتْ . وهي تأبى إلاّ ذكر المال حتى جعلت لي ألف دينار . فأبيت ، وجاذبتها مجاذبة شديدة ، وقلت : لو أعطيتني جميع ما يحويه الخليفة ما كانت لي فيه حاجة وأنا لا أراك بعد أن أجد السبيل الى رؤيتك .

وخرجت فجئت الغرفة التي كنا نزلنها ، فإذا صاحبي مورّم الأذنين ، وقد امتحن بمثل محنتي ، فلما مدَّ يده الى المال صفعوه ، وحلفتْ خالصةُ لئن رأته بعد ذلك لتودعنّه الحبس ، فاستشارني في المقام فقلت : اخرج وإياك أن تَقدِر عليك .

ثم التقتا ، فأخبرت كل واحدةٍ صاحبتها بالخبر . وأحمدتني عَتبة ، وصح عندها اني محب محق . . فلما كان بعد أيام جاءتني عتبة ، فقالت : بحياتي عليك ـ إن كنت تعزها ـ الا أخذتَ ما يعطيك الخادم فأصلحت به من شانك ، فقد غمني سوء حالك . فامتنعت . فقالت : ليس هذا ما تظن، ولكني لا أحب أن أراك في هذا الزي . فقلت : لو أمكنني أن تَرَيني في زيّ المهدي لفعلت ذلك . فأقسمت علي . فأخذت الصرة ، فإذا فيها ثلاثمائة دينار ، فاكتسيت كسوة حسنة واشتريت حماراً » .

وهذه القصة تعطينا صورة واضحة قوية للحال التي كان عليها أبو العتاهية عندما جاء بغداد ، فهو في هذه الصورة الماجنُ المستهتر الذي يتخذ هو وصحبه المسجد مكاناً لتدبير حماقاتهم ، ويكررون ذلك كل يوم . بل انه ليعبث بالدِّين عبثاً واضحاً عندما يتظاهر بانه راهب رغب في الاسلام على يدي فتاة جارية ، فإذا دخل هو والقوم الى المسجد لصلاة العصر ، فهو لا يصلي وإنما يتخذ المسجد مسرحاً لعبثه وتحامقه ، فالقوم يصلون بينما هو يظل ينظر الى معشوقته ، هذا فضلاً عما تظهره فيه الصورة من رقة حاله وقذر منظره .

والقصة بعد هذا تدل دلالة قاطعة على انه على الرغم من انه بدأ مغازلته عابثاً ، إلاّ أن هذا العبث استحال الى حب حقيقي تتصل أسبابه بينه وبينها ، ويرفض أن يأخذ منها مالاً مع حاجته اليه ، وكلما الحَّتْ ازداد اباءً ورفضاً حتى تأكّد لها أنه محب محق ، فلان له قلبها ، ومالت اليه ، وكان المال الذي اخذه منها اخيراً ، ليكتسي ، دليلاً على حبها وعربوناً لما هما مقبلان عليه من غرام عنيف .

يحتال أبو العتاهية لتقبيل يد عتبة

ويظل أبو العتاهية بعد ذلك يترصد لها ليظفر برؤيتها في الأماكن التي تتردد عليها ، وهو في سبيل ذلك يتوسل بحيل شتى يُعمِّي بها على الناس ويمنع عنها الحرج والأذى. فمن ذلك انه جاءها في سوق النخاسين في زي متنسك فقال : جعلني الله فداك ! شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة ، فان رأيت أعزك الله شرائي وعتقي فعلت مأجورة . فأقبلت على صاحبها فقالت : إني لأرى هيئة جميلة وضعفاً ظاهراً ، ولساناً فصيحاً ورجلاً بليغاً ، فاشتره واعتقه . فقال : نعم . فقال أبو العتاهية : أتأذنين لي أصلحك الله في تقبيل يدك . فأذنت له ، فقبّل وانصرف .

ولم يكن أبو العتاهية ـ وهو المشبوب المدلّه ـ ليقف غرامه عند حد الاستمتاع بالنظر الى محبوبته وتقبيل يدها ، في مسجد أو في حانوت أو في سوق ، وإلاّ لكان ذلك منه حباً قاصراً وغراماً فاتراً ، وانما هو يركب الصعب في سبيل شيء أعز وأبعد منالاً ، هو الحصول على عتبة بروحها وجسدها ، ويسعى في ذلك سعياً حثيثاً مستعيناً في سبيل مطلبه بأصدقائه من مخالطي الخليفة ومجالسيه ، مستعيناً كذلك بفنه وشعره الذي تلهمه إياه حبيبته . فهو مثلاً يرجو صديقه الموسيقيّ المغني يزيد حوراء أن يعمل لحناً في قوله :

نفسي بشيء من الدنيا معلّقةٌ	الله والقائمُ المهديُّ يكفيها
إني لأيأس منها ثم يُطمعني	فيها احتقارُكَ للدنيا وما فيها

ويغني به المهدي الذي يعد بالنظر في المسألة ، ثم ينسى أو يتناسى ، ويتعجل أبو العتاهية الأمر ، فيوعز إلى يزيد أن يغني المهدي بهذين البيتين :

ليت شعري ما عندكم ليت شعري	فلقد أُخِّر الجوابُ لأمر
ما جواب أولى بكل جميل	من جواب يُردُّ من بعد شهر

قال يزيد : فغنيت به المهدي ، فقال : عليَّ بعُتبة ، فأحضرت ، فقال ان أبا العتاهية كلمني فيك فما تقولين ، ولك وله عندي ما تحبان مما لا تبلغه أمانيكما ؟ فقالت له : لقد علم أمير المؤمنين ما أوجب الله عليَّ من حق مولاتي ، وأريد أن أذكر لها هذا ، قال: فافعلي . . قال وأعلمتُ أبا العتاهية . ومضت أيام فسألني معاودةَ المهدي ، فقلت : قد عرفتَ الطريق، فقلْ ما شئتَ حتى أغنيه به ، فقال :

أشربتُ قلبي من رجائك ماله	عنقٌ يَخِبُّ اليك بي ورَسيم
وأملت نحو سماء جودك ناظري	أرعَى مخايل برقها وأشيم

ولـربمـا استيـأستُ ثم أقـول : لا ... ان الـذي ضمن النجـاحَ كـريم

قال يزيد: فغنيته فقـال : عليَّ بعتبة ، فجـاءت فقال : مـا صنعت ؟ فقالت ذكرت ذلك لمولاتي فكرهته وأبته ، فليفعل أمير المؤمنين ما يـريد ، فقال : ما كنت لأفعل شيئاً تكرهه .

ولم يكن سهلاً ، بل لعله كان مستحيلاً أن تتخلص عتبة من مولاتهـا الخيزوان التي كانت صاحبة شخصية قوية ونفوذ شديد في القصـر وفي غير القصر حتى على الخليفة نفسه ، وكانت تتمسك بجاريتها عُتبة وتُنزلها منزلةً خاصة.

ولكن أبا العتاهية لا يصيبه على الرغم من ذلك كله ملل ولا يـأس ، وانما هو مقيم على حبه عتبة ، وعلى اخلاصه لهذا الحب ، لا يفتأ يذكرها ، ويردد ما يعانيه بسببها في شعره ، ولا يقف طلبه إياها من المهدي عند حد ، بل انه ليقتحم عليه مجلسه الذي يضم عِلْية القوم من علماء وكبراء وشعراء ، لعلَّه يصيبه من ذلك بحرج عندما يخاطبه بقوله :

ألا ان جـاريـةً لـلامـام ... قـد أسكن الـحب سـربـالـهـا
مشتْ بين حُـورٍ قِصـارِ الخـطا ... تُجـاذب في الـمشي أكفـالـهـا
وقـد أتـعب الله نـفـسـي بـهـا ... وأتـعـب بـالـلوم عُـذَّالـهـا

فيعجب الحاضرون من هذه الجرأة وهذه الجسارة أشد العجب ، مما يـدلنا على مقـدار تعلقه بمحبـوبته ، حتى ليستهين في سبيلهـا بكل خـطير وصعب ، وضاق المهدي به وبالحاحه عليه بشأنها ، واكثاره من التشبيب بها بشعـره السهل الـرقيق الذي شـاع بين النـاس من عـامـة وخـاصـة ، فـأمر باحضاره ، وجَلْده نحواً من حد ، وأُخرج مجلوداً ، فبكت عتبة حتى فاض دمعها . وصادفها المهدي باكية عند الخَيْزران ، فـأراد أن يترضـاها ، فـأمر لأبي العتاهية بخمسين ألف درهم ، ففرقها أبو العتاهيـة على من بالبـاب ، ولما سأله الخليفة في ذلك قال : ما كنت لآكل ثمن من أحببت.

ولم يمتنع أبو العتاهية ولم يرتدع بعد هذا الذي لقيه من اجل معشوقته من بلاء وضرب مُبرِّح ، بل ظلَّ عاكفاً على رغبته ممـا أثار المهـديَّ مرات عدة ، فسجنه اكثر من مرة ، ولمـا لم يمتنع نفـاه عن بغداد الى الكـوفة ، وهناك ظلَّ يشبِّب بصاحبته وينشد شعره فيها . ولقد أضـرَّ ذلك كله ببصحتـه وبعينيه خاصة ، حتى رثا الناس لحاله وأشفقوا عليـه من اتصال وجـع عينيه وملازمته طبيباً لعلاجهما ، ولما سئل في ذلك قال :

أيـا ويـحَ عيني ويحَهـا ثم ويحَهـا ... أما من خلاصٍ من شِباك الحبائل ؟
أيـا ويحَ عيني قـد أضرَّ بهـا البكـا ... فلم يُغن عنها طبٌّ ما في المكاحل

كل ذلك من أجل عتبة ، التي لا يستطيع أن يتخلى عن حبه إياهـا ، مستعذباً في حبها كل مـرٍّ مقيماً على اخلاصه لهذا الحب رغم ما ينزل به من أرزاء قاسية ، ومحن بالغة ، أنزلها به المهدي . بـل ان المهـدي يمـوت ، ويخلفه الهادي ، ويعقبهما الرشيد ، وأبو العتاهية لا يزال حافظاً لهواه راعياً لحبه ، ولا يفتأ يكرر محاولاته في سبيل الحصول على عتبة مع الرشيد في غير فتور ولا يأس . وكان مما قوى عزمه ، وأمدَّ له في حبال الأمل انه كانت بينه وبين الرشيـد قبل ان يَلِي الخـلافة علاقة قويـة ومصاحبـة في مجالسـه ونُزهاته ، وقد حاول الرشيد في هذه السبيل محاولة صادقة ولكن الخيـزران كانت لا تزال تتمسـك بجاريتهـا التي لم تكن تملك من أمر نفسهـا شيئاً ، وكانت قد عرفت رغبة مولاتها القوية واصرارها عليها .

حدث أبو العباس ثعلب قال : كان أبو العتاهية قد أكثر مساءلة الرشيد في عتبة ، فوعده بتزويجهما ، وأنه يسألها في ذلـك ، فان اجـابت جهزهـا وأعطاه مالاً عظيماً . ثم ان الرشيد سَنح له شغـلٌ استمر بـه ، فحُجب أبو العتاهية عن الوصول اليه ، فدفع الى مسرور الكبير ثلاث مراوح فدخل بها على الرشيد وهو يبتسم ، وكان عليها ثلاثة أبيات من الشعر ، قرأها الرشيد وقال : قاتله الله ، ما أحسن ما قال ! ثم دعا بـه وقال : ضمنت لـك يا أبـا العتاهية ، وفي غد نقضي لك حاجتك إن شاء الله . . وبعث الى عُتبة ان لي حاجةً اليك ، فانتظريني الليلة في منزلك ، فأكبرتْ ذلك وأعظمته ، وصارت اليه تستعفيه ، فحلف ان لا يَذكر لها حاجتَه إلاّ في منزلها ، فلما كان الليل سار اليها ومعه جماعة من خواص خدمه ، فقال لها : لست اذكر حاجتي أو تضمنين قضاءها . قالت : أنا أمتك وأمرُك نافذٌ فيَّ ما خلا أمر أبي العتاهية فاني حلفت لأبيك رضي الله عنه بكل يمين يحلِف بها برٌّ وفاجرٌ ، وبالمشي الى بيت الله الحـرام حافيـةً كلما انقضتْ عني حِجـةٌ وجبتْ عليَّ أخرى لا أقتصر على الكفارة ، وكلما أفدت شيئاً تصدقت به إلاّ ما أصلِّي فيه . وبكت بين يديه ، فرقَّ لها ورحمها وانصرف عنها . . وغدا عليه أبو العتاهية فقال له الرشيد : والله ما قصَّرتُ في أمرك ، ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شهود لي بذلك ، وشرح له الخبر . .

قال أبو العتاهية : فلما أخبرني بـذلك مكثت مليّاً لا أدري أين أنا ؟ قائم أو قاعـد ؟ وقلت : الآن يئستُ منها إذْ ردَّتـك ، وعلمتُ أنها لا تجيب أحداً بعدك.

فلبس أبو العتاهية الصوف ، وقال في ذلك من أبيات :

قـطعتُ منـكِ حبـائـلَ الآمـال ... وحـطـطتُ عن ظهر المـطيِّ رحالي
ووجـدت بَرْد اليـأس بين جوانحي ... فغَنِـيت عـن حَـلٍّ وعن تَـرحـال

حينـذاك فقط تملكه اليـأس واشتد بـه . هنالـك بعد عشـرين سنة أو نحوها من الحب الخـالص العميق ، وبعد صنـوف من العذاب وألـوان من الأرزاء فيها الجَلْد والحَبْس مرات ، والنفي والتشريد ، يصيب أبـا العتاهيـة ذهولٌ شديد وقد يئس من الدنيا ومن الحيـاة ومن الأمل . كـانت عُتبة دنيـاه وحياته وأمله ، فالتمس الفرار من هـذه المصيبة الفـادحة التي ألمَّت بنفسـه وقلبـه جميعاً ، الى شيء ينشـد فيه السلوان بعيداً عن الدنيـا ، بعيـداً عن الناس ، هنالك عزم على أن يتنسك ويلبس الصوف ، وينزع منزع الزاهدين وكانت لهذا المنزع في نفسه آثار قديمة وجذور بعيدة .

ومع هذا ، فاننا نجده بعد ذلك مقيماً على الـوفاء لهـذا الحب الذي أقـام من قلبه قبراً له ، يتـطلع اليه بين الحين والحين ، حتى بعـد تنسكـه وزهده ، فنراه يحن الى تلك الذكرى حنيناً شديداً مبتغياً الى ذلك الوسائل ، منتحلاً له الأعذار .

قـال لي أحمدٌ ولم يَـدْرِ مـا بي ... اتـحبُّ الـغـداةَ عُـتـبـةَ حـقـاً
فـتـنـفـسـتُ ثـم قـلـت نـعـم حـبـ ... ـاً جرى في العروق عِـرقاً فعـرقـا

وقد بلغ من شدة شغفه بهذا الغناء وما يحمل في ثناياه من ذكريـات حبيبة أن استعاده ثلاث مرات.

وحسبنـا ذلك ، لنـدل على أن قصة هـذا الغرام العنيف الـذي دفـع صاحبه الى ارتياد النسك والزهد جـديرة بـالاعتبار والاحتفـال ، بين قصص الحب الخالدة ، وقد شقى بطلاهـا بها زمـاناً طـويلاً ، أحسب مـا لقياه في سبيلها من عنت والتياع ، ومن ظروف قاهرة قاسية باعدت بين قلبيهما وأبت عليهما أن يلتئما طوال سنوات عديدة ، كان كفيلاً بأن يصيب قوتها وحرارتها بشيء من الـوهن أو ببعض من الضعف والبرودة ، ولكنهمـا تذرعـا بطويـل الصبـر ، وعديـد الحيل علهمـا يلتئمان على وصـال دائم ، ولكن الظروف كانت أقوى منهما ، وكانت الشيخـوخة قـد ادركتهما ، فقبعت عتبـة في ذل

واستكانة مغلوبة على أمرها، وساح أبو العتاهية في تيه الحياة المسحور، وكان قد فزع الى اللهو والمجانة لعله ينسى أو يتلهى، فلما لم يجد ذلك في نفسه وحبه شيئاً طلب التنسك لعله يكون أفعل في نفسه، أو أقرب طريقاً الى ما يبتغيه من سلوان.

قال صاحب الأغاني، أبو الفرج في ترجمته لأبي العتاهية: «ولم أذكر هنا مع أخبار أبي العتاهية أخباره مع عتبة، وهي من أعظم أخباره لأنها طويلة، وفيها أغانٍ كثيرة، وقد طالت أخباره ها هنا، فأفردتها». ولو أن أبا الفرج وَفَى بوعده الذي قطعه بأن يُفرد لأخباره معها باباً خاصاً «لكثرة الصنعة في تشبيبه بها، وانها اتسعت جداً»، أو لعله وَفَى وسقط هذا الباب من كتابه الكبير - إذن لاستوت لنا الحقيقة في أمر حب أبي العتاهية أنصع من ذلك كثيراً، ولوقفنا في كثير من التفصيل على قصة ذلك الحب الكبير كاملة.

إسماعيل الصفوي:

مرت ترجمته في المجلد الثالث. ثم ذكرنا تفاصيل أخرى عنه في الصفحة ١٦ من المجلد الأول من المستدركات. ثم تفاصيل أوسع في الصفحة ٥٠ من المجلد الثاني من المستدركات. وننشر عنه هنا ما يلي وهو ما عثرنا عليه بعد نشر ما نشر:

وردت في كتاب (اعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك[1] بدمشق الشام الكبرى) لمؤلفه (محمد بن طولون الصالحي الدمشقي) نصوص ثمينة عن صدى قيام الدولة الصفوية في بلاد الشام التي كانت محكومة يومذاك من المماليك، ومن قانصوه الغوري منهم بالذات.

وكنا قد ذكرنا فيما كتبناه في المجلد الثاني من المستدركات عن صدى قيام هذه الدولة بوجه عام، وإنه لمن المهم أن نعرف ماذا كانت تتجاوب به سائر البلاد من أصدية مدوية لنجاح إسماعيل الصفوي وتمكنه من السلطة. ولعل ما ننشره هنا من نصوص مأخوذة من (أعلام الورى) يرينا الصورة الصحيحة لعواطف الناس وانفعالهم من ذلك الحدث. وإذا كان المؤلف يتحدث عن دمشق وحدها فلا شك أن ما كان يتفاعل في دمشق إنما هو مماثل لما كان يتفاعل في غيرها من المناطق التي كانت تصل إليها أخبار الدولة الصفوية متقطعة ولكن مثيرة.

وإنه لمن الطريف أن نعرف كيفية إنتشار الشائعات ووصول الأخبار بما يحدث في بلاد بعيدة.

جاء في (أعلام الورى) في الصفحة ١٤٥ عن أحداث سنة (٩٠٧: «في هذه الأيام (١٧ جمادى الآخرة سنة ٩٠٧) شاع بدمشق ان رجلاً اسمه حيدر الصوفي استولى على بلاد تمرلنك وغيرها وإنه ماش على البلاد».

فالمؤلف يستبدل بكلمة الصفوي كلمة الصوفي، وليس مرد ذلك إلى ما كان معروفاً عن أصول الصفويين الصوفية، لأن مثل هذه التفاصيل لم تكن لتنتقل مع شائعة تدور على الأفواه من بلد بعيد إلى بلد أبعد، بل إن مرده إلى عدم الفة الناس لكلمة الصفوي الجديدة وإلفتهم لكلمة الصوفي العريقة، فالناقل الأول للإشاعة نقل الصفة ــ على الأغلب ــ على حقيقتها (الصفوي) لقربه من الحدث، ولكن تداول الألسنة لها من مكان إلى مكان حرفها، فوصلت إلى دمشق: (الصوفي).

ويبدو جلياً ان معلومات المؤلف الجغرافية ضعيفة كل الضعف، فكل ما يعرفه عن المنطقة التي ظهر فيها إسماعيل انها بلاد (تمرلنك). ثم إنه يحرف (تيمورلنك) إلى (تمرلنك).

والغريب في هذه الشائعة انها تقول ان إسماعيل الصفوي ماش إلى بلاد الشام، مما يدل على رهبة عرت النفوس من قيام الدولة، حتى إن تلك النفوس لتتوقع أن يكتسح إسماعيل ما بعد بلاد (تمرلنك) حتى يصل بلاد الشام!..

ثم إنه يبدو جلياً من الخبر التالي ان الأمر لم يكن مجرد تخيل بل كان في نظر الحكام جداً كل الجد فقد جاء في اعلام الورى ما يلي، وهو تابع لأحداث ١٩ صفر سنة ٩٠٨ أي بعد حوالي ثمانية أشهر من انتشار الشائعة القائلة بأن إسماعيل ماش على البلاد:

«في هذه الأيام رمى النائب على أهل دمشق مالاً لأجل مشاة تخرج إلى حلب تجريدة حرمة للبلاد لأجل ما قيل من أمر الخارجي حيدر الصوفي».

ما ورد في الخبر الأول كان مجرد ترديد لشائعة لذلك لم يكن المؤلف منفعلاً فلم يصف إسماعيل بأي صفة قبيحة، ولكن عندما بدا له أن الأمر قد **اشتد لدرجة الإعداد لدفع لخطر هاج هائجه فوصف إسماعيل بأقبح وصف وهو** وصف (الخارجي)، كما أن الصدمة أذهلته فنسي الاسم، وأطلق على إسماعيل اسم أبيه حيدر والواقع إنه لأمر غريب أن يكون الحال قد وصل إلى إعداد النجدات في دمشق، لإرسالها إلى حلب لدفع ما بدا أنه خطر صفوي متوقع، ومن البدهي أن الأمر لم يكن مقتصراً على دمشق وحدها.

ويجب أن لا ننسى ان ما يحدث هو في عصر (قانصوه الغوري) الذي افترض الناس فيه ــ بما تحدثوا به عنه بعد ذلك ــ حليفاً لاسماعيل الصفوي. وإذا صح أمر التحالف، فإنه يبدو جلياً انه لم يكن قد قام بعد، وسيتضح الأمر فيما يأتي من أخبار (اعلام الورى).

ويأتي شهر جمادي الآخرة من سنة ٩٠٨ أي انه قد مضى على انتشار (الشائعة) سنة كاملة فإذا بـ (اعلام الورى) ينشر لنا الخبر الآتي:

«شرعوا باستخلاص بقية المال الذي فرض برسم المشاة».

أي انه مضى قرابة أربعة أشهر بين فرض المال لإعداد المشاة وإرسالهم إلى حلب وبين تحصيل بقية هذا المال.

وبعد شهرين من كتابة هذا الخبر يقول (إعلام الورى) عن أحداث شهر شعبان بعد أن ذكر فرض ضريبة جديدة على الناس: «وهذه رمية أخرى غير الرمية التي أخذت بحجة مشاة إلى حلب لأجل حيدر الصوفي».

وهنا يستمر في تغيير اسم إسماعيل إلى حيدر كما يكون مستمراً في إبدال لقب الصفوي بالصوفي.

وتنتهي سنة ٩٠٨ وتليها سنة ٩٠٩ فسنة ٩١٠ فسنة ٩١١ فسنة ٩١٢ دون أن نسمع في (إعلام الورى) أي خبر عن (الخارجي) ولا عن (المشاة) المرسلين إلى حلب.

أي ان أربع سنوات قد مضت دون ذكر أي شيء عما يجري في بلاد (تمرلنك) وما يمتد بعدها من بلاد غرباً من وقائع وخطوب.

وفجأة يطلع علينا (الإعلام) وهو يتحدث عن أخبار ربيع الثاني سنة ٩١٣ بهذا الخبر:

«في هذه الأيام أيضاً شاع ان الخارجي حيدر الصوفي قد خرج على الأمير علي دولة وتقاتلا وانه قرب من حلب».

ونحن لا نعلم ــ برغم تتبعنا لتاريخ إسماعيل ــ بانه تقاتل مع من اسمه (علي دولة) فمن إين جاء صاحب (الإعلام) بهذا الخبر؟.

---

(١) المقصود بالأتراك هنا: المماليك ومؤرخو تلك الفترة يسمون دولة المماليك بدولة الأتراك.

وبما كان الأمر قد اشتبه عليه بين (علاء الدولة) وبين (علي دولة)، فإن تقاتلاً قد جرى بين علاء الدولة حفيد ناصر حاكم بلاد مرعش وبين أتباع الشاه إسماعيل لتحالفات بين علاء الدولة وآخرين بقصد الاستيلاء على ولاية دياربكر، فقرر الشاه الحؤول دون ذلك في تفاصيل ليس هنا مكان ذكرها.

ولكن مهما كان من أمر انتصارات الشاه إسماعيل على علاء الدولة فإنه يظل بعيداً جداً عن حلب مما لا يبرر شائعة قربه من حلب.

وفي أخبار جمادى الآخرة من السنة نفسها ٩١٣ نفاجأ بالخبر الخطير التالي:

«مستهل جمادى الآخرة برز النائب إلى مصطبة السلطان[1] وخرج معه **القضاة وداوادار السلطان على نية السفر والتجريد على الخارجي حيدر الصوفي.** وفي يوم الجمعة سابعه سافر.

وبعد عصر يوم الثلاثاء ثالث شعبان دخل النائب دمشق وقد مر على البلاد بعد رجوعه من تجريدة الصوفي التي وصل فيها إلى حلب».

من هذا الخبر يبدو التصميم على حرب الدولة الصفوية تصميماً مصدره ولا شك المسؤول الأول في الدولة قانصوه **الغوري**، إذ ليس من المعقول أن يتفرد نائب دمشق بقرار الحرب الذي سيلزم الدولة كلها، وخرج التصميم إلى حيز التنفيذ بسوق جيش دمشقي لقتال من صار اسمه (الخارجي). ومن هنا ندرك أن وقع قيام دولة شيعية لم يكن مثيراً للعثمانيين فقط، بل كان مثيراً للمماليك أيضاً، وأن اجماعاً قام على عدم تمكين الشيعة من أن يكون لهم دولة يكونون في ظلها مصوني الكرامة والدم والمال والحرية. اجماعاً قام دون أن يُعدّ أحد لقيامه، ودون أن تتفق أطرافه فيما بينها، بل إن وحدة النقمة هي التي جمعت إرادتهم دون أن يجتمعوا.

وحين نعود إلى لهجة (النهروالي[2]) المتمثل فيها شعور العثمانيين، ونقارن بينها وبين لهجة ابن طولون المتمثل فيها شعور المماليك، نجد إن اللهجتين تنبعثان من إحساس واحد هو إحساس النقمة والغضب.

وإذا كان النهروالي قد قال ما قال في جمل مبسطة طويلة كثيرة متعددة، فلأن كتابه كان مبسطاً طويلاً مسهباً. أما ابن طولون الموجز في كتابة ما كتبه عن تاريخ تلك الفترة، فقد سار في التعبير عن نقمته على طريق الإيجاز المتبع في كتابه، فاكتفى عن كل تعابير الشتائم والغضب بوصف الشاه إسماعيل بصفة (الخارجي)، وحسبها صفة شاملة مزرية محرضة!..

وإذا كانت البلاغة ــ كما يعبرون عنها ــ بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فلا شك ان ابن طولون كان بليغاً في تعبيره هذا، ولا يمكن لمن كان في ذهنية ابن طولون وذهنية ابناء عصره أن يعبّر عما يكنه لقيام دولة للشيعة من الحقد والنقمة والتحريض عليها، بكلمة أبلغ من وصف مقيم تلك الدولة بوصف (الخارجي).

وقد كان يمكن أن يكون وقع هذا الوصف أخف على النفوس لو كان إسماعيل الصفوي قد قام بثورته على دولة المماليك، فعند ذلك يمكن تفسير كلمة (الخارجي) بأنه الخارج على دولته. فأما وثورة إسماعيل تبعد عن دولة المماليك الوف الكيلو مترات، ولا مساس لها بسلطة المماليك، ولا أثر لها على دولتهم، فان كلمة (الخارجي) هنا إنما يُعنى بها: الخارج على الإسلام!..

على أن الذي يحيّرنا هو قول الكاتب بأن (النائب) عاد إلى دمشق بعد غياب حوالي شهر فقط. وسبب الحيرة هو ان الكاتب لم يوضح لنا عما إذا كان النائب قد عاد وحده وترك التجريدة في حلب، أم عاد مع التجريدة؟!

وسواء عاد وحده أم عاد مع التجريدة فإن حربا لم تقع بين دولة المماليك ودولة الصفويين. بل إن الذي حدث هو شيء يناقض فكرة الحرب كل المناقضة، ويكون له على القارىء وقع المفاجأة المذهلة. إذ بعد مضي حوالي شهرين على عودة النائب من حلب يطلع علينا صاحب (الإعلام) بالنبأ التالي:

«يوم السبت سابع عشر شوال دخل من مصر إلى دمشق قصّاد الخارجي إسماعيل الصوفي، وتلقاهم النائب وأرباب الوظائف، وهم نحو الخمسين نفراً، والمتعين فيهم آثنان، وجميعهم بعمائم بيض بوسطها طناطير حمر بارزة طويلة نحو الذراع».

وفي هذه المرة عاد إلى تسمية الشاه إسماعيل باسمه الصحيح وترك اسم حيدر، وإن ظل يصر على وصفه بالخارجي.

وإذا كان صاحب (الإعلام) لم يوضح لنا ماذا كانت مهمة هذا الوفد الصفوي في مصر، فلسنا بحاجة إلى توضيحه بعد أن عرفنا أن الحرب لم تقع بين إسماعيل وبين قانصوه الغوري، وعرفنا ان الأمر بينهما قد عاد إلى تحالف وثيق كانت له نتائجه الخطيرة.

ونستطيع أن نتصور الأمر على هذا الشكل:

بعد أن عرف الشاه إسماعيل بأن دولة المماليك تُعد لحربه، بعد أن كان قد عرف إعداد دولة العثمانيين لهذه الحرب، وهو مدرك ان لا مصالح مهددة للعثمانيين تحملهم على هذه الحرب، ولا مصلحة كذلك للمماليك تحملهم عليها، وكل ما في الأمر ان الدافع هو دافع مذهبي بحت لا يمتّ إلى المصالح الحقيقية بصلة، ووازن بين إقناع العثمانيين بالعدول عن هذه الحرب وبين إقناع المماليك، فترجح لديه بأن الأسهل هو إقناع المماليك وسلطانهم قانصوه الغوري، فأرسل إليه وفداً رفيعاً مؤلفاً من نحو خمسين شخصاً كان البارز بينهم اثنان ففاوضه الوفد وبين له ان لا مطامع لإسماعيل في بلاده، وانه لا يمكن أن يخشى شيئاً من قيام الدولة الصفوية، وان الاعتبارات المذهبية لا يجوز أن تكون هي الفيصل في مثل هذه المواقف المصيرية، وإن الطرفين: الصفوي والمماليكي يمكن أن ينتظرهما خطر

---

(١) المصطبة أو مصطبة السلطان: كانت دولة المماليك تعنى بالأمور الشكلية أو الأمور الظاهرة مما يزيد في هيبتها ويجعل العامة تؤمن بعظمة الدولة وكبريائها، ولذلك اتخذت أساليب العرض والمواكب العسكرية، فأقامت قبيل مدينة دمشق في قرية (القوم) قبة تدعى قبة النصر وقبة يلبغا. وكانت هذه المنطقة أعظم مدخل لدمشق فهي طرق بيت الله الحرام (بوابة الله) وطريق فلسطين والأردن وحوران وطريق عاصمة المملكة (القاهرة).

والطريق الآخر هو طريق رحبة مالك بن طوق والجزيرة الفراتية وطريق حمص وحماه وحلب وما إلى ذلك، واتخذت على هذا الطريق مصطبة تدعى مصطبة السلطان.

وهي مصطبة عظيمة كانت في سهل القابون بين القابون وبرزة، كان الملوك والنواب والعظماء من القواد ينزلون فيها إذا قدموا من جهة حلب، ثم تخرج جيوش دمشق لملاقاتهم بها ويدحلون دمشق بموكب حافل. وكذلك شأنهم إذا أرادوا السفر إلى حلب وجهاتها. ويقول البدري المتوفى سنة ٨٩٤ إنها قدر فدان يصعد إليها في نيف وعشرين درجة من جهاتها الأربع، وفيها قصر حسن البناء ينزل به الملوك والسلاطين عند توجههم إلى الأسفار أهـ.

وبقي شيء من آثارها إلى سنة ١٣٥٠ وقد شاهدها محقق كتاب (اعلام الورى) محمد أحمد دهمان الذي هو مصدرنا في هذا الموضوع ــ شاهدها وهي تعلو عن الأرض نحو متر وقد أخذ الفلاحون في هدمها وتسويتها بالأرض وأصبحت اليوم أرضاً زراعية.

هذا وإن كلمة (النائب) هنا تعني الوالي.

(٢) راجع أقوال النهروالي في المجلد الثاني من (المستدركات).

حقيقي واحد هو الخطر العثماني. فاقتنع قانصوه الغوري بهذا المنطق ووقف الإعداد للحرب، بل وافق على ان يساند الشاه إسماعيل إذا تعرض للخطر العثماني، وهو ما حصل بعد ذلك.

وهكذا استقبل الوفد الصفوي العائد من مصر في دمشق استقبالاً حكومياً ودياً فتلقاه النائب وأرباب الوظائف على حد تعبير صاحب كتاب (إعلام الورى) مرحبين به. وإذا كان الاستقبال الحكومي ودياً فإن إستقبال ابن طولون لم يكن كذلك فقد ظل يصر على إطلاق وصف (الخارجي) على الشاه اسماعيل.

وفي هذا الذي ذكره صاحب (الإعلام) شيء آخر مهم جداً لم يكن معروفاً بين من يؤرخون لتلك الايام وهو إرسال وفد صفوي بهذا العدد وهذا المستوى ليتولى المفاوضات السلمية بين الطرفين. وكل ما كان يذكر في هذا الموضوع هو ان مراسلات كانت تدور، وكان يذكر ذلك بصورة مبهمة غامضة.

وقد تجلت الآن الأمور على هذا الوجه الواضح الذي أعلنه ابن طولون فيما أنبأنا به في يومياته الدمشقية.

وهنا لا بد لنا من التساؤل عن الطريق الذي سلكه الوفد الصفوي في ذهابه من إيران إلى مصر. أما عن طريق العودة فقد عرفنا من يوميات (الإعلام) انه كان مروراً ببلاد الشام ووصولاً إلى دمشق ومنها بالطبع إلى العراق فإيران.

ومروره ببلاد الشام كان لأنها أصبحت بلاداً غير معادية، فمر بها مروراً علنياً مرحباً به ومستقبلاً استقبالاً فيه كل الود.

وحين نتساءل عن طريق الذهاب، فإنه لا يكون أمامنا واضحاً إلا طريق المرحلة الأولى، وهو طريق العراق مروراً ببغداد، وهو الطريق الطبيعي المستقيم لمن يود الوصول إلى مصر على مراحل متباعدة.

والعراق كان يومذاك بحكم أخوال الشاه إسماعيل ملوك القطيع الأبيض (آق قونيلو)، وهم وإن كانوا يخالفونه في المذهب، فلم يكونوا في ذلك الوقت في عداء معه، لذلك فإن وفده حين يمر في العراق يمر في بلاد غير معادية مما يسهل مهمته.

ويبقى أمامنا طريق ما بعد العراق. والطبيعي في هذه الحالة أن يكون طريق بلاد الشام، ولكن بلاد الشام كانت معادية كما رأينا، مثلها مثل بلاد العثمانيين، فكيف تسنى للوفد الصفوي الوصول إلى مصر وهو بهذه الكثرة العددية الواضحة؟

ذلك ما لم يشر إليه ابن طولون، لأن الإشارة إليه ليست من مهمة يومياته المنصبة في الأصل على التاريخ لولاة دمشق. ومن الطبيعي أن لا أحد غيره قد أشار إلى ذلك.

ومما يلفت النظر ويشير إلى أن مفاوضات قد جرت بين قانصوه الغوري وبين السلطان سليم بعد معركة جالديران وانتصار سليم على الشاه عباس على ما ذكره ابن طولون وهو يذكر أحداث شهر ربيع الأول سنة ٩٢٠ حيث قال:

«وحضر القاصد الذي كان أرسله قانصوه الغوري إلى سلطان الروم المظفر سليم خان بن عثمان وعاد وجماعته».

وفي ذلك ما يجعلنا نستنتج ان الغوري قد أرسل وفداً إلى السلطان سليم لتهنئته بالنصر ومحاولة إزالة ما كان قد علق بنفسه من النقمة على الغوري لما عرفه السلطان سليم من معاونات ذات أثر فعال قدمها الغوري للشاه إسماعيل كان أعظمها قطعه طرق مواصلات الجيش العثماني بحيث حرمه من تلقي ما كان ينتظره من وصول قوافل المؤن إلى تبريز مما منع السلطان سليم من قطف ثمرة نصره الحاسم واضطره للجلاء عن تبريز وعدم مطاردة الشاه إسماعيل المنهزم والقضاء على دولته قضاء نهائياً، وهذا ما كان يهدف إليه السلطان سليم من زحفه على معاقل الشاه إسماعيل.

وهكذا عاد نصرجالديران وكأنه لم يكن واستطاع إسماعيل ترميم جيشه واستعادة قوته والسير قدماً في تأسيس الدولة الشيعية القوية.

ونحن لا ندري شيئاً من تفاصيل ما جرى للوفد المماليكي في العاصمة العثمانية، ولا عما قوبل به هناك، ولا عن المعاملة التي عومل بها. وإن كنا نعلم علم اليقين بأنه فشل في مهمته...

وابن طولون الذي يعيش في الحكم المماليكي، وتحت سيادة الغوري، لا يخفي اعتزازه بالنصر العثماني حيث يذكر في ايراد الخبر العبارة الآتية: (سلطان الروم المظفر).

وقد كان بين النصر العثماني في جالديران وبين وصول وفد الغوري إلى دمشق عائداً من مقابلة السلطان سليم: شهران، فمعركة جالديران كانت في ٢٢ المحرم سنة ٩٢٠ (١٩ آذار سنة ١٥١٤م)، ووصول الوفد إلى دمشق كان في ١٧ ربيع الأول سنة ٩٢٠.

ويتابع ابن طولون سرد يومياته واصلاً إلى ١٧ رجب سنة ٩٢٠ فيقول: شاع أن قاصد الملك سليم خان بن عثمان ملك الروم وصل إلى دمشق وأخبر بأن استاذه انتصر على الخارجي إسماعيل بن حيدر الصوفي وقتل من عسكره اكثر مما قتل من عسكر ملك الروم بكثير وإنه ملك (توريز) العجم ففرح الناس بذلك».

وفي هذا يتبين لنا ان السلطان سليم أراد أن ينشر خبر انتصاره لا في بلاده وحدها بل في البلاد المجاورة لبلاده، فأوفد الرسل تحمل الخبر من بلد إلى بلد فوصل (قاصده) إلى دمشق بعد مرور ستة أشهر على معركة جالديران.

ونحسب ان هذا التأخير ناجم عن ان الرسول لم يقصد دمشق رأساً، بل إن مهمته كانت تقتضي التنقل من مدينة إلى مدينة مما أعاق وصوله إلى دمشق، فلم يصلها إلا بعد ستة أشهر.

وقد صور لنا ابن طولون حقيقة شعور الناس تجاه النصر العثماني والهزيمة الصفوية بقوله: «ففرح الناس بذلك».

وإذا كان ابن طولون قد وصف الشاه اسماعيل بصفة الخارجي وهو لا يزال منتصراً، فمن الطبيعي أن يعود فيصفه بهذه الصفة وهو يذيع خبر هزيمته. وكما قلنا من قبل عن معلومات ابن طولون الجغرافية، أنها واهية، نقول الآن، فهو يصحف اسم تبريز إلى (توريز).

السيد إسماعيل بن كاظم بن مير محمد مقيم الحسيني الرامسري التنكابني:

ولد في ١٢٣٢أو١٢٣٣ في رامسر توفي بعد ١٣٠٦ في رامسر.تعلم في رامسر القراءة والكتابة والمقدمات ثم أخذ الفقه والأصول والفلسفة عن السيد محمد هاشم الحسيني ثم ذهب إلى قزوين فتابع فيها الدراسة، وبعد ذلك هاجر إلى العراق فحضر في كربلاء عند السيد إبراهيم صاحب الضوابط وفي حدود سنة ١٢٦٠ ذهب إلى النجف الأشرف فحضر بحث الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر والشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ محمد حسين الكاظمي والشيخ علي كاشف الغطاء والشيخ حسن كاشف الغطاء. وفي حدود سنة ١٢٧٠ رجع إلى موطنه رامسر منشغلاً بالتدريس والتأليف وقضاء حوائج الناس إلى أن توفي بها وخلف ولده السيد محمد كاظم ومن

مؤلفاته :

١ ـ باب الأبواب ـ ٢ ـ نضرة الناظرين ونزهة الباصرين ـ ذكره شيخنا الطهراني في الذريعة ٢٤/١٢٩ بعنوان نزهة الناظرين(١).

أم كلثوم بنت الشيخ كريم الروغني القزويني.

عالمة فاضلة فقيهة محدثة من ربات التقى والصلاح ولدت حدود سنة ١٢٤٣هـ في كربلاء وتوفيت حدود سنة ١٣٢٠هـ أخذت العلم على جملة من العلماء في القسم النسائي من المدرسة الصالحية بقزوين وحضرت الفقه والأصول على الشيخ محمد صالح البرغاني وشقيقه الشهيد وأبيها الشيخ آغا كريم الروغني الذي كان من المدرسين في مدرسة الصالحية وهاجرت إلى كربلاء والنجف وحضرت على جملة من أكابر علمائها ولما بلغت سن الرشد زفوها للشيخ إبراهيم بن إسحاق الزنجاني فرزقت منه أربعة أولاد كلهم من أهل العلم والفضل وهم الشيخ يوسف والشيخ إسحاق والشيخ مصطفى والشيخ عبد الكريم. وذكرها صاحب تاريخ زنجان (٢).

أم كلثوم

بنت الفيلسوف الشهير صدر المتألهين محمد بن إبراهيم بن يحيى المعروف بملا صدرا

ولدت في ليلة الأحد ١٨ شهر رمضان سنة ١٠١٩هـ وتوفيت حدود سنة ١٠٩٠هـ.

أخذت العلم والفلسفة عن والدها ملا صدرا المتوفى سنة ١٠٥٠هـ وفي حدود سنة ١٠٣٤هـ زفوها إلى عبد الرزاق بن علي اللاهيجي القمي المشهور بالفياض المتوفى سنة ١٠٥١هـ ثم قرأت على زوجها المذكور حتى برعت في كثير من العلوم، يحكى إنها كانت تجالس العلماء وتبحث معهم بفصاحة وبلاغة، وهي والدة الميرزا حسن المعروف بالكاشفي المتوفى سنة ١١٢١هـ صاحب كتاب شمع اليقين وكتاب زواهر الحكم الموجودين عندنا في نسختين من خطها ونسخة بخط المؤلف ذكرها السيد شهاب الدين المرعشي النجفي في مقدمة كتاب (معادن الحكمة) بما يلي (الفاضلة الأديبة الزاهدة أم كلثوم بنت صدر المتألهين زوجة العلامة الفيلسوف المتأله المتكلم المولى عبد الرزاق بن علي بن الحسين اللاهيجي القمي المشتهر بالفياض صاحب كتابي «الشوارق وكوهر مراد» المتوفى سنة ١٠٥١ وهي أم العلامة الزاهد الحاج الميرزا حسن المعروف بالكاشفي صاحب كتاب شمع اليقين في معرفة الحق واليقين المتوفى سنة ١١٢١ المدفون في خارج صحن السيدة الجليلة فاطمة المعصومة بنت الإمام أبي إبراهيم موسى بن جعفر روحي لها الفداء في حاشية الشارع العام وقد وفقني الله سبحانه بتعمير قبره الشريف بعد الاندراس تعظيماً للشعائر الدينية وإحياء لذكر علمائنا الأبرار ورأيت في مجموعة المواليد للمترجم لها أن أم كلثوم هذه ولدت ليلة الأحد ١٨ شهر رمضان سنة ١٠١٩ق)(٣)

الشيخ آغا التفات القزويني :

توفي بعد سنة ١٠٩٥.

كان من أكابر علماء الشيعة في العصر الصفوي وفحول فقهاء الإمامية في القرن الحادي عشر المنسيين قرأ المقدمات والسطوح على جماعة من أفاضل قزوين ثم تخرج في الفقه والأصول والحديث على الشيخ محمد كاظم الطالقاني المتوفى سنة ١٠٩٤هـ وأجيز منه وله آثار ومآثر خالدة في قزوين حتى اليوم منها (المدرسة الالتفاتية) وهي مدرسة دينية ضخمة واقعة في الشارع الرئيسي قرب ساحة السعادة أمام السوق الكبير في وسط مدينة قزوين ولا تزال تعرف باسمه حتى اليوم وهي من المدارس المعمورة في العصر الحاضر وحافلة بطلاب العلوم الدينية وقد قام بتعميرها أخيراً السيد الخوئي وفيها مكتبة تحتوي على مجموعة من نفائس المخطوطات ونوادر المطبوعات، وقد قامت بإنجاز هذا المشروع العالمة الفاضلة العارفة السيدة الأميرة زينت بيكم بنت الشاه طهماسب الصفوي ويستفاد من الوقفية الموجودة عندنا انه كان إتمام بناء هذه المدرسة في حدود سنة ١٠٦٨هـ وكان المترجم له من المدرسين في مدرسته المذكورة وتخرج عليه جماعة من العلماء والفضلاء وله مؤلفات منها تمام الفقه من الطهارة إلى الديات في ثلاثة أجزاء كبيرة.

ومما يجدر ذكره هنا ان ما ذكره السيد محمد علي كلريز في كتابه (مينودر) صحيفة ٥٦١ قائلاً (... إن بناء هذه المدرسة في عصر سلاطين المغول وقام بتأسيسها أحد أمرائهم باسم (الخواجة الالتفات) وعرفت باسمه حتى اليوم..) غير صحيح. ولم أعلم من أين نقل هذه الأقوال لأنه لم يشر إلى أي مصدر كما ان كلامه لا يتفق مع نص الوقفية الموجودة عندنا فما ذكره خطأ محض وليس له نصيب من الصحة جزماً وقد أجمع علماء الآثار ان هذه المدرسة من الآثار الصفوية ويظهر ان صاحب مينودر كتب من تلقاء نفسه وتصوره الشخصي دون تحقيق ولم أجد للمترجم له أي ذكر في كتب التراجم والسير إلا انه في أعيان الشيعة أشار إلى مدرسته المذكورة في غير واحد من مُجلدات أعيان الشيعة منها في ترجمة المولى الشيخ محمد باقر بن الغازي القزويني أخي ملا خليل القزويني قال: (... عالم فاضل متكلم جليل كان مدرساً في المدرسة الالتفاتية بقزوين...)(١).

أم نزار الملائكة :

شاعرة عراقية اشتهرت بكنيتها ولدت سنة ١٩٠٨م وتوفيت سنة ١٩٥٣م في لندن أثر عملية جراحية ودفنت في العراق. وهي والدة الشاعرة نازك الملائكة، ولها شعر كثير ولكننا لم نقع لها إلا على هذه القصيدة التي نظمتها سنة ١٩٤٨م أثناء دخول الجيوش العربية إلى فلسطين:

شددي العنف على الباغين اذلالا وقهرا
شددي الضيق على الطاغين زيدي القيد عسرا
لا تليني لأفاع أمعنت لدغا وغدرا
لا ترقي للمضلين وإن جاؤك أسرى
دمريهم حطمي طغيانهم حتى يخرا
أرهقيهم أبدلي أحلامهم يأسا وخسرا
جرعيهم اكؤساً من بغيهم تطفح مرا
امنحيهم من فلسطين عناء مستمرا

* * *

أمة البأس أعيدي ربوات البأس حمرا
أطبقي الكفين هدي الرجس تقتيلا ودحرا
لا ترقي لصهاينين عتوا في القدس شرا
أبعدي الرأفة عند أفئدة تطفح طهرا
ليس للرأفة بعد الآن أن تعقب خيرا
قتليهم فالأذلاء يرون اللين خسرا
أظهري الحق على الباطل تبيانا وزجرا
ليس ما تأتين إلا النبل والعدل الأغرا

(١) الشيخ محمد السمامي
(٢) (٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

أذكري الأهوال تنهال على الساحات سكرى
أذكري الأطفال تساقط ارهابا وذعرا
اسألي القدس ينبئك بما كان ومرا
اسأليه مسجداً مسترهقاً يشكو وديرا
اسألي الغمة والليل الدجي المكفهرا
أسألي الأشلاء فالأشلاء بالقصة أدرى
كيف مر الدهر بالقدس وكيف ارتد نكرا
كيف رفت ومضات النور بالساحة حيرى

* * *

عاصف سوف يعم السوح تصخابا وذعرا
عاصف سوف يحيل الكون ـ أما اهتيج ـ قفرا
أي فلسطين ألا فلينشبوا نابا وظفرا
وليمدوا شرك الطغيان طيا ثم نشرا
وليمنوا طغمة الشذاذ في القدس مقرا
ليس من شأن دماء العرب أن تذهب هدرا

* * *

لن تكوني، كعبة الإسراء للعادين وكرا
لن تصيري للمغيرين على الأمجاد جسرا
أنت سجلت على غرة بأس العرب سفرا
أنت وطدت على الأمجاد حصنا مشمخرا
أنت أنت النصر والعزة أنت النيل طرا
فليصموا مسمع الدنيا تفاهات وهجرا

* * *

من أباح الغاب للأغراب كي يهديه حكرا؟
من دعا الغربي أن يلعب في الصحراء دورا
أيها الغرب دع الغدر فقد حملت أمرا
خذ طريق الحق وأجنح للهدى واستدن غفرا
كيف خنت القدس فاستهدفته صدرا ونحرا
كيف أغريت على سكب الدم الطاهر غدرا؟
هذه الدار لها أهل أرادوا العيش نضرا
هذه السوح فراديس سمت عزا وطهرا
هذه الجنات كانت للهدى مغدى ومسرى
كيف تنصاع إلى صهيون أو توليه أمرا

* * *

عالم الظلم استفق فالشرق يستوفز وترا
طال ليل العبث واجتثت فروع الصبر قسرا
لم نعد نقوى على الطغيان تضليلاً وسترا
سوف نزجيها لظى حمراء تصلي الغرب سعرا
كان ما قد فات من حلم سما بالعرب فخرا

* * *

إنه الظلم يحيل القلب مهما لان صخرا
إنها الغمرة تجتاح النهى ترديه سكرا

* * *

أي فلسطين وإن عانيت ارهاقا وجورا
إنها خاتمة الآلام أشجاها ممرا
لمي الأشلاء ولتضفي على الغمة سترا
ولتجيلي الطرف في البيد تري في البيد أمرا
ها هي الساحات أفواج توالي أثر أخرى
ها هي الأبطال قد ضجت إلى الهيجاء حرى
فلتعديها فلسطين ليوم النصر ذخرا

* * *

ساحة الإسراء لن تلفي بك الفتنة بحرا
لا تسائي لن يكون المدى للشرك مقرا
أحمد منقذك الأسمى سيولي العرب نصرا
فيك من أنوار عيسى ما يحيل الليل فجرا
وعلى آفاقك الزهر سنا النصر استقرا
فاملأي الأكواب أضعافاً ورديِ السهم عشرا
وامنحي هذي الصهاينين بقعر البحر قبرا
أورديها مورد الهلكة أو ترتد حسرى
أدفنيها في هوى الذل وساءت مستقرا
أقذفيها في جحيم تحشر الغاوين حشرا

* * *

الأميرة أوراق سلطان بيكم :

بنت الأمير إسكندر بن قرا يوسف بن قرا محمد بن بيرام خواجه التركماني آل قراقوينلو. كانت أديبة فاضلة شاعرة ذات عقل ورأي وحكمة كانت حية في سنة ٨٤٢هـ.

ولدت وترعرعت في بلاط أبيها وهي من أسرة آل قراقوينلو بطن من قبيلة التركمان كان جدها قرا محمد من مؤسسي إتحادية قبائل التركمان (دولت الخروف الأسود) وأبوها من أمراء طائفة قراقوينلو المقتول في سنة ٨٤٢هـ. وكان منقوشاً على خاتمها:

بود أزجان محب آل حيدر
أوراق سلطان بنت شه سكندر

ذكر أختها الأميرة آرايش بيكم في أعيان الشيعة ولم يذكر أختها المترجم لها ووصف أختها (الأميرة آرايش بيكم ابنة الأمير إسكندر بن قرا يوسف بن قرا محمد بن بيرام خواجه التركماني. كان أبوها من أمراء طائفة قراقوينلو التركمانية وقتل سنة ٨٤١هـ أما هي وقد استدل صاحب مجالس المؤمنين على تشيعها وتشيع عشيرتها بشعر كان منقوشاً على خاتمها وهو:

در مشغلة دنيا در معركة محشر
از آل علي كويد آرايش اسكندر[١]

الحاج باقر اللاهيجي :

ولد في لاهيجان ونشأ بها وبعد أن تعلم القراءة والكتابة انصرف إلى التجارة واشتهر بذلك ثم أنصرف عن التجارة وسلك طريق العبادة والتنسك وله نظم راق في رثاء الحسين وقصائده معروفة بـ(هفت بند) تقرأ في لاهيجان ونواحيها في مجالس التعزية الحسينية توفي بلاهيجان ودفن في داره الواقع بقرب من مسجد (جهار پادشاه)[٢].

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) الشيخ محمد السمامي.

الشيخ باقر نجل الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر :

توفي سنة ١٣١٧ كان أحد علماء وفضلاء هذا البيت وهو والد الشيخ علي الجواهري الشهير.

رثاه السيد محمد حسين الكيشوان بقصيدة يمدح بها نجله الشيخ علي :

هذا علي الصادق الأقوال والأفعال والأخبار والآثار
من معشر بيض الوجوه أماجد شم المعاطس فتية أحرار[1]

بروين اعتصامي [2]

الشاعرة المثالية ابنة يوسف اعتصامي الملقب بـ (اعتصام الملك) الاشتياني والكاتب الإيراني [المتوفى ١٣٥٦هـ] ولدت بمدينة تبريز سنة ١٩٠٦م. وكان أبوها من الكتاب الأدباء ومن فضلاء عصره ونشأت بروين وترعرعت في أسرةٍ كريمةٍ، وكانت تميل منذ طفولتها إلى الأدب والشعر الفارسي والعربي، وتتلمذت في تعلم هاتين اللغتين على يد اساتذة خصوصيين في دار أبيها، ثم درست اللغة الإنجليزية في مدرسة البنات الأمريكية في طهران، وتقدمت في تعلمها تقدماً سريعاً محسوساً، وبعد إكمالها للدراسة اشتغلت في هذه المدرسة كمعلمة تدرس الأدب، وكانت بطبعها وهي في التاسعة من عمرها تميل إلى قول الشعر وإنشاده، وكانت تجمع القطع الشعرية التي تنظمها وقد نشرت أشعارها وهي في ربيع عمرها، وتتصف الشاعرة بحلاوة الحديث وصباحة المنظر وصفاء النفس ولم تنزع إلى ريبةٍ ولم تنزلق إلى مأثمةٍ وكانت من ألمع الشاعرات في عصرها. ومن أمعن النظر باحثاً مدققاً يجد من خلال شعرها الرقيق إنسانة مرهفة الشّعور، نيّرة القلب، تحمل بين جنبيها قلباً رقيقاً عاطفياً حسّاساً تثيره أدّق الشجون، إنّ أبواب الشعّر التّي تطرّقت إليها الشّاعرة كانت لها أهمّيّة خاصّة كبرى، ولم تظهر امرأة في تاريخ الشّعر والأدب الفارسيّين أعظم منها، كانت ذات علم وافر وأشعارها متّزنة، تفصح فيها عن أحاسيس المحرومين وآمالهم، وديوانها مجموعة رقيقة عاطفّية من الشّعر تصوّر لنا فيه شتّى الحالات النّفسّية.

كانت الشّاعرة مع أبيها [يوسف اعتصامي] في أكثر أسفاره داخل إيران وخارجها، وكانت أرتباطاتها العلمّية والأدبّية بالفضلاء والشّعراء الإيرانيّين وغيرهم في هذه الأسفار تزيدها غناء في الأدب والثّقافة.

تزوّجت بروين من ابن عمّها سنة ١٣٥٣هـ وبعد أربعة أشهر انتقلت إلى دار بعلها في كرمانشاه لكنّ الزّواج هذا لم يكن متناسباً ولم يدُمْ أكثر من عدة أشهر رجعت بعدها إلى دار أبيها [سنة ١٣٥٤هـ] ثم انفصمت عرى الزوّجية بعد تسعة أشهر تقريباً. ولقد تقبلت الشّاعرة هذه النتيجة ببرودة فائقةٍ ولم تشكُ بثّها في شعرها إلاّ في ثلاثة أبيات وهي :

أي كل، توزجمعّيت كَلزارجه ديدي
جز سرزنش وبدسري خارجة ديدي
أي لعل دل افروز، توبا أين همه برتو
جزمشتري سفله ببازارجة ديدي
رفتي بجمن، ليك قفس كشت نصيبت
غيراز قفس، أي مرغ كرفتارجة ديدي

وترجمتها:

«أيّتها الوردة! ما كان حاصلك في الرّوضة غير الشّوك!
أيتها الدّرّة! لم يكن لكِ مشترٍ سوى سفلة السّوق.
ثمّ سرت إلى الحديقة فإذا الحديقة سجنٌ.
وأنت حمامةٌ في القفص!».

طبعت ديوانها بعد الطلاق سنة ١٣٥٤هـ ثم طبع بعد ذلك خمس مرات، وفي سنة ١٣٥٥هـ أرسلت وزارة المعارف المدالية الثّقافّية من الدّرجة الثّالثة للشاعرة ولكنّها لم تقبلها، وفي سنة ١٣٦٠هـ توفيت بروين بطهران بمرضٍ دام ثلاثة عشر يوماً فقط وكان عمرها إذ ذاك خمسة وثلاثين عاماً ودفنت إلى جوار قبر أبيها في مدينة قم

آثارها

طبع لها غير الدّيوان: كلي جند أزديوان بروين اعتصامي، وطبعت مجموعة مقالات حول بروين تكريماً لها بعد وفاتها[2].

قال السيد محمد جمال الهاشمي في رثائها من قصيدة :

رفرفي في الخلود بين طيوره وأشربي من ندى الجمال ونوره
حرت في فكرك الخصيب وما جا ء به للعقول في تصويره
امعـاني الحياة وهي محيط غـرق الكون ظامئاً في نميره
كيف صورت كنهها بنشيد ساحر في أوزانه وبحوره
زهرة الفرس ليت شعري ايبكي روض إيران ازكـى زهوره
قد تمشى الذبول فيك وأيا رطري في حسنه وعبيره
وصحونا على نعيك نستمطر أجفاننا بشؤم نذيره
فوداعاً قيثارة الشعر فالأنغام تبقى في الدهر طي عصوره

المولى بهرام الطالقاني التنكابني:

توفي حدود ١٣٣٠

ولد في طالقان ونشأ بها ثم أخذ يتعلم القراءة والكتابة وبعد ذلك انصرف إلى تعلم العلوم الدينية فدرس في قزوين وطهران. ثم هاجر إلى تنكابن وسكن بها وانصرف إلى الوعظ والخطابة واشتهر بذلك.

وكان عابداً زاهداً ناسكاً ورعاً جامعاً للفضائل [2].

الشيخ جابر الكعبي:

هو الشيخ جابر بن عبد الله بن عيسىٰ بن غيث بن غضبان بن سلمان من شيوخ امارة كعب العربية.

انتهت إليه رئاستها وهو في ريعان الشباب واستطاع بفضل حنكته ودهائه أن يصبح سيداً مطاعاً من قبل طوائف امارة كعب، بتمكنه من توحيدها ولمّ شملها بعد تشتتها إلى العراق والكويت فقد تمّ له السيطرة عليهم وقتل من قتل منها بفعل الشيخ خزعل. لقد سجل التاريخ للشيخ خزعل بانه كعبي والمتيقن انه ليس من بيت البوناصر الذي تولى زعامة كعب أباً عن جد والذي نرضى به رئيساً عليها جميع طوائف كعب. ففي زمن الشيخ لفتة بن مبادر (المتوفى ١٢٥٧هـ) الذي كان يتولى زعامة إمارة كعب كان الحاج جابر جد الشيخ خزعل منصوباً على منطقة الفيلية التابعة لمدينة المحمرة من قبل الشيخ لفتة الذي كان يسكن في الفلاحية مركز مدينة الدورق وكان الحاج جابر المذكور يجبي محاصيل الفيلية من التمور وغيرها ويرسل عائداتها إلى الشيخ لفتة.

ثم إن الحاج جابر جد الشيخ خزعل كان على ما يبدو شخصاً ذكياً إنتهازياً إذ استغل الضعف الطارىء في البوناصر اثر مقتل الشيخ لفتة على يد صهره وابن عمه الشيخ جعفر بن فارس. ويقال في سبب قتله ان الشيخ

---

(١) الشيخ محمد السمامي.
(٢) بروين بالباء الفارسية التي تلفظ كحرف P اللاتيني.

(١) الشيخ أبو ذر بيدار.
(٢) الشيخ محمد السمامي.

لفتة كان جباراً ظالماً في منتهى الجور فاتفق رؤساء طوائف كعب على قتله والتخلص منه فتآمروا بواسطة الشيخ جعفر ووعدوه بالزعامة والرياسة عليهم فقبل الشيخ جعفر ونفذ المؤامرة بمساعدة زوجته بنت الشيخ لفتة فقتل الشيخ لفتة هو وابنه الشيخ بشير الحاكم في منطقة الجراحي في ليلة واحدة. وبعد نجاح المؤامرة ترأس الشيخ جعفر إمارة كعب ولكن لفترة قصيرة إذ سرعان ما وقع الخلاف في بيت البوناصر واشتغلوا بأنفسهم بعدما خلعوا الشيخ جعفر. فاستغل الحاج جابر جد الشيخ خزعل هذا الضعف على بعد من أعين البوناصر فجمّع حوله أفراداً وشكّل له شبه حكومة بما كان يغدق على جماعته من الأموال الطائلة التي حصل عليها من بعض البواخر الإنجليزية التي أصيب أفرادها بمرض الطاعون فقويت شوكته واشتد عوده حتى صار ملجأ لكل هارب وساخط على بيت البوناصر فأعلن نفسه شيخاً وبقي على تلك الحالة حتى وفاته ثم انتقلت الرياسة الى ابنه مزعل ثم الى أخيه خزعل بعد أن قتل مزعلاً.

وفي هذه الفترة اتفق زعماء كعب على زعامة الشيخ عبد الله أبي الشيخ جابر المترجم له ولكنه كان ورعاً فتحاشى الزعامة العشائرية لما تصحبه غالباً من الخروج على القوانين الإسلامية والعمل بالظلم والجور فبعد خمسة أشهر من الرياسة تنازل عنها وانتقل إلى مدينة المحمرة بعد أن ودع الفلاحية مركز امارة كعب القوي حتى وافاه أجله فتوفى في المحمرة ونقل جثمانه إلى مدينة النجف الأشرف فخلفه الشيخ جابر المترجم له وهو في سن الشباب وكان معاصراً للشيخ خزعل الذي كان يتولى إمارة المحمرة ونواحيها وتمكن من السيطرة حتى على مركز كعب وهو الفلاحية بل على كافة الدورق ونواحيها.

كان الشيخ خزعل يعلم بانه لو برزت شخصية قوية ذات نفوذ في بيت البوناصر فسوف يكون مهدداً في زعامته ورياسته ولذا حاول أن يبيد زعماء كعب حتى وصل الدور إلى الشيخ جابر وهو ذو مطامع وذو همة عالية ولذا استغله الإنجليز للضغط على الشيخ خزعل وتخويفه فدعا الانجليز الشيخ جابر إلى العراق ولوحّوا به للشيخ خزعل فرضخ لمطاليبهم بالنفط وتنازل لهم عن النصف فلما تم لهم ما أرادوا تخلوا عن الشيخ جابر فبقي الشيخ جابر مدة في العراق ثم عاد إلى المحمرة ولم يصغ إلى من حذروه من الرجوع خوف البطش به من قبل الشيخ خزعل. فصار الشيخ خزعل يتحين الفرص للغدر به حتى واتته الفرصة في حفل زواج ابنه عبد الحميد الحاكم على مدينة الأهواز ففي حفلة الزواج دس سماً موضوعاً في (كوب) القهوة إلى الشيخ جابر فلما أحس الشيخ جابر بالسم خرج فوراً من الحفلة ودعا طبيباً إنجليزياً كان يقوم بمهنة الطبابة بالاضافة إلى عمله الرسمي كقنصل بريطاني في مدينة المحمّرة فعالجه الطبيب المذكور المدعو (لين كن) فتمكن من إنقاذ حياته ولكنه أصيب بشلل في نصف بدنه وبقي مقعداً إلى آخر حياته. ولقد حالف الحظ جابر إذ أبعدت السلطة الإيرانية الشيخ خزعل إلى طهران محجوزاً عليه ومفروضاً عليه الإقامة الجبرية في العاصمة الإيرانية. فتألق نجم الشيخ جابر خصوصاً بعدما منحته الحكومة الإيرانية أوسمة وأحكاماً مؤكدة بذلك زعامته على كافة طوائف كعب فأصبح الشيخ جابر زعيماً بلا منازع في المنطقة ورئيساً مقتدراً فدعا قبائل كعب المشتتين في العراق والكويت وسائر أنحاء البلاد الإيرانية فارجع عشيرة (النصار) من الكويت وأسكنهم محلهم السابق في منطقة (القصبة) وكذلك فعل بالنسبة إلى عشيرة دريس (مخفف ادريس) حيث كانوا في العراق فأسكنهم منطقة عبادان وبذلك فقد التأم شمل عشائر كعب في عبادان والمحمرة والقصبة والدورق ونواحيها وأصبح الشيخ جابر سيداً مطاعاً نافذ الكلمة ومسموع القول هذا بالإضافة إلى صفاته الحميدة من كرم وسخاء نفس وعلو همة مع تواضع جم وكانت له صلات وثيقة مع العلماء سواء في منطقته كالسيد عدنان الغريفي أو في النجف الأشرف كالشيخ محمد رضا آل ياسين والسيد أبي الحسن الأصفهاني والشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء.

توفي الشيخ جابر في يوم الأربعاء ٢١ من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٧٣ عن عمر ناهز السبعين فشيّع تشييعاً شعبياً ورسمياً ثم نقل جثمانه إلى النجف الأشرف فدفن في احدى غرف باب الطوسى من الصحن الحيدري الشريف وقد خلف ثلاثة أولاد ذكور وهم: عبد الرزاق وبهادر وعباس وانتقلت رئاسة كعب من بعده إلى ابنه عبد الرزاق ثم إلى عبد الرحمن بن بهادر.

وقد رثى المترجم له جملة من الشعراء منهم الخطيب الملا مهدي الشويكي بقصيدة منها:

فلا غرو أن تبكي له (آل ناصر) دموع دم تحكي السحاب إذا همى
وتغدو عليه (آل ادريس) نوّحاً ترى الحزن فرضاً والسلو محرّما
وتضحى له (النصار) قرحى قلوبها تجرعها الأحزان صابا وعلقما
فقد كان فيهم طود عز ومنعة فغادره صرف الردى متهدّما[1].

جابر بن حيان:

مرت ترجمته في الصفحة ٣٠ من المجلد الرابع وننشر عنه هذه الدراسة مكتوبة بقلم الدكتور حسين مروة:

شكوك وغموض

إن «جابر» رغم شهرة اسمه وشهرة آثاره العلمية في الأوساط الأكاديمية العالمية، منذ عصر النهضة الأوروبية حتى اليوم، قد احيطت شخصيته، عن قصد أو غير قصد، بأستار من الشكوك لم تقتصر على ناحية واحدة، بل شملت أكثر من ناحية. . فقد اختلف في تاريخ مولده ومكانه، واختلف في أصله ومذهبه ومكان نشأته، واختلف في نسبة بعض مؤلفاته إليه، بل لقد اختلف حتى في حقيقة شخصيته، هل هي شخصية واقعية أم خيالية! . .

ليس نادراً في تاريخ الفكر العربي ان تحاط بالتشكيك شخصيات اشتهرت اسماؤها وآثارها في الأدب أو الفلسفة أو العلم، كامرىء القيس، وابن طفيل، كما حصل التشكيك بكثير من مشهور الكتب والدواوين والقصائد في تاريخنا الثقافي، من حيث نسبتها إلى شخصيات متعددة في عصور متباعدة.

ولعل هذه الظاهرة نشأت من اضطراب الأحداث التاريخية وتداول الآثار الفكرية بين ذوي الخصومات في الحكم والسياسة والمذاهب، وضياع الكثير من الأسانيد والوثائق الصحيحة والمؤلفات العديدة الكاشفة، وتشتت الكثير من مخطوطاتها الأصلية أو المنسوخة في بلدان الغرب والشرق، أثناء عصور الفتح والغزو والاستعمار الأجنبي التي تتابعت على بلاد العرب.

وقد تعرض جابر بن حيان لخصومات سياسية ومذهبية وشخصية، اثناء حياته ذاتها، فرضت عليه الإختفاء والتشرد زمنا، وتركت جرائرها تعمل في آثاره العلمية تضييعاً وتحريفاً وتشكيكاً بعد ذلك.

ومهما يكن من فعل هذه العوامل كلها، فإن أسباب التشكيك بشخصية جابر بن حيان وبنسبة بعض آثاره إليه، لا تقوى على الثبات أمام النقد العلمي الموضوعي، ولا تستطيع أن تطمس حقيقة وجوده وشخصيته وحقيقة كونه هو مؤلف تلك الآثار العديدة المنسوبة إليه.

---

(١) السيد علي العدناني الغريفي.

مصادر الشكوك

أما الشك بوجوده، فقد بدأ الحديث عنه منذ أوائل القرن الرابع الهجري، وكان ابن النديم صاحب كتاب «الفهرست» الذي عاش في أواسط ذلك القرن، هو أول من تحدّث عن هذا الشك في كتابه المذكور، قائلاً:

«.. وقال جماعة من أهل العلم وأكابر الورّاقين ان هذا الرجل ــ أي جابر بن حيان ــ لا أصل له ولا حقيقة. وبعضهم قال انه ما صنف، إن كان له حقيقة، إلا «كتاب الرحمة»، وإن هذه المصنفات صنَّفها الناس ونحلوها اياه».

وفي العصور الأخيرة تحدث عن هذا الشك أيضاً «بول كراوس» الذي جهد في جمع بعض مخطوطات جابر من مختلف المكتبات في أوروبا ونشرها في كتاب بعنوان «مختار رسائل جابر بن حيان» وألَّف مجلدين عنه وعن مؤلفاته ومذهبه. ولكن «كراوس» يرى ان هذه المؤلفات التي تنسب إلى جابر، إنما كتبت في عصر متأخر عن الزمن الذي تقول الروايات ان جابر عاش فيه، ويرى انها كتبت في نحو عام ٨٦٠ الميلادي أو في نهاية القرن التاسع هذا، وان مؤلف رسائل جابر ينبغي ان يكون قد عاش قبل عام ٩٨٧م، أي قبيل تأليف الفهرست لابن النديم، وقبل «ابن وحشية» صاحب كتاب «الزراعة النبطية» المؤلف عام ٩٥٠م، وذلك لأن ابن النديم وابن وحشية قد ترجما لجابر وتحدثا عنه في كتابيهما هذين، ويرى «كراوس» أخيراً أن المؤلفات المنسوبة إلى جابر هي من وضع القرامطة الاسماعيليين.

أدلة الشك

يعتمد «كراوس» في شكه ذاك، على القرائن الآتية:

أولاً: انه إذا صحت نسبة الرسائل إلى جابر، فيلزم إن نغير نظرنا إلى تاريخ الإسلام، لأن ذلك يعني ان جابراً كان أول من نقل علوم الأوائل إلى العرب، وانه وجدت في ذلك الزمن شخصية كشخصية جابر أصلية ممتازة ذات استقلال عجيب وعلم غزير مع معرفة فذة للأدب اليوناني، وانه إذا كانت هذه الرسائل غير منتحلة فيلزم أن يكون جابر هو الذي خلق اللغة العلمية وذلَّلها قبل المترجمين الذين عاشوا في القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي، وأن رسائله هذه تمثل نموذجاً من العلماء الذين لا نظير لهم في الحقب الأولى الإسلامية، فهو يعالج مسائل العلوم الطبيعية بأسلوب يكاد لا ينتظر في القرن الثاني للهجرة والثامن للميلاد وحسب، بل إن معلوماته في الطبيعة ترتكز على أسلوب فلسفي قائم بذاته، ومتين أيضاً، فضلاًعن اننا نجد في تلك الرسائل عدا النزعة الشيعية الخاصة تعاليم معتزلية، مع إن مذهب الاعتزال لم يكن قد بلغ أشده، بعد، في ذلك القرن.

ثانياً: إن صلة جابر بن حيان بالإمام جعفر الصادق، تقضي بالقول ان التعابير العلمية في المؤلفات المنسوبة إلى جابر لا صلة لها بالإمام الصادق ولا بأحد من معاصريه، ولا سيما ما جاء فيها عن تشريح العين، فإن حنين بن إسحاق قد أورد سبع طبقات للعين تشبه اسماؤها ما ذكره جابر بهذا الصدد، وليس من المعقول ــ كما يقول كراوس ــ أن يكون حنين قد أخذ ذلك عن جابر، بل العكس هو المعقول.

ثالثاً: إن رسائل جابر ذات طابع إسماعيلي، وذلك يؤكد ان هناك علاقة شديدة بين جابر والإسماعيلية، وبين الإسماعيلية ورسائل جابر، ثم يذكر «كراوس» أمثلة للتشابه بين تعابير جابر وتعابير الإسماعيلية في فكرة العدد وخاصة «السبعة»، وفي النظريات الكيميائية، وفي بعض التفسيرات الدينية لعلاقة الأشياء بعضها مع بعض علاقة كيميائية حتى في الجزئيات الصغيرة.

نقد الشكوك

يبدو، جلياً، إن هذه القرائن التي استند إليها «كراوس» في شكه، إنما تدور على قضية الشك بصحة نسبة مؤلفات جابر إليه، ولا تشير مطلقاً إلى قضية الشك بوجوده. ولذلك يمكن القول ان الشك في أصل وجود جابر أو تأكيد عدم وجوده، أمر لم يذكر زاعموه دليلاً عليه، لا مقنعاً ولا غير مقنع. ولكن نزيد عن هذا النقض السلبي نقضاً إيجابياً نقيم به الأدلة على وجوده أولاً، وعلى كون المؤلفات المنسوبة إليه هي من تأليفه بالفعل، ثانياً:

١ ــ إن ابن النديم في «الفهرست»، وهو الذي كان أول من نقل القول بعدم وجوده، قد تصدَّى للرد على من ينفي وجوده، وأكد إن جابر بن حيان حقيقة لا شك فيها، وانه هو بالذات مؤلف تلك الرسائل الجليلة الشأن. وهذا ما قاله ابن النديم بنصه:

«.. وأنا أقول: إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب، فيصنف كتاباً يحتوي على الفي ورقة، يتعب قريحته وفكره بإخراجه، ويتعب يده وجسمه بنسخه، ثم ينحله لغيره، اما موجوداً أو معدوماً، ضرب من الجهل، وإن ذلك لا يستمر على أحد، ولا يدخل تحته من تحلَّى ساعة واحدة بالعلم. وأي فائدة في هذا أو أي عائدة؟. والرجل له حقيقة، وأمره أظهر وأشهر، وتصانيفه أعظم وأكثر».

٢ ــ إن الحسين بن بسطام بن سابور الزيات وأخاه أبا عتاب عبد الله بن بسطام بن سابور ــ وهما من علماء الشيعة القدامى ــ قد وضعا كتاباً في الطب اسمياه «طب الأئمة» ورويا فيه عن جابر بن حيان عن الإمام جعفر الصادق.

٣ ــ إن الرازي ــ كما في الفهرست (ص ٥٠٠) ــ يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة(الكيمياء): قال استاذنا أبو موسى (أي جابر بن حيان). وقد نقل أبو بكر الرازي كتاب «الأنثيين» لجابر إلى الشعر.

٤ ــ إن بعض كتب جابر بن حيان قد شرحها جماعة ممن عاشوا بعده بقليل، دون أن يظهر منهم الشك بأمر نسبتها إليه أو بحقيقته هو نفسه، بل شرحوها على ان قضية وجوده وقضية كونه مؤلف هذه الكتب من الأمور المفروغ منها. ونذكر من هؤلاء الشرّاح: أبا جعفر (محمد بن علي الشلمغاني) المعروف بابن العزاقر المتوفى عام ٣٢٢هـ، وقد شرح كتاب «الرحمة» لجابر. وأبا قران من أهل نصيبين. شرح أيضاً كتاب «الرحمة».

٥ ــ ورد ذكر جابر على لسان أبي حيان التوحيدي عند الكلام عن مسكويه. إذ قال:

«.. ولكنه ــ أي مسكويه ــ كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيميائي الرازي، منهوك الهمة في طلبه والحرص على إصابته، مفتوناً بكتب أبي زكريا الرازي وجابر بن حيان».

٦ ــ إن المجريطي المتوفى عام ٣٩٥هـ يصف في كتابه «غاية الحكيم» بقوله: «إن (الجامع) كتاب جابر يحتوي على ألف باب ونيف، ذكر فيه من الأعمال العجيبة ما لم يسبقه إليه أحد».

٧ ــ إن «كراوس» بنى شكه في صحة نسبة الرسائل العلمية إلى جابر بن حيان، على مجرد اعتقاده بأن النسق العلمي المنهجي الذي تتسم به مؤلفات جابر غريب عن ذهنية العصر الذي عاش فيه، وأن القول بصحة نسبة هذه المؤلفات إليه، يستلزم تغيير نظره ــ أي كراوس ــ إلى «تاريخ

الإسلام». . وهو يعني تاريخ الفكر العربي!.

وظاهر أن هذه الحجة ناشئة عن ضعف الثقة عند أمثال هذا الباحث الغربي بقدرة المفكرين العرب والمسلمين على أداء دورهم الحضاري في عصر لم يبق شك لباحث منصف أنه كان عصر إبداع ثقافي كثير الخصب عظيم الأثر في تطور التاريخ الإنساني الحضاري، إذ قام المفكرون العرب والمسلمون فيه بمهمات رائعة من النقل والترجمة والإضافة من ابداعهم إلى تراث الحضارة الفكري والعلمي إضافات تشهد بعظم طاقاتهم وجليل حرصهم على اغناء الفكر والثقافة الإنسانيين، وقد اغنوهما فعلاً بثروات لا تزال شاهدة خالدة.

إن حجة «كراوس» لا تنهض دليلاً علمياً على نفي ما أراد نفيه من نسبة رسائل جابر بن حيان إلى هذا العالم المبدع. وليس لازماً باطلاً أن تؤدي صحة هذه النسبة إلى تغيير نظر الباحث الغربي المذكور في تاريخ الفكر العربي، فماذا يمنعه أن يلتزم بتغيير وجهة نظره؟. . وماذا يمنع من القول ان جابر بن حيان «أول من نقل علوم الأوائل إلى العرب»، ما دام قد ثبت عند الباحثين أن ترجمة علوم الأوائل قد بدأت قبل نحو قرن من عهد جابر، فضلاً عن عهده بالذات، إذ ثبت ان الترجمة بدأت في عهد عمر بن عبد العزيز الأموي، وإن العمل في الكيمياء بالذات قد بدأ عند العرب في محاولات خالد بن يزيد الأموي؟. .

٨ ــ وكيف يجوز في منطق البحث العلمي ان يطلق «كراوس» حكمه السابق القائل بأن اسماء طبقات العين عند حنين بن إسحاق « ليس من المعقول» أن يكون حنين قد أخذها عن جابر بن حيان، «بل العكس هو المعقول»؟. . كيف يجوز إطلاق هذا الحكم هكذا دون دليل علمي معقول مقنع؟. . ماذا يمنع أن يكون جابر قد سبق حنين إلى هذا الكشف العلمي؟. . كيف يجوز الظن والترجيح ــ فضلاً عن الجزم ــ على غير أساس علمي في نفي وجود شخصية مشهورة مستفيضة الذكر، وفي نفي نسبة مؤلفاته إليه رغم شهرة هذه النسبة وتوكيد الشواهد عليها؟. .

٩ ــ أما التعابير الواردة في رسائل جابر ومشابهتها لتعابير الإسماعيليين المتأخرين عن عهده، فشأنها كشأن الحجة السابقة، لا تنهض دليلاً علمياً معقولاً مقنعاً، لأن هذه التعابير لم تكن من ابتكار الإسماعيليين المشار إليهم، بل هي واردة كثيراً في المأثورات السابقة لوجودهم، ولا سيما تعابير «الظاهر» و «الباطن» التي جاءت في القرآن الكريم، فضلاً عن ورودها في الشعر والخطب والرسائل قبل عهد الاسماعيليين هؤلاء.

منطق الفكر العلمي، إذن، يقضي بأن يبقى القول بحقيقة جابر بن حيان الواقعية وبصحة نسبة مؤلفاته إليه، قائماً حتى ينهض الدليل الجازم على عكس ذلك. . وما دام هذا الدليل لم يوجد بعد، فإن جابر بن حيان حقيقة قائمة، ومؤلفاته هي مؤلفاته لم يكتبها غيره.

وعلى هذا نمضي في الحديث عن الرجل.

وقبل أن نأخذ في الحديث عن منهجه العلمي، لا بد من عرض لمحة عن:

نشأته وسيرته

المرجح أن جابر بن حيان ولد في مدينة «طوس» بخراسان عام ١٢٠هـ (٧٣٧م) وتوفي في نحو عام ١٩٨هـ (٨١٣م) كما يقدر الأستاذ قدري حافظ طوقان في كتابه (الخالدون العرب).

أما اسمه «جابر» فيقال انه سمي به لأنه هو الذي «جبر» العلم، أي أعاد تنظيمه[1]. ويكنى «أبا موسى» وجاء ذكره في «الفهرست» لابن النديم (ص ٤٩٨) مكنياً بـ «أبي عبد الله جابر بن حيان»، وربما كان له ولدان: موسى، وعبد الله[2].

وأما أصله فقد اختلف فيه، فبعض النصوص يصفه بالطوسي، وبعضها يصفه بالطرسوسي، بالإضافة إلى شهرته بالكوفي التي تتفق عليها النصوص جميعاً. ويبدو ان صفة الكوفي جاءته من إقامته في الكوفة بعد نكبة البرامكة في بغداد حتى مماته. وأما صفة الطوسي فقد جاءته من كونه ولد في مدينة طوس، كما ذكرنا. واعتماداً على ما قرره «هولميارد»(Holmyard) في كتابه (صانعو الكيمياء) نقول ان نسبه يرجع إلى قبيلة الأزد[3] التي نزحت من جنوبي الجزيرة العربية إلى الكوفة واستوطنت هناك، ويقرر «هولميارد» انه «قد انحدر من هذه القبيلة رجل عرف باسم حيان كان يشتغل بالعطارة، ولم يكن لهذا العطار شأن يذكر، إلى أن اتصل بالبلاط العباسي، فقد كان يقوم بالدعاية للخلفاء بجانب مهمته، ومن أجل هذا الغرض أرسل إلى الفرس، فنزح مع زوجته وولده جابر إلى طوس من أعمال خراسان، قرب مدينة «مشهد» الحديثة. ثم أرسل جابر إلى الجزيرة العربية للاتصال بقبيلته، وبقي هناك إلى أن بلغ أشدَّه، فاتقن العربية، وتعلم القرآن والحساب وعلوماً أخرى على يد رجل عرف باسم «حربي الحميري»[4]، واستقبل جابر في بلاط الرشيد بحفاوة بالغة، وكانت صلته بالبرامكة قوية أيضاً، وخاصة مع خالد بن يحيى الذي نجد ذكره في «رسائله أيضاً».

والمرجح أن جابراً شهد عهد المأمون.

صلته بجعفر الصادق

لم يخلُ معظم مؤلفات جابر من ذكر جعفر الصادق، وكثيراً ما يعبر عنه أو يخاطبه بكلمة «سيدي». وقد اشتهر ان الإمام الصادق كان استاذاً لجابر، فضلاً عن كونه شيعياً يعتقد بإمامة جعفر الصادق والرجوع إليه في معظم علمه ومعتقداته. وقد توافرت المصادر التي تؤكد ان «جعفراً» هو المعني دائماً في مؤلفات جابر حين يرد هكذا مجرداً من الألقاب. ففي «كشف الظنون» لحاجي خليفة (ص ٣٤٣) حين يتحدث عن جابر إنه «تلميذ جعفر الصادق». ويقول «كارادي ڤو» حين يتحدث عن جابر أيضاً: «. . ومعلماه هما: خالد بن يزيد بن معاوية. . . وجعفر الصادق»، وجابر نفسه يقول في مقدمة كتابه «الحاصل»: «. . . وقد سميته كتاب الحاصل، ذلك ان سيدي جعفر بن محمد ــ صلوات الله عليه ــ قال لي: فما الحاصل الآن بعد هذه الكتب ــ يقصد مؤلفات جابر ــ وما المنفعة منها؟. . فعملت كتابي وسمَّاه سيدي بكتاب الحاصل».

ويقول «هولميارد» في كتابه السابق الذكر (صانعو الكيمياء):

«إن جابراً هو تلميذ جعفر الصادق وصديقه، وقد وجد في إمامه الفذ سنداً ومعيناً ورائداً ملهماً، وموجهاً لا يستغني عنه، وقد حاول جابر أن يحرر الكيمياء بإرشاد أستاذه من أساطير الأولين التي علقت بها من الاسكندرية، فنجح في هذا السبيل إلى حد بعيد. من أجل ذلك يجب أن يقرن اسم جابر مع أساطين هذا الفن في العالم مثل «بديله» و «بريستله» و «لافوازيه»

---

(١) «جابر بن حيان» للدكتور زكي نجيب محمود ــ ص١٢.
(٢) تاريخ الفكر العربي ــ إسماعيل مظهر.
(٣) وردت «الأزد» في كتاب هولميارد هكذا، «اليزد» وليس من قبيلة عربية تُعرف بهذا الاسم غير «الأزد» والأرجح انه يريدها.
(٤) يحتمل الدكتور محمد يحيى الهاشمي في كتابه «الصادق ملهم الكيمياء» أن هذا الرجل هو الذي يذكره جابر في مؤلفاته أثناء الحديث عن الراهب الذي تلقَّن عنه بعض التجارب.

وغيرهم من الاعلام».

وقد ظن بعض الباحثين ان جابراً يقصد بكلمة «جعفر»، في كتبه، جعفراً البرمكي، ولكن هذه الظاهرة من الاجلال البالغ التي يبديها حيال «جعفر»، دليل واضح على بطلان هذا الظن، وعلى أن المقصود دائماً جعفر الصادق، ذلك مضافاً إلى ان علاقة جابر بجعفر بن يحيى البرمكي، لم تكن علاقة رجل وضيع المنزلة بمن هو أرفع منه، بل علاقة الند للند، لأن جابراً كان ذا مكانة ممتازة في بلاط الرشيد.

منزلته العلمية

تؤكد مختلف المراجع القديمة والحديثة ان جابراً اشتغل بالفلسفة والمنطق والطب والرصد والرياضيات والكيمياء والميكانيك والفلك وسائر فروع المعرفة الإنسانية في عصره. غير أن اسمه اشتهر بارتباطه بالعلوم الطبيعية، وعلم الكيمياء بالأخص، حتى صح لأحد الباحثين العرب المعاصرين أن يطلق عليه لقب «إمام العلوم الطبيعية عند العرب».

والمعروف ان جابراً ترك مئات الكتب من تأليفه، معظمها في العلوم الطبيعية، ولم يصلنا منها سوى قليل لا يزيد عن ثمانين رسالة وكتاباً، فقد ضاع أكثر كتبه، وبقي بعضها مخطوطات تحتفظ بها عدة مكتبات في أوروبة، وترجم بعضها إلى اللاتينية. وكان من اشتهاره بمعالجة الكيمياء أن صار اسمه لا يذكر إلا مقترناً باسم هذا العلم، سواء في بلدان العرب أم في بلدان الغرب، حتى إن جامعات أوروبة كانت حتى القرن الخامس عشر تكاد لا تعرف مراجع تُدرس في علم الكيمياء إلا كتب جابر بن حيان.

ويقرنه «برتيلو»(Berthelot) بأرسطو، إذ يقول: «لجابر بن حيان في الكيمياء، ما لأرسطو في المنطق»، ويرى «برتيلو» ان جميع الباحثين العرب في هذا العلم نقلوا عن جابر واعتمدوا على تآليفه وبحوثه وإن «إليه يعود الفضل في حمل عصبة من التلامذة المجتهدين على متابعة البحوث عدة قرون، فمهدوا بذلك لعصر العلم الحديث». ويعتبره «سارطون» من أعظم الذين برزوا في ميدان العلم في القرون الوسطى.

وبالرغم من أن جابراً قد وضع كتباً ورسائل عديدة في الطب (٥٠٠ كتاب) والفلسفة (٣٠٠ كتاب) وعلم الحيل (الميكانيك) (١٣٠٠ مؤلف) وفي الرصد والفلك والرياضيات والوعظ والزهد وغيرها ــ بالرغم من ذلك لم تنل مؤلفاته في هذه الأنواع من المعرفة عناية الباحثين، بل أنصبَّت كل عنايتهم على معارفه وكشوفه وبحوثه الكيميائية.

الكيميائي العربي الأول

يرى الباحثون ان جابراً هو أول كيميائي عربي، وأول من اشتهر علم الكيمياء عنه، وأول من يستحق لقب «الكيميائي» من المسلمين. ويبدو أن شهرته بهذا العلم أكسبته منزلة اجتماعية رفيعة حتى كان له من ذلك أن نقم عليه ناس لحسد، ونقم عليه الخليفة الرشيد لعلاقته بالبرامكة، فاضطهد واضطر للاختفاء متنقلاً في البلدان خوفاً من الاضطهاد، وبالغ بأمره بعض المؤرخين غير المحققين فوصفوه حيناً بأنه «ملك العرب» وحيناً بأنه «ملك العجم»، وحيناً بأنه «ملك الهند». وقال عنه القفطي أنه «كان متقدماً في العلوم الطبيعية، بارعاً منها في صناعة الكيمياء، وله فيها تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة»، حتى ان الرازي على جلالة شأنه حين يذكره في كتبه بالكيمياء يقول عنه: «قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان».

وبالرغم من هذه الشهادات المستفيضة بالدلالة على مكانته العلمية ومعرفة الأقدمين بقيمة أعماله في حقل الكيمياء وسائر العلوم الطبيعية، وجد في القديم من يبخسه حقه وفضله قائلاً فيه:

هذا الذي بمقاله غرَّ الأوائل والأواخر
ما أنت إلا كاسر كَذِب الذي سمَّاك «جابر»

كما وجد في العصر الحديث من مؤرخي العلم الغربيين من فعل مثل ذلك. فهذا «برتلو» بالذات، لم يستطع أن يعترف لجابر وللعرب بفضل السبق إلى تلك النظريات الكيميائية التي شهدت أوروبة بقيمتها وبنسبتها إلى هذا العالم العربي العظيم، فزعم ان القسم الغني بالدسم العلمي من أعمال جابر هو لمؤلف مجهول غيره ألَّفه باللاتينية في النصف الثاني من القرن ١٣م وانتحل اسم «جابر» لاشتهار هذا الاسم، ثم زعم ان القسم الآخر الخالي من الدسم العلمي هو، فعلاً، لجابر بن حيان!. وضرب «برتلو» كتاب «الخالص» مثلاً على ذلك، لأن هذا الكتاب مترجم إلى اللاتينية، فقال ــ أي «برتلو» ــ إن دراسة هذا الكتاب تدل على انه لا ينتسب إلى الأصل عربي، لا في منهجه العلمي، ولا في الحقائق الواردة فيه، ولا في مفرداته اللغوية، ولا في الأشخاص الذين يُرجَع إليهم في الفقرات المقتبسة. وقد سبق أن رددنا على هذا الشك المزعوم غير المستند إلى منطق علمي، بل كل سنده الشك في قدرة العرب على إنتاج ما انتجه جابر بن حيان في عصره!. ذلك بالرغم من تلك الشهادة الكبيرة التي شهدها «برتلو» نفسه لجابر، (وذكرناها سابقاً) حين قال أن «لجابر في الكيمياء كما لأرسطو في المنطق».

وإن من مآثر جابر في الكيمياء: كونه أول من استحضر «حامض الكبريتيك» بتقطيره من الشبه، وسمَّاه «زيت الزاج»، وكان لعمله هذا فضل كبير في تقدم الكيمياء والصناعة. واستحضر جابر أيضاً «حامض التتريك»، وهو أول من كشف «الصودا الكاوية»، وأول من استحضر «ماء الذهب»، وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة الحامض، وأول من لاحظ ما يحدث من راسب «كلوريد الفضة» عند إضافة محلول ملح الطعام إلى محلول نترات الفضة، وينسب إليه إستحضار مركَّبات أخرى، مثل: كربونات البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم، وقد استعمل ثاني أكسيد المنغنيز في صنع الزجاج، ودرس خصائص الزئبق ومركَّباته واستحضرها، واستعمل بعضها، فيما بعد، في تحضير الأوكسجين.. ومعلوم أن جميع هذه المركَّبات ذات شأن كبير في عالم الصناعة، فبعضها يستعمل في صنع المفرقعات والأصبغة، وبعضها يستعمل في السماد الصناعي والصابون والحرير الصناعي.

ويُعد جابر بن حيان أول من وضع نظرية عامة لتركيب المعادن مفادها أن المعادن جميعها مؤلفة من عنصرين أساسيين، هما الكبريت والزئبق، وقد وضعت هذه النظرية قيد العمل طوال عدة قرون. وقد أدخل في الكيمياء ما أطلق عليه اسم «علم الموازين» وألَّف في هذا العلم كتباً معروفة، ويعني بذلك معادلة ما في المعادن من الطبائع، فقد «جعل لكل من الطبائع ميزاناً، ولكل جسد من الأجساد موازين خاصة بطبائعه».

ويرى «هولميارد» ان أهم كتب جابر في الكيمياء كتاب «الخواص الكبير»، وفي المقالة الأولى من هذا الكتاب يقول جابر أن جملة ما كتبه في الخواص واحد وسبعون كتاباً «منها سبعون كتاباً ترسم الخواص، ومنها كتاب واحد يعرف بخواص الخواص، وهو أشرف هذه الكتب».

لقد اقتضتنا ضرورة التعريف العام بحقيقة جابر وحياته ونشاطه الثقافي الواسع الأفق، أن نطيل المقدمة السابقة، وعذرنا في الاطالة اننا نكتب هذا الفصل للتعريف أكثر منه للبحث من أجل البحث بذاته.

وبعد، فإننا ننتقل الآن إلى تحديد المنهج العلمي الذي اتبعه جابر في بحوثه وكشوفه وتجاربه، وتحديد قيمة هذا المنهج بالقياس إلى المناهج

العلمية ذات الشأن في الدراسات والبحوث المعروفة عند العلماء المنهجيين:

الإيمان بالعلم

يطالعنا جابر بن حيان في كتابه «إخراج ما في القوة إلى الفعل»[٥] بهذا التساؤل: كيف يُظَن العجز بالعلم دون الوصول إلى الطبيعة وأسرارها؟.. ألم يكن في مستطاع العلم أن يجاوز الطبيعة إلى ما ورائها؟.. فهل يعجز عن إستخراج كوامن الطبيعة ما قد ثبتت قدرته على استخراج السر مما هو مستور وراء حجُبها؟..

لقد جاء هذا التساؤل في معرض الكلام على علم الكيمياء بالذات، أي العلم الذي يستطيع الكيميائي بوسائله أن يبدل طبائع الأشياء تبديلًا يحولها بعضها إلى بعض. ولكن المضمون الذي يحتويه هذا التساؤل لا يقتصر شأنه على علم بعينه، بل يكشف عن عمق إيمان الرجل بالعلم من حيث هو علم، وعن إيمانه ــ في الوقت نفسه ــ بالعقل الإنساني الذي يستنبط قواعد العلم ويستخدم وسائله في كشف أسرار الطبيعة والكون.

ويؤكد جابر ثقته بالعلم واعتماده اياه سبيلًا لاكتناه الأسرار الكونية، بكلام رائع الدلالة على منهجيته الدقيقة، حين يقول: إن أسرار الطبيعة قد تمتنع على الناس لأحد سببين، فاما أن يكون ذلك لشدة خفائها وعسر الكشف عنها، وإما أن يكون لِلَطَافة تلك الأسرار بحيث يتعذر الامساك بها. وسواء كان الأمر هو هذا أو ذاك، كان في وسع الباحث العلمي أن يلتمس طريقاً إلى تحقيق بغيته، فلا صعوبة الموضوع ولا لطافته ودقته مما يجوز أن تحول العلماء عن السير في شوط البحث إلى غايته[٦].

وفي هذا التقرير ما نرى من وضوح التفكير العلمي السديد، ومن النظر إلى قضايا الكون الطبيعية نظر الباحث عن الحقيقة الموضوعية بمنظار اليقين بالحقيقة الموضوعية هذه، دون اللجوء إلى الأحكام الميتافزيقية المطلقة عند اصطدامه بشعور العجز في أول الطريق، أو في بعض أشواطه البعيدة عن الغاية.

نظرية المعرفة

ماذا يقول جابر في مصدر العلم عند الإنسان، أي في ما اصطلحنا على تسميته «نظرية المعرفة»؟..

والسؤال هنا ذو شأن هام في تحديد منهجه العلمي. ذلك بأن الرأي في مصدر المعرفة هو المقياس الفاصل بين منهج ومنهج، أو بين من يؤمن بالعقل الإنساني وبالوجود الموضوعي للكون والطبيعة وبين من لا يؤمن..

هل المعرفة، أو العلم، فطرة كامنة في الإنسان تحصل تلقائياً حين يتاح لها من الأسباب ما يظهرها من «القوة» إلى «الفعل»؟.. أم هي اكتساب من تجارب العقل وممارسته كشف حقائق الوجود الخارجي ومن تعلم الإنسان هذه الحقائق، أي إنها ــ في هذا الحال ــ إنعكاس للعالم الخارجي الموضوعي لدى القوى العقلية والشعورية في الإنسان؟..

كان سقراط يقول بالرأي الأول، وهو الرأي الذي يدخل في نطاق التفكير المثالي الميتافيزيقي الذي ينكر الوجود الموضوعي للكون.

لكي نستخلص رأيه كاملًا في هذه القضية، علينا أن لا نكتفي ببعض النصوص دون بعض، ولا بالنصوص ذاتها دون النظر إلى نشاطه العملي في حقل العلم، وإن جابراً نفسه ليوصينا بهذه الطريقة، وهي بذاتها طريقة منهجية سديدة، حين يشترط على قارئي كتبه أن يجمعها كلها أولًا، قبل أن يهم بقراءة بعضها، ليضيف ما في كل كتاب منها إلى ما في الآخر، لأن الكتاب الواحد قد ينفرد بمعنى لا يشاركه فيه غيره[٧]. كما يشترط على القارىء أن يقرأ كل كتاب من كتبه ثلاث قراءات متتالية: قراءة للتثبت من صحة ألفاظ النص ومن معاني تلك الألفاظ، وقراءة لدراسة هذا النص للوصول إلى مدلولاته البعيدة الخفية، وقراءة لتبويب المعاني وتصنيفها لعلنا نجمع الشبيه إلى الشبيه، أو نوازن بين المتباين منها تصنيفاً وموازنة يبلغان بنا الغاية المرجوة من موضوع الدراسة[٨].

هذه الوصية، كما ترى، تدخل في صميم المنهج العلمي السليم عند جابر، وإنما ذكرناها هنا استطراداً في سبيل البحث عن رأيه في نظرية المعرفة.

إذا رجعنا إلى النصوص نجد جابراً يقول في رسالة «التجميع» (مختارات كراوس ص ٣٧٧): إن «النفس لا تكون عالمة أولًا بالضرورة»، أي إنها لا تولد مزودة بالعلم، بل هي «قادرة فاعلة جاهلة» (ص ٣٧٨): وهذا كلام صريح بأن العلم عنده ليس قائماً في النفس بفطرتها، بل هو استعداد وقدرة على اكتساب العلم من الخارج.

ولكن جابراً يقول، في المقالة الحادية والعشرين من «كتاب الخواص الكبير» (مختارات كراوس، ص ٣١٥): «تأخذ ــ يقصد كتبه ــ علم النبي وعلم سيدي ــ يقصد جعفر الصادق ــ وما بينهم من الأولاد، منقولًا نقلًا مما كان هو كائن وما يكون من بعد إلى أن تقوم الساعة».. ويقول في المقالة الرابعة والعشرين من الكتاب نفسه (ص ٣١٧): «فوالله ما لي في هذه الكتب إلا تأليفها، والباقي علم النبي صلى الله عليه وسلم»...

فكيف نجمع بين القولين؟..

هناك مرجع أخر لاستخلاص مذهبه في «نظرية المعرفة»، هو منهجه التجريبي في حقل البحث والنشاط العملي، فماذا نرى في هذا المرجع؟..

نرى الرجل شديد التمسك بالمشاهدة والتجربة العملية بنفسه للوصول إلى المعرفة والوثوق بها. وفي هذا الصدد يقول في المقالة الأولى من كتاب «الخواص الكبير» (مختارات كراوس ــ ص٢٣٢)، حين يتحدث عن الكتب التي بحث فيها خواص الأشياء: «إنَّا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط، دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه، بعد أن امتحناه وجربناه، فما صح أوردناه، وما بطل رفضناه، وما استخرجناه نحن أيضاً وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم».

وفي كتاب «التجميع» (مختارات كراوس ــ ص ٣٨١) حيث يوازن بين النبات والحيوان من حيث الطبائع، ثم يقسم عالم النبات إلى أول، وبليد، وذكي، يقول ما معناه: إنني لم أقسم النبات إلى هذه الأقسام الثلاثة لمجرد علمي بأن الحيوان ينقسم إليها، بل إنني قسمته إلى هذه الأقسام لأنني وجدته كذلك[٩].

وفي موضوع الخواص والموازين، حيث يبحث خصائص الأشياء

---

(٥) نشر «كراوس» ــ ص٧.

(٦) المصدر السابق ــ ص ٨ (تلخيص زكي نجيب محمود في «جابر بن حيان» ــ ص ٤٣).

(٧) المقالة الثانية والستون من كتاب «الخواص الكبير» مختارات كراوس ــ ص ٣٣١ (تلخيص زكي نجيب محمود ــ ص ٥١).

(٨) المصدر السابق، ص ٣٢٩.

(٩) تلخيص زكي نجيب محمود ــ ص ١٦٤.

وحدودها، ويبني موازين الأشياء على أساس هذه الخصائص (تعد فكرة الموازين هذه «أدق وأعسر وأهم فكرة لجابر بن حيان» (١٠))، يصف لنا طريقته العملية الخاصة في صنع «الميزان الوزني» وكيفية استخدامه، وفي أي البحوث العلمية يستخدم، واستخلاص الوزن النوعي للمعادن، يصف ذلك بتفصيل بالغ الدقة (كتاب الأحجار على رأي بليناس، الجزء الثاني)(١١)، **فإذا به هنا ايضاً يعتمد التجربة العملية بحرص شديد**، وبمنهجية رائعة، للوصول إلى النتائج العلمية.

كل هذه الأمثال من كلامه ونشاطه التجريبي، واضح الدلالة على أن جابراً يعتمد في اكتساب المعرفة على تجارب الأشياء واستخلاص النتائج والقوانين الكونية من هذه التجارب، لا على تلقن الوحي كما ظهر لنا من بعض نصوصه فهل تراه، إذن، وقع بالتناقض في رأيه بمصدر المعرفة؟.

يتراءى لنا انه يمكن إخراجه من التناقض بحمل كلامه بصدد الوحي على انه يقصد بالمعرفة هناك معرفة الأحكام الشرعية، وحمل كلامه بصدد التجربة على انه يقصد هنا معرفة العلوم الطبيعية، أي خواص الأشياء والأحياء من تصنيفه العلوم في «كتاب الحدود» (مختارات كراوس)، **فهو يقسم العلوم عامة إلى قسمين: علم الدين: وعلم الدنيا، وحين يعرِّف علم الدين** في ذاته، يقول إنه: هو الأفعال المأمور بإتيانها للصلاح فيما بعد الموت.. وحين يعرف علم الدنيا في ذاته، يقول هو جميع ما في عالم الكون من الحوادث، الضارة والنافعة، بأي وجه كان ذلك فيها..

هذا التمييز لعلم الدين عن علم الدنيا، يكفي – إلى حد ما – في دفع التناقض عنه من حيث رأيه بمصدر المعرفة، لأن الذي يعنينا – بالأقل – أن نعرف منه أن العلم بطبائع الأشياء والأحياء ليس ذاتياً تلقائياً بل اكتساباً من الخارج، أي إنه يعترف بالوجود الخارجي الموضوعي للكون، وإن معرفة هذا الوجود تأتي من خارج الذات، لا من داخل الذات.

الوجود الموضوعي للكون

في ما تقدم من أمثلة كلام جابر ومن أمثلة اعتماده التجربة العملية، ما يلقي ضوءاً على هذه القضية في رأيه، ولكننا نزيد الأمر توضيحاً ببعض الأمثلة الأخرى التي تؤكد أن الرجل، في منهجه العلمي، يعتقد بالوجود الموضوعي للكون، وإنه يصدر في هذا الأعتقاد عن منطق علمي واع:

١ – نرجع إلى كتابه المسمى بـ«كتاب التصريف»، أي تحويل الأشياء بعضها إلى بعض آخر، فنراه يحل الطبيعة إلى كيفيات أربع: الحرارة، والبرودة، واليبوسة، والرطوبة.. ونراه يقول بأن هذه الكيفيات لا وجود للواحدة منها في الطبيعة وجوداً مفرداً.. ثم نراه يصف علاقة الأشياء في عالم الطبيعة بعالم الكلمات، فيقول:

«إن الأشياء كلها تقال على أربعة أوجه: الأول منها، أعيان الأمور وذواتها وحقائقها، كالحرارة في ذاتها والبرودة في ذاتها، وإن كانا غير موجودين لنا.. ثم تصوُّر ذلك بالعقل.. ثم النطق به، وذلك بتقطيع الحروف.. ثم كتابتها»(١٢).

فوجود «أعيان الأمور وذواتها وحقائقها». قضية مفروغ منها عند جابر كما ترى. فالأشياء لها، إذن، أعيان وذوات وحقائق مستقلة، ثم يطرأ عليها تصوُّر العقل، فتصبح داخلة في علم الإنسان، ثم يطرأ عليها النطق بالحروف، فالكتابة.

(١٠) المصدر السابق، ص ٢١٥.

(١١) المصدر نفسه – ص ٢١٩ – ٢٢٠.

(١٢) كتاب التصريف – ص ١٤٠.

هذا التسلسل في حصول المعرفة للموجودات الواقعية الموضوعية، هو أيضاً ظاهرة منهجية ليست غريبة عن منطق العلم الحديث.

٢ – جابر بن حيان من القائلين بأن طبيعة اللغة، بأحرفها وكلماتها وجملها، تشف عن طبائع الأشياء، فدراسة الاسم هي – في الوقت نفسه – دراسة للمسمى.. وحين تعترضه مشكلة تعدد اللغات في المجتمعات البشرية، دون أن يغفل عن هذه المشكلة، بل يتقصاها بتفصيل يدل أيضاً على منهجيته العلمية، ينتهي إلى حل المشكلة بأحد أمرين، وليس يهمنا معرفة الحل بقدر ما يهمنا رأيه في هذا الصدد بأن حقائق الأشياء ثابتة لا تتعدد بتعدد اللغات. («كتاب الحاصل» مختارات كراوس، تلخيص زكي نجيب – ص١٣٨).

فالقول بأن حقائق الأشياء ثابتة لا تتعدد بتعدد اللغات، هو القول – صراحة لا ضمناً – بوجود الأشياء وجوداً موضوعياً مستقلاً عن العقل وعن اسماء هذه الأشياء.

٣ – في رأيه بمراحل تطور الكون، يقول بأن أول ما كان في الأزل، هو العناصر الأولية الأربعة: الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة. ويسمي هذه العناصر «أوائل الأمهات البسائط»(١٣).. ثم طرأت على هذه البسائط حركة وسكون، فتكوَّن منها تركيبات منوعة، ولولا الحركة والسكون لظلت تلك الأصول الأولى مستقلاً بعضها عن بعض.. ثم لا بد كذلك من مبدأ الكمية لتخرج هذه الكائنات التي نراها من حيوان ونبات وحجر.. فمراحل الوجود عنده إذن، هي: كيفيات، فحركة وسكون فكمية..

في هذا التصور لمراحل تطور الكائنات المادية، منذ الأزل، نواة أولية للتفكير بموضوعية الكون المستقلة عن إرادتنا وتأملاتنا.

منهج البحث العلمي

لا بد لباحث يؤمن بالعلم، ويرى رأي جابر في مصدر المعرفة، وفي الوجود الموضوعي للكون، أن يستهدي في طريق البحث العلمي منهجاً سليماً يتفق مع هذا الإيمان وهذا الرأي.

نحن نعرف أن المنهج المعاصر للبحث العلمي القائم على الإيمان بالعقل والعلم، وعلى كون الاكتساب من الوجود الخارجي هو مصدر المعرفة، وعلى موضوعية وجود الكون، هو المنهج الذي يبدأ خطوته الأولى بمشاهدة الجزئيات الخارجية المادية المراد تفسير ظاهراتها، ثم تكون الخطوة الثانية باستنباط النظرية المجردة من هذه المشاهدة، ثم تأتي الخطوة الثالثة والأخيرة بتطبيق النظرية على الجزئيات الخارجية المادية، أي بالعودة من النظر الذهني التجريدي إلى الواقع المادي الجزئي لتجربة صدق النظرية المستنبطة.

فهنا استقراء أولاً، فاستنباط، ثم استقراء.. أي إن هذا المنهج يحتوي كلا طريقي الاستقراء والاستنباط (أو الاستنتاج).

فما طريق جابر في البحث؟..

لنقرأ هذه العبارة له في «كتاب الخواص» (المقالة الثانية والثلاثين، مختارات كراوس، ص ٣٢٢)، واصفاً طريقته في البحث: «.. قد عملته بيدي وبعقلي من قبل، وبحثت عنه حتى صح، وامتحنته فما كذب»..

فهذا كلام يجمل المنهج الاستقرائي الاستنباطي كلمات قليلة واضحة الدلالة.. فهو يمارس الجزئيات المادية بيده يستقرئها، ثم يستخدم عقله مستنبطاً من الممارسة الجزئية فكرة أو نظرية، ثم يعود بالفكرة أو النظرية إلى

(١٣) رسالة «إخراج ما في القول إلى الفعل» – مختارات كراوس – ص ١٥ – ١٦.

الواقـع مستقرئاً ممتحناً مجرباً حتى يخرج من هذه الخطوات المتوالية على نسق صحيح، بقانون يعتمده في تفسير سائر الظاهرات المشـابهة للظاهـرة التي وقـع عليها البحث بطريقه المذكور.

فلسفة الكيمياء

ننطلق الآن من هذه النظرة ذاتها، عند جابر، أي التي تقول «إن في الأشياء كلها وجوداً للأشياء كلها»، لنتعرف أساس فلسفته بالكيمياء. .

هذه النظرة تقول، كما عرفنا، إن في كـل شيء موجـود بالفعـل شيئاً موجوداً بالقوة. . وهنا يأتي سؤال: هل كل ما هو موجود بالقوة سيكون موجوداً بالفعل حتماً؟. .

الجواب عن هذا السؤال يفسر الأساس التي تقوم عليه فلسفة الكيمياء عنده.

يجيب جابر بأن الأشياء: اما بسيطة، واما مركبـة. . وكل مـا نراه في الطبيعة هو من الأشياء المركبة. . وهـذه درجات: منهـا مركب أول، ومنهـا مركب ثان، ومنها مركب ثالث، أو مركب المركب.

الأشيـاء البسيطة: يستحيـل أن يتحول كـل ما فيهـا بالقـوة إلى وجود بالفعل. لأن البسيط غير متناه، فهو إذن أبدي لا نفنى، ولو أن ما فيه بالقوة قد خرج إلى الفعل، لصار متناهياً، والمفترض انه غير متناه.

وأما الأشياء المركبة من الدرجات الأولى (الطبيعة بوجه عام) والثانيـة (النار والهواء والأرض والماء)، والثالثة (الحيوان والنبات والحجر)، فكلهـا من الممكن أن يخرج ما فيها بالقوة إلى وجود بالفعل.

ولكن هناك حالات يمتنـع فيها خروج كائن من كائن آخـر. . فـ «إن الأشياء التي يمتنـع ويعسر خروجها من القوة إلى الفعل على ضربين: اما أن يُرام من الأشياء ما ليس فيها بالقوة ولكن عسر خروجـه إلى الفعل، كـالذي يروم خروج الماء من النار من أول وهلة»[١٥]. . ويقصد انه يحتاج ذلك إلى عمل بترتيب وعلى دفعات متوالية بعضها مسبب عن بعض. . فهـو يرى أن الأمر مقترن بأسبابه الطبيعية أو بظروفه العملية القائمة على ألتدبير و «القصد المستقيم».

هنا نبلـغ الأساس في فلسفة الكيمياء عنده، فإنـه يرى «الـطبيعة علة خروج الطلـع وخروج الرياحين البرية التي لا تعالـج بالسقي واللقاح وأمثال ذلك، فتخرج من القوة إلى الفعل بأنفسها وفي زمانها، وأمـا غير ذلـك مما علّته إخراج التدابير للأشياء (فهو محتاج إلى تدبير طريقة لأخراجه)»[١٦].

وعلى هذه القاعدة يمكن للكيميائي أن يقتدي بالـطبيعة في إخـراجها الأشياء من القوة إلى الفعـل، فكل مـا تصنعه الـطبيعة من تحـويل الأشيـاء بعضهـا إلى بعض آخر، يستـطيـع الكيميائي أن يصنـع مثله إذا تـوفر عنـده العلم والتبصر والحذر ومعرفة خصائص الأشياء والخـطوات المتدرجـة التي يسير بها أثناء التجربة.

وهنا ننتهي إلى نتيجة مدهشة في فلسفة جابر، فهو يـرى أن «في قوة الإنسان ان يعمل كعمـل الطبيعـة»[١٧]. والإنسان هنـا هو الكيميـائي في قصده، عملياً.

لكأنما نرى جابر بن حيان في عصرنا هذا، يفكر بتفكير العلم الحديث المتطور. .

ومن شاء التـوسـع فليرجـع إلى كتابه «التجميـع» (مختارات كراوس، ص ٣٤٤ ــ ٣٤٩) أو كتاب «جابر بن حيان» للدكتور زكي نجيب محمود في سلسلة اعلام العرب .

عقل الفيلسوف

ونـرى، قبل أن نختم هـذا الفصـل، ضـرورة الإشـارة إلى أن هـذه السمات المنهجية التي رأيناها سائدة في تفكير جابر بن حيان وطريقته في البحث والتجارب، مستفادة بالأصل لا من كونه عالماً طبيعياً، أو كيميائياً وحسب، بل من كونه يقيم تفكيره كله على نظرة فلسفية للكون والطبيعـة، فهو مؤمن بالفلسفة إلى حد حمله على القول بصورة جازمة: «إنه ليس براق من أغفل صناعة الفلسفة، ولكنه راسب مضمحل إلى أسفل دائماً»

بين جابر والرازي

قال عبد الحليم منتصر:

تهدف هذه الدراسة المبدئية ، الى تبيان دور الكيميائيين العرب ، في تأسيس وتقدم علم الكيمياء ، ووضع الكيميائيين العرب في مكانهم الصحيح بين علماء الأمم الأخرى ، وإبـراز دورهم في بناء النهضـة العلمية ، والـرد على مـزاعم غير المنصفين من المؤرخين ، الـذين يتجـاهلون دور العلمـاء العرب ، في تنمية المعـارف الانسانيـة ، والقاء الضـوء على الفكر العلمي التجريبي ، الذي اتبعه العرب ، والربط بين النظريات والآراء التي قال بهـا العرب ، وتلك التي يقول بها علماء العصـر الحاضـر ، وبالجملة تصحيـح تاريخنا العلمي .

وليس من شك في أن تاريخ الكيمياء في العصـر الاسلامي ، مـرتبط بتاريخها في العصر الاسكندري ، وهذا بدوره متصـل بالعصـر الاغريقي ، وتمتد جذوره الى العصر المصري الفرعوني . فالفكر العلمي متصل على مرّ التاريخ ويتناقله ويتوارثه طلاب العلم جيلاً بعد جيل.

شهادة الحاضرين
عما صنع علماء الكيمياء
من العرب الغابرين

بيـد أن الكيميائيين العـرب وعلى رأسهم جابـر والـرازي ، لم يقفـوا بالكيمياء عند النظريات والآراء كما فعل اليونان ، وانما كان لهم السبق في جعل الكيمياء علماً تجريدياً فقد كان جابر بن حيان « يدعو الى التجربة وعدم التعويل إلّا عليها مع دقة الملاحظة واتباع التعليمـات جيداً لأن لكـل صنعة أساليبها » ويشهد « جوستاف لوريون » بأن العرب توصلوا الى كشوف هامـة لم يعرفها اليونان قبلهم كتحضير الكحول وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) وماء الفضة (حامض النيتريك) وماء الذهب (الماء الملكي) ، كمـا انهم عرفوا من العمليات الكيميائية التقطير ، والترشيح ، والتكليس ، والاذابة ، والتبلور ، والتصعيد ، وكذلـك يشهد عـدد من المستشرقين والمؤرخين من أمثـال « سـارتـون Sarton» و « برثـوليـه Bertholet » و « هـولميـارد Holmyard » و « سيجفريد Siegfried » وغيرهم .

العثور على معمل جابر بن حيان

وأن الدارس لبعض مخطوطات هذين العملاقين « جابر والرازي » من أمثال كتاب السبعين والخواص والموازين ، والكامل ، والخـواص الكبير . وصندوق الحكمة ، والحدود والايضاح ، والرحمة ، وسر الأسرار ، وغيرها ـ ليجد الكثير مما يؤيد ما نذهب اليه من أثرهـا البالـغ على علم الكيمياء . ويذكر هولميارد في هذا الصدد أنه عثر على معمل جابـر بن حيان في اثنـاء

(١٥) المصدر السابق ــ ص ٦ (تلخيص زكي نجيب).
(١٦) المصدر نفسه، ص ٧.
(١٧) كتاب السبعين ــ لجابر (مختارات كرواس) ص ٤٦٣ .

الحفر في انقاض منازل بالكوفة منذ قرنين من الزمان فقد كان اشبه بالقبو ، بعيداً عن الأعين ، فيه قليل من الأثاث ، منضدة ، وقوارير ، وموقد ، وأفران ، وهاون الى جانب كثير من الأدوات من ماشق (ماسك) ، وملعقة ، ومقراض ، ومرجل ، ومبرد ، وقمع ، ومنجل ، وراووق من خيش (مصفاة) ، وكرة معدنية تستعمل للسحق ، وأحواض ، ومكسر ، وسفنجة ، وآلة تكليس ، وميزان ، واجهزة تقطير ، وبصلة ، وقطارة ، وأنبيق ، وغيرها مما يقرب من أربعين جهازاً وأداة .

مصطلحات العرب القديمة

ولا بد للدارس ان يلم بالمصطلحات التي كان يستعملها امثال جابر والرازي في ذلك العصر للحضارة العلمية الاسلامية مثل الجواهر ، والأجساد أو المعادن ، والأرواح ، والأملاح والزاجات (بلورات) ، وشب الألومنيوم ، وشب البوتاس والمرقشيتا (اشابة من النحاس تشبه الذهب) فهناك المرقشيتا الذهبي ، والمرقشيتا الفضي والطلق الجمستي (الدولوميت) ـ والزنجار (كبريتات النحاس) والزنجفر (كبريتيد الزئبق) والاسفيداج ، وحامض الأترج (حامض الليمونيك) والاثمد (كبريتيد الانتيمون) وحجر جهنم (نترات الفضة) ، والسليماني (كلوريد الزئبق) وزيت الزاج ، والنيلج ، والسناج ، وماء النار أو الماء المحلل (حمض النتريك) والكحول والزاج الأزرق (كبريتات النحاسيك) وحجر الفلاسفة أو الكبريت الأحمر أو الزنجفر .

كذلك لا بدَّ ان يعرف ما كانوا يسمونه « التدابير » بمعنى العمليات أو التجارب الكيميائية كالترجيح (التركيز) والتحليل أو الحلّ ، والتشويه ، والتشميع (أو تليين الشيء حتى يصير كالشمع) والتكليس (الأكسدة) والألغام والملغمة ، والاقامة (التصليد) ، والتبييض (أو قصر الألوان) والعقد (أي تحضير المركبات الأكثر تعقيداً) والتبخير ، والتصفية ، والمزج ، والسحق ، والتكرير ، والتخمير ، والتنقير (أو التنقية) .

وعليه أن يلم بالموازين التي استعملها العرب من مثقال ، ودرهم ، ودانق ، وقيراط ، وأوقية ، ورطل وحبَّة ، وكيف أن علم الميزان عند جابر والرازي ، ما هو الا ما نسميه الآن قانون الأوزان المتكافئة .

ولا شك ان « جابر » في مقدمة العلماء الذين أجروا التجارب على أساس علمي ، هو الأساس الذي نسير عليه الآن في المعامل والمختبرات ، وكان يقول « ان المعرفة لا تحصل إلَّا بها » ، وطلب من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية الا يحاولوا عمل شيء مستحيل أو عديم النفع ، وعليهم أن يعرفوا السبب في اجراء التجربة وان يفهموا التعليمات جيداً ، وطالبهم بالصبر والتأني في استنتاج النتائج . ويؤكد جابر في كتابه التجريد « ان كمال الصنعة العمل والتجربة ، فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبداً » ، ولا مراء في أن جابر من مؤسسي المنهج التجريبي .

مواد حضرها العملاقان

وبعد قرن من زمان جابر ، جاء كيميائي العرب الثاني ، وهو أبو بكر الرازي ، الذي أوضح مناهجه في كتابه « سر الأسرار » فكان يبتدىء بوصف المواد التي يشتغل بها ثم يصف الطريقة التي يتبعها في تحضير المركبات . وقد وصف الرازي أكثر من عشرين جهازا ، منها الزجاجي ، ومنها المعدني .

لقد حضَّر جابر حامض النيتريك وكان يسميه الماء المحلّل أو الماء الحادّ ، وذلك بتقطير ملح البارود مع الشب والزاج القبرصي (كبريتات الحديد) وكان الشب بمثابة عامل وسيط . وبالتقطير البطيء في حمام ملحي يمكن فصل حامض النيتريك عن كبريتات البوتاسيوم . كما حضر حامض الكلوردوريك وكان يعرف باسم روح الملح وكان ممزوجاً بحامض النتريك ، وقد سموا هذا المزيج « ماء الذهب » أو « الماء الملكي » لأنه يذيب ملك المعادن وهو الذهب ، وقد حضره جابر بتقطير مخلوط من ملح الطعام والزاج الأخضر أو الزاج القبرصي ، ووصف الحامض بأنه نوع من المياه الحادة التي تذيب المعادن ، والزاج الأخضر هو بلورات كبريتات الحديدوز .

يقول : يجمع كلس البيض (أكسيد الكلسيوم) مع النوشادر (كلوريد الأمنيوم) في بَرنية (اناء فخار) وثيقة ، ويركب عليها انبيق ، ويوثق الوصل ، فان النشادر يقطر وقد اكتسب كلس قشر البيض حدة وحرافة . وكذلك حضر الرازي حامض الكبريتيك وسماه « زيت الزاج » .

وبذلك عرف جابر والرازي الأحماض العضوية من خليك ، وليمونيك ، وطرطريك ، كما ميزا بين الأحماض والقلويات ، وقالا بأنها تتعامل مع بعضها بعضاً لتنتج الأملاح . وحضرا من مركبات النحاس ، الزاج الأزرق (الزاج القبرصي) ، وهو كبريتات النحاسيك وخلات النحاسيك أو الزنجار ، والماء الذهبي أي كبريتيد النحاسيك (مادة براقة تستعمل في الكتابة) وكلس النحاس (اكسيد النحاس الأحمر) .

ومن مركبات الرصاص حضر الكيميائيون العرب الاسرنج الأحمر أو « السِّلقون » وهو ثاني اكسيد الرصاص الذي يستعمل في الدهان . والمرتك الأصفر وهو أول اكسيد الرصاص ، ولونه أصفر ، والاسفيداج أو كربونات الرصاص القاعدية .

ومن مركبات الحديد ، حضر العرب الزاج الأخضر (كبريتات الحديدوز) ، والقلقطار (ثالث اكسيد الحديديك) ، ومن مركبات الزئبق عرفوا السليماني (ثاني كلوريد الزئبق) ، والزنجفر (كبريتيد الزئبق) والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق) ، كما حضر جابر ما نسميه كلوريد الزئبق بغلي الزئبق مع الملح العادي .

ومن مركبات الزرنيخ عرف العرب الرهج (كبريتيد الزرنيخ) وكلس الزرنيخ (اكسيد الزرنيخ) ، والزرنيخ الأخضر ، والزرنيخ الأحمر وعرفوا كثيراً من مركبات البوتاسيوم والصوديوم ، وبينوا أوجه الشبه بين الكبريت والزرنيخ مما جعلهم يسمونهما بالتوأمين ، فكلاهما يتسامى بالتسخين ، ويتشابه اكسيداهما ، ولهما رائحة نفاذة ، كما ان ظاهرة التأصل معروفة في كليهما .

ولقد عرف الكيميائيون العرب طريقة فصل الذهب عن الفضة بوساطة حامض النتريك، والحصول على الزرنيخ والاثمد من كبريتيدهما وزاولوا ما يسمى الآن بالكيمياء الصيدلية وقالوا بزيادة المعادن في الوزن بعملية التكليس أو التأكسد ، وعرفوا ان النار يطفئها انعدام الهواء ، ووصفوا علم الميزان الذي يقابل ما نسميه « الأوزان المتكافئة » . كما عرفوا الاختزال . واستخدموا ثاني اكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج ، وان النحاس يكسب اللهب لوناً أزرق الى الخضرة وصنعوا الأشابات أو السبائك المعدنية ، وعرفوا التكليس (أي تسخين المعدن) حتى يتحول الى مادة بيضاء تشبه الكلس .

وقد ميز جابر والرازي بين المحلول الحقيقي وغيره من حالات ذوبان المواد الصلبة في السوائل من معلقات وغرويات . وتحدثا عن طرق استخلاص الذهب وعلاقة ذلك بحجر الفلاسفة ، والواقع انه لم يكن في الأمر سحر ولا شعوذة انما هو استخلاص للذهب من خاماته بالملغمة .

نقطة تحول في العصر الوسيط

ولا شك انه يمكن الربط بين مراحل الفكر العلمي عند الاغريق ، ثم

العصر الاسكندري ثم العصر العربي الاسلامي ، ثم عصر النهضة الأوروبية وذلك عن طريق دراسة مقارنة لما قدمه هؤلاء وأولئك.

ومما لا ريب فيه ان أعمال هذين العملاقين « جابر والرازي » في مجال العلوم الكيميائية ، كانت بمثابة نقطة تحول في العصر الوسيط الى عصر النهضة الأوروبية الكبرى، التي يمكن ان يقال اننا نعيش في فيضها حتى الوقت الحاضر.

ومن الانصاف أن نعترف لهذين العملاقين بأثرهما البالغ في الكيمياء تأسيساً وتقدماً ، ولعلَّ أحدث دراسة تؤيد ما ذهبنا اليه تلك التي قدمها الأستاذ محمد جمعة الطوري في رسالة مطولة تفصِّل بعض ما أجملناه .

الشيخ جعفر التنكابني:

توفي بعد سنة ١٢١٣ .

ولد في تنكابن واخذ الأوليات بها ثم انصرف إلى تعلم الفلسفة وبرع بذلك وتقرب إلى السلطان آغا محمد خان القاجاري وأصبح من ندمائه وكان يقرأ له كتب الفلسفة ويفسرها[١].

السيد جلال الدين الطهراني:

ولد في عام ١٢٧٢ وتوفي ١٤٠٨ في باريس ودرس في طهران العلوم الاسلامية في حوزتها العلمية . ثم سافر الى مشهد خراسان حيث عهد اليه ، بما اصطلح على تسميته باسم (منجم باشي) ، ويقصد به : المسؤول عن اعداد التقاويم وما الى ذلك من الشؤون الفلكية.

وبعد عدة سنين عاد إلى طهران وزاول الشؤون السياسية . وفي العام ١٣٥٥ سافر إلى أوروبا لمتابعة دراساته الفلكية في كل من فرنسا وبلجيكا، ثم عاد إلى إيران متقلداً المناصب الحكومية التالية مرة بعد مرة: (١) ـ معاون رئيس الوزراء (٢) وزير دولة (٣) وزير البرق والبريد والهاتف (٤) نائب التولية، وهو المنصب الذي يشرف صاحبه على مقام الإمام الرضا عليه السلام وأوقافه وما إلى ذلك من شؤون هامة، وهو من أكبر المناصب في إيران. (٥) حاكم مقاطعة خراسان (٦) سفير إيران في بلجيكا (٧) عضو مجلس الشيوخ.

وأخيراً لما أضطرت الثورة الإيرانية الشاه محمد رضا لمغادرة إيران مع أسرته إختير رئيساً لمجلس الوصاية على العرش. ولم يلبث أن سافر إلى باريس لمقابلة الامام الخميني، فطلب اليه أن يستقيل فاستقال.

ومما يذكر أن الشاه رضا والد الشاه محمد رضا كان قد أوصى ولده أن يستشير المترجم له في كل شأن هام يعرض له. وكان أهم ما أشار به عليه أن لا يقدم على إعدام السيد الخميني عندما تحرك السيد حركته الأولى في قم وقُبض عليه وأودع السجن، فقد كان عند الشاه إتجاه قوي لاعدامه، ولكن المترجم له أصرَّ عليه أن يتحاشى ذلك فاستجاب الشاه.

له عدة مؤلفات منها: كتب التقاويم في تسعة مجلدات، الإرشاد في شرح الصاحب بن عباد (باللغة العربية)، أصفهان نصف جهان (باللغة الفارسية)، آثار قديمة فارسي (باللغة الفارسية)، رسالة صور فلكي.

وقد حقق الكتب الآتية:

حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تاريخ جهان كشاي للجويني في ثلاثة أجزاء، محاسن أصفهان (باللغة العربية)، فارسنامه بن بلخي، تاريخ قم، هيأت، جامع التواريخ، لب التواريخ.

اقتنى مكتبة ضمت ٤٥٠ مخطوطاً و ٦٠٠٠ مطبوعاً، أهداها إلى مكتبة الإمام الرضا.

أبو ذر الغفاري جندب بن جنادة:

مرت ترجمته في المجلد الرابع، وننشر عنه هذه الدراسة بقلم الدكتور محمد عمارة:

حياته في سطور

* المشهور والأصح أن اسمه: أبو ذر جندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مليل بن صعير بن حرام بن غفار، وينسب إلى قبيلته غفار، فيقال: أبو ذر الغفاري، وفي اسمه هذا خلاف كثير، فالبعض يقول ان اسمه: أبو الذر، والبعض الآخر يقول: ان اسمه برير بن عبد الله ، أو برير بن عشرقة، أو برير بن جندب، أو برير بن عبد، ومنهم من يقول إنه: جندب بن السكن، أو جندب بن سفيان بن جنادة بن عبيد بن الواقفة بن حرام بن غفار بن مليل بن صخرة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار الغفاري.

* أما اسم أمة فإنه لا خلاف فيه، فهي: رملة بنت الوقيعة، من بني غفار بن مليل.

* ولد في قبيلة غفار، في تاريخ غير معلوم، وكانت مضاربها على طريق مكة التجاري إلى الشام.

* وكان أبو ذر أسمر اللون، طويلًا، نحيف الجسم معروقاً..

* ولقد اهتدى إلى عقيدة التوحيد، فترك عبادة الأصنام، وعبد الله وحده قبل بعثة الرسول محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، بثلاث سنوات، وكان قومه يعلمون عنه ذلك، ويسمونه، لترك دينهم وخروجه عليه: الصابىء.

* كان من السابقين إلى تصديق الرسول في رسالته، وهناك اتفاق على أنه أحد الخمسة الأوائل الذين أسلموا مبكراً، والخلاف هل هو الرابع أو الخامس فيهم.

* كان إسلامه ودعوة الإسلام لا تزال سراً بمكة، فولّاه الرسول مسؤولية قومه، فعاد ومكث فيهم يدعو للإسلام جهراً، فأسلم معه كثير من قومه، وظل في موقعه هذا حتى هاجر إلى المدينة سنة ٥هـ ٦٢٧م.

* أبرز ما يميز حياة أبي ذر علمه الغزير، حتى قال عنه علي بن أبي طالب ـ وهو من هو في العلم ـ: «وعى أبو ذر علماً عجز الناس عنه، ثم أوكأ عليه فلم يخرج شيئاً منه». وكذلك زهده وتواضعه، وفي زهده يقول الرسول: «أبو ذر في أُمتي على زهد عيسى بن مريم، عليه السلام». ولقد بلغ به التواضع أنه كان يقدم لإمامة الصلاة ـ في منفاه بالربذة ـ رقيقاً اسمه «مجاشع»، وهو دونه في كل الصفات والمؤهلات. وكذلك جرأته في الحق التي فاق فيها أصحابه، حتى قال عنه الرسول بصددها: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر»!.

* روى عن الرسول أحاديث كثيرة، ومنها أحاديث عديدة ذات مضمون اجتماعي يدعو إلى المساواة والتكافل وينفر من التفاوت في الثروات، وروى هذه الأحاديث عن أبي ذر كوكبة من الصحابة والتابعين، منهم مثلًا: أنس بن مالك، وعبد الله بن عباس، وأبو إدريس الخولاني، وزيد بن وهب الجهني، والأحنف بن قيس، وجبير بن نفير، وعبد الرحمن بن تميم، وسعيد بن المسيب، وخالد بن وهبان (أو: أهبان) ـ وهو ابن خالة أبي ذر، وقيل: ابن أخيه ـ وعبد الله بن الصامت، وخرشة بن الحر، وزيد بن ظبيان، وأبو أسماء الرحبي، وأبو عثمان النهدي، وأبو الأسود

---

(١) السمامي .

الدؤلي، والمعرور بن سويد، ويزيد بن شريك، وأبو مرواح الغفاري، وعبد الرحمن بن أبـي ليلى، وعبد الرحمن بن حجيرة، وعبد الرحمن بن شماسة، وامرأة أبـي ذر، وعطاء بن يسار، وغيرهم كثيرون.

* لم يشهد غزوة «بدر»، ولكن عمر بن الخطاب ألحقه بمن شهدها في العطاء، اعترافاً بفضله، ولأنه لم يكن يومها قد هاجر إلى المدينة.

* اختلف مع عثمان بن عفان، لمحاباته أهله بعد توليه الخلافة، وثار على خروج المجتمع الإسلامي عن نهج الرسول في التقارب والتكافل الاجتماعي، وانتقد تسابق البعض على حيازة الثروات، ونفي بسبب ذلك أكثر من مرة، من المدينة إلى الشام، ومن الشام إلى المدينة، وأخيراً إلى قرية صحراوية على بعد ثلاثة أميال من المدينة تسمى الربذة وكان ذلك في سنة ٣٠هـ.

* في تاريخ وفاته خلاف بين سنوات ٣١ و٣٢ و٢٤هـ والأصح هو التاريخ الأول.

* لم يحضر وفاته سوى ابنته، وكان قد أمرها عندما اقترب منه الموت أن تولم وليمة لأول ركب يفد إلى منفاه كي يجهزوه ويدفنوه.. وقبل أن يسلم روحه قال لابنته: استقبلي بـي الكعبة، ففعلت، وقال: بالله، وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. ثم أسلم الروح. وعندما وفد على ابنته ركب قادم من الكوفة، وكان فيه عبد الله بن مسعود، قالت لهم: رحمكم الله، اشهدوا أبا ذر، قالوا، وأين هو؟ فأشارت إليه ــ وقد مات ــ فجهزوه وصلوا عليه ودفنوه.. ولقد بكى ساعتها ابن مسعود، وقال: صدق رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لقد قال عن أبـي ذر: «يعيش وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

إسلام ابـي ذر

في الأحاديث التي رويت عن الرسول، عليه الصلاة والسلام، كلمات تشهد لأبـي ذر الغفاري بالتميز والتفرد ببعض الخصال والصفات، سبقت إشارتنا إلى بعض من ذلك، وسيأتي الحديث عن بعضها الآخر بعد قليل.

وقصة العلاقة بين أبـي ذر وبين الدين الإسلامي من أهم القسمات التي تميز أبا ذر عن غيره من الصحابة، سواء منهم الذين سبقوا إلى الإسلام أو الذين أبطأ بهم الإيمان بالرسول حيناً من الدهر، قلّ أو كثر ذلك الحين.

ففي شبه الجزيرة العربية كانت تتناثر، قبل بعثة الرسول، بعض المراكز الدينية، وبعض القبائل التي آمنت بشريعة عيسى، عليه السلام، وكانت في هذه الأرض كذلك بقايا لديانة إبراهيم الخليل، عليه السلام، تمثلت أساسا في عقيدة التوحيد التي ترفض الأصنام، وتنكر على الناس عبادتها، وكانت هذه البقايا من عقيدة إبراهيم تسمى «الحنيفية»، وأتباعها يسمون «الحنفاء».. ولقد كانوا أكثر الناس إحساساً، في تلك البقعة وفي ذلك التاريخ، بشدة حاجة تلك البيئة إلى رسول يوحّد العرب حول عقيدة توحيدية، وينتقل بهذا المجتمع إلى طور حضاري جديد..

ولقد كان أبو ذر الغفاري من هؤلاء الحنفاء، الذين اهتدوا ــ ذاتياً وبالتأمل والتعمق في التفكير ــ إلى عقيدة التوحيد، فدعا الله وعبده، بل ودعا إليه، قبل أن يبعث الرسول عليه الصلاة والسلام، بثلاث سنوات، وهذه ميزة يتفرد بها الرجل عن الذين شاركوه في صحبة الرسول.

وهو يقص علينا ذلك السبق في حوار دار بينه وبين ابن أخيه، يقول فيه: « ــ وقد صليت، يا ابن أخي، قبل أن ألقى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، بثلاث سنين..

قال: لمن؟

قلت: لله.

قال: فأين تتوجه؟

قلت: أتوجه حيث يوجهني ربـي!...»[1].

وفي الوقت الذي بدأ فيه الرسول الدعوة سراً إلى الإسلام، كان أبو ذر مع أخيه «أنيس» قد غادرا مع أمهما مضارب قبيلتهم غفار، سخطاً على خروج القبيلة عن تقاليد العرب التي تحرم الحرب في الشهر الحرام، فنزلوا حيناً من الدهر عند خال لهما، ثم غادروه ونزلوا على مقربة من مكة.. وفي هذا المكان سمع أبو ذر عن الرجل الذي يقول: إنه يتلقى وحي السماء، ويدعو إلى عقيدة التوحيد، فبعث بأخيه كي يتنسم له هذا الخبر الذي لم يكن بعد قد ذاع، وقال له: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبـي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني.. وعندما عاد «أنيس» من رحلته، سأله أبو ذر:

« ــ ما صنعت؟

قال: لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أن الله قد أرسله، يسمونه الصابىء.

قلت: فما يقول الناس؟

قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر.. ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون».

ولكن هذا القدر من الحديث، وذلك اليقين الذي تحدث به «أنيس» عن صدق محمد لم يكف لهفة أبـي ذر ولم يشبع نهمه، وهو الذي ينتظر مثل ذلك اليوم منذ سنوات ثلاث.. فطلب من أخيه القيام على أمر أمهما وأمر معاشهم حتى يذهب بنفسه إلى مكة كي يباشر السماع ويقف بنفسه على حقيقة الموضوع.

وعندما وصل إلى مكة اختار رجلاً ضعيف البنية من بين أهلها، كي يسأله عن مكان هذا الداعية إلى نبذ عقيدة الأصنام، فقال للرجل: أين هذا الذي تدعونه الصابىء؟!.. ففزع الرجل، كيف شاع أمر الدعوة الجديدة، التي يريد أهل مكة أن يقبروها في مهدها، حتى بلغ خبرها إلى من هم خارج مكة، فجاء هذا الغريب يسأل عن مكان صاحبها!! ولذلك صرخ الرجل في تعجب من سؤال أبـي ذر، وقال: الصابىء؟!.. الصابىء؟!.. ويحكي أبو ذر كيف هجم عليه القوم وانهالوا عليه بالضرب حتى اصطبغت ملابسه وبشرته بدمائه، فيقول: فمال علي أهل الوادي بكل قدرة وعظم حتى خررت مغشياً علي.. فارتفعت، حين ارتفعت كأني نُصُبٌ أحمر!!»..

ولكن ذلك لم يصرف أبا ذر عن ما جاء من أجله.. فذهب إلى ماء بئر زمزم فاغتسل من دمائه، وشرب من مائه، ودخل المسجد واختفى خلف أستار الكعبة يترقب ما تأتي به الأيام من الأحداث.. واستمر في مخبئه هذا يتسمع خمسة عشر يوماً، وقيل ثلاثين يوماً، لا طعام له سوى ماء زمزم؟!

(١) صحيح مسلم ج ١٦ ص ٢٧ وما بعدها.

حتى كانت ليلة مقمرة أنصرف فيها رجال مكة إلى السمر عن الطواف بالأصنام المنصوبة حول الكعبة وفوقها، وجاءت امرأتان تطوفان بالأصنام، وتدعـوان الصنم «إساف» والصنم «نائلة» بما هو مألوف عندهم من الدعاء. . . وقرر أبو ذر أن يسخر من المرأتين ومن معبودهن ــ و «إساف» إلـه ذكر، ــ و «نـائلة» الهة أُنثى ــ فرفـع أبو ذر صوته من مخبئه، وقال للمرأتين: أنكحا أحدهمـا الأخـرى؟!. . ولكنهمـا استمــرتـا في دعاء الصنمين فقــال: «هَنٌ مثـل الخشبة»؟!. . . وعند ذلك فزعت المرأتان، وغادرتا مكان الطواف في اتجاه باب المسجد، وهما تصيحان: لو كان ههنا أحد من أنفارنا؟؟! وصادف ذلك دخـول الـرسـول صلى الله عليـه وآلـه وسلم إلى المسجـد، للصـلاة، في تلك الليلة التي خلا فيها المسجد من المشركين. . فسأل المرأتين:

ــ ما بالكما؟

قالتا: الصابيء بين الكعبة وأستارها. .

ــ ما قال لكما؟

قالتا: إنه قال لنا كلمة تمـلأ الفم (أي غليظة في فحشهـا، لا يمكن التلفظ بها).

ويحكي أبو ذر ما حدث بعد ذلك، وكيف «جاء رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى استلم الحجر، وطاف بالبيت، ثم صلى، فلما قضى صلاته، قلت: السلام عليك يا رسول الله، فقال، وعليك ورحمة الله. . ثم قال: من أنت؟ قلت: من غفار. .» ويعلق أبـو ذر على هذا اللقـاء، وعلى إسلامه، دون أن يدعوه الرسول الى الإسلام، فيقول «فكنت أنا أول من حياه بتحية الإسلام».

فـأخبره الـرسول بتفكيـره في الهجـرة من مكـة، واحتمـال أن تكـون «يثرب»، (المدينة) هي مكان هذه الهجرة المرتقبة. . وطلب إليـه أن يتولى أمر الدعوة إلى الإسلام في قبيلته غفار. . وقـال له: «فهـل أنت مبلـغ عني قـومك، عسى الله أن ينفعهم بـك، ويأجـرك فيهم؟. . ارجـع إلى قـومـك فأخبرهم، حتى يأتيك أمري». .

ولكن أبا ذر لم يشأ أن يغادر مكة سراً، ودون أن يتحدى أهلها في ذلك الوقت المبكر الذي لم تكن فيه الدعوة الإسلامية قد أعلنت بعد، ولم يكن فيه عدد المسلمين قد تجاوز أربعـة، فقال للرسـول عليه الصـلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم. . فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فقام القوم إليه فضـربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس بن عبـد المطلب فـأكب عليه، وقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار؟! وأنه طريق تجارتكم إلى الشام؟! فأنقذه منهم» وتكرر هذا المشهد في اليوم التالي حيث عـاد أبو ذر لتحديهم علناً، فعادوا لضربه وأنقذه منهم ثانية العباس، عم الرسول.

وهكذا تفرد أبو ذر مرة أخرى بأمر آخر عن غيره من الصحابة الذين أسلموا حتى ذلك التاريـخ.

وعندما عاد أبو ذر إلى قومه، تبعه في العقيدة أخوه «أنيس»، وأمه. ثم أخـذ في الجهر بـالـدعـوة إلى الإسـلام، وفي السخـريـة من أصنـام غفـار وآلهتهم. . حتى دخلت أعداد كبيرة من قبيلته في الإسلام، وظل بينهم داعياً إلى الدين الجديد حتى هاجر الرسـول عليه الصـلاة والسلام إلى المـدينة، وقدم إليها أبو ذر فأسلم من بقي من قومه، ودعا لهم الرسول فقال: «غفـار غفر الله لها»[1]. . . فكانت ميزة أخرى تميز بها هذا الداعية إلى الإسلام بين قبيلته وقومه عن كثير من الذين أسلموا في ذلك الحين.

(١) صحيح مسلم ج ١٦ ص ٢٧ وما بعدها، وأسد الغابة، ج ٥، ص ٨٧ والاستيعاب ج ٤ ص ٦٤ والإصابة ج ١ ص ٨٨.

صفات أخرى للرجل

ولـم تكن هـذه هي كـل الصفـات التي تميـز بهـا هـذا الصحـابـي الجليل. . بل كانت له صفات أخرى امتاز بها على الكثيرين. . .

* ومن أولى هذه الصفات غزارة العلم والمعرفة. . فعلى الرغم من أن المشهور في الدراسات الإسلامية التي تناولت مـركز الصحـابة من العلم والمعـرفة تكـاد تجمـع ــ وهي على حق في ذلك ــ على أن علي بن أبـي طالب كان أبرز الصحـابـة في هذا الميـدان، إلا أن تقييم أبـي ذر في هذا الصـدد يحتـاج إلى تنبيـه وجـلاء وتفسيـر لبعض مـا روي حـولـه في هـذا الموضوع.

فلقـد ذكرت في أوصـاف الرجـل أنـه «كـان يـوازي ابن مسعـود في العلم»[1]. . وابن مسعود من المبرزين والمقدمين في هذا الميدان. . ولكن الأمر الأهم الذي نود التنبيه إليه هو أن وصول أبـي ذر إلى الإيمان بعقيدة التوحيد قبـل البعثة المحمـديـة، وقبـل سماعـه بالقـرآن والـرسـول، إنما يضعـه بين أصحـاب النظر العقلي والتحليـل النظري والفكـر الفلسفي، ومن ثم يعطي الرجل مكاناً متميزاً في هذا الميدان. . ويبدو. أن الرجل قد كانت له آراء فلسفية ونظرات عميقة حول عدد من القضايا الفكرية لم تكن البيئة الفكرية التي عاش فيها من سعة الصدر ورحابته بحيث تسمـح لـه أن يلقي بكل مـا عنده إلى الناس. . ويشهد بذلك قول علي ابن أبـي طالب عندما سئل عن أبـي ذر، فلقـد قال: إنـه «وعى علماً فعجـز فيه، وكـان شحيحـاً حـريصـاً: شحيحاً على دينه، حريصاً على العلم»[2]، فهو هنا يشير إلى «نوعيـة» علم أبـي ذر، وأيضـاً إلى أن الرجـل كان حـريصـاً عليـه وضنينـاً بـإذاعتـه بين الناس. . وفي حديث آخر لعلي عن هذا الموضوع يقول فيه، كـان «أبو ذر وعـاء مليء علماً، ثم أوكيء عليـه»؟![3]. . أي أن البيئة التي عـاش فيهـا الرجل لم تشهد ما في وعاء علمه من قضايا وأفكار، لأن هذا الوعاء بعد أن مليء بالعلم، حدث أن «أوكيء عليه»؟!. . وهناك رواية أخرى لكلمات علي هذه أكثر صراحة وأقطع في الدلالة عندما يقول «وعى أبو ذر علماً عجز الناس عنه، ثم أوكأ عليه فلم يخرج شيئاً منه»؟![4].

ولأبـي ذر في نفسه إشارة إلى أنه قد تحصلت له وامتلك عقله نظرة شاملة ومتكاملة للكون والحياة، فهو يصف حالته الفكرية بعد أن اكتسب ما اكتسب من صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام ــ وكان ملازماً له منذ لحق بـه في المدينة ــ فيقول: «لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً؟!»[5]. . فالرجل ولا بد كانت لديه قضايا وأفكار أكثر مما حفظته لنا كتب الحديث والتاريـخ.

* وزهد أبـي ذر هو الآخر ميزة من الميزات التي تميز بها الرجـل، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد قال عنه: «أبو ذر في أُمتي على زهد عيسى بن مريم عليه السلام»[6]، ولكن زهد أبـي ذر هذا لم يكن عزوفاً عن الدنيا وإدارة ظهر لمشاكلها وأحداثها، وإنما كان موقفاً نضالياً يرفض صاحبه الانغماس في الملذات والترف، وفي نفس الوقت يكافـح ضد الذين سلكوا هذا السبيل، فأبو ذر كـان يؤمن بأن لـه في أموال المجتمـع حقـوقاً مثـل ما للآخرين، وأن استئثار الآخرين بهذه الأموال لا يعني اختصاصهم بها دونـه

(١) الإصابة ج٤، ص ٦٥. .
(٢) طبقات ابن سعد ج ٢، ق ٢، ص ١١٢.
(٣) الإصابة ج٤، ص ٦٥ وهو حديث أخرجه أبو داود.
(٤) الاستيعاب ج٤، ص ٦٤.
(٥) المصدر السابق ج ٤، ص ٦٤، ٦٥.
(٦) المصدر السابق ج٤، ص ٦٤.

وحتى في منفاه «بالربذة»، وفد عليه «سلمة بن نباتة» فحدثه عن تسابق أصحابه في حيازة الأموال وتنمية الثروات، وقال له: «إن أصحابك قِبَلَنا أكثر الناس مالاً؟! فقال له أبو ذر: «أما إنهم ليس لهم في مال الله حق إلا ولي مثله»[1] فهو لم يكن زاهداً زهد الإنسان الذي لا يرى لنفسه علاقة بالدنيا ومباهجها، وإنما كان زاهداً زهد المناضل ضد احتواء هذه المباهج لملكاته وقدراته وتطويعها لمزاياه الثورية التي اكتسبها من قبل ومن بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام.. والإمام أحمد بن حنبل يروي بمسنده في «كتاب الزهد» الحديث الذي يقول فيه أبو ذر «إني لأقربكم مجلساً من رسول الله صلى الله عليه واله وسلم يوم القيامة، ذلك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئته يوم تركته فيها» ثم يستطرد أبو ذر فيقول: «والله ما منكم أحد إلا وقد نشب فيها بشيء غيري»[2]. فهو إذا نمط من الزهد أقرب إلى المواقف النضالية منه إلى المعنى الشائع الآن عن الزهد والزاهدين.. ولا شك أن هذه الميزة من ميزات أبي ذر ستبرز أكثر وأكثر عندما نعرض لمواقفه النضالية من التحولات التي طرأت على الحياة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان.

* وميزة أخرى للرجل لم يشترك معه فيها أحد من أصحابه، بشهادة االرسول عليه الصلاة والسلام، وهي «صدق اللهجة»، التي تعني بلغة عصرنا أن الرجل كان أكثر الألسنة صدقاً في التعبير عن الرأي الحر، وأكثر الناس جرأة في إعلان ما يعتقده حقاً دونما مواربة أو مداورة، وأن لسانه كان أكثر منابر العصر تعبيراً عن الحقائق التي شهدها هذا الصحابي الجليل.

أما شهادة الرسول لأبي ذر بهذه الميزة وذلك الامتياز، فإنها قد جاءت في حديثه الذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر»[3] وهو حديث رواه أبو الدرداء، ورواه كذلك بنفس ألفاظه مع تقديم وتأخير عبد الله بن عمر بن الخطاب.. ولقد اشتهر أمر هذا الحديث حتى أصبح من الصفات الشائعة لأبي ذر في كتب الطبقات الخاصة بالصحابة والمحدثين صفة «الصادق اللهجة»[4]، وهو وصف لم يطلق على أحد غيره من صحابة رسول الله..

وأهمية هذه الصفة بالذات من بين صفات أبي ذر الغفاري أنها تعطي قيمة أكبر وأهمية أعظم لرأي الرجل وتقييمه للتطورات والأحداث التي دار حولها الخلاف بينه وبين عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان ومن ناصرهما من الصحابة، وهي الأمور التي سيأتي حديثنا عنها بعد قليل.. فالقطع ــ بصدق لهجة الرجل، واليقين بأنه أصدق أهل زمانه لهجة ينفي نفياً باتاً ما حاول به البعض تجريح الرجل والنيل من إنصافه عندما صوروه أداة لبعض من أسلم من اليهود، دفعوا به لمناوأة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان، ومن ثم فإن هذه الصفة من صفات أبي ذر لا بد وأن تظل حاضرة في ذهن الباحث والدارس والقارىء عند التعرض لأحداث ذلك الصراع الذي قام بينه وبين جهاز الدولة والأغنياء في ذلك الحين.

وهذه الصفة التي يتميز بها أبو ذر قد جعلت الرجل أثيراً إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، قريباً منه، تدل على ذلك أحاديث كثيرة مثل ذلك الذي أخرجه الطبراني من أحاديث أبي الدرداء، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبتدىء أبا ذر إذا حضر، ويتفقده إذا غاب «أي أن منزلة

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٦٧.
(٢) الإصابة ج٤، ص ٦٥.
(٣) الاستيعاب ج٤، ص ٦٤ح ٦٥ والإصابة ج٤، ص ٦٥.
(٤) الإصابة ج٤، ص ٦٣.

الرجل كانت كبيرة لدى الرسول.. بل وأكثر من ذلك.. فنحن نستطيع أن نقول: إن الرسول كان شديد الحرص على أن يجد أبا ذر دائماً في المكان المرغوب لصفوة الصحابة وخيرة المسلمين، ولقد حدث أن انتشر وشاع تخلف الناس عن الخروج للقتال مع الرسول في غزوة «تبوك»، وأخذ بعض الصحابة ينقلون إلى الرسول أخبار المتخلفين عن الاستعداد للقتال، فيقولون: يا رسول الله: تخلف فلان.. فيقول لهم: «دعوه.. فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه».. فذهب هذا الحكم معياراً يميز الخارجين إلى القتال عن القاعدين عنه دون عذر مقبول.. وعندما خرج الجيش المسلم عن المدينة، لم يكن فيه أبو ذر، لأن بعيره كان بطيء السير، وتفقد الرسول أبا ذر فلم يجده، فأخذ يتمنى على الله أن يكون أبو ذر في القادمين، حرصاً منه على الرجل ومكانته في الإسلام وبين المسلمين وفي نفس الرسول.. وفي نفس هذه اللحظات كان أبو ذر ــ وقد استبطأ بعيره ــ قد أخذ متاعه على ظهره، وتبع جيش الرسول مشياً على الاقدام.. «فنظر ناظر من المسلمين، فقال: إن هذا الرجل يمشي على الطريق، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كن أبا ذر»؟!! ويكمل ابن مسعود رواية الحديث فيقول: «فلما تأملت القوم، قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر؟! ففرح رسول الله فرحاً شديداً بتحقيق أمنيته في أن يكون أبو ذر في مكانه الطبيعي بين الذين جعل الله فيهم خيراً فألحقهم بجيش الذاهبين للقتال في «تبوك» وقال: «يرحم الله أبا ذر، يعيش وحده ويموت وحده.. ويحشر وحده»[1]؟!.

تحولات عهد عثمان

حتى نفهم موقف أبي ذر من التحولات التي طرأت على الحياة الإسلامية أخريات حياته، لا بد أن نعرض لهذه التحولات، وحتى نحكم للرجل أو عليه لا بد من تقديم لمحة تجسد لنا ما حدث في الميدان الاجتماعي منذ ولي الخلافة عثمان بن عفان، فذلك هو السبيل الطبيعي للتقييم الأدق الذي ننشده، وللتمييز بين وجهتي النظر المتعارضتين للمؤرخين القدامى الذين عرضوا لموقف هذا الصحابي الجليل من هذه التحولات..

وبادىء ذي بدء فنحن مع الذين يرون أنه قد حدثت بالفعل تحولات اجتماعية في الحياة الإسلامية على عهد عثمان، لم تكن موجودة في عهد البعثة ولا في زمن أبي بكر وخليفته عمر بن خطاب.. ففي عهد الرسول، لم تكن الفتوحات الإسلامية الكبرى قد حدثت بعد، ومن ثم فإن ثروة المجتمع لم تكن ذات وزن كبير، حتى أن الدولة العربية الإسلامية التي قامت يومئذ لم تعرف نظاماً مستقراً ومقنناً لماليتها من حيث الضبط والتنظيم للواردات والمصروفات.. وعندما لقي الرسول ربه خلف ديناً عليه هو عبارة عن قرض اقترضه لقضاء حاجات أهله المعاشية.. ولم يختلف الحال كثيراً في عهد أبي بكر.. لا من حيث الحدود التي امتد إليها الفتح العربي، تقريباً، ولا من حيث ثروة الدولة، بل لقد تأثرت بالانقسامات التي حدثت على سلطة أبي بكر القائمة في «المدينة»، واستنفدت منها الحروب، التي سميت «بحروب الردة»، قدراً كبيراً من الجهد والنفقات، حتى أن بيت مال المسلمين ــ (خزانة الدولة) ــ عند وفاة أبي بكر، لم يكن بها سوى دينار واحد قد سقط وتخلف بطريق الخطأ والنسيان؟!..

وفي عهد عمر بن الخطاب امتدت فتوحات الدولة حتى شملت المجتمعات الغنية الثلاثة التي كانت أهم مصادر للثروة في الإمبراطورية

(١) المصدر السابق ج٤، ص ٦٥.

العربية: مصر، والشام، والعراق.. وجاءت إلى عاصمة الدولة كنوز القياصرة والأكاسرة، وفيها أكوام من التحف والعملات الذهبية التي ذهل لمرآها كثيرون من الصحابة.

ويبدو أن الفرع الأموي، بزعامة أبي سفيان، قد رأى في تولي عثمان الخلافة فرصة طالما انتظروها كي تعود لهم المكانة الأولى التي فقدوها منذ ظهور الإسلام على يد محمد بن عبد الله، من الفرع الهاشمي الفقير من بني عبد مناف.. ولقد ذكر عمار بن ياسر أنه قد حدث «عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان، ودخل داره، ومعه بنو أمية» أن قال لهم أبو سفيان، وكان قد كف بصره: «أفيكم أحد من غيركم؟.. قالوا: لا.. قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة، ونمي هذا القول إلى المهاجرين والأنصار[1]. «فهو إذاً إنقلاب سياسي قد حدث، طالما رجاه وانتظره أبو سفيان وبنو أمية، وهي إذاً بداية حقبة من الحكم الأموي يعدون أنفسهم لتلقفه كالكرة حتى تصير ملكاً وراثياً يتولاه الصبيان.. لقد سنحت لهم الفرصة، ورأوا في شخصية عثمان المناخ المناسب كي يحققوا ما يريدون.. ولذلك كان حكم هذا الخليفة بداية لأحداث وتطورات استحدثت في الحياة الاجتماعية الإسلامية، سعى إليها البعض واغتنمها البعض وناضل ضدها البعض الآخر ومن ثم كانت الصراعات التي برز فيها أبو ذر الغفاري وكانت «الفتنة» (الثورة) التي شهدها آخر عهد عثمان بن عفان..

* فلقد انتشر كثير من الصحابة، في الأمصار، وأقطعهم عثمان مساحات من الأرض التي كانت ملكية عامة لبيت مال المسلمين، فوزعت عليهم الأرض التي كانت مملوكه لكسرى وقيصر والأمراء والقواد الذين حاربوا ضد الفتح العربي لهذه البلاد، وهي التي كانت تسمى أرض «الصوافي»، وكان دخلها على عهد عثمان ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، كما كان عثمان أول من أقطع أرض العراق.

* وتغير حال العمال والولاة، فاستخدم عثمان الكثير من أقربائه، وحتى الذين كانوا يعملون على عهد عمر لم يعودوا يخشون شدة عمر، واستبدوا بالأمر من دون عثمان. ومن حديث لعلي بن أبي طالب، عشية الثورة على عثمان يعيب عليه في ضعفه إزاء الولاة والعمال، يقول له فيه: «إن عمر كان يطأ على صماخ من ولى.. إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى العقوبة، وأنت لا تفعل، ضعفت ورققت على أقربائك»، وعندما يقول له عثمان، «وهم أقرباؤك أيضاً»؟! يقول له علي: «أجل.. إن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم!» وعندما يعترض عثمان ويحتج بأنه قد ولى معاوية بعد أن ولاه عمر من قبل، يرد عليّ قائلاً: «أنشدك الله!! هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من «يرفأ»، غلام عمر له؟! أما الآن «فإن معاوية يقتطع الأمور دونك، ويقول للناس: هذا أمر عثمان، وأنت تعلم ذلك فلا تُغَيِّر عليه؟!»[1].

* وانعكست هذه التطورات السياسية والإدارية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لدى عدد كبير من الولاة والصحابة والعمال.. فسعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة، يسير في الناس سيرة منكرة، ويستبد بالأموال دونهم، ويقول عن أرض العراق إنها بستان قريش؟! فيعترض عليه الأشتر مالك بن الحارث النخعي قائلاً: «أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك؟!».

* وتتبدى مظاهر الثراء والبذخ على عدد كبير من الصحابة، فالزبير بن العوام يبني له عدة دور فخمة بالبصرة، والكوفة، ومصر، والإسكندرية، وعندما تحضره الوفاة يحصلون في ثروته ٥٠,٠٠٠ دينار، وألف فرس، وألفاً من العبيد والإماء.. إلخ..

* وطلحة بن عبيد الله التيمي يبتني لنفسه هو الآخر إحدى الدور الفخمة بالكوفة وأخرى بالمدينة يشيدها «بالآجر والجص والساج»، ويبلغ دخله من ممتلكاته بالعراق وحدها ألف دينار في اليوم الواحد؟! «وقيل أكثر من ذلك، وبناحية «الشراة» أكثر مما ذكرنا»!!

* وعبد الرحمن بن عوف الزهري، تصبح ثروته مضرب الأمثال «فعلى مربطه مائة فرس، وله ألف بعير، وعشرة الآف شاة من الغنم» وعندما توفي قدرت ثروته بأكثر من مليونين ونصف من الدراهم، ولقد بلغ حجم القدر الذي أحضر منها إلى عثمان بن عفان في «البِدَر» و«الأكياس» قدراً من العِظَم جعله يحجب رؤية عثمان عن الرجل الواقف أمامه؟!.

ويذكر سعيد بن المسيب أنه قد كان في ثروة زيد بن ثابت ــ وكان من المدافعين عن عثمان حين ثار الناس عليه ــ يوم مات «من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار».

* أما يعلى بن منبة فإنه يخلف في تركته ٥٠٠,٠٠٠ دينار، تضاف إليها عقارات وديون له على الناس تقوم بمبلغ ٣٠٠,٠٠٠ دينار؟!.

* ويشيع في المدينة بناء الدور الفخمة الحديثة، ويتخذون لها الأماكن الجميلة من «الضواحي» فعلى بعد أميال من المدينة يبني «المقداد» ــ «بالجرف» داراً، «مجصصة الظاهر والباطن»، ويجعل في «أعلاها شرفات»، ويصنع مثله «بالعقيق»، «سعد بن أبي وقاص».

ويحصون لعثمان، يوم مقتله «عند خازنه من المال خمسين ومائة ألف دينار (١٥٠,٠٠٠)، وألف ألف درهم» (١,٠٠٠,٠٠٠) وذلك غير قيمة «ضياعه بوادي القرى وحنين»، تلك التي قدرت بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ دينار، هذا عدا الخيل والإبل وغيرها من الممتلكات والمقتنيات.

ونحن نود قبل أن ننتقل للحديث عن أثر هذه التحولات المستحدثة في المجتمع الإسلامي، أن ننبه إلى أن صحبة هؤلاء الرجال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسبق الكثير منهم إلى الإسلام، وبلاءهم الحسن في نشر الإسلام وإقامة دعوته، لم يكن له أن يمنع سيعهم هذا الذي حدث في سبيل الدنيا، لأن النفس البشرية عندما تتاح لها الفرصة لذلك دونما مانع من القانون ورادع من النظام، فقلما تحجم عن السعي في هذا الطريق... ومن ثم استباح الكثيرون لأنفسهم و ستحلوا هذا النمط من أنماط الحياة.. ولقد كانت للقوم شبهة حل تجعل لهم هذا الأمر مباحاً لا حرج عليهم فيه.. يشهد لذلك قول عثمان بن عفان عن عبد الرحمن بن عوف عندما أُحضر له ما أحضر من أكياس دنانيره ودراهمه بعد وفاته: «إني لأرجو لعبد الرحمن خيراً، لأنه كان يتصدق، ويقري الضيف، وترك ما ترون».. أي أنه قد كانت هناك وجهة نظر تمثل موقفاً فكرياً يرى أنه لا حرج على الناس ولا على ضمائرهم من السعي في هذا السبيل، وأن التقوى والإيمان لن يُنْقِص منهما جمع الأموال، بشرط أن يتصدق أصحابها ويكرموا الضيوف ويبذلوا منها قدراً معلوماً في بعض وجوه البر والإحسان..

بل لقد حدث أن استباح البعض ما حرمه الرسول على سبيل القطع في هذا الميدان، وفي (صحيح مسلم) نقرأ هذا الحديث الشاهد لما نقول: ــ «حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب، حدثنا سليمان «يعني ابن بلال» عن يحيى «وهو ابن سعيد»، قال: كان سعيد بن المسيب يحدث أن معمراً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من احتكر فهو خاطىء، فقيل

---

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير ج٣، ص ٧٤.

لسعيد: فإنك تحتكر!! قال سعيد، إن معمراً، الذي كان يُحَدِّث هذا الحديث كان يحتكر»؟!!(١). فما بالنا باستحداث أمور كانت للبعض فيها شبهة حِلّ؟! ولم يكن في صف الذين أنكروها وحاربوها سوى سلاح الاجتهاد في تفسير النصوص وقياس الأمر على كليات التعاليم وروح الشريعة الغراء..؟!.

وعلى أي الوجوه قلبنا الأمر، فلقد أثمرت هذه التحولات التي شهدها عهد عثمان بن عفان مناخاً اجتماعياً وَلّد وشهد العديد من التناقضات والصراعات.. ومن الكلمات الجيدة التي تصف تلك الحالة الجديدة قول جمال الدين الأفغاني: إنه «في زمن قصير من خلافة عثمان، تغيرت الحالة الروحية في الأمة تغيراً محسوساً، وأشد ما كان منها ظهوراً في سيرة سير العمال والأمراء وذوي القربى من الخليفة، وأرباب الثروة، بصورة صار يمكن معها الحس بوجود طبقة تدعى «أمراء» وطبقة «أشراف» وأخرى أهل ثروة وثراء وبذخ»، وانفصل عن تلك الطبقات: طبقة العمال وأبناء المجاهدين، ومن كان على شاكلتهم من أرباب الحمية والسابقة في تأسيس المُلْك الإسلامي وفتوحاته، ونشر الدعوة، وصار يعوزهم المال الذي يتطلبه طرز الحياة والذي أحدثته الحضارة الإسلامية، إذ كانوا مع كل جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم لا يستطيعون اللحاق بالمنتمين إلى رجال الدولة، وقد فشت العزة والأثرة والاستطالة، وتوفرت مهيئات الترف في حاشية الأمراء وأهل عصبيتهم، وفي الولاة ومن استعملوه وولوه من الأعمال.. إلخ.. فنتج من مجموع تلك المظاهر التي أحدثها وجود الطبقات المتميزة عن طبقة العاملين والمستضعفين من المسلمين، تَكَوّن طبقة أخذت تتحسس بشيء من الظلم، وتتحفز للمطالبة بحقهم المكتسب من مورد النص.

وكان أول من تنبه لهذا الخطر الذي يتهدد المُلْك والجامعة الإسلامية، الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري..».

اتهام مردود

ولقد كان طبيعياً أن تُحْدِث تطورات مثل هذه اختلافاً في الرأي وتبايناً في وجهات النظر بين كبار الصحابة وكثير من المسلمين في ذلك الحين، وكان منطقياً وضرورياً أن تؤدي هذه التغيرات الاجتماعية إلى اختلاف وتباين في الزوايا التي ينظر منها الناس إلى الأمور.. ولذلك فإننا نؤيد النظر إلى اختلاف الآراء بين أبي ذر وبين عثمان ومعاوية على أنه أمر طبيعي، وننكر المحاولات التي تريد الانتقاص من قدر أبي ذر، بتصويره ضحية في مخطط يهودي استخدم الرجل في تنفيذ مؤامرة يهودية ضد الإسلام والمسلمين؟!..

وأصحاب هذا الرأي الشاذ قد لجأوا إليه تحت وهم أنهم يدافعون بذلك عن عثمان بن عفان، فأوقعهم مسلكهم هذا في منحدر وعر، لأنهم قد جَرَّحوا صحابياً قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام: إنه أصدق أهل الأرض لهجة ومقالاً.. وتنبأ بما حدث له، لأنه كان يعرف معدن الرجل، ويستشرف ما ستجره عليه لهجته الصادقة عندما يلجأ القوم إلى الدعة وحب السلامة والرفه، وعندما يثور عليهم أبو ذر لسلوكهم هذا الطريق.

ولقد كانت دوافع أبي ذر إلى موقفه هذا موضع خلاف ــ منذ قرون ــ بين المؤرخين، فالطبري يذكر أن المؤرخين الذين سبقوه قد ذكروا في أسباب نفي أبي ذر من الشام إلى المدينة بأمر من عثمان لمعاوية، بعد أن كاتب معاوية الخليفة بصنع أبي ذر وتحريضه الفقراء على الأغنياء.. يذكر الطبري أن بعض المؤرخين قد ذكر لذلك «النفي» و«الإشخاص» أسباباً كثيرة و«أشياء كثيرة وأموراً شنيعة كرهتُ ذكرها» وفي مكان آخر يقول: ــ

(١) صحيح مسلم، بشرح النودي ج١١، ص ٤٣.

«كرهت ذكر أكثرها»(١)... لأنه كان متعاطفاً مع وجهة النظر التي وقف منها أبو ذر موقف العداء...

أما ابن الأثير ــ وهو من الناقلين عن الطبري ــ فإنه يشير إلى بعض هذه الأشياء التي ذكرها بعض المؤرخين، والتي كره الطبري ذكرها، مثل «سب معاوية» لأبي ذر، «وتهديده بالقتل، وحمله إلى المدينة من الشام بغير وطاء ــ (فرش على ظهر الدابة) ــ ونفيه من المدينة على الوجه الشنيع».. يذكر ابن الأثير هذه الإشارة، ثم يقف نفس موقف الطبري فيعلن كراهته للتفصيل في هذا الأمر، لأنه «لا يصح النقل به، ولو صح لكان ينبغي أن يُعْتَذَرَ عن عثمان، فإن للإمام أن يؤدب رعيته، وغير ذلك من الأعذار، لا أن يجعل ذلك سبباً للطعن عليه».. ثم يمضي ليذكر وجهة نظر الذين أيدوا عثمان ومعاوية ضد أبي ذر، ونسبوا موقف أبي ذر إلى مخطط يهودي، كان ينفذه عبد الله بن سبأ ــ (ابن السوداء) ــ فيقول: أما الذين يعذرون عثمان في موقفه من أبي ذر، «فانهم قالوا: لما ورد ابن السوداء إلى الشام لقي أبا ذر، فقال يا أبا ذر، ألا تعجب من معاوية يقول: المال مال الله؟! ألا إن كل شيء لله؟!! كأنه يريد أن يحتجنه ــ (يختص به) ــ دون الناس، ويمحو اسم المسلمين!! فأتاه أبو ذر، (أي أتى معاوية)، فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله الساعة؟!! قال: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله، والمال ماله؟! قال: فلا تقله. قال: سأقول مال المسلمين.

وأتى ابن السوداء أبا الدرداء، فقال له مثل ذلك، فقال: أظنك يهودياً، فأتى «عباده بن الصامت»، فتعلق به عبادة، وأتى به معاوية، فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر»(٢).

ونحن لا نميل إلى موقف ابن الأثير هذا، بل نرفضه لأسباب كثيرة، في مقدمتها:

أولاً: أنه لا يصح في اعتباره أن التطورات التي طرأت على الحياة العربية الإسلامية في ذلك التاريخ، من الطبيعي، بل ومن الضروري أن تثير اختلافات في وجهات النظر بين الناس، وأن هذا الاختلاف طبيعي تماماً، بل ضروري، خصوصاً في بيئة يشجع الفكر الإسلامي فيها الناس على التفكير بحرية، ويرى أن الإنسان فيها حر مختار، وموقف ابن الأثير هذا يفضي ــ ضمن ما يفضي ــ إلى جعل التفكير الاجتماعي وقفا على اليهود، من دون العرب والمسلمين المخلصين لتعاليم الإسلام؟!

وثانياً: إن تصور ما حدث بين أبي ذر وعثمان على أنه اختلاف في وجهات النظر بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أكرم وأليق بهذه الصفوة من الناس، من تصور أبي ذر ــ ومكانته عالية بشهادة الرسول ــ ألعوبة في يد بعض الذين أسلموا من اليهود.

وثالثاً: إن قصة عبد الله بن سبأ، برمتها، ومن أساسها، موضع شك وجدل بين الباحثين في تاريخ هذه الفترة من فترات حكم الإسلام والمسلمين، وهناك من يراها مجرد «مِشْجَب وهمي»، اخترعها البعض ليعلق عليها الأخطاء، ويصرف بها نظر البحث والباحثين عن رؤية التطورات التي حدثت في المجتمع والخلافات التي ثارت فيه في ذلك الحين..(٣).

(١) تاريخ الأمم والملوك ج٥، ص ٦٧، ٦٦.
(٢) الكامل في التاريخ، ج٣، ص٥٥.
(٣) د. طه حسين، كتاب الفتنة الكبرى ج١ (عثمان).

ورابعاً: إن قصة الخلاف بين أبي ذر وعثمان حول قضايا المال والفقر والغنى سابقة على ذهاب أبي ذر إلى الشام، وعلى هذا اللقاء المزعوم بينه وبين ابن السوداء، كما سيتضح ذلك ــ من الأحداث وترتيبها التاريخي ــ بعد قليل. . وهو أمر يهدم هذه الدعوى من الأساس

ولذلك فنحن نميل إلى رأي الفريق الآخر من المؤرخين ــ المسعودي مثلاً ــ الذي يصور الأحداث التي وقعت بين أبي ذر وبين عثمان ومعاوية باعتبارها أموراً طبيعية أثمرتها تطورات شهدتها حياة المجتمع يؤمئذٍ. . فهو مجتمع، وهم بشر، والأليق بهم النظر إليهم وإلى خلافاتهم وصراعاتهم في هذا الإطار وبهذا المنظار.

الصدام مع عثمان ومعاوية

في المدينة:

كان أبو ذر قد اتخذ لنفسه سبيلاً قرر أن لا يحيد عنها، وهي الخروج من الدنيا فقيراً كحاله يوم ودع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما مات، وكان دائم الترديد لحديث الرسول الذي يقول فيه: «إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئته يوم تركته فيها». وعندما كان أبو ذر يردد هذا الحديث، كان ينظر إلى صحبه الذين أخذوا يجمعون الحظوظ من متاع الدنيا، ويغمزهم، ويقول لهم: «والله ما منكم أحد إلا وقد نشب فيها بشيء غيري! . .». . وكان أيضاً دائم التحذير والإنذار للذين يجمعون الأموال ويصرفون في سبيلها جهداً كبيراً، فيذكر لهم قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن المكثرين من المال وكيف «أن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة»، إلا من انفق ما تحصل له من المال ذات اليمين وذات الشمال، دون كنز أو إمساك أو احتكار).

ولقد أخذت أقوال أبي ذر هذه ومواقفه تؤذي الكثيرين، ورفعت إلى عثمان بن عفان العديد من الشكاوى ضد الرجل، فأصدر عثمان، أمراً إلى أبي ذر ينهاه فيه عن الجلوس «للفتوى» بين الناس. . ولكن أبا ذر عصى أمر عثمان، واستمر في عقد المجالس للناس، يروي فيها الأحاديث ويفتي فيما يعرض عليه من الأمور، ويروي «ابن سعد» في طبقاته كيف وقف رجل على أبي ذر فقال له: ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا؟! فقال له أبو ذر: والله لو وضعتم الصمصامة ــ (السيف) ــ على هذه (وأشار إلى حلقه)، على أن أترك كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنفذتها قبل أن يكون ذلك!» [1].

ولم يكن تصدي أبي ذر للفتيا بالأمر الذي يحدث فقط بعيداً عن عثمان، بل وفي مجلسه وحضرته كذلك. . ولقد ثار النقاش والجدل يوماً في مجلس عثمان حول أمرين يتعلقان بالأموال والثروات. .

أولهما: خاص بما على الإنسان في ماله. . هل عليه الزكاة فقط؟ أم ما هو أكثر من ذلك؟!

وثانيهما: مدى حرية الخليفة والسلطة الحاكمة في التصرف في أموال الدولة بالأخذ والاعطاء؟؟

وكان رأي أبي ذر إلى جانب فرض ما هو أكثر من الزكاة في أموال الناس، وضد إطلاق اليد لعثمان وولاته في التصرف بالأموال. . ووقف مع عثمان، ضد رأي أبي ذر، أُناس تزعمهم «كعب الأحبار» الذي أغلظ له أبو ذر القول، واستخدم ضده عصاه، فدفع بها في صدر «كعب»؟! وكان هذا الصدام أول موقف عنيف يقفه أبو ذر الغفاري من السلطة الممثلة يومئذٍ في عثمان بن عفان، مما أدى إلى غضب عثمان منه وعليه، فطلب منه مغادرة

(١) طبقات ابن سعد، ج٢، ق٢، ص ١١٢.

المدينة، فخرج منها أبو ذر إلى الشام. . والمسعودي يحكي لنا ما حدث يومئذٍ في مجلس عثمان، فيقول:

«قال عثمان: أرأيتم من زَكّى ماله، هل فيه حق لغيره؟؟
فقال كعب: لا، يا أمير المؤمنين.

فدفع أبو ذر في صدر كعب، وقال له: كذبت يا بن اليهودي. . ثم تلا: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب. . الآية). .

فقال عثمان: أترون بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا، ونعطيكموه؟
فقال كعب: لا بأس بذلك.

فرفع أبو ذر العصا، فدفع بها في صدر كعب، وقال: يا بن اليهودي ما أجرأك على القول في ديننا؟!

فقال عثمان: ما أكثر أذاك لي!! غيب وجهك عني فقد اذيتنا. . فخرج أبو ذر إلى الشام. .»[1].

فهو إذا أول قرار يصدره عثمان بن عفان «بنفي» أبي ذر من المدينة. . ولم يحدد له عثمان المكان الذي يذهب إليه. . واختار أبو ذر الشام، لحكمة لعلها أن الرجل قد كان يريد التشديد من حملته ضد التحولات الاجتماعية التي كانت آخذة في الظهور والتفشي يومئذٍ، وصد من كان يرى انحرافهم من ولاة عثمان على الاقاليم، وفي مقدمتهم والي الشام معاوية بن أبي سفيان. . فهو «نفي» عن المدينة العاصمة، ولكنها رحلة ثائر إلى ميدان أكثر خطراً واحتياجاً إلى الثوار. .

في الشام

وفي الشام وجد أبو ذر أن الأمر أخطر مما هو عليه في المدينة فلم تكن بساطة الحياة العربية هي الأمر السائد كما هو حال المدينة، ولم تكن القاعدة هي الجماعية، والمساواة، والشذوذ هو الاستئثار والتفاوت في الثروات كما هو الحال في العاصمة. . وإنما كان العكس هو السائد في الشام. . فلقد كانت هذه الولاية قد تحولت إلى صورة «عربية إسلامية» لما كان عليه نظام الحكم، أبهة وفخامة، أيام قيصرية الرومان البيزنطيين.

ولقد أتاح عهد عثمان لمعاوية في الشام أن يستكمل كل أُبهة الملك: وأن يبلغ بالأمر كل المدى الذي أراد. . ووجد أبو ذر أن القضايا التي كانت لا تزال محل جدل في المدينة قد حسمت في الشام، فلقد كان معاوية يتصرف في مال الإمارة بحرية مطلقة، ويسميه «مال الله». . وكانت قد نبتت بذور ترى في الخليفة ــ ومن ثم في نوابه ــ ظلاً لله في الأرض، ومن ثم فإنهم أحرار في تصرفاتهم، لا رقابة عليهم من البشر ولا قيود. . فاعترض أبو ذر على معاوية، وطلب إليه أن يتصرف كأمير قد وكلت إليه رعاية «أموال المسلمين» فهي لهم، وهم أصحاب الأمر والنهي فيها؛ وكان يعنف معاوية ويقول له: «يا معاوية. . لقد أغنيت الغني وأفقرت الفقير!».

ومضى أبو ذر يحدِّث الأغنياء من الناس عن أن جمعهم للمال وحجبه عن مصارفه إنما هو «كنز» و«احتكار» وإذا كان القرآن قد وعد (الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) بعذاب أليم، فلقد أخذ أبو ذر يخطب في مجتمعات الشام ويقول: «يا معشر الأغنياء: واسوا الفقراء. . بَشِّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى

(١) مروج الذهب ج٢، ص ٣٤٨، ٣٤٩.

بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » واستمر في دعايته وإثارته هذه للفقراء ضد الأغنياء، حتى تبلورت حركة جماهيرية عمادها الفقراء، ثم استمر الأمر في التصاعد حتى أخذ هؤلاء الفقراء بزعامة أبي ذر ينفذون أفكارهم وآراءهم بأيديهم، ويضعون تعاليم أبي ذر في التطبيق والممارسة رغماً عن سلطة الدولة وجهاز حكم معاوية بن أبي سفيان.. وابن الأثير يذكر ذلك بقوله: «ما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وشكا الأغنياء ما يلقون منهم».

وسلك معاوية مع أبي ذر سبيل التهديد، وقال له: يا أبا ذر «خير لك أن تنتهي عما أنت فيه!» ولكن الرجل لم يعبأ بهذا التهديد وقال لمعاوية: «والله لا أنتهي حتى توزع الأموال على الناس كافة؟!».. وعند ذلك لجأ معاوية إلى حيلة أخرى أراد بها أن يفسد ما بين أبي ذر وبين أنصاره وحزبه من الفقراء، وذلك في محاولة لإيهامهم أن الرجل ممن يتلقى منه الهدايا والصلات، فبعث في جنح الظلام أحد رسله يحمل ألف دينار لأبي ذر. وفي الصباح، بعث إليه ثانية نفس الرسول يخبره أن العطاء لم يكن له، وأنه قد أخطأ الطريق إليه، ويقول له: يا أبا ذر «أنقذ جسدي من عقاب معاوية، فإنه أرسلني إلى غيرك، وإني أخطأت بك».. ولكن أبا ذر كان قد أنفق **الدنانير الألف على الفقراء قبل أن يطلع عليها عنده الصباح ــ فطلب** من رسول معاوية التأخير ثلاثة أيام حتى يجمعها له ممن أخذوها من الفقراء.. وعندما عاد الرسول الى معاوية بالقصة، أدرك أن الرجل عَصِيّ على أن تنال منه هذه الأساليب، وذلك لأن «فعله يصدق قوله» في قضايا الأموال والثروات.

وعند ذلك قرَّ قراره على ضرورة إخراجه من الشام، فكتب إلى عثمان يصوِّر له حال أبي ذر مع الفقراء، وكيف أصبحت الشام في حالة ثورة حقيقية، فقال: «إن أبا ذر قد ضيق عليَّ.. وقد كان كذا وكذا، للذي يقوله الفقراء.. تجتمع إليه الجموع، ولا آمن أن يفسدهم عليك. فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك؟!».. فاستجاب عثمان لرجاء معاوية مخافة الثورة ــ (الفتنة) ــ في الشام، ووافق على عودة أبي ذر ثانية إلى المدينة وهو الذي طلب منه الخروج منها.. وكتب إلى معاوية يطلب معالجة الأمر برفق، فالثورة التي أشعلها أبو ذر على وشك الاندلاع، فقال: «إن الفتنة قد أخرجت خطمها ــ (أنفها) ــ وعينيها، ولم يبق إلا أن تثب، فلا تنكأ القرح.. وكفكف الناس ونفسك ما استطعت..!!».. وطلب عثمان من معاوية أن يجهز أبا ذر، وأن يبعثه إلى المدينة بصحبة «مرافق»؟!..

واتخذ معاوية من أمر عثمان سبيلاً للانتقام من أبي ذر، فأركبه بعيراً ضامراً على ظهره فراش يابس يدمي فخذي الراكب ــ «قتب يابس» ــ وأوصى به خمسة من الجنود الصقالبة ذوي المهارة في العدو ومسابقة الريح «يطيرون به، حتى أتوا المدينة وقد تسلخت بواطن أفخاذه، وكاد أن يتلف..!!».. وأراد كذلك أن يسيء إلى سمعة الرجل ونزاهته، فأخرج أهله ليلحقوا به، وفي متاعهم جراب ثقيل يشد يد حامله، وجمع الناس ليروا أهل أبي ذر، حتى يوهمهم أن في متاع الرجل أموالاً يحملها ذووه، وقال للحضور: «انظروا إلى هذا الذي يزهد في الدنيا؟!. ما عنده؟؟!!» ولكن امرأة أبي ذر خاطبت الناس قائلة: إن ما نحمل ليس دراهم ولا دنانير، ولكنها «فلوس» ــ (فكة) بلغة عصرنا ــ كان أبو ذر يعطيها لبيته من عطائه الذي يناله من بيت مال المسلمين.

وعندما لقي الناس أبا ذر بالمدينة، وهو على حافة الموت من رحلته القاسية هذه، قال له بعضهم: «إنك تموت من ذلك»، ولكن الرجل أنكر عليهم هذه النبوءة بالنهاية القريبة، وقال لهم إن طريق الجهاد لا يزال طويلاً أمامه: «هيهات.. لن أموت حتى أُنفى؟!» ثم ذكر لهم أن أمامه من المتاعب أكثر من ذلك الذي وقع به حتى الآن!..[1].

في المدينة.. مرة ثانية

حاول عثمان أن يخفف عن أبي ذر، فاستضافه في داره عدة أيام، وأحسن إليه فيها، حتى استرد شيئاً من عافيته.. وكان عثمان يرجو ويأمل أن يفتح بذلك صفحة جديدة مع أبي ذر.. ولكن ذلك لم يحدث، فلقد تجدد النزاع وبدأ الصراع من جديد..

ففي أول جولة لأبي ذر في المدينة بعد عودته إليها رأى تلك المباني الفخمة التي استحدثها الأغنياء في شكل دور وقصور، ورأى امتدادات المباني وقد صنعت «ضواحي» للعاصمة، يسكنها هؤلاء الذين كانت حياتهم الجديدة موضع نقده السديد. وعندما تحقق أبو ذر أن المباني الجميلة لقصور الأغنياء قد بلغت إلى مكان «جبل سلع» قفزت إلى ذاكرته نبوءة الرسول عليه الصلاة والسلام، التي قال فيها لأبي ذر إن ذلك سيكون إيذاناً باختلافه مع القوم، وإنكاره عليهم نمط حياتهم الجديدة، وتوالي الأحداث التي ستفضي به إلى منفاه حيث «يموت وحده».. فأخذ أبو ذر في الطواف على مجتمعات العاصمة، محذراً قائلاً: «بَشِّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار؟!».. وقرر الرجل أن يكرر بذل النصح لعثمان، فدخل عليه يوماً «فجلس على ركبتيه»، وأخذ يحدث عثمان عن تلك النبوءة التي طالما حذرت من صنيع بني أُمية إذا اجتمع لهم الأمر وزادت قوة عصبيتهم، وبلغ «ولد أبي العاصي ثلاثين رجلاً» لأنهم عند ذلك سيتخذون «عباد الله خولاً» ــ (خدماً) ــ.

ووجد عثمان أن أبا ذر قد عاد إلى عهده القديم، وأنه قد أصبح يمارس في المدينة ما كان يمارسه فيها قديماً، وما مارسه في الشام من الإثارة والتحريض، ففتح معه الحديث عن ما أحدثه بالشام، وقال له: يا أبا ذر «ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك؟» وعندما أخبره أبو ذر بدوافعه إلى موقفه هذا.. قال عثمان: «يا أبا ذر، علي أن أقضي ما علي وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد وما عليّ أن أجبرهم على الزهد..».. ولكن أبا ذر لم يرض بقول عثمان هذا، فلم يكن الأمر في نظره أمر «زهد» لا يستطيع الخليفة أن «يجبر» الناس عليه، وإنما كان أمر أغنياء يزدادون غنى وفقراء يتسبب في فقرهم هؤلاء الأغنياء، وأمر حقوق لهؤلاء الفقراء في أموال الأغنياء تتعدى مقدار الزكاة، فقال لعثمان: إنني أرى «ألا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران والإخوان ويصلوا القربات».

وتصادف في لقاء أبي ذر هذا مع عثمان أن أحضرت إلى عثمان أكياس النقود التي أخذت من تركة عبد الرحمن بن عوف الزهري، وكانت عظيمة بلغت من الكثرة حداً جعلها تحجب الرؤية بين عثمان وجلسائه.. ودار الحديث من حول هذه الثروة التي جمعها ابن عوف، ومدى تطابق سلوكه هذا مع السلوك النموذجي لصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. وانحاز عثمان ومعه «كعب الأحبار» إلى صف الدفاع عن عبد الرحمن بن عوف، لأنه كان يؤدي فريضة الزكاة «ومن أدى الفريضة فقد قضى ما عليه».. واعترض أبو ذر على موقفهم هذا، وعندما أمّن «كعب الأحبار» على قول عثمان: إن الله قد أعطى لابن عوف خير الدنيا والآخرة، فقال: «صدقت يا أمير المؤمنين»، غضب أبو ذر، وتحامل على آلامه، ورفع عصاه **فضرب بها رأس «كعب الأحبار» وقال له: «يا ابن اليهودي»، تقول لرجل مات وترك هذا المال: إن الله أعطاه خير الدنيا والآخرة؟! وتقطع على الله بذلك؟! وأنا سمعت**

(١) الكامل، في التاريخ، ج٣، ص ٥٥، ٥٦ ومروج الذهب ج٢، ص ٣٤٩.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول. «ما يسرني أن أموت وأدع ما يزن قيراطاً»؟! فغضب عثمان من أبي ذر، واسترضى خاطر كعب الاحبار وطلب منه التنازل له عن ضرب أبي ذر له، ففعل.. ثم طلب، غاضباً، من أبي ذر أن يغادر المدينة، قائلاً له: «وارِ عني وجهك!!..

«فقال أبو ذر: أسير إلى مكة؟

قال: لا والله.

قال: فتمنعني من بيت ربي أعبده فيه حتى أموت؟!

قال: أي والله.

قال: فإلى الشام؟

قال: لا والله.

قال: البصرة؟

قال: لا والله، فاختر غير هذه البلدان.

قال: لا والله ما أختار غير ما ذكرت لك، ولو تركتني في دار هجرتي (المدينة) ما أردت شيئاً من البلدان، فسيِّرني حيث شئت من البلدان.

فقال: فإني مسيِّرك إلى الربذه»[1]..

ورواية المسعودي هذه تختلف مع ابن الأثير.. ففيها ان عثمان هو الذي حدد لأبي ذر مكان منفاه، أما ابن الأثير فإنه يمثل وجهة النظر التي ترى أن أبا ذر هو الذي اختار لنفسه هذا المكان، وهو الذي «نفي نفسه اليه» احتجاجاً على الأوضاع التي ثار عليها.. وملابسات القضية وقرائن أحوالها تشهد لرواية المسعودي ضد ابن الأثير، وذلك لأسباب منها:

أولاً: إن تسلسل الأحداث التي جرت بين أبي ذر وعثمان في المدينة أولاً، وفي الشام مع معاوية، ثم في المدينة ثانياً.. كلها تحكي أن أبا ذر كان يجبر ــ وأحياناً بالقوة القاهرة ــ على مغادرة المكان الذي يمارس فيه الموعظة والإثارة والتحريض.

وثانياً: إن شخصية أبي ذر النضالية ليست بالتي تنسحب من بين الناس إلى مكان منعزل في الصحراء، حتى ولو كان هذا الانسحاب تعبيراً عن الاحتجاج والغضب والرفض لنمط الحياة الذي أخذ يسود في ذلك الحين.. فلقد كان الرجل ولوعاً بجماهير الفقراء، كما ولعت به هذه الجماهير.

وثالثاً: إن الربذة «كانت قرية معزولة عن قرى المدينة، ولم تكن الحياة بها مرغوبة ولا محبوبة، حتى لزاهد مناضل كأبي ذر.

ولقد روى ابن الأثير نفسه أن أبا ذر كان يخشى على نفسه من العيش في «الربدة» أن يرتد ــ بفعل بيئتها ــ اعرابياً قد انسلخ عنه التطور الذي ألحقه الإسلام بعقول الناس وحياتهم، فكان يتردد على المدينة حتى يظل على صلة بحضارتها.. وعبِّر ابن الأثير عن هذا الموقف بقوله: «وكان أبو ذر يتعاهد المدينة مخافة أن يعود أعرابياً!!».

ولقد تلقى أبو ذر قرار عثمان هذا ببشر يعبر عن التحدي.. وأخبر عثمان بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تنبأ له بهذا المصير..

ولقد أمر عثمان الناس في المدينة بتجنب أبي ذر حتى يغادرها، وأن يتجافوه، فلا يخرج أحد منهم لوداعه، وأمر أحد أقاربه (مروان) أن يكون في صحبة أبي ذر وابنته حتى يوصلهم إلى مستقرهم الجديد. ولكن بعض الصحابة قد غضبوا من موقف عثمان هذا، فخرج نفر منهم خلف علي بن أبي طالب، وفيهم الحسن والحسين، وعقيل بن أبي طالب، وعبد الله بن جعفر، وعمار بن ياسر ــ لوداع أبي ذر، مخالفين بذلك أمر عثمان..

وعندما التقى ركب علي بن أبي طالب هذا بركب أبي ذر، اعترض عليهم «مروان» فقال: يا علي، إن أمير المؤمنين، قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيرة ويشيِّعوه، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك.. فحمل عليه علي بن أبي طالب بالسوط، وضرب بين أذني راحلته، وقال: تنحَّ نحاك الله إلى النار!، ومضى مع أبي ذر فشيعه، ثم ودعه وانصرف.. فلما أراد الانصراف بكى أبو ذر تأثراً، وهو يبصر غياب ركب ابن عم الرسول!!.

وذهب «مروان» فشكا إلى عثمان ما فعله به علي بن أبي طالب، فغضب عثمان، وشكا إلى من حضر مجلسه من المسلمين قائلاً: «يا معشر المسلمين.. من يعذرني من عليّ؟! رد رسولي عما وجهته له، وفعل كذا؟! والله لنعطينه حقه!!».. وذهب الناس من عند عثمان إلى عليّ يخبرونه بغضبه عليه، فوصف علي هذا الغضب بأنه «غضب الخيل على اللجم». معللاً بذلك موقفه من القضية برمتها، وكيف أن موقفه إنما هو موقف الناصح الأمين، وفعله إنما هو فعل «اللجم» تمنع الخيل من الجموح، فتحفظ للخيل سلامتها!.

ويروي المسعودي قصة اللقاء العاصف بين علي وعثمان حول هذا الموضوع، وهو اللقاء الذي اشتكى بعده عثمان من علي وقال: «إنه يعيبني ويظاهر من يعيبني».. وظل عليّ على موقفه، وقال لعثمان: «ما أردت بتشييع أبي ذر إلا الله تعالى».

وأخيراً استقر المقام بالثائر الكبير والصحابي الجليل، وأصدق الناس لهجة ومقالاً في «الربذه» منفاه الجديد والأخير، ولم يعدم الأمر قافلة تمر فيلقاه ركبها ليسمع منهم ويسمعون عنه.. فبنى «بالربذة» مسجداً، وهناك عاش من سنة ٣٠هـ حتى توفي في سنة ٣٢هـ، محققا بذلك نبوءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما قال: يرحم الله أبا ذر، يعيش وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».. ومحققاً بذلك أيضاً نموذج الإنسان المسلم الذي استطاع أن يوحد توحيداً نموذجياً، ويمزج مزجاً رائعاً ما بين سلوكه العملي في الحياة والأفكار التي آمن بها والتي دعا إلى تطبيقها في هذه الحياة.

* * *

السيد جواد بن إبراهيم بن محسن الحسيني الرامسري:

ولد في جمادى الثاني ١٢٥٠ في رامسر وتوفي في رامسر بعد سنه ١٣٠٦.

ولد في تشبرسر من ضواحي رامسر ونشأ بها ثم بدأ بقراءة المقدمات وبعد ذلك هاجر إلى أصفهان وانشغل بتعلم الفلسفة والطب حتى أصبح طبيباً ماهراً ثم رجع إلى موطنه وانشغل بالطبابة والتأليف ومن مؤلفاته:

١ ــ رسالة في علاج مرض الطاعون.

٢ ــ شرح أطعمة المرضىٰ لابقراط.

٣ ــ رسالة في شرح ماهية الوجود في الفلسفة لم يتم.

٤ ــ رسالة في تقويم الأبدان.

٥ ــ رسائل متفرقة في الطب.

وكان له عدة أولاد منهم السيد حسن الحكيم[1].

الشيخ جواد بن الشيخ علي بن الشيخ محمد «حُميد» بن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر:

توفي ليلة الأحد الخامس والعشرين من صفر سنة ١٣٥٥ ودفن في

---

(١) مروج الذهب ج٢، ص ٣٤٩، ٣٥٠

(١) الشيخ محمد السمامي.

مقبرتهم. عالم فاضل رجل الأسرة في عصره ولسان النجف وساعدها.

عمرّ مرقد جده صاحب الجواهر سنة ١٣٢٨ وارّخ ذلك بعض الأدباء بتاريخ منقوش بالحجر الكاشي:

بوركت من بقعة فيها زهت ... روضة الهادى علي بن محمد
شادها الندب «جواد» فغدت ... فيه آثار علي تتجدد

وهناك بيتان آخران:

بجدك يا أبا حسن «جواد» ... رفيع مقام جدك قد تسامىٰ
كسبت علاً فارخنا وفاءاً ... لأهل البيت حسنت المقاما

وعمر مسجد جده فارّخ ذلك الشيخ جعفر محبوبة:

حاز الجواد الفضل من معشر ... هم منية الراجي وهم آمنه
قد شاد بالعزم له مسجداً ... قام علىٰ هام السهىٰ حصنه
تم بأقصىٰ اليمن تاريخه ... (شيد على أس التقىٰ ركنه)

وفيه إشارة إلى اضافة خمسين وهي النون.

رثاه شاعر العرب محمد مهدي الجواهري بقصيدة مطلعها:

هتفوا فاسندت اليدان ضلوعي ... وشرقت بالجمرات قبل دموعي

ورثاه الشيخ عبد المهدي مطر بقصيدة مطلعها:

كيف ارتحالك والبلاء مرفرف ... وإلىٰ م مفزعها قلوب وجف
وعلىٰ م بعدك من عماد تتكي ... قلب يطير ومهجه تتخوف[1]

الشيخ جواد بن قاسم المجد الابكائي الرامسري:

ولد حدود ١٢٩٥ وتوفى ١٣٧٠ في رامسر.

ولد في رامسر وأخذ المقدمات بها ثم ذهب إلى مشهد الرضا عليه السلام وبقي هناك منشغلاً بالتحصيل عند اعلامها وفي سنة ١٣٢٧ رجع إلى موطنه وانصرف إلى الوعظ والخطابة واشتهر بذلك وكان لـه قريحة شعرية ينظم الشعر باللغة الفارسية[2].

الشيخ جواد بن محمد بن رحيم بن منصور بن رحيم السمامي الرامسري:

ولد في رامسر حدود سنة ١٢٥٠ وتوفي سنة ١٣١٥ في رامسر.

ولد في بيت علم ومجد وينتهي نسب هذه الأسرة (السمامي) إلى فناخسرو عضد الدولة البويهي وكان أجدادهم يحكمون في مدينة سمام ونواحيها وكانت سمام عامرة إلى انقراض الدولة الصفوية ثم تمرد حاكمها منصورخان بن رحيم على حكومة نادرشاه فهجم جيش نادرشاه عليهم وفتحها ثم أمر بنهب أموالها وتهديم بيوتها وإحراقها فتفرق أهاليها وأصبحت المدينة مهجورة لم يبق فيها إلاّ قليل من سكانها. وتشتت أولاد منصور خان وأقاربه وسكن بعضهم في رامسر ولهم أحفاد ولهم القاب مختلفة ويسكن قسم منهم في بعض مدن جيلان وبرز من هذه الأسرة فضلاء وعلماء والشيخ جواد كان من المدرسين الفضلاء وكان يدرس في مدارس رامسر وله عدة اخوان فضلاء[3].

المولى حبيب الله بن المولى قربان علي بن عبد الله بن منصور بن رحيم السمامي الرامسري:

ولد حدود ١٢٤٥ في مدينة رامسر وتوفى في ١٣٠٢ في رامسر ودفن في قم في مقبرة ابن قولويه.

نشأ في حجر ابيه وتعلم القراءة والكتابة ثم دخل مدرسة السيد مرتضى بن السيد هادي الحسيني فقرأ المقدمات بها ثم هاجر إلى النجف الأشرف ولازم بحث الشيخ مرتضى الأنصاري ورجع إلى موطنه وأنشأ مدرسة علمية في (تارنج بن) وانشغل بالتدريس وقضاء حوائج العامة وكان يقضي شطراً من أوقاته في الزراعة. وكانت له مؤلفات نعدمت بعد وفاته[1].

حسن بن أبي الحسن التنكابني:

توفي بعد سنة ١٣١٢.

ولد في تنكابن وتعلم المبادىء والمقدمات بها ثم انصرف إلى تعلم الطب وبرع بذلك ــ ثم أخذ يتنقل بين بعض البلدان للتطبيب.

له تأليفات منها كتاب كبير في تشريح الأمراض وكتب بعض مذكراته في ظهر الكتاب[2]

السيد حسن بن جواد بن إبراهيم بن محسن الحسيني التشيرسري الرامسري:

ولد في سنة ١٢٨٣ في رامسر وتوفى ٢١ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٦٠ في رامسر.

تعلم القراءة والكتابة في رامسر والمقدمات عند والده والفضلاء في مدارس رامسر، وفي سنة ١٢٩٨ دخل مدرسة الميرزا محمد التنكابني صاحب قصص العلماء في قرية سليمان آباد فدرس عليه وفي سنة ١٣٠٠ ذهب الى مازندران ودخل مدرسة الحاج أشرفي المازندراني واشتغل عنده في الفقه والأصول وفي سنة ١٣٠٤ ذهب إلى طهران ودخل مدرسة دار الشفاء واشتغل في الفقه والأصول والفلسفة والعرفان، وكان يحضر في الفقه والأصول على السيد محمد تقي التنكابني والفلسفة على الميرزا أبي الحسن الجلوة وفي سنة ١٣١٤ دخل جامعة دار الفنون وحصل على شهادة الدكتوراه في الطب ثم هاجر إلى مشهد الرضا وسكن بها حتى سنة ١٣٢٢ مشتغلاً بالطب ثم رجع إلى طهران ومنها إلى موطنه ثم انتقل إلى رشت وبعد مدة عاد إلى رامسر مشتغلاً بالطب وبالتأليف حتى وفاته.

له مؤلفات منها:

١ ــ كتاب في الطب على نمط القانون بعنوان (وسيلة الطبيب).

٢ ــ (علم شيمي) في الكيمياء وصناعة الأدوية.

٣ ــ (الأمراض) ــ وهي ستة رسائل[3].

السيد حسن بن السيد عبد الله الموسوي الأحسائي الجُبَيلي البصرىٰ.

ابن علم الدين علي المرتضى النسابة بن جلال الدين عبد الحميد بن فخار شمس الدين بن معد بن فخار بن أحمد بن أبي الغنائم محمد بن الحسين الشيتي بن محمد الحائري بن إبراهيم المجاب بن محمد العابد بن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

من أعلام القرن التاسع أو العاشر الهجري.

وهو جد لثلاث أسر علوية كبيرة في العراق. هم:

١ ــ السادة «العواديّون» في العراق أجمع.

٢ ــ «آل السيد سلمان» في النجف.

٣ ــ «آل السيد درويش».

ومن أحفاد المترجم له العالم الزاهد السيد هاشم الحطّاب النجفي المتوفى سنة ١١٦٠هـ، وهو ابن محمد بن عوّيد بن محمد بن عَوّاد الكبير بن علي بن المترجم له.

---

(١) الشيخ محمد السمامي.
(٢) الشيخ محمد السمامي.
(٣) السمامي.

(١) الشيخ محمد السمامي.
(٢) السيد هاشم الشخص.
(٣) الشيخ محمد السمامي.

انفرد بذكر المترجم له الشيخ محمد حرز الدين في (مراقد المعارف) فقال:

«كان السيد حسن الجبيلي جليلاً محترماً كريماً له دار ضيافة تجتمع إليه الأعراب فيها، وتنذر له النذور، وتصل إليه الصلات والهدايا من الوجوه والرؤساء في حياته وبعد مماته ــ كما سمعت ــ».

هاجر من (الأحساء) إلى (البصرة) وتوطن قرية (الجبيلة) ــ التي عرفت باسمه حتى اليوم ــ. والظاهر أن (الجُبيلي) نسبة إلى (الجُبَيل) ــ من قرى الأحساء المعروفة ــ، ويبدو أنها كانت وطن المترجم له قبل نزوحه إلى العراق.

وفي (الجُبَيلة). أقام المترجم حتى توفي، ولم تحدد سنة وفاته، وقبره فيها لا زال معروفاً مشهوراً، وفي (مراقد المعارف): «على قبره اليوم صندوق وشباك تظله قبة بيضاء ويحوطه صحن، تزوره الأعراب بكثرة وتنذر له النذور، تتحاماه الأعراب من الحلف به. ويسميه السواد اليوم (ظاهر بن علي)، ويظن أن السواد يسمونه باسم قيمة الأول ظاهر بن علي..».

بقي أن نشير هنا إلى أن المترجم له لم يكن من العلماء، وإنما ذكرته في قسم العلماء لجلالة قدره وعظيم شأنه ولأنه المكان الأنسب لترجمته بعد أن لم يكن داخلاً في باب الشعراء والخطباء والمؤلفين[1].

الشيخ حسن بن الشيخ علي نقي بن الشيخ حسن بن الشيخ محمد صالح الحائري آل الصالحي:

المولود في كربلاء سنة ١٣١٠هـ والمتوفى يوم الاثنين الخامس من شهر شعبان سنة ١٤٠١هـ في طهران والمنقول جثمانه إلى مقبرة الأسرة في قزوين في روضة الشاه زادة حسين بن الإمام الرضا عليه السلام.

كان من شيوخ العلماء المبرزين النابهين ومثالاً للورع والتقوى مجاهداً ثائراً، قرأ المقدمات وشطراً من السطوح على علماء كربلاء الأعلام ثم لازم الشيخ عيسىٰ بن الشهيد البرغاني المتوفى سنة ١٣٣٩هـ وهاجر معه إلى قزوين ثم رجع بعد مدة إلى مسقط رأسه كربلاء وحضر على الميرزا محمد تقي الشيرازي زعيم الثورة العراقية الكبرى واختلط برجال العلم وشارك في الثورة مشاركة فعالة وكان أمين سر قيادتها وحين حاول الإنكليز القبض عليه تمكن من الهرب إلى إيران ثم عاد إلى كربلاء وفي أحداث فلسطين كان له صوت مدو في محاربة الصهيونية، وأعلن خطر اليهود في فلسطين، كما كان له مخطط عسكري ضد الصهاينة في فلسطين واتصل برؤساء العشائر العراقية الذين كان له معهم علاقات ودية من أيام ثورة العشرين وطلب منهم شن حرب شعبية ضد اليهود المعتدين وفي العقد الثالث من عمره انصرف إلى الإعتكاف والعبادة والانقطاع تارة في كربلاء وطوراً في مكة المكرمة والمدينة المنورة وزماناً في سامراء وحين اندلعت الفتنة في العراق ضد الشيعة وعلمائها سنة ١٣٩١هـ توجه المترجم له إلى إيران وسكن طهران حتى وفاته ورثاه جماعة من الشعراء منهم السيد جليل الزرابادي مؤرخاً وفاته بقوله:

تلفظ شدجوا ين آية بتعظيم ورود جنتش آمد بتكريم

«إن المتقين في جنات ونعيم» ١٤٠١هـ

له مؤلفات منها: كتاب الغرر والدرر في مجلدين ضخمين المجلد الأول بالعربية والمجلد الثاني بالفارسية جمع فيهما جملة من الحكم والأمثال والأشعار والحوادث التاريخية وتراجم العلماء الشيعة المنسيين الذين لم يترجم لهم أحد فجمع تراجمهم وضبط تواريخهم ولم يذكر العلماء المترجم لهم في كتب السير حتى لا يكرر أعمال الآخرين. وقد عينه الشيخ حسين النائيني والسيد أبو الحسن الأصفهاني في سنة ١٣٤٥هـ بمحضر الشيخ جعفر النقدي قاضي الجعفرية يومئذ متولياً على الأوقاف بصفته أعلم علماء أسرة آل الصالحي في العراق وإيران لأنه جاء في نص الوقفيه انه عند تعدد الفقهاء في الأحفاد فالتولية بيد أعلمهم وافقههم.

وآل الصالحي فرع من آل البرغاني وهم من أعرق وأشهر الأسر العلمية نبغ منهم علماء أعلام مرت تراجم بعضهم وتاريخ الأسرة في المجلد الثاني من المستدركات (٣٠٠ ــ ٣٠٥) وكان المترجم له من أعلام اسرته المبرزين في عصره، ويمتاز بطهارة القلب وصفاء الضمير وطيب السريرة وهو والد الأستاذ الشيخ عبد الحسين الصالحي الذي عرف بدراساته التاريخية وبحوثه القيمة في التراجم، ممّا يرى القراء بعضه في هذه المستدركات إعتباراً من المجلد الثانى، وهو من أبرز كتّاب (دائرة معارف التشيع) و (دائرة معارف الاسلام) اللتين تصدران باللغة الفارسية في طهران.

الشيخ حسين بن إبراهيم بن حمزة بن خليل التنكابني:

كان من العلماء توفي بعد سنة ١٠٠٠ ولم نعلم عن أحواله شيئاً إلّا إننا اطلعنا على بعض مؤلفاته منها:

١ ــ اللآلي في شرح بدر الأمالي ــ ذكره مؤلف كشف الظنون في: ١٣٥٠.

٢ ــ غاية الأملي في شرح تصريف الأسفرجاني فرغ من تأليفه سنة ١٠٠٠.

٣ ــ شرح قصيدة العينيه ــ شرحها للسلطان مراد بن سليم العثماني[1].

الشيخ حسين بن إبراهيم التنكابني:

توفى ١٠٥١.

ذكره في الأعيان: ٤١٢/٥ بعنوان الشيخ حسين بن ابراهيم الجيلاني التنكابني ــ ثم كرّره في نفس المجلد ص ٤٦٣ بعنوان الشيخ حسين التنكابني الحكيم.

أقول: هما شخص واحد.

ثم ذكر له أربعة من مؤلفاته، وله مؤلفات أخرى غيرها منها:

رسالة في شبهة الاستلزام وجوابها.

رسالة في أصناف الناس في المعاد.

حاشية على شرح التجريد للمولى علي القوشجي.

حاشية على رسالة إثبات واجب الوجود للمولى جلال الدين الدواني.

الشيخ جمال الدين أبو محمد الحسين بن بدر بن أياز بن عبد الله البغدادي النحوي:

توفي ليلة الخميس ١٣ ذي الحجة الحرام سنة ٦٨١هـ.

من أعاظم علماء النحو وفحول أدباء الشيعة في عصره أخذ العلم عن جماعة منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن خلف بن يحيى الهاشمي البلنسي المتوفى سنة ٦٢٠هـ والتاج الأرموي وسمع من ابن القبيطي وأجاز له الشيوخ وقال هند وشاه المتوفى بعد ٧٣٠هـ في كتابه (تجارب السلف) ص ٣٤٧ ما هو تعريبه (.. وعندما افتتحت أبواب مدرسة المستنصرية في يوم الخميس ١٠ رجب سنة ٦٣١هـ ببغداد عين المترجم له مدرس النحو بتلك المدرسة وبعد وفاته تصدر كرسي تدريس النحو بها

(١) السيد هاشم الشخص.

(١) الشيخ محمد السمامي.

الشهيد مولانا رشيد الدين الرازي..) والمترجم له استاذ العلامة الحلي ووصفه في إجازته لبني زهرة الحلبيين قال (.. الشيخ السعيد جمال الدين حسين بن بدر النحوي رحمه الله كان أعلم أهل زمانه بالنحو والتصريف. له تصانيف حسنة..).

وقال السيوطي في بغية الوعاة (الحسين بن بدر بن أياز بن عبد الله أبو محمد العلامة جمال الدين كذا ساق نسبه ابن رافع في تاريخ بغداد وقال كان أوحد زمانه في النحو والتصريف قرأ على التاج الأرموي وقرأ عليه التاج بن السباك وسمع من ابن الفبيطي جزءاً ولم يحدث به واجاز له الشيوخ وكان دمث الأخلاق ومن تصانيفه قواعد المطارحة. والاسعاف في الخلاف. مات ليلة الخميس ثالث عشر ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وستمائة. وقال الصفدي: ولي مشيخة النحو بالمستنصرية. وقال الشرف الدمياطي: رأيته شاباً في زي أولاد الأجناد يقرأ النحو على سعد بن أحمد البيناني وقال أبو حيان: ابن أياز أبو تعاليل وقال ابن مكتوم: لم أطلع له على غوامض في النحو وله شرح الضروري لابن مالك. شرح فصول ابن معطي)[1] وذكره البغدادي في هدية العارفين ج١ ص ٣١٣ وحاجي خليفة في كشف الظنون وشيخنا الأستاذ في طبقات أعلام الشيعة وقال (والظاهر أنه هو استاذ العلامة الحلي..)[2] أقول لا مجال للشك حيث صرح العلامة الحلي في الاجازة لبني زهرة باسمه وكنيته وشهرته بالنحوي وذكره ايضاً صاحب الحوادث الجامعة ص ٤٢٦. ترك المترجم له مؤلفات منها كتاب الاسعاف في علم الخلاف، كتاب شرح التصريف لابن مالك، كتاب القواعد في المطارحة، كتاب المأخذ المتبع، كتاب المحصول في شرح الفصول لابن معطي في النحو، كتاب مسائل الخلاف في النحو، كتاب المطارحة[3].

الحاج حسين الحرباوي:

قال السيد علي العدناني الغريفي:

ذكره صاحب كتاب أدب الطف: وذكر أنه شاعر بغدادي وأنه رأى عدة قصائد له في مدح أمير المحمرة الشيخ خزعل المتوفى سنة ١٣٥٥ كما ذكره صاحب كتاب شعراء الحلة وعدّه منهم لأنه رأى له قصائد تبادلها مع بعض شعراء الحلة واثبت له مقطوعة في الغزل أولها:

تشعشعت فتولت عندها الظلم ... شمس براحة بدر جاء يبتسم
أهلاً به مقبلاً كالبدر حين غدا ... بين السحائب يبدو ثم ينكتم

أقول: لا أعرف سنة ولادته ولا عام وفاته إلا انه كان معاصراً للسيد عدنان الغريفي المتوفى ١٣٤٠هـ وكان يتردد على مجلسه ويحل ضيفاً عليه في مدينة المحمرة وقد مدحه بعدة قصائد، ومن مدحه له قصيدة نأخذ منها:

أتجلو صدى الأحزان عنا بطلعة ... تطلعّ من شوق إليها النواظر
تمر فتنسيني العذيب وعذبه ... وإني لأيام العذيب لشاكر
أتعبث في مجدي ومجدي مؤثل ... فكيف وذا (عدنان) للمجد ناصر
فتىً بأبيه العلم راقت رياضه ... ومن جده انثالت عليه المفاخر
له من رسول الله طيب نجاره ... ومن حيدر الكرار طابت عناصر
ومن حمزة المغوار خير ارومة ... وفي عمه الطيار اضحىٰ يفاخر
فكان وإن كان الأخير زمانه ... أوائله فيه انطوت والأواخر
فلم يخل من ذكر له كل مجلس ... ولم تخل من مثنٍ عليه المنابر
ولم تحص آثار له ومثآثر ... وإن ملئت من بعضهن الدفاتر
هو البحر علماً والمكارم مظهرا ... وواحد أهل العصر والفضل ظاهر
طبيب بأحكام الشريعة حاذق ... به كبر الإسلام والكفر صاغر
فأقلامه في المعضلات عوامل ... وارآؤه في الغامضات بواتر
يرد السهىٰ عنه حسيراً إذا رنا ... ويرجع طرف المشتري وهو غائر
ويخجل منه الغيث والغيث هاطل ... ويحجم عنه الليث والليث خادر
فيامن له بالفضل يتبع تبّع ... وفي جنب كسريه تلوذ الأكاسر
أحاول من مغناك أمراً أحدّه ... كأني أراه غائباً وهو حاضر
أيبلغ قدراً في علائك شاعر ... وأنت على الشعرىٰ بجودك عابر

وله في الإمام الحسين عليه السلام:

لنا جيرة بالأبرقين نزول ... سقى ربعهم غيث أجش هطول
تواعدني الأيام بالقرب منهم ... فتلك ديون والزمان مطول
أجيراننا ما القلب من بعد بينكم ... بسال ولا الصبر الجميل جميل
أجيراننا بالخيف ما زال بعدكم ... لنا الدمع جار والعزيز ذليل
فهيهات صفو العيش منا وللهدىٰ ... تبدد شمل واستقل قبيل
تحمّل اظعان الطفوف عشية ... واقفرن منهم أربع وطلول
ألا قاصداً نحو المدينة غدوة ... يبلّغ عني مسمعاً ويقول
أيا فتية بأن السلو ببينهم ... وجاور قلبي لوعة وعويل
رأيت نساء تسأل الركب عنهم ... تلوح عليها ذلة وخمول
تطلّع من بعد إلى نحو داركم ... بطرف يصوب الدمع وهو كليل
نوادب اقذين الجفون من البكا ... واعشبن مغنى الطف وهو محيل
نوادب أمثال الحمام سواجعاً ... لها فوق كثبان الطفوف هديل
حملن على عجف النياق حواسراً ... لها كل يوم رحلة ونزول
تجذبها السير العنيف عصابة ... لها الشرك حاد والنفاق دليل
تشيم رؤوساً كالبدور على القنا ... لهن طلوع فوقها وافول
وتبصر مغلول اليدين مصفداً ... براه من السير العنيف نحول
وتنظر ذياك العزيز على الثرىٰ ... له الليل ستر والهجير مقيل
فتدعو حماة الجار من آل هاشم ... بصوت له شم الجبال تزول
أهاشم هبّى وامتطى الصعب أنه ... لك السيران رمت العراق ذلول
أهاشم قومي وانتضى البيض للوغى ... فوترك وتر والذحول ذحول
أصبراً وانجاد العشيرة بالعرا ... على الترب صرعىٰ فتية وكهول
أصبراً ورحل السبط تنهبه العدا ... فموتك ما بين السيوف قليل
أصبراً وآجام الأسود بكربلا ... بها النار شبت والهزبر قتيل
وتلك على عجف النياق نساؤكم ... لها الله تسبىٰ والكفيل عليل
عهدتكم تابىٰ الصغار انوفكم ... واسيافكم للراسيات تزيل
فما بالكم لم تنض للثار قضبكم ... فتحمرّ من بيض الصفاح نصول
كأن لم يكن للجار فيكم حمية ... ولا كان منكم جعفر وعقيل
ألم ياتكم أن الحسين رمية ... على الترب ثاو والدماء تسيل
وكم لكم في السبي حرىٰ من الجوىٰ ... ثكول وفي أسر العدو عليل
وكم لكم في الترب طفل معفرٌ ... صريع وفي فيض الدماء رميل
وكم طفلة لليتم أمست رهينة ... وليس لها يوم الرحيل كفيل
وحسرىٰ تدير الطرف نحو حميها ... فتبصره في الأرض وهو جديل
فتذهل حتى عن تباريح وجدها ... وتنحاز للدمع المصوب تذيل
وابرح ما قد نالكم أن زينباً ... لها بين هاتيك الشعاب عويل
شكت وانثنت تدعو الحسين بعبرة ... تصدع منها شارف وفصيل
تنادي بصوت صدع الصخر شجوه ... وكادت له السبع الطباق تزول
أخيّ عيون الشرك أمست قريرة ... بقتلك قرّت والمصاب جليل
أراك بعيني دامي النحر عافراً ... عليك خيول الظالمين تجول
نعم ايقنت بالسبي حتى كانها ... لما نابها وهي الوقور ذهول

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ بيروت دار المعرفة.

(٢) الشيخ آغابزرك الطهراني: الأنوار الساطعة ص ٤٧ بيروت دار الكتاب العربي.

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

الشيخ حسين الشنب غازاني التبريزي:

ولد في شنب غازان إحدى محلّات تبريز في ١٤ محرّم الحرام سنة ١٣٠٤ وتوفّي فيها سنة ١٣٣٢.

ورد النجف الأشرف طالباً وتتلمذ لدى الاساتذة الأعلام: الآغا ضياء العراقي وشيخ الشريعة الأصفهاني والسيد أبي الحسن الأصفهاني والميرزا حسين النائيني ثم عاد إلى وطنه سنة ١٣٤٤هـ.

قال ملا علي الخياباني مؤلف كتاب «علماء معاصرين» باللغة الفارسية ما معناه: «كان رحمه الله عالماً، فاضلاً، مدقّقاً، تقياً، سليم النفس، كريماً ومفسرا بارعاً» أهـ.

شيخنا المترجم له كان من العلماء الأتقياء الأفذاذ وكان يقيم الجماعة كإمام راتب في مسجد كاكته جي في تبريز وبعد صلاة العشاء كان يلقي مباحث في تفسير القرآن الكريم وإذا ارتقى المنبر كان واعظاً مؤثراً، عديم النظير ولقد كنت أحضر أنا كطالب في عنفوان شبابي، بعض حلقات درسه في التفسير، وببالي أنّه كان من حسنات الدهر وذخائر الحوزات العلمية الإسلامية. كتب تقريرات دروس بعض أساتذته كالعلمين العراقي والنائيني في عدة مجلّدات وألّف أيضاً رسالة في اللباس المشكوك ورسالة في الاستصحاب ورسالة في التعادل والترجيح ورسالة في التعبدّي والتوصلي وغيرها[١].

الميرزا حسين الجلالي بن علي أكبر السمامي:

ولد في رامسر ١٣٢٨ وتوفي سنة ١٣٩٢ في رامسر ودفن بقم.

درس على الشيخ محمد حسين الغريب التنكابني والسيد يعقوب السجادي والسيد مهدي العلوي والشيخ عبد الله المدرس في مدارس رامسر وانصرف إلى المنبر والخطابة واشتهر بذلك وهو شاعر باللغة الفارسية وله قصائد في رثاء الحسين عليه السلام [٢].

الحاج الشيخ حسين بن محمد كاظم الأخوند الخراساني النجفي:

ولد في سنة ١٣١٨ وتوفى ٥ ربيع الأول ١٣٩٦.

ولد في النجف الأشرف ونشأ في حجر أبيه وقرأ المقدمات برعايته وبعد وفاة أبيه كفله أخوه الكبير الميرزا مهدي وقرأ السطوح على فريق من الأعلام ثم حضر بحوث الخارج في الفقه والأصول وكان أكثر استفادته من بحث الشيخ ضياء الدين العراقي. وكتب تقريراته وبعد وفاة أخيه الميرزا مهدي قام بإدارة المدارس التي كانت أنذاك من المدارس العامرة الشهيرة: (الكبرى والوسطى. والصغرى) وأخذ يواصل أعمال أخيه وإدارة (الديوان) وفي تلك الأيام كانت الدواوين مقراً لاجتماع العلماء والفضلاء الأدباء ـ وبعبارة أخرى كانت هي الأندية الشعرية والأدبية، وكان رحمه الله عالماً جليلاً موقراً مبجلاً مهاباً محترماً متواضعاً جالسته سنين عديدة ما رأيت منه إلاّ حسناً. وأخيراً أصيب بمرض السرطان وتوفي به ودفن بجنب أبيه في المقبرة الواقعة في مدخل باب السوق الكبير على يمين الخارج[٣].

الشيخ حسين بن محمد علي القاري البهشتي:

مر ذكره في المجلد السادس ونضيف هنا إلى ذلك ما يلي:

من فحول علماء الرياضيات وأكابر المتكلمين الشيعة في العصر الصفوي، حكيم فيلسوف.

(١) السيد إبراهيم السيد علوي.

(٢) الشيخ محمد السمامي.

(٣) الشيخ محمد السمامي.

تخرج في الحكمة والفلسفة على المير السيد شمس الدين محمد الجرجاني المتوفى سنة ٨٣٨هـ في شيراز وربما أدرك والده المير السيد شريف الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦هـ هو من أكابر علماء عصر الشاه اسماعيل الصفوي المتوفى سنة ٩٣٠هـ وله مؤلفات منها كتاب الحساب وكتاب تجويد القرآن واحتمل شيخنا آقابزرك الطهراني أن يكون صاحب **الترجمة** من علماء القرن التاسع وقال في الذريعة الجزء الثالث صفحة ٣٦٧ (توفي الشريف الجرجاني سنة ٨١٦ وتوفي ابنه شمس الدين محمد سنة ٨٣٨، وعليه فيكون البهشتي هذا من أواسط المائة التاسعة ومعاصراً للشيخ خضر الحبلة رودي الذي قرأ أولاً في شيراز على شمس الدين محمد المذكور. ويكون والده من أواخر القرن الثامن وبما أنّا لم نر أثراً من الأسماء المركبة فيما قبل القرن العاشر الذي حدث فيه تركيب الأسماء مع محمد أو مع علي فنحتمل سقوط كلمة (ابن) بين لفظي محمد وعلي. والله أعلم..) ثم ذكره في كتابه طبقات اعلام الشيعة ضمن علماء القرن العاشر قائلاً (الحسين البهشتي بن محمد علي القاري المعاصر للشاه اسماعيل الأول كان تلميذ ولد المير السيد شريف الجرجاني كما ذكر في (الرياض). له رسالة في الحساب شرحها ملك محمد بن سلطان حسين الأصفهاني صاحب رسالة «الجبر والمقابلة» واحتمله متحداً مع أبي العلاء البهشتي صاحب رسالة الحساب[١].

السيد حسين العلوي بن محمد علي:

توفي سنة ١٣٦٤ في كربلاء التي ولد فيها ولم نعلم تاريخ مولده وترعرع في ظل أسرة تعرف بالسادة (آل نطوة)، وأخذ الأدب على فضلاء عصره، فشب شاعراً بارعاً فطناً ذكياً وذاع صيته في الأوساط الاجتماعية. نظم الشعر بالفصحى والعامية، واختص بالمناسبات الاجتماعية والوطنية والدينية، وله قصائد وطنية جياشة بالأحاسيس الملتهبة، واتصل بسدنة الروضة العباسية كالسيد مرتضى آل ضياء الدين ونجله السيد محمد حسن. وله فيهما مدائح كثيرة. وصار من ضمن خدمة الروضة العباسية.

قال من قصيدة في رثاء الحسين عليه السلام:

يا باذلا في الله نفسك جودا	أثبت للدين الحنيف وجودا
يا آية النور التي قد أشرقت	للسالكين فأدركوا المقصودا

وقال في رثاء الحسين عليه السلام من قصيدة:

نهضت وما للدين حام ومنجد	فأنقذته بالسيف والله يشهد
فشدت له صرحاً مدى للدهر ثابتاً	إلى الحق يدعو كل حين ويرشد
وما هو إلا ذاك قبرك قد سما	إلى الفلك الدوار صرحاً يشيد

وقال مادحاً العباس ابن علي (ع) من قصيدة:

أبا الفضل فضلك في كل ناد	ينادي الموالي به والمعادي
فأنت المرجى لدفع الخطوب	وغيث الأنام وغيث البلاد
وباب الحوائج للسائلين	فقد خصك الله بين العباد
وساقي العطاشى بيوم الطفوف	وحامي الظعينة في كل واد

وقال في فلسطين:

يا عرب ليس الصبر يحمد	من أمة أن جاوز الحد
أو لستم انتم أباة الضيم	والتاريخ يشهد
أو لستم من شاد قدماً	للأبا صرحاً ممرد
أو لستم غوث الصريخ	وكهف أمن للمشرد
ولكم تصاغر ذلة	يوم الكريهة كل أصيد

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

يا أمة العرب التي سمت الورى شرفاً وسؤدد
ردوا الحقوق لأهلها اليوم بالسيف المجرد
فالموت أحلى مورداً للعرب من عيش منكد
الداء زاد توجعاً ودواؤه السيف المهند
هذي فلسطين وذا جيش العدو بها تحشد
لم يرع ذمة مسلم فيها ولا شرفاً لمعبد
وبها اليهود تألبت والإنجليز لها تعهد
في القدس ينصب عرشها ظلماً وعنها العرب تطرد

وله مخمساً والأصل لابن أبي الحديد:

يا من لخالقه بك الوحي اهتدى وعلى البرية . بعد طه سيدا
وأقول قولا لم أكن مترددا إن كان دين محمد فيه الهدى
حقاً فحبك بابه والمدخل

يا عاذلي دع الملام وخليا عني فلست إلى العواذل صاغياً
تالله مهما كنت حياً باقياً فلا هتكن على الهوى ستر الحيا
إن الفضيحة بالمحبة أجمل

وله ابيات نقشت على مصراعي الباب المؤدي للروضة العباسية الكائنة على الجانب الأيسر وهي:

فتبدى بالصبح مذ جدوده بعنان السماء منه الضياء
نصر الدين عن بصيرة أمن صابراً للذي أراد القضاء
فعلى قبره الملائك طافت وإليه قد زارت الأنبياء
وغدا باب قدسه للبرايا كهف أمن به المنى والرجاء
بطل نال في الطفوف مقاماً غبطته بنيله الشهداء
قد حباه اللوا حسين فخراً وإلى مثله يحق اللواء
نار موسى أم باب قدس تجلى لأبي الفضل نوره أم ذكاء
أم غدا العلقمي طور التجلي وبه الأرض اشرقت والسماء
مذ حوى مرقداً لشبل علي من له الفضل ينتمي والوفاء

السيد حسين بن السيد محمد بن السيد علي بن السيد حسين بن السيد سلمان بن السيد محمد الموسوي الأحسائي.

ولد في حدود سنة ١٢٨٠ في مدينة المبرز بالاحساء وتوفي سنة ١٣٦٩ في المبرز.

آل السيد سلمان من الأسر العلوية الجليلة والبيوتات العلمية العريقة، ولهم في (الأحساء) مكانتهم المرموقة ومنزلتهم المتميزة، ويكنُّ لهم عامة الناس إحتراماً كبيراً، وقد برز منهم عدد من أكابر العلماء كان بعضهم مراجع تقليد في (الأحساء) ودول الخليج، وأجلّ علمائهم وأقدمهم هو السيد هاشم السلمان الموسوي الأحسائي المتوفى ١٣٠٩هـ ثم نجله السيد ناصر الأحسائي المتوفى ١٣٥٨هـ، ولا زالت هذه الأسرة الشريفة تنجب أفاضل العلماء.

وجاء في كتاب عن (أسرة السلمان) ما ملخصه: «إن السيد محمد والد السيد سلمان الذي عرفت الأسرة بالانتساب اليه ـ كان يقطن مدينة (الحويزة) من بلاد (خوزستان)، ثم هاجر منها الى (البحرين) في أوائل القرن الثاني عشر الهجري، وبعد مدة حدثت أحداث دامية في (البحرين) هاجر بسببها السيد سلمان أو والده السيد محمد الى (الاحساء) وتوطن بها وكان ذلك حدود سنة ١١٥١، وأول ما سكن في محلة (السياسب) بمدينة (المبرز) ثم انتقل منها إلى (المطيرفي) ـ إحدى قرى (الأحساء) الشماليه ـ، ولما كثرت الذرية تفرقوا في البلاد فسكنوا (المبرز) و(الرميلة) و(القرين) ونزح بعضهم إلى (سيهات) بـ(القطيف) و(سوق الشيوخ) بـ(العراق). . »[1].

وجاء في الكتاب المذكور أيضاً أن جملة من الأسر الموسوية في (الأحساء) ـ هم السادة (آل ياسين) و(آل طه) و(آل إبراهيم) و(الناصر) ـ يلتقون جميعاً مع سادة (السلمان) في جدهم الأعلى السيد اسماعيل بن حسين بن حسن، وهو الجد الثالث للسيد سلمان بن محمد بن يوسف بن علي بن السيد اسماعيل.

كان صهراً لخاله السيد هاشم آل السيد سلمان الموسوي الأحسائي، وعلى يده تلقى مبادىء العلوم وأخذ شطراً من المعارف في الأحساء.

وبعد وفاة خاله المذكور سنة ١٣٠٩هـ هاجر إلى النجف الأشرف لإكمال تحصيله العلمي، وحضر فيها على لفيف من محققي العلماء.

وبعد حوالي عشر سنين قضاها في النجف عاد إلى وطنه (المبرز) بطلب من أهلها وأقام فيها مشتغلاً بالوظائف الشرعية وخدمة الدين حتى وفاته، وكان ـ بالإضافة إلى توليه القضاء ـ إماماً للجماعة في الجامع الكبير في (المبرز).

توليه القضاء

كان ـ بالإضافة إلى مكانته الدينية وتصديه لشؤون الناس الحسيّة ـ قاضياً شرعياً لكل الشيعة في (الأحساء) وهو أول عالم شيعي يشغل منصب القضاء الجعفري بشكل رسمي في الأحساء في ظل الحكومة السعودية، واستمر في هذا المنصب مدة طويلة تزيد على أربعين عاماً.

وكانت له صلاحيات واسعة في القضاء، فكان يفصل في الخصومات ويحكم بين الناس في مختلف الأمور فينفذ حكمه بلا معارض، وكانت له هيبة وقداسة خاصة لدى جميع الأوساط الشعبية والرسمية، وقد تجسدت فيه قداسة بيته الطاهر وهيبة أسلافه الأمجاد فكان الناس بمختلف مشاربهم يهابونه ويكنّون له غاية الإحترام.

ونقل عنه أنه كان شديداً في ذات الله صارماً في الحكم بين الناس بالعدل لا يهاب أيَّ أحدٍ ولا تأخذه في الله لومة لائم.

وقد كُفَّ بصره في أواخر عمره وكان ـ مع ذلك ـ لم يزل متصدياً لشؤون القضاء حتى وفاته. وقد رُثي بشعر كثير منه قصيدة الشاعر محمد حسين آل رمضان منها:

يا حجة الإسلام بعدك سيدي
يُسرى الشريعة فارقت يُمناها
أ(حسين) مهلاً فالشريعة أصبحت
ثكلىٰ يَرجُّ الخافقين صداها
بكَ يا (حسين) الأرض قارنت السما
شرفاً غداة استودعوكَ ثراها
قسماً بذكركَ وهو مجدٌ خالدٌ
باقٍ على الأيام وهو شذاها
ما مرَّ ذكرك يا (حسين) بخاطري
إلا بأحشائي يزيد شجاها
لا غروَ إن ماتت لفقدكَ أمةٌ
دَفنت لدفنك رشدَها وهداها
من للشريعة بعد فقدكَ يرتجىٰ
هيهاتِ فارقَت الغداة أباها

وقد خلف من الذكور أربعة أكبرهم وأفضلهم السيد محمد ـ الذي خلف أباه في منصب القضاء ـ، ثم السيد هاشم والسيد علي والسيد أحمد، وقد توفوا جميعاً، ولا زال جملة من أبنائهم من ذوي الفضل ومن المشتغلين بالعلم وخدمة الدين.

(١) كتاب خطي للسيد حسين السيد علي الياسين السلمان.

أما السيد هاشم نجل المترجم له فقد كان أيضاً من ذوي العلم والفضل، اشتغل بطلب العلم في الأحساء ثم في النجف برهة من الزمن بعدها عاد إلى وطنه (المبرّز) وأقام فيها مشتغلاً بخدمة الدين حتى توفي في ٢١ جمادى الأول ١٣٩٠هـ.

وللمترجم له أخ عالم اسمه السيد هاشم العلي، كان مقدساً محترماً لدى عامة الناس، وبعد وفاة أخيه السيد حسين كان إماماً للجماعة في الجامع الكبير في (المبرّز) حتى توفي عام ١٤٠٠هـ عن عمر جاوز التسعين عاماً، وقد خلف عدة أولاد جلهم من العلماء[١].

السيد حسين بن السيد محمد علي بن السيد نوازش علي بن السيد مظفر علي بن السيد خير الدين الموسوي الحائري الهندي آل خير الدين.

المولود في كربلاء سنة ١٢٨٧هـ والمتوفى بها ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٣٥٨هـ.

كان من الفقهاء وأهل العلم والفضل المبرزين في الهند وزنجبار أخذ العلم عن والده وأعلام كربلاء منهم الشيخ الميرزا علامة الحائري الصالحي البرغاني والشيخ ميرزا علي نقي الحائري الصالحي المتوفى سنة ١٣٢٠هـ ورجع إليه أنصار والده في الهند وزنجبار في أمر التقليد وهو من علماء أسرة آل خير الدين من البيوت العلمية في كربلاء وقزوين التي ظهر منها علماء أعلام وفقهاء أجلاء، ذكرنا كلاً منهم في محلة من هذا المستدرك له مؤلفات منها تقريرات درس أستاذه الشيخ علي الصالحي في الأصول.

وولده السيد محمد علي خير الدين من مشاهير علماء كربلاء أديب فاضل وناظم ناثر باللغتين العربية والفارسية [٢].

الشيخ حسين بن محمد التنكابني:

ولد حدود ١١٩٠ وتوفي بعد ١٢٤٥.

ولد في تنكابن وأخذ المقدمات بها ثم ذهب إلى قزوين ثم إلى أصفهان وبعد سنة ١٢٢٠ رجع إلى موطنه واشتغل بالتدريس وقضاء حوائج الناس واشتهر بذلك إلى أن توفي بها [٣].

السيد حسين بن السيد نعمة الله بن السيد محمد حسين بن السيد حسن علي بن السيد عبد الله بن السيد نور الدين بن السيد نعمة الله الموسوي الجزائري.

ولد بمدينة شوشتر في جمادي الثانية سنة ١٢٤٢ ونشأ وترعرع بها ودخل مدرسة الجزائري واتقن المقدمات بها وفي سنة ١٢٦٧هـ هاجر إلى النجف الأشرف وحضر بها على أساتذتها وعلمائها خصوصاً عند الشيخ محمد طه نجف واستمر بالدراسة والتدريس حتى العام ١٢٨٨هـ حيث توجه إلى إيران قاصداً زيارة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وجعل طريقه على البصرة ثم المحمرة حيث حلّ ضيفاً عند أحد تجارها الإيرانيين فطلب منه الإيرانيون الساكنون في المحمرة الإقامة عندهم فأجاب طلبهم على أن يعود إليهم بعد زيارة الإمام الرضا وهكذا كان، فقد عاد إليهم بعد أحد عشر شهراً. وفي سنة ١٣١٥هـ قتل الشيخ خزعل أخاه مزعلاً وأصبح هو أميرا للمحمرة ونواحيها. وفي سنة ١٣١٦هـ قدم إلى المحمرة الشيخ علي البهبهاني واستقبل من قبل الإيرانيين القاطنين في المحمرة وبقي مرجع تقليد لجماعة فيها.

وأما الشيخ خزعل أمير المحمرة فأخذ نفوذه يتسع شيئاً فشيئاً حتى تمكن من بسط نفوذه وسيطرته على سائر المناطق العربية في جنوب إيران بل تعداها إلى مناطق العشائر البختيارية وعشائر اللر فأخذ أغلب مناطق جنوب إيران في قبضة يده وكانت تصرفاته بعيدة عن العدل ومنافية للتدين فَتَشكل إتحاد ثلاثي من أبرز علماء المنطقة وهم: السيد عدنان الغريفي والشيخ علي البهبهاني والسيد حسين المترجم له فكان هذا الثلاثي يتصدىٰ للشيخ خزعل ويندد بتصرفاته وأعماله خصوصاً بعد سنة ١٣٣٣هـ حيث أعلن الشيخ خزعل عداءه للسيد عدنان الغريفي وحاول اغتياله ولكن الله سلّمه.

توفي المترجم له عصر الخميس ١١ من شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٦هـ في البصرة حيث ذهب إليها للمعالجة ودفن في النجف الأشرف. خلف من الآثار:

١ ـ الغرر والدرر في الفقه.

٢ ـ شرح على كتاب تجريد الإعتقاد للعلامة الحلي.

٣ ـ عجائب الآثار في علم الهيئة.

٤ ـ نوادر الأخبار في حالات الأئمة الأطهار. من الإمام علي بن أبي طالب حتى الإمام العسكري عليه السلام[١].

نور الدين حمزة:

ويقال فخر الدين حمزة، ويقال نور الدين محمد بن عبد الملك كما كتبه بخطه في مشيخة كنز السالكين الآذري الأسفرايني البيهقي الطوسي المشهور والمتخلص في شعره بآذري.

ولد في قرية أسفراين قرب نيشابور سنة ٧٨٤هـ وتوفي بها سنة ٨٦٦هـ ودفن فيها.

من عرفاء عصره وفحول شعراء الشيعة مؤلف محقق من أهل الفضل والتدقيق.له نظم كثير في مختلف المناسبات وخاصة في مدائح أهل البيت عليهم السلام.

قرأ المقدمات والعلوم الإسلامية في نيشابور ثم أخذ العرفان عن الشيخ محيي الدين الطوسي الغزالي وسافر معه إلى الحج ماشياً على قدميه ومكث هناك أكثر من عام وألف كتابه (سعي الصفا) كتبه في بيت الله الحرام وبعد وفاة استاذه المذكور التحق بالسيد نعمة الله ولي ولازمه سنين حتى أجازه ولبس الخرقة من يده وكان والد المترجم له من زعماء حركة (سربداران) الثورية الشيعية المعروفة واشترك المترجم له في هذه النهضة في بيهق ونواحيها وفي سنة ٨٣٢هـ هاجر إلى الهند واتصل في الدكن بالسلطان أحمد شاه البهمني الذي كان محباً للصوفية ونظم له «بهمن نامه» ومنها رجع إلى موطنه أسفراين وكان من أقطاب مشايخها الصوفية والزعماء العرفاء المشاهير ثم انعزل في أواخر عمره في موطنه أسفراين حتى توفي بها ودفن فيها. ذكره جمع من المؤرخين منهم الوزير مير نظام الدين علي شيرنوائي المتوفي سنة ٩٠٦ في كتابه مجالس النفائس ص١٠ دون أن يذكر اسمه واكتفى بلقبه فقال ما تعريبه: (الشيخ الآذري ولد في أسفراين واشتهرت أشعاره عند الخاص والعام وفي شيخوخته تاق إلى السير والسلوك، حج ثم هاجر إلى الهند وتشرف بخدمة أكابر مشايخ الصوفية والعرفاء وانجذب إليه جميع سلاطين الهند وأصبحوا من مريديه وكانوا يعتقدون به..) ثم ذكر مؤلفاته ونموذجاً من شعره إلى غير ذلك وفصّل عنه السمرقندي في كتابه تذكرة الشعراء الذي ألفه في سنة ٨٩٦هـ في ص ٣٠٠ ـ ٣١٠ وأدرج شعره وذكر اسمه فخر الدين حمزة بن علي ملك الطوسي ثم البيهقي بما هذا تعريبه

---

(١) السيد هاشم الشخص.

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٣) الشيخ محمد السمامي.

(١) السيد علي العدناني الغريفي.

وتلخيصه: (. . . العارف الوحيد والمحقق القدير كان لا يهتم لأمور الدنيا وكان على الدوام مصاحباً لأولياء الله قضى أربعين سنة في القناعة تاركاً لهواه وكان متبحراً في العلوم الظاهرية والباطنية. . وكان أبوه من زعماء نهضة السربداريين في بيهق وينتهي نسبه إلى صاحب الدعوة أحمد بن محمد الزمجي الهاشمي المروزي وكان أبوه الشيخ الخواجة علي ملك رئيس السربداريين في أسفراين وكان المترجم له من أوائل شبابه من مشاهير الشعراء ويتردد اسمه في النوادي الأدبية والعلمية. . . . تتلمذ على شيخ الشيوخ وقدوة العارفين الشيخ محيي الدين الطوسي الغزالي. . . وأخذ الطريقة منه وكتب الأحاديث في خدمته وسافر معه إلى الحج وتوفي استاذه في مدينة حلب ثم التحق المترجم له بحوزة السيد نعمة الله وأخذ السلوك منه وأجازه استاذه المذكور وألبسه الخرقة بيديه والتجأ إلى الرياضيات والمجاهدات النفسانية وحج ثانية ماشياً على قدميه ومكث في مكة المكرمة مجاوراً لبيت الله الحرام وألف كتابه (سعي الصفا) في بيت الله الحرام ويشتمل هذا الكتاب على مناسك الحج وتاريخ الكعبة المعظمة. ثم توجه إلى الهند. . .)[1] وفصّل عنه وأدرج قسماً كثيراً من شعره ونقل عنه القاضي نور الله الشوشتري في مجالس المؤمنين الجزء الثاني ص ١٢٥ وذكر قصائده في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة الأطهار. وذكره رضا قلي خان هداية في كتابه رياض العارفين ص ٤٩ بنفس الأوصاف مع تغيير في العبارات، وذكره اسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين ج١ ص ٣٣٧ وشيخنا الأستاذ في أبواب الذريعة ووصفه قائلاً: (ديوان آذري للشيخ العارف نور الدين محمد بن عبد الملك الآذري الأسفرايني الطوسي من الشعراء المعاصرين لشاهرخ سلطان واتصل في دكن بالسلطان أحمد شاه البهمني ونظم له «بهمن نامه» الذي فاتنا ذكره في الباء وسمي بأذري لولادته في شهر أذر فكان يتخلص به في شعره ونقل في «ص ٢٩٦» من مجالس المؤمنين عن تذكرة دولتشاه أن اسمه حمزة بن علي ملك وبعد رجوعه من دكن إلى أسفراين عمرّ مدة ثلاثين سنة وبها توفي سنة ٨٦٦هـ كما ذكره في ص ٢١ وذكر له بيتاً من تركيب البند الذي نظمه في رثاء الحسين (ع) وقبله النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ما روي في المنام وأورده القاضي نور الله في مجالس المؤمنين مع كثير من أشعاره الأخرى المصرّح فيها بكونه من الإمامية الاثني عشرية وقال القاضي أن أكثر ديوانه في مناقب أهل البيت (ع) وصرح في «خز» بكون ديوانه حاضراً عنده وفيه القصائد والغزليات والمقطعات وغيرها، وذكر أن بعض من لم يتحل بفضيلة الانصاف انتحل «بهمن نامه» له وغير أبياتاً من ديباجته ونسبه إلى نفسه أيضاً وذكر أنه رأى المثنوية الموسومة بالمرآة والمشتملة على أربعة كتب قد عين لكل منها اسماء خاصة بهذا التفصيل ١ ـ الطامة الكبرى ٢ ـ عجائب الدنيا ٣ ـ عجائب الأعلى ٤ ـ سعي الصفا. أقول ظني أن العجائب الأعلى هذا هو الموجود في مكتبة المجلس بعنوان عجائب الغرائب الذي ذكر ابن يوسف تفصيله في فهرستها (ص ٥١٣) وقد أحال فيه إلى عجائب الدنيا الذي نظمه قبله مكرراً وكذا أحال فيه إلى الطامة الكبرى. . .)[2].

ترك المترجم له مؤلفات هامة اشهرها ديوان شعر، سعي الصفا، مناسك الحج وتاريخ الكعبة، تاريخ مكة المكرمة، كتاب جواهر الأسرار في النوادر والأمثال، كتاب طغراي هما يون، وكتاب عجائب الغرائب في البلدان نسخة منه في المجلس الوطني الإيراني في طهران[1] .

(١) الأمير دولتشاه بن علاء الدولة السمرقندي تذكرة الشعراء ص ٣٠٠ تحقيق محمد رمضاني طهران سنة ١٣٣٨هـ ش مطبعة خاور.

(٢) آغابزرك الطهراني الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ٩ القسم الأول ص ٣ ـ ٤ بيروت دار الأضواء.

الشيخ حمزة قفطان بن الشيخ مهدي:

ولد سنة ١٣٠٧ في بلدة (الحي) بالعراق. توفي فيها سنة ١٣٤٢ ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف فدفن فيه.

نشأ وترعرع وتعلم القراءة والكتابة في مدينة الحي ودرس المقدمات على أخيه الشيخ محمد صالح الذي كفله منذ الصغر. ثم هاجر إلى النجف الأشرف حيث كانت معظم دراسته على الشيخ عبد الحسين الحياوي.

وآل قفطان أسرة علمية لها دورها الظاهر في العلم والأدب والشعر، برز كثير من رجالها في هذه الميادين وكان المترجم له هو المشار إليه في عالم الشعر اتصل بجماعة من علماء وقته منهم السيد عدنان الغريفي المتوفى سنة ١٣٤٠ هـ فحضر عليه في علمي الكلام والحكمة وكان يقيم عنده في مدينة المحمرة (خوزستان) ويتردد عليه كثيراً وقد مدحه بعدة قصائد، وكان السيد يجله ويشيد بمواهبه خصوصاً في مجال الشعر. منها قوله فيه:

يا حمزة إنك في الكلام مسدد ... فطن لداعي القوم غير فهيه
قد نوهت بك مدحة من سيد ... عار عن الإطراء والتنويه
إحذر على عدنان أن حدثته ... بالمجد أو فامزجه بالتفكيه
لا تذكرن شجاعة وبراعة ... فتثير منه العزم بالتنبيه
إمسك عليه قبل أن يخشى الوغى ... فيموت قبل تمام ما يحكيه
فلقد تهيجه الحماسة محدراً ... متوجساً في الروع للتأييه
طلق المحيا باسم في موقف ... يرمي وجوه الصيد بالتشريه
وتهز منه الأريحية للندىٰ ... طوداً تكرم عن مهز التيه
وإذا الحقائق ضل عنها معشر ... طمسوا صريح النص بالتمويه
كشف القناع عن الغيوب بفكرة ... تجلو وجوه الحق بالتوجيه
توجيه علّام ورأي مجرب ... وخطاب مقتدر وحكم فقيه
ولقد يرى يوماً يذم زمانه ... فيزيد بالزفرات والتأويه
وكذا الزمان لدى الحليم مذمم ... وتراه محموداً لكل سفيه
لا تأبهن له فليس بضائر ... والصبر فيه غاية التنزيه
واغر في سنن القريض إذا جرى ... انساك ما قال الكميت وجرول
بز الجياد وقد جرت اطلاقها ... وارتاح وهو السابق المتمهل
يلهيك حسن مقاله عن حسنه ... فتظنه قد جد ساعة يهزل

وله فيه:

ومستريح إلى الأشعار يكتبها ... ليصرف الهم عنه وهو مهموم
لا يصرف الهم عنه غير ناجية ... عنس أمون عليها المال معكوم

وله فيه:

أبا يعلى لأنت أبر خل ... إذا ولع البرية بالعقوق
ذكرت مودتي فسعيت نحوي ... لتعظيم القليل من الحقوق

شعره

كان له ديوان شعر هو اليوم غير موجود. وقد حفظ من شعره قصائد كان الفضل في حفظها لاتصاله بالسيد عدنان الغريفي، إذ أنها تدور على مدح السيد ومن يتصل به ومشاركة المترجم بمجالس السيد الأدبية الحافلة فمن شعره قوله:

هواك أثار العيس تقتادها نجد ... ويحدو بها من ثائر الشوق ما يحدو
تجافى عن الورد الذميم صدورها ... لها السير مرعى واللغام لها ورد
تمر على البطحاء وهي نطاقها ... وتعلو على جيد الربى وهي العقد
عليها من الركب اليماني فتية ... ينكر منها الليل ما عرف الود

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

اعـدوا إلى داعي المسير ركـابهم   وأعجلهم داعي الغرام فما اعتدوا
تقـرب منهـم كـل بعـد شـملة   عليهـا فتى لم يثن من عزمه البعد
وما المرء بـالإنساب إلا ابن عـزمه   إذا جـد انسى ذكـر أبـائـه الجـد
يـرد الخصـوم اللد حتى زمـانـه   عـلى أن هذا الـدهـر ليس لـه رد
ويغـدو فأمـا أن يروح مـع العلى   عـزيـز حيـاة أو إلى مـوتـة يغـدو

وقال يمدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ثم في الختام يذكر استاذه السيد عدنان الغريفي :

صدعت الدجى بالصبح والليل مطرق   على ساهـر يزجي الأماني فتخفق
واصـدقت عينيه بـوصلك بعدمـا   اتى سـاخـراً منـه الخيـال الملفق
وأخلفت ما ظن العواذل في الهوىٰ   وكـذّبت فيـما بيننـا مـا تخـرقـوا
فقـد محقت آيات حسنـك أفكهم   كشمس على نار الحبـاحب تشرق
لئن أجلبـوا يـوم التنـائي والبّـوا   فقـد ثقفوا بعـد الوصـال وارهقوا
أرادوا بنا الأخرىٰ وقد حال دونهم   هـوىً خلقٌ مـطبـوعـة لا تخلّق
علقناه حتى اشتد في القرب والصبا   ونحن بـه من البعدوالشيب أعلق

* * * *

وليـل كـأنَّ النجم فـوق أديمـه   دموع على جفن كحيـل تـرقـرق
صحبت الأماني فيه حتى تقـطعت   وسـائلها أو كـادت النفس تـزهق
إذا آب نجم فيـه جـاء رقيبـه   كـما مال بـالقـرطين أسـود اعنق
كـأنَّ بقايـا النجم في أخـريـاتـه   مصـابيـح غـطّاهـا رواق مخرّق
كأنَّ بياض الفجر في الشرق جدول   يعـوم بـه من شقـة البـدر زورق
كـأنَّ الـديـاجي بـدعـة جـاهليـة   لها صبح دين المصطفى جاء يمحق
رمـاها شهـاب الحق وانبعثت لهـا   صـواعق إردتها وأخـرىٰ تحـرّق
ويوم اتاه الوحي (فاصدع) بأمـره   وان أرعدوا غيظاً عليـك وابرقـوا
مضىٰ غـير هيّـاب فـاسمـع دعـوة   تماروا بها وهـو الأمين المصدّق
فـلما عتـوا عـن أمـره وتـألبـوا   عليـه ولجوا في الضـلال واغرقـوا
رمـاهم بها شعـواء حتى تراجعـوا   وفي غـلـه ايـديهـم والمـخـنّـق
وقد ذلّت العزىٰ مـع اللآت بينهم   وغـودر بعـل وهـو فيهم مـطلّق
اساعوا سـواعاً حـين لاود عندهم   لـود وقـد زاد إحتـراقـاً محـرّق
أيدعون ما لا يستطيعـون نصرهم   ولم يخلقـوا شيئـاً بـلىٰ هـو يخلق
فـلأيـاً أقـروا بـالحنيفيـة التي   حداهم إليها فاستقامـوا وصدقـوا
بتـدبـير منصـور من الله لم يكن   بتصـريفـه إلا عن الـوحي ينـطق

* * * *

ولـمـا أراد الله إظـهـار ديـنـه   غداة دجا بـالشرك غـرب ومشرق
أقـام عليـاً نـاصـراً شـدّ أزره   بـه الله وهـو المستعـان المـوّفق
فـأنّ يولـوا يبصروا ومض سيفـه   كـأنَّ لـه الشمس المنيـرة رونق
أطلَّ على أرض الحجاز فأمـطرت   مـدامعهـا صنعـاء رعبـاً وجلّق
وأرخى عـلى بـدر سحـائب عثير   بهـا بـارق من سيفـه متـألـق
وفي أحـد أجرىٰ سيـولاً جـوارفـاً   من الـدم حتى كـل مـاء مـزبـرق
ويوم حنـين حـين عـرّد خيفـة   فلان ورحب الأرض بالطرف ضيّق
دلفتَ لهـا ثبت الجنـان مبـدداً   كتائبهـا بـالسيف حتى تفرقـوا
وخيبـر والأحزاب والفتـح لم يـزل   عليـك لـواء النصر فيهن يخفـق
مـواقف لم تتـرك مقـالاً لقـائـل   يغصّ بـأدنى مضغهـا المتشـدق
لقـد كنت لـلإسـلام أول سـابق   فـوا عجبـاً عنـد الخـلافـة تُسبق
ومـا ضرَّ دين الله وهـو مـوّطـد   بسيفك ما قال الكذوب الممخرق
ومـا زال من ابنائـك الغر نـاصر   يحيط عليـه منـه سـور وخنـدق
فـأمـا إمـام ظـاهـر أو مغيّب   لـه نـائب يهـدي الـورى ويـوّفق
كتـائبه (عـدنـان) إذ قـام هـاديـاً   يحـذرنـا طـوراً وطـوراً يشـوّق
فـاشـرقت الـدنيـا بـه وبفضله   وقد كاد باب الفضل لـولاه يغلق
يبيت جليسـاً للهدى والنـدىٰ معاً   عـلى ضـرم يعشـوا إليـه المحلّق
لقد عرفت بـطحاء مكـة شخصه   فإن قيل من هذا أجاب الفـرزدق
ألا بشرّ الـدين الحنيـف بـأنـه   يبيت لـديـه آمنـاً ليس يفـرق

وقوله يمدح استاذه السيد عدنان :

أرىٰ العنقـاء أيسر من مـرامـي   وظـل الشمس أثبت من مقامي
وأيـامـي عـليّ بـكـل فـج   مـروّقـة الجـوانب بـالقـتـام
كـأن الصبح يبسم لي خداعـاً   لأقـذف مـن ظـلام في ظـلام
تـلثم كـل ثـغـر دون وجـه   تبـدىٰ لـلهـجـير بـلا لـثـام
يـزجي العيس تكـرع في سـراب   عـلى ظـمـأ وتـرتـع في رمـام
تعـثر بـالقـطا في كـل خـرق   بـه الأهـوال أصـدق من حـذام
لعـل العيس تبعـد عن محـل   أشيم بـروقـه وابيت ظـامى
قـطعت بـه نهاري بـين قـوم   بـلا شبـه تعـد مـن الأنـام
تسـدد لي سهـام اللوم منهـم   وإن راميتـهم نـفـدت سهـامي
فليت الليـل مـدّ عـليّ حجبـاً   من الـظلـاء تمنعهـم خصـامي
ومـا لـيـلي أخـف عـليّ لـكن   سمـير النجم جـلّ عـن المـلام
أبيت بـه غـريقـاً في الأمـاني   أعـوم بهـن مـضـطـرمـاً أوامي
كـأن نجـومـه نـظمت عقـوداً   لهـا خيط المجـرّة كـالـنـظام
قـدحن بفحمـة الـظلماء سقـطاً   فشب الفجـر مـن لهب الـضرام
وقفن عن السرىٰ ونـظرن شـزراً   إليّ كـأنها نـكـرت مـقـامـي
لقـد نكـرت نجـوم الليـل نضـوا   تـعـرّفـه الأوابـد في المـوامي
يبيت عـلى ظهـور العيس حلسـاً   لجـائـلـة تـزف مـع الـنـعـام
يحث بهـا النجـاء عن الـدنـايـا   ويستبـق المفاز إلى الـكـرام
وتعصمــه إذا أرتبـك المحـامي   بخير حميٍّ به الشـرف العصامي
سمـت فيـه لأروع هـاشـمي   أقـر لبـطن مكـة مـن هشـام
فـما سألت بقصد (أبي سعيد)   ولا التفتت وتـعـلمـه إمـامي
تشـير النـاس منـه إلى هـلال   وتقبـل بـالشفـاه عـلى غمـام
تخـال بـكفـه الأسـرار تـبـدي   بـروق الغيث في شـطب الحسـام
تـرى الأقـلام تـورد في يـديـه   مناهـل لا تضيق عـلى الـزحـام
فـإن هيجت جـرت بـدم صبيب   وإن سئلت جـرت بنـدىً سجـام
تـعـوّذ بـالـرقىٰ وإذا تـلّوت   عـلى الأعـداء تنفث بـالسمـام
لقـد وجمت لهيبته الـليـالي   ويفتـح بـاسمـه رتـج الكـلام

* * * *

اري قـلمي جنيبـاً لـلقـوافي   بـلا بـرة يـقـاد ولا خـطام
وكـنـت آراه يـجـبـن دون بـيـت   يخال على القنا طـرف الثمام
يـرم عن القصيـد ولست أدري   لـعي كـان يـقـعـد أم جمـام
أم أطّلب المـقـال فـمـذ رآه   نضـا صفـو المـدام عن الفـدام
رأى بحـراً فقلت اعـد حـديثـاً   بـلا حـرج فـإنـك في ذمـام
فجـاء بهـا تـروم بـلوغ وصف   تجف بحـور نظمي وهـو طـامي
لقـد كلفـتهـا امـداً بعـيـداً   تحـامـاه المنـاسم والحـوامي
ولـكـني ابث بـهـا اشتيـاقي   لحضـرتـه واقـرئـه سـلامـي
اطيلي القـول ايتهـا القـ فـي   وإنك أن قصـرت فلن تـلامي
بمبـدئي اعتـذرت وبـالختـام   أرى العنقـاء أيسر من مـرامي

وقال يمدحه ويهنئه بعيد (النوروز) :

شبـاب نسميه الـربيـع المنـورا   بـه تلبس الأيـام وشيـاً محبـرا
تجللت الآكـام ممـا يحـوكـه   من الـزهر بـرداً بـالـورود مـزرّرا

يمـوج إذا مـرّ النسيـم فتـلتقـي … أواذي لم يملك بها الطرف معبرا
وقفت عليها اللحظ حيران شاخصاً … لبهجتهـا أو مـاشيـاً متعـثـرا
يغـار لاعـطاف تعـانقهـا الصبـا … فتهـوي ثغور فـوقهـا تلثم الثرىٰ
إذا قابلتها الشمس قصرّ ضوءهـا … حياءاً فخلنا شـامس اليوم مقمـرا
وإن بسمت للنجم ضاحك مثله … على الأرض كافوراً تخلّل عنبرا
وإن نبهت تحت الأصيـل رأيتهـا … لحاظ الدمىٰ لم تصح من لوثة الكرىٰ
خليليّ هـل من وقفـة تـريـانهـا … لمـامـاً وإن لم تـنـظرا فتنـظّرا
على مـربـع القى به الغيث رحله … فعـرف من أعـلامـه مـا تنكـرّا
تنكرّن حتى كنت اسري فلم أكد … أعج عليـه العـيس إلا تذكر
فلما تغاضى الدهر عنه وألبـسـت … معـالمه ثـوبـاً من العيش أخضرا
أنخنا عليه العيس كالهضب بعدما … تغمرّت منها ما يروّي ابن احمرا
ولاحت لنـا حمر القبـاب كـأنها … مصابيح يخفيها الظلام لتظهرا
تعـرّض منهـا للتحيـة أهـيف … يذم النوى ثم انثنى يحمد السرىٰ
نوىً قُذُفٌ من قبـل غادرن دوننا … مهامه تنضىٰ العيس فيهـا وابحرا
ويا رب كأس من رضاب شربتها … حـلالاً إذا النجم المحلّق غـوّراً
وعـانقت غصناً والتثمت شقـائقاً … وآنست مصبـاحاً وغـازلت جؤذرا
لدى روضة في أرضها تشبه السما … بها البدر ما بين الكواكب اسفرا
كساها الربيع الوشي طرّز نسجه … ملث العـزالي رائحـاً فمبكـرّاً
فلما بدت للشمس صبحاً وأرسلت … شعـاعـاً على مـرآتهـا فتكسـرا
رأيت بها أخلاق (عدنان) قـابلت … محيّاه والبشرىٰ فـابهجن منـظراً
رأيت بها للعلم والفضل مصـدراً … قـريبـاً وللنـور الآلهي مـظهـرا
أمـام يكـاد الغيب ينـطق عنـده … إذا هـو فيمـا يحكم الله فكـرّا
هو الآية الكبرىٰ التي تعجز الورىٰ … تقـاصر عنهـا خاضعـاً من تجبرا
لـه منطق فصـل الخطاب ومـزبر … بـه يستزق الـدهر إن هـو حـررّا
ونور يقود الناس في (منهج الهدىٰ) … وبـأس يـرد الحـادث المتنمرا
تيممه العافي فـابرق عـارضاً … ولا حظه الـرائي فـاشرق نيّـرا
أبـر على الـدنيـا سنـاءاً ومفخراً … وزاد فلم يـدرك له الـوهم مخبرا
وراءك عن تعـريفه لست مـدركـاً … أراك بذي الأبعاد عرّفت جوهرا
ليهن به (النوروز) أن نـال صحة … فـإن بها عيـداً على الناس أكبرا
فـإن يك هـذا العيد فيـه تحوّلت … إلى الأوج شمس الأفق جرياً مقدّرا
فإنك أنت الشمس في الأرض لم تزل … بأسعد أوج في العُلىٰ شامخ الذرى

وقال استاذه السيد عدنان في القهوة إرتجالاً :

قـهـوة لم أقـل غـداة انـتـني … وهي تشوي الوجوه بئس الشراب

فشطّره الشيخ محمد رضا أسد الله الكاظمي بقوله :

(قهـوة لم أقـل غـداة اتـتني) … غيـر قـول يلوح منـه الصـواب
قلت فيهـا وقـد عـلاهـا بخـار … (وهي تشوي الوجوه بئس الشراب)

وشطر التشطير الشيخ حمزة بقوله :

قـهـوة لم أقـل غـداة اتـتـني … قـول من عنفـوا عليهـا وعـابـوا
إن قـولاً يـزبـرج الكـذب فيـه … غيـر قـول يلوح منـه الصـواب
قلت فيهـا وقـد عـلاهـا بخـار … هي شمس غطا سناهـا السحاب
وتجلت لـنـا فمـا قـلت فيـهـا … وهي تشوي الوجوه بئس الشراب

وقال يهنيء السيد عدنان بقدوم صهره السيد محمد علي غياث من الحج :

لثغرك بـرق بـالحجاز غمـائمه … يؤمّلُهُ بين العـراقيـن شـائمـه
أضـاء بأدلاج الـركـاب فهجرت … وشاب له من مفرق الليل فاحِمُه
يعَلّلنا ظبي الحمىٰ بابتسامةٍ … من البرق إلاّ أنّ منها صوارمه
تحجب حتى لا النسيمُ معـانـقٌ … لـديـه ولا نُـورُ الأصـائـل لاثِمُـهْ
لهُ دُونَ مسرىَ الطَّيف ليل مُسهد … تساوى غريمُ الحُبّ فيـه وغَارِمُـهْ

● ● ●

ومـا كـان طـرف سـاهـر بمُتَيّمٍ … فـرب فـؤادٍ أرقتـه عـزائمـه
وَرَكْبٍ أثارُوا العيس في كلِ مجهل … نسيمك والشوق المُلحُّ عَـلائِمُهْ
عصـوا بك عذّالاً وجـازوا مـراقباً … ولمـا ينفر من قـطا البيد جـاثمـه
وثغـراً بملتف الـوشيـج مُلَثّمـاً … تبسم عن بيض السُيُوفِ ملاغِمُهْ
تُحَجّبُ أقمار الدُجىٰ سحب نقعه … وتحمى الظبآء الحاليات ضراغمه
فمروا ومـا عـاجـوا وللليل منة … عليهم إذا مـا نص بالسـر كاتمـه
واقصى آمـانيهـم تحيـة شيـقّ … تلجلـج حتى تـرجمتها معـاصمه
لعلك تجـزي الشوق يـومـاً بمثله … فتعصىٰ لـواحيه وتقصى لـوائمـه
فـاعتنق الفجـر المقلد أنجماً … علىٰ غصن بانٍ والحليُّ حمائمـه
والثمُ جفنـاً لاكسيف مجـاشـع … مضىٰ بأسير أنت بـالهجر ظـالمه
وهل أجتلي شمس المحيا مـع الدجىٰ … فقد مل موجُ الليل مما الأطمه
وفرعاً على حقفٍ من الرملِ وارداً … تخـال بسحر اللحظ تسعىٰ أراقمه
ألا ظللت واديـك كـل سحـابـةٍ … كجفني لو سحت بماءٍ سواجمه
وصبحـةً غيـر الـظبـا كُـل بـارقٍ … من الغيث حتى يهزم المحل هازمه
لئن بتُّ استسقي الغمـام وطالمـا … جـرت عـرضـاً انـواؤه وقـرازمُـهْ
فكم مـر بي من بارقٍ لا اشيمه … وورد تـروىٰ منهـلاً لاازاحمُـهْ
وما كل روضٍ مونقٍ طاب لامريءٍ … إذا هـو لم تقبـل عليـه سـوائمـه
وأرض رأيتُ البـرقَ فيها مخـائلاً … تروق الورىٰ والرعد تـرغو زمازمه
فما قلت يابشراي إلا لبـارق … اتى من عليّ يضحكُ الأفق باسمه
بمقـدمـة عـاد الـربيـع بنـوره … وحيث من النبت الهشيم رمـائمه
كـأنَّ أبـانـاً في طـلائـع جيشـه … (تحرك يقظانُ الثراب ونـائمـه)
قضى نسكهُ المفروض في خير موقفٍ … تهُـلَّ إلى الرّحمـنُ فيـه مواسمـه
ومذ طاف بـالبيت العتيق وقربت … إلى النص والتقريب منه رواسمه
رأت مكـة أن الـذي رام هجـرة … عليٌّ وأن الـظعنَ فيهـا فـواطمـه
إلـى بلدٍ فيـه مثـال محـمـد … بهيكـل عـدنـان ابنـه ومكـارمـه
إمام هُدىً يدعو إلى الحق معلناً … بتبليغـهِ الأحكـام والله عـاصمـه
يـزر على النـور الألـهي بـرده … وتلوى على مثل الهـلال عمائمه
له القلم الماضي بحكمٍ وحكمة … إذا اسلم العضب اليماني قائمـه
يمـج على الطرس البهيـج لعابه … فتحيى مجـانيه وتـردى علاقمه
أقـام دعـام الفخر لامـا تهدمت … على نهشلٍ بالشعر قبلاً دعائمه
ويوم تشيب الحُسن غضٍ شبابـه … رقـاقٌ حواشيـه عـذاب نسـائمـه
تجـاذبت الأسمـاع الحـانَ بشـره … وخامرت الأرواح طيبـاً قسـائمـه
غنمت به البشرى باسعد قادمٍ … لقد عاد من مسعاه جم غنائمه
نظمت به عقد التهاني مرصعاً … فلا عيب فيه غير أني ناظمه
إلىٰ خير مولىً هاشميٍّ مديحه … تقلده في جيده الدهر خادمه

وقال يهنيء السيد عدنان بزواج صهره السيد محمد علي غياث :

زف شمس المُدام بدرُ الجمـال … فـاجتلى الأنُس في قران الكمـال
فاصطبح واغتبق كؤسك صرفاً … في ضحىٰ غـرةٍ وليـل قـذالِ
وارتشفهـا ممـزوجـةً بـرضـاب … وأطـرحهـا مقتـولـة بـالـزلالِ
من يـدي أهيفٍ تمـايـل تيهـاً … بين سكر الصبا وسكر الدلال
فيمينـاً بـريقـهِ وهـو اشهىٰ … من شمـول مصفق بـالشمـال
قـد سقى بـابليُّ لحظية راحـاً … حرمت صحوتي بسحر حلال
يـا غـزالاً غـزا الفؤاد بـطرفٍ … ثـعلّي يعـطو بجيـد غـزالي
أهمـل الدمع لام صـدغك لما … إن بـدا معجماً بنقـطةِ خـالِ
رقصت قـرطك الحُليُّ بما غنتّ … فـاصغت مسـامع الخلخـال
جـمـع الأنس والشقـائق والنر … جس غصنٌ يميس فـوق جبـال

فهـو روضٍ على كثيبٍ من الـرد   ف وبـدرٌ في ليـل جعـدٍ جفـال
علق القـرطُ كـالصليـب ولكـن   طـوق الجيـد معلمـاً بالهلال
أن نـظام ثـغـره جـوهـريٌّ   قـد أرانـا صحـاحـه كـاللئـالي
كلمـا افتـر سـافرا قـال أقـرأ   سـورة الفجـر تحت عشـر ليـالي
أطلـع الشمس في الدُّجىٰ فرأينـا   ممكنـا بالـوجـود بعض المحـال
ثم قلنـا إن ردت الشمس ليـلاً   لـعلي فـتلك بـعض المعـالـي
الفتى الهاشمي من آل عدنا   ن بأعلىٰ بيت وأطهر آل
ضحك الدهـر بعد طـول عبوس   لاتصـال الأفـراح بعـد انفصـال
جاء يهدي آلهنا لسيد فهر   سيفها المنتضىٰ ليوم النضال
آيـة الله «مثـل الـدين شخصـاً   لكـن فـيـه أجله عن مثـال
فلك دائـر على محـورا الحق   تـرى الشهب فيـه غُـرَّ الخـلال
قيل في حد ذاتـه الجوهـر الفر   د ولا فصـل أن ذا الجنس عـالي
ليس تجرى العشرُ العقول بمضما   ر عـلاه كـأنـهـا في عـقـال
قـل لمن رام أن يجـاريـه أقصـر   ايـن من لاحـق دبيـب النمـال
فاقتبس من علومه قبسة العجلان   لا تـصـطلي بنـار الـجـدال
قـام يـدعـو إلى الهـدى بلسـان   صـارم حـز في وريـد الضـلال
يـا مفيـد الأنـام في خيـر ارشـا   دٍ لأنت الصـدوق عنـد الأمـالى
أنت شمس تعمى بها الأعين الرمد   فتـأوي من غيهـا في ظـلال
لـك كف تقبـل الـوفـد منهـا   بحـر جـودٍ من دونـه لمع آل
لك تهدي البشرى باسعد يوم   انتجت فيه عاقر الأمال
أرضعت طفل روضهِ حُلم السحب   وشـب الـزمـان بعـد أكتهـال
نفـلُ الأنس قد زهـا فـاغتنم فيه   الـهـنـا إنـه مـن الأنـفـال
كـل عقـدٍ مُفصـلٍ من مـديـحٍ   هـو فيمـا حـويت كـالأجمـال

وقال مهنئاً الشيخ عيسى بن صالح الجزائري عند قدومه من الحج في شهر ربيع الأول ١٣٣٨هـ ويتطرق فيها إلى مدح السيد عدنان:

جلا المعرف غصناً يثمر القمـرا   تهـل بـالنسـك عينـاه إذا نـظرا
ريم تعرض لي في الركب عن غرض   وليلة النفـر عني معـرضـاً نفـرا
ومـا بـدا سـانحـاً إلّا تعيّفـه   صب تـطيـرّ بـاللاحى إذا زجـرا
لثمتـه بلحـاظي وهـو ملتثم   وردّ طـرفي حسيراً عنـه إذ حسرا
كأن ماء الصبا يجري بـوجنتـه   والخـال زورق مسك فـوقه عبـرا
يعـطو بـاتلع كـالمـرآة لاح بهـا   رسم من الثغر يدعى العقد والدررا
ولـيلة بـات يـجلو من اشعتـه   سيفاً به حزَّ نحر الفجـر فانفجـرا
كأنَّ في نجمها من ثغره فلجاً   وفي غيـاهبهـا من طـرفـه حـورا
والـراح في ثغره تجلىٰ وفي يـده   وجمرة الشوق تهوى البارد الخصر
أشكـو لـه أمـر أشـواقي وأدمعنا   قـد التقين على الأمر الـذي قدرا
قـاس يـرق لعتبـي أنني رجـل   قلبـي كليم الهوىٰ قد فجرّ الحجرا
حتى إذا لاح ثغـر الفجر مبتسماً   وراح يطعن من جيش الدجىٰ ثغرا
ودعتـه واستقلت بـي مـطهمّـةٌ   دهماء لم تعرف الأوضاح والغررا
من السـوابح في غمـر تعب بـه   وتنثني عنـه لاورداً ولا صـدرا
يسـوقها الـرعد في جـو تمر بـه   مـرَّ السحابـة لم ترسـل به مطرا

عذراء قد حملت بالركب فانتبذت   بهم ومـا يممت نخلاً ولا شجـرا
حتى اتتنـا بعيسىٰ ايـة ولـقـد   تمثـلّ الروح بـالبشرىٰ لهـا بشرا
بخيـر من حـج بيت الله واعتمرا   وخيـر من عقـد الأحـرام واتـزرا
[illegible]   في موقف يدهش الألباب والفكرا
ويملأ الواسعين السمـع والبصرا
لولا السكينة تدني خطوه لجرىٰ
زلفىٰ إلى الله إهـلالاً بمـا أمـراً

كأن شخصـك فيهم قـائم علم   فكلمـا اضمـرتـه غمـرة ظهـرا
يضيء نورك للساري إذا خطرت   بـه الديـاجي بقفر ينبت الخـطرا

فيجتلي نار موسى وهي نور هدىٰ   ويجتدي نور عيسى وهو نار قرى
ما خامروا الطيب فأعجب كيف قد نشقوا فضائلاً منك يذكو نشرها عطرا
يتلوك في كـل صف قوس دايـره   يمـد نحـوك من الحاظهٔ وتـرا
وكلمـا أزدحموا كـالورد في ظمـأ   أرويتهـم بيمين تقتل العسـرا
يـد جرت عيلمـاً علماً ومكـرمة   كـأن من بحر (عـدنان) لهـا نهرا
ذاك الذي أن وصفنا نصف ملكـاً   قد شرف الله في تجسيمـه مضرا
هو الإمام الذي يهدي الورىٰ سبلاً   إلى الـرشـاد فتقفـو خلفـه الأثـرا
أن تحجب الغيبة الكبرىٰ صباح هدى   ويصبـح الحجة المهدي منتـظرا
فإنك النائب الفرد الـذي ظهرت   آيـاتـه محكمـات فصّلت سـورا
فرع جرىٰ فيه حكم الأصل حين غدا   وزيره الروح «عيسىٰ» قائماً وزرا
بفضله عـاد باب الـرشد منفتحـاً   يـرد عنـه لـواء الغـي منكسرا
اكـرم بـه قـادمـاً أدّىٰ منـاسكـه   وطاف لما قضىٰ من نسكـه وطرا
سعىٰ وقصـر وهو المستـطيـل إذا   سعي لنيل المساعي الغرما قصرا
ابدت لنا في ربيـع الأنس طلعته   نـوراً ودوح الأمـاني اينعت ثمـرا
وغـردت بالتهـاني كـل صـادحـة   طير الهنا وحداة الركب والشعرا

ولـه مادحـاً السيد محمـد علي بن السيد بـاقـر غيـاث المتـوفى سـنة ١٣٨٢هـ وهو صهر السيد عدنان الغريفي وتاريـخ القصيدة غرة جمادىٰ الثانية ١٣٤٢هـ:

مـا بال شـوقي على النـوىٰ زائـد   والـطرف لا جـامـد ولا راقـد
والـقـلب لا يـتـرك أدّكـار كـم   كـأنـه في النـوىٰ لكم واجـد
فـارقـتكـم والـفـواد عـنـدكـم   وغبتـم والهـوى بـكم شـاهـد
ليت النـوىٰ اعرضت عـوارضهـا   عنا وغـام العـذول والحـاسـد
ولـيت عـيـشـاً صـفـت مـوارده   بـالقـرب منـا زمـانـه عـائـد
نـلت بـه كـل منـيـة امـمـاً   حتى الثـريـا لمستهـا قـاعـد
الهـو بما شئت من هـدىً ونـدىً   كـأنني في يـد العُلىٰ سـاعـد
فـالآن لـم يبـق غيـر ذكـركـم   تـعلّتي بـل انيسـي الـواحـد

* * * *

مـا الـروض تغـدوه كـل سـاريـة   وطفـاء من مثلهـا لهـا رافـد
تـصحبـه والبـروق سـائقهـا   يحـدو بها الـرعـد والصبا قـائد
تضحـك عن ثغـر ظـافـر فـرح   فيـه وتبـكي بـادمـع الـفـاقـد
حتى تـروي ثـراه من ظـمـأ   غيثـاً فيصبى جمـالـه الـرائـد
تصـوغ في حـافـتيـه من زهـر   سبـائكـاً يستشفهـا النـاقـد

* * * *

كـلاّ ولا المـاء سـال جـدولـه   كـالسيف جليٌّ فـرنـده الغـامـد
ينـطبع الـظل فـوق صفحتـه   كـأنـمـا عـام لـجّـه الـوارد
ينسـاب كـالأيم ثم أن مشـطت   يـد الصبـا وفـرتّيـه يستأسـد

* * * *

يبسم في الأرض للصـدى الوارد   عـن سمط ثـغـر مـؤشـر بـارد
يطرب في جريه الغصون حواليه   فـمـن مـائـل إلـى مـائـد
صـاف وقـد سـال خلتـه راكـد   سـاج وقـد ذاب خلتـه جـامـد

* * * *

كـلاّ ولا الـراح أطلعت شهبـاً   في الكـأس يعشو لنورها العـامـد
يـتـرعهـا لـلنـديـم ذو هـيـف   في وجنتيـه لشربهـا شـاهـد
كـأنـهـا في بـنـانـه قـبـس   في عنم يصـطلي بـه الـواقـد

إذا أباريقها بها ركعت … بات لها كل شارب ساجد

* * * *

كلّا ولا الغيد تنثني مرحاً … زارت على غفلة من الراصد
إن ذعرت اتلعت بسالفتي … ريم من العفرراعه الصائد
تسكرني بالحديث عاتبة … كما وهى العقد من يد العاقد
زارت وسكر الدلال يعطفها … كعطفة الغصن في يد العاضد

* * * *

كلّا ولا الصحب في منادمة … ينظمهم عقد مجمع حاشد
تفتض بكر الحديث من طرب … بين طريف الشؤون والتالد
كأنما أنجم السماء إذا … طالعتنا كلها لنا حاقد

* * * *

كلا ولا نظرة النعيم لدى … عيشي بارضي ولوغدا خالد
كلا ولا البدر في الظلام ولا … النجم ولا الفجر نوره صاعد
يطربني بعد بعدكم أبداً … كلا ولا راق طرفي الساهد
يا أيها الخل دعوة صدقت … دعا بها ماجد إلى ماجد
رفقاً بصب بوصلكم طمع … شوقاً وفي الناس غيركم زاهد
طوقته قبل بالندى مننا … فلم يزل شاكراً لها حامد
فاسمح بوصل يحيه زمن … فإنه إن جفوتم بائد
فالشكر منه إليك متصل … والشوق منه على النوى زائد

وقال يمدح الشيخ عيسى بن صالح الجزائري الذي كان ينوب عن السيد عدنان. ويبدو من الأوراق التي وصلتنا محتوية على بعض شعره ومنه هذه القصيدة المدونة بخط يده، إنه كان وهو مقيم في بلدته (الحي) يظل على صلة بالسيد عدنان ومن يلوذ به من الأفاضل، فيراسلهم ويمدحهم وهو بعيد عنهم، إذ إنه قد سجل في آخر القصيدة اسم (الحي) وتاريخ الأرسال: غرة جمادي الثانية سنة ١٣٤٢:

تقبيلُ كفك فضلٌ صدني الزّمنُ … عنه وكم هو لي بالصد يمتحنُ
يعوق سعي المُنى عندي فأوسعها … نُجحاً ويغمزُ من عزمي فلا أهنُ
إن صدني دون تشريفي بقربكُمُ … بحيثُ تنعمُ فيه العينُ والأُذُنُ
فلم يحلْ عنْ مسير القلبِ نحوكمُ … وهو التواصل لاأن يقرب البدن
ما انفك يخذلني نُطقي فينجدني … عند الفراق وأنأى وهو لي سكنُ
يترجمُ الشوق عني في صحائفهِ … حتى يكاد عليها ينطق الشجن
كَلّفتُهُ فقر التسليم عن كثب … إليك وهو بما كلفته قمَنُ
فلم يدع فكرةً إلا ألم بها … في النظم وهو على الأفكار مؤتمنُ
فجاء يبذل أقصى جهده ولهُ … ببذله الجهدُ عذرٌ وجهُهُ حسنٌ
مجانب المدح والأطراء معترفاً … بالعجز عن نيل ما كلتْ لهُ الفِطَنُ
وليس بدعاً إذا أعيى عليه وإن … أمدّهُ مدمعي والبحرُ والمُزُنُ
فذاك شوط قد استخذى بحلبتهِ … عن أن يخبَّ إليها السابق الأرنُ
وكُنْتَ أعجزتهُ شُكراً على مننٍ … وكلما كلُّ جاءت بعدها مِنَنُ
فقام يدعو لك الرحمنُ مبتهلاً … بإن تحوطك من تسديده جُنَنُ
فاقبل بذا شاهد الإخلاص ممتزجاً … بالقلب ينطق عنه السرو العلن

وقال يمدح السيد عدنان:

شباب نسيمه الربيع المُنورا … به تلبس الأيام وشياً مُحبرا
تجللت الأكام مما يحوكُهُ … من الزهر برداً بالورود مزررا
يموج إذا مر النسيم فتلتقي … أواذي لم يملك بها الطرف معبرا
وقفت عليها اللحظ حيران شاخصاً … لبهجتها أو ماشياً متعثرا
يغار لأعطاف تعانقها الصبا … فتهوي ثغورٌ فوقها تلثم الثرى
إذا قابلتها الشمس قصر ضوؤها … حياءً فخلنا شامس اليوم مُقْمِرا
وأن بسمت للنجم ضاحك مثلهُ … على الأرض كافوراً تخلل عنبرا
وأن نهت تحت الأصيل رأيتها … لحاظ الدمى لم تصحُ من لوثةِ الكرى

● ● ● ●

خليليَّ هل من وقفةٍ تريانها … لماماً وإن لم تنظرا فتنظرا
على مربع ألقى به الغيثُ رحلهُ … فعرف من أعلامه ما تنكرا
تنكرن حتى كنتُ أسري فلم أكد … أعج عليه العيس إلا تذكرا
فلما تغاضى الدهر عنه والبست … معالمُهُ ثوباً من العيش أخضرا
أنخنا عليه العيس كالهضب بعدما … تغمرت منها ما يروي ابن أحمرا
ولاحت لنا حُمْرُ القباب كأنها … مصابيح يخفيها الظلام لتظهرا
تعرض منها للتحية أهيفٌ … يذم النوى ثم انثنى يحمد السرى
نوىً قذفتُ من قبل غادرن دوننا … مهامه تنضى العيس فيها وابحرا
ويارب كأس من رضاب شربتها … حلالاً إذا النجم المحلق غوّرا
وعانقت غصناً والتثمت شقائقاً … وآنست مصباحاً وغازلت جؤذرا
لدى روضةٍ في أرضها تشبه السما … بها البدر ما بين الكواكب اسفرا
كساها الربيعُ الوشي طرز نسجهُ … ملثُ العزالي رائحاً فمبكرا
فلما بدت للشمس صبحاً وأرسلت … شعاعاً على مرآتها فتكسرا
رأيت بها أخلاق عدنان قابلت … محياه والبشرى فأبهجن منظرا
رأيت بها للعلم والفضل مصدراً … قريباً وللنور الألهي مظهرا

إمام يكاد الغيب ينطق عندهُ … إذا هو فيما يحكم الله فكرا
هو الآية الكبرى التي تعجز الورى … تقاصر عنها خاضعاً من تجبرا
له منطق فصلُ الخطاب ومزبر … به يسترق الدهر أن هو حررا
ونور يقود الناس في منهج الهدى … وبأس يرد الحادث المتنمرا
تيممه العافي فأبرق عارضاً … ولاحظهُ الرائي فأشرق نيرا
أبر على الدنيا سناءً ومفخراً … وزاد فلم يدرك له الوهمُ مخبرا
وراءك عن تعريفه لست مدركا … أراك بذي الأبعاد عرفت جوهرا

وقال:

قفا بالعيس تشعرها القتود … نحيي الركب أو تقضى العهود
وخدن مع الظلام بمستنير … يصدو في تبسمه وعود
تبدى للوداع فقلت وعد … فنهنهني بمقلته الوعيد
رأى برقاً فقابله ابتساماً … كلا البرقين من ظمأى بعيد
أعدّ وميضه فأخال ريا … به اسقى ويكذب إذ أرود
لعل البرق أطمع ثم أكدى … له عذر كما برق الحديد
فما للثغر وهو يضم شهداً … عليه كل مشتار شهيد
ألا عل بوصلك قلب صب … تناوبه غرامك والصدود
يسهد ليل هجرك وهو عام … ويصبح ليس بعذره لبيد
ليال قد وصلت بهن بيض … وأيام تغيب بهن سود
وصبح قد طلعت به علينا … فكنت الشمس مطلعها سعيد
تحجب ثم اسفر في ربيع … كما فتحت كمائمها الورود
تشوق أن ينال مزيد فضل … بحيث يتم فيه فلا مزيد
فادرك ما يؤمله بسعي … كذا المسعى يبلغ ما يريد
ولما أن حدا ابل الأماني … تقاذفها المفاوز والنجود
خففن إلى المعروف فيه طلقاً … وعدن وثقل مغنمها قيود
أفاض بهن مزدلفاً بجمع … مسددة تمر فلا تحيد
ويممها المحصب والمصلى … بمزدحم تعط به البرود
قضى نسكاً فعاد فقلت بشرى … تعود بك المسرة إذ تعود
نجيح القصد ما وسعته وصفاً … أرا جيز الكلام ولا القصيد

وهـل وسعت فتى قد مت رحمـا	إلى عـدنـان فهـو لـه عميـد
فـذاك بـه تشـرف كـل نجـر	طريف في المفـاخـر أو تليـد
له فصل لخطاب لكـل فـصـل	تفيـد بـه العقـول وتستفيـد
فمن بـك في محبتـه سعيـدا	تجلت في مطالعة السعـود
لقـد صدحت بمقدمـك التهـاني	فـكـل صـدى تـردده نـشيـد

وإذا كنا قد أكثرنا في نشر شعر هذا الشاعر في ترجمته هذه مع ان شعره لا يخرج عن موضوع واحد هو مدح السيد عدنان الغريفي وبعض من ينتمي اليه ـ إذا كنا قد فعلنا ذلك ، فلأن من حق هذا الشاعر أن نحفظ له ما بقي من شعره ، ثم لأن من حق السيد عدنان أن نسجل له أياديه البيض على الشعر وأهله في تلك الفترة وفي ذاك المحيط، فهو لم يكن مرجعاً دينياً كبيراً فحسب ، بـل كان نـاديـه ملتقى الأدبـاء والشعـراء يغـدق عليهم مـا يغـدق ويرفدهم بما يرفد.

وأهم مصادرنا في هذه الترجمة هو السيد علي العدناني الغريفي.

المولى الخواجة حيدر علي بن الخواجة علي بخش:

المتخـلص في شعره بآتش وينتهي نسبه إلى الصوفي الشهير الخواجة عبيد الله الأحرار.

ولد في حدود سنة ١١٩٢ وتوفي بمدينة لكنهو سنة ١٢٦٣ ودفن فيها.

كان من فحول شعراء الشيعة في الهند زعيم رئيس عارف متصوف ولد في مدينة فيض آباد الهندية وفقد والده في الصغر ممـا أضطره أن يتـرك دراسته وينخرط في حاشية النواب الميرزا محمد تقي الترقي حاكم فيض آباد وبعد مدة هاجر إلى مدينة لكنهـو إحدى المـراكز الشيعيـة في الهند ومهـد الأدب والشعر والشعراء ثم أولـع بالأدب والشعر وأخذ يتابـع دراسته هنـاك وحضر في فنون الأدب والشعـر على جملة من فحـول الشعراء والأدبـاء منهم الشـاعـر الشهـير المصحفي ونبـغ وأخذ يتردد اسمه في المحافل الأدبية وكان يتقن اللغة الفارسية مما ساعده في تحقيق وتتبـع الأدب الفارسي والإطلاع على آثار كبار شعراء إيران أمثال حافظ الشيرازي وسعدي وغيرهم وحفظ أشعارهم وكـان ينظم الشعـر باللغة الأردوية بأعلىٰ مستوياتها الأدبية وطبـع الجزء الأول من ديوانه في حيـاته بلكنهو ثم جمـع تلميذه الميردوست علي خليل باقي أجزاء ديوانه وباشر بـطبعه سنـة ١٢٦٧هـ أي بعد وفـاته بـأربـع سنـوات ثم أعيد طبعـه مراراً في الهنـد وباكستان. وذكره صـاحب كتاب (تاريخ الأدب الأردوي) ومحمد حسين آزاد في (آب حياة)[١].

السيد مير خـير الله بن السيد رحمـة الله بن السيد أبـو تراب الهنـدي القزويني الحائري:

ولد في لكنهو من بلاد الهند ثم هاجر إلى إيران واستقر في قزوين وأخذ العلم من الشيخ محمد تقي الفرشته الطالقاني المتوفى سنة ١١٨٦هـ والمولى ملا محمد الملائكة البرغاني المتوفى سنة ١٢٠٠هـ ثم هاجر إلى كربـلاء وحضر على الوحيد آقا باقـر البهبهاني المتـوفى سنة ١٢٠٥هـ واختص بـالسيد مهـدي بحر العلوم المتوفى سنة ١٢١٢هـ وكان المترجم له من أعيان العلماء وله ثروة وجـاه توارثه عن والده السيد رحمة الله وله آثار ومآثر في العتبات المقدسة في العـراق منها في الروضة الحيدرية في النجف الأشرف وهـو إحداث السـراديب وتعبيد أرض الصحن وفرشه بالصخرالمرمر في سنة ١٢٠٦هـ واسم المتـرجم له مـع خمسة أبيات عربية وفيها تاريـخ البناء والتعمير المذكورة منقوش في صخرة كبيرة على يمين الخارج من الصحن الشريف من الباب الشرقي الكبير ومقابلها أبيات فارسية وفيهـا أيضـاً اسمـه مـع تاريـخ التعمـير والأبيات العـربية من قصيـدة للشاعر السيد محمد زيني المتوفى سنة ١٢١٦هـ ومثبتة في ديوانه المخطوط وهي تشتمل على عدة تواريـخ مطلعها:

(١) الشيـخ عبد الحسين الصالحي.

لقد انعم الباري وجل عطاؤه	على (مير خير الله) وهو رجاؤه

إلى أن قال وهي المكتوبة على الصخرة:

جزى «مير خير الله» خيراً إلهه	كما جل في الدارين منه جزاؤه
فقد كان تعظيم الشعائر دأبه	وفي كل ما يرضي الإله اعتناؤه
توعر حينا صحن روضة حيدر	فسوّاه سهلاً للمشاة فناؤه
ومهده والشكر لله دأبه	فاثنت عليه أرضه وسماؤه
فأنشأت لما أن بناه مؤرخا	«بنا مير خير الله باد بهاؤه»

وذكر العمارة المذكورة الشيـخ جعفر آل محبوبة في كتابه (ماضي النجف وحاضرها) قال: (كـانت أرض الصحن المطهـر القديمة منخفضة وهي محـل القبور التي يدفن بها اليوم ولمرور عشرات من السنين وما يحصل فيها من مجاري السيل وهبوب الرياح وما تجلبه من التراب والأحجار الكثيرة ارتفعت الأرض المحيطة بالصحن المقدس من سائر جهاته وتوعـرت أرضه لكثـرة ما فيهـا من القبور والمحاريب وكانت سائر المحاريب ظاهرة بـارزة على وجـه الأرض حتى كان عصر العلامة الكبير السيد محمد مهدي بحر العلوم فلما رأى ذلك ولم يكن بالسهل المشي في الصحن المقدس أمر بطم الصحن وعملت السراديب على ما هي عليها اليوم وعبدت أرضه بالصخر المرمر وكان ذلك سنة ١٢٠٦هـ وكان الباذل لمصروفاته مير خير الله الإيراني. .) ثم ذكر أبياتاً في التـاريخ لم تكتب على الصخرة وهي:

وان شئت تاريخاً ليوم بنائه	لتعلم من قد كان منه بناؤه
فقل «مير خير الله بانيه جده»	وذلك تاريخ جلي خفاؤه
وقل «مير خير الله وطأ بانيا»	فجل بذا التاريخ منه رجاؤه
وقل «مير خير الله لله حبه»	فمن ذلك التاريـخ بان ولاؤه
واتبـع تواريخاً اتتك مؤرخا	«بنا مير خير الله باد بهاؤه»

والصحيـح أن المترجم لـه هندي لا ايـراني[١].

السيد خير الدين بن السيد مير خير الله بن السيد رحمة الله الهندي الاله الآبادي الحائري القزويني:

المتوفى بعد سنة ١٢٤٢هـ.

كان من أعلام الشريعة وائمة التقليد والعلماء المبرزين وهو أبو أسرة آل خير الدين ويقال آل خيري من البيوت العلمية المعروفـة في كربلاء وقزوين التي ظهر منها غير واحد من العلماء الأعلام وبزغ نجمها في أفق كربلاء وقزوين في أواخر القرن الثاني عشر ومطلـع القرن الثالث عشر منذ عهد والد المترجم له السيد مير خير الله، وهم منسوبون إليه إلا أنهم اشتهـروا بآل خـير الدين وآل خيري ولا يزال أحفاده يقطنون في كربلاء وقزوين أدرك المترجم له السيد علي الطباطبائي ونجله السيد محمد المجاهـد في كربـلاء وتخرج عـلى الشيـخ محمد صـالـح البرغـاني المتوفى سنـة ١٢٧١هـ وشقيقه الشهيـد وحضر مـع مشايخه الجهاد ضد روسيا القيصرية في سنة ١٢٤١هـ ومنها رجـع إلى موطنه الهند في سنة ١٢٤٢هـ وكان من أكابر العلماء ومراجـع التقليد والفتيا هناك. له مؤلفات جليلة منها الملخص في المعاني والبيان، كتاب هـدية العـزيز وهـو جواب عـلى كتاب التحفة، وكتاب نقد البلاغة وهو شرح لكتابه الملخص[٢] ذكره والدي في كتابه الغرر والدرر المخطوط وأشار إليه شيخنا الأستاذ آغابـزرك الطهـراني في الكرام البرره. . . ولعله والد السيد نـوازش علي آل خـير الدين الـذي جاور الحائر الشريف حدود سنة ١٢٢٥هـ إلى أن توفي بها في سنة ١٢٦٣. . .)[٣].

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٢) السيد إعجاز حسين الكنتوري النيشابوري كشف الحجب والأستار عن اسماء الكتب والأسفار ص ١٦١ وص ٥٨٥ طبعه كلكته سنة ١٣٣٠هـ.

(٣) الصالحي.

الخليل بن أحمد الفراهيدي:

مرت ترجمته في موضعها من الأعيان، ونضيف إلى ما هنا لك هذه الدراسة:

هو رائد المعجمات الأولُ في العربية الذي ابتكر: التأليف المعجمي، واخترع المنهج الذي اتبعه، واخترع في ترتيب مواده سبيلاً بكرا هداه إليه اشتغاله بالموسيقى، فكان السابق في هذا المضمار دون منازع، فهو أول من جمع اللغة في معجم جديد بهذا الاسم.

وكان الخليل عبقرياً بعيد الأفق، عليما واسع العلم والثقافة، ومخترع علم الموسيقى العربية. وجمع فيه أصناف النغم، وهو أول من جمع اللغة؛ وأول من ابتكر المعجم العربي، وبعض العلوم الرياضية، وما عُرف في عصره أذكى منه وأعلم وأعف وأزهد.

وأعانه فهمه للإيقاع والنغم على ابتكار طريقة جديدة في «العين»، وعلمه بالموسيقى حمله على أن يختط طريقة في معجمه ناظراً إلى الأصوات اللغوية ومخارج الحروف، فبدأ بحروف الحلق لأن الحلق أبعد مخارج الحروف، وهكذا صنع سُلَّمَهُ اللغوي صاعدا فيه من أقصى الحلق حتى ينتهي إلى الشفة، وجعل ترتيب معجمه على الحروف بحسب المخارج، وقد كان موفقاً في منهجه، فتمييز الحرف بالصوت أوضح من الكتابة.

كتاب العين

منهج الخليل في العين منهج هداه إليه اشتغاله بالموسيقى والأنغام، وساعده كثيراً ذهنه الرياضي وعقله الكبير وعبقريته التي لم تشهد العربية لها مثيلاً إلا نادرا، ويكفي للدلالة على مواهبه الفذة أنه ابتكر قواعد علم لم يدع لمن بعده فيه مجالاً، بل ابتكره كاملا؛ وذلك علم العروض، واخترع علم النحو، واخترع علم الموسيقى العربية، فلا غرابة على هذا الذهن الجبار أن يكون أول مبتكر للمعجم العربي.

وهذا المنهج قائم على الصوت، لأنه أوضح في التمييز والدلالة على مخرج الحرف من الكتاب، فإذا كتبنا هذه الكلمة (نفر) دون نقط تعذر على القارىء أن يقرأه كما أراد الكاتب، أما النطق فلا يخطئه، وفي العربية خمسة حروف ذات صورة واحدة إذا لم ننقطها، فالباء والتاء والثاء والنون والياء في أول الكلمة ووسطها ذات صورة واحدة.

ولعل إيثار الخليل هذا المنهج يعود إلى رغبته في تمييز الحرف بالصوت لأنه أقوى دلالة وأكثر وضوحاً وتمييزا من الكتابة، وهذا تفسير قريب من قريب، فالموسيقى صوت، والخليل مبتكر هذا العلم في تاريخ العرب، فإذا بنى معجمه عليه فلا غرابة ولا إتهام أنه أقتبس طريقة سُبِقَ إليها.

وصنع سلمه اللغوي، واختار أن يصعد فيه من أسفله لا أن يهبط من أعلاه، ورتب معجمه على الحروف بحسب مخارجها، فبدأ بحروف الحلق، لأنه أبعد مخارجها، ويبدأ بالصعود تدريجاً حتى تنتهي إلى الشفة وجعل ترتيب الحروف هكذا: ع، ح، هـ، غ، خ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، ت، د، ظ، ذ، ث، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، ي، أ.

وسمى كل حرف كتاباً، وافتتح معجمه بحرف «العين» وسماه كتاب العين، فكتاب الحاء، فكتاب الهاء، فكتاب الغين، فكتاب الخاء وهكذا؛ وأطلق اسم كتابه الأول وهو «كتاب العين» على المعجم كله لاستهلاله به.

وتتبع الخليل أبنية كلام العرب تتبعاً علمياً دقيقاً، وحصرها بين الثنائي والخماسي، وفصل الألفاظ المعتلة جاعلاً الهمزة من حروف العلة، مُفرداً لها باباً بعد أبواب الثلاثي؛ ذكر فيه الثنائي المضاعف المعتل والثلاثي المعتل بحرف، والثلاثي اللفيف، وفرَّق الأبنيه على كل باب، مبتدئاً بالثنائي المضاعف، فالمضاعف الثلاثي الصحيح، فالمضاعف الثلاثي اللفيف، فالرباعي والخماسي، وجعل الأخيرين في باب واحد لقلة الألفاظ التي وردت منهما، وأشار للمستعمل والمهمل في أبنية الثنائي والثلاثي، أما الرباعي والخماسي فأغفل الإشارة إلى المهمل منهما؛ لأنه فوق الحصر.

وابتكر بعد هذا كله نظاماً آخر اتبعه بعض العلماء ممن جاء بعده وألفوا معجمات لغوية، وهذا النظام يقوم على ذكر الكلمة وقلبها إلى كل وجه بحيث يتألف من مقلوباتها كلمات، ويذكرها جميعاً في موضع واحد، فكلمة «الضرم» ذكرها في حرف الضاد، وقلبها حتى تولدت منها هذه الكلمات: ضمر، مرض، مضر، رمض، فإذا لم يستعمل العرب شيئاً من هذه الاستعمالات أشار إليه، وإذا جاء إلى كتاب الراء والميم أغفل ذكر الرضم والرمض والمضر والمرض لأنه ذكرها في كتاب الضاد.

وزاد على هذا أنه يذكر كل نوع من الصحيح والمضاعف والمهموز والمعتل على حدة ليميز كل نوع من غيره[1].

ولمنهج الخليل موقع عند من يرى أن الكلمات المشتركة في الحروف ــ وإن اختلفت في الترتيب ــ تشترك في المعنى أو المصدر الذي تتفرع منه، وهذا يدل على أن الخليل عُني بالتفسير الاشتقاقي للمواد التي يتناولها، ولم يقف عند شرح المادة ومقلوباتها وفروعها على طريق الاشتقاق الأكبر، بل كان يذكر في كل أصل ما تفرع عنه على طريق الاشتقاق الكبير[2]، ويعد الخليل أسبق من ابن فارس وابن جني إلى فهم الاشتقاق الكبير، وهو دلالة الحروف في كلمة من الكلمات ــ على اختلاف ترتيبها وتركيبها ــ على أصل معنوي واحد[3].

ومنهج الخليل ليس سهلاً ميسور الأتباع، بل فيه عيوب؛ وصواه لا تهدي، بل لا صوى تأخذ بيد الباحث، وتوصله لمقصده، لصعوبة ترتيبه، وخلطه بين الثلاثي المضاعف والرباعي المضاعف، واختلاط الأصل بغيره، لذكره الكلمة وما ينشأ عنها بالقلب، مثل: حرب، وحبر، وبحر، وبرح، ورحب، وربح، ومن الصعب أن يعرف أيها الأصل وأيها المطلوب[4].

وليس هذا كل ما في منهج الخليل من هنات؛ بل ثَمَّ هنات أخذها عليه العلماء، لا تتصل بالمنهج وأصوله وقواعده، بل تتصل ببعض المواد التي جاءت في كتابه، مثل: تفرده بذكر كلمات كثيرة لم يُسمَع بعضها.

وفي «العين» هنات أخرى؛ منها: إهماله أبنية مستعملة، وعدم استيفائه الصيغ الواردة في كلام العرب، ووجود أخطاء صرفية، وتصحيف، وتحريف.

وقد أشار ابن منظور في مقدمة اللسان إلى ما يشبه طريقة الخليل في معرض النقد فقال: «كأن واضعه شرع للناس مورداً عذباً وحلأهم عنه، وارتاد لهم مرتعاً مريعاً ومنعهم منه، قد أخرّ وقدم وقصد أن يعرب فأعجم، فرق الذهن بين الثنائي المضاعف والمقلوب وبدّد الفكرة باللفيف والمعتل، والرباعي والخماسيّ، فضاع المطلوب[1]».

وعزا ابن منظور انصراف الناس عن التهذيب والمحكم وإهمالهم أمرهما وعدم الإقبال عليهما، حتى كادت البلاد تخلو منهما، إلى سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب.

الخليل مبتكر لا مقلد

زعم بعض الناس أن الخليل كان يعرف غير العربية، كان يعرف

---

(١) خطبة الكافي ٢٥.

(٢) فقه اللغة الوافي ٢٧٨.

(٣) صحى الاسلام، لأحمد أمين.

(٤) (٥) مقدمة لسان العرب.

اليونانية، ولعلهم أرادوا من هذا الزعم أن يشيروا إلى أن معرفته باليونانية هدته إلى ابتكار منهجه في العين، واستدلوا بصلة حنين بن إسحاق المشهور في الطب بالخليل، فقد جاء في عيون الأنباء[١] ترجمة حنين: «وكان شيخه في العربية الخليل بن أحمد، ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد» وفيه ايضاً[٢]: «أن حنين بن إسحاق كان يشتغل في العربية مع سيبويه وغيره ممن كانوا يشتغلون على الخليل» وهذا يدل على أن حنيناً لزم الخليل وأخذ عنه العربية حتى برع فيها، وأدخل كتاب العين بغداد، وحنين كان يعرف اليونانية، وترجم منها كتباً ورسائل كثيرة لجالينوس وأبقراط، وترجم بعض قصص اليونان، والخليل معروف بالذكاء العبقري النادر، ولا بد أن تثمر هذه الصلة بينهما أن يعرف الخليل اليونانية[٣].

إلا أن هذا القول وهم، فالخليل توفي سنة ١٧٥هـ وولد حنين سنة ١٩٤هـ أي بعد الخليل بأكثر من خمس عشرة سنة، هذا على قول من قال: إن الخليل توفي سنة ١٧٥هـ مع أن هناك من يقول: إنه توفي سنة ١٧٠هـ.

وهذا لا يدع مجالاً للشك في أن الخليل لم يتصل بحنين، وبانتفاء هذه الصلة ينتفي أخذ الخليل اليونانية منه.

ولم يرد هذا الزعم إلا عن ابن أبي أصيبعة عن سليمان بن حسّان.

وإذا افترضنا أن الخليل كان يعرف اليونانية فلا مجال لأن يزعم زاعم أن طريقته في العين تشبه طريقة مؤلفي المعاجم اليونانية، فلم يؤثر عن اليونان أن مؤلفاً صنف معجماً جعل ترتيبه على الحروف بحسب مخارجها مبتدئاً من أقصى الحلق منتهياً بأحرف الشفة.

ونخلص من هذا إلى أن الخليل لم يقتبس منهجه من اليونان.

وهناك قول آخر: أن الخليل اتبع في ترتيب معجمه طريقة الهند في ترتيب حروف هجائها[٤]، فاللغة السنسكريتية ترتب حروف هجائها على حسب مخارجها مبتدئة بأبعد الحروف مخرجاً ومنتهية بأحرف الشفة، وهي اخر درجة في السلم الصوتي للحروف.

وكانت الصلة بين الهند وجزيرة العرب قديمة، وقويت بعد الإسلام كثيراً؛ وكان في الخليج الفارسي عدد كبير منهم، وكان «المحاسبون» لتجار العراق في البصرة وبغداد من السند، وفيهم علماء ومثقفون، وكانوا على صلة بأهل العلم من العرب.

ولعل هذا الرأي أقرب إلى التصديق من سابقه، ولكننا لا نميل إليه، فوجود طريقة لمؤلف في لغة من اللغات لا يمنع أن يصل مؤلف آخر إليها باجتهاده وجهده، ولا يكفي أن نقول: إن الخليل اتبع طريقة الهند في الترتيب لمجرد وجود هذا الترتيب في لغة لم يذكر أحد أن الخليل كان يعرفها، وليس من السهل نقل ترتيب بحذافيره من لغة إلى لغة، لاختلاف النطق بالحروف بين الأمم واللغات والأجناس، بل ان ترتيب حروف الهجاء في السنسكريتية ليس ــ هو ــ ترتيب الخليل عينه.

وفوق هذا لم يكن للهند في ذلك الزمن معجم معروف[٥].

وطريقة الخليل تتفق مع علمه الواسع الدقيق بالموسيقى، فهي تقوم على أساس الصوت، وعلى ما يشبه السلم الموسيقي، فهو اعتمد على مخارج الحروف عندما يُنطَق بها، ونظر إلى الأوتار الصوتية والأصوات اللغوية، فصنع سلمه صاعداً عليه من أسفل حتى ينتهي إلى أعلاه، مبتدئاً بأقصى الحلق، متدرجاً في الصعود حتى يصل إلى الشفة.

وإذا صح قول من قالوا: إن الخليل اتبع طريقة الهند في ترتيب معجمه فإنهم ينسون أن الخليل كان مختاراً فيما يؤثره من الطرق المختلفة لترتيب الحروف الأبجدية، فاختار ما وافق علمه الموسيقي، ولم يجبره على ذلك سلطان نافذ حتى يبطل فضله في الموازنة بين الطرق وإيثار ما هو أوفق منها لرأيه وأسبابه العلمية، ويجب ــ بعد هذا ــ ألا ننسى الفارق الكبير بين القول بترتيب الحروف الأبجدية على طريقة الهند ــ إن صح ــ والقول باقتباس المعجمات منهم.

وفي وسعنا أن نقول: إن الخليل مبتكر في معجمه المنهج والطريقة والترتيب حتى يثبت ثبوتاً علمياً أنه مقلد لا مبتكر؛ ومتبع لا مخترع.

نسبة كتاب العين

اختلف العلماء في حقيقة كتاب العين، أهو للخليل أم لغيره؟ وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، فمنهم من أنكر النسبة ومنهم من أيدها، ومنهم من وقف موقفاً وسطا. والذين أنكروا النسبة كثير؛ منهم: النضر بن شميل، وأبو حاتم، والأزهري، وابن فارس، وابن جني، والقالي، وابن النديم، وأبو الطيب اللغوي، والفخر الرازي، والنووي، وأقوالهم متقاربة ذات دلالة واحدة لا تشير إلى غير الإنكار، فابن النديم يقول: «لم يرو هذا الكتاب عن الخليل أحد، ولا روي في شيء من الأخبار أنه عمل هذا البتة[١]».

وقال أبو عبد الله فخر الدين الرازي محمد بن عمر بن الحسين بن علي التيمي المعروف بابن الخطيب الرازي: «أصل الكتب المصنفة في اللغة كتاب العين وقد أطبق الجمهور من رجال اللغة على الطعن فيه[٢]».

وقال أبو علي القالي[٣]: «لما ورد كتاب العين من بلد خراسان في زمن أبي حاتم؛ أنكره أبو حاتم وأصحابه أشد الإنكار، ودفعه بأبلغ الدفع، وقد غبر أصحاب الخليل بعد مدة طويلة لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون به، منهم: النضر بن شميل، ومؤرج، ونصر بن علي، وأبو الحسن الأخفش وأمثالهم. ولو أن الخليل ألف الكتاب لحمله هؤلاء عنه، وكانوا أولى بذلك من مجهول الحال غير مشهور في العلم تفرد به وتوحد بالنقل له، ثم درج أصحاب الخليل فتوفي النضر بن شميل سنة ثلاث ومائتين، والأخفش سنة خمس عشرة ومائتين، ومؤرج سنة خمس وتسعين ومائة، ومضت ــ بعدُ ــ مدةٌ طويلة ثم ظهر الكتاب بأخرة في زمان أبي حاتم وفي حال رياسته، وذلك فيما قارب الخمسين والمائتين، لأن أبا حاتم توفى سنة خمس وخمسين ومائتين، فلم يلتفت أحد من العلماء إليه يومئذ، ولا استجازوا رواية حرف منه، ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الأصمعي واليزيدي وابن الأعرابي وأشباههم إلى تزيين كتبهم، وتحلية علمهم بالحكاية عن الخليل والنقل لعلمه، وكذلك من بعدهم كأبي حاتم وأبي عبيد ويعقوب وغيرهم من المصنفين، فما علمنا أحداً منهم نقل في كتابه عن الخليل من اللغة حرفاً».

والمعتدلون من المنكرين كالأزهري وأبي الطيب اللغوي ــ الذي اختصر العين ــ وثعلب وإسحاق بن راهويه طعنوا في العين تنزيهاً للخليل وربأ به من خطأ لا يجوز على تلامذته.

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١ : ١٨٤ ــ ١٨٥.

(٢) عيون الانباء في طبقات الأطباء ١ : ١٨٩.

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١ : ١٩٨.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة خليل.

(٥) Al Khalil and theEvaluationof Arabic Lexicography تأليف الدكتور عبد الله درويش.

(١) الفهرست ٤٦ طبعة مصر.

(٢) المحصول في علم الأصول؛ مخطوطة الدار في مجلدين مخطوطين رقم ١٣٠.

(٣) نفي الدكتور عبد الله درويش في كتابه (الخليل والمعاجم العربية) نسبة هذا الرأي إلى القالي، لأن القالي نقل في كتابه (البارع) عن كتاب العين للخليل صراحة، ولأن القالي عند ما ذهب إلى الأندلس وألف كتابه (البارع) أخبر الخليفة حينذاك أن كتابه البارع يزيد على كتاب العين بخمسة آلاف كلمة.

فالأزهري يقول في مقدمة التهذيب عن أقوام يصفهم بقوله: «تسموا بسمة المعرفة وعلم اللغة وألفوا كتباً أودعوها الصحيح والسقيم، وحشوها بالمزال المفسد، والمصحَّف المغير الذي لا يتميز ما يصح منه مما لا يصح، إلا عند الثقاة» وذكر من هؤلاء: «الليث بن المظفر الذي نحل الخليل بن أحمد تأليف كتاب العين جملة لينفقه باسمه، ويرغِّب فيه من حوله[1]».

وعن ابن راهويه: «كان الليث صاحب الخليل بن أحمد رجلاً صالحاً وكان الخليل عمل من كتاب العين باب العين وحده، وأحبَّ الليث أن ينفِّق سوق الخليل فصنَّف باقي الكتاب وسمى نفسه الخليل، وقال لي مرة أخرى: فسمى لسانه الخليل من حبه للخليل بن أحمد، فهو إذا قال في الكتاب: قال الخليل بن أحمد، فهو الخليل، وإذا قال: وقال الخليل مطلقاً فهو يحكي عن نفسه، فكل ما في الكتاب من خلل فإنه منه لا من الخليل»[2].

وقال السيرافي: «عمل أول كتاب العين المعروف المشهور الذي به يتهيأ ضبط اللغة[3].».

وقال ابن المعتز: «كان الخليل منقطعاً إلى الليث، فلما صنف كتابه العين خصَّه به، وحظي عنده جداً، ووقع منه موقعاً عظيماً، ووهب له مائة ألف درهم، وأقبل على حفظه وملازمته، فحفظ منه النصف، وكانت تحبه ابنة عمه، واتفق أنه اشترى جارية نفيسة فغارت ابنة عمه فأحرقت الكتاب، فلما علم اشتد أسفه، ولم تكن عنده نسخة منه، وكان الخليل قد مات فأملى النصف من حفظه، وجمع علماء عصره وأمرهم أن يكملوه على نمطه، وقال لهم: مثِّلوا عليه واجتهدوا، فعملوا هذا التصنيف الذي بأيدي الناس[4]».

وقال ثعلب: «إنما وقع الغلط في كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشِّه، ولو كان هو حشَّاه ما بقي فيه شيء، لأن الخليل رجل لم ير مثله، وقد حشَّا الكتاب أيضاً قوم علماء إلا أنه لم يؤخذ منهم رواية، وإنما وجد بنقل الورّاقين، فاختلَّ الكتاب[5]».

وقال أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي اللغوي مؤلف مختصر العين في أول كتابه: «ونحن نربأ بالخليل عن نسبة هذا الخلل إليه، أو التعرض للمقاومة له والرد عليه، بل نقول: إن الكتاب لا يصح له، ولا يثبت عنه فقد كان جِلَّة البصريين الذين أخذوا عن أصحابه وحملوا علمه من رواته ينكرون هذا الكتاب ويدفعونه، إذ لم يرد إلا عن رجل واحد غير معدود في أصحابه، وأكبر الظن فيه أن الخليل سبَّب أصله، ورام تثقيف كلام العرب، ثم هلك قبل كماله، فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه، فكان ذلك الخلل الواقع به، والخطأ الموجود فيه[6]».

«ومن الدليل على ما ذكره أبو العباس[7] من زيادات الناس فيه اختلاف نسخه، واضطراب رواياته، إلى ما وقع فيه من الحكايات عن المتأخرين، والاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين؛ فهذا كتاب منذر بن سعيد القاضي الذي كتبه بالقيروان، وقابله بمصر بكتاب ابن ولاد، وكتاب ابن ثابت المنتسخ بمكة قد طالعناهما، فألفينا في كثير من أبوابها: أخبرنا المسعري عن أبي عبيد، وفي بعضها: قال ابن الأعرابي، وقال الأصمعي، هل يجوز أن يكون الخليل يروي عن الأصمعي وابن الأعرابي وأبي عبيد فضلاً عن المسعري».

(١) مقدمة تهذيب اللغة للأزهري مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة.

(٢) المزهر ١: ٧٨.

(٣) المزهر١: ٧٦.

(٤) معجم الأدباء ١٧: ٤٦.

(٥) المزهر ١: ٧٨.

(٦) خطبة المختصر مخطوطة الدار رقم ٣٨٦ لغة.

(٧) يقصد ثعلباً في قوله الذي مر الاستشهاد به.

«وكيف يروي الخليل عن أبي عبيد وقد توفي الخليل سنة سبعين ومائة؛ وفي بعض الروايات سنة خمس وسبعين ومائة، وأبو عبيد يومئذ ابن ست عشرة سنة، وعلى الرواية الأخرى: ابن إحدى وعشرين سنة، لأن مولد أبي عبيد سنة أربع وخمسين ومائة، ووفاته سنة أربع وعشرين ومائتين، ولا يجوز أن يُسْمَع عن المسعري علمُ أبي عبيد إلا بعد موته، وكذلك كان سماع الخشني منه سنة سبع وأربعين ومائتين، فكيف يسمع الموتى حال موتهم؛ أو ينقلون عمَّن ولد بعدهم[1]».

ويقول الزبيدي أيضاً: «ومن الدليل على صحة ما ذكرناه أن جميع ما وقع فيه من معاني النحو إنما هو على مذهب الكوفيين، وبخلاف مذهب البصريين، فمن ذلك ما بديء الكتاب به، وبُني عليه من ذكر مخارج الحروف في تقديمها وتأخيرها، وهو على خلاف ما ذكره سيبويه عن الخليل في كتابه، وسيبويه حامل علم الخليل، وأوثق الناس في الحكاية عنه، ولم يكن ليختلف قوله، ولا ليتناقض مذهبه، ولسنا نريد تقديم حرف ــ خاصة ــ للوجه الذي اعتل به، ولكن تقديم غير ذلك من الحروف وتأخيرها، وكذلك ما مضى عليه الكتاب كله من إدخال الرباعي المضاعف في باب الثلاثي المضاعف ــ وهو مذهب الكوفيين خاصة ــ وعلى ذلك استمر الكتاب من أوله إلى آخره.

ولو أن الكتاب للخليل لما أعجزه ولا أشكل عليه تثقيف الثنائي الخفيف من الصحيح والمعتل، والثنائي المضاعف من المعتل، والثلاثي المعتل بعلتين، ولما جعل ذلك كله في باب سماه اللفيف، فأدخل بعضه في بعض، وخلط فيه خلطاً لا ينفصل منه شيء عما هو بخلافه، ولوضع الثلاثي المعتل على أقسامه الثلاثة ليستبين معتل الياء من معتل الواو والهمزة، ولما خلط الرباعي والخماسي من أولهما إلى آخرهما.

ونحن على قدرنا قد هذبنا جميع ذلك في كتابنا المختصر منه، وجعلنا لكل شيء منه باباً يحصره، وعدداً يجمعه، وكان الخليل أولى بذلك وأجدر، ولم نحك فيه عن الخليل حرفاً، ولا نسبنا ما وقع في الكتاب عنه توخياً للحق؛ وقصداً إلى الصدق، وأنا ذاكر الآن من الخطأ الواقع في كتاب العين ما لا يذهب على من شدا شيئاً من النحو، أو طالع باباً من الاشتقاق والتصريف، ليقوم لنا العُذر فيما نزّهنا الخليل عنه».

لقد أطلنا في ذكر الشواهد، ووقفنا طويلاً عند أقوال الزبيدي لنخلص من كل ذلك إلى إعطاء صورة دقيقة صادقة لأدلة المنكرين الغلاة والمنكرين المعتدلين.

فابن النديم يذكر بوضوح أن العين ليس للخليل، والقالي يذكر أن أبا حاتم وأصحابه أنكروا العين ولا يعرفونه ولم يسمعوا به.

فأول الأدلة على إنكار نسبة العين إلى الخليل: القول جملة بالإنكار، إلا أن الزبيدي أضاف ــ كما ذكر غيره ــ أدلة جديدة ذات قيمة في نظر النقد والعلم، فالخليل بصري، وسيبويه ــ حامل علم ــ الخليل شيخ نحاة البصرة وإمام مدرسة البصريين، وما في العين مما يتصل بالنحو على مذهب الكوفيين، فكيف يتفق للخليل ــ وهو شيخ إمام مدرسة البصرة ــ أن يترك مذهبه إلى مذهب آخر يختلف عنه.

إن هذا الدليل من أقوى الادلة، فإذا اعتمدنا عليه في نفي نسبة العين إلى الخليل كان هو نفسه قائماً في نفي نسبة العين إلى الليث بن المظفر، لأنه ظل للخليل وتابع له في آرائه ومذهبه.

ثم من الأدلة: أن في العين أوهاماً وسقطات شنيعة وغلطات معيبة لا تصدر من طلبة الخليل، وهذا ما حمل العلماء على الشك في نسبته إليه، ومن

(١) المزهر ١: ٨٣ ــ ٨٤.

الأدلة القوية: أن في العين روايات عن متأخرين ولدوا بعد الخليل بكثير.

ثم من الأدلة: أن العين لم يظهر إلا بعد موت الخليل بحوالي ستين سنة، فلو كان له لكان في أيدي الناس، ولعلم به العلماء، ولَلَهج به تلامذة الخليل، ولروي عنه الأصمعي وابن السكيت وغيرهما، أما وأن هذا لم يحدث، فالعين ليس للخليل.

هذه أدلة المنكرين، أما المعتدلون من المنكرين، فيرون أن الخليل عمل من معجمه كتاب العين وسار على نهجه تلميذه الليث بن المظفر وأكمله، ويرى بعضهم أن الخليل عمل نصف الكتاب فأكمل الليث نصفه الباقي، وبعضهم يرى أن الخليل عمله كله، وحفظ الليث نصفه، فلما أحرقت النسخة أملى الليث نصفه المحفوظ، وطلب إلى العلماء أن يكملوا النصف غير المحفوظ.

ونحن نسأل: إذا كان الليث صنف العين، فلماذا لم ينسبه إلى نفسه رغبة في الفخار والسمعة؟ لماذا ينزل عنه للخليل؟ ويجعل غيره مبتكر علم ومخترع فن؛ ويرضى أن يكون تابعاً وتلميذا؟

أما أن الكتاب لم يعلم عنه تلاميذ الخليل فينقضه أن للنضر بن شميل[1] كتاباً اسمه «المدخل إلى كتاب العين[2]» والنضر من أخلص طلبة الخليل؛ فإذا صح أنه منكر العين، فكيف يؤلف كتاباً حوله، وللمفضل بن سلمة ردود على العين واستدراك، توفي المفضل سنة ٢٥٠هـ، وكان المبرد يرفع من قدر كتاب العين، ورواه ابن درستويه، وألف كتاباً في الرد على المفضل بن سلمة مؤلف كتاب «استدراك على العين» ولا توجد لأبي اسحاق الزجاجي حكاية في اللغة إلا منه، وأبو علي القالي البغدادي أتى في كتابه «البارع» بما في العين وزاد عليه.

وإنكار نسبة العين إلى الخليل ليس صحيحاً، فهو له حقاً، وإن كان الإجماع لم ينعقد على أنه له، أما أدلة المنكرين القائمة على أن في العين من الخطأ والتصحيف ما لا يتفق مع علم الخليل، وعلى أن في كتابه روايات عن متأخرين عنه، وعلى أن مذهب العين يخالف مذهب الخليل، لأن ما يتصل بالنحو على مذهب الكوفيين، والخليل بصري ورائد مدرسة البصرة في النحو، وأن الكتاب لم يظهر إلا في سنة ٢٥٠ أو حواليها، فإن بعض هذه الأدلة منقوض، فالخطأ والتصحيف والرواية عن المتأخرين من النسّاخ، والذي يدل على أن الكتاب ظهر قبل سنة ٢٥٠هـ أن النضر بن شميل تلميذ الخليل ألف كتاباً سماه «المدخل إلى كتاب العين».

ومن ناحية التعليقات لا أستبعد أنها دخلت في صلب العين جهلاً من الناسخين فحسبت منه وهي خارجة عنه، وكذلك القول في الرواية عن المتأخرين.

ولعل اختلاف النسخ بعضها عن بعض يقيم الدليل على هذا.

أما ما روي من مسائل النحو على مذهب الكوفيين فلعله راجع الى ما كان من خصومة بين الكوفيين والبصريين مما حمل بعض الكوفيين على التغيير في العين ليكون حجة لهم على البصريين عندما يستدلون على تأييد آرائهم بقول رائد مدرسة البصرة الأول الخليل بن أحمد.

كل هذا جائز.

وموجز القول: أن العين للخليل، وأنا مطمئن إلى ذلك كل الاطمئنان، ويجوز أنه ألفه ولم يستطع إتمامه: فأتمه غيره، ويجوز أن يكون أتمه كله فأضاف إليه الناسخون ما وجدوا من تعليقات وروايات عن متأخرين أدخلوها على متن الكتاب جهلاً منهم، وقد أثبت الدكتور عبد الله درويش ــ في رسالته التي ألفها

(١) توفي سنة ٢٠٣هـ.
(٢) البغية ٤٠٥.

عن كتاب العين والتي قدمها لجامعة لندن ونال بهاإجازة الدكتوراة ــ أن العين للخليل[1].

السيد خليفة بن السيد علي بن السيد أحمد بن السيد محمد بن السيد علي بن السيد حاجي بن السيد محمد الموسوي الرضوي الأحسائي النجفي.

ولد في الأحساء حدود سنة ١١٩٥هـ وتوفي سنة ١٢٦٥هـ. جد سادات آل خليفة في النجف الأشرف كان من أكابر مشاهير علماء عصره كثير البحث والمطالعة واستنساخ الكتب. نشأ في الأحساء فقرأ فيها المقدمات والسطوح على جملة من فضلائها منهم السيد عبد القادر بن حسين التوبلي البحراني ثم هاجر إلى كربلاء وتخرج في الفقه والأصول على السيد علي الطباطبائي الحائري المتوفى سنة ١٢٣١هـ وعلى غيره وسكن النجف الأشرف وأسس هناك مكتبة عظيمة حوت المئات من النفائس وكان جماعاً للكتب وله ولع شديد في اقتنائها وأفنى عمره في جمعها، وبقيت المكتبة بعده في أيدي أولاده. ووصف المكتبة الدكتور علي نقي المنزوي في طبقات اعلام الشيعة فقال: مكتبة خليفة الأحسائي مكتبة عائلية أسسها السيد خليفة بن علي بن أحمد الاحسائي وبعده انتقلت إلى أكبر أولاده محمد الامام في البصرة وبعد وفاته «١٢٨١» انتقلت إلى ولده محمد علي وبعد وفاته سنة ١٣٠٥هـ انتقلت الى ولده عبد الله آل خليفة (١٣٠٠ ــ ١٣٧٤هـ) قال والدي صاحب الذريعة في الكرام البررة ج٢ ص ٥٠٥ وفي سنة ١٣٧١هـ باع السيد عبد الله المكتبة بالنجف بثمن بخس في الهرج ولكني استفدت قبل ذلك وفحصت المخطوطات بها وسجلت ما تمكنت من ذلك.ترك المترجم له مؤلفات منها كتاب في التجويد وكتاب في أصول الدين وتلخيص كتاب الرياض لأستاذه السيد علي الطباطبائي الحائري[2].

دعبل الخزاعي:

مرت ترجمته في المجلد السادس، وننشر هنا عنه هذه الدراسة وهي بقلم الدكتور حسين مروة:

هذا شاعر يصح أن نعده في شعراء العقيدة من تاريخنا الأدبي، وذلك أنه كان صاحب مذهب في عهد بني العباس، ويبدو من سيرته أنه كان يلائم بين سلوكه في شعره وبين عقيدته ومذهبه السياسي هذا.

فقد ولد دعبل بن علي الخزاعي عام ١٤٨ هجرية، في خلافة المنصور العباسي، في قرية تدعى الطيب ــ كما في تاريخ بغداد، وهي قرية بين واسط والأهواز، ونشأ في الكوفة، وقيل أنه خزاعي بالولاء وإن جده «رزين» كان مولى عبد الله بن خلف الخزاعي والد طلحة الطلحات، ولكن هذا قول ينقضه كثير من الشواهد في شعره وفي سيرته، وقد شهد أبو دلف أمام الخليفة المأمون بأن دعبلاً من خزاعة بالنسب، لا بالولاء كما يزعم هذا القول.

«دعبل» لقبه، لا اسمه، وقيل أن اسمه الحقيقي «الحسن»، ونقل عن ابن أخيه اسماعيل بن علي أن اسمه «عبد الرحمن»، وقيل أن اسمه «محمد» وفي تاريخ بغداد أنه لقب بـ «دعبل» لدعابة فيه، ويكنى «أبا علي».

وقد ولد الشاعر ونشأ على عقيدة العلويين، وكان أهل هذه العقيدة، في العهد العباسي، كما كانوا في العهد الأموي، من ذوي المذاهب السياسية الحاملة عبء المعارضة للحاكمين، وكانوا ــ لذلك ــ يحتملون النصيب الأوفر من ألوان الاضطهاد السياسي.

وكان من طبيعة هذا الوضع الذي كان عليه العلويون أن أتاح لكثير من رجال الفكر والأدب والعلم منهم، أن يكونوا على صلة باحساس الشعب، وأن يكونوا على معرفة بمواطن الظلم الاجتماعي في الأوساط الشعبية

(١) مقدمة الصحاح.
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

المحرومة، بل لقد كان من طبيعة وضعهم السياسي هذا، أن يكون بعضهم من أشد الناس احتمالاً لصنوف الظلم والأضطهاد والحرمان.

وقد كان هذا نصيب شاعرنا دعبل في أوائل أمره، فإنه عاش سنية الأولى في الكوفة على ضنك شديد مريع، ويبدو ــ كما في رواية «الأغاني» ــ أن العوز قد الح عليه في الكوفة، وهو في مطالع الشباب، حتى كاد يفسد سيرته، فإذا هو متهم بجناية، ولا يصرح «الأغاني» بحقيقة هذه الجناية، وإذا برئيس شرطة الكوفة العلاء بن منظور الأسدي، يحبس «دعبلاً» الفتى بتهمته هذه، ويشفع له عمه سلمان بن رزين لدى رئيس الشرطة، ويرجو أن يضربه «لعله يتأدب»، فيضربه ثلاثمئة سوط!.

وتدل رواية «الأغاني»، ان هذه الحادثة، قد خرجت بدعبل من الكوفة؛ «فلم يدخلها بعد ذلك إلا عزيزاً».

وفي النبذة المختارة من كتاب تلخيص أخبار شعراء الشيعة للمرزباني، أن «دعبل بن علي الخزاعي، كان شاعراً مجيداً، كان على غاية من الفقر».

ويظهر أنه حين خرج من الكوفة، قصد إلى بغداد، ولعل موهبته الشعرية يومئذ كانت تتفتح على مهل، فتبعث في نفسه ميلاً إلى المعرفة، ورغبة في تحصيل العلم، وطموحاً إلى مكانة الأدباء الشوامخ في بداءة عصر النهضة العباسية، ولكن الفقر كان معه في بغداد كذلك، فلم تتهيأ له الفرص، أول الأمر، لنيل حاجته من العيش، وتحصيل العلم، حتى اهتدى إلى الشاعر مسلم بن الوليد «صريع الغواني» فأخذ هذا يعلمه الأدب والشعر، ولكن «مسلماً» نفسه كان فقيراً مثله، وفي رواية «تاريخ دمشق» أن دعبلاً «كان في مبدأ أمره غلاماً خاملاً لا يؤبه له، وكان بينه وبين مسلم بن الوليد ازار[1] لا يملكان غيره، فإذا أراد دعبل الخروج جلس مسلم في البيت عارياً، وإذا خرج مسلم جلس دعبل كذلك، وكانا إذا اجتمعا لدعوة يتلاصقان فيطرح هذا شيئاً منه عليه، والأخر الباقي، وكانا يعبثان بالشعر».

وليست تخلو هذه الرواية من المبالغة في وصف حالهما، ولكنها ظاهرة الدلالة على مبلغ ما كان يعانية اديب مثل مسلم بن الوليد كان قد اشتهر يومئذ في حلقات الأدب ببغداد بدليل أنه تصدى لتعليم دعبل وترويضه على ممارسة الشعر.

ويبقى دعبل هكذا، في عاصمة الخلافة، يتعلم ويتأدب، على هذا الحال، حتى يكون قد تزود من ثقافة بغداد، يومئذ، بزاد حسن وحتى حذق صناعة الشعر، وأكتملت عدته اللغوية والعلمية لاظهار مواهبه.

وقد رأيت أنه لم يستطع الوصول إلى هذه الغاية، إلا باحتمال قسوة العيش ولوعة الحرمان، مع خمول الذكر إلا في أوساط المجهولين المحرومين، في حين كانت بغداد تضج باسماء الشعراء الذين شقوا طريقهم إلى بلاط الخلافة، وكان العهد يومذاك، عهد الرشيد.

ويظل دعبل في محنة الفقر وخمول الاسم، على رغم ما وصل إليه من نضج الشاعرية، حتى يكون ذات يوم، فإذا الرشيد يطلب إلى بعض المغنين ان يغنيه شعراً وإذا المغني هذا يختار ابياتاً لدعبل كان قد سمعها عنه حديثاً، إذ كان بعض أوساط الأدب يتناقلها ويتحدث عنها بالرضا والاعجاب، وهي هذه:

أين الشباب واية سلكا ... لا، أين يطلب؟ ضل، بل هلكا
لا تعجبي، يا سلم، من رجل ... ضحك المشيب برأسه، فبكى
يا سلم، ما بالشيب منقصة ... لا سوقة يُبقي، ولا ملكا
قصر الغواية عن هوى قمر ... أجد السبيل إليه مشتركا
وعدا بأخرى عز مطلبها ... حباً يطامن دونها الحسكا
يا ليت شعري! كيف نومكما ... يا صاحبي، إذ دمي سُفكا
لا تأخذا بظلامتي أحداً ... طرفي، وقلبي في دمي اشتركا

وما يكاد يسمع الرشيد هذا الشعر في لحن المغني، حتى يعجب به ويطرب له، فيسأل المغني عن قائله، ولكن من أين لاسم دعبل أن يلفت النظر حتى يذكره للرشيد، ولذلك يقول:

ــ هذا الشعر لبعض أحداث خزاعة ممن لا يؤبه له يدعى دعبلاً!.

وتقول الرواية هنا، وهي رواية أكثر المؤرخين، أن الرشيد أرسل إلى دعبل عشرة الآف درهم، وحلة من حلله، ومركباً من مراكبه، وأجاز المغني، وقال للرسول: أعطه هذا، ومره بالحضور إليّ، وان أبى فلا تجبره رفقاً به، وإكراماً واحتراماً له.

ويمضي الرسول يبحث عن «دعبل» هذا... فإذا اهتدى إليه، وأبلغه رغبة الرشيد، استجاب لدعوته دون تردد، لكي يشق أول طريقه إلى بلاط الخلافة، فإذا هو امام الرشيد في مجلسه يستنشده الشعر، فينشده، وإذا الرشيد يزداد به إعجاباً.

من هنا بدأ اسم دعبل يظهر بين الشوامخ، ولولا هذه الحادثة، لطال لبثه في غمار الموهوبين المجاهيل، ثم مضى اسم دعبل يلمع ويسطع، ومضت ابياته تشتهر وتسير على ألسنة الأدباء والشعراء والملوك والأمراء، حتى قيل أن دعبل انشدها أبا نواس، فقال له: احسنت ملء فيك واسماعنا». وقيل أن مسلم بن الوليد، استاذ دعبل، لم يأذن له بإظهار شعره حتى سمع هذه الأبيات، فقال له: «إذهب الأن، فأظهر شعرك كيف شئت». ثم غنى بها المغنون والجواري.

وليست هذه الأبيات من أفضل شعر دعبل، ولكن الترف العقلي والمادي في أوساط الملوك والأمراء ومن يلوذ بهم من الشعراء، يومذاك، قد أقام لهذه الأبيات مجدها الذي ترى.

ولكن المهم الآن في سيرة دعبل، ان هذه الحادثة قد فتحت له باباً جديداً في التاريخ، فإنه منذ بدأت صلته ببلاط الخلافة على هذا النحو، تعرّف سبيله إلى الحياة السياسية، وأخذ يجد لعقيدته ومذهبه السياسي مدخلاً يدخل بها منه إلى جوانب هذه الحياة العامة يرى فيها المظالم والمساوىء، ويكشف منها ما يستطيع كشفه انتصاراً لعقيدته ورأيه، ثم انتصاراً للناس فيما ينالهم من عنت هذه المظالم والمساوىء.

ولكن المؤرخين لم يتعمقوا هذا الأمر من سيرة دعبل، وأخذوا بالظواهر وحدها، فإذا هم يرون إلى دعبل يمدح الرشيد، ثم إذا به يذمه ويهجوه، ثم يرون إلى أمره كذلك مع المأمون والمعتصم وعبد الله بن طاهر وغيرهم من الملوك والأمراء والوزراء الذين كانت السياسية العامة ودفة نظام الحكم السياسي بأيديهم، فيسمي المؤرخون هذه الظاهرة من دعبل خيانة «لاولياء نعمته»، وينسبون إليه عدم الوفاء.

وهذا صاحب «الأغاني» مثلاً يقول في دعبل أنه «شاعر مطبوع خبيث اللسان لم يسلم عليه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة، أحسن إليه أو لم يحسن، ولا افلت منه كثير أحد، وكان من الشيعة المشهورين بالميل إلى علي صلوات الله عليه، ولم يزل مرهوب اللسان وخائف من هجائه للخلفاء، فهو ــ دهره كله ــ هارب متوار».

وهذا صاحب «تاريخ بغداد» يقول فيه أن «أصله من الكوفة، ويقال من قريقسيا وكان يتنقل في البلاد، وأقام ببغداد مدة ثم خرج منها هارباً من

(١) الأزار: ما يتستر به، أو ملحفة.

المعتصم لما هجاه، وعاد إليها بعد ذلك، وكان خبيث اللسان، قبيح الهجاء».

ولعلك لا تقرأ فصلاً في تاريخ الأدب العباسي يُذكر فيه دعبل، إلا ويقترن اسمه فيه بأنه «خبيث اللسان» وأنه يسيء إلى من أحسن إليه، ويضربون لك الأمثال بموقفه من الرشيد والمأمون والمعتصم وغيرهم.

والواقع أن دعبل نفسه قد ألقى ضوءاً على هذه الظاهرة في سلوكه، حين قال هذه الأبيات يتوعد بها المأمون.

ايسومني المأمون خطة عاجز … أو ما رأى بالأمس رأس محمد[1]
يوفي على هام الخلائق مثلما … توفي الجبال على رؤوس القردد
لا تحسبن جهلي كحلم أبي، فما … حلم المشايخ مثل جهل الأمرد
إني من القوم[2] الذين سيوفهم … قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله … واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فإن دعبلاً حين قال له إبراهيم بن المدبر: «أنت أجرأ الناس واقدمهم حيث تقول هذا الشعر في المأمون»، أجاب:

ـ أنا أحمل خشبتي منذ أربعين سنة فلا أجد من يصلبني عليها.

وما كان لرجل، مثل دعبل، أن يقول هذا القول، لمجرد كونه شاعراً «خبيث اللسان» كما يصفه المؤرخون، فإن من يحمل خشبته أربعين سنة يتعرض لصالبيه، إنما هو في الواقع يحمل غرضاً كبيراً تخف المسألة الشخصية المحض في ميزانه، وتفسير هذا أن دعبلاً كان على مذهب في المعارضة السياسية تأبى عليه أن يهادن سلطان الحاكمين العباسيين، لأنه كان يعتقد، في مذهبه السياسي هذا، أنهم يغتصبون السلطان اغتصاباً.

فليس «خبث اللسان» وليس «عدم الوفاء» ـ إذن ـ سبب موقفه المعروف من الرشيد، إذ مدحه، ثم هجاه وذمه في مثل قوله حين مات الرشيد:

قبران في طوس[3]: خير الخلق كلهم … وقبر شرهم[4]، هذا من العبر

وليس «خبث اللسان» ولا «عدم الوفاء» كذلك سبب موقفه من الأمين يوم مات والده واستخلف هو بعده، إذ قال:

الحمد لله، لا صبر، ولا جلد … ولا رقاد إذا أهل الهوى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد … وآخر قام لم يفرح به أحد
فمر هذا ومر الشؤم يتبعه … وقام هذا وقام الشوم والنكد

وقيل أن دعبل قال البيتين الأولين حين مات المعتصم وقام الواثق.

وفي هذا الضوء نفسه، نفسر موقفه من إبراهيم بن المهدي المغني حين بايعه بنو العباس بالخلافة، مذ بايع المأمون أمام العلويين علياً بن موسى الرضا بولاية العهد، وقد قل المال عند إبراهيم بن المهدي، فخرج رسوله إلى الناس، وهم محتشدون ينتظرون أقواتهم، فصرح لهم انه لا مال عنده، فقال بعض الجماهير المحتشدة ساخراً:

ـ أخرجوا إلينا خليفتنا المغني يعطي أهل هذا الجانب ثلاثة أصوات، وأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات، فيكون ذلك عطاؤه لهم!.

وبعد أيام، من هذا الحادث، أنشد دعبل:

يا معشر الأجناد لا تقنطوا … وارضوا بما كان، ولا تسخطوا
فسوف تعطون «حنينية»[5] … يلدها الأمرد، والأشمط
والمعبديات[1] لقوداكم … لا تدخل الكيس، ولا تُربط
وهكذا يرزق قواده … خليفة مصحفه «البربط[2]»
قد ختم الصك بارزاقكم … وصحح العزم، فلا تغمطوا
بيعة إبراهيم مشؤومة … يُقتل فيها الخلق، أو يقحطوا

وفي ضوء سياسته المعارضة هذه، وتنكره لأهل الحكم العباسي، ومن يتصل بجهاز هذا الحكم من وزراء وقادة وولاة، كان يرى إلى نقائص الدولة ونقائص رجالها، ويرى إلى علاقاتها بالشعب الذي تحكمه، فيدرك الخلل في ميزان العدل وميزان الحكم كله.

وفي هذا الضوء ذاته، قال ما قاله في أبي عباد وزير المأمون الذي كان معروفاً بشراسته مع الناس والكتاب وصغار الموظفين:

أدنى الأمور لضيعة وفساد … أمر يدبره أبو عباد
خرق[3] على جلسائه، فكأنهم … حضروا للمحمة، ويوم جلاد
يسطو على كتابه بدواته[4] … فمضمخ بدم ونضح مداد
وكأنه من «دير هرقل[5]» مفلت … حرد، يجر سلاسل الأقياد
فاشدد أمير المؤمنين وثاقه … فأصح منه بقية الحداد[6]

ويؤيد الرأي بأن دعبلاً كان يهجو مثل هذا الهجو، لا عن محض هوى ذاتي، بل انتصاراً لعقيدة يعتقدها، موقف المأمون نفسه من شاعرنا بالرغم من هجائه اياه تقدم، وذلك أن المأمون كان ذا ميل معروف للعلويين، وقد ولى الإمام الرضا ولاية عهده، وكان يعلم من حال دعبل أنه يهجو العباسيين ورجال دولتهم عن رأي وعقيدة، لا عن «خبث لسان» و«عدم وفاء» ولذلك عفا عنه، وتناسى قوله فيه وفي أبيه وأخيه وعمه.

وقد قيل للمأمون يوماً أن دعبل قد هجاك. فقال: من أقدم على هجو أبي عباد مع جنونه، كيف لا يقدم على هجوي مع حلمي.

والأمر عند المعتصم، في موقفه من دعبل، يختلف عن أمر المأمون، فقد كان المعتصم يغضب لكل ما يقوله دعبل في أحد من بني العباس أو من رجال دولتهم، حتى لقد هم بقتله حين بلغه ما قاله في أبيه الرشيد بعد موته، فهرب دعبل واختفى زمناً في الجبل، وهجا المعتصم هجاء لاذعاً، في مثل قوله:

بكى لشتات الدين مكتئب صب … وفاض بفرط الدمع من عينه غرب
وقام إمام لم يكن ذا هداية … فليس له دين، وليس له لب

ومن هذه القصيدة في المعتصم يصف اضطراب حال الشعب، وانتشار الفقر والظلم:

فقد ضاع أمر الناس حين تسوسهم … وحل بهم عسر، وقد عظم الخطب
وقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم … وصيف،واشناص، قد عظم الكرب[7]

هكذا وقف دعبل، طوال عهده بممارسة الشعر، من الدولة العباسية، وقد احتمل بذلك عناء التشريد، وطوف في الآفاق هارباً وسائحاً، فرحل إلى خراسان وإلى بلاد الشام ومصر والمغرب، وقد طالت الفته، اثناء اسفاره وتشرده، بالشراة الثائرين والصعاليك المشردين.

وما اقتصر شعره في تأييد عقيدته ومذهبه السياسي على هجاء الحكام العباسيين، بل لقد مدح أهل البيت من أبناء علي بن أبي طالب، ورثى

(١) يعني رأس محمد الأمين بن الرشيد.
(٢) يقصد خزاعة، لأن عبد الله بن طاهر قائد المأمون من خزاعة وهو قائد الحملة على الأمين في سبيل خلافة المأمون.
(٣) طوس: مدينة هي حاضرة خراسان حيث دفن الرشيد والامام علي بن موسى الرضا.
(٤) يعني بالأول قبر الإمام الرضا، وبالثاني قبر الرشيد.
(٥) ألحان منسوبة إلى حنين المغني.

(١) يقصد ألحان معبد المغني.
(٢) البربط: الآلة الموسيقية التي تسمى الكمنجة اليوم.
(٣) خرق: «بفتح الخاء وكسر الراء»: احمق.
(٤) كان أبو عباد يقذف كتابه بالدواة كلما غضب، وكان سريع الغضب.
(٥) مستشفى للمجانين.
(٦) إشارة إلى شخص معروف بالحمق.
(٧) وصيف واشناص تركيان جعلهما المعتصم قائدين في الجيش العباسي.

شهداء كربلاء، وسائر من قتل منهم في مختلف العهود السياسية.واشهر شعره، في أهل البيت قصيدته التائية التي يقول فيها تعريضاً بظلم الحاكمين:

ألم تر للأيام ما جرّ جورها ... على الناس من نقص، وطول شتات
ومن دول المستهترين ومن غدا ... بهم طالباً للنور في الظلمات
فكيف، ومن أنّى يطالب زلفة ... إلى الله بعد الصوم والصلوات

ويقول فيها:

تراث بلا قربى، وملك بلا هدى ... وحكم بلا شورى، بغير هداة
رزايا ارتنا خضرة الأفق حمرة ... وردت أجاجاً طعم كل فرات

ثم يرثي الحسين بن علي في هذه القصيدة:

فأما الممضّات التي لست بالغا ... مبالغها مني بكنه صفات
قبور بجنب النهر من أرض كربلا ... معرسهم فيها بشط فرات
توفوا عطاشى بالفرات، فليتني ... توفيت فيهم قبل حين وفاتي

ويشير إلى اضطهاد العلويين وتكاثر ضحاياهم:

لهم كل يوم تربة بمضاجع ... ثوت في نواحي الأرض مفترقات
تنكب لأواء السنين جوارهم ... ولا تصطليهم جمرة الجمرات
وقد كان منهم في الحجاز وارضها ... مغاوير، نحارون في الأزمات

وبالإجمال، نقول أن شعر دعبل يكاد يكون معظمه شعرا عقائدياً، سواء ما كان منه مدحاً وما كان منه هجاء، فقد كان يمدح لعقيدته، ويهجو لعقيدته، وكان في كلا الحالين جريئاً شجاعاً صريحاً، ولكنه ــ كما قلت في أول هذا الفصل ــ لم يستطع أن يلائم كل الملاءمة بين سلوكه الأدبي وبين مذهبه السياسي، فقد اضطر أن يمدح ناساً من رجال الدولة السياسية لمحض الحاجة إلى العطاء والجائزة، وإلا لظل يعاني مكاره العوز والحرمان التي كان يعانيها أول عهده ببغداد، وقبل أن يشق له الرشيد طريقه إلى بلاطه وعطائه..

وما يدرينا، فلعله كان يظل مغموراً مجهولاً، في ذلك العصر، لولا أن يغني مغني الرشيد تلك الأبيات على مسمعه ويعجب بها ويطلب إليه قائلها هذا الذي قال عنه المغني يومذاك أنه «بعض أحداث خزاعة ممن لا يؤبه له»!

ولكنه ــ على كل حال ــ قد مات آخر الأمر قتيلاً بهجوه السياسي، وصلب على خشبته التي حملها أربعين سنة، وذلك عام ٢٤٦ هجرية، بعد أن عاش نحو ٩٧ عاماً، وقد جاء في تاريخ دمشق أن المعتصم قتله وقيل أن ابن طوق التغلبي هو الذي قتله لهجائه اياه، وإنه أرسل إليه من اغتاله في إحدى العشيات بقرية في نواحي السوس بالأهواز، وكان أبو تمام قد مات قبله، فرثاهما البحتري بقوله»:

قد زاد في كلفي، واوقد لوعتي ... مثوى حبيب يوم مات، ودعبل
أخوي، لا تزل السماء مخيلة ... تغشا كما بسماء مزن مسبل
جدث على الأهواز يبعد دونه ... مسرى النعي، ورمسة بالموصل[1]

الشيخ راغب حرب:

مرت ترجمته في الصفحة ٤٣ من المجلد الأول من المستدركات، وننشر هنا بعض ما رثي به فمن قصيدة للسيد محمد حسن الأمين:

أنت الغريب.. ولكن غربة القمم ... فاسكن جراحك وارحل من دم لدم
ما المجد غير جراحات..ومذ ظمئت ... سقيتهنّ الندى يا سيد الكرم
العمّة الحرة البيضاء ما برحت ... في البال تزهو كلمع البرق في القمم
عرس اكتمالك هذا فاقترح لغتي ... في العرس.. واصمت ها يافارس الكلم
حبست بالكلمات الريح أي يد ... لم تحترق بشواظ الحرف أيّ فم
أتيت أجلوك للثوار قافية ... خضراء. مرّت بها فاخضوضرت قممي

وجئت اسكب من عينيك نهر سنى ... للمهرجان سنى عينيك ملء دمي
قم واهدر الآن في اعماقنا ظمأ ... لهادر من بليغ القول مضطرم
كم راح صوتك يوم الروع يلهبنا ... ويوقظ النار في غاف من الهمم
أيام هبّ جراد في مرابعنا ... ملء الفضاء وملء السهل والأكم
واتلعت رأسها صهيون وانتفخت ... أوداجها وهي سكرى بالدم العرم
والحاكمون انتشوا بالعار وازدلفوا ... يقايضن شكاة الشعب بالصمم
وأنت أنت جبين واثق وفم ... سيف على البغي لم يغمد ولم يصم
وقفت قلت ابتدي يا كربلاء هنا ... ويا ضلوع على اشواقها التحمي
ويا دم الرفض يغلي في جوانحنا ... هذا زمان اقتحام الروع فاقتحم
ويا ربى «عامل» بالثورة اغتسلي ... وازّلزلي بيهود البغي والتهمي
ورحت تمنح كل القاعدين دما ... يغلي وتبعث نبض الروح في الرمم

ومن قصيدة للشيخ عفيف النابلسي:

قم حيّ راغب حرب ذروة القمم ... ونافس الدر فيما صغت من كلم
وأنبذ أقاويل من ذلوا ومن خنعوا ... واستمرؤا العيش في بحبوحة النعم
وخذ لنفسك درباً يجتليك علاً ... والثأر لمن ظُلِموا من كل منتقم
وانصت لراغب حرب في مقولته ... (المجد للسيف ليس المجد للقلم)
ذكرت فيك الإبا والشوس هاربةٌ ... يلفها الخوف من رأس إلى قدم
تختال في صهوة الهيجاء منبلجاً ... كطلعة البدر يجلو طخية الظلم

ميرزا رحيم خان بهشتي:

توفي سنة ١٣٥١ ودفن في تبريز.

كان طبيباً مشهوراً، له رسالة في الدفاع عن الإسلام وكتاب مضار المسكرات.

الآغا الميرزا رضى الزنوزي التبريزي:

ولد في تبريز سنة ١٢٩٤ في اليوم الرابع عشر من ذي القعدة

تعلّم القرآن ومبادىء الأدب الفارسي والعربي في تبريز وبعد أن بلغ مبلغ الرجال أخذ في تعلّم العلوم الإسلامية في المدارس القديمة حتى سنة ١٣١٨هـ وفي هذه السنة هاجر إلى النجف الأشرف لتكميل دراساته الإسلامية وحضر في حلقات درس كلٍّ من: المولى محمد الشربياني وملا محمد كاظم الخراساني والسيد كاظم اليزدي الطباطبائي وشيخ الشريعة الأصفهاني.

وأخَذَ المعقول والنجوم عن الشيخ محمد باقر الأصطهباناتي وشيخ الشريعة الأصفهاني وتعلّم الطبّ من أخيه فيلسوف الدولة.

وأخيراً القى رحل الإقامة في بلدة قم المقدسة، واشتغل هناك بالتدريس والتأليف. ــ ومن آثاره: كتاب القضاء والشهادات، وفلاح العامل وفهرس كتابي رجال الكشِ، وخلاصة العلامة الحلّي.

وممّا يدل على قوة باعه وتضلّعه في الفقه ومعرفة الأحكام ان السيد الطباطبائي بعدما ألف العروة الوثقى في الفقه، وظف المترجم له والشيخ أحمد كاشف الغطاء بتجديد النظر فيها ولكن عاقه السفر إلى موطنه تبريز عن هذا العمل الكبير[1].

الامام السيد روح الله بن السيد مصطفى بن السيد أحمد الموسوي الخميني

ولد في العشرين من جمادى الثانية سنة ١٣٢٠ في مدينة خُمين بإيران وتوفّي في سنة ١٤٠٩ في مدينة طهران ودفن فيها.

أسرته

أبوه الشهيد السيد مصطفى الموسوي ابن السيد احمد الموسوي،

(١) يقصد قبر دعبل بالأهواز وقبر أبي تمام بالموصل.

(١) السيد إبراهيم السيد علوي

درس في النجف الأشرف وسامراء وعاد الى خمين ، التزم رعاية المسلمين فيها وفي ضواحيها . وبعد ولادة ابنه روح الله بأربعة أشهر و٢٢ يوماً أي في يوم ١٢ ذي القعدة سنة ١٣٢٠ هـ اغتيل وهو في طريقه من خمين الى أراك . ثم نقل جثمانه الى النجف الأشرف حيث دفن فيها وكان له ثلاثة أبناء وثلاث بنات . وأبناؤه هم :

١ ـ السيد مرتضى (المعروف بسنديدة) من العلماء وسكن مدينة قم .

٢ ـ السيد نور الدين ، وكان يسكن طهران .

٣ ـ السيد روح الله وهو أصغر أولاد أبيه .

في طريق العلم

كان شغوفاً منذ طفولته باكتساب العلم والحكمة ، بدأ الدراسة لدى معلم اسمه « الميرزا محمود » وهو لم يزل طفلاً صغيراً . وكان هذا المعلم يأتي الى المنزل ليعلم هذا الطفل الذكي دروساً في القراءة والكتابة ، ثم واصل التعلم لدى معلّم آخر اسمه « الملا أبو القاسم » وذهب بعدئذٍ إلى مدرسة حديثة لتعلم الكتابة .

وفي أوائل بلوغه ، فقد أمّه بعد أن توفيت عمّته التي كانت تربّيه ، وبذلك ظلّلت سحابة كئيبة وجهه الذي لم يمض من عمره سوى ستة عشر عاماً وأصبحت حياته محفوفة بالمخاطر بين مخالب الوحدة والغربة ، ويتم الأبوين وفراق الأحبة . . ولكن لم تستطع هذه الأحزان والهموم أن تحطّم روحه العالية فبقي صامداً قوياً لا ينحني أمام الأحداث واستمرّ متوكلاً على الله ومعتمداً على نفسه في مواجهة المصير الغامض المحتّم .

تلقّى بعض مقدمات العلوم الاسلامية لدى أخيه السيد مرتضى ، ثم توجه سنة ١٣٣٩ الى مدينة اراك حيث كانت الحوزة العلمية في أراك وقتئذٍ تحت زعامة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي ودرس هناك آداب اللغة العربية (البلاغة والنحو والصرف) والمنطق .

وفي عام ١٣٤٠ انتقل الى مدينة قم حيث نقل الشيخ الحائري الحوزة العلمية اليها . واستمرّ بكل جد واجتهاد في مدارس قم حتى انتهى من مرحلة « السطوح » في الحوزة لدى أستاذه السيد علي اليثربي الكاشاني وبدأ بعدئذٍ الفصل الأخير من الدراسة الاستدلالية العالية في محضر الأستاذ الأكبر الحائري حتى بلغ درجة الاجتهاد .

وفي سنة ١٣٥٥ توفي استاذه الحائري في حين كان هو يُعدّ من المجتهدين والعلماء الكبار .

وامتاز الامام عن غيره من العلماء بتخصصه في علوم كثيرة ، فقد جمع المعقول والمنقول وسبق غيره في الفقه والأصول .

ولاحاطته الواسعة في العلوم العقلية وتحقيقاته في الفلسفة الإلّهية ، كان الأستاذ الأول في الفلسفة ـ على الاطلاق ـ في الحوزة العلمية بمدينة قم وكان المجيب الأول على الشبهات العقلية والاشكالات والاعتراضات التي كان المنحرفون يعترضون بها على الاسلام .

ولقد انتشرت في زمانه بعض الكتب السفسطائية منها كتاب بالفارسية اسمه « أسرار هزارساله » أي أسرار ألف سنة . وكانت الاشكالات مربوطة بالمسائل الفلسفية . وفي مقام ردّ الكتاب ، رجع اليه العلماء فبدأ بتأليف كتاب قيّم أسماه « كشف الأسرار » .

التدريس

بدأ تدريس خارج الفقه والأصول سنة ١٣٦٤ وهو في الرابعة والأربعين من عمره ، وكان تدريسه مصادفاً لورود السيد البروجردي الى مدينة قم . وكان يمتاز بتعرّضه أثناء الدرس للاشكالات الواردة ، قبل أن يسبقه بها غيره من الطلبة ، كما يمتاز بالشرح المبسوط الوافي وعدم خلطه دروس الأصول بالفلسفة بالرغم من احاطته الواسعة بهذا العلم . ويمتاز أيضاً بعدم تقليده أسلافه في تكرار نظريّات القدماء وابداعه في التحقيق مع ما كان من تقديره للفقهاء الماضين وذكرهم بكل اجلال واكبار .

اما تدريسه الفلسفة والعلوم العقلية فكان قبل زواجه أي قبل عام ١٣٤٨ وهو يسكن مدرسة « دار الشفاء » يومئذٍ ، ولم يمض من عمره اكثر من ثلاثين عاماً حيث كان يعدّ من الأساتذة الكبار والمتخصصين في الفلسفة والحكمة الإلّهية ، وكانت حوزة درسه مقصورة على العلماء والأفاضل ، وكان يهمّه كثيراً أن ينتخب طلابه في هذه الدروس من خيرة الطلاب واكثرهم ايماناً وذكاءً ويمتحنهم بين الحين والآخر تحريرياً وشفوياً ليصفّي مجلس درسه من غير أهله .

وبعد فترة من تدريس « الفلسفة » ، بدأ بتدريس « العرفان » سراً لنخبة خالصة من الطلاب المعتمدين لديه ، ثم عقد جلسة اسبوعية ليدرس فيها علم « الأخلاق » .

ورغم معارضة حكومة رضا بهلوي لمثل هذه الجلسات ، لم يبال بذلك ، بل ازداد صلابة وعزماً في مسيرته حيث اشتهرت هذه الجلسة واشتدت علاقة الفضلاء والطلاب وحتى عامة الناس بها وتوسعت تدريجياً لتستوعب مئات العلماء والفضلاء والموظفين والتجار والعمال الذين كانوا يأتون اليها من « قم » و « طهران » وكان مقره في « المدرسة الفيضية » .

وبهذا الاقبال الشديد على الجلسة ، اضطر الى اقامتها مرتين أسبوعياً (يومي الخميس والجمعة) حتى تستطيع كل طبقات الشعب ، الاستفادة منها .

فأرسل البهلوي يطلب منه تعطيل الجلسة فوراً فأجاب الامام بالحرف الواحد : « أنا ملزمٌ باقامة هذه الجلسة بأي نحو كان . لتأتِ الشرطة وتمنع اقامتها » . وبعد ان لاحظت الحكومة مدى صلابته ومدى تعاطف الشعب معه ، امتنعت عن التدخل المباشر إلّا انها زادت في القسوة والعنف بطرق غير مباشرة فاضطر الى نقل الجلسة من المدرسة الفيضية الى مدرسة الحاج ملا صادق في وضع اكثر محدودية .

وبعد سقوط البهلوي انتقلت الجلسة مرة أخرى الى المدرسة الفيضية .

المرجعية

بعد وفاة السيد البروجردي ، اجتمع حوله كثيرٌ من روّاد العلم والفضيلة من مريديه وعارفي فضله يطلبون منه بالحاح طبع الرسالة العمليّة ، فامتنع عن ذلك ، وطبع حاشيته على وسيلة النجاة للسيد أبو الحسن الأصفهاني ثم حاشيته على العروة الوثقى .

وبعد وفاة السيد الحكيم عاد اليه الكثيرون ، وبرز بعد زمانٍ وجيز ، حتى استطاع أن يطوي سجلّ أقدم امبراطورية شهدها التاريخ ، إذ تمتد جذورها الى قرابة الفين وخمسمائة عام ، واستطاع أن يقود ثورة ويدير جمهوريةً .

حياته الثورية

كان الامام الخميني طيلة حياته ثورة مشتعلة ضد الظلم والفساد والجور ، مما ادى الى سجنه مدة ثمانية أشهر في سجون ايران خلافاً لنص

الدستور الذي كان ينصّ على صيانة الفقهاء والمجتهدين . وكان من جراء ذلك ، ان قامت ثورة شعبية عارمة عمت ارجاء البلاد، من علماء وخطباء ومثقفين وفلاحين وعمال وعامة الشعب في المدن والأرياف ، قامت تستنكر هذا التحدي السافر ، فاضطرت الحكومة ان تطلق سراحه ولكن لأجل محدود.

ولكنه لم يسكت،ولم يستسلم ، فما إن خرج من السجن حتى سمع بقانون منح الحصانة الكاملة للأمريكيين في ايران ، فخطب خطبته التاريخية ، مما حمل الشاه على ابعاده ونفيه الى تركيا ومنها الى النجف الأشرف ، حيث بدأ هناك بإرشاد الجماهير وتوعيتها عبر دروسه الثورية وبياناته وخطبه ورسائله التي كانت تصل ايران أولاً بأول ، وتنتشر في كافة انحاء البلاد . إلى أن انتهى الأمر الى الثورة الشاملة التي اطاحت بالعرش البهلوي وأقامت الجمهورية التي شقّت طريقها متماسكة متعالية بإرشاده وتوجيهه.

بعض مشايخه في اجازة نقل الرواية

١ ـ الشيخ محمد رضا الأصفهاني النجفي، آل الشيخ محمد تقي الأصفهاني ، من الميرزا حسين النوري من الشيخ الأنصاري.

٢ ـ السيد محسن الأمين من السيد محمد هاشم الموسوي الرضوي الهندي من الشيخ الأنصاري.

٣ ـ الشيخ عباس القمي من الميرزا حسين النوري من الشيخ الأنصاري.

٤ ـ السيد أبو القاسم الدهكروي الأصفهاني من الميرزا محمد هاشم الأصفهاني من الشيخ الأنصاري.

مؤلفاته

يبدأ سير التأليف عنده من المسائل العقلية الى علم الأخلاق والعلوم الفقهية وغيرها واليك أسماء مؤلفاته:

١ ـ مصباح الهداية الى الخلافة والولاية : كتاب في العرفان والمسائل العقلية ، ألّفه وهو في السابعة والعشرين من عمره.

٢ ـ شرح دعاء السحر لشهر رمضان : ألفه عام ١٣٤٧ وهو في التاسعة والعشرين من عمره.

٣ ـ كتاب (الأربعون حديثاً) : سبعة احاديث منها في المسائل العقلية و٣٣ حديثاً في الأخلاق.

٤ ـ حاشية على فصوص الحِكم للقيصري ومصباح الأنس : في العرفان .

٥ ـ حاشية على مفتاح الغيب: في العرفان.

٦ ـ أسرار الصلاة أو معراج السالكين : مجلدين . وكان تأليفه سنة ١٣٥٨ .

٧ ـ رسالة في الطلب والادارة.

٨ ـ حاشية على رسالة شرح حديث رأس الجالوت القاضي سعيد . وشرحٌ مستقل على الحديث نفسه.

٩ ـ كشف الأسرار.

١٠ ـ شرح حديث جنود العقل والجهل.

١١ ـ آداب الصلاة.

١٢ ـ الرسائل: كتاب يبحث في قاعدة لا ضرر ولا ضرار ، الاستصحاب ، التعادل والتراجيح ، الاجتهاد والتقليد والتقية ، في جزئين . طبع في قم سنة ١٣٨٥ وتم تجديد الطبع عدة مرات.

١٣ ـ كتاب البيع: دروس فقهية له في النجف الأشرف . خمسة مجلدات .

١٤ ـ كتاب الطهارة : طبع منه ثلاثة اجزاء.

١٥ ـ تهذيب الأصول : تقريرات درسه في أصول الفقه في قم ـ ٣ أجزاء.

١٦ ـ نيل الأوطار في بيان قاعدة لا ضرر ولا ضرار : تقريرات دروسه بقلم الشيخ جعفر السبحاني.

١٧ ـ رسالة في الاجتهاد والتقليد.

١٨ ـ توضيح المسائل: رسالة عملية باللغة الفارسية.

١٩ ـ زبدة الأحكام : رسالة عملية باللغة العربية .

٢٠ ـ كتاب المكاسب المحرمة : في جزئين ـ طبع في قم سنة ١٣٨١ .

٢١ ـ رسالة تشتمل على فوائد في بعض المسائل المشكلة .

٢٢ ـ تحرير الوسيلة : متن كامل لدورة فقهية . ألّفه وهو في المنفى بتركيا .

٢٣ ـ جهاد النفس أو الجهاد الأكبر : توجيهات وارشادات في الأمور المعنوية . طبع في النجف الأشرف سنة ١٩٧٤ ميلادية .

٢٤ ـ الحكومة الاسلامية أو ولاية الفقيه: محاضرات فقهية سياسية القاها على طلاب العلوم الدينية في النجف الأشرف وذلك من ١٣ ذي القعدة الى الأول من ذي الحجة سنة ١٣٨٩ .

٢٥ ـ تفسير سورة الفاتحة : ولم يتمكن من اتمامه لمرضه وانتقاله من قم الى طهران ، بعد عامٍ ونصف العام من انتصار الثورة تقريباً .

٢٦ ـ مناسك الحج .

٢٧ ـ مجموعة خطبه وبياناته وارشاداته ، جمعتها وزارة الارشاد الاسلامي وطبع منها ١٩ جزءاً لحد الآن تحت عنوان « صحيفة نور » .

٢٨ ـ حاشية على الأسفار.

٢٩ ـ الدماء الثلاثة : تقريرات درسه.

٣٠ ـ ديوان شعر : لم يطبع.

زبيدة بنت الفيلسوف الشهير صدر المتألهين محمد بن إبراهيم بن يحيى الشيرازي القوامي المعروف بملا صدرا.

عالمة فاضلة أديبة محدثة حافظة للقرآن عالمة بتفسيره.

ولدت في ذي القعدة سنة ١٠٢٤هـ وتوفيت سنة ١٠٩٢هـ.

قرأت على أبيها ملا صدرا المتوفى سنة ١٠٥٠هـ واختها أم كلثوم المارة الذكر وبرعت في الأدب والتفسير،زفوها للعالم معين الدين محمد الفسوي ورزقت منه كمال الدين محمد المعروف بالميرزا كمالا صهر المجلسي الأول محمد تقي المجلسي المتوفى سنة ١٠٧٠هـ ولها كتاب شرح الشافية وهو شرح مزجي مبسوط ولدها ميرزا كمالا أخذ الأدب عن امه ونبغ في هذا الفن.

ترجم لها السيد شهاب الدين المرعشي النجفي في مقدمة كتاب «معادن الحكمة» قال (العالمة الأديبة الحافظة للقرآن زبيدة أم العلامة الأديب الميرزا كمال الدين الفسائي ويعرف بميرزا كمالا صاحبة كتاب شرح الشافية في علم الصرف وعندنا منه نسخة في المكتبة العامة الموقوفة ولدت في ذي القعدة في سنة ١٠٢٤)[1].

زينب بنت الفيلسوف الشهير المولى محمد بن إبراهيم بن يحيى الشيرازي القوامي المعروف بملا صدرا.

عالمة فاضلة متكلمة جليلة فيلسوفة عارفة عابدة زاهدة من ربات

---

(١) الصالحي.

الفصاحة والبلاغة توفيت في صدر النهار من يوم الأحد ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٠٩٧هـ.

أخذت العلم عن أخيها الميرزا إبراهيم وتخرجت على والدها صدر المتألهين الشيرازي وزوجها الملا محسن الفيض الكاشاني الذي رزقت منه ثلاثة أولاد وهم محمد علم الهدى ومحمد نور الهدى و أحمد معين الدينْ كلهم من العلماء. ذكرها السيد المرعشي النجفي في مقدمة كتاب «معادن الحكمة» لولدها علم الهدى[1].

زينب بنت الشاه مرتضى بن الشاه محمود الكاشاني.

عالمة فاضلة شاعرة أديبة أخذت العلم عن والدها الشاه مرتضى وأخيها ملا محسن الفيض الكاشاني وكانت تنظم الشعر ومن ربات الفصاحة والبلاغة في عصرها بكاشان ولم أقف على تاريخ ولادتها أو وفاتها. ذكرها السيد المرعشي النجفي في مقدمة كتاب «معادن الحكمة» لابن أخيها علم الهدى ووصفها بالعالمة الشاعرة زينب المكناة بأم أبيها زوجة رجل فاضل من بني أعمامها[2].

الأمير أبو النصر سام ميرزا بن الشاه إسماعيل الأول الصفوي:

مر ذكره في المجلد السابع ونضيف إلى ذلك ما يلي: ولد سنة ٩٢٣ وقيل مات حين هدم عليه السقف في الزلزال سنة ٩٧٤هـ حين كان محبوساً في حصن قهقة أو قتل سنة ٩٨٣هـ كما جاء في حبيب السير كان أديباً شاعراً فاضلاً محققاً زعيماً ثائراً قائداً كبيراً وهو ثاني أولاد الشاه اسماعيل الأول المؤسس للدولة الصفوية وفي سنة ٩٣٩هـ أصبح والياً على هرات وقندهار كما في تاريخ (جهان آراء) ص٢٨٧ وبعد وفاة والده الشاه اسماعيل وجلوس شقيقه الشاه طهماسب على عرش ايران ثار المترجم له ضد أخيه الشاه طهماسب في هرات ووقعت بينهم معارك دامية حتى اسر المترجم له وسجن في حصن قهقة واختلف المؤرخون في كيفية وفاته قيل مات في الزلزال سنة ٩٧٤هـ حين هدم عليه السقف وهو مسجون في حصن قهقهة وأكد صاحب كتاب حبيب السير فقال: عندما عزم الشاه اسماعيل الثاني على جمع الأمراء اخوانه وأبناء أعمامه في سنة ٩٨٣ هـ قتل المترجم له على يد الشاه إسماعيل الثاني وهذه رواية أصح الروايات. وكان المترجم له قد خاض معارك السياسة والقتال وعلى رغم هذا لم يترك الاشتراك في الأدب والتحقيق فله أشعار جيدة ومن آثاره ديوان شعر في ستة آلاف بيت وكتاب (تحفة سامي) فارسي المؤلف في سنة ٩٥٧هـ في تراجم الشعراء ويحتوي على ٦٦٤ ترجمة من شعراء أيام تأسيس الدولة الصفوية مع ذكر نماذج من أشعارهم مما يوضح لنا قسماً من تاريخ الأدب الشيعي في ذلك العصر وطبع مكرراً في الهند وإيران وذكره البغدادي في إيضاح المكنون ج ١ ص ٢٥٠ ونقل عنه كثير من المحققين والمستشرقين منهم الميرزا عبد الله الأفندي في كتابه رياض العلماء وصاحب رياض الشعراء وآذربيكدلي في كتابه (آتشكده) وهداية في مجمع الفصحاء والمستشرق ادوارد برون في تاريخ الأدب الفارسي الجزء الثالث والرابع وغيرهم وترجم له هداية في تاريخ (روضة ناصري) مفصلاً وفي مجمع الفصحاء ج١ ص٥٨ وأدوارد برون في الجزء الثالث من تاريخ الأدب الفارسي ص ٦٣٨ و ٦٧٤ و ٧٤٦ وشيخنا في الذريعة ج٣ ص٤٤٠ وج٩ القسم الثاني ص ٤٢٣ وغيرهم[3].

السيد سعد صالح:

مرّ بحث عنه في الصفحة ٤٤ من الجزء الأول من المستدركات، ثم بحث آخر في الصفحة ١٣٩ من المجلد الثاني، ثم بحث ثالث في الصفحة ٣٦٧ من نفس المجلد مع قصيدة من شعره. وننشر هنا ما قيل في رثائه:

قال الشيخ عبد المنعم الفرطوسي من قصيدة:

صريح ونصل السيف حد لسانه ... إذا فاه لا يبقى لمكنونه سترا
يناضل عن حق صريح مضيع ... لأمته قد بزه المعتدي جهرا
فطوراً يرينا الدر من فمه جمرا ... وأخرى يرينا الجمر من فمه درا
جريء، جنان الليث بين ضلوعه ... لأمته في كل آونة يضرى
له نهضات لم يسعها مجالها ... ولو وجدت وسعاً لضيقت الدهرا
سيرثيك تاريخ مجيد تشرفت ... بأعمالك الغراء صفحته الغرا
وحرية للفكر حطمت قيدها ... جهاراً فحررت الصحافة والنشرا
حياتك في دنيا المفاخر هالة ... معاليك تبدو حولها انجماً زهرا
ملكت قياد الأمر غير مساوم ... فما ملكت كفاك حقلاً ولا قصرا
وآثرت أن تحيا عزيزاً بنا حرا ... وقد صنت إكباراً ضميرك أن يشرى
وداعاً أبا الأحرار والشعب واجم ... وكل عيون الشعب من شجن عبرى
وداعاً أبا الأحرار لا عن ملالة ... وعز على الأحرار أن يبعد المسرى
وفيك المعزى بعد فقدك موطن ... جميع قلوب المخلصين به حرى

وقال السيد جواد شبر من قصيدة:

بمثلك حق تفتخر البلاد ... ومثلك من له يلقى القياد
علوت بهمة تسمو بنفس ... تضيق بشأوها السبع الشداد
اصخ لي لست مداحاً وإني ... لأسأم من مديح يستعاد
ولكني وقفت أخط درساً ... له أعمالك الجلى مداد
وأجعل منك نبراساً منيراً ... متى استهدوا به سعدوا وسادوا
سلوا قبراً طوى سعداً أيدري ... طوى بطلاً عليه الاعتماد
طوى أمل البلاد أليس حقاً ... يقام لمثله هذا الحداد
مشى التاريخ يطوي الناس حتى ... رآك فقال هو المراد
تمثلت الصراحة فيك شخصاً ... فلا يثني عزيمتك ارتداد
تسير بمبدأ صلب النواحي ... وتقتاد الجبال ولا تقاد

وقال السيد محمد جمال الهاشمي من قصيدة:

يا ابن الغري عليك أنثر دمعة ... خرساء عن آلامه تتكلم
أوحى إليك رسالة روحية ... في لفظها معنى الأباء مجسم
فوقفت تحرس مجده بعزيمة ... كالسيف يقطر من مضاربه الدم
نزهت سمعته عن التهم التي ... بعيوبها التاريخ غيرك يوصم
حتى خلقت من العزائم قوة ... عنها أحابيل السياسة تحجم

السيد سعيد بن حسين الحسيني التنكابني:

ولد حدود ١٢٠٥ وتوفي بعد ١٢٤٧.

ولد في تنكابن ونشأ بها وأخذ المقدمات في مدارسها ثم ذهب إلى أصفهان وحضر عند أعلامها ثم رجع إلى موطنه وانشغل بالتدريس. له مؤلفات منها:

١ ـ الباقيات الصالحات في شرح بعض الأحاديث.
٢ ـ ديوان شعر باللغة الفارسية[1].

الشيخ سلطان محمد بن حيدر محمد بن سلطان محمد بن دوست محمد بن نور محمد بن الحاج محمد بن الحاج قاسم علي الجنابذي الملقب بسلطان علي شاه.

ولد سنة ١٢٥٨ وقتل في ١٣٢٧.

ولد في شوراب من قرى جناباذ وتعلم القراءة والكتابة في موطنه ثم اشتغل بتعلم الصرف والنحو والمعاني والبيان وهاجر إلى مشهد الرضا عليه السلام وأخذ السطوح عن اعلامها ثم هاجر إلى الأعتاب المقدسة وحضر على

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) الصالحي.
(٣) الصالحي.

(١) الشيخ محمد السمامي.

الشيخ الأنصاري صاحب المكاسب والرسائل وغيره ثم رجع إلى إيران وسكن (سبزوار) برهة من الزمن مستفيداً في الفلسفة من بحوث المولى محمد هادي السبزواري صاحب المنظومة، ثم دخل في سلك التصوف والعرفان وبعد وفاة محمد كاظم سعادة علي شاه الأصفهاني قام مقامه في الزعامة الصوفية وكان يسكن بيدخت من قرى جناباذ إلى أن قتل في سحر يوم ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٧ ودفن هناك وأقيمت على قبره قبة عاليه.

لـه مؤلفات منهـا بيان السعادة في مقـامات العبادة في تفسير القرآن الكريم.

٢ ــ معادن نامه ــ ٣ ــ ولايت نامه ٤ ــ بشارة المؤمنين ٥ ــ مجمع السعادات ٦ ــ تنبيه النائمين ٧ ــ توضيح ٨ ــ إيضاح[1].

هذا ما كتبه لنا الشيخ محمد السمامي، وقد كتب الشيخ سلطان حسين تابنده رضا علي شاه الجنابذي حفيد المترجم ــ كتب ترجمة لجده نشرها مقدمة لكتاب جده في التفسير المسمى (بيان السعادة في مقامات العبادة)، نأخذها فيما يلي: بياناً لوجهة نظرهم الصوفية، فالمترجم كان من اعلام الصوفيين في عصره، وحفيده الكاتب هو اليوم شيخ صوفيي إيران. وقد زرناه في منزله في طهران على أمل استقصاء بعض الحقائق عنهم وبيان وجهة نظرهم ودفاعهم عما يرميهم به مهاجموهم من خروج على العقائد الصحيحة، فلم يتسن لنا في تلك الجلسة التبسط في الحديث، فأحالنا الشيخ على رسائل مكتوبة بالفارسية، قال أنها تفي بالمرام، ولما كنا نجهل الفارسية فقد سلمها الشيخ لأحد المريدين ليسلمها لمن يترجمها إلى العربية ثم يوصلها إلينا. وبالرغم من بقائنا في طهران أكثر من شهر ونصف الشهر فلم يصلنا شيء. وإليك ما كتبه الحفيد عن جده المترجم. وقد تركنا تعابيره ــ على عجمتها ــ كما هي حفظاً للنص، ولم نبدل إلا القليل الذي كان لا بد من تبديله:

كان شيخ السّجادة في الطريقة النّعمة ــ اللهية ومن أشهر العلماء والعرفاء في القرن الأخير،وكانت ولادته على ما كتبه والده المرحوم المولى حيدر محمد بخطه في ظهر القرآن الموجود صورته الفوتوغرافية في كتاب «نابغة علم وعرفان» في الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين ومائتين بعد الألف، وحين بلغ ثلاث سنين سافر والده إلى بعض بلاد إيران ثم إلى الهند وفيها إنقطع خبره، وابتلي المترجم بفراق والده وصار تحت حضانة أخيه محمد علي وعند بلوغه ست سنين شرع بأمر أمه وأخيه في تعلم القرآن المجيد والكتب الفارسية وفي مدة خمسة شهور صار ناجحاً فيه وبعد ذلك لم يساعده التوفيق لإدامة التحصيل واشتغل بالأمور الدنيوية بأمر أخيه حتى بلغ عمره سبع عشرة سنة، واشتغل مرة أخرى بتحصيل العلوم الدينية المتداولة ابتداء في موطنه وسافر بعد تحصيل العلوم الأدبية إلى المشهد المقدس الرضوي (ع)، ولتكميل العلوم الدينية إلى النجف الأشرف والعلوم العقلية والفلسفية إلى سبزوار، واستفاد من محضر الحكيم العارف الزاهد المتأله الحاج ملا هادي سنين متوالية ومتناوبة، وبعد تكميل العلوم الظاهرية والتفوق والتبحر فيها أدركته جذبة من جذبات الحق بوسيلة الحاج ملا هادي وهدايته، وسافر في طلب المقصود إلى أصفهان وتشرف بأخذ الأذكار القلبية والدخول في طريقة النعمة اللهية عند المولى العارف الجليل الحاج محمد كاظم سعادة علي شاه تغمده الله بغفرانه.

وفي العود إلى جنابذ تزوج صبية الحاج ملا علي البيدختي حيث أمره مرشده باطاعة أمر أمه في الزواج وبعد مدة قليلة تهيجت اشواقه لتجديد زيارة شيخه وسافر إلى أصفهان. وفي سنة ١٢٨٤ صار مفتخراً بأخذ إجازة الارشاد وتلقين الأذكار القلبية والأوراد المأثورة وملقباً في الطريقة بلقب سلطان علي شاه، وفي سنة ١٢٩٣ توفي شيخه وتمكن هو في مقامه وصار شيخ السجادة في طريقة النعمة اللهية و توجه السالكون إلى الله إليه، وصار مقره بيدخت من قرى جنابذ[1] محطّ رحال الوافدين ولم تكن جنابذ إلى هذا الزمان معروفة وبعد تمكنه هذا اشتهر اسم جنابذ في بلاد إيران تدريجياً وكان ذلك واحداً من بركات وجوده هناك.

في سنة ١٣٠٥ تشرف بالحج وزيارة البيت وعند رجوعه تشرف بزيارة الأعتاب المقدسة في العراق ولاقى بعض العلماء والفقهاء من الشيعة في هذه البلاد مثل المرحوم الشيخ زين العابدين المازندراني وابنائه والمغفور له الحاج ميرزا حسن الشيرازي وغيرهم فبجلوه وعظموه. وبعد عوده إلى إيران وتوقفه بطهران حضر بخدمته أكثر رجال العلم والفقه والسياسة، وملك القاجار ناصر الدين شاه حينئذٍ كان بجاجرود، ولما سمع بقدومه إلى طهران أرسل رسولاً إلى طهران وأبرز علاقته إلى الملاقاة وأخبر أنه سيعود إلى طهران للقاء حضرته ولكن بعدما استمع حضرته هذا استعجل في الحركة قبل قدوم جلالة الملك إلى طهران، وقال: نحن المساكين مجالسو المساكين، مالنا وللملوك!

وعند عوده إلى جنابذ صار مدة متمكناً هنا، وبعد سنين سافر مرة أخرى لزيارة المشهد المقدس الرضوي (ع) وصار هنا مسموماً ولكن استعلج ورفع عنه الخطر ولكن لم ينل صحته الأولية.

حضرته كان مشتغلاً بالأمور الزراعية لتحصيل وسائل المعاش لأنه كان معتقداً بلزوم الكسب لتحصيل المعاش على ما أمر به المولى السيد نعمة الله الوليّ اتباعه ومريديه بالكسب وترك البطالة وهو مع ذلك لم يترك المطالعة والتدريس والتأليف وإرشاد الخلق واعانة المساكين وقضاء حوائج المحتاجين بل كان يشتغل بمعالجة المرضى ايضاً حتى صار مشتهراً بالحذاقة في الطّب. كان كثير التنسك والعبادة ولم يفت عنه تهجد الأسحار وكان مولعاً بإقامة شعائر الدّين والمذهب، مثل صلاة الجماعة ومجالس الذكر وقراءة القرآن وإقامة عزاء أهل البيت عليهم السّلام، وكان قانعاً من الدّنيا في الأكل واللبّس باقلها، وكان يأمر اتباعه ومريديه ايضاً بالمحافظة على الآداب الدينية، وإذا رأى أو سمع في بعض المريدين خلافاً لم يتمكن في أمر الدين من كظم الغيظ والكتمان بل كان يشدد ويغلظ عليه حتى انه طرد بعضاً من المريدين على أثر عدم مراقبتهم لآداب الشرع بعد تذكيره اياهم للمراقبة وعدم تأثيره فيهم.

ولا غرو أن نذكر هنا استطراداً خصائص من طريقة النعمة اللهية:

منها أنّ السيد وخلفاءه إلى الآن أمر جميع مريديه بمحافظة آداب الشرع المقدّس النّبويّ (ص) من العمل بالواجبات والسّنن وترك المحرّمات بل المكروهات، لأنّ تخلية القلب عن غير الله تستلزم اطاعة الرسول وأولي الأمر واتباع أحكامه، لأنّ المحبّ لا يجوز له بل لا يمكنه مخالفة أمر المحبوب، وكلّ من ادّعى محبّة الله يلزمه إطاعة أوامره وأوامر الرّسول، حيث قال: إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله، وما لم يتزيّن الظّاهر والجوارح بحفظ حدود الله لا يتأدب القلب بآداب الرّوحانيّين، ولهذا ليس في هذه الطريقة ما يخالف الشّرع الشّريف من الاعتقادات الباطلة والبدع والأعمال المنهية حتّى السّماع، ومجالس الذّكر ايضاً منزّهة عن جميع هذه الأمور.

ومنها أنّ الإخوان في هذه الطريقة مأمورون بترك البطالة والانزواء والرّهبانية وبالاشتغال بواحدٍ من الأشغال الدنيوية المباحة لتحصيل المعاش حتّى يغنيهم عن غيرهم في المعاش، لأنّ الإنسان محتاج في الدنيا إلى الأكل والشّرب واللّبس والمسكن وكلّها من الضّروريّات للحياة الدّنيويّة والوصول إليها يكون امّا بالكسب أو السّرقة أو السؤال وإظهار إحتياجه إلى الغير، وكل ما كان بدون

(١) الشيخ محمد السمامي.

(١) جنابذ: بلدة في خراسان الإيرانية.

رضا مالكه كالغصب فهو داخل في السّرقة حقيقةً، وكلّ ما كان مقروناً بالطمع فهو من السّؤال وكلاهما حرامان عقلاً وشرعاً وعرفاً فيبقى الكسب مباحاً سواء كان فلاحة أو تجارة أو صنعة أو غيرها من المكاسب المختلفة المحلّلة، فلازم على جميع الفقراء في هذه الطّريقة أن يشتغل كل منهم بكسب حتّى لا يكون كَلّاً على غيره بل لازم أن يكون بحيث ينتفع به الغير.

ولّما كان اخوان هذه الطّريقة مأمورين بترك الانزواء وبالدّخول في الجماعات صار البسط فيهم غالباً على القبض المصطلحين عند الصوّفية، لأنّ غلبة القبض على البسط في السّالك إلى الله، تكون في الأغلب على أثر الانزواء والعزلة عن الخلق والدخول في الجماعات مستتبع للبسط لأنّ السّالك لازم له أن يشاهد ظهور الحق في جميع المظاهر ويحسن المعاشرة والمجالسة مع الجميع لكون محبتّهم ظلّاً لمحبّة الله.

ومنها عدم التّقيد في هذه الطّريقة بكسوة مخصوصة وزيّ معين في الظاهر كالخرقة المخصوصة والتّاج وأمثال ذلك المعمولة في كثير من طرق التّصوّف، بل قال السّيّد وخلفاؤه: إنّ اللازم للصّوفي لباس التّقوى لا غيره، ولا غرو إذا لم يتلبس في الظّاهر بلباس معينّ وعبادة الله والسّلوك إليه ممكن وجائز في كل لباس وزيّ سواء زيّ أهل العلم أو رجال الحكومة أو غيرهم، بخلاف كثير من سلاسل الصّوفيّة حيث يكون فيها خرقة مخصوصة والتّاج المختصّ به بحيث يكون التّقيّد به لازماً على كلّ من دخل في هذه الطّريقة، وفي بعض الطّرق يكون هذا التقيد مختصّاً بمجالس الذّكر ولكن ليس في طريقة النّعمة اللّهية هذا أصلاً لا في مجالس الذّكر ولا في غيرها أصلاً.

وحضرة المؤلف الجليل أيضاً لما كان بهذه السيرة وعلى أنه لم يترك واحداً من الواجبات بل المستحبّات وكان تاركاً للمحرّمات بل المكروهات، وكان مشتغلاً بالشّغل الدّنيوي أمر اتباعه ومريديه ايضاً بهذه الأمور، وكان شديد التّحفّظ عليها، وفي ليلة السّبت السّادس والعشرين من شهر ربيع الأوّل سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بعد الألف صار مخنوقاً وغريقاً وارتحل من الدّنيا شهيداً، ودفن في أعلى مقابر بيدخت؛ وخلّف ابنه العالم العارف الكامل المولى الحاجّ مّلاعلي نور علي شاه الثاني المتولد في السابع عشرمن شهر ربيع الثّاني ١٢٨٤ وصار خليفة والده حتى قتل مسموماً بكاشان في الخامس عشر من شهر ربيع الأوّل سنة سبع وثلاثين وثلاثمئة بعد الألف؛ وصار سليله الجليل والدي المعظمّ المولى الحاجّ محمد حسن صالح علي شاه المتولد في الثامن من شهر ذي الحجّة الحرام سنة ثمان وثلاثمائة بعد الألف خليفة له، ومسند الطّريقة في هذا الزّمان مزيّن بوجود سماحته اطال الله بقاءه الشّريف.

وللمولى الحاج مّلا سلطان محمّد مؤلفات كثيرة أكثرها في الأحكام والآداب الشرعية والأخلاق مع التّطبيق على أصول العرفان مثل سعادتنامه ومجمع السّعادة وبيان السّعادة وولا يتنامه وبشارة المؤمنين وتنبيه النّائمين والتّوضيح والايضاح، اثنان منها وهما بيان السّعادة والإيضاح بالعربية وغيرهما بالفارسية، وله تأليفات أخر غير ذلك في المنطق والنّحو مثل تهذيب التهذيب حاشية وشرح على تهذيب المنطق، وحواش على الأسفار كلّها بالعربيّة.

وأهمّ مؤلّفاته تفسير القرآن المجيد المسمّى «بيان السّعادة في مقامات العبادة» وهو من أهم التفاسير المؤلّفة في القرن الأخير حتّى قال فيه الفقيه الكامل المرحوم الحاجّ آقا محسن المجتهد العراقي والحكيم الجليل المغفور له الأخوند مّلا محمّد الكاشاني «تفسير السّلطان سلطان التّفاسير» وقد ذكر في هذا التفسير نكات دقيقة عرفانية وفلسفية وأدبية في بيان الآيات لم يذكرها أحد قبله كما صرح به نفسه في مقدّمة التّفسير وجميع ما ذكر في تفسير الآيات مستند إلى الأحاديث والأخبار المرويّة من مصادر العصمة عليهم السّلام.

ولمّا كان شديد العلاقة والأرادة بشيخه ومرشده الحاجّ كاظم سعادة علي شاه سمّى ثلاثة من مؤلفاته باسمه وهي سعادة نامة وبيان السّعادة ومجمع السّعادة كالمولوي البلخيّ الخراساني حيث سميّ ديوانه باسم مرشده شمس الدّين التّبريزي، والمولى محمدّ تقي الكرماني مظفرّعلي شاه حيث ختم اشعاره في ديوانه باسم مرشده مشتاق علي شاه شمس الدين التبريزي، والمولى محمد تقي الكرماني مظفر علي شاه حيث ختم اشعاره في ديوانه باسم مرشده مشتاق علي شاه رحمهم الله.

وبعد أن يسرد الكاتب خصائص كتاب التفسير مما لا علاقة له بموضوعنا هنا يعود إلى القول بأن هناك من أنكر أن يكون الكتاب للمترجم بل هو لمؤلف آخر، فيرد هو على هذا الزعم قائلاً:

وبعد تأليف هذا التّفسير وطبعه وانتشاره اشتهر فضل المؤلف بين الخواصّ والعوامّ وكلّ من رأى التّفسير ولاحظه أقرّ بفضل مؤلفه ونبوغه وعبقريته وصار ذلك سبباً لتشديد حسد الحاسدين حتّى أنكر بعضهم كون هذا التّأليف المنيف منه، واصروّا في تلقين هذا الافتراء في قلوب بعض آخر وذكروا هذا بوجوه مختلفةٍ بحيث وقع في قلوب بعض الفضلاء ايضاً وتلقوّا بالقبول من دون دقّة وتحقيق. والحال أنّ اللازم للفقيه المحقق والنّاقد المدقّق التّحقيق والتّعمقّ في الأمور وعدم الحكم بشيء مشكوك الاّ بعد التّحقيق، لأنّه إذا ظهر له خلاف ذلك يصير نادماً على ما حكم به قبلاً كما قال الله تعالى: «يا أيها الذّين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة» ولكنّ بعضا من الفضلاء والفقهاء ايضاً تلقّوا ما سمعوا من بعض المعاندين والحسّاد بالقبول ظنّاً منه الصّدق والصّحة وبعد ما ظهر لهم خلافه عدلوا عن رأيهم السّابق مثل حجّة الإسلام المغفور له الحاجّ شيخ محمدّ باقر الجازار حيث ألّف كتاباً وسمّاه «اطغاء المكائد وإصلاح المفاسد» بالفارسيّة في ردّ الصّوفية والشّيخيّة والبابّية والحال أنّ ذكر هذه الثّلاثة مرادفاً بعيد عن مثل هذا المحقق لأنّ بين عقيدة الصّوفية والشّيخيّة مع البابيّة بينونة بعيدة، لأنّ الأوّلين من المتعصبّين في التّشيّع والبابيّة منكرون للإسلام وقائلون بنسخة وظهور دين جديد.

والفقيه المغفور له ذمّ المؤلف وذكره بعبارة موهنة بهذا المضمون وهو أنّه: «سمع من بعض الثقاة أنّ هذا التّفسير ليس منه بل من صوفي مبتدع آخر سابق عليه وهو وجد نسخته الخطيّة القديمة وجعله باسمه والحال أنّه لم يفهم مضامينه» حتّى أنّ مؤلّف هذا الكتاب حرّف اسم التّفسير وسمّاه بيان الشّقاوة ولكنّه لم يدرك حقيقة هذا الاسم ولم يستشعر به فلم يخض في غور معناه لأنّ هذا التفسير ولو فرض أنّه لم يكن منه أو كان منه وكان باطلاً ولكنّه بيان القرآن فتسميته بهذا الاسم أن كان مع قصد وشعور في الحقيقة شتم للقرآن ويكون كفراً ولكنّ الفقيه المذكور ذكر هذا اللّفظ بدون توجّهٍ للمعنى.

ولّما طبع هذا الكتاب وانتشر رأى نسخة منه واحد من أعادي مؤلّف التّفسير من أهالي جنابد واعترض على الفقيه المذكور وقال كنّا نحن باعيننا شاهدين لكونه بنفسه مؤلّفاً لهذا التّفسير، ورأينا أنّه كان مشتغلاً بكتابة جزوات هذا التّفسير شخصاً، وقرأ بعضه على الحاضرين عند الكتابة، ونسبة هذا الفقيه في الحقيقة يكون مكذّباً لسائر الإيرادات الواردة على مؤلف التّفسير من المخالفين لأنّه يوجد الشّك والتّرديد عند كلّ من لم يعرفه في سائر المنتسبات إليه.

والفقيه المذكور بعد تأليف هذا الكتاب سافر لزيارة المشهد المقدّس الرّضويّ (ع) وتوقّف ببيدخت يومين وصار مأنوساً مع خليفة المؤلّف الحاجّ مّلا علي نور علي شاه الثّاني ووجد عقائده وأعماله وأفعاله مخالفة للاتهامات الواردة على الصّوفية ولم يجد فيه وفي أعوانه ما يخالف الشّرع المقدّس النبويّ وقال «شنيدن كي بود مانند ديدن» أي السّماع لا يكون كالرؤية، وكتب بعده أيضاً

كتاباً للمولى الحاج شيخ محمد حسن صالح علي شاه واعتذر من السابق وأظهر الندامة على تأليف الرسالة الردية، وهذا الكتاب موجود الآن وكل ذلك يكون دليلاً على صدق نيته وإنه قد اشتبه الأمر عليه من بعض المغرضين والأعادي.

وقال بعض: أنّ المؤلف حينما كان في أصفهان اطّلع على نسخة خطيّة قديمة من المكتبات وتصرّف فيها وحذف أوّلها وآخرها وجعلها بـاسمه، وقـال بعض منهم: أنّه كان في الأصل من فاضل نجف آباديّ، وقال بعض آخر: أنّه من فاضل يزديّ كان معه في حجرة واحدة بمدرسة أصفهان ثم رتّب ناشر هذه التّهمة آثار اليقين على هذا الوهم لأنّه مع عدم ذكر دليل على هذه الدّعوى قطع بعدم كون هذا التّفسير منه وهذا عجيب ولا سيّما ممّن ادّعى العلم والرّوحانيّة.

ونحن نقول لم يسافر هو الى أصفهان لتحصيل العلم أصلاً بل كان تحصيله كما ذكرنا بجنابذ أوّلاً، وبعد ذلك بالمشهد وسبزوار والنّجف الأشرف: وكانت رحلته إلى أصفهان لأخذ آداب الطّريقة وزيارة الحاجّ محمّد كاظم سعادة علي شاه وكان وجهة همّته زيارته والاستفاضه من محضره فقط، لا العلوم الظّاهرية الشّرعية ولا مشاهدة المكتبات، على أن استكتاب هذا التفسير مستلزم لاشتغال مدّة مديدة لا أقل من سنة لكتابته وهو لم يبق بأصفهان إلاّ مدّة قليلة، وايضاً كان هو قبل هذا السّفر مشتهراً بالفضل والتّبحرّ في العلوم العقليّة والنّقليّة بطهران وغيره كما ذكرته مشروحاً في كتاب «نابغة علم وعرفان در قرن چهاردهم».

وثانياً لو كان هذا التّفسير من مؤلف آخر قبله لذكر في التذاكر وشروح أحوال المتقدّمين وكيف يمكن أن يوجد تأليف غير مألوف ومعروف عند أحد من الفحول وعلماء الرّجال ويصير طالب علم غير معروف مطّلعاً عليه. وهذه النّسبة لا تكون إلاّ محض التّهمة والافتراء ولا يليق بمسلمٍ فكيف لمؤمن أن يحوم حول هذه الافتراءات.

وقال لي بعض الفضلاء بلسان المدح مريداً به الذّمّ (من قبيل الذّم الشبيه بالمدح) أنّه تفسير كامل فلسفي عرفاني بنكات دقيقة ومطالب أنيقة أخذها كلها من رشحات الأستاذ الحاجّ ملاّ هادي السّبزواري رحمه الله، لكنّه ايضاً خلاف الواقع وليس بصحيح، لأنّ كثيراً من النّكات التّحقيقيّة فيها كالتّحقيق في وجود الجنّ وأمثاله ليس موجوداً أصلاً لا في مؤلفات الحكيم السّبزواريّ ولا في غيره بل من مبتكرات المؤلف الجليل، على أنّه لم يدّع الابتكار في جميع ما حقّق، بل نقول أوّلاً: إنّه يفتخر بأن كلّ ما أدرك من الحقائق يكون مقتبساً من رشحات افاضات الأئمة المعصومين عليهم السّلام ومن الأخبار والأحاديث وثانياً: أنّ لازم كلّ تأليف أن يذكر من أقوال المتقدّمين وتحقيقاتهم ويستشهد بها وهذا لا يكون مخالفاً للتأليف ونحن لا نقول: ان جميع ما ذكر من التّحقيقات من مبتكرات فكره، بل نقول: إنّ كثيراً من هذه التّحقيقات مما سنح بفكره الكامل ولا يكون مذكوراً في كتب المتقدّمين رحمهم الله كما أشار إليه في مقدّمة التّفسير وقال: «وقد كان يظهر لي بعض الأحيان من إشارات الكتاب وتلويحات الأخبار لطائف ما كنت أجدها في كتابٍ ولا أسمعها من خطابٍ» (إلى آخره).

وذكر العلامة الأستاذ الشيخ محمد محسن الطهراني المعروف بشيخ آقابزرك في المجلد الثالث من كتاب «الذّريعة إلى تصانيف الشّيعة» ما عبارته كذا:

بيان السّعادة في مقامات العبادة أو التفسير المنير تفسير للقرآن الشريف طبع بطهران في مجلد كبير سنة ١٣١٤ على نفقة أصحاب العارف المعاصر المولى سلطان محمد بن حيدر محمد الكنابديّ (الجنابذيّ) الخراساني المتوفى حدود ١٣٢٠ معتقدين أنّه تصنيف شيخهم المذكور وهو نفسه ذكر فيه أنّه فرغ من تأليفه سنة ١٣١١ ولكن نبّهني العالم البارع المعاصر السيد حسين القزويني الحائري بانتحال وقع في هذا التفسير يكشف عن كونه لغيره ولو في الجملة فانّ ما أورده في أوّله من تشقيق وجوه اعراب فواتح السّور من الحروف المقطعات وإنهاء تلك الشّقوق إلى ما يبهر منه العقل توجد بتمام تفاصيلها وعين عباراتها في رسالة الشيخ علي بن أحمد المهائمي الكوكني النّوائتي المولود سنة ٧٧٦ والمتوفى سنة ٨٣٥ المشهور بمخدوم علي المهائمي وقد ذكر ألفاظ الرّسالة السيد غلام علي آزاد البلكرامي في كتابه سبحة المرجان المؤلف سنة ١١٧٧ والمطبوع سنة ١٣٠٣ وذكر أنّ المهائم بندر في كوكن من نواحي دكن، ونوائت كثوابت قوم من قريش نزلوا إلى بلاد دكن في زمن الحجّاج قال: وله التفسير الرّحماني والزوارف في شرح عوارف المعارف، وشرح الفصوص لمحيي الدّين، وشرح النصوص للقونويّ وأدلّة التّوحيد.

أقول: وتفسيره الموسوم بتبصير الرّحمن وتفسير المنّان طبع في دهلي سنة ١٢٨٦، وفي بولاق سنة ١٢٩٥ كما ذكره في معجم المطبوعات، وكتابه مرآة الدّقائق طبع في بمبي؛ وبالجملة المقدار المذكور من رسالة المهائمي في هذا التّفسير ليس هو جملة أو جملتين أو سطراً وسطرين حتّى يحتمل فيه توارد الخاطرين وتوافق النّظرين، فهذا الانتحال ثبّتنا عن الاذعان بصدق النّسبة إلى من اشتهر بأنّه له والله العالم.

وهذا ايضاً وان كان ظاهره موهماً للتحقيق ولكنه عند المنصف المحقق لا يخلو عن شوب الغرض وبعيد عن التحقيق، لأن المحقق في كل أمر لا سيما في الأمور المحتملة للتهمة وشوب الافتراء لا يكتفي بنقل القول من واحدٍ ولو فرض عادلاً بل يجتهد ويفتش ولا يتقاعد عن هذا حتّى يحصل له القطع بالدليل، وهذا العالم الجليل كان لازماً عليه أن يطالع التفسير المنسوب الى المهائمي ولا يقتصر على نقل القول ويطابق الكلمات والتّحقيقات حتّى يزول عنه الشك لأنّ الخبر يحتمل الصّدق والكذب، ونسبة الخلاف الى المؤمن بنقل خبر شخص واحد خلاف، ويكون مصداقاً للآية الشريفة ان جاءكم فاسق بنبأ.

وثانياً كان حرياً بمؤلف الذريعة لتكميل التحقيق أن يسأل معاصريه من العلماء والفضلاء المنصفين الذين كانوا يعرفونه ورأوه حتى يصير فضله عليه واضحاً، لأنّ كثيراً من فحول العلماء في زمانه مثل آية الله الشيرازي والحاج مّلا علي السمناني والحاج ميرزا حسين السبزواري والآخوند مـلا محمد الكاشاني والشيخ زين العابدين المازندراني وأولاده رحمهم الله، وغيرهم كانوا معترفين بفضله ونبوغه، وكل من حضر محضره من المؤالفين والمخالفين لم يتمكن من إنكار فضله وعلمه وتقواه حتى اعاديه، وسائر تأليفاته ايضاً شاهدةٌ على ذلك فإن تأليفه ليس منحصراً بهذا التفسير بل له تأليفات كثيرة بالفارسية والعربية وحواشٍ وتحقيقات على الأسفار وتحقيقات في علوم الأدب وغيرها وهي كلها شاهدة لعبقريته رحمه الله.

وثالثاً لو كان هذا الفاضل محققاً لم يقع في الخطأ في تاريخ وفاة المؤلف ولم يذكره بالتقريب بل كان لازماً عليه تحقيق التاريخ القطعي لوفاته حتى لا يقع في الاشتباه، وهو نفسه اقر بهذا الاشتباه في المجلد الرابع من الذريعة عند ذكر كتاب تنبيه النائمين أحد مؤلفات صاحب التفسير، وهذا دليل على أنّه خرج عن حد الانصاف وفي كلامه الطّويل الذي ذكرناه الذي يكون ظاهره متيناً وباطنه من الغرض والعناد شحينا، وغلب عليه حس البغض والحال انّ المحقق لا يليق أن يقع تحت تأثير احساسات الحبّ والبغض ولا سيما إذا كان شيوع أمثال هذا من شخص واحد أو شخصين معروفين بالغرض الشخصي والأهواء النفسانية فإنّ المغرض وإن كان بلباس أهل العلم يكون افتراؤه على

المسلمين سبباً للفسق وعدم قبول قوله.

ورابعاً كان حرياً أن يطالع ويلاحظ طرائق الحقائق للحاج ميرزا معصوم نائب الصدر الشيرازي فإنّه مع كونه في زمن تأليف هذا الكتاب مدعياً للطريقة ومعرضاً عن مؤلف التفسير ولعله كان مغرضاً في وقته ولكنّه مع ذلك لم ينكر فضله عند ذكر حالاته في هذا الكتاب ولا سيما عند بيانه في شرح عظمة هذا التفسير، ونحن نُحيلُ الطّالبين إلى مطالعة هذا الكتاب ومطالعة «نابغة علم وعرفان» في شرح حال المؤلف من تأليفاتي و «رهنماى سعادت» في ترجمة تفسير بعض السور الصغار منّي.

وقال بعض آخر: لقد اجاد المؤلف في تأليف هذا التفسير وبلغ الغاية القصوى في التّحقيقات الأدبية والفلسفية والعرفانية وبعض المسائل الفقهية، ولكنّه لشدة علاقته بأمر الولاية وتأويل الآيات بها خرج عن حد الاعتدال وصار كلامه شبيهاً بالغلو مثل تفسير كلمة الله في قوله تعالى في سورة البقرة «ومنهم من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر» بعلي الذي هو مظهر الالّه، وكذا في آيات أخر مثلها، وفي سورة البراءة «ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات» وفي موارد أخر بمظاهره وخلفائه الفانين ببشريتهم في الله، ومثل إطلاق الرب على رب الأرباب والرب المضاف وتفسير الرب المضاف بالرب في الولاية كتفسير الرب في مثل آية «فمن كان يرجو لقاء ربه» في آخر سورة الكهف بالرب في الولاية ملكوته ثم جبروته وتفسير الرب في اية «وجاء ربك والملك صفاً صفاً» في سورة الفجر بالرب المضاف الذي هو القائم في وجود السالك وتفسير الكفر في موارد متعددة بالكفر بالولاية وكذاالاشراك بالشرك بالولاية، ولكن هذا ايضاً خلاف لواقع مذهبه لأن كل هذا يكون مبنياً على العقائد العرفانية التي تكون مستندة إلى الآيات والأخبار المأثورة من الأئمة عليهم السلام، لأنّ الأخبار في تفسير الإيمان بالإيمان بالولاية كثيرة كما في الكافي، في باب ما نزل فيهم وفي اعدائهم، وأما تفسير كلمة الله بعلي فهو بطريق المجاز وذكر الظّاهر وارادة المظهر وهو ايضاً مستفاد من الأخبار، لأن الإيمان بالله ملازم للإيمان بمظاهره، والكفر بمظاهره يستلزم الود ومخالفة أمر الله وهو كفر به، كما روى عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: إن حبنا إيمان وبغضنا كفر؛ وأمثال ذلك كثيرة، واستعمل في القرآن أيضاً كذلك لأن نسبة قبول التوبة وأخذ الصدقات إلى الله لا يمكن حمله على ظاهره لأنّ الله لا يرى ولا يكون له يد فلا بد أن يراد من كلمة الله مظاهر الذّات المستجمعة لجميع صفات الكمال بطريق المجاز كما قال تعالى شأنه «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى».

أمّا تفسير الرب فهو ايضاً صحيح لأن الرب في اللغة بمعنى المربي وقد أطلق في القرآن على غير الله كما في سورة يوسف نقلاً عن يوسف (ع) «أذكرني عند ربك» وكلمة رب الأرباب ايضاً دليل على صحة اطلاق الرب على غير الله تعالى بعنوان الرب المضاف وكونه تعالى شأنه رب الأرباب.

بل أهل السنة والجماعة ومحققوهم أيضا اعترفوا بذلك وفي كتبهم أخبار كثيرة في هذا الباب، كما في مودة القربى للمير سيد على الهمداني الشافعي في المودة الثالثة أنه قال النبي في جمع من الصحابة: لا يحب علياً إلا مؤمن ولا يبغضه إلا كافر.

وفي ينابيع المودة للشيخ سليمان البلخي الحنفي في الباب التاسع والخمسين نقلاً عن الصواعق المحرقة، قال أخرج الدارقطني في الأفراد عن ابن عباس أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم قال: عليّ باب حطّة من دخل فيه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً.

ونسبة الغلو إلى المؤلف الجليل كتسمية القميين المتقدمين رضي الله عنهم؛ كل من لا يعترف بسهو النبي (ص) غالياً لأنهم كانوا قائلين بأنّه بشر بصريح الآية الشريفة «قل إنّما أنا بشر مثلكم» وقالوا أنّ البشر يعتري عليه السّهو والنسيان والخطأ فهو ايضاً جائز السهو، وكانوا معتقدين أنّ كل من لم يعترف بذلك يكون غالياً، ولذا كانوا يحتسبون غيرهم من فقهاء الشيعة غالياً بالتقريب والحال أنّه ليس كذلك كما ذكر مشروحاً في المفصلات، والغالي في الحقيقة من أثبت جميع الصّفات الثبوتية الموجودة في الاله المستجمع لجميع صفات الكمال المتجلي في كل العوالم والذرات الحي الباقي الدائم الذي لا يعتريه نقص ولا زوال ولا ممات للفرد البشري الذي يكون له أدوار الحياة من الصغر والشباب والكهولة ويصير مريضاً وضعيفاً وفقيراً وغير ذلك من نواقص المادة، فالاعتقاد بإلوهية جسمانية علي بن أبي طالب عليه السّلام المنسوب إلى عبد الله بن سبأ، أو الوهية جعفر بن محمد عليهما السلام، كما نسب إلى محمد بن مقلاص الأسدي المكنى بأبي الخطّاب أو بالوهية علي بن محمد الهادي أو الحسن العسكري عليهم السلام كما روى نسبته إلى فارس بن حاتم بن ماهويه القزويني المقتول على يد جنيدٍ بأمر الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام كلها كفر وغلو، لأنه خلاف الشهود ورأي العقل لأنّ الشيء الفاني والهالك كيف يمكن أن يكون الهاً فاطر السموات والأرض، ولكن العبد إذا صار فانياً من صفات بشريته واستنار بنور الألوهية وصار حياً بالحياة المعنوية يصير مظهراً للذات الأحديّة ومجليً للجلوات الربوبية فيصدر منه أمور خارجة عن حيطه ظاهر البشرية من المعجزات والكرامات وخوارق العادات، وكلما كان فناؤه في الذات الأحدية اتم كان بقاؤه به أقوى حتى يصل إلى مقام يصير مظهراً تاماً له، وعند ذلك يكون اقوى مظهر واتم مّجلى لله، وهذا يكون في الحقيقة متّصلاً بل متحداً مع مقام المشيّة التامّة وهذه المظهرية كانت مخصوصة بمحمد (ص) وبعده بعليّ (ع) وبعده بالأئمة المعصومين من ولده حادي عشرهم ثاني عشر الأئمة وقائمهم، فهم الأسماء الحسنى والصفات العليا والمظاهر التامة والمجالي الكاملة لذات الله وهم قادرون على جميع ما تعلق القدرة الالهية بارادته وقدرته، فهم عالمون بعلمه، وقادرون بقدرته، ومريدون بإرادته، وليس شيءٌ من ذلك كفراً ولا شركاً ولا غلواً، بل يكون عين التوحيد لأنّ المعتقد بذلك لا يرى لايّ فرد منهم شخصية مخصوصة قبال الذات الأحدية بل يقول، إنهم فانون ولا يكون لهم شخصية إلا مظهرية الله تعالى والبقاء به فهم كالمرآة حيث لا ينظر إليها إلا لمشاهدة الصورة المتجلية فيها؛ والأئمة عليهم السلام مرآة ذات الله كما ورد «بنا عبد الله وبنا عرف الله» فهذه العقيدة في الحقيقة عين التّوحيد ولذا تكون عقيدة القميين في الحقيقة افراطاً وغلواً في التمسك بظواهر الآيات والأخبار، ونسبه الغلو إلى المؤلف ايضاً كذلك (انتهى).

وقد نشرنا ما تقدم على طوله لما فيه من أمر الانتحال الطريف، وما فيه مما يقوله الصوفيون عن معتقداتهم رداً على ما يُرمَون به من العظائم. ونترك بعد ذلك للقارىء أن يستنتج ما يشاء.

المولى سليمان بن محمد الجيلاني التنكابني:
توفي بعد سنة ١٠٩٨.

كان من العلماء المحققين وله مؤلفات منها:

١ ـ التوحيد ـ تمّ تأليفه في سنة ١٠٨٨
٢ ـ العلم ـ رسالة فارسية في أقسام العلوم.
٣ ـ الرجعة ـ رسالة في الرجعة اتمها في سنة ١٠٨٩.
٤ ـ رسالة في المعاد وهي باللغة الفارسية.
٥ ـ شرح الصحيفة السجادية.
٦ ـ الحركة والسكون والزمان.

٧ ـ آداب المؤمنين وأخلاقهم أتمها في سنة ١٠٩٨[١].

المولى سليمان الرامسري التنكابني:

توفي بعد سنة ١١٢٤.

ولد في رامسر ونشأ بها ثم هاجر إلى أصفهان وحضر عند المولى محمد السراب التنكابني وولده المولى محمد صادق وغيرهما ثم رجع إلى رامسر واشتغل بالتدريس واشتهر بذلك وكان ينظم الشعر بالفارسية وله قصيدة بمناسبة تعمير مسجد الجمعة (آلارنية) منقوشة على لوحة خشبية في المسجد[٢].

سُوَيد بنُ سعيد بن سهل بن شهريار:

قال الذهبي في سير اعلام النبلاء:

الإمام المحدثُ الصدوق، شيخُ المُحدِّثين، أبو محمد الهروي ثم الحدثاني الأنباري، نزيل حديثة النورة بلُيدة تحت عانة، وفوق الأنبار، رحَّال جوَّال، صاحب حديث وعناية بهذا الشأن.

لقي الكبار، وحدث عن: مالك بن أنس بـ «الموطأ»، وحماد بن زيد وعمرو بن يحيى بن سعيد الأموي، وعبد الرحمن بن أبي الرِّجَال، وشريكٍ القاضي، وعبد الحميد بن الحسن الهلالي، وسوار بن مُصعب، وأبي الأحوص، وحفص بن ميسرة الصنعاني، وعبد ربه بن بارق، ومُسلم الزنجي، وإبراهيم بن سعد، وخالد بن يزيد بن أبي مالك، وفضيل بن عياض، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وبقية بن الوليد، وسفيان بن عيينة، وعلي بن مسهر، وعبد العزيز بن أبي حازم، والدراوردي، وعبد الرحمن بن أبي الزناد، وفرج بن فضالة، وخلق كثير بالحرمين والشام والعراق ومصر.

روى عنه: مسلم، وابن ماجة، وبقية شيخُهُ، وأبو عبد الرحمن المُقرىء، ومحمد بن سعد، وأحمد بن الأزهر، وأبو زُرْعة، وبقيُّ بن مخلد، وأبو حاتم، ويعقوب بن شيبة، وإبراهيم بن هانيء، وعُبَيْد العجل، والحسنُ المَعْمري، وإسحاق المنجنيقي، وجعفر الفريابي، وأحمدُ بن محمد بن الجعد الوشاء راوي «الموطأ» عنه، وسعيد بن عبد الله بن عجب الأنباري، وعبد الله بن أحمد، والقاسم المطرز، وأبو القاسم البغوي، وأبو بكر الباغندي، وآخرون.

قال عبد الله بن أحمد: عرضت على أبي أحاديث لسويد بن سعيد، عن ضمام بن إسماعيل، فقال لي: أكتبها كُلَّها، أو قال: تتبَّعْها، فإنه صالح، أو قال: ثقة.

قال الحسنُ الميموني: سأل رجلٌ أبا عبد الله، يعني: أحمد، عن سويد، فقال: ما علمتُ إلا خيراً. فقال له إنسان جاءه بكتاب فضائل، فجعل علياً رضي الله عنه [أولها]، وأخَّر أبا بكر وعمر. فعجب أبو عبد الله من هذا، وقال: لعله أُتي من غيره. قالوا له: وثم تلك الأشياء؟، قال: فلم تسمعونها أنتم، لا تسمعوها، ولم أره يقولُ فيه إلا خيراً.

وقال أبو القاسم البغوي: كان سويد من الحفاظ، وكان أحمدُ بنُ حنبل ينتقي عليه لولديه صالح وعبد الله يختلفان إليه، فيسمعان منه.

وقال أبو داود: سمعت يحيى بن معين، يقول: سُوَيد مات منذ حين.

قلتُ: عنى أنه مات ذِكْرُه للينه، وإلاّ فقد بقي سُوَيدُ بعد يحيى سبع سنين.

قال: وسمعت يحيى، يقول: هو حلالُ الدم. وسمعتُ أحمد، يقول: هو لا بأس به، أرجو أن يكون صدوقاً.

وقال محمد بن يحيى السوسي الخزّاز: سألتُ يحيى بن معين عن سويد بن سعيد، فقال: ما حدثك فاكتب عنه. وما حدَّث به تلقيناً فلا. أي: إنه كان يقبل التلقين.

وقال عبد الله بن علي بن المديني: سُئِل أبي عن سُويد الأنباري فحرك رأسه، وقال: ليس بشيء. وقال: هذا أحد رجلين: إما يحدِّثُ من حفظه، أو من كتابه. ثم قال: هو عندي لا شيء. قيل له: فأين حفظُه ثلاثة آلاف؟ قال: هذا أيسر، تكرر عليه.

وقال يعقوب السدوسي: صدوقٌ مضطرب الحفظ، ولا سيما بعد ما عمي.

وقال أبو حاتم: صدوق. يُدلِّس، ويكثر ذلك.

وقال البخاري: كان قد عمي، فتلقَّن ما ليس من حديثه.

وقال النِّسائي: ليس بثقة ولا مأمون.

أخبرني سليمانُ بنُ الأشعث، سمعتُ يحيى بن معين، يقول: سويدُ ابن سعيد حلالُ الدم.

وقال صالحُ جزرة: صدوقٌ عمي، فكان يُلقَّنُ أحاديث ليست من حديثه.

وقال الحاكمُ أبو أحمد: عمي في آخر عمره، فربما لُقِّن ما ليس من حديثه. فمن سمع منه وهو بصير، فحديثه عنه أحسن.

وقال أبو بكر الأعين: هو شيخٌ، هو سِدادٌ من عيش.

وقال سعيدُ بن عمرو البرذعي: رأيت أبا زُرعة يُسيءُ القول في سويد بن سعيد، وقال: رأيتُ منه شيئاً لم يُعْجبْني، قلتُ: ما هو؟ قال: لَمَّا قدمتُ من مصر، مررتُ به، فأقمتُ عنده، فقلتُ: إن عندي أحاديث لابن وهب، عن ضمام، وليست عندك، فقال: ذاكرْني بها، فأخرجت الكتب، وأقبلتُ أُذاكرُهُ، فكلما كنتُ أذاكره، كان يقول: حدثنا به ضمام، وكان يُدَلِّس حديث حريز بن عثمان، وحديث نيار بن مُكْرَم، وحديث عبد الله بن عمرو: «زُرْغِبّاً». فقلت: أبو محمد لم يسمع هذه الثلاثة أحاديث من هؤلاء، فغضب. قال البرذعي: فقلتُ لأبي زرعة: فأَيْش حاله؟ قال: أما كُتُبُه فصِحاح، وكنْتُ أتَتَبَّع أُصوله فأكتبُ منها، فأما إذا حدَّث من حفظه، فلا. وقلنا لابن معين: إنَّ سُويداً يحدِّث عن ابن أبي الرِّجَال، عن ابن أبي رواد، عن نافع، عن ابن عمر، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «مَنْ قالَ في ديننا برأْيِه، فاقْتُلُوهُ». فقال يحيى: ينبغي أن يُبْدأ به فيُقتل، فقيل لأبي زرعة: سُوَيْدٌ يُحدِّثُ بهذا عن إسحاق بن نجيح فقال: هذا حديثُ إسحاق بن نجيح، إلا أنَّ سُويداً أتى به عن ابن أبي الرجال، قلتُ فقد رواه لغيرك عن ابن نجيح، قال: عسى قيل له فرجع.

ابن عدي: سمعتُ جعفراً الفريابي، يقولُ: أفادني أبو بكر الأعين في قطيعة الربيع[١] سنة إحدى وثلاثين بحضرة أبي زُرعة، وجمعٍ من رؤساء أصحاب الحديث حين أردتُ أن أخرج إلى سويد، فقال: وقفه، وتثبَّت منه: هل سمعتَ هذا من عيسى بن يونس؟ فقدمتُ على سويد، فسألتُه، فقال: حدثنا عيسى بنُ يونس، عن حريز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن جبير بن نُفير، عن أبيه، عن عوف بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «تَفْتَرِقُ هذه الأُمَّةُ بِضْعاً وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، شَرُّها قَوْمٌ يَقيسونَ الرَّأْيَ، يَسْتَحِلُّونَ بِهِ الحَرامَ، ويُحَرِّمون بِهِ الحَلالَ».

(١) الشيخ محمد السمامي.

(٢) الشيخ محمد السمامي.

(١) وهي منسوبة إلى الربيع بن يونس، حاجب المنصور ومولاه، وكانت بالكرخ مزارع للناس.

فوقفْتُ سُويداً عليه بعد أنْ حدثني به، ودار بيني وبينه كلامٌ كثير.

قال ابن عدي: فهذا إنما يُعرفُ بنعيم بن حماد، فتكلم الناس فيه مِنْ جَرّاه ثم رواه رجل من أهل خراسان، يقال له: الحكم بنُ المبارك، يُكْنَى أبا صالح الخَوَاسَتي ويُقال: إنه لا بأس به ثم سرقَهُ قومٌ ضعفاء ممن يُعرفون بسرقة الحديث، منهم: عبد الوهاب بنُ الضحاك، والنضر بنُ طاهر، وثالثهم سُويدٌ الأنباري. ولسُويد أحاديث كثيرة عن شيوخه، روى عن مالك «المُوَطَّأ» ويُقالُ: إنَّه سمعه خَلْفَ حائط فضُعِّف في مالك ايضاً، وهو إلى الضعيف أقرب.

قال أبو بكر الإسماعيلي: في القلب من سُويد من جهة التدليس، وما. ذُكر عنه في حديث عيسى بن يونس الذي يُقال: تَفَرَّد به نُعَيم.

قال حمزة السَّهْمي: سألت الدارقطني عن سويد بن سعيد، فقال: تكلم فيه يحيى بنُ معين، وقال: حدَّث عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الحَسَنُ والحُسَيْنُ سَيِّدا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ».

قال يحيى بنُ معين: وهذا باطل عن أبي معاوية، لم يروه غيرُ سويد. وجُرِّح سويد لروايته لهذا الحديث.

قال الدَّارقطني: فلم نزلْ نظنُّ أنَّ هذا كما قال يحيى، وأن سويداً أتى أمراً عظيماً في رواية هذا، حتى دخلْتُ مصر، فوجدتُ هذا الحديث في «مسند» أبي يعقوب المَنْجنيقي ــ وكان ثقةً ــ رواه عن أبي كُريب، عن أبي معاوية، فتخلص سويد. وصح الحديث عن أبي معاوية، وقد حدَّث النَّسائيُّ، عن أبي يعقوب هذا.

قال البخاريُّ: حديثُ سويد مُنكر.

وقد روى ابنُ الجوزي: أن أحمدَ بن حنبل، قال: هو متروك الحديث. فهذا النقل مردود لم يقله أحمد.

ومن مناكير سُويد، وهو مشهور عنه، عن يزيد بن زُريع، عن شعبة، عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قيل: يا رسول الله، لَوْ صَلَّيْتَ عَلَى أم سَعْدٍ، فَصَلَّى عليها بَعْدَ شَهْرٍ، وَكَانَ غائباً. وهذا لم يُتابَع سويد عليه.

سويد: حدثنا ابنُ عُيينة، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبد الله. مرفوعاً: «المَهْدِيُّ مِنْ وَلَدِ فاطِمَةَ».

رواه إسحاقُ المَنْجَنِيْقي عنه، وإنما روى الناسُ عن ابن عيينة بالإسناد: «يَمْلِكُ رجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُواطِىءُ اسْمُهُ اسْمِي».

أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا أحمدُ بنُ الحسن الصوفي من كتابه الأصل، قال: حدثنا سُويد، عن مالك، عن الزهري، عن أنس، عن أبي بكر: «أنَّ النَّبِيَّ، صلى الله عليه وآله وسلم، أَهْدَى لِأَبي بَكْرٍ».

قال الخطيب: لم يتابع سوَيد عليه.

روى الحُسينُ بنُ فهم: عن يحيى بن معين ــ وذكر سويداً ــ فقال: لاصلَّى الله عليه.

وقال أبو أحمدُ بن عدي في حديث: «مَنْ قالَ في ديننا برَأْيِه فاقْتُلوهُ» هذا الحديث الذي قال يحيى بن معين: لو وجدتُ دَرَقَةً وسيفاً، لغزوتُ سويداً الأنباري.

وقال أبو عبد الله الحاكم: أُنكِر علىٰ سويد حديث: «مَنْ عَشِقَ وَعَفَّ وكتم ومات، مات شهيداً»، ثم قال: فقال: إن يحيى لمَّا ذُكر له هذا، قال: لو كان لي فرسٌ ورمحٌ، غزوتُ سويداً.

وقال إبراهيم بنُ أبي طالب: قلتُ لمسلم: كيف استجزت الرواية عن سُويد في «الصحيح»؟ قال: فمن أين كنتُ آتي بنسخة حفص بن ميسرة؟ قلتُ: ما كان لمسلم أن يُخرِّج له في الأصول. وليته عضد أحاديث حفص بن ميسرة، بأن رواها بنزول درجةٍ ايضاً.

أخبرنا أحمدُ بن هبة الله، عن زينب الشَّعْرِيَّة، أخبرتنا فاطمةُ بنت زَعْبَل، أخبرنا عبدُ الغافر الفارسي، أخبرنا أبو عمرو بنُ حمدان، حدثنا الحسنُ بنُ سفيان، حدثنا سُويد، حدثنا شهاب بنُ خِراش، عن محمد بن زياد، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما بَعَثَ الله نَبِياً إلاَّ كانَ فيهِمُ المُرْجِئَةُ والقَدَرِيَّةُ يُشَوِّشونَ عَلَيْهِ أَمْرَ أُمتِهِ، وإِن الله لَعَنَهُمْ عَلَى لِسانِ سَبْعِينَ نَبِياً». وهذا منكر.

ابن عدي: حدثنا الباغندي، حدثنا سويد بنُ سعيد، حدثنا عبدُ الحميد بن الحسن، عن ابن المُنْكَدِر، عن جابر، قال: قال رسول الله صلىاللهعليه وآله وسلم: «كُلُّ مَعْروفٍ صَدَقَةٌ، ومَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ وَنَفْسِهِفَهُوَ صَدَقَةٌ، ومَا وَقَى به عِرْضَهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ، ومَا أَنْفَقَ مِنْ نَفَقَةٍ، فَعَلَى الله خَلَفُها، إلاَّ ما كان في بُنْيانٍ أوْ مَعْصِيةٍ» غريب جداً.

إبراهيم بن محمد بن عرفة نِفْطَويه: حدثنا محمدُ بنُ داود بن علي، حدثنا أبي، حدثنا سُويدُ بن سعيد، حدثنا علي بن مُسْهِر، عن أبي يحيى القتات، عن مُجاهد، عن ابن عباس مرفوعاً، قال: «مَنْ عَشِقَ وَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ، غَفَرَ الله له، وأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ».

أخبرنا أحمدُ بن إسحاق القرافي، أخبرنا المباركُ بن أبي الجود، أخبرنا أحمد بنُ أبي غالب الزاهد، أخبرنا عبد العزيز بن علي، أخبرنا أبو طاهر المخلِّص، حدثنا عبد الله بنُ محمد، حدثنا سُويد بن سعيد، حدثنا زياد بن الربيع، عن صالح الدهَّان، عن جابر بن زيد، قال: نظرتُ في أعْمال البِرّ، فإذا الصَّلاةُ تُجْهِدُ البَدَنَ، ولا تُجْهِدُ المالَ، وَكَذَلِكَ الصِّيامُ. قال: والحج يجهد المالَ والبَدَنَ، فرأيْتُ أنَّ الحجَّ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

فضْلُ الأعمال بعضها على بعض، إنما هو التوقيف، وورد في ذلك أحاديث عدة، لكن إذا قُلنا مثلاً: أفضلُ الأعمالِ الصلاةُ، فينبغي أن يعرف المقدار الذي هو من الصلاة أفضلُ من الحج مرة. وكذا إذا قلنا: الصلاةُ أفضلُ من الصوم، وأمثال ذلك، بل المسلمانِ يصومان يوماً، ويُصليان ركعتين من النفل، وبينهما من مُضاعَفَةِ الثَّواب ما الله به عليم يقع في ذلك من الصفات.

قال البخاريُّ: مات سُويد يوم الفِطر سنة أربعين ومئتين بالحدِيثَةِ.

قال البغويُّ: بلغ مئة سنة (انتهى).

يبدو من بعض ما مر أن الرجل كان شيعياً لذلك طعنوا فيه واستحلوا دمه.

السيد شبر بن علي بن محمد المشعل الموسوي الستري الغريفي البحراني:

مرت ترجمته في المجلد السابع، ونستدرك عليها هنا ما يلي:

الصحيح في تاريخ وفاته هو سنة ١٢٨٨ وكانت ولادته في البحرين سنة ١٢٣٠. ودرس في البحرين على الشيخ عبد الله الستري. ثم أخذ عن علماء الجزائر، ثم سكن البصرة ثم المحمرة. وفيه يقول السيد موسى الطالقاني من قصيدة مطلعها:

الحب يعلم أن الحب من شاني ... وأن ترفع عن ذل الهوىٰ شاني

يقول فيها:

ما زار جفني بعد البين طيف كرى ... ولا سحبت بربع الأنس ارداني

سوىٰ عشية :وافاني البشير بها ... بقرب (شبر) حياني فأحياني
مولى مناقبه كالشهب نيرة ... بين الخلائق لم تحتج لبرهان
لله درك في سن الشباب لقد ... سدت البرية من شيب وشبان
لئن نهضت بأعباء العلىٰ جذلاً ... فتلك شنشنة من آل عدنان
بدر يلوح ببرج العلم مكتملاً ... وكم غدا البدر في خسف ونقصان
يرعىٰ البعيد بما يرعىٰ القريب به ... هما لديه غداة البذل سيان
لسان مدحي لا يحصي ثناك ولو ... إني قضيت بنظم الشعر أزماني
لذاك قصرت لا بل قد قصرت ولو ... إني استعرت لسان الأنس والجان
خذها إليك أخا العلياء فائقة ... من الفصاحة قد جاءت بألحان
فالق ما أنت ملقيه فتلك عصا ... «موسى بن جعفر» لا «موسى بن عمران»

وللمترجم ديوان شعر مخطوط يوجد الآن عند حفيده السيد حسن بن السيد عدنان.

ويروي صاحب (أنوار البدرين) عن سبب نزوحه إلى شيراز حيث توفي فيها ما يلي:

في آخر عمره أخذته الغيرة الايمانية على ما جرىٰ على أهل البحرين من الحكام الوهابيين المتغلبين عليها من الظلم والعدوان وغصب أموال الشيعة وقتلهم وتشريدهم فأدىٰ نظره واجتهاده إلى محاربتهم فترأس الحركة الجهادية ضد الحكام الوهابيين وناضلهم ولكن لقلة العدد والعدة اندحرت جماعته وتفرّق شملها فرأىٰ السيد شبر أن يتصل بناصر الدين شاه القاجاري ليكون له ظهراً فسافر إلى شيراز في طريقه إلى طهران. فلما علم الوهابيون ذلك أرسلوا إلى حاكم شيراز بهدايا كثيرة وبأموال طائلة ليصرفوه عن السيد وليسد طريقه إلى الشاه وبالفعل فقد وقع ما أرادوا وفعل الحاكم ما سعوا إليه ولذا لم يقابله الحاكم ولم ينظر إلى ما جاء به إليه فبقي السيد في شيراز حوالي أربعة أشهر حتى توفي بغصته عادم النصير والمعين. وقد خلف من الذكور ولداً واحداً هو السيد عدنان المتوفى ١٣٤٠هـ.

ومصدرنا في هذا الاستدراك ما كتبه لنا السيد علي العدناني الغريفي.

شرف النساء بنت أبي طالب بن مكرم العلوي الحسني البغدادي.

كانت حية في رجب سنة ٥٦٠هـ

عالمة فاضلة محدثة جليلة من فواضل نساء الشيعة في مطلع القرن السابع للهجرة ببغداد ولدت في بغداد ولما بلغت سن الرشد زفوها إلى سيد المحدثين العلامة الشريف أبو محمد قريش بن السُبيع بن المهنا العلوي الحسيني المدني البغدادي المتوفى سنة ٦٢٠هـ أخذت العلم والحديث من زوجها المذكور ثم حضرت على الشيخ أبو طالب المبارك بن علي بن محمد بن خضير الصيرفي البغدادي وقد قرأت عليه كتاب (فضل الكوفة) تأليف الشريف أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن عبد الرحمان الحسيني الشجري المتوفى سنة ٤٥٥هـ مع جماعة منهم. زوجها الشريف قريش المدني البغدادي وابنته وبناتها آمنة المارة الذكر وفاطمة الآتي ذكرها وعبد الله بن أبي طالب بن أبي بكر المقري العجان وفتوح بن جعفر بن الطرزي[1] وقد كتب زوجها الشريف قريش جميع ذلك بخطه المبارك في آخر كتاب (فضل الكوفة) في مجالس آخرها يوم الثلاثاء عاشر رجب سنة ٥٦٠هـ وهذه النسخة النفيسة من كتاب (فضل الكوفة) من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق ونسخة فوتوغرافية منها في مكتبة أمير المؤمنين (ع) العامة بالنجف الأشرف[2].

(١) أنظر الثقاة العيون في سادس القرون ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨ والأنوار الساطعة في المائة السابعة ص ١٣٦ ــ ١٣٧.

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي، وهي منتزعة من كتابه المخطوط (رياحين الشيعة).

الشيخ شريف بن الشيخ عبد الحسين بن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر:

توفي ليلة السبت السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ١٣١٤هـ ودفن في مقبرتهم في النجف الأشرف.

تربىٰ في حجر جده صاحب الجواهر ووالده، تتلمذ علىٰ الميرزا حسين الخليلي والشيخ محمد حسين الكاظمي وله منه اجازة مؤرخة يوم الجمعة ٢٩ رمضان سنة ١٣٠٣.

كما تتلمذ علىٰ الشيخ هادي الطهراني واختص به، وسافر إلىٰ إيران ونزل مدينة بروجرد واتصل بالسيد محمود الطباطبائي صاحب (المواهب السنية) ومكث أربعة أعوام ثم عاد إلى النجف.

مؤلفاته: (مثير الأحزان) في المجالس الحسينية طبع عدة مرات وله مقتل الحسين (ع) مخطوط. رثاه السيد إبراهيم الطباطبائي بقصيدة مطلعها:

يسام الموت ميتة المشروف ... إنما الموت مولع بالشريف[1]

الشيخ صادق بن الشيخ باقر بن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر.

توفي سنة ١٣٢٩ ودفن في مقبرتهم المشهورة بالنجف الأشرف. من علماء وفضلاء النجف والاسرة الجواهرية النجفية، قام بتربيته الشيخ علي الجواهري. وتتلمذ علىٰ الميرزا حسين الخليلي والشيخ محمد حسين الكاظمي والآخوند الخراساني والشيخ محمد طه نجف. وكان بعض العلماء يرجحه علىٰ أخيه الفقيه المرجع الشيخ علي الجواهري. رثاه الشيخ عبد الحسين الحويزي بقصيدة مطلعها:

جد يا سحاب بصوب دمع هامر ... لتبل ترب الصادق بن الباقر
قد كنت تنهل من أنامل كفه ... مستقياً بعباب بحر زاخر
منن عليك قديمة من فضله ... يعيى بها لهجاً لسان الشاكر

الى أن يقول مادحاً أخاه الشيخ علي:

فالبيت مرتفع الذري (بعليه) ... سامي الدعام بكل ركن عامر
بحر جواهر علمه قدسية ... لا خير في بحر بغير جواهر[2]

الشيخ صادق بن الشهيد البرغاني القزويني آل الشهيدي.

ولد حدود سنة ١٢٢٢ وتوفي سنة ١٣١١ هـ.

من ابرز علماء عصره ومراجع الفتوى والتدريس قرأ المقدمات على جماعة من فضلاء قزوين ثم حضر على والده المستشهد سنة ١٢٦٣ هـ على يد الفرقة البابية وعمه الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وفي سنة ١٢٤٢ قصد العراق مع جمهور من العلماء لنقل جثمان السيد محمد المجاهد الطباطبائي المتوفى سنة ١٢٤٢ في قزوين بعد رجوعه من ساحات الحرب الإيرانية الروسية الى كربلاء المقدسة فمكث هناك والتحق بحوزة المولى شريف العلماء المازندراني الحائري المتوفى سنة ١٢٤٦ وبعد وفاة استاذه المذكور وانتشار الوباء في العراق رجع الى قزوين وحضر ثانية على أبيه وعمه الشيخ محمد صالح وأخذ الحكمة والفلسفة عن الآغا الحكمي والآخوند ملا يوسف الحكمي والاخوند الشيخ ملا صفر علي اللاهيجاني القزويني في المدرسة الصالحية بقزوين ثم توجه ثانية الى العراق مع اخيه الشيخ عبد الله امام الجمعة وسكن النجف الأشرف وحضر في الفقه والأصول على الشيخ حسن آل كشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٦٢ صاحب أنوار الفقاهة والشيخ محمد حسن صاحب الجواهر وكتب له شيخه صاحب الجواهر اجازة الاجتهاد اشرك فيها أخاه الشيخ عبد الله امام الجمعة ثم رجع الى قزوين وتصدر كرسي التدريس والإمامة والفتوى. وبعد

(١) السماوي.

(٢) السماوي.

وفاة أخيه الأكبر المولى الآغا محمد إمام الجمعة رجع اليه الناس في أمر التقليد،ذكره صاحب المآثر والآثار بما هذا تعريبه: (الآغا الشيخ صادق المجتهد القزويني له الرياسة على سائر أفراد آل البرغاني وانتهت إليه الحكومة الشرعية في قزوين وله اليوم الزعامة الدينية والتقدم على علماء تلك المناطق وجميع نواحي قزوين)[1].

ذكره شيخنا الاستاذ في طبقات أعلام الشيعة ووصفه وأثنى عليه وقال : (فقيه كبير وعالم شهير كان في النجف الأشرف من تلاميذ الشيخين المعظمين محمد حسن صاحب الجواهر والشيخ حسن صاحب انوار الفقاهة وغيرهما من الأجلاء لازم أبحاث علماء ذلك العصر حتى ارتوى من نميرهم وشهدوا بغزارة علمه فعاد إلى قزوين قائماً بالوظائف الشرعية وصار هناك مرجعها الكبير وملاذها المقدم . . . وله اجازة الاجتهاد من شيخه صاحب الجواهر اشرك فيها أخاه الآغا عبد الله إمام الجمعة وهي اجازة تامة ، وكان أخوه الآخر الآغا محمد إمام الجمعة في قزوين قبله . . . وهذه الأسرة من أشرف بيوت العلم ، ومن السلاسل الذهبية منذ عهد جدها الشهيد، وقد تخرج منها عدد كبير من العلماء الأفذاذ . . .).

له مؤلفات وتحقيقات في الفقه والأصول والكلام منها حواشي أنوار الفقاهة في أربعة مجلدات . وله كتاب الإمامة ، ورسالة في الارث • خلف سبعة أولاد ذكور أشهرهم الشيخ مهدي إمام الجمعة والشيخ هداية الله الشهير بحاج مجتهد وأصغرهم الشيخ فتح الله[2].

الشيخ صالح بن عبد الكريم البحراني.

عالم جليل اجاز الشيخ محمد علي بن الشيخ أبي القاسم المنصوري بالرواية على ظهر كتاب الاحتجاج في ٢٩ رمضان ١٠٨٧[3].

صالح بن شريف النفزي الرندي المعروف بأبي البقاء[4].

ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٦٨٠.

عصر الرُّندي

كانت الأندلس، في أواخر القرن السادس الهجري ، تحت ظل الموحدين . وكانت قاعدة الدولة في معظم أيامهم مدينة إشبيلية ، وهي لا تزال تحتفظ إلى اليوم بعدد من آثارهم العمرانية والحضارية . وكانت الحرب الجهادية مستمرة بينهم وبين الدول الإسبانية المعاصرة . وكانت تلك الدول في النصف الثاني من القرن السادس وأوائل السابع خمساً هي قشتالة وليون ، وأرغون ، ونافار (نبرَّة) والبرتغال (البرتقال) . وبعد أوائل الربع الأول من القرن السابع صارت إلى ثلاث دول فقط حين ذابت دولتان منهما في الثلاث الأخريات ، وبقيت قشتالة وأرغون والبرتغال . واستمرت الدول الثلاث في حرب الاستغلاب ، فكانت البرتغال تهاجم من الغرب وقشتالة من الشمال والوسط وأرغون من الشرق .

وكانت آخر معركة هامة انتصر فيها المسلمون هي وقعة الأرك (٥٩١) قادها أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠ ـ ٥٩٥) ضد ألفونسو الثامن ملك قشتالة المؤيد بجيوش أرغون ونبرَّة . وكان ألفونسو هذا بجمع جيوشه والوافدين عليه هو المنتصر سنة ٦٠٩في (العقاب) على ابن المنصور الملقب بالناصر. وقد كان وجود بطرة (بدرو الثاني) ملك أرغون في المعركة مع قوات أوربية أخرى يضفي على المعركة صفة الحروب الصليبية المماثلة لما في المشرق في المدة نفسها[1].

وقد كانت هزيمة المسلمين (موحدين وأندلسيين) في العقاب سكرة شنيعة . وكانت مفتاحاً لتداعي الأندلسيين تداعياً سريعاً . وسقطت على إثر المعركة عدة مدن وحصون أهمها بيَّاسة وأُبَّدة . واتسع الخرق ـ من بعد ـ على الراقع .

وتوالي استغلاب الأندلس من جهاتها المختلفة . ففي نحو ثلث قرن من الزمان ضاعت معظم القواعد الأندلسية . فبعد العقاب (٦٠٩) كانت وقعة قصر أبي دانس (٦١٤) وهكذا سقطت ماردة وبطليوس (٦٣٨) بعد هزيمة ابن هود أمام فرناندو الثالث ملك قشتالة . وسقطت أُبدّة (٦٣٠). وبلنسية (بيد خايمي الأول ملك أرغون ٦٣٦) وشقر (٦٣٩) ودانية (٦٤١)وشاطبة ٦٤٤ . ومرسية (صلحاً بيد ملك قشتالة فرناندو ٦٤١) وسقطت قرطبة في مدة الخلاف بين ابن هود وابن الأحمر ٦٣٣ وسقطت جيَّان (٦٤٣) واشبيلية (٦٤٦). وكانت ميورقة (من الجزائر الشرقية) قد سقطت في معركة مؤثرة سنة ٦٢٧. ويرى الناظر إلى الخريطة الأندلسية أنها كانت تطوى سريعاً ، وأن الاستغلاب يأخذ شكلاً مأساوياً لم يكن يتوقعه ملوك الدول الإسبانية أنفسهم .

دولة غرناطة

في ظل بني الأحمر

خرج محمد بن يوسف (المعروف بابن الأحمر) في أرجونة سنة ٦٢٩ . وهو من أسرة تعرف ببني نصر، وبني الأحمر . وكان خروجه في مدة تهاوي سلطان الموحدين ؛ فدعا لنفسه ، فأطاعته بيَّاسة ووادي آش ونواحيهما ، وأطاعته قرمونة وقرطبة وإشبيلية حيناً .

وفي رمضان ٦٣٥ ثار أهل غرناطة بوالي ابن هود عليهم وهو عتبة بن يحيى المغيلي، وخرج وفد استقدم ابن الأحمر ونصبه أميراً على غرناطة، وما انضم إليها من موسطة الأندلس وجنوبها مما شكل دولة غرناطة التي قاومت ببسالة وشجاعة قرنين ونصف قرن من الزمان . وكان موقف ابن الأحمر حرجاً ، فلم يستطع أن يقف في مواجهة تيار الهجمات القشتالية ـ الأرغونية ـ البرتغالية . ففي سنة ٦٤٣ هادن ابن الأحمر فرناندو الثالث ملك قشتالة واضطر لأن يترك له عدداً من المدن والحصون كأرجونة وجيان[2]. ومن جراء الهدنة معه كانت إشبيلية فريسة سهلة وسقطت سنة ٦٤٦ . بينما كان ابن محفوظ المتولي نظر بعض جهات الغرب قد تنازل عن عدد من الحواضر الهامة مثل طلبيرة والعلى وشلب . وتتالت الأحداث بعد ذلك على غرناطة بين مسالمة بني الأحمر لقشتالة وتحالفهم معها وبين المدافعة ومحاولة استرداد بعض المفقود من أرض الوطن . ففي ٦٦٠ هَزَمَ ابن الأحمر غزوة نصرانية على أراضيه ، بمعاونة مطوعة قدمت من المغرب . وسقطت مدينة إستجة سنة ٦٦٢ بتنازل صاحبها ابن يونس لملك قشتالة . واشتد ضغط القشتاليين على غرناطة بقيادة صهر ملكهم دون نونيودي لارا، فكتب أبو العباس العزفي يستصرخ قبائل المغرب لإنقاذ الأندلس. وأنشد أبو الحكم مالك بن المرحل قصيدة مؤثرة لاستنهاض الهمم تُليت في مسجد فاس مطلعها :

استنصَر الدينُ بكم فأقدِمُوا	فإنكم إن تُسْلموه يُسلم
لاذتْ بكم أندلسٌ ناشِدَةً	برحم الدِّين ونعم الرحمُ

(١) ميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة : المآثر والآثار ص ١٦٥ الطبعة الحجرية الاولى طهران سنة ١٣٠٦ هجرية.

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) الشيخ محمد السمامي .

(٤) ملخص عما كتبه الدكتور محمد رضوان الداية .

(١) في نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (م . عنان) أن ابن الأحمر تعهد أيضاً بالانضواء تحت طاعة فرناندو وبحضور مجلس الكورتيس (شبيه بمجلس النواب) . وهذا يعني الطاعة والولاء.

(٢) عصر المرابطين والموحدين ٢ : ٢٨٩ . وراجع الروض المعطار للحميري : ١٠٩ ، ١٣٨ . وقارن بـ(التاريخ الأندلسي ـ د . حجي . ص ٤٩١).

لا تُسلِموا الإسلامَ يا إخوانَنا   وأسْرجوا لِنَصره وألجموا

واستردت غرناطة مدينة شريش بعد حملة بني مرين التي أنجدت الأندلس سنة ٦٦٢ . وبعد ضغوط قشتالة بايع ابن الأحمر للمستنصر الحفصي صاحب تونس ولكن هذه الخطوة لم تؤد إلى أن ترفع الضغط عن غرناطة .

ويرى الأستاذ عنان في تاريخه أنه لما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم لم يرَ ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة في مهادنة ملكهم ومصادقته فنزل له أواخر سنة ٦٦٥ عن عدد كبير من المدن والحصون منها شريش والمدينة والقلعة . وقدَّر صاحب الذخيرة السنية جملة ما تنازل عنه بنحو أربعين مُسوَّراً من المدن والحصون ، وقيل مئة !

ولما أعطى ابن الأحمر البلاد المذكورة للألفونش (ألفونس) قال أبو محمد صالح بن شريف الرُّندي يرثي بلاد الأندلس، ويستنصر بأهل العُدوة من مرين وغيرهم بهذه القصيدة :

لكلّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ   فلا يغرّ بطيب العيش إنسانُ

وعلى رغم هذه التنازلات والمعاهدات ، فقد كان الضغط على دولة غرناطة كبيراً ، وقد هاجم ألفونس العاشر (القشتالي) سنة ٦٧١ فاستنجد ابن الأحمر بالمرينيين . وتوفي في العام نفسه ؛ وأوصى ابنه محمد (الفقيه) الذي ولي بعده بأن يصل يده بيد المرينيين . وقد تم اللقاء بين النصريين والمرينيين . وعبر السلطان المريني أربع مرات في أثناء حكمه لمساعدة الأندلس والجهاد فيها . وهُزم القشتاليون بعد هذا التحالف عدداً من الهزائم أهمها في إستجه ٧٧٤ . وترك المرينيون حامية مغربية دائمة في الأندلس تحت رعاية قائد منهم عرف بشيخ الغزاة . وعلى الرغم من أن العلاقة بين بني نصر وبني مرين لم تكن دائماً خالصة من المشكلات الجانبية فإن الصورة العامة هي استرداد الأندلس لعهد من الثبات والقوة فقدته منذ زمن بعيد . وحكم محمد الفقيه حتى سنة ٧٠١.

كنيته

هو النفْزي ، من أهل رُندة ويكنى أبا الطيب، وأبا البقاء. والحق أن ابن الخطيب في الإحاطة لم ينقل عن أحد ممن ترجموا له أنه يكنى بغير أبي الطيب . وأول من ذكره بكنية أبي البقاء - بالإضافة إلى كنيته الأخرى - هو المقري في نفح الطيب . وقد ذكره عدة مرات في النفح والأزهار واختار من شعره ، ونقل قصيدته في رثاء الأندلس . ولا بد من الافتراض أن للرُّندي كنيتين عُرف بهما . ويبدو أن شيوع كنية أبي البقاء في المشرق والمغرب جاءت بعد المقري الذي ذكر تلك الكنية مرة واحدة في كتابه ، ويرجح أن (أبا الطيب) كانت الأشهر في زمانه .

نسبته

ينتسب الرندي الى قبيلة نفزة ، وهي من قبائل البربر . وينتمي إلى مدينة رُندة . قال في الروض المعطار[١] إنها « من مدن تاكُرُنّا . وهي مدينة قديمة بها آثار كثيرة، وهي على نهر ينسب إليها ». كما نقل ابن سعيد في (المُغرب) أنها أحد معاقل الأندلس الممتنعة ، وقواعدها المرتفعة . ودار حولها خلاف ونشبت معارك في أيام ملوك الطوائف حتى حصلت في يد بني عبَّاد . وبقيت رندة في جملة دولة غرناطة الإسلامية الباقية إلى أواخر أيامها

أُسرته

لا نجد في كتب التراجم حديثاً عن أسرته وأولاده ، ولا نعرف من اشتهر

(١) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) للحميري : ٧٩ .

لن أهله بعده . غير أننا نعرف أن له ابناً توفي صغيراً (ابن ٨ سنوات) . وقد رثاه بأكثر من قصيدة في كتابه الوافي . وقال الرندي في مقدمة قصيدة أنشدها في المغرب (بر العُدوة) أنه يتشوق الى الأهل والوطن ، ولكنه لم يفصِّل في ذكر أهله . وله قصيدة في رثاء والده ، ذكرها في الوافي .

مشيخته

أما شيوخ الرندي فهم من أعلام العصر في فنون مختلفة ، فأبو الحسن الدبّاج كان من أهل الفضل والصلاح ، مقرئاً ، محدثاً ، متقدماً في العربية والآداب ، ويقرض قطعاً من الشعر يجيد فيها . وهو توفي ٦٤٦ . وابن الفخار الشريشي كان عارفاً بالحديث حافظاً للفقه والآداب ، وهو استُقضِيَ برُندة ، والجزيرة الخضراء ، وتوفي سنة ٦٤٢ . وبقية شيوخه ممن تحدثت كتب التراجم عنهم بالعلم والفضل والتقدم .

ويبدو أن الرندي تلقى علومه واستكمل ثقافته في مدينة رُندة . وأنه عندما تنقل وترحل عن بلده كان قد ثبت على قدم في العلوم والفنون راسخة ، حتى عرف له معاصروه فضله ومكانته .

رحلاته وتغربه عن رُندة

كانت للرُّندي رحلات وأسفار إلى أنحاء الأندلس الباقية في عصره ، وأكثر رحلاته وأسفاره كان إلى الحاضرة « غرناطة ». فقد نقل لسان الدين أنه « كان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها يسترفد ملوكها ، وينشد أمراءها . والقصيدة التي أوّلها :

أواصلتي يوماً وهاجرتي ألفاً

أخبرني شيخنا أبو عبد الله اللوشي الكاتب أنه نظمها باقتراح السلطان ، وقد أوعز اليه ألا يخرج عن بعض بساتين السلطان حتى يكملها ، في معارضة « محمد بن هانيء الإلبيري ».

وكانت له رحلة - أو أكثر - إلى المغرب، لا ندري متى كانت على التحديد، غير أننا نجد في جملة قصائده المبثوثة في كتابه « الوافي في نظم القوافي » قصيدة يحن فيها إلى الأندلس .

قال[١] « ومما يتعلق بذلك - يعني باب الوصف - قولي وأنا بمراكش :

بحياة ما ضمَّت عُرى الأزرار   بذمام ما في الحُبِّ من أسرارِ
بالحِجر، بالحجَر المكرَّم ، بالصَّفا   بالبيتِ ، بالأركانِ ، بالأستارِ
باللهِ إلاّ ما قضيت لُبانةً   تقضي بها وطْراً من الأوطار
وتكفّ من أشجان صب يشتكي   جور الزّمانِ وقلّة الأنصارِ
بلّغ لأندلس الزمان وصفْ لها   ما بي من اشواقٍ وبُعدِ مزارِ
وإذا مرَرْت برُندةٍ ذات المُنى   والراح والزيتون والأزهار
سلمْ على تلك الديار وأهلها   فالقوم قومي والدّيارُ دياري

وذكر الشاعر لنفسه قصيدة في كتابه روضة الأنس ونزهة النَّفس[٢] قالها

(١) الوافي في نظم القوافي - نسخة الرباط ص ٣٩
(٢) روضة الأنس: ١٧ .

بالعُدوة متشوقاً إلى الأندلس والأهل والوطن ، يقول فيها :

يـا نسيـمـاً هـبَّ مـن أنـدلس	فـتلقّت طيبـه ريـح النـعـامـى
مـا امترى نـاشقُـه لمـا سـرَى	أنّـه فضّ عن المسكِ الخِتـامـا
آه من شـوقي لقـوم مـا جـرى	ذكـرُهُمْ إلا جـرى دمعي سجـامـا

وذكر الرُّندي خبر اجتماعه بالشيخ الفقيه أبي علي القصري بمدينة سبته ومذاكرته إياه في ضروب من الآداب[1].

جوانبه و اهتماماته

تنوعت جوانب الـرُّندي واهتمـامـاتـه ، وتعددت . فهـو ـ كما ظهـر من تراجمه ومما ترك من مؤلفـات ، وما وصـل إلينا من أسمـاء بعض مؤلفاتـه الأخرى ـ كان أديباً ، فقيهاً ، مشـاركاً . وامتـدت اهتمامـاتـه لتشمـل معظم جوانب الثقافة الأدبية والـدينية لعصره . فقد كـان شاعـراً ، وأديباً مؤلفـاً ، وناقداً . ومن جهة ثانية كان فقيهاً ، محدّثاً فَرَضِيًّا ، مقدّماً في رجال القـرن السابع المعدودين . فهو ـ على الرغم من تعدد اتجاهاته ، واتساع جوانبه ـ ذو مكانةٍ خاصة في معظم تلك الجوانب التي طرقها .

شخصية الرُّندي

تجتمع لدى الدارس من أخبار الرندي ومما يجده في كتبه صورة واضحة تقريباً لأخلاقه وتديّنه ، ومكانته في عصره وعلاقاته بمعاصريه ، واتجاهاته . وكانت الأوصاف التي أسبغها عليه ابن الزبير، وابن عبد الملك المراكشي ، وابن الخطيب كافيـة لإعطائـه صورة الأديب الفقيـه الشاعـر ، ذي المكانـة المرموقة في عصره . ففي ترجمة ابن الزبير له أنه كان بالجملة معـدوداً في أهل الخير ، وذوي الفضل والدين . وعند ابن عبد الملك أنه « كان خاتمة الأدباء بالأنـدلس ، بارع التصـرف في منـظوم الكـلام ومنثوره ، فقيهـاً ، حافظاً ، فَرَضيًّا متفنناً في معارف شتى ، نبيل المنازع ، متواضعاً ، مقتصداً في أحواله ».

وقد كان الرندي ممن يستطيع أن يُحسن الصلة بينه وبين أهل الفكر ، وأصحـاب الدولـة من الأمراء الحكـام والوزراء المتنفـذين ، ومَن كـان في ساحتهم . وساعده علمه وشاعريته على تقريبهم له واستنشادهم من شعره .

وهو جمع إلى هذه الصفات الخلقية الطيبة ورعاً وتديناً ومراقبة تشهد بها تراجمه ، وقطع باقية من أشعاره . فمن شعره في غرض التوحيد[2] قوله :

مـا بـالنـا نـغـتـرّ بـالأذهـان	ونـغـرّهـا بمـطالب البـرهـان
ونقيس كـي نـدري لكـلٍّ علّة	ونـروم شيئـاً ليس فـي الإمكـان
ونـروم معـرفـة الإلـه وإنـمـا	نبغي الكمـال بغـايـة النقصـان
ونـريـدُ نفهم سـرّه في عـالمٍ	لـو شـاء كـان على نـظام ثـان
ومن المحال تصور الإنسـان ما	منعـتْـهُ قـوة عـالم الإنسـان
مـا في الـوجـود إذا أردت حقيقة	إلا الإلـهُ وكـلُّ شـيءٍ فـان

وله من قطعة أخرى :

أشـار إليـك جميـعُ الـوجـود	بـأنـك أوجـدْتَـهُ مـن عـدمْ
وقـام بـأمـرك مـن غيـر شيءٍ	ولـولاك يـا سيـدي لـم يَـقُـم

صلته بدولة بني نصر

سبق القول إن الرُّندي ولد في أول القرن السابع . فهو نشأ وشب في ظل أواخر دولة الموحدين ، وشهد الاضطرابات المـريعة التي مـرت على الأندلس بعد هزيمة العقـاب الشنيعة سنة ٦٠٩ ، وهلم جرّاً إلى أن استقـر الحال بالأندلس في القسم الباقي تحت ظل بني نصر المعروفين ببني الأحمر في مملكة غرناطة . وكانت (رندة) في جملة المدن الباقية .

ويظهر لي أن اتصال الرُّندي بالأمير النصري لم يكن قبل استقرار الأمور له بعد سنوات من الكفاح لوقف المدّ الخارجي الطامي .

وتدل القصائد الباقيات من شعره في بني نصر أنه كان لهم بمثابة شاعر القصر ومناسباته المختلفة . فهو يهنىء بالأعياد والانتصارات ، ويشارك في المواسم والمناسبات . وهو يرثي من يُتوفى من الأسرة أيضاً .

وطرّز الرندي كتابه (روضة الأنس ونزهة النفس) باسم الأمير النصري أبي عبد الله محمد بن نصر . واختص بالبيت النصـري، فشهد عهـد الأمير الأول محمد، وعهد ابنه من بعده محمد الفقيه إلى أن توفي في عهده .

مؤلفاته

بقيت ـ إلى أيامنا هذه مجموعة من آثار الرندي، بينما نقف على أسماء مؤلفات وآثار أخرى لا ندري أفي الضائع هي لا رجعة له ، أم أنها في بطون الخزائن . وكتبه التي نعرفها أو نعرف لها اسماً هي :

١ ـ الوافي في نظم القوافي . وهو كتاب نقدي جـامع ، منـه نسخ في القاهرة والرباط ولندن وغيرها .

٢ ـ روضة الأنس ونزهة النفس ، وهو كتـاب ثقافـة جامـع شبيه بكتب المعارف العامة كعيون الأخبار والعقد وأشباهها . ومنه نسخة ناقصة في مكتبة خاصة بالمغرب .

٣ ـ ديوان شعر ، وهـو مفقود، منـه نقول مبثـوثة في كتبـه ، وفي كتب التراجم وتاريخ الأدب الأندلسي . قال ابن الزبيـر إن كلامـه ـ نثراً ونـظماً ـ مُدَوّن .

٤ ـ وله (مقامات) . نعرف اسمها فقط ، وهي من المفقود .

٥ ـ كتاب في الفرائض . وقد شرحه الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد القرشي البسطي الشهير بالقلصادي .

٦ ـ جزء على حديث جبريل .

٧ ـ تأليف في العروض .

٨ ـ قال ابن الزبير أيضاً « وله تصانيف أدبية وقصائد زهدية».

الرُّندي شاعراً

١ ـ كانت الحركة الشعرية في القرن السابع الهجري استمراراً لما كان في القرن السابق عليه من النشاط، وغزارة الإنتاج ، ووفـرة الشعراء ، وعلو الـطبقة . واتسم الشعـر بالنفس القـوي والأفق المشـرف ؛ فهـو لم ينحـدر انحداراً مماثلاً لضعف الأحوال العامة في البلاد . وكانت الأنـدلس لا تزال تنجب الشعـراء المتقـدمين كـابن الأبـار، وابن سهـل الإشبيلي ، وحـازم القرطاجنيّ ممن وصلت إلينا دواوينهم الشعريـة ، ومثل أبي البقـاء الرُّنـدي وابن سعيد المغربي الأندلسي ممن وصل إلينا قدر صالح من أشعارهم .

وكان ما يزال في الأندلس ـ في أول القرن ، وبعد استقرار الأمور لابن الأحمر في غرناطة ـ مَن يقدِّر الشعر ، ويُثيبُ عليه ، ويشجع أصحابه . وكان بعض أولي الأمر من الخلفاء والوزراء والحكام يقرضون الشعر قليله وكثيره ، ويشاركون في الحركة الأدبية .

وكانت هناك حوافز مختلفة بحسب اختلاف الـظروف وتنوعهـا وتشعبها في هذا القرن الشديد الاضطراب تدفع بالشعـراء إلى نظم الشعـر وإيداعـه ثمرات القرائح وخلجات العـواطف ؛ سواء أكـان ذلك ممـا يخص الشعراء

(١) الوافي في نظم القوافي (النسخة التميورية) : ١٢٢ .

(٢) روضة الأنس ونزهة النفس: ٥ .

أنفسهم وفي حياتهم ، أم كان يخص الأمة في أحوالها المضطربة وظروفها القاسية .

وقد كان عدد كبير من كتاب الأمراء يقرضون الشعر ويقدمونه بين يدي مخدوميهم ، فكثر لهذا شعر المديح والمناسبات : وسيكون هذا ظاهرة بارزة في القرن التالي حين نجد رؤساء الكتاب جميعاً من الشعراء ، وبعضهم يقف في الشعر على قدمين راسختين .

٢ ـ وبعد أن استقرت الأمور في غرناطة ـ وما حازوه من الأندلس في نطاقها ـ اتخذوا لأنفسهم رسوم الملك ، وأُبَّهة السلطان ، واتخذوا الكتاب والحجاب والوزراء . وكانت الدولة تنعم بين الفينة والأخرى بهدوء نسبي يسمح للأمراء النصريين بالالتفات إلى البنيان والعمران ، والأخذ بأسباب الحياة الملوكية . وكان لا بد لدولة ناشئة ـ كهذه ـ من أن تُفيد من الخبرات والمواهب التي نبتت في ظلالها . وهكذا حصلت الصلة بين الرندي وبين بني نصر .

٣ ـ لا نجد بين أيدينا من باقي شعره ما يدلّ على اتصاله في مرحلة شبابه الأولى ببعض الأمراء من الموحدين أو ببعض الثوار والمنتزين في أرجاء الأندلس بعامة أو في رُندة بخاصة . فقد كان في نحو الخامسة والعشرين من عمره عندما قام محمد بن هود بدعوته ، وبايعته معظم أطراف الأندلس مدة من الزمن ، وانقضت دعوته بوفاته وهو في الخامسة والثلاثين . وقد ولّى ابن هود على مدينة رندة سنة ٦٣٠ أديباً شاعراً هو أبو بكر بن عبد العزيز الشهير بابن صاحب الردّ . وكان له دور بارز في الخروج بعد ذلك في قرطبه وتعيين ابن عمه الباجي (٦٣٠ ـ ٦٣٢) مخالفاً لابن هود ومستقلاً بالأمر . وكانت سنّه بين العشرين والرابعة والعشرين حين احتدم الخلاف بين المتطلعين إلى الخلافة من الموحدين . فبعد مبايعة عبد الواحد (المخلوع) سنة ٦٢٠ بمراكش قام العادل بالأندلس . وبعد مدة يسيرة خرج أمير آخر هو المعروف بالبيّاسي فدعا لنفسه وتحالف مع دول إسبانية ، وكان يسلمهم البلاد والحصون ، حتى قضى عليه أهل قرطبة ٦٢٤ . ولكن أبا العلاء (المأمون) الموحدي قام ـ بعد سفر أخيه العادل إلى مراكش أميراً ـ فدعا لنفسه في الأندلس .

ونقل في (الوافي) أبياتاً في مدح الوزير أبي بكر بن أخيل لم يزد على أن قال فيه « من أهل بلدنا » يعني رُندة .

وقد أورد الرندي ذكر خليفتين من الموحدين بمناسبة تهنئة شاعر معاصر له للرشيد الموحدي في توليه الخلافة الموحدية بمراكش وتعزيته بوفاة والده المأمون ، ولكنه حديث عارض لا يدل على علاقة ـ تُستنتج ـ بهم ، قال : « ولم أر لأحدٍ متقدم أو متأخر (في اجتماع تهنئة وتعزية) كقول بعض أهل عصرنا يهنىء الرشيد بالولاية ويعزيه بأبيه المأمون :

هنيئاً وإن كنا لحسن العزا أوْلى ... بملك الذي استولى وهلك الذي ولّى

وليس بين يدي ما يرجح صلته بالموحدين ، صلة شاعر مادح بدولة مستقرة وأمير ممدوح .

وشِعر الرندي الباقي يدل على اتصاله ببني الأحمر بعد مرحلة تكوين الدولة الجديدة، وتثبيت إطارها .

٤ ـ ويبرز الرُّندي في ظلال بني الأحمر شاعر بلاط ، مداحاً ، ذا صلة وثيقة بالدولة الفتيّة وأمرائها المحبين للشعر، المتطلعين إلى قصائده فيهم ، وأشعاره التي ينظمها في الأغراض الأخرى .

وهو شاعر مكثر ، غزير الإنتاج ، سهل العطاء ، حاضر البديهة . وقد كان شعره مدوناً (مجموعاً في ديوان) ، ولكننا لا نعرف إلى الآن في المكتبات المشهورة ديوان شعر له . وجوانب شعره متعددة، وأبرز أغراضه الشعرية : المديح ، وشعر الغزل ، والرثاء ، ـ منه رثاء المدن والممالك ـ والوصف ، والحكمة . وله مشاركة في أغراض شعرية أُخرى . وقد نبه ابن الزبير إلى إجادته في غرضي المدح والغزل ، وهي ملاحظة دقيقة .

أغراض شعر الرُّندي

● **المدح** : يبرز غرض المديح في شعره لوفرة إنتاجه فيه ، وارتباطه مدة طويلة بالبلاط النصري . وهو يذكّرنا بشعراء المديح التقليديين الذين أخلصوا الولاء لدولة من الدول ، واستمرّوا على ذلك الولاء إلى أواخر حياتهم . فهو اتصل بالأمير النصري الأول محمد بن يوسف (ت ٦٧١) وبابنه محمد الفقيه (ت ٧٠١) هـ فمدحهما ، وتردد على غرناطة طويلاً في عهدهما .

ويتناول شعر المديح عنده القيام بمهمة شاعر البلاط الذي لا يغادر مناسبة دون أن يقول فيها شعراً ملائماً ؛ فهو رفع قصائده إليهم في المناسبات ، والأعياد ، والمواسم . واتصل غرض المديح ـ هنا ـ بما دعاه في كتابه الوافي : التهاني ، حين أفرد له باباً مستقلاً . وتجد في شعره قصائد في تولية ابن الأمير ولاية العهد، وفي إعذار بعض أولادهم ، وفي المديح عامة . وكأني بالشاعر يفد على غرناطة في أوقات ومواسم بأعيانها لا يدعها تفوته، إضافة إلى وفاداته العارضة، واستدعاءات القصر له لأغراض مختلفة .

وله قصيدة مطولة قالها معارضة لقصيدة المتنبي :

أجابَ دمعي وما الدّاعي سوى طللِ ... دعا فلبّاه قبل الخيلِ والإبلِ

وقد أنشد الرندي قصيدته « لما بويع بالحضرة النصرية بولاية العهد الأمير المعظم أمير المسلمين أيده الله واقترن بذلك مولد ابنه الأمير المعظم أسعده الله . . . »[1] وقدم لها بمطلع غزلي رائق، ومن الغرض فيها :

يا يوم سعدٍ كأنّ العيد عادَ بهِ ... فالناسُ في مرحٍ والدهرُ في جذلِ

شاهدتهُ فرأينا الأرض قد بهرت ... والشمسُ قد سترت وجهاً من الخجلِ

وللطبول به خفقٌ يُساجلهُ ... خفقُ البنود على الخطّيةِ الذُّبُلِ

وكلّ أشوسَ ساجي الطّرفِ من أدبٍ ... يهوي لِلثْمِ يدٍ أشهى منَ الأملِ

ويجتلي غُرّةً بالبشر مشرقةً ... كما تجلّت إياهُ الشمسِ في الحملِ

وفي آخر القصيدة :

ابن الهُمام الذي لهُ حُلى حَسُنت ... بها الإمارة حسنَ المدحِ بالغزلِ

ومنْ له كرمٌ ريشَ الثناءُ به ... فطار حتى سرى في الأرض كالمثلِ

وتجد في مدائحه المعاني المطروحة عادةً في هذا الغرض وكان الشاعر يجتهد دائماً في أن تكون شخصيته الشعرية ظاهرة على محورين : أحدهما

(١) الوافي في نظم القوافي: ٣٧ « النسخة التيمورية ».

في حسن صياغة العبارة ، وثانيهما في جدة تناول المعاني والقدرة على الغوص وراء الصور المبتكرة .

وله من قصيدة مدحية يصف فيها جيش بني الأحمر، فيه الأمراء منهم يقودونه ويخوضون به المعركة :

وكتيبة بالدّارعين كثيفةٍ … جرَّت ذيولَ الجحفلِ الجرارِ
رَوض المنايا قُضبها الشمسُ التي … من فوقها الراياتُ كالأزهارِ
فيها الكماةُ بنو الكماةِ كأنهمْ … أسد الشّرى بين القنا الخطّارِ
متهلّلين لدى الهياج كأنما … خُلقت وجُوهُهم من الأقمارِ
من كلِ ليثٍ فوق برقٍ خاطف … بيمينه قدرٌ من الأقدارِ
من كلّ ماضٍ ينتضيه مثلهُ … فيصيبُ آجالاً على أعمارِ
لبسوا القلوبَ على الدُّروعِ وأسرعُوا … بأكفِّهم نارٌ لأهلِ النّار
وتقدّموا ولهُمْ على أعدائهمْ … حنق العِدى وحميَّةُ الأنصار

وهو على كل حال يلحق بشعراء المديح الذين يقبلون الأعطيات والهدايا ، وإن لم نجد له طلباً صريحاً للعطاء ، ولكنك تجد مثل قوله :

إذا ما ضاقت الدنيا بحُرّ … كفاه لثم كفّك ، والسلامُ!

أو قوله في قطعة أخرى :

ولئن رجوتُ فإن مثلك يُرتجى … ولئن سألتُ فإن مثلكَ يُسألُ

فعلى الرغم مما يظهر من الروح التكسبية ، فإنك تحس بأن الأمر يعدو هذا إلى أهداف أخرى كتثبيت المكانة عندهم ، والاحتفاظ بالوجاهة ، وإبراز الشاعرية . . .

الغزل

تنبه معاصرو الرُّندي إلى أنه برع في غرض الغزل ـ بالإضافة إلى المدح ـ . وهي ملاحظة صحيحة ، ويُحسُّ القارىء أن الشاعر يجوده ويسترسل فيه .

ويشغل الغزل حيزاً واسعاً في شعره ، فهو أفرد له القصائد والمقطوعات ، وجعله استهلالاً لبعض الأغراض الأخرى، وبخاصة منها المديح .

فمن قصائده الغزلية التي لم يصلها بمدح قوله :

علّلاني بذكر تلكَ الليالي … وعهودٍ عهدتُها كاللآلي
لستُ أنسى للحُب ليلة أُنسٍ … صال فيها على النوى بالوصال
غفل الدهرُ والرقيبُ وبتنا … فعَجِبنا من اتفاقِ المُحالِ
ضمنَّا ضمَّة الوشاحِ عناقٌ … بيمينٍ ممقُودةٍ بشمالِ
فَبردّتُ الحشَا بلثْمِ برودٍ … لم يزل بي حتى خبا لي خبَالي
وكؤوس المُدام تجلو عَروساً … أضحك المزجُ ثغرها عن لآلِ
وبنحر الدُّجا ذوابلُ شمعٍ … عكست في الزُّجاج نور الذبالِ
والثُّريا تمدُّ كفاً خضيباً … أعجمَت بالسماك نون الهلالِ
وكأن الصبّاح إذ لاح سيفٌ … يُنتضى من غين وميم ودالِ
ومسَحنا الكرى إلى غانياتٍ … غانياتٍ بكل سحر حلالِ
في رياض تبسّمَ الزهرُ فيها … لغمامٍ بكتْ دموعَ دلالِ
وجرى عاطرُ النّسيم عليلاً … يتهادى بين الصبّا والشّمالِ
فاكتسى النهرُ لأمةً منهُ لمّا … أن رَمى القطر نحوهُ بنبالِ
يا ليالي منىً سلامٌ عليها … أتُراها تعودُ تلك الليّالي؟

ويبقى (الغزل) من أهم الأغراض الدالة على شاعرية الرُّندي، وشعره ، في روحه وأساليبه ، وإبداعه الفني .

الوصف

يشيع موضوع الوصف في شعر الرندي، فهو يلون قصائده المطوّلات ، ويستقل بقصائد خاصة ، وينفرد بمقطعات غير مطوّلة أيضاً .

أما وصف الطبيعة الأندلسية ـ والغرناطية بخاصة ـ فأمر يشيع في شعره كله سواء في المطوّلات أو المقطعات . ويتبع ذلك ما كان من وصف الأزهار، والثمار، والخمرة ، وضروب الرياحين المختلفة .

فمن شعره الوصفي قوله يصف الليل وجملة أمور مناسبة :

وليلةٍ نبهت أجفانَها … والفجر قد فجّر ضوءَ النهار
والليلُ كالمهزوم يوم الوغى … والشهب مثلُ الشهب عند الفرار
لذاك ما شابتْ نواصي الدُّجا … وطارح الصُّبحُ أخاه فطار
وفي الثُّريا قمرٌ سافرٌ … عن غُرّةٍ غُيّر فيها السِّفار
كأنّ عنقوداً به مائلٌ … إذ صارَ كالعُرجون عند السِّرار
كأنما تسبكُ ديناره … وكفُّها تفتلُ منه سوار
كأنما الصُّبح لمشتاقِه … عزُّ غِنى من بعد ذل افتِقار
كأنما الشمس وقد أشرقتْ … وجهُ أبي بكر بن يحيى أنار!

قال في وصف السفن في البحر :

سفائنٌ تسبح في لجّةٍ … كأنها صوافنٌ تلعبُ
من أدهمٍ تهفُو شراع به … كأنّ صبحاً [دونه] غيْهبُ
إذا جرى من خلفه مُلحماً … فلاحقٌ لعتقِه ينسبُ
وأشهب صوّر من عنبر … وأين منه العنبر الأشهبُ
وأسحمٍ يدعى غراباً وما … ينعقُ بالبَين ولا ينعبُ

وله من قصيدة يصفُ الليل :

كأن البدرَ تحت الغيم وجه … عليه من ملاحَتِه لِثامْ
كأنّ الكوكب الدُّريَّ كأسٌ … وقد رقَّ الزجاجة والمُدامُ
كأن سطور أفلاك الدّراري … قِسيّ والرُّجومُ لها سهامُ
كأنَّ مدار قطب بنات نعْش … نَدِيٌ والنجوم بهِ ندامُ

الرثاء

أفرد الرندي في كتاب « الوافي » باباً خاصاً لغرض الرثاء ،[٠] واستغله ـ كعادته في الأغراض الأخرى ـ في إيراد نماذج من شعره في الرثاء تعد أبرز ما بين أيدينا منه . ونجد شعره هذا في قسمين ، القسم الأول منه خاص أُسَريّ ، رثى فيه من اتصل به من المتوفين من الأقارب، والقسم الثاني يتعلق برثاء بعض من اتصل بهم بسبب .

وفي الأول رثاؤه في ابن له (اسمه محمد) وفي والده ، وفي زوجته . وفي الثاني رثاؤه في الأمير النصري محمد (الأول) وفي مَنْ دعاه أبا بكر، ولعله الوزير أبو بكر بن يحيى الذي سبق له أن كان من ممدوحيه .

فمن شعره الرثائي قوله من قصيدة يرثي بها زوجته :

يا بُرْهة كان فيها للمُنى أملٌ … ونزهةً للهَوى والسمعِ والبصرِ
مضتْ مُضيّ الصبا عني ولا عِوَض … ومَنْ يقومُ مقامَ الشمْس والقمرِ
عَهدي بألفتنا والأنس ينظمُنا … بطيبةِ العيش نظم السِّلك للدُّررِ
رُوحين في جَسد، سِرَّين في خَلدٍ … كما تقابلَ أهل الخُلد في السُّرُرِ
حتى رمى البَينُ شخصَيْنا ففرَّقنا … كما تفرّق بين العَينِ والنّظر

يا ليتني عندما حُمَّ الحِمامُ ، كما
قاسَمْتُها كبدي، قاسمتُها عُمري
فإن تكن زهرة من روضها قُطِفَتْ
فقلما تُمْتِعُ الأيامُ بالزَّهر
وإن تكن درة من سلكها خطفت
فالدهر أدرى بما يَسبي من الدُّرَرِ
يا قلبُ صبْراً على ما قد فُجِعْتَ به
فلستَ في دفع مَقدورٍ بمقتدر
لا تبكِ فَقْدَ حبيب أنت تابِعُه
إذا مضى البَعْضُ فالباقي على الأثر !

وفي رثاء ابنه محمد يقول :

ذهبتَ ذهابَ الصبر عنيَ مُكْرَهاً
فو أسفي ألا لِقاء إلى الحَشْرِ
فإن كنتَ نجماً راغ منه أفولُه
فمالَكَ لا تبدو مع الأنْجُمِ الزُّهرِ
وإن كنت زَهراً جف إذ أخلف الحيا
فمالك لا تحيى ودمعيَ كالقَطْرِ
محمد ما أشجى فراقك لوعةً
محمدُ ما أدهى مُصابَك من أمْرِ
محمدُ في قلبي محمدُ في فمي
لئن غاب عن عيني فما غاب عن فكري

وفي رثاء الأمير النصري محمد ـ التي بعث بها إلى الأمير الجديد من بلده رُندة ـ جمع الشاعر إلى رثائه المديح ، فهي قصيدة محبوكة الطرفين بالغَرَضين ؛ العزاء بالمتوفى والاستقبال للحاكم الجديد :

يا حسرة الدين والدُّنيا على مَلِكٍ
قد كان حسبُهُما لو مُدَّ في الأجل
أصَابهُ من وراء الحُجبِ صائبةٌ
إنَّ المنونَ لأرمى من بني ثُعَلِ
وزاول المُلكَ دهراً ثم فارقَهُ
وزال عنهُ وذاكَ الفخرُ لم يَزل

ومنها :

أصبحت فينا على حكم الردى خبراً
فكنت كالضيف أو كالطيْف والمَثل
كأن وجهك لم يُشرق لناظره
كالبدر في السعد أو كالشمس في الحَمَلِ
كأن كفك لم تُبسط لآملها
يوماً ولا عرضَتْ للجُود والقُبَلِ

أغراض أخرى

شارك الرندي في أغراض شعرية أخرى؛ مشاركة جانبية ، لم تكن من أصل اهتماماته ، كالحكمة والهجاء:

إذا كان أمرُ الله للمرء طالباً
فقد هان مطلوبٌ وقد عز طالبُ
ألا إنما الدُّنيا خيالٌ وأهلها
بها عَرَضٌ والدهر بالكل لاعبُ. . .
ألا أيها البطال كم أنت غافلٌ
كأنك عن هذي المشارب غائبٌ
ألا فانظر الدُّنيا بعين بصيرة
فللتُّرك يا مغرورُ ما أنت كاسبُ
ألم ترَ أن الموت أكبر شاهدٍ
على أنه لا يغلبُ الله غالبُ

وهو يركّز على زوال العز عمن يظن الناس دوام العز لهم كالملوك وأضرابهم ، ويضرب الأمثال بهم :

أين الملوك وأبناء الملوك وما
شادوه من أثرٍ شدُّوه بالأثرِ
وأين ما حجبوهُ في مقاصرهم
من أوجه زُهُرٍ كالأنجمِ الزُّهر. . .

● وله أبيات قليلة أوردها في معرض حديثه عن غرض الهجاء لا تجعله من أهل هذا الباب، وإنما هي المناسبة العارضة أو المشاركة في الدعابة العابثة، ولم نعرف في ترجمته وأخباره ما يدل على خصومات له ظاهرة أو عداوات أكيدة ، بل غلب على صورته لدينا الفضل والأناة ورجاحة العقل . ومن هجائه الذي أورده لنفسه في أثناء استعراضه لأشعارهم في الثقلاء قوله :

تزلزلت الأرضُ زلزالها فقلت لسكانها ما لها ؟
فقالوا أتانا أبو خالدٍ فأخرجت الأرض أثقالها !

والهجاء من أقل أغراض الشاعر، ولا نظنه غرضاً آكثرث به في حياته .

الجهاديات
وشعر رثاء
البلاد الاسلامية المغلوبة :

١ ـ ظهر في الأندلس ضربٌ من الشعر ـ والنثر أيضاً ـ كان صدى مباشراً ، وغير مباشر ، لأحداث الحرب الدائرة بين المسلمين في الأندلس وخصومهم من الدول الإسبانية . وهو أدب يهدف إلى تصوير نكبة الأندلسيين بفقدان أجزاء من بلادهم ، وتحريض القوم على الصمودومواصلة القتال ، وهو يدعو المسلمين من بر العُدوة وما وراءه لإنقاذ الأندلس ، والمشاركة في الجهاد المفروض . وقد تجتمع هذه العناصر في القصيدة الواحدة ، أو يُكتفى ببعضها .

وجذور هذا الضرب من الشعر قديمة قِدَم حركة الاستغلاب نفسها ، ولكنه صار غرضاً بارزاً منذ عهد الفِرَق (الطوائف) التي انتشرت حمَّى دويلاتها في الأندلس في القرن الخامس الهجري حيث اشتدت عليهم وطأة حركة الاستغلاب وسقطت مدينة طيطلة المنيعة . ووجد المفكرون والمثقفون والمخلصون من أهل الأندلس أنفسهم في موقف المسؤولية ؛ فهبوا من علماء وفقهاء وأدباء ومخلصين للقضية يشاركون في الحملة المضادة قولاً وعملاً . وكثر التحذير من أخطار التفرق ، والاستنامة عن الجهاد، ومغبة التخاذل والتقاعس . وبرز التحريض على الجهاد والقتال وحمل السلاح لاسترداد ما ضاع والدفاع عما بقي . واتخذ الأدب المتعلق بهذا الغرض اتجاهين كبيرين (تتفرع منهما أمور كثيرة) هما :

١ ـ الدعوة إلى الجهاد ، ومواصلة الكفاح .
٢ ـ بكاء ما ضاع من بلاد المسلمين .

وزاد هذا الغرض نشاطاً واشتعالاً عددٌ من الأسباب المتضافرة المتداخلة . فمنها تقلص ظلّ الرقعة الأندلسية ، بعد ضعف الموحدين ، شيئاً فشيئاً . وإحساس الأندلسي أن الدائرة المحيطة به تضيق وتختنق ؛ وشكل حرب الاستغلاب وطابعها المشابه لِما كان في المشرق آنذاك .

ومنها القسوة العارمة والعدوان الطاغي على الناس، على اختلاف أعمارهم وأنواعهم .

ومنها عدم احترام المواثيق - على الأغلب - وقلب معطيات الثقافة الإسلامية .

ومنها روح الاستشهاد التي كانت تضج في صدور الأندلسيين ، وتنفجر في صدور العلماء والفقهاء وذوي المكانة من رجال الأندلس .

ومنها ارتباط الأندلسي بأرضه ارتباطاً قوياً ، وشعوره بالواجب الجهادي الملقى على عاتقه .

٢) ويقف الدارس على تيارات ثلاثة من شعر رثاء البلدان في الأندلس . أحدهما رثاء المدن الضائعة مما سقط في يد العدو ، والتيار الثاني رثاء الدول الأندلسية الزائلة في أثناء الحكم العربي الإسلامي للأندلس ؛ وأشهر تلك الدول التي رثاها الشعراء دولة بني عباد أصحاب إشبيلية ، ودولة بني الأفطس أصحاب بطليوس. والتيار الثالث هو شعر رثاء المدن التي كانت عامرة فخربت بظروف سياسية أو اجتماعية كالشعر المقول في خراب قرطبة بعد الفتنة البربرية ، وخراب إلبيرة بعد هجر أهلها لها ونبوغ مدينة غرناطة .

ويتوجه الذهن عند الحديث عن رثاء الأندلس إلى أصحاب التيار الأول من الشعراء، لأنهم هم الأكثر عدداً ، والأشهر شعراً ، وشعرهم هو المقصود بالدرجة الأولى .

٣) كان الحديث عن الحروب بين الأندلسيين وخصومهم يقع في أثناء قصائد المديح كما نجد ذلك بوضوح في ديوان ابن دراج القسطلي الذي سجل حروب الحاجب المنصور تسجيلاً رائعاً .

ويبدأ تيار رثاء المدن والحصون الضائعة عنيفاً غزيراً منذ سقوط طليطلة سنة ٤٧٩ هـ . ومما بقي من أشعارهم في ذلك أبيات لابن العسّال الزاهد، وقصيدة مطولة لشاعر مجهول أوردها المقري في نفح الطيب، منها :

لِثكلك كيف تبتسم الثغورُ ... سروراً بعدما سُبيت ثغورُ
طليطلةٌ أباح الكفر منها ... حماها إنّ ذا نبأ كبيرُ
فليس مثالها إيوانُ كسرى ... ولا منها الخورنق والسديرُ

ووقف الشعراء عند نكبة بلنسية وشرق الأندلس حين سقطت في يد السيِّد كما صنع ابن خفاجة[1]في أواخر القرن الخامس. ثم استراح الأندلسيون إلى عهد القوة والتمكن في أيام المرابطين ، وصدراً من دولة الموحدين ؛ فلما تهافتت قوة هؤلاء ثم تهاوت دولتهم بدأ عهد استغلاب إسباني - برتغالي جديد عارم ، فعاد غرض الجهاديات ورثاء المدن الأندلسية غزيراً نشيطاً ، وقام الأدب بدوره وأدى الأدباء مهمتهم . ويبرز في هذه المدة أبو البقاء الرُّندي، وابن سهل الإشبيلي ، وابن الأبّار ، وأبو المطرِّف بن عميرة المخزومي وغيرهم .

وفي ديوان ابن سهل الإشبيلي قصيدة أنشأها بطلب من أمير إشبيلية أبي عبد الله الموحدي لحثّ عرب المعقل على القدوم إلى الأندلس من شمال إفريقية والجهاد فيها ، منها :

وِرداً فمضمونٌ نجاح المُصدِرِ ... هي عزّة الدنيا وفوزُ المحشرِ
نادى الجهادُ بكم لنصرٍ مُضمَرٍ ... يبدو لكم بين العِتاق الضُّمَّرِ

أنتم أحقُّ بنصر دين نبيكمْ ... وبكم تمهَّد في قديم الأعصرِ

واستنجد ابن مَرْدَنيش بالأمير الحفصي صاحب تونس، وبعث كاتبه ووزيره ابن الأبار ، فأنشد قصيدة في مدحه والاستنجاد به ، واستنفاره للجهاد، منها :

أدرِكْ بخيلك خيل الله أندلُسا ... إنّ السبيل إلى منجاتها دَرَسا
وهَبْ لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عزُّ النصر ملتَمَسا

وشهد ابن عميرة المخزومي سقوط بلنسية وجزيرة شقر، ومدن الشرق الأندلسي سقوطاً نهائياً ، فذكر ذلك في شعره وكرَّر التأسف، والتحسر، واستنهاض إلهم . فمن شعره في سقوط بلنسية :

ما بالُ دمعك لا ينِي مِدرارُهُ ... أم ما لِقلبك لا يقرُّ قرارُه . . .
بحرٌ من الأحزان عبَّ عُبابُه ... وارتج ما بين الحشا زخّارُه
في كل قلبٍ منه وجد عنده ... أسف طويلٌ ليس تخبو نارُهُ
أما بلنسيةٌ فمثوى كافرٍ ... حفَّت به في عقرها كفارُهُ

والشعراء كثر، والشعر غزير .

٤) كان الرندي واحداً من أدباء القرن السابع ، وشهد تهاوي المجد الأندلسي منذ بدايات هذا القرن . وتأثر كما تأثر معاصروه من الأدباء والشعراء . ونحن نعرف له قصيدته المطولة :

(لكلِّ شيء إذا ما تمّ نقصانُ)

ومن المحتمل أن يكون في شعره الضائع قصائد أخرى في الغرض .

ونقَل القصيدة - المَقرِّي في كتابيه أزهار الرياض، ونفح الطيب. وذكر أن زياداتٍ قد طرأت على القصيدة - بعد سقوط الأندلس نهائياً - ليست من أصلها . ويسلم للرندي ثلاثة وأربعون بيتاً رواها أيضاً في الذخيرة السنية .

وتعد قصيدة الرندي من أشهر قصائد الأندلسيين في الجهاديات ورثاء المدن الأندلسية الضائعة لما فيها من صدق الانفعال ، وحرارة التعبير ، ولأنه استطاع بوصفه الدامي للحوادث الجارية على الأندلسيين أن يحرك العواطف ويشد الانتباه . وهو - بعدُ - استطاع أن يضع قضية الأندلس في إطارها ، حين جعل مصيبة أي جزء من أجزاء الأمة مصيبة عامة لا خاصة، ورأى أن الجهاد لاسترداد السليب من الوطن فرض عين لازم لا يسقط التكليف به على أي حال من الأحوال .

ومن خلال ذلك الوصف لِما أصاب الأندلس، ومن أثناء الحض على الجهاد والقتال تبدو العاطفة الحزينة ، ويظهر لك الشاعر الباكي الذي كاد ييأس لولا الأمل البعيد الذي يتشبث به ، ويرجوه .

القصيدة

قال يستنجد ببني مرين، وقبائل المغرب بخاصة ، وسامعي النداء من المسلمين وراء بحر الزقاق بعامة ، ويدعو إلى الجهاد، ويرثي ما ضاع من بلاد الأندلس :[1].

(١) راجع : ابن خفاجة ، من سلسلة (الذخائر ١) للمؤلف.

(١) أنشد الرندي القصيدة بعد تحالف إسبانية والبرتغال. وأرغون، وتنازل ابن الأحمر عن عدد كبير من المدن والحصون.

لـكـلّ شـيء إذا مـا تـمّ نُـقـصـانُ
فلا يغـرّ بـطيْبِ الـعيش إنـسـانُ
هـي الأمـور كـمـا شـاهـدْتَـهـا دُوَلٌ
مَـنْ سـرّهُ زمـنٌ سـاءتـه أزمـان
وهـذه الـدار لا تُـبـقـي عـلى أحـدٍ
ولا يـدومُ عـلى حـالٍ لـهـا شـانُ
يُـمـزّقُ الـدهـر حـتـماً كـل سـابغَـة
إذا نَـبَـتْ مـشـرِفـيّـاتٌ وخُـرصـان
ويَـنـتـضي كـل سـيـف لـلفَـنـاء ولـو
كـان ابـن ذي يـزَن والغـمـد غِـمـدان
أيـن الـمـلوكُ ذوو الـتـيـجـان مـن يَـمَـنٍ
وأيـن مـنـهُـمْ أكـالـيـلٌ وتـيـجـان
وأيـن مـا شـادَه شـدّاد فـي إرَمٍ
واين مـا سـاسـه في الفُـرس سـاسـان
وأيـن مـا حـازهُ قـارون مـن ذهَـبٍ
وأيـن عـادٌ وشـدّاد وقـحـطان
أتـى عـلى الـكـلّ أمـرٌ لا مَـرَدَّ لـه
حتى قضَـوْا فكـأن الـقـوم مـا كـانـوا
وصـار مـا كـان مـن مُـلكٍ ومـن مَـلِكٍ
كـمـا حكى عن خيـال الـطيف وسَـنـان
دارَ الـزمـانُ عـلى دارا وقـاتـلـه
وأمّ كـسـرى فـمـا آواه إيـوان
كـأنـمـا الصعبُ لـم يسهُـل لـه سببٌ
يـومـاً ولا مَـلَكَ الـدُنـيـا سُـليـمـان
فـجـائـعُ الـدهـر أنـواعٌ مـنـوعَـةٌ
ولـلـزمـانِ مـسـرّاتٌ وأحـزانٌ
ولـلـحـوادث سـلوانٌ يُـهـوّنُـهـا
ومـا لـمـا حـلَّ بـالإسـلام سـلوان
دهـى الـجـزيـرة أمـر لا عـزاءَ لـه
هـوى لـه أُحـد وانـهـدّ ثـهـلان
أصـابهـا العين في الإسـلام فـارتـزئت
حـتـى خَـلـت مـنـه أقـطار وبـلـدان
فـاسـأل بـلَنسيـة مـا شـأن مُـرسيـةٍ
وأيـن شـاطـبـة أم أيـن جـيّـان
وأيـن قـرطـبـةٌ دار الـعـلوم فـكـم
من عـالم قـد سـمـا فيـهـا لـه شـان
وأيـن حـمصٌ ومـا تـحـويـه مـن نُـزه
ونـهـرهـا الـعـذب فـيّـاض ومـلآن
قـواعـد كـنَّ أركـان الـبـلاد فـمـا
عـسى الـبـقـاء إذا لـم تـبـق أركـان؟
تـبكـي الحـنـيفـيـة الـبـيضـاء من أسفٍ
كـمـا بـكى لـفـراق الإلـف هـيـمـان
عـلى ديـار مـن الإسـلام خـالـيـة
قـد أُسلمت ولـهـا بـالكـفـر عـمـران
حيث المسـاجـد قـد صـارت كنـائس مـا
فـيـهـنَّ إلا نـواقـيـسٌ وصـلبـان
حتى المحـاريـب تبكي وهـي جـامـدة
حتى الـمـنـابـر تـرثـي وهـي عـيـدان
يـا غـافـلاً ولـه في الـدهـر مـوعـظةٌ
إن كـنـت فـي سِنَـةٍ فـالـدهـر يـقـظان
ومـاشـيـاً مـرحـاً يُـلهـيـه مـوطـنُـه
أبـعـد حـمص تـغـرُّ الـمـرءَ أوطـان
تـلك المـصيـبـةُ أنستْ مـا تـقـدّمـهـا
ومـا لهـا مـع طـول الـدهـر نسيـان
يـا أيـهـا الـمـلك الـبـيـضـاءُ رايـتـه
أدرك بسيـفـك أهـل الكـفـر لا كـانـوا
يـا راكـبيـن عـتـاق الـخـيـل ضـامـرةً
كـأنـهـا في مـجـال السّبق عـقـبـان
وحـامـلين سـيـوف الـهـنـد مُـرهـفـة
كـأنـهـا في ظـلام الـنّـقـع نـيـران
وراتـعـيـن وراء الـبـحـر فـي دعـةٍ
لـهـم بـأوطـانـهـم عـزٌّ وسـلطان
أعـنـدكـم نـبـأٌ مـن أهـل أنـدلس
فـقـد سـرى بحـديـث الـقـوم ركـبـان
كم يستغيث بـنـو المستضعفين وهم
أسـرى وقـتلى فـمـا يـهـتـزُّ إنـسـان
مـاذا الـتقـاطـع في الإسـلام بينكم
وأنـتـم يـا عـبـادَ الله إخـوان
ألا نـفـوسٌ أبـيّـاتٌ لـهـا هـمـم
أمـا عـلى الـخـيـر أنـصـارٌ وأعـوان
يـا مـن لـذِلّـةِ قـوم بـعـد عـزهـمُ
أحـال حـالـهُـم كـفـرٌ وطـغـيـان
بـالأمس كـانـوا مـلوكـاً في مـنـازلهم
والـيـوم هم فـي بـلاد الكـفـر عُـبـدان
فـلو تـراهـم حـيـارى لا دلـيـل لـهـم
عـليـهـمُ مـن ثـيـاب الـذل ألـوان
ولـو رأيـت بُـكـاهـم عـنـد بـيعـهـم
لـهـالـك الأمـر واستـهـوتْـك أحـزان
يـا رُبّ أمٍ وطـفـلٍ حـيـل بـيـنـهـمـا
كـمـا تـفـرق أرواحٌ وأبـدان
وطَـفـلةٍ مـا رأتـهـا الـشـمس إذ بـرزت
كـأنـمـا هـي يـاقـوت ومـرجـان
يـقـودهـا العِلج لـلمكـروه مكـرهـةً
والـعـيـن بـاكـيـة والـقـلب حـيـران
لـمثـل هـذا يـذوب الـقلب من كمـدٍ
إن كـان فـي الـقـلب إسـلامٌ وإيـمـان

متى نظمت القصيدة ؟

مضى زهاء خمسة قرون ، مذ سقطت قواعد الأندلس الأخيرة في يد اسبانيا النصرانية . ولكن مضى زهاء سبعة قرون على صدور مرثية الأندلس الشهيرة ، التي بكت نكبة الأندلس المسلمة كقضية واحدة قومية واسلامية ، وهي المرثية التي عرفناها وحفظناها صغاراً ، وهزت مشاعرنا الفتية احداثاً ، والتي مطلعها :

لكـل شيء إذا مـا تـم نقـصـان فـلا يغر بـطيب العيش انسـان

وقد لبثت اجيال من العلماء والأدباء تظن ان هذه المرثية البليغة ، التي

ما زالت حتى يومنا تحتفظ برنينها المحزن ، وعبرتها المبكية ، قد نظمت عقب سقوط الأندلس النهائي رثاءً لها ، وكنا صغاراً نؤمن مثلهم بهذه النظرية ، ولكني حينما بدأت دراساتي الأندلسية ، منذ اكثر من ثلاثين عاماً ، وأخرجت أول طبعة من كتابي « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » كانت هذه السحب التي أسبلت على حقيقة رثاء الأندلس ، قد اخذت تتبدد، وانتهيت في كتابي الى تحديد الوضع التاريخي لهذه المرثية ، وبينت بالاستناد الى نصوص ودلائل عديدة ، انها قد نظمت في فترة معينة من تاريخ الأندلس ، في العصر الذي عاش فيه ناظمها ، وهو عصر يسبق سقوط الأندلس النهائي بنحو قرنين . وقد خاطبني يومئذٍ صديق من كبار أدبائنا ، مبدياً دهشته من هذا التحليل قائلاً ، كيف انتهيت الى ذلك ، ونحن نعتقد طول العمر، أن مرثية الأندلس قد نظمت بعد السقوط وقد كان لهذا الصديق، ومن كان يجاريه في اعتقاده بعض العذر ، لأن المقري مؤرخ الأندلس نفسه ، لم يستطع تحديد العصر الذي نظمت فيه القصيدة ، وكانت حسبما يبدو من بعض تعليقاته انها نظمت في عصر السقوط الأخير ، وقبل سقوط غرناطة . ولم يكن هذا الرثاء معروفاً في الأوساط الأدبية والمشرقية ، قبل عصر المقري. ذلك ان المقري قد كتب ، حسبما نعرف، كتابه الشهير « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » بمدينة القاهرة المعزية في سنة ١٠٣٩ هـ (١٦٣٠ م)، حيثما كان يقيم منذ مقدمه اليها من المغرب في سنة ١٠٢٧ هـ (١٦١٧ م)، وعرفت منه قصيدة الرثاء يومئذٍ ، كما عرفت أشياء ونصوص كثيرة أخرى عن الأندلس ، وعن تاريخها وجغرافيتها وآدابها مما دونه في كتابه الجامع « نفح الطيب » . وقد استقى معظم ما دونه في كتابه من مصادر مغربية مما كانت تزخر به خزائن المغرب ، في فاس وتلمسان وبجاية والجزائر ، مما نقل اليها من آثار التراث الاندلسي في عصر السقوط ، أو حمله اليها المهاجرون بعد السقوط ، وقد حمل مسوداتها معه من المغرب الى القاهرة ، وانتفع الى جانبها بما كان مودعاً في عصره من تراث الأدب الأندلسي والمغربي ، بمكتبة رواق المغاربة بالجامع الأزهر . وما تزال توجد بها الى اليوم بعض أوراق مخطوطة تحمل تعليقات المقرى وتوقيعاته . أما رثاء الأندلس فقد نقله المقري حسبما يقول لنا « من خط من يوثق به على ما كتبته » . وإذا كنا لا نعرف هذا الذي « يوثق به » فانه قد نقل القصيدة على أرجح الفروض ، من احد المصادر القليلة التي تسربت اليها ، مثل كتاب « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية » وهو لمؤلف مجهول . ويبدو من اختتامه ان مؤلفه قد توفي في أواخر القرن السابع الهجري ، لأن حوادث الكتاب المعاصرة تقف عند سنة ٦٧٤ هـ، عند حادث بناء المدينة البيضاء أو البلد الجديد ، بناحية فاس على يد السلطان أبي يوسف المريني . هذا مع ملاحظة انه توجد بين النص الذي ورد في الذخيرة السنية والنص الذي نقله المقري، بعض تغييرات يسيرة في بعض الشطرات ، وان نص القصيدة في الذخيرة السنية يحتوي على ثلاثة وأربعين بيتاً بينما هو في نفح الطيب اثنان وأربعون ، هذا وقد نقل المقري القصيدة في نفس الوقت في كتابه « أزهار الرياض » بزيادة بيت واحد عنها في نفح الطيب.

يأتي الحديث بعد ذلك عن ناظم هذه القصيدة الشهيرة ، وعن ظروف نظمها . وبالرغم مما هو معروف ومحقق من أن ناظمها هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن شريف النُفزي ، المكنّى بأبي الطيب الرندي ، المولود بمدينة رندة في سنة ٦٠١ هـ والمتوفى بها سنة ٦٨٤ هـ، فانه يوجد بعض الغموض حول ظروف نظم القصيدة ، وحول ظروف تداولها ، واختفائها من بين تراث ناظمها ، وعدم تداولها زهاء قرن من الزمان ، ولا سيما بالأندلس موطن ناظمها ، قبل ان تذاع في المغرب على يد المؤرخين المغاربة في أواخر القرن السابع الهجري.

ويرجع هذا التساؤل الى عدة أسباب ، أولها أن الوزير ابن الخطيب ، صاحب كتاب « الاحاطة في اخبار غرناطة » ، وقد عاش قريباً من عصر الرندي ، قد أورد له في « الاحاطة » ترجمة فياضة، وأورد خلالها عدة من عيون قصائده ولكنه لم يورد الى جانبها شيئاً من قصيدة رثاء الأندلس ، بل ولم يشر اليها بكلمة واحدة ، مع انها من أبلغ وأروع القصائد التي نظمها الرندي .

وثانيها ، ان الرندي نفسه لم يشر الى قصيدته ولم ينشر منها شيئاً في كتابه « الوافي في نظم القوافي » ، الذي يتحدث فيه عن الشعر وفضله وآدابه وأغراضه ، ويورد فيه عدة من قصائده ومنها قصيدتان في الرثاء ، أولاها رثاء لأمير المسلمين ابن الأحمر ، وثانيتهما قصيدة في رثاء أبيه[1] وثالثتها ، ان القصيدة لم تظهر في تراث الأدب الأندلسي خلال العصر الغرناطي كله ، من بدايته في أواخر القرن السابع الهجري، حتى نهايته في أواخر القرن التاسع ، بالرغم من ظهور قصائد أخرى في رثاء الأندلس أو بعض قواعدها الذاهبة أقل روعة ورنيناً من مرثية أبي الطيب الرندي.

ومن ثم فانه يتعين علينا أن نتساءل عن أسباب هذا الغموض الذي يحيط بمرثية الأندلس ، والتي قضت باحتجابها عصوراً من بين أعيان روائع المراثي الأندلسية التي ظهرت خلال العصر الغرناطي ذاته ، ومن بعد ذلك حتى السقوط النهائي ، وعلينا أن نتقصى أسباب هذا الغموض في حياة ناظمها أبي الطيب ذاته ، وفي الظروف التي أحاطت به في الفترة التي عاش فيها.

لقد عاش الرندي في عصر الفتنة الكبرى، التي اضطرمت بها الأندلس في أواسط القرن السابع الهجري ، والتي تمخضت عن سقوط القواعد الأندلسية الكبرى في أيدي النصارى، وتمخضت في الوقت نفسه عن قيام مملكة غرناطة . وكان الرندي شاعراً وكاتباً عظيماً ، بارعاً في النثر والنظم معاً ، وله مقامات بديعة في أغراض شتى . ويصفه القاضي ابن عبد الملك في « التكملة » بأنه « خاتمة أدباء الأندلس » وكان كثير الوفود من بلده رندة على الحاضرة غرناطة ، والتردد الى بلاطها . وكان من خاصة المقربين الى الغالب بالله ، السلطان محمد بن الأحمر الكبير مؤسس مملكة غرناطة وشاعره الأثير . وكان الغالب بالله يطرب لشعره ، ويغمره بعطفه وتكريمه . ومن أشهر قصائده في مدح السلطان المذكور ، قصيدته التي مطلعها :

سرى والحب أمر لا يرام ... وقد أغرى به الشوق الغرام
وأغفى أهلها الا وشاة ... إذا نام الحوادث لا تنام

وكتب الرندي برسم السلطان كتابه المسمى « روضة الإنس ونزهة النفس » . ونثره لا يقل روعة عن شعره.

ونحن نعرف ان ابن الأحمر الكبير ، كان بالرغم من عبقريته وشجاعته وعزمه ، وهي التي تمخضت عن ظفره بانشاء مملكة غرناطة من غمر التمزق والفوضى، كان يعيش في دوامة من الصعاب السياسية والعسكرية ، ويخشى على مملكته الفتية الناشئة من عدوان قشتالة وأطماعها . وكانت حركة الاسترداد الأسبانية La Reconquista بعد الاستيلاء على قواعد الأندلس الكبرى: قرطبة ، بلنسية ، مرسية ، شاطبة ، جيان ، اشبيلية في نحو خمسة عشر عاماً فقط ٦٣٣ - ٦٤٦ هـ (١٢٣٦ - ١٢٤٨ م) تندفع بعنف نحو الاستيلاء على قواعد وأراضٍ جديدة . ولم يكن أمامها من القوى الأندلسية المتماسكة سوى مملكة غرناطة الناشئة ، التي اجتمعت حولها اشلاء

(١) توجد عدة نسخ مخطوطة من كتاب «الوافي» بدار الكتب العامة بالرباط، وقد اعتمدنا فيها على مراجعة النسخة رقم (١٧٣٠ ك) ولم ينشر الكتاب حتى الآن.

الأندلس الباقية ، فيما بين نهـر الوادي الكبيـر والبحر المتـوسط، وبين نهر المنصـورة ونهر وادي لكـه . وكان ابن الأحمـر يرقب هـذا التيـار الجـارف جزعاً ، ويحـاول أن يقف في سبيله بسائـر الوسـائل ، ومنهـا وفي مقدمتهـا مصانعة ملك قشتالة القوي فرناندو الثالث. وقد ذهب ابن الأحمـر في هذه المصانعة الى حد أن ارتضى في معاهدة المهادنة والصلح التي عقدهـا مع هـذا الملك القاهـر ، أن يعترف بحمـايتـه وان يحكم أراضيـه بـاسم ملك قشتالة ، وان يؤدي له الجزيـة ، وان يشهد اجتمـاع مجلس قشتالـة النيابي (الكورتيس) باعتباره من الأمراء التـابعين للعرش ، وأخيـراً أن يعاونـه في حروبه ببعض قواته . بل لقد ارتضى ابن الأحمـر ، تنفيذاً لهـذا الاتفاق ان يعاون قشتالة ببعض قواته في محاصرة اشبيلية ، وان يشترك بذلك في افتتاح هذه الحاضرة الأندلسية التالدة لحساب النصـارى. وقد كـان هذا التصـرف مهيناً ومشيناً معاً للأمير المسلم . ولكنه لم يجد مندوحة من اتباعـه حرصـاً على صون مملكته الفتية وحمايتهـا من المصير الـذي انتهت اليه الأنـدلس الكبرى. وقد تضمنت معاهدة الهدنة والصداقة فـوق ذلك كله ، ان يتنـازل الملك المسلم الى ملك قشتالة عن عدد كبير من البـلاد والحصون ، منهـا شريش ، والمدينة ، والقلعة ، وقادس،وغيرها. وقيل ان ما تنازل عنه ابن الأحمر يومئذٍ للنصارى قد بلغ اكثر من مـائة مـوضع ، معـظمها في غـربي الأندلس. وكان ذلك في سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م).

وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها التالدة في نحو ثلاثين عاماً فقط (٦٢٧ - ٦٥٥ هـ) في وابل مروع من الأحداث والمحن . واستحال الـوطن الأندلسي الذي كان قبل قرن فقط يشغل نحو نصف الجزيرة الأسبانية ، الى رقعة متواضعة ، هي مملكة غرناطة الصغيرة . وقد أثارت هذه المحن التي تـوالت على الأندلس في تلك الفترة المظلمـة من تاريخهـا لـوعـة الشعـر والأدب . وهنا وفي هذه الآونة بالذات ، وعلى ضوء هذه الظروف المؤسية التي تنازل فيها ابن الأحمر عن عشرات البلاد والحصون الاسلامية للنصارى: هنا نظم شاعر العصر ، أبو الطيب الرنـدي مرثيتـه الشهيرة ، التي مـا زالت تعتبر حتى اليوم من أعظم المراثي القومية وأبلغهـا تأثيـراً في النفس، وفيها يبكي قواعد الأنـدلس الذاهبـة ، ويستنهض همم المسلمين أهل العـدوة ، لانجاد الأندلس وغوثها.

ولدينا لتأييد هذه الحقيقة في توقيت نظم القصيدة الشهيرة ، وظروف نظمها ، نصان تاريخيان معاصـران ، الأول: وهو نص صـاحـب « الذخيـرة السنية في تاريخ الدولة المرينية » وقد عاش في أواخر القرن السابع معاصراً لابن الأحمر الكبير، وابي الطيب الرندي وفيه يقول:

« ولما أعطى ابن الأحمر البلاد المـذكورة لـلاذفونش قـال الفقيه أبـو محمد بن شريف الرندي يرثي الأندلس ، ويستنصر بأهل العدوة ، من مرين وغيرهم » . ثم يورد قصيدة الرثاء بأكملها [1] . والثاني ، وقد كتب بعد ذلك بقليل، في أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن ، هو نص ابن عذاري المراكشي ، حيث يقول في نهاية الجزء الثالث من كتـابه الجـامع « البيـان المغرب » ، ما يأتي :

« وفي هذه السنة » وهي سنة خمس وستين وستمائة صالح الأمير أبـو عبد الله بن الأحمر ملك النصـرانية ، الأذفـونش ، على يد ولـده الأمير أبي عبـد الله . وقيل ان الصلح انعقـد بينهما على نحـو أربعين مسوراً من بـلاد المسلمين - أعادها اليه - وقيل ان اكثرها بغـرب الأندلس ، ومن جملة تلك البلاد مدينة شريش ، والمدينة والقلعـة ، وبجير وغيـر ذلك . . . وقـد رثى الأندلس كثير من الأدباء . فمن ذلك قول صالح بن شريف من قصيدة . ثم أورد من القصيدة سبعة عشر بيتاً مع تغييرات في نصوص بعض الشطرات . ووردت منها الأبيات المشهورة :

أصابها العين في الاسلام فامتحنت ... حتى خـلـت منـه أوطـان وبـلدان
فاسأل بلنسيـة مـا شـأن مـرسيـة ... وأيـن شـاطـبـة أم أيـن جيـان
وأين حمص ومـا تحـويـه من نـزه ... ونهـرها العـذب فيـاض ومـلآن
قـواعـد كن أركـان البـلاد فمـا ... عسى البقـاء إذا لم تبق أركـان [3]

وإذن فالحقيقة التاريخية هي أن مرثية الأندلس ، لم تنظم لرثاء سقوط الأنـدلس النهائي، كمـا كان الاعتقـاد شائعـاً لدى معـظم الـدوائـر الأدبيـة والتاريخية ، حتى عصر المقري (القـرن الحادي عشـر الهجري أو السـابع عشر الميلادي) وانما نظمت رثاء لسقوط القـواعد الأنـدلسية الكبـرى، في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، حسبما بيّنا من قبـل، وهي التي ذكرها أبو الطيب في قصيدته صراحة على النحو الآتي:

فـاسـأل بلنسيـة مـا شـأن مـرسيـة ... وأيـن شـاطـبـة أم أيـن جيـان
وأيـن قـرطبـة دار الـعلوم فـكـم ... من عـالـم قد سمـا فيهـا لـه شـأن
وأين حمص ومـا تـوحيـه من نـزه ... ونهْرهـا العـذب فيـاض ومـلآن
قـواعـد كنَّ أركـان البـلاد فمـا ... عسى البقـاء إذا لـم تبـق أركـان

وقد حرك الشاعر الى نظم مرثيته المبكية ما فعله ابن الأحمر في النزول عن عديد من المدن والحصون الاسلامية الى ملك قشتالة، وجاء بذلك نظمها متأخراً عن سقوط القواعد الأندلسية الكبرى بنحو خمسة وعشرين عاماً .

على أن هذه المرثية المبكية ما كادت تـظهر في دوائـر الشعر والأدب الغرناطية ، حتى اختفت بسرعة ، ولكن بعد أن تسربت الى عدوة المغرب. وهنا يكمن السر في احتجابها بـالأندلس مـوطن نظمهـا . ذلك ان الـرندي كان ، حسبما تقدم شاعر ابن الأحمر الأثير، يشيد بعهده وعبقريته وأعماله ، في قصائد عديدة . وإقدامه على نظم هذه القصيدة البليغة المؤثرة يثير كوامن الأسى والشجن ، في نفـوس أولئك الـذين شهدوا وعـاصـروا تصـرف ابن الأحمر في النزول عن الأراضي الاسلامية الى النصارى طواعية ، واختياراً ، وبلا حرب خسرها . وتداول مرثيـة تبكي قواعـد الأندلس الـذاهبة ، يـذكر الشعب الغرناطي دائمـاً بهذا التصـرف الفاجـع ، الذي أقـدم عليه مؤسس مملكة غرناطة ، وأصبح منسوباً الى دولة بني الأحمـر كلها . وانـه ليصعب علينا ان نفترض ان ابا الطيب قد نظم قصيـدته سـراً ، لتكون نفثة مصدور خاصة ، وهو قد نظمها ليهيب بمسلمي العدوة والمسلمين عامـة ، أن يهبوا لنجدة الاسلام في الأندلس . وإذن فلا بدَّ أن تحجب هذه القصيـدة ، وأن يخمد هذا الصوت الذي يثير الألم والأسى، صوناً لسمعة السلطان ، وهيبة المملكة . ومن ثم فقد أسبل على مرثية الرندي حجاب كثيف من الصمت والنسيـان ، طوال العهـد الغرنـاطي كله . فقلَّما تجـد لهـا ذكـراً في السيـر الغـرنـاطيـة أو الأدب الغـرنـاطي. وحتى في المغـرب حيث تسـربت وقت نظمها ، الى بعض الدوائر، فقـد كان تـداولها محـدوداً جداً . ولعـلَّ ذلك يرجع الى نفوذ البلاط المريني ، راعي الأندلس، وحليف بني الأحمر.

وهذا يفسر لنـا في نفس الوقت مـوقف ابن الخطيب في تنـاسي هذه القصيدة ، وعدم الاشارة اليها بـأية كلمـة في الترجمـة الفياضـة التي كتبها للرنـدي في « الاحاطـة » ، وأورد بها عـدة من عيون قصـائده ومقـطوعـاتـه الشعرية . ولسنا نعتقد أن ناسخ مخطوط الاسكوريال هو الذي أغفل ذكرها اختصاراً ، أو ظناً منه أن شهرتها تغني عن ذكرها ، فهو لم يغفل ذكر العديد من قصائده الأخرى. ولكن التفسير الطبيعي لهذا الصمت من جانب صاحب

(١) الذخيرة السنية ص ١٢٧ وما بعدها.

(١) البيان المغرب - المجلد الثالث - المنشور بعناية الأستاذ هويشي ميرانده ص ٤٧٠ .

« الاحاطة » ، هو ان ابن الخطيب، وهو من أولياء بني نصر (بني الأحمر) ملوك غرناطة ، ووزيرهم الأثير، وربيب نعمتهم ، قد رأى، كما رأى غيره من كتاب العصر وأدبائه ، أن يغفل ذكرها ، لأن وجودها في مؤلفه الى جانب ترجمة ابن الأحمر الكبير، وآخرين من ملوك غرناطة ، قد يسيء الى ذكريات مؤسس مملكة غرناطة ، الذي وقعت المحنة الأندلسية في عهده ، ونظمت القصيدة لبكائها.

تلك هي الظروف التي أحاطت بنظم مرثية الرندي الأندلسية ، والتي قضت أن تحجب عن التداول ، وأن يسبل عليها مدى عصور ، ستار من الصمت والنسيان ، حتى جاء المقري في القرن الحادي عشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، فنقلها كاملة في كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض، وأخذت من ذلك الحين تبدو في كتب التاريخ والأدب، نفثة من نفثات النظم المبكية ، التي لا يمكن أن تخمد حرارتها ، أو تنسخ بلاغتها وآثارها الشجية ، على تعاقب الأجيال.

ولا بدّ من الاشارة الى ان هناك من شكك في نسبة القصيدة لأبي البقاء، فزعم أن ناظم هذه القصيدة هو يحيى القرطبي، وذلك حسبما ورد في « ريحانة الالباء » لشهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ.

وأنا أؤكد بصورة اليقين والحسم ان ناظم مرثية الأندلس هو صالح بن شريف الرندي المتوفى سنة٦٨٤ هـ، وأنه نظمها في الظروف السياسية الغرناطية التي شرحتها في مقالي، ثم حبسها عن الظهور حيناً للأسباب والبواعث التي شرحتها كذلك في مقالي شرحاً وافياً .

وأنا ألخص مرة أخرى الأسباب التاريخية التي تقطع بلا أدنى شك بصحة نسبة القصيدة الى شاعرها الأندلسي أبي الطيب الرندي.

○ **أولاً** : أن المؤرخ المغربي الكبير ابن عذارى المراكشي، الذي عاش بالعدوة المغربية في نفس العصر الذي عاش فيه الرندي، وكتب تاريخه في نفس العصر الذي نظمت فيه مرثية الأندلس، وتوفي في أوائل القرن الثامن الهجري، يقدم لنا النصف الأول من مرثية الرندي منسوبة اليه في آخر الجزء الثالث من كتابه (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) المنشور بعناية العلامة الأسباني هويثي ميرانده (ص ٤٧١).

○ **ثانياً** : ان صاحب كتاب « الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية » ، وهو مؤرخ مجهول يصل في تاريخه حتى سنة ٦٧٧ هـ، وقد عاش حسبما يبدو من كتابه حتى أواخر القرن السابع الهجري معاصراً كذلك للرندي ، يقدم الينا المرثية كاملة منسوبة الى صالح بن شريف الرندي (ص ١٢٧).

○ **ثالثاً** : ان أبا العباس شهاب الدين المقرى صاحب « نفح الطيب » المتوفى سنة ١٠٤١ هـ يقدم الينا في « النفح » مرثية الأندلس كاملة ، ومنسوبة الى ناظمها صالح بن شريف، ويقول لنا انه نقلها « من خط من يوثق له » . وعن كتاب « نفح الطيب » الذي وضعه مؤلفه بمدينة القاهرة ، انتشرت مرثية الأندلس في كثير من الكتب المشرقية .

وتوجد مصادر مغربية عديدة أخرى خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، وكلها تؤكد نسبة القصيدة الى الرندي دون أية ذرة من الشك.

أما ما قيل من ان صاحب كتاب « ريحانة الألباء » شهاب الدين الخفاجي قد ذكر في كتابه ان الذي نظم مرثية الأندلس هو من يدعى « يحيى القرطبي » فهو قول لا يعول عليه ، لأن الخفاجي وان كان أديباً عظيماً ، فهو ليس مؤرخاً ، وكتابه « الريحانة » هو مجموعة أدبية قبل كل شيء . هذا فضلاً عن ان الخفاجي توفي في سنة ١٠٦٩ هـ متأخراً نحو أربعة قرون عن عصر الرندي، فهو بذلك كله لا يمكن أن يعتبر حجة تاريخية ، ولا يعتمد على قوله .

ونود أن نختتم هذه الكلمة بالقول بان مؤرخي الغرب الاسلامي (المغرب والأندلس) هم بلا ريب أوثق في رواياتهم وأسانيدهم التاريخية ، فيما يتعلق بالغرب الاسلامي، من المؤرخين المشارقة[1].

تشيع الرندي

قال الرندي في كتابه روضة الأنس ، في أثناء أحد استطراداته « وقد رثي الحسين قديماً وحديثاً . وممن بكاه فأحزن ورثاه فأجاد وأحسن أبو بحر صفوان بن إدريس الأندلسي رحمه الله[2]. ومن عجيب ما حكي عنه أنه دخل مراكش في أيام المنصور بن عبد المؤمن - رحمه الله - وهو صفر اليدين منقطع الحيلة : لا كيف ولا أين . لا يملك فتيلا ، ولا يجد للقاء السلطان سبيلاً . فعكف على رثاء الحسين يبكي مصابه ، ويذكي به أوصابه . فنبّه المنصور في الليل عليه ، وأمر بالإحسان إليه بعناية نبوية جبرت فؤاده ، وأقامت منآده . فاستحضره المنصور - رحمه الله - وكشف له عن غيبه ، وأمكنه من سيبه . وبالغ في بلوغ أربه ، وأنفذ له ما أمر به . وفي ذلك يقول مرج كحل[3] من قصيدة له :

ونبئت عن صفوان نيل كرامةٍ
حباهُ بها الرحمن والخلفاءُ
ولله في صفوان أيَّة آيةٍ
تكشف عنها للعظام غطاء
فما ضاع منه في الحسين انتصارهُ
ولا خاب عند الله فيه جزاءُ

وحسينياته رضي الله عنه كثيرة مشهورة نذكر منها ما يليق بهذا الكتاب بحول الله عز وجل فمن ذلك قوله :

أندبُ الطفّ وسبط المصطفى
بمراثٍ هي أسرَى مِنْ : قفا
لا ترُم ضوء هدىً من بعدهِ
فسراجُ الهدي بالطفّ انطفا . . . .

ومما أحسن فيه الإنشاء وأجاد ما شاء المخمَّسة التي نظم أقسامها على حروف المعجم ، وذيل مراكزها بأعجاز من قصيدة امرىء القيس التي أولها (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) منها :

ديار الهدى بالخيف والجمرات — إلى ملتقى جمع إلى عرفاتِ
مجاري سيول الغيم والعبرات — معارف هدي أصبحت نكرات
لما نسجتها من جنوبٍ وشمأل

قال صاحب الكتاب[4]: وقد ألمعتُ بطريقة صفوان - رحمه الله - في رثائه عليه السلام بجملة حذوتُ فيها حذوه فبلغت شأوه بما هو في المعنى

(١) محمد عبد الله عنان.

(٢) أبو بحر صفوان بن ادريس التجيبي المرسي ٥٦٠ - ٥٩٨ . شاعر من مرسية بالأندلس له شعر ونثر. وألف كتاب: زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، الذي حققه عبد القادر محداد (الجزائر). وانظر مقدمة الكتاب ففيها تفصيل عن صاحبه وأخبار .

(٣) أبو عبد الله محمد بن مرج الكحل (ويقال فيه مرج كحل) من أهل جزيرة شُقر (بلدة ابن خفاجة) . وهو توفي سنة ٦٣٤ ببلده. وكان شاعراً مبدعاً، وخلف ديوان شعر كان متداولاً .

(٤) كتاب روضة الأنس.

أغرب وإلى الحال أنسب . وذلك أني صنعت مخمسة على حروف المعجم مذيلةً باعجازٍ من قصيدة زهير ؛ فيها :

أبيتُ فلا يساعدُني عزاء — إذا ذكر الحسينُ وكربلاءُ
فخلّ الوجد يفعل ما يشاء — لمثل اليوم يدّخرُ البكاء!
عفا من آل فاطمة الجواءُ

بعينك يا رسول الله ما بي — دموعي في انهمال وانسكابِ
وقلبي في انتهابٍ والتهاب — على دارٍ مكرمة الجناب
عفتها الريحُ بعدك والسماءُ

بكيتُ منازل الصّبر السؤاة — بمكة والمدينة والفُرات
معالمُ للعُلا والمكرمات — عفت آثارُها وكذاك يأتي
على آثار مَنْ ذهب العفاءُ !

كتابه

روضة الأنس ونزهة النفس

يعد كتاب الرندي الذي سماه روضة الأنس ونزهة النفس في كتب الثقافة العامة التي شاع التأليف فيها ؛ والتي كان مثالها البارز كتاب ابن قتيبة : عيون الأخبار . ويقول الرندي في مقدمة كتابه إنه ألفه كتاباً في الأدب جامعاً لعيون الفنون والآداب والأخبار والفرائد والفوائد، وأنه انتقى « من الكتب دررها ومن أصناف الأدب غررها ». ويكون (الأدب) الذي قصد إليه هو الأدب بمعناه الواسع الشامل الذي عرفه ابن خلدون بأنه الأخذ من كل علم بطرف .

وجعل كتابه في عشرين باباً تتوزعها الموضوعات التالية : الباب الأول في العالم ومعالمه . والثاني : في الأرض والبلاد . والثالث : في بدء البشر . والرابع : في النبي (ص). والخامس في الخلفاء وأهل البيت . والسادس : في الدولة الأموية . والسابع : في الدولة العباسية . والثامن : في أهل الردة والخوارج . والتاسع : في جمل من الفتوح . والعاشر : في لمع من . . .[1]. والحادي عشر : في الحرب . والثاني عشر : في الملك والرياسة . والثالث عشر : في العلم . والرابع عشر: في الشعر . والخامس عشر : في المال . والسادس عشر في النساء والبنين . والسابع عشر : في الناس والزمن . والتاسع عشر : في الحكايات . والباب الموفي عشرين : في الحكم والمواعظ .

وهو في هذه الفصول ـ في الأغلب الأعم ـ ناقل ومصنف ومرتب ، بيد أن له فضل العبارة الأنيقة والكلمة الرشيقة قال : « وقد ضممت في كل جزءٍ منها الشيء إلى ما يماثله ، وألحقت به ما يشاكله . ولجأت إلى فكري في كثير من الفصول القصار واللفظ المختار . إذ كان القصد في ذلك الإجادة لا الرواية والإفادة لا الحكاية »[2].

والموجود من الكتاب هو الجزء الأول[3]، وينقطع في أثناء الباب التاسع « في جمل من الفتوح ». وقد رفع الرندي كتابه إلى الأمير النصري محمد بن محمد وطرزه باسمه ، احتفاء وتقديراً « فإنه ـ أيده الله ـ زان الملك بالذات الفاضلة والصفات الكاملة والنصبة الإمارية والنسبة الأنصارية ، فمن همم تساوي المجد وتجاوز الجوزاء وشيمٍ شيم بها الدهر ، وينتسب لها الزهر ، إلى جود تروى به الآمال ويسترق بمثله الأحرار ». ولا يخفى المغزى من الوصف بالكرم والجود في خطبة الكتاب .

ومصادر الكتاب مختلفة متعددة، عرفنا منها عرضاً ، وفي أثناء القسم الباقي من الكتاب : كتاب ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، وكتاب المسعودي مروج الذهب ومغازي الواقدي . وهو نصَّ على النقل من ابن إسحاق (في السيرة) وعن (صاحب التيجان) وصاحب المجسطي ، وصاحب الزهر (زهر الآداب) . ولا شك في أن مصادره كثيرة وإن لم تتضح لنا جميعاً .

وكتاب الرندي من كتب الثقافة العامة التي يستفاد منها في الأغراض التعليمية وما يشبه ذلك . وليست في الكتاب جدة أو إبداع يلفت النظر . ولكن الأديب الشاعر كان يخرج عن موضوعه ليقدم قطعاً وقصائد من شعره تلون الكتاب وتقدم لنا ذخراً طيباً لشاعر غاب عنا ديوانه .

قال في مديح الأمير محمد بن نصر أمير غرناطة :

سلّمْ على الحي بذاتِ العَرارْ
وحيِّ من أجل الحبيب الديار
وخلِّ من لام على حبِّهمْ
فما على العشاق في الذلِّ عار
ولا تقصِّر في اغتنام المُنى
فما ليالي الأنس إلا قِصارْ
وإنما العيشُ لمن رامَه
نفسٌ تدارى وكؤوسٌ تُدار
وروحُه الراحُ وريحانُه
في طيبه بالوَصل أو بالعُقار
لا صبرَ للشيء على ضدِّه
والخمرُ والهمُّ كماءٍ ونارْ
مُدامة مُدْنية للمُنى
في رقَّة الدمع ولون النُّضارْ
مما أبو ريْقَ أباريقها
تنافستْ فيها النفوسُ الكبارْ
مُعلِّتي والبرء من علتي
ما أطيبَ الخمرة لولا الخُمارْ
ما أحسنَ النارَ التي شكلُها
كالماءِ لو كفَّ شرار الشِّرارْ
وبي وإن عُذّبت في حبه
ببعده على اقتراب المزار
ظبي غَريرٌ نامَ عن لوعتي
ولا أذوقُ النوم إلا غِرارْ
ذو وجنةٍ كأنها روضةٌ
قد بهر الوردُ بها والبهارْ
رجعتُ للصبوة في حبِّهِ
وطاعةِ اللهو وخلعِ العِذارْ
يا قوم قولوا ـ بذمام الهوى ـ
أهكذا يفعل حبُّ الصِّغار؟
وليلةٍ نبَّهتُ أجفانَها
والفجرُ قد فجّر نهر النَّهار
والليلُ كالمَهزوم يوم الوغى
والشهب مثل الشُّهب عند الفرار

(١) غير واضحة في الأصل (النسخة المصورة) .

(٢) روضة الأنس الورقة : ٢ .

(٣) أطلعت على النسخة المصورة عند صديقي الأستاذ محمد مفتاح ، عن الأصل الموجود في مكتبة صديقنا الأستاذ الفقيه العلامة محمد المنوني الذي تكرم مشكوراً بالموافقة على الإفادة من الكتاب .

كـأنّمـا استخفـى الـسُّهـا خيفـةً
وطُـولـب الـنـجـمُ بـثـار فـثـار
لـذاك مـا شـابـت نـواصي الـدُّجـى
وطـارح الـنَّـسـرُ أخـاهُ فـطار
وفـي الـثُّـريـا قـمـرٌ سـافـرٌ
عـن غُـرةٍ غـيّـر مـنـهـا الـسِّـفـار
كـأن عـنـقـوداً تـثـنّـى بـه
إذ صـار كـالـعـرجـون عـنـد الـسِّـرار
كـأنـهـا تـسـبـكُ ديـنـارَهُ
وكـفـهـا يـفـتِـلُ مـنـه الـسِّـوار
كـأنـمـا الـظـلـمـاء مـظـلـومـة
تـحـكـم الـفـجـر عـلـيـهـا فـجـار
كـأنـمـا الـصُّـبـحُ لـمـشـتـاقِـه
عـزُّ غِـنـىً مـن بـعـد ذُلّ افـتـقـار
كـأنـمـا الـشَّـمـسُ وقـد أشـرقـت
وجـهُ أبـي عـبـدِ الإلـهِ اسـتـنـارْ
مـحـمَّـدٌ مـحـمَّـدٌ كـاسـمِـه
شـخـصٌ لـهُ فـي كـل مـعـنـى يُـشـارْ
أمـا الـمـعـالـي فـهـو قـطـبٌ لـهـا
والـقـطـبُ لا شـكَّ عـلـيـه الـمـدار
مـؤثّـل الـمـجـدِ صـريـحُ الـعُـلا
مـهـذَّبُ الـطـبـعِ كـريـمُ الـنِّـجـار
تُـزهـى بـه لـخـمٌ وسـاداتـهـا
وتـنـتـمـي قـيـسٌ لـه فـي الـفَـخـار
يُـفـيـض مـن جـودِ يـديـه عـلى
عـافـيـه مـا مـنّـهُ تـحـار الـبـحـار
الـيُـمـنُ مـن يُـمـنـاه حـكـمٌ جـرى
والـيُـسـر مـن شِـيـمـةِ تـلك الـيـسـار
أخ صـفـا مـنـه لـنـا واحـد
فـالـدَّهـر مِـمَّـا قـد جنى في اعـتـذار
فـإنْ شـكـرنـا فـضـلهُ مـرَّةً
فـقـد سـكـرنـا مـن نـداهُ مِـرار
ونـحـنُ مـنـه فـي جِـوار الـعُـلا
تـدورُ لـلـسَّـعـدِ بـنـا مـنـهُ دار
الحـافـظ اللهُ وأسـمـاؤه
لـذلـك الـجـارِ وذاكَ الـجِـوار

وقال أيضاً :

وليـل صَبَابـة كـالـدهر طـولاً ... تـنـكّـر لي وعـرَّفـه الـتـمـامُ
كـأن سـمـاءَه روض تـحـلّى ... بـزهـر الزُّهـر، والشـرق الكمامُ
كـأن البـدر تحت الغيم وجـهٌ ... عـلـيـه مـن مـلاحَـتِـه لـثـامُ
كـأن الـكـوكـب الـدُّري كـأسٌ ... وقـد رق الـزجـاجـة والـمُـدامُ
كـأن سـطـور أفـلاك الـدراري ... قِـسـي والـرُّجـوم لـهـا سـهـامُ
كـأن مـدار قُـطب بنـات نعش ... نـديٌّ والـنـجـومُ بـه نـدامُ
كـأن بـنـاتـه الـكـبـرى جَـوار ... جـوار والـسُّهـى فـيـهـا غـلامُ
كـأن بنـاتـه الصُّغـرى جمـانٌ ... عـلـى لـبَّـاتـهـا مـنـه نـظامُ
كـواكـب بـتُّ أرعـاهـن حـتـى ... كـأنـي عـاشـقٌ وهـي الـنـدمـامُ
إلى أن مـزقـت كـف الـثُّـريـا ... جـيـوب الأفق وانجـاب الـظلامُ
فـمـا خلت انصـداع الفجـر إلا ... قِـرابـاً يـنـتـضـى مـنـه حـسـامُ

ومـا شـبَّهـت وجـه الـشـمس إلا ... بـوجـهـك أيهـا الملك الـهـمـامُ
وإن شـبـهـتُـه بـالـبـدر يـومـاً ... فـللبـدر الـمَـلاحـة والـتـمـامُ

وقال أيضاً :

علّلاني بـذكـر تـلك الليـالي ... وعـهـود عهـدتـهـا كـاللآلي
لست أنسـى لـلحـب لـيـلة أُنس ... صـال فيها على النَّوى بـالـوصـال
غفـل الـدهـر والـرقيب وبتنـا ... فعَجبنـا مـن اتفـاق الـمـحـال
ضمّنـا ضمّـة الـوشـاح عنـاقٌ ... بـيـمـيـنٍ مـعـقـودةٍ بـشـمـال
فبـردت الـحشـا بِلثـم بـرودٍ ... لم يزل بي حتى خبـا لي خبالي
وكؤوس المـدام تـجلو عـروسـاً ... أضحك المـزج ثغـرهـا عن لآل
ولنحـر الـدُّجى ذوابـل شمـع ... عكست في الـزجاج نـور الـذبال
والـثـريـا تمُـد كـفـاً خضيبـاً ... أعجمت بـالسمـاك نـون الهـلال
وكـأن الصـبـاح إذ لاح سـيـف ... يُنتضـى مـن غـيـن وميـم ودال
ومسحنـا الكـرى إلى غـانيـات ... غـانيـاتٍ بكـل سحـرٍ حـلال
في ريـاض تبسم الـزهـرُ فيهـا ... لـغـمـام بـكـت دمـوعَ دلال
وجـرى عـاطـر النسيم عليـلاً ... يتهـادى بـين الصبـا والشمـال
فـاكتسى النهر لأمـة منـه لمَّـا ... أن رمى القـطرُ نحـوهُ بنبـال
يـا ليـالي منى سـلامٌ عليهـا ... أتـراهـا تعـودُ تلك الليـالي ؟ !

وقال أيضاً :

مـا ضـرَّ من يمنعُني قُـربُـهُ ... لـو جاء في الهجـر بما يقـربُ
مـا ضـرهُ ـ والأمـرُ في حكمـه ـ ... لـو قَبِـل الـرَّغبـة إذ يـرغبُ
أضـرب عنّي حـين لا حـيلةٌ ... فصـار وجـدي مثـلاً يُضـرب
عجبتُ لـلصَّـبـر على صـدّه ... لكنَّ عَيشي بعـدهَ أعـجب
الجـور منـهُ ولـهُ المُشتكى ... والعُـذر مِنّي وهـو المُـذنب
رضيـتُ بالأمـرِ عـلى حـالـه ... فليت شعـري مـالـهُ يغضبُ؟

وقال أيضاً :

قـطَّع قـلبـي بـصـدهِ قِـطعـا ... وإنّـمـا ضـرَّني ومـا انتـفـعـا
وغـرّني أولاً بـوصـلـتِـه ... وعـنـدمـا لـذَّ وصـلهُ قـطعـا
ومـرَّ عني لَـمَّـا شكـوتُ لـهُ ... كـأنَّـه مـا رأى ومـا سـمـعـا
واكبـدي ـ لـو تفيـد « واكبـدي » ـ ... لم يترك الـدَّهـرُ فيـه لي طمعـا
يـا ليت قلبي الـذّي وهبتُ لـهُ ... يـرجع لي اليوم كيفمـا رجعـا !

وقال أيضاً :

يـا سـالب القلب منّي عنـدمـا رمقـا ... لم يُبـق حبُّـك لي صبـراً ولا رمقـا
لا تسـألِ اليـوم عمَّـا كـابـدت كبـدي ... لـيت الـفـراق ولـيت الحُبَّ مـا خُلقـا
مـا بـاختيـاري ذُقتُ الحُبَّ ثـانيـةً ... وإنَّـمـا جـارتِ الأقـدارُ فـاتَّـفـقـا
وكنتُ في كلفي الـدَّاعي إلى تـلفي ... مِثـل الفـراشِ أحبَّ النـار فـاحتـرقـا
يـا مـن تجلَّى إلى سـرّي فصيَّـرني ... دكـاً وهـزَّ فُـؤادي عـنـدمـا صـعـقـا
أُنـظُر إلـيّ فـإنّ الـنَّـفـس قـد تـلفـت ... وارفُـق عـليّ فـإن الـرُّوح قـد زهـقـا

وقال أيضاً :

أيـا أضـلعـاً حَـرُّهـا يـلهـبُ ... ويـا أدمـعـا درهـا يُـنـهـبُ
عـجـيـبٌ لعـمـركَ شـأن الهـوى ... ولـكـن صـبـري لـهُ أعْـجـبُ

ولـمْ أرَ كـالـحـب يـا عـاذلي — عـذابـاً، ولـكـنـه يَـعْـذُبُ
ولا كـالـحـبـيـبِ وخـذلانـه — يـزيـد صـدوداً إذا يُـرْغَـب!
يَـرى أن ذنـبـيَ حُـبـي لـهُ — بعيْشـك قـل لي؛ مَنِ المـذنب؟
ولـسـت بـسـالٍ كـمـا يَـدَّعي — ولا مـنْ حـديـد كمـا يـحسبُ
إذا كـنـت أرْضـى بـمـا شـاءهُ — فـيـا رب مـا بـالـه يـغـضـبُ؟
إذا كـان قـلبي جنى مـا جنى — فـيـا لهـفَ نفسـي مَـنْ أطلب؟
وإن كـان هـذا بحكـمِ القَـضـا — فـيـا لـيت شعـري مَـنْ أعتب؟

قـال : « ومن حسن مـا قيـل في وصف الجيش والخيـل والسـلاح قولي »:

وكـتـيـبـة بـالـدار عـيـن كـثـيـفـة — جـرت خـيـولَ الـجـحـفْـل الـجـرار
روضُ المنـايـا قُـضْبـهـا السمـر التي — مـن فـوقـهـا الـرايـات كـالأزهـار
فيـهـا الـكـمـاةُ بـنـو الكـمـاةِ كـأنـهـم — أُسْـدُ الـشَّـرى بـيـن الـقـنـا الـخـطَّار
مـتـهـللـيـن لـدى الـصـيـاح كـأنـمـا — خُـلـقَـتْ وجـوهـهـمُ مـن الأقـمـار
مـن كـل لـيـث فـوق بـرق خـاطـف — بـيـمـيـنـهِ قَـدَرٌ مـن الأقـدار
مـن كـلِّ مـاض يـنـتـضـيـه مـثـلهُ — فـيـصُـبُّ آجـالاً عـلى الأعـمـار
لبسـوا القلوب على الـدروع وأشـرعـوا — بـأكـفـهـم نـاراً لأهْـل الـنـار
وتـقـدمـوا ولـهـم عـلى أعـدائـهـمْ — حـنـقُ الـعـدا وحـمـيّـة الأنـصـار
فـارتـاع نـاقـوسٌ لـخـلـع لـسـانـه — وبـكـى الـصـلـيـب لـذلـة الـكـفـار
ثـم انـثـنـوا عـنـه وعـن عُـبّـاده — وقـد اصبـحـوا خبـراً مـن الأخبـار!

الشيخ صالح بن الشيخ زين الدين بن ابراهيم بن صقر بن ابراهيم بن داغر بن رمضان بن راشد بن دهيم بن شمروخ بن صولة آل صقر المطيرفي الاحسائي المتوفى سنة ١٢٤٠ شقيق الشيخ أحمد الاحسائي (مؤسس الفرقة الشيخية) .

كـان من علماء عصـره فقيه اصـولي نحريـر . ولد في الأحسـاء وأخذ المقدمات على جملة من أهـل الفضل هنـاك ثم هاجـر الى كربـلاء وأدرك آغا باقر البهبهاني الحائري وتخرج على السيد علي صاحب الرياض ورجع الى موطنه الاحساء ثم انتقل الى ايران في أيام رئاسة شقيقه الشيخ احمد الاحسائي صاحب الدعوة الشيخية فسكن قزوين ثم انتقل الى كرمانشاه وكان ينكر على أخيه طريقته أشد الانكار ، ذكره شيخنا الاستاذ آغا بزرك الطهراني في الكرام البررة ووصفه (. . . فاضل جليل وعالم كامل تقدم الكلام على شقيقه العلامة الشهير الشيخ احمد بن زين الدين الاحسائي . . . . والمترجم له كان من أهل العلم والفضل والصلاح ولم اقف على تاريخ وفاته) وشارك المترجم له في مجلس مناظرة اخيه الشيخ احمـد الاحسائي فـوقف بجانب علماء المتشرعة مخالفاً لاخيه وأعقب ولداً هو الشيخ علي الاحسائي وكـان مقيم في كرمانشاه واسس مكتبة نفيسة هناك[١] .

الشيخ صدر الدين محمد بن ابي القاسم التنكابني .
ولد حدود ١٢١٥ وتوفي قبل ١٢٨٧ .

ولد في تنكابن وتعلم المقدمات والسطوح بها ثم ذهب الى اصفهان وحضر في الفقه والأصول على السيد محمد باقر الشفتي وابنه السيد اسد الله وفي الفلسفة على المولى علي النوري ثم عاد الى موطنه واشتغل بالتدريس والتأليف قال عنه السيد اسماعيل التنكابني في كتاب نظرة الناظرين : كان اديباً فاضلاً متكلماً حكيماً ماهراً في الفقه والأصول حسن الخلق بصيراً في امر الدين والدنيا . . . اقـول : رأيت بعض الرسائل من تـأليفاتـه في الفقه والأصول ألفها سنة ١٢٤٥ في تنكابن .

انجب عدة أولاد منهم الشيخ فضل الله والشيخ محمد المعروف بالشيخ الكبير، كانا من علماء تنكابن [٢].

الشيخ ملا صفر علي اللاهيجاني القزويني .
المتوفى حدود سنة ١٢٧٥ . مر ذكره في الصفحة ٣٨٩ من المجلد السابع .

كـان من فلاسفـة الشيعة في القـرن الثالث عشـر الهجري فقيـه متبحر واصولي محقق وحكيم متأله .

أخذ المقدمات والسطوح على علماء لاهيجان ثم هاجر الى اصفهـان فأخذ الحكمـة والفلسفة عن مـلا علي النوري المتـوفىٰ سنة ١٢٤٦ والفقـه والاصول عن السيد محمد باقـر الاصفهاني ثم هـاجر الى كـربلاء فـالتحق بحـوزة السيد محمـد المجاهـد وحضر معـه في الجهـاد سنة ١٢٤٢ وعند رجوعه سكن في قزوين وتخرج في الفقه والأصول على الشيخ محمد صالح البرغاني وشقيقه الشهيد وأجيز منهما وحضر في الفلسفة والعرفان على الشيخ ملا آغا الحكمي القزويني ثم جلس للتدريس في المدرسة الصالحية بأمر من استاذه المؤسس البرغاني وكان من فحول مدرسي الحكمة العاليـة والفلسفة الإلهيـة في عصره وكـان من رواد مدرسـة صدر المتـألهين الشيـرازي . لـه مؤلفات منها :

١ ـ كتاب شرح المعالم في الأصول .
٢ ـ كتاب في علم الاصول في مجلدات عديدة .ـ
٣ ـ رسالة في الدراية .
٤ ـ كتاب في الفقه من الطهارات الى الديات في مجلدات .
٥ ـ رسالة في العرفان .
٦ ـ حواشي على الأسفار .

وهـو والد الشيـخ احمد والشيـخ حسين المذكـورين في المآثـر والآثار ص ١٦٥ وأما ولده الثالث وهو الشيخ محمد حسن المتوفى سنة ١٣٤٥ عن عمر طويـل فكان من العلمـاء في مازنـدران والمعروف بـالشيخ الكبيـر من مراجع التقليد هناك .

ذكر المترجم له المستشرق كنت دوكوبينو في كتابه (المذاهب والفلسفة في آسيا الوسطى) معبراً عنه بأنـه من فحول الفـلاسفة في القـرن الثالث عشر[٣]وذكر المترجم له تلميذه الميرزا محمـد التنكابني في كتـابه قصص العلمـاء ص ٦٤ الطبعـة الحجريـة وذكـره أيضـاً شيخنـا في الكـرام البـررة

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٢) الشيخ محمد السمامي .
(٣) انظر كنت دوكوبينو مذاهب وفلسفة درآسياي مركزي الترجمة الفارسية ص ٨٤ .

ج ٢ ص ٦٧٢ [1].

الميرزا طاهر بن فرج الله التنكابني .

ولد في ١٨ رمضان ١٢٨٠ وتوفي في ١٣٦٠ .

ولد في ضواحي تنكابن ونشأ بها ثم أخذ المقدمات والسطوح في مدارسها وبعد ذلك هاجر الى طهران وانصرف الى تحصيل الفلسفة وحضر على الآغا علي المدرس الزنوزي والمولى محمد رضا القمشة اي والميرزا أبو الحسن الجلوة واختص بالأخير حتى برع بذلك وفي نفس الوقت اشتغل بتعلم الحساب والهندسة والعلوم الفلكية ثم انصرف الى التدريس وكان يدرس في مدرسة قنبر علي خان ومدرسة سپه سالار ـ وانتخب نائباً في البرلمان الايراني عن طهران وفي الحرب العالمية الاولى في سنة ١٣٣٤ ذهب الى قم ثم الى بروجرد ومن هناك ذهب الى العتبات المقدسة في العراق وبقي بها مدة وفي سنة ١٣٣٦ رجع الى طهران وانتخب نائباً من قبل الحزب الديمقراطي .

ثم انصرف عن السياسة واشتغل بالتدريس والتأليف الى أن توفي في طهران ودفن بقرب قبر استاذه الميرزا أبي الحسن الجلوة .

له مؤلفات في الفلسفة [2].

الشيخ ابو المظفر عامر بن عامر البصري .

المتوفى بعد سنة ٧٣١

كان من العرفاء المتألهين في القرن الثامن الهجري وفحول شعراء الشيعة ومن أقطاب الصوفية ذكره العسقلاني في الدرر الكامنة ج ٣ ص ١ قال (عامر بن عامر البصري ، رأيت له تصنيفاً في التصوف ذكر أنه الفه سنة ٧٣١) وقال شيخنا آغا بزرك الطهراني في الحقائق الراهنة ص ١٠٥ (عامر بن عامر البصري العارف الصوفي ناظم قصيدة « ذات الأنوار » التي نظمها في ٧٣١ المطبوعة بتحقيق عبد القادر المغربي وهي في اثني عشر نوراً ، التاسع منها في صاحب الزمان ورأيت نسختها في احدى مجموعات سليمان بن عبد الله الماحوزي عليها حواش بخط سليمان . ونسخة ضمن مجموعة بياضية عند ابراهيم الكازروني المتوفى بمدرسة قوام بالنجف ١٣٦٥ ...) .

اقول : وعندنا نسخة مؤرخة سنة ٨٤٣ منسوخة عن نسخة خط المؤلف في خمسماية وستة أبيات نظمها في سنة ٧٣١ هجرية في مدينة سيواس من مقاطعة ارمنستان وهي قصيدة تائية مرتبة على اثني عشر نوراً وسماها (ذات الأنوار) فيها مواضيع عرفانية من المبدأ الى المعاد ومعرفة الروح والنفس وخواصها والعقل والهيولى وفي النور التاسع استنهض الامام الحجة (ع) بعد مدحه بقوله :

امام الهدى حتى متى انت غائب   فمنّ علينا يا ابانا بأوبة

ذكره شيخنا آغا بزرك الطهراني في الذريعة ج ١٠ ص ١ والقسم الثاني من الجزء التاسع ص ٦٧٧ وبعض ابيات من أولها :

تجلى لي المحبوب في كل وجهة   فشاهدته في كل معنى وصورة

واني لمهد من علومي طرائفاً   لأتحف منها اهل ودي بتحفة

وقال في بعض شعره أنها عراقية بصرية عامرية أنشدها في بلاد الغربة بسيواس من ارض أرمينية قائلاً في تعداد ابياتها وتاريخها :

وليست اذا عددتها بطويلة   يمل بها الراوي ولا بقصيرة

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) الشيخ محمد السمامي .

ثم انها طبعت في دمشق سنة ١٣٦٧ هجرية وعليها تعليقات الشيخ (عبد القادر المغربي وثبت الاستاذ عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ج ٥ ص ٥٤ سنة وفاته ٦٩٦ هجرية ١٢٩٧ م وهذا تناقض مع عام التأليف ونسخة خط المؤلف وباقي النسخ الموجودة في العراق [1].

عبادة بن الصامت .

احد النقباء ليلة العقبة ومن أعيان البدريين وشهد المشاهد كلها مع رسول الله (ص) .

روى الذهبي في (سير اعلام النبلاء) ان عبادة أنكر على معاوية شيئاً ، فقال : لا اساكنك بأرض، فرحل الى المدينة . قال له عمر : ما أقدمك ؟ فأخبره بفعل معاوية ، فقال له ارحل الى مكانك ، فقبح الله ارضاً لست فيها وامثالك ، فلا أمرة له عليك .

وكان عبادة مع معاوية ، فأذّن يوماً ، فقام خطيب يمدح معاوية ويثني عليه ، فقام عبادة بتراب في يده فحشاه في فم الخطيب، فغضب معاوية . فقال له عبادة : انك لم تكن معنا حين بايعنا رسول الله (ص) بالعقبة على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ومكسلنا ، وأثَرة علينا ، وان لا ننازع الأمر اهله ، وان نقوم بالحق حيث كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم . وقال رسول الله اذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في افواههم التراب .

كتب معاوية الى عثمان : ان عبادة قد أفسد عليّ الشام وأهله ، فأما أن تكفه اليك وإما ان اخلّي بينه وبين الشام .

فكتب اليه : أن رحّل عبادة حتى ترجعه الى داره بالمدينة . فدخل على عثمان فلم يفجأ إلا به وهو معه في الدار ، فالتفت اليه ، فقال : يا عبادة ما لنا ولك ؟ فقام عبادة بين ظهراني الناس، فقال: سمعت رسول الله (ص) يقول : سيلي اموركم بعدي رجال يعرفونكم ما تنكرون ، وينكرون عليكم ما تعرفون ، فلا طاعة لمن عصى ولا تضلوا بربكم .

قيل مات بالرملة سنة ٣٤ وهو ابن اثنتين وسبعين سنة ، وقيل انه بقي حتى توفي زمن معاوية في خلافته ، وقيل ان قبره في القدس .

أبو سعيد عباد بن يعقوب الدواجني الكوفي .

مرت ترجمته في الصفحة ٤١٠ من المجلد التاسع ، ونزيد عليها هنا ما ذكره عنه الذهبي في (سير اعلام النبلاء) :

الشيخ العالم الصدوق، محدث الشيعة . ثم يصفه بالمبتدع . وروى آراء الرواة فيه فقال : ان الحاكم قال : كان ابن خزيمة يقول: حدثنا الثقة في روايته ، المتهم في دينه ، عباد بن يعقوب . وقال ابن عدي: فيه غلو في التشيع ، وروى عبدان عن ثقة أن عباداً كان يشتم السلف . وقال ابن عدي: روى مناكير في الفضائل والمثالب . وروى علي بن محمد الحبيبي عن صالح جزرة ، قال : كان عباد يشتم عثمان رضي الله عنه ، وسمعته يقول : الله اعدل من ان يدخل طلحة والزبير الجنة ، قاتلا علياً بعد ان بايعاه . وقال ابن جرير: سمعته يقول : من لم يبرأ في صلاته كل يوم من اعداء آل محمد، حشر معهم .

وعلق الذهبي على الكلام الأخيربقوله : قلت : هذا مبدأ الرفض ، بل نكف ونستغفر للأمة ، وما ادري كيف تسمحوا في الأخذ عمن هذا حاله ،

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

وانما وثقوا بصدقه .

ثم قال الذهبي : وقع لي من عواليه في البعث لابن ابي داود . ورأيت له جزءاً من كتاب (المناقب) جمع فيه اشياء ساقطة ، قد اغنى الله أهل البيت عنها ، وما اعتقده يتعمد الكذب .

الشيخ عباس بن محمد الفيض القمي .

ولد في ١٣٢٧ توفي ١٣٩٣

ولد في قم ونشأ بها وبعد أن اتم السطوح حضر بحث والده والشيخ عبد الكريم الحائري والسيد البروجردي ، له مؤلفات عديدة في التاريخ والتراجم ـ منها (كنجينه آثار تاريخي قم) في مجلدين كبيرين طبع في حياته .

توفي في قم ودفن في مقبرة شيماك[1] .

عباس أبو الطوس ابن مهدي .

ولد في كربلاء سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣٠ م) وتوفي سنة ١٩٥٨ م في كربلاء تعلم القراءة والكتابة في كتاتيب كربلاء ثم درس كتب النحو القديمة المعروفة ومال الى مطالعة الادب القديم وكتب التاريخ الاسلامي وحفظ مقداراً كبيراً من نهج البلاغة وعشرات القصائد الشعرية ثم قصد النجف الأشرف فبقي فيها سنتين يتابع الدراسة في الحلقات العلمية ، ثم عاد الى كربلاء . وفيها كان ينشد قصائده في حفلاتها .

وفي احداث سنة ١٩٥٢ اعتقل مع من اعتقلوا وسجن في بغداد والكوت طيلة سنة ونصف السنة .

شعره

ترك عدة دواوين شعرية باسم (هدير الشلال) و(أغاني الشباب) و(النشيد الظافر) وهذا الأخير في آل البيت عليهم السلام . وكلها لا تزال مخطوطة . فمن شعره قوله :

أحبابنا أنا ها هنا ما بين جدران السجون
تهتاجني الذكرى وتعصف في دمي ريح الشجون
ويثير في قلبي الهموم طلاقة الماضي الدفين
أيام كان الحب يجمع شملنا في كل حين
وملاعب الصبوات تهدينا لذاذات السنين
نقتاف آثار المباهج واللذائذ في حنين
احبابنا انا ها هنا

وقوله من قصيدة في احدى المناسبات الوطنية :

ثر على الظلم ولا تخش اليراعا ... واملأ الدنيا نضالا وصراعا
وأمط عنك قيوداً طوقت ... جسمك الحي وتأبى الانخلاعا
وانطلق ناراً كما كنت اذا ... عربد الظالم خوفاً وارتياعا
هذه الأنفس لولاه لما ... أضحت اليوم عراة وجياعا
وحليف الكوخ لولاه لما ... عاش في الأرض غريباً ومضاعا

وقوله في أحداث سنة ١٩٥٢ وهو في السجن من قصيدة :

يا شباباً بذلوا ارواحهم ... في سبيل الحق والمجد وفاء
واستماتوا مذ رأوا اوطانهم ... تشتكي خسفاً وجوعاً وعراء
طلقوا الدنيا وساروا وحدة ... لم تخف ناراً ونكصاً وارتماء
البطولات، وما اعظمها ... حينما تعتام مجداً وعلاء
حينما تستامها سادرة ... لطغاة تتبنى الاعتداء
والرجولات ، وما اصلبها ... في الملمات ثباتاً . . واداء
والشعارات ، وما اجملها ... في الميادين رفيفاً واعتلاء
والهتافات وما اكبرها ... من فم الواثب تعتل ارتقاء

وقال عندما تأهب الجيش العراقي للذهاب الى فلسطين سنة ١٩٤٨ من قصيدة :

فلسطين تناديكم بنفسي ... تكاد تهد زفرتها الجبالا
وقلب لا يزال من البلايا ... ومن « صهيون » يلتهب اشتعالا
وتدعوكم لنصرتها فهبوا ... كما شاءت لنصرتها امتثالا
ولا تتطلبوا من كل رجس ... جواباً في الصراع ولا سؤالا
ولا تتريثوا فيما اضطلعتم ... به يا قوم صبراً وامتهالا

وقوله من قصيدة :

تعالي ، فقد عاد فصل الربيع ... يجد بأعراسه الوافيه
وبالعطر والنور ملء الفجاج ... بغدرانه الثرة الصافيه

* * *

تعالي الى باسقات النخيل ... وللحقل ضوّى عليه القمر
الى روضة قد كساها الربيع ... وصيرها فتنة للبشر
تعالي لندفن آلامنا ... ونحيى الهنا والليالي الغرر

وقوله :

يا ذكريات الحب والسمر ... وافاك ليل الصب فانتشري
ودعي الهموم تظل عالقة ... بسوانح الأحلام والفكر
وتجمعي حولي مهدهدة ... اشواق قلب ضج من كدر
وتدفقي كالسيل مرتطماً ... يجتاح ما استعصى من الستر
وتحشدي والليل يحضنني ... والنجم لماح على البشر
وطلاقة الماضي مرفرفة ... كرفيف حلم مشرق الصور

وقوله من قصيدة في ذكرى مولد علي عليه السلام وألقاها في احدى الحفلات التي كانت تقام في كربلاء في هذه المناسبة :

ولد الوصي فيا خواطر رددي ... نغم الهنا في مهرجان المولد
واستلهمي الذكرى قوافي ترتمي ... بأرق من روح الربيع وابرد
ثم اسكبي الشعر الجميل بشائراً ... غراً تفيض بصبوتي وتوددي
شعراً كما انتفض الأريج مرفرفاً ... فوق الجداول والغصون الميد
كأس الهوى بيدي فاضت رقة ... وعلى فمي نغم المحب المنشد
وصبا فؤادي للوصي وكيف لا ... يصبو المشوق الى الحبيب الأبعد

وقوله من قصيدة في ذكرى مولد الحسين عليه السلام :

ناجاك قلب بالصبابة مفعم ... وفم بغير ولاك لا يترنم
وهفا لمولدك المخلد شاعر ... من فيض حبك يستمد وينظم

ومن اخرى في نفس المناسبة :

لك في صراع البغي يوم اكبر ... ما زال يرويه النجيع الأحمر
يزهو على هام الزمان وينجلي ... من نوره ظلم الحياة وتدحر
وتعيده الأيام لحناً ثائراً ... ينساب في سمع الزمان ويهدر

وقوله من قصيدة جعل عنوانها الداء :

أأظل ابحث عن أمان بعثرتها النائبات
وسعادة سحقت لطافتها الليالي الغامضات

---

(١) الشيخ محمد السماوي .

ومـلاعـب عـصـف الـفـنـاء بـهـا وكـفـنـهـا الـمـمـات
لـم تـبـق غـيـر الـذكـريـات وهـل تـفـيـد الـذكـريـات

* * * *

كـم لـيلة قـد بـت مـنـطـويـاً عـلـى نـفـسـي الـسـجـيـنـه
اشـكـو هـمـومـي لـلـنـجـوم وحـر آلامـي الـدفـيـنـه
واصـب فـي سـمـع الـزمـان ارق انـغـامـي الـحـزيـنـه
وأحـن وجـداً كـلـمـا خـطـر الـنـسـيـم عـلـى الـمـديـنـه

الشاه عباس الكبير الصفوي.

(٩٩٦ - ١٠٣٨ هجرية)

كانت ولادة الشاه عباس الكبير في مدينة هرات في غرة شهر رمضان من سنة ٩٧٨ هجرية عندما كان والده محمد خدابندة والياً على هرات من قبل الشاه طهماسب ، ولما جلس على العرش في مدينة قزوين خلفاً لوالده كان عمره لم يتجاوز الثمانية عشر عاماً . وبالرغم من ان عباس ميرزا وبتحريض من المرشد قلي خان استاجلو وعلي قلي خان شاملو ادعى الملكية في خراسان حوالي عام ٩٨٢ هجرية الا انه وبعد المصالحة مع حمزة ميرزا في هرات انصرف عن هذا الادعاء مؤقتاً الى ان قُتل حمزة ميرزا ، وعاد عباس ميرزا الى قزوين وجلس على العرش الصفوي

ان الاضطرابات التي وقعت في نهاية عصر السلطان محمد خدابنده في جميع انحاء ايران وخاصة في الجانبين الشرقي والغربي من البلاد دفعت الجارين العدوين لايران اللذين كانا يضمران عداوة مذهبية للصفويين وهما الازبك والعثمانيون - دفعتهما للعدوان على ايران بحيث واجه الشاه عباس في بداية جلوسه على العرش مشاكل كبيرة من هذين العدوين .

القضاء على الازبك

عندما توجّه الشاه عباس من هرات الى قزوين ، قام ملك الازبك عبد الله خان الثاني (٩٩١ - ١٠٠٦ هجرية) وهو من أشهر خوانين الأزبك ومن الملوك الفاتحين في هذه الطائفة ، قام بالهجوم على هرات وبعد ستة أشهر قتل حاكمها من القزلباش واستولىٰ على المدينة . ولما كان الشاه عباس يواجه العثمانيين فقد اضطر لمصالحة أحد العدوين ومحاربة العدو الآخر وعلى هذا فقد تصالح مع العثمانيين وبعث بحيدر ميرزا وهو ابن اخيه حمزة ميرزا الى السلطان العثماني وقرر تسليم تبريز وشروان وكرجستان ولرستان يعني القسم الأكبر من غرب وشمال غرب إيران الى السلطان العثماني وتوجه هو الى مدينة (مشهد) للقضاء على عبد المؤمن خان بن عبد الله خان الذي كان يحاصر (مشهد) .

ولكنه مرض في طهران واستمر هذا المرض زهاء خمسين يوماً استولى خلالها عبد المؤمن خان على مدينة مشهد وقتل عدداً كبيراً من أهالي المدينة ونهب الأشياء الثمينة في الروضة الرضوية بما في ذلك مكتبتها الثمينة ثم استولىٰ على مدينتي نيشابور ودامغان وعين حكاماً في كل مكان .

ولما تحسنت صحة الشاه عباس ، انسحب عبد المؤمن خان من خراسان وبدأ الشاه عباس بتأديب المتمردين الداخليين الذين كانوا قد استغلوا فرصة مرضه ، واستولىٰ على يزد وكرمان وكيلان وقضىٰ فترة من الزمن في اصفهان وقراباغ للاستجمام وتدبير الأمور الداخلية ولم يبادر حتى سنة ١٠٠٦ هـ للقيام بأي تحرك للقضاء على الأزبك الذين كانوا يسطون دائماً على بلاد خراسان والعراق العجمي وينهبونهما ويعودون الى تركستان وكانت أوقات الشاه عباس تصرف للاستيلاء على بعض الولايات الايرانية التي لم تكن قد خضعت له بصورة كاملة كلرستان التي كانت حتى ذلك التاريخ في أيدي أتابك اللر الصغار وولايتي رستمدار وكجور اللتين كانتا خاضعتين للأمراء المحليين . وفي اواخر سنة ١٠٠٥ هجرية توجه الشاه عباس إلى (مشهد) وفي السادس من المحرم سنة ١٠٠٦ تغلب على ابن اخت عبد الله خان في هرات وهزّم الازبك هزيمة نكراء بحيث دفع شرهم من تلك الحدود لفترة طويلة من الزمن خاصة وأن عبد الله خان كان قد توفي حين ذاك وان ابنه عبد المؤمن خان قُتل على ايدي امرائه بعد ستة أشهر من وفاة ابيه .

فتح لار والبحرين في سنة ١٠٠٩

كان الشاه عباس قد سلّم حكومة فارس في سنة ١٠٠٣ الى الله وردي خان زركر باشي وكانت ولاية لار آنذاك بأيدي مجموعة من الخوانين المحليين الذين كانوا يدّعون ان نسبهم ينتهي الى كركين ببلاد بطل الشاهنامة المعروف وكانت موانىء تلك الولايات مثل ميناب وجَرون (محل بندر عباس حالياً) تحت امرة امراء هرمز إسماً ولكنها كانت تحت سلطة حكام هند البرتغال .

وكان البرتغاليون قد استولوا على جزيرة هرمز في سنة ٩١٢ هجرية واخضعوا امراء هذه الجزيرة الذين كانوا يدفعون الجزية الى ملوك ايران ، كما استولوا على عُمان ومسقط وبقية جزر الخليج . وفي سنة ٩٢٠ هـ ارسل الشاه اسماعيل مبعوثاً الى البوكرك حاكم هند البرتغال لمحاولة ايقاف تقدم البرتغاليين سلماً ، وفي الوقت نفسه كان الملك الصفوي يضغط على أمير هرمز ليجلبه الى صفه ويسلم له فتم له ذلك ، مما أثار حفيظة البوكرك فتوجه الى هرمز لتأديب اميرها . ولما كان البرتغاليون أسياد البحر بأساطيلهم ، وكان الشاه لا يملك قوة بحرية ، لذلك كان عاجزاً عن صدهم بحراً ومضطراً للتغاضي عن بعض تصرفاتهم في الخليج مما فسره أعداء الشاه وأصحاب الأغراض النحلية تحالفاً مع البرتغاليين . ونحن نسأل هؤلاء : هل كان السلطان سليم يحارب البرتغاليين في ذلك الوقت ليقال ان الشاه اسماعيل تحالف مع البرتغاليين عليه ، أم كان مشغولاً بمحاربة المسلمين ومهاجماً للصفويين في عقر دارهم ، تاركاً البرتغاليين يسرحون ويمرحون ، ويهاجمون المسلمين في بلادهم ويذلون أهلها .

ولو أن الشاه اسماعيل المعتدى عليه تحالف مع البرتغاليين وغير البرتغاليين لصد هجوم السلطان سليم على بلاده لكان تحالفه مشروعاً ، ومع ذلك لم يفعل ، وكانت المدفعية هي أهم ما ينقصه في معركة جالديران ، وبسبب فقدانها هزم جيشه ، فلو كان متحالفاً مع البرتغاليين لأمدوه بها على الأقل .

واننا نسأل مدعي التحالف ، هل التحالف هو مجرد كلام ، أم هو شيء عملي يمد به الحليف حليفه بالجيوش لتقاتل معه عدوه ، فاين هي الجيوش البرتغالية التي قاتلت العثمانيين مع الصفويين ، وأين هي الجيوش الصفوية التي قاتلتهم مع البرتغاليين ؟ !

بل اننا نسأل هل كانت هناك اصلاً حرب بين العثمانيين والبرتغاليين ، وهل كان السلطان سليم في وارد مقاتلتهم ، ام انه تركهم يقتحمون البلاد العربية بلداً بعد بلد دون أن يحاول التصدي لهم .

وعلى اي شيء يحالف الشاه اسماعيل البرتغاليين ، ما دام السلطان سليم مسالماً لهم معرضاً عن قتالهم ، تاركاً لهم يعيثون في البحر الأحمر وفي الخليج اي عيث .

لقد حاول الشاه اسماعيل صدهم فلم يقو على ذلك لافتقاده القوة البحرية فاحتلوا هرمز واستولوا سنة ٩٢٦ هـ على ساحل الاحساء والجزر المجاورة للبحرين لقد كان الشاه اسماعيل في احرج مواقفه ، فهناك ثورة

بلوجستان ، وهناك السلطان سليم المتقدم لمهاجمة بلاده . وهناك البرتغاليون

وفي سنة ١٠٠٩ قضىٰ الله وردى خان على خوانين لار الذين كانوا يقفون سداً امام اهالي فارس للاتصال بسواحل الخليج من الناحية الجنوبية الشرقية وكانوا يساعدون البرتغاليين . ثم ارسل جيشاً لاحتلال البحرين لانها كانت دائماً خاضعة لفارس فهجم البرتغاليون على البحرين ولكن الله وردى خان من اجل ان يخفف من ضغط البرتغاليين على البحرين هاجم ميناء جرون وبهذا التدبير تمكن أن يمنع البرتغاليين ثانية من السيطرة ثانية على البحرين واستولىٰ الصفويون على هذا المكان الذي كان اول مكان يحرره الصفويون من الهيمنة البرتغالية بعد قرن واحد .

الحرب مع العثمانيين

في سنة ١٠١١ هجرية استدعى الشاه عباس جيوشه من كل مكان وادعىٰ انه يعتزم السفر الى شيراز ثم توجه من اصفهان الى قزوين في طريقه الى مازندران وهنا علم مرافقوه ان الملك يعتزم الهجوم على آذربايجان وتحرير الولايات الشمالية الغربية والغربية من ايران التي كان قد سلمها في بداية حكومته الى العثمانيين اضطراراً . ففي البداية هاجم الشاه عباس بجيوشه المستعدة مدينة تبريز وفتحها في الخامس عشر من جمادى الاولى سنة ١٠١١ ومن هناك هاجم ايروان وفي نفس الوقت أمر الله وردى خان ان يهاجم بغداد عن طريق خوزستان . فتوجّه الله وردى خان الى بغداد وحاصرها الا انه استدعي الى ايروان بأمر من الملك قبل ان يفتح بغداد وتمكن الشاه عباس من فتح ايروان في بداية سنة ١٠١٣ ابدىٰ قائد الجيوش العثمانية في بغداد اوزون احمد جرأة ـ بعد أن توجه الله وردى خان من بغداد ـ فتقدم احمد الى مدينة همذان الا ان القادة الايرانيين اعتقلوه هناك ، أما الشاه عباس فقد أرسل الله وردى خان لفتح مدينة (وان) للقضاء على بقية جيوش الأتراك وأرسل قائداً آخر الى قارص وقد تمكن الاثنان من محاصرة هاتين المدينتين . فارسل السلطان العثماني قائده المعروف (جغال اوغلي) مع جيش كبير لتحرير المدينتين : وان وقارص الا ان الشاه عباس الذي كان في مدينة تبريز توجّه الى هناك ليمنع جغال اوغلي ولم يكن معه من الجيش سوىٰ ٦٢٠٠٠ رجل بينما كان أفراد جغال اوغلي يزيدون عن مائة الف .

فدبر الشاه عباس حيلة في هذه الحرب حيث قسم جيوشه الى قسمين . ففي البداية أمر قسماً من جيشه بالهجوم بقوة على جيش جغال اوغلي ، فتصور الأتراك أن هؤلاء يشكلون القسم الأكبر من الجيش الايراني ، لهذا جمعوا القسم الأكبر من جيوشهم لمحاربة الجيش الايراني ولما اشتد القتال بين الجانبين ، قام القسم الأعظم من جيش الشاه عباس والذي كان ينتظر مثل هذه الفرصة بالهجوم على الأتراك وقتلوا في هذه المعركة ما يقارب العشرين ألفاً من العثمانيين وانهزم جغال اوغلي . وبعد فترة قصيرة مات هماً وكان هذا الفتح الكبير في الرابع والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٠١٣ هجرية وفي السنة التالية استولى الشاه عباس على كنجه وتفليس وباكو ودربند وشروان وشماخي وديار بكر والموصل . وعاد الى قزوين في بداية سنة ١٠١٥ وكان قد استعاد من العثمانيين جميع الولايات التي كانوا قد سيطروا عليها وحقق فوزاً كبيراً وعظمة باهرة .

في سنة ١٠١٧ ارسل السلطان العثماني احمد خان وزيره الأعظم مراد باشا مع جيش آخر لمحاربة ايران وتمكن مراد باشا من السيطرة على تبريز بسهولة ولكنه تكبد هزيمة كبرىٰ في هذه المدينة وهرب الى الأراضي العثمانية واخيراً في سنة ١٠٢٠ هـ تصالح البلدان ايران والعثمانيون واعترفت الحكومة العثمانية رسمياً بسلطة ايران على الولايات الايرانية السابقة كما وافق الشاه عباس على أن يرسل في كل سنة مائتي حمل من الحرير الخام الى اسطنبول .

وفي سنة ١٠٢١ هـ وصلت انباء الى الشاه عباس تقول ان طهمورث خان الكَرجي وعدد من رجاله المسيحيين هاجموا حاكم قراباغ وقتلوه ، فتوجه الشاه عباس من اصفهان الى كرجستان ووصلها في نهاية هذه السنة فهرب طهمورث وكلما أراد الشاه عباس ان يكسبه اليه لم يتمكن بل ان طهمورث لجأ الى السلطان العثماني فقضى هذا اللجوء على السلام الذي كان قائماً بين ايران والعثمانيين .

وفي بداية سنة ١٠٢٤ لما سمع الشاه عباس ان طهمورث عاد ثانية الى كرجستان وهزَم حاكم الشاه عليها ، توجّه الى كرجستان فجرت مقتلة ذهب ضحيتها الألوف من اهالي كرجستان كما أُسر مائة وثلاثون الفاً منهم . ثم توجه الشاه الى تفليس في الخامس عشر من جمادى الثانية ومن هناك توجّه الى بحيرة كوكجه للقضاء على محمد باشا قائد السلطان احمد خان الذي كان في الوقت نفسه صدراً أعظم ، اذ كان قادماً لمساعدة طهمورث وتمكن محمد باشا من محاصرة ايروان ولكن جيوش الشاه عباس حاصرته وبعد أن قتل الجيش الايراني اربعة آلاف من جنود محمد باشا ، تصالح هذا مع ملك ايران ووعد ان يسعىٰ للمصالحة بين الدولتين حال وصوله الى اسطنبول .

وفي سنة ١٠٢٧ توفي السلطان احمد خان وجاء بعده مصطفى خان الأول الا ان هذا السلطان عُزل بعد سنة واحدة وجاء بعده عثمان خان الثاني . فارسل السلطان الجديد الصدر الأعظم خليل باشا مع جيش كبير الى تبريز مؤلف من ٦٠,٠٠٠ مقاتل ولكن قِرجغاي خان قائد قوات الشاه عباس هزم الجيش العثماني على مسافة ثلاثة فراسخ من كدوك شبلي وكان ذلك في سنة ١٠٢٧ هـ وأخذ قرجغاي خان الأسرىٰ العثمانيين وجاء بهم الى قزوين عند الشاه عباس، فعينه الملك حاكماً على آذربايجان .

وبعد هزيمة خليل باشا، وقع الجانبان في سنة ١٠٢٨ هـ معاهدة سلام بينهما وتقرر ان تكون الحدود بين البلدين هي الحدود التي كانت في عهد الشاه طهماسب وان ملك ايران يرسل كل عام مائة حملٍ من الحرير الخام الى السلطان العثماني .

وكانت آخر حروب الشاه عباس مع العثمانيين في الفترة من سنة ١٠٣٢ الى سنة ١٠٣٤ هـ وكانت من اجل الاستيلاء على بغداد .

ففي سنة ١٠٣٢ توجه الشاه عباس مع جيشه الى العراق وفتحه في الحادي والعشرين من ربيع الأول ثم استولى على العتبات المقدسة وذهب بنفسه لزيارتها وأمر بتعمير تلك البقاع المباركة .

وفي بداية سنة ١٠٣٣ هـ توجّه حافظ احمد باشا بأمر من السلطان مراد خان الرابع الى بغداد لاستعادتها وحاصر المدينة في التاسع من شهر صفر ، فأرسل الشاه عباس قائده زينل بيك شاملو الى بغداد وتمكن زينل بيك من ان يغلب حافظ احمد باشا وانهى الحصار المفروض على بغداد بعد سبعة اشهر وجاء الشاه عباس بنفسه الى بغداد في سنة ١٠٣٤ هـ ووقعت عدة معارك بينه وبين جيش حافظ احمد باشا حيث هزم هزيمة نكراء ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية حكومة الشاه عباس لم تقع اية حرب مهمة بين ايران والعثمانيين غير أن اعتداءات حكام الحدود العثمانيين على كرجستان وارمينيا كانت قائمة .

الاستيلاء على قشم وهرمز في سنة ١٠٣١ هـ

بعد ان فتحت القوات الايرانية جزيرة البحرين وحاصرت ميناء جرون

ارسل ملك اسبانيا فيليب الثالث وكان ملكاً على البرتغال آنـذاك سفيراً الى الشاه عباس مع هدايـا وتحف كثيرة وطلب منه أن يعيد البحـرين الى أفراد شركة هند البرتغال ويفك الحصار عن ميناء جُرون . فاستقبل الشاه عباس في سنة ١٠١١ هـ في مدينة مشهد مبعوث الملك فيليب فكانت مطالب المبعوث ان يُفك الحصار عن ميناء جرون وان يسلم الايرانيون جـزيرة البحـرين الى البرتغاليين ولكن الشاه عباس راوغهم فلم يحصل شيء من ذلك .

وفي سنة ١٠١٧ هـ ارسل فيليب الثالث سفيره السابق الى ايران مرة ثانية وشكى الى الشاه عباس من رفض استرداد البرتغاليين للبحرين فأرسل الشاه عباس ممثلاً عنـه مع السفيـر الأسباني الى ملك اسبـانيا ولكنـه تجاهـل في رسالته الى الملك الأسباني ذكر جزيرة البحرين فلم يتحدث عنها بشيء .

ومنذ سنة ١٠٠٩ حين احتلت ايران جزيرة البحرين، كـان البرتغـاليون يسعون باستمرار لاستعادة هـذه الجزيـرة الا ان القائـد الايراني الله وردى خان ادرك ذلك فكان يتعرض لميناء جرون والقلاع والموانيء الأخرى القريبة من هرمز ليشغل بذلك بال البرتغاليين . ومن اجل ان تكون له قلعة حصينة بالقرب من قلعة جرون الحصينة بادر بانشاء قلعة جديدة بالقرب من جرون اسماها القلعة العباسية .

وفي سنة ١٠٢١ هـ ارسل الله وردى خان ابنه امام قلي خان لـلاستيلاء على جرون ولكنه لم يحقق انتصاراً في ذلك الأمر وفي نفس السنة توفي الله وردى خان وخلف امام قلي خان اباه على حكومة فـارس. وفي سنة١٠٢٣ استولىٰ امام قلي خان على ميناء جرون وهدم القلعة البرتغـالية هنـاك وانشأ مكانها وبالقرب من القلعة العباسية ميناءً جـديداً اسمـاه ميناء عبـاس (بندر عباس حالياً) .

في سنة ١٠١٧ توجّه سفير فيليب الثـالث (انطونيـو دي كوفيـا)[1] مع (دنكيزبيك روملو) سفير الشاه عباس الى أوروبا في رحلة استطلاعية ، ربما كان القصد منها تسليح الجيش الايـراني ، ويبدو ان سفيـر الشاه مـع سفير فيليب تجاوز مـا كـان معهوداً بـه اليـه فلمـا عـاد الاثنـان الى ايـران سنة ١٠٢١ هـ، كانت معاملة الشاه عباس لدي كوفيا معاملة قاسية كما أمـر بقتل دنكيزبيك وقرر قطع أيدي البرتغاليين في الجزر والسواحل في الخليج حيث جاء هجوم امام قلي خان على جرون بعد هذا القرار .

وفي بداية سنة١٠٢٣ ارسل فيليب الثالث سفيراً جديداً الى ايران ووعد ايران بمساعدتها في هجومها على العثمانيين وطلب من الشاه عباس استعادة البحرين وجرون . ولكن الشاه عباس رفض ذلك رفضاً باتاً ، ورد على فيليب بأن جرون جزأ من ارض ايران وان جيشه مسيطر على البحـرين فلا يتخلى عنها وكان الشاه عباس آنذاك في مفاوضات تجارية مع مندوبين عن الشركة التجارية الانكليزية في الهند وكان على ثقة من وعود الشركة في مساعدته في المجال البحري، فلم يهتم بسفيـر فيليب الثالث وعـاد السفير صفـر اليدين وكان هذا الأمر بمثابة قطع العلاقات بين الفريقين .

وتمكنت سفن الشركة الهندية الشرقية الانكليزية سنة ١٠٣٠ هجرية من انزال هزيمة نكراء بالبرتغاليين في ميناء جاسك وكان هذا الحادث وهناً كبيراً للاسطول البحري البرتغالي في الخليج .

وفي هذه الأيام دخل امام قلي خان بأمر من الشاه عباس في المفاوضات مـع ممثلي الشركـة الانكليزيـة للحصول منهم على بعض السفن لمهـاجمة البـرتغاليين في جـزيرتي قشم وهـرموز . وطـوال سنة ظـل ممثلـو الشـركـة يرفضون قبول هذا الطلب لأنهم من جهة كانوا يخافون من مواجهة البرتغاليين في هرموز ومن جهة ثانية لما كانت العلاقات ودية بين فيليب الثـالث وملك انكلترا فان ممثلي الشركة لم يكونوايرغبون في القيام بأي شيء دون اذن من البلاط الانكليزي . وأخيراً هدد امام قلي خان الشركة بمصادرة ممتلكاتها في سواحل الخليج في حالة عدم استجابة طلبه . وفي النهاية عقد.ممثلو الشركة مع إمام قلي خان معاهدة في ميناب تقرربموجبها ان يهاجم الايـرانيون قشم وهرموز من البر ويهاجمها الانكليز من البحر وأن يتقاسما الغنائم بعـد الفتح وان يدفع الطرفان نفقات السفن والأسلحة النـارية بـالمناصفـة وأن الاسرىٰ المسلمين يسلمون الى ايران والأسرى المسيحيين يسلمون الى الانكليز عدا حاكم هرمـوز البرتغـالي الذي يجب تسليمـه الى ايران ، وأن تقسم مـوارد جمرك هرموز بين الجانبين وأن البضائع التي يستوردها الانكليز للشاه ولحاكم فارس تكون معفوة من دفع الضريبة الجمركية .

وبعد التوقيع على هذه الاتفاقية بدأ امام خان بالهجـوم على قشم وبعد الاستيلاء عليها منع ايصال المياه العذبة الى البرتغاليين في هرموز ثم حرّض حاكم عُمان على البرتغاليين .

بعد الاستيلاء على قشم وفتحهـا قامت القـوات الايرانيـة الانكليزيـة المتحدة بمحاصرة قلعة هرمز في ٢٧ ربيـع الثاني سنـة ١٠٣١ هـ واستولت قوات الجانبين عليها في العاشـر من جمادي الآخـرة وبعد فتـح هرمـز فقد البرتغاليون اكبر وأضخم قاعدة لهم في الخليج كانوا قد سيطروا عليها اكثـر من قرن كما اضمحلت سلالة امراء هرمز القديمة وهم الذين كانوا يحكمون منذ قرون هرموز القديمة (ميناب حالياً) وهرموز الجديدة (جزيـرة هرمـوز حالياً) وعلى سواحل موغستان وعُمان ، وكانوا فترة تحت امـرة ملوك ايران وتـارة اخرى تحت امـرة ملوك اسبـانيـا والبـرتغـال . وكـان ذلـك في سنـة ١٠٣١ هجرية .

بعد فتح قشم وهرمز، قرر القائد الايراني الصفـوي امام قلي خـان ان يـطرد البرتغـاليين من عمان ومسقط ويـريح المسلمين هنـاك من اعتـداءات البرتغاليين الوحشية القـاسية ولهذا دخل في المفاوضات مـع ممثلي شركـة الهند الشرقية للحصول على المسـاعدات الانكليـزية ، الا ان الانكليـز لما كانوا لم يستفيدوا من فتح هرموز شيئاً وكانوا يريدون تعويض الخسـائر التي لحقت بهم اقترحوا على امام قلي خان منحهم جزيرة هرموز ونصف الموارد الجمركية وأن يحق لهم ان تكون لهم اربع سفن حربية في الخليج . الا ان امام قلي خان رفض هذا الطلب لانه لم يكن يريد أن تقع هرموز مرة أخرى بـأيدي المستعمـرين وأن خـطة الاستيـلاء على مسقط وعمـان بـالـرغم من التمهيدات التي أعدهـا امام قلي خـان توقفت بسبب ضعف القـوة البحريـة الايرانية . ومن جانب آخر حاول البرتغـاليون كثيـراً استعادة هـرمز الا انهم فشلوا في ذلك فاضطروا لأن يتصالحوا مع الشاه عباس في سنة ١٠٣٤ وأن يتركوا جميع ممتلكاتهم للايرانيين . ولما كان الشاه عباس لا يرغب أن يفقد صداقة ملك اسبانيا والبرتغاليين نهائياً ليتمكن من أن يستفيد منهم في حالـة خصامه مع الانكليز ، فقد سمح للبـرتغاليين بصيـد اللؤلؤ في البحرين وأن يقيموا لانفسهم قلعة وداراً للتجارة في ميناء كنك شمال شرقي ميناء كنكه .

وفاة الشاه عباس

في السنة الأخيرة من حكمه أمر الشاه عباس امام قلي خان حاكم فارس ان يهجم هو وامراء خوزستان على البصرة وأن يستولوا على هذا الميناء عبر نهر دجلة وعربستان . وتوجه الشاه عباس بنفسه الى مازندران ، ولكن مرض الشاه ازداد في مازندران وتوفي في مدينة أشرف (بهشر حالياً) في ليلة الرابع والعشـرين من جمادى الأولى سنـة ١٠٣٨ هـ وكـان آنـذاك يبلغ من العمـر ٥٩ سنة وثمانية اشهر و٢٣ يوماً ونقل جثمانـه الى كاشـان ثم الى مدينـة قم حيث دفن فيها .

---

(١) Antonis de Gouvea

ولما بلغ خبر وفاة الشاه عباس الى امام قلي خان الذي كان يحاصر مدينة البصرة ترك الحصار وعاد الى اصفهان ليحظى بحضور الملك الجديد .

الشاه عباس الكبير هو لا شك اكبر ملوك ايران بعد الاسلام بسبب الاعمال العظيمة التي قام بها والفتوحات التي حققها والآثار الخيرة التي تركها وقد حكم إيران منذ ادعائه الحكم في خراسان ٤٩ سنة وبعد عزل والده ٤٣ سنة . وربما لا نجد من الملوك من هو في الصيت والشهرة بين عامة ابناء الشعب مثل الشاه عباس. ان الحكايات والاساطير التي يتناقلها الناس خير دليل على ذلك وان لقب الكبير الذي منحه الاوروبيون له لم يكن عبثاً .

لقد صدرت عن الشاه عباس في حياته بعض الأعمال التي تؤكد قسوته وعصبيته وعلى سبيل المثال قتله لابنه الأكبر صفي ميرزا في سنة ١٠٢٢ هـ لتصوره بانه سيثور عليه ثم هناك المجزرة التي ارتكبها في كرجستان وقتله لاصحابه ممن يتهمهم بأقل ذنب، ولكن رغم كل هذا فان الشاه عباس بغلبته على اعداء ايران القدامىٰ وحصوله على الانتصارات الباهرة في فتوحاته ، سعىٰ اكثر من أي ملك آخر لرفاهية العباد واعمار البلاد وانشاء الطرق وبناء الأبنية وما زالت آثاره الكثيرة باقية تذكر به في جميع ارجاء ايران .

لقد نقل الشاه عباس حوالي سنة ١٠٠٠ هـ عاصمة حكومة الصفويين من قزوين الى اصفهان وعادت هذه المدينة الى ازدهارها وعظمتها بعد أن كانت منسية منذ عهد السلاجقة وأمر الشاه رجاله ببناء القصور والمساجد وانشاء الطرق والبساتين . وفي سنة ١٠١١ أمر ببناء جهاربازار وميدان نقش جهان وفي سنة ١٠١٩ بادر بانشاء مسجد الشاه وبنىٰ عمارة عالي قابو لاقامته الشخصية كما اوجد البساتين الكثيرة على جانبي نهر زاينده رود وبنى القصور الأخرى وعدا اصفهان فقد بنىٰ الشاه عباس قصوراً كثيرة في مختلف انحاء ايران وخاصة في مازندران التي كان يذهب اليها دائماً للراحة والصيد ففي سنة ١٠٢٠ هـ أمر بانشاء ميناء فرح اباد وفي سنة ١٠٢١ أمر ببناء مدينة أشرف . وفي سنة ١٠٣١ أمر بانشاء الطريق الحجري في مازندران وطوله ٤٥ فرسخاً من فرح آباد الى خواري . كما أنشأ طريقاً أخرى في هذه الولاية من جاجرم في خراسان الى دشت مغان . وفي العراق ، أمر بانشاء نهر النجف ومقابر الأئمة وفي سنة ١٠١٧ وقف جميع ممتلكاته الخاصة على الأربعة عشر معصوماً كما أمر بتوزيع مواردها على السادة .

وفي سنة ١٠٢٨ طلب من امام خان ان يحفر قسماً من جبال زردكوه في بختياري التي ينبع منها نهر كارون وزاينده رود والتي كان الشاه طهماسب أمر بحفرها ، لتوزيع قسم من مياه كارون على اصفهان ، وقد باشر امام خان بذلك ولكنه لم يتمكن من اتمامه بسبب صعوبة العمل .

وقد أمر الشاه عباس بانشاء الخانات الكثيرة في مختلف الطرق في ايران حيث كان معروفاً بالسياحة والاستجمام وكان يذهب في كل عام لزيارة مدينة مشهد كما كان يذهب عادة الى اردبيل لزيارة مقبرة جده الشيخ صفي الدين ويقول عامة الناس ان الشاه عباس الكبير انشأ ٩٩٩ خاناً وهذا العدد يدل على كثرة الخانات التي انشأها .

وفي سنة ١٠٠٩ ذهب الشاه عباس لزيارة مشهد مشياً على الأقدام وامر بتعيين المسافة بين اصفهان ومشهد عن طريق الصحراء وبلغت هذه المسافة ١٩٩ فرسخاً .

وفي سنة ١٠١٧ لما ذهب الشاه عباس الى مدينة مراغة وشاهد هناك الآثار الباقية من مرصد هولاكو قرر تعمير ذلك المرصد ولهذا أرسل كلاً من الشيخ محمد بهاء الدين العاملي والملا جلال المنجم وعلي رضا الكاتب الى مراغة لاعداد المخططات اللازمة وعرض هؤلاء خريطة اعادة بناء المرصد على الشاه عباس ولكن لا يعرف لماذا اهمل هذا المشروع .

الشاه عباس وادارته للبلاد

بذل الشاه عباس ما في طاقته لاعمار البلاد واصلاح شؤون التجارة والجيش والزراعة واستخدم لهذا الأمر الخبراء الأجانب .

في سنة ١٠٠٦ وعندما كان الشاه عباس في خراسان للقضاء على الأزبك جاءت بعثة انكليزية مؤلفة من ثمانية وعشرين رجلاً بينهم خبير عسكري اسمه انطوني شرلي[١] ومعه اخوه روبرت[٢] وكان هدف البعثة الحصول على امتيازات تجارية . ومن المؤكد انه كان لها غايات سياسية ، فقدمت للشاه الهدايا والتحف واستقبلها هو بحفاوة في مدينة قزوين ثم اصطحبها معه الى اصفهان .

وفي اصفهان علم الشاه وقائد قواته (الله وردى خان) بأن في الوفد رجالاً يعرفون مختلف الفنون العسكرية وكيفية صناعة المدافع ، لهذا قرر الشاه والقائد اعداد جيش نظامي جديد على مثال الجيوش الاوروبية والاستعانة بالعسكريين الانكليز .

وكان الجيش الصفوي يتألف آنذاك من مجموعة من الخيالة من عشائر قزلباش وكانت هذه العشائر تطيع رؤساءها اكثر من اطاعتها للملك وكانوا يعملون حسب رغبتهم في عزل ونصب الملك والشاه عباس نفسه ثار بمساعدة هؤلاء على والده وتسلم السلطة .

وكان في ذهن الشاه اعداد جيش مطيع لأمره مباشرة ، فبادر في البداية الى تقليل عدد الخيالة من القزلباش الى ٣٠,٠٠٠ . ثم بمساعدة الأخوين (شرلي) أعد خيالة عسكرية مؤلفة من ١٠,٠٠٠ شخص وفريقاً من المشاة مؤلفاً من ٢٠,٠٠٠ كلهم مدربون وكانوا يقبضون الرواتب من الحكومة كما جهزهم بمدفعية فاعلة ، وسلم قيادتهم الى الله وردي خان .

ومن اجل أن يحافظ على حياته من الأخطار المحتملة التي قد تنجم من القزلباش فقد شكّل عشيرة جديدة من مختلف الطوائف اسماها (شاهيسون) اي انصار الشاه أو المحبين للشاه وكانت مهمة هذه العشيرة صيانة حياة الملك وقد دخل هؤلاء ضمن جيوش الملك .

وفي اواخر سنة ١٠٠٧ هجرية كان الشاه قد حقق تشكيل جيش حديث، ثم ارسل انطوني شرلي يرافقه حسين علي بيك بيات الى البلاطات الاوروبية لعقد اتفاقيات معها لبيع الحرير الايراني الذي كان آنذاك من البضائع الثمينة وحصل خلاف في الطريق الى أوروبا بين شرلي وحسين علي بيك وانفصل شرلي عنه وذهب الى اسبانيا لدى فيليب الثالث ولم يرجع الى ايران . وبعد رحلة طويلة وصل حسين علي بيك الى البلاط الاسباني وبعدما يقارب الأربع سنوات عاد الى ايران على ظهر السفينة التي خصصها له فيليب ملك اسبانيا . وفي هذا التاريخ بعث الملك الأسباني سفيره ديكوفا الى ايران ، كما ذكرنا من قبل ، وكان من الأمر ما اشرنا اليه فيما تقدم .

وعاد ديكوفا الى ايران في سنة ١٠١٧ ثم رجع الى اسبانيا يرافقه زنكيربيك سفيراً لايران في البلاط الاسباني وعاد زنكير بيك الى ايران في سنة ١٠٢١ وكما ذكرنا سابقاً ان هذه السفارات لم تسفر عن أي نتيجة حيث ان الشاه عباس لم يوافق على ان يستعيد البرتغاليون البحرين ، ففترت العلاقات ثم ادى هجوم الجيش الايراني على هرمز الى قطع المحادثات

---

(١) Antouy Sherluy Robert Sherluy[٢]

وقطع ايدي البرتغاليين اتباع فيليب الثالث عن جزر الخليج وسواحله .

وفي سنة ١٠١٦ لما لم يعد انطوني شرلي من أوروباالى ايران ولم تنجح مهمة حسين علي بيك بيات فقد ارسل الشاه عباس، روبرت شرلي الذي ابرز كفاءة عالية سفيراً عنه الى أوروباوفي سنة ١٠٢٠ حظي روبرت شرلي بمقابلة ملك انكلترا ولكن المفاوضات التجارية التي أجراها مع الملك الانكليزي باسم الشاه عباس لم تؤد الى نتيجة لعوامل عديدة اهمها تصادم المصالح الدولية المتناقضة .

واخيراً ، وبعد الكثير من المتاعب عاد روبرت شرلي الى اصفهان في سنة ١٠٢٤ .

وخلال هذه المدة ارسلت شركة الهند الشرقية الانكليزية سفيراً عنها الى ايران ليحصل من ملك ايران على ترخيص لبيع كميات من البضائع الانكليزية كانت الشركة قد ارسلتها الى الهند ولم ترج هناك وكانت لها اسواق في ايران . وتمكن السفير المذكور ان يحصل على هذا الترخيص بالرغم من معارضة روبرت شرلي لذلك ، فخصص الشاه عباس ميناء جاسك لاقامة التجار الانكليز وان تكون سوقاً لبضائع الشركة وبهذا فتح الشاه عباس المجال امام منافس قوي للتجار البرتغاليين في الخليج .

وعاد روبرت شرلي في سنة ١٠٢٤ مرة اخرى سفيراً من بلاط فيليب الثالث كما أن فيليب أرسل بدوره سفيراً آخر في سنة ١٠٢٣ الى ايران . وبقي روبرت شرلي في البرتغال حتىٰ سنة ١٠٣١ كما بقي سفير فيليب في ايران حتىٰ سنة ١٠٢٨ ولكن اي واحد منهما لم يحصل على النتيجة والغاية المرجوتين من مهمتهما كما أشرنا الى ذلك فيما تقدم (أهم مصادرنا في هذا البحث ما كتبه الأستاذ حسين بيرنيا) .

الصفويون والبرتغاليون

واتماماً لهذا البحث ننشر هنا الكلمة التي كتبها لنا السيد محمد تفرشي عن حقيقة العلاقات بين الصفويين والبرتغاليين :

بعد أن فتح السلطان محمد الفاتح مدينة القسطنطينية في سنة ٨٥٧ هجرية (١٤٥٣ ميلادية) ، قضى على امبراطورية روما الشرقية وأُغلق الطريق التجاري بين اوربا وآسيا عبر البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرىٰ والشام ، وبدأ تجار البندقية والتجار البرتغاليون الذين كانوا يستخدمون هذا الطريق في تجارتهم مع ايران والهند. بدؤوا مضطرين الى البحث عن طريق آخر للوصول الى الدول الآسيوية وخاصة الى الهند، فقد توجّه تجار جمهورية البندقية نحو ميناء الاسكندرية والبحر الأحمر، الّا ان حرص وطمع مماليك مصر وسوء معاملتهم والمشاكل الأخرى وقفت حاجزاً امام تجار البندقية ، وبعد فترة من الزمن توجّه البحار البرتغالي بارتلمي دياز نحو جنوب افريقيا ورأس الرجاء الصالح (التي كانت تسمىٰ آنذاك رأس العواصف) ومنها دخل الى المحيط الهندي وذلك في عام ٨٩٢ هجرية قمرية ـ ١٤٨٦ ميلادية) . وبعد اثني عشر عاماً وصل البحار البرتغالي الآخر المعروف فاسكو ديغاما الى الهند عبر ذلك الطريق ايضاً وذلك في سنة (٩٠٤ هجرية قمرية ـ ١٤٩٨ ميلادية) .

وفتحت رحلة فاسكو ديغاما طريقاً جديداً امام الحكومة البرتغالية للسيطرة على الهند ومناطق اخرىٰ من القارة الآسيوية مما جعل قوة الحكومة البرتغالية السياسية تزداد كثيراً . وفي سنة ٩١٢ هجرية ـ ١٥٠٦ ميلادية ارسلت الحكومة البرتغالية (آلبوكرك) مع عدد من السفن الحربية لاحتلال عدن وسواحل البحر الأحمر . ولما رأى آلفونس دو آلبوكرك ان قواته غير كافية لاحتلال عدن قرر الاستيلاء على جزيرة هرمز في مدخل الخليج الفارسي وبذلك يتمكن ان يفرض سيطرته على جميع خطوط الملاحة والتجارة في الخليج الفارسي . وبالرغم من مقاومة وصمود اهالي جزيرة هرمز وحكامها ، الا ان الحرب انتهت لصالح المستعمرين البرتغاليين بسبب استخدامهم المدافع والبنادق والأسلحة النارية الأخرى، وخضع حاكم جزيرة هرمز (ويدعى سيف الدين) للحكومة البرتغالية والتزم ان يدفع مبلغاً من المال جزية كل عام كما التزم باعفاء البضائع التي تصل من البرتغال من دفع الضرائب ، كما التزم ان لا يستلم المزيد من الضرائب من الاهالي بسبب شرائهم البضائع البرتغالية وان لا يسمح للسفن ان تدخل الخليج الفارسي او تخرج منه دون موافقة حاكم هرمز البرتغالي .

ان احتلال جزيرة هرمز من قبل البرتغاليين فتح ايديهم في الخليج الفارسي وكان تمهيداً للتماس بايران . حيث سيطر البرتغاليون منذ هذا التاريخ على الطرق التجارية لايران عبر مياه البحر ووصلت السفن البرتغالية الى اكثر الموانىء الجنوبية في ايران وموانىء الساحل الغربي حتى انها وصلت الى البصرة ايضاً. وقد خصص البرتغاليون تجارة الخليج الفارسي لأنفسهم .

وبعد فترة قصيرة من الزمن طلب الشاه اسماعيل الصفوي ملك ايران من حاكم هرمز ان يدفع له الضريبة السنوية الاعتيادية فاتصل حاكم هرمز مع آلبوكرك واستشاره في الأمر وكان جواب آلبوكرك هو اننا سيطرنا على هرمز بالقوة وان هذه المنطقة تعود الى ملك البرتغال ولا يحق لحاكم هرمز ان يدفع الضرائب الى أية حكومة أخرىٰ واذا فعل الحاكم غير هذا فسنسلم الجزيرة الى حاكم آخر لا ترهبه قوة الشاه اسماعيل الصفوي .

وبعد عودة آلبوكرك الى الهند، وصل الى هرمز سفير من قبل الشاه اسماعيل الصفوي لاستطلاع الأمر. ووافق حاكم جزيرة هرمز على التبعية لملك ايران . الّا ان آلبوكرك توجّه في سنة ٩٦٣ هجرية ـ ١٥١٥ ميلادية الى هرمز مع ٢٦ سفينة و٢٢٠٠ رجل مقاتل. وتزامناً مع هذا الحادث عمّت الفوضىٰ جزيرة هرمز مما دفع بآلبوكرك الى النزول بسرعة الى جزيرة هرمز حيث قضى على الفوضى هناك وافرج عن حاكم الجزيرة الذي كان الثوار قد اعتقلوه . وبعد فترة من الزمن جاء الى الجزيرة سفير من قبل الشاه اسماعيل الصفوي للتفاوض، ولكن وفاة الشاه اسماعيل حالت دون تنفيذ أي شيء .

وجلس الشاه طهماسب على العرش وكانت ايامه تصرف في دفع عادية غريمه القوي السلطان سليمان القانوني السلطان العثماني. ولم يهتم الشاه طهماسب الأول بشؤون الخليج الفارسي وجزيرة هرمز كثيراً .

وكانت العلاقات بين الحكومتين الايرانية والبرتغالية في عهد الشاه طهماسب الأول (٩٣٠ ـ ٩٨٤ هجرية ـ ١٥٢٤ ـ ١٥٧٦ ميلادية) طبيعية حسب الظاهر ولم تتوفر لدينا معلومات كاملة عن تلك العلاقات . الا ان المعروف ان دم سباستيان ملك البرتغال ارسل في سنة ٩٥٨ هجرية ١٥٥١ ميلادية وكذلك في سنة ٩٨٢ هجرية ـ ١٥٧٤ ميلادية سفيرين الى بلاط الشاه طهماسب الأول ومعهما هدايا وتحف كثيرة وذلك عبر طريق هرمز . وكان السفير البرتغالي الثاني من كبار الشخصيات في بلاده حيث وصل الى ايران في موكب كبير . الا ان الشاه طهماسب استقبل هذا السفير ببرود بسبب سوء معاملة السلطات البرتغالية في جزيرة هرمز لأهالي الجزيرة ولم يسمح للسفير البرتغالي وحاشيته التي كانت تتألف من خمسين شخصاً ان يعودوا الى بلادهم ما دام حياً ، ولم يعد هذا السفير وحاشيته الى بلادهم الا بعد وفاة الشاه طهماسب الأول وفي عهد السلطان محمد خدابنده والد الشاه عباس .

وفي سنة ٩٨٨ هجرية ـ ١٥٨٠ ميلادية وفي عهد السلطان محمد

خدابنده استولت اسبانيا على البرتغال·وظلت البرتغال خاضعة لاسبانيا فترة من الزمن ـ وبعد ان جلس الشاه عباس على العرش حاول اقامة علاقات ودية مع الدول الأوربية الكبرىٰ فارسل السفراء والرسائل الودية لتطوير العلاقات التجارية وعقد الاتفاقيات السياسية مع كبار ملوك اوربا كامبراطور المانيا وملك اسبانيا والبابا في روما وجمهورية البندقية وقيصر الروس وملك فرنسا وبولندا ولهذا السبب توسعت العلاقات بين ايران والدول الأوربية كثيراً في عهد الشاه عباس كما سافر الكثير من السفراء عن البلاط الايراني الى الدول الأوربية لعقد اتفاقيات سياسية وتجارية مع تلك الدول كما وان الكثير من السفراء من الدول الأوربية جاءوا الى البلاط الايراني .

وفي عهد فيليب الثاني ملك اسبانيا الذي كان ملكاً على البرتغال والمستعمرات البرتغالية ايضاً . طلب من ولي العهد في الهند أن يسافر الى ايران ويلتقي بالسلطان محمد خدابنده وبعد وفاة فيليب الثاني . طلب فيليب الثالث من ولي عهد الهند أن يفعل كذلك . وفي سنة ١٠١١ هجرية اجتمع ولي عهد الهند بالشاه عباس في مدينة مشهد . وطلب الشاه عباس من ولي عهد الهند والوفد المرافق له ان يلتزموا بعدم مساعدة اسبانيا للعثمانيين عليه في الخليج الفارسي ولما لم تكن هناك أية علاقات ودية بين الشاه عباس من جهة وبين البرتغال واسبانيا من جهة اخرى فقد توجه الشاه عباس مستغلاً الفرصة نحو الانكليز ضد البرتغال وأسبانيا. حيث ان ايران لم تكن تملك قوة بحرية قوية . ولهذا السبب كان الشاه عباس قد طلب من حاكم مقاطعة فارس ان يقوم بصورة غير مباشرة بايذاء البرتغاليين في منطقة الخليج الفارسي ليتمكن هو ان يطبق خطته بصورة كاملة . ولهذا قام حاكم مقاطعة فارس بالاعتداء على البحرين وعلى تحصينات وقلاع البرتغاليين العسكرية في الخليج الفارسي . فبعث الحاكم البرتغالي في الخليج الفارسي رسالة الى فيليب الثالث ملك اسبانيا واخبره بالأمر. فبعث ملك اسبانيا رسالة تهنئة الى الشاه عباس بسبب الانتصارات التي حققها في الحرب مع العثمانيين وطلب منه الانسحاب من المناطق التي احتلها في الخليج الفارسي .

وبعد هذه القضية وفي سنة ١٠١١ هجرية ـ ١٦٠٢ ميلادية دخل الشاه عباس في الحرب ضد اسبانيا وفي النهاية وبدعم من القوة البحرية الانكليزية تمكن الشاه عباس من طرد الاسبانيين من الأراضي الايرانية ومن مياه الخليج الفارسي .

ويظهر مما ذكرنا اعلاه ان ايران لا في عصر الشاه عباس خاصة ولا في عهد السلالة الصفوية عامة كانت لها اية معاهدات تحالفية مع اية دولة اوربية ، وان هذا الأمر لم يكن يخالف مسألة تطوير وتوثيق العلاقات بينها وبين الدول الأوربية . حيث ان جميع اهتمامات ايران بالنسبة لهذا الأمر هو تعزيز قدرتها وبنيتها السياسية والعسكرية ولهذا لم تكن ابداً عضوة في الاحلاف ضد العثمانيين في عهد من العهود فيما عدا المحاولة التي حاولها البرتغاليون في عهد الشاه اسماعيل والتي لم تسفر عن اي شيء عملي بسبب تصلب الشاه اسماعيل ومطامع البرتغاليين .

السيد عباس شبر بن محمد

ولد سنة ١٣٢٢ في البصرة وتوفي فيها سنة ١٣٩١ ودفن في النجف الأشرف .

من اسرة عريقة في العلم والادب يقطن فروعها في النجف والكاظمية والبصرة والكويت ، وهو من ابرز رجالها .

تولى القضاء الشرعي وتنقل في عمله هذا بين العمارة والبصرة وبغداد وظل فيه اثنتي عشرة سنة . له مجموعة شعرية مطبوعة باسم (جواهر وصور) .

قال يرثي الحسين عليه السلام :

يا باذلاً في سبيل الله مهجته ... وما حقاً كل تمويه وتأسيس
ومنقذاً شرف الاسلام من فئة ... يزيدها البغي تدنيساً لتدنيس
شرعت دستور اخلاص وتضحية ... في مجلس للهدى والحق تأسيسي
بعثت في الدين روحاً كان ازهقها ... جور الطغاة وارهاق الأباليس
ضربت رقماً قياسياً يحار له ... اهل الحساب واصحاب المقاييس
للمصلحين قواميس مخلّدة ... في الأرض واسمك عنوان القواميس
تقيم نهضتك الدنيا وتقعدها ... للحشر ما بين اكبار وتقديس
ناهيك من نهضة غص الزمان بها ... لما تضم وتحوي من نواميس
خلدتها فهي للأجيال مدرسة ... تناوح المجد في بحث وتدريس
في ذمة الدين ما ارخصت من مهج ... للدين سلن على السعر المداعيس
لولاك لاندثرت فينا معالمه ... فلم نجد غير ربع منه مطموس
بعداً لقوم يرون الدين قنطرة ... لما يسد فراغ البطن والكيس
باتوا يحوطون دنياهم بحيطته ... وهم على دخل منه وتدليس
رام ابن ميسون امراً دونه رصد ... اعيى اباه فاودى تحت كابوس
وكم سعىٰ جده مسعاة ذي حنق ... وجد لكن لجد منه معكوس
وكيف تطفىء نور الله زعنفة ... عار على العيس ان قلنا من العيس
لها فصول من التاريخ قد ملئت ... خزياً فكانت هناة في القراطيس
ان انتمت لقريش في ارومتها ... فخسة الطبع تنميها لأبليس
يحبى علاك وتخزى نفس مرتطم ... في حمأة الشرك والطغيان مركوس
هذا ضريحك كم حج الملوك له ... فاين قبر الخنا في أي ناووس
صلى عليك الذي اولاك منزلة ... دانت لعليائها علياء ادريس

وقال :

فجع الفضا بنهاره ... فبكى على انواره
فالافق مسعود الاديم ... ينوء في اكداره
صبغ الظلام له سرابيل الحداد بقاره

واما لذاك الروض جلله الدجىٰ بستاره
فتراجعت انفاسه حسراً الى ازهاره
حتى لقد عقد الكرى فيه لسان هزاره
فتخارست اطياره وغفت على اشجاره
والكون ساد به السكون فكان رمز وقاره
كم تحت هذا الليل من راض وكم من كاره
من موسر قد بات يدأب في حساب نضاره
او بائس يذري مدامعه على اطماره
او عاشق اصلى الغرام فؤاده في ناره
او فيلسوف يرتئي الآراء من افكاره
او راصد قد بات يرعى النجم في منظاره
او تاجر أبداً يجيل الفكر في اسعاره
او سارق متفكر في سلبه وفراره
او مدمن ضحى جميع عقاره لعقاره
أو أحمق قد بات مشغولاً بلعب قماره
أو ساقط سكب الحيا بفجوره وبعاره
او نازح يبكي لغربته وبعد مزاره
او فاقد نهس المصاب فؤاده بقراره
او مسقم امسى يهدده الردى ببواره
او عالم قد بات منحنياً على اسفاره
او كاتب سهر الدجى ليفوز في مضماره
او شاعر امسىٰ يذيع الهم في اشعاره
يبني بيوتاً عامرات والخراب بداره
روح التعاسة والشقاء ترف فوق جداره

وقال في مدح السيد علي ابن السيد عدنان الغريفي

حَجَرَ الكرىٰ تذكار حاجر عن مقلتي والذكر حاجر
او ترتجي الغمض الجفو ن وتبتغي النوم المحاجر
هيهات مالي والرقا د وان أبىٰ اللاحي المشاجر
فليلغطِ العذّالُ ول تكثر بتقريعي الزماجر

ويقول فيها في المديح :

الجُهْبُذِ الشهم اللبيب الاروع الندب العراعر
جم الفضائل من عليه في العُلىٰ تلوىٰ الخناصر
السيد السامي (عليّ) الانتما زاكي العناصر
نجل الذي قد كان للد ين المفدىٰ خير ناصر
غوث البلاد وغيثها ان عزّ في الاجداب ناصر
عنوان كل فضيلة غراء محمود الاواصر
فذٌّ تردّىٰ بالحجىٰ وعلى العلىٰ شدَّ المآزر
احيىٰ من العرفان وال آداب ما قد كان داثر
قسماً بمجدكم بني عدنان والنجرِ المناجر
ما ركّبت اقدامكم الا لأعواد المنابر
ما زلتم ترثونها من كابر ينمى لكابر
لا غرو ان جئتم بما بهر الاوائل والأواخر
وملكتم من ابحر الـ عرفان ارثاً كل زاخر
شرفٌ به قد خصَّ اهل البيت مثل الشمس ظاهر
هذا العلىٰ حقاً بهـ ـذا فليفاخر من يفاخر
واليكها بصرية يعنو لها اهل البصائر
نتجت بها الأفكار بكراً لم يصرها قط صائر

ومن شعره قوله :

لعمرك ما استخدمت للعيش عمتي ولم اتخذها قط احبولة الصيد
ولكنني جاريت قومي مقيداً فها هي في رأسي تشير الى قيد

وقوله :

ترفعت عن معروف حي وميت فكل حطامي منزل لابي وقف
فكم ليلة للغيث بت مهدداً أحاذر ان يهوي على صبيتي السقف

وكتب اليه السيد علي بن السيد عدنان الغريفي :

تحن الى نجد وقد يممت نجداً ذمول ابت الا السراب لها وردا
اذا استبقت للسير تحسب صارماً يسل على متن الربىٰ والدجىٰ غمدا
اذا هبّت النكباء كانت لها رداً وان ارخت الظلماء كانت لها بردا
تخال هلالاً ما ترى من نحولها ونجم الثريا في مقلدها عقدا
تؤلف بين الشرق والغرب ان سرت ذميلاً فلا غوراً تعاني ولا نجدا
تؤم رشأ بالبيض والسمر خادر وليس هما الا اللواحظ والقدا
اصادقه وداً فيعقبني جفاً واسأله وصلاً فيجبهني ردا
خليليَّ عوجا بارك الله فيكما على طلل عشنا به زمناً رغدا
اناخ بمغناه بكلكله البلا والبسه الاعصار ضافية حصدا
وعهدي به للغيد ملهى وللدمى مراح ولم يلو الزمان له وعدا
فما باله والوحش في عرصاته عكوف وقد ابدى له الدهر ما ابدىٰ

* * *

واسحم غربيب الجبين كأنما اعارته طولاً من ذوائبها سعدى
كأن به الشهب الدراري أسنة تمزّق من جسم الدجى بالسنا جلدا
كأنَّ سهيلاً حين يبدو ويختفي غريق ببحر الليل حيث طما مدا
كأنَّ الثريا كف عاف يمدها الىٰ كرم (العباس) مستجدياً رفدا
فتى اخجلت غر السحائب كفه كما قد غدا حر الكلام له عبدا
فتى شاد بيت المجد بعد انهدامه وشدَّ من العلياء حيث انثنت زندا
نماه الى المجد المؤثل هاشم فاكرم به نسلاً واكرم به جدا
اذا ما شكا العافون محلاً فكفه تجود ندى كالقطر حاشاه بل اندىٰ

وإمّا دجا ليل الضلال فرأيه
يضيىء هدى كالبدر حاشاه بل اهدىٰ
همام لو البدر استضاء بنوره
لما ناله خسف ولا فارق السعدا
له خلق كالروض باكره الحيا
تضوّع مسكاً لا خزامى ولا رندا
فيهدي لنا في كل يوم شقائقاً
سقاها من الاداب ماء ولا صدا
فتى عاقر العلياء قد نتجت به
وقد عقمت عن ان تجيىء له ندا
فيا ايها البحر العباب الذي طما
على الخلق الا انه سائغ وردا
الا فاعذرن صباً يروم ثناءكم
وهيهات ان يحصي ثناءكم عدا
فدم رافلاً في ملبس العز ما شدا
هزار وما هام الفؤاد بكم وجدا[1]

السيد عباس المعروف بالمدرسي آل الحاج السيد جوادي بن السيد حبيب بن السيد اسماعيل بن السيد عبد الجواد بن السيد حسين بن السيد ابراهيم بن السيد مير معصوم بن السيد مير فصيح بن السيد مير اوليا القزويني.

ولد في قزوين سنة١٣١٩ وتوفي يوم السابع من المحرم الحرام سنة ١٤٠٤ ودفن في مقبرة اسرته جنب روضة الشاه زاده حسين بن الامام الرضا عليه السلام .

آل الحاج السيد جوادي من الأسر العلمية العريقة في قزوين نبغ منها علماء اعلام بزغ بدرها في افق قزوين من القرن الحادي عشر للهجرة واشتهرت بآل الحاج السيد جوادي منذ عهد جدهم السيد عبد الجواد بن السيد حسين المتوفى سنة ١٢٧٨ أحد اعلام القرن الثالث عشر في قزوين وكان والده السيد حسين المتوفى سنة ١٢٠٨ شيخ السيد مهدي بحر العلوم وجده السيد ابراهيم المتوفى سنة ١١٤٥ . من اكابر علماء عصره .

اخذ المترجم له المقدمات على جملة من افاضل علماء قزوين ثم حضر السطوح على الشيخ ملا علي الطارمي وأخذ الحكمة والفلسفة عن الاخوند محمد علي الشاه آبادي البيرجندي ثم تخرج في الفقه والأصول والكلام على السيد موسى الزرابادي والسيد هبة الله التلاتري القزويني والشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي وغيرهم وحصل على اجازات اجتهاد من كبار علماء عصره كالسيد ابو الحسن الاصفهاني وقد ادركته في قزوين وكان من العلماء الاعلام وسادات المدرسين بها . من مؤلفاته كتاب (انوار نبوت) في تفسير القرآن فارسي يقع في ستة مجلدات طبع الجزء الأول منه الى آخر سورة النساء في ٣٧٩ سنة ١٤٠٣ ، وله تقريرات استاذه الحائري في الفقه والاصول[2] .

الحاجّ ميرزا عبّاس قلي صادق بور وجدي

المشتهر بواعظ جرندابي ولد بتبريز سنة ١٣١٥ وتوفي فيها سنة ١٣٨٦ تعلّم العلوم الدّينيّة عند الشّيخ علي الشّربيانّي [المتوفّى ٢ ذي القعدة ١٣٤٨ صاحب كتاب معرفة الأئمة [ط تبريز، ١٣٢٤ هـ] وخلاصة التّوحيد في الكلام لم يُطبع . ودرس الرياضيّات والأسطرلاب على الميرزا لطف علي إمام الجمعة [المتوفى عن حدود ٧٣ في ١٣٣٩] .

وقد أسّس الواعظ الجرندابي في سنة ١٣٣٦ هـ مدرسة جديدة سمّاها «الإرشاد» في راسته كوجه بتبريز كما في «تاريخ فرهنك آذربايجان ج ١ ص ١٧٠» وذلك في عهد رئاسة أبو القاسم فيرضات والدّكتور أعلم الملك ، وفي عهد محمّد علي تربيت ترك المدرسة هذه، وآشتغل بالتدريس في المدرسة الطّالبيّة القديمة فدرّس الرّياضيّات والمنطق، ثمّ في حدود ١٣٤١ أسّس عدّة من العلماء مدرسة «سرخاب وشتربان» وعيّنوا الجرندابيّ مديراً لها برعاية الحاجّ ميرزا صادق المجتهد التّبريزيّ وبعد مدّةٍ ترك هذه المدرسة وتفرغ للوعظ والخطابة .

وللمترجم له مكتبةٌ نفيسةٌ تحتوي على أكثر من عشرة آلاف مجلّد أهدى نفائسها والمخطوطات منها لمكتبة مشهد الرّضا (ع) وكان له مكاتبات مع العلماء كالسيد محسن الامين والشيخ محمّد جواد البلاغيّ والسيّد هبة الدّين الشّهرستانيّ والشّيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء ، والشّيخ آقا بزرك الطّهرانيّ وغيرهم .

وله من المؤلفات :

١ : **عظمت حسين بن علي (ع)** ط عدّة مرات .

٢ : زند كاني محمّد (ص) لتوماس كارلايل، طبع مع مقدّمة وحواش وتعاليقه ستّة مرّات بتبريز .

٣ : ذو ألقرنين وسدّ يأجوج ومأجوج ط تبريز .

٤ : أوائل المقالات ، للمفيد [٣٣٧ ـ ٤١٣ هـ] وشرح عقائد الصّدوق [مـ ٣٨١ هـ] مع تعاليق ومقدّمة له ط مرّات بتبريز وطهران .

٥ : وطبع له مقالات عديدة منها « السيّد جمال الدّين ورينان » في مجلّة « العرفان ، الأعداد : ٣ ، ٤ ، ٦ المجلّد ٤٦ منها ، ومجلّة « دعوت إسلامي » الفارسيّة بكرمانشاه .

٦ : مقدّمة كتاب باب الأبواب في ترجمة أحوال مؤلّفه ومترجم آلكتاب .

٧ : هشت مقاله . مطبوع[1].

الدكتور عبد الباقي كلبنارلي بن أحمد.
ولد سنة ١٣١٧ وتوفي سنة ١٤٠٣

هو من كبار رجال الفكر في تركيا ومن اشهر مؤرخيها ، طبع من مؤلفاته اكثر من مائة مجلد، فضلاً عما نشر من البحوث في المعارف الاسلامية والثقافة التركية والتحقيقات التاريخية ، وكان متمسكاً بآل البيت تمسكاً واعياً مدركاً لفضائلهم ادراكاً عميقاً، مدافعاً عن التشيع وحقائقه دفاع العالم المفكر المؤرخ المتثبت .

وقد تفانى في نشر آثار آل البيت واذاعة فضلهم بقلمه الساحر الأخاذ، فألف في ذلك الكتب ونشر المقالات في الجرائد والمجلات التركية في كل المناسبات الاسلامية .

كان ابوه (احمد آكاه) من اهل (كل بولاق) من توابع (كنجة) من مدن قفقاسيا، وقد استبدل المترجم باسم كل بولاق اسم كل بنار المتحد معه في المعنى لسهولة التلفظ بالاسم الاخير .

وقد هاجر ابوه الى تركيا وأقام مدة في مدينة (كارس) التي هي من اهم مراكز الشيعة ، ثم قدم اسطنبول وتزوج بالسيدة عالية التي هي الأخرى من المهاجرات. وكان المترجم يرى انه مدين لامه اكثر من ابيه ، اذ كانت من المثقفات العاليات الثقافة ، وفي الوقت نفسه من التقيات العابدات القليلات النظير .

(١) السيد علي العدناني الغريفي .
(٢) الصالحي .

(١) الشيخ ابو ذر بيدار.

ويقول المترجم : في اوائل نشوء الجمهورية التركية كنت استاذاً في جامعة « دار الفنون » في استنبول ، فقالت لي امي : يا عبد الباقي ! انك استاذ في جامعة دار الفنون ، وربما رأيت نفسك مضطراً من اجل الاحتفاظ بمنصبك ان تمدح اتاتورك ، وسأقول لك كلمة لم أقلها لك من قبل : وهي اني على الرغم من كل مشقة وكلفة ما ارضعتك يوماً الا مع الطهارة ، فلو انك قلت كلمة واحدة في مدح هذا الرجل الفاجر المتهتك لم اجعلك في حل من ارضاعي اياك .

مجمل سيرته

اكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة في استنبول ثم فوجىء بموت ابيه فاضطر للعمل فتولى التعليم متنقلاً في مدارس كل من : آلإجه ، وقونية ، وقيصري ، وقسطموني ، وبالي كثير ، واستنبول ، وكان الى جانب عمله في التعليم يوالي دراسته حتى نال شهادة الدكتوراه . فاشتغل في التدريس في جامعة أنقرة في كليات التاريخ والجغرافيا واللغات . وتقاعد سنة ١٩٤٩ فانكب على التأليف والتحقيق حتى فاقت مؤلفاته المائة ، كما نشر ما لا يحصى من المقالات في صحف استنبول والى جانب دراسته الجامعية فقد درس العلوم الاسلامية من فقه واصول وحديث وتفسير وتاريخ وكلام وفلسفة على اساتذة متخصصين امثال : يوسف افندي ، واسماعيل سعيد ، وفريد كام ، واحمد نائم ، وحسين فخر الدين ، والشيخ علي الخوئي .

مؤلفاته

(١) ـ تفسير القرآن (مخطوط) . (٢) شرح نهج البلاغة طبع في استنبول واعيد طبعه في مدينة قم ، (٣) ترجمة القرآن الى اللغة التركية . وتعتبر ترجمته هذه افضل الترجمات التركية ، وهي مقرونة بخلاصة التفاسير ، وذلك في مجلدين كبيرين طبعا مرتين في استنبول واعيد الطبع في مدينة قم ، (٤) تاريخ الاسلام ، وهو دراسة تحليلية مستوعبة ، طبع مرات في استنبول (٥) تاريخ الائمة الاثني عشر ، (مطبوع) (٦) امير المؤمنين عليه السلام وهو دراسة في حياة الامام وسيرته (مطبوع) ، (٧) التشيع عبر القرون ، دراسة تحليلية في تاريخ التشيع وعقائد الشيعة ، ورد عنيف على اعداء الشيعة فيما دسوا على الشيعة من التهم والافتراءات ، وجواب علمي تحقيقي على اعداء أهل البيت عبر القرون والاعصار . وهو مجلد ضخم مطبوع في استنبول وطهران . (٨) التصوف والمتصوفة (مطبوع) (٩) الملل والنحل في مائة سؤال . دراسة في الأديان والمذاهب (مطبوع) (١٠) فهرست الكتب المخطوطة . وهو فهرست مخطوطات مكتبته الخاصة التي اسسها في جنب مقبرة جلال الدين الرومي في قونية ، وهي مكتبة ضخمة فيها آلاف الكتب المخطوطة وعشرات آلاف الكتب المطبوعة . وفهرست المخطوطات في اربعة مجلدات ضخمة بالقطع الكبير . (١١) الاثنا عشرية . دراسة في التشيع منشور في دائرة المعارف التركية التي نشرتها جامعة استنبول (١٢) الحروفية . دراسة تحليلية عميقة في الحروفية وعقيدتهم التي ابتدعها فضل الله الحروفي واشاعها (النسيمي الشاعر) . والكتاب يحتوي على عقائدهم الباطلة وأقوالهم السخيفة ، مع اكثر من خمسين متن من متونهم بقلم الحروفي والنسيمي واتباعهما (مطبوع) (١٣) الملاحية . دراسة شاملة في الملاحية والملاحيون . (١٤) شرح المثنوي . شرح تحليلي لديوان جلال الدين الرومي في ستة مجلدات كبيرة ، طبع مرات في استنبول . (١٥) حياة مولانا جلال الدين . دراسة في حياة جلال الدين البلخي الرومي ، مطبوع في استنبول وقد ترجم الى اللغة الفارسية وطبع في طهران اثر وفاة المؤلف (١٦) ولاية نامه . دراسة في حياة حاجي بكداش ولي رئيس البكداشية (مطبوع) . (١٧) العلوية . دراسة جامعة في تاريخ العلويين والبكداشيين . (١٨) حياة الشيخ غالب وآثاره وأفكاره . (١٩) حياة يونس أمره : وهو الشاعر الشيعي الحماسي التركي وفيه دراسة عن حياته وأفكاره وأشعاره ومدى قيمة هذه الأشعار .

(٢٠) شرح ديوان يونس أمره : وهو شرح لقصائده وأفكاره وتأثير افكاره في الثقافة التركية ، وهو مطبوع اكثر من عشر مرات (٢١) النّيازي : حياته وأفكاره وآثاره . (٢٢) شرح ديوان فيه ما فيه في مجلدين . (٢٣) الرباعيات : شرح رباعيات جلال الدين الرومي (٢٤) المكتوبات : شرح مكتوبات جلال الدين الرومي . (٢٥) حياة السيد برهان الدين : وهو دراسة لحياة سيد برهان الدين الشاعر الشيعي المتحمس وأشعاره وأفكاره . (٢٦) حياة بدر الدين : وهو دراسة لحياة بدر الدين بن قاضي سيماونا وآثاره وافكاره . (٢٧) رباعيات عمر الخيام : وهو دراسة عن حياة عمر الخيام وشرح لرباعياته وقيمة آثاره وأفكاره ، ومدى قيمة الرباعيات المفتعلة المنسوبة اليه ، بالفارسية والتركية . (٢٨) المولّوية : وهو في شرح آداب المولوية واركانها لدى المولويين بعد جلال الدين الرومي (٢٩) فتوّت نامة : دراسة شاملة لسيرة اهل الفتوة ، والوثائق التاريخية المشتهرة بـ (فتوت نامه) .

هذا ما يحضرني الآن من اسماء مؤلفاته التي تفوق العشرات . وعدا مؤلفاته هو نفسه فقد نقل من العربية الى التركية الكتب الآتية : اصل الشيعة واصولها للشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، والأرض والتربة الحسينية له ، وسيرتنا وسنتنا للاميني ، وعبد الله بن سبأ للعسكري ، وعقائد الشيعة للمظفر ، وتوضيح المسائل وهي الرسالة العملية للسيد شريعة مداري ، ونظام الحكومة الاسلامية للسيد صادق الروحاني ، ومن هم الشيعة للسيد محمد الشيرازي ، والشهيد للشيخ مرتضى المطهري ، والمقالات الاسلامية للشيخ علي اكبر مهدي بور .

عبادته

كان مظهراً للأخلاق الاسلامية السامية ، عاملاً للاسلام مستوعباً للأحكام الشرعية كل الاستيعاب . وكان لا يفوته عمل المستحبات حسب ما يستطيع .

١ : ـ كان مواظباً على زيارة عاشوراء بالرغم من تراكم اشغاله ، فلم تفته زيارتها ابداً .

٢ : ـ كان مواظباً على الصوم في الأيام المباركة فلا يفوته صوم الأيام البيض ويوم الغدير ويوم المبعث ويوم ولادة الرسول (ص) والأئمة (ع) ، كما لا يفوته صوم اوائل الشهور واواسطها واوَاخرها .

٣ : ـ كان مواظباً على الاعتكاف في الأيام البيض (وهي اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من شهر رجب) ، وكان اعتكافه دائماً في مسجد اسكدار الواقع في محلة سيد احمد دره سي بجنب مقبرة الشيعة .

من مزاياه

١ : ـ كان مكباً على التحقيق والتأليف حتى في اسفاره ، فكان يحمل دائماً حقيبة صغيرة فيها كل ما يحتاجه من الكتب والأوراق والدفاتر .

٢ : ـ كان يكره مصطفى كمال لنزعته اللادينية ولاستبداله الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وكان يسمي الحروف اللاتينية : الحروف اللادينية . وكان اذا كتب يبدأ كتابته بالحروف العربية ثم يعيد كتابتها بالحروف اللاتينية ، وكان يقول : لا يسعفني قلبي وعقلي ، ولا يستقر تفكيري اذا كتبت بالحرف اللاتيني ، لذلك يجب ان أكتب بالحرف العربي ما يحتاج إلى ترو وتفكير وهدوء .

٣ : ـ كان من وصيته ان لا ينعى عند موته نعياً عاماً ، وكتب في الوصية اسماء جماعة من اصدقائه المخلصين في محبة اهل البيت وطلب إعلامهم

واعلام امثالهم بموته حتى يكون تشييعه مقتصراً عليهم ، ثم يعلنـون خبر موته بعد دفنه لجميع الناس.

ولما مات لم يشيعه الى قبره الا كل مخلص في محبة آل البيت ـ تنفيذاً لوصيته . ولما اذيع بعد ذلك خبر موته ظلت الصحافة التركية تكتب عنه طيلة اسابيع ، وانشغلت الاذاعة والتلفزيـون التركيين بـذكر تفـاصيل حيـاته وشرح آرائه وافكاره ودراساته اسبوعين[1].

السيد عبد الجواد.

ويقال جواد بن السيد حسين بن الأمير ابراهيم ويقال محمد ابراهيم بن الأمير محمد معصوم بن محمد فصيح بن اولياء الحسيني التبريزي الاصل والقزويني المولد والمنشأ توفي سنة ١٣٧٨ ودفن في مقبرة اسرته جنب روضة الشاه زادة حسين بن الامام الرضا عليه السلام.

أخذ المقدمات على جملة من فضلاء قزوين وتخرج على والده وسائر بني اعمامه وهو ابو اسرة جليلة في قزوين واسمه عنوان هذا البيت ويعرف اولاده واحفاده بـ آل الحاج السيد جوادي وكان له احد عشر ولداً من زوجاته الثلاث معظمهم علماء خمسة من بنت المولى السيد محمد المجاهد المتوفى سنة ١٢٤٢ وهم السيد علي والسيد اسماعيل والسيد علي نقي والسيد تقي والسيد محمد ومن بنت ركن الدولة علي نقي ميرزا ابن السلطان فتح علي الشاه القاجاري اربعة وهم السيد باقر والسيد علي اكبر والسيد ابراهيم والسيد مهدي ومن بنت نائب الصدر اثنان هما السيد حسين والسيد علي رضا ذكره في الكرام البررة مع بعض اضطراب في ذكر اولاده والصحيح ما اثبتناه هنا نقلاً عن شجرة هذه الاسرة في قزوين كـما ان آباءه ايضاً علماء اعـلام منهم والده السيد حسين بن الأمير ابراهيم المتـوفى سنة ١٢٠٨ وهـو شيخ السيد مهدي بحر العلوم كـما ان ام قرة العين آمنة خـانم من اسباط السيـد حسين المـذكور وجده السيـد الأمير ابـراهيم بن الأمير معصـوم المتـوفى سنة ١١٤٥ من علماء عصره والسيد الامير معصوم بن المير فصيح من علماء عصره وغيرهم من اساطين علماء الدين الذين نبغوا من هذه الأسرة ذكـره شيخنا آغا بزرك الطهراني في كتابه الكرام البررة قال : (. . . من اكابر العلماء كان والده الجليل من مشاهير عصره وكان شيخ اجازة السيـد مهدي بحـر العلوم توفي (١٢٠٨) والمترجم له من اجلاء علماء قزوين واعـاظمهم في عصره توفي بعد عمر طويل في (١٢٧٨) وهو ابو اسرة جليلة هناك لانه رزق اولاداً كثيرين اعقب منهم عشرة كلهم من زوجاته الثلاث . . .) اقول : لقد فتشت في مكتبته بقزوين وباقي المكتبات فلم اجد له مؤلفات او آثار[2]

الشيخ عبد الحسين الحويزي المعروف بالخياط ابن الشيخ عمران

توفي سنة ١٣٧٧ في كربلاء عن احدى وتسعين سنة ونقـل جثمانـه الى النجف حسب وصيته فدفن فيها .

مرت ترجمته في الصفحة ٤٤٩ من المجلد السابع ونزيد عليها هنا مـا يلي :

اصـل اسرتهم من قبيلة بني ليث ومن فخـذ يقال لـه البوقمـر يسكنون الحويزة وقد هاجـر جده الاعلى يـوسف بن احمد من الحـويزة الى العـراق فسكن قضاء عفك واشتغل بالزراعة وتـوفي سنة ١٢٤٧ فنقله ولـده حسين الى النجف ودفنه فيها وسكن بها ولم يعد الى عفك .

بعد اشتغال المترجم مع ابيه الخياط بخياطة الثياب عاد يطلب العلم فدرس على السيد محمد العاملي والشيخ هادي الطهراني والشيـخ عبـاس كـاشف الغـطاء. ثم انتقـل ابـوه من النجف فسكن بلدة (شفـاثـة) ثـلاث سنوات ، ثم انتقل الى كربلاء سنـة ١٣٣٥ فسكنها ومعـه ولده المترجم ، ومات والده في كربلاء وظل هو فيها .

وقد اشتهر المتـرجم بالشعـر فأكثـر من نظمـه ، وقد جـاء في ترجمتـه المنشورة مع ألفيته (فريدة البيان) ان له خمسة عشر ديواناً وفي كل ديوان عشرة آلاف بيت فيكون المجموع ١٥٠ ألف بيت .

وقد تعب في شيخوخته حيث عانى الفقر والمرض والوحدة، وانقـطاع الناس حتى الاصدقاء منهم عن زيارته ومواصلته .

وله ملحمة شعرية تزيد على الألفي البيت سماها : فريدة البيان في مدح النبي الاعظم وعترته الاطهار عليهم السلام . ويبدأ قبل الدخول في الغرض المقصود بوصف الابل وسيرهـا والصحراء وريـاحها والهـوادج التي تحملها الابـل والحور الحسـان اللواتي تقلهن الهوادج ، فينصـرف الى التغزل بهن على عادة الشعراء القدماء، ثم يلج موضوعه الاساسي فيشرع في سرد سيرة النبي (ص)وصفاته وكراماته،ثم مبعثه ورسالته وحروبه ومغـازيه ، ثم ينتقـل الى مدح امير المؤمنين عليـه السلام وبيـان فضله وبطولتـه وعلمه ، ويختم القصيدة باستشهاده ومدفنه .

وقد طبع الجزء الاول من ديوانه ويشتمل على حرفي الهمزة والباء واكثره في مدح الأئمة عليهم السلام .

واليك نموذجاً من الملحمة ، وهي في الواقع معارضة لملحمـة الشيخ كاظم الازري اذ جاءت على وزنها وقافيتها فمطلع قصيدة الازري هو :

لمن الشمس في قبـاب قبـاهـا ... شف جسم الـدجى بروح ضيـاهـا

يقول الحويزي فيما يقول :

لِمَنِ العِيسُ في البِـطاحِ بَـراهـا ... مِثـلَ بَرْيِ القِـداحِ جـذبُ بُـراهـا
حـائـراتٌ كـأنَّهـا سِرْبُ طَيْـرٍ ... حَسِبَتْ لُجَّةَ السَّـرابِ مِيـاهـا
وَبِهـا الآلُ في المَفـاوُزِ والـقَفْـرِ ... رِيـاضٌ تَـنَـشَّـقَـتْ رَيّـاهـا
تَـرْتَعي جَمْـرَةَ الهَـجِيـرِ غِـذَاءً ... فَيَقِيهَا عَنْ جُـوعِـهـا وَظَمـاهـا
سَبَقَتْ أَرْبَـعَ الـريـاحِ بِمَجْـرى ... أَرْبـعٍ وَارْتَـمَـتْ قَـصِـيَّ نَـواهـا
شَمْـألَ الـريـحِ بُكـرةً والنعـامى ... وعَـشِيّـاً جَـنـوبـهـا وَصَبـاهـا
ونَـواصي الآكـامِ في كـلِّ نَصٍّ ... مِن سُـراهـا طَيّ الفَـلاةِ فَـلاهـا
يعمـلات شقّت بـطونَ المـوانـي ... جـائـبـات بـطاحهـا وريـاهـا
سـاقـهـا للورودِ رجـعُ حنـينٍ ... من مَشـوقٍ حيثُ الـزفيرُ حَـداهـا
قـد أقلَّتْ هَـوادِجـاً زَيَّنـتـهـا ... من غـوانِ النقى وجـوه ميـاهـا
مـرحـاً تنثني وتهـوي مـراحـاً ... بشـرى وَجْـرةٍ ففـاقـت ظِبـاهـا
صـرعتنـا عيـونُ عِيـنٍ كعـابٍ ... أوْسَعَتْ طَعْنَـةَ القَنـا نَـجـلاهـا
وأرى أضْعَفَ الـجفـونِ فُـتـوراً ... حين تـرمي حَبَّ الحشا أقـواهـا
إنْ يُسـالِمْ لجيـرةِ الحيِّ قـلـبي ... فَلِحَـرْبِ الهَـوى هَـوى سَلْمـاهـا
وَأزَجُّ الحـواجبِ استـلَّ بيضـاً ... بز فيهـا مِنْ مُهجَتي سَـوْداهـا
وتَحَـلَّتْ طَـلاً وَزَفَّـت خـدوداً ... صانع الحُسْنِ عَسْجَدٌ قـد طَـلاهـا
وأسـالَـتْ دَمِي بِـخَـدٍّ أسيـلٍ ... فـوقَـهُ النـارُ مُهْجتي تَصْـلاهـا
بـالهَـوى قَـدْ تَعَـذَّرَ الصبـرُ مِنّي ... مـا رَعَتْني مِنَ الـدُمى عَـذْراهـا
كَسَـرَتْ جِفنَهـا لِتُـدْرِكَ فَتْحـاً ... مِـنْ قلوب العشاق في مَـغْـزاهـا
مُقْطَفٌ من خـدودِهـا الـوردُ لكن ... مُخْـطَفٌ بـالـورودِ ذُعـراً حَشـاهـا
طَـوقُهـا يُخْجِـلُ الهِـلالَ ويُـزري ... بـالثُرَيّـا مهمـا بَـدَتْ قُـرطـاهـا

ثم يقول في مديح النبي (ص) :

ذاكَ مَنْ أُعطي الـرسالـةَ قبْـلَ (م) ... الكَـوْنِ والـرُسْـلُ لَمْ تكُنْ تُعْـطاهـا
وبِـهِ اخْتُـصَّتِ الـنبـوَّةُ حقّـاً ... وعـلى الكـائـنـاتِ عَـمَّ وِلاهـا
عِـلمُـه أدركَ الـعَـوالِـمَ حتـى ... جـازَ مِنْ بَـدْئِهـا إلى منتهـاهـا

(١) الشيخ علي أكبر مهدي بور.
(٢) الصالحي.

وَجَرى بَحْرُ عَفْـوِهِ الغَمْرُ سَيْلاً ... فَجَلى عن بَني الليـالي غُثـاهـا
أَنْبَأَتْ بـاسمِهِ مِنَ الغَيْبِ صُحُفٌ ... صَدّقَ الكَونُ بـالهُدى أنبـاهـا
وبـلاهـوتِ هيكـلٍ قـد تَبـدّى ... والمعاني المقدّسـات إرْتـداهـا
وطـوى سـرُّه الـعـوالـمَ طُـرّاً ... وَحَـوَتْـهُ العُلى بـرادى طـواهـا
وبـه روضـةُ الـنبـوّةِ فـاحَـتْ ... عشق الـروحُ روحَها فـاجتلاهـا
أَجْمَـلَ العِلمَ في جـوارحِ جِسْمٍ ... فَصَّلَتْ حِكمةُ الهُدى أعضـاهـا
غَبَطَتْ مَجْدَهُ النجـومُ السَواري ... وبـمـعـنـاهُ وفقـتْ مَسْـراهـا
لـو بَـدا بـالسَنـا مُحيّـاهُ يخفي ... منه في أبْرُجِ السَمـا نَيِّـراهـا
كـلُّ أسمـائـه تـوسَّمْنَ حُسْنـاً ... زانَ مِنْ مَكْـرُمـاتِها حُسْنـاهـا
يَـدُه بَيَّضَتْ من البِيضِ وَجْهـاً ... إنّ خَيْـرَ الأيدي تَـرى بيضاهـا
سيّدٌ عِصْمَـةُ الـوَرى فيـه خُصَّتْ ... أمْسَـكَ المُرْسَلُونَ حَبْـلَ ولاهـا
حَـمَّلَتْـهُ يُمْنى النُبـوَّةِ أعْبـاءً ... ثِـقـالاً والْـبَـسَـتْـهُ عَـبـاهـا
كَمْ لَـه فُصِّلَتْ أحـاديثُ فَضْـلٍ ... سـالِفُ الـدَهْـرِ للقـرونِ رَواهـا

في مدح فاطمة الزهراء ـ عليها السلام ـ

مثـل زُهْـرِ النجـومِ أفعـالُـهُ الغُـرُّ ... أضـاء وبـنـتـه زهـراهـا
فـاطمٌ بِنتُ أحمدٍ سـادَتِ الخَلْقَ ... جميعـاً رجـالَهـا ونسـاهـا
صـاغها مِنْ سَبائِكِ المَجْدِ تِبْراً ... خـالصـاً يـومَ صُنْعِـهِ صَقّـاهـا
هي صِـدّيقـةُ الخليقـةِ جمعـاً ... ببهـاء الجليـلُ فضـلاً حَبـاهـا
وهي تُـدعى شَفيعَـةَ الخَلْقِ في الحشـرِ وما في المـلا شَفيـعٌ سِـواهـا
بضعـةٌ مِـنْ فؤادِ خَيْـرِ البَـرايـا ... وقـد اشْتُقَّ مِنْ حَشَـاهُ حَشَـاهـا
وأجتبى أُمَّهـا خـديجـةَ زَوْجـاً ... بَـذَلَتْ لِلهُـدى جَميـعَ ثـراهـا
أولُ الـمـؤمـنـاتِ بـالله كـانـتْ ... وبـحفظِ الـنبيِّ طـالَ عَنـاهـا
تـلكَ لـلمـؤمـنـيـنَ أرأفُ أمّ ... عنـهـمُ كُـلُّ فتـنـةٍ تـأبـاهـا
إنّ عَـينَ الـنـبـيّ أكـرمُ عَيْـنٍ ... لَـمْ تُكْـرَمْ لأجْلِهـا عَيْنـاهـا
يومَ وافتْ بـالـوَعْظِ تَـزْجُرُ قَـوْمـاً ... تَـرَكَتْ رُشْدَهـا ووافَتْ هَـواهـا

وفي مدح الأئمّة عليهم السلام

والمصـابيحُ في وجـوهِ صبـاحٍ ... تـرشـدُ الخَلْقَ كُلُّهُم ابنـاهـا
سـادةٌ قـادةٌ حُـمـاةٌ أُبـاةٌ ... طَبَّقَ الكَـوْنَ عِـزُّهـا وإبـاهـا
يـستـظلّ الهُـدى اذا طَـرَقَـتْـهُ ... نُـوَبُ الدهـرِ تحتَ ظـلّ حِمـاهـا
أصـفـيـاءُ مَـشِيَّـةُ الله وَلَّـتْـهُـم ... فـهم بـينَ خلقِـهِ أصـفـيـاهـا
أسفـر الحقُّ بـالـظهـورِ فبـاءَتْ ... حـكـمـةُ اللهِ أنَّهُـمْ سُـفَـراهـا
وَبـإدراكِ فَـضْـلِهِـمْ عـلـمـاءُ الـدهْـرِ جـارتْ فـأشْـبَهـتْ جُـهَـلاهـا
كشفـوا عنهم نقـاب المعـالي ... في البـرايـا فـاصبحوا نقبـاهـا
وإذا الـدهـرُ في الأنـام أذاعَ الـجـهـلَ كـانـوا بـرأيِهِـم عُلمـاهـا
أَبْحُـرٌ بـالعلوم فـاضتْ عبـابـاً ... وبحـورُ الـورى تفيضُ ميـاهـا
لم تقـابلْ جُونُ السحائبِ منهـا ... سـرنَ في الجوِّ قطرةً من نَـداهـا
كـرمت دوحـةُ العلى بـرَمِ ذاتٍ ... قـد حكتْ ذاتَ أحمـدٍ وحكـاهـا
جـعلت نـفسـه بـنفسِ بَنيـهِ ... ومـن الـعـلـمِ والـنـدى ربّـاهـا

في مدح أبي طالب

طلبت بيضةُ الهدى منه صـوتـاً ... بـأبـي طـالـبٍ تـرقـى ذُراهـا
وحمى شعبـةَ الـرسـالـةِ لـمـا ... قـام فـي حفظِهـا فكـان وِقـاهـا
وازر المصـطفى بقـولٍ وفعـلٍ ... وقـريش مـن أجـلِهِ عـاداهـا
كـان لـلدين حـاميـاً وظهيـراً ... دونـه كـل نـكـبـةٍ يـلقـاهـا
هـو ربّى لأحمـدٍ خيـرَ نفسٍ ... فـي حمـاه يـتـيـمّـة اواهـا
لم يـزل كـافـلاً لـه في القضـايـا ... وهـو في حيّ قـومِـهِ أقضـاهـا
وإلى الـهجـرةِ استـعـدّ غـداة المـوت حـوبـاء عـمّـه وافـاهـا
أظهـرتْ كيدهـا لـه العـربُ حقـداً ... يـوم غـابَ الهِـزَبْـرُ عَن مثـواهـا
ليتَ شِعـري هـذا الـذي نـاطَـحَ الشُهْبَ بمجـدٍ جـلّا على شعـراهـا
لم تَمُتْ نفسُـه على الكُفْرِ كـلّا ... ومن الغيِّ والشقـا حـاشـاهـا
كـان للمصـطفى معينـاً عـلى الأوثـان حقّـاً يـريـد هَـدْمَ بِنـاهـا
عَـظَّمَ الله فـي قصـائـدِهِ الـغُـرِّ ... وأبـدى عـلى الـنـبيِّ ثـنـاهـا
ورأى ديـنَ أحـمـدٍ خـيـر دَيـنٍ ... وجميـعَ الأديـانِ مَقْتـاً قـلاهـا
سَلْ قريشاً هـل غيرُ عبدِ منافٍ ... سيّداً كـان في حمى بَطحاهـا
زوجُـهُ فـاطـمُ الـتـي أسـد كـان أبـوهـا وهـاشـمُ ربّـاهـا
لبـوةٌ في شـرى البسـالـةِ شبّتْ ... وعـليٌّ وجـعـفـرٌ شِبـلاهـا
وعقيـلُ الـذي بـه تُعـرفُ الأنسـاب إنْ تُجهـلِ الـورى عـرفـاهـا
أخـوةٌ مـن أبٍ وأُمٍّ كـرامٍ ... قـد صفـا بـالنبي درّ أخـاهـا
إنْ تَقُـلْ أيّهـا المجـادلُ صدقـاً ... ذاكَ نَفْسُ الهُـدى وَهُمْ أعضـاهـا
لـلهُـدى أثـبـتـتْ يـداه أُصـولاً ... وهـم فـرّعـوا عـلى مـبـنـاهـا

في مدح أمير المؤمنين عليه السلام

كم لـه من معـارجٍ بـالمعـالي ... ينتهي الفكر عن مـدى مبتـداهـا
سعـدت أُمّـةٌ إلى الحقِّ تُعـزى ... وعـليٌّ واحـمـدٌ أبـواهـا
إن نـفسَ النبيّ بـالقـربِ اخـتُ ... نفسٍ من في أمـورِه أوصـاهـا
كـيـف ادنـتْ يـدُ الـنـبـوةِ اقصـى الـنـاسِ وأبـعـدتْ قُـربـاهـا
إن فـي الخلقِ احمـداً وعليـاً ... مـن عُـلا قـدرةِ الإلهِ براها
فهمـا في الـوجـودِ شرقـاً وغـربـاً ... ذاك يُمنى لهـا وذا يُسـراهـا
وعلى الخـافقين داسا جنـاحـاً ... وبـه غـايـةُ العُلى بـلغـاهـا
أوردا الخسفَ كـلَّ ذي جبـروتٍ ... والعُلى بعـدَ كسرِهـا جبـراهـا
هـو نفسُ النبيِّ بـالنَّـصِ حقـاً ... (قـل تعالـوا) قضت بذا دعـواهـا
بـات لـيـلاً عـلى فـراشِ رسـولِ الله يشـتـاقُ لـلمَنـونِ لِـقـاهـا
وبـه احـدقـتْ جمـوعُ قـريشٍ ... واستـطالتْ لـه طـلا رُؤسـاهـا
رقـدتْ في المبيتِ عينـاهُ لكـن ... قـلبُـهُ للهُـدى أفـاقَ انتبـاهـا
كلمّـا في دُجى الردى هـدّدتْـهُ ... سَطوةُ الشركِ لم يكن يَخشـاهـا
فـاديـاً دونَ أحمـدٍ منـه نفسـاً ... كـلُّ نفسٍ حقـاً تكـون فِـداهـا

وفي آخرها يقول :

كـان سـراً مـع الـنـبـيّ مـن قـبـلُ يـوفـى قـلـوبـهـا سـرّاهـا
كـلُّ أهـلِ النُهى بمعنـاه حـارتْ ... ودعـتْ بـاسمِـهِ الـغـلاةُ إلـهـا
ليس تخفى لـه الـمجـد ذاتٌ ... محكمُ الـذكـرِ بالثّنا أطـراهـا
بمـرورِ العصـورِ جيـلاً فجيـلاً ... ليس ينسى طـولَ الزمـانِ جداهـا
حين تتلى على النفـوس بيـانـاً ... بسنـاهـا المـوتى الـوحي ثنـاهـا
كم لـه صيحـة تـذيبُ الرواسي ... ومن الصخـرِ أسمعتْ صَمّـاهـا
حلَّ لمـا قضى ضَرائحَ قُـدسٍ ... رحـمـةُ اللهِ اكـرمتْ مثـواهـا
فـعـلـى ذاتِـه إلـهُ الـبـرايـا ... بـالمثاني صلّى غـداةَ اجتبـاهـا

الشيخ عبد الحسين القرملي ابن الشيخ محمد.

ولد في النجف الأشرف سنة ١٣٠٣ وفيها درس . وأقام في ناحية (الحمزة الشرقي) وكيلاً عن المراجع وكان يلم بالسيبة من نواحي البصرة احياناً . على انه كان كثير السفر دائم التجوال وكان يتردد كثيراً على منطقة الأهواز وخاصة مدينة (المحمرة) وكانت تربطه بأسرة السيد عدنان الغريفي رابطة وثيقة ، فكان يحل في كل عام ضيفاً عليهم ويبقى مدة مديدة يتناشدون فيها الشعر ويتحاورون بالأدب .

من شعره قوله :

يـا مـسـقـط الـعـلـمـيـن لا ... عـدمـتـك وطـفـاء مـلـثـه

أفـهـل بسفحك للذي … علقت به الأشجان مكثه
وترى يلم زمانه … بالمدلجين اليوم شعثه
وبمهجتي الداء الدفين من الغرام فلم ابثه
والقلب يتبع اثرهم … يا خيبتي والشوق حثه

* * *

يا ظبية الرمل اعطفي … وصلي ولو مقدار لوثه
واشفي فؤاد متيم … لم يبق فيه الشوق ثلثه
حتى مَ وعدك خلّب … ابداً وكم للعهد نكثه
لا تعجبي اما رأيت … ملابسي اسمال رثه
فوراء غمدي صارم … عضب له في الحرب وعثه
ما ضره شعث النجاد … ولا الحلي يلم شعثه
والدهر لا ينفك يضمر … للاديب الشهم خبثه
أبداً يشن عليه غارته … ولا يعطيه ريثه
هيهات يعجم صعدتي … ولو أن منه الكف شرثه
اني امرء ما انفك من … صرف الزمان يطيل بحثه
وانا الذي اضحى الآباء … له من الآباء ارثه
من معشر لم يلبثوا … في ظل عيش الذل لبثه
كانوا لمنتجع الحيا … غيثاً وللملهوف غوثه
درسوا الحقيقة كلها … وبروعهم لله نفثه
اخذوا السمين لمجدهم … واستأصلوا بالجد غثه
خبباً وراء ذميلهم … نحو العلا ودع المطثه
واطلب حياتك يا فتى … العليا ولو قاسيت كرثه
فالعمر احسنه انصرافاً … في العلوم ولو بمثه
هب ان دهرك لا يجامل … فاستعن واستبق حرثه
واشرِ الحياة نتائجاً … بيضاً ولو اطعمت شثه
فدع الشباب غروره … وانبذ وراء الظهر طثه
اطلب معارف مجدك … السامي ولو كافحت بثه
فالعمر غال يا زميل … الى الامام ولو بجثثه

وقوله :

حلقي يا بنت هامات الفنن … واندبي في الجو ابناء الوطن
واملأي هذا الفضا نوحاً فقد … مني الشعب ببلوى ومحن
وطني نامت عيون سهرت … فيك فابتاعتك في اغلا ثمن
(لا تسل عما جرى كيف جرى) … ان هذا من تقادير الزمن
لست ممن ارهبته وقفة … وعلى عاهنه قيد الاحن
صعّد الطرف وصوّب فكرة … كلما ليل الغواشي لك جن
سترى القوم على غاياتهم … وقفوا اذ قلبوا ظهر المجن
ان تسل عني فقد جاملتهم … وانخت العيس في ذاك العطن
فتقلب عن مباد صلحت … فبهذا شرف الوقت اقترن

الدكتور عبد الحسين فيلسوف.

ولد سنة ١٢٤٥ شمسية وتوفي سنة ١٣٢٠ شمسيّة في مشهد الرضا كان طبيباً من مشاهير مدينة تبريز دارساً مع الطب الحديث الطب القديم .

من مؤلفاته : كتاب (مطرح الانظار في تراجم فلاسفة الامصار واطباء الاعصار) في ثلاثة مجلدات ترجم فيه لـ ٤٠٦ اطباء وحكماء. وكتاب (معرفة السموم) ، وكتاب (مفتاح الادوية) .

الشيخ عبد الحسين بن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر.

توفي ليلة احدى وعشرين من جمادي الاولى سنة ١٢٧٣ ودفن مع والده من كبار علماء هذه الاسرة ، كان الشيخ مرتضى الانصاري يعظمه ويقدمه على سائر تلامذته.

حاول اتمام ايصال النهر الى النجف وبذل عليه الأموال الطائلة وجرى الماء الى الموضع المعروف.(بالطبيل) ثم وافاه الأجل، كانت نسخة الاصل من الجواهر المبيضة عنده . وهي اليوم في مكتبة الشيخ محمد تقي نجل الشيخ عبد الرسول نجل الشيخ شريف نجل المترجم له :

ارخ بعضهم وفاته على مرقده بالكاشي :

ذا مرقد اضحى امام الهدى … عبد الحسين فيه مثواه
لما دعاه الله واختاره … فارضوه (اختاره الله)

ورثاه الشيخ ابراهيم صادق العاملي بقصيدة مطلعها :

نزلت فشبت لمجرة نارها … واجتاح نور النيرات شرارها
شنعاء فاقمة الخطوب ونكبة … نكباء قد سد الفضاء غبارها(١)

السيد عبد الرؤوف فضل الله بن السيد نجيب بن السيد محيي الدين .

ولد في بلدة عيناثا(جبل عامل) سنة ١٣٢٥ وتوفي في بيروت سنة ١٤٠٥ ونقل جثمانه الى النجف الأشرف فدفن في وادي السلام .

كان عالماً جليلاً يوحي بالطهر والقداسة والصفاء .

صاحب شخصية علمية . . روحية . . تعيش روح الرسالة . . وتجسد الاسلام الواقعي المتحرك في الحياة . . مما جعل اسمه يقترن في اذهان عارفيه . . بمعانٍ محببة . . وشمائل كريمة . . تحمل من الصفاء والتقوى والوداعة ـ ما ينقلك الى حضرة عالم رباني . . استضاء قلبه بنور الله فاشرق هذا النور في محياه . . وعلى صفحة وجهه . . كما استضاء عقله بنور الاسلام وعلومه الزاهرة . . فأنار عقول من حوله من طلاب المعرفة والبحث . . وطلاب النجاة والرضوان .

تلقى دراسته الاولى في جبل عامل ثم هاجر الى النجف الاشرف في ذي الحجة سنة ١٣٤٦ مبتدئاً دراسته المنهجية . . تحت اشراف اخيه السيد محمد سعيد الذي كان يحمل في اعماقه . . روح التصوف العميق للعلم . . فاستقى من هذه الروحية . . فنذر حياته للعلم والتحصيل واستمر في تحصيل المقدمات على يد اخيه وعلى يد ـ الميرزا فتاح الشهيدي ثم انتقل الى مرحلة التخصص العالي وهو ما يصطلح عليه في الدراسة المنهجية الدينية (بمرحلة الخارج) فحضر عدة حلقات لمشاهير العلماء الاعلام. امثال السيد ابو الحسن الاصفهاني والسيد محمود الشاهرودي، والسيد عبد الهادي الشيرازي .

وقد تتلمذ على يديه عدد وافر منهم الشيخ بشير حمود الشوكيني والسيد عباس ابو الحسن . . والسيد علي مهدي ابراهيم والشيخ علي العسيلي والشيخ حسن العسيلي والشيخ محمد مهدي شمس الدين والسيد عبد المحسن فضل الله والسيد علي فضل الله والسيد عبد الكريم نور الدين والسيد محمد علي الامين . . وغيرهم فضلاً عن ولده السيّد محمد حسين الذي كانت معظم دراسته على يديه وكذلك ولده السيد محمد جواد . . وولده السيد محمد علي وفي سنة ١٣٧٥ (١٩٥٥ م) عاد الى جبل عامل فسكن بنت جبيل وتردد بينها وبين بيروت .

عمل في اوساط المسلمين المؤمنين . . . في جبل عامل وبنت جبيل بالخصوص . . وفي بيروت والضاحية وغيرها بشكل عام على دعم وتقوية الاتجاه الايماني فكان يمثل الغطاء الكبير للمؤمنين المخلصين .

وفي جانب آخر من سيرته . كان يمثل الروحية الصافية ـ بالخشوع

(١) السمامي.

والخضوع والذوبان في ذات الله . . فقد عاش هذا الواقع في صلاته وصومه ودعائه . . والتزامه المستمر بقراءةالقرآن .

وقد امتاز بطاقة الصبر على قضاء الله ـ وظهر ذلك في جلده وقوة تماسكه في الحالات الصعبة التي واجهها بفقد بعض ابنائه .

في حياته الخاصة . . عاش اسلوب الزهد بالمظاهر الخادعة . . في مختلف مجالاتها . . التي تمثل لدى الكثيرين . . عاملاً من عوامل خلق الصراعات وسبباً من اسباب الانحراف .

موهبته الأدبية والشعرية .

وقد كمنت فيه مواهب ادبية بالاضافة الى علمه الجم . . غير ان مواصلته للتدريس والبحث حدت بتلك القابلية ان تضعف . . او تذوب امام توجهه الديني . . ولكنه بين فترات متقطعة كانت تطفح خلالها بعض الخواطر . . فيندفع الى نظمها بما يشبه العفو والارتجال . . لكنه لم يكن يحرص على حفظ المقاطع الشعرية . . لكنه امكن حفظ بعضها ففي بعض الاخوانيات يقول :

وما كنت اصفي بالمودة موردي   لغير فتىً احرزت صفو وداده
وما علقت كف امرىء بمقادتي   اذا انا لم املك زمام قياده
واني اذا ما ازورّ عني صاحبي   وخوّلني من هجره وبعاده
ألاطفه ما خلت فيه بقيةً   وإلّا جعلت الهجر أيسر زاده.

وله ايضاً :

ومما شجاني قوة النفس والهوى   عليَّ . . يقوداني لطرق المهالك
أراني إما أن سلكت طريقة   من الرشد مسدوداًعلي مسالكي

ـ وله مراسلاً اخاه السيد عبد اللطيف في عيناتا :

جريان دمعي واضطراب جناني   شهدا بأني فيك صبٌّ عاني
آيات حبك ليس تخفى . . انها   بظهورها اغنت عن البرهان
رفقاً فحسبك ما تجن اضالعي   ما جلَّ عن نعتٍ وعن تبيان
فلقد ملكت مشاعري وحللت من   نفسي محل الروح من جثماني
وحديث شجوٍ بثٌّ اكتم شجوه   والصدر ضاق به لدى الكتمان
سرٌّ تنازعه الضمير ولوعة   لمواضع الاسرار والاعلان
جلّت مواقعه بمهجة واجدٍ   حكمت عليه لواعج الاشجان
لسواك ما اختار الفؤاد بيانه   هل موقف فيه تحل بياني
لله ما حفظ الفؤاد وما رعى   ممساً جنته نوائب الحدثان
يا جيرةً علقوا باسباب الوفا   وترفعوا عن كل امرٍ داني
واستوثقوا بعرى المحامد بعدما   ملكوا من العلياء كل مكان
لم يثنهم عن نيل ما قد أمّلوا   خطرٌ وما حلوا بدار هوان
عهدي بهم والعز تخفق فوقهم   اعلامه . . ومحط كل امان
بثوا الفضائل في الأنام وكم لهم   تليت بذاك مثالثٌ ومثاني
جمعوا كمالاً . . لو تفرق بعضه   في الناس ـ عمَّ الناس بالاحسان
فلئن عقدتُ على الوفاء طويتي   لهم واضمرت الذي اعياني
ولقيت فيهم ما لقيت على النوى   ولهم بذلت مودتي وحناني
وأبيت فيهم عن جميل مآثر   عقدت بجيد الدهر عقد جمان
وذكرتهم وأسلت دمعي . . انهم   هم خيرة الأحباب والاخوان

ـ وله غير ذلك بعض المقطوعات الشعرية الأخرى . .

مراثيه

مما رثي به قصيدة السيد محمد نجيب فضل الله :

ذكراك جرح في فمي ومصاب   وعلى يد الدنيا هدى وكتاب
ما كنت إلا أمة ورسالة   وبصدره للعلم لجّ عباب
واذا تقدم للصلاة مكبّراً لله   كبر بعده المحراب
وإذا انحنى لركوعه وسجوده   تحنو صوامع خشية وقباب
وكأنما فزع القيامة يومه   بُعثت به الأموات وهي تراب
ماذا دهى الدنيا أماتت هاشم   ومضت بها الأيام والأحقاب
أم أن عامل شيعت علم الهدى   عبد الرؤوف وطاشت الألباب
وأطل من كبد السماء على الورى   ركب تؤم به العراق ركاب
عوداً على بدء لأعلى ربوة   ينحط عنها في السماء عقاب
واستقبلته على المطاف لداته   علماؤها العظماء والأقطاب
ميل العمائم نكساً هاماتها   رُعش الأكف بها تضيق رحاب
تتلمس التابوت في راحاتها   ركن الحطيم ودمعها تسكاب
وإليه شقوا تحت قبة حيدر   لحداً تقبل عنده الاعتاب
وكأنما دفنوا بدفنك أمة   ماتت بها الأخلاق والآداب
ولقد صحبتك والشباب صبابة   ولنا رواح مبكر وإياب
وبوجهك الوضاء نور ساطع   فيه اهتدت شيب لنا وشباب
ولك المهابة بالأصالة حبوة   فيها حباك الواحد الوهاب
والاجتهاد عليك معقود اللوا   ولّه الجلالة والعفاف إهاب
ما كل من شدّ العمامة شيخها   وإليه تحنو في الندي رقاب
يا للخطوب الهول كيف تناولت   جبلاً تحف بجانبيه هضاب
أعطى العمامة حقها مترفعاً   عن كل ما فيه الأبيّ يُعاب
يا ابن النجيب ومن بمداد يراعه   منه استمد من الغيوم سحاب
وأمدها بالفيض من بركاته   والأرض تذبل والسماء سراب
وبه يد الكبراء شُلّت بعدما   بالمعدمين تمرد الإرهاب
في الله لم تأخذه لومة لائم   ولو أن ألسنة الطغاة حراب
عذراً أبا العلماء الجم منطقي   جرح بقلبي أرقماً ينساب
وكأنني إذ أحتويك قصيدة   كبد تساقط من فمي وتذاب
والشعر أبواب لدي كثيرة   لكن بوجهي سُدّت الأبواب
صبراً جميلاً عامل وبني أبي   فالصبر في الجلّى هدى وثواب
عبد اللطيف وأنت عصبة أمة   واليه ترجع والخطوب غلاب

قصيدة السيد محمد حسن الأمين

بيومك يزهو الشعر أم يجدب الشعر   حنانيك ماذا أنتقي والمدى قفر
يطالعني نهر من النور والهدى   فانهدكي أروي فيفجؤني قبر
وأكتب ما أمحو . وأمحو . . وأجتلي   محياك في أفق يعانقه الفجر
فيرهقني الحرف الحرون وطالما   تعرَّت تغاويني مفاتنه البكر
واعياً بأن أجلوك شعراً فتنثني   بفوزٍ . . وأمضي خاسراً أنا والشعر

* * *

أبا الجبهة النورُ استراح بظلها   وطاف بها الايمان والحب والطهر
تشع على الدنيا سلاماً ورحمة   وتشمخ . . لكن لا يساورها كبر
تقول لنا بالصمت أبلغ ما روت   شفاه . . واحلى ما تناقله ثغر
تضيء حواليها من النور هالة   سماوية . . ما المنطق العذب ما السحر
تحاورك الأملاك في جنباتها   فانت مع الأملاك ضمَّكما سر
وضمَّكما كون بعيد وإن دنت   بك اللفتة الزهراء والبسمة الغمر

* * *

أأرثيك . . لا دعني ألم شمائلاً   تضوَّعُ . . ما نفح العشيات . . ما الزهر
ودعني اقرأ الف سفر من التقى   وإذا ما انطوى سفر أضاء لنا سفر
ودعني أسكب في الجديب من المدى   رؤاك ودعها تولد الأنجم الزهر

* * *

ببالي غداة ارتدتُ ناديك موجعاً   أبثك ما يلقى على الذروة النسر

وأنّ جناحي من نصال وغربة ... تشظى.. فلا يقوى على شدّه الصدر
وأنّ.. وأنّ الليل ارخى بعامل ... سدولاً وأزجى فيه انيابه الغدر
وأن ربوعاً في الحمى ومعاهداً ... تألق فيها العلم والدين والفكر
هي الآن نهبٌ لليهود وأنها ... تشكي وفي آذان فتيتها وقر
ذكرتك اذ هزتك نجواي فانبرت ... تطامن من يأسي قناديلك الخضر
وآنست في عينيك فجراً تنفست ... ربى عامل عنه وفاض به البشر
فأيقنت ان الدرب رغم عثارها ... سينهض من أعماق اوجاعها النصر
وان دماً تحمرُّ من دفقه الربى ... غداً ـ وهو يعطيها الحياة ـ ستخضرُّ

* * *

فقيد الهدى قم بارك الآن فتية ... على الساح يندى في أكفِّهم الجمر
يغيرون فالدنيا افترارٌ وافقها ... ملاعب صحو والمدى أذرع سمر
يقلّم ظفر البغي اشوسُ امردٌ ... ويجدع أنف الظالمين فتى غرّ
شكت حُمَمَ الأعداء مُرَّ نزالهم ... وذلّ الحديد الصلب وانكفأ الصخر
أضاءت لنا ليلَ الدروب جباههم ... ففي كل درب من حكاياهم فجر
ومرّوا على الجدب اليبيس فنوّرت ... شقائق ملء الجدب واعشوشب القفر

* * *

يجيئون من تاريخنا فجباههم ... تسامرها (أحد) وتزهو بها (بدر)
ويمتشقون الكبرياء فتنحني ... لقاماتهم عند اللقاء القنا السمر
صحا في يديهم ذو الفقار فنصله ... يضيء ووجه الروع اسود مغبرٌّ
وعادت بهم أمجادنا وانطوت رؤى ... كوالح.. واحلولى لنا الزمن المرُّ

* * *

فقيد الهدى حسب الهدى أن رعيته ... زماناً فروّى الجيلَ ينبوعُه الثرّ
لزرعك هذا الجيل أنت غذوته ... فامرع من خصب.. وانت له الجذر
ومرّت به عيناك جيلاً كما الضحى ... نقياً فلم يعلق باردانه وزر
جلوت له الاسلام نهجاً فشاقه ... بأن المدى طلق ـ كأحلامه ـ نضر
وطاب له من سائغ الحرف مورد ... يسلسله طبع ـ كما يشتهي ـ مسرُّ
أقمت له النهج السوي وطالما ... تعثر جيل ساقه المنهج الوعر
فحسبك منه ما جنيت وحسبه ... تهاويل من ذكراك يثرى بها العمر

قصيدة الاستاذ محمد فلحة :

أعيا بيومك مقولي فبمسمعي ... إعوال والهة وصرخة موجع
يوم كيوم الحشر ضاق بأهله ... ما بين مهطعة وآخر مُهطع
يبكون من نزف القلوب دموعهم ... يطغى النجيع على قريح المدمع
ألقوا على المحراب نظرة جازع ... متحسر في دهره لم يجزع
ذكروا دعاءك حين تجأر بالدعا ... كالآي يرفع في المقام الأرفع
يتساءلون عن الملاذ بخطبهم ... أو لست فيهم بالملاذ المفزع
رانت على المحراب بعدك وحشة ... وشكى المصلى من غيابك لو تعي
أمطلق الدنيا على نعمائها ... وأليف زهد في الخصيب الممرع
فكأن زين العابدين نبا به ... نوم المرفه في وتير المضجع
يا ابن الأولى باتوا خماصاً واغتذى ... من فضلهم طاوٍ بليل أسفع
من كافل الأيتام في بأسائهم ... من للمعنى والفقير المدقع
حدّث عن الماضين في غلس الدجى ... من هُجّد أو سُجّد أو ركّع
علّ الذي دخل الديانة مرتعاً ... ينأى وينهى عن حرام المرتع

* * *

يا ابن الأولى شرعوا القنا يوم اللقا ... ليدال طغيان الدعي ابن الدعي
كانت لهم يوم الجداء بكربلا ... في الدين جولات الكمي الأشجع
يا ابن الذي ردّ الحقوق يراعه ... لسليب حق في الحياة مضيع
ما زال قولي والكتاب رسالة ... تتلى على مرآهم والمسمع
الحق والقول الصراح أمانة ... يُعلي لواها كل نجم أروع
أو ليت عهدك خالصات مودتي ... ما كنت فيها بالمريب المدّعي

ورثاه ولده السيد محمد حسين فضل الله بهذه القصيدة :

يا أبي ، قد تطلّ روحي على الذكرى، وعيناك في الكرى تحضناني
وأنا غارقٌ مع الحُلُم النّديان أهفو اليك في تحناني
وبقلبي سرٌّ يهمهم ، يلتاع ، يناجيك بالنداء الحاني
وبعقلي فكرٌ ، زرعتَ غراس الوعي فيه بالعلم والايمان
وبدنياي، يا لدنيا الحكايات العذارىٰ ، في فرحة الألحان
ألف حبّ تنساب منه الينابيع صفاءً في لهفةٍ وحنان

* * *

أنتَ علّمتني الطهارة في الحبّ وسرُّ الاشراق في الألوان
يا لعفو السّماح تندىٰ به الروح ، فيهمي في القلب والوجدان
يا لوحي البراءة الطهر تهفو في انسياب ورقّةٍ واحتضان
عشتُ عمري في لهفة النور في عينيك ، ألهو في رقّةِ الأجفان
يظمأ الحلم في طفولة أيّامي فيروى من روحك الرّيان
كنت أصغي، وكنتَ تنساب في الكلمة ، يا للعطور في الأقحوان
كنت تحكي الكثير في صمت عينيك ففيه يطوف سرّ الزمان
ويعيش الروح المندّىٰ مع الله ابتهالاً في لهفة الإذعان

* * *

يا أبي لن يصيح في عقلي الحزن فقد روّض الهدىٰ أحزاني
غير أني أهفو اليك إذا عاشت بقلبي مرارة الأشجان
علّني في التفاتة الحلم ألقاك كمثل الربيع في نيسان
في اخضرار الحنان في همسات الحب، في لهفة الأب الهيمان
مثلما كنتَ في الطفولة في أفق شبابي، أراك سرَّ كياني

* * *

أنتَ علّمتني، إذا اشتدّت الآلام أن التقي هدى الرحمن
أن أعيش الصبر الذي يدفع العزمة في الساح، في ثبات الجنان
في انطلاقٍ لا يهزم الروح فيه ظمأ الجرح واهتزاز المكان
وانفتاحٍ على غد الحق فيما تلتقي فيه رائعات الأماني
فاذا غطّتِ العواصف في الليل هدوء السهول والوديان
فسيأتي الصباح يحمل في عينيه سرَّ الهدوء في الأكوان
انه الصبر يحمل الوعي للسارين في الدرب، حزمةً من أماني
يسقط الجازعون في هزّة اللحظة، في فجأة الصدى الرّنانِ
يحمل الصابرون في الفكر، فكر النور في موعد الضحى الفتّان
فاذا الليل عاش في بعض دنياهم تلقّوه بالصباح الهاني

* * *

أنت علّمتني التسامح إمّا زلزل العنف ساحة الإخوان
قلتَ لي: إن للمحبّة عمقاً أريحيّاً في لهفة الانسان
قد يعيش الأشرار طهر الينابيع بعيداً عن وحلة الأدران
فإذا امتدت المحبة بالروح وعاشت بوحيها الشفتان
أطلع الخير وحيه في نداء الاريحيات في القلوب الحواني
فإذا بالذين يحيون للشرّ ويجرون في مدى الشيطان
يفتح الحبُّ روحه في نجاواهم فللخير شهقةٌ في المعاني

* * *

كان لي في صفاء عينيك معنى الصحو في لهفة المدى الظمآن
كنت توحي إليَّ أنّ نداء الله لا يستريح للأضغان

كـان سـر الخشـوع في لفتـات النـور، فـي اريحيـة الايمـان
حسب نجـواك روعـة أنهـا تـخضـرُّ فـي كـل مـوعـدٍ لـلأذان
في انـطلاقٍ يمتـد بـالألق الـروحي في الفجـر في السنـا الهيمـان
كـل مـا في المـدى لـديـك امتداد الـوحي في لـطف خـالق منّان
في الـرحاب الفسـاح حيث الأعالي البيض تختـال في ربيـع الجنـان
وعلى اسم الصـلاة تنفتـح الـروح ، وتمتـد، بـالـدعـاء، اليـدان
يـا لفيض الاحسـاس بـالفـرح الـروحي يسمـو في حضـرة الحنّان

* * *

أأنـاديـك يـا أبـي. . ويفـر الـحلم مـني فـي يقـظة الـوجـدان
أيّ صـوتٍ يـوحي فتشـرب معنـاه على لفحـة الـظمـا الأذنـان
أيّ اطـلالـةٍ مـن الـطلعـة الـغـرّاء فـي أريـحـيـة الايـمـان
تلتقيني ببسمـة الـطهـر في الـروح الإلّهيّ في المـدى الـروحـاني
هي اغفـاءةٌ مـع الـحلم الـورديّ عشت انـفتـاحـهـا بـافـتتـان
في ربيـع الأشـواق لله لـلجنـة فـي خضـرة الأمـانـي الحسـان
عشت لله، وانـفـتحت عـلى الله، وهـا انت فـي رحـاب الجنـان
تـرشف الـرحمـة الـرضيـة في لـطف وتحيـا رضـاه في اطمئنـان
هي اغفـاءةٌ . . وشـدّك للرضـوان صـوتٌ في سـاحـة الـرضـوان
كـنت روحـاً يـذوب فـي اللطف والـخيـر وينـتـشـي ويـعـانـي
وأنـا ـ يـا أبي هنـا في الـريـاح الهـوج ، والمـوج هـادرٌ في كيـاني
استعيـد الـروح الـذي زرع النـور بعيني، والـحق فـي وجـداني
وصـفـاء الـروح الإلّهيّ حتى يـطرد الحق مـوكب الـشيـطان
وأنـا هـا هنـا انـطلاقـة حلم في انـتظار مـعشـوشـب الألـوان
يـا أبي عـد إليّ في الحلم ان الشـوق مـا زال في مـدى النيـران

* * *

عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي.

توفي سنة ٣٣٧ وقيل ٣٤٠ بطبرية وقيل بدمشق .

قال ابن خلكان في وفيات الاعيان :

كان إماماً في النحو وصنف فيه كتاب (الجمل الكبرى وهو كتاب نافع لولا طوله بكثرة الأمثلة ، اخذ النحو عن محمد بن العباس اليزيدي وابي بكر بن دريـد وابي بكر الانباري ، وصحب ابا اسحاق ابراهيم بن السـري الزجاج فنسب اليه وعرف به ، وانتفع الناس به وتخرجوا عليه .

وكان قد خـرج من دمشق مع ابن الحـارث عامـل الضيـاع الاخشيـدية فمات بطبرية . وكتابه (الجمل) من الكتب المباركة ، لم يشتغل بـه احد الا وانتفع به، ويقال انه صنفه بمكة ، وكان اذا خرج من باب طاف اسبوعاً ودعا الله ان يغفر له وان ينفع به قارئه .

وقال الذهبي في سير اعلام النبلاء :

شيخ العربية له أمالي ادبية ، قرأ على ابي جعفر بن رستم الطبري وروى عن ابن دريـد ونفطويـه وابي بكر محمـد بن السـري السـراج وابي الحسن الأخفش وعدة ، وتصدّر في دمشق ، ويقـال انه اخـرج من دمشق لتشيعه ، وكان في الدماشقة بقايا نصب. وكان حسن السمت مليح الاشارة .

ولـه كتـاب (الايضـاح) و (شـرح خـطبـة ادب الكـاتب) وكتـاب (اللامات) كبير و (المخترع في القوافي) واشياء. وقيل انه ما بيّض مسألة في (الجمل) الا وهو على وضوء.

عبد الرحمن الكواكبي :

ذكره الشيخ محمد محسن آغا بزرك في كتاب (طبقات أعلام الشيعة) فيمن ذكر من رجال الشيعة مستنداً الى تشيع والده الذي أكّده من عـرفوه ، وهو يرى إن تشيع الأب لا بدَّ أن يكون قد استمر في الأبن ، كما اعتمد على تسلسله من أسـرة عريقـة في التشيع ، نـال رجالهـا ما نـالهم من المذابـح والترويع والتشريد بسبب عقائدهم.

على أن التأمل العميق في بعض النصوص التي كتبها الكواكبي يكشف الملامح الشيعية الثورية في تلك النصوص ، ويبرز استيحاءه التمرد الشيعي على الاستبداد ، مما لا يمكن ان يصدر إلّا عمن أوغلت أصوله البعيدة في التشيع العريق . . .

وقد كان الكواكبي حكيماً كالأفغاني في عـدم ابراز تشيعـه في محيط التعصبات المذهبيـة العمياء ، ولـو لم يفعلا ذلـك لاستغـل اعـداء الثـورة والاصلاح انتماءهما المذهبي لمحاربة ما يدعوان اليه .

وإننا لنذكر أولاً ما نزل بآل الكواكبي في حلب معتمدين في ذلك على ما نشره سعد زغلول الكواكبي في مجلة (سـوراقيا) بعـددها ٣٠٨ الصـادر بتـاريخ ١٩٨٩/٧/٨ ، آخـذين له بنصـه . ثم نتبع ذلـك بدراسـة عن عبد الرحمن الكواكبي مكتوبة بقلم محمد احمد المقطوف ، ثم بدراسة عن فكر الكواكبي مكتوبة بقلم الدكتور جورج كتورة .

قال سعد زغلول الكواكبي :

كانت مدينة حلب المدينة الثانية في الامبراطورية العثمـانية أهميـة ، وجـمالاً ، بعد العاصمة اسلامبول ـ الآستانة ـ القسطنطينية ـ استنبول . فهي المحطة الكبرى التي تتقاطع عندها الطرق الـواصلة بين أوروبة وآسيـة ، براً وبحراً . فهي بالضرورة مركز تجاري لا مثيل له ، وملتقى القوافل . وفـوق ذلك كله كانت سوقاً أدبية فنية التقت فيها ثقافـات متعددة ، واستقـامت بين ظهـرانيها طـوائف متعددة من شتى أصقـاع الـدنيـا من مختلف الـديـانـات والمذاهب والأجناس.

إلّا أن قربها من مملكة الروم الجدد ـ ونقصد بهم العثمانيين ـ جعلها في تماس مباشر مع أجهزة الدولـة العثمانيـة ، وعلى الأخص مع المقيمين الجدد فيها من العنصر المختلط الجديد الذي تـألفت منه في بـداية القـرن الرابع عشر الميلادي الفرقة العسكرية المسماة يني جاري التي كـان يكتب اسمهـا باللغـة التـركيـة والأحـرف العـربيـة « يكني جـاري » حيث لا تلفظ الكاف ، ثم حرفت في اللغة العربيـة والكتابـة العربيـة الى يكني شاري ثم صحفت بلفظ « انكشـاري » أو « الانكشـاريـة » وهي تعني « الـعسكـر الجديد » .

تناثرت اقامة هؤلاء العسكر في شتى انحاء الامبراطوريـة العثمانيـة ، وكـان لحلب منهم نصيب كبير . ولـمـا كانت مـدينة حلب مسكـونة بـأهلها ومحاطة بسـور عظيم ذي أبـواب تسعة ، تحـول من دون حصـول اضـافات سكنية جديدة داخل الأسوار ، فقد اضطر القادمون الجدد ، ومنهم « العسكر الجديد » أو الينيجارية ـ Janissaires الى بناء بيوت خارج الأسوار مع سائر البيوت التي شكلت الأحياء الجديدة ، فزاحموا سكانها حتى ان احد هؤلاء العسكر غرس رمحه في وسط الزقاق اشارة الى النقطة التي يريد توسيع داره التي اشتراها اليها فأضحى المرور فيه معاقاً حتى اليوم .

وكانت أكثرية المسلمين من أهل البلد ، القـدامى، يسكنون الأحيـاء الداخلية ضمن الأسوار حيث يسمي هذا الجزء من البلد بـ« المدينة » ، بينما كـانت الأحيـاء خـارج الأسـوار تسمى « الحـواضـر » . وأمـا المؤسسـات الرسمية ، والدينية ، فكانت كلها في المدينة ، وعلى الأخص القلعة .

وبما ان « الينيجارية » ليسوا من أهل حلب ، وانما هم موفدون اليهـا

من بقاع شتى ليؤلفوا القطعات العسكرية الخاصة بالسلطان ، فقد كانوا يقيمون في الأحياء خارج السور ، وعلى الأخص في أحياء : قارلق وآق يول وقاضي عسكر وبانقوسا . إلاّ أنَّ سكنهم في هذه الأحياء لم يكن ليمنعهم من دخول المدينة لشتى الدواعي ، ولعلَّ وجودهم الاضطراري خارج المدينة ، التي كانت تضم احياؤها الأسر الحلبية العريقة ، وخصوصاً اسر الأشراف المنتسبين الى آل البيت ، الذين عرفوا بـ« الطالبيين » ، وكانوا في نظر الجماهير الحلبية في قمة الاحترام والتفضيل .

وكان يعز على (الينيجارية) ان يميز أهل حلب الشريف على « الينيجاري » . لهذا عمدوا دوماً الى افتعال الأزمات السياسية واشعال الفتن ليتسنى لهم التدخل ، برضاء الوالي أو من دون رضائه .

وأول فتنة عرفناها بحلب بين « الأشراف » و « الينيجارية » ، صادفت وقتاً عصيباً اشتكى فيه الأهالي من زبانية السوق السوداء بعد ارتفاع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً ادى الى اضعاف الطبقة الفقيرة ، وافقار الطبقة الوسطى . ولا بدَّ أن تكون للانكشارية « الينيجارية » ـ وهم المسيطرون العسكريون وقتئذٍ ـ اليد الطولى في رواج السوق السوداء ، مما أثار عليهم نقمة الأهالي . وكانت العادة ان يلجأ اهل حلب الى « السادة » أي « الأشراف » يشكون اليهم مصائبهم ، ويستجيرون بهم . ومن هنا كان تدخل هؤلاء في شؤون الأهالي .

وكان نقيب أشراف حلب يومئذٍ : السيد احمد بن أبي السعود الكواكبي (١١٣٠ ـ ١١٩٧ هـ ١٧١٧ ـ ١٧٨٣) . وبسبب تدخل نقابته ، اقدم الينيجارية على الاعتداء على من يشاهدونه من الأشراف فقتلوا منهم الشريف السيد احمد اخا شيخ الدقاقين في البلد ، وجرحوا بضعة أشراف ، وهربوا ولاذوا بأمير لواء الموالي ، الذي حماهم ولم يرضخ لطلب الأشراف والأعيان بحلب بتسليمهم[1] . وأدت هذه الفتنة الى عزل الوالي الحاج ابراهيم باشا القاطر اغاسي وتعيين عبدي باشا مكانه ، فكان ظلوما عسوفا ، انتصر لجيش الينيجارية وعاث في البلد واستباح الحرمات ، وخاصة في مدينة كلس التابعة الى حلب ، وأما في حلب فقد قطع رأس احمد الخنكارلي والد متسلم حلب ، إذ قبض عليه بحيلة دنيئة بوساطة اتباع أرسلهم اليه كضيوف وهم من الينيجارية ، ثم قبض على ابنه ، محمد وعلى نقيب الأشراف السيد احمد الكواكبي ، فأخرجا مع الرأس المقطوع الى ناحية اعزازشمالي حلب حيث قيدوا المتسلم مع رأس أبيه في خيمة ، وأما النقيب أحمد الكواكبي ، فقد عيِّن معه بيارق[2] ونقله منفياً الى قلعة البيرة ، وعيِّن في مكانه نقيباً للأشراف ، لطوف بك عادلي زاده طوقتكين الأرناؤطي ، وعين متسلماً جديداً من الينيجارية هو كوجوك علي آغا زاده محمد سعيد آغا ، الذي أقام في تكية الشيخ ابي بكر الوفائي ، وأمر زبانيته بنهب بيوت الأكابر والمشايخ ، والأشراف ، والأعيان ، من المسلمين ومن أهل الذمة ، فراحوا يشربون الخمور ويتعاطون الزنا واللواط والفسق علناً ، وجاءوا الى محلة باب النصر ، وتفقدوا الدور العظيمة وأخرجوا اصحابها وطردوهم ولو كانوا من النساء وصادروها ، ومنها الدار العظيمة التي كان السيد احمد الكواكبي قد باشر في بنائها على انقاض سراي جنبلاط ودور بني عبد السلام ، فصادرها قبل اكتمال بنائها[3] والزم النصارى ببيعه الف غنمة لقاء ١٦ كيساً (والكيس فيه خمسماية قرشل) والزم اليهود بتسعماية غنمة بنفس السعر .

وفي آخر محرم ١١٩٥ هـ كانون الثاني (يناير) ١٧٨١ م حلَّ عثمان باشا البلد مع عسكره وطرد عسكر عبدي باشا ، من بيوت الأكابر وخصوصاً بيوت عمر افندي وجلبي افندي وطرابلسي افندي وكواكبي زاده وبيت الزعيم . وكانت بينه وبين عبدي باشا وقائع كثيرة انتهت بعزل عبدي باشا وبإعادة الأموال المصادرة الى أصحابها .

وفي عام ١٢٠٦ هـ ـ ١٧٩١ م ثار بطال آغا زاده نوري محمد آغا ـ وهو من زعماء الأكراد ـ في عين تاب (المعروفة باللغة التركية بـ« عنتاب ») وهاجم الينيجارية ، وساعده الأشراف في ثورته . فاستولى على قلعة عين تاب ورممها وأقام فيها . إلاّ أنَّ السلطة في اسلامبول ، أمرت والي حلب كوسا مصطفى باشا بأن يتجه اليه ويحاربه ، فوصل الأمر الى الوالي وهو هارب من أهل حلب الذين كانوا هم ايضاً قد ثاروا عليه وعلى السلطة وأخرجوه من المدينة هو وعسكره ، فاتجه بعسكره الينيجارية الى عين تاب حسب الأمر وحاصر قلعتها خمسة أشهر نفذت خلالها المؤونة والذخيرة فاستسلم بطال آغا فقبضه وقطع رأسه مع خمسة وعشرين رأساً ، ارسلها الى اسلامبول .

ومرت سنتان . حتى إذا كانت سنة ١٢٠٨ هـ ـ ١٧٩٣ م (على ما اثبت جودت في تاريخه ج ٦) ولم تكن الفتن بين السادة الأشراف ومعهم الأسر الحلبية وبين الانكشارية لتنقطع ، فاستولى هؤلاء على منافع البلد وما جاوره من بلاد وعاثوا في الأرض فساداً بصورة ازالت نفوذ الولاة من البلاد ، وحالوا دون اقامة الأحكام الشرعية . وكانت سلطة الدولة ضعيفة بسبب الحرب الروسية التي انتهت في ١٢٠٦ هـ ـ ١٧٩٢ م .

حتى إذا كان منتصف عام ١٢٠٨ هـ ـ مطلع سنة ١٧٩٣ م عين السلطان سليم الثالث ، والياً جديداً على حلب هو ترنج زاده سليمان فيضي باشا فراح هذا يحاول اعادة تنظيم شؤون البلد واصلاح ذات البين بين فئتي الأشراف والينيجارية . إلاّ ان هؤلاء لم يكونوا ليرضخوا الى سلطة أي وال ، فأقدم بعضهم على التعرض الى احد وجهاء المدينة محمد افندي الغوري فما زالوا يضربونه ويهينونه حتى قتل من دون أي سبب أو ذنب ارتكبه . وانما رغبة منهم في اشعال نار الفتنة . ولما حاول الوالي سليمان باشا معاقبة المعتدين عصي عليه الانكشارية فهرب الى خارج البلدة ، وأقام في بعض بساتينها ، وكتب يشكو الأمر الى السلطان في اسلامبول ويشرح حاله مع الينيجارية المحسوبين دوماً على السلطان .

انتهز الينيجارية فرصة خروج الوالي ، فتعرضوا في حي ساحة الملح الى بعض رجال الأشراف الذين كانوا مارين امام جامع الأطروشي وانقضوا عليهم يريدون ان يفعلوا بهم ما فعلوه بمحمد افندي الغوري فهرب الأشراف الى داخل الجامع واوصدوا بابه ، وترسوه بالحجارة الضخمة ، فأحرق الينيجارية الباب بعد أن صبوا عليه القطران فاتت النار عليه (ولا تزال آثار الحريق باقية حتى يومنا هذا) . واقتحموا الجامع . فهرب الأشراف الى المئذنة فلحقوا بهم فألقوا بأنفسهم الى السطح ، ومنه الى سطح الميضاة فصعدوا اليهم ، وقبضوهم ، وقيدوهم ، وبالوا في افواههم ، ثم ذبحوهم ذبح النعاج كل أمام صاحبه . وسالت دماؤهم في مصلى الجامع . وحالوا من دون وصول نجدة من اهل المدينة اليهم . ودب الذعر بين الناس ، وكادت المذبحة تنتقل الى داخل المدينة لولا وصول وفد رسمي من قبل

---

(١) تلاحظ أن تعاوناً خفياً لم اعرف اسبابه كان يجري بين اغوات الانكشارية وبين عشائر البدو . ولقد تكرر ذلك في حادثة قومة البلد عام ١٨٥٠ إذ كان عبد الله البابنسي وهو من السكمانية الينيجارية يعتمد على عشائر البدو في تلك الحادثة .

(٢) حينما ينفى رجل من كبار الشخصيات الى خارج المدينة كانوا يرسلون معه جنوداً تحمل اعلاماً (بيارق) رسمية تشير الى أن سوقهم هذا الشخص للنفي انما هو بأمر الدولة .

(٣) وهي الدار الحارية حتى الآن في وقف احمد الكواكبي قطنها بعد ذلك آل ابراهيم باشا = باعتبارهم من ورثة جدتهم ، اضحت الآن مدرسة ، وتنسب خطأ الى جنبلاط لأن سراي جنبلاط لم يبق لها إلاّ اثر في اساسات البناء .

السلطان سليم الثالث من اسلامبول اتصل بالينيجارية وابلغهم رغبة السلطان بأن يكفوا عن المذبحة في الاشراف، وان يتصالحوا مع الوالي فسكنت الفتنة في حلب موقتاً [1] . إلاّ ان الناس باتوا كالسكارى من هول المذبحة ، التي لم يشاهدوا مثالاً لها من عهد التتر.

وقد أثارت هذه المذبحة قريحة الشعراء فخلدوا ذكرها بشعرهم ، وكان اشهرهم الشيخ محمد أبو الوفاء الرافعي في قصيدته التي نقتطف منها الأبيات التالية :

لا يأمنن صروف الدهر انسان ... ولا نوائبه فالدهر خوان
فكم أباد من الماضين من ملك ... له بسطوته عز وسلطان
كل المصائب قد تُسلى نوائبها ... إلاّ التي ليس عنها الدهر سلوان
هي المصيبة في آل الرسول فقد ... سارت بأخبارها في الناس ركبان
آووا لبعض بيوت الله من فرق ... من العدو وللأعداء عدوان
فجاء قوم من الفجار تقصدهم ... بكل سؤلهم بغي وطغيان
وكيف صح قديماً عهد طائفة ... ضلت وليس لهم في القلب ايمان
سلوا عليهم سيوف البغي واقتحموا ... كما تهجم جبار وشيطان
وكل هذا وآل البيت ما رفعت ... لهم عليهم يد والرب ديان
فلو سمعت عويل القوم من بعد ... إذ يستغيثوا لهدت منك اركان
يا رب والدة كبت على ولد ... فمزقوه وما راقوا وما لانوا
يا رب ارملة ريعت بصاحبها ... وحولها منه أيتام وصبيان
اهذا جزاء رسول الله من فئة ... قلوبهم ملؤها اثم ونيران

وله من قصيدة أخرى:

الله أكبر من خطب له شان ... قد شاب من هول ذاك الخطب ولدان
إذا الرسول ينادي عترتي ظلمت ... سلطانك اليوم لا يقهره سلطان
يزيد سيدكم والشمر قائدكم ... الى الجحيم فبئس الدار نيران

وقال محمد الخسروي من قصيدة طويلة :

أهكذا تفعل الاسلام في نفر ... المصطفى حبهم من قبل ما كانوا
سلوا عليهم سيوف الغدر وابتدروا ... سلباً وقتلاً وما دانوا ولا لانوا
وكم مخدرة للوجه حاسرة ... يهتز من نوحها للعرش اركان
يزيد أوصاكم في ذاك يا سفل ... بموت نسل النبي وهو ظمآن ؟

وقال فاضل بك الاستنبولي من قصيدة :

يا مصطفى ان القلوب منغصة ... لبنيك في الشهباء حلت منقصة
في جامع يدعى الطروش لقد غدت ... بدمائهم تلك الأماكن مقنصة
فدماء اعداء الإله ثمينة ... ودماء أولاد الرسول مرخصة
لانت أولى بالجميع وهذه ... شكواهم رفعت اليك ملخصة

من هو عبد الرحمن الكواكبي ؟

يرد المؤرخون أصل آل الكواكبي إلى سيدنا علي بن أبي طالب وأن رجلاً اسمه (على سياه بوش) من أحفاد صفي الدين الأردبيلي جد الأسرة الصفوية التي حكمت ايران تزوج من حلبية وهو في طريقه الى بلاد الروم ورجع الى أردبيل ومنه بيت الكواكبي . ورد المؤرخون كذلك نسبهم الى الامام محمد الباقر . . وأول من اشتهر بالكواكبي هو أبو يحيى الكواكبي . . « وعرف بالكواكبي لاتصال أحد أسلافه بآل الكواكبي من جهة النساء المعروفين عندنا بعراقة النسب » .

وقيل إنه عرف بالبيري نسبة الى بلدة (البيرة) وعرف بالكواكبي لأنه في البداية كان يشتغل بالمسامير الكواكبية ثم دخل الصوفية وفتح الله له الطريق وتوفي هذا الرجل عام ٨٩٧ هـ ودفن في أحد أحياء حلب بمكان يسمى الآن جامع الكواكبي .

كانت أسرة الكواكبي أسرة متعلمة وأهل دين وورع وزهد وكرم وشرف، وولد أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي وهو والد شخصيتنا ـ عبد الرحمن الكواكبي ـ ولد عام ١٢٤٥ هـ وتلقى علومه في حلب وعرف بالذكاء والأخلاق وخلف وراءه ولدين أحدهما عبد الرحمن الذي ولد عام ١٢٧١ هـ ـ ١٨٥٤ م بحلب حسبما أورده الدكتور سامي دهان في كتابه عن عبد الرحمن الكواكبي ويتفق في ذلك مع المستشرق الفرنسي (نور بيرتا بييرو) . وأذكر هنا ان خطأ مطبعياً قد وقع فيه الدكتور محمد عبد الرحمن برج في كتابه حول عبد الرحمن الكواكبي حيث ذكر انه ـ الكواكبي ـ قد ولد عام ١٨٤٨ م . . ولكن الكواكبي جرياً منه وراء دخول الانتخابات التركية قد غير تاريخ ميلاده الى ١٢٦٥ هـ الموافق ١٨٤٨ م أورد ذلك ابنه د. أسعد الكواكبي.

توفيت والدة الكواكبي عام ١٨٥٩ م وعمره ست سنوات وبذلك فقد حنان الأمومة حيث أرسله والده الى خالته السيدة صفية بنت مسعود في تركيا ومكث هناك سنوات ثلاثاً تعلم فيها التركية وبعض المعارف ثم عاد الى حلب حيث والده الذي ألحقه بمدرسة الشيخ طاهر الكلزي ، فتعلم بعض العلوم في التركية والفارسية والعربية ثم عاد ثانية الى انطاكية وعمره ١١ سنة فكان يدرك الأشياء ويتأثر بجمالها وهنالك بقي عاماً دخل فيه مدرسة خصوصية ثم عاد الى حلب ودخل المدرسة الكواكبية التي كان والده مدرساً فيها ومديراً لها وهنالك اتقن التركية والفارسية تكلماً وكتابةً ، وداوم على القراءة والاطلاع حتى بلغ سن العشرين مكتسباً حصيلة من المعلومات القيمة ، ولما وصل الى ٢٢ من عمره التحق كمحرر غير رسمي « ما يسمى اليوم بالمتعاون » بجريدة « فرات » وهي الجريدة الرسمية التي تصدر عن الحكومة التركية بالعربية والتركية ، وقد كان محرروها من ذوي المقدرة والاطلاع ، ولم يمض عام حتى ألحق كمحرر رسمي بالجريدة ، غير أن الأيام لم تطل حتى أنشأ جريدة عام ١٧٧٨ م باسم (الشهباء) . وتعتبر الشهباء أول جريدة عربية تصدر في حلب وأخذت الشهباء توجه الانتقادات الى المسؤولين وعلى رأسهم السلطان عبد الحميد، وما كان ليرضى السلطان هذا الخط، الأمر الذي جعل الصحيفة تموت عند العدد ١٥ ، ولكن الكواكبي لم ييأس فعاود الكرة من جديد عام ١٨٧٩ م حيث أنشأ جريدة أخرى باسم « الاعتدال » ولكنها بامتياز سعيد بن علي شريف، غير أنه كما ألغى كامل باشا الجريدة الأولى ألغى جميل باشا رئيس الوزراء العثماني الجريدة الثانية . . كل ذلك لأن ما جاء به الكواكبي لم يكن مألوفاً في تلك الآونة من جرأة ونقد لاذع لصور الفساد في البلاد وكان المقصود بعملهم ذلك أن يسدوا الطريق أمام غيره من الشباب .

ولما بلغ الكواكبي ٢٥ من عمره عيّن عضواً فخرياً في لجنتي المعارف والمالية ، ثم عضواً في الأشغال العامة ، ثم رئيساً لقلم المحضرين في ولاية حلب، ثم عضواً فخرياً في لجنة امتحان المحامين . وفي عام ١٨٨١ م عيّن عضواً فخرياً في مطبعة ولاية حلب ثم رئيساً فخرياً كذلك للجنة الأشغال العامة . وفي ١٨٨٦ م عيّن مأموراً للإجراءات في حلب . وقد كان في كل هذه المناصب عاملاً مثابراً مخلصاً شجاعاً في قول الحق مما جعل الدولة تراقب أعماله وخاصة حينما علم جميل باشا والي حلب بأن ما يكتب في صحف الآستانة وبيروت كان بتحريض من الكواكبي .

أبى الكواكبي هذه المعيشة واستقال من الوظيفة الحكومية عام

(١) ذلك لأن الفتنة تكررت في ايام خورشيد باشا وانقلبت الى ثورة عارمة .

١٨٨٦ م وفتح مكتباً للمحاماة يدافع عن المظلومين ويأخذ بأيديهم ، فقد كان مكتبه منتدى للمظلومين الذين يفتح الطريق في وجوههم ، وقد كان الكواكبي مصدراً رجع اليه المبعوث من الآستانة والذي جاء للتحقيق في خلاف بين والي حلب وقنصل انجلترا ، فكان المندوب يجتمع بالكواكبي سراً ويأخذ منه المعلومات الصادقة حتى كانت النتيجة عزل القنصل عن حلب ، وبذلك أثبت الكواكبي أنه لا يطلب غير الحق ولا يقول سواه حتى ولو كان على عدوه . . واتسعت الشقة بين الكواكبي ووالي حلب بما وشاه الواشون حتى فكر الوالي في وسيلة للقضاء بها على الكواكبي ، ولما أحس الكواكبي بذلك قرر الرحيل الى استانبول ، غير أن الوالي منعه وسلّط رجاله لمراقبته ومراقبة المترددين عليه والذين كانوا من المظلومين الذين يكتب لهم العرائض . ولما كثرت العرائض والشكاوى أرسل السلطان صاحب بك الى حلب ليحقق في تلك العرائض ويقال انه بقي مع لجنته شهرين ينظرون في شكاوى كانت مكتوبة بيد الكواكبي .

صادف ان أطلقت النار على الوالي من قبل محام أرمني فاصابه ولم يقتله ، عندها اعتقل الكواكبي وجماعته توقعاً بأنه كان وراء الحادث ، غير أنه في النهاية نقل الوالي الى الحجاز وحلّ محله عثمان باشا الأعرج والذي كان يحمل على كرسي نتيجة لعجزه .

وبعد مجيء هذا الوالي عيّن الكواكبي رئيساً للبلدية ثم عزل ، وبعض الآراء ترى أن الكواكبي وقع ضحية مكيدة كادها له الوالي فسجنه ثم برأته المحكمة .

وأثناء تعيينه رئيساً للبلدية عام ١٨٩٢ م أثبت عبقريته ووسع اطلاعه وأعماله الكثيرة ومشاريعه المتعددة . ولما عاد عثمان باشا الى حلب مرة ثانية عين الكواكبي عام ١٨٩٢ م رئيساً لغرفة التجارة والمصرف الزراعي فقام بعمله على خير ما يكون القيام ولكنه استقال فيما بعد وسافر الى استانبول للسياحة ثم انزوى ولم يسمع بقدومه أحد حتى بعث الى أبي الهدى الصيادي الذي أحضره الى منزله واغتبط بوصوله ، وبعد أشهر رجع الكواكبي الى حلب حيث اشتغل في الالتزام في ادارة الريجي ، وبذلك زاد حب الشعب له وثقتهم فيه وفي عام ١٨٩٤ م عيّن رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية بحلب فنظمها ومنع اختلاط الرجال بالنساء غير أن بقاءه فيها لم يستمر سوى عامين وتألب عليه الحساد والأعداء فنقل رئيساً للجنة البيع في الأراضي الأميرية ، وازداد حب الشعب له في الوقت الذي زاد غضب اعدائه وحسّاده .

وقد تظاهر الكواكبي بالسفر الى استانبول في الوقت الذي كان عازماً على السفر الى مصر حيث كان في ذهن أصدقائه أنه مسافر الى استانبول ولم يشعروا إلاّ ومقالاته في صحف مصر ، وهناك تقرب منه بعض الأتراك متظاهرين بالصداقة ولكنهم في الواقع جواسيس عليه ، وقد التقى في مصر مع كثير من الكتّاب والأدباء وأخذ ينشر مقالاته في صحف مصر كما أخذ نجمه في اللمعان بين الناس وخصوصاً أثناء نشر كتابه (أم القرى) الذي ألّفه أثناء وجوده بحلب . . وقد نشر الكواكبي - بدون توقيع - مقالات حول الاستبداد وقد كان لتلك المقالات صدىً عميق لدى القرّاء المعجبين دون أن يعرفوه . .

ولما كان الخديوي عباس الثاني يتوق الى الخلافة فقد استدعى الكواكبي من أجل أن يمهّد أمامه الطريق بالدعاية مقابل أجر شهري مقداره (٥٠ جنيهاً مصرياً) وبدأ الكواكبي رحلته الدعائية في عام ١٩٠١ م وعمره لا يزيد على ٤٩ سنة فاتجه الى اليمن ثم الى الهند وشرق أفريقيا وطاف مصر والسودان ، والحبشة ووصل الى منطقة باكستان الحالية . وقد دامت تلك الرحلة حوالي ستة أشهر عاد بعدها الى القاهرة بمعلومات وفيرة وكان ينوي القيام برحلة أخرى الى المغرب غير أن المنية عاجلته وانتقل الى رحمة الله بعد أشهر ثلاثة من عودته حيث توفي مساء الخميس ١٤ يونية ١٩٠٢ م الموافق ٥ ربيع الأول ١٣٢٠ هـ عن عمر يناهز الخمسين عاماً . . غير أن د. محمد عمارة في كتابه « الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي » يرى أن الكواكبي مات مسموماً من قبل عميل عثماني .

ولما علم الخديوي عباس بوفاته أمر أن يدفن على نفقته حيث دفن في سفح المقطم ، غير أن رفاته نقلت مؤخراً الى مقبرة خاصة بمشاهير العلماء بمنطقة باب الوزير ، وقد كتبت على القبر أبيات للمرحوم حافظ ابراهيم :

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى	هنا خير مظلوم هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا ام الكتاب وسلموا	عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

وقد تأثر لوفاته كل الأصدقاء والأحباب وكتبت الصحف مقالات طويلة عن حياته ومآثره .

غير أن الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه (عبد الرحمن الكواكبي) لا يوافق أن يكون الكواكبي قد ذهب في رحلته مدفوعاً من الخديوي اسماعيل ويعتمد في ذلك على ما ذكره أحد الذين يعرفون الكواكبي والذي أبلغه أن الكواكبي كان يدعو لنفسه .

وقد كان الكواكبي عازماً على أن يخرج رحلته تلك في كتاب غير أن المنية لم تمهله . .

كانت بداية النهضة الفكرية العربية في بلاد الشام في منتصف القرن التاسع عشر حين ظهرت الأرساليات التبشيرية والتي يحركها المستشرقون الأوروبيون ، وكان لفرنسا السبق في ذلك حين أنشأت أول مركز للثقافة الفرنسية عام ١٧٣٤ م وأدخلت أول مطبعة الى المنطقة في حلب عند بداية القرن الثامن عشر . . ودخل التنافس بين المبشرين الفرنسيين والبروتستانت الأمريكيين حيث فتح الأمريكيون المدارس، فما من منطقة تقيم بها احدى الطائفتين مدرسة حتى تسرع الثانية لانشاء مثيلتها . . وقد أدت الرحلات والهجرة والمدارس والتجارة الى تثبيت الثقافة الأوروبية بالمنطقة ، الأمر الذي أدى الى ظهور أعلام ينادون بضرورة بعث الأدب العربي القديم .

وقد ترتب على ذلك أيضاً انقسام المفكرين الى قسمين : قسم يرى ان ادخال الحضارة الغربية سيؤدي الى القضاء على الحضارة الاسلامية ويطفو فوقها ، وفريق آخر لا يرى مانعاً من الاقتباس من الحضارة الغربية والأخذ منها ما يناسب الحال .

ويبرز أمامنا أساتذة اجلاّء من رواد الفكر الاسلامي أمثال جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي .

وكان الأفغاني ينشد مجتمعاً اسلامياً صافياً عقيدة وصفات ونظاماً سياسياً وكذلك كان الكواكبي يطمح إلى مجتمع اسلامي مع التركيز على أهمية العرب فيه ، فالأفغاني يرى « أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ولا تاريخ لهم إذا لم يقم منهم من يرى آثار رجال تاريخهم فيعمل عملهم وينسج على منوالهم » .

ويرى الكواكبي أن قيادة أمة الاسلام تكون للعرب ويحصرها في عرب الجزيرة ويخصصها في قريش، ويرى كذلك أن عدم استعراب العثمانيين ساعد على فشلهم وان العثمانيين قدموا الدولة على الدين والملك على العقيدة ، بينما يرى الأفغاني أن صلاح أحوال الأمة الاسلامية يكون على يد الدولة العثمانية وندد بالسياسة الأوروبية ، وقد قال الكواكبي مناشداً أبناء العرب « كان أجدادكم لا ينحنون إلاّ ركوعاً لله وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل

المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الأخوان وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستورين اعزاء وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلّاء ».

وقد خلف الكواكبي آثاراً خالدة بقيت وإن ذهب الرجل ، فقد أبقى للانسانية مجموعة من الكتب : « أم القرى » ، « طبائع الاستبداد » ، وسأتعرض لكل منها بإيجاز شديد . أما كتاب « صحائف قريش » فكان قد ألفه الكواكبي وكان جاهزاً للطباعة إلّا أن وفاة المؤلف المفاجئة جعل الكتاب يصادر مع مجموعة من أوراقه وأرسل هدية للسلطان العثماني ، وقد بحث عنه ابنه الدكتور أسعد في الآستانة ولكنه لم يعثر عليه وقد أشار الكواكبي نفسه الى هذا الكتاب في بداية كتابه « أم القرى » حيث قال : « من يظفر بنسخة من هذا السجل فليحرص على اشاعته بين الموحدين وليحفظ نسخة منه ليضيف اليه ما سيتلوه من نشريات الجمعية باسم « صحائف قريش » والتي سيكون لها شأن في النهضة الاسلامية العلمية والأخلاقية .

أما كتاب « العظمة لله » وكان هذا الكتاب قد ألفه الكواكبي ولم يطبع للناس فقد صودر هو الآخر وقد ذكر محمد كرد في مذكراته بأنه اطلع على ذلك الكتاب في مصر.

وبالاضافة الى ذلك كان الكواكبي شاعراً وما زال ابنه يحتفظ بحوالي ٣٠٠٠ بيت من شعره.

* **أم القرى** : ألف الكواكبي هذا الكتاب في حلب ونشر أول ما نشر في مصر سنة ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م ، وفيه تخيل المؤلف مؤتمراً اسلامياً عقد بمكة للنظر في أحوال المسلمين وسبب تأخرهم وحضر هذا المؤتمر ممثلون عن جميع الأقطار الاسلامية حتى سكان ليفربول المسلمين قد أرسلوا من يمثلهم في المؤتمر ، وترأس المؤتمر العضو المكي بينما تولى أمانة السر الكواكبي الذي سمي بالسيد الفراتي نسبة الى الفرات . . وقد وصل المؤلف الى مكة في أوائل ذي القعدة بعد جولته في كثير من الأقطار ، فوجد في مكة كثيرين استجابوا لدعوته عدا الأديب البيروتي الذي اعتذر لأسباب جعلته يمتنع والتي لم يذكر عنها السيد الفراتي شيئاً ، وقد مثلت في المؤتمر كل من مراكش ، تونس ، القسطنطينية ، تفليس ، تبريز ، بكين ، دلهي ، كلكتا ، ليفربول ، وقد دامت الاجتماعات ١٥ يوماً عقد فيها المؤتمرون ١٣ اجتماعاً بما في ذلك اجتماع الوداع .

- **الاجتماع الأول** : عقد هذا الاجتماع يوم الاثنين ١٥ من ذي القعدة ١٣١٦ هـ وحضره ٢٢ عضواً حيث وزعت مطبوعة تحوى مفتاح الرموز المستعملة في المؤتمر وكان شعار المؤتمر (لا نعبد إلّا الله) وافتتح المؤتمر الأستاذ المكي بالترحيب وعرض حال المسلمين المتأخر ثم حددت خطوط الجلسة المتمثلة في تلك الحالة وتأثير الجهل عليها وتحميل العلماء والأمراء سببها ووضعوا العلامات الحمراء أمام الأمة ويبين الرئيس المكي بأن النهضة متوقعة وبأن الأمل موجود بل ويحدد مواعيد لها وهي فترة لا تتعدى عشرين عاماً تستطيع خلالها الأمة الاسلامية أن تستوعب العلوم الحديثة وتبني مجتمعها ومن بعد في العشرين سنة المقبلة تستطيع أن تبني جيلاً جديداً يرقى بها ، وقد نبه السيد المكي الى دور الجمعيات في هذه الفترة ، وفي النهاية يطرح القضايا الرئيسية الواجب بحثها والتي تتمثل في الداء وموضعه وأعراضه ، والداء وجراثيمه ووسائل استعمال الدواء وكيف يكون التدين بالاسلام ، وعن الشرك الخفي والبدع ومقاومتها وتحرير قانون لتأسيس جمعية تعليمية .

- **الاجتماع الثاني** : عقد هذا الاجتماع في ١٧من ذي القعدة ١٣١٦ هـ أي بعد يومين من الاجتماع الأول . وفي بدايته تكلم الرئيس المكي عن حالة الفتور الاسلامية مقابل حركة اعدائهم النشطة ، وعلى المؤتمر النظر في هذه المشكلة وقال الصاحب الهندي : أن كثيراً من البلدان خاملة . أما الفاضل الشامي فردّ ذلك الى عقيدة الجبرية ، أما البليغ القدسي فردّه الى أنظمة الحكم من اشتراكية ديمقراطية الى ملكية مطلقة ، ورد الحكيم التونسي الأمر الى الجهل ، والمولى الرومي عزاه الى فقدان الحرية .

- **الاجتماع الثالث** : عقد هذا الاجتماع يوم الخميس ١٨ من ذي القعدة ١٣١٦ هـ حيث واصل المولى الرومي حديثه موجهاً النقد اللاذع للعلماء. « الرياض الكردي » يرد الأمر الى بعد المسلمين عن العلوم التطبيقية .

أما الفقيه الأفغاني فقد رأى أن الفقر هو السبب وكذلك اساءة جباية الضرائب.

- **وفي الاجتماع الرابع** : تحدث المندوب النيجيري عن المجتمع في ذلك الزمان مقارناً إيّاه بالمجتمع قبل الاسلام .

- **وفي الاجتماع الخامس** : تم تفويض السيد الفراتي والسعيد الانجليزي بوضع قانون دائم للجمعية ، وتحدث فيه السعيد الانجليزي عن نشاط جماعته الداعية للإسلام ووجوب تدعيمها ، والاجتماع السادس بحث فيه الاسلام ومرونته وتطوره.

- **وفي الاجتماع السابع** : الذي عقد في ٢٤ من ذي القعدة ١٣١٦ م تحدث السيد الفراتي عن أسباب تأخر المسلمين وأرجعه الى عوامل دينية وسياسية وأخلاقية ثم تحدث عن أسباب خراب الحكم العثماني فأرجعها الى قوانين تلك الدولة التي كانت تطبق على كل المناطق على الرغم من تباينها وكذلك مركزية الحكم وطريقة اختيار حكام الولايات ، وعدم المساواة بين الرعايا ، ومحاربة الأفكار الجديدة وتسليم الحكم ليد من لا يستحقه وكذلك الاستبداد بالرأي .

- **وفي الاجتماع الثامن** : واصل الحديث السيد الفراتي موضحاً النظرة الجديدة لأمة اسلامية تعيش نظام العصر.

- **الاجتماعات التاسع والعاشر والحادي عشر**: فيها قرىء قانون الجمعية فقرة فقرة ثم نوقشت في الاجتماعين العاشر والحادي عشر.

- **الاجتماع الثاني عشر** : وفيه دار بعض النقاش حول القانون الذي سمي (قانون جمعية تعليم الموحدين) ويتكون من مقدمة وفصل أول في تشكيل الجمعية ثم الفصل الثاني في ميادين الجمعية والفصل الثالث حول مالية الجمعية والفصل الرابع في وظائف الجمعية ثم الخاتمة.

وفي هذا القانون نرى الدعوة صريحة لاقامة خلافة عربية مرجعين ذلك الى ستة وعشرين سبباً .

* **طبائع الاستبداد** : سبق أن ذكرت أن الكواكبي قد وصل الى القاهرة في الوقت الذي كان أصدقاؤه يتوقعون ذهابه الى استانبول . ولما وصل الى القاهرة بدأت مقالاته تتوالى في صحفها تهاجم الاستبداد . ويقول صديقه كامل الغزي: ان الكواكبي لم يطلعه على كتابه (طبائع الاستبداد) مثلما فعل في كتابه (أم القرى) ولم يعلم كغيره من أصدقائه إلّا ومقالات كتابه تنشر تباعاً ، وقد أصدر السلطان العثماني عبد الحميد الثاني قراراً يمنع دخول الكتابين الى بقية الممالك وقد كان الكواكبي يؤمن أن عمله لن يحقق ما يتمناه ، بل انه سيكون خطوة على الطريق فقد وصف كتابه بأنه « كلمات حق وصيحة في واد إن ذهبت اليوم مع الريح فقد تذهب غداً بالأوتاد » .

ويعرف الكواكبي الاستبداد لغوياً بأنه : « غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة ثم هو في اصطلاح السياسيين تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعه » .

ويرى ان أعلى قمة في الاستبداد هو حكم الفرد المطلق، وأن استمرار ذلك يعود الى جهل الشعب والجيش ، والبقاء في ظل هذا الحاكم هو إعانة له ، وبذلك يدعو الكواكبي الى الهجرة من مواطن الظلم ، ويرى ان الكلب الطليق خير من حياة الأسد المربوط.

وفي الفصل الثاني من الكتاب يتعرض الكواكبي للاستبداد والدين ، ومحاولة استغلال الدين والتظاهر به ، وأن الجهل هو العامل المساعد لهذه اللعبة ، وأن الاستبداد الديني مرتبط بالاستبداد السياسي.

وعن الاستبداد والعلم يصف الكواكبي العلم بالشمعة وقبسها من نور الله ، ويضع المستبد بالعلم في مرتبة الوصي الخائن القوي الذي يتصرف في أموال وأنفس الأيتام كما يريد وينوي دون أن يبلغوا الرشد والذي لا يتمنى أن يبلغوه ، وإن هذا المستبد أخشى ما يخشى تنور الشعب بالتاريخ والسياسة والفلسفة العقلية والحكمة النظرية . . وطبيعي أن يحدث صراع بين الحاكم والعلماء - غير المناقضين والمتملقين - يحاول الطرف الأول اطفاء مما ينوره الطرف الثاني وما من امة انتشر فيها العلم إلاّ وسقطت قيود البغي والاستبداد . وعن المجد والاستبداد يفرق الكواكبي بين المجد والتمجيد والذي يراه هو استعباد بذاته ، والممجدون هم الساعون للرتب والنياشين وصورة الشعب أمام الحاكم ، ويخالف الكواكبي ابن خلدون فيما يرى أن إقدام البشر على الخطر إذا هدد مجدهم خطأ.

ويتفق مع أسماء بنت أبي بكر في رأيها ان صاحب الحق ان كان مقتنعاً بحقه فعليه أن يقاتل حتى يموت ، وهذا ما قالته الى ابنها في موقفه من الحجاج .

أما عن الاستبداد والمال فيقول الكواكبي : « إن الاستبداد لو كان رجلاً وأراد أن يحتسب وينتسب لقال: أنا الشر وأبي الظلم وأمي الإساءة وأخي القدر وأختي المسكنة وعمي الضر وخالي الذل وابني الفقر وبنتي البطالة وعشيرتي الجهالة ووطني الخراب أما ديني وشرفي وحياتي فالمال المال المال » .

وعن الاستبداد والأخلاق يرى بأن الاستبداد يفسد الأخلاق ويدفع المرء الى محاولة الهجرة من الوطن ويؤدي كذلك الى التخلخل الأسري وفي ظل الاستبداد الأخلاقي ينعدم الصدق ويعلو الرياء والنفاق.

وحول الاستبداد والتربية يجد الكواكبي أن الاستبداد يؤدي الى انحراف التربية الحقيقية وينحرف الناس عن الحقيقة وبالتالي يعيشون في قلق مستمر.

وعلاقة الاستبداد بالترقي هي أن الاستبداد يحول دون ترقي الانسان سواء في العلم أو المال أو القوة أو الصحة.

ويدعو الكواكبي الى التنور بالعلم حتى يستطيع الشعب أن يسقط المستبد.

وقد أوضح الكواكبي أن الاستعمار لا يعدو عن كونه تاجراً يمتص دماء الشعوب فحسب ولا يهمه من أمر هذه الشعوب شيء.

وينهي الكواكبي كتابه بالطرق التي يمكن بها التخلص من الاستبداد حيث يركز على عامل التعليم ويحذر بأن المستبد مهما طال بقاؤه فان نهايته الزوال ويستشهد بقول القيادي : « لا يفرحن المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير » .

وإلى هنا اعزائي القرّاء أكون قد تعرضت الى بعض الجوانب عن عبد الرحمن الكواكبي وإن كنت لم أتعمق فيها ولم أتعرض لكل الجوانب فيه فإن أصبت فذاك من فضل ربي وإن قصرت فذاك من نفسي وما الكمال إلاّ لله . (انتهى) .

الكواكبي المصلح الاجتماعي

وننشر بعدما تقدم كلمة للدكتور جورج كتّورة تحدد معالم فكر الكواكبي :

قال الدكتور جورج كتورة :

يعتبر الكواكبي أحد أبرز وجوه عصر النهضة . أو العصر الذي اصطلح على اطلاق هذه الصفة عليه . وهو الفترة التي تلت نظرياً عصراً طويلاً من الانحطاط وفي المجالات المختلفة من أدبية وفكرية وسياسية واجتماعية . فبعد ابن خلدون الذي أرّخ للفترة التي سبقته لا من الناحية الزمنية وحسب ، بل من الناحية الاجتماعية والفلسفية ايضاً ، قلّما نجد كتابات تعنى بكشف الواقع وتسعى لايجاد حلول مناسبة للأوضاع المتردية ، بل البالغة في التردي . حتى كتابات ابن خلدون مع ما حملت من تشخيص للأزمة السياسية المتردية منذ زمن طويل، لم تستطع ان تحمل حلاً فظلّ الوضع على حاله .

ويزداد الوضع تفاقماً في كل مرة يحاول مؤلف نهضوي مقارنة أوضاع محيطة بالأوضاع السائدة آنذاك في الغرب الذي حقق ثورته الصناعية الى حد ما والذي شهد دفعاً جديداً باتجاه الاكتشافات العلمية وتحويل العلم الى تقنية تسهم بتحقيق مزيد من الرفاهية وبالتالي المزيد من الازدهار . علماً ان التركيز على الايجابيات لا يعني اسقاط السيئات التي برزت عند ذاك إن على الصعيدين الأخلاقي - الأسري أو الدولي ، كالعلاقات بين الدول والتنافس التجاري والاقتصادي مع ما استتبع من حروب . والواقع أنه حين كان الحديث يدور على عصر النهضة في المشرق ، لم يكن الحديث هذا إلاّ آمالاً يرجى معها تحقيق النهضة . فالوضع السياسي غاية في التردي والدولة العثمانية - وهي الدولة الأساس - راحت تفقد تدريجياً السيطرة على اطراف متعددة منها : إن في مصر أو في سوريا أو في البلقان ، أما الداخل وما تبقى لها فلم يعد حكماً متماسكاً إلاّ بقوة الأداة العسكرية وسيطرة نزعة الاستبداد الذي بلغ ذروته في العهد الحميدي وبوصول فئة من المتملقين امثال أبي الهدى الصيادي الى اعلى مراكز النفوذ ، الأمر الذي اتاح سيطرة سياسية احكمت يدها على الحيوات كافة ، الأدبية والفكرية والاجتماعية . فكان ان اقفلت افواه العديد من المطالبين بالاصلاح وبالحرية وبالتقدم . وكان ان انتهى منهم جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧) شبه أسير في الأستانة ، ثم ما لبث ان لحقه آخرون ايضاً ، امثال عبد الله النديم (١٨٤٥ - ١٨٩٦) ليحل ضيفاً يؤمن مأكله ومشربه ويشترى لسانه وسكوته ، رغماً عنه كالأفغاني . ومن لم يحظ بعطف الدولة المشبوه والمقرون بكم الأفواه وتعليق الانتقادات يلاحق ويطرد من بلد إلى آخر ، حتى يقضي نحبه أو يقضى عليه . وهذا ما كان من شأن مع الكواكبي.

ولد عبد الرحمن الكواكبي عام ١٨٤٨ في مدينة حلب من اسرة عريقة في نسبها وفي علمها وفي عملها. فنقابة الأشراف كانت فيها الى فترات. ومن مآثرها انشاء مدرسة انفقت عليها من أوقاف خاصة بها. وفي «المدرسة الكواكبية» بدأ عبد الرحمن تحصيل أول دروسه ليتعلم فيما بعد من اللغات التركية والفارسية . وبعد دراسته التقليدية انكبّ على دراسة الكتب التاريخية والقانونية والسياسية وهكذا تعرف بشكل أوفى على الأوضاع السائدة لينتقل للعمل في مجالات متوازية . فكان قاضياً لفترة ورئيس بلدية لفترة أخرى. وحين لم يكن قاضياً كان محامياً ينصر الضعفاء ويساعد في حل الخلافات . وبين مرحلة وأخرى، بل خلالها كان الكواكبي سياسياً ، بمعنى ان السياسة ظلّت هاجسه الأول وقد عبّر عن ميوله هذه عبر العمل الصحفي، اكثر الأعمال التصاقاً بالناس من جانب وبالسلطة من الجانب الآخر، وكان

الصحافة المهنة الوسيطة الوحيدة ، إذ تكفيها نقلة وحيدة فتكون اما مع السلطة وإما مع مناهضيها . والكواكبي كان مع مناهضي السلطة ـ مع الأكثرية ـ فأصدر المجلة تلو الأخرى وكان في كل مرة لساناً سلطاً وداعية تحرر وداعية استقلال وداعية ثورة على ظلم النظام الحميدي الذي لم يدعه يستقر وإن لسنوات . فأوقف اصدار مجلته الأولى « الشهباء » ليصدر غيرها باسم اكثر اعتدالاً ، فكانت « الاعتدال » ، ولكن سيف الاستبداد ظل يلاحقه باستمرار وظلت دسائس أبي الهدى الصيادي تجد له التهمة إثر الأخرى فأوقف العمل بالصحافة ليعمل بالتجارة . لكن التهم ظلّت تلاحقه وتلاحق مشاريعه حتى الزم افلاس تجارته وانهاء العمل فيها لينتقل الى مصر البعيدة نسبياً عن التسلط العثماني وسيف استبداده.

وفي مصر عاد الكواكبي ليعمل بالصحافة فيكتب كتابه الأول « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » بشكل مقالات صحفية تنشر تباعاً فتلاقي رواجاً شديداً وصدىً عريضاً واسعاً لما تضمنت من تحليل صائب للأوضاع الاجتماعية السياسية السائدة ومن لهجة صادقة ومن نقد كانت مصر ابان تلك الفترة موطنه وراعيته . وفي الوقت نفسه كتب كتابه الآخر « أم القرى » الذي تناول معظم موضوعات الكتاب الأول وإن باسلوب مغاير ، إذ تخيل المؤلف وقائع مؤتمر عقده علماء مسلمون من اقطار شتى توخياً لبحث الفتور والتأخر ، بل الانحطاط الذي أصاب من جسم الأمة مقتلاً . وقد ذهبت بعض الدراسات الى حد اعتبار هذا المؤتمر صدى لجمعية فعلية كان الكواكبي احد اعضائها . أياً كان الأمر فان الكواكبي قد توخى في كتابيه بحث قضية واحدة لا غير : الترقي ـ اسبابه والطرق الموصلة اليه[1].

وفي مصر ظلّت عيون الحكم الاستبدادي تراقب الكواكبي وتترصده الى ان تمكنت منه عام ١٩٠٢، فمات مسموماً على الأرجح وقد صودرت كتبه وأوراقه وبينها كما يقال مؤلفات كان يعمل على انهائها . وإذا كنا قد أشرنا الى المناحي السياسية المرتبطة بواقع عصر الكواكبي والتي عانى منه هو شخصياً فذلك من اجل ربط نتاج مؤلفنا بعصره ليس إلاّ . إذ أن الأفكار الاصلاحية حتى منها ما سيردده الكواكبي كانت قد ابتدأت فعلاً مع اعلام سبقوه كالأفغاني والطهطاوي وخير الدين التونسي ، وبسبب ظروف أخرى عاشتها مصر وعاشتها اقطار أخرى بما في ذلك قلب الحاضرة الاسلامية آنذاك ، أي مركز الدولة العثمانية . على سبيل الاشارة فقط يشار الى اثر حملة نابليون والى دور الارساليات التبشيرية في لبنان وسوريا خاصة والى دور الجمعيات السياسية والعلمية التي انتشر قسم منها في الأستانة والتي رددت ودعت بعنف الى التمثل بالاصلاح وبأفكار الثورة الفرنسية وبأفكار عصر الأنوار . كما دعت الى تحديث الدولة . يضاف الى ذلك جهاد محمد علي والي مصر وسعيه لتحديث الدولة وادخال العلوم ، لا سيما الحربيةوالهندسية والطبية ، فكانت بعثاته حافزاً على طلب المزيد من التقدم . هذا الى جانب انتشار الدعوات القومية ودعوات الاستقلال الوطني .

في ظل هذه الأوضاع على اختلافها كان الكواكبي المصلح . وما سنتعرض له فيما يلي ليس إلاّ تتبعاً مكثفاً لأفكاره السياسية والاصلاحية فنعرض عن التفاصيل التي نحيل اليها في كتابنا عن الكواكبي ، لنتعلق بجوهر مشروعه الاصلاحي . يلاحظ الكواكبي شأن العديد من المصلحين ان الأزمة التي يعاني منها الشرق، ازمة سياسية تولد عنها ما يعاني الناس في هذه الامبراطورية المترامية الأرجاء من ضيق أو انحطاط أو فتور أو تأخر الى ما هنالك من عبارات بعضها يأمل التخفيف ، وبعضها يذكر بماضٍ وبعضها يدفع التشاؤم ليضع الأمل في تاريخ قريب يرجى معه الخلاص من كبوة اليوم . فبعد انتقاله الى مصر من حلب وفي تقديمه لأولى مقالات كتابه « طبائع الاستبداد » يقول الكواكبي واضعاً اليد على الجرح كما يقال: « . . . اقول وأنا مسلم عربي مضطر للاكتتام . . . انني هجرت دياري سرحاً في الشرف وزرت مصر واتخذتها لي مركزاً ارجع اليه مغتنماً عهد الحرية فيها . . . فوجدت افكار سراة القوم في مصر كما هي في سائر الشرق خائضة عباب البحث في المسألة الكبرى ، اعني المسألة الاجتماعية في الشرق عموماً وفي المسلمين خصوصاً . انما هم كسائر الباحثين ، كلّ يذهب مذهباً في سبب الانحطاط وفي ما هو الدواء » .

ما يلاحظه الكواكبي بحق كان شغل العالم الاسلامي والمشرق العربي وما زال . وإذا كان كتابه الأول « طبائع الاستبداد » قد اعتبر الاستبداد سبباً عاماً اثر على كافة المناحي العلمية والتربوية والاقتصادية فأفسد السياسة وأفسد الأحوال ففي كتابه الآخر « أم القرى » كان الكواكبي اكثر وضوحاً واكثر تفصيلاً ـ فأتى وعلى لسان المندوبين المتعددين على اكثر من سبب فاعتبر الجهل ، وفقدان الرابطة الدينية ، وفقدان الحرية والشورى، أو الديمقراطية بمفهوم غربي اعم ، من جملة العوامل المؤدية لهذا التأخر الضارب في أرض الاسلام ولا سيما في مشرقه . علماً ان المسألة لا تقتصر على العموميات فقط فقد وسَّع الكواكبي رأيه في الحرية المسلوبة ، أو الحرية المطلوبة لا فرق . فأشار الى الحريات السياسية التي تغطي منهدمي الحق والواجب ، وتحدد السلطة وتفرض محاسبة الحاكم . وتحدث عن الحرية الشخصية بمعنى حرية الاختيار . وتحدث عن الحرية بالمعنى الاجتماعي ، بحيث يكون الانسان آمناً في بيته ومسكنه وموطنه يتعامل مع اخيه الانسان على نفس المستوى الذي يؤمن العدل والمساواة . هذا الى جانب حرية التعليم حتى بلغ به الأمر الى حد اعتباره « الحرية روح الدين ، فهي اعز شيء على الانسان بعد حياته ، وبفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتحدث النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين » .

ومن مستلزمات الحرية ، أو من المسائل المرافقة لها مسألة الشورى ، وهي مسألة أثارها الكواكبي كما أثارها سواه إلاّ ان توقف الكواكبي عند هذه النقطة كان هاماً وحساساً . وتقضي الفكرة اساساً العودة لاستلهام روحية الدين الذي يدعو لجعل الأمر شورى بين المسلمين ووجوب استشارة اهل الحل والعقد ، الى جانب استشارة أهل العلم . هذا من جانب . ومن جانب آخر يقضي الأمر اقامة مؤسسات سياسية اقرب ما تكون الى البرلمانات الغربية التي تناقش الأمور وتبت بها وتكون حكماً ووصياً على الدستور . بمعنى آخر لا بدَّ من الخلاص من الحكم الفردي بأمل ارساء نوع من الأمر الجماعي بحيث تكون السلطة محكومة باكثر من رأي وموجهة من اكثر من مصدر . وقد لا يعني ذلك عودة الشورى كما مورست في استخلاف عثمان (الخليفة الثالث) من قبل عمر بن الخطاب، بل الى الروح التي قضت ان لا يكون الخيار فردياً ، بل جماعياً . بعبارات أخرى لا بدَّ من فهم الاشارات السياسية كما فهمها السلف الصالح ، ذلك السلف الذي فهم جوهر الدين نظرية وممارسة ففهم معنى التوحيد ، وفهم معنى المشاركة . يقول الكواكبي : « فان هؤلاء الخلفاء الراشدين فهموا معنى ومغزى القرآن النازل بلغتهم وعملوا به واتخذوه اماماً . فانشأوا حكومة قضت بالتساوي حتى بينهم انفسهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها واحدثوا في المسلمين عواطف اخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لا تكاد توجد بين اشقاء يعيشون باعالة أب واحد وفي حضانة ام واحدة ، لكل منهم وظيفة شخصية ، ووظيفة عائلية ووظيفة قومية . على ان هذا الطراز السامي من الرياسة هو

---

(١) في هذه الفترة ايضاً ، وضعت العديد من المؤلفات التي تحدثت عن تقدم الغرب وتأخر المسلمين . محاولة تلمس الأسباب لذلك.

الطراز النبوي المحمدي الذي لم يخلفه فيه حقاً غير ابي بكر ثم اخذ بالتناقص وصارت الأمة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان الى الآن ، وسيدوم بكاؤها الى يوم الدين إذا لم تنتبه لاستعواضه بطراز سياسي شوري، ذلك الطراز الذي اهتدت اليه بعض امم الغرب، تلك الأمم التي ، لربما يصح ان نقول ، قد استفادت من الاسلام اكثر مما استفاده المسلمون »[1].

لن نعقب على النص بافاضة في الشرح، بل باستلهام المبدأ السياسي الذي يتضمنه . فالواضح جداً ان الكواكبي انما يقصد اولاً مقارنة الأوضاع السائدة في عصره بما تحوي من ظلم وتعسف واستبداد ، اي من فلك سياسي عام بوضع سليم نموذجي ساد زمن النبي فالخلافة الراشدة . ولا يعني ذلك ضرورة كما فهم بعض الدارسين رغبة الكواكبي في استعادة منصب الخلافة ، أو في اعادته الى العرب أياً كان الشكل الذي اقترح لذلك[2] . على ان ما نستنتجه هنا انما يتجه أول الأمر الى ذلك النمط من الحياة حيث ساد الانسجام الكلي فترة الخلافة الأولى. الانسجام بين السلطة وبين العامة = الرعية . والانسجام يولد الهدوء والهدوء يولد التقدم وهذا ما حدث فعلاً ولا مجال لانكاره . وشرط الانسجام ، أو احد مقوماته الدين ، الذي إذا ما طبق بشكل صحيح فسيقود حتماً الى هذا النوع من المساواة المنشودة بين السلطة وبين من تعمل من اجلهم . فالتساوي شرط الانسجام وبه تمامه .

صحيح ان الكواكبي لم يتحدث عن السلطة باعتبارها مؤسسة سياسية تاريخية ظهرت في فترة محدودة وعليها ان تتطور تبعاً للظروف التي قد تطرأ . ولذلك تبدو المساواة المنشودة أقرب الى المساواة الطبيعية إذا جاز التعبير . فالناس متساوون امام الله ولذلك لا بدَّ من التساوي فيما بينهم . **فلذلك نجد غياباً للحديث عن مساواة بمعنى حقوقي أو قانوني الأمر الذي يفرض تحققها في كل الظروف التي تتوفر فيها مقوماتها . هذا ما يضفي على عبارات الكواكبي المصلح نوعاً من الشمولية ومن الحنين ، الحنين الى فترة سالفة ، الى فترة تاريخية معينة .** ولا يعني ذلك ان الكواكبي احد دعاة السلفية الذين يجهدون لاعادة تطبيق نماذج بعينها ، نماذج لا مجال للحيدة عنها . بل ان الكواكبي ليقرر بما لا يدع مجالاً للشك أن للسياسة الحكيمة ، السياسة التي اعتبرها علماً مفقوداً في الشرق ، أو جديداً عليه على الأقل ان لها أسساً أولها الشورى ، وثانيها المساواة وثالثها الاشتراكية.

أما الشورى بنموذجها الأول ، وبالصورة التي يراد الاقتباس منها فتعني أولاً الاحتكام الى « الملأ » أو الى اصحاب الحل والعقد. واحياء الشورى يعني احياء سنة لا بدَّ منها بحيث لا يكون الحاكم الحَكم الأول والأخير ، بشخصه وأخلاقه وتاريخه ، بل العدد الأوفر لمن تتوفر فيهم شروط العدالة ، والاتزان والعلم . يجهد الكواكبي بعد ذلك ليجعل من الشورى مبدأ سياسياً لا واقعة تاريخية ، الأمر الذي يكرسها مبدأ لا بدَّ من استخدامه تحقيقاً لأهداف عطلتها الممارسات اللاحقة ، عطلتها الاجتهادات اللاحقة ايضاً ، خاصة تلك التي ارتبطت بفقهاء السلطة الذين يشن الكواكبي عليهم حملة شديدة :

« وقد عد الفقهاء من لا تقبل شهادتهم لسقوط عدالتهم فذكروا حتى من يأكل ماشياً في الأسواق ، ولكن شيطان الاستبداد انساهم ان يفسقوا الأمراء الظالمين فيردوا شهاداتهم ، ولعلَّ الفقهاء يعذرون بسكوتهم هنا مع تشنيعهم على الظالمين في مواقع أخرى، ولكن ما عذرهم في تحويل معنى الآية : ﴿ **ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ الى ان هذا الفرض هو فرض كفاية لا فرض عين ؟ والمراد منه سيطرة افراد المسلمين على بعض، لا إقامة فئة تسيطر على حكامهم كما اهتدت الى ذلك الأمم الموفقة للخير ، فخصصت منها جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية : السياسية والمالية والتشريعية فتخلصوا بذلك من شآمة الاستبداد »[1].

هنا تبدو أفكار الكواكبي بأنصع ما يكون . فهو يتخذ موقفاً نقدياً صحيحاً . إن ما حدث كان خطأ يجب ان لا يحدث ، وإن حدث فيجب ان لا يستمر . ان الامارة مسؤولية تقع على من تتوفر فيه شروط معينة لا من تضعه الأقدار موضع السلطة . كذلك تعكس هذه الأفكار صفحة صعبة من التاريخ السياسي والاسلامي ، بشقيه الفعلي كما حدث فعلاً والتشريعي الذي رافق تسلسل الحكومات بالتبرير حيناً وبالتخفيف من وطأتها حيناً آخر . نعني بذلك ان سلطة الحاكم ، ومن اجل استمرارية الحكومة ـ أي استمرارية الدولة ـ كانت الى حد ما على الدوام بمعزل عن النقد . ففي اكثر الأحيان كان شخص السلطان ـ الخليفة أو سواه ـ فوق مجال النقد . وفي حالات تفسح الدولة وظهور الدويلات المتعددة ظلت الألقاب تمنح يميناً وشمالاً ، وظلَّ التشريع السياسي يوجد المبررات . فتارةً إمارة ضرورة ، وتارة امارة استيلاء ، وكان الحرص كل الحرص على وحدة الأمة وهو حرص له ما يبرره ، لكنه لم يكن دائماً الى جانب المصلحة العامة : ما قيل في الامارة قيل ما يوازيه في الوزارة إذ ميز الفكر السياسي بين وزير تفويض ووزير تنفيذ . وكان الأمر غالباً تشريع الحقبة التي سلفت وتبرير ما حدث فيها ، لا التنظير لحقبة ستلي .

والشورى بتحققها توصل الى المساواة المنشودة . المساواة الطبيعية حق كل انسان بالتساوي مع اخيه الانسان كما يتساوى الجميع امام رب الأكوان . ثم ان تأمين الحرية بالشكل الذي أشرنا اليه اعلاه لا بدَّ أن يكمل المساواة ويجعل منها لاحقاً أو تحصيل حاصل . بل فطرة أو مبدأً به قوام الانسان كانسان . فالتعديل الذي يراه الكواكبي انما يقوم على المعادلة البسيطة المشار اليها وهي الأخوة في الانسانية وهذا ما يقدم الوجه الانساني على تآليفه وأبحاثه . وهذا ما يعطي اصلاحه ايضاً صيغة سلمية ، بل مسالمة جداً ، إذا ما قارنًا كل ذلك بنوع الصراع الاجتماعي العنيف الذي جعل الأغنياء في جانب وجعل الفقراء في جانب آخر ، ولا اعتقد أن مجرد الرغبة في المساواة ستؤدي فعلاً الى تحقيقها.

وهذا ما يقودنا الى المبدأ الاصلاحي الثالث. مبدأ الاشتراكية ، واستباقاً لكل تأويل علينا أن لا ننظر الى الاشتراكية من زاوية الفكر السياسي السائد في أيامنا وفي ما يعرف بالبلدان الاشتراكية والشيوعية . ان ما ينشده الكواكبي ليس إلَّا ملامسة الجانب الاجتماعي اذا جاز القول . اي البحث في الزاوية التي رأت في السياسة غير الحكيمة ، السياسة الاستبدادية سبباً ادى الى تفاوت في تقسيم الثروة . بحيث تتجمع الثروة في يد فئة قليلة من الناس قد لا تزيد عن الخمسة بالمئة ، لكنها نسبة ترفع من نفوذ اصحابها الى درجة يصبحون معها السادة المتحلمين في الانتاج وفي الأسواق . والأقسى من ذلك ان المجال المفتوح للربح هنا هو المجال البعيد عن العمل المجدي. المجال القائم على « الغلبة والخداع » وهذا يعني انعدام العمل الذي يعتبر بحد ذاته اساس القيمة التي يجب ان تقاس الثروات بموجبه.

(١) واجع كتابنا طبائع الكواكبي ص ٥٢.

(٢) جعلت بعض الدراسات من الكواكبي رائد القومية العربية كما جعلت منه داعية سلفياً يريد اعادة الخلافة الى قريش ونقل مركزها الى الحجاز . راجع سليمان موسى: الحركة العربية.

(١) الكواكبي : طبائع الاستبداد ص ١٤٦.

كذلك يعني التفاوت في الثروة مساً بالأخلاق: « فالافراط بالثروة مهلكة للأخلاق الحميدة ، وهذا معنى الآية ﴿ **ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى** ﴾ . فضرر الثروات الافرادية في جمهور الأمم اكثر من نفعها لأنها تمكن للاستبداد الداخلي فتجعل الناس صنفين عبيداً واسياداً ، وتقوي الاستبداد الخارجي فتسهل للأمم التي تغني بغنى افرادها التعدي على حرية واستقلال الأمم الضعيفة » .

ما استقيناه من نص ليس إلّا عبارات الكواكبي الذي وعى فعلاً شر الاستبداد المالي المتمثل في تكديس الثروة على الصعيدين الذاتي والدولي . فالاستبداد الداخلي ليس إلّا وصفاً نفسياً دقيقاً للنزعة التي تقوي في الانسان الميل للتسلط « فالمال يجر المال » يقول المثل الشعبي . والمال لا يجر المال إلّا بجر الرقاب عبيداً طائعين . وكلما وعى الفرد هذه الحقيقة مجردة أو معزولة عن الأخلاق أو عن الأخلاقيات كلما ازداد غطرسة ومجداً ، أو تمجداً كما يقول الكواكبي في بعض فصول كتابه طبائع الاستبداد .

أما الفكرة الثانية والتي تعتبر بالفعل فكرة رائدة في عصره ، فهي فكرة تسلط الدول الغنية (الأمم الأغنى) على الدول الفقيرة . بتجاوزنا لكل العبارات الدارجة يمكننا القول وبكل بساطة ، لقد وعى الكواكبي حقيقة الاستغلال ، ومن ثم الاستعمار . بل لقد أشار بوضوح الى السبب الاقتصادي في ذلك وهو السبب الأهم وعليه بنت النظريات السياسية منذ أوائل القرن التاسع عشر وما زالت تبني . إلّا ان الكواكبي لا يوسع نظريته ، والأصح القول نظرته ، بل رؤيته . ويبقى الموضوع الأساسي موضوع الحلول . فالمصلح لا بدَّ أن يضع حلولاً أو يقدم مشروع حل وإن مبسطاً .

« لا ! لا ! لا يطلب الفقير معاونة الغني ، انما يرجوه ان لا يظلمه ، ولا يلتمس منه الرحمة ، إنما يلتمس العدالة . لا يؤمل منه الانصاف انما يسأله أن لا يميته في مزاحمة الحياة » (طبائع ١٧٠) . وبعد ذلك يقول: « ان العدالة المطلقة تقتضي ان يؤخذ قسم من مال الأغنياء ويرد على الفقراء بحيث لا يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل (طبائع ١٧١) .

ما يبدو حلولاً هنا ليس كذلك فعلاً فصيغة الفعل المبني للمجهول « يؤخذ قسم من مال الأغنياء ليوزع على الفقراء » صيغة مبهمة لا يمكنها ان تكون احلاماً . والحلول المبهمة ، أو القائمة على مجرد الدعوة الى الرحمة والانصاف والعدالة لا تفيد في تحقيق هذه المبادىء بل يخشى ان تكون عوناً للاستبداد الذي يشبع الرعية مثل هذه التمنيات ويشبع هو بخيرات مادية أخرى .

تعكس النظرة الاصلاحية التي يروج لها الكواكبي نظرة انسانية مهادنة . علماً انه تعرف كما تفيد الدراسات ، وتفيدنا بعض عباراته بالذات على الأفكار السياسية التي تقول بالصراع الطبقي . كما عرف ان ثمة احزاب وجمعيات ترعى ذلك ، وهي جمعيات مكونة من ملايين البشر وتدعو لملكية الأراضي والمصانع وآلات العمل ، « لأن تكون هذه مشتركة بين عامة الأمة » .

ومع ذلك فقد لامس الكواكبي جوهر المسألة في اكثر من موضع ، خاصة في رأيه بالمال الذي يعتقد انه « فيض إلّهي أودعه الله تعالى في الطبيعة ونواميسها ولا يملك اي لا يتخصص بانسان إلّا بعمل فيه أو بمقابلة » (طبائع ١٧٠). فالعمل هو القيمة الحقيقية للمال . وهذا ما لا خلاف عليه . وقانون المال هو العمل إذ لا مال في الطبيعة ، بل في العمل . والعمل هو القانون الطبيعي . يكفي أن يقال من لا يعمل يمت جوعاً . فناموس الطبيعة العمل ، والله لم يودع المال إلّا مجازاً في الطبيعة . هكذا نصل الى نتيجة أولى . فالتساوي في الأحوال يعني التساوي في الأعمال .

وهذا ما يريده الكواكبي فعلاً مع اعترافه المسبق بعدم امكانية ذلك من ناحية مبدأية . هذا ما تثبته الوقائع . أما الأخلاق، الأخلاق الاصلاحية فتأبى إلّا قلب المقاييس . إذ تقتضي العدالة رفع التفاوت وتقتضي الانسانية ان يأخذ الراقي بيد السافل فيقر به من منزلته ويقاربه في معيشته ويعينه على الاستقلال في حياته .

صحيح ان الأخلاق هي الموحي للكواكبي في تصوراته ، أو في تمنياته . لكن الأخلاق عنده ليست اخلاقاً وضعية تعارف عليها الناس أو ارتضى بها مجتمع ما . بل ان المنبع أو الدافع لهذه القيم الانسانية بنزعتها الأخلاقية ليس إلّا الدين . ففي الدين يجد الانسان اساس نظامه الاجتماعي وأساس بنائه الأخلاقي . وهكذا نجده يشير باستمرار الى اسم الانتظام العمومي ، أو معيشة الاشتراك العمومي . وهذا ما يشرحه بقوله : « المراد بالانتظام العام معيشة الاشتراك العمومي التي اسسها الانجيل بتخصيصه عشر الأموال للمساكين ، ولكن لم يكد يخرج ذلك من القوة الى الفعل . ثم احدث الاسلام سنة الاشتراك على اتم نظام . ولكن لم تدم ايضاً .

كان المسلمون لا يجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفارات ، وذلك ان الدولة الأسلامية كما سبق بيانه اسست حكومة ارستقراطية المبنى ، ديموقراطية الادارة ، فوضعت للبشر قانوناً مؤسساً على قاعدة : ان المال هو قيمة الأعمال ولا يجتمع في يد الأغنياء إلّا بأنواع من الغلبة والخداع » (طبائع ١٧٢) .

مجدداً يعيدنا الكواكبي للاحتذاء بالنموذج الاسلامي الأول ، الذي جسَّد ذلك النوع من الاشتراك ، وأمَّن كما قلنا نوعاً من الانسجام والمساواة بين السلطة وبين المواطنين ، بين الادارة وأجهزة الدولة (البسيطة آنذاك) وبين كافة الناس . وهنا تبدو عبارات الثروة العامة عبارات عامة فعلاً ، فإذا كان يعني ذلك ما يتوفر في « بيت المال » فان الحديث يعني تحسين سبل الانفاق فيما توفر أو تجمع . أو هل يعني ذلك ما تملكه الدولة أو ما يقع تحت سلطتها ونفوذها من اراض ومن املاك ؟ أياً كان الأمر فان الكواكبي لم ينظر الى المسألة إلّا من جانب واحد ، وهو جانب العمل الذي لو فعله لكان اكثر انسجاماً مع واقعيته التي انطلق منها . إذ جعل الاستبداد سبباً لكل تأخر ، ورفع الاستبداد يعني تأمين الحرية بكل اشكالها . حرية الفرد وحرية الأسرة وحرية الأمة وشعوبها . وهذا ما لم يغب عن باله بحال.

حاولنا على امتداد الصفحات السابقة ابراز نظرة اجتماعية منسجمة . أو حاولنا ابراز وجه الاصلاح الاجتماعي الذي تاق اليه الكواكبي . فاهملنا نقاطاً أخرى يمكن ان تكون بدورها من النقاط التي لا بدَّ من التوقف عندها . كرأيه في التربية ، في المرأة ، في الدين ، أو كتصويره النفسي العميق بدلالته لمن يخضع للاستبداد ، أو حتى للمستبد بالذات . وهي مواضيع عالجها في مؤلفاته .

كما يمكننا ايضاً التطرق لبعض رؤاه السياسية التي حُملت أحياناً اكثر مما تحتمل كنظرته الى المسألة القومية وما يستنبط بذلك من تطلع الى خلافة عربية يقال انه اقترحها . علماً ان الدعوات لاستقلال بعض المناطق عن جسم الدولة الأم كانت في عصره امراً شائعاً . وكانت الجمعيات المتعددة تدعو لذلك . وفي المقابل ظهرت ايضاً الدعوات الطورانية التي تنادي بأحقية الترك وأفضلية تناوبهم واستمراريتهم في الحكم .

أياً كان الرأي الأخير في الكواكبي المصلح يظل مرتبطاً بشخصية نموذجية في نضالها وفي رؤيتها . فالكواكبي لم يحمل قلمه من موقع متعال اطلاقاً بل من موقع المعاني شخصياً لآلام عصره ولتطلعاته ايضاً . فمن جملة اقواله المأثورة « الأمة التي يشعر كلها أو اكثرها بآلام الاستبداد لا

تستحق الحرية ».

« وقبل مقاومة الاستبداد لا بدَّ من تهيئة ما يستبدل به » . أمران متلازمان يجب عدم اهمال احدهما أو تقديم احدهما على الآخر . يجب ان يكون التغيير الاجتماعي عملية كلية يشارك المجموع في صنعها مشاركتهم في العناء من وطأة ما يتحملون من عواقب تفرض عليهم . والأمر الثاني : لا بدَّ من وضوح المرحلة التي ستلي . بعبارات أخرى ان التغيير المطلوب يجب ان يكون نتيجة دراسة واعية ، لا قلب شخص أو الخلاص من مستبد . علماً ان الكواكبي قد شرط معظم الأحيان استعمال اللين وعدم استخدام الشدة . بل لقد ذهب احياناً الى وجوب وجود المصلح وضرورة اعداده ، أو اعداد من تتوفر فيه بعض الشروط . بهذه الطريقة يكفل المجتمع احياناً ضمان الخلاص بالانتقال من مرحلة صعبة الى مرحلة اكثر أمناً وسلاماً . على ان يكون الإعداد إعداداً صحيحاً مبنياً على العلم والمعرفة وقد شدد الكواكبي فعلاً على ذلك .

بل يمكننا ان ننهي هذه الملاحظات بتأكيد شبه وحيد . ان كان الجهل سبباً يؤدي الى الفتور ، فان العلم هو السلاح الوحيد الذي يدفع الجهل ، وبرفع الجهل لا بدَّ ان يصل المجتمع نهضته ويحقق ترقيه . ومن جميل اقواله في ذلك: « وكأني بسائلكم يسألني تاريخ التغالب بين الشرق والغرب، فأجيب: بأنا كنا ارقى من الغرب علماً فنظاماً فقوة ، فكنا له اسياداً . ثم جاء حين من الدهر لحق بنا الغرب فصارت مزاحمة الحياة بيننا سجاً : ان فقناه شجاعة فاقنا عدداً وإن فقناه ثروة فاقنا باجتماع كلمته . ثم جاء الزمن الأخير ترقى فيه الغرب علماً فنظاماً فقوة » (طبائع ٢١١). انها كلمات معبرة لا حاجة لشرحها ، بل لآذان تسمع وتعي وتعمل بوحيٍ مما به تتعظ.

الشيخ عبد الرسول بن الشيخ شريف بن الشيخ عبد الحسين بن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر.

ولد سنة ١٣٠١ في النجف وتوفي فيها في آخر ذي القعدة سنة ١٣٨٧ ودفن في مقبرتهم بالنجف الاشرف . عالم فاضل فقيه اصولي تخرج عليه كثير من الافاضل النجفيين والعامليين وغيرهم .

وتخرج هو على الشيخ علي بن الشيخ ـ باقر الجواهري ـ والسيد كاظم اليزدي والشيخ محمد كاظم الخراساني والميرزا حسين النائيني ـ والسيد ابو تراب الخونساري . كان امام الجماعة عدة سنوات في مسجدهم في النجف محلة العمارة[1].

المهندس عبد الرزاق البغايري بن المولى محسن بن المولى محرم علي ابن فتح علي خان بن محمد قاسم خان السبزواري .

ولد ١٢٨٦ وتوفي في ٢٥ شعبان ١٣٧٢

ولد في سبزوار وتعلم المبادىء والمقدمات بها وهاجر الى طهران وانصرف الى تعليم الحساب والهندسة والفلك وبرع فيها واصبح من كبار العلماء الرياضيين والمهندسين . ثم اشتغل بالتدريس واشتهر صيته وحضر عنده عشرات من المهندسين والعلماء والفضلاء . رسم خارطة ايران بأمر من الدولة وعين الحدود الدولية . وله كتاب في تعيين قبلة البلدان طبع في حياته في طهران [2].

عبد الرزاق بن همام بن نافع.

مرت ترجمته في الصفحة ٤٧١ من المجلد السابع ، ونزيد عليها هنا ما يلي :

قال الذهبي في سير اعلام النبلاء :

الحافظ الكبير عالم اليمن . حدثنا محمد بن ليلى السري ، قلت لعبد الرزاق ما رأيك انت ؟

ـ يعني في التفضيل ـ قال : فأبى ان يخبرني .

قال عبد الله بن احمد: سألت أبي : اكان عبد الرزاق يفرط في التشيع ؟ قال: اما انا فلم اسمع منه في هذا شيئاً ولكن كان رجلاً يعجبه اخبار الناس او الاخبار . .

سئل محمد بن ابي بكر المقدمي عن حديث لجعفر بن سليمان ، فقلت : روى عنه عبد الرزاق ، فقال : فقدتُ عبد الرزاق ، ما أفسد جعفراً غيري ـ يعني في التشيع ـ . قلت انا : بل ما افسد عبد الرزاق سوى جعفر ابن سليمان .

قال مخلد الشعيري : كنت عند عبد الرزاق فذكر رجل معاوية ، فقال : لا تُقذّر مجلسنا بذكر ولد ابي سفيان .

قال : عبد الله المسندي : ودّعت ابن عيينة ، ؛ فقلت : تريد عبد الرزاق ؟ قال : أخاف ان يكون من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا .

كان زيد بن المبارك قد لزم عبد الرزاق فأكثر عنه ثم حرّف كتبه ولزم محمد بن ثور، فقيل له في ذلك ، فقال : كنا عند عبد الرزاق » فحدثنا . . . فلما قرأ قول عمر لعلي والعباس : فجئت انت تطلب ميراثك من ابن اخيك ، وجاء هذا يطلب ميراث امرأته . قال عبد الرزاق : انظروا الى الانوك ، يقول : تطلب انت ميراثك من ابن اخيك ، ويطلب هذا ميراث زوجته من ابيها ، لا يقول : رسول الله . قال زيد بن المبارك فلم اعد اليه ولا اروي عنه .

بلغ يحيى بن معين ان احمد بن حنبل تكلم في عبيد الله بن موسى بسبب التشيع ، فقال يحيى : والله العظيم ، لقد سمعت من عبد الرزاق في هذا المعنى اكثر مما يقول عبيد الله بن موسى ، ولكن خاف احمد بن حنبل ان تذهب رحلته الى عبد الرزاق .

حدّث عنه احمد بن الأزهر في مناقب الامام علي وتابعه عليه محمد بن علي بن سفيان الصنعاني . قال : نظر رسول الله (ص) الى علي فقال: انت سيد في الدنيا ، سيد في الآخرة ، حبيبك حبيبي، وحبيبي حبيب الله . وعدوك عدوي، وعدوي عدو الله ، فالويل لمن ابغضك بعدي .

توفي عبد الرزاق سنة ٢١١ .

عبد السلام الهروي

الشيخ العالم العابد، شيخ الشيعة ، أبو الصلت عبد السلام بن صالح الهروي، ثم النيسابوري مولى قريش، له فضل وجلالة ، فيا ليته ثقة.

روي عن : مالك ، وحماد بن زيد، وشريك ، وعبد الوارث ، وهُشيم ، وعبد السلام بن حرب ، وابن عُيَيْنَة ، وعلي بن موسى الرضى ، وعدة .

حدث عنه : عباسٌ الدوري ، وأبو بكر بنُ أبي الدنيا ، وأحمدُ بن أبي خيثمة ، ومحمد بن ضُريس، وعبد الله بن أحمد ، والحسين بن إسحاق التُّسْتَري ، وخلقٌ كثير .

وكان زاهداً متعبداً ، أُعجب به المأمون لمّا رآه ، وأدناه ، وجعلهُ من خاصته .

---

(١) الشيخ محمد السماوي .

قال أحمد بنُ سيَّار : قدم مرو غازياً . ولما أراد المأمون أن يظهر التجهُّم وخلق القرآن ، جمع بين هذا وبين بشر بن غياث ليناظره . قال : وكان أبو الصَّلت يردُّ على أهل الأهواء من الجهمية والمرجئة والقدرية ، فكلمَ بِشْراً غير مرة بحضرة المأمون ، واستظهر . ثم قال ابن سيار : ناظرته لأستخرجه فلم أره يغلو ، ورأيتُهُ يقدمُ أبا بكر ، ولا يذكر الصحابة إلا بالجميل . وقال : هذا مذهبي وديني ، إلا أن ثَمَّ أحاديث يرويها في المثالب .

قال ابنُ محرز : سألتُ يحيى بن معين عن أبي الصلت ، فقال : ليس ممن يَكذِب وقال عباس : سمعتُ ابن معين ، يوثّق أبا الصلت . فذكر له حديث : « أنا مَدِينَةُ العِلْم » ، فقال : قد حدث به محمد بن جعفر الفَيْدي ، عن أبي معاوية .

قلت: جُبلت القلوبُ على حبِّ من أحسن إليها ، وكان هذا باراً بيحيى ، ونحن نسمعُ من يحيى دائماً ، ونحتجُّ بقوله في الرجال ، ما لم يتبرهنْ لنا وهنُ رجل انفرد بتقويته ، أو قوة من وَهَّاه .

وقد ضرب أبو زُرعة على حديث أبي الصلت .

وقال أبو حاتِم : لم يكن عندي بصدوق .

وقال النسائي وغيره : ليس بثقة .

وقال الدارقطني : قيل عنه : إنه قال : كلبٌ للعلوية خيرٌ من جميع بني أمية .

قال حاتِمُ بنُ يونس الجُرجاني الحافظ: سألتُ ابنَ معين عنه ، فقال : صدوق أحمق .

وعن صالح بن محمد، قال : رأيت ابن معين جاء إلى أبي الصلت ، فسلَّم عليه .

وعن أبي الصلت ، قال : اختلفتُ إلى سفيان بن عُيَيْنَة ثلاثين سنة أسأله ، وكنت آتيه وأنا صبي ، وحججت خمسين حجَّة .

وعن محمد بن عُصم : سمعتُ أبا الصلت ، يقول : أخذتُ من هؤلاء ـ يعني : الدولة ـ ألف ألفٍ وثلاث مئة ألف ، وضَعْتُ منها سبع مئة ألف في أهل الحرمين .

قال أبو زيد الضرير : حدثنا أبو الصلت ، حدثنا علي بنُ عبد الرحمن ، عن فلان ، عن أبيه ، قال : إذا خرج المَهْدِي ، نادى منادٍ : من كان له جار مرجيء ، وعليه دين فَلْيَتْبعْه ، ويقضي دينه . فسمعتُ مشايخ ممن حضر ، يقولون : لما حدَّثَ أبو الصَّلت بهذا ، قال أبو الوليد الحنفي لا : ليس ذا بمهدي ، بل مُعتدي ، يأمر ببيع الأحرار . وقامُوا من عنده وتركوه .

مات أبو الصلت سنة ست وثلاثين ومئتين في شوالها .

وله عدة أحاديث منكرة . خرج له ابن ماجة . (انتهى) .

تقول : كل ما جاء فيه من الذم سببه تشيعه .

الشيخ عبد الصاحب بن الشيخ حسن بن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر.

توفي سنة ١٣٥٢ هـ ودفن مع اجداده في مقبرتهم المعروفة بالنجف الأشرف .

حضر على شيخ الشريعة الاصفهاني والسيد ابو الحسن الاصفهاني والشيخ آغا ضياء الدين العراقي . وتتلمذ عليه افاضل في النجف منهم الشيخ جعفر آل محبوبه وغيره .

له : تقريرات الاصول لاستاذه العراقي ، وشرح التبصرة وكتاب الاشارات والدلائل في ما تقدم وتأخر من الوسائل (مطبوع) وغيرها .

ورثاه الشيخ علي بن الشيخ مير احمد الجواهري بقصيدة مطلعها:

هيهات ما لجرح بعد اليوم ملتئم كلا ولا الدمع عنه الجفن منفطم[1]

الشيخ عبد الصمد الخامنه أي .

كان امام الجمعة في خامنه ولد فيها وتوفي سنة ١٣١١ هـ .

قال مؤلف المآثر والآثار : ميرزا عبد الصمد الخامنجي ، استاذ الأدب وحجة اللغة والمتضلّع في شعر العرب، صاحب الذوق السليم والقريحة الوقّادة. له اشعار لطيفة في شتى المواضيع من المدح والقريظ والرثاء وغيرها .

الشيخ ابو محمد عبد العزيز بن ابي نصر المبارك بن ابي القاسم محمود الجنابذي (الكنابادي) النيشابوري البغدادي المعروف بابن الاخضر والحافظ .

ولد في بغداد سنة ٥٢٤ وتوفي بها في اليوم السادس من شهر شوال سنة ٦١١ ودفن بباب الحرب .

من اكابر الفقهاء محقق مؤرخ محدث قرأ على.والده الشيخ ابي نصر المبارك الكنابادي النيشابوري وعلى علي بن بكتاش وسمع الحديث في صغره ولم يكن لأحد من شيوخ بغداد اكثر من سماعه وصحب أبا الفضل ابن ناصر وسمع منه الحديث وهو ابن ست سنوات ولازمه حتى مات وكان اول سماعه سنة ٥٣٠ وبعد وفاة استاذه المذكور جلس للتدريس في بغداد بداره في درب القيار من محال نهر المعلى في شرقي بغداد وتخرج عليه جماعة من العلماء والفضلاء منهم ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ وتاج الدين علي بن انجب بن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤ وذكره تلميذه ياقوت الحموي في معجم البلدان ج ٣ ص ١٤٢ تحت عنوان كلمة (جنابذ) ووصفه بأنه كان متعصباً للمذهب الحنبلي ولم يذكر مؤلفاته وقال (. . . وشيخنا عبد العزيز بن المبارك بن محمود الجنابذي الأصل البغدادي المولد والدار يكنى أبا محمد بن ابي نصر بن أبي القاسم ويعرف بابن الاخضر يسكن درب القيار من محال نهر المعلى في شرقي بغداد سمع الكثير في صغره بافادة ابيه وعليّ بن بكتاش واكثر حتى لم يكن في أقرانه أوفر همة منه ولا اكثر طلباً وصحب أبا الفضل بن ناصر ولازمه حتى مات وكان أول سماعه سنة ٥٣٠ ولم يكن لاحد من شيوخ بغداد الذين ادركناهم اكثر من سماعه مع ثقة وأمانة وصدق ومعرفة تامة وكان حسن الأخلاق مزّاحاً له نوادر حلوة وصنف مصنفات كثيرة في علم الحديث مفيده وأخذ من الخطيب في كثير من كتبه وكان متعصباً لمذهب احمد بن حنبل سمعت عليه واجاز لي ونعم الشيخ رحمه الله مات في سادس شوال سنة ٦١١ ودفن بباب حرب عن سبع وثمانين سنة مولده سنة ٥٢٤) .

اقول : له مؤلفات هامة في فضائل ومعارف الأئمة أهل البيت عليهم السلام اهداها للخلفاء الفاطميين بمصر مما يدل على تشيعه . فمؤلفاته في معارف الشيعة وأهل البيت عليهم السلام واهدائها للخلفاء الفاطميين بمصر معارض لما قاله ياقوت الحموي بتعصبه لابن حنبل . والظاهر كان المترجم له يتستر من ياقوت ويتظاهر بالمذهب الحنبلي وذلك لتعصب ياقوت . وقال شيخنا الاستاذ آغا بزرك الطهراني في الأنوار الساطعة ص ٩١ ردا على ياقوت الحموي (اما تعصبه لابن حنبل فمعارض بتأليفه في معارف ائمة أهل البيت واهدائه للخلفاء الفاطمية بمصر) .

من مؤلفاته : كتاب معالم العترة النبوية العليّة ومعارف الأئمة من أهل

---

(١) السمامي .

البيت الفاطميّة العلوية . ويكثر النقل عنه الوزير الشيخ بهاء الدين ابي الحسن علي الاربلي المتوفي سنة ٦٩٢ في كتابه (كشف الغمة عن معرفة احوال الائمة وأهل بيت العصمة (ع)) وكذلك ينقل عنه مراراً سيدنا السيد محسن الامين في الخامس من كتابه (المجالس السنية)[1].

الشيخ عبد العزيز بن الشيخ عبد الحسين بن الشيخ عبد علي بن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر .

ولد سنة ١٣٠٨ هـ في النجف ـ وتوفي بطهران سنة ١٤٠٦ عالم فاضل اديب مؤلف مكثر، كان استاذاً في الجامعة بطهران وله يد في الفلسفة والرياضيات والطبيعيات . نشر كثيراً من المقالات في المجلات كالمقتطف والعرفان وغيرهما .

من مؤلفاته : النهاية ي شرح وتحرير الكفاية ، وآثار الشيعة الامامية ، ودائرة المعارف الاسلامية وترجمة مقدمة ابن خلدون من العربية الىٰ الفارسية ، وتاريخ طهران والري ، وديوان شعر وترجمة المثنوي المولوي في ستة دفاتر المسمىٰ بجواهر الآثار وفهرس مكاتب ايران قبل الاسلام حتى العصر الحاضر وغيرها[2].

الشيخ عبد الكريم بن الشيخ مهدي بن محمد باقر بن الشيخ علي الكزي او الجزي البرخواري الاصفهاني .

شاعر اديب ولد في قرية كز من ضواحي اصفهان سنة ١٢٦٠ وتوفي ليلة الخميس ١٣ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٣٩ ودفن في مقابر تخت فولاد باصفهان نشأ في قرية كز وأخذ اوليات العلوم بها ثم هاجر الى اصفهان وقرأ على جملة من الأفاضل وحضر في الفقه والأصول على السيد محمد صادق الشهير بكتاب فروش والميرزا محمد حسن النجفي ثم توجه الى العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى في النجف وكربلاء فتخرج في النجف على السيد حسين الترك وحاج ميرزا حسين الخليلي والميرزا حبيب الله الرشتي وفي كربلاء حضر على الشيخ علي نقي البرغاني الحائري المعروف بمدرس الطف وغيرهم . ثم رجع الى اصفهان وتصدر كرسي التدريس والفتيا والقضاء ووصفه شيخنا آغا بزرك الطهراني في نقباء البشر قائلاً (. . . ولما بلغ درجة سامية في العلم والفضل مع تقى وورع عاد الى اصفهان مزوداً بالاجازات من مشايخه الاجلاء ، واشتغل بالتدريس في (مدرسة نيماورد) فالتف حوله أفاضل الطلاب والمحصلون من اهل العلم ينهلون من معينه العذب في الفقه والاصول وغيرهما من العلوم ، وقد تخرج عليه عدد كبير إذ لم ينقطع عن التدريس الى آخر عمره حتى بعد أن رأس وأصبح من المراجع وكانت اوقاته مستغرقة في حل الخصومات وقضاء حوائج الناس وغيرهما ، وقد كان المترجم له من العلماء الأجلاء والفقهاء المتبحرين ، والعرفاء الصلحاء ورجال الدين والتقوى والورع والزهد في حطام الدنيا ، كما كان من أهل الأخلاق الفاضلة والمعاشرة الحسنة ، والتواضع للناس والاهتمام بشؤونهم ، والتصدي لخدمتهم لذلك حظي باقبال الخواص والعوام واحبته القلوب ، وأصاب رياسة كبيرة وشهرة واسعة وصار مرجعاً مبجلاً محترماً لدى كافة الطبقات يرجعون اليه في الخصومات والمرافعات ، فكان مجلسه محكمة شرعية وقوله الفصل وحكمه العدل لانه عرف بالورع والعدالة والانصاف والتروي في كل الأمور وكان على جلالته ومكانته بسيطاً في مظهره وملبسه ومجلسه ، يجالس الفقراء ويلاطفهم ويجيب دعواتهم له في القرى والأرياف ويأكل معهم وكان اريحي الطبع لا يتوقف عن المزاح المحتشم ولا تفوته النكتة المؤدبة ، ومن اجل ذلك كان الكل يرغبون في مجالسته

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) السمامي .

ويكثرون من الاختلاف اليه . . .)[1]وقال السيد مصلح الدين المهدوي في كتابه ما يقارب من هذا الكلام وله مؤلفات هامة طبع قسم منها . ومن مؤلفاته ترجمة الدرر ترجم فيها كلمات (أمير المؤمنين عليه السلام من نهج البلاغة ، اجمالي در احوالات بيغمبر اكرم (ص)، خمسة طيبة مجموعة من اشعاره في مناقب ومراثي الأئمة ، ديوان قصائد وغزليات ، ديوان غزليات ورباعيات، شمس وقهقهة ، ضياء الابصار في احوال الاطهار ، ديوان بأسم كلزاز تذكرة القبور وهو في تراجم العلماء المدفونين في اصفهان مطبوع ، اصول الدين مطبوع ، صيغ العقود والايقاعات مطبوع منظومة انوار ديوان شعر وترجم له أيضاً شيخنا آغا بزرك الطهراني في كتابه مصفى المقالى في مصنفي علم الرجال ص ٢٣٣ قائلاً (كان جامع العلم والعمل والعرفان وصاحب الذوق والنطق والبيان مدرساً في مدرسة (نيما ورد) باصفهان وربى جمعاً كثيراً من فضلاء الزمان وكتب (تذكرة القبور) في تذكار العلماء المدفونين باصفهان وطبع سنة ١٣٢٤ وطبع ثانياً مع الحاقات كثيرة بعنوان رجال اصفهان)[2].

الشيخ عبد اللطيف بن شمس الدين علي الواعظ البيرجندي المتوفي بعد سنة ٩١٧ .

كان من علماء عصره خطيب متكلم محقق مؤلف من اشهر مؤلفاته كتاب قصص الأنبياء شرع بتأليفه في شوال سنة ٩١٧ مرتب على ابواب ويختلف عدد الأبواب مع اختلاف النسخ ومنها نسخة في المكتبة الرضوية كما في الفهرست ج ٧ ص ١٤٤ ونسخة منها في طاشقند في ازبكستان بالاتحاد السوفيتي ونسخة في برلين ومنها نسخة في مكتبة مجلس الشورى بطهران وغيرها وذكره شيخنا الاستاذ في الذريعة ج ١٧ ص ١٠٣ ونجله احمد منزوي في فهرست المخطوطات الفارسية ج ٦ ص ٤٥١٣[3].

الشيخ عبد اللطيف بن الحاج عباس علي بن شاهنظر بن محمد بن احمد بن منصور بن رحيم السمامي الحائري الشهير بتنكابني .

ولد في ١٣٣٠ في رامسر وتوفي ٤ ذي الحجة الحرام سنة ١٤٠٠ في قم ودفن بها .

ولد في رامسر وفي الثامنة من عمره بدأ بقراءة المتون الأدبية وفي سنة ١٣٤٢ دخل المدرسة العلمية واشتغل بتعلم المقدمات عند عبد الوهاب بن محمد حسين الفريد والشيخ علي اكبر الفلكي وفي سنة ١٣٤٦ ذهب الى قزوين وسكن في المدرسة الالتفاتيّة وحضر عند الآقا رضا قافلة باشى الحاشية في المنطق وشرح النظام والسيوطي ثم ذهب الى مشهد الرضا (عليه السلام) وسكن في مدرسة بريزاد ثم حضر عند الأديب النيشابوري كتاب المطول وحضر عند الميرزا احمد اليزدي الشهير بنهنكك خلاصة الحساب وشرح اللمعة والهيئة وحَضر عند بعض الاعلام كتاب القوانين والشرائع وشرح المنظومة وفي سنة ١٣٤٩ عاد الى قم وبقي مدة قليلة ثم ذهب الى طهران واشتغل على الميرزا مهدي الاشتياني في الفلسفة ثم ذهب في اوائل سنة ١٣٥١ الى النجف الأشرف وحضر السطوح العالية على الشيخ حسين الآهري والشيخ مرتضى الطالقاني والسيد علي النوري وشمس العشق آبادي والسيد محمد هادي الحسيني الميلاني وذهب الى كربلا وبقي مدة مشتغلاً على الشيخ محمد رضا الاصفهاني ثم عاد مرة اخرى الى النجف الأشرف فحضر بحث الشيخ كاظم الشيرازي والسيد ابو الحسن الأصفهاني وفي سنة ١٣٥٨ عاد الى كربلا فبقي مستفيداً فيها في أبحاث الحاج الآقا

(١) نقباء البشر ج ٣ ص ١١٨٣ الطبعة الاولى .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) الصالحي .

حسين الطباطبائي القمي الى حين وفاته وبعد وفاته عاد الى النجف الأشرف فحضر بحث الميرزا عبد الهادي الشيرازي والسيد محسن الطباطبائي الحكيم والسيد حسين الحمامي والميرزا آقا الاصطهباناتي والميرزا حسن البجنوردي والميرزا هاشم الآملي والسيد محمود الشاهرودي والسيد ابو القاسم الخوئي وفي سنة ١٣٩١ عاد الى رامسر وسكن بها مشتغلاً بقضاء حوائج العامة وإمامة الجماعة الى أن مرض واشتدت بـه الآلام والأسقام وجيء بـه الى طهران للتداوي ثم ذهب الى قم للزيارة والاستراحة فتوفي بهـا ودفن بوادي البقيع في طريق مسجد الجمكران ـ له مؤلفات منها:

١ ـ تقريرات الميرزا عبد الهادي الشيرازي (في الفقه) .
٢ ـ تقريرات السيد ابو القاسم الخوئي (في الأصول) .
٣ ـ تقريرات الميرزا هاشم الآملي (في الفقه) .
في عدة مجلدات لم تخرج الى البياض.
٤ ـ رسالة في صلاة المسافر .
٥ ـ رسالة في حمل الجنائز .
٦ ـ رسالة في السجود على التربة .
٧ ـ زنادقة در اسلام كتاب فارسي في الرد على الحلولية والصوفية والفلاسفة والماديين .
٨ ـ تعليقة على تعليقة الشيخ محمد حسين الأصفهاني على المكاسب .
٩ ـ شناخت امام زمان يا امام شناسي ـ كتاب فارسي حول الامام المنتظر ـ عليه السلام ـ .

وهو يروي عن الشيخ آقا بزرك الطهراني صاحب الذريعة واعقب اربعة أولاد هم الشيخ محمد وحسن وحسين وفاروق والشيخ محمد هو الباحث المحقق مؤلف كتاب بزركان رامسر ووفيات اعلام الشيعة وبزركان تنكابن وغيره.

الشيخ عبد الله بن الشيخ احمد الاحسائي (مؤسس الفرقة الشيخية) ابن الشيخ زين الدين بن ابراهيم بن صقر ابن ابراهيم بن داغر بن رمضان بن راشد بن دهيم بن شمروخ آل صقر المطيرفي الاحسائي المتوفي حدود سنة ١٢٧٣ .

من أهل الفضل يمتاز بطهارة القلب وطيب السريرة والمعروف انه اصغر اولاد ابيه ومن أم واحدة مع شقيقيه الشيخ محمد تقي والشيخ علي نقي ولد في الاحساء وقرأ على فضلائها وتخرج في الفقه والأصول والأخبار على والده والمولى الشهيد البرغاني وأخيه الشيخ محمد صالح البرغاني في المدرسة الصالحية بقزوين وأخذ الحكمة والفلسفة عن الآخوند ملا آغا الحكمي القزويني والمولى ملا علي البرغاني. وكان من العلماء الذين شاركوا في مجلس مناظرة ابيه في ديوان الشهيد البرغاني بقزوين وكان يميل الى أخيه الشيخ محمد تقي الاحسائي الذي كان ينكر على ابيه طريقته اشد الانكار ولازم اباه في السفر والحضر وكان معه في سفر الحج الأخير مع جمع من اصحابه وهو السفر الذي توفي اثناءه ابـوه بمنزل هدية قبل وصولهم المدينة بثلاث مراحل وذلك في يوم الأحد ٢١ ذي القعدة الحرام سنة ١٢٤١ ثم رجع المترجم له الى ايران وسكن قزوين ويستفاد من بعض الامارات انه كان يميل الى أخيه الشيخ محمد تقي الذي كان ينكر على ابيه طريقته والتجأ اليه ولازمه سنين في قزوين ثم انتقل الى كرمانشاه حيث خلف ابوه بعض القرى والأملاك الزراعية وهـو ما وهبـه له محمـد علي ميرزا دولتشـاه نجل السلطان فتح علي الشاه القاجاري وذكره شيخنا الاستاذ في الكرام البررة قال (. . . عالم فاضل وكان من أهل العلم والفضل والكمال والمعرفة الف رسالة خاصة في ترجمة والـده أشرنـا اليها في الـذريعة ج ٤ ص ١٥١ وقد ترجمت الى الفارسية . . . ويظهر من الرسالة انـه كان مـع والده في جملة أسفاره ومنها سفر الحج الأخير الذي توفي فيه وكان سنة ١٢٤١ وقد انتقل اليـه بعض كتب ابيـه منهـا حـاشيـة العميدي تملكـه في سنة ١٢٤٤ . . .)[1]اقول : هناك رسالة منسوبة الى المترجم له ترجم فيها والده الشيخ احمد الاحسائي المتوفى سنة ١٢٤١ هجرية ترجمة مفصلة رتبها على ستّة ابواب سادسها في ذكر اسماء تصانيفه وترجمها الى الفارسية محمد طاهر طبقت في بمبئي سنة ١٣٠٩ في ٩٦ صفحة وفي آخرها ألحق صورة اجازات مشايخه له بالعربية والاجازة الاولى للشيخ حسين آل العصفور والاجازة الثانية للشيخ احمد البحراني الدمستاني والاجازة الثالثة للسيد ميرزا مهدي الشهرستاني الحائري والاجازة الرابعة للسيد علي الطباطبائي الحائري صاحب الرياض والاجازة الخامسة للسيد مهدي الطباطبائي بحر العلوم والاجازة السادسة للشيخ جعفر النجفي صاحب كشف الغطاء وعندنا نسخة منها ولم أقف على الأصل العربي حتى اليوم[2].

المولى عبد الله بن المولى محمد الكسكري التنكابني.

ولد حدود ١٢٣٠ ، توفي بعد ١٢٨٧ .
انتقل ابوه من كسكر (جيلان) الى تنكابن وتوفي بها حدود ١٢٥٠ .
ولـد في تنكابن ونشأ بهـا ثم ذهب الى اصفهـان وأخذ العلوم عن اعلامها ثم رجع الى تنكابن وذهب الى رودسر وبقي الى أن توفي بها .

قال عنه السيد اسماعيل الحسيني التنكابني في نضرة الناظرين : الفاضل الكامل العامل المولى عبد الله بن المولى محمد الكسكري نزيل [مدينة] رودسر، رجل فاضل وجيه مشغول بامر الرياسة[3] . .

عبد المطلب الأمين

مرت ترجمته في موضعها ، كما مرت عنه دراسة في المجلد الثاني من المستدركات ، وننشر عنه هنا هذه الكلمة لأحد النقاد :

تستطيع ان تطلق على السيد عبد المطلب الأمين صفة الشاعر والأديب والصحافي والقانوني والدبلوماسي والاداري والفقيه دون ان تتجاوز الواقع ، فقد كان الرجل ذلك كله وفق ما يعترف به اصدقاؤه وعارفوه والمقربون اليه ومن عايشوه عن قرب ، وبالامكان ان تتناول كل صفة من تلك الصفات عنواناً لبحث أو مقال وتجد بين يديك ما يكفي من دفق المعرفة وما تتخذه مستنداً ودليلاً . .

وكدليل على النبوغ انه كان يوصف بنموذج فريد لمواهب عدة تتجمع في شخص واحد ، وقد هفت اليه الأسماع وانشدت اليه الأذهان ، ويظل الحفل أو الاجتماع غير مكتمل حتى يأتي عبد المطلب الأمين فيملأه دعابة أو أدباً أو حديث سياسة أو شعراً ، ومن شأن هذه الصفات جعل صاحبها مقرباً من الجميع يضع الكلمة في مكانها والرأي في محله بحيث يجد فيه الكل قريباً من نفسه ومن مشاعره ، أشبه بالحقل الذي يموج بكل العطاءات والأضواء والظلال.

يضاف الى ذلك انه كان ثاقب النظرة يعرف مكان الخطأ والصواب ، وما يجب أن يكون عليه المجتمع والحكم والناس ، وكيف يجب أن تكون الحقوق والواجبات ولعلّ اكثر ما مكنه من ذلك شاعريته المرهفة وتمرسه في القضاء والدبلوماسية والأدب والصحافة والسياسة التي الم بمداخلها ومخارجها من غير ان يحرق أصابعه كما يقال ، فقد ظلّ رجل رأي سديد ونظرة واقعية ومستقبلية .

---

(١) الشيخ اغا بزرك الطهراني الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة ج ٢ ص ٧٦٨ ـ ٧٦٩ .
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي . (٣) السمامي .

ولعلَّ نشأته في بيت والده العلامة السيد محسن الأمين جعلت حياته حافلة بالعطاء فقد تربى على الفقه والشعر والبلاغة والتنقيب في بطون الكتب واستخلاص الغث من السمين والوصول الى الحقيقة يدونها ويقرها بعد تمحيص مع الاحتفاظ بطبيعة ابن الجنوب الطيب والمضياف والثائر والمناهض لكل انواع الظلم والتجني واعتماد مبدأ الصراحة والوضوح اضافة الى الطبيعة الشاعرة والسليقة التي تعطي صاحبها صفات مميزة ، فهو انى تلفت في نشأته وجد الكتب القديمة والحديثة ، اضافة الى ما عند والده واشقائه من فقه وشعر وأدب.

ثم ان عمله في حقل المحاماة والقضاء والصحافة مكنه من معرفة ما يحيط به وأدرك التوجهات والدخائل مما جعله ملماً بالحياة العامة مدركاً لما يجب ان يكون وما يحتاج الى الاصلاح وما هو الأساس الذي يمكن اعلاء البناء عليه مع الثقة والطمأنينة الى المستقبل الذي لا بدَّ من تخيل صورته قبل الوصول اليه ، ولم يمنعه ذلك كله من ان يكون فكهاً مرحاً يبتكر النكتة أو يستنبطها أو يقود الحديث والمناسبة اليها كدليل على سرعة الخاطر.

وقد مكنته نشأته في بيت العلم أن يكون من الرعيل الأول من المتعلمين الذين تابعوا تحصيلهم ، وقد نال اجازة في الحقوق عام ١٩٣٩ ، واتقن العربية والفرنسية والانكليزية والروسية والفارسية وهي ثروة جعلته يطلع على التيارات الفكرية المختلفة بلغة ابنائها ، ويقرأ عباقرة الشعر والقصة والرواية والاصلاح اضافة الى ما توفر له منذ نشأته من ادب وفقه وتاريخ خصوصاً ما يتعلق برسالة النبي العظيم . وقد المَّ بحضارة الشرق والغرب ، أما الشعر فحسبه انه كان الى جانب والده واحداً من اخوته الشعراء هاشم وحسن وجعفر، وعرف عنه انه غزير الانتاج يتدفق منه الشعر كانه يملك ناصيته في ثوبه الكلاسيكي وما يوصف بالحديث أو المنثور والحر، يساعده على ذلك امتلاكه زمام اللغة وما فيها من جناس وبديع وجزالة وسلاسة .

وكما كان لامرتين الشاعر الفرنسي يصف نفسه بانه يكتب الشعر كما يغرد العصفور ويتدفق الشلال، ويدبج هوامش كتاب بين يديه، كذلك عبد المطلب الأمين إذ كان يدون ما يفيض به خاطره على بياض صحيفة بين يديه وحتى على علبة السجائر سواء كان في السيارة أو بين الناس أو في اجتماع عام ، وهذا ما يؤثر عن شوقي امير الشعراء الذي كان ينطق بالشعر في أي من المناسبات وحتى في السيارة والترام والأماكن العامة .

ولم يكتف الشاعر الأمين بذلك فقد عمل كما اشرنا في حقلي القضاء والمحاماة اضافة الى انه كان يوصف بأنه دائرة معارف يأتيه المعجبون للاستقاء من معارفه في القانون المدني والفقه والشريعة ومراجعة الكتب الاسلامية وتاريخ آل البيت النبوي الشريف اضافة الى مراسلات العديد من كبريات الصحف العربية . وعندما عيّن سفيراً لسوريا في موسكو حقق نجاحاً دبلوماسياً لفت اليه الأنظار وشد الانتباه فكان موضع تقدير واحترام ومحور نشاط وتحرك ايجابي . وسبق ذلك ان عمل في حقل التعليم الى جانب الشاعر الكبير بدوي الجبل.

والذي جعله يلم بالظروف العربية العامة انه درس الحقوق في دمشق وعمل قاضياً في لبنان ومحامياً في الكويت ومدرساً في دار المعلمين في بغداد وسفيراً لسوريا في موسكو وقاضياً في لبنان وصحافياً في دمشق وموظفاً بصفة رئيس قسم التوجيه في وزارة الدفاع السورية حتى النكسة نتيجة العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ ، وبعد ذلك كله امضى ما تبقى من حياته في بيت متواضع في محلة النهر بشرق العاصمة بيروت.

وإذا كان لم يلجأ الى الفلسفة كصاحب نظرية خاصة ، فقد كانت الحياة بالنسبة اليه مجرد محطة وليست هدفاً كل ما فيها انها تغني تجارب الانسان وتضيف الى معارفه الكثير مما يحتاجه فهو يقول :

ودروب الحياة مهما استطالت ... هي في خطونا الملّح دروب

ويقول ايضاً :

تضاءل العمر وانهارت مهابته ... حتى استحال تساجيعاً وأوزانا

ويستشف الشاعر ذلك من تربيته الدينية والفلسفة الاسلامية فهو يسأل ولكن ليس على طريقة ايليا أبو ماضي في قصيدته الطويلة - الطلاسم - :

الى أين يمضي بنا ركبنا ... عنيفاً لجوجاً على عمرنا
وحتام يعصف فينا القضاء ... وتودي الرياح بأسمالنا
أكنا من الكون العوبة ... وهل أبدع الكون إلّا لنا

ويصل الى السؤال الذي لا جواب له :

ومن ذا يجيب على سؤلنا ... أصمت المقادير أم صمتنا

ومن حق الشاعر بعد شوط متعدد الوجوه في الحياة أن يجد نفسه كثير التساؤل وقد اختزن في نفسه المزيد من المعلومات والتجارب السياسية والاجتماعية والحركات الشعبية وفي مقدمها العدوان الاسرائيلي لا سيما عام ٦٧، وحسبه انه شاعر ، أي مرآة تنعكس على صفحتها الأضواء والظلال ، وفي هذا يقول عنه الدكتور حسين مروة (يملك العدة الكافية ، بل الغنية لدقة الاختيار وبراعة الاستصفاء ، ثم لأحكام البناء الشعري واتقانه ، اضافة الى امتلاكه الوثيق لكل أدوات اللغة الشعرية وقواعد النحو والعروض) .

ويمكن وصف السيد عبد المطلب الأمين بأنه ارتبط بجبل عامل وتراثه الشعري والأدبي والفقهي مع الأخذ بمنحى التجديد من غير انقطاع عن الكلاسيكية ، وعلى سبيل المثال تهزه جريمة اغتيال الكاتب والصحفي الفلسطيني غسان كنفاني فيقول :

قد كنت الكلمة
الكل الكل الكلمة
كالبرعم والصلد
كالصخر وكالورد
لا بدء بلا كلمة
لا شيء بلا كلمة
لا مجد بلا كلمة
لكن الكلمة . . .
من فمك المفصول عن الرأس
من صدرك هذا الراسي
هذا المفتوح على عكا
هذا المعشوشب بالحب
بالنار وبالحقد
شيء يخرس كل الناس

ويستوحي الشاعر ما يمر به ويشاهده ويتعرض له في حياته فقد وجد نفسه مثلاً وهو في سلك القضاء يحاكم متهمين شتان بين جرائمهم وجرائم من هم في مراكز عالية وأماكن أشبه ما تكون بمكانة امرأة القيصر . وهذا ما اثر فيه وعكسه شعراً :

فالبيت قصر الأثرياء ... والقدس وكر الأدعياء
وروائح البترول تزكم ... انف كل الأنبياء
تطغى على نتن الجريمة ... من دهاليز الشراء
والحاكمون الداعرون ... تعودوا شرف البغاء

الفوا اريكات النفاق على متاهات الرياء
يا شعب جرحك في يديك وبين كفيك الدواء

وتهزه نكسة عام ١٩٦٧ من الأعماق وتغير مجرى حياته ليس لأنه كان يعيش الحلم وانما الحاضر الذي يراه ثورة واندفاعاً في العيون العربية التي اعتادت أن ترى رايات المجد تخفق فوق الربوع محصنة بارادة جماعية يصعب اختراقها ويعبر عن ذلك بقوله :

ويريدون ان اغني وأشدو في زوايا مقابر الأحياء

ويحاول عبد المطلب الأمين ان يظل تعبيراً حياً للواقع بأفراحه وأتراحه شعراً ونقداً ويلجأ الى الفكاهة حتى لكأنها جزء منه فهو يقولها على السجية ويكاد يجدها في كل حركة سواء لدى الزعماء بصورة خاصة أو لدى من يعايشهم بصورة عامة ، ويجد في النكتة التعبير المرضي للعديد من جوانب تفكيره وتطلعاته ، ويرضيه ان يجد الصدى المستحب حتى بات محور الحديث ولا تكون الجلسة ممتعة إلاّ عندما يكون عبد المطلب الأمين .

والذين يضحكون الناس يكونون عادة اكثر شقاء حتى إذا انطوى عليهم الليل أو عزلتهم الوحدة والتأمل ذرفوا الدموع الساخنة وبكت قلوبهم بالألم والجرح المفتوح ، فهم عاجزون عن قبول الواقع كما هو ، وعاجزون عن تغييره فتكون وسيلتهم ارسال القوافي الصارخة أو الألحان المعبرة ، واكثر ما يتركهم عرضة لهزات المشاعر العنيفة انهم لا يستطيعون البعد أو الابتعاد عن مسيرة الحياة لأنهم مشاركون فيها بفكرهم وأدبهم وتأملاتهم وما منحوا من صدق الاحساس والمشاعر.

ويصفه الدكتور حسين مروة بقوله : (طاقة بحجم طموحه تتوزع في طاقات ، كل واحدة منها بحجم الطاقة ـ الأم : ثقافة مكتنزة عمقاً وشمولاً ، شاعرية مرهفة لها شفافية الصحو الربيعي المشمس ، نفاذ فكري يخترق الظاهرة الكثيفة الى جوهرها اللطيف بلمحة واحدة لها وهج شلال من الضوء ، قدره على الكيف في مناخ كل ممارسة وكل سلوك وكل بيئة بشرية ، صلابة في الموقف المبدئي لها تماسك الفولاذ ومرونته في وقت معاً . .) .

وهذه صورة صحيحة لذلك الشاعر الأديب الناقد الدبلوماسي السياسي الصحافي صاحب الفكاهة والعلم الغزير ومع ذلك تجد الحيرة والاضطراب والقلق والغربة عند عبد المطلب الأمين فهو يكثر من السؤال :

في أي صقع استقر واسكن ولأي ظل استريح واركن
من كل أرض في نعالي غبرة ولكل ريح في ثيابي مسكن
الليل بيدائي على ظلماته تاهت خطاي وضاع ما اتبين

عبيد الله بن موسى العبسي.

مرت ترجمته في الصفحة ١٣٧ من المجلد الثامن، ونزيد عليها هنا ما يلي :

قال الذهبي في (سير اعلام النبلاء) : الامام الحافظ، اول من صنف المسند على ترتيب الصحابة بالكوفة ، كما ان ابا داود الطيالسي اول من صنف المسند من البصريين على ما نقله الخليلي في ارشاده . وكان من حفاظ الحديث مجوّداً للقرآن ، وتصدر للأقراء والتحديث . وحدّث عنه احمد بن حنبل قليلاً وكان يكرهه لبدعة فيه (يقصد بها التشيع) ، وحقّه ابن معين . وحديثه في الكتب الستة ، قلت : كان صاحب عبادة وليل صحب حمزة وتخلق بآدابه الا في التشيع المشؤوم فأنه اخذه عن أهل بلده المؤسس على البدعة .

قال احمد بن حنبل : حدث بأحاديث سوء وأخرج تلك البلايا فحدّث بها .

قال ابن مندة كان احمد بن حنبل يدل الناس على عبيد الله ، وكان معروفاً بالرفض ، لم يدع احداً اسمه معاوية يدخل داره ، فقيل : دخل عليه معاوية بن صالح الأشعري، فقال ما اسمك ؟ قال : معاوية . قال : والله لا حدثتك ولا حدثت قوماً انت فيهم .

الشيخ عبد المنعم بن عبد المحسن الخاقاني.

ولد في ١٣٢٧ وتوفي ١٤٠٥ .

ولد في سوق الشيوخ وتعلم القراءة والكتابة بها ثم هاجر الى النجف الأشرف واشتغل عند بعض بني عمه بتعلم النحو والصرف والمعاني والبيان ثم اخذ السطوح من الفضلاء وحضر بحث السيد ابو القاسم الخوئي في الفقه والأصول وحضر في الكلام والتفسير عند الشيخ محمد جواد البلاغي ثم اشتغل بالتدريس في النجف الأشرف ـ هاجر في حدود ١٣٧٠ الى مدينة عبادان للهداية والارشاد.

وعندما قامت الحرب الايرانية العراقية هاجر الى قم وبقي بها الى وفاته ودفن في مقبرة (باغ بهشت) .

كان على جانب عظيم من الزهد والتقوى قليل الكلام كثير الصمت موقراً مبجلاً وكان شاعراً[1].

الميرزا عبد الهادي القزويني.

توفي سنة ٩٧٦ في قزوين ودفن في صحن روضة شاه زاده حسين بن الامام الرضا عليه السلام من حملة العلم والفضل ونوابغ علماء الرياضيات أديب متبحر وشاعر مبدع وخطاط ماهر . برع في الموسيقى واشتهر في هذا الفن تخرج على جملة من علماء قزوين واختص بزوج اخته مالك الديلمي القزويني المتوفى سنة ٩٦٩ وأخذ كثيراً من العلوم منه خاصة في فن الخط. وكان المترجم له من أمهر الخطاطين في العصر الصفوي ذكره صاحب كلستان هنر ونقل عنه الدكتور مهدي بياني في كتابه (احوال وآثار خوشنويسان) الجزء الثاني صفحة ٤٢٢[2].

عبد الواسع بن محمد قاسم الجيلاني الرامسري.

من علماء مدينة رامسر رأيت له تعاليق على كتاب شرح التجريد تدل على فضله كتبها في سنة ١٢٣٧ في مدينة قزوين وصرح في نهايتها بانه من مدينة رامسر (سنحت سر)[3]

عبد الواسع بن موسى بن حسين النحوي الرامسري.

ولد حدود ١٢٥٠ وتوفي اوائل القرن الرابع عشر ولد في رامسر ودرس في اصفهان ثم رجع الى موطنه فاشتغل بالتدريس والتأليف، وله تعليقات على بعض الكتب العلمية وكان ينظم الشعر باللغة الفارسية[4].

الشيخ الميرزا عبد الوهاب الشريف بن الشيخ محمد علي بن الشيخ عبد الكريم (صاحب كتاب نظم الغرر) ابن الشيخ محمد يحيى (صاحب ترجمان اللغة) ابن الشيخ محمد شفيع (صاحب كتاب تتميم ابواب الجنان) ابن الشيخ رفيع الدين محمد (صاحب كتاب ابواب الجنان) ابن الشيخ فتح الله القزويني .

توفي في النجف الأشرف سنة ١٢٧٠ داخل الروضة الحيدرية امام الضريح المطهر ودفن داخل الحرم الشريف من جهة الشرق محقق مؤلف

(١) الشيخ محمد السمامي.
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٣) السمامي. (٤) السمامي.

مكثر ولد في قزوين وأخذ المقدمات على أبيه وجمع من اعلام قزوين ثم هاجر الى العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى متنقلاً بين كربلاء والنجف والكاظمية فحضر على كوكبة عظيمة من فحول علماء عصره منهم في كربلاء المؤسس الوحيد آغا باقر البهبهاني المتوفي سنة ١٢٠٥ والسيد علي الطباطبائي المتوفى سنة ١٢٣١ ونجله السيد محمد المجاهد المتوفى سنة ١٢٤٢ وشريف العلماء المازندراني الحائري المتوفى سنة ١٢٤٦ وحضر في النجف الأشرف على السيد مهدي بحر العلوم المتوفى سنة ١٢١٢ والشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٢٨ ونجله الشيخ موسى آل الكاشف الغطاء والسيد جواد العاملي المتوفي سنة ١٢٢٦ (صاحب مفتاح الكرامة) وفي الكاظمين على الشيخ اسد الله الكاظمي المتوفى سنة ١٢٣٤ والسيد عبد الله الشبر المتوفى سنة ١٢٤٢ كما حضر على الشيخ احمد الاحسائي المتوفى سنة ١٢٤١ وأخذ الحكمة والفلسفة من الآخوند ملا علي النوري المتوفي سنة ١٢٤٦ وغيرهم وله حق الرواية عن اكثر من اربعين مجتهداً منهم مشايخه المذكورون وتاريخ اجازة السيد جواد العاملي في ربيع الأول سنة ١٢٢٥ وقد ذكرها سيدنا الأمين في آخر كتاب المتاجر من (مفتاح الكرامة) المطبوع باشرافه وتحقيقه ثم عاد المترجم له الى مسقط رأسه قزوين وانتهى اليه كرسي التدريس والفتوى وكان من اكابر علماء الشيعة في عصره ونوابغ فقهاء الامامية سافر الى بيت الله الحرام وحج في سنة ١٢٣٠ مع صهره الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري على اخته العالمة الفاضلة آمنة خانم[١] ومن الحجاز عرج على مصر وحل في القاهرة وناظر كبار العلماء في الأزهر الشريف وحصل على اجازات من علماء الشافعية في القاهرة وكان معاصراً للشهيد البرغاني والمترجم له ممن حضر مجلس مناظرة استاذه الشيخ احمد الاحسائي في ديوان الشهيد بقزوين وكان يميل الى استاذه الاحسائي وألف كتاب (خلاصة الرشاد) وذكر في آخر الباب الأول في الايمان بالله المدرج فيه جميع الاصول الخمسة في خمسة فصول من الباب الخامس في المعاد تطرق الى المعاد الجسماني وذكر ما سمعه شفاها من السيد ميرزا مهدي الخراساني الشهيد في سنة ١٢١٨ وما ذكره الشيخ احمد الاحسائي في جواب السؤال عن المعاد .

هاجر المترجم له في أواخر عمره الى النجف الأشرف فسكن بها وتصدر للتدريس والفتوى حتى مرض ثم تنبه بساعة وفاته فأمر من معه بوضعه في تابوت وادخاله داخل الروضة الحيدرية ولما وضع تابوته امام الضريح المطهر فاضت آخر انفاسه داخل الحرم وذلك سنة ١٢٧٠ ومن آثاره الباقية في قزوين مدرسة دينية ومكتبة في محلة دار الشفاء ولا تزال داره باقية حتى اليوم ومن أشهر احفاده اليوم في قزوين الدكتور محسن شفائي .

وكانت ام المترجم له العالمة الفاضلة فاطمة بنت السيد حسين القزويني المتوفي سنة ١٢٠٨ شيخ السيد مهدي بحر العلوم ولقبه بالشريف لشرفه من طرف الأم والمترجم له خال قرة العين .

ترك المترجم له مؤلفات وحواشي ورسائل علمية قيمة تزيد على ثلاثين رسالة وكتاب وعندنا اكثر مؤلفاته بخطه منها كتاب خلاصة الرشاد في شرح اربعين حديثاً ، خلاصة الرشاد في الدلالة على منهج العباد فارسي في اصول الدين وفروعه ، كتاب هداية المسترشدين ، رسالة في صلاة الجمعة ، رسالة في مسائل التقليد بالعربية ، رسالة اخرى في مسائل التقليد بالفارسية كتاب في اصول الفقه ، شرح حديث المنزلة الذي أخرجه ابن حجر في الصواعق ، كتاب في الرد على رسالة السيد محمد باقر الأصفهاني في عدم جواز تقليد الميت ووجوب العدول الى الحي ، اجتماع الأمر والنهي ، التجري في اصول الفقه ، حجية الاجماع ، حجية المظنة ، رسالة في أصالة البراءة رسالة في العدالة ، رسالة في حجية الظن في الأحكام ، رسالة في عدم جواز اجتماع الأمر والنهي ، فائدة في اصل البراءة، الفوائد الأصولية .

ذكر المترجم له التنكابني في قصص العلماء ص ٦٤ من الطبعة الحجرية ووصفه السيد محمد باقر الأصفهاني في اجازته المؤرخة ٤ شعبان سنة ١٢٥٤ بقوله (.... ومنّ الله على اهالي قزوين ... بالعالم العامل الفاضل الكامل البارع الباذل جامع فنون الفضائل حائز صنوف الفواضل، عاصم عباد الله عن الخبائث والرذائل، زبدة الفقهاء العظام، عمدة العلماء الفخام ...) وذكره والدي قدس سره في المجلد الأول من كتابه (الغرر والدرر) المخطوط وشيخنا الاستاذ آغا بزرك الطهراني في الكرام البررة ج ٢ ص ٨٠٩ ومختلف اجزاء الذريعة الى تصانيف الشيعة وذكرته في كتابي كربلاء في حاضرها وماضيها[١] .

عطا الله المرشدي التنكابني (الشهير بـ آقا بزرك) .

ولد حدود ١٣١٠ وتوفي قبل ١٢٨٧ .

ولد في تنكابن ونشأ بها ثم ذهب الى قزوين وبقي بها مدة وبعد ذلك ذهب الى اصفهان وحضر عند اعلامها ثم ذهب الى النجف الأشرف ولازم بحوث اعلامها وفي حدود ١٢٤٥ رجع الى موطنه واشتغل بالتدريس وقضاء حوائج العامة [٢].

الشيخ علاء الدين ابن الشيخ رضا بن الشيخ عبد الحسين بن الشيخ ملا علي بن المولى الشيخ محمد البرغاني القزويني آل العلوي الشهيدي .

ولد في برغان سنة ١٣١٢ كما حدثني به وتوفي يوم ١٨ من ذي الحجة الحرام عيد الغدير سنة ١٣٩٤ في قزوين ودفن في مقبرة آل الصالحي في روضة الشاه زاده حسين بن الامام الرضا عليه السلام .

آل العلوي الشهيدي فرع من آل البرغاني من الأسر العلمية المعروفة في قزوين التي ظهر فيها غير واحد من اعلام العلماء واشتهرت باسم آل العلوي الشهيدي منذ عهد جدهم الشيخ ملا علي البرغاني المتوفى سنة ١٢٦٩ شقيق الشهيد الذي كان من مشاهير علماء عصره .

اخذ المترجم له المقدمات من الصرف والنحو والمنطق على الشيخ آغا الطالقاني القزويني والسيد عبد الرحمن التقوي ثم حضر في الفقه والأصول على الشيخ علي الطارمي والشيخ محمد الطارمي والشيخ فضل علي المهدوي القزويني في المدرسة الصالحية وفي سنة ١٣٣٥ هاجر الى طهران وحضر في الحكمة والفلسفة على الشيخ علي النوري والشيخ محمود القمي والمير علي محمد الحكمي ورجع الى موطنه قزوين ولازم الشيخ عيسى بن الشهيد واختص به وتزوج ابنته وبعد وفاة استاذه وأبو زوجته المذكور سنة ١٣٣٩ تصدر كرسي التدريس في المدرسة الصالحية والتف حوله جمع من الطلاب والفضلاء له مؤلفات وتحقيقات منها ترجمة ضيافة الاخوان وهدية الخلان لآغا رضي القزويني الى الفارسية وترجمه رسائل اخوان الصفاء مع تعليقات عليها ، وعقائد العلائية في الفلسفة في اكثر من ألف صفحة ، رأيته منهمكاً في تأليفه في سنواته الأخيرة . وله مقالات علمية في مختلف الصحف الايرانية [٣].

الشيخ ميرزا علامة بن الشيخ حسن بن الشيخ محمد صالح الحائري

(١) انظر مستدركات اعيان الشيعة ج ٢ .

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .
(٢) الشيخ محمد السمامي .
(٣) الصالحي .

آل الصالحي المولود في كربلاء سنة ١٢٤٩ والمتوفى سنة ١٣١٠ والمدفون في صحن الروضة الحيدرية بالنجف الأشرف مقابل باب الطوسي قريب جدار الحرم المطهر .

كان من كبار علماء الشيعة في الحائر الشريف ورجال التقليد والفتيا وأساطين الفقهاء في عصره اخذ المقدمات على جملة من اعلام الحائر المقدس وقد أدرك الشيخ مرتضى الأنصاري وتتلمذ على والده ثم هاجر الى قزوين وأخذ العقليات من الأخوند المولى آغا الحكمي القزويني وعمه الشيخ ميرزا عبد الوهاب البرغاني الصالحي ثم رجع الى موطنه كربلا وتخرج في الفقه والأصول على الشيخ حسين الاردكاني المتوفى سنة ١٣٠٢ والميرزا حبيب الله الرشتي المتوفى سنة ١٣١٢ وتصدر كرسي التدريس والامامة والفتيا في كل من كربلاء والنجف الأشرف فالتف حوله كثير من الفضلاء ونظر اليه النابهون من أهل العلم بعين الاكبار وعرف بالتحقيق والتدقيق وأصالة الرأي وغزارة المادة وأقبل عليه الناس في أمر التقليد .

ومضافاً الى مكانته الروحية وانشغاله بالتدريس والمرجعية كانت له مشاريع اجتماعية هامة منها اصراره على هجرة الشيعة من ايران وغيرها الى العتبات المقدسة في العراق أيام الاحتلال العثماني فجلب عمالاً وفنيين من قزوين ويزد واصفهان وغيرهما واسكنهم في كربلاء وقام باحياء الأراضي الصالحة للزراعة في شمال وشرق وغرب كربلاء وجلب اليها الماء واحدث انهراً . وفي الصيف الذي كان يقل فيه المياه في نواحي كربلاء كان يقوم بحفر الآبار واسقاء البساتين عن طريق النواعير والآبار . وهو أول من جلب اشجار ثمر (الكوجة) من برغان الى كربلاء والحمضيات من فلسطين وغيرها ولا تزال (الكوجة) والحمضيات من أهم محصولات كربلاء حتى اليوم وكان يسافر بنفسه مع جماعة متخصصين وعمال الى برغان وفلسطين لجلب احسن انواع الأشجار ثم يقوم بتكثيرها في بستانه الخاص الواقع على نهر الحسينية في الناحية المعروفة بـ (المدور) ولا يزال يعرف ذلك البستان باسمه حتى اليوم ثم يوزع الاغراس مجاناً على الفلاحين ومن آثاره في كربلاء تشييد سقف الطارمة مقابل باب القبلة المعروفة بالايوان الذهبي في روضة العباس والروضة الحسينية وجلب الخشب من الهند وكما شارك في انجاز هذا المشروع شقيقه مدرس الطف الشيخ ميرزا علي نقي الحائري الصالحي .

له مؤلفات منها : بغية المرام في أصول الفقه من مجلدين ضخمين وتحفة الرشاد في الشرح على الارشاد في اربعة مجلدات ضخمة من الطهارات الى الديات .[1]

الشيخ ملا علي بن ابراهيم الهمداني المعصومي المولود في قرية من قرى همدان في سنة ١٣١٢ والمتوفي سنة ١٣٩٨ .

قرأ المقدمات والعربية على فضلاء قريته وفي سنة ١٣٢٧ هاجر الى همذان لمتابعت دراسته فاكمل سطوح الفقه والأصول على جماعة من علمائها وفي سنة ١٣٣٥ قصد طهران وأخذ الحكمة والفلسفة عن حوزة الشيخ عبد النبي النوري الآخوند الهيدجي وفي سنة ١٣٤١ استقر في مدينة قم والتحق بحوزة الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي المتوفي سنة ١٣٥٥ وكان من المدرسين البارزين في قم وفي سنة ١٣٥٠ وفد جماعة من رجال همذان الى قم يطالبونه بالرجوع الى همذان فأجاب طلبهم بعدما أمره بذلك استاذه الحائري وسكن همذان وانتهى اليه كرسي التدريس والفتيا وأسس حوزة همذان العلمية وأخذ الطلاب يفدون اليه ومن آثاره في همذان تجديد وتوسيع بناء مدرسة الآخوند ملا محمد حسين الهمذاني ومكتبة الغرب التي تحتوي على اكثر من عشرين الف كتاب بينهما نفائس المخطوطات ونوادر

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

المطبوعات وتخرج على المترجم له جماعة كثيرة من العلماء والفضلاء وترك مؤلفات منها : اسرار الصلاة ، الاجتهاد والتقليد ، تقريرات في الفقه والأصول لاستاذه الحائري ، حواشي على العروة الوثقى أربعون حديثاً ، رسالة في كلام النفس ، ترجمة حياة الصحابي ابو بصير ، رسالة في عصير العنب والزبيب والتمر ، حواشي على انيس التجار وغيرها[1] .

الشيخ علي نقي بن الشيخ احمد الاحسائي (مؤسس الفرقة الشيخية) ابن الشيخ زين الدين بن ابراهيم بن صقر بن ابراهيم بن داغر بن رمضان بن راشد بن دهيم بن شمروخ بن صولة آل صقر المطيرفي الاحسائي المتوفى في ٢٣ ذي الحجة الحرام سنة ١٢٤٦ في كرمانشاه والمدفون فيها .

انتهت اليه زعامة الشيخية في كرمانشاه وهو ثاني اولاد ابيه ولد في الاحساء وقرأ المقدمات على فضلائها ثم لازم أباه في جميع رحلاته الى العراق وايران وتخرج عليه في اكثر العلوم وعلى تلميذ ابيه الملا علي البرغاني وهناك قرائن تدل على انه أيام اقامته في قزوين اخذ الفقه والأصول والحديث من المولى الشهيد البرغاني والشيخ محمد صالح البرغاني والحكمة والفلسفة من الأخوند ملا آغا الحكمي القزويني واجازه ابوه مع اخيه الأكبر الشيخ محمد تقي في اجازة واحدة مؤرخة سنة ٢٣٦ وجاء تاريخها سهواً في كشف الحجب سنة ٢١٦ هجرية[2] وله اجازة ثانية كتبها أبوه الشيخ احمد الاحسائي الى ملا علي البرغاني اشرك فيها ولده المترجم له وأخاه الشيخ محمد تقي والاجازة بخط المجيز موجودة عندنا .

وكان المترجم له من المتعصبين لرأي ابيه ويدافع عن عقائد والده بشدة وترك اكثر من عشرة مؤلفات في التفسير والكلام والحديث كتبها على غرار عقائد ابيه ودافع فيها عن الاعتراضات والايرادات الواردة عليه . وقد فصّل عن حياته الشيخ ميرزا علي الحائري في مقدمة نهج المحجة المطبوع في تبريز وكاظم الطريحي في مقدمة ديوانه المطبوع في طهران وقال الشيخ علي البحراني (ابنه الشيخ الفاضل العلي الشيخ علي نقي ابن الشيخ احمد بن زين الدين الاحسائي كان فاضلاً محققاً مدققاً الا انه لم تطل ايامه بعد ابيه . له كتب منها شرح رسالة الامام الهادي (ع) وله تحقيقات في دفع اعتراضات وايرادات على والده وله كتاب المحجة في الامامة مجلد كبير، هذا الذي رأيته والظاهر ان له غيره والله اعلم ولا ادري بتاريخ وفاته ولا بموضع قبره . . .)[3].

له مؤلفات منها ديوان شعر طبع في طهران سنة ١٩٥٥ م ، نهج المحجة في الامامة فرغ منه سنة ١٢٣٨ هجرية طبع في تبريز سنة ١٣٧٣ هجرية وهو من أهم مؤلفاته ، شرح رسالة الامام الهادي (ع) ، رسالة في الرد على بعض العرفاء في التوحيد ، حاشية على حجية الاجماع لوالده ، الرسائل المتفرقة ، منهج السالكين رسالة في قصة موسى والخضر ، رسالة في علم الباري ، رسالة في الأمر بين الأمرين ،[4].

الشيخ ابو الحسن علي بن احمد بن محمد بن داود بن موسى بن بيان المعروف بابن طبيب الرزاز

ولد في ربيع الأول سنة ٣٣٥ وتوفي في ليلة الأربعاء السابع عشر من ربيع الثاني سنة ٤١٩ . أخذ العلم والحديث على جمع من فحول علماء الشيعة منهم أبو بكر محمد بن عمر المعروف بالجعابي المتوفى سنة ٣٥٥

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) السيد اعجاز حسين النيشابوري الكنتوري كشف الحجب والاستار عن اسماء الكتب والأسفار ص ٢٠ طبعة كلكته سنة ١٣٣٠ هجرية .

(٣) الشيخ علي البحراني انوار البدرين ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ النجف مطبعة النعمان ١٣٧٧ هجرية .

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

وعلي بن محمد القرشي الكوفي المتوفى سنة ٣٤٨ وأبو الفرج الأصفهاني وأبو القاسم عبد الله بن احمد بن الحسين بن رجاء الخرقي المتوفى سنة ٣٥١ وغيرهم ترجمه تلميذه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج ١١ ص ٣٣٠ وذكر انه من مشايخه وأنه كان ممن كتب عنه الحديث ثم ذكر عدداً من مشايخ المترجم له من علماء الشيعة وغير الشيعة وأفرزت منهم أصحابنا الشيعة المذكورين آنفاً . ثم أضاف الخطيب البغدادي قائلاً (. . . من امثالهم ، كتبنا عنه وكان قد قرأ القرآن على ابن مقسم بحرف حمزة وكف بصره في آخر عمره وكان يسكن الكرخ وله دكان في سوق الرزازين . حدثني بعض أصحابنا قال دفع اليّ علي بن احمد الرزاز بعد ان كف بصره ـ جزءاً بخط ابيه فيه : أمالي عن بعض الشيوخ وفي بعضها سماعه بخط ابيه العتيق والباقي فيه تسميع له بخط طري فقال انظر سماعي العتيق هو ما قرىء علي وما كان فيه تسميع بخط طري فاضرب عليه فاني كان لي ابن يعبث بكتبي ويسمع لي فيما لم اسمعه أو كما قال . حدثني الخلال قال اخرج إليّ الرزاز شيئاً من مسند مسدد فرأيت سماعه فيه بخط جديد فرددته عليه .

قلت : وقد شاهدت انا جزءاً من اصول الرزاز بخط ابيه فيه امالي عن ابن السماك وفي بعضها سماعه بالخط العتيق ثم رأيته قد غيّر فيه بعد وقت وفيه إلحاق بخط جديد وكان الرزاز مع هذا كثير السماع كثير الشيوخ والى الصدق ما هو ، سألته عن مولده فقال في شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ومات في ليلة الأربعاء السابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وأربعمائة)[1]. اقول : ذهب شيخنا الاستاذ آغا بزرك الطهراني في كتابه طبقات اعلام الشيعة الى تشيعه ونقل قسماً من أقوال الخطيب البغدادي ثم اثبت تشيع المترجم له ورد على صاحب تاريخ بغداد قائلاً (. . . . ولم يذكر الخطيب محل دفنه ولم يشر الى مذهبه ولكن ذكر حكايات في تزييف كتبه اوّلاً الى ان قال كان الرزاز مع هذا كثير السماع كثير الشيوخ والى الصدق ما هو .

هذا كلامه في آخر ترجمة هذا الرجل الشيعي . وقد ذكر اولاً كثيراً من مشايخ الرجل، وجمع منهم من اكابر الشيعة وشريكه في الرواية عن ابن رجاء هو النسابة مؤلف بحر الأنساب)[2].

السيد علي بن السيد اسماعيل الموسوي القزويني.

ولد في قزوين في شهر ربيع الأول سنة ١٢٣٧ وتوفي بها قبل الظهر من يوم الثلاثاء الرابع من شهر محرم الحرام سنة ١٢٩٨ هجرية ونقل جثمانه الى كربلاء المقدسة ودفن في مقبرة صاحب الضوابط في الصحن الصغير الحسيني .

كان من ابرز علماء الشيعة في عصره وأكابر الفقهاء المتبحرين بقزوين توفي والده وهو لم يبلغ الحلم فكفله خاله السيد رضي القزويني فقرأ المقدمات وشطراً من السطوح على خاله المذكور وجماعة من فضلاء قزوين ثم حضر الفقه والأصول والحديث والتفسير على الشهيد البرغاني الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفي سنة ١٢٧١ والميرزا محمد التنكابني صاحب قصص العلماء وأخذ الحكمة والفلسفة عن حوزة الآخوند ملا آغا الحكمي والشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني آل الصالحي في المدرسة الصالحية بقزوين حتى سنة ١٢٦٢ ثم هاجر الى العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى وسكن كربلاء والتحق بحوزة السيد ابراهيم القزويني الموسوي صاحب الضوابط الذي كان يرتبط به بصلة قرابة ولكن لم تطل أيامه

(١) ابي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ١١ ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ بيروت دار الكتاب العربي .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

وتوفي السيد ابراهيم صاحب الضوابط في نفس العام فتوجه المترجم له الى النجف الأشرف وحضر على الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر المتوفى سنة ١٢٦٦ ثم تخرج على الشيخ مرتضى الانصاري والشيخ حسن البرغاني الحائري آل الصالحي والمولى الشيخ محمد حسين صاحب الفصول حتى بلغ درجة عالية في الفقه والأصول ثم رجع الى موطنه قزوين وتصدر كرسي التدريس والفتوى والامامة وتخرج عليه جماعة من الفضلاء والعلماء وعكف على التأليف والتصنيف. وذكره صاحب المآثر والآثار ووصفه بقوله ما هو تعريبه : (الآغا السيد علي القزويني من أعاظم المجتهدين وأجلاء حاملي لواء الشريعة والدين وكان من الفقهاء المتبحرين وفحول الاصوليين . له تحقيقات رصينة . وقد اعترف بمكانته العلمية أكابر معاصريه في اكثر الأوقات كان يدرس كتاب القوانين للميرزا القمي وله عليه حواشي وله ايضاً تعليقات مبسوطة على معالم الأصول وكان على جانب عظيم من الزهد والتقوى وهو ابن اخت العلامة المولى السيد رضي الدين المجتهد القزويني رضوان الله عليهما)[1].

وذكره الشيخ محمد علي المدرس في ريحانة الأدب بما هو تعريبه : (السيد علي بن السيد اسماعيل الموسوي القزويني عالم فاضل عابد زاهد فقيه اصولي محدث رجالي مفسر جامع المعقول والمنقول من فحول العلماء في اواخر القرن الثالث عشر للهجرة . .)[2]ولم يذكر تاريخ وفاته وولادته وساير خصوصياته .

وذكره السيد محمد مهدي الكاظمي في احسن الوديعة ضمن تلامذة الميرزا محمد التنكابني صاحب قصص العلماء نقلاً عن قصص العلماء وقال (الآغا السيد علي القزويني وهو من أقرباء صاحب الضوابط ومن مشاهير علماء قزوين . . . .)[3]وذكره شيخنا الاستاذ الامام الطهراني في الجزء الثالث من الكرام البررة المخطوط .

ترك المترجم له مؤلفات وتحقيقات اشار الى بعضها شيخنا الاستاذ في مجلدات موسوعته الذريعة الى تصانيف الشيعة ومن مؤلفاته :

١ ـ حاشية القوانين في مجلدين طبعت في سنة ١٢٩٩ .
٢ ـ شرح على المعالم في ستة مجلدات .
٣ ـ شرح على كتاب الرضاع للشيخ مرتضى الأنصاري .
٤ ـ رسالة في تحقيق الحقيقة .
٥ ـ تعليقة على تفسير البيضاوي .
٦ ـ رسالة في أقسام الواجب وأحكامها .
٧ ـ رسالة في المعاملات .
٨ ـ ينابيع الأحكام في معرفة الحلال والحرام في خمسة مجلدات .
٩ ـ شرح شرائع الاسلام كتاب التجارة الى الأجرة .
١٠ ـ كتاب الصيد والذباحة .
١١ ـ كتاب البيع ، رسالة فارسية في الاجتهاد والتقليد .
١٣ ـ رسالة في اصول الدين فارسية، وغيرها من الرسائل والتعليقات وخلف ولده العالم الفاضل السيد محمد باقر الآتي ذكره[4].

(١) محمد حسن خان اعتماد السلطنة : المآثر والآثار ص ١٤٣ طهران الطبعة الاولى الحجرية سنة ١٣٠٦ هجرية.

(٢) الشيخ محمد علي المدرسي التبريزي : ريحانة الأدب ج ٤ ص ٤٥٤ الطبعة الثانية تبريز مطبعة شفق.

(٣) السيد محمد مهدي الكاظمي : احسن الوديعة ج ١ ص ١٢٣ بغداد سنة ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٢٩ م. (٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

الدّكتور علي أصغر حكمت بن الميرزا أحمد علي مستوفي حشمة الممالك .

ولد بشيراز في نيسان سنة ١٨٩٣ م وتوفي سنة ١٩٨١ وكان آباؤه من مشاهير أطبّاء شيراز ، وأمّه بنت إلحاجّ ميرزا حسن الفسائيّ المؤرّخ المعروف ، مؤلّف « فارسنامه ناصري » ، وجدّه الأعلى السّيّد صدر الدّين علي خان الحسينيّ الحسنيّ المدنيّ المكّيّ الدّشتكيّ الشّيرازيّ الّذي كان من أشهر فضلاء عصره ، وهو صاحب الدّيوان ، وهو مولودٌ بالمدينة المنوّرة لمجاورة والده نظام الدّين أحمد مدّةً بها ، ثمّ سافر إلى الهند وتقدّم عند سلطان حيدر آباد الدّكن عبد الله قطب شاه ثمّ عند أورنك زيب ، وأبو المترجم له هو أحمد بن إبراهيم بن سلام الله بن مسعود بن محمّد بن غياث الدّين منصور الدّشتكي الفيلسوف الصّدر الأعظم للشّاه طهماسب الصّفويّ [٩٣٠ ـ ٩٨٤ هـ] والمتوفّى بعد عزله سنة ٩٤٨ هـ . فالمترجم له من سلالة العلم والفلسفة والوزارة، تعلم في شيراز بالمدرسة المنصوريّة ، ثمّ التحق بالمدرسة الأمريكيّة . ثمّ دخل في الخدمة الحكوميّة ، وفي حدود سنة ١٩٣١ م سافر إلى فرنسا ، ونال اللّيسانس في الأدب من جامعة السّوربون ، ثمّ ذهب إلى إنكلترة ودرس بلندن الأدب الإنجليزيّ ، وفي ١٩٣٢ م عيّن وزيراً للمعارف ، ثمّ انتقل من وزارةٍ إلى أخرى في المعارف والدّاخليّة والعدل والخارجيّة وغيرها ، وفي سنة ١٩٣٤ م شارك في تأسيس جامعة طهران الحديثة الّتي حلّت محلّ جامعة « دار الفنون » القديمة ، وكان أستاذاً ثمّ أستاذاً ممتازاً بها ، وهكذا فإنّه كان عالماً في الجامعة وسياسيّاً في الدّولة ، واتّسعت في عهده وزارة المعارف وزادت نشراته العلميّة ، وعمّر الآثار والأبنية القديمة ومقابر حافظ وسعدي بشيراز وابن سينا بهمذان والخيّام بنيشابور ، وتخرّج من تحت نظره بجامعة طهران دكاترة علماء مؤلّفون ذوو آثار هامّة .

ثمّ أرسِل في سنة ١٩٤٤ م على رأس بعثةٍ علميّةٍ إلى الهند، وبقي هناك عدّة سنوات يخدم العلم والثّقافة ، وفي سنة ١٩٥٠ م انتقل عمله إلى باكستان ، ثمّ في سنة ١٩٥٣ م عيّن سفيراً بالهند .

كان المترجم له عضواً في عدّة مجامع علميّة في إيران والخارج فهو عضو مؤسّس في المجمع العلميّ الإيرانيّ « فرهنكستان إيران » وعضو مراسل في مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة والمجمع العلميّ العربيّ بدمشق والمجمع العلميّ العراقيّ ببغداد .

وقد نال درجة الدّكتوراه الفخريّة من جامعات دهلي وعليكره الإسلاميّة ولاهور ، ومع أشغاله العلميّة والسّياسيّة الوافرة فقد كان يشتغل بالترجمة والتّأليف والتّحقيق والشّعر .

ومن مؤلّفاته وآثاره :

١ : دوستداران وطن . ط شيراز .

٢ : تعليم وتربيت [مجلة] السّنوات الثّلاثة الأولى [ابتداءً من السّنة ١٣٥٧ هـ].

٣ : جامي . ط طهران ١٣٧٢ هـ .

٤ : بارسي تعز . ط طهران ١٣٧٠ هـ .

٥ : نقش بپارسي بر أحجار هند، ط كلكته ١٣٦٥ ، وطهران ١٣٧٧ هـ .

٦ : أمثال قرآن ، ط طهران ١٣٧٢ هـ وطبعتان بعدها .

٧ : سرزنين هند، ط طهران ١٣٧٧ هـ .

٨ : نه كفتار درتارنح أديان ، مجلّدات . ط شيراز وطهران ١٣٧٩ و١٣٨١ هـ .

٩ : إسلام از نظركاة دانشمندان غرب ، ط طهران ١٣٨١ هـ .

وقد حقق :

١ : مجالس النّفائس[لطائف نامه]: مير علي شيرنوائي، ط طهران ١٣٦٣ هـ .

٢ : كشف الأسرار [تفسير ميبدي] عشرة مجلّدات ، ط طهران ١٣٧٢ ـ ١٣٨٠هـ .

٣ : معرفة المذاهب ، ط طهران ١٣٧٧ هـ .

٤ : رسالةٌ في تفسير سورة الأعلى : ابن سينا ، ط طهران .

وأمّا مقالاته في المجلّات الإيرانيّة وخارجها في مواضيع مختلفة وخطاباته في المهرجانات والمؤتمرات فهي أكثر من أن تعدّ وتحصى[1] .

الحاج ميرزا علي آقا التبريزي .

درس المقدمات في تبريز ثم سافر الى النجف الأشرف ودرس على اكابر علمائها وعاد الى تبريز ثم جاور في مشهد الرضا عليه السلام فتولى التدريس وتبليغ الأحكام بعيداً عن زخارف الدنيا .

كان ماهراً في الأدب والحكمة والرياضيات ، كما كان شاعراً ، وله نظم بالفارسية والتركية والعربية .

وله كتاب (ذخيرة المحشر) في شرح الباب الحادي عشر، انتهى من تأليفه في ١٦ رجب سنة ١٣٠٠ .

علي بن الحسين المسعودي :

مرت ترجمته في مكانها ونزيد عليها هنا هذه الدراسة بقلم الدكتور نبيه عاقل :

من ميزات المؤلفات التاريخية التي دونتها أقلام المؤرخين العرب ، الذين عاشوا وكتبوا في العصر العباسي الثاني وما تلاه ، اتجاهها نحو المنهج العلمي وميلها الى الدقة التي تتطلبها كتب التاريخ بشكل عام . ويمثل هذا الاتجاه الجديد في التأليف التاريخي ثلاثة هم : الطبري والمسعودي ومَسْكَويه . وفي مقال سابق عقدناه للحديث عن الطبري وتآليفه وطريقته في البحث اشرنا الى بعض الصفات والخصائص التي ميزت مؤلفه المشهور « تاريخ الأمم والملوك » وصرنا الى القول بأن هذه الخصائص لا تنطبق على هذا المؤلف وحده ، بل لها ما يشابهها في المؤلفات التاريخية الأخرى التي دونت فيما بعد ، والتي نهج فيها اصحابها نهج الطبري في اكثر الأحيان .

وفي مقالنا اليوم عن ثاني هؤلاء الثلاثة ، المسعودي ، سنجد ان المسعودي المؤرخ يسير على نهج الطبري في بعض الأمور ، فهو مثلاً يؤرخ حسب السنين لا حسب الموضوع ، ويذكر اكثر من رواية في الموضوع الواحد ، ويستقي مواده من أقوال من سبقوه من المؤرخين بعد ان يتحرّى الصدق فيما يجمع . ولكنه يغاير منحى سلفه في أمور كثيرة اخرى لظروف فرضتها بيئته وثقافته وعصره وغير ذلك . وقبل ان نبسط القول في خصائص مؤلفاته ونهجه في البحث ، لنعش معه حياته كما تصورها لنا المعلومات القليلة التي نراها مبعثرة في ثنايا بعض كتب التراجم والأخبار .

المسعودي ، واسمه الكامل أبو الحسن علي بن الحسين ، لا تبدأ قصة حياته بسنة مولد ومكان ولادة . بل يكتنف الغموض سنة مولده ، وفي المصادر اكثر من رواية حول مكان ولادته . فابن النديم صاحب الفهرست مثلاً يذكر انه من أهل المغرب ، في حين أن غيره من كتاب التراجم كالذهبي وياقوت الرومي وابن شاكر وغيرهم يجمعون على انه من مواليد بغداد ، وانه

(١) الشيخ ابو ذر بيدار.

من نسل الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود . ويؤيد هذا الزعم ما يذكره المسعودي نفسه في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، حيث يعدد أوصاف الأقاليم المختلفة فيقول : « وأوسط الأقاليم الأقليم الذي وُلدنا به ، وان كانت الأيام انات بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه ، وولَّدت في قلوبنا الحنين اليه ، إذ كان وطننا ومسقطنا ، وهو اقليم بابل ، وقد كان هذا الأقليم عند ملوك الفرس جليلاً وقدره عظيماً » وهكذا يمكننا ان نقول في تحديدنا لمكان ولادته انه أبصر النور في بغداد ، مسقط رأسه ومُستقر آله وذويه من نسل صاحب رسول الله عبد الله بن مسعود . اما زمان ولادته فتهمله المصادر التي بين ايدينا ولا تتعرض له بذكر ، وهذا امر طبيعي ، لأن احداً لم يكن يتوقع له الشهرة وذيوع الصيت حين وُلد ، ولكنه حين نبغ واحتل بين رجال عصره مكاناً مرموقاً سُلطت الأنوار عليه وتناقلت اسمه الألسن ، فحَرص رجال التراجم على تدوين سنة وفاته . والمصادر ، الا بعضها القليل ، تجمع على ان وفاته كانت في العام ٣٤٦ للهجرة ، كما ان في بعضها ما يدل على انه دخل الحياة العامة وأخذ يجول الأقطار طلباً للعلم والمعرفة في مطلع القرن الرابع للهجرة . وهذا وان كان لا يرشد الى سنة مولده الحقيقية فانه يسمح لنا بالاعتقاد بانه ولد في أخريات القرن الثالث الهجري ، وانه لم يَعْلُ له ذكر ، الا منذ مطلع القرن الرابع ، ولذا فهو يعد من مؤرخي هذا القرن الأخير.

وقد احب المسعودي الأسفار منذ شبابه ، فسافر سنة ٣٠٥ الى اصطخر في فارس وزار في السنة التي تلت بعض مناطق الهند وسيلان وبلاد سيمور ، وانضم الى فريق من التجار في رحلة في بحر الصين وعبر البحر الأحمر وزار مدغشقر كما زار زنجبار وعمان . وحوالي سنة ٣١٤ نجده يجوب بحر الخزر (بحر قزوين) ومناطقه وينتقل بعدها لزيارة طبريا وفلسطين . وقد قام في سنة ٣٣٢ بزيارة لأنطاكية . وبعض مدن الحدود السورية . واستغرقت زيارته لهذه المناطق مدة سنتين اقام اثناءها في بعض مدن الثغور الشامية والبصرة ، حتى كان العام ٣٣٤ فتوجه الى دمشق وأمضى فيها بعض الوقت . وانتقل منها الى مصر ليعيش متنقلاً بينها وبين سوريا حتى آخر حياته . وقد توفي سنة ٣٤٦ وهو مقيم في الفسطاط بمصر.

وقد دفع المسعودي للقيام بهذه الرحلات الطويلة المتنائية حبه للعلم ورغبته في طلبه والاستزادة منه . فهو بهذا يشبه المقدسي والبيروني . وقد أتاحت له هذه الأسفار أن يَغْنى بمعارفه الجغرافية والتاريخية والاجتماعية وان يتعرف على لغات وعادات وتقاليد وأخلاق وسياسات الأمم المختلفة التي زارها . وهو في جمعه بين المعرفة الجغرافية الواسعة بنتيجة الرحلات ، والأسفار ، وشغفه بالحقيقة التاريخية والأخبار بوجه عام ، يلتقي بهيرودوت أبي التاريخ عند اليونان ، فكلاهما رحالة زار البلاد وجاب الأقطار ، وكلاهما جمع أخبار الأمم التي زارها . وكلاهما مزج بين التاريخ والجغرافية في مؤلفاته . وقد دعا هذا بحق المستشرق فون كريمر Von Kramer أن يشير الى المسعودي في كتابه « تاريخ الثقافة في الشرق » باسم هيرودوت العرب.

يأخذ البعض على المسعودي انه لم يكن يتمتع دوماً بالروح العلمية العميقة ، وانه كان في بعض الأحيان سطحياً يقبل الخرافات والأساطير ويسردها في كتبه كما تصل اليه دونما تمحيص أو نقد . ولكن المستشرق سيديو Sedillot لا يعتبر هذا عيباً في المسعودي بل يُرجعه الى روح حب الاطلاع النامية عنده فيقول : « ولا نخشى التكذيب إذا قلنا انه لم يظهر بين العرب مؤرخ بلغ من الفضل الشامل ما بلغه المسعودي ، وإذا كنا نراه محتاجاً الى روح النقد احياناً فلنذكر ان حب الاطلاع الشديد فيه حفزه الى زيارة الأماكن التي أراد الوقوف على تاريخها فكان يساق الى نقل قصص ذات أصل مشكوك فيه » .

والمسعودي موسوعي لا يؤمن بالموضوع الواحد ولا يقنعه الاختصاص الضيق فيما يكتب . وإذا كان لهذا النهج مساوئه فهو لا يخلو من محاسن تدل على سعة أفق المؤلف وشمول نظراته وتعدد جوانب ثقافته . ويحدثنا هو عن تنوع الموضوعات التي يضمها المؤلَّف الواحد من مؤلفاته فيقول في الباب الذي يذكر فيه جوامع أغراض كتابه المسمى « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ما يلي ، مما يُستدل منه على تشميله هذا الكتاب ابحاثاً في التاريخ والجغرافيا والعادات والتقاليد والأخلاق والأدب وأخبار الملوك وسياستهم وغير ذلك . يقول المسعودي : « اما بعد اننا صنفنا كتابنا في أخبار الزمان ، وقدمنا القول فيه في هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها ، وجبالها وانهارها ، وبدائع معادنها . . . ثم اتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة والأمم الدائرة . . ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط في الأخبار على التاريخ ومن درج في السنين الماضية . . . ونعتذر عن تقصير إن كان ، ونتنصل من اغفال ، أو عرض لما قد شاب خواطرنا ، وغمر قلوبنا ، من تقاذف الأسفار وقطع القفار ، تارة على متن البحر ، وتارة على ظهر البر ، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بأواسط ارمينيا ، وأذربيجان ، وطوراً بالعراق ، وطوراً بالشام . . نسري في الآفاق سري الشمس في الاشراق . كما قال بعضهم :

تيَمَّمَ اقطار البلاد فتارة لدى شرقها الأقصى وطوراً الى الغرب
سرَى الشمسِ لا ينفك تقذفه النوى الى افق نـاء يقصِّر بالركب

وفاوضنا اصناف الملوك على تغاير اخلاقهم وتباين هممهم ، وتباعد دارهم . . . » .

وهكذا يصنف لنا الموضوعات التي تطرق الى بحثها في كتابه ، وينقلنا معه في أسفاره ، واصفاً متاعبه في رحلاته ، واطلاعه الواسع على ما ألف من قبله ، ومعدِّداً بعضاً مما دبَّج قلمُه من مؤلفات في التاريخ والجغرافيا وغيرها . وهو كغيره من المؤرخين العرب لا يتبع نظاماً موحداً في عرض مادته . ونراه في كثير من الأحيان يخرج عن جادة الموضوع الأصلي ليذكر أشياء لا تمت الى ما يبحث بصلة أو نسب . ولكنه يهتم ببحث جميع الأشياء التي يعتبرها المتعلم في عصره أساسية ، لذلك جاءت مؤلفاته جامعة لكثير من المعلومات المتشعبة المتفرعة . وهو يلتفت بشكل خاص الى الأمور الاجتماعية ، والدينية ، والعلمية التي تميز بها العرب قبل اسلامهم ، ويقارن بينهم وبين العجم وغيرهم من الأمم ، محاولاً اظهار فضل العرب وتقدمهم . فتراه عند ذكر سير الملوك والخلفاء يستقصي أدق أخبارهم الخاصة فيدخل بيوتهم ويعيش معهم في مجالسهم ويصف ملامحهم وعاداتهم في المأكل والمشرب والملبس مما لا تجده عند غيره . وقل الأمر نفسه عن اهتمامه بما كانت عليه أمة العرب من معتقدات دينية ، وايمان بآلهة وأوثان ، وزجر للطير وسوانحه وبوارحه ، والكهانة والعرافة ، حتى يصل الى علومهم ومجالس انسهم وقيانهم وآلات طربهم التي ضاع أغلبها ولم يصل الينا منها الا القليل.

ومن تصانيفه : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أخبار الزمان ومن اباده الحدثان ، التنبيه والأشراف ، أخبار الخوارج ، ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور ، الرسائل ، الاستذكار بما مر في سالف الأعصار ، أخبار الأمم من العرب والعجم ، خزائن الملوك وسر العالمين ، المقالات في أصول الديانات ، البيان في أسماء الأئمة ، المسائل والعلل في المذاهب والملل ، الابانة عن أصول الديانة ، سر الحياة ، الاستبصار في الامامة ،

والسياحة المدنية في السياسة والاجتماع . ويبدو أن أوسع كتبه كان كتابه « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان » . وهو كتاب في التاريخ العام والجغرافيا بدأ في تأليفه سنة ٣٣٢ هـ ـ ٩٤٣ م . وقد بلغ عدد اجزاء هذا الكتاب ثلاثين مجلداً عرض فيها المسعودي الحوادث حتى سنة تأليفه . وقد ضاعت أجزاء هذا الكتاب كلها ولم يبق منها الا مجلد واحد اشتراه المستشرق فون كريمر من مكتبة في حلب وحفظه في مكتبة فيينا . ويذكر السائح الانكليزي بوركهارت Burckhardt في كتابه « رحلات في بلاد النوبة » ان شيخاً قاهرياً قصَّ عليه في مطلع القرن التاسع عشر للميلاد انه رأى اكثر من عشرين مجلداً من هذا الكتاب ، في ملازم من اربع ورقات في مكتبة جامع أياصوفيا بالقسطنطينية . ويبحث المسعودي في هذا الكتاب تاريخ العالم وجغرافية ديار الحرب (أي بلاد غير المسلمين) ، كما يبحث أيضاً في الأساطير التي تتحدث عن تاريخ مصر القديم . وقد نقل جزءاً مما كتبه في هذا الكتاب في كتابه « الكتاب الأوسط » الذي لم يبق منه ايضاً إلاّ مجلد واحد محفوظ في مكتبة البودليان Bodleian Library في اوكسفورد.

وقد اختصر المسعودي المعلومات التي أوردها في هذين الكتابين (كتاب أخبار الزمان ، والكتاب الأوسط) ، وجمعها في كتابه المسمى « مروج الذهب » الذي انتهى من تأليفه سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م ، وأعاد النظر به سنة ٣٤٥ هـ/٩٥٦ م، أي قبل وفاته بقليل . ويمكننا ان نقسم المادة الموجودة في هذا الكتاب الى قسمين : القسم الأول ، ويصف فيه الخليقة وقصص الأنبياء والبحار والأرضين . وما فيهما من العجائب شارحاً اثناء ذلك تواريخ الأمم القديمة من فرس وسريان ويونان ورومان وفرنجة وعرب قدماء ، باحثاً مذاهبهم وأوابدهم وأطول الشهور والتقاويم القديمة والبيوت المعظمة عندهم وغيرها . أما القسم الثاني فيختص بتاريخ العرب منذ قيام الرسالة الاسلامية حتى أوائل خلافة الخليفة العباسي المطيع لله . الذي توفي سنة ٣٦٣ للهجرة أي بعد وفاة المؤلف بسبعة عشر عاماً . ويظهر مما جاء في مقدمة هذا الكتاب انه اعتمد في تأليفه على عشرات من الكتب التاريخية وغيرها كانت موجودة في أيامه ولم يصلنا منها إلاّ القليل كتاريخ الطبري وفتوح البلدان للبلاذري وغيرهما . وقد عرف المهتمون بتاريخ العرب والاسلام من غير العرب لهذا الكتاب أهميته البالغة فحرصوا على ترجمته الى اللغات الأجنبية . وقد نقله المستشرق باربيه دومينار Barbier de Ménard الى اللغة الفرنسية وطبع في باريس بين سنتي ١٨٦١ ـ ١٨٧٧ م في تسعة مجلدات، كما نقله الى الانكليزية الأستاذ سبرنجر Springer وطبع الجزء الأول منه في لندن سنة ١٨٤١ ، والطبعة الانجليزية غير كاملة . وللكتاب عدة طبعات عربية اقدمها طبعة بولاق سنة ١٨٦٧ ، ولكن أفضلها هي الطبعة المحتوية على مجلدين يضمان أربعة اجزاء والتي أشرف عليها وحققها الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد.

وللمسعودي كتاب مطبوع آخر هو كتاب « التنبيه والاشراف » الذي ألفه قبل وفاته بقليل وهو على حد تعبير المؤلف نفسه مقدمة لكتبه وتكملة لها . وهذا الكتاب عظيم الأهمية لأنه يحوي كل ما حصله المؤلف من الأخبار بعد أن كتب « مروج الذهب » الكتابة الأولى، وهي التي وصلت الينا ، وقبل ان يعيد النظر به كما ذكرنا آنفاً . وهو كتاب جغرافي أودع المؤلف فيه لمعاً من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها وتراكيبها ، وأقسام الأزمنة والفصول السنوية ومنازلها والرياح ومهابها والأرض وشكلها ومساحتها وتأثير النواحي والآفاق على السكان والعروض والأطوال والأقاليم السبعة والأنهار ومصابها . كما يذكر في هذا الكتاب الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها كما يذكر ملوك الفرس والروم وأخبارهم وأخبار الأنبياء وسيرة الخلفاء حتى سنة ٣٤٥ للهجرة . وميزة هذا الكتاب انه يحوي الكثير من المعلومات الجديدة التي لم يضمنها المسعودي مؤلفاته الأخرى . وقد طبع النص العربي الكامل لهذا الكتاب المستشرق دو خويه De Goje في سلسلة « مكتبة جغرافي العرب » وذلك في مدينة ليدن عام ١٨٩٤ ، وقد ترجم النص العربي هذا الى الفرنسية المستشرق كارا دوفو Carra de Vouk ونشره ضمن منشورات الجمعية الآسيوية ـ مجموعة الكتب الشرقية ـ وذلك في باريس عام ١٨٩٧ .

وإذا كان لحرص المستشرقين والمهتمين بتاريخ العرب والاسلام على ترجمة كتب المسعودي الى اللغات الأجنبية وطبعها ونشرها من دلالة فهي تقديرهم البالغ لآثار هذا المؤلف وحرصهم على الافادة منها ، ويلخص فازيليف Vaseliev في كتابه « العرب والروم » اعجاب المؤلفين الغربيين بكتب مؤرخنا المسعودي بقوله : « وكتب المسعودي مما يقرؤه المسلمون والأروبيون على السواء فيجدونه ممتعاً طلياً وذلك راجع الى تنوع الأخبار التي يسوقها المؤلف والى قدرته على جعل سرده حياً في كتبه » .

وبعد فهذه هي لمحات من قصة حياة وتأليف علم من أعلام أمتنا تفصلنا عنه سنون تزيد على الألف ، أحله علماء الغرب مكاناً رفيعاً من قلوبهم وأحاطوه بما يستحق من احترام وتقدير ، فهل ترانا نحن عرب هذا العصر جديرين بحمل مشعل الفكر والحقيقة الذي سلمه لنا الأجداد متقداً وهاجاً حتى نصل ما انقطع ونبني ما كاد ان يتداعى ويدخل في غياهب النسيان !! ان أمانة الأجداد ، ومنهم المسعودي، تهيب بنا الى مضاعفة الجهد حتى نلحق بركب كنا قادته وكاد اليوم أن يفوتنا .

علي سيف الدولة الحمداني :

مرت ترجمته في موضعها ونضيف اليها هنا هذا البحث عن سيف الدولة الشاعر الناقد مكتوباً بقلم جاسر خليل أبو صفية :

حدثتنا الكتب القديمة والحديثة عن وجه واحد لسيف الدولة الحمداني ، هو الوجه العسكري ، الذي قارع الروم طويلاً ، فانتصر عليهم وانتصروا عليه احياناً .

أما الوجه الآخر لسيف الدولة ، الوجه العلمي ، فقليلاً ما نلمحه ، مختفياً في طيّات الكتب ، ترتسم قسماته هنا وهناك ، وفي هذه المقالة سنحاول أن نلقي بعض الضوء على هذا الوجه ، علّنا نتعرّف اليه عن قرب ، ونعرضه للناس.

نلمح من خلال الضوء الذي أرسله الثعالبي في يتيمة الدهر (١/٢٨) أن بلاط سيف الدولة حوى جلّة العلماء والأدباء والشعراء ، كان يباهي بهم غيره من الملوك ، حتى قيل بأنه لم يجتمع ببلاط أحد من الملوك ما اجتمع ببلاط سيف الدولة ـ بعد الخلفاء.

وصوّرته الكتب لنا على أنه من علماء اللغة العارفين بها وبأسرارها ، يشهد بذلك ابن خالويه ـ من مشاهير علماء اللغة في عصره ـ وذلك عندما دخل ابن خالويه يوماً على سيف الدولة فقال له : أقعد ، ولم يقل له إجلسْ . قال ابن خالويه : « فعلمت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب ، واطلاعه على أسرار كلام العرب ، لأنه يقال للقائم اقعد ، وللنائم والساجد اجلس » .

وكان يسأل العلماء بحضرته عن مسائل في اللغة والنحو ، ويناظرهم في هذه المسائل ، ويبدي فيها رأياً يدل على سعة علمه ودقة ملاحظته.

وقال عنه الثعالبي في (اليتيمة ١/٢٨): « وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر ، شديد الاهتزاز لما يمدح به » .

ووصفه العماد الأصفهاني الكاتب في « خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ص ٨٢» ، بأنه من الملوك الذين « يتفرغون للكتب ، ويتشاغلون بالأدب ، ويؤثرون مجالسة العلماء على منادمة الأمراء ، ويقولون الأبيات فيما يعرض لهم من الحالات ، ويتفق لهم من التشبيهات » .

ورغم ما قيل عن وجه سيف الدولة الأدبي ، فان الكتب القديمة تعرض عن رواية شعره أو طرف منه . وإن كانا نذكر المتقدمين بفضل فإننا نخص به أبا منصور الثعالبي ، لأنه أورد لنا طرفاً من أشعار سيف الدولة ، وبعضاً من مواقفه النقدية ، ونقل عنه ابن خلكان ، وعلّق على بعض الأشعار.

أما كتّابنا المحدثون فقد تناقلوا كلام القدماء عن شاعرية سيف الدولة وروحه النقدية ، دون أن يوردوا شيئاً من شعره ، وإن أشاروا الى بعض مواقفه النقدية ، كما فعل الدكتور محمود السمرة في كتابه « القاضي الجرجاني » (ص ٥٦ ـ ٦٠).

سيف الدولة الشاعر

انفرد أبو منصور الثعالبي في يتيمته ـ فيما وقع لدينا ـ بايراد متفرقات من شعر سيف الدولة نوردها فيما يلي :

يقول الثعالبي : ومما أنشدني أبو الحسن أحمد الأفريقي المتيَّم الشاعر لسيف الدولة في وصف قوس قزح ، وهو من احسن ما سمعتُ فيه على كثرته :

وساق صبيح للصَّبوح دَعَوْتـه … فقام وفي أجفانـه سِنَةُ الغُمْض
يطوف بكاسات العقار كأنجم … فمِن بين مُنْقَضٍ علينا ومُنْفَض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً … على الجوِّ دُكناً والحواشي على الأرض
يُطرِّزها قوسُ الغمام بأصفر … على أحمر في أخضر إثر مُبْيَض
كأذيال خَوْدٍ أقبلت في غلائل … مُصَبَّغةٍ والبعض أقصرُ من بعض

ويعلّق الثعالبي على هذه الأبيات بقوله : « وهذا من التشبيهات الملوكية التي لا يكاد يحضر مثلها السوقة » .

أما ابن خلكان فيعلق بقوله : « وقيل ان هذه الأبيات لأبي الصقر القبيصي ، وقيل انها لعبد الصمد بن المعذل » (وفيات الأعيان ٣/٧٩) . ويذكر الدكتور شوقي ضيف في حاشيته على كتاب جرجي زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » (٢/٦٦) ان هذه الأبيات لابن الرومي وهي موجودة في ديوانه . كما يثبتها لابن الرومي أيضاً الأستاذ إيلي حاوي في حاشيته على اليتيمة ١/٥٢.

ولعلَّ هذا يلقي ضوءاً على كلام الثعالبي ، فهو بعد أن قال عن هذه الأبيات بأنها احسن ما سمع يعقب بتعليق قاس ، وكأنه يعرض بابن الرومي الذي لا يستطيع وصف الأشياء كما يصفها الملوك ، ولست أدري أين هذا الوصف الملوكي في الأبيات ، وأرى ان ابن الرومي لا يعجز عن مثلها ، يؤيد هذا ما أورده ابن رشيق القيرواني في (العمدة ٢/٢٢٥) قال:

« حُكي أن لائماً لام ابن الرومي وقال له : لِمَ لا تشبِّه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : ألا تنشدني شيئاً من قوله الذي استعجز عن مثله ؟ فأنشده قوله في الهلال وفي الآذريون (زهر أصفر في وسطه خَمْل أسود) ، فصاح ابن الرومي : واغوثاه ، تالله لا يكلّف الله نفساً إلاّ وُسْعها ، ذلك انما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف . ولكن انظر اين يقع قولي من قول الناس ، هل لأحد قول مثل قولي في قوس الغمام ؟ :

« وساق صبيح للصبوح دعوته » .

ورغم أن هذه الرواية محاطة بالشّك والتساؤل ، إلاّ ان الأبيات أقرب في روحها الى ابن الرومي منها الى سيف الدولة ؛ لابداع ابن الرومي في الوصف والتشبيهات ، بل له ما يفوقها جمالاً وبلاغة .

ومن شعر سيف الدولة في صباه هذه الأبيات الرقيقة في الغزل :

أقبَلَهُ على جَزَع … كشُرب الطائر الفَزِع
رأى ماءً فأطمَعَهُ … وخاف عواقب الطمع
وصادف فرصةً فدنا … ولم يلتَذَّ بالجَرَع

ويُحكى أنه كان لسيف الدولة جارية من بنات ملوك الروم ، لا يرى الدنيا إلاّ بها ، ويشفق من الريح الهابّة عليها ، فحسدتْها حظاياه على لطف محلّها منه ، وأزمَعْنَ ايقاع مكروه بها من سُمّ أو غيره . وبلغ سيف الدولة ذلك فأمر بنقلها الى بعض الحصون احتياطاً على روحها وقال :

راقبتني العيون فيك ، فأشفقتُ … ولم أخْلُ قط من اشفاق
ورأيتُ العذول يحسدني فيك مُجِـ … ـدّاً، يا أنفس الأعلاق
فتمنيت أن تكوني بعيداً … والذي بيننا من الوُدّ باق
رُبّ هجر يكون من خوف هجر … وفراقٍ يكون خوف فراق

وهي أبيات متكلفة تخلو من عاطفة الحب المشبوبة التي صوَّرتها الرواية لهذه الجارية ، ولا نرى فيها مضمون الرواية ايضاً ، وقد قال ابن خلكان في (وفيات الأعيان ٣/٨٠) بأنه رأى هذه الأبيات في ديوان عبد المحسن الصوري . وهي تنافي الحسّ المرهف الذي يتمتع به سيف الدولة .

ومن غزليات سيف الدولة ، ما أنشده ابن خالويه :

تجنّى عليَّ الذنب والذنب ذنبُه … وعاتبني ظلماً وفي نفسه العَتب
وأعرض لما صار قلبي بكفّه … فهلّا جفاني حين كان لي القلبُ ؟
إذا برم المولى بخدمةِ عبدِهِ … تجنّى له ذنباً وإن لم يكن ذنبُ

وله في الغزل أبيات أخرى رقيقة جميلة مع سهولتها :

قد جرى في دمعه دمه … فإلى كم أنت تظلمه
رُدّ عنه الطّرْف منك ، فقد … جرحَتْه منه أسهُمُهُ
كيف يستطيع التجلّد … من خطراتُ الوَهْم تؤلمهُ ؟

في المدح

ومن الغزل ننتقل الى المدح لنرى ان مدح سيف الدولة لا يكون إلاّ لمن هو في منزلته ومكانته ، والأبيات التالية قالها في أخيه ناصر الدولة (صاحب الموصل) ، (اليتيمة ١/٥٥ ـ البداية والنهاية لابن كثير ١١/٢٦٣):

رضيت لك العليا ، وقد كنتَ أهلَها … وقلت لهم : بيني وبين أخي فرق
ولم يك بي عنها نكول وإنّما … تجافيت عن حقي، فتمّ لك الحقُّ
ولا بدَّ لي من أن أكون مصلّياً … إذا كنت أرضى أن يكون لك السَّبْقُ

في الوصف

وأما الوصف فلسيف الدولة بيتان في وصف نار الكانون : (١/٥٥)

كأنما النار والرماد معاً … وضوءها في ظلام يحتجب
وجنةُ عذراء مسَّها خجل … فاستترت تحت عنبر أشهب

وهما من اجمل ما قيل في وصف النار عندما يغطيها الرماد.

وروى لنا القزويني في كتابه « آثار البلاد وأخبار العباد » (ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤) ثلاثة أبيات من الشعر مكتوبة على جدار قصر عباس بن

عمرو الغنوي الموجود قرب سنجار في العراق وهي :

يا قصر عباس بن عمرو ... كيف فارقك ابن عُمْرك
قد كنت تغتال الدهور ... فكيف غالك رَيب دهرك ؟
واهاً لعزّك بل لجودك ... بل لمجدك بل لفخرك

وتحتها كتب: « كتبه علي بن عبد الله بن حمدان بخطه سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة » . وهي من شعر سيف الدولة في رثاء عباس بن عمرو.

من هذه الأمثلة القليلة لشعر سيف الدولة نرى ان شعر سيف الدولة محدد الأغراض ، فهو بين الوصف والغزل ، أما المدح فنادر . وكان مولعاً بما يسمّى في الشعر بـ« الاجازة » فيقول البيت والبيتين ويطلب ممن يحضر مجلسه من الشعراء أن يجيز ما قال . من ذلك أن أبا فراس الحمداني كان في مجلس سيف الدولة في نفر من ندمائه فقال لهم سيف الدولة : أيكم يجيز قولي ، وليس له إلّا سيدي ، يعني أبا فراس :

لك جسمي تعله ... فدمي لم تحلّهْ ؟
لك من قلبي المكا ... نُ فلِمْ لا تحُلّهْ ؟

فارتجل أبو فراس وقال :

أنا إن كنت مالكاً ... فليَ الأمرُ كُله

فاستحسنه وأعطاه ضَيْعَة بمنبج تغلُّ ألفي دينار . (اليتيمة ١/٣٦).

ومن ذلك أيضاً ان سيف الدولة أنشد المتنبي بيتاً ، وطلب منه اجازته . (ديوان المتنبي ١/٤٧ شرح العكبري).

قال سيف الدولة :

خرجت غداة النفر اعترضُ الدمى ... فلم أر أحلى منك في العين والقلب

فقال أبو الطيب المتنبي :

فدَيناك أهدى الناس سهماً الى قلبي ... وأقتلَهم للدّارعين بلا حرب

هذا ما استطعنا اثباته من شعر سيف الدولة ، آملين من الله أن نوفق لمعرفة المزيد.

سيف الدولة الناقد

شهد بلاط سيف الدولة مجالس علمية وأدبية كثيرة ، وكان يشارك في هذه المجالس مُدْلياً برأيه ، مستحسناً أو مستهجناً . ومن خلال هذه المجالس برزت مواقف سيف الدولة النقدية ، وهذه المواقف ليست نظريات في النقد وإنما هي آراء وأقوال تدل على تذوقه للشعر ، وحُسْن بصره به . وهذه المواقف قليلة في كتب الأدب والنقد التي بين أيدينا.

١ ـ موقفه من المتنبي عندما أنشده قصيدته الميمية :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر أهل الكرام المكارم

فلما بلغ قوله فيها :

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنّك في جفن الرَّدى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضّاح وثغرك باسم

قال سيف الدولة : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، كما انتقد على امرىء القيس بيتاه :

كأني لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل ... لخيلي كري كرة بعد اجفال

وبيتاك لا يلتئم شطرهما، كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين ، وكان ينبغي لامرىءالقيس أن يقول :

كأني لم أركب جواداً ولم أقل ... لخيلي كرّي كرّة بعد اجفال
ولم أسبأ الزق الرّوي للذّة ... ولم اتبطّن كاعباً ذات خلخال

ولك أن تقول :

وقفت وما في الموت شك لواقف ... ووجهك وضّاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... كأنك في جفن الرَّدى وهو نائم

فقال المتنبي : أيّد الله مولانا ، صح ان الذي استدرك على امرىء القيس هذا كان اعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ أمرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم ان الثوب لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك ؛ لأن البزّاز يعرف جملته ، والحائك يعرف جملته وتفاريقه ؛ لأنه هو الذي أخرجه من الغزليَّة الى الثوبيَّة ، وإنما قرن أمرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن السّماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكري الردى ليجانسه . ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من ان يكون عابساً ، وعينه من ان تكون باكية ، قلت : « ووجهك وضّاح وثغرك باسم » ؛ لأجمع بين الأضداد في المعنى، وإن لم يتسع اللفظ لجميعها » . فأعجب سيف الدولة بقوله ، ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات ، وفيها خمسمائة دينار . (اليتيمة ١/٣٧).

وهذا الموقف يدل على حاسة نقدية وبصر بالشعر ، فسيف الدولة قد انتقد بيتي المتنبي ، كما اشار الى نقد امرىء القيس، وأعاد ترتيب الأشطر ليتلاءم المعنى شكلاً. ولكنهُ عندما استمع الى وجهة نظر المتنبي وتخريجه لبيتي امرىء القيس وبيتيه تراجع عن موقفه وأعجب بتخريج المتنبي وكافأه ، وهذا أيضاً يدل على روح عالية في النقد.

٢ ـ موقفه من احد الخالديين (وهما من شعراء لسيف الدولة) ، وذلك عندما انشده احدهما قصيدته التي أولها :

لم يغد شكرك في الخلائق مطلقاً ... إلّا ومالُك في النّوال حبيس

وفيها يقول :

فغدا لنا من جودك المأكول والـ ... ـمشروبُ والمنكوحُ والملبوسُ

فقال له سيف الدولة: « أحسنت إلّا في لفظة « المنكوح » فليست مما يخاطب بها الملوك » .

ويعلق الثعالبي بقوله : « وهذا من عجيب نقده » (اليتيمة ١/٣٩).
ولست أرى في ذلك عجباً ، فنقد سيف الدولة هنا ينصب حول « أدب المخاطبة » وخاصة مخاطبة الملوك ، مما يقتضي الشاعر حسن اختياره للألفاظ.

وإذا علمنا ان النقد لا يقتصر على بيان العيوب، وإنما يشمل الاستحسان وبيان الجمال في الأبيات أو البيت ، استطعنا ان نثبت لسيف الدولة عدة مواقف نقدية كان يستحسن فيها الشعر على طريقة القدماء ، عندما كان النقد ساذجاً غير مُعَلّل.

٣ ـ من هذه المواقف ما أورده الثعالبي في (اليتيمة ١/٣٥) من أن أعرابياً أنشد سيف الدولة هذه الأبيات :

أنت عليّ وهذه حلبُ ... قد نفدَ الزادُ وانتهى الطّلب
بهذه تفخر البلاد وبالـ ... أمير تزهى على الورى العربُ
وعبدك الدّهر قد أضرَّ بنا ... اليك من جور عبدك الهرَبُ

فقال سيف الدولة : « أحسنت والله أنت » .

٤ ـ والاقرار على حكم نقدي يعتبر نقداً أيضاً ، ويدل على ذوق وبصر ، من ذلك ما أورده الواحدي في شرحه على ديوان المتنبي من أن سيف الدولة كان يُسَرّ بمن يحفظ شعر المتنبي ، فأنشد احد الشعراء بيتاً للمتنبي في حضرته

(المتنبي) وعلّق بقوله « هـذا البيت والذي يتلوه لم يُسبق اليهمـا » ، فقال سيف الدولة : « كذا حدَّثني الثقة ان أبا الفضل محمد بن الحسين قال كما قلت » (المتنبي بين ناقديه ـ د. محمد شعيب ص ١١٦).

فهو قد أقرَّ حكم الشاعر بأن البيتين لم يسبق اليهما المتنبي ، واعتمد في هذا الاقرار على حكم الثقة من العلماء، وهـذا منهج علمي سليم في اصدار الحكم . والبيتان هما (الديوان ٣/٢٠) :

رأيتـك في الـذي أرى ملوكـاً كـأنـك مستقيم فـي مُحـال
فـإن تـفُق الأنـام وأنت منـهـم فـإنَّ المسـكَ بعض دم الغـزال

٥ ـ ومن مواقفه النقدية ، أن المتنبي لما اشترط على سيف الدولة ان ينشد شعره قاعداً ، وألا يقبل الأرض بين يديـه ، وافق سيف الدولـة « فلما سمع سيف الدولة شعر المتنبي حكم له بالفضل ، وعدَّ ما طلبه استحقاقاً » (مقدمة شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ض/١).

وهذا الحكم للمتنبي بالفضل، لا يكون إلَّا من ناقد ذوَّاقة يعرف جيّد الشعر من رديئه .

ولكن هذه الروح النقدية عند سيف الدولة تتعرض لهجـوم عنيف من المتنبي ، فيقـدح في ذوق سيف الدولـة الشعري ـ وفي ذلـك حطٌّ من قيمته النقدية ـ وسبب ذلك ان سيف الدولة كان يحب الاستكثار من شعر المتنبي ، والمتنبي يستقله ، فكـان ذلك لا يعجب سيف الـدولة ، ويضـايق المتنبي ، فـأنشد المتنبي : (مقـدمة كتـاب ايضاح المشكـل لأبي القاسم الأصفهـاني ص ظ/ا).

ومـا انتفـاع أخي الـدنيـا بنـاظـره إذا استـوت عنـده الأنـوار والـظلم

فهو يصف سيف الدولـة بالأعمى الـذي لا يميز بين الـظلام والنور ، ويعني هنا عجز سيف الدولة عن التمييز بين الجيّد والرديء من الشعر .

ويصل الأمر الى اكثر من هذا ، فكان سيف الدولـة إذا تأخّـر المتنبي عن مدحه شقَّ عليه ، واكثر أذاه ، وأحضر من لا خير فيه فيتعرض للمتنبي ، فلا يجيب المتنبي مما يزيد في غيظ سيف الدولة (شرح البرقـوقي لديـوان المقدمة).

ولكن المتنبي الذي لم يتعرض لهؤلاء الشعراء الذين كـان يستقدمهم سيف الدولة ويغريهم بأبي الطيِّب ، لم يستطع احتمال الأمر طويلاً فقدح مرة أخرى في ذوق سيف الدولة وفي هؤلاء الشعراء بعنف كقوله :

بـأي لفظ يقـول الشعـر زعنفـة تجـوز عنـدك لا عـرب ولا عجم

فهذا أقسى اتهام يوجّه الى سيف الدولة ، فالمتنبي يستغرب كيف يقبل سيف الـدولة بهـذه الزعـانف من الشعـراء . ويستحسن شعـرهم ، مـع ان شعرهم لا يستحسنه العربي ولا العجمي .

هـذا التعريض بشخص سيف الـدولة وذوقـه الأدبي يصـل القمـة في مجلس سيف الدولة عندما كان المتنبي ينشده قصيـدته « واحـر قلباه » التي يعاتبه فيهـا ، ويعرض بـه وبأبي فـراس الحمداني الـذي كان يتهم المتنبي بسرقة كل بيت يقوله ويردّه الى اصله ، والمتنبي ماض في انشاد القصيدة ، وإمارات الغضب بادية على وجه سيف الدولة ، ويـزداد هذا الغضب لكثـرة مناقشة المتنبي في هذه القصيدة وكثرة دعاويه فيها ، فيعبر سيف الدولة عن غضبه بضرب المتنبي بدواة كانت بين يديه فيجـرحه ، وذلـك عندمـا أنشده البيت التالي :

سيعلم الجمـع ممن ضم مجلسنـا بـأنني خيـر من تسعى بـه القـدم

فالنقد الذي عبر به سيف الدولة عن استهجانه لقول المتنبي كان نقداً سلوكياً ـ إن جاز لنا أن نسميه كذلك ـ تمثل في ضرب المتنبي ، لأنه أشار الى تفوقه على سيف الدولة وكل من ضم مجلسه ، بـل على كل من تسعى بـه قـدم . ورغم هذا العنف من سيف الـدولة ، فـان المتنبي يمضي في انشاد قصيدته ليقول معاتباً سيف الدولة وكأنه يعتذر عن البيت السابق :

إن كـان سركـم مـا قـال حـاسـدنـا فـمـا لجـرح إذا أرضـاكـم ألـم

وهنا يعبر سيف الدولة عن رضاه واستحسانه البيت بتقبيل رأس المتنبي ومكافأته .

والى هنـا تسكت الكتب التي بين أيدينـا عن ايراد مـواقف نقـديـة أو شواهد شعرية لسيف الدولة ، كما نقف نحن ، وكلنا أمل في ان نكون قـد القينا بعض الضوء على وجه سيف الدولـة الشعري والنقـدي كما نـأمل أن تكون هناك دراسات أعم وأشمل حول الموضوع .

ميرزا علي خان اديب خلوت .

ولد سنة ١٢٨٥ في آشتيان وتوفي سنة ١٣٣٧ .

هاجر مع والده وعمه من آشتيان الى تبريز . وكان والده من اهل الفضل والأدب . وعمه الحاج ملا علي مجتهد آشتْياني من العلماء المعـروفين وقد درس عليهمـا كما درس على السيـد حسين الـزنـوزي البيرنجـي ، وعني باتقان علوم اللغة الفارسية والعربية .

من آثـاره : تاريخ شعـراء ايـران . تـاريخ علم الحسـاب الاسـلامي الايـراني . قامـوس الكلمات الفـارسية ، تـرجمة نهـج البلاغـة الى اللغـة الفارسية ، وضمن الترجمة مقدمة في دراسة حياة الامام ، واشعاراً من نظمه في مدبحه .

وكان شاعراً جمع شعره في ديوان طبع سنة ١٣١٨ عمل في الصحافة حيث اصدر في تبريز سنة ١٣٣٠ جريدة الاسلامي .

الشيخ علي بن الشيخ باقر بن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر .

توفي في يوم الأحد السابع من شوال سنة ١٣٤٠ وكانت وفاته خطباً اليماً في النفوس وأقيمت له الفواتح في اكثر الحواضر العراقية ورثته الشعراء دفن في مقبرتهم بالنجف الأشرف .

كان من مراجع النجف . نهض باعباء الزعامة العلمية لكن لم تمهله المنون .

حضر في الفقه والأصول علىٰ الشيخ محمد حسين الكاظمي والشيخ آغا رضـا الهمداني والشيـخ محمد طـه نجـف وكـان المترجم وصيه، وعلىٰ الشيخ حبيب الله الرشتي والشيخ كاظم صـاحب الكفاية وفي الرجـال علىٰ السيد محمد الهندي .

وحضر عليه اعـلام المراجـع في هذا العصـر كالسيـد محسن الحكيم والسيد حسين الحمامي والشيخ عبد الرسول الجواهري ـ وغيرهم .

كان يقيم الجماعة في مسجد آل المظفر في محلة المشراق ثم انتقل الىٰ مسجد الشيخ الطوسي (ره) ثم في الحرم العلوي .

له (حاشية علىٰ العروة) مطبوعة .

الشيخ علي نقي ابن الشيخ حسن ابن الشيخ محمد صالح الحائري آل الصالحي المعروف بـ مدرس الطف .

المولود في كربلاء سنة ١٢٥٣ والمتوفى بهـا سنة ١٣٢٠ المـدفون في الايوان الذهبي في الروضة الحسينية عند مدخل الباب الرئيسي في الـرواق الجنوبي .

كان من اكابر علماء الحائر الشريف ومراجع التقليد والفتيا والتدريس أخذ المقدمات على أفاضل كربلاء وتتلمذ على والده وادرك الشيخ مرتضى الانصاري وتخرج على الشيخ حبيب الله الرشتي وأخذ الحكمة والفلسفة في المدرسة الصالحية بقزوين عن الشيخ آغا الحكمي وعمه الشيخ عبد الوهاب البرغاني وغيرهم ، تصدر كرسي التدريس والفتيا في كربلاء بعد شقيقه الشيخ الميرزا علامه الحائري آل الصالحي وعكف عليه الطلاب واشتغلوا عنده بدراسة الفقه والاصول واشتهر امره كان قوي الاسلوب واسع الذهن حاد الذكاء محيطاً بالعلوم القديمة والحديثة معقولاً ومنقولاً لذا عرف بمدرس الطف .

ساهم المترجم له في مشروع شقيقه الشيخ ميرزا علامة الصالحي الحائري في ترويج الزراعة واحياء البساتين في كربلا، واستقدام الشيعة اليها واسكانهم فيها وبناء دور لهم في محلة خاصة تعرف حتى اليوم بمحلة چاچين في شمال مدينة كربلاء القريبة من نهر الحسينية حيث تتشكل كلمة چاچين من كلمتين فارسيتين وهي چاه بمعنى البئر وچين بمعنى الصف وهؤلاء هم العمال الفنيون الايرانيون الذين جلبهم المترجم له وشقيقه ميرزا علامه من قزوين واصفهان ويزد وكانوا يصفون الآجر في اطراف الآبار التي كانوا يحفرونها في البساتين لأرواء الأشجار في الصيف حينما كان ينقص ماء نهر الحسينية في ذلك العصر لانه لم تكن آنذاك سدة الهندية قد انشئت .

ومن آثاره في كربلاء تشييد سقف الطارمة المقابل لباب القبلة المعروفة بالايوان الذهبي في روضة العباس والروضة الحسينية ومن مؤلفاته كتاب بدائع الأصول في أصول الفقه وكتاب فقه القرآن في آيات الاحكام[1] .

علي بن الحسين ابو الفرج الأصفهاني .

مرت ترجمته في المجلد الثامن ، وننشر هنا عنه هذه الدراسة بقلم الدكتور نبيه عاقل .

اذا ذكرت العوامل التي هيأت للثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر للميلاد ، ذكرت النهضة الفكرية التي عاشتها فرنسا في هذا القرن ، وأشير بحروف عريضة الى الدور الكبير الذي لعبه الموسوعيون (الانسيكلوبيديون) ، من أمثال ديدرو Diderot ودالمبرت D'alembert وغيرهما ، في فتح عيون الناس على نور المعرفة وتبصيرهم بواقعهم وبالتالي شحذ هممهم للوقوف في وجه جلاديهم .

الموسوعيون من العرب

واذا كان على اوربا ان تنتظر حتى القرن الثامن عشر حتى تتعرف على ثمار الفكر الموسوعي ، فان عالمنا العربي كان يتنعم بنتاج هذا الفكر منذ أوائل القرن العاشر الميلادي حين نبغ الكثيرون من الموسوعيين العرب الذين لم تقتصر همتهم على ميدان واحد من ميادين المعرفة بل نقلوا أقلامهم بين مجالات متنوعة تنوع الطب والعلوم والفلسفة والتاريخ والأدب وعلوم البلدان والحيوان والنبات وغير ذلك . كان الواحد منهم لا ينتهي من تذكرة في الطب حتى يشرع في بحث فلسفي ، ولا يجف مداد ما سوده من أوراق في التاريخ حتى يملأ الصفحات الطوال في علم البلدان وهكذا .

ابو الفرج الأصبهاني موسوعي كبير

وأبو الفرج الاصبهاني، أو علي بن الحسين بن محمد الذي ينتهي نسبه الى مروان بن محمد آخر من استخلف من بني أمية ، علم من أعلام الموسوعة العرب يستحق منا وقفة نطل منها على حياته ونتاجه الخصب المتعدد الآفاق .

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

متى ولد ابو الفرج ، ومتى مات ؟

أما متى ولد أبو الفرج فأمر اتفق عليه دارسو حياته من قدامى ومحدثين . انه العام ٢٨٤ للهجرة . أما اين ولد ومتى توفي فأمر فيه أكثر من قول . فابن النديم مثلاً يمد في حياة أبي الفرج الى ما بعد العام ٣٦٠ للهجرة ، في حين أن أبا نعيم يجعل وفاته في سنة ٣٥٧ هـ ، وابن أبي الفوارس يحدد اليوم الرابع عشر من شهر ذي الحجة سنة ٣٥٦ هـ لانتهاء حياة عالمنا الجليل . ونحن وإن كنا لا نملك إلا المنطق والحجة غير المباشرة في تفضيل رواية على رواية من هذه الروايات الثلاث ، فأنّا نميل الى الأخذ برأي ابن النديم وتأخير وفاة الأصبهاني الى ما بعد سنة ٣٦٠ هـ لأسباب أهمها ان ابن النديم كان معاصراً له ، وبينهما صلات معرفةٍ ، ولأن كليهما من سكان بغداد حيث توفي صاحبنا وعاش الشطر الأكبر من حياته ، وهذا الرأي نخالف فيه الكثيرين من دارسي حياة أبي الفرج من المحدثين الذين مالوا الى رواية ابن أبي الفوارس واغراهم بريق اليوم والشهر اللذين يحددهما هذا الراوي الذي كان من تلامذة الأصبهاني وروى عنه بعض السير والأخبار .

أين ولد ابو الفرج ؟

وما قلناه عن اختلاف الرأي في تاريخ وفاة أبي الفرج يصح على المكان الذي ولد فيه ، فأبو الفرج ، في رأي بروكلمان ، وهوارث ، وصدر الدين ، وماريا نالينو ، وأحمد أمين وغيرهم ، من مواليد اصبهان التي ينسب اليها ويشتق منها اسمه . ولست أعلم مصدراً قديماً واحداً يشير الى هذه الحقيقة من قريب أو بعيد ، اللهم الا اشارة لا تحتمل هذا المعنى تَرِد في يتيمة الدهر للثعالبي الذي يقول أثناء حديثه عن أبي الفرج انه « اصبهاني الأصل »وقد نقل ابن خلكان فيما بعد هذه الاشارة وأثبتها في وفَيات الأعيان. وكلمة « الاصبهاني الاصل » لا تعني بالضرورة انه ولد في أصبهان ، وأغلب الظن أن المقصود منها انه اصبهاني الأصول أو ان أسرته قطنت اصبهان لأمد ، وذلك لأن طبقة الثعالبي من المؤلفين كانت تستعمل هذه الكلمة - « الأصل »- بهذا المعنى ، وحين تريد الاشارة الى مكان ولادة المترجم له تقول : فلان . . . كوفي المولد ، أو شامي المولد، وهكذا . وأبو الفرج نفسه من هؤلاء المؤلفين ، فهو حين يترجم للمغنّي محمد الرف مثلاً يقول عنه انه « كوفي الأصل والمولد والمنشأ » ليدلنا على مكان ولادة المترجم له ونشأته . وقد يسأل سائل بحق : اذا لم يكن أبو الفرج أصبهاني المولد والمنشأ فمن أين جاءت النسبة « اصبهاني » الى اسمه ، وأين ولد فعلاً ؟ !

انتساب ابي الفرج الى بني ثوابة من جهة أمه

نحن نعلم أن أسرة أبي الفرج لأبيه كانت تقطن مدينة سامرَّاء حاضرة الخلافة ومقر دواوين الدولة ، كما نعلم أن الكثيرين من أقربائه كانوا يعملون كُتَّاباً في هذه الدواوين . وسامراء أيضاً مستقر آل ثوابة أسرة أبي الفرج لأمه ، اذْ أنَّا نقرأ في الأغاني أن جده لأمه يحيى بن محمد بن ثوابة ، كان يعمل كاتباً في ديوان الخليفة في هذه المدينة . وما دامت أسرة الأب وأسرة الأم تعيشان في سامراء زمن ولادة صاحبنا فلا تجنى على الحقيقة اذن في قولنا مع الدكتور محمد أحمد خلف الله في كتابه « أبو الفرج الأصفهاني الراوية » أن سامراء هي مكان ولادته على أرجح الوجوه . وانتساب أبي الفرج الى بني ثوابة من جهة أمه يفسر لنا ميله الشديد الى الشيعة وحبه المتناهي لآل علي . فبنو ثوابة ، كما يقول ياقوت الرومي ، كانوا في الأصل نصارى ، وحين أسلموا انتموا الى المذهب الشيعي . فتشيع الأصبهاني اذن أثر من آثار احتكاكه بأسرة أمه ، ولولا معرفتنا لهذه الحقيقة لظللنا حائرين مع ابن الأثير الذي يَعجب لأموي ، كأبي الفرج ، يتشيع ويظهر هذا الحب والاحترام

لآل علي .

أبو الفرج بغدادي المنشأ

واذا كنا قد تلمسنا طريقنا في متاهة من المعلومات حين تحدثنا عن الجزء الأول من حياة أبي الفرج الأصبهاني ، فان ما لدينا من معلومات عن حياة هذا المؤلف الجليل في شبابه وشيخوخته يجعل مهمتنا أقل عسراً حين نتحدث عنه طالبَ علم ومؤلِّفاً وشخصيةً مرموقة من شخصيات عصره .

تتفق المصادر أن أبا الفرج بغدادي المنشأ والثقافة وأنه تلقى العلم في المدينة الزاهرة على أيدي النخبة من الرجال العظام الذين كانت تزخر بهم بغداد حاضرة العلم والمعرفة في عالم القرون الوسطى ورغم أننا لا نستطيع تحديد السنة التي أتى أبو الفرج فيها للسكنى في بغداد إلا أننا نستطيع القول أنه في سنة ٢٠٠ هـ كان يقيم مع أبيه في تلك المدينة وذلك لأنه يحدثنا في « أغانيه » عن لقائه في تلك السنة مع شخص قدم عليه وعلى أبيه دارَ السلام حيث كانا يقيمان .

ومن بغداد يخرج أبو الفرج ليزور البصرة والكوفة وأنطاكية وغيرها سعياً وراء رواية يتلقفها من فم راوٍ أو خبر لم يَطرق مسامعه وهو في بغداد .

السنة التي أصبح فيها أبو الفرج مؤلفاً

وتجيء السنة ٢١٣ للهجرة فينتقل صاحبنا من صف طلاب العلم ليتربع مكاناً مرموقاً بين صفوف المؤلفين . ففي هـذه السنة ألف أبـو الفرج مؤلفه « مَقاتل الـطالبيين » الذي أرَّخ فيـه لمن قُتل من آل أبي طـالب أو مات في موقعة أو سُجن مبتدئاً بجعفر بن أبي طالب ومنتهيـاً بالـطالبيين الذين قضـوا خلال حكم المقتدر .

وانتقال أبي الفرج الى صف المؤلفين هيأ له فرصاً من الشهـرة جعلته يحظى بعطف وحماية أشخاص من نوع الوزير المهلّبي وزير معز الدولة الذي وجد مؤلفنا الشاب في كنفه الظل الوارف والملجأ الأمين . وقد أتيح للعلاقة بين صاحب « مقاتل الطالبيين » ووزير معز الـدولة أن تنقلب الى صـداقة ، وأن تدوم هذه الصداقة حتى يفرق الموت بينهما .

وينصرف أبو الفرج الى التأليف فيطرق العديد المتنائي من الأبـواب ، ويضيف الى كنوز المكتبة العربية آفاقاً ما زلنا نَعبُّ من ينـابيعها الثـرَّة حتى هذا اليوم .

اللهو والاقذاع والقذر في حياة أبي الفرج

ولكن حياة أبي الفرج لم تكن كلها جداً وتأليفاً . فقد اجتذبت أضـواء بغداد ، وجلبة حاناتها ، وشدو قَيْناتها ، وفتنة غلمانها ، جزءاً غير يسير من انتباه صاحبنا ، فشَرِب وطَـرِب وتمتع بشـدو القيان وجمـال الغلمان . وقـد حفظت لنا كتب الأدب وتراجم الرجال الكثير من أخبار مُجونه مما لا نرى ضرورة للتفصيل فيه في مقام كهذا .

وما دمنا في صدد الحديث عن أبي الفرج الانسان فلا بد لنا من أن نشير الى ما تتحدث عنه الروايات من ضَراسـة خلقه وحـدة مزاجـه وإبداعـه في الهجاء من بين فنون الشعر المختلفة ، واقذاعه في مـذمة اخـوانه إذا بـدت منهم أصغر الهفوات ، أو تراءى له مبهم ما قد يفسـره بجفوة أو نبـوة . هذا بالاضافة الى الحديث المستفيض عن قذارة ثوبـه وبدنـه وكيف أن ثوبـه لا يعرف غسلاً منذ أن يَترك دكان البائع حتى يصير في زمرة الأسمال البـالية . على أن قذارة الثوب والبدن وشراسة الطبع وبذاءة اللسان لم تحرم صـاحبنا من نعمة الصداقة ولم تبعد عنه أنس الأخوان ، فقد كان له في جليل مكانته العلمية خير جواز مرور لأرفع الأوساط وأرفه المجالس .

عاش أبو الفرج حياة لم يعكر صفوها خوف من جوع أو قلة في المال ، فقد كان بيته في بغداد بين درب سليمـان ودرب دجلة بيتاً رافها يـدل على غضارة العيش . ولا غرو فالأصبهاني عمل في ديوان ركن الدولة كاتباً ، ونعم بأعطيات المهلبي وغيره من السادة ودرت عليه مؤلفاته مالاً ليس بالقليل .

وقبل أن يوافيه الأجل يصاب بالفالج ويخلط ، ولكن المنية ما تلبث أن تضع حداً لآلامه .

أبو الفرج مؤلف متعدد الجوانب

هذه هي الخطوط العريضة للحياة الخصبة التي عاشها علم من أعلام الفكر والموسوعة في القرن الرابع للهجرة ، واذا كان لا بد لنا من وقفة أمام أحد جوانب هـذه الحياة فـلا أحرى بنـا من أن نطل على الجـانب الفكري فيها ، اذ يكمن في هذا الجـانب قصة من قصص الشمـوخ والعلاء جـديرة بانحناءة اجلال واكبار .

كانت ثقافة أبي الفرج ثقافة موسوعية متعددة الجـوانب ، وكان من بين الذين تلقى العلم عنهم أناس جالوا في أكثـر من ميدان . وتـظهر آثـار هذه الثقافة المتسعة المتلونة تلون قـوس قزحٍ في القـائمة الـطويلة من المؤلفات التي دبجها يراعه . فلأبي الفرج حسب ما تقول المصادر المختلفـة الكتب التالية :

كتاب الأغاني ، كتاب مجرد الأغاني ، كتاب مقاتل الـطالبيين ، كتاب تفضيل ذي الحجة ، كتـاب الأخبار والنـوادر، كتاب أدب السمـاع ، كتاب أخبار الطفيليين ، كتاب أدب الغرباء ، كتاب مجموع الآثار والأخبار ، كتاب أشعار الاماء المماليك ، كتاب الخمارين والخمـارات ، كتاب الـديَّارات ، كتاب الفرق والمعيار في الأوغاد والأحرار ، وهي رسالة عملها في هارون بن المنجم ، كتاب القيان ، كتاب دعوة النجار ، كتاب أخبار جحظة البرمكي ، كتاب الحانات ، أيام العرب ، كتاب التعديل والانتصاف في أخبار القبـائل وأنسابها ، كتاب جمهرة النسب، كتاب نسب بني عبد شمس، كتاب نسب بني شيبان ، كتاب نسب المهالبة ، كتاب نسب بني تغلب، كتاب الغلمـان المغنين ، وكتاب مناجيب الخصيان .

ولم يصلنا من هذه القائمة الطويلة الدسمـة الا كتاب الأغـاني ومقاتـل الطالبيين ، وهما مطبوعان ومتداولان ، وكتاب الديارات وهو على ما أعلم ما يزال مخطوطاً ينتظر يد المحقق والطابع .

كتاب الأغاني

ونحن وإن كنا لا نملك حكماً على ما لم يصلنا مما كتب أبو الفرج فان لنا في درته الخالدة ، الأغاني ، دنيا من المعرفة ينتقل فيها المرء من شيِّق الى لـذيذ ، ومن مفيـد الى غـريب، بين ضـروب من التـاريـخ والأدب والنقـد والموسيقى والأخبار والأنساب والتراجم وغير ذلك . والكتـاب في الأساس ألف ليضم الأصـوات المئة التي أختـارها هـارون الرشيـد وجمعها ابـراهيم الموصلي واسماعيل ابن جامع ، وفليح بن عوراء، وراجعها فيما بعد اسحق الموصلي بناء على أمر الخليفة الواثق . ولكن الكتاب ليس هذا فحسب، انه السجل الضخم لجميع مناحي حيـاة العرب وحضـارتهم منذ الجـاهلية وحتى نهاية القرن الثالث للهجرة ، انه « ديوان العرب » كما يقول بحق ابن خلدون .

وإذا أردنا تقسيماً موضوعياً للمادة التي نصادفها في الأغـانى لأمكننا أن نفرق هذه المادة الى خمس زمر :

١ ـ معلومات فنية تتعلق بـالموسيقى العـربية والغنـاء العربي ومـدارس

الموسيقى، هذا الى جانب الكثير من الموسيقيين الرجال والنساء وحياتهم وأخبارهم .

٢ ـ شعر وحديث مستفيض عن الشعراء والمدارس الشعرية والنقد الشعري .

٣ ـ أنساب وأخبار تتعلق بالصلات القبلية ، وأبو الفرج كما ألمحنا مؤلف لأكثر من كتاب في هذا الموضوع .

٤ ـ أيام العرب .

٥ ـ تاريخ ونثر وأخبار .

هذا الى جانب المعلومات الواسعة حول الحياة الاجتماعية والحياة في قصور الخلفاء والأمراء ومكانة المرأة وأنواع الطعام والشراب واللباس والمفروشات والأسعار وغير ذلك . وقد استقى الأصبهاني هذا الخضمَّ المتلاطم من المعلومات التي احتواها « أغانيه » من مصادر أهمها ما وقع له من روايات شفهية ، أو مكتوبة ، وما قرأه من كتب وما سمعه من أخبار أو شاهده من حوادث . ولسنا نملك القول أن كل ما رواه صحيح ثابت أو أن كل من روى له أو عنه صادق لا تتطرق اليه ريبة . ولكنا نملك أن نقرر أن الأغاني في جملته مصدر جدير بثقتنا سيما وأن صاحبه كثير ما يقف ليناقش رواته أو ليفند رواية لا يطمئن الى انطباق وقائعها على منطق الأمور .

وبعد فالحديث عن الأغاني وصاحبه يطول : وأنا أعرف أني لم ألمس من الموضوع الا جوانبه . وأعرف أني تركت الكثير من المهم دون أن أمد اليه يد المعالجة ، خشية الاملال .

الواعظ المحسن الشهير أبو الحسن علي بن الحسين الغزنوي.

هكذا ذكره الذهبي في (سير اعلام النبلاء) ، وقال : سمع بغزنة (الصحيح) من حمزة القايني بسماعه من سعيد العيار ، وسمع ببغداد من أبي سعد بن الطيوري وغيره . وسمع ولده المعمَّر احمد (جامع) ابي عيسى من الكروخي .

قال ابن الجوزي : كان مليح الايراد لطيف الحركات ـ بنت له زوجة الخليفة[1] رباطاً، وصار له جاه عظيم لميل العجم . كان السلطان يزوره والأمراء ، وكثرت عنده المحتشمون واستعبد طوائف بنواله وعطائه . وكان محفوظه قليلاً ، فحدثني جماعة من القراء انه كان يعين لهم ما يقرؤونه ، سمعته يقول : حزمة حزن خير من اعدال اعمال .

وقال السمعاني : سمعته يقول : رب طالب غير واجد، وواجد غير طالب .

وقال ابن الجوزي[2]: كان يميل الى التشيع ، ولما مات السلطان أهين ، وكانت بيده قرية فأخذت وطولب بغِلّها وحبس، ثم اخرج ومُنع من الوعظ لانه كان لا يعظم الخلافة كما ينبغي، ثم ذاق ذلاً .

مات في المحرم سنة احدى وخمسين وخمس مئة (انتهى) .

وفي هذه الترجمة من العبر ما فيها، فلمجرد ميل الرجل الى التشيع لقي ما لقي .

وفي السنة التي توفي فيها ايقن بالموت فأرّخ وفاته بنفسه فقال :

حان حيني يا الهي وأنا ... لم أجد إلآك لي من راحم

وأنتسابي لعلي المرتضىٰ ... في غد من كل هول عاصمي

حملت نعشي أحبابي وذي ... أسرتي تبكي بدمع ساجم

ودعا الكل بتاريخي [أنا ... رحم الله الخطيب الهاشمي

١٣٩٥ هـ

السيد علي بن الحسين الهاشمي .

ولد في عام ١٩١١ م في النجف الأشرف توفي سنة ١٩٧٥ م فاضل وخطيب حسيني وشاعر . له من المؤلفات .

١ ـ ثمرات الأعواد جزءان.

٢ ـ المطالب المهمة في تاريخ الأئمة (ع) .

٣ ـ محمد بن الحنفية .

٤ ـ الحسين (ع) في طريقه الىٰ الشهادة.

٥ ـ الوصول الىٰ معرفة من دفن في العراق من أصحاب الرسول (ص) .

٦ ـ معركة صفين أو الخوارج .

٧ ـ حياة الامام الكاظم (ع) .

٨ ـ كميل بن زياد.

٩ ـ صعصعة بن صوحان.

١٠ ـ تاريخ الأنبار.

١١ ـ زينب الكبرىٰ (ع) .

١٣ ـ شرح قصيدة ابي طالب.

١٣ ـ سعيد بن جبير.

ـ ديوانه الشعري باسم الهاشميات .

وكان آخر كتاب ألفه وطبع في بيروت قبل وفاته [الوصول الىٰ معرفة من دفن في العراق من أصحاب الرسول (ص)]. بمجلد ضخم يشتمل علىٰ مئة وثمانية وستين صحابياً دفنوا في العراق .

علي بن رئاب التميمي .

ذكر الذهبي في سير اعلام النبلاء اخاه هارون بن رئاب ووصفه بالامام الرباني العابد، وانه يقال بأنه أجل اهل البصرة ، وانه حدث عن أنس بن مالك والأحنف بن قيس وغيرهما . ثم قال: يمان وهارون وعلي بنو رئاب، فهارون من أئمة السنة، ويمان من أئمة الخوارج، وعلي من أئمة الروافض، وكانوا متعادين .

الأمير نظام الدين علي شيرين كنجينه بهادر الجغتائي الهروي.

المولود في سنة ٨٤٤ والمتوفى ١١ جمادى الثاني سنة ٩٠٦.

كان وزيراً عالماً فاضلاً شاعراً أديباً محققاً ذكياً برع في الأدب والتاريخ وكان ينظم باللغتين الفارسية والتركية هو من أسرة الأمراء الذين كان لهم المناصب العالية في الدولة الجغتائية وعاش المترجم له في سرادق الملوك ودرس مع اولاد السلاطين وهو سبط الأمير ابو سعيد من أعاظم امراء بايقرا كما أن والده كيجينه بهادر ايضاً من امراء الجغتائية وانتهت اليه الرياسة لا سيما في عصر السلطان أبو سعيد. توفي في أوائل شبابه هاجر الى خراسان لمتابعة دراسته وبعد مدة من زمن توجه الى سمرقند وتخرج من مدرسة الخواجه فضل الله ولما استلم مقاليد الحكم السلطان حسين ميرزا بايقرا في خراسان استدعاه لادارة امور الدولة فأجابه ورجع الى خراسان وأصبح وزيراً في حكومته وله أيادي بيضاء على الأدب والشعر الفارسي والتركي وكان

محباً للعلم والعلماء وقد خدم العلم خدمة تذكر فتشكر وله آثار ومآثر باقية حتى اليوم منها بناء الايوان الذهبي جنوب الصحن في الروضة الرضوية وبناء مقبرة الشيخ فريد الدين العطّار وجلب الماء من عين « كلسب » من جبال هزار مسجد الواقع في شمال سهل خراسان الى مدينة مشهد وبناء عدة مدارس منها المدرسة الاخلاصية في مدينة هرات وله موقوفات كثيرة يصرف ريعها على امورٍ خيرية وهناك تبيان لاوقافه موجود حالياً في مكتبة ملك الوطنية في طهران في خمسة وعشرين صحيفة بقطع كبير وينص فيها على صرف بعض العائدات على احتفالات نصف شعبان وفي يوم عاشوراء وغير ذلك من الأمور الخيرية التي تثبت تعمقه في التشيع . وله رباعية فارسية في جواب الغزالي الذي يطالب بعدم لعن يزيد بن معاوية وترك المترجم له مؤلفات كثيرة منها اربعة دواوين تركية يتخلص فيها بـ « نوائي » وهي :

١ ـ غرائب الصغر.
٢ ـ فوائد الكبر .
٣ ـ نوادر الشباب .
٤ ـ بدايع الوسط.

ولــه ديوان فــارسي في ستة آلاف بيت يتخلص فيهــا بـ (فــاني) و (فنائي) وله ايضاً اسكندرنامه، وتاريخ الأنبياء تركي،ـحيرة الأبرار، وسبعة سيارة ، وسد اسكندري، وسراج المسلمين ، والسيف الهادي على رقبة المنادي، فرهاد وشيرين، لسان الطير، ليلى ومجنون، مجالس النفائس في تراجم الأعيان والشعراء طبع في طهران مع مقدمة وتحقيق الدكتور علي اصغر حكمت سنة ١٣٦٣ ، محاكمة اللغتين اي الفارسي والتركي، ومحبوب القلوب في الأخلاق، وميزان الاوران تركي، ونسائم المحبة في ترجمة نفحات الأنس تركي ونظم الجوهر تركي، وخمسة المتحيرين ، وحالات السيد حسن ارد شير، وحالات بهلوان محمد أبو سعيد، وتحفة الملوك فارسي، ومنشآتي تركي ، مفردات في فن المعمى.

ذكره كثير من المؤرخين والمحققين والمستشرقين منهم صديقه الأمير سام ميرزا الصفوي المقتول في سنة ٩٨٣ في كتابه تحفة سامى ص ١٧٩ والأمير دولتشاه السمرقندي في ص ٣٦٨ في كتابه تذكرة الشعراء ، والمستشرق ادوارد برون في كتابه تاريخ الأدب الفارسي ج ٣ ص ٦٣٤ وقال البغدادي في هدية العارفين (مير علي شير بن الأمير غياث الدين محمد المتخلص بالنوائي الأديب من وزراء السلطان حسين بايقراى ملك هرات . . .)[١]وجاء اسم والده في المصادر الفارسية كما اثبتناه نقلاً عن صديقه الأمير سام ميرزا الصفوي ولم نعلم من اين نقله البغدادي وفصّل عنه علي اصغر حكمت في مقدمة كتابه مجالس النفائس الذي طبعه عام ١٣٦٣ وأعيد طبعه في طهران مراراً ونصب له تمثال ضخم بزي علماء الشيعة في طاشقند من مقاطعة ازبكستان في الاتحاد السوفيتي، قال شيخنا الاستاذ في طبقات أعلام الشيعة : الأمير علي شير الجغتائي مات في ١١ جمادى الثانية سنة ٩٠٦ كان وزيراً فاضلاً ذا لسانين (فارسي وتركي) يتخلص في ديوانه الفارسي[٢] بـ (فاني) و (فنائي) وفي ديوانه التركي بـ (نوائي) وله رباعية كاشفة عن حسن حاله وهي في جواب الغزالي ثم ادرج الرباعية الفارسية[٣]وأشار الى داواوينه الأربعة في الذريعة الجزء التاسع من القسم الثالث ص ٨٠٤ وكما أشار الى سائر مؤلفاته في باقي أبواب الذريعة[٤].

(١) اسماعيل باشا البغدادي هدية العارفين ج ١ ص ٧٣٩ .
(٢) انظر صورته في مقدمة مجالس النفائس تحقيق علي اصغر حكمت.
(٣) احياء الداثر اغا بزرك الطهراني ص ١٥٤ .
(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

الشيخ علي رضا بن المولى كمال الدين حسين الاردكاني الشيرازي .

توفي بعد سنة ١١٢٠ .

كان من علماء الشيعة في العصر الصفوي اديب شاعر مفسر محقق حكيم متكلم عارف متفنن أخذ المقدمات والسطوح على جملة من فضلاء اردكان وشيراز ثم هاجر الى اصفهان وتخرج على العلمين المولى محمد تقي المجلسي الأول المتوفي سنة ١٠٧٠ والمولى الشيخ محمد كاظم الطالقاني المتوفى سنة ١٠٩٤ ولازم استاذه الطالقاني في قزوين حينما كان مدرساً في مدرسة النواب ومنها هاجر الى كربلاء والنجف وكان من الاعلام في كربلاء وشغل كرسي التدريس والفتوى بها سنين ثم رجع الى اصفهان واستقر هناك والتف حوله جمع من أهل العلم والفضل واشتغل بالتأليف والتدريس والفتوى وكان من أكابر علماء عصر الشاه سليمان الصفوي المتوفى سنة ١١٠٥ وصنف تفسيره الصغير باسم الشاه سليمان الصفوي وسماه (ترجمة سليماني) الموجود عندنا وصرح في أوله (ان هذه ترجمه سليماني) تفسير منطبق على ظاهر القرآن واللغة ويشتمل على الحقايق المأثورة عن أصحابنا الامامية والأحاديث المروية عن أهل البيت (ع) وتفاسير المتقدمين والمتأخرين من أرباب الفضل والدراية . . .) وله أيضاً ديوان شعر، وتفسير الاردكاني وهو تفسير صغير للقرآن الكريم ألفه سنة ١٠٨٤ والمترجم له من علمائنا المنسيين[١].

الشيخ علي مراد بن حسين بن سبز علي السيارستاقي التنكابني الجيلاني.

توفي حدود ١٢٥٠ .

ولد في سيارستاق من ضواحي تنكابن وتعلم المبادىء والمقدمات بها ثم ذهب الى اصفهان وحضر عند أعلامها واختص بالمولى علي النوري في الفلسفة ثم انصرف الى التدريس والتأليف ومن مؤلفاته :

١ ـ الرد على (البادري) الذي أنكر الاعجاز والنبوة .
٢ ـ هادي المهتدين ـ في سيرة الأئمة الاثني عشر[٢].

السيد علي نقي السياوزري التنكابني.

ولد حدود ١٢٦٠ . وتوفي حدود ١٣٢٥ .

ولد في سياورز من قرى تنكابن ودرس المقدمات والسطوح في مدارس تنكابن ثم هاجر الى النجف الأشرف وحضر عند اعلامها واختص بالميرزا حبيب الله الجيلاني (المتوفي ١٣١٢) ورجع الى موطنه وانشغل بالتدريس والتأليف ومن مؤلفاته :

١ ـ كتاب الصلاة في مجلدات . ذكر فيه آراء استاذه الجيلاني[٣].

الشيخ علي الخوئي بن علي رضا الخاكمرداني.

ولد سنة ١٢٩٢ وتوفي سنة ١٣٥٠ هـ .

تتلمذ في النجف على المحقّق الخراساني والشيخ هادي الطهراني .

وله آثار منها: تشريح الصدور في وقايع الايام والدهور. رسالة القربة في شرح دعاء الندبة ، رسالة في التعادل والترجيح وشرح قواعد الشهيد لم يتّم .

وله اشعار لطيفة منها تخميس أبيات لعلي بن ابي عبد الله الخواني :

يـا قبرَ طـوسٍ سقـاكَ اللهُ تـربتـهُ ماذا ضَمنتَ مِن الخيراتِ يا طوسُ

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.
(٢) الشيخ محمد السمامي.
(٣) الشيخ محمد السمامي.

ومنها ايضاً تخميس للقصائد الخمس وقصائد اخرى في مدح الامام الثاني عشر وتخميس قصيدة ابي الفتح البستي التي مطلعها :

زيادة المرء في دنياه نقصان   وربحه غير محض الخير خسران

قال ملا علي الخياباني رأيت جميع آثاره بخطّه الشريف عند وصيّه في بلدة ارومية سنة ١٣٥٢[1].

الميرزا علي آقا المجتهد التبريزي بن المولى عبد العظيم .

توفي سنة ١٣٤٠ هـ في المشهد الرضوي كان بحراً زخاراً يلوح تبحرّه في علم الكلام والحكمة من بعض آثاره .

منها ذخيرة المحشر في شرح باب الحادي عشر وللمترجم له يد طولى في الأدب والقريض منها تخميس : :

يا قبر طوس سقاك الله تربته   ماذا ضمنت من الخيرات يا طوس

ومنها تخميس قصيدة لملاّ مهر علي الخوئي :

« ها على شبر كيف شبر   ربّه فيه تجلّى وظهر[2]

الميرزا محمد علي المدرس الخياباني :

ولد في تبريز سنة ١٣٩٦ .

كان اديباً منشياً وكاتباً بارعاً له آثار باللغتين العربي والفارسي منها ريحانة الأدب في ستّ مجلدات فارسي والدر الثمين في جمع الاشعار المنسوبة الى الأئمة المعصومين[3] .

الحاج الميرزا علي آقا الشيرازي .

توفي ١٣٧٥ .

درس في أصفهان وقم ـ وحضر بحث الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي سنين عديدة، وبعد وفاة استاذه الحائري استقل بالتدريس وفي أواخر حياته كان يدرس كتاب (نهج البلاغة) وكان يحضر عنده جمع من الفضلاء وكان زاهداً خلوقاً عابداً جامعاً للفضائل توفي في قم في ٢٣ جمادى الأولى ودفن في مقبرة شيخان[4] .

الآغا علي اشرف بن الآغا علي ناصر بن الآغا اسماعيل بن الآغا خليل المعروف بآغا بزرك بن الآغا اسماعيل بن الآغا خليل الشيرازي آل المدرس الشيرازي المتخلص في شعره باكه .

توفي سنة ١٢٤٤ في شيراز ودفن فيها .

آل المدرس الشيرازي : من الأسر العلمية المعروفة في شيراز اصلهم من خراسان وعراق العجم استوطنوا في اصفهان أيام عز الدولة الصفوية ومع فتنة الأفاغنة في أصفهان وانقراض الدولة الصفوية هاجروا الى شيراز وأول من هاجر وبزغ نجمه في أفق شيراز الآغا خليل المدرس ، سكن في محلة بازار مرغ من المحلات المعروفة في شيراز وكان مدرساً في مدرسة حكيم وعرف بالمدرس وأصبح لقبه عنوان هذا البيت الجليل ونبغ من هذه الأسرة علماء وشعراء وعرفاء منهم شقيق المترجم له الآغا لطف علي المدرس من عرفاء وشعراء عصره ويتخلص بـأفكار ووالـده الذي كـان من علماء شيراز المعروفين وفصّل عنهم الآغا علي اكبر النواب المدرس المتوفى سنة ١٢٦٣ شقيقه الأصغر في كتابه (تذكرة دلكشا) وذكر جملة من علماء هذا البيت السيد ميرزا حسن الحسيني الفسائي عن كتابه (فارسنامه ناصري) ج ٢ ص ٩٣٥ ـ ٩٤٢ . ولد المترجم له في شيراز في بيت علم وفضل وأخذ المقدمات على أفاضل شيراز وتخرج على رجال أسرته ثم اولع بالعرفان والتصوف وحضر على جملة من العرفاء والأقطاب الصوفية ثم اختص بالميرزا أبو القاسم الشيرازي ووصل الى أعلى المراتب الصوفية في شيراز . وله ولدان عالمان فاضلان الآغا عبد الله المدرس الملقب بفخر العلماء والميرزا عبد الوهاب المدرس مؤلف كتاب (نخبة الأخبار في أحوال السلاطين والأنبياء) وللمترجم ديوان شعر ، يحتوي على قصائد وغزليات ومقاطع عرفانية .

اقول: ذكره ميرزا رضا قلي الهداية في رياض العارفين ص ٤٠٣ ومعصوم علي شاه في طرائق الحقائق ج ٣ ص ٣٤٧[1] .

الشيخ علي اكبر بن علي اكبر الكيلاني الاشكوري المتخلص في شعره بالطلوعي .

ولد سنة ١٣٠٣ في قرية اشكور بايران وتوفي سنة ١٣٥٤ هجرية في مدينة رودسر ونقل جثمانه الى قرية رحيم آبادو ودفن بها حسب وصيته .

كان من أجلة المجتهدين في كيلان وكبار الفقهاء. اديب شاعر عارف مرتاض كثير البحث والمطالعة قرأ في كيلان على جملة من الفضلاء المنطق وعلوم اللغة العربية وفي سنة ١٣٢٥ هاجر الى قزوين وأخذ الفقه والأصول عن الشيخ عيسى ابن الشهيد البرغاني والشيخ علي اكبر السياه داني القزويني ثم توجه الى طهران وحضر في الفلسفة على الشيخ ميرزا حسن الكرمانشاهي المتوفى سنة ١٣٣٦ ومنها هاجر الى العتبات المقدسة في العراق واستقر في النجف وتخرج على الشيخ ميرزا حسين النائيني وآغا ضياء العراقي ثم عاد الى موطنه كيلان فكان مرجعاً للأمور الشرعية هناك وله مؤلفات منها تقريرات درس استاذيه النائيني والعراقي في الفقه والأصول وله رسالة في العلوم الغريبة وديوان شعر في المدائح والمراثي رأيت منه الطبعة الرابعة مطبوعة بدون تاريخ في مدينة قم باسم ديوان طلوعي[2]

الشيخ علي القوجاني ابن الشيخ قاسم .

عالم محقق مدرس لازم درس الشيخ محمد كاظم الخراساني سنين طويلة حتى عد من أفاضل تلاميذه ، وصار مقرر بحثه في حياته لجمع كبير من تلاميذ استاذه .

ولما توفي الخراساني سنة ١٣٢٩ صار المترجم له مرجعاً لتدريس الخارج من بعده . ولو امتد به العمر لكان له ولآرائه شأن كبير .

السيد علي بن محمد بن حسين الحسني التنكابني .

توفي بعد ١٢٥٧ .

ولد في سادات محلة من ضواحي رامسر ونشأ بها واشتغل في مدارسها بتحصيل الفقه والأصول ثم اشتغل بالتدريس، له كتاب (الاخبار) كتبه في رمضان ١٢٤٤ في مدرسة سادات مخله وذكر بأنه كان في سنة ١٢٤٩ في طهران[3].

الحاج مولى علي بن سلطان محمد الجنابذي الملقب بنور علي شاه .

ولد في ١٧ ربيع الثاني ١٢٨٤ وتوفي في ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٢٧ .

ولد في جناباذ وتعلم المبادىء والمقدمات بها ثم سافر الى مشهد وبقي مدة بها مستفيداً من اعلامها، ثم سافر الى أفغانستان والهند والحجاز والعراق وساح في بعض الدول الاسلامية سنين عديدة ثم رجع الى موطنه واشتغل بالتأليف والتدريس وبعد وفاة ابيه قام مقامه في الطريقة الصوفية الى أن توفي مسموماً قريباً من طهران ودفن في مشهد عبد العظيم .

(١) (٢) (٣) السيد ابراهيم علوي .

(٤) الشيخ محمد السمامي .

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) السمامي .

من تأليفاته ـ كتاب الصالحية في التصوف والعرفان[١] .

الشيخ علي « علاوي» بن الشيخ محمد « حُميد » بن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر .

توفي في السابع من محرم سنة ١٣١٧ .

قال في الحصون عنه : كان عالماً فاضلاً متواضعاً قاطعاً للخصومات في مجلس القضاء مسلم الحكومة بين الأهالي .

تقام له الجماعة في مسجدهم المشهور مقام أخيه ، وقال في التكملة : من المعاصرين كان مرجعاً للقضاء للغرويين مُسلَّم الحكومة عندهم رايته يدرس كتاب جده (الجواهر) وكان يحضر عليه جماعة فيهم اهل الفضل .

حضر علىٰ الشيخ مرتض الانصاري والسيد حسين الترك
له مؤلفات في الفقه والأصول [٢].

أبو القاسم ؛ عليُّ بنُ القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي البصري ثم البغداديُّ، وولدُ صاحب كتاب « الفرج بعد الشدة»، وكتاب « النشوار »، وغير ذلك .

قال الذهبي في سير اعلام النبلاء : القاضي العالم المعمر صاحب كتاب (الطوالات).

ولد في شعبان سنة خمس وستين وثلاث مئة بالبصرة .

وسمع لما كمّل خمسةَ أعوام من : عليِّ بن محمد بن سعيد الرزّاز ، وعليِّ بن محمد بن كَيْسان ، وأبي سعيد الحُرْفي ، وأبي عبد الله الحُسينِ بنِ محمد العَسْكري ، وعبدِ الله بن إبراهيم الزَّبيبي ، وإبراهيمَ بنِ أحمد الخِرقي ، وخلق كثير .

قال الخطيبُ : كان مُتَحَفِّظاً في الشَّهادةِ ، عند الحُكّام ، صَدُوقاً في الحديث ، تقلّد قضاءَ المدائن ، وقِرْمِيسِيْن ، والبَرَدان .

وقال أبو الفضل بنُ خَيْرون : قيل : كان رأيُه الرفضَ والاعتزال .

وقال شجاعُ الذُّهلي : كان يتشيَّع ، ويذهبُ إلى الاعتزال .

قلتُ : نشأ في الدولة البُويهيَّة ، وأرجاؤُها طافحةٌ بهاتين البدعتين

وقيل : إنه صحب أبا العلاء المعَريَّ ، وصادقَه ، وأسمعه « صحيحه » .

مات في ثاني المحرم ، سنةَ سبع وأربعين وأربع مئة .

حدث عنه : أُبَيٌّ النَّرْسي ، والحسنُ بنُ محمد الباقَرْحي ، ونورُ الهدى حسينُ بنُ محمد الزَّيْنَبي، وأبو علي بنُ المَهدي، وأبو شجاع بهرامُ بنَ بهرام ، وأبو منصور بن النَّقُّور ، وأبو القاسم بن الحُصين ، وخلقٌ سواهم . وروىٰ شيئاً كثيراً .

يقع لنا حديثُه عالياً ، وهو راوي كتاب « الأشربة » لأحمدَ بنِ حنبل .

الشيخ علي الكنبدي الهمداني.

ولد في قرية كنبد من توابع ملا ير همذان في شعبان سنة ١٢٨٧ وتوفي سنة ١٣٦٤ ونقل جثمانه الى قم ودفن بمقبرة شيخان جنب قبر صاحب القوانين .

قرأ المقدمات والعربية على والده الشيخ محمد علي الكنبدي وفي سنة ١٣٠٥ هاجر الى اصفهان وحضر على الآخوند ملا محمد الكاشاني والشيخ الآغا محمد تقي النجفي وفي سنة ١٣١٧ قصد العراق وأنضم الى حوزة الآخوند الملا محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية والسيد محمد كاظم اليزدي وحضر في الأخلاق على الآخوند ملا حسين قلي الهمداني ثم رجع الى موطنه وانتهت اليه الرياسة الروحية في همذان وملاير، من مؤلفاته شرح مشكلات ديوان السيد الرضي تقريرات في الفقه والاصول لاستاذه صاحب الكفاية ، وتقريرات في الفقه والأصول لاستاذه السيد كاظم اليزدي ، كتاب الأخلاق، حاشية على التبصرة للعلامة الحلي، رسالة عملية ، رسالة في تاريخ حياته[١].

الشيخ علي نقي الخالصي .

ولدفي الكاظمية فرعاه جده الشيخ راضي ودرس على خاله الشيخ محمد وعمه الشيخ مرتضى علوم اللغة العربية ، وعلى جده الشيخ راضي علوم الفقه والاصول والكلام .

ساهم في الثورة الوطنية العراقية سنة ١٩٢٠ برفقة احد أبطالها الشيخ مهدي الخالصي، ثم نفي معه بعد ذلك الى الحجاز وايران .

تولى الامامة والخطابة والتدريس في جهات مختلفة من العراق وآخرها في الحسينية الفاطمية في الكاظمية .

كتب في العقائد والتاريخ واللغة . وله ديوان شعر مخطوط في ثلاثة اجزاء . وطبعت له باشرافه سنة ١٣٩٣ منظومة مشروحة بقلمه باسم (الأنوار المضيئة في العقائد الاسلامية وفضائل أهل البيت) وقد أرخ تأليفها السيد علي الهاشمي بهذه الأبيات :

اتى علي بنظم ملؤه الحكم	جارى به المتنبي في فرائده
واين منه البحتري وقد	سما عليه بمعنى من قصائده
فاز النقي علي حين ألفه	ارخت (فوزاً عظيماً في عقائده)

الشيخ علي القمي[٢].

قال الشيخ آغا بزرك :

هو الشيخ علي بن الشيخ محمد ابراهيم بن محمد علي القمي النجفي فقيه بارع ، وعالم جليل، وزاهد معروف.

كان والده من علماء عصره الأعلام ، وقد صاهر أيام دراسته في النجف الشيخ مشكور بن محمد الحولاوي النجفي ـ جد الأسرة العلمية المعروفة باسمه (آل الشيخ مشكور) ـ على ابنته وهي أم المترجم له .

ولد في طهران في السابع من شهر رمضان سنة ١٢٧٣ كما حدثني به ، ونشأ على والده الجليل فتربى في حجر العلم والتقوى، وتعلم المبادىء وقرأ المقدمات والسطوح على لفيف من أهل الفضل ، ثم هاجر الى النجف الأشرف بعد سنة ١٣٠٠ هـ فحضر في الفقه وأصوله على الميرزا حبيب الله الرشتي ، والشيخ عبد الله المازندراني ، والشيخ محمد كاظم الخراساني ، والشيخ آغا رضا الهمداني، والميرزا حسين الخليلي، وكتب تقريرات دروسهم ، وحضر في الحديث على الشيخ ميرزا حسين النوري، وفي الأخلاق على المولى حسين قلي الهمداني، وبعده على السيد مرتضى الكشميري فكان من خواص أصحابه وملازميه الى أن توفي .

بلغ المترجم له في العلوم الاسلامية درجة عالية ، وأصاب حظاً عظيماً ، وأصبح من المجتهدين وأفاضل الفقهاء وعمره دون الأربعين ،

(١) الشيخ محمد السمامي.
(٢) السمامي.

(١) الصالحي.
(٢) مرت له ترجمة موجزة في مكانها ، وقدر رأينا ان نأخذ هذه الترجمة التي كتبها الشيخ آغا بزرك الذي هو اعرف الناس به .

وصار له بين كبار المشايخ وزعماء المذهب من مشايخه وغيرهم مكان رفيع واحترام ، وقد كتب على عهد معظم أساتذته في الفقه الاستدلالي في غاية البسط والدقة ، مما يكشف عن علو كعبه ورسوخ قدمه ، وكتب في الرجال، والحديث مواضيع تدل على براعته الفائقة وخبرته الواسعة في هذا العلم الذي هو الدعامة الأولى للاجتهاد والباب الوحيد للاستنباط .

عرفت المترجم له في النجف الأشرف في سنة ١٣١٤ هـ . بعد هجرتي اليها من طهران بعام واحد ، وذلك عندما انخرطت في زمرة تلامذة الشيخ ميرزا حسين النوري فقد كنا عرفناه في سامراء قبل هجرته الى النجف ، وانضم الينا بعد سنوات الشيخ عباس القمي وكان المترجم له هو الوسيط في تلك الصلة فهو الذي دله عليه وعرّفه به . وبقينا نحن الثلاثة أوثق صلة به وأشد ملازمة له واقتباساً منه وعلقة به حتى اختار الله له دار إقامته ، وظلت حلقات دروس المشايخ في النجف تجمعنا ، وحوزات الأبحاث والمذاكرة تضمنا ، والصلة تتوثق بمرور الزمن والعلقة تزداد الى أن انتقلت الى سامراء على أثر وفاة شيخنا المحقق الخراساني في سنة ١٣٢٩ هـ للالتحاق بمعهد الشيخ محمد تقي الشيرازي وحضور درسه ، فكان المترجم له يكثر التردد لزيارة العسكريين عليهما السلام ويحل في بيتنا ويطول مكثه غالباً، ويحضر خلال تلك المدة بحث بعض مدرسينا ، وكان كثير المذاكرة والمناقشة في المسائل العلمية دائم الاشتغال في التأليف والمراجعة ونحوها ، فكان لا يفتر عن التأليف حتى في السفر ، فقد فرغ من بعض آثاره في النجف ومن بعضها في مسجد الكوفة وهو معتكف ، وفرغ من بعضها في الكاظمية أو سامراء، ومن بعضها في المدينة أو مكة أيام تشرفه الى حج البيت .

عرف المترجم له بالورع والتقى والزهد في حطام الدنيا منذ نعومة أظفاره وكان سالكاً طريق النجاة ، دائم الاشتغال بمجاهدة النفس، والمراقبة ، لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يستعمل كل ما يجلب من بلاد غير المسلمين حتى القرطاس والمداد ويترك المشتبهات ، ويزهد في كثير من المباحات ، ويعمد غالباً الى اجتناب الأطعمة اللذيذة ، والألبسة الجيدة ، والأفرشة الوثيرة ، فكأن يأكل الجشب ويلبس الخشن ، ويفترش ما يصنع من سعف النخل، أما في المساجد والأماكن التي يحرز طهارتها فطالما افترش عباءته وجلس عليها تواضعاً ، وكان لا يعتني بمظهره ولا يهتم بخياطة ملابسه ولونها مما يجعل شكله أشبه بالفقراء والغرباء وأعراب البوادي، فقد كان يعمد الى ذلك مخالفة للنفس وتواضعاً لله وعباده ، وبغضاً للظهور ، مع المحافظة على الآداب الشرعية ، فقد كان مواظباً على نظافة جسمه وملابسه على بساطتها فهو نظيف الملبس طاهر الثياب .

وقد كان شديداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم ، لا يعرف المجاملة والمداهنة فيما يعود الى الدين ، ولا يشتري رضا المخلوق بسخط الخالق مطلقاً ، أما الغيبة بل الحديث في غير ما يصلح شؤون الآخرة فلم يعرفها طيلة عمره ، ولم تسمع منه ، فان نطق بين الناس فلا يعدو حديث العلم ونحوه مما لا علاقة له بشؤون الدنيا ، وان اختلى واعتزل اشتغل بالتأليف أو قراءة القرآن والذكر ، أو التفكر في مآله .

وقد اشتهر في ذلك بين الخواص والعوام واتفقت كلمة أهل العلم والدين من العرب والفرس وسائر طبقات النجف على أنه أورع وأتقى وأعدل علماء عصره حتى لم يوجد بين الناس من يشك في ذلك أو يناقش فيه. وقد لقب بالزاهد فكان يعرف بذلك بين بعض الناس. وكان يقيم الجماعة في مسجد الهندي فتأتم به الجموع الغفيرة ويتسابق الى درك صلاته صفوة العلماء وأهل الفضل ونخبة الصلحاء والمعروفين بالتقوى والنسك والعبادة ، وقد غطت شهرته بالزهد والصلاح مكانته العلمية لعلو مقامه

الشامخ في الفقه والاجتهاد ، والمؤسف أن هذا الظن قد تسرب الى بعض الأفاضل من الأعلام وتحول الى اعتقاد عند البعض الآخر ، ومرجعه سكوته الطويل وعدم حبه للظهور والادعاء أو الدعوة الى النفس فقد كان قليل الكلام جداً يجيب على قدر السؤال متى سئل، ولا يبدأ جليسه بالكلام مطلقاً في الأمور الخاصة فضلاً عن الخوض في الأحاديث العامة ، ونشأ بين أهل العلم جيل لم يسمع عنه غير الزهد فظنه كل ما يزين الرجل، وقد عشنا معه السنين الطوال وعرفنا مكانته جيداً .

وكان شديد الصبر الى حد لم يألفه أهل هذا الزمان ، فقد توفي ولده في النجف فلم يجزع ، ولما عاد من دفنه وصله خبر وفاة ابنه الآخر في إيران فخرّ ساجداً لله ، وكان مجلس الفاتحة لثلاثين ، وكان يشكر الله على ما يصيبه من بلاء فيعتقد بأنه اختبار للعبد وتمحيص لذنوبه كما هو مفاد جملة من الأحاديث الشريفة ، وقد شهد بذلك الجميع في مرضه الذي توفي فيه فقد أصيب في المجاري البولية ، وأجريت له عملية لم تجده وصنع له مجرى بول من خاصرته ، وذهبوا به الى إيران غير مرة فلم ينفعه علاج وظل أسير المرض ورهن المنزل نحو عشر سنين ، وكان يزوره الأعلام والأخيار والمحبون وسائر المؤمنين ، فلم يسمع منه أحد من زائريه أو ممرضيه من أهل البيت خلال تلك السنين وهو في حالة يرثى لها ، كلمة تشم منها رائحة الجزع أو السأم ، أو الشكوى مطلقاً ، بل كان لسانه يلهج بالحمد والشكر والرضا بأمر الله وقضائه وقدره ، الى أن اختار الله له دار الاقامة بعد العشاء ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من جمادي الثانية سنة ١٣٧١ . وبرهنت الهيئات العلمية وأهل النجف على اختلاف طبقاتهم عن مدى الفجيعة ببقية السلف الصالح فلبست عليه الحداد وحملته على الرؤوس وأغلقت له الأسواق وعطلت الدروس ، ودفن في مقبرة نظيره في العلم والتقى الشيخ نصر الله الحويزي المتوفي سنة ١٣٤٦ في مقبرته الخاصة مقابل مقبرة صاحب (الجواهر) في محلة العمارة حسب وصية الحويزي فقد كان أوصى ولده الشيخ محمد طه بدفن القمي معه في داره ، ونفذت الوصية كذلك ، وكانت بين القمي والحويزي علاقة وثيقة وثقة متبادلة وإخاء في الله تعالى، فقد غسل المترجم له المرحوم الحويزي بيده وكفّنه وصلى عليه وألحده في قبره ودفن أخيراً معه .

وقد أقيمت له الفواتح العديدة في النجف وغيرها من مدن العراق وايران وباقي البلدان الاسلامية ، من قبل العلماء والهيئات وباقي الطبقات واستمرت مدة طويلة ، ورثاه بعضهم وأرخ وفاته السيد محمد حسن آل الطالقاني بقوله :

راع ذوي الفضل مصاب به ... هُزَّ عمود الدين هولاً فمال
وأظلم الكون على فقد من ... نموذجاً قد كان بين الرجال
والناس ضجت لمصاب له ... هدت من الحزن رواسي الجبال
والكل منهم قد غدا سائلاً : ... وليس ثمّ من يجيب السؤال
هل فقد الدين عميداً له ؟ ... أرخ أجل وغاب بدر الكمال

ترك مؤلفات قيمة منها : (تنوير المرآة) في شرح أسانيد الكافي وبيان أحوال الرجال المذكورين في سند أحاديثه على ما أورده العلامة المجلسي في (مرآة العقول) رأيت منه مجلداً بخطه قبل سنين طويلة ، وكان قد وصل الى باب الكفاف من أصول الكافي مشغولاً بإتمامه وخرج منه بعد ذلك كراريس وقفت عليها بعد وفاته ولم يوفق لإتمامه و(سراج المبتدي) في شرح (بداية الهداية) للشيخ الحر العاملي رأيت عنده بخطه قطعة منه من أول التجارة الى أحكام الرضاع متفرقة فرغ منها في سنة ١٣٤٣ ثم أتم مبيضته في التاريخ الى آخر الديات ، وخرج منه من أبواب العبادات كراريس

قليلة لكل باب كراس غالباً رأيتها بخطه بعد وفاته و (شرح التبصرة) مبسوط في أربع مجلدات ، الأول من الطهارة الى النهي عن المنكر ، والثاني من المتاجر الى آخر الوصايا ، فرغ منه في سادس ذي القعدة سنة ١٣٢١ وعلى ظهره إجازة مفصلة له من الشيخ عباس القمي تاريخها سنة ١٣٢٢ . والثالث النكاح ، والرابع الطلاق ، وسماه كتاب الفراق بأنواعه ، وقد كتب الجميع على الورق الاسلامي المجلوب من بخارا ، والذي كان السلف الصالح والعلماء الأتقياء يحرصون على استعماله دون سواه ، فرغ من كتاب الطهارة في سنة ١٣٢١ . ومن الجميع في سنة ١٣٢٦ ثم شرح كتابي الصلاة والحج ثانية أبسط من الشرح الأول وفرغ منهما في سنة ١٣٣٢ ، وله (صلاة المسافر) تام فرغ منه في تاسع جمادي الأولى سنة ١٣١٨ و (الغواشي عن بعض شبهات الحواشي) و (مجموعة كشكولية) على الشكل البياضي المألوف قديماً ، استنسخ فيها (فصل القضاء) وغيره من فوائد متفرقة ، و (مصباح الأنيس) في تعريب (أنيس التجار) و (تدوين حواشي الوسائل) فقد عثر في الكاظمية على نسخة الأصل من (الوسائل) بخط صاحبها الشيخ الحر ، وعليها حواشي منه بخطه أيضاً فدوّنها مستقلاً في سنة ١٣٤١ وله تقريرات درس أستاذه الهمداني في الأخلاق ، والرشتي وغيره من مشايخه في الفقه والأصول والحديث ، كلها كراريس متفرقة ، وله آثار أخرى متفرقة في مواضيع مختلفة ، وقد وقفت على الجميع بعد وفاته عند ولده الفاضل الشيخ موسى القمي .

علي نقي بن محمد بن سليمان التنكابني (الشهير بالمجتهد السليماني).

ولد حدود ١٢٨٠ وتوفي ١٣٤٢ .

ولد في سليمان آباد من ضواحي تنكابن ونشأ في حجر ابيه الميرزا محمد التنكابني صاحب قصص العلماء ـ وفي السابعة من عمره انصرف الى تعلم الصرف والنحو والمعاني والبيان وبعد اتمامها دخل المدرسة السليمانية في سليمان آباد وقرأ المقدمات والسطوح وحضر مدة على ابيه ثم ذهب الى طهران وحضر بحث الميرزا محمد حسن الاشتياني وفي حدود ١٣٠٨ ذهب الى النجف الاشرف وحضر عند أعلامها . وحضر برهة من الزمان بحث الميرزا الشيرازي وفي حدود ١٣١٥ رجع الى موطنه وحصلت له مرجعية واصبح موثوقاً عند الخواص والعوام وقام بالتدريس والتأليف الى أن توفي بها له مؤلفات عديدة في الفقه والأصول تبعثرت وتفرقت بعد وفاته ولم اطلع عليها[١] .

ميرزا علي ثقة الاسلام ابن موسى .

ولد في تبريز سنة ١٢٧٧ واستشهد سنة ١٣٣٠ .

درس على ابيه وجده ثم سافر الى العراق حيث تابع دراسته على علمائه في الفقه والاصول والحكمة والأدب والرياضيات . ثم عاد الى تبريز وعندما احتل الروس تبريز سنة ١٣٢٧ قاومهم وتصدى لهم وواصل تحريض الشعب عليهم في الجريدة المحلية ، وتوجيه الرسائل الى رئيس الأركان الروسي ، ولما جاء عيد النوروز دعا الشعب الى اعتباره يوم حزن لا يوم سرور . كما نظم القصائد الفارسية الوطنية الحماسية في الدعوة لمقاومة الاحتلال ، مما ادى في النهاية الى أن يحكم الروس عليه بالاعدام شنقاً ، ونفذ الحكم يوم عاشوراء من سنة ١٣٣٠ .

له مؤلفات منها : رسالة لالان ولاحقه آن . مقتل سيد الشهداء . وكتاب عن مؤلفات علماء الشيعة ، وحتى استشهاده كان لا يزال مشغولاً بتأليفه .

(١) الشيخ محمد السمامي .

سديد الملك أبو الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ مؤسس إمارة بني منقذ في شيزر[١] :

شهدت بلاد الشام في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) قيام عدة إمارات مستقلة لعبت دوراً هاماً في تاريخ المنطقة ، فكان في حلب آل مرداس ، وفي طرابلس آل عمار وفي صور آل بني أبي عقيل . . ثم قامت إمارة بني منقذ في شيزر على يد مؤسسها سديد الملك أبي الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني ، في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري .

وفي هذه المقالة سنتعرف على الأمير سديد الملك وجهوده في تأسيس تلك الإمارة :

كان سديد الملك مقيماً في حلب أيام أميرها تاج الملوك محمود بن نصر المرداسي المعروف بابن الروقلية . ونقرأ اسمه لأول مرة في حوادث سنة ٤٦٠ هـ، وهو يتولى أمر استلام حصن « أسفونا » من أحد أمراء المغاربة وتسليمه الى تاج الملوك . ويظل مقيماً في حلب حتى سنة ٤٦٤ هـ، حيث رحل عنها هرباً من تاج الملوك ، حين أحسّ أنه يريد القبض عليه وقتله ، كما فعل بغيره من أصحابه . وكان سديد الملك أخا تاج الملوك من الرضاعة ، وقد غلب حب الدنيا على تاج الملوك ورغب في جمع المال ، فلجأ سديد الملك الى مكان يدعى « خريبة الفايا » واجتمع فيه بقائد يدعى أبي حرب ـ وكان صاحب سر تاج الملوك ونديمه ـ ولابن منقذ إحسان كثير عليه وصنائع جمة ، وقال له :

« قد استشعرت من تاج الملوك فانظر ما تعمله معي » . فقال أبو حرب : أتكلفني أن يقول الأمير : أريد أقبض على فلان ، فأخبرك بذلك ! لا ، والله ، ولكن أنا أنفذ إليك مع عجوز عندي ألفي دينار ، فإذا نفدت طلبتها منك فشأنك ونفسك » .

فبقيت تلك الدنانير عند سديد الملك مدة ثم أرسل أبو حرب العجوز يطلبها ، وكان سديد الملك قد أصلح نفسه للسفر ، فدفع الدنانير للعجوز ، وركب من يومه ، وخرج من حلب الى معرة النعمان وكفرطاب فاستصحب منهما ما أراد .

وأرسل اليه أحد أصحابه ـ ويدعى ابن الدوح ـ يسأله الاجتماع به فاجتمعا ، فقال ابن الدوح : ما رأيك في الدخول الى حلب ؟ فقال سديد الملك : ما أقول لك شيئاً لأن لك مالاً عظيماً ، فإن أشرت عليك بتركه كنت ملوماً عندك ، ولكني أقول لك ما أعمل وأنت ترى رأيك . والله لا نظرت محموداً أبداً . فعاد ابن الدوح الى حلب خوفاً على أمواله ، ولكن تاج الملوك كان له بالمرصاد فقتله ولم يمهله .

سار سديد الملك الى طرابلس فأقام عند قضاتها وأمرائها من بني عمار . فكتب تاج الملوك محمود الى أمين الدولة ابن عمار صاحبها يأمره بالقبض عليه ويبذل له ثلاثة آلاف درهم ورقية فلم يظفر به . وكاتب تاج الملوك أمين الدولة وأخاه في تسليم سديد الملك فلم يستجيبا لرغبته وتنكرا له .

وكان سديد الملك يعتزم ركوب البحر والانتقال الى مصر ، فصادف أن توفي أمين الدولة ابن عمار في تلك السنة ٤٦٤ هـ، فوقف الى جانب ابن أخيه جلال الملك ابن عمار ، وعاضده بمماليكه ومن خرج معه من أهل كفرطاب فأخرجوا أخا أمين الدولة . وأصبح جلال الملك الحاكم على

(١) هي اليوم انقاض مدينة سورية على نهر العاصي شمالي مدينة حماه ، فيها قلعة مشهورة .

المدينة ، وبذلك عَظُم محل سديد الملك عنـده حتى كان يشـركه معـه في الحكم .

وعاد تاج الملوك صاحب حلب يكاتب سديد الملك ويطيّب قلبه وهو لا يثق بذلك . ولجأ الى الاحتيال في استقدامه للفتك به ، فأوعز الى كاتبه أبي النصـر محمد بن الحسين أن يكتب اليـه كتاباً يشوّقـه فيـه ويستعـطفـه ويستدعيه اليه . وفهم أبو النصر الغرض الحقيقي من ذلك الكتاب ، وكـان صديقاً لسديد الملك ، ولكنه كان مكرهاً على كتابة الكتاب فكتبه كما أمر به تـاج الملوك حتى إذا بلغ قولـه : « إن شاء الله تعـالى » شدَّد النـون في إن وفتحها فجعلها (إنَّ) وأنفذ الكتاب . فلمَّا وصل الى سديد الملك قرأه ثم عـرضـه على ابن عمـار صـاحب طـرابلس ومن في مجلسـه من الخـواص فاستحسنوا عبارة الكتاب واستعظموا ما فيه من رغبـة تاج الملوك في سـديد الملك وإيثـاره قربـه ، فقال سـديد الملك : « إني أرى في الكتـاب مـا لا ترون » . ثم أجابه على الكتاب بما اقتضاه المقـام وكتب في جملة ذلك : « أنا الخادم المقرّ بالأنعام » ، وكسر همزة أنا وشدَّد نونها فصارت « إنـا » . فلما وصل الكتاب الى تاج الملوك ووقف عليه أبو نصر الكاتب ، سُرَّ بما رأى فيه وقال لأصدقائه : قد علمت ان الذي كتبته لا يخفى على سديد الملك .

وكان أبو نصر قد قصد بتشديد نون (إن) الاشـارة الى الآية : ﴿ **إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك** ﴾ ، فأجابه سديد الملك بتشديـد (إنا) إشـارة الى الآية : ﴿ **إنَّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيهـا** ﴾ . ولما يئس تاج الملوك من عودة سديد الملك استولى على جميع ممتلكاته .

وهناك حكاية أخرى تثبت ذكاء سديد الملك ومعرفته الواسعـة باللغـة والنحو ، فقد ذكر عنه أنـه كان مـع شرف الـدولة مسلم بن قـريش صاحب المـوصل على حصـار حلب في سنة ٤٧٢ هـ، أيـام صاحبهـا « سـابق بـن محمود » ، وكان الحصار قد طال حتى أن سديد الملك سئم ذلك وأراد أن ينفصل عن سور حلب وفيما هو يهم في ذلك إذ بصديق لـه من أهل الأدب يصـل اليه وهـو عند السـور ، فقال لـه سديـد الملك : « كيف أنتم » فقال الرجل : « طُوْلُ جُبّ » خوفـاً من تفسير الكلمـة . فعاد سـديد الملك وهـو يقلب هذا الكلام فصحَّ له أنه قصد بكلامه أنهم قد ضَعُفُوا ، وأوجس أنهما كلمتـان وأن قوله « طول » يريد به « مَدَا » و « جُبّ » يرد به « بير » فقال : « مدابير والله » . وأخبر شرف الدولة بذلك فتوطد العزم عنده على الاستمرار في الحصار حتى امتلك حلب ، وأقطع سابق بن محمود مواضع في أعمال الرَّحْبَة ، وعزم على الزواج من أختـه بنت تاج الملوك فكـان سديـد الملك سفيراً بينهما وتم الأمر على يـديـه .

ومكافأة له على موقفه ، فقد وعده شرف الدولة خيراً وقال له : « امض في دعة الله فأنا سائر في بلادي ، ويجب أن تصلح حالك فأنا أصل وأبلغك كل ما تؤثره » . ولكن هذا الوعد لم ينجز إذ دخل وزير شرف الـدولة حلب وصادر أموالها وضاعف الخراج على أهلها ، فانتقل سديد الملك الى قلعة الجسر وعمرهـا وأخذ يضـايق شَيْزَرَ وبهـا أُسقُفُ البارة وضيق عليـه الى أن راسله واشتراها منه ، واستحلفه على أشياء اشترطها عليه .

وحول استيلاء سديد الملك على شيزر يذكر ابن الصابي أنه وقف على كتاب بخطه يقول فيه : « كتابي هذا من حصن شيزر ، وقد رزقني الله تعالى من الاستيلاء على هذا المعقل العظيم ما لم يتأت لمخلوق ، ومن دون هذا الحصن بيض الأنوق ، ومن وقف على حقيقة الحال علم أني هاروت . . . إنني أفرق بين المرء وزوجته ، وأستنزل القمر من محله ، وأجمع بين الذئب والغنم . إني نظرت الى هـذا الحصن ورأيت أمراً يـذهل الألبـاب ويطيش العقول ، يشبع ألف رجل ليس عليه حصار ولا فيه حيلة لمحتال ، فعمدت الى تـل منه قـريب يعرف بتـل الحسن فعمرتـه حصناً وجعلت فيـه عشيرتي وأهلي ، وكان بين التل وشيزر حصن يعرف بالخراص فوثبت عليه وأخـذته بالسيف، وحين ملكته أحسنت الى أهله ولم أكلفهم الى ما يعجزون عنه ، وخلطت خنازيرهم بغنمي ونواقيسهم بأصوات المؤذنين عندي ، وصرنا مثل الأهل مختلطين . فحين رأى أهل شيـزر فعلي من الروم آنسـوا بي وصاروا يجيئوني من واحد واثنين الى أن حصل عندي نحو نصفهم ، فأجريت عليهم الجرايات ومـزجتهـم بأهلي وحريمهم بحريمي وأولادهم مع أولادي ، وأي من قصد حصنهم أعنتهم عليه . وحصـرهم شرف الـدولة مسلم بن قـريش فأخذ منهم عشرين رجلاً فقتلهم ، فدسست اليهم عشرين عـوضهـم ، ولما انصرف عنهم جاؤوا وقالوا : نسلم اليـك الحصن . فقلت : لا ، ما لهـذا الموضوع خيراً منكم . وجرت بينهم وبين واليهم نبوة فنفروا منه وجاؤا الي وقالوا : لا بدَّ اليك . فسلموه ونزلوا منه وحصلت فيه ومعي سبعمائة رجل من بني عمِّي ورجالي وحصلوا في الربض ولم يأخذ لـواحد منهم درهم فَـرْدٌ ، وأعـطيتهم مالاً لـه قدر ، وخلعت على مقـدميهم وأعطيتهم واجبـاتهم بستة أشهر ، وقمت بأعيادهم ونواقيسهم وصلبـانهم وخنازيـرهم . وسمع بـذلك أهـل بُرْزَيـة وعين تـاب وحصـون الـروم فجـاءتني رسلهم ورغب كلهم في التسليم إليَّ . فبينمـا أنا على ذلـك الحال إذ شُنَّت عليَّ الغـارات وجُيِّشت نحوي الجيوش من ناحية مسلم بن قريش غيظاً منه لِمَ تسلمت حصن شيزر بعد أن حلف لي قبل ذلك إنني إذا أخذت حصن شيزر أنه لا يقود إليَّ فرساً ولا يبعث جيشاً ، وبالله أقسم لئن لم ينته عني لأعيده الى الـروم ولا أسلمه اليه ولا الى غيره أبداً » .

وكان أخذ سديد الملك لشيزر في ليلة الأحد منتصف شهر رجب سنة ٤٧٤ هـ، ووفى للأسقف بكل ما عاهده عليه ، فثقل ذلك على شرف الدولة وداخله الحسد وسير اليه جيشاً لينتزع شيزر منه ، ثم جاءها بنفسه في آخر المحرم سنة ٤٧٥ هـ ، ولكن سديد الملك صـرفه عنهـا بعد أن حمـل اليه مالاً .

وفي نزول شرف الدولة مسلم على شيزر وقتاله حصن الجسر يقول ابن المهذب المعري :

أمُسلمُ لا سَلِمْتَ من حادث الرّدى ... وزُرْتَ وزيـراً مـا شـدَدْت بـه أزرا
ربحتَ ولم تخسر بحرب ابن منقذٍ ... من الله والنـاس المَـذَمَّـة والـوزْرا
فمُتْ كمداً « فالجسر » لست بجاسرٍ ... عليـه ، وعاين شيـزراً أبـداً شـزْرا

وهكذا أسس سديد الملك إمارة بني منقـذ في شيزر حتى تـوفي بين سنتي ٤٧٥ و ٤٧٩ هـ.

كـان سـديـد الملك حسبمـا وصفـه « العمـاد الأصبهـاني » في « الخريدة » : « من الطبقة الأولى ، جد الجماعة ، موفور الطاعـة ، أحكم أساس مجده وشادها ، وفضُل أمراء ديـار بكر والشـام وسادهـا ، ذو المجد الباذخ ، والجد الشـامخ ، والمحتـد الراسـخ ، والفطنـة واللسن ، والمنظر الحسن ، والنظم الذي هو ألذ عند المسهَّد من لذيذ الوسن ، وهو من جلالته في النفوس ، ومنزلته عند الرئيس والمرؤوس ، ممدوح فحول الشعراء ومنهم ابن حيوس . . فالأمير أبو الحسن علي ، لـه فضل جلي ، وشعـر كأنـه في نضارته حليّ ، وهو وفي بعلمه ملي ، قديم العصر من الطبقة الأولى، لكن رأيت ذكـر مثله أولى ، فأدبـه في سوق الفضـائل أرْوَج وأغلى، ونسبُـه عند الأفاضل أبهج وأعلى ، وسأورد من شعره ما سُدّدَتْ عليه يدي، وهو منتقحي ومنتقاي ومنتقدي . . . » .

من شعره قوله :

مـاذا التجبـع بـوجنتيـك وليس من ... شنذخ الأنوف على الخـدود رعاف

ألحاظنا جرحتك حين تعرضت لك ، أم أديمك جوهر شفاف ؟

وله :

إذا ذكرت أياديك التي سلفت مع سوء فعلي وزلاتي ومجترمي
أكاد أقتل نفسي ثم يمنعني علمي بأنك مجبول على الكرم

وكان مرة راكباً مع جماعة فنزلوا بروضة فيها الشقائق والأقحوان فاستحسنوها ، فقالوا : تعالوا ننظم فيه شعراً ، ثم قالوا له : إبدأ أنت . فقال :

كأن الشقائق والأقحوان خدود تقبلهن الثغور
فهاتيك يخجلهن الحياء وهاتيك يضحكهن السرور

ومن شعره :

بكرت تنظر شيبي وثيابي يوم عيد
ثم قالت لي بهزء : يا خليقاً في جديد
لا تغالطني فما تصلح إلاّ للصدود

وكان سديد الملك مقصوداً ممدوحاً من الشعراء وخاصة أثناء سنوات إقامته في طرابلس ، فقد مدحه الشاعر الدمشقي ابن الخياط صاحب الديوان ، والشاعر الخفاجي ، وشرف الدين بن الحلاوي شاعر الموصل ، وابن مزاحم الصوري الذي أنشده بعد نزوله في طرابلس في شهر جمادى الأولى سنة ٤٦٤ هـ ، وأبو يعلى الأقساسي الذي أنشده بطرابلس أيضاً في ٢١ شوال سنة ٤٦٤ هـ ، وعبد الله بن الدويدة المعري وكان قد كتب لسديد الملك حين وفد عليه الشاعر ابن الخيشي في طرابلس:

يا عليٌّ بن مُنقذ يا هماماً حين يُدعى الوغى يُعدُّ بجيش
قد أتاك الخيْشيُّ في وسط آبٍ بقريض يغنيك عن بيت خَيْش

وكتب ابن الخيشي وهو في طرابلس هذه الأبيات لسديد الملك بعد أن خرج منها :

إنّي وحقّك في طرابُلُس كما تهوى العِدى تحت المقيم المقعِدِ
أمّا «المحرَّم» قد حرمت نجاز ما وعدوا وفي « صفر » فقد صفَّرَتْ يدي
قالت لي العلياءُ لما أن سَقَوني كأس مَطْلهمُ سكِرْتَ فعَرْبِدِ

وعندما نزل سديد الملك طرابلس التقى فيها بالشاعر ابن حيوس ، صاحب الديوان ، وكان يميل الى الفاطميين ، فنصحه سديد الملك أن يغادر المدينة الى حلب ويقصد تاج الملوك محمود لأن بني عمار لا يميلون الى الفاطميين ، وعندما رحل الى حلب كتب اليه قصيدة أولها :

أما الفراق فقد عاصيتُه فأبى وطالت الحرب إلاّ أنه غَلَبا
أراني البينُ لما حُمَّ عن قدَر وداعنا كل جدٍّ بعده لَعِبا

وكان بين سديد الملك وجلال الملك بن عمار صاحب طرابلس مودّة أكيدة . وقد لعب دوراً مؤثراً في وصول جلال الملك الى حكم إمارة طرابلس . ويسجل سديد الملك محبته لجلال الملك بعد مغادرته طرابلس بقوله :

أحبابنا لو لقيتم في مقامكم من الصبابة ما لاقيتُ في ظَعَني
لأصبح البحر من أنفاسكم يبساً كالبرّ من أدمُعي ينشقُّ بالسفن

ومن دلائل الروابط الأسرية الحميمة التي كانت تربط بين الأميرين أن الأمير نصر بن سديد الملك كان سفيراً لجلال الملك الى الأمير حصن الدولة حيدرة بن منزو الكتامي الذي كان والياً على دمشق حيث خطب منه ابنته لجلال الملك وأحضرها من دمشق الى طرابلس لما تزوجها.

وجاء في « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسي ، أن سديد الملك ممن يُنسب الى عمل الشعر ، وكان من أبلغ أهل الشام في معرفة أهل اللغة والنحو ، وكان بينه وبين ابن عمّار صاحب طرابلس مودة وكيدة ومكاتبات ، وسببه أنه كان له مملوك يسمى « رسلان » وكان زعيم عسكره ، فبلغه عنه ما يكره ، فقال له : اذهب عني وأنت آمن على نفسك ، فقصد ابن عمار الى طرابلس وسأله أن يسأل سديد الملك في ماله وحُرَمه ، فسأله ، فأمر باطلاقهم . وكان قد اقتنى مالاً كثيراً ، فلما خرج الرسول بالمال والحريم لحقه سديد الملك فظنَّ أنه قد بدا له أمر ، فقال الرسول : غَدَرْتَ بعبدك ورغبت في ماله؟فقال له: لا والله ، ولكن لكل أمر حقيقة . . حطوا عن الجمال والبغال أحمالها ، فحطوا ، فقال : أبصروا ما عليها . فنظروا ، فإذا في قدور النحاس خمسة وعشرون ألف دينار ، ومن المتاع ما يساوي مثلها وزيادة ، فقال سديد الملك للرسول : أبلغ ابن عمار سلامي وعرفه بما ترى لئلاّ يقول رسلان أنني أخذت ماله . ثم قام سديد الملك بزيارة جلال الملك وأقام عنده مدة .

وذكر ابن تغري بردي أنه كان لسديد الملك ديوان شعر مشهور ولكن ضاع على ما يبدو . وكان من الشخصيات الفذة في عصره ، وقد قيل فيه انه لو جعل إقامته بمصر بدلاً من طرابلس لكانت الدولة الفاطمية في قبضته . وحول هذا ينقل « ابن العديم الحلبي » في مخطوطة « بغية الطلب في تاريخ حلب » من خط سديد الملك قوله :

« والأمير سديد الملك مقيم بالجسر لعلمه أن الدار قد أعضل . وكان سبب ذلك أن الأمير بهاء الدولة ابن الملك فنا خسرو ، وهو خاله ، قد نزل مصر لما تولى ابن اخته حلب ، وكانت جاريته قد اعتقلها أمير الجيوش بدر بمصر وأراد أن يضرب رقبتها لأنها كانت أوفى طبقة في الغناء ، فكان الأمراء بمصر يتقاتلون عليها ، فقتل من أجلها عدة من الأمراء ، فقال فنا خسرو لسابق بن محمود صاحب حلب : ما يقدر أحد أن يخلص جاريتي وأولادي إلاّ الأمير سديد الملك فإنني رأيت له بمصر صيتاً وافياً ، وقال من بها : لو جعل مقره بمصر عوض طرابلس كانت الدولة في قبضته ، فثقل على الأمير ، إلى أن كتب وسير الى أمير الجيوش في أمر الجارية . فقال : والله ما أردت أخرجها أبداً من الحبس ولكن لا أرد مسألة ذلك المحتشم . فسيرها الى طرابلس الى دار جدّ سديد الملك ، فأحضرها الى حلب ومعها ابناها.

وقد سئل الأمير أسامة بن منقذ صاحب كتاب « الاعتبار » عن وفاة جدّه سديد الملك فقال مات سنة ٤٧٥ وقيل توفي سنة ٤٧٩ هـ[1].

قال الذهبي في (سير اعلام النبلاء) :

كان بطلاً شجاعاً جواداً فاضلاً ، اول من ملك شيزر من بيته لانه كان نازلاً في عشيرته هناك والحصن في يد الروم فنازلهم وتسلمه بالأمان في سنة اربع وسبعين ، ودام لبنيه حتى تهدم من الزلزلة سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة ، وهلك من بالحصن من آل منقذ فعمره نور الدين .

وكان لسديد الملك نظم رائق وفطنة وذكاء ، ومات في الزلزلة حفيده تاج الدولة محمد بن سلطان .

توفي سديد الملك سنة بضع وسبعين وأربع مئة .

علي بن المقرب الاحسائي :

مرت ترجمته في مكانها ، وننشر هنا بعض أشعاره :

أتدري الليالي ايَّ خصمٍ تشاغبُه وأيَّ هُمام بالرزايا تواثبه

(١) عمر تدمري.

تجاهل هذا الدهر بي فتكتّبت ... عليَّ بأنواع البلايا كتائبه
وظن مُحالاً أن أدين لحُكمه ... لتبك على عقل المعنّى نوادبه
واني، وان ابدى اصعراراً بخده ... وأوجف بي، وازْوَرَّ للبغض جانبه
لأغضي على بغضائه وأزوراره ... واعجب من حرٍّ كريم يعاتبه
وأستقبل الخطبَ الجليل بثاقب ... من العزم يعلو لاهبَ النار لاهبُه
ورأي متى جردتُه وانتضيتُه ... وجدتَ حساماً لا تُفَلُّ مضاربه

وقال :

خفافٌ الى داعي الوغى، غير انهم ... ثقال إذا خفت مصاعيبُها الهُلْبُ
إذا الجار أمسى نهبةً عند جاره ... فأموالهم للجار ما بينهم نَهْبُ
وأيامهم يومان، يومٌ لنائل ... يقول ذوو الحاجات من فيضه حَسْبُ
ويومٌ، تقول الخيل والبيض والقنا ... به والعدا : قَطْنا، فلا كانت الحرب
أولئك قومي حين أدعو، وأسرتي ... وتُنجبني منهم شرامخةٌ غُلْب

وقال :

وكنت إذا ما أحمقٌ زمَّ أنفه ... شمخت بأنفي عنه، وازْوَرَّ جانبي
واني لاحسان الملوك لعائف ... فكيف ينزر القدر نزر المكاسب ؟

وقال :

يا ساكني الخَطِّ والجرعاء، من هَجَرٍ ... هل انتظاركم شيئاً سوى العَطَبِ
بحت مما اناديكم وأنسدبكم ... لخير منقلب عن شر مُنقلب
فسكتوني بقولٍ لا تَفُون به ... قد صرت أرضى بوعدٍ منكم كذبِ

وقال :

لقد ملَّ جنبي مضجعي من إقامتي ... وملَّ حسامي من مجاورة الغِمدِ
وأقبل بالتصهال مهري يقول لي : ... أبقى كذا، لا في طراد، ولا طرد
أمثلي، من يُعطى مقاليدَ أمره ... ويرضى بان يُجْدَى عُليه ولا يجدِي
يظنُّ نحولي ذو السفاهة والغبا ... غراماً بهند، واشتياقاً الى وعد
ولم يدر اني ماجد شف جسمه ... لقاءُ هموم، خيلُها أبداً تُردِي
قليل الكرى، ماضٍ على الهول، مقدم ... على الليل، والبيداء، والحر، والبرد
عدمت فؤاداً لا يبيت وهمُّه ... كرام المساعي، وارتقاء الى المجد
لعمرك، ما دَعْدٌ بِهَمِّي وان دنت ... ولا لي بهند من غرام ولا وجد
ولكن وجدي بالعلى، وصبابتي ... بعارفةٍ أسدى، ومَكْرُمَةٍ أجدى

وقال :

صبا شوقاً، فحنَّ الى الديار ... ونازعه الهوى ثوبَ الوقار
وهاج له الغرام غناءُ وُرْقٍ ... هواتف في غصون من نُضار
رُوَيدا يا حَمامُ بمستهام ... مشوق مَنَّه طول السفار
وانتن النواعم بين بان، ... وخيريّ يرفُّ، وجُلَّنار
فلا والله ما وَجْدٌ كوجدي ... ولا عرف اصطبارٌ كاصطباري

وقال :

بعثت تهدد بالنوى وتُرعِد ... مهلاً، فان اليوم يتبعه غد
لا تحسبي أن الشباب وشَرْخه ... يبقى، ولا أن الجمال يُخَلَّد
عشرٌ، ويَخْلق شطرُ حسنك كلّه ... ويُذمُّ ما قد كان منه يُحمد
فتغنمي عصر الشباب فإنه ... ظلٌّ يزول، وصفوُ عيش ينفد
وتيقني أن الشباب لناره ... حد، ويطفيها المشيبُ، فتبرد
والبخل بالشيء المحقق تركُه ... أسف يدوم، وحسرة تتجدد
انكرتني للشيب وهو جلالةٌ ... أو كيف يُنْكَر بالصِّقال مهند
أن تنكري شيبي «أمَيْمُ» فطالما ... كنت الأوَدَّ، وغيريَ المتودِّد
ولطالما أبصَرْنَني، فعشرنَ في ... أذيالهن الفاتنات النُّهَّد
فاستخبري فتيان قومك : أيُهم ... يغني غَنائي، أو يقوم وأقعُد
قد احمل العبء الثقيل، وبعضهم ... فيه يُصوِّبُ طرفه، ويُصعِّد
وأذبُّ عن احساب قومي جاهداً ... ان ناب خَطْبٌ، أو عرى مُسترفِد
وإذا تشاجرت الخصوم فإنني ... سيفٌ على الخصم الألَدِّ مجرَّدُ

علي بن هاشم .

قال الذهبي في سير اعلام النبلاء :

ابن البَريد ، الإمامُ الحافظُ، الصدوق، أبو الحسن العائذيُّ القرشيُّ مولاهم الكوفي، الشيعيُّ، الخَزّاز، مولى امرأة قرشية .

حدَّث عن : هشام بن عُرْوة ، والأعْمَش، وابن أبي ليلى، ويحيى بن أبي أنَيْسة، وأبي الجَحَّاف داود بن أبي عَوف، وإسماعيلَ بن أبي خالد، وطلحة بن يحيى، وكَثير النَّوَّاء ، وأبي الجارود زيادِ بن المنذر ، وعبد الملك ابن أبي سُليمان ، والعلاءِ بن صالح ، وفِطْر بن خَليفة ، وأبي حَمْزَة الثُّمَالي ، وخلقٍ سواهم .

وعنه : يونُس بنُ محمد المؤدِّب ، وعمرو بنُ حمَّاد القنَّاد، وأحمدُ، وابنُ مَعين، وابن أبي شَيْبَة ، وعثمان أخوه ، ومحمد بنُ عبيد المُحَاربي، وأبو مَعْمَر اسماعيل القطيعي والحَسن بنُحمَّاد سجَّادة ، وداود بنُ رُشيد ، وعبد الله بنُ عمر بن أبَان ، ومحمد بنُ قُاتل المَرْوزي ، ومحمد بن معاوية ابن مالح ، وخلقٌ كثير .

قال أحمد بن حنبل : ليس به بأسٌ .

وقال ابن مَعين ، ويعقوب السَّدُوسي ، وعلي بن المديني ، وطائفة : ثقةٌ . وعن ابن المديني رواية أخرى : صدوق يَتَشيَّعُ .

وقال الجُوزجاني : كان هو وأبوهُ غَالِيَيْنِ في مذهبهما .

وقال أبو زُرْعَة : صدوق .

وقال أبو حاتم : كان يتشيَّعُ، يكتبُ حديثه .

وعن عيسى بن يونس قال : هم أهل بيت تَشَيُّع ، وليس ثَمَّ كَذِب .

وقال ابن حبان في الثقات : كان غالياً في التشيّع ، وروى المناكير عن المشاهير ، هكذا يقول ابنُ حبان .

قال أحمد بن حنبل : سمعتُ من علي بن هاشم في سنة تسع وسبعين ومئة مجلساً ، ثم عدت إليه المجلسَ الآخر وقد مات . وهي السنة التي مات فيها مالك .

وقال محمد بن المثنّى : مات سنة ثمانين ومئة .

وقال يعقوب بن شَيبة وحطين : مات سنة إحدى وثمانين .

جمال الدين ابو الحسن علي بن يحيى المخرمي .

توفي سنة ٦٤٦ ودفن في تل قريب من الحائر الحسيني .

كان اديباً عالماً فاضلاً وشاعراً فذاً حافظاً للقرآن الكريم . اشتغل بالعلم والحكمة وألف كتاباً اسماه (انتاج الأفكار) يشتمل على رياضة النفس ومدح العقل وذم الهوى وله اشعار في التصوف[1] .

علي بن موسى بن الحسين ، ابن السمسار الدمشقي .

مرت ترجمته في الصفحة ٣٥٨ من المجلد الثامن . ونضيف اليها هنا ما يلي :

قال الذهبي في (سير اعلام النبلاء) :

---

(١) الحوادث الجامعة .

الشيخ الجليل المسند العالم ، حدث عن أبيه وأخيه المحدث ابي العباس محمد وأخيه الآخر احمد . ثم عدّد من حدث عنهم ، الى ان وصل الى الفقيه ابي زيد المروزي فقال : حمل عنه صحيح البخاري . وروى عن خلق كثير ، وكان مُسنِد اهل الشام في زمانه . ثم عد من حدّثوا عنه ، ثم قل : قال الكتاني : كان فيه تشيع وتساهل . وقال ابو الوليد : فيه تشيع يفضي الى الرفض ، وهو قليل المعرفة ، في اصوله سقم . ثم يقول الذهبي :

مات في صفر سنة، ثلاث وثلاثين وأربعمئة ، وقد كمل التسعين ، وتفرد بالرواية عن ابن ابي العقب وطائفة ، ولعل تشيعه كان تقية لا سجية ، فانه من بيت الحديث ، ولكن غلت الشام في زمانه بالرفض ، بل ومصر والمغرب بالدولة العبيدية ، بل والعراق وبعض العجم بالدولة البويهية ، واشتد البلاءدهراً وشمختالغلاة بأنفها ، وتواخى الرفض والاعتزال حينئذ ، والناس على دين الملك ، نسأل الله السلامة في الدين . (انتهى) .

هذا هو اسلوب الذهبي دائماً ، وهذه هي ذهنيته ، ولم يبال في عصبيته العمياء من ان ينسب العمل بالتقية الى علماء السنة ، وقد كان هو وأمثاله يعيبون على الشيعة ويشنعون لاستعمالهم التقية .

على ان الذهبي الناصبي مفتر في نسبة التقية الى المترجم ، ولو لم يكن الرجل شيعياً مخلصاً لما تظاهر بالتشيع ، لانه لم يكن بحاجة الى ذلك في عصر الفاطميين الذين يسميهم الذهبي(العبيديين) فقد كانوا يكرمون العالم لعلمه ولا يهمهم المذهب الذي ينتمي اليه . والذهبي نفسه يعترف بذلك ، فهو حين يترجم لاحمد بن محمد الجرواني ويصفه بالامام العلامة المحدث الحافظ المفتي يقول: «قال عبد القادر الرهاوي: كان له عند ملوك مصر الجاه والكلمة النافذة مع مخالفته في المذهب ـ يريد عبد القادر : الملوك الباطنية المتظاهرين بالرفض » .

وهكذا ـ باعتراف الذهبي لم يكن للعالم المخالف للفاطميين في المذهب الحرية الكاملة فقط ، بل كان له عندهم الجاه والكلمة النافذة ايضاً ، ومن يكون هذا شأنهم لا يحتاج (ابن السمسار الدمشقي) لأن يتقي منهم .

واذا كان الذهبي بمثل هذا النصب والعصبية وهو يعيش في العصور المظلمة ، فان (الدكتور) بشار عواد و(الدكتور محيي هلال السرحان) محققي كتابه اللذين يعيشان في الربع الأخير من القرن العشرين ويحمل كل منهما لقب (الدكتور) لم يكونا أقل منه نصباً وعصبية ، فقد علقا في الحاشية على كلمة (ملوك مصر الباطنية) وفسراها بقولهما : يعني الملوك العبيديين المعروفين عند بعض المؤرخين خطأً بالفاطميين .

الافضل أبو الحسن علي بن يوسف صلاح الدين الايوبي .

مرت ترجمته في الصفحة ٣٧١ من المجلد الثامن ونزيد عليها هنا ما ذكره الذهبي في كتابه (سير اعلام النبلاء) :

تملك دمشق، ثم حاربه العزيز اخوه وقهره ، ثم لما مات العزيز اسرع الأفضل الى مصر، وناب في الملك وسار بالعسكر المصري، فقصد دمشق وبها عمه العادل ، قد بادر اليها من ماردين قبل مجيء الأفضل بيومين ، فحصره الأفضل ، واحرق الحواضر والبساتين ، وعمل كل قبيح ، ودخل البلد ، وضجت الرعية بشعاره ، وكان محبوباً[1] ، فكاد العادل ان يستسلم ، فتماسك ، وشد اصحابه على أصحاب الأفضل فأخرجوهم . ثم قدم الظاهر ومعه صاحب حمص ، وهموا بالزحف فلم يتهيأ أمر . ثم سفل أمر الأفضل وعاد الى صرخد ، ثم تحول الى سميساط وقنع بها . وفيه تشيع بلا رفض ، وله نظم وفضيلة ، واليه عهد أبوه بالسلطنة لما احتضر ، وكان اسنّ أخوته ، وهو القائل في عمه العادل :

ذي سنّة بين الانام قديمة ‏ ‏ أبداً أبو بكر يجور على عليّ[1]

مات الأفضل فجأة بسميساط في صفر سنة اثنتين وعشرين وست مئة، وهي قلعة على الفرات قريبة من الكختا وقد دثرت الآن .

عاش ستاً وخمسين سنة ، وله ترسل وفضيلة وخط منسوب . قال عز الدين ابن الأثير : وكان من محاسن الدنيا ، لم يكن له في الملوك مثل . كان خيراً عادلاً فاضلاً حليماً كريماً رحمه الله تعالى .

عمرو بن دينار الجمحي مولاهم المكي الاثرم .

وصفه الذهبي في سير اعلام النبلاء بالامام الكبير الحافظ احد الاعلام وشيخ الحرم في زمانه . ولد في امرة معاوية وسمع من ابن عباس وجابر بن عبد الله وابن عمر وأنس بن مالك وعبد الله بن جعفر وابي الطفيل وغيرهم من الصحابة ، وكان من كبار التابعين افتى بمكة ثلاثين سنة وكان من اوعية وائمة الاجتهاد .

قال شعبة : ما رأيت في الحديث اثبت من عمرو بن دينار ، وقال ابن عيينة : كان عمرو لا يدع اتيان المسجد، كان يحمل على حمار ما ركبه الا وهو مقعد، وكان يقول: أحرّج على من يكتب عني فما كتبت عن احد شيئاً، كنت اتحفظ . قال كان يحدث بالمعنى، وكان فقيهاً . قال عبد الله بن أبي نجيح : ما رأيت أحد قط أفقه من عمرو بن دينار ، ولا عطاءاً ولا مجاهداً ولا طاووساً .

وقال ابن عيينة : عمرو ثقة ثقة ثقة ، قال كان عمرو من ابناء الفرس . قال يحيى بن معين : أهل المدينة لا يرضون عمراً يرمونه بالتشيع والتحامل على ابن الزبير ، ولا بأس به ، وهو بريء مما يقولون .

إسحاق السلولي : حدثنا عمرو بن ثابت ، سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر يقول : إنه ليزيدني في الحج رغبة لقاء عمرو بن دينار ، فأنه يحبنا ويفيدنا .

قال عبد الله بن محمد الزهري : حدثنا سفيان عن ابن ابي نجيح ، قال : لم يكن بأرضنا اعلم من عمرو بن دينار ولا في جميع الأرض .

روى عبد الله بن احمد بن حنبل عن أبيه عن سفيان قال : كان عمرو بن دينار جزّأ الليل ثلاثة اجزاء ، ثلثاً ينام ، وثلثا يدرس حديثه ، وثلثا يصلي . هارون بن معروف، حدثنا سفيان ، قلت لمسعر : من رأيت أشد تثبتاً في الحديث ممن رأيت ؟ قال : ما رأيت مثل القاسم بن عبد الرحمن وعمرو بن دينار .

قال احمد بن حنبل : كان شعبة لا يقدم على عمرو بن دينار احداً لا الحكم ولا غيره في الثبت ، قال : وكان عمرو مولى هؤلاء ولكن الله شرّفه بالعلم .

قال ابن ابي عمر : سمعت سفيان يقول : ما كان اثبت عمرو بن دينار .

---

(١) هذه متناقضات في قول الذهبي، فكيف يجتمع حرق الحواضر والبساتين وعمل كل قبيح ، مع كونه محبوباً تضج الرعية بشعاره ، ومع الصفات التي يذكرها عنه ابن الأثير كما ستراه ؟ ! ولعل هناك غموضاً في تعبير الذهبي وان الضمير في (حرق) و (عمل) يعود الى العادل.

(١) اسم العادل: ابو بكر « ح».

ابراهيم بن بشار عن سفيان ، قال : قيل لأياس بن معاوية : اي أهل مكة افقه ؟ قال : اسوؤهم خلقاً عمرو بن دينار الذي كنت اذا سألته عن حديث يقلع عينه .

نُعيم بن حماد: حدثنا ابن عيينة ، قال : ما كان عندنا أحد أفقه من عمرو بن دينار ولا اعلم ولا أحفظ منه .

اسماعيل بن اسحاق الطالقاني : سمعت ابن عيينة يقول : قالوا لعطاء : بمن تأمرنا ؟ قال : بعمرو بن دينار .

عباس الدوري عن يحيى، حدثني سفيان ، قال : قال عمرو بن دينار : جئت الى ابي جعفر (الباقر) وليس معي احد، فقال لاخويه زيد واخ له : قوما الى عمكما فأنزلاه، فقاما فانزلاني (انتهى الذهبي) .

عوف بن ابي جميلة ابو سهل الاعرابي البصري .

قال الذهبي في سير اعلام النبلاء : الامام الحافظ ، ولم يكن اعرابياً بل شهر به . ولد سنة ٥٨ كان من علماء البصرة على بدعته . قال محمد بن سلام : كان فارسياً ، وقال هوذة : هو من بني سعد . قلت كان يدعى عوفاً الصدوق، وثقه غير واحد، وفيه تشيع .

قال ابن المبارك : « ما رضي عوف ببدعة حتى كان فيه بدعتان : قدري ، شيعي . وقال الانصاري : رأيت داود بن أبي هند يضرب عوفاً ويقول : ويلك يا قدري . وقال بُندار : كان قدرياً رافضياً . قلت : لكنه ثقة مكثر . مات سنة ١٤٦ .

الشيخ عيسى بن صالح الجزائري .

ولد في منطقة (الجزائر) التابعة لمدينة البصرة وتوفي سنة ١٣٥١ في (المحمرة) عن عمر ناهز السبعين بعد أن فقد بصره في اواخر حياته ونقل جثمانه الى النجف الأشرف فدفن هناك وترعرع ونشأ في البصرة ثم سكن قضاء (ابو الخصيب) التابع للبصرة وحضر في المقدمات على علماء البصرة وفضلائها ثم انتقل الى مدينة المحمرة احدى مدن خوزستان ، واخذ بالحضور على السيد عدنان الغريفي (المتوفى ١٣٤٠) ودرس عنده السطوح والخارج كان مرجعاً لأهالي المحمرّة بعد وفاة استاذه ومربيه السيد عدنان طيلة احدى عشرة سنة وكانت له صلات وثيقة مع علماء وأدباء عصره وكان يتبادل معهم الرسائل النثرية والشعرية منها ما ارسله اليه الشيخ حمزة قفطان :

تقبيل كفك فضل صدّني الزمن	عنه وكم هو لي بالصد يمتحن
يعوق سعي المنىٰ عندي فاوسعها	نجحاً ويغمز من عزمي فلا اهن
ان صدّني دون تشريفي بقربكم	بحيث تنعم فيه العين والاذن
فلم يحل عن مسير القلب نحوكم	وهو التواصل لا ان يقرب البدن
هذا ولي باليراع العضب معتصم	في مثلها ان ارّمّت للنوى اللسن
يترجم الشوق عني في صحائفه	حتى يكاد عليها ينطق الشجن
كلفته فِقَرّ التسليم عن كثب	اليك وهو بما كلفته قمن
فلم يدع فكرة الا الَمّ بها	في النظم وهو على الافكار مؤتمن
فجاء يبذل اقصىٰ جهده وله	ببذله الجهد عذر وجهه حسن
مجانب المدح والاطراء معترفاً	بالعجز عن نيل ما كلت له الفطن
وليس بدعاً اذا اعيىٰ عليه وان	امدّه مدمعي والبحر والمزن
فذاك شوط قد استخذىٰ بحلبته	عن ان يخب اليها السابق الأرن
وكنت اعجزته شكراً على منن	وكلما كلّ جاءت بعدها منن
فقام يدعو لك الرحمن مبتهلاً	بأن تحوطك من تسديده جنن
فاقبل بذا شاهد الاخلاص ممتزجاً	بالقلب ينطق عنه السر والعلن

وممن رثاه الشيخ محمد حسن بن الشيخ محسن الجواهري بقوله :

اصاب حشا الاسلام سهم فاوجعا	فلم يبق في قوس التصبر منزعا
مصاب رمىٰ شرع الهدى في صميمه	فليس عجيباً ان وهىٰ وتضعضعا
وليس عجيباً ان تصدع قلبه	بخطب له قلب النبي تصدعا
نعاك لنا الناعي فهل هو عالم	بماذا دهى الدين الحنيف ومن نعىٰ
بفيه الثرىٰ كم راع للدين انفساً	تكاد لهول الخطب ان تتصدعا
بكتك اليتامىٰ لم تجد من يعينها	وربع الهدىٰ اذ عاد بعدك بلقعا
فمن للقضايا المعضلات يحلها	بثاقب فكر من شبا السيف اقطعا
ومن لايامى كنت انت معينها	وكافلها ان حادث الدهر افزعا
أيعلم من امسىٰ لنعشك حاملاً	بان التقى والعلم فيه تجمعا
سيفقدك الربع الذي كنت نوره	فقد عاد وجه القطر بعدك اسفعا
حياتك في نشر العلوم قضيتها	ولما دعاك الله لبّيت مسرعا
وان لنا في (آل عدنان)[1] بعده	بدوراً تجلت كي تشع وتطلعا
كرام نماهم للعلاء ابوهم	فلست ترى الا الكريم السميدعا
(غياث) الورى صبراً وان كان رزؤكم	جليلاً له قلب الصفا قد تصدع
وصبراً (ابا المهدي) فالرزء كلما	تعاظم كان الأجر اسمىٰ وارفعا
ودمتم جميعاً سالمين بغبطة	ولا زلتم للدين كهفاً ممنعاً[2]

غزوة بنت السيد راضي بن السيد جواد بن السيد حسن بن السيد احمد القزويني .

ولدت حدود سنة ١٢٨٥ وتوفيت في شعبان ١٣٣١ .

آل القزويني من الأسر العلمية المعروفة في العراق نبغ منها علماء اعلام منهم العلامة الشهير السيد مهدي القزويني المتوفى سنة ١٣٠٠ هجرية وهو شقيق جدها السيد جواد وأبو امها العلوية نازي بنت السيد مهدي القزويني . قرأت العلوم العربية والفقه والأصول على اخوالها الاعلام ثم اولعت بالأدب والشعر فبرزت في ذلك ووصفها السيد جواد الشبر بأنها نشأت في كنف اخوالها الأعلام وانكبّت على الدراسة فدرست العلوم العربية والفقهية وتتبعت مصادر الأدب والشعر بحكم بيئتها وتربيتها فكانت تحفظ من أخبار العرب وقصصهم الشيء الكثير وتربّت بتربيتها جملة من نساء الأسرة ومن يتعلق بها وقد اقترنت بابن خالها السيد احمد بن الميرزا صالح القزويني وهو عالم فاضل وأديب شاعر فوجهها بصورة اعمق وجعلها قابلة لهضم محاوراته العلميه في شتى المجالات ، وهي شاعرة مقبولة سريعة البديهة مشهود لها بطرافة الأدب .

السيد غلام رضا السعيدي .

ولد بقرية نوزاد من قرى بيرجند عام ١٣١٥ ، وتعلم القراءة والخط في الكتّاب هناك ثم دخل المدرسة الشوكتية في بيرجند، فدرس العربية والانجليزية والفرنسية عرف محمد أقبال مما قرأ عنه فدرس حياته وألف فيه كتاباً كما ألّف غير ذلك من الكتب ونشر العديد من المقالات والبحوث.

توفي سنة ١٤٠٩ ودفن في قم .

فاطمة اشرف السادات بنت السيد محمد بن السيد مرتضى بن السيد هادي الحسيني الرامسري .

ولدت قبل ١٣١٠ وتوفيت ١٣٨٢ .

ولدت في رامسر ونشأت في حجر ابيها ثم انصرفت الى الدراسة . وكانت عالمة في الأحكام الشرعية والعلوم الاسلامية ولها مكتبة نفيسة تفرقت

---

(١) هم آل السيد عدنان الغريفي البحراني .

(٢) الصالحي .

بعد وفاتها وكانت تنظم الشعر باللغة الفارسية[١].

فاطمة المكناة بأم سلمة بنت الشيخ محمد علم الهدى بن ملا محسن الفيض الكاشاني بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود.

عالمة فاضلة محدثة اديبة شاعرة من ربات الفصاحة والبلاغة ذات دين وصلاح وتقوى.

ولدت في ذي القعدة الحرام سنة ١٠٨٨ وتوفيت في ٢٠ جمادى الثانية سنة ١١١٤ ودفنت عند رجلي والدها في مقبرة جدها ملا محسن الفيض الكاشاني في مقبرتهم العائلية الخاصة بكاشان.

قرأت المقدمات على اخواتها وأخذت الفقه والأصول عن أعمامها ابي حامد محمد المعروف بنور الهدى ومعين الدين احمد وتخرجت على والدها، تروي عن والدها وأعمامها المذكورين وفي سنة ١١١٢ زفوها الى زين الدين علي من أقربائها كما في مجموعة آل الفيضي[٢] وذكرها السيد المرعشي النجفي قائلاً (فاطمة المكناة بأم سلمة الفاضلة الشاعرة الكاملة الأديبة المحدثة ولدت في ذي القعدة الحرام سنة ١٠٨٨ وتوفيت في ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١١١٤ وقبرها مما يلي رجلي والدها في مقبرة صاحب الوافي وعلى قبرها لوح مرمري اخذت وروت عن ابيها العلامة المترجم وعن أعمامها وعن اخواتها تزوجها المولى زين الدين علي من أقربائها وبتاريخ الزواج في ذي الحجة سنة ١١١٢ ق)[٣].

فاطمة بنت ابي محمد الشريف قريش بن السُّبيع بن المهنا بن السبيع بن المهنا بن السبيع بن المهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام.

كانت حية في رجب سنة ٥٦٠.

عالمة فاضلة محدثة فقيهة من ربات الفصاحة والبلاغة وفواضل نساء الشيعة في مطلع القرن السابع للهجرة ببغداد اخذت العلم عن أبيها الشريف قريش البغدادي المتوفى سنة ٦٢٠ هجرية ثم حضرت على الشيخ ابو طالب المبارك بن علي بن محمد بن خضير الصيرفي البغدادي وقد قرأت عليه كتاب (فضل الكوفة) تأليف ابي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن عبد الرحمان الحسيني الشجري المتوفى سنة ٤٥٥ مع جماعة اخرى وهم الذين ذكرت اسماؤهم في آخر النسخة من كتاب (فضل الكوفة) بخط ابيها الشريف قريش البغدادي في مجالس آخرها يوم الثلاثاء عاشر رجب سنة ٥٦٠ ومنهم ام المترجم لها شرف النساء بنت ابي طالب بن المكرم العلويّة الحسنية البغدادية المار ذكرها واخوها محمد واختها آمنة المار ذكرها وابوها الشريف قريش وعبد الله بن ابي طالب بن ابي بكر المقري العجّان وفتوح بن جعفر بن الطوزي[٤] وقد كتب السيد قريش البغدادي جميع ذلك بخطه الشريف في آخر كتاب (فضل الكوفة) وهذه النسخة النفيسة من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق، ونسخة فتوغرافية منها في مكتبة امير المؤمنين (ع) العامة بالنجف الأشرف[٥].

---

(١) الشيخ محمد السمامي.
(٢) مجموعة مخطوطة في تاريخ مواليد ووفيات آل الفيضي في المكتبة المرعشية بقم.
(٣) الصالحي.
(٤) انظر الثقات العيون في سادس القرون ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ والأنوار الساطعة في المائة السابعة ص ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٥) الشيخ عبد الحسين الصالحي وهي منتزعة من كتابه المخطوط (رياحين الشيعة).

فاطمة بنت السيد حسين القزويني (صاحب كتاب براهين السداد) ابن السيد الأمير محمد ابراهيم (صاحب كتاب سلاح المؤمن) ابن الأمير محمد معصوم بن الأمير محمد فصيح بن الأمير اولياء الحسني القزويني.

ولدت في قزوين حدود سنة ١١٧٢ وتوفيت بها حدود سنة ١٢٦٠ ودفنت في مقبرتها العائلية شمال شرقي روضة شاه زاده حسين بن الامام الرضا عليه السلام.

عالمة فاضلة محدثة حافظة للقرآن عالمة بتفسيره وتأويله قرأت على ابيها السيد حسين المتوفى سنة ١٢٠٨ شيخ السيد مهدي بحر العلوم وعمها العلامة المولى السيد حسن المتوفى سنة ١١٩٨ ولما بلغت سن الرشد زفوها الى الشيخ محمد علي بن الشيخ عبد الكريم القزويني ثم حضرت الفقه والأصول والحديث على زوجها المذكور حتى نبغت في اكثر العلوم الاسلامية معقولاً ومنقولاً وكانت من فواضل نساء عصرها خطيبة متكلمة ترتقي المنبر وتملك صوتاً جهورياً ومقدرة على الخطابة والوعظ وكانت تخطب وتدرس ويفد النساء الى مجلسها لسماع دروسها وخطاباتها ومحاضراتها وكانت كثيرة الزهد عظيمة الورع وتصدرت للتدريس ذكرها والدي قدس سره في الجزء الثاني من كتابه الغرر والدرر المخطوط وقد انجبت ثلاثة اولاد ذكور كلهم علماء وهم الشيخ الميرزا عبد الوهاب القزويني والشيخ عبد الكريم المعروف بالحاج اغا الشيخ علي مردان. ولها بنت عالمة فاضلة اديبة شاعرة وهي آمنة خانم[١] ام قرة العين[٢].

الفتح بن ابي منصور البغدادي:

قال الذهبي في سير اعلام النبلاء:

الشيخُ الجَليل المُعَمَّر مُسْنِد العراق عميد الدين أبو الفرج الفتح بن ابي منصور عبد الله بن محمد ابن الشيخ أبي الحسن عليّ بن هبة الله بن عبد السلام بن يحيى البَغْدَادِيّ الكاتب.

من بيت كتابة ورواية.

ولد يوم عاشوراء سنة سبع وثلاثين وخمس مئة.

وسمع من جده ابي الفتح، والقاضي محمد بن عمر الأُرموي، ومحمد بن أحمد الطّرائفيّ، وأبي غالب محمد بن الدّاية، وأحمد بن طاهر المِيْهَنِيّ، وهبة الله بن ابي شَريك، وأبي بكر ابن الزّاغونيّ، وقاضي القُضاة علي بن الحُسين الزَّينبيّ، ونوشتكين الرِّضوانيّ، وأبي الكرم الشَّهْرُزُوريّ، وسعيد ابن البناء، وأحمد بن محمد ابن الاخوة، وجماعة.

حدث عنه البِرْزالي، وعُمر بن الحاجب، وابن المجد، والقاضي شمس الدين محمد بن العماد، وتقي الدين ابن الواسطي، والجمال ابن الدُّبّاب، والكمال الفُوَيْره، والشمس ابن الزّين، والشهاب الأبَرْقُوهِيّ، وجماعةٌ، وانتهى اليه علوّ الاسناد.

قال المُنْذريّ: كان شيخاً حَسَناً، كاتباً أديباً، له شعر وتصرف في الأعمال الديوانية، أضرّ في آخر عمره، وانفرد بأكثر شيوخه ومروياته، وهو من بيت الحديث، حدّث هو وأبوه وجده وجد أبيه.

وقال ابن الحاجب، هو من محلة الدِّينارية بباب الأزَج، وكان قديماً يسكن بدار الخلافة. صارت اليه الرِّحلة. وتكاثر عليه الطلبة، واشتهر اسمه، وكان ذوي المناصب والولايات، فهماً بصنعته، ترك الخِدمة، وبقي قانعاً بالكفاف، وأضَرَّ بأخَرَةٍ، وَتَعَلَّل حتى أُقعد، وكان مجلسه مجلس هيبة ووقار،

---

(١) انظر مستدركات اعيان الشيعة ج ٢ ص ٧.
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي وهي منتزعة من كتابه المخطوط (رياحين الشيعة).

لا يكاد يشذّ عنه حرف محقق لسماعه، إلّا أنه لم يكن يحب الرواية لمرضه واشتغاله بنفسه، وكان كثير الذكر، وكان يتوالى، ولم يظهر لنا منه ما ننكره، بل كان يترحم على الصحابة ويلعن من يسبّهم، وكان يقول الشعر في الزهد والندم، وكان ثقة صحيح السماع، وكان مُكثراً. الى ان قال: وتوفي في الرابع والعشرين من المحرم سنة أربع وعشرين وست مئة.

وحدث عنه الدُّبيثي وقال: هو من أهل بيت حديث كلهم ثقات.

قلت: وآخر من روى عنه بالاجازة فاطمة بنت سليمان الدِّمشقي.

وقال المبارك ابن الشّعّار: كان الفتح يرجع الى أدب وسلامة قريحة، وكان مشتهراً بالتشيع والغلوّ فيه على مذهب الامامية.

وقال ابن النجار: كان صَدُوقاً جليلاً أديباً فاضلاً حَسَنَ الأخلاق نبيلاً.

أنشدني أبو الحسن القطيعي أنشدها الفتح لنفسه وكتب بها الى المستضيء بأمر الله يستقيل من خدمته بالبركات:

يا ابن الخَلَائِفِ مِنْ آل النَّبيِّ وَمَنْ ... يَفُوقُ عِلْماً وَنُسكاً سَائِرَ النَّاسِ
يا مُسْضِيئاً بِأَمْرِ الله مُقْتَدِياً ... يا خَيْرَ مُسْتَخْلَفٍ من آلِ عباس
اشكُو اليك معاشي إنه كَدَرٌ ... ما بيْنَ باغٍ وحَفَّارٍ لأرْمَاسِ
تأتي اليَّ صباحاً كُلّ عانيةٍ ... يضيق من كَرْبها صدري وأنفاسِي
فآهٍ مِنْ حَالَتِي ضُرٌّ بُلِيتُ بها ... سَوادِ بختي وشيبٍ حلّ في راسي

الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي القُبـاني الدورقي:

مرت له ترجمة موجزة ونزيد عليها ما يلي مكتوباً بقلم السيد هادي باليل الموسوي:

من عُلماء الدورق وأدبائِها في القرن الحادي عشر، ولد سنة ١٠٥٣ في القُبان[1] وتوفيّ سنة ١١٣٠. ترجم لنفسه في كتابه [زاد المسافر والمقيم] فقال:

هو فتح الله وكنيته ابو علي ولقبُه جمال الدين بن الشيخ علوان بن الشيخ بشارة بن الشيخ محمدّ بن الشيخ عبد الحسين الكعبي نَسباً القُباني مولداً ومنشأً، وُلد سنة ١٠٥٣ هاجرَ الى شيراز شاباً سنة ١٠٧٩ واشتغل بها في طلب العلم، أَخَذَ الصرف عن السيّد نعمة الله الجزائري والنّحو عنه ايضاً، ثُم عن الشيخ حسن بن الشيخ محمدّ الجزائري وكان ذلك في المدرسة المنصورية، والعروض عن الشيخ احمد المدني رحمه الله تعالىٰ ثُمّ انتقل الىٰ المدرسة اللّطيفيّة وَأَخَذَ العربيّة عن السيّد عزيز الجزائري ابن عَمّ السيّد نعمة الله الجزائري والمنطق عن ميرزا علي رضا بعض مدرّسي المدرسة المذكورة وعن الشاه ابي الولي رحمه الله تعالىٰ وكذلك علم دراية الحديث ومعرفة الرجال عنه ايضاً، قُدِسّ سره ورفع في الدارين قدره، ثُمّ رجع الىٰ القُبان واشتغل علىٰ ابيه المرحوم الشيخ علوان في علم الكلام والفقه وبعض الحديث ثُمّ تولىّ القضاء في البصرة مدّةً فرأى القضاء مُخِلاً في دينه فعافه ورجع الىٰ القُبان بعد ان توفيّ ابوه رحمة الله عليه وذلك في سنة الثمانين بعد الألف ثُمّ اضطربَت احوال القُبان بسبب ما وضع لأجله هذه المقامة[1]، واستمرّ التعطيل عسىٰ أن يأتي الله بالفتح أو بأمرٍ من عنده. وله شيء من التأليف وشيءٌ من الشعر، فمن تأليفه الدّرر البهيّة في شرح الأجُرومِيّة وهو شرح لطيف صغير الحجم كثير الفوائد، وشرح الفتوحات في المنطق ورسالة في علم العروض ورسالة في سبب الخلف والخلافة ورسالة في علم القراءة وشرح شُواهد قطر الندىٰ وغير ذلك.

اقوال العلماء فيه

جاءَ ذكر المترجم في كثيرٍ من كتب التراجم والتاريخ منها:

كتاب (أنوار المشعشعيين) لمؤلفٍ من أهل القرن الثاني عشر، توجد منه نسخة في مكتبة السيّد شهاب الدين المرعشي في مدينة قم، قال مؤلفه: العلامّة، الفهّامة، الثقة الشيخ فتح الله أبي عِلي جمال الدين الكعبي نسباً القباني مولداً ومنشأً. . اهـ.

ومنها، كتاب (تاريخ الأدب العربي ج٢ ص٥٠١) المطبوع باللغة الالمانية للمستشرق الالماني: بروكِلمن[2]، فأنّه ترجمه في عداد المؤرخين والأدباء وذكر له كتابين في المكتبات الغربيّة وهما، زاد المسافر والمقيم، وشرح شواهد قطر الندىٰ.

ومنها كتاب (معجم المؤلفين ج٨ ص٥٢) للأستاذ عمر رضا كحالّة، قال في جملة الترجمة، انّه مؤرّخ، أديب، مشارك في بعض العلوم، وذكر جملة من مصنّفاته.

ومنها، كتاب (شعراء البصرة) ومنها، كتاب (التراث العربي ٧٠ ــ ٧١).

ومنها كتاب (جامع التصانيف الحديثة، المطبوع سنة ١٣٤٥، ج١ ص٤٦).

ومنها كتاب (الكواكب المنتشرة في القرنِ الثاني بعد العشرة) للمحقّق الشيخ آغابزرْك الطهراني، فقد ترجمه نقلاً عن الإجازة الكبيرة للسيّد عبد الله الجزائري وقال، رأيتُ النصف الثاني من كتاب [تنقيح المقداد] من النكاح إلىٰ آخره بخطّه (أي بخطّ الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي فرغ من استنساخه سنة ١٨٠٢، اشتراه السيّد محمدّ باقر اليزدي:

ومنها كتاب (اعيان الشيعة) وإليك ما قاله السيد الجزائري في اجازته الكبيرة:

---

(١) القبان: برفع القاف والباء الموحدّة المخفّفة بعدهما الألف والنون، مدينة قديمة تقع علىٰ الضفة الشرقية من نهر دجيل، المعروف في زماننا هذا بنهر بهمشير عند مصبّه في الخليج على بعد ستة فراسخ من الدورق تقريباً، لأنّها تمتد الى ناحية الشرق تجاه بندر معشور، وكانت إحدىٰ ثلاث مدنٍ مهمةٍ في المنطقة الحويزة والدورق والقبان، وكانت مدينة عامرة ذات اسواق مليئة بالبضائع والأموال وقد كثرت فيها المدارس والمساجد والعلماء وأهل التقوى قال صاحب كتاب (عنوان المجد)، أنّه كان في قبان تسعون مسجداً، وقد خضعت القبان لحكم ولاة البصرة قرابة القرن ونصف القرن (١٠٠٥ ــ ١١٤٢)، وقد اتخذها علي باشا بن افراستان الدّيري والي البصرة (١٠١٢ ــ ١٠٥٧) قاعدة عسكرية له وبني فيها ثلاث قلاع كل قلعة تعرف بـ (كوت) الكوت الشمالي والكوت الجنوبي وكوت ميان، (أي كوت الوسط) واعتنىٰ بتعمير وتنظيم شؤونها واسكن فيها قبائل كعب، قال السيد علي المغربي المعروف بالأخضري يمدح علي باشا:

شوقي إلىٰ الملك الذي ... حاز القبان به النهاية
ملك عظيم لم تقف ... فيه الرئاسة عند غاية
نتلو دواماً مدحه ... لما غدا في المجد آية

وقعت في القبان عدةّ حوادث تاريخية جاء ذكر بعضها في كتاب [تاريخ الأمارة الافراسيابية] وبعضها في كتاب [زاد المسافر والمقيم]، وكان خراب القبان علىٰ يد كريمخان الزندي ملك ايران في سنة ١١٧٨ وذلك لمّا هاجم الكعبيين فيها واجلاهم عنها فهدم سدّ السابلة المبني علىٰ نهر كارون، فانقطع عنها الماء العذب وعلاها الماء المالح للبحر، فلم يبق فيها نبت ولا شجر فتفرق اهلها في البلاد، وقد اندرست اليوم معالمها واندفنت تحت التراب، آثارها. واصبحت خبراً بعد الأثر!

(١) يقصد بالمقامة كتابه [زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر] وسيأتي الكلام عنه.

(٢) Brokelman, s11, 501 مستشرق الماني ولد سنة ١٨٦٨ وتوفي سنة ١٩٥٦ له كتابان: تاريخ الأدب العربي، وتاريخ الشعوب الاسلامية، طبعا في المانيا باللغة الألمانية.

الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي الدورقي:

كان عالماً، أديباً، وقوراً، حسن التصنيف ذكرته في تـذيـيل السـلافة بفقرات منها: ذوباع في الأدب مديد، ونظر في إدراك اللّطائف حديد، وفهم في مـوارد النكات سـديد، وكـدّ في اقتناص المعـارف شديـد، ويد تلعب بالمعاني لعب الواح بالعقول، وذهن انطبـع فيـه فنون المعقـول والمنقول، رأيته في اواخر عمره وقد غيرّه الزمان:

وإنّ الـثـمـانـيـن وبـلـغـتـهـا قد احوجت سمعي الى تـرجمان[1]

له كتب منها: كتاب زاد المسافر في تحرير واقعة البصرة ذكر في اوله أحواله وأنه وُلد في قُبان.

ولمّا ترعـرع اشتغل علىٰ ابيـه الشيـخ علوان ثُمّ ارتحـل إلىٰ شيـراز واشتغل على السيّد نعمة الله الجزائري والسيد عزيز الله والشـاه أبـي الولي وغيـرهم ثُمّ رجـع إلىٰ مـولـدِهِ وولي قضـاء البصـرة إذ كـانت في تصـرّف العجم[2] وادرج في كتابه هـذا كثيراً من الأدبيات وحررّ فيه البديعيات أكمل تحرير، ومنها كتاب الإجادة في شرح قصيدة السيّد علي بن باليل الموسومة بالقلادة ومطلعها:

رُدّي عَلَيّ رُقادي أيُها الروّدُ عَلَي أراك به والبين مفقود

سلك فيه مسلك الصفدي في شرح لأميّة العجم للطغرائي، وله كُتب أخر لم اقف عليها وشعرٌ قليل، توفّي سنة الثّلاثين رحمة الله عليه. (انتهى).

اساتذته ومشـايـخـه
والرّاوون عنه وتلامذته

ذكر المترجم جماعة من اساتذته الذين تلمـذ عليهم في المدرستين المنصوريّة واللطيفيّة في شيراز واصفهان كما مرّ مُسبقاً عن كتابه [زاد المسافر ولهْنة المقيم والحاضر]، أمّا مشايخه، فإنّه يـروي عن شيخه المـولىٰ أبـي الحسن الشريف العاملي المجاور للغري، عن العلاّمة المجلسي عن والده عن الشيـخ البهائي، ويروي عنه مهدي قُلي خان بن محمدّ باقر سلطان والي الدورق في العقد الثاني للقرن الثـاني عشر حسب اجـازة المترجم لـه. أمّا تلامذه في الدورق والقُبان فهم جمـاعة من الـذين نشؤوا في النصف الأوّل للقرن الثاني عشر ومن أبرزهم العالم الأديب السيّد ابـراهيم بن السيد علي الموسوي الدورقي المتوفى عشرة الخمسين بعد الألف والمائة.

آثاره العلمية والأدبية

(١) ذكـر هذا البيت اشـارة الىٰ ضعف سمـع المترجم وهـو لأبـي محلم عوف بن محلم الشيباني، قاله في جملة ابيات حينما قدم علىٰ عبد الله بن طاهر بن الحسين في قصره بميان (موضـع بنيسابور) فأخذ يحادثه، فسأله كم سنّـك؟ فلم يسمـع، فلمّا اراد أن يقوم قال عبد الله بـن طاهر للحاجبُ خُذ بيده، فلما توارىٰ عوف، قال له الحاجب، إنّ الأمير سألك كم سنّك؟ فلم تجبهُ! فقال له رُدّني اليه فردّه فوقف بين يديه وقال له:

يـا بـن الـذي دان لـه الـمـشـرقـان طُـرّاً وقـد دان لـه الـمـغـربـان
إنّ الـثـمـانـيـن وبـلّـغـتـهـا قـد احـوجـت سـمـعـي إلـى تـرجـمـان

(٢) ولي المترجم القضاء في البصرة في الفترة بين سنـة ١١٠٦ الىٰ سنة ١١١٢، وذلـك حين ما اتفق والي الحويزة المولىٰ فرّج الله بن السيد علي خان المشعشعي مـع أمير المنتفك الشيـخ مانـع من راشد علىٰ أخذها من يد خليل باشا الوالي العثماني وطرده عنها وبعد ان تمّ لهما هذا الأمر استولىٰ عليها والي الحويزة المذكور اسند الصفويون حكومتها الىٰ ابراهيم خان حاكم الدورق وبعد مدة بعثوا لها والياً اسمه دواود خـان، وبقيت تحت ولايته الىٰ سنة ١١١٢ حيث سلمهـا الصفويـون الىٰ العثمانين في تلك السنة.

للمترجم آثار علمية وأدبية نختصر على ما ذكره شيخنا الطهراني في موسوعته الذريعة مرتبة على حروف الهجاء:

١ ــ (الإجازة في شرح القلادة): ذكره الشيخ آغابزرك الطهراني في [الذرّيعة] ج١ ص١٢١ فقال: [الإجادة في شرح القلادة]، للشيخ فتح الله بن علوان الكعبـي الدورقي المتوفى سنة ١١٣٠ قال السيّد عبد الله الجزائري في إجازته الكبيـرة، إنّه سلك فيهـا مسلك الصفّدي في شـرح لاميّة العجم للطغرائي (والقلادة) هي قصيدة للسيد علي بن بـاليل الجـزائري الـدورقي معاصر الشارح مطلعها:

رُدّي عَلَيَّ رُقادي أيّها الروّد عليّ أراكِ بِهِ والبين مفقود

أقول:

ويظهر أنّه الفه بعـد سنة ١٠٩٥هـ، لأنّ الشـارح لم يذكـره في عداد مؤلّفاته التيّ ذكرها في مقدّمة كتابه (زاد المسافر والمقيم) الذي فرغ منه سنة ١٠٩٥هـ.

٢ ــ (تجويد القرآن): قال في الـذّريعة ج٣ ص ٣٧٣؛ هـو للشيخ فتـح الله بن علون الكعبـي الدورقي المتوفى سنـة ١١٣٠هـ كان من تـلامذة السيّد المحدّث الجزائري، ترجمه حفيد أُستاذه السيّد عبد الله الجزائري في إجازته الكبيرة وله تصانيف منها: (الاجادة في شرح القلادة).

٣ ــ (تحفـة الاخوان) في الفقـه، ذكره في [الـذريعة ج٣ ص٤١٦] فقـال: (تحفة الاخـوان) في فقـه الصـلاة شـرحـاً لحـديث رواة [رجـاء بن الضحاك[1]] بـ(قال، أقول)، مفصّل مبسوط، من أول الوضوء وسائر المقدّمات والنّوافل والفرائض وبعض الصلوات وتفسير بعض السّور والآيات وفضائلها وغير ذلك للشيخ فتـح الله بن علوان الكعبي الدورقي المتوفى سنة ١١٣٠هـ ألفه وأهداه إلىٰ مهدي قليخان بن محمدّ باقِر سلطان ليعمل بِهِ وَأجاز له روايته عنـه وذكر أنّـه يروي الأحـاديث عن شيخـه المـولىٰ أبـي الحسن الشـريف العاملي المُجاور للغرّيّ عن العلاّمـة المجلسي عن والِدِهِ التّقِي عن الشيـخ البهائي، قال في أوّله بعد الخطْبة:

«يقول أقل العباد الجاني فتـح الله الكعبـى القبانى هـذه تحفة لاخوان الـدين وخلاّن اليقين في فقـه الصـلاة». رأيت منـه نسخـة تـاريـخ كتـابهـا سنـة ١١٣١ هـ، أشتراهـا السيّد أبـو القاسم المـوسوي الـريـاضي من كَتب المرحوم الشيـخ منصور بن الشيـخ زائر السـاعِدي النجفي. (انتهى).

أقول جاءَ ذكر مهدي قليخان في كتاب [الرحلة المكيّة للسيّد عليخان بن عبـد الله الحويـزي] في حوادث سنـة ١١١٤ وقال أنّـه حاكم الـدورق، ويحتمل ان يكون هو الذي ألّف له الشيخ الكعبي كتابه [تحفة الأخوان].

٤ ــ (الدرّر البهيّة في شرح الأجروميّة)، ذكره المحقق الطهراني في [الذريعة ج٨ ص١٢٠] فقال: الدرر البهيّة في شرح الأجروميّة للشيـخ أبـي علي فتـح الله بن علوان بن الشيـخ بشـارة الكعبـي نسبـاً الـدورقي القُبـاني مولداً ومنشأ.. إلـخ.

٥ ــ (رسالة في سبب الخلف والخـلافة)، قـال في [الذريعـة ج١٢ ص١٢٦]: سبب الخلف والخـلافـة للشيخ فتح الله بن علوان الكعبـي وذكره في أحواله في أوّل (زاد المسافر).

٦ ــ (رسالة في العـروض): ذكرهـا في [الذريعـة ج١٥ ص ٣٥٦]

(١) رجاء بن ابـي الضحاك الخراساني، من قاربة الفضل بن سهل النوبختي وهو الذي ارسله المأمون الىٰ المدينة وأمره بأشخاص الامام علي الرضا بن موسى الكاظم عليهما السلام الىٰ خراسان ورواه حديثاً مفصلاً عن الامام، ذكره في عيون اخبار الرضا، وهو الذي شرحه الشيـخ الكعبي في كتابه.

فقال: هي للشيخ فتح الله ابن علوان الكعبي الدورقي صاحب (الاجادة) و (زاد المسافر) المتوفى سنة ١١٣٠هـ.

٧ ــ (رسالة في القراءة)، ذكرها المؤلّف الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي القباني في كتابه (زاد المسافر).

٨ ــ (زاد المُسافر ولهنة المقيم والحاضر)، قال في [الذريعة ج١٢ ص٨] ما يلي:

زاد المسافر في تحرير واقعة البصرة وما جَرَى على الحسين باشا حاكم البصرة وواليها ابن علي باشا بن افراسياب الديري[1] من فراره بنفسه وعياله إلىٰ الهند في سنة ١٠٧٨ وفتح بني عثمان وانتزاعها من ايدي آل افراسياب وهذا الكتاب للشيخ فتح الله بن علوان الكعبي الدورقي القباني تلميذ السيد المحدث الجزائري السيّد نعمة الله وغيره ومن تصانيفه (الاجادة شرح القلادة)، وأوّل زاد المسافر [إنّ أجمل ما جاء في ميادين الخواطر. . .] وذكر في أوّلِهِ شرح أحواله وهو مطبوع في البصرة في ٥٦ صفحة كما جاء في (جامع التصانيف الحديثة المطبوع سنة ١٣٤٥ ج١ ص٤٦] ورأيت قطعةً من أوائله في مجموعة عند الشيخ طاهر الحجامي في النجف وأخرىٰ عند مجد الدين كُتِبت سنة ١١٤٥هـ. وذكره في اعيان الشيعة ضمن ترجمة مؤلفة فقال: وادرج في كتابه هذا كثيراً من الأدبيات وَحَرّر فيه البديعيات أكمل تحرير وهو مطبوع أقول وهذا المطبوع هو متنه طبع في البصرة في ٥٦ صفحة وأُعيدَ طبعه في بغداد سنة ١٣٧٧هـ. أما شرحه فهو لم يطبع حتىٰ الآن وهو ٤٩٤ صفحة من القطع الكبير.

٩ ــ (شرح زاد المسافروالمقيم)، قال في (الذريعة ج١٣ ص٢٩٧): شرح زاد المسافر في تحرير واقعة فتح البصرة لبني عثمان سنة ١٠٧٨هـ، للشيخ فتح الله بن علوان الكعبي الدورقي المتوفى سنة ١١٣٠هـ، شرح مبسوط لطيف فيه كثير من الفنون الأدبيّة ولا سيما المُحَسنّاتِ البديعيّة فرغ منه سنة ١٠٩٥هـ. أقول رأيت منه نسختين في مكتبة سيهسالاز بطهران أحداهُما مرقمّةً بـ[٣٣٤٠] بخَطّ علِي بن محمدٌ شمس الدين بن عبد الرؤف الموسوي البحراني الجدّ الحفصي أصلاً والشاخوري منشأً ومسكناً فرغ من استنساخها في ١٣ صفر من السنة المذكورة، ولعل القصد في قوله السنة المذكورة سنة تأليف الكتاب التي ذكرها المؤلف في النهاية، ومنه نسخة في الفلاحيّة بخطّ عبد عَلي بن أحمد الشولكي كتبها للشيخ محمد علي المحسني الفلاحي، ومنه نسخة في المتحف البريطاني في لندن، بخط جيّد خشن فى ٣٧١ ورقة كتبت في ذي الحجة سنة ١٢٢٠ لريزيدنت البصرة مستر تيلرسيك وتيلرسيك كان يشغل منصب قنصل بريطانيا في العراق عزل عن منصبه سنة ١٨٤٣ وخلفه رونلسن.

١٠ ــ (شرح شواهد قطر الندىٰ) لابن هشام، ذكره في [الذّريعة ج١٣ ص٣٣٩] فقال: هو للشيخ فتح الله بن علوان الكعبي القباني المتوفى سنة ١١٣٠هـ، نقل تساهله وتسامحه في شرحِهِ السيد صادق الأعرجي في شرحِهِ. أقول وتوجد منه نسخة في إحدى مكتبات العرب ذكرها بروكلمان.

١١ ــ (شرح الفتوحات المنطقيّة)، قال في [الذريعة ج١٦ ص١١٨] هو للشيخ فتح الله بن علوان وفي المكتبة المُسماة بـ[كتاب خانه ملّى بارس] في مدينة شيراز مجموعة مرقمة بـ[٣١٠] فيها ثلاثة كتب، أولها كتاب الفتوحات المنطقية للشيخ الدورقي الكعبي القباني، أول الشرح الكعبي القباني، أوّل الشّرح [نحمدك يا من بيده ملكوت السموات] رأيته عند السيّد أحمد بالسيد آغا التستري في النّجف.

١٢ ــ (الفتوحات المنطقية): قال في [الذريعة ج١٦ ص١١٨] الفتوحات المنطقية في المنطق شرحاً ومتناً للشيخ فتح الله بن علوان الكعبي الدورقي المتوفى سنة ١١٣٠هـ فيه اربعون فتوحاً أوّله: (نحمدك يا من بيده ملكوت كُلّ شيء على ما هديتنا إلىٰ الصّراط المستقيم. . .) يوجد منه نسخة في (إلٰهيات: ٦١٨) غير مؤرّخة يرجع استنساخها الىٰ عصر المؤلّف. أقول أراد صاحب الذريعة بقوله في [الٰهيات: ٦١٨] أي في مكتبة كُليّة المعارف الاسلامية التابعة لجامعة طهران المعروفة لدينا بـ(دانشكده الهيات أي [كُليّة الإلٰهيات] ورقم ٦١٨ هو رقم الصفحة من كتاب [فهرست مخطوطات المكتبية المذكورة]، وقد جاء في تلك الصفحة ما تعريبه كما يلي: [الفتوحات المنطقية الفتحية] اربعون فتوحاً في علم المنطق أوّله:

(بسمله وبه ثقتي نحمدك يا من بيده ملكوت كُلّ شيءٍ علىٰ ما هديتنا إلىٰ الصّراط المستقيم. . . أمّا بعد فهذه فتوحات فتحيّة منطقيّة مِنِيّ للاخوان والأصحاب). وآخره: [والله الملهم للكليّات والجزئيات والله اعلم بالصواب]. واحتمله المفهرس من مخطوطات القرن العاشر لأنه لم يعثر على اسم المؤلّف في النسخة. ورأيت منه نسخةً بخطّ الشيّخ سلمان المحسني الفلاحي وكتبها سنة ١٣٠٠هـ.

١٣ ــ (نظام الأُصول في شرح نهج الوصول الىٰ علم الأُصول)، قال في [الذريعة ج٢٤ ص٩٣] ما يلي: المتن هو نهج المعارف للمحقّق الحِلّي كما ذكره الميرداماد، أو معارج الأُصول كما علىٰ المطبوع سنة ١٣١٠، والشرح هذا لفتح الله بن علوان الكعبي القباني الدورقي المتوفى سنة ١١٣٠، أوّله: [الحمد لله. . والصلاة والسّلام علىٰ أشرف العالمين. . .] رأيت نسخةً منه عليها (تملّك محمد ابن اسماعيل القبيسي الحجازي العاملي، ملكها في المشهد الغروي علىٰ مشرفة السلام سنة ١١٧٥هـ.

وفي الكواكب المنشرة) قال العلامة الطهراني: رأيت النصف الثاني من كتاب [تنقيح المقداد] من النكاح الىٰ آخره بخط الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي فرغ من استنساخه سنة ١٠٨٢هـ، في كتب الشيخ جواد البلاغي، اشتراه السيد محمدّ باقر اليزدي: انتهى. وللمترجم له شعر قليل نذكر شيئاً منه.

من شعره قصيدة في الغزل:

من لصب غلب الشوق اصطباره	فلذا باح وللحُب اماره
لعبت في عقله ايدي الهوى	فلعذر خلع اليوم عذاره
يا لقومي لأخيكم من رشاً	صاده فرداً فمن يطلب ثاره
حكمت في قلبه الحاظه	حُكم من ليس له طرّ الأمارة
لا تلوموني إذا مُتُّ به	فحياتي في هواه مستعارة
هو كالغصن إذ ما ماس لينا	وكبدر التم حسناً ونضاره

[1] علي باشا افراسياب الديري (حكم البصرة من ١٠١٢هـ الىٰ ١٠٥٧) ذكره في كتاب [تذكرة نصر آبادي] الفارسي فقال: متصفاً بالصفات الحميدة متحلياً بمكارم الأخلاق عارفاً باللغة العربية والتركية والفارسية، بصير في العرفان انه متتبعاً للأحاديث والروايات وأقوال الكبراء عارفاً بالسياسة وتدبير الشؤون العسكرية ومن خلص الشيعة نقل عن المرحوم خليل الذي كان من معاشريه برهة من الزمان، انه كان يقتدي بقاضي البصرة المنصوب من قبل سلطان الروم فيصلي خلفه بدون وضوء، ثم يعيد صلاته في مكان آخر على مذهب الامامية وكان ينظم الشعر ويتخلص بصبري في شعره الفارسي أقول وله بالعربية ايضاً شعر ذكره الشيخ عبد علي بن رحمة الحويزي في كتابه السيرة المرضية في شرح الفرضية (انتهى).

يا غزالاً إلا من ربي كاظمة ... كدّر الخاطر مذ ابدىٰ نفاره
كأن يأتي منك طيفٌ في الكرىٰ ... ولأمرٍ منع اليوم مزاره
ما علىٰ مثلك لو واصلنا ... فعسىٰ يُطفي من القلب شرارة
إنما شرط المحبين الوفا ... ووفاءٌ بسوى الوصل خساره
جُرت بالحكم علىٰ اسرىٰ الهوى ... حين ابديت من الطرف حواره
واجناني كل ارباب الهوى ... من يكن مالي من العشق شعاره
انا من كابد اغبار الهوى ... واحتسى حاليه حلوًا ومراره
يا مناخ الحي من كاظمة ... جادَكَ الله من الوبل غزاره
ورعىٰ فيك لييلات لنا ... حيث ما الشيخ تحاكىٰ وعراره
ورعىٰ مجلسنا في ظله ... وسقي منه الخزامى وبهاره
كلما قلتُ له من صفةٍ ... فهو معنىً حاول اللفظ اختصاره

ومنه في العذار:

ولقد اقول لمن يلوم بحبّه ... لمّا بدا منه العذار وَدارا
نبت العذار بنارِ صفحة خَدّهِ ... هذا الذي ترك العقول حيارى

ومنه مضمّناً في الشيب:

وقلتُ لليل شعري دم فإنّي ... رأيتُ الشيب ليس له قرارُ
فأنشد قائلاً بشجيّ لفظٍ ... كلام الليل يمحوهُ النّهارُ

ومنه في من أهدىله باقة بابونج :

لمّا بدا السّعد وَوَلّىٰ الجفا ... أهدىٰ لنا باقة بابونج
فريحة من ثغرهِ مُفتدٍ ... ولونه من لون صبٍ شجيّ
فعادلت نعمته عندنا ... ما وَهب الواهب للمُرتجي

وله ايضاً قصيدة يمدح بها السادة الموالي، أولاد جود الله[1].

سعدُ لي في حيكّم بعض الأرب ... قف حماك الله من سوء الأدب
واستمِع مِنّي وَخُذ لي مالكاً ... إنَّ ما في الصّدر تبديه الكتب
سَعدُ إنْ جزتَ على وادي الحمى ... حيثما القاطِن ممنوع الحجب
عُج إلىٰ بيتٍ رفع سَمكُه ... واسِعُ أرجاؤُه فيه الرغب
عصمة الخائف مألوف النّدىٰ ... منّية السّفر إذا اشتد السغب
ثم جُز تَلقَ بليقاً شامخاً ... خير موجودٍ من بنا العرب
سادة قد شرّفوا في العلم وال ... حلم والفضل جميعاً والحسب
ورثوا المجد فَتىً عن والدٍ ... عن ابيه ذا لعبد المطّلب
فاغضض الطّرف وَقف مبتدئاً ... ثُمّ بلّغهُم سلامي بأدب
وَقل القَنُّ المُعَنّى فيكم ... ذاقَ من بعدكم ما لا يحُب
سَعد تلقاهُم كما تهوىٰ عَلىٰ ... أنَّ فيهم سيّداً عالي الرُّتب
ذاكَ إدريسُ فصوب صوبه ... فعسىٰ تحظى بحُسن المنقلب
والثم الأرضَ وقبّل كفّه ... ثُمّ ناوِله كتابي عن كثب
إنَّ فيها يا بن من حاز العُلى ... وَحَوىٰ الفخر ونعم المكتسب
كان لي معكم أخاءُ ثابتٌ ... فَعَلامَ الهجرُ من غير سبب

(١) جود الله هو ابن السيد خلف بن السيد عبد المطلب الحويزي المشعشعي خاصم أخاه السيد عليخان الذي حكم الحويزة من سنة ١٠٦٠ فما بعد وقصد الحويزة ومعه جماعة الفضول لأخذها من أخيه وخرج اليهم السيد عليخان فوقعت بينهما معركة قتل فيها جود الله . وأولاده الممدوحون في قصيدة الشيخ الكعبي القباني هم السيد إدريس والمولىٰ محفوظ وأخوته المولى عبد الخالق والمولىٰ بدر والمولىٰ عبد المعين وله فيهم ايضاً أرجوزة أوّلها:

اتعذرين الصب أم لم تعذري ... فليس ما جئت به بمنكر

وله ايضاً قصيدة في رثائهم لأنهم قتلوا جميعاً في معركة سنة ١٠٩٠

أطلب القربَ وتولوني القَلا ... وعجيب لِمُحِبٍ لَم يُحَبْ
أن يكن ذنب ولا اعرفه ... فالكريم الأصل يعفو وَيهب
أو يكن من قيل قد استكثروا ... فيك ما يعطوه من نوع القُرب
ذاك لله وما من به ... إن كثيراً أو قليلاً يكتتب[1]

نقول تعليقاً على هذا الشعر:

اننا نشرناه لا لأنه شعر مقبول، ولا لاستحسان شيء منه. وانما للتدليل على ما كان عليه الشعر العربي في تلك العهود، ولنضع امام القارىء نماذج تكون مثالاً لمن يمكن ان يؤرخ للأدب وللشعر بخاصة.

وهذا عذرنا في نشره. ومن لا يرى هذا العذر مقبولاً فاننا لا نلومه ابداً.

الميرزا فضل علي المولوي المتخلص بصفا

ولد سنة ١٢٨٨ في تبريز وهو من اسرة عُرفت بالفضل والايمان. فأبوه الميرزا عبد الكريم المعروف بالملا باشي له كتاب: (مختصر العروض)، وكتاب (قواعد الفارسية) المطبوع في تبريز سنة ١٢٦٨. كما ان آله آثاراً اجتماعية في تبريز من بناء حسينية ومسجد وسبيل للماء. توفي سنة ١٢٩٤.

وجده الميرزا أبو القاسم الأيرواني درس في أصفهان وفي العراق، وأجازه السيد علي الطباطبائي صاحب الشرح الكبير. وكان الى ذلك طبيباً.

أما المترجم له فبعد أن درس المقدمات في تبريز هاجر إلى النجف الأشرف وكان لا يزال في التاسعة عشرة من عمره ودرس هناك على كبار العلماء علوم الفقه والأصول والكلام فضلاً عن الفلسفة والرياضيات.

وفي سنة ١٣٠٧ عاد إلى بلده تبريز فكان ملتقى العلماء والفضلاء.

له من المؤلفات: (شرح القصيدة العينية) للسيد الحميري، وكتاب (مصباح الهدى) و (رسالة في الاستصحاب)، وكتاب (النفج العنبري في أحوال السيد الحميري)، و (رسالة في أحكام الأراضي الخراجية)، و (الفوائد العلوية) في علم الصرف بالعربية والفارسية. و (حدائق العارفين) في عدة مجلدات طبع منها المجلد الأول سنة ١٣٢٤ في تبريز. كما أن له ديواناً شعرياً بالعربية والفارسية.

وعندما اقيم الحكم الدستوري المعروف بالمشروطة، في إيران سنة ١٣٢٤ انتخب ممثلاً عن العلماء في المجلس النيابي. وفي سنة ١٣٣٤ سافر إلى أوروبا للتداوي فزار بتروكراد واستكهلم، ولندن، وكتب في كتابه (رسالة الأسفار الى أوروبا) ضمنه فوائد أدبية وعلمية وتاريخية واشعاراً عربية وفارسية من نظمه.

توفي في برلين سنة ١٣٣٩ (١٩٢١م) ودفن في مقبرة المسلمين فيها.

الشيخ فضل الله بن صدر الدين محمد بن أبي القاسم التنكابني:

ولد حدود ١٢٥٠ وتوفى بعد ١٣٠٠.

ولد في تنكابن ونشأ برعاية ابيه العالم ثم دخل المدارس العلمية وتعلم العلوم العربية والمنطق والبلاغة وبعد ذلك ذهب إلى أصفهان وقرأ السطوح

(١) زاد المسافر والمقيم ص ٤٣٣.

ثم ذهب إلى العتبات المقدسة وأقام في النجف الأشرف مستفيداً من اعلامها ثم رجع إلى موطنه وقام بالتدريس، وبعد وفات أبيه انتقلت اليه الرياسة وقام مقام أبيه بالامامة والتدريس وقضاء حوائج الناس إلى أن توفي في تنكابن وقام مقامه ولده الشيخ جعفر المشايخي المتولد ١٢٩٨ والمتوفى ١٣٦٤[1].

الشيخ فضل الله الصادقي الآشتياني:

ولد في جمادى الأولى سنة ١٢٩٨هـ وتوفي في ربيع الأول سنة ١٣٨٢هـ.

قرأ المقدمات على جملة من فضلاء طهران وأخذ الفقه والأصول عن الميرزا محمد حسن الآشتياني وتخرج في الحكمة والفلسفة على الميرزا أبو الحسن جلوه المتوفى سنة ١٣١٤هـ والميرزا حسن الكرمانشاهي ثم انخرط مدة في سلك القضاء وعين في منصب مستشار الديوان الأعلى للدولة ولكنه لم يترك البحث والتدريس فكان من مدرسي الحكمة والفلسفة في مدرسة سبهسالار بطهران من مؤلفاته رسالة في باب حدوث العالم الجسماني وتحقيق رسالة حملية للآغا علي المدرس المطبوعة [2].

الشيخ فصيح الدين محمد بن الشيخ عبد الكريم البسطامي الدشت بياضي:

المتوفى سنة ٩٢٥هـ كما في كتاب (شاهد صادق).

كان من علماء الرياضيات والفلاسفة وحكماء عصره، أديب شاعر وهو والد الشيخ محمد كريم الذي كان قاضياً في مدينة دشت بياض الأتي ذكره، المترجم له مؤلفات منها: ديوان شعر وكتاب مطلع الأنوار فارسي في شرح (بيست باب اصطراب) للخواجة نصير الدين الطوسي الذي الفه فارسياً كأصله ومصدراً باسم علي شيرنوائي نظام الدين بن كنجينه بهادر الجغتائي الهروي من وزراء السلطان حسين بايقرا ملك هرات المتوفى سنة ٩٠٦هـ قائلاً (صاحب الرأي الثاقب سمي أسد الله الغالب المير علي شير أيد الله ظله على العباد بالنبي وآله الأمجاد..).

ترجم له شيخنا الأستاذ في احياء الداثر ص ١٨٠ معبراً عنه بالحكيم الرياضي وذكر ديوانه في الذريعة القسم الثالث من الجزء التاسع ص ٨٣٤ وج ١٣ ص ١٣١ وج ٢١ ص ١٥٢ وترجم له ايضاً صاحب فرهنكنامه هاى عربي به فارسي ص ٢٠٣[3].

الملا فضّة ابنة الشيخ أحمد البلاغي:

توفيت سنة ١٢٨٠.

عالمة فاضلة أديبة. قرأت على والدها القرآن وعلوم اللغة العربية. وعلى علماء اسرتها الفقه والأصول، وقد أجازوها.

تولت تدريس الأصول والفقه والحديث ويحضر دروسها بعض الطلاب. وقرأ عليها بعض العلماء كتاب (القوانين) باعتبارها مجازة من مصنفه.

ويقول السيد حسن الصدر في (التكملة): إنه أدركها وكانت فاضلة تكتب الكتب بالأجرة وتعيش هي وزوجها الشيخ حسن البلاغي من ذلك، وكانت تستخرج المسودات إلى البياض لشدة معرفتها وحسن سوادها إلخ.

ويوجد بخطها بعض الآثار منها: (كشف الغطاء) فرغت من كتابته يوم الجمعة ٣ ذي القعدة ١٢٤٩.

---

(١) الشيخ محمد السمامي.

(٢) الصالحي.

(٣) الصالحي.

الشيخ فيض الله البغدادي الحائري البرمكي المتخلص في شعره بالحاجبي:

هو من علماء القرن العاشر الهجري، شاعر أديب ولد في بغداد وأخذ العلوم الأولية فيها على علمائها الأعلام ثم نزح إلى كربلاء لإكمال دراسته فأخذ الفقه والأصول على أعلام الحائر الشريف ثم أولع بالعلوم العقلية وهاجر إلى كاشان والتحق بحوزة شمس الدين محمد الخفري ومنها توجه إلى شيراز وحضر على عبد الصمد الشيرازي مدة سنتين ثم استقر في تبريز والتف حوله طلاب العلوم الدينية وكان من كبار المدرسين في تبريز وله حوزة درس معموره في (المدرسة المظفرية) ثم أختاره الشاه طهماسب الصفوي (٩٣٠ ـ ٩٨٤هـ) لمنصب القاضي العسكري فكان حازماً حسن الإدارة قوي الايمان وله مؤلفات منها ديوان شعر وكان ينظم بالعربية والفارسية إشار إلى ديوانه شيخنا في الذريعة وله كتاب الصيدية يحتوي على مقدمة وثلاثة ابواب وخاتمة في بيان أنواع الصيد من الحيوانات وأداب الصيد وصدره باسم الشاه طهماسب الصفوي وله ترجمة مختصرة في «أحياء الداثر».

وترجم له مفصلاً سام ميرزا الصفوي في كتابه تحفة سامي ص ٤٩ ـ ٥٠ بما هو تعريبه (الأمير فيض الله الحاجبي أصله من دار السلام بغداد وهو من أسرة كريمة من أحفاد الأمراء وينتهي نسبه إلى البرامكة الأسرة المعروفة وأمراء العصر العباسي وكان في مقدمة فضلاء عصره نزح أولاً إلى العتبات المقدسة ثم هاجر إلى إيران وسكن كاشان وتتلمذ على مولانا شمس الدين محمد الخفري..) ثم أدرج قسماً من شعره[1].

أبو عبد الله القاسم بن الفضل بن أحمد بن أحمد بن محمود الثقفي الأصبهاني:

هكذا ذكره الذهبي في (سير اعلام النبلاء). ووصفه بالشيخ العالم المعاصر مُسند الوقت، رئيس أصفهان ومعتمدها. وقال أنه صاحب (الأربعين) و(الفوائد العشرة). وقال محقق الكتاب: أنها المعروفة بـ(الاجزاء الثقفيات) وتدعى ايضاً بـ(الفوائد العوالي).

ثم قال الذهبي:

ولد سنة سبع وتسعين وثلاث مئة. وأول سماعه في سنة ثلاث وأربع مئة، ورحّله أبوه في صباه إلى خراسان والعراق والحجاز، ولقي الكبار.

ثم عدّدَ من سمع منهم، وقال: وروى الكثير وتفرد في زمانه وكان صدراً معظماً. ثم عدّدَ من حدّث عنه، ثم قال:

قال السمعاني: كان ذا رأي وكفاية وشهامة، وكان اسند أهل عصره وأكثرهم ثروة ونعمة وبضاعة ونقداً. وكان منفقاً كثير الصدقة دائم الأحسان الى الطارئين والمقيمين والمحدثين، والى العلوية خصوصاً، كثير البذل لهم.

عزل في آخر عمره عن رئاسة البلاد وصودر، فوزن مئة ألف دينار حمر لم يبع لها مِلكاً ولا أظهر إنكساراً.

وكان من رجالِ الدنيا، عُمرٍ ورحلت اليه الطلبة من الأمصار، وكان صحيح السماع، غير انه كان يميل إلى التشيع على ما سمعتُ جماعة أهل أصفهان.

قال يحيى بن مندة: لم يحدث في وقت أبي عبد الله الرئيس أوثق منه في الحديث وأكثر سماعاً وأعلى إسناداً. كان فيما قيل يميل إلى الرفض، سمع (تاريخ يعقوب الفسوي) من ابن الفضل القطان، وسمع تاريخ يحيى بن معين من أبي عبد الرحمن السلمي.

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

قال السلفي: كان الرئيس الثقفي عظيماً، كبيراً في أعين الناس، على مجلسه هيبة ووقار، وكان له ثروة وأملاك كثيرة.

وقال السمعاني: كان محمود السيرة في ولايته مشفقاً على الرعية، سمعت أن السلطان ملكشاه أراد أن يأخذ من الرعية مالاً بأصبهان فقال الرئيس: أنا أعطي النصف، ويعطي الوزير ــ يعني نظام الملك ــ وأبو سعد المستوفي النصف. فما قام حتى وزن ما قال، فظني أن المال كان أكثر من مئة ألف دينار أحمر.

وكان يبر المحدثين بمال كثير، رحلوا اليه من الأقطار.

مات الرئيس في رجب سنة تسع وثمانيين وأربع مئة، وهو في عشر المئة (انتهى).

الشريف أبو محمد قريش بن السُبيع بن المهنا بن السبيع بن المهنا بن السبيع بن المهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ــ عليهم السلام ــ العلوي الحسيني المدني البغدادي.

ولد في مدينة رسول الله (ص) في الحجاز في شعبان سنة ٥٤١ وقيل ٥٣٩هـ وتوفي في الكاظمين (مشهد باب التبن) في ليلة ٢٥ من شهر ذي الحجة الحرام سنة ٦٢٠هـ ودفن بها.

من أكابر المحدثين وفحول فقهاء الشيعة عالم فاضل محقق مؤلف ذكره في أعيان الشيعة ج٨ ص٤٥٠ نقلاً عن رياض العلماء وأمل الأمل وورد خطأً في اسم أبيه فسمي سميع والصحيح ما اثبتناه ونزيد عما هناك ما يلي:

هاجر من مدينة جده رسول الله (ص) إلى بغداد صبياً واستوطنها وأخذ عن الشيخ أبو عبد الله جمال الدين الحسين بن هبة الله بن رطبة السوراوي ويروى عنه عن ابي علي الطوسي عن ابيه شيخ الطائفة الشيخ الطوسي وقرأ ايضا على الشيخ أبو طالب المبارك بن علي بن محمد خضير الصيرفي كتاب (فضل الكوفة) مع زوجته شرف النساء بنت أبي طالب بن المكرم العلوي الحسني وأولاده محمد وآمنة وفاطمة وكتب ذلك بخطه في آخر نسخة (فضل الكوفة) الموجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق وأخذ ايضا عن أبي بكر بن الطي وأبي زرعة طاهر المقدسي وأبي بكر عبد الله بن محمد بن أحمد في كتابه (الأمان من الأخطار) وفي (فلاح السائل) ويروي عنه أيضاً فخار بن معد الموسوي الحائري المتوفى سنة ٦٣٠هـ وكان المترجم له كثير المطالعة والتحقيق وينقل منتخباً إلى مجاميع وتصدر للتدريس في بغداد وتخرج عليه جماعة، كما ينقل عنه فحول علماء الشيعة في كتبهم وولي النظر لخزانة كتب التربة السلجوقية مدة وفي آخر عمره هاجر من بغداد إلى الكاظمين ثم انقطع هناك للعبادات حتى توفى بها ودفن عند مرقد الأمامين عليهم السلام.

أقوال العلماء فيه

ذكره الصفدي في «الواقي بالوفيات» قال (... من أهل مدينة النبي، قدم بغداد صبياً واستوطنها إلى ان توفى سنة ٦٢٠ صحب المحدثين وسمع كثيراً وكان يظهر التسنن وأنه على مذهب أصحاب الحديث وصار له اختصاص بالأكابر وولي النظر لخزانة كتب التربة السلجوقية مدة ثم انقطع آخر عمره بالمشهد بباب التبن إلى أن مات سمع أبا بكر بن البطي وأبا زرعة طاهر المقدسي وأبا بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النقول وغيرهم. وقرأ بنفسه كثيراً على جماعة من المتأدبين وكان يكثر مطالعة الكتب وينقل منها منتخباً إلى مجاميع. وكان قليل البضاعة في العلم والفهم...).

ذكره الدكتور مصطفى جواد في الجزء الثاني من موسوعة العتبات المقدسة قسم الكاظمين ص ٢٤٧ قال: بعدماسرد نسبه ذكره المنذري في وفيات سنة «٦٢٠»هـ في كتابه التكملة وقد ذكر اسمه ونسبه (وفي ليلة الخامس والعشرين من ذي الحجة توفي الشريف أبو محمد قريش... نزيل بغداد بها ودفن من الغد بمشهد باب التبن. ومولده بمدينة رسول الله (ص) في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة وقيل سنة أربعين وقيل سنة تسع وثلاثين وخمسمائة قدم بغداد في صباه وسكنها إلى حين وفاته وطلب الحديث وسمع الكثير وقرأ على الشيوخ وكتب بخطه وسمع من أبي الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد وأبي طالب المبارك بن علي بن خضير الصيرفي وأبي زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي وأبي الحسن علي بن أبي سعد الخباز وأبي بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النقور وأبي محمد عبد الله بن أحمد بن الخشاب وجماعة سواهم من المتأخرين وحدث ولنا منه إجازة كتب بها إلينا من بغداد سنة تسع عشرة وستمائة) وذكره ابن الدبيثي في تاريخه بدلالة وجوده في مختصر تاريخه قال الذهبي (قريش.. قدم بغداد وسكنها وسمع ابن البطي وأبي النقور وأبي محمد بن الخشاب والمبارك بن خضير. قرأت عليه أخبركم ابن البطي فذكر حديثاً ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة* بالمدينة وتوفي في ذي الحجة سنة عشرين وستمائة ببغداد) وترجم له جمال الدين محمد بن علي بن أبي الصابوني بعد ذكر اسمه ونسبه وجماعة من الشيوخ الذين روى عنهم: (روى عنهم أجاز لي غير مرة مولده في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة بمدينة الرسول (ص) وذكر الحافظ أبو عبد الله عبد الله محمد بن محمود ابن النجار ومن خطه نقلت أن مولده في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وتوفي ليلة الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة عشرين وستمائة ودفن بالمشهد).

وذكره الذهبي في تاريخه وقال فيما قال: (قدم بغداد وطلب وسمع الكثير وحصل وعني بالحديث.. روي عنه الدبيثي وابن النجار وأهل بغداد وغيرهم توفى في ذي الحجة وذكره ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة قال (وجاء في أخبار علي (ع) التي رواها أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائله وهو روايتي عن قريش بن السُبيع بن المهنا العلوي عن نقيب الطالبيين أبي عبد الله.. بن المعمر) وذكره الذهبي في وفيات سنة (٦٢٠) ولم يذكر فائدة جديدة لم يذكرها من قبله وقال الحر العاملي (.. عالم جليل يروي عنه السيد فخار بن معد).

ووصفه الميرزا عبد الله أفندي الأصفهاني في رياض العلماء قال: السيد السعيد الفقيه أبو محمد قريش.. العلوي الحسيني المدني فقيه فاضل عالم جليل محدث رضي الله عنه وقد يعبر عنه اختصاراً بقريش بن مهنا العلوي فيظن التغاير وبالجملة فله من المؤلفات.. ويروي هو عن حسين بن رطبة السوراوي عن أبي علي الطوسي عن والده الشيخ الطوسي... واعلم ان ابن طاوس قد نقل في الأقبال عن كتاب المرشد للصدوق وقد كان بخط الفقيه قريش بن السبيع هذا) وذكره شيخنا الأستاذ آغابزرك الطهراني في موسوعته الذريعة الى تصانيف الشيعة وطبقات اعلام الشيعة ومصفى المقال في مصنفي علم الرجال ص٣٦٩.

ترك المترجم له مؤلفات هامة نقل عنه جمع من أصحابنا الأمامية في مؤلفاتهم منهم السيد ابن طاوس في كتاب فلاح السائل والسيد حسين بن مساعد الحائري في كتابه تحفة الأبرار وغيرهم من مؤلفاته كتابه فضل العقيق والتختم به، كتاب المختار من الاستيعاب لابن عبد البر، كتاب المختار من الطبقات الكبرى لابن سعد[1].

قيس بن سعد بن عبادة:

مرت ترجمته في الصفحة ٤٥٢ من المجلد الثامن، ونزيد عليها هنا

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

هذه الدراسة مكتوبه بقلم الدكتور ابراهيم بيضون:

عرف القرن الهجري الأول، أكثر من رعيل من الجذريين الذين تغلّبت المباديء في نفوسهم على المصالح واندرجوا في الطريق الصعب، من غير فتور في العزيمة أو وهن في السير أو رضوخ لمتغيرات الزمن، لم يكن هؤلاء في السلطة معاً أو في المعارضة معاً، ولكن قضية أساسية هي الاسلام، جعلتهم معاً في نفس الجبهة، مجاهدين بالقرار أو بالسيف أو بالكلمة.. أو بالصمت، عندما تصبح المواجهة أكثر خطورة من المهادنة على وحدة المجتمع، التي تبقى في مستوى القضية، بل أكثر أهمية لدى هؤلاء الجذريين، فينكفئوا حينذاك الى الظلّ، في الوقت الذي يتقدم فيه الانتهازيون، وربما الأقل جذرية، الى مواقعهم الجديدة في اللحظة المناسبة. وإذا كان بعضهم قد أنصفه المجتمع والتاريخ، فحظي في المعارضة بما يفوق أي ثمن في الحكم، حيث يأتي في الطليعة الحسين بن علي (ع) في ثورته الرائدة على الظلم والأنحراف، فإن ثمة البعض الكثير، قد غيّبه النسيان وسقط من الذاكرة أو ابتعد عنها، حيث التاريخ يبهره أيضاً الضوء ويسترسل أحياناً في الأنصات للجلبة والضجيج ينبعثان من القصور ومواكب الأمراء والكبراء.

وفي مقدمة الرعيل الأول من الجذريين، يأتي عليّ بن أبي طالب (ع)، ومعه آخرون من الصحابة، ربما كان أكثرهم تمثيلاً لهذه الجذرية، أبو ذرّ الغفاري وعمّار بن ياسر. فقد جمع بين هؤلاء، على تفاوت ظروفهم واختلاف مواقعهم، الولاء النقي للعقيدة والاخلاص للمبدأ حتى الشهادة التي توجت جهادهم في سبيل المجتمع النموذج، الذي ارستْ دعائمه دولة النبي (ص) في المدينة.

هكذا سقط الامام علي الأكثر «شدة»[1] كما وصفه الخليفة السابق، دون أن تكون شخصيته مستهدفة في الاغتيال فحسب ولكن الدولة ــ النموذج كانت مستهدفة في الصميم حيث سقط في المسجد لما يمثله من رموز، هي نفسها رموز المجتمع الجديد، ومن قيمٍ دينية وسياسية واجتماعية، اغتيلت ايضاً في مسجد الكوفة.

وعلى هذا الطريق ايضاً، يسقط الغفاري، ولكن دون ثورته التي فجرّها في ضمير الأمة، عندما أطلق صرخته، وهي كل سلاحه، ضد الظلم والتخمة والتضليل، اطلقها على مسمع الخلافة «العاجزة» في المدينة، وفي وجه «شرطتها» القامعة في الشام، لينتهي «شهيداً» في المنفى الموحش، وفياً للمبدأ الذي تلقّاه صافياً من قبضة الرسول.. وهكذا ايضاً على ذات الطريق يسقط عمّار بن ياسر.، على يد «الفئة الباغية»، متخذاً وجهة سلفه الغفاري، الى حيث الحرية قنديل العابرين الى الفجر.. يسقط عمار مجاهداً من أجل المبدأ، عازفاً عن المنصب الى الشهادة، بكل ما يعنيه ذلك من وفاء ونقاء والتزام.

لم يكن هؤلاء الكبار من الرعيل الأول في الاسلام، سوى نماذج للجذرية التي انطوى عليها كثيرون من هذا الرعيل، ولكنهم كانوا في موقع القيادة أو الريادة، مما أكسب اسماءهم لمعاناً في التاريخ، لم تحظ به اسماء أخرىٰ قبعت في الظل أو في زوايا الصمت.

على أن الجذرية خفتت بعد سقوط العهد الراشدي، عندما حسمت «الحروب الأهلية» للمرة الأولى الوضع الشاذ أو غير المستقر، الذي ترافق مع الانتصار دون الهزيمة، حيث انتهت الحرب بانتصار تيّار وهزيمة آخر، مكرّساً ذلك سقوط نظام وقيام آخر، وبالتالي صعود «قيم» واندحار قيم سادت لحين قصير، تبدأ بالعدالة والمساواة والحرية، ولا تنتهي بالشوري التي كان سقوطها علنياً وفي وضح النهار. ولم يكن غريباً أن تعج الطرق بمواكب الزاحفين تباعاً الى مراكز النفوذ الجديدة، بعضهم يسبق بعض، ولكنهم في النهاية وصلوا جميعاً على تفاوت خلفياتهم، حيث السلطة كانت سبيلهم الى تحقيق الذات. والقلة فقط، لم تكن مأخوذة بالبريق يخطف الانظار، مؤثرة التصدي بالموقف والمقاومة بالكلمة، أو بالشهادة عندما يصبح للكلمة حدّ جارح كالسيف، أو يصبح السيف الحَدّ القاطع بين الأثنين.

.. هكذا يسقط من أجل المبدأ، دون ثمة مساومة أو مهادنة، كبار آخرون من الرعيل المخضرم أو الثاني، من أبرزهم حجر بن عدّي الكندي وسليمان بن صُرد الخزاعي ومالك بن الحارث النخعي (الأشتر)، فضلاً عن المطّرف بن المغيرة بن شعبة، بفرادته كثائر من داخل السلطة على السلطة، بعدما هاله اشتداد الطغيان واستفحال الظلم، وكذلك ابراهيم بن الأشتر، بوقفته الناصعة، رافضاً المسساومة على «الفرات وماسقى» مقابل التخلي عن موقفه.

ولن يفوتنا في هذا السياق، التوقف عند نموذج آخر من الرعيل الثالث الجذري، الذي كان أكثر تمثيلاً له الحارث بن سريح التيميمي[1]، متماهياً ربما بالمصادفة مع سلفه المطّرف، حين رفض المضي في مطاردة الثائرين على الحكم الأموي، بعد اكتشافه الظلم المحيق بهم، واقتناعه بعدالة مطلبهم في العيش بحرية وكرامة. فيرتد الحارث من قائد للدولة الأموية الى ثائر عليها، ويخوض حركة اتخذت فرادتها، بل ريادتها في ذلك الحين، عندما ضوت تحت رايتها من العرب والفرس والترك، تجمعهم العقيدة ويوحدّهم المبدأ وتشدهم قضية اساسية، هي الاسلام، الذي آمن به الحارث خارجاً من العصبيات القبلية والعنصرية والفئوية... ذلك الموروث التي تركه الحارث وأصحابه في الأرض، التي كانت حينذاك تضطرب بالثورة، واستلهمه من دون ريب دعاة الحركة العباسية الأوائل، واقتبسوا منه شعاراتهم المضيئة، قبل أن تحترق على أرض الواقع بعد إعلان الدولة الجديدة.

على أن الجذرية قد لا تذهب بأصحابها احياناً الى الثورة أو الشهادة، حيث تتلاشى الوسائل الى مثل ذلك، وإنما يكون الخروج الطوعي من الضوء، ما يماثلهما من الجذرية والنقاء والجرأة. ولعل النموذج الذي يستوقفنا في هذا السياق، هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الذي «صاحب» النبي في أول عهده بالمدينة، كما صاحب علياً (ع) في الدفاع المستميت عن الخلافة الراشدية، وكان آخر المقاومين لاسقاطها في عهد الحسن (ع) واقعاً عليه عبء هذا الموقف الصارم بعد ذلك، ومنزوياً في بيته بالمدينة يعاني القهر والحرمان و«شماتة» الأقربين[2]. الذين تداركوا الطريق الصعب في المراحل الأولى منه.

ينتمي قيس بن سعد الى الخزرج وهي إحدى قبيلتين الى جانب الأوس، تألف منهما الأنصار في المدينة (يثرب). وقد انتقلت اليه زعامة قومه في الاسلام، بعد وفاة ابيه سعد بن عبادة، بصورة غامضة في الشام (حوران)[3]، وان كانت تعتبر من محصّلات «السقيفة» التي اتخذ من بيعتها موقفاً رافضاً، حيث طرح نفسه، حينذاك مرشحاً غير اجماعي للأنصار، واضطر الى التخلي عن قراره، ولكن دون الرضوخ للنتائج التي انتهى اليها الأمر. بانتخاب أبي بكر أول خليفة للمسلمين.

(١) راجع القول المنسوب لعمر عندما سألوه أن يوّلي علياً: «يحملكم على طريقة هي الحق» الماوردي، الأحكام السلطانية ص١٣. المطبعة المحمودية ــ القاهرة (د. ت).

(١) ثار الحارث في خراسان وبلاد ما وراء النهر بين عامي ١١٦ ــ ١٢٨هـ.

(٢) حسان بن ثابت.

(٣) توفي سنة ست عشرة.

ولا شك أن الخزرج كان لهم دور كبير في التطورات الهامة التي تتوّجت بالهجرة الى يثرب، وبعد معاناة مرّ بها النبي (ص) وأصحابه في مكة، التي كان من العسير على أي موقع حضري في الحجاز ــ باستثناء يثرب ــ منافستها أو تحدّيها في أمر كذلك، حيث التكوين الاجتماعي التعددي ــ إذا جاز التعبير ــ جعلها عرضةً للصراعات المستمرة، سواء الصراع العربي ــ اليهودي، بعد تكتّل بني النضير وقريظة ضد العرب، أم العربي ــ العربي، الذي كان آخر وجوهه الدامية «يوم بعاث»، مؤدياً ذلك، سواء الضغط اليهودي على العرب، أم اقتتال هؤلاء فيما بينهم وعلى مرأى الحواضر والقبائل العربية الأخرى في الحجاز، لا سيما قريش التي اشترطت عليهم ــ أي الأوس والخزرج ــ «شروطاً لم يقنعوا بها»، الى اتخاذ القرار الكبير الذي أخرج القبيلتين من العزلة ورفع عنهم نير الاقتتال الداخلي، فضلاً عن كسر المعادلة الحجازية وانعكاس نتائجها السلبية السريعة على مكة.

هكذا إذن أتيح للأوس والخزرج ــ لا سيما القبيلة الأخيرة، التي كان لها حضورها الطاغي في بيعتي العقبة اللتين مهّدتا الى الهجرة ــ دخول التاريخ من أوسع أبوابه، حيث كانت لهم اليد الطولى في إرساء دعائم المجتمع الجديد وقيام الدولة الأولى في ظلّ الاسلام. وإذا كان المهاجرون الذين رافقوا النبي المرحلة المكية الصعبة، يمثلون الطليعة في نصرة الدعوة، فإن الأوس والخزرج الذين اكتسبوا بعد الهجرة اسم الأنصار، تعبيراً عن موقفهم التاريخي في تأييد الدعوة واحتضانها، كانوا يمثلون هذه الطليعة النقية ايضاً، حيث يتجلى ذلك في العديد من المواقف، بدءاً بالمؤاخاة المخلصة مع المهاجرين، والانصهار في المجتمع والدفاع عن الدولة، الى آخر المواقف التي تجلى فيها نكران الذات، والولاء المطلق لهذا المجتمع.

وكان من الطبيعي ان تشهد الدولة الجديدة، صراعات سياسية، تتسع دائرتها أو تضيق، بين الأنصار وبعض المهاجرين الذين استمدوا قوتهم من الأنتماء لقريش، بما في ذلك من قوة معنوية، مرتبطة بالنبي (ص) «القرشي»، أو ما يمكن أن يحدثه ذلك من تعزيز للزعامة القرشية في الحجاز من منظور قبلي أو قريب منه، فضلاً عن اسبقية هؤلاء في الاسلام، والموقع الذي كان لبعضهم قبله، مما جعل الكثيرين منهم غير قادرين على التخلص من نزعة «التفوق» على الأنصار التي كان مقدراً لها أن تثير صراعات أكثر خطورة، لولا تدارك النبي (ص) لها، في احتضانه للأنصار وكبح المهاجرين، مكرساً في عبارته الشهيرة «لو سلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم». ولكن النبي (ص) برغم التوازن الذي حرص على استمراره بين جناحي الدولة الأساسيين، فإنه لا يتردد في مواجهة الموقف الأنصاري الجامح أحياناً ضد المهاجرين أو ضد قريش بشكل عام، كما حدث إبان الدخول الى مكة، وانتشاء سعد بن عبادة ــ وقد كان يحمل راية النبي (ص) بالفتح، الى حدّ القول: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً، مما دفع النبي (ص) الى أخذ الراية من سعد واعطائها الى أحد المهاجرين، وذلك للحؤول دون استثارة المشاعر المضادة لدى أهل مكة، في مرحلة كانت أول ما تقتضيه، إرساء التعايش بين المسلمين وإخماد النزعات العصبية، سواء كانت قبلية أم اقليمية.

وتراجع سعد في مكة متخلياً عن الراية وفي نفسه شيء من المرارة، ولكنه لم يتخل عن انضباطه والتزامه بأوامر النبي (ص)، كما تراجع ومعه الأنصار في المدينة، بعد مواجهة التكتل «القرشي» في السقيفة، من غير أن تخونه المسؤولية ايضاً، وإن كان قد آثر الخروج من الحياة السياسية تاركاً لابنه قيس تلك الانضباطية الشديدة في الموقف، فضلاً عن صفات، ربما لم يكن ما يماثلها لدى الأب، في الجرأة والشجاعة والتصلب في الموقف والمسؤولية الواعية. ولعل هذه السمة تكاد تنسحب على الأنصار عامة، الذين كانوا بمعنى ما، أول المعارضة في الاسلام، إذا ما أخذنا في الاعتبار هزيمتهم السياسية في السقيفة وما أورثته لدى قريش نحوهم من حذر، تفاوت بين احتواء في العهد الراشدي، باستثناء خلافة عثمان، وبين المعاداة الصريحة في العهد الأموي لا سيما السفياني منه، حيث العصبية كانت محور سياسات هذا العهد.

ومن هذا المنظور، يجد الأنصار أنفسهم متحالفين مع عليّ (ع)، ربما يتعدى الحرمان المشترك، الى محاولة التعويض عن هزيمتهم في السقيفة.. وعلى الرغم من احتجاجهم على خروج عليّ (ع) من المدينة عشية موقعة الجمل، ذلك الخروج الذي بدا حتمياً بعد اغتيال الخليفة الثالث، وما أدى اليه من اختلال في المركزية السياسية للحجاز واستتباع اقتصادي للأمصار، فإن الأنصار قد حددّوا موقفهم من السلطة منذ عهد عثمان، حيث كانوا على الهامش منها، وشاركوا بصورة جزئية مع عليّ (ع) في البصرة، وبصورة شبة كلية معه في صفين، كما عرفت ادارة علي (ع) لأول مرة في الدولة، ذلك الحضور الأنصاري البارز، بعد تعيين عدد منهم في مراكز أساسية، مثل أبي قتادة الأنصاري في مكة وسهل بن حنيف وأبي أيوب الأنصاري في المدينة وعثمان بن حنيف الأنصاري في البصرة. ومن البديهي أن يكون انكفاء علي (ع)، انكفاءً للوضع الأنصاري في الدولة الاسلامية حين نزلوا بثقلهم في صفين، وكان أربعة منهم في مقدمة الصفوف وهم: قيس بن سعد وأبو أيوب الأنصاري وخزيمة بن ثابت وسهل بن حنيف. ولم يكن ما يثير الدهشة، أن يكون قيس، الذي تكرّس زعيماً للأنصار في عهد عليّ (ع) أبرز القادة وأكثرهم إخلاصاً للحسن (ع) وحماسة لاستمرار الحرب ضد معاوية، حيث كان ذلك الخيار الوحيد الذي لم يشأ التخلي عنه، حتى بعد قرار الحسن (ع) بالتنازل عن الخلافة. وقد جر عليه ذلك الموقف اسوأ النتائج في العهد الأموي، سواءً عليه شخصياً بعد انتهائه الى الانزواء بقية حياته في المدينة، أو على جماعته الذين دفعوا الثمن الباهظ حرماناً واضطهاداً في عهد معاوية، وقتلاً واستباحةً لمدينتهم في عهد خليفته (موقعة الحرة).

وهكذا فإن علاقة الأنصار بالسلطة، قد اضطربت نسبياً بعد وفاة النبي (ص)، واختلت تماماً بعد سقوط الدولة الراشديه وقيام دولة الأمويين التي كانت سياستها مناوئة لهم في عهد الأول، منطلقة من أحقاد قديمة، جعلت الخليفة (يزيد) متشفياً بنكبتهم في اعقاب الحرّة، إذا ما توقفنا عند بيت الشعر المنسوب له في هذا المجال:

ليت اشياخي ببدرٍ شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل[٣]

إنهم الخزرج ــ جماعة قيس ــ دائماً في الواجهة، يقودون الموقف الأنصاري.. من المبادرة الى دعوة الرسول[٤]، الى المبادرة في طرح مسألة الخلافة، الى المبادرة في المعارضة المسؤولة، إلى المبادرة في الدفاع المستميت عن خلافة علي وأبنائه (ع).. وأخيراً الى المبادرة في حركة لها مضمونها الاجتماعي ــ الأقتصادي، فضلاً عن المضمون السياسي.. كان الأنصار مبادرين دائماً في خطّهم الجذري في الاسلام، ذلك الخط الذي التزم به قيس وعبر عنه بصورة صادقة.

أطلّ قيس على الاسلام إذن من الباب الكبير، واكتسب «صحبة»

(٣) البلاذري، انساب مخطوطة ٣٣٣. ينسب هذا البيت ايضاً لعبد الله الزبعرى احد شعراء يزيد. الدينوري، الأخبار الطوال ص ٢٧١. الامامة والسياسة ج٢ ص٦.

(٤) كان عدد الخزرج طاغياً على الأوس في بيعتي العقبة وفي مجلس النقباء.

النبي (ص)، انطلاقاً مما كان للبيت الذي عاش فيه من دور في نشوء الدولة الاسلامية الأولى، وكان لديه من الصفات الشخصية والاجتماعية المميزة، سواء تمثّلت بقامته الطويلة أو بجوده المفرط أو بشجاعته اللافتة أو بحزمه الموصوف، أو برأية النافذ، ما كان يؤهله لموقع قيادي، سرعان ما تبوأه عن جدارة في أيام النبي (ص) وفي عهدي الإمامين عليّ (ع) والحسن (ع). على أن قيساً برغم وصف الروايات التاريخية له، بأنه «صاحب راية الأنصار مع رسول الله (ص)»، لم يكن في الصفوف الأولى من قيادات المدينة في ذلك الحين، ربما لأن الدور الأساسي في بيته وفي قومه كان معقوداً لوالده، الذي عُهدت اليه مهمات كبيرة، عسكرية أو ادارية. ولكن اسمه أخذ في البروز منذ السنة الثامنة للهجرة، وفي وقت تجاوزت فيه المدينة مرحلة السرايا الى الغزوات، حيث شارك في غزوة الخبط التي قادها أبو عبيدة بن الجراح ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار كما تردد اسمه في السنة نفسها، عندما بعثه الرسول بعد منصرفه من الجعرانة «الى ناحية اليمن وأمره أن يطأ صداء». وقد كان لهذه المهمة نتائج باهرة على صعيد انتشار الاسلام في هذه المنطقة، حيث سارع أهل صُداء الى إيفاد رجل منهم على الرسول (ص) بعد إنجاز قيس معسكره في اربعمائة من المسلمين بناحية قناة، قائلاً له فيما يرويه ابن سعد: «جئتك وافداً من ورائي فاردد الجيش وأنا لك بقومي، فردهم رسول الله (ص)، فقدم منهم على رسول الله (ص) على من وراءهم من قومهم ورجعوا الى بلادهم، ففشا فيهم الاسلام، فوافى النبي (ص) مائة رجل منهم في حجة الوداع».

ويتابع قيس دوره لصيقاً بالنبي (ص) في تلك السنة ـــ المنعطف من تاريخ الاسلام التي شهدت لأول مرة خروج الدولة من دائرتها الحجازية، والاتصال بالقبائل العربية في الشام (حملة مؤتة)، وما شكّله ذلك من إرهاص لإعادة النظر في التوازن السياسي الولي في المنطقة الشامية. وتتوّجت هذه السنة (الثامنة) بأول الفتوح في الاسلام، وهو فتح مكة، ومعه القضاء على رموز المجتمع الوثني و«قيمه»، حيث تردّد اسم قيس في إحدى الروايات، بأن النبي (ص) دفع إليه الراية التي كان يحملها والده، بعدما بلغه عن الأخير من «كلام في قريش وتوعدّ لهم»، خلافاً للسائد عن هذه الحادثة في معظم الروايات كما سبقت الإشارة.

موقفه من السقيفة

ولم تشر الروايات الى دور قيس في السقيفة، باستثناء ما ورد في «الإمامة والسياسة» من خلط بين اسمي قيس بن سعد وبشر بن سعد الذي كان من سادات الخزرج ايضاً وأول من بايع الخليفة الأول من الأنصار. وقد تفاوتت حينذاك المواقف لدى هؤلاء، ما بين مؤيد أو متلكيء أو مثّبط، حيث يفترض اندراج قيس في الفئة الأولى، ولكنه على الأرجح لم يجار اباه في الحماسة المشروعه، مدركاً بثاقب نظره ما يحيط به من صعوبة وما يثيره من معارضة لدى المهاجرين، الذين تعزّز حضورهم في الدولة، بعد فتح مكة، وما أدى اليه ذلك من توحيد للجبهة القرشية بجناحيها المهاجر وغير المهاجر حول قضية السلطة. وقد يؤيد هذا الرأي وجود قيس خلافاً لوالده ـــ في معترك الأحداث التي شهدها العهد الراشدي الأول، لا سيما المشاركة الفاعلة في معركة اليرموك، حيث ورد اسمه مفاوضاً عرب الشام وقائدهم آخر «ملوك» الغساسنة، جبلة بن الأبهم، واضعاً الأخير بين خيار الاسلام ومراعاة «صلة الرحم»، وبين خيار الحرب التي أصرّ عليها جبلة، مما دفع خالد بن الوليد الى قتالهم، و«انتخاب ستين رجلاً من أصحاب رسول الله (ص) معظمهم من الأنصار. وكان فيهم قيس بن سعد»، حسب الرواية التاريخية.

ـــ الدور الريادي في عهد أمير المؤمنين (ع) ـــ

ولا يلبث قيس وقومه أن يتراجعوا الى الظلّ في عهد الخليفة عثمان، الذي لم يتسع المجال فيه لغير الأقرباء والمقربين، باستثناء قلة قليلة من الأنصار تعاطفت مع الخليفة واندرجت في «حزبه» بعد مقتله، كان يمثّلها خاصة حسان بن ثابت والنعمان بن بشير. وكان من نتائج تلك السياسة التي انعكست سلبياتها بصورة خاصة على الأنصار في معقل دارهم بالمدينة، انهم لم يبالوا بالأحداث التي شاهدتها الأخيرة. ولم يسوغوا لأنفسهم التدخل في مسار التطورات التي بدت لهم غير مجهولة. ولكن الأنصار لم يستمروا طويلاً خارج الدور الذي سرعان ما انخرطوا فيه، مع مجيء خليفة (علّي) يتعاطفون معه في الكثير من الأمور، فإذا بهم أركان العهد الجديد، وزعيمهم قيس بن سعد، موضع ثقة الخليفة. يعهد اليه بالمهمات الصعبة والدقيقة. فقد كان أحد الذين تولوا المفاوضة مع قبائل الكوفة، بغية «استنفارها» للقتال ضد حركة البصرة. ولكن الروايات لا تخلو من التباس، يتعلق بأسماء المفاوضين الذين ربما ترددوا أكثر من مرة على الكوفة في هذا السبيل. ولعل قيساً لم يكن مشاركاً في الوفد الأول الذي ضم ـــ حسب معظم الروايات ـــ كلاًّ من الحسن (ع) وعمّار بن ياسر، بينما تفردت إحدى الروايات بإيراد اسمه في وفد يرجّح أنه الثاني، ضمه وعبد الله بن عباس، الى جانب الأثنين السابقين. وقد أدت هذه المهمة الى حسم الموقف الكوفي، الذي شابه شيء من الارتياب، نتيجة للدور الغامض الذي قام به آخر ولاة المدينة في العهد السابق[٥].

وهكذا برز قيس بين قادة عليّ (ع) الرئيسيين، حيث المهمة الأولى التي تولاها، لم تكن أمراً بسيطاً في ذلك الحين، وإنما كان لها تأثير كبير في تطورات المرحلة المعقدة، حيث التأييد الكوفي للعهد الجديد، اسفر عنه خروج الخلافة من الحجاز، فضلاً عن تعديل الموازين العسكرية في البصرة التي لم تكن في البداية لمصلحة علّي (ع)، كما أدىّ الى تفوق جبهته في صفين حتى إعلان التحكيم وبداية التراجعات التي أورثتها هذه المسألة. ذلك ان الكوفة ارتبطت مصيرياً بالاتجاه الذي مثله عليّ وأبناؤه (ع) من بعده، واصبحت قاعدة التشيع السياسي الذي اصطبغ أو كاد بالصبغة اليمنية. حيث الغالبية الساحقة من قبائلها تحدرت من أصل يمني، مثل همدان وكندة وخزاعة والأزد ومذحج وفرعها نخع وبجيلة، وغيرها من القبائل التي خاضت صراعاً عنيفاً تحت هذه الراية ضد السلطة الأموية.

ولعل ما يمكن استنتاجه من هذا البروز المبكر لقيس في هذا العهد، ان العلاقة مع خليفته كانت على ما يبدو قديمة، على نحو بدا في عليّ (ع)، عارفاً صاحبه عن كثب ومكتشفاً كفاءته واخلاصه بعيداً عن السلطة. وقد جعله ذلك موضع ثقة الخليفة الذي اختار مساعديه وفقاً لهذا النموذج، في دولة اهتزت مصداقيتها في ظل النموذج الآخر.

ومن هذا المنظور، كان يتمّ اختيار الرجل المناسب في منأى عن الاعتبار الاجتماعي، على أن يحوز الشروط المطلوبة التي يأتي في صدارتها، الولاء النقي والتجرّد الشديد والالتزام الصارم، فضلاً عن تطويق الخليفة له بالوصية ـــ العهد، عشية خروجه الى مهمته. وكان ذلك مما اشتهر به علي (ع)، حيث كانت عهوده الى اصحابه ـــ لا سيما عهد الأشتر المعروف، بعد تعيينه والياً على مصر ـــ تمثل مدرسةً في الفكر السياسي، كان الخليفة الراشدي الرابع من مؤسسيها وروّادها الكبار في الاسلام.

قيس بن سعد
والياً على مصر

وهكذا يتخذ قيس بن سعد طريقة الى مصر، ومعه عهد الخليفة: «سر الى مصر فقد وليتكها وأخرج الى رحلك واجمع اليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند، فإن ذلك أرعب لعدوك وأعزّ لوليك،

(٥) أبو موسى الأشعري.

وأحسن الى المحسن واشتد على المريب، وارفق بالعامة والخاصة . .» وبذلك يكون قيس أسبق أصحاب عليّ (ع) الى القيام بدور كبير في الدولة، في وقت انصبّ الجهود على استعادة خطّها الجذري السابق، حيث كان لمصر موقع خطير في الصراع المرتقب، سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية ومن هذا المنظور، فإن انظار معاوية لم تغب عن هذه الولاية الهامة، برغم اشتداد وطيس الحرب في صفين، فكان من هواجسه تفادي محاصرة الخليفة للشام والأطباق عليه من العراق ومصر في نفس الوقت، مما جعله يركز على الأخيرة للحؤول دون وحدة الولايتين، تلك المحاولة التي كلفت عليّاً اثنين من كبار أعوانه (الأشتر ومحمد بن أبي بكر)، تآمر عليهما معاوية بالقتل، كما تآمر على سلفهما (قيس بن سعد) بالعزل، مؤدياً ذلك الى إرباك الجبهة العراقية التي تلقت ضربة قاسية بخروج مصر من يدها وسيطرة معاوية عليها. ولعل أهميتها من هذا المنطلق تبرز مرة أخرى إبّان الصراع على السلطة بين المروانيين والزبيريين الذين شكلّ افتقادهم لمصر ضربةً مماثلة، بعد أن اعطاها مروان بن الحكم الأولوية التي اعطاها لها معاوية قبل ذلك، حاسماً الموقف الى حدّ كبير لمصلحة الدولة الأموية «الجديدة».

توجه قيس «في سبعة نفر من اصحابه» الى مهمته الصعبة التي استهلها بتلاوة كتاب تعيينه ودعوة المصريين الى البيعة، معقباً على ذلك بخطبة تظهر حزمه وحكمته في آن، فضلاً عن المرونة التي تجلت في رحابة موقفه وترك حيِّز كبير للحوار، من غير أن يكون هذا الطرح مألوفاً في مثل تلك الظروف، حيث خاطب المصريين، فيما يرويه أبو مخنف، بقوله: «إنا قد بايعنا خير من نعلم. . فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عزّ وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن نحن لم نعمل بذلك فلا بيعة لنا عليكم». وقد وقعت هذا الكلمات موقع الرضا في ولاية ما تزال تعجّ بأنصار الخليفة السابق وقياداته من أمثال عبد الله بن سعد بن أبي سرح، واليه المقرب، ومسلمة بن مخلد الأنصاري الذي حاول القيام بحركة مناوئة لقيس، تحت شعار الطلب بدم عثمان. . ولكن قيساً لم يعبأ بهذه الحركة، لا سيما وأن مسلمة الأنصاري تهيب المضي في تصديه لوالٍ قوي، يجيد صنعة القتال، بمثل ما يحسن صياغة الموقف السياسي، مما سهل عليه، احتواء هذه الحركة، استناداً الى رواية ابن الكلبي. وقد اشارت الرواية نفسها الى أن مصر استجابت بكاملها لقيس ما عدا قرية واحدة، وردت «خربتا» عند الطبري و«خرنبا» عند ابن الأثير. ولعل موقف القرية التي وصف أهلها بأنهم «قد عظموا قتل عثمان. وقادهم رجل من كنانة، يحمل أكثر من مؤشر في سياق الصراع على السلطة الذي كان لا يزال محصوراً بحدود ما في إطاره السياسي فثمة ما يستوقفنا هنا، هو تلك الحوارية اللافتة التي تمتع بها قيس وذلك الخطاب الهادىء الذي توجه به إلى «المتمردين»، وهو من موقع القوة، بعد «استقامة» أمور الولاية قائلا لهم: «إني لا أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم» .

فشل محاولة احتوائه

بيد أن هذه الحوارية التي كان لها تأثيراً كبير في السيطرة على مصر، اتخذت سبيلاً لمحاربته من جانب معاوية وشنّ حملة ذكية عليه، بعد أن فشل في احتوائه واستدراجه الى صفوفه، حيث نجح في إثارة الشكوك لدى عليّ (ع) حول سياسة واليه على مصر واتخاذ قرار بعزله، بعد شهور قليلة من تعيينه. ذلك أن معاوية، توجساً من خطر قيس «وثقله»، حسب الرواية التاريخية، بادر الى التفاوض معه ومحاولة ضمه الى صفوفه، بما يترتب على موازين الصراع العسكري الذي لم يكن حينذاك لمصلحة معاوية. فكتب اليه، حسب رواية ابن الكلبي، منطلقاً من الشعار الذي خاض به معركته في الشام، ومن التمسك بشرعية العهد السابق: «فإنكم كنتم نقمتم على عثمان بن عفان رضي الله عنه في أثرةٍ رأيتموها أو ضربة سوط ضربها أو شتيمة رجل أو في تسييره آخر أو في استعماله الفيء، فإنكم قد علمتم إن كنتم تعلمون أن دمه لم يحل لكم. فقد ركبتم عظيماً من الأمر وجئتم شيئاً إدّاً، فتب الى الله عزّ وجلّ يا قيس؛ فإنك كنت في المجلبين على عثمان بن عفان رضي الله عنه، إن كانت التوبة تعني شيئاً. ولعل أبرز ما ينطوي عليه هذا النص، هو مقايضة معاوية لقيس بدم عثمان من موقع التهمة التي وصف الأخير فيها، بأنه أكثر من ضالع في قتل الخليفة السابق، الذي لم يسلم منه أحد حسب تعبيره، بمن في ذلك الخليفة السابق الذي زعم معاوية أنه «أغرى به الناس وحملهم على قتله حتى قتلوه»، منتهياً به ــ أي قيس ــ الى الوعد بأن يكون له «سلطان العراقين» إذا ما تحول الى ركب المطالبين بدم عثمان. كما ينطوي هذا النص على أهمية الجانب الاعلامي في المعركة، وما يمكن ان تخضع له القيم والشعارات من تدجين وتوظيف لها في خدمة المآرب الخاصة كما يحدث عادة في الحروب الأهلية التي تنقلب فيها المقاييس وتتبدل الاعتبارات، من غير أن يتورع أي طرف من طرح نفسه ممثلاً للشرعية معبراً عن مضمونها، مهما ابتعدت مواقعه عنها. ولعل ذلك من أخطر ما تواجه الأمة، وهو رفع شعارات الحق على سدة الباطل، حيث كان معاوية رائداً في هذا المجال، عندما جوز لنفسه محاسبة قيس و«حكومته» من موقع اسلامي، في وقت كان يعلن العصيان على الاسلام، الذي تمثله الخلافة الشرعية.

كانت هذه المداهمة، مما برع به معاوية في أساليبه لاستدراج الخصوم، حيث استخدم ذلك بعد نحو ربع قرن مع ابناء الصحابة في الحجاز، الرافضين بيعة ابنه (يزيد) ولياً للعهد. ولكن ذلك لم يلق اذناً صاغية لدى قيس الذي أثبت أنه لم يكن فقط جذرياً في المبدأ وصلباً في الموقف، وإنما أثبت أيضاً قدرته في المفاوضة ومجاراته معاوية في اكتساب الوقت: «فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان رضى الله عنه؛ وذلك أمر لم أقارفه ولم أطعن به، وذكرت أن صاحبي هو أغرى الناس بعثمان ودسهم اليه حتى قتلوه، وهذا لم اطلع عليه، وذكرت ان عظم عشيرتي لم تسلم من دم عثمان فأول الناس كان فيه قياماً عشيرتي، وأما ما سألتني من متابعتك وعرضت عليّ من الجزاء فقد فهمته وهذا لي فيه نظر وفكرة وليس هذا ما يسرع اليه، وأنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلي شيء حتى ترى ونرى إن شاء الله والمستجار الله عزّ وجل».

والواقع أن قيساً، كما تبدّى لنا من النص، لم يسارع الى فتح المعركة مع معاوية في أول الطريق، مستفيداً ما أمكن من الوقت، لتثبيت أوضاعه في مصر، من غير السكوت على ما أورده من تهمة له ولصاحبه ولعشيرته. ولكن هذا الموقف الذي لم يره معاوية «الا مقارباً مباعداً»، كان غير مقبول لديه، وسرعان ما لجأ الى محاولة ثانية أكدت له عقم الحوار مع قيس الذي تصدى مرة أخرى بجذريته القاطعة للمساومة وما كانت تنبطه من تهديد: «فإن العجب من اغترارك بي وطمعك في واستسقاطك رأيي، اتسومني الخروج من طاعة أولى الناس بالامرة وأقولهم للحق واهداهم سبيلاً وأقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك، طاعة ابعد الناس عن هذا الأمر وأقولهم للزور وأبعدهم من الله عزّ وجلّ ورسوله صلى الله عليه وسلم وسيلة. . وأما قولك إني مالىءٌ عليك مصر خيلاً ورجلاً، فوالله إن لم اشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم اليك إنك لذو جدّ.

ولعل ما سبق من النصوص، يزيد مساحة الضوء على شخصية قيس التي استحقت ما وصفت به، من أنه صاحب حزم ورأي، وكان ذلك قد أدرك معاوية، حين قرر التخلص من خصمه القوي بأية وسيلة. فلجأ أولاً ومعه

عمرو بن العاص ــ حسب رواية الزهري ــ الى محاولة إخراجه من مصر بالقوة، قيل أن يلجأ الى الايقاع به، وإفساد ماله من ثقة لدى الخليفة، متوجهاً الى «أهل الشام» ــ حسب الرواية السابقة ــ بقوله: لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا الى غزوه، فإنه لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سراً. ألا ترون ما يفعل باخوانكم الذين عنده من أهل خربتا، يجري عليهم اعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن الى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه في شيء». ولم تلبث هذه الأخبار أن تسربت الى «أهل العراق»، واستوقفت علياً (ع) وأركانه مسألة خربتا وما أثارت من الشك لديهم، لا سيما بعد رفض قيس محاربة أهلها، الذي وصفهم باسود العرب. ولا ينفك مؤثراً على السلام، برغم اصرار الخليفة في المقابل على موقفه، تاركاً له حسن الأمر بالعزل إذا كان لديه ما يريبه في هذه المسألة.

عزله

وقد عزله الخليفة بالفعل، ولكن دون أن يتخلى عن ثقته به أو يخامره الشك بولائه المخلص؛ حيث عبّر عن ذلك لمقربين منه: «إنّي والله ما أصدق بهذا على قيس، حسب رواية أبي مخنف الذي يرتاب في موقف عبد الله بن جعفر مستشار عليّ (ع) في هذه المسألة، حيث كان في نفسه على ما يبدو شيء ما على قيس، مشجعاً الخليفة على عزله وتعيين أخيه لأمه محمد بن أبي بكر مكانه. ولا تنفي إحدى الروايات ما كان محبوكاً لدى بعض خواص الخليفة لإبعاد قيس عن منصبه الهام، في وقت كانت القلوب مشحونة والنفوس متربصة، مع اقتراب ساعات الحرب التي اندلعت بعيد ذلك.

ولم يكن اولئك الذين عاشوا مع الخليفة لحضات المعركة أو في ساحتها القريبة، يرون ما يراه قيس في ولايته التي انطوت على موقف متأرجح في الصراع بين الشام والعراق، دون أن يكون لعصبيتها اسهام بارز في الفرز القبلي الذي حدّد مواقع الأطراف في ذلك الحين. فقد كان لتكوينها الجغرافي الذي انعكس على الوضع السكاني فيها، تأثير في ضعف التماسك بين قبائلها التي لم تشكل وحدات كبيرة شأن الشام والعراق، وإنما كانت في الغالب امتداداً للتشكيلات القبلية الشامية، مما سهّل السيطرة الأموية عليها في وقت لأحق. ولعل هذه المسألة كانت ببال قيس بن سعد الذي استمد قوته من الشرعية الجديدة وبعد نظره في السياسة، وليس من العصبيات التي كانت ضعيفة وغير قادرة على تكتيل نفسها في هذا الأتجاه أو ذاك. ومن هذا المنظور، نزع قيس الى السلم أكثر من الحرب، بغية الدخول الى قلوب الناس وعقولهم، في ولاية ما زالت تعيش على هامش الصراع السياسي، مسوّغاً ذلك في رسالة الى الخليفة: «فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله إن قبلي رجالاً معتزلين قد سألوني أن أكفّ عنهم وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويروا رأيهم. فقد رأيت أن أكفّ عنهم وألا اتعجل حربهم وأن أتألفهم فيما بين ذلك. لعل الله عز وجل أن يقبل قلوبهم ويفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله».

والواقع أن الخليفة لم يكن متسرعاً في عزل واليه المقرّب، برغم الحاح مستشاريه على ذلك، وإنما كان على ما يبدو غير موافق على نظرية صاحبه بالكف عن تلك البؤرة التي يتجمع فيها أنصار «الحزب» الأموي المناوىء لعهده. ولكن قيساً تشبث بموقفه، مدافعاً عن وجهة نظره في آخر رسالة قبل عزله الى الخليفة: «فقد عجبت لأمرك! أتأمر بقتال قوم كافّين عنك مفرغيك لقتال عدوك!! وإنك متى حاربتهم ساعدوا عليك عدوك، فأطعني يا أمير المؤمنين، وأكفف عنهم، فإن الرأي تركهم والسلام». بيد أنه ــ أي قيس ــ يواجه مرة أخرى حملة في صفوفه، شبيهة بتلك التي حبكتها أجهزة معاوية، مشككةً بولائه لعليّ (ع)، حيث كان عبد الله بن جعفر ــ استناداً الى رواية الزهري ــ لا ينفك محرضاً على عزله، ناسباً اليه كلاماً جاء فيه: «إن سلطاناً لا يتم الا بقتل مسلمة بن مخلّد، لسلطان سوء». وهكذا انتهى ذلك الجدل حول قضية (خربتا)، بعزل قيس الذي كان يدرك في قراراته أن ثمة من حاول أفساد العلاقة بينه وبين الخليفة، مسرّاً بهذا الشعور الى محمد بن أبي بكر بعيد وصوله الى مصر، إذ قال له فيما يرويه أبو مخنف: «ما بال أمير المؤمنين، ما غيّره، أدخل أحد بيني وبينه؟»، فقال له: «لا وهذا السلطان سلطانك»، معقباً قيس بقوله: «والله لا أقيم ساعة واحدة».

ولعل الخليفة بلغ في التريث حدّاً، أنه أرسل أحد اركانه الثلاثة[٦] للاطلاع عن كثب على الوضع في مصر، ومن ثم إقناع قيس بوجهة نظر الخلافة. ويمكن من هذا المنظورتفسير إيفاد الأشتر ــ إن صحت الرواية التاريخية ــ قبيل ذلك للغاية نفسها، في وقت كان يصعب فيه الاستغناء عنه، فضلاً عن محمد بن أبي بكر، حيث الدولة تجتاز ادق مراحلها وأكثرها خطورة. وإذا كان تعيين محمد بن أبي بكر خلفاً لقيس، ما ترجحه الروايات التاريخية، فإن تعيين الأشتر لا يخلو من الالتباس، لا سيما وأنه رافق علياً (ع) طوال حروب صفين حتى انتهائها بالتحكيم، الذي كان له رأي فيه، فضلاً عن رغبة علي بأن يكون الأشتر ممثله في الاجتماع التمهيدي للتحكيم في دومة الجندل، ولعل ما يعنيه ذلك أن الأشتر لم يذهب خلفاً لقيس، وإنما الراجح أن محمد بن أبي بكر هو الذي تولى هذا المنصب، وانتهى الى الوقوع فيما تفاداه سلفه من محاربة أهل «خربتا»، حيث أدى ذلك الى تدخل مباشر من الشام، أسفر عن سقوط مصر ومقتل الوالي بطريقة وحشية. ويبدو أن الخليفة انتدب الأشتر حينذاك للقيام بمهمة في مصر، بعد اشتداد الضغط على واليه، للحؤول دون سقوطها بيد عمرو بن العاص، أو لاستعادتها بعيد سقوطها، حيث قتل بدوره في عملية مدبرة قبل وصوله.

الولاء المطلق لعلي (ع)

على أن ما يبقى خارج الالتباس، هو الولاء المخلص الذي لم يتخل عنه قيس للخليفة، حتى بعد عزله وانصرافه معتكفاً الى المدينة، غير عابىء بـ «شماتة» خصمه «العثماني» حسان بن ثابت الأنصاري، أو أن يكون خارج السلطة وموضع الشك من صاحبه. فهو لا يلبث ان يضيق به المقام في المدينة التي كانت تعجّ بالخصوم، وفي مقدمتهم مروان بن الحكم، ويبادر الى الالتحاق بعليّ (ع) مقاتلاً تحت رايته في صفين، ومزيلاً ما بقي من حفيظة في نفسه، حين أدرك ــ أي الخليفة ــ بأن صاحبه «كان يقاسي اموراً عظاماً من المكايدة وأن من كان يهزه على عزل قيس بن سعد لم ينصح له، فأطاع علي قيس بن سعد في الأمر كله» حسب رواية الزهري.

وهكذا يثبت قيس جذريته الصافية التي لم تهزها العواصف أو تفعل بها المكائد والمغريات، منتقلاً الى موقع أكثر خطورة كان بانتظاره في صفين التي التهبت ساحتها بحرب طاحنة، دفعت بالدولة الى الانقسام وبالمسلمين الى التمزق. وفي تلك المواقف تتجلى صفات الرجال الأقوياء بإيمانهم العميق، والتزامهم الذي لا تؤثر فيها زعازع الأيام وتبدلات الزمن، على أن قوة قيس لم تكن في صفاته فقط، وإنما كانت ايضاً في قوته السياسية، كزعيم لقوم نزلوا بثقلهم في صفين، مترادفاً اسمه مع الأنصار في هذه الجبهة، التي كان احد قادتها البارزين، حيث تشير إحدى الروايات الى ذلك في معرض الرّد على النعمان بن بشير قائلاً له بحزم: «فلو اجتمعت العرب على بيعته ــ أي معاوية ــ لقاتلتهم الأنصار».

وإذا توقفنا عند تشكيل القيادة في الجبهة العراقية، سنجد قيساً ــ حسب رواية أبي محنف ــ أحد تسعة[٧] من القادة كانوا يشنّون غارات

(٦) الأشتر، محمد بن أبي بكر، قيس بن سعد.

(٧) الأشتر، وحجر بن عدي وشبث بن ربعي وخالد بن المعمر وزياد بن النضر وزياد بن خصفة وسعيد بن قيس ومعقل بن قيس وقيس بن سعد. الطبري ج٥، ص٢٤٣.

متوالية على معسكر معاوية، وفي موقعه ثانية، تتشكل القيادة ــ حسب أبـي مخنف أيضاً ــ من الأشتر على خيـل الكوفـة وعمّار بن يـاسر على رجـالتها وسهل بن حنيف الأنصاري على خيل البصرة وقيس بن سعد وهاشم بن عتبة بن أبـي وقاص ومسعد بن مذكي التميمي على قرائها، أي أن قيساً كان يقاتل خـارج التشكيلة القبلية التي سـادت في صفين، ويتخذ مـوقعه حيث تـدعو الحاجة، وترتأي القيادة العليا. وفي موقفه ثالثة ــ حسب مروية ابن الأثير ــ يتولى عليّ القلب وعلى الميمنة عبد الله بن بُديـل الخزاعي وعلى الميسـرة عبد الله بن عباس، بينما يقاتل القراء مـع ثلاثة هم: عمّار بن ياسر وقيس بن سعد وعبد الله بن بُديل. فهو حاضر دائماً في قلب المعركة وخائض غمارها في هذا الموقـع أو ذاك، وهو قائد مبرّز سواء قاتل بقومه الذين كان صاحب رايتهم منذ عهد النبـي (ص)، أو قاتل بغيرهم من القبائل المشاركة في هذه الحرب.

وإذا كان انتماء قيس لجيل المخضرمين أكثر من إنتمائه لجيل الـروّاد في الاسلام الأول، فإن جذريته لم تقل عن جذرية هؤلاء، بل كان أكثر حدّة وصفاء من كثيرين منهم. بالاضافة الى ذلك فإن ما تميز به من اصـرار على مـواقفه وتمسـك بقناعـاته، أكسب دوره في صفين دينـامية وضعتـه في تيّار الحرب، الأكثر تعبيراً عن الجذرية، وفي مواجهته تيارّ السلم أو الاستسـلام للواقـع، بمـا يعنيه ذلـك من خيانـة للمبدأ وتهـاون في العقيـدة وانـدحـار للقضيـة. وقد ظـلّ قيس الى جانب الأشتـر النخعي، مقـاتـلاً صـارمـاً في صفين، ومدافعاً صلباً عن الشرعية المقترنـة لديـه بالاسـلام، دون أن يعني ذلك الانتقاص من دور القادة الآخرين أو بعضهم، الذين قاتلوا أو استشهدوا في سبيل هذه القضية، ولكن قيساً وصاحبه، كانت لهما تلك الدينامية التي جعلت من حضورهما أمراً غير عادي في أحداث تلك المرحلة ــ المنعطف في تاريخ الاسلام.

موقف قيس من التحكيم

ومن هـذا المنظور، كـان قيس، شأن الأشتـر، مقـاومـاً الـدعـوة الى التحكيم ومنكراً لها، حيـث وصفتهمـا إحدى المـرويات بـأنهما «كـانا أشـد النـاس على علّي فيها قـولاً». وقد ارتـاب كلاهمـا بهذه الـدعوة، في وقت «ظهروا على اصحاب معاوية ظهوراً شديداً»، حسب قول اليعقـوبـي. ومن ناحية أخرى، فإن الأشتر الذي ترافق بروزه السياسي، مـع الريـادة لحركـة المعارضة التي واجهت الخليفة عثمان بدءاً من الكوفة وانتهاءً بالمدينة، وكان المجلّي في هجماته المظفرة على مواقـع «أهل الشام»، لا سيما التي سبقت الدعوة الى التحكيم، كما أن قيساً الـذي وجد فيـه معاويـة خصماً قـوياً لم تنجح معه السبل لتحويله عن موقعه، سواء تلك التي بذلها إبان ولايته على مصر أو تلك التي بـذلها في غمـرة المعركـة، عبـر قـريب قيس وحليف معـاويـة الأنصاري، النعمان بن بشير، كما سبقت الأشـارة». . فإن كـلاهمـا الأشتـر وقيس ــ بعد أن بلـغ هذا الشوط في مقاومة الخّط الذي يقوده معاوية، فإنهما لم يرفضا التحكيم من منطلق مبدئي فقط، بل من منطلق واقعي ايضاً، حيث الخيـار الوحيـد لكليهما، إستمـرار القتال، حتى جـلاء الأمـور بـالنصـر أو بالهزيمة.

وقد جرى التحكيم عبر مرحلتين: الأولى تمهيـدية في دومـة الجندل والثانية والأخيرة في أذرع، وذلك في ظل أجواء كانت المساومة طاغية فيها، ممـا تعـارض في الجـوهـر مـع الجـذريين من أصحـاب عليّ (ع) الـذين وقعوا رغماً عنهم في شرك المساومين في جبهتهم، وما جرّه عليهم ذلك من تـراجـع إثر آخـر. ولكن الحقيقة المفجعـة التي واجهت هؤلاء هي ضعف التماسك في صفوفهم وبداية الإنهيار في الجبهة العراقية، سرعـان ما أماط التحكيم الغـطاء الرقيق عنهـا. وتصاعـدت الفجيعـة، بسقـوط الـرمـوز من أصحاب عليّ (ع)، مثل عمّار بن ياسر وهاشم بن عتبة والأشتر النخعـي، لا سيما الأخير الذي ترك غيابه فراغاً لم يكن بالامكان تعويضه، بحيث نستطيـع القول أنه تزامن أو كاد مـع نهاية الحرب وإعلان الهدنة المقنّعة.

مشاركته في حرب الخوارج

ولكن الفجيعة الكبرى، كانت في تصدّع الجبهـة وخروج فـريق منها احتجاجاً على التحكيم، حيـث اقترن الفعل بـالاسم، الذي عُـرفوا بـه وهو الخوارج. ولعله من المثير أن الحركة التي تمّت مباشرة في إطار الاحتجاج على التحكيم، ولـم تكن في مضمونها نـابعة من الخط الجـذري المتمسك بالحرب، كما زعمت في حيثيات خروجها الأول، بقدر ما كانت لها أسبابها الاجتماعية والاقتصادية، حيث كان تمردها عزوفاً، ولكن باسلوب آخر، عن الحرب، التي كان من الصعب أن تتوقف لولا التصدع الذي أحدثته في هذه الجبهة. وفي مقدمة ما يعنيه هذا الأمر، أو واقعاً جديداً، كان على عليّ (ع) وأصحابه مواجهته في ذلك الوقت، تـوقفت في ظله الحرب الأسـاسية مـع معاوية، واندلعت حروب جانبية ضد هؤلاء الخوارج، الذين تعمقت الجراح بينهم وبين عليّ (ع)، على نحـو لم يعد ممكنـاً تضميدهـا أو رأب الصدع الّذي أحدثتـه في الجبهة العـراقية المتـراجعة. وقـد بذل عليّ (ع) جهـوده القصـوى لمنـع هذا الـواقـع المستجد، ولكن الخـوارج كانـوا قد اتخـذوا قرار هم، ليس بالإفتراق عنه فقط، بل في تشكيل حركة مستقلة في المفهوم والرؤية والممارسة، ممـا أدى الى وضـع الطرفين أمـام خيار الحـرب الذي حمل الكارثة للجبهة العراقية. ومن هذا المنظور، لم تعد هذه الحركة معنية بجوهر المسألة الأساسية، بعد افتقاد مصـداقيتها في أعقـاب فشل التحكيم والعودة الى خيار القتال، الذي سبق أن تمسكت به واحتّجت على إيقافه، كاشفةً فـراغ شعاراتهـا التي تهاوت أمـام إحراجهم الـدعوة الى قتـال العدو المشتـرك، وإزاء رفضهم تسليم قتلة الصحابـي عبـد الله بن خبّاب وامـرأته وغيرهما من أصحاب عليّ (ع). فقد كان ذلك نذيراً بانفجار الجبهة العراقية من الداخل، وشحنها بالتوتر الذي عبّر عنـه الخوارج في معـرض الردّ على عليّ (ع): «كلنـا قتلهم وكلنا مستحـل لدمـائكم ودمائهم»، حسب الـرواية التاريخية.

وهكـذا خرج عليّ (ع) لقتالهم من الأنبار، متخـذاً موقعـه في قلب الجيش، بينما انعقدت الميمنة لحجر بن عـدي والميسرة لشبث بن ربعي، وقيادة الخيل لأبـي أيوب الأنصاري والرجالة لأبـي قتادة الأنصـاري، وأهل المدينة «وهم ثمانمائة رجل من الصحابة» لقيس بن سعد، وكان الأخير سبّاقاً في المسير الى معسكرهم في النهروان، متخذاً طريق المدائن التي حلّ فيها وقتاً بانتظار أوامر الخليفة، قبل أن يستأنف السير اليهم ومعه عاملها سعد بن مسعود الثقفي، وذلك حسب رواية أبـي مخنف، في حين يجعل الدينوري وصوله الى النهروان مـع أبـي أيوب الأنصاري.

ولكن قيساً في كلتا الـروايتين يتقدم على صـاحبه مبـادراً الى محاورة الخوارج باسلوب يتجلى فيه الأتزان بمثل ما تتجلى المسؤوليـة، كما نسب اليه في رواية أبـي مخنف: «عبّاد الله أخرجوا الينا طلبتنـا منكم وادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه وعودوا الى قتال عدونـا وعدوكم، فـإنكم ركبتم عظيماً من الأمر. نشدتكم بالله في انفسكم أن لا تهلكوها فإني لأرى الفتنة قد غلبت عليكم». بيـد أن هذا النـداء لم يلق آذاناً صـاغيـة لـدى الخـوارج، وفشلت محاولة ردّهم عن موقفهم، شأن المحاولات السابقة التي جرت منذ اعتصامهم في حروراء حتى انحيازهم الى النهروان، حيث شهـدت الأخيرة معركة طاحنة بين حلفاء الأمس، القريب انتهت بانتصار الخليفة ولكن دونوضـع النهاية الحاسمة للخوارج، الذين استعادو تنظيم انفسهم بعيـد وقت قصير، مشهرين راية العصيان والثورة ضد معاوية وخلفائه في الدولة الأموية. ولعل

قيساً قد اماط اللثام كاملاً عن موقف الخوارج، كدعاة للحرب ورافضين للسلام مع العدو المشترك، حيث الشعار الذي طرحوه في اعقاب الدعوة الى التحكيم، فقد مضمونه الحقيقي أمام تجديد الدعوة الصريحة الى القتال التي خاطبهم بها في ندائه السابق. ولم يكن غريباً أن يكون قيس، أكثر قادة عليّ (ع) حضوراً في النهروان التي غاب عنها الأشتر وبرز فيها الركن الآخر مقاتلاً متمرساً وقائداً مجلياً، حيث المعركة واحدة، سواء في صفين أو في النهروان، تستهدف الشرعية في الاسلام، بمثل ما تستهدف قناعات قيس وإيمانه وقضيته.

والياً على «أذربيجان»

وبعد النهروان، رافق قيس الخليفة الى الكوفة، التي كانت بأمس الحاجة الى ترتيب وضعها الداخلي، بعدما صرفت الحرب كل الجهود عنها. وبدا قيس لصيقاً بصاحبه في عاصمة الخلافة، مقيماً على شرطته بعض الوقت، قبل انتدابه والياً على أذربيجان، التي سبق أن وليها لعثمان، الأشعث بن قيس، وكانت لديه مشكلة حول خراجها مع عليّ (ع) بعد عزله، مما ترك شيئاً من التذمر في نفسه بعد «أخذه بمال أذربيجان»، ما لبث أن انعكس على موقفه المتذبذب في صفين، وعلى حماسته للتحكيم الذي كان من كبار دعاته في جانب عليّ (ع). بيد أن تعيين قيس على أذربيجان لا يخلو من الالتباس، حيث أورده اليعقوبي سابقاً على صفين، مثبتاً ذلك باستدعاء الخليفة له عشية اندلاع الحرب، بينما أورده الطبري بعيد النهروان، مرجحاً هذا الرأي ايضاً ابن أبي الحديد، ولكن في سياق يمكن الأستنتاج من خلاله، أن قيساً ربما عاد حينذاك الى عمله بعد ركود الحرب، شأن الأشتر الذي ردّه الخليفة كذلك الى عمله في الجزيرة (نصيبين).

وفي الوقت الذي يرجّح فيه ابتعاد قيس عن الكوفة الى أذربيجان، حيث غابت أخباره عن واجهة الأحداث الكبيرة، ما بين تعيينه وبين اغتيال عليّ (ع)، أي خلال أقل من عامين، ربما افتقدته فيها الكوفة. ولعل الخليفة نازعته الرغبة في إعادته الى مصر بعيد مقتل واليها محمد بن أبي بكر، معبّراً عن ذلك فيما نسبه له ابن أبي الحديد، بقوله: «ما أرى لمصر ألا أحد الرجلين، صاحبنا الذي عزلنا بالأمس ــ يعني قيس بن سعد بن عبادة ــ أو مالك بن الحارث الأشتر».

ولم يبق من قيادات الصف الأول في جبهة العراق، سوى قيس بن سعد، بعد أن لحق الأشتر بسلفه محمد بن أبي بكر. ولم يكن غياب الأشتر وقبله عمار بن ياسر وغيرهما من القيادات البارزة، مما سهل تجاوزه في تلك المرحلة الدقيقة من الصراع بين الشام و«العراق»، حيث الاغتيال السياسي اتخذ حيزه في خطط معاوية، الذي كان يدرك تأثير القيادات في المعركة، عسكرية كانت أم سياسية. ولذلك لم يتردد معاوية، في دفع اثمان باهظة، مقابل احتواء شخصيات راهن على دورها في مشروعه السياسي (محاولته الفاشلة مع قيس بن سعد كما سبقت الأشارة، ومضايقته لكل من رجالات عهده: عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة ولم يتردد من المنظور نفسه، في التخلص من آخرين أعيته السبل في احتوائهم أو الركون اليهم، حيث كان له سجل حافل في الاغتيال السياسي، مستخدماً وسائله المبتكرة في هذا المجال، لا سيما التي أودت بالأشتر، الذي قُدِم له السم ممزوجاً بالعسل، معبّراً عن ذلك ــ أي معاوية ــ بالمقولة الشهيرة: «إن لله جنوداً من عسل». وكان أحد هؤلاء «الجنود»، وهو طبيبه الخاص (ابن آثال)، قد سقى الكأس نفسها لعبد الرحمن خالد بن الوليد الذي خشيه معاوية لميل الناس اليه حسب الرواية التاريخية.

وبعد سنوات ثلاث، تناول الحسن بن عليّ (ع) تلك الكأس من يد زوجته (جعدة بنت الأشعث) التي اصطنعها معاوية وأزال بواسطتها العقبة الأخيرة في مشروعه الرامي الى اسقاط الشورى إسماً، بعد سقوطها بالفعل، وذلك في السنة نفسها التي قاد فيها يزيد الحملة الكبرى الى القسطنطينية، دون أن تكون خارج المشروع السالف الذكر أو بعيدة عنه.

قائداً في جيش الحسن (ع)

لعل غياب قيس لم يكن طويلاً عن الكوفة، التي عاد اليها على ما يبدو في أواخر ايام عليّ (ع)، حيث بات اليد اليمنى للخليفة، إذا ما توقفنا عند رواية الزهري من أن علياً (ع) «جعل قيس بن سعد على مقدمته من أهل العراق ومن قبل أذربيجان وعلى أرضها وشرطة الخميس التي ابتدعها العرب وكانوا اربعين ألفاً بايعوا علياً عليه السلام على الموت»، ولعله لم يغادر الكوفة، أصلاً، حيث الرواية نفسها تلمح الى ذلك، بأنه ــ قيس ــ «لم يزل يداري ذلك البعث حتى قتل عليّ عليه السلام». وإذ كان اغتيال عليّ (ع) قد أحدث صدمة عنيفة في صفوف جماعته وأربك حركة خليفته (الحسن) (ع)، مما انعكس على الجبهة العراقية التي لم يعد بالامكان توحيدها واستنفارها على نحو ما كانت عليه عشية التحكيم، فإن هذا الأمر كان مأساوياً بالنسبة لقيس والمشروع الذي ارتبط مصيرياً به تحت راية الخليفة السابق. بيد أنه لم يفقد الأمل في متابعة النضال من أجله تحت راية الحسن (ع)، فكان أول المبايعين له فيما يرويه الطبري، ولكنها بيعة أقترنت بالحرب أو بقتال المحلين كما وصفهم في «عهده» للخليفة.

على أن حسابات قيس، ليست بالضرورة حسابات الحسن (ع)، برغم وحدة الموقف وتشابه المنطلقات، حيث الظروف لم تعد هي نفسها في عهده، والضغط الأموي على الجبهة العراقية، لم تكن له خطورته في السابق كما في هذا العهد، بعد أن بلغت الهجمات الأموية حدّاً كبيراً من الجرأة، متوجةً بهجوم معاوية على مسكن، غير البعيدة عن الكوفة. ولعل ما يعنيه ذلك أن الأخيرة باتت مهددةً بصورة مباشرة، مما اقتضى أن يتخذ الحسن (ع) معسكره في المدائن، دون أن يكون ذلك مرتبطاً بهذه التطورات فقط، ولكن بما تتمتع به الأخيرة من موقع عسكري هام، جعلها منطلقاً للعمليات الحربية في صفين، ومن ثم انطلقت منها الأمدادات أثناء معركة النهروان. وفي ضوء هذا الواقع، فإن الجبهة العراقية اصبحت على وشك الأنهيار، وبات الحصار الأموي أمراً واقعاً، تشتد وطأته يوماً بعد آخر، من غير أن نتجاهل هنا المتاعب الداخلية، سواء في تشكيل القوة العسكرية غير المنسجمة، أو في أزمة الخوارج التي لم تكن قد ركدت تماماً، أو في المشكلة الأقتصادية المزمنة، نتيجة للحرب الطويلة، التي أغرت الكثيرين من «أهل العراق» في الالتحاق بمعسكر معاوية، حيث كان المال أحد أسلحته الفاعلة في المعركة.

رفضه إغراءات معاوية المتجددة

ولكن الحسن (ع)، برغم هذه التحديات، لم يأتِ لإنهاء الحرب، كما يحاول بعض المؤرخين تفسير موقفه، انطلاقاً من خطبة البيعة[8]، وما عكسته من ارتياب «أهل العراق» في صدق عزمه على القتال. فقد يكون لدى الحسن (ع) جنوح نحو السلم، تحت تأثير المعطيات التي أشرنا اليها، ولكن الخيار لم يكن حينذاك سهلاً، حيث الواقع فرض عليه الخيار الآخر، استجابةً لتيّار الحرب الأقوى في جبهته، ممثلاً بقيس بن سعد وحجر بن عدي وسليمان بن صُرد والمسيّب بن نجبة وآخرين من القيادات البارزة. وكان معاوية، إدراكاً منه بخطورة الموقع الذي يمثله قيس لدى الحسن (ع)

(٨) قال فيها مخاطباً أنصاره. «إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت» الطبري ج٦، ص٩٣.

وأهل العراق وكداعية للحرب ورافض للصلح، الذي كان يشدّد على إنجازه، قد لجأ الى التركيز على خصمه الأنصاري ومحاولة احتوائه بما يعنيه ذلك من حسم للمشكلة التي كان الأخير أحد العوائق الاساسية فيها. فقد رفض قيس المبلغ الكبير الذي أرسله اليه معاوية، حسب مروية اليعقوبي، في وقت كان على رأس جيش من اثنى عشر ألفاً، لصدّ قوات «الشاميين» عن الكوفة. وقيل في رواية ثانية، أن القيادة كانت لعبيد الله بن عباس، الذي جعل قيساً على مقدمته في الطلائع» وأمره الحسن (ع) بأن «يعمل بأمر قيس بن سعد ورأيه». ولم تشر الرواية الى دوافع اتخاذ عبيد الله بن عباس من دون قيس، قائداً لهذا الجيش الذي ضم الأخير كقائد فعلي له، مما جعله يتحرك برأسين، وتنعكس عليه صورة الوضع الداخلي المضطرب للجبهة العراقية. فلعل هذا الأجراء كانت له خلفية توازنية، بين الأنصار الذين تصدّروا تيار الحرب، وبين المهاجرين الذين بقي لهم حضور ما في الجبهة، كان معنوياً أكثر منه سياسياً أو عسكرياً، ولكن دون ان يعدم تأثيره في الصراع السياسي، الذي بات يدور في ظل شعارات متشابهة، على الرغم من تفاوت الواقع وابتعادها الضمني بين الطرفين ولعله ايضاً ــ أي الحسن (ع) ــ كان يهدف الى زجّ قريبه في المعركة ودفعه الى الواجهة، مختبراً فيه الولاء الذي تبين أنه لم يكن صامداً، بعد أن مالت به النفس الى معاوية الذي أجزل له العطاء[٩]، منسحباً الى معسكر الأخير «في ثمانية آلاف من اصحابه».

ولكن المسألة ربما تعدّت ذلك ايضاً، الى العلاقة بين الحسن (ع)، الذي بدأ يتخذ منحىً واقعياً في سياسته، تحت تأثير المتغيرات السريعة. ويحرص ما أمكن على إنقاذ جماعته من القتل، وجبهته من السقوط النهائي، وبين قائده الصلب، الذي اتخذ قراره في المقابل، ولكن القرار الصعب الوحيد، دون أن يملك في تلك اللحظة معطيات الخيار الآخر الذي سار فيه الحسن (ع). وقد أوجد ذلك نوعاً من التباين ليس بين الآخير وبينه فقط، حين يرى الطبري أن الحسن «عرف أن قيس بن سعد لا يوافقه على رأيه، فنزعه وأقر عبد الله بن عباس»، ولكن بينه وبين أخيه الحسين (ع)، وآخرين من قادته الكبار الذين سبقت الإشارة اليهم.

معارضته للصلح

وهكذا تتضارب المواقف ومعها المصالح ايضاً بين الحسن (ع) وقيس، دون يكون للعبارة الثانية مدلولها الفردي فقط، حيث كانت تعني كذلك الجماعة، سواء بالنسبة للأول الذي لم يعد امامه سوى إنقاذها، بعد أن أصبح معاوية و«أهل الشام» على تخوم الكوفة، أو بالنسبة للثاني الذي أدرك أخيراً أنه مواجه الهزيمة، بما تعنيه من هزيمة للأنصار في نفس الوقت، بعد انخراطهم الكلي في هذه الحرب. ويبقى الجانب الأهم في هذه المسألة، أن التراجع لم يكن سهلاً لشخصية جذرية مثل قيس، مشبعة بالايمان ومفطورة على الالتزام، لا سيما التراجع المقرون بالهزيمة، فضلاً عن الذل الذي ينتظره امام معاوية، وقد وفى بوعده الذي قطعه على نفسه: «آليتُ متى ظفرتُ بقيس بن سعد أن أقطع لسانه ويده». حسب الرواية التاريخية. ومن هذا المنطلق يصبح قيس المشكلة الكبرى أو عقدة الحل، بعد اصراره على القتال غير عابىء بالحرب النفسية، التي استهدفته، عبر اشاعات روّجها ايضاً معاوية، تزعم حيناً أنه قتل، وحيناً آخر أنه «صالح معاوية وصار معه». فلم يؤثر ذلك في موقفه الذي بقي صلباً، برغم ما تناهى اليه من أخبار عن اتفاق المدائن بين الحسن (ع) وبين ممثلي معاوية: عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة، دون أن يجد نفسه ملزماً بتنفيذه أو معنياً باشتراط الحسن (ع) أن لا يؤخذ قيس «بتبعة قلّت أو كثرت»، معبراً عن رفضه له في مقولته الشهيرة: «أيها الناس اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة أو القتال مع غير إمام»، ولكن قيساً واجهته حينذاك الفجيعة الكبرى التي واجهت قبله الحسن (ع)، في «اختيار» جنوده «إمام الضلالة»، بعد أن بلغ الأحباط لديهم مبلغاً واشتدت عليهم المعاناة واستبد بهم اليأس بعد سنوات خمس من القتال.

قيس آخر المبايعين لمعاوية

لقد انتهت الحرب الأكثر خطورة في تاريخ الاسلام، بتنازل الحسن (ع) لمعاوية عن السلطة، تلك التي كانت محور الصراع العنيف بين تيار جذري يقاتل من أجل الدولة ــ النموذج التي وضع النبي اسسها في المدينة، وبين تيار توفيقي، يختلط فيه الاسلام بالعصبيات القبلية وربما الاقليمية، التي تكتّلت وراء معاوية[١٠] وحققت له الفوز في معركة السلطة.

ومن هذا المنظور، فإن الدولة الراشدية التي عارض قيامها «الأنصار» في السقيفة، كان زعيمهم قيس بن سعد آخر المدافعين عنها في معسكره بالجزيرة. وإذا كان أبوه سعد بن عبادة قد رفض البيعة لأول الخلفاء وانتهى الى القتل نتيجة لذلك، فقد اختلفت الروايات حول بيعة قيس لمعاوية، حيث اليعقوبي أشار الى لقاء عاصف مع الأخير الذي « جثا على ركبتيه ثم أخذه بيده وقال: اقسمت عليك! ثم صفق على كفه، ونادى الناس: بايع قيس! فقال كذبتم والله ما بايعت». أما الطبري ــ حسب رواية الزهري، فقد أورد أن معاوية أرسل الى قيس بن سعد «يذكره الله ويقول على طاعة من تقاتل وقد بايعني الذي اعطيته طاعتك، فأبى قيس أن يلين له». ولكنه عاد فدخل في طاعته، بعد أن «أرسل اليه بسجل قد ختم بأسفله»، على غرار ما فعله مع الحسن (ع)، حيث أشترط قيس كذلك شرطاً مماثلاً لما جاء في كتاب صاحبه، أنطوى على الإمامة «له ولشيعة عليّ»، ولكن دون أن «يسأل معاوية في سجله ذلك مالاً»، حسب الرواية نفسها.

على أن قيساً، سواء رفض البيعة، على صعوبة ــ ذلك، أم رضخ في النهاية للأمر الواقع، فإن خياراته كانت لا تزال صعبة، حين آثر الخروج الى الظل في المدينة[١١]، ومواجهة الواقع الجديد، ومن ثمّ تسديد حسابات الموقف الأنصاري الذي جرّ عليه وجماعته الاضطهاد والحرمان والفقر، ودفع أكثرها الى بيع املاكها للأمويين «بجزء من مئة من ثمنها»، حسب الرواية التاريخية.

فقد كان ذلك أحد أبرز الحوافز لثورة المدينة، التي يمكن ادراجها ايضاً في سياق التحرك لاستعادة السلطة الى الحجاز بعد وفاة مؤسس الدولة الأموية، مشكلاً خروجها منه، أو خروج الحجاز منها فيما بعد، ضربة كبيرة لدور هذا الاقليم، الذي ارتبط تاريخياً بالاسلام، أكثر ما أصابت الأنصار الذين اتيحت لهم مرةً أخرى المشاركة الفعلية في السلطة، عندما اتخذ عليّ (ع) أبرز عمّاله منهم، ولا سيما قيس بن سعد، أحد الأركان الرئيسيين لهذا العهد، والمدافع العنيد عن الدولة الراشدية. فلم تكن الأخيرة في حينها، الدولة المثالية للأنصار. ولكنها على الأقل كانت الضامنة لجزء كبير من دورهم السياسي، مؤدياً انهيارها الى تكريس المعادلة التي اسفرت عن فتح مكة، مضموناً وظاهراً، وهي سقوط الأخيرة من دون قريش والأنصار من دون

(٩) قيل أن معاوية ارسل له ألف ألف درهم. اليعقوبي ج٢، ص٢١٤.

(١٠) ذكر المقريزي في سياق الحديث عن خلع الحسن لنفسه، وبيعته معاوية، إن الناس «نسيت شأن النبوة والحواري ورجعوا الى أمر العصبية والتغالب». الدرر المضية في تاريخ الدولة الاسلامية. مخطوطة ورقم١٨.

(١١) توفي قيس بالمدينة في آخر خلافة معاوية. ابن سعد، الطبقات ج٦، ص ٥٢ ــ ٥٣. وقد ذكر ابن الأثير ايضاً أنه توفي سنة تسع وخمسين أو ستين للهجرة. الكامل ج٣، ص٥٢٥.

المدينة، ولكن مع تعديل «أموي»؛ أدى الى سقوط عاصمة الاسلام الأولى ايضاً[١١].

الشيخ كاظم بن صفي الله التنكابني:

ولد حدود ١٠٧٠.

ولد في تنكابن وقرأ المقدمات والسطوح بها ثم ذهب الى أصفهان وحضر عند اعلامها ثم رجع الى موطنه أوائل القرن الثاني عشر وبقي منشغلاً بالتدريس والتأليف. رأيت بعض رسائل فقهية وأصوليه متفرقة من تأليفاته في بعض المكتبات وهي غير تامة[١].

الشيخ كاظم الصحاف ابن الشيخ علي

ولد في الكويت سنة ١٣١٣هـ وتوفي فيها سنة ١٣٩٩ ونقل جثمانه الى النجف الأشرف فدفن فيها.

نشأ في الكويت على يد أخيه الشيخ حسين ويظهر أنّ أباه توفي وهو صغير، فكان ملازماً لأخيه الشيخ حسين، وقد سافر به أخوه الى النجف الأشرف، وكان أول تحصيله على يد أخيه، وبعد وفاة أخيه انقطع الى الدرس والتحصيل على يد جماعة من العلماء.

وجاء في كتاب «نفائس الأثر» للسيد هاشم الشخص عن كتاب «تذكرة الاشراف في آل الصحّاف» عن المترجم له أنّه بعد أن ارتقى في معارفه وتحصيله العلمي اعتمد عليه الميرزا موسى الحائري فأرسله الى مدينة سوق الشيوخ في العراق ليقوم هناك بالأمور الشرعية والحقوق الحسبيه، فمكث هناك مدّة ثمّ عاد الى الكويت وقام بصلاة الجماعة في مسجد الصحّاف لكنّه لم يُقم فيها طويلاً فغادرها الى الأحساء بلد آبائه ومحطّ أغلب أسرته وموطنه الأصلي، فدرس هناك الحكمة على الشيخ موسى أبو خميس أحد أكبر علماء الأحساء آنذاك، واستقرت به الحال في الهفوف عاصمة الأحساء.

وكان خطيباً حسينياً مارس الخطابة حتى آخر حياته.

زاول نظم الشعر وكان مكثراً فيه وشعره بين الجيدّ والمتوسط، وبدأ يضعف في اخر حياته، وقد ساهم في كثير من المناسبات الدينية فمدح بعض علماء عصره، ونظم في العقائد والردود وغالبية شعره في أهل البيت عليهم السلام.

وخلّف مجموعة من الآثار الأدبية والعلمية، لا تزال كلّها مخطوطة.

فمن شعره قوله في أمير المؤمنين علي عليه السلام من قصيدة:

أَسَناءُ الفجرِ لنا أسْفَرْ   بِجَبِينِكَ أمْ بَدْرٌ أزْهَرْ
وثَنايا الثَغْرِ تَلُوحُ لَنا   أمْ ذاكَ البَرْقُ أم الجَوْهَرْ
ما البَدْرُ جمالُكَ إذ يَبْدو   ما السَيْفُ لِحاظُكَ ما الجُؤذُرْ
يا ريمَ الحَيِّ وآختَ البَدْ   رِ ونُورَ الصُبْحِ إذا أسْفَرْ
رِقّي لِفتىً صَبّ أرِقٍ   لَكِ طُولَ الليلِ غَدا يَسْهَرْ
وَلَه عَيدي وَعِدِي وَصِلِي   فالفَضْلُ بَدا لِمَنِ اسْتأثَرْ
فإلى مَ فؤادُكِ لا يَحْنو   يا أُخْتَ البَدْرِ مَتى نَسْهَرْ
إنْ كان بَدامِنّي ذَنْبٌ   فَبِمَدْحِ أبي حَسَنٍ يُغْفَرْ
كَنْزُ الأعمالِ سَنى الإجلا   لِ وساقي الخَلْقِ مِنَ الكَوْثَرْ
قُطْبُ المِحْرابِ أبو الأطْياب   وَلَيْثُ الغابِ مَتى قَدْ كَرْ
أفْنى الأبْطالَ بِصارِمِهِ   وَلِمَرْحَبَ جَنْدَلَ في خَيْبَرْ
وَبِواحِدَة أرْدى عَمْراً   فَغَدَتْ في الدَهْرِ لَهُ تُذْكَرْ
قَسَماً بِخِلافَتِهِ العَلْيا   وَبِغامِضِ باطِنِه الأنْوَرْ
لَوْلاهُ الدِّينُ لمَا ارتَفَعَتْ   مِنْهُ الأرْكانُ وَلَمْ تُشْهَرْ
فَمَراشِدُهُ وَفَوائِدُهُ   وَمآثِرُهُ عَنْهُ تُؤثَرْ
يا مَنْ أنْكَرْتَ لَهُ فَضْلاً   فالشَمْسُ هُنالِكَ لا تُنْكَرْ
فَلَئِنْ ما ثَلْتَ بِهِ أحَداً   ما الرَمْلُ يُماثَلُ بالجَوْهَرْ
فإلى مَوْلايَ أبي حَسَنٍ   نِعَمٌ في الكَوْنِ فَلا تُحْصَرْ
هِيِ رُوحُ جناني في الدُنْيا   وَنَعِيمُ جناني في المَحْشَرْ
وَبِهِ نَفْسي أمِنَتْ وَنَجَتْ   في الحَشْرِ مِنَ الفَزَعِ الأكْبَرْ
وَبِزَعْمِ القاصِرِ أنّي قَدْ   أطْنَبْتُ بِفَضْلِكَ يا حَيْدَرْ
فاقْبَلْ يا قُدْوَةَ أعْمالي   ما اسْتَيْسَرَ مِنْ مَدْحِ الاحْقَرْ

الشيخ كاظم الهجري ابن الشيخ عمران ابن الشيخ حسن السليم:

ولد سنة ١٣٢٧ في الأحساء وتوفي سنة ١٤٠٠ في عبادان ونقل جثمانه الى النجف الأشرف ودفن في وادي السلام.

هو من أسرة تُعرف بآل علي في الاحساء، فهواحسائي الأصل عباداني المسكن، قرأ في النجف الأشرف علىٰ اساتذة عصره، ثُمّ حَطّ رحل اقامته في عبّادان وكيلاً لبعض المراجع. فأفاد ارشاداً وتدريساً، كان يتمتع بحافظة قوية وباع مديد في التاريخ وايام العرب، وهو، وإن كان مُقلّاً في الشعر إلّا أنّه يجيّده، ومن شعره قصيدة جارىٰ بها قصيدة الشيخ علي الشرقي التي مطلعها:

سَلِ الحجر الصَوّان والأثر العادي   خليلي كم جيلٍ قد احتضن الوادي

قال الهجري:

سَلِ الصخرة الصَمّاء في لونها الصادي   فإنّ بها دُكت شوامخ اطوادِ
وسَل بقعة الأرض التي أنت فوقها   ففي الشبر منها قد طوي الف بغداد
وسَل تُربها السافي عليك فإنه   مفاصل آباءٍ كرام وأجدادِ
وإن عثرت رجلاك بالترب ماشياً   فما عثرتَ إلّا بأفلاذ وأكبادِ
وما لبنة القصر الذّي قد أشدتَهُ   سوى هام كسرىٰ أو جبين ابن شدّادِ
وهل تُدفن الأموات إلّا بمثلها   رُفاتاً فأجساد قبور لأجسادِ
فكم سِرتُ ما بين المقابر واجماً   أكَرِرُ طرفي عندها رائحاً غادي
اقول لها والهَمُّ ملء جوانِحي   أ أنتِ قبورٌ أم مرابض آسادِ
تمازجُت الأجساد فيك وبينها   لدىٰ ملتقىٰ الأوراح غاية ابعادِ
مصارع آمال الحياة وإنّها   لمجمع الآفٍ واضدادِ
فخاطبني هام توهمتُه بها   سل الدهر كم من أمّةٍ ضمّها الوادي
فلو نطقوا قالوا بأبلغ منطقٍ   سلونا فقد كُنّا لكم خير رُوّاد
فإنّا كما كنتم جميعاً تخوطُنا   قصور منيعات ويجمعنا نادي
فصاح بنا من جانب الدهر صائح   فصيّرنا صرعىٰ رهائن الحادِ
فلم يغن عَنّا ما عنينا بجمعهِ   وما دفعتَ عنّا بقيّة أولادِ
أيا كادحاً فيما يفارقه غداً   افق فسهام الموت منك بمرصادِ

ترك ديواناً شعرياً ومؤلفات في الفقه والأصول والأدب كلها مخطوطة، هي عند ولده الشيخ جعفر الذي يقوم مكان ابيه في عبادان[١].

كثير عزة:

مرت ترجمته في مكانها وننشر عنه هنا هذه الدراسة بقلم الدكتور محمد العبد حمود:

كُثَيِّر بفتح الكاف وكسر الثاء وسكون الياء كأمير. ولفرط قصره سمي بكثيِّر. وقد ورد مكبراً في شعره:

وقال لي الواشون ويحك أنها   بغيرك حقاً يا كثير تهيم

وفي قول شاعر آخر:

وإنني انسب من كثير   إذا وصفت أخت الجؤذر

(١) الشيخ محمد السمامي.

(١) السيد هادي باليل الموسوي.

كما جاء معرفاً بأل ومصغراً في شعر ربيعة الرقي.

جـميـل والـكثيـر قـد أحبـا وعـروة من هـوى لاقي حمـامـا

وأبوه عبد الرحمن بن الأسود.

القابه وكناه

في ألقابه وكناه قبسات تكشف جوانب هامة من شخصه وشخصيته أو يظهر مكانته الاجتماعية أو يدل على منزلته الشعرية أو يبين عقيدته أو ينم عن حبه أو يشير الى قبيلته أو مسقط رأسه.

أما القابه فأولها كُثَيِّر وقد غلب عليه فعرف به دون اسمه كما غلب على جرول لقبه: الحطيئة الذي لقب به لقصره وإنحطاطه الى الأرض. ففي هذا التصغير تصوير لقده القصير. ولعله لم يكن محبباً اليه. وربما كان ابغض منه! زب الذباب وكان غرماؤه يقذعونه به وفي مقدمتهم زوج عزة الذي قال:

لعمرك ما زب الذباب كثير بفحل ولا اباؤه بفحول

وفي هذين اللقبين تصوير لمنزلته في نفوس خصومه أن لم يمثلا واقعه الشخصي، إذ أن محتده الكريم وتعاليه عن الصغائر وحبه العفيف وموهبته الفنية كل ذلك جعل له منزلة لم يحظ بها كثير من شعراء عصره كالأحوص ونصيب.

وملفت للنظر أن ينحته بعض من ترجم له بشاعر بني مروان وبشاعر عبد الملك خاصة الذي مدحه بقصائد بلغ من اعجابه بها أنه كان يستظهرها ويرويها أولاده وبلغ من نفاسة معانيها أن هارون الرشيد عندما سمعها حسده على أن الأيام لم تتح له شاعراً يحسن ان يقول في ملكه مثلما كان كثير يقول في دولة عبد الملك. فهذا الأمر ينطوي على أمرين أولهما تفوقه في المديح وثانيهما تناقض عقيدته إذ كيف أصبح شاعر عبد الملك وهو الكيساني الهوى! وكيف لقب بشاعر بني مروان ولم يلقب بشاعر الكيسانية أو بشاعر الشيعة أو بشاعر محمد بن الحنفية أو بشاعر الأمام محمد الباقر عليه السلام الذي كان مختصاً به في الغاية القصوى ومن شعراء حضرته كما يرى الخونساري[٧]. أو بشاعر خزاعة أو بشاعر قريش التي أدعى أنه من صميمها لا سيما أنه في تلك البيئة حيث كل قبيلة وشاعرها الذي ينشر لواء مفاخرها كما كان الأخطل التغلبي والراعي النميري... كلها اسئلة لا بد من محاولة الأجابة عليها اثناء دراسة شعره..

على أن أشهر القابه اللقب الذي تعانق فيه اسمه واسم عزة التي هام بها منذ الصبا وما برح يترنم بمفاتنها ويلهج باسمها حتى عرف بكثير عزه وعرفت بعزة كثير وأصبح كل منهما يعرف بحبيبه أكثر مما يعرف بأبيه أو بقبيلته أو بأي لقب أو كنية من القابه وكناه.

وسائر القابه تحمل نسبه القبلي وهي: الخزاعي، وخزاعة قبيلته. والأزدي والأزد جده التاسع عشر. والملحي ومليح جده العاشر. والجعثمي وجعثمة جده التاسع من ناحية ابيه. ولقّبه الخونساري بالمضري بعد أن قال: ونسبه المنيف ينتهي بخمس عشرة واسطة الى الياس بن مضر.

أما كناه فأشهرها أبو صخر وأغلب أنه اصطنع هذا الأسم وتكنى به إذ لم يذكر أحد المؤرخين ان له ولداً اسمه صخر ولعله اراد بهذه الكنية أن يرد على الذين نبزوه بكثير وبزب الذباب. وقد يعزز هذه الملاحظة اي تكنيه بصخر بالذات هو هذه اللفظة التي تشعر سامعها بصلابة الصخر وقوته. كما قد يؤكدها كبره البالغ الذي تميز به حتى صار مضرب المثل فقالوا: أمنع من كثير ! وعرف بأبي جمعة ايضاً والأصفهاني وابن عساكر ذكرا له ابنة اسمها جمعة.

(٧) روضات الجنات١: ٥٠٩.

نسبه

يكاد يجمع الباحثون على أن كثيراً من خزاعة كما ان خزاعة من قحطان ونسبه الذي رواه الأصفهاني الى قحطان يؤيد ذلك[١٥].

ونظرة الى طرفي نسبه نرى انه خزاعي صميم يلتقي نسب أبويه في عمرو بن ربيعة. وشعره واخباره خير الأدلة على خزاعيته وقحطانية خزاعة. وعندما ادعى القرشية وصمته خزاعة بالزنا وهجته شعراؤها وكادوا يقتلونه لولا لياذه بالهرب. ولما بلغ ادعاؤه النسب في قريش ابا الطفيل عامر بن واثلة الكناني وهو بالكوفة أمر كثير وتعييره خزاعة منهم حلف لئن رآه ليضربنه بالسيف أو ليطعنه بالرمح ولكن خندقاً الأسدي الذي كان صديقاً لأبي الطفيل ولكثير استوهبه اياه فوهبه له[١٦] ومما يدل على خزاعيته ايضاً قول خالد بن صفوان لهشام بن عبد الملك: انت والله كما قال اخو خزاعة، واستشهد بأبيات لكثير[١٧]. كما أنه عندما سمع بمقتل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وجماعة من أهل بيته بكى وأسف وترحم واعتذر عن هجائهم عندما أمره به يزيد بن عبد الملك. بل قام بين يديه ليشفع لمن بقي منهم عندما أُتي بهم ليضرب اعناقهم بأبيات كلها نخوة ومروؤة. قال حفص الأموي: كنت اختلف الى كثير أتروى شعره. فوالله إني لعنده يوماً إذ وقف عليه واقف فقال: قتل آل المهلب بالعقر ــ وكانوا يكثرون الأحسان اليه ــ فقال ما أجل الخطب! ضحى آل أبي سفيان بالدين يوم الطف وضحى بنو مروان بالكرم يوم العقر. وانتضحت عيناه باكياً. فبلغ ذلك يزيد بن عبد الملك فدعا به فلما دخل عليه قال: عليك لعنة الله أترابية (نسبة الى أبي تراب وهو اللقب الذي أطلقه الأمويون على الامام علي عليه السلام وفيها اشارة الى تشيع الشاعر) وعصبية وجعل يضحك منه[١٨]. وفي هذا تأكيد لانتساب الشاعر الى خزاعة وهي قبيلة عرفت بتشيعها منذ ظهور الاسلام.

نشأته وحياته

ولد كثير في عام ٢٣ للهجرة في كُلَيَّة[١٩] وهي قرية من قرى الحجاز بين مكة والمدينة. فنشأ فيها كما تنشأ لداته من فتيان العرب يسرحون لأهلهم بالأبل والغنم. وفي ذات يوم من أيام الصبا كان كثير يسوق جلب غنم يبحث عن الماء فقاده الظمأ الى ينبوع الحب وملهمة الشعر الى عزة[٢٠].

والثابت أن كثيراً تربى في كنف عمه ربما لأن اباه كان مدقعاً عاجزاً عن إعالته أو أن كثيراً لم يكن على وفاق مع ابيه أذ يروى ان اباه اصابته قرحة في اصبع من أصابع يده فقال له كثير اتدري لما اصابتك القرحة؟ قال: لا. قال: مما ترفعها الى الله في يمين كاذبة! وخلاصة القول ان المعلومات عن طفولته واسرته تجعل دراسة حياته غاية في الصعوبة لا سيما لجهة تبين المقومات والمؤثرات الأولى في تكوين شخصيته وكل ما تتيحه النتف الواردة في هذا الموضوع هو ان أباه لم يكن من علية القوم بل من سوادهم وأنه تربى في كنف عمه وليس في بيت أبويه، وأن عمه كان باراً بربيبه فاشترى له قطعان الأبل والأغنام يتنقل بها بين البوادي والحواضر. فقد جاء في الأخبار ان عزة حاولت شراء جمل منه في المدينة[٢١].

ولكن الشاعر لم يمض حياته في رعاية المواشي والتجارة بها إذ ما لبث ان انتقل من بيع الأبل والغنم الى العطارة حيث أصبح صاحب حانوت في

(١٥) الأغاني ٩: ٣.
(١٦) م. ن: ١١ ــ ١٣.
(١٧) أمالي المرتضى ٢: ٢٦١.
(١٨) الكامل في التاريخ ٥: ٦٦.
(١٩) معجم ما استعجم ٣: ٩٥٤.
(٢٠) الأغاني ٩: ٢٣.
(٢١) م. ن.: ٣١.

المدينة يبيع فيه العطر والخيط والثياب والقطران. وكانت عزة ربما تأتيه فتشتري منه العطر والثياب[٢٢].

وفي ايام عبد الملك بن مروان استغل منزلته لديه فسأله ان يقطعه ارضاً تسمى «غُرَّباً» وهي ناحية قرب المدينة فيها نخل واشجار ففعل[٢٣]. وكان كثير مختصاً بعبد الملك بن مروان محظياً عنده يرفع مجلسه ويجزل جوائزه.

كما طمح ان يتولى الكتابة لعبد العزيز بن مروان والي مصر لأخيه عبد الملك ولكنه لم يوفق الى ذلك[٢٤].

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز اشترى وصيفة بثلثمائة درهم اعطاها اياه عمر بن عبد العزيز فعلمها الغناء وباعها بألف دينار[٢٥]

وكانت جائزته عند يزيد بن عبد الملك ثلاثين ألفاً وكان ينشده كل قصيدة بمائة دينار[٢٦].

وكذلك مدح امراء الأمويين وأميراتهم وقادتهم ونال جوائزهم كبشر بن مروان ومسلمة بن عبد الملك[٢٧].

هذه هي أهم الروافد الأقتصادية لمعيشته. غير ان رعيه للأبل والغنم ثم بيعها ومتاجرته في الحانوت وحصوله على «غرب» وشراءه للوصيفة وبيعها بعد تعليمها الغناء لم يكن إلا بعض وجوه نشاطه لكسب العيش. اما مهنته التي كان عليها معولة في معاشه وجميع نواحي حياته فهي قريحته الشعرية.

كما يبدو انه كان لكثير عطاء سنوي كسائر الناس الذين في ديوان العطاء. فقد ذكر انه حينما كان يأخذ عطاءه يأتي ولد الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام فيهب لهم الدراهم[٢٨].

شخصيته

كان كثير قصيراً متقارب الخلق للغاية. قيل أنه لم يكن يبلغ ضروع الأبل. وقال الوقاصي: رأيت كثيراً يطوف بالبيت فمن حدثك انه يزيد على ثلاثة اشبار فكذبه[٢٩]. وكان إذا دخل على عبد الملك بن مروان أو أخيه عبد العزيز بن مروان يقول له: طأطيء رأسك لا يصيبه السقف[٣٠]. وكان فوق قصره الشديد مفرط الدمامة معروق القامة طويل العنق عظيم الهامة أبرش أقيشر أي شديد الحمرة كأن بشرته مقشورة[٣١].

ومع ذلك فقد كان جريئاً حاضر البديهة حديد الجنان واللسان. لقيه الفرزدق فقال له يا أبا صخر انت اشعر العرب حيث تقول:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

يعرض بسرقته من جميل. فقال له كثيرا وأنت يا أبا فراس افخر العرب حيث تقول:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا الى الناس وقفوا

وهذا البيت لجميل ايضاً سرقه الفرزدق. ثم قال له الفرزدق: هل كانت أمك ترد البصرة؟ فقال كثير: لا ولكن أبي كان نزيلاً لأمك[٣٢].

(٢٢) المستجاد من فعلات الأجواد: ١٢٤.
(٢٣) الأغاني ٩: ١٠.
(٢٤) العقد الفريد ٣: ٨
(٢٥) الأغاني ٩/٢٦٠.
(٢٦) طبقات الشعراء: ٤٦١.
(٢٧) الأغاني ٩: ٤٠.
(٢٨) الأغاني ٩: ١٨.
(٢٩) م. ن: ٦.
(٣٠) م. ن: ٦.
(٣١) الأغاني ١٢: ١٨٧.
(٣٢) الأغاني ٨: ٩٦.

ودخل على عبد الملك بن مروان وعنده الأخطل فأنشده فالتفت عبد الملك الى الأخطل فقال: كيف ترى؟ فقال: حجازي مقرور ــ أي بارد ولا دسم فيه ــ دعني أخضمه يا أمير المؤمنين فقال كثير فهلا خضمت الذي يقول:

لا تطلبن خؤولة في تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالاً
والتغلبي إذا تنحنح للقرى حك استه وتمثل الامثالا[٣٣]

فالقمه حجراً.

ومن حضور بديهته في الجواب انه مر راكباً في طريق كان الأمام محمد الباقر عليه السلام ماشياً فيه وكثير لم يره فقال له رجل: أتسير راكباً والإمام يمشي؟ فقال ان الإمام أمرني بالركوب،وطاعته أفضل من مخالفته[٣٤].

أما كبرياؤه فقد كانت ابرز صفاته إذ كان من اتيه الناس واذهبهم بنفسه على كل أحد. يروى ان عمر بن أبي ربيعة اتى المدينة. ثم مل ثواءه بها فشخص وشخص معه الأحوص ولما نزلا قديْداً صار اليهما نصيب فمضى الأحوص إلى بعض حاجته فرجع إلى صاحبه وقال: إني رأيت كثيراً في موضع كذا. فقال عمر فابعثوا اليه ليصير إلينا. فقال الأحوص: أهو يصير اليكم؟ هو والله أعظم كبراً من ذلك. قال: فصاروا اليه وهو جالس على جلد كبش. فوالله ما رفع أحداً منهم ولا القرشي[٣٥].

وكذلك كان جرير يعهد فيه هذا الشمم فيوليه الأحترام. فقد قال له: أي رجل أنت لولا قامتك، أو قال لولا دمامتك فأجابه كثير:

أن أك قصداً في الرجال فإنني إذا حل أمر ساحتي لطويل[٣٦].

ولا شك أن الغلو في التشامخ يعكس ما يعانيه من نقص بسبب عشابته المتناهية ويرسم المفارقة بين علو همته وضآلة قامته ودمامته. ومثلما انتحل الكبرياء ليجعل لذاته منزلة منيعة في النفوس أضفى على محياه الجمال والجلال وأسبغ على نفسه البهاء والنضارة ما شاء لطاووس خيلائه ولشاعريته أن يضفي ويسبغ فقال:

متى تحسروا عن العمامة تبصروا جميل المحيا اغفلته الدواهن
بروق العيون الناظرات كأنه هرقلي وزن أحمر الثبر وازن[٣٧]

وإنه يملأ قلوب النساء هيبة ويثير بينهن الغيرة:

وكنت إذا ما جئت أجللن مجلسي وأظهرن مني هيبة لا تجهما
يحاذرن مني غيرة قد علمنها قدبماً فما يضحكن إلا تبسما
يكللن حد الطرف عن ذي مهابة ابان ألات الدل لما تبسما[٣٨]..

هذه الصفات دفعت الشعراء الى هجائه والنساء الى التندر به وخاصة أميرات المدينة فكن يتحرشن به فيتناولن قصره ودمامته ويغاضبنه ثم ينقلبن إلى شعره في الغزل فيطربنه ويسفرن أمامه ويعرفنه بأنفسهن وقبل أن يودعنه ينفحنه ببدر الدراهم ليغرينه بالتغزل بمحاسنهن حتى يزددن حظوة عند أزواجهن أو حتى يسمع بهن في مجالس الأدب والطرب التي كانت تتجاوب اصداؤها في جنبات الحجاز والعراق والشام ومصر وبذلك تسطع كواكبهن في سماء الشهرة[٣٩].

ولكن كثيراً على كبره وابهته لم يكن كزاً زميتاً بل أنه لأريحي يهش

(٣٣) العقد الفريد ٥: ٢٩٧.
(٣٤) أمالي المرتضى ٣: ١١٩.
(٣٥) العقد الفريد ٥: ٣٧٢
(٣٦) الأغاني ٩: ٦.
(٣٧) الأغاني ١٢: ١٨٤، ١٨٧.
(٣٨) عيون الأخبار ٤: ٧٨.
(٣٩) الأغاني ١: ٣٥٦. المحاسن والأضداد: ١٣٨.

للدعابة إذا آنس فيها سلامة الطوية كما نراه مع العجوز العمياء. خرج يوماً من عند عبد الملك بن مروان وعليه مطرف خز فاعترضته عجوز عمياء في الطريق اقتبست ناراً في روثة. فقال لها تنحي عن الطريق. فقالت له: ويحك ومن تكون؟ فقال: كثير عزة. فقالت قبحك الله. وهل مثلك يتنحى له عن الطريق! قال: لم؟ فقالت ألست القائل:

وما روضة بالحزن طيبة الثرى ... يمج الندىٰ جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزة موهناً ... إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

فقال: نعم. فقالت: ويحك لو أوقدت المندل الرطب على هذه الروثة وتبخرت بها امك الشنآء لطابت رائحتها فهل قلت كما قال سيدك أمرؤ القيس:

ألم تـرياني كلما جئت طارقاً ... وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

فناولها المطرف وقال: استري علي هذا[٤٠].

وقد تعصب عليه بعض المؤرخين فزعم انه كان أحمق لحادثة جرت بينه وبين يزيد بن عبد الملك صاحب حبابة التي ولاها يوماً الخلافة. كما زعم طه حسين انه كان أعور لأن هناك من اتهم كثيراً بأنه الدجال ـ لأنه كان يتشيع تشيعاً قبيحاً والدجال في الأساطير أعور[٤١] بقي أن نشير إلى أن كثيراً كان ممن يتيامنون بالبوارح ويتشاءمون بالسوانح، فإن الغراب هو الذي انذره بموت عزة كما ان ظباء سوانح وغراباً يفحص التراب بوجهه حوادث أخبرته انه لن يستطيع الزواج بامرأة من قبيلته:

تيممت شيخاً منهم ذا بجالة ... بصيراً بزجر الطير منحني الصلب
فقلت له: ماذا ترى في سوانح ... وصوت غراب يفحص الوجه بالترب
فقال: جرى الطبي السنيح ببينها ... وقال: غراب جد منهمر السكب
فإن لا تكن ماتت فقد حال دونها ... سواك خليل من بني كعب

ويستنتج من الأخبار الكثيرة انه كان على درجة متقدمة من الثقافة. فقد سبق وأشرنا الى انه طلب من عبد العزيز بن مروان أن يوليه الكتابه وهذا يدل على انه كان يتقنها الى درجة بعثت طموحه الى أن يتقلدها لوالي مصر.

كما كان كثير راوية جميل بثينة[٤٣] ومعجباً به يعده أمامه في الحب والغزل. وأغلب الظن أنه كان يدون شعر جميل ليستعين بكتابته على حفظه وروايته.

وقد كان مع معرفته بالكتابة علماً من اعلام الأدب والأخبار في عصره تشد اليه الرحال التماساً لما عنده. قال حماد الراوية: قدمت المدينة فدخلت المسجد فكان أول من دفعت اليه كثير عزة[٤٤]. كما عرف شعره شهرة بلغت حد الأساطير[٤٥]

وفاته

ذكرت المصادر خمسة تواريخ لوفاة كثير هي سنة ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٥هجرية. وأغلب الظن أنها كانت سنة ١٠٥ لأن الذي ذكر أنه توفي سنة ١٠٥ كان شاهد عيان وهو خالد بن القاسم البياضي الذي قال: مات عكرمة مولى ابن عباس وكثير عزة في يوم واحد في سنة خمس ومائة فرأيتهما جميعاً صلى عليهما في موضع واحد بعد الظهر[٤٦].

كما نستبعد أن تكون وفاته عام ١٠٦ أو ١٠٧ أي أول خلافة هشام بن عبد الملك لأننا لا نجد له شعراً فيه ولا أخباراً له معه سوى خبر واحد نرويه لما فيه من طرافة القصص الغرامي لاقناعه بصحته وهو من خيال أهل القصص الذين أحبوا أن يختموا حياة كثير وعزة بمأساة تثير الشجن فقالوا:

لما حج الفرزدق اجتمع بكثير ورأى غرامه بعزة ـ وقد تزوجت ـ فلما قدم الشام أخبر هشاماً بذلك فقال لكاتبه أكتب اليه بالحضور الى عندنا لنطلق عزة من زوجها ونزوجها أياه. فكتب بذلك فخرج كثير يريد دمشق. فلما سار قليلاً رأى غراباً على بانة وهو يفلي نفسه وريشه يتساقط. فاصفر لونه وارتاع وجد في السير. ثم مال إلى حي من نَهْد فقص قصته على شيخ منهم فقال الشيخ: الغراب: اغتراب. والبانة: بين. والفلي: فرقة. فازداد حزناً فوصل الى دمشق، وجد الناس يصلون على جنازة. فقام وصلى معهم فلما انقضت الصلاة أخبره رجل! إن هذه عزة قد ماتت وهذه جنازتها فخر مغشياً عليه. فلما أفاق انشد:

رأيت غراباً واقفاً فوق بانة ... ينتف أعلى ريشه ويطايره
فقلت ولو إني اشاء زجرته ... بنفسي للنهدي هل أنت زاجره
فقال: غراب لأغتراب من النوى ... وبانة بين من حبيب تعاشره
فما أعرف النهدي لا در دره ... وأزجره للطير لاعز ناصره

ثم شهق شهقه فمات من ساعته ودفن مع عزة في يوم واحد[٤٧]. والأختراع الخيالي العاطفي ظاهر في الحكاية.

علماً بأن عزة توفيت سنة ٨٥ للهجرة[٤٨]. في أواخر خلافة عبد الملك ورثاها بقصيدة طويلة وقد تغير شعره بعدها وقل. فقال له قائل: ما بال شعرك قصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فما أطرب وذهب الشباب فما أعجب ومات ابن ليلى فما أرغب. ابن ليلى: عبد العزيز بن مروان[٤٩].

أما التاريخ الأخير الذي جعل وفاته عام ١١٥هـ فخطأ لأن كثيراً لما مات صلى عليه وشيعه الأمام محمد الباقر عليه السلام وقد توفي الإمام الباقر سنة ١١٤ هـ.

أما عمره فقد بلغ حوالي اثنتين أو ثلاث وثمانين حجة. قال المرزباني توفي عكرمة وكثير بالمدينة في يوم واحد سنة خمس ومائة في ولاية يزيد أو في أول خلافة هشام وقد زاد واحدة أو أثنين على ثمانين سنة[٥٠].

وإذا رجحنا أنه توفي سنة ١٠٥ وإنه عاش اثنتين وثمانين سنة فالأرجح أن ميلاده كان عام ٢٣ هجرية.

حبه عزة

كان معظم شعر كثير في الغزل. وكان معظم غزله في عزة، ويجد الدارس في هذا القسم من شعره أحسن تصوير لقصته معها وأصدق تعبير عن حبه لها.

ولكن بعض القدماء زعم أنه لم يكن صادقاً في حبه. وإنما كان مدعياً يقول ابن سلام: كان جميل صادق الصبابة والعشق. ولم يكن كثير بعاشق ولكنه كان يتقول[٥١]. وقد ردد الأصفهاني قول ابن سلام[٥٢]. وتلقف طه حسين هذه الأشارات ليتكلم على كثير بما يشبه الحقد فهو يعده في الغزليين ليخرجه منهم وهو لم يكن ـ حسب رأي الدكتور ـ ماهراً ولا

(٤٠) الموشح: ١٥١.
(٤١) حديث الأربعاء ١: ٣٦١.
(٤٢) الأغاني ٩: ٣٤.
(٤٣) تاريخ الأدب العربي ١: ١٩٥.
(٤٤) الأغاني ٩: ٢٧٥.
(٤٥) م. ن: ٣٠٩.
(٤٦) م. ن: ٣٦.

(٤٧) المستطرف ٢: ٢٠٤، روضات الجنات ١: ٥١٠.
(٤٨) إعلام النساء ٢: ١٠١٢.
(٤٩) م. ن.
(٥٠) أعيان الشيعة ٩: ٢٥.
(٥١) طبقات الشعراء: ١٢٤.
(٥٢) الأغاني ٩: ٣٢، ٣٣.

موفقاً في تكلف الغزل ولا صافي الطبع ولا رقيق الحس ولا دقيق الشعور ولا قوي العاطفة ولا ذكي الفؤاد وإنما كان بريئاً من هذا كله . . . بل كان دميماً قبيحاً بشع المنظر مضحكاً لمن يراه مضحكاً لمن يسمعه ويتحدث اليه. وكان أحمق مسرفاً في الحمق ضعيف العقل الى حد غريب . . .

ومع هذا كله فليس من شك في ان كثيراً قد كان شاعراً مجيداً بل عظيم الحظ جداً من الأجادة(٥٣) . . . !!

ولعل في رد أعيان الشيعة على طه حسين ما يوفر علينا مهمة القيام بذلك(٥٤).

ومما لا شك فيه إن الباحث الممحص لا يمكنه إلا أن يلاحظ مدى التجني على كثير في هذه القضية كتجنيهم عليه بأنه أحمق وإنه أعور ولعل أصل هذه المزاعم جميعاً هو اتهامهم له بالغلو في التشيع .

وأغلب الظن أن قصة كثير وعزة قصة حقيقية ذكرها المؤرخون ولو انها لم تسلم من إضافات القصاص في بعض مواقفها وحواشيها إلا إنها إضافات تتمشى مع روحها وفصولها وجوها ولا تخل بحقيقتها .

لقاؤه الأول معها ــ يرويه ابو الفرج: خرج كثير في فجر حياته من منزله يسوق جلب غنم الى الجار فلما كان بوادي الخبث وقف على نسوة بني ضمرة فسألهن عن الماء. فقلن لعزة ــ وهي جارية قد كعب ثدياها ــ ارشديه. فأرشدته فأعجبته. ثم جاءته عزة بدراهم فقالت: تقول لك النسوة بعنا بهذه الدراهم كبشاً من ضأنك فدفع اليها كبشاً وقال: ردي الدراهم. وقولي لهن إذا رجعت: اقتضيت حاجتي منكن. فلما رجع جاءته امرأة منهن بدراهمه فقال: وأين الصبية التي أخذت مني الكبش؟ قالت: وما تصنع بها؟ هذه دراهمك. قال: لا آخذ دراهمي إلا ممن دفعت لها الكبش. فمزحن معه وقلن: ويحك عزة جارية صغيرة وليست بها وفاء لحقك فاحمله على أحدانا فأنها أملأ به واسرع له اداء! فقال ما أنا بمحيل حقي عنها. فقلن له: أبيت إلا عزة. وأبرزنها اليه وهي كارهة. ثم احبته عزة بعد ذلك أشد من حبه اياها(٥٥).

وقد قال في هذا اليوم:

نظرت اليها نظرة ما يسرني ... بها حمر انعام البلاد وسودها

فغدا من يومها متبولاً بهواها مترنما بمفاتنها حالماً بفردوسها ولكنه قضى وهو يرتل آيات الفتنة دون ان تكتب له فردوس الأحلام .

وقد يكون من ابرز اسباب ذلك بعد النسب وتباين المستوى الاجتماعي. فكثير خزاعي من بيت ليس له نباهة في علم أو حديث أو شعر أو خطابة أو تأليف أو ثراء أو ضيافة أو إمارة سياسية أو عسكرية بل كان كثير علمه الفرد وقد نشأ يرعى الأبل والغنم. أما عزة فقرشية من بيت جاه وفقه وثراء وجود فأبوها أبو بصرة صحابي روي عنه الحديث وموسر وجواد يوقد نار القرى كما وصف ذلك كثير:

رأيت وأصحابي بأيلة موهنا ... وقد لاح نجم الفرقد المتصوب

لعزة ناراً ما تبوخ كأنها ... إذا ما رمقناها من البعد كوكب(٥٦)

كما كانت عزة ربيبة عز ونعمة قد زكاها المحتد الأصيل في الحسب الرفيع فنشأت حرة مدللة خفرة مترفة كما وصفها:

هي الحرة الدل الحصان ورهطها ... إذ ذكر الحي الصريح المهذب

من الخفرات البيض لم تر شقوة ... وفي الحسب المحض الرفيع نجارها

أما هو فكان فقيراً ويبدو من بعض شعره أنه كان عاجزاً عن تأمين مهرها:

وإن الذي ينوي من المال أهلها ... أوارك لما تأتلف وعوادي

والأوراك الأبل التي ترعى الأراك.

كما قد يكون اشتهار أمرهما سبباً من أسباب التفرقة بينهما جرياً على عادات العرب في تلك الأيام .

ومن يعد إلى شعره يجد فيه وصفاً لصباها وقدها وأنفها وجيدها وشعرها وعيونها ومحياها ووجهها وثغرها وصوتها :

رهبان مَدْيَنَ والذين عهدتهم ... يبكون من حذر الآله قعودا

لو يسمعون كما سمعت كلامها ... خروا لعزة ركعاً وسجودا

كما يصف عطرها وشذاها وبخورها وتعطرها ومشيتها ولمستها :

والميت ينشر أن تمس عظامه ... مساً ويخلد في النعيم خلودا

وإذا كانت صورة عزة في شعر كثير بارعة الجمال فهل كانت كذلك في الواقع؟ قالت قسيمة بنت عياض بن سعيد الأسلمية: سارت علينا عزة في جماعة من قومها بين يدي يربوع وجهينه فسمعنا بها فاجتمع جماعة من نساء الحي ــ أنا فيهن ــ فجئناها فرأيناها امرأة حلوة حميراء ــ بيضاء ــ نظيفة فتضاء لنا لها ومعها نسوة كلهن لها عليهن فضل في الجمال والخلق إلى ان تحدثت ساعة فإذا هي ابرع الناس وأحلاهم حديثاً فما فارقناها إلا ولها علينا فضل فى أعيننا وما نرى فى الدنيا امرأة تفوقها جمالاً وحسناً وحلاوة(٥٧)

وقال أحد بني جدي ــ أقربائها ــ: كانت عزة من أجمل النساء وآدبهن واعقلهن(٥٨) .

لطالما ارسل كثير تنهدات متأججة بالحسرة على حرمانه منها:

منعمة لم تلق بؤس معيشة ... هي الخلد في الدنيا لمن يستفيدها

فتلك التي اصفيتها بمودتي ... وليداً ولما يستبين لي نهودها

وانت المنى يا أم عمرو لو أننا ... ننالك أو تدنى نواك الصفائف

ولا بد من الأشارة في هذا المجال إلى أنه ندر كما هو عند معظم العذريين أو انعدم كما هو عند كثير التصريح بأحلام الوصال والنوال من همسة أو لمسة أو شمة أو ضمة أو قبلة أو عناق وإذا تطرق الى ذلك فإنه لا يتجاوز غير الكلمة والنظرة.

وقد تعرض أهل عزة لكثير ونهوه عن ذكرها وأوقعوا به وقعة نكراء. وقد نهاه بنو جدي عن ذكرها. فلما لم يمتثل ترصدوا له حتى ظفروا به حين رحل أهلها جالين إلى مصر. فتبعها على راحلته فزجروه فأبى إلا أن يلحقهم بنفسه فقعد له عون ــ أحد بني جدي ــ في تسعة من بني جدي على محالج ، فلما جاز بهم تحت الليل أخذوه ثم عدلوا به عن الطريق الى جيفة حمار كانوا يعرفونها من النهار. فأدخلوه فيها وربطوا يديه ورجليه. ثم أوثقوا بطن الحمار. فجعل يضطرب فيها ويستغيث ومضوا عنه فاجتاز به خندق الأسدي فسمع استغاثته فعدل الى الصوت فوجد في الجيفة انساناً. فسأله من هو وما خبره فأطلقه وحمله والحقه ببلاده(٥٩).

ومع ذلك فإن لا شيء يثنيه عن عزة:

ولست وأن أوعدت فيها بمنته ... وإن اوقدت نار فشب وقودها

يقول العدى: يا عز قد حال دونكم ... شجاع على ظهر الطريق مصمم

فقلت لها: والله لو كان دونكم ... جهنم ما راعت فؤادي جهنم

---

(٥٣) حديث الأربعاء ١: ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥ . .

(٥٤) اعيان الشيعة ٩: ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨ .

(٥٥) الأغاني ٩: ٢٥ .

(٥٦) الأغاني ٩: ٢٤ .

(٥٧) الأغاني ٨: ٢٩ .

(٥٨) الأغاني ١٢: ١٧٦ .

(٥٩) الأغاني ١٢: ١٧٦ .

عقيدتـه

ينقل (الأعيان) عن المرزباني قوله: كان شاعر أهل الحجاز في الاسلام لا يقدمون عليه أحداً وكان أبرش قصيرا . . .

وكان يتشيع ويظهر الميل إلى آل رسول الله وهجا عبد الله بن الزبير لما كان بينه وبين بني هاشم. وكان شاعر بني مروان وخاصاً بعبد الملك وكانوا يعظمونه ويكرمونه(٦٠).

من هنا تبدأ مشكلة البحث في عقيدة كثير: كيف كان يتشيع وكيف كان شاعر بني مروان؟

طه حسين حل هذه المشكلة ببساطة عندما اتهم كثيراً بالنفاق السياسي يقول: كان ذا مذهب سياسي، أو قل كان له مذهبان متناقضان أشد التناقض يرجعان آخر الأمر الى مذهب واحد معروف في ذلك الوقت هو النفاق السياسي. كان فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين الله متشيعاً غالياً في التشيع يرى مذهب الكيسانية ويقدم محمد بن الحنفية ويؤمن بالرجعة. وله في ذلك أعاجيب وشعر جيد. وكان فيما بينه وبين الناس نصيراً لبني أمية يمدحهم ويغلو في مدحهم ويعاشرهم ويفاخر بعشرتهم(٦١).

ولكن هل الأمر بهذه البساطة فعلاً؟ صاحب الفرق بين الفرق يعتبر كثيراً شاعر الكيسانية الأول والكيسانية على حد زعمه من فرق الرافضة وهم اتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي قام بثأر الحسين بن علي بن أبي طالب وقتل أكثر الذي قتلوا حسيناً بكربلاء وكان المختار يقال له كيسان. وقيل انه أخذ مقالته عن مولى لعلي رضي الله عنه كان اسمه كيسان(٦٢).

ثم يضيف: وكان كثير الشاعر على مذهب الكيسانية الذين ادعوا حياة محمد بن الحنفية ولم يصدقوا بموته ولذا قال في قصيدة له:

ألا أن الأئمة من قريش ... ولاة الحق اربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

ويجيبه عبد القاهر عن ابياته بقوله:

ولاة الحق اربعة ولكن ... لثاني اثنين قد سبق العلاء
وفاروق الورى أضحى إماماً ... وذو النورين بعدله الولاء
علي بعدهم أضحى إماماً ... بترتيبي لهم نزل القضاء
ومبغض من ذكرناه لعين ... وفي نار الجحيم له الجزاء
وأهل الرفض قوم كالنصارى ... حيارى ما لحيرتهم دواء

ثم يضيف وقال كثير في رفضه:

برئت الى الآله من ابن أروى ... ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عمر برئت ومن عتيق ... غداة دعي أمير المؤمنينا

ويجيبه عبد القاهر:

برئت من الآله ببغض قوم ... بهم أحيا الآله المؤمنينا
وما ضر ابن أروى منك بغض ... وبغض البر دين الكافرينا
أبو بكر به جد لي إمام ... على رغم الروافض أجمعينا
وفاروق الورى عمر بحق ... يقال له أمير المؤمنينا(٦٣)

وواضح من ابيات كثير انه لم يجعل إلا للإمام علي وبنيه وحدهم الحق في لقب الإمام وإمارة المؤمنين أما من حملوا هذين اللقبين من غيرهم فهم غاصبون.

ولم تكن تطرح قضية عقيدة كثير لولا شعره الذي قاله في بني مروان الى حد جعل البعض يطلق عليه لقب شاعر بني مروان. بل أن الإمام محمد الباقر عليه السلام قرعه بقوله: كيف يقبل طبعك على مدح اعدائنا؟ فزعم له بأنه لم يكن يمدحهم وإنما كان يموه عليهم وإنه يجعلهم حيات وعقارب ليأخذ أموالهم وإنه لم يقل لعبد الملك في ذلك المدح إنه «إمام الهدى» بل قال إنه شجاع والشجاع اسم للثعبان ايضاً وإنه قال أسد والأسد اسم للكلب(٦٤) ويعني بهذا قوله في عبد الملك!

يقلب عيني حية بمحارة ... إذا أمكنته شدة لا يقيلها

ولكن مما لا ريب فيه إنه في كل مدائحه لبني مروان وتأييده لخلافتهم لم يكن صادراً عن إيمان بحقهم الشرعي فيها. وإنما كان يقول ما يقول خوفاً من الموت وتشبثاً في الحياة. وغير خاف على أحد الذي عاناه أهل البيت وشيعتهم من تعسف الحكم الأموي وقتله وتشريده لآل البيت واتباعهم مما هو معروف ومتداول في كتب التاريخ كافة.

كما أن كثيراً لم يكن الشاعر الوحيد الذي عرف ما يمكن أن نسميه «أزدواجية الولاء» فالفرزدق كان كذلك، والكميت بن زيد شاعر الشيعة وصاحب «الها شميات» وجد نفسه مضطراً أن يقول:

الآن صرت الى أمية والأمور لها مصائر
انتم معادن للخلافة كابراً من بعد كابر(٦٥)

وابن قيس الرقيات شاعر الزبيريين الذي ظل طيلة حياته يصول بشعره على عبد الملك كان عليه أن يقول بعد مقتل ابن الزبير أمام عبد الملك:

ما نقموا من بني أمية ... إلا أنهم يحلمون أن غضبوا
وإنهم معدن الملوك فلا ... تصلح إلا عليهم العرب(٦٦)

ويكفي ان نذكر ان أكبر طاغيتين عرفهما العرب اعني زياد بن ابيه والحجاج بن يوسف كانا من ولاة بني أمية

وملفت للنظر ان يجمع الرواة والمؤرخون على التأكيد على تشيع كثير ورفضه على الرغم من كثرة ما قاله من شعر في مديح بني مروان مما يعني أنه كان كذلك بالفعل وإن جل همه أن يحمي رأسه وسلوكه الفعلي بأقوال لا يعنيها بالضرورة. ويبدو أن هذه الحقيقة لم تكن تخفي على ملوك بني أمية. لما عزم عبد الملك المسير الى مصعب بن الزبير نظر فرأى كثيراً في ناحية من عسكره يسير مطرقاً فدعا به وقال:

لأعلم ما اسكتك وألقى عليك بشك. فإن أخبرتك عنه اتصدقني؟ قال: نعم. قال: قل وحق أبي تراب لتصدقني. قال: والله لأصدقنك. قال: لا أو تحلف به. فحلف به. فقال: تقول رجلان من قريش يلقى أحدهما صاحبه فيحاربه القاتل والمقتول في النار فما معنى سيري مع أحدهما إلى الآخر ولا آمن سهماً عائراً لعله أن يصيبني فيقتلني فأكون معهما؟ فقال والله يا أمير المؤمنين ما أخطأت قال: فأرجع من قريب وأمر له بجائزة(٦٧).

وأخلص كثير في مديحه لعمر بن عبد العزيز أخلاصاً مبعثه موقف عمر من آل البيت حيث منع شتم علي عليه السلام واعتبر كثير هذا الموقف من أبرز مآثر عمر بن عبد العزيز على كثرتها:

(٦٠) اعيان الشيعة ٩: ٢٥.
(٦١) حديث الأربعاء ١: ٢٨٦.
(٦٢) الفرق بين الفرق: ٢٧.
(٦٣) م. ن: ٢٨، ٢٩.
(٦٤) الموشح: ١٤٤.
(٦٥) روضات الجنات١: ٥١١.
(٦٦) العصر الاسلامي: ٢٩٨، ٢٩٩.
(٦٧) الأغاني ٩: ٢١، ٢٢.

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف
بريا ولم تقبل إساءة مجرم(٦٨)

وكانت فترة حكم عمر بن عبد العزيز مناسبة لكثير ليظهر مدى إيمانه بآل البيت يقول:

لعن الله من يسب علياً	وبنيه من سوقة وإمام
أيسب المطهرون جدوداً	والكرام الأخوال والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا	يأمن آل الرسول عند المقام
رحمة الله والسلام عليهم	كلما قام قائم الاسلام(٦٩)

ورثى صديقه خندق بن مرة الأسدي الذي قضى قتلاً لأتهامه ظلماً بالتعرض للشيخين ومما قاله فيه:

فلو فوديت من حدث المنايا	وقيتك بالطريف وبالتلاد
لقد اسمعت لو ناديت حياً	ولكن لا حياة لمن تنادي(٧٠)

ومهما يكن من أمر فإنه من الصعوبة بمكان إخضاع كثير لمفاهيمنا المعاصرة بالالتزام العقائدي فبينما نجده يكن في ضميره حب أئمته آل البيت نرى لسانه يلهج بمدح غاصبي حقهم. وهو وإن لم يدع مناسبة تفوته ليعبر فيها عن مكنونات ضميره فإنه لم يدع مناسبة ايضاً تفوته ليكسب مالاً أو حظوة من أصحاب السلطان في عصره الذين عرفوا كيف يفيدون منه ومن أمثاله في الترويج لسلطانهم مع قناعتهم بأنه يقول بلسانه ما لا يؤمن به في قلبه.

كثير الشاعر

مصادر شعره:

من المرجح انه كان لكثير ديوان بخط يده. فقد كان راوية جميل بثينة وكان يجيد الكتابة. فإذا صح أنه كان يعني بحفظ ورواية شعر جميل فإنه من باب أولى أن يعني بجمع شعره هو.

وقد ذكر أبو الفرج أن ولد جمعة بنت كثير قال: وجدت في كتب أبي التي فيها شعر كثير أن عبد الملك بن مروان قال لكثير: ويحك الحق بقومك من خزاعة(٧١).. مما يسمح بالظن انه كان عند زوج ابنته صحف تضم شعره.

ويذكر الأصفهاني ايضاً ان عبد الله بن أبي عبيدة المتوفى منتصف القرن الثالث الهجري كان يملي شعر كثير بثلاثين ديناراً(٧٢).

وذكر ابن القيسراني المتوفى ٥٠٧هـ إن ابا علي القالي قال وشعر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي: تام جزءان قرأتهما على ابن دريد(٧٣).

وقد ذكر هنري بيريس أن ابن السكيت ومحمد بن حبيب قد جمعا شعر كثير. وقد المح الى شرح ابن السكيت جرجي زيدان ايضاً(٧٤).

ومهما يكن من أمر فإن نسخ الديوان لم تصلنا وكذلك المؤلفات التي تناولت اخبار كثير وأهم مجموعة من شعر كثير التي بين أيدينا الآن هي ما جمعه هنري بيريس من مصادر كثيرة وقد جعله في جزءين وسماه شرح ديوان كثير عزة ونشره في الجزائر عام ١٩٢٨. ومجموعة بيريس لم تحو كل ما لكثير من شعر يدل على ذلك القصائد التي رواها محمد بن المبارك في منتهى الطلب وهي ست عشرة قصيدة معظمها لا توجد في مجموعة بيريس(٧٥). كما ذكر بروكلمان وجود قصائد متفرقة لكثير في برلين ومانشستر(٧٦). موضوعات شعره:

معظم ما وصلنا من نتاج كثير يدور على غرضين الغزل والشعر السياسي الذي يشتمل على شعره الشيعي الذي عبر عن إيمانه بحق آل البيت في الخلافة وهذا الشعر يمثل المرحلة الأولى من حياته السياسية.

أما المرحلة الثانية فتبدأ منذ انتقاله الى بلاط عبد الملك بن مروان حيث أعلن ما يناقض عقيدته الأولى مؤيداً بني مروان متجاوزاً حد التقية التي تبيح له ان يخفي ما يعتقد فحسب دون ان يجاهر بخلافه.

أضافة إلى هذين الغرضين فقد طرق اغلب اغراض الشعر في عصره كالوصف والفخر والهجاء والرثاء والحكم. ولكن هذه الأغراض لم ينظمها قصائد مستقلة وإنما نجدها مبثوثة بين الغزل والسياسة.

الغزل العذري

زكي مبارك على الرغم من تحامله على كثير إذ يرى فيه شيعياً مفرطاً في التشيع الى حد السخف لا يلبث ان يقول انه من العناصر الأساسية في تكوين شخصية كثير عنصر العشق وكان امتحن بهوى عزة بنت جميل. ثم ينقل عن ابي الفرج قوله: على انه قد قيل انه كان في ذلك كاذباً ولم يكن بعاشق ليضيف: ليس من العسير ان ندرك ان اتهام كثير بالكذب في العشق لم يكن إلا صورة جديدة من صور السخرية منه والتحامل عليه. وهو خلافاً لطه حسين يذكره بين العشاق ليثبته بينهم إذ ان كثيراً حسب رأيه أعز الحب أكرم الأعزاز وصيره من الشرائع وتحدث عن آدابه أجمل الحديث وسارت قصائده في الحب مسير الأمثال(٧٧).

ولا ريب أن أجمل صفحة في حياة كثير هي التي تصور قصة حبه لعزة. وعندما نقرأ الشعر الذي انشده فيها نجد امامنا قصة من اصدق قصص الحب العذري فقد كان هذا العاشق ذا قلب مرهف الاحساس وكان فوق ذلك شاعراً فصيحاً فلا يكاد يختلج في جنانه شعور من مشاعرالحب حتى يطفح على لسانه شعراً. وشعر كثير في الغزل يندرج في السياق العام لشعراء الغزل العذري فهو يعبر عن ألم الفراق ومكابدة الأشواق على أنه لا يشفق من فراقها بقدر ما يشفق من تغيرها بعده:

ألا ليت شعري بعدنا هل تغيرت
عن العهد أم أمست كعهدي عهودها
إذا ذكرتها النفس جنت لذكرها
وريعت وحنت واستخف جليدها

اما هو فيعاهد نفسه على ان لا يغدر بعد المواثيق والعهود:

لا تغدرن بوصل عزة بعدما	أخذت عليك مواثقاً وعهودا
أن المحب إذا أحب حبيبه	صدق الصفاء وانجز الموعودا

ويعزف كثير في قصائده ومقطوعاته الغزلية ألحان الثبات على الحب والصبر والحنين برغم بخل الحبيب وصدوده وهجرانه وحرمان الحبيب من لذات الوصال. والحنين والصبر رغم الحرمان هما آية العفة والصدق في الحب العذري. ولكن هذا لا يحول بين الشاعر وبين الشكوى:

أفي الحق أن قلبك سالم	صحيح وقلبي من هواك سقيم
وان بجسمي منك داء مخامر	وجسمك موفور عليك سليم(٧٨)

(٦٨) منتهى الطلب ٣: ٣٤١.
(٦٩) الحيوان ٣: ١٩٤.
(٧٠) الأغاني ٢: ١٧٨.
(٧١) الأغاني ٩: ١١.
(٧٢) الأغاني ٩: ٥.
(٧٣) الأنساب المتفقة: ١٩١.
(٧٤) تاريخ أداب اللغة العربية ١: ٣٣٤.
(٧٥) منتهى الطلب ٣: ٣٤٨.
(٧٦) تاريخ الأدب العربي ١: ١٩٦.
(٧٧) العشاق الثلاثة: ٥٠، ٥٤، ٥٥.
(٧٨) منتهى الطلب ٣: ١٦٩.

وهو كسائر العذريين قد سلبت حبيبته لبه بحيث لم يعد يفقه ولا يسمع ما يقول العذال والوشاة:

يلومك في ليلى وعقلك عندها
رجال ولم تذهب لهم بعقول
وقد قرع الواشون فيها لك العصا
وإن العصا كانت لذي الحلم تقرع

ونحن نجد له أبياتاً يشعر من يقرأها انها صادرة عن تجربة حقيقية:

وحبك ينسيني من الشيء في يدي
ويذهلني عن كل شيء أزواله
يود بأن يمسي سقيماً لعله
إذا سمعت عنه بشكوى تراسله
ويرتاح للمعروف في طلب العلا
لتحمد يوماً عند ليلى شمائله

وسئل عن أعجب خبر له معها فقال: حججت سنة من السنين وحج زوج عزة بها ولم يعلم أحدنا بصاحبه. فلما كنا ببعض الطريق أمرها زوجها بابتياع سمن يصلح به طعاماً لأهل رفقته. فجعلت تدور الخيام خيمة خيمة حتى دخلت خيمتي وهي لا تعلم انها خيمتي. وكنت أبري سهاماً لي. فلما رأيتها جعلت ابري وانظر إليها حتى بريت ذراعي وأنا لا أشعر والدم يجري. فلما تبينت ذلك دخلت الي فأمسكت بيدي وجعلت تمسح الدم بثوبها. وكان عندي نحي سمن فحلفت لتأخذنه. فجاءت به الى زوجها فلما رأى الدم سألها خبره فكاتمته حتى حلف عليها لتصدقنه. فلما اخبرته ضربها وحلف لتشتمني في وجهي. فوقفت علي وهو معها فقالت يا ابن الزانية وهي تبكي. وانصرفا وفي ذلك يقول هذه الأبيات:

يكلفها الغيران شتمي وما بها
هوانى ولكن للمليك استذلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر
لعزة من اعراضنا ما استحلت
اسيئي بنا أو أحسني لا ملومة
لدينا ولا مقلية ان تقلت
فما أنا بالداعي لعزة بالجوى
ولا شامت أن نعل عزة زلت
فلا يحسب الواشون أن صبابتي
بعزة كانت غمرة وتجلت
فوالله ثم الله ما حل قبلها
ولا بعدها من خلة حيث حلت
وما مر من يوم علي كيومها
وأن عظمت ايام أخرى وجلت
أناديك ما حج الحجيج وكبرت
بَفيْفا غزال رفقة وأهلت[٧٩]

ورثاها بعد وفاتها بقصيدة من رقيق الشعر ومما جاء فيها:

وقد كنت أبكي من فراقك حية
وأنت لعمري اليوم أنأى وانزح
فيا عز انت البدر قد حال دونه
رجيع تراب والصفيح المضرح

(٧٩) شرح ديوان كثير عزة ١: ٥٤.

وما نظرت عيني إلى ذي بشاشة
من الناس إلا أنت في العين أملح
ألا لا أرى بعد ابنة النضر لذة
لشيء ولا ملحاً لمن يتملح
فلا زال رمس ضم عزة سائلاً
به نعمة من رحمة الله تسفح[٨٠]

وهذه الأبيات وسواها الكثير لا يمكن ان تؤيد من يزعم أن كثيراً لم يكن صادق الصبابة وإنه كاذب مدع في هواه وإن غزله مجرد غزل تقليدي. فعلى حين زعم ابن سلام والأصفهاني بأن كثيراً كان يكذب ويوردان القصص والأخبار التي لا تخلو من تلفيق أحياناً نجد ابن أبي حفصة يضرب المثل بكثير في صدق الصبابة ويجعله في عداد أشهر الذين اشتهروا بالحب العذري كعروة والمرقش والنهدي وأبي ذؤيب الهندلي وجميل بثينة وذلك حيث يقول عن الغواني:

أردين عروة والمرقش قبله
وأخا بني نهد تركن قتيلا
ولقد تركن ابا ذؤيب هائماً
ولقد قتلن كثيراً وجميلا[٨١]

أما موقف عزة منه كما يبدو من شعره فهو يتراوح بين الحب والصد. ومهما يكن من أمر فإن قدر العذريين ان تتصانف اسماؤهم أبد الدهر أما هم فمن غير الثابت إنهم تعانقوا لحظة واحدة طوال العمر.

شعره السياسي

سبق وأشرنا ان مولد كثير كان حوالي سنة ٢٣هـ وهي السنة التي توفي فيها عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان وإن وفاته كانت حوالي سنة ١٠٥ وهي السنة التي فيها توفي يزيد بن عبد الملك وتولى أخوه هشام وإنه عاش حوالي ثلاثة وثمانين سنة. فمتى ابتدأ حياته السياسية؟ وهل ابتدأها شيعياً وانتهى مروانياً؟

إن أقصى ما يمكن أن نصل اليه هو أحكام تقريبية لأنه لم يصلنا من شعره إلا أقله، وأقل أقله كان شعره السياسي وأقل ذلك الأقل كان شعره الشيعي الذي يمثل المرحلة الأولى في حياته السياسية. فقد حدثت في شبابه أحداث جسام لا نجد لها صدى في شعره وهذا أمر يصعب تفسيره فمن استشهاد الإمام علي عليه السلام سنة ٤٠هـ إلى صلح الإمام الحسن (ع) وتنازله لمعاوية سنة ٤١هـ الى تولي يزيد الخلافة سنة ٦٠هـ الى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام سنة ٦١هـ. فنحن نرجح ضياع الكثير من شعر كثير حول معظم هذه الموضوعات إذ من الثابت أن كثيراً كان شيعياً يحب آل البيت ويؤمن بحقهم السياسي ولم نجد مؤرخاً واحداً لا يتهمه بهذه «التهمة».

على الرغم من شهرته كشاعر لبني مروان ومع ذلك فإننا لا نجد فيما وصلنا من شعره ما يتناسب مع عقيدته هذه ومع الأحداث الجسام التي عاصرها الشاعر والمصائب التي ألمت بآل البيت عليهم السلام.

وأغلب الظن أنه انقلب الى بني مروان في خلافة عبد الملك حوالي سنة ٦٩هـ وقبل مبايعة محمد بن الحنفية له ويتضح ذلك من انه لم يذكر في شعره قبل عبد الملك أحداً من بني أمية وليس له معهم أخبار ويقوي هذا موالاته لآل البيت ومناصرته لمحمد بن الحنفية، ويفسر (الأعيان) هذا

(٨٠) م. ن: ١٩٦.

(٨١) الموشى: ٧٧.

الأنقلاب عند كثير بأنه قد يصبح مفهوماً إذا أخذ من الوجه السياسي للدولة التي كانت دولة أوتوقراطية تعد على الناس انفاسهم وتحصي على الناس تنهداتهم وتحسب حركاتهم حركة حركة. معنىٰ ذلك أن حرية الرأي أو القول كفر وخروج على الدين والإيمان وعلى الذي يرى رأياً غير رأي الدولة أن يحمل دمه على كفه وأن يكون مستعداً للرحيل الى المقابر وكثير كان مؤمناً ببني هاشم ومؤمناً بأنهم أحق من بني أمية ولكنه لم يكن مستعداً للتضحية بحياته في سبيل ذلك الإيمان. وينفي عن كثير تهمة «النفاق» بل يرى أنه كان بالرغم من عنف الاستبداد على شيء من الصراحة وإن مدح بني أمية[٨٢]

ومهما يكن من أمر فإن كثيراً مدح عبد الملك بن مروان وقال عنه:

إمام هدى قد سدد الله رأيه　　وقد احكمته ماضيات التجارب

وقال في عمر بن عبد العزيز:

وما الناس اعطوك الخلافة والتقى　　ولا أنت فاشكر يثبك مثيب
ولكنما اعطاك ذلك عالم　　بما فيك معط للجزيل وهوب

ونلاحظ في شعره «الأموي» أجمالاً الى ان الفكرة السياسية الأساسية التي كان يقولهاويلهج بها في شعره الشيعي من ان الخلافة هي وصية النبي لعلي وابنائه قد تغيرت وأن فكرة ارتباط شرعية الخلافة بالوصية قد تلاشت وإنه في مدائحه لبني مروان اخذ يردد ما كان يقوله ويروجه شعراء المروانيين.

ولعل أشهر قصائده في مديح عبد الملك تلك التي يقول فيها:

أحاطت يداه بالخلافة بعدما　　أراد رجال آخرون اغتيالها
فما تركوها عنوة عن مودة　　ولكن بحد المشرفي استغالها

ولعل ابرز ما يتميز به مديح كثير هو رسمه لممدوحه صورة دقيقة القسمات قوية الملامح زاهية الألوان يستقصي فيها كل ما للممدوح من المزايا والصفات والمفاخر يدفعه الى ذلك الأستقصاء والتجويد. وهذه الميزات هي التي دفعت هارون الرشيد الى القول: والله لا نمدح بمثل شعر كثير[٨٤].

كما نرى اختلافاً بين مدحه لعبد الملك ومدحه لعمر بن عبد العزيز ففي مدحه لعبد الملك نراه ينعته بمعاني العظمة والملك والأمارة أكثر مما ينعته بمعاني الخلافة والاسلام مع غلوه في التمجيد والتعظيم وذلك لمناقضته لما يؤمن به من أحقية آل البيت. أما في مديحه لعمر بن عبد العزيز فنحس أنه يمدح «خليفة» لا ملكاً بكل معنى الخلافة الاسلامية الحقة فيذكر اعراضه عن الدنيا ومباهجها وزهده في الخلافة وصلاحه وعدله بين الناس وبره بالفقراء والمساكين ورده حقوق العلويين (قضية فدك) ومنع شتم الإمام علي.

وفي رثائه لعمر بن عبد العزيز يتجلى ولاؤه أكثر مما يتجلى في مديحه فقد صور فجيعة فقده بدموع اليتامى والمساكين والأرامل:

لقد كنت للمظلوم عزاً وناصراً　　إذا ما تعيا في الأمور حصونها
فمن لليتامى والمساكين بعده　　وأرملة باتت شديد انينها
وليس بها سقم سوى الجوع لم تجد　　على جوعها من بعده من يعينها[٨٥]

كما مدح كثير يزيد بن عبد الملك ولم تصلنا مدائحه في الوليد بن عبد الملك الذي استخلف بعد ابيه عبد الملك بن مروان وظل في الملك تسع سنين ولا مدائحه في أخيه سليمان الذي ملك سنتين مما يعزز افتراضنا ضياع القسم الأكبر من شعره أو عدم وصوله الينا حتى الآن.

كما وصلنا مديحه لعدد من امراء بني أمية ابرزهم بشر بن مروان وأخيه عبد العزيز بن مروان وابنه أبي بكر عبد العزيز بن مروان ولم يتطرق في مديحه لهؤلاء الى مسألة الخلافة وإنما اقتصر على تمجيد ما كان يتحلى به كل واحد منهم من شجاعة وحزم وحلم ووقار. وكان أهم من مدحهم من هؤلاء عبد العزيز بن مروان المعروف بمحبته لآل البيت والذي قال يوماً لابنه عمر: يا بني لو علم أهل الشام وغيرهم من فضل علي ما نعلمه لم يتبعنا منهم أحد وتفرقوا عنا الى أولاد علي[٨٦].

ومن أبيات وفائه لعبد العزيز وابنه عمر انه لم تنقطع مدائحه لهما بموتهما بينما لا نجد له مراثي في عبد الملك ولا في أخيه بشر ولا في ابنه يزيد.

ولم يقتصر في مدائحه على ملوك وأمراء بني مروان بل مدح أميراتهم وأمهات أولادهم. ومن ذلك ان أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان بعثت الى كثير ووضاح اليمن ان انسبا بي. فأما وضاح اليمن فنسب بها وأما كثير فنسب بجاريتها «غاضرة». وكانت أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك فقتل وضاحاً ولم يجد سبيلاً على كثير[٨٧].

وخلاصة القول في شعر كثير السياسي أنه عبر عن فترتين متناقضتين من حياته السياسية. أما المعاني التي تناولها في مدائحه فهي معان تقليدية مألوفة في الشعر الجاهلي وإن كان قد اضاف اليها في مديحه لعمر بن عبد العزيز المعاني التي يحث الاسلام على التحلي بها كالصلاح والعدل والانصاف والبر بالفقراء وتقوى الله وخشيته والزهد بالدنيا وغيرها من المثل الاسلامية.

اشتمل شعر كثير على عدة موضوعات كمدح أو رثاء أو هجاء بعض الأشخاص الذين لم يكن الدافع لمدحهم أو رثائهم أو هجائهم العقيدة أو السياسة. كما اشتمل على الفخر وما يتعلق به من وصف الخيل وبعض السلاح كما نجد له بعض الأبيات في تجارب الحياة والحكم.

وله شعر كثير في وصف مظاهر الحياة في البادية كوصف ديار الحبيبة وما يتعلق بها من وصف الغمام والبرق والرعد والمطر واستسقائه لها أو وصف اطلالهاورسومها وما بقي من آثارها كالدمن والنؤي والحيوان الذي اتخذها مآوى ومرتعاً بعد رحيل أهلها وما يتعلق بها من وصف الظعن والرحلة والراحلة وما تثيره في نفسه من وحشة وشوق. أو وصف بعض مظاهر البادية كرمالها وفجاجها وهجيرها ونسيم لياليها وما فيها من حيوان كالظباء والنعام والذئاب أو وصف مشاعر الحج وغير ذلك.

والرثاء في شعره قليل إذا استثنينا مراثيه السياسية. وكذلك الهجاء الذي لا يكاد يؤلف موضوعاً بارزاً في شعره على الرغم من كثرة الخصومات السياسية التي كانت بين شعراء القبائل في عصره. اما دوافعه للهجاء فمنها أنفته كما في هجائه بني المسور بن ابراهيم حينما وجدوه يرعى ابله في حماهم فضيقوا عليه واساءوا جواره فهجاهم[٨٨].

وله بيتان في هجاء نصيب ولعله هجاء على أثر تلك المفاخرة

---

(٨٦) شرح النهج ١: ٣٥٦.
(٨٧) الأغاني ٢: ١٨٠.
(٨٨) شرح ديوان كثير عزة ٢: ٥.

والمشاجرة التي انتهت بسقوط كثير على الأرض والتي نشبت بينهما عندما التقيا على طعام أبي عبيدة بن زمعة وقد رآه عائداً من الشام وعليه بزة جميلة فقال له كثير: والله يا أبا محجن ان أثر الشام عليك لجميل وقد رجعت هذه الكرة ظاهر الكبر قليل الحياء. فقال له نصيب! ولكن أثر الشام عليك يا أبا صخر غير جميل لقد رجعت وإنك لزائد النقص كثير الحماقة(٨٩). وقد كان نصيب أسود يكنى ابا الحجناء فقال كثير يهجوه:

رأيت ابا الحجناء في الناس جائزاً
ولون أبي الحجناء لون البهائم
تراه على ما لاحه من سواده
وإن كان مظلوماً له وجه ظالم(٩٠)

والدافع الثاني لهجائه السياسة الأموية التي تقوم على تهييج العصبيات بين القبائل كما حدث بين كثير الذي ادعى نسبه في قريش واتخذت شكلاً من أشكال النقائض(٩١). وإن لم تبلغ ما بلغته النقائض من تهتك وافحاش.

وأما الدافع الثالث فهو العقيدة وحب أئمة التشيع فقد هجا عبد الله بن الزبير عندما زج محمد بن الحنفية في السجن.

والدافع الأخير لهجائه هو حبه لعزة فقد هجا قومها بني ضمرة وزوجها الذي يقول فيه:

وما حسبت ضميريه
سوى التيس ذي القرنين لها بعلا
فابلغ ابا الذفراء والجهل كاسمه
ومن يقو لا يعدم على غية عزلا

ويشبهه بالخنزير:

يكلفها الخنزير شتمي وما بها
هواني ولكن بالمليك استذلت

ويصفه بقوله:

رأتني كأشلاء اللجام وبعلها ... من الملء انبرى عاجز متباطن(٩٢)

والملاحظ ان في هجاء كثير حدة الهجاء وقسوته وايلامه دون ان يكون فيه تبذل ولا تهتك ولا افحاش. أما فخره فقد كان على نوعين فخر بالنفس وفخر بالقبيلة. وفخره بنفسه تنوع بين الفخر بجماله! والفخر بمناقبه وصفاته. أما فخره بجماله فهو انعكاس لما كان عليه من قصر ودمامة:

متى تحسروا عني العمامة تبصروا ... جميل المحيا اغفلته الدواهن
يروق العيون الناظرات كأنه ... هرقلي وزن أحمر التبر وازن

ونراه احياناً يدافع عن الدمامة والقصر ليثبت ان الدمامة والقصر لا يدلان على الخمول والخور:

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي اثوابه أسد هصور
وجربت الأمور وجربتني ... وقد أبدت عريكتي الأمور
وما تخفي الرجال علي إني ... بهم لأخو مثاقبه خبير.

وملفت للنظر ان نجده يفخر بفروسيته:

ولقد شهدت الخيل يحمل شكتي
متلمظ خذم العنان بهيم

(٨٩) الأغاني ١: ٣٦٦.
(٩٠) شرح ديوان كثير عزة ٢: ١٤، ١٥.
(٩١) تاريخ دمشق ١٦: ٧٥٧ ــ ٧٥٨.
(٩٢) شرح ديوان كثير عزة ١: ٢٠٤.

أما فخره بقبيلته فقليل ولا نعرف بأية قبيلة قاله قريش أم خزاعة! وهو يذكر فيه كل صفات الفروسية والفضائل التي تعتد بها العرب من الشجاعة وحماية الحمى وعزة الجانب...

وله أبيات في العتاب والشكوى من ابناء عمه(٩٣) كما له قصائد ومقطوعات في وصف الغمام والمطر(٩٤).

وقصائد وابيات في وصف الأطلال والدمن الدوارس(٩٥).

ووصلتنا مقطوعات طويلة له في وصف الرحلة(٩٦) وفي وصف الخيل وحيوان البادية وجوها(٩٧) ومناسك الحج(٩٨).

وعلى الرغم من شهرة كثير في قول الشعر المثل فقد قال القلقشندي في ضرورة معرفة الكاتب عن تقدم في نوع من الشعر! فالطفيل الغنوي بوصف الخيل والفرزدق بالأخبار وكثير بالأمثال. وقال ايضاً وكثير عزة في أمثاله لا يعد من أمثاله(٩٩).

على الرغم من هذا فإننا لا نجد له اليوم من أمثاله وحكمه إلا ابيات قليلة مبثوثة في قصائده لا تسمح له بالمنزلة التي أجله بها القلقشندي مما يعزز فرضية الضياع القسم الأكبر من شعره. ومن أقواله في عدم الجزع عند تقلب الأحوال والصبر والتفاؤل عند الشدائد:

فما رونق الدنيا بباق لأهله ... ولا شدة البلوى بضربة لازم
فلا تجزعن من شدة أن بعدها ... فوارج تلوي بالخطوب العظائم(١٠٠).

الخصائص العامة لشعر كثير

كان زهير بن ابي سلمى راوية لأوس بن حجر وكان كعب بن زهير بن أبي سلمى والحطيئة راويتين لزهير. وكان هدبة بن خشرم راوية للحطيئة وكان جميل بثينة راوية لهدبة بن خشرم وكان كثير عزة راوية لجميل بثينة(١٠١).

من هذا الخبر ينطلق طه حسين ليردد ما يقوله الرواة من أن زهيراً كان يصنع شعره ويتكلفه وينفق الحول احياناً قبل ان يظهر القصيدة من شعره. وان الحطيئة كان عبداً من عبيد الشعر يتكلفه ويشقى في صنعته وان كعباً والحطيئة كليهما قد ذكر صناعة الشعر وتثقيفه والعناء فيه. واذن فإذا كان هذا كله حقاً فإنا بازاء مدرسة شعرية معينة استاذها الأول أوس بن حجر واستاذها الثاني زهير واستاذها الثالث الحطيئة الذي أخذ عنه في الاسلام جميل. وعن جميل أخذ كثير(١٠٢).

ويرى طه حسين ان أبرز ما يميز شعراء «المدرسة الأوسية» ميزتان الأولى الخيال المادي الشديد التأثر بالحس والثانية اعتبار الشعر حرفة وصناعة وفناً يدرس ويتعلم وينشئه صاحبه انشاء ويفكر فيه تفكيراً ويقضي في إنشائه والتفكير فيه الوقت غير القصير(١٠٣).

(٩٣) م. ن ٢: ٩.
(٩٤) م. ن ١: ١٦٣، ٢٢١، ٢٢٧.
(٩٥) م. ن ١: ٢٠٠.
م. ن ٢: ٨٤، ١٢٠، ١٧٦.
(٩٦) منتهى الطلب ٢: ١٧٢.
م. ن ٣: ٣٣٩.
(٩٧) شرح ديوان كثير عزة ٢: ١١٤.
(٩٨) م. ن ١: ١٢٤.
(٩٩) صبح الأعشى ١: ٢٩٣، ٢٩٤.
(١٠٠) شرح ديوان كثير عزة ١: ٢٧٧.
(١٠١) الشعر والشعراء: ٥٧.
(١٠٢) في الأدب الجاهلي: ٣٣٦.
(١٠٣) م. ن: ٣٤٢.

ويضيف انه من هاتين الخصلتين استفاد الفن البياني عند هؤلاء الشعراء جميعاً فكثر عندهم التشبيه والمجاز والأستعارة والأفتنان فيها من هنا ان صناعة الفن البياني الخالص وتعمده والألحاح فيه ليست كما كنا نظن مظهراً من مظاهر الحياة الأدبية الجديدة ايام بني العباس وليس مسلم ابن الوليد هو مبتكرها وإنما هي اقدم من ذلك وأبعد في تاريخ الشعر العربي نشأت في العصر الجاهلي[١٠٤].

وإذا عدنا الى شعر كثير وجدناه ينتمي بالفعل الى هذا الخط الشعري حيث ينهج منهج زهير في أحكام عرى قوافيه واطراف معانيه. على ان أهم ما نجده في شعره من هذه الخصائص هو التفصيل في الوصف والتنسيق في العرض. بحيث لا يترك الموضوع حتى يستقصي ابعاده ويستجمع أطرافه ويستوفي كل معانيه ثم يعرضه عرضاً منسقاً دقيقاً جلياً.

أما صناعته البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وخيال فكل صورها مستمدة من حياة البادية ومستوحاة من بيئتها البدوية.

فانظر كيف عبر عن احلامه في انفراده هو وعزة بعيداً عن الناس فشبه نفسه وحبيبته بجمل أجرب وناقة جرباء ضائعين:

ألا ليتنا يا عز كنا لذي غنى
بعيرين نرعى في الخلاء ونعزب
نكون بعيري ذي غنى فيضيعنا
فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب
كلانا به عر فمن يرنا يقل
على حسنها جرباء تعدي وأجرب
إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله
علينا فما ننفك نرمى ونضرب
يطردنا الرعيان من كل تلعة
ويمنع منا ان نرى فيه نشرب
وددت وبيت الله انك بكرة
هجان وإني مصعب ثم نهرب

وعندما انشد عزة هذه الأبيات قالت: لقد اردت بنا الشقاء الطويل. أما وجدت أمنية أوطأ من هذه[١٠٥]؟!.

والقارىء لشعر كثير يلاحظ حرصه على الأستقصاء والأستيفاء للمعاني الدقيقة التي يتحسسها في جوانب الموضوع ثم يحليها بالصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وتورية الى جانب عنايته بتفصيل المعاني واستقصاء اجزاء الصور وتنسيق عرضها. كما يلاحظ عناية بارزة بجرس الألفاظ والأيقاع باستعماله ضروب البديع من جناس أو تقسيم للبيت أو سجع أو طباق بحيث نشعر بهذا الانسجام بين معاني الألفاظ وجرسها. يقول في وصف صراعه النفسي وحيرته مع عزة:

وأعجبني يا عز منك خلائق
كرام إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يذكر الجاهل الصبا
ودفعك اسباب المنى حين يطمع
فوالله ما يدري كريم مطلته
ايشتد ان لاقاك أم يتضرع

وكان كثير يحرص على نظم شعره على البحور الطويلة التي تعتبر أكثر ملاءمة لما ينشده من فخامة.

أما الفاظه فتتراوح بين الوضوح والغرابة حسب قرب الموضوع أو بعده عن حياة البادية. فلو تصفحنا قصائده في الغزل أو المديح أو الفخر أو الهجاء لوجدنا ان الفاظه تشف عن معانيها. ولا نكاد نرى فيها تعقيداً أو غموضاً. أما إذا طالعنا قصائده التي تتصل بمظاهر البادية والبداوة لوجدنا ان الغرابة تكاد تخيم على كل لفظة من ألفاظها بحيث لا يمكن معرفة معانيها إلا بالعودة الى معاجم اللغة.

وتعتبر «تائيته»[١٠٦] المشهورة خير ممثل لقدرته على استعمال الغريب.

منزلته

كان أهل الحجاز يعدونه شاعرهم ولا يقدمون عليه أحداً[١٠٧] ويذكر ابن سلام ذلك فيقول: إنه كان شاعر أهل الحجاز وإنهم ليقدمونه على كل من قدمنا ــ يعني جريراً والأخطل والفرزدق ــ وإنه كانت له منزلة عند قريش[١٠٨].

وكان الشاعر مروان بن أبي حفصة يعجبه جداً مذهب كثير في المديح ويقول انه يستقصي المديح وكذلك كان ابن فليح يقول: ما قصد القصيد ولا نعت الملوك مثل كثير[١٠٩].

وكان خلف الأحمر يقول كثير أشعر الناس في قوله لعبد الملك بن مروان:

أبوك الذي لما اتى مرج راهط
وقد ألبوا للشر لما تألبا
تشنا للأعداء حتى إذا انتهوا
الى أمره طوعاً وكرها تحببا[١١٠]

وقد جعل ابن سلام كثيراً في الطبقة الثانية مع الحطيئة والبصيث والقطامي دون جرير والفرزدق والأخطل[١١١].

وسلكه الجرجاني في عداد عمر بن أبي ربيعة وجميل ونصيب[١١٢] وقد أشار السيد الأمين الى تقديم أبي تمام لكثير وسبقه في النسيب[١١٣]. ويجمع الرواة على ان كثيراً اشعر الناس في عصر بني أمية ويذكرون انه قال لعبد الملك: كيف ترى شعري يا أمير المؤمنين؟ فقال: أراه يسبق السحر ويغلب الشعر. وكيف لا يصل كثير الى هذه المنزلة وقد غنى الجمهور وغنى الملوك أطيب الغناء[١١٤].

وعلى الرغم من تحامل طه حسين الشديد عليه فإنه رأى نفسه مضطراً للقول: ليس من شك أن كثيراً قد كان شاعراً مجيداً بل عظيم الحظ من الأجادة[١١٥]. ويبدو أن كثيراً كان كذلك بالفعل فالقدماء الذين اطلعوا على

(١٠٤) م. ن: ٣٤٣، ٣٤٤.
(١٠٥) شرح ديوان كثير عزة ١: ٩٩، ١٠٠.
(١٠٦) ديوان كثير عزة ١: ٢٤٦.
(١٠٧) معجم الشعراء: ٣٥١.
(١٠٨) طبقات الشعراء: ١٢٣.
(١٠٩) الأغاني ٩: ٤، ٥.
(١١٠) شرح ديوان كثير عزة ٢: ٦٨.
(١١١) طبقات الشعراء: ٢٠.
(١١٢) الوساطة: ٢٧.
(١١٣) اعيان الشيعة، ٩: ٢٥.
(١١٤) العشاق الثلاثة: ٥٧.
(١١٥) حديث الأربعاء ١: ٢٨٥.

شعره كاملاً انصفوه ــ على الرغم من تحامل بعضهم عليه ــ أما الذين لم تتح لهم فرصة الأطلاع على شعره كاملاً بسبب عدم وصوله اليهم فلا سبيل امامهم سوى التعامل مع ما وصل إليهم من شعره على ما في ذلك من صعوبة الوصول الى أحكام دقيقة وموضوعية.

الأميرة كُردوتشين بنت منكو تيمور بن هولاكو:

توفيت بعد سنة ٧٢١.

سيدة جليلة ذات جمال باهر من ربات النفوذ والبر والإحسان تتصف بالعقل الراجح والتدبير المحكم والدين والصلاح والجود والكرم.

نشأت وترعرعت في بلاط أبيها وتلقنت العلم والثقافة العالية على كبار عصرها وكانت أمها آبش خاتون بنت اتابك سعد الزنكي ملكة من ملكات شيراز فتزوجها منكو تيمور بأمر من والده هولاكو خان فأنجبت هذه الأميرة كردوتشين ثم وصلت كُردوتشين الى اريكة الحكم في سنة ٧١٩هـ في مقاطعة فارس وكانت عاصمتها مدينة شيراز. قال صاحب كتاب تاريخ حبيب السير: وخلدت في التاريخ صفحة زاهية وأثراً حميداً من تعميرات البقاع والآثار النافعة في الحضارة والعمران. . .[1] وكانت على مذهب أمها في التشيع وهي التي نقلت رفات أمها من تبريز الى شيراز عند استلامها دفة الحكم في شيراز وأقامت بناء ضخماً على ضريحها الموجود حتى العصر الحاضر[2] ذكرها المؤرخ الفسائي في كتابه فارسنامة ناصري ج١ ص١٠٦[3] (راجع آبش خاتون).

الآغا كريم الروغني القزويني:

ولد في قزوين حدود سنة ١٢٠٠ وتوفي بها سنة ١٢٨٣هـ.

أخذ المقدمات والسطوح على جماعة من فحول علماء قزوين ثم التحق بحوزة الشيخ محمد صالح البرغاني وشقيقه الشهيد وأخذ الحكمة والفلسفة عن الأخوند ملا آغا الحكمي القزويني وفي حدود سنة ١٢٤٠هـ هاجر الى العارق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى في كربلاء والنجف وحضر على الشيخ موسى آل كاشف الغطاء وشقيقه الشيخ حسن آل كاشف الغطاء وأخذ الأصول عن شريف العلماء المتوفى سنة ١٢٤٦هـ وحصل على إجازات من علماء كربلاء والنجف ثم عاد الى قزوين والتحق بحوزة استاذه البرغاني للمرة الثانية وفي سنة ١٢٦٤هـ جلس للتدريس في المدرسة الصالحية بأمر من استاذه الشيخ محمد صالح البرغاني مؤسس المدرسة المذكورة وكان من كبار المدرسين في الفقه والأصول في قزوين وهو من أحفاد الشيخ محمد صالح الروغني القزويني المتوفى سنة ١١١٦هـ والمترجم في أمل الأمل الآتي ذكره كما صرح بذلك صاحب المآثر والآثار لكني لم أقف على اسم والده وكيفية اتصال نسبه بالمولى الشيخ محمد صالح الروغني القزويني الذي كان من فحول علماء العصر الصفوي ورأيت أجازته لصهره السيد علي الزرابادي القزويني المؤرخة في ١٥ جمادي الثاني سنة ١٢٧١هـ وكان ختمه «يا كريم» وهو موجود عند سبطه السيد جليل الزرابادي في قزوين وله مؤلفات موجودة عند أحفاده وتعرف اسرته اليوم في قزوين بآل الأرجمندي ذكره محمد حسن خان اعتماد السلطنة في كتابه المآثر والآثار بما تعريبه: (الآغا كريم الروغني القزويني من مشاهير علماء الأصوليين وأعاظم المجتهدين في العصر القاجاري قضى عمره الشريف في التدريس وأكثر الأحيان في مدرسة مولى ويرديخان بقزوين)[4].

الأميرة كلين خانم المكناة بأم سلمة فتح علي الشاه القاجاري:

كانت عالمة فاضلة خطاطة من ربات الفصاحة والبلاغة عابدة زاهدة توفيت بعد سنة ١٢٩٥هـ.

ولدت وترعرعت في بلاط أبيها وهي رابع بنات فتح علي الشاه القاجاري والأخت الشقيقة لولي العهد محمد علي ميرزا الملقب بـ(دولت شاه) حضرت على جملة من العلماء في طهران وأولعت بالخط والكتابة وأخذت عن جملة من خطاط ذلك العصر منهم آغا زين العابدين الأصفهاني والحاج علي آغا بن الميرزا علي محمد خان نظام الدولة وغيرهما ونبغت في هذا الفن ولما بلغت سن الرشد زفوها الى ابن عمها زين العابدين خان بن حسين قلي خان القاجاري فولدت له بنتاً وولداً هو محمد جعفر ميرزا وهناك مجموعة نفيسه من كتب الدعاء ومن القرآن بخطها في الروضة الرضوية في خراسان والعتبات المقدسة في العراق وقصر كلستان بطهران ومكتبة ملك الوطنية في طهران ومن آثارها قرآن في مكتبة قصر كلستان ودعاء كميل في مكتبة قصر كلستان ذكرها الدكتور مهدي البياني في كتابه (أحوال وآثار خوشنويسان) ج٤ ص١٠٤٩ ــ ١٠٥٠ والأمير عضد الدولة سلطان أحمد الميرزا في كتابه (تاريخ عضدي) ص٢٠٠ وص٣٠٦ وص٣١٦[1].

مبارك بن حامد بن ابي الفرج تقي الدين الحداد الحلي.

المتوفى سنة ٦٧٤.

ترجم له ابن العماد في الشذرات ٥/٢٤٤ وقال: **كان من كبار علماء الشيعة عارفاً بمذهبهم وله صيت عظيم بالحلة والكوفة وعنده دين وأمانة.**

الشيخ الميرزا مجتبى بن الشيخ الميرزا احمد التنكابني القزويني الخراساني السينائي.

ولد في قزوين سنة ١٣١٥ وتوفي ليلة الاثنين ٢٢ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٨٦ في مشهد الرضا (ع) ودفن في الصحن العتيق تحت الساعه بقرب باب السوق في الروضة الرضوية.

اخذ المقدمات في قزوين عن الشيخ علي اكبر الالهيان وفي سنة ١٣٢٥ هاجر مع والده الى النجف الأشرف واكمل السطوح على جملة من العلماء ثم حضر على الميرزا محمد حسين النائيني والسيد أبو الحسن الاصفهاني والميرزا مهدي الأصفهاني الخراساني وفي سنة ١٣٣٧ استقر في قزوين والتحق بحوزة السيد موسى الزرابادي ثم هاجر الى خراسان وسكن المشهد الرضوي وحضر هناك على الحاج آغا حسين القمي الحائري والميرزا محمد آغا زاده نجل صاحب الكفاية وأخذ الحكمة والفلسفة من آغا بزرك الخراساني وشغل كرسي التدريس فكان من كبار المدرسين في المشهد الرضوي، وتخرج عليه جماعة من العلماء والفضلاء وله مدرسة خاصة معروفة في ايران (بـ مكتب تفكيكي) ويختلف هؤلاء مع الحكماء والفلاسفة في آرائهم الفلسفية التي لا تتفق مع الأحاديث المروية عن اهل البيت (ع) ذكره شيخنا آغا بزرك الطهراني في كتابه نقباء البشر القسم المخطوط قائلاً.

(الشيخ العالم الفاضل جامع المعقول والمنقول الميرزا الشيخ مجتبى السينائي القزويني نزيل المشهد المقدس الرضوي المدرس العالي هناك والمصنف الماهر الباهر).

له مؤلفات هامة منها كتاب الفرقان طبع منه خمسة مجلدات المجلد

(١) غياث الدين الحسيني المعروف خواند أمير تاريخ حبيب السير ج٣ ص٢٧٠ طبعة طهران مكتبة الخيام سنة ١٣٣٣ هجرية شمسية.

(٢) انظر فارسنامة ناصري الميرزا حسن الحسيني الفسائي ج ٢ ص ١١٩٣ تحقيق الدكتور منصور الفسائي طبعة طهران.

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٥) الصالحي.

الأول في التوحيد والمجلد الثاني في النبوة والمجلد الثالث في المعاد والمجلد الرابع في الميزان والمجلد الخامس في الغيبة والرجعة ، كتاب اصول آل الرسول تقريرات استاذه الميرزا مهدي الخراساني الأصفهاني ، كتاب معرفة النفس مخطوطة ، رسالة في العلوم الغريبة مخطوطة(١).

الشيخ مجتبى القزويني بن الشيخ احمد بن الميرزا حسين الطبيب الحشمتي التنكابني.

ولد في ١٣١٦ ، وتوفي سنة ١٣٨٦ في مشهد الرضا .

ولد في قزوين وأخذ المقدمات والسطوح من الشيخ فتح الله الشهيدي والسيد هبة الله التلاتري وفي سنة ١٣٣٠ هاجر مع أبيه الى النجف الأشرف واشتغل مدة عند خاله الشيخ علي اكبر الهياك ثم حضر بحث السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي والسيد ابو الحسن الأصفهاني وحضر في كربلا بحث السيد اسماعيل الصدر والميرزا محمد تقي الشيرازي وفي سنة ١٣٣٧ عاد الى ايران وذهب الى قم وحضر بحث الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي وفي سنة ١٣٤١ هاجر الى مشهد الرضا فحضر بحث الميرزا محمد الخرساني والشيخ موسى الخونساري والحاج آقا حسين الطباطبائي القمي وحضر في المعقول على الشيخ اسد الله العارف اليزدي والميرزا مهدي الغروي الأصفهاني والآقا بزرك الحكيم الشهيدي، ثم انصرف الى التدريس والتأليف وطبع من مؤلفاته كتاب (بيان الفرقان) في خمسة أجزاء.

توفي في مشهد الرضا ودفن في الصحن العتيق(٢).

مجتبى مينوي

وُلِدَ سنة ١٣٢٣ وتوفي سنة ١٣٩٦ .

درس ٱلمقدمّات بسامّرآء وطهران ، وتعلّم ٱلمتوسّطة بدار ٱلفنون ودار المعلّمين ٱلمركزيّة، وٱلمعلومات ٱلجامعيّة ٱستوعبها في كينكز كالج بلندن وٱلمعهد ٱلثقافيّ ٱلآسيويّ ٱلإفريقيّ بجامعة لندن .

بدأ خدماته ٱلإداريّة ككاتب في ٱلمجلس ٱلنّيابيّ بطهران في سنوات ١٣٤٥ - ١٣٤٧ ثمّ عيّن رئيساً لـ « كتابخانة ملّي » أي ٱلمكتبة ٱلأهليّة بطهران سنة ١٣٤٧ ، ثمّ ٱنتقل كعضو في الهيئة ٱلثّقافيّة في ٱلسّفارة ٱلإيرانيّة بباريس ثمّ لندن. ثمّ رجع إلى إيران وعيّن رئيساً للدراسات العليا في وزارة ٱلمعارف [١٣٧١ - ١٣٧٣ هـ] ثم عين ممثلاً ثقافياً في السفارة الايرانية بتركيا [١٣٧٧ - ١٣٨١] ثمّ أستاذاً بجامعة طهران [١٣٦٩ - ١٣٩٠].

ومن اعماله ١ : أنّه درس المخطوطات بمكتبات تركيا وصوّر المهم منها بالميكروفيلم للمكتبة ٱلمركزيّة لجامعة طهران وٱلمكتبة ٱلأهليّة ٱلمذكورة ، وقامت ٱلجامعة وبنياد فرهنك إيران بطبع بعضها فتوغرافياً وقام بعض ٱلأساتذة بتحقيق وإخراج بعض منها .

٢ : أشرف على هيئة علميّة لاستخراج ٱللّغات من ٱلمتون ٱلقديمة لتدوين قاموس فارسيّ حسب ٱلتّسلسل ٱلتّاريخيّ وكانت مؤسّسة فرانكلين بطهران تنوي نشرها ، ثمّ ٱنتقل هذا المشروع إلى [بنياد فرهنك إيران].

٣ : كان عضواً في لجنة ٱلتّأليف وٱلتّرجمة بجامعة طهران وعضواً في جمعيّة ٱلفلسفة والعلوم ٱلإنسانيّة لفرع إليونسكو بإيران وعضواً في ٱللّجنة ٱلمركزيّة لجامعة طهران وعضواً في ٱللّجنة ٱلمركزيّة للأسناد ولجنة تعيين ٱلجوائز لأفضل كتب ٱلسّنة ومشاوراً في ٱلمؤسّسة ٱلثّقافيّة ٱلإيرانيّة .

٤ : قام بفَهْرَسَةِ ٱلنّسخ المخطوطة الفارسيّة بمكتبة جستربيتي في دوبلن بجمهوريّة إيرلندة الجنوبيّة وإشترك معه : آربري A.J.Arberry وبلوشه E.Blochet وروبينسون Robinson وويلكنسون Wilkinson، وكلّ منهم اخصائيّ في فنّ فهرسة الكتب المصوّرة، وقد خرج منها ثلاثة مجلدات سنة ١٩٥٩ م، وكان خلال إقامته الطّويلة بإنكلترا متصلاً بأكابر المستشرقين أمثال البروفسور ولاديمير مينورسكي W.minorsky والتر هنينك W.B.Hening وهـ . كيب H . Gibb وهارولد نيكلسون H . Nicholson وسِرْدنيسْن راس D.Ross وبعض الشّباب منهم مثل : آربري وروبن لوي R.Lewy وبرنارد لوئيس B. Lewis ولمبتون A.K.Lambton وبويل J.Boyle وكرشويج I . Gerxhevich.

وكان يأنس بمينورسكي أكثر من غيره لأنّ مطالعات مينورسكي كانت في مجال الجغرافيّة التّاريخيّة لإيران والمتون الفارسيّة ، وكان المذكور يستفيد من هذه ٱلجهة من تبحّر المينوي فيها ونشرا معاً رسالةً لنصير الدين الطّوسيّ في الوضع الماليّ والدّيوان في مجلّة مدرسة الألسنة الشّرقيّة بلندن سنة ١٩٤٢ م .

كان المينوي يرى في مينورسكي عالماً من الدّرجة العليا ولذلك قام بنشر مجموعة تذكاريّة له من قبل جامعة طهران ، كما أنّه ألّف مقالاً لمجموعة تذكاريّة صدرت لتكريم زكي وليدي طوغان اعترافاً بعلمه وفضله .

وكان يعتقد بين المستشرقين الألمان بهلموت ريتر لأنّهما عاشا معاً مدّةً بتركيا ، كما كان هنينك الأخصائيّ في ٱللّغات الإيرانيّة يعتقد بالدّقّة العلميّة في المينوي، فلمّا ظهرت النّسخة المفتعلة بعنوان « كابوسنامه » عرف هنينك بعض الكلمات المختلقة البهلوية فيها فشكّ في أصالة النّسخة وعرّف مينُوي بذلك ضمنَ رسالة بعثها إليه فنشر مينوي الرّسالة المعروفة « كابوسنامه فراي » عام ١٣٧٦ هـ بتركيا وفَضَح مختلقي النّسخة ، فدامت المشاحنات في ذلك عدّة سنوات وانجرّت إلى « المؤتمر الدوّلي لتاريخ الفنون والآثار الإيرانيّة » المنعقد في نيويورك [١٩٦٤ م] وشهدت بذلك آراء الكيمياويّين في الموادّ الحديثة المستعملة في تصاوير تلك النّسخة ، وبعد البحوث والخطب الكثيرة الّتي ألقيت في المؤتمر انتصر رأي مينُوي وتزعزعت دعوى المختلقين شيئاً مّا .

وفي السنّوات الّتي عاشها بتركيا عاشر علماءها أمثال : مكرمين خليل ، زكي وليدي طوغان ، فؤاد كوپرولو ، نجاتي لوغال، عبد الباقي كولپينارلي ، نافذ اوزلوق، أحمد آتش، عثمان توران ، صادق عدنان أرزي، فاروق سومر وغيرهم ، وهم اخصائيّون من الدّرجة الأولى في التّاريخ الإسلاميّ وتاريخ إيران وله مباحثات معهم ليتها تدوّن وتنشر .

ومن جملة آثار مينُوي القيّمة اشتراكه في لجنة أسّستها مدرسة الألسنة الشرقيّة لتأليف تاريخ الشّرق الأوسط فألقى فيها عدّة خطب في موضوع كتاب « تاريخ البيهقي» وكيفيّة بيانه للمواضيع التّاريخيّة ، وقد طبع هذا المقال باللّغة الإنجليزيّة في سلسلة خطب تلك اللّجنة التي نشرها برنارد لوييس .

ومن جملة خدماته القيّمة للعلم طيّ السنوات التي قضاها في تركيا أن قام بفحص في مكتباتها العظيمة الخاصّة منها والعامّة وفيها نسخ قيمة نادرة فارسيّة وعربيّة ومنها نسخ لم يعرف بوجودها أحدٌ حتّى اليوم وهي الآن قيد الدّرس من قبل الأخصائيّين الأتراك ليفهرسوها ويجعلوها في خدمة العلماء والمحقّقين ، وكان التّبحّر الّذي اكتسبه مينوي طوال ممارسته للمخطوطات في مكتبات المتحف البريطانيّ وديوان الهند وجامعات كمبريج واكسفورد وادينبورك ومكتبة مسترجيستربيتي ، مكّنه كثيراً من معرفة النّسخ القيّمة القليلة

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٢) الشيخ محمد السمامي.

الوجود التي يزيد عددهاعلى ١٥ ألف نسخة صوّر منها كثيراً للمكتبة المركزيّة لجامعة طهران بالميكروفيلم ، فللمكتبة المذكورة بطهران اليوم ما يزيد على ١٥٠٠ ميكروفيلماً ، فَهْرَسَ بعضها الأستاذ محمّد تقي دانش بجوه من أساتذة جامعة طهران في ثلاثة مجلّدات.

ولم يكن العلاّمة مينُوي يكتفي بفهرسة الكتب القيّمة هذه وتصويرها ، بل كان يدرسها ويستخرج منها مطالب تاريخيّة ثمينة ويـذكرهـا في وُرَيْقات [فيش] وهذه المذكّرات تكمل مذكّراته في بريطانيا، وقـد طبع قليـلاً منها بعنوان [من خزائن تركيا] في مجلّة كلّيّة الآداب بطهران .

ومكتبة مينُوي الخاصّة كانت من أهمّ المكتبات الخاصّة بطهران تشتمل على مجموعة من المصادر لا مثيل لها ، كان الأستاذ ينتخبها لنفسه ولدراساته وقـد فَهْرَسَ دانش بجـوه مخطوطـاتها القيّمـة ونشرَهـا في النّشرة الخـاصّـة بالمخطوطات في المكتبة المركزيّة بجامعة طهران [نشريّة نسخه هاي خطّي كتابخانـه مركـزي دانشكاه طهـران]، وفهرست ميكـروفيلم هاي دانشكـاه طهـران . وقد وهب الأستـاذ مينُوي هـذه المكتبة الثّمينـة مـع داره للشّعب الإيرانيّ .

مؤلّفاته والكتب الّتي حقّقها :

١ : ديوان ناصر خسرو : بتحقيقه وتعاليق الاستاذ علي أكبر دهخـدا . ط طهران .

٢ : سيـاست نامـه : بتصحيحه وتصحيـح عبـد الـرّحيم الخلخـاليّ . ط طهران .

٣ : نامهء تنسر : ط طهران .

٤ : نوروز نامه : ط طهران .

٥ : وضع ملّت ودولت ودربار دردوره شـاهنشاهي سـاسانيـان . تأليف آرتور كريستن سن وترجمة مينُوي . ط طهران ، كميسيون معارف .

٦ : رسالة در أمر ماليّات از خواجه نصير الدّين طوسّي . مع البروفسور ولاديمير مينورسكي ، نُشِرتْ في : « BSOAS ».

٧ : إقبال لاهوري شاعر پـارسي كوي پـاكستان . ط طهـران ، مجلّة يغما .

٨ : مصنّفات أفضل الدّين محمّد مرقي كاشاني ، مع الـدّكتور يحيىٰ مهدوي . ط جامعة طهران .

٩ : تحريمة القلم [منظومة أز سنـائي غزنـوي] ط طهران ، فـرهنك إيران زمين المجلّد الخامس.

١٠ : السّعـادة والإسعـاد : تـأليف أبـو الحسن العـامـريّ . تصحيح مينُوي . ط ويسبادن .

١١ : آزادي وآزاد فكري [مقالات]. ط طهران .

١٢ : The Chester Beatty Library . A Catahogue of The Persian Manuscripts and Miniaturs Dublin . 1959 . 3 vols . مـع M.Robinson و B.Wilkinson ، Edgard Blochet ، A.J.Arberry .

١٣ : سيـرت جلال الـدّين مينكبرني، تصنيف شهـاب الـدّين محمّـد الخرندزيّ ط طهران .

١٤ : ياد نامهء إيراني مينورسكي ، مع إيرج أفشار. ط طهران .

١٥ : مجمـوعـهء كفتـارهـا ونـوشتـه هـاي مجتبى مينُـوي . ج ١ ، ط طهران .

١٦ : تنكسـوق نامـه يا طبّ أهـل ختا ، تـأليف خواجـه رشيد الـدّين فضل الله الهمدانيّ ، ط طهران ، كلّيّة الآداب .

١٧ : وقفنـامه ربـع رشيدي [الـوقفيّة آلـرّشيديّـة] مع إيـرج أفشار ط طهران ، أنجمن آثارملّيّ .

١٨ : نقد حال [عمر دوباره ، مجموعة كفتارها ونوشته هـاي مينوي ، ج ٣] ط طهران .

١٩ : تـاريخ وفـرهنك [عمـر دوباره ، مجمـوعـه* كفتـارهـا ونـوشتـه هاي مينوي ج ٣] ط طهران .

٢٠ : أحـوال وأقـوال شيـخ أبـو الحسن خـرقـاني ، ويليهـا منتخب نور العلوم ، ط طهران أنجمن آثار ملّيّ .

مقالاته

مقالاته الّتي نشـرت في المجلّات والدّوريّـات الإيـرانيّة كثيـرة ، تبلغ أعـدادها من السّنـة ١٣٣٥ هـ إلى ١٣٩٦ هـ ، مئتين وإحدى عشـرة مقالـة تحقيقيّة علميّة وفي مواضيع شتّى .

ومقالاته باللّغات الأجنبيّة وأكثرها اللّغة الإنكليزية كثيرة[١].

القـاضي التنوخي أبـو علي المحسِّن بن علي بن أبي الفهم داود بن ابراهيم بن تميم التنوخي [٢]

أبوه القاضي أبو القاسم علي بن أبي الفهم التنوخي ، ولد بانطاكية في ذي الحجة سنة ٢٨٧ ، وقدم الى بغداد في حداثته في سنة ٣٠٦ هـ وتفقه بها وسمع الحديث ورواه . وهذا كل ما نعرفه عن نشأته الأولى وعن اقامته في انطاكية . ثم ولي بعد ذلك قضاء الأهواز وكورها . وقضـاء واسط وأعمالهـا والكوفة وسقي الفرات وايذج وجنـد حمص وعدة نـواح من الثغور الشـامية وارجان وكورة سابور بصورة متفرقة أحياناً ومجتمعة أحيـاناً أخـرى، من قبل الخليفة الطائع (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) . وبعد أن استمر في ولايته على القضاء بضع سنين صرف عنه . فذهب الى سيف الدولة الحمداني زائراً ومادحاً ، فأكرمـه سيف الدولـة وكتب الى الخليفة ببغـداد يتوسط لـه في اعادة تـوليه القضاء، فاعيد الى عمله ، وزيد في رتبته وذلك في سنـة ٣٤٠ عندمـا ولي قضـاء القضاة بـدلاً من ابي السائب الـذي لم يكن على وئام مـع الخليفـة المطيع . ولكن ترقيته هذه ولدت له عداوة أبي السائب ومشايعيه وسنرى ان لهـذه العداوة أثـرها في حيـاة ابنه ابي علي المحسن التنـوخي . ثم وردت الأخبـار عنه بعـد ذلك انـه توفي بـالبصرة في ربيـع الأول سنـة ٣٤٢ ودفن بـالمربـد، مخلفاً وراءه دينـاً مقداره خمسين الف درهم دفعهـا عنه صـاحبه الوزير المهلبي . ولا شك أن لنهاية أبي القاسم مديناً بهذا الشكل أثرها في عدم تيسير الحياة لابنه مما جعله كثير الشكوى من الزمان وأهله كما سنرى .

وقد اشتهر أبو القاسم التنوخي بقوة الحفظ. فقد روى عنه ابنه أبو علي التنوخي انه كان يحفظ للطائيين سبع مائة قصيدة ومقطوعـة سوى مـا يحفظ لغيـرهما من المحـدثين والمخضرمين والجاهليين . وكان يحفظ من النحـو واللغة شيئاً عظيماً . وكذلك بالنسبة للفقه والفرائض والمحاضر وعلم الكلام والمنطق والهندسـة وعلم الهيئة ، وعلم العـروض ، والحديث حتى عـد ما يحفظه منه عشرون ألف حديث . وقال ابنه بأنه ما رأى أحداً احفظ منه . وانه لولا توزع حفظه بين جميع هذه العلوم لكان له شأن عظيم .

وقد كانت له مؤلفات في علم العروض والفقه وديوان شعر. ولهـذا عُد من أعيان أهل العلم والأدب .

---

(١) الشيخ ابو ذربيدار.

(٢) من الترجمات التي توفي المؤلف قبل ان يكتبها . وهذه مكتوبة بقلم : بـدري محمد فهد.

وقد اشتهر أبو القاسم التنوخي أيضاً بالظرف وحسن المنادمة ولهذا مال اليه كبار رجال العراق كالوزير المهلبي الذي كان ينادمه ليلتين في الأسبوع مع قاضيين آخرين هما ابن قريعة وابن معروف . وقد عدوه لطيب عشرته وكرم أخلاقه وحسن اخباره ريحانة الندماء وتاريخ الظرفاء.

أما عم أبي علي التنوخي فقد كان قاضياً ومن أهل الأدب أيضاً ، لذلك نجده يروي عنه في كتبه .

ويبدو أن جده لأبيه كان من أهل الأدب أيضاً . وكان لهذا الجد تأثير واضح في تربية أبيه أبي القاسم وتوجيهه نحو حفظ الشعر ولا سيما الأشعار التي تغنت بأمجاد اليمن . وحفظ أشعار الطائيين أبي تمام والبحتري .

الا ان التنوخي لم يحدثنا شيئاً عن اخوته كما حدثنا عن جده وأبيه وعمه . فالأرجح انه كان وحيداً لأبيه . أما عن عدم ذكره لأمه فانه قد سار في ذلك على نهج بعض من تقدمه أو عاصره من المؤرخين والأدباء الذين لم نعرف عن امهاتهم شيئاً . علماً باننا لا زلنا نجهل الكثير عن حياته هو نفسه وعن بقية أفراد عائلته الذين لم تذكر عنهم سوى طرف من الأخبار . اما اذا عثر على أجزاء أخرى من كتاب النشوار فمن المحتمل أن نجد فيها ما يسد الثغرات التي نراها في حياة ابي علي وعائلته . لذلك لا يمكن تأييد Fakkar (فيما ذهب اليه من أن سكوت التنوخي عن أمه دليل على أنها من عائلة مجهولة ومن أصل وضيع .

فعائلة التنوخي التي نشأ فيها كانت عائلة فاضلة اشتهر رجالها بالقضاء كما اشتهروا بالأدب والظرف . فكان لهذه البيئة العلمية أثرها في نشأة أبي علي المحسن . ولهذا أتينا على ذكر سيرة ابيه . لأننا سنجد كثيراً من أوجه الشبه بين شخصية أبي علي المحسن وأبيه من حيث نتاجه العلمي . كما سنجد تأثير أبيه من حيث اتصاله بكبار رجال الدولة العباسية منذ صغر سنه . مما مهد الطريق له للبروز في المجتمع العباسي على الرغم من صغر سنه ، وما ترتب على تقربه من كبار رجال الدولة من مطاردة وتشرد نتيجة لتنحية هؤلاء عن مناصبهم .

وقد خلف أبو علي التنوخي ابناً فاضلاً هو أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي (٣٦٥ - ٤٤٧) وكان أديباً شاعراً . وقد تقلد القضاء في عدة نواح . وروى الحديث عن أبيه ، وبعض أخباره .

المرحلة الأولى من حياته

ولد بالبصرة ليلة الأحد في ٢٦ ربيع الأول سنة ٣٢٧ ونشأ بها وبمنطقة الأهواز، التي كان أبوه قاضياً فيها . ولم يغادرها قبل العشرين من عمره .

وأما بقية حياته فالمعلومات عنها نادرة جداً. فلدينا اشارات عابرة خلال كتبه حاولنا جمعها وترتيبها حسب السنين كي نتبين منها ملامح حياته منها انه كان على العيار في دار الضرب بسوق الأهواز سنة ٣٤٦. وانه سمع بمجيء الوزير المهلبي صديق والده إلى البصرة فخف لمقابلته والسلام عليه وكان ذلك في سنة ٣٤٩ وان الوزير سأله عن عمله فأخبره بأنه يشهد عند قاضي الأهواز ابن سيار، وكان عمره اذاك عشرين سنة . فلم يرض له الوزير هذا العمل على اعتبار أن أباه أبا القاسم التنوخي كان استاذ قاضي الأهواز ابن سيار لذا دعاه للمجيء الى بغداد ، ليقلده القضاء، ومن ثم ليصبح هو الذي يقبل الشهود لا العكس وهكذا حضر التنوخي الى بغداد، فأمر الوزير المهلبي قاضي القضاة - وكان آنذاك أبو السائب - بتقليده القضاء فقلده سقي الفرات . وقد حددها ابن الجوزي بسورا وقصر ابن هبيرة .

ومن الجدير بالملاحظة أن أبا السائب هذا كان قد صرف عن قضاء القضاة عندما ولي مكانه والد التنوخي أبو القاسم وذلك في سنة ٣٤٠ كما مر الكلام سابقاً . لذلك كان يضمر العداوة لمنافسة أبي القاسم . وقد تنبه الوزير المهلبي لهذا الأمر، فعمد الى حيلة يحمي بها أبا علي التنوخي من انتقام ابي السائب، وذلك انه اتفق مع التنوخي بعد توليته القضاء، أن يجلسه بقربه في مجلسه العام ، ثم يأمره بالخروج عند دخول قاضي القضاة ليتوهم الأخير بأن التنوخي أرسل في أمر هام من أمور الدولة وأن الوزير يعتمد عليه اعتماداً كبيراً وبذلك لا يفكر في ايذائه أو الانتقام منه .

وكان التنوخي ببغداد في سنة ٣٥٠ ، وفي سنة ٣٥١. ويبدو أن وجوده ببغداد في هذه السنين يعود لقرب مقر عمله منها فكان يأتيها لقضاء حوائجه الخاصة أو لأمور رسمية تقتضي ذلك .

ثم قلد قضاء عسكر مكرم ، قرب الأهواز ، الا اننا لا نعرف متى كان ذلك بالضبط، ولكننا نجده بالأهواز سنة ٣٥٤ عندما اخبرنا بأنه التقى بها بالشاعر المتنبي . وانه استمر متقلداً القضاء بها الى سنة ٣٥٥.

ثم انقطعت اخباره ما بين ٣٥٥ - ٣٦٠ هـ ، حيث ظهر ببغداد بعد غياب طويل عنها كما قال هو نفسه . ولا نعرف ان كان مستمراً في عمله طوال تلك الفترة أم انه عزل عن القضاء. والأرجح انه كان مستمراً في عمله حتى سنة ٣٥٩ عندما تبدلت الوزارة وجيء بأبي الفرج محمد بن العباس بن فسايخس وزيراً بدلاً من أبي الفضل العباس بن الحسن الشيرازي . وقد استمر أبو الفرج في وزارته ثلاثة عشر شهراً وثلاثة أيام . ثم أعيد أبو الفضل الى الوزارة ثانية وذلك في سنة ٣٦٠ ولعل هذا هو الذي يبرر وجود التنوخي ببغداد في هذه السنة . وظهوره كأحد المهنئين في دار هذا الوزير .

ثم قلد قضاء واسط سنة ٣٦٣ . ويبدو انه استمر بواسط حتى سنة ٣٦٥ كما جاء باحدى حكايات النشوار . ومما يجلب الانتباه ان ابنه علي الملقب بأبي القاسم ولد بالبصرة في هذه السنة نفسها كما أكدته المصادر . لذلك لا يمكننا أن نبت بشيء في هذا الأمر.

أما في سنة ٣٦٦ فقد ذكر انه سمع فيها شعراً من أبي سعيد مساعد بن الجهم الشيباني، الا انه لم يذكر اين كان ذلك .

المرحلة الثانية من عمره

ويبدو انه بعد هذا التاريخ تولى الكتابة على الحكم والوقف ببغداد لقاضي القضاة أبي العباس بن ابي الشوارب اضافة الى ما كان يخلفه عليه بتكريت، وداقوقا، وخانيجار، وقصر ابن هبيرة، والجامعين، وسوراء، وبابل، والايغارين، وخطرنية .

وبمجيء التنوخي الى بغداد بدأ حياة جديدة، حيث أصبح قريباً من رجال الحكم ، فقد اهتم به الوزير نفسه رعاية لحق أبيه . فأصبح من جلاسه والمقربين اليه . ولهذا نرى التنوخي كثير الترحم عليه كلما جاء ذكره في كتابه . ولما آل الأمر في سنة ٣٦٧ الى عضد الدولة في عهد الخليفة الطائع لله، اتصل به التنوخي وأصبح من جلاسه وندمائه . فكان يأخذه معه في تجواله في المناطق البويهية . فيبقيه معه عدة شهور، يستمتع بمنادمته وسماع شعره عند انعقاد مجالس الأنس، كما حدث عندما أخذه معه الى نهاوند والى همذان . وقد وصف لنا التنوخي هذه المجالس وكيفية انعقادها وكيف انه كان يجلس مع نفر قليل قريباً من عضد الدولة في الوقت الذي يقف فيه بقية الندماء كرؤساء الدولة ووجوه الكتاب والولاة وكبار أهل البلد من الاشراف وغيرهم . وعندما يبدأ الشعراء بانشاده أشعارهم يتقدمهم التنوخي فيكون أول منشد من الشعراء ثم يتلوه بعد ذلك بقية الشعراء.

ثم اصطحبه عضد الدولة معه في حملته التأديبية للحمدانيين في

الموصل، والتي استمرت من سنة ٣٦٧الى ذي الحجة سنة ٣٦٨ عندما رجع عضد الدولة الى بغداد .

ثم زادت منزلته ارتفاعاً لدى رؤساء الدولة فنراه يتولى عقد قران الخليفة الطائع لله على بنت عضد الدولة ، وذلك في سنة ٣٧٠.

لقد كان لهذا الزواج أهمية كبيرة بنظر عضد الدولة ، فهو يزيد في سطوته ويجعل حكمه أكثر رسوخاً باقتران الخليفة الطائع من ابنته . كما انه كان يؤمل أن تضع ابنته مولوداً ذكراً فيعهد اليه بالخلافة وبذلك تتحول السلطة الى البويهيين .

ونجاح التنوخي في مسعاه من تزويج الخليفة بابنة عضد الدولة زاده اقتراباً من الخليفة أولاً ومن عضد الدولة ثانياً ، ومن ثم بروزه في المجتمع العباسي لا بل بروزه بين أقرانه من الخاصة أنفسهم مما أثار حسدهم اضافة الى حسد أعدائه وجعلهم جميعاً يترصدون حركاته للايقاع به عند أول بادرة .

المرحلة الثالثة من حياته

ثم دخلت حياته مرحلة جديدة ابتداء من سنة ٣٧١ وذلك انه ذهب مع عضد الدولة مرة ثانية الى همذان ، وكان في نية عضد الدولة أن يقضي الشتاء هناك بغية القبض على أبي القاسم الصاحب بن عباد ، فلما سمع التنوخي بذلك لم يكتم الأمر وتحدث به ، ولم يمهله خصومه بل أسرعوا في نقل حديثه الى عضد الدولة على اعتبار ان اشاعة الخبر انذار لابن عباد، ومن ثم افساد لخطة عضد الدولة . فدعاه عضد الدولة وبعض من كان قد حدثهم وسألهم عن الأمر فأنكروا . لكن عضد الدولة حقد عليه فأرسل اليه من يقرعه بقوله « ألم تكن صغيراً فكبرناك ومتأخراً فقدمناك وخاملاً فنبهنا عليك، ومقتراً فأحسنا اليك فما بالك جحدت نعمتنا وسعيت في الفساد على دولتنا » . ولما رجعوا الى بغداد رآه عضد الدولة على بغلة وعليه ثياب جميلة فسأله عنها فأجابه بأن الصاحب بن عباد أرسلها اليه مع عشرين ثوباً وسبعة آلاف درهم . فلم يتمالك أن عرّض به قائلاً « هذا قليل مما تستحقه » مشيراً الى فضحه أمر القبض على ابن عباد .

ثم شاءت الظروف أن يجافي الخليفة ابنة عضد الدولة، فيرسل الأخير الى التنوخي يوسطه في الأمر، الا أن التنوخي تمارض ولم يذهب فلما علم به عضد الدولة عاقبه بلزوم داره وعدم مبارحتها وعدم السماح له باستقبال الضيوف الا القليل. ثم أرسل اليه رجلاً يطالبه بعشرة آلاف درهم كان قد استلفها من اقطاعه . واستمر عضد الدولة يلاحقه الا أن توفي سنة ٣٧٣.

ويبدو ان التنوخي هرب من بغداد الى البطيحة نتيجة لهذه الملاحقة وانه اكتفى بالتلميح دون التصريح عند قوله بأن نكبة لحقته فالتجأ عند أمير البطيحة ابن شاهين . واستمر متخفياً فيها مدة أربعة أشهر، حتى توفي عضد الدولة، ففرج الله عنه كما يقول .

وعاد التنوخي الى بغداد بعد وفاة عضد الدولة مباشرة سنة ٣٧٣ وسكن في شارع دار الرقيق. ليقضي فيها بقية حياته ، بعيداً عن الترف والنعيم ، بعيداً عن الجاه والسلطان . وقد لاقى في هذه الفترة عسراً شديداً ، فلم يكن له مال يعول عليه اذ مات أبوه مديناً كما رأينا ولم يخلف له شيئاً ، ولعله في هذه الفترة من حياته بدأ بالتحديث وتأليف كتابيه « المستجاد » و « الفرج » واكمال كتابه « النشوار » الذي بدأه سنة ٣٦٠ كما سنرى.

وركن الى الاستقرار بعد حياة مليئة بالحركة والتنقل مما لم تتح له فيها الكتابة ، ومن جهة أخرى فان انصرافه الى التحديث والتأليف كان أمراً لا بد منه لكي يدبر أمر معاشه .

والى هذه الفترة من حياته تعود شكواه من زمانه وحكام زمانه التي بثها في كتبه ، واصفاً اياهم بالجهل عن تثمين النتاج الجيد وبالبخل الذي جعلهم يسمونه (احتياطاً) و (اصلاحاً)، ومقارنة الماضي التليد بهذا الحاضر الذي فقدت فيه المكارم ، وكثرت المحن والمغارم .

والى هذه الفترة من حياته أيضاً يعود تذكره للمحن التي لحقته والتي كتب الله له النجاة منها ، فدونها في كتبه عبرة للناس وموعظة .

وأخيرا انتهت حياته ببغداد في يوم الاثنين في الخامس والعشرين من محرم سنة ٣٨٤ عن عمر يناهز السادسة والخمسين .

شيوخه

كانت عائلة التنوخي ، عائلة علم وأدب، فأثرت في نشأته وتوجيهه فكان أبوه أول مؤدب له . لهذا رأيناه يروي عنه في كتبه كما في الفرج بعد الشدة. وفي النشوار. وأول خبر وردنا عن تلقيه الدروس كان في سنة ٣٣٣ وكانت تلك الدروس هي الحديث. حيث كان عمره اذ ذاك ست سنوات ولا نعلم ان كانت هذه الدروس قد تلقاها عن أبيه ، أم انه تلقاها عن غيره .

ولم تردنا معلومات عن معلميه ومؤدبيه الأوائل في الكتب التي تعرضت لذكر ترجمته ، الا انه ذكر بعضهم عرضاً وباقتضاب شديد كقوله عن معلم له سماه أبا جعفر انه كان يعلمه وبعض الصبيان في الكتاب الشعر . ثم ذكر في موضع آخر أحد مؤدبيه ناقلاً عنه رواية في كتاب النشوار بقوله « حدثني محمد ابن الفضل بن حميد الصيمري مؤدبي قال » لذلك لا نعرف مدة تلقيه الدروس على هؤلاء المعلمين والمؤدبين ، ولا طريقة التدريس ولا مادة الدرس نفسها باستثناء ما جاء عن تعلمه الشعر .

أما شيوخه الذين سمع منهم فقد اختلفوا حسب الأماكن التي عاش فيها . فقد ذكر الخطيب البغدادي انه سمع بالبصرة من :

١ ـ واهب بن يحيى المازني .
٢ ـ الحسن بن محمد بن عثمان النسوي .
ولم نستطع العثور على ترجمتهما فيما تيسر لنا من المصادر .
٣ ـ أبي العباس الأثرم : وهو محمد بن أحمد بن أحمد بن حماد بن ابراهيم بن تغلب بن الشد الأثرم من أهل البصرة ومن ساكنيها . ولد بسر من رأى سنة ٢٤٠ وتوفي سنة ٣٣٦ وقد أثنى عليه فقيل « الأثرم الخياط المقرىء شيخ ثقة فاضل » . وقد روى التنوخي عنه حديثاً في كتاب الفرج .

٤ ـ محمد بن يحيى الصولي : هو محمد بن يحيى بن العباس الصولي من الأدباء الظرفاء والجماعين للكتب ، نادم من الخلفاء الراضي والمكتفي والمقتدر . وعاش الى سنة ٣٣٠ ثم توفي مستتراً بالبصرة ، لأنه كما قيل روى خبراً في علي بن طالب فطلبه الخاصة والعامة لقتله . وكان له عدة كتب ، وقد ذكر لنا التنوخي انه حضر بعض مجالس الصولي فسمع بعض كتبه تتلى عليه مثل كتاب الوزراء، الذي روى عنه التنوخي ما كان سمعه في كتاب الفرج .

وقد روى التنوخي عن الصولي في كتاب (المستجاد) روايتين عن خالد ابن يزيد الكاتب. وروى عنه في كتاب (الفرج) عدة روايات بعضها نقلها من كتبه ، وقد أجازه عليها . وبعضها الآخر أخذها مشافهة أو سماعاً في أثناء حضوره مجالسه .

٥ ـ أبو بكر بن داسة : وهو أبو بكر محمد بن بكر بن محمد بن عبد الرزاق بن داسة التمار الداسي البصري. وكان شيخاً ثقة روى عن أبي داود السجستاني أكثر كتاب السنن، أما الباقي منه فقد رواه عنه اجازة أو

وجادة[1]. كما أنه روى عن غيره. توفي نحو سنة ٣٢٠

٦ ـ أحمد بن عبيد الصفار: وهو أحمد بن عبيد بن اسماعيل، أبو الحسن الصفار سمع من كثيرين وقد روى عنه الدارقطني. وكان ثقة ثبتاً صنف المسند وجوده. وقد سكن البصرة في أخريات أيامه.

والى جانب من تقدم ذكرهم ممن أخذ عنهم التنوخي بالبصرة، قال الخطيب البغدادي «وطبقتهم» مشيراً بذلك الى وجود شيوخ آخرين أخذ عنهم بالبصرة الا أنه لم يشأ أن يذكرهم. ومن هؤلاء:

٧ ـ محمد بن الحسن بن جمهور الكاتب: حيث ذكره التنوخي نفسه واصفاً إياه بأنه من شيوخ أهل الأدب بالبصرة وانه كان شاعراً جيد الخط. وكان ملازماً لأبيه أبي القاسم التنوخي. ومن هنا استطاع التنوخي التعرف عليه وملازمته مدة طويلة. ومن ثم رواية بعض أشعاره.

أما الذين سمع منهم التنوخي ببغداد فقد وردنا منهم أبو الفرج الأصفهاني.

وقد روى عنه التنوخي في كتاب (النشوار) و (الفرج) وكتاب (المستجاد) وقد اختلفت طريقة أخذه عنه في هذه الكتب الثلاثة؛ فهو في النشوار قد أخذ عنه مباشرة باستعماله كلمة (حدثنا) وعن طريق كتبه اجازة أو قراءة عليه باستعماله كلمة (أخبرنا). وفي الفرج استعمل الرواية الشفوية حيث قال «حدثنا الأصفهاني املاء من حفظه وأنا أسمع». أو كقوله «حدثنا الاصفهاني املاء من حفظه». واستعمل كلمة (أخبرنا) في حالات اخرى، ومن الجائز أن تكون هذه قراءة على الأصفهاني أو اجازة عنه. وقد أشار الى ذلك صراحة بقوله «أخبرني أبو الفرج الاصبهاني اجازة». واستعمل كذلك تعبير «قال الاصفهاني» وأغلب الظن انها تدل على أخذه من كتبه. وقد صرح بذلك بقوله «وجدت في كتاب الأغاني الكبير لأبي الفرج». أما في المستجاد فانه روى عنه عدة روايات أيضاً وأغلب الظن انه أخذها من كتبه ولم يأخذها مشافهة أو قراءة عليه.

وكان التنوخي على اتصال دائم بمجالس أبي الفرج الأصفهاني، فكان يحضرها. وقد أجاز الأصفهاني للتنوخي رواية كتاب الأغاني فيما أجاز له روايته من كتبه.

٤ ـ آثاره:

(أ) كتبه: لقد مرت الاشارة الى كتب التنوخي في مواضع عدة ولكننا سنذكرها هنا بشيء من التفصيل، وهي:

(١) كتاب المستجاد من فعلات الأجواد: وهذا الكتاب أصغر كتبه ـ عدا ديوان شعره الذي لا نعرف حجمه ـ جمع فيه أخباراً عن الكرماء منذ الجاهلية حتى عصره الذي يعيش فيه. وقد طبع. وذكر بروكلمان أن الكتاب سبق أن نشره ياولي في شتوتجارت في سنة ١٩٣٩ م بالـزنكغـراف. ثم ذكـر المخطوطات الموجودة لهذا الكتاب وأماكنها. وأضاف بأن هناك مخطوطات تقدم صوراً مختلفة من محاكاة الكتاب وتقليده.

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة: وهذا الكتاب وسط بين كتاب النشوار وكتاب المستجاد، من حيث حجمه، وقد نشر أكثر من مرة.

لم يكن التنوخي المبتكر الأول لهذا النوع من التأليف بل سبقه اليه جماعة، وصلت كتبهم اليه وقد ذكرها في مقدمة هذا الكتاب وبين فضل بعضها على البعض الآخر. ثم ذكر منهجه وما سيأتي به من جديد. ولقد ذكر بروكلمان معلومات طيبة عن المخطوطات الموجودة لهذا الكتاب والمؤلفين الذين اختصروه أو هذبوه أو ترجموه أو قلدوه في منحاه في الآداب الفارسية والتركية، والعبرية كما أضاف باريه. وأخيراً وضع عنه Fakkar دراسة بالفرنسية قدمها الى المعهد الفرنسي للآثار بالقاهرة لنيل شهادة الدراسات العليا.

(٣) كتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ: وسيرد الكلام على هذا الكتاب مفصلاً.

وكانت كتب التنوخي مصدراً مهماً ـ وبصورة خاصة كتاب النشوار ـ لكتب التاريخ بما فيها التاريخ العام وكتب الطبقات والتراجم وتاريخ الأدب والجغرافية. وتبرز أهميتها في كونها كتبت عن معاصري التنوخي من أصدقائه وخلطائه على اختلاف مراكزهم السياسية والاجتماعية والثقافية. وغيرهم من الناس الذين شاهدهم أو احتك بهم خلال حضوره مجالس الوزراء والقضاة أو خلال توليه القضاء أو اعتكافه محدثاً بعد صرفه عنه.

ولقد برزت أهمية (النشوار) أكثر من غيره في كثرة النقول عنه لدى المؤرخين والأدباء. وذلك لأن التنوخي في (النشوار) كان أقل اعتماداً على الكتب من كتابيه الآخرين. ولهذا انفرد بمعلومات قيمة عن عصره بصورة خاصة والعصور التي سبقته بصورة عامة.

شعره

لقد عرفنا من خلال الكلام على حياته انه كان شاعراً. وكان له ديوان كتبه في حياته. وقد رأى أبو نصر سهل بن المرزباني هذا الديوان ببغداد وقال عنه بأنه أكبر حجماً من ديوان أبيه. وأورد بعض ما علق بحفظه منه.

وقد أورد التنوخي ست قطع من شعره ما بين البيتين والثلاثة عشر في كتابه الفرج بعد الشدة. وأورد ابن خلكان القطع التي جاء بها الثعالبي عن ابن المرزبان

ومن خلال القطع الواردة في شعره يمكن أن يقال بأن شعره يمثل حياته في طوريها، طور الشدة والمحن التي لحقته، وتمثله القطع الواردة في الفرج حيث تدور معانيها حول الصبر وعزة النفس والثبات أمام الشدائد، والأمل بتغير الأحوال السيئة الى أحسن منها. وطور الرفاه والعيش الرغيد وتمثله القطع الأخرى وفيها نرى التنوخي يطرق فنون الشعر المعروفة.

الآقا محسن بن عبد الكريم بن محمد بن محسن المرشد التنكابني.

ولد حدود ١٢٠٥ وتوفي حدود ١٢٧٥.

كان من العلماء المشاهير المدرسين في تنكابن درس في طهران واصفهان وكان أحد تلامذة الشيخ محمد تقي صاحب الحاشية ويصرح بذلك في أحد مؤلفاته. وله مؤلفات في الفقه والأصول غير مرتبة رأيتها في تنكابن[2].

الشيخ محسن بن الشيخ محمد الحوزي الحائري المعروف بأبي الحب.

ولد في كربلاء سنة ١٢٣٥ وتوفي في ٢٠ ذي القعدة الحرام سنة ١٣٠٥.

مرت ترجمته في المجلد التاسع ونزيد عليها هنا ما يلي:

من فحول الشعراء في عصره وخطيب العراق في اواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر، اخذ المقدمات وفنون الأدب على جملة من فضلاء كربلاء وتخرج في الفقه والأصول والحديث والتفسير على السيد ابراهيم القزويني صاحب الضوابط المتوفى سنة ١٢٦٢ والشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ وأولع بالأدب والخطابة والشعر

(١) الاجازة عند المحدثين هي الاذن في الرواية لفظاً أو كتابة. والوجادة هي أخذ الحديث من كتاب من غير سماع ولا اجازة ولا مناولة.

(٢) الشيخ محمد السمامي.

فأخذها بجد واتقان حتى نبغ بها وله قراءات مشهورة في ذكر استشهاد سيد الشهدا أبي عبد الله الحسين عليه السلام وكان الناس يقصدونه من كل فج للاستماع اليه وله قصائد في رثاء الحسين عليه السلام ذاع صيتها في الآفاق وعمت شهرتها في المحافل الحسينية منها حسينيته الشهيرة وهي بلسان حال سيد الشهداء ابي عبد الله الحسين عليه السلام .

ان كنت مشفقة عليّ دعيني
ما زال لومك في الهوى يغريني
اعطيت ربي موثقاً لا ينتهي
إلا بقتلي فاصعدي وذريني
إن كان دين محمد لم يستقم
الا بقتلي يا سيوف خذيني[1]
هذا دمي فلترو صادية الظبا
منه وهذا للرماح وتيني
خذها إليك هدية ترضى بها
يا رب انت وليها من دوني
انفقت نفسي في رضاك ولا ارا
ني فاعلاً شيئاً وأنت معيني
ما كان قربان الخليل نظير ما
قربته كلا ولا ذي النون
هذي رجالي في رضاك ذبائح
ما بين منحور وبين طعين
رأسي وأرؤس اسرتي مع نسوتي
تهدى لرجس في الضلال مبين
وإليك اشكو خالقي من عصبة
جهلوا مقامي بعدما عرفوني

وله قصيدة نظمها بطلب من استاذه الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري وذلك حين تم انجاز بناء ايوان رأس الحسين عليه السلام في الجانب الغربي من الصحن الحسيني المطهر وهو من مشاريع استاذه البرغاني، وقد نقشت القصيدة بالقاشاني البديع الصنع ، ومنها :

الله اكبر ماذا الحادث الجلل
لقد تزلزل سهل الأرض والجبل
ما هذه الزفرات الصاعدات أسى
كأنها شعل ترمى بها شعل
كأن نفخة صور الحشر قد فجئت
فالناس سكرى ولا خمر ولا ثمل
قامت قيامة أهل البيت وانكسرت
سفن النجاة وفيها العلم والعمل

جل الاله فليس الحزن مانعه
لكن قلباً حواه حزنه جلل
قف عنده واعتبر ما فيه إن به
دين الاله الذي جاءت به الرسل
لو راقبوا الله كانوا عهده حفظوا
ولو اطاعوه كانوا امره امتثلوا

والله ما خلفوه بعد غيبته في
قطع من قطعوا أو وصل من وصلوا
سرعان ما ضيعوه في ودايعه
اهكذا في بنيه يخلف الرجل
أتلك زينب مسلوب مقلدها
الله اكبر هذا الفادح الجلل
لئن بدت وحجاب الصون منتهك
عنها فإن حجاب الله منسدل
لا برد الله قلبي إن نسيت لها
قلباً تعارض فيه الوجد والوجل
لو قام يصرخ بالبطحاء صارخها
رأيت كيف اعوجاج المجد يعتدل

ومن آثار المترجم له ديوان مخطوط باسم الحائريات توجد نسخة الاصل بخطه في خزانة كتبه بكربلاء عند حفيده الدكتور ضياء بن الشيخ محسن الصغير .

الشيخ ملا محسن القزويني الأصل البروجردي المولد والمسكن .

ولد في بروجرد سنة ١٢٣٠ وتوفي ليلة عاشورا سنة ١٣٠٣ .

أخذ المقدمات على والده وجماعة من فضلاء بروجرد ثم التحق بحوزة درس السيد جعفر الدارابي البروجردي الكشفي المتوفى سنة ١٢٦٧ والسيد حسين صاحب نخبة المقال والمولى اسد الله والسيد شفيع الجابلقي وغيرهم وتصدر كرسي الفتوى والتدريس في بروجرد وكان من أكابر علمائها البارزين وذكره الميرزا حسن خان اعتماد السلطنة ضمن العلماء والمجتهدين الأكابر في عصر ناصر الدين شاه القاجاري[2] والمترجم له من احفاد المولى الشيخ رفيع الدين محمد بن المولى الشيخ فتح الله القزويني الواعظ المتوفى سنة ١٠٨٩ صاحب كتاب ابواب الجنان .

وقد ترك المترجم له مؤلفات ذكر شيخنا الاستاذ بعضها في مجلدات الذريعة الى تصانيف الشيعة[3] ومن مؤلفاته : ١ ـ كتاب مشكاة الأنوار . ٢ ـ كتاب مجمع المطالب ومنتهى المآرب تفسير للقرآن الكريم شرع بتأليفه في رمضان سنة ١٢٧٠ ويقول فيه شرع بتأليفه وهو ابن اربعين سنة واستخرجنا منه عام ولادته قال ايضاً : خوفاً من عوائق الدهر أفرد تفسير الفاتحة والتوحيد عازماً على تفسير باقي السور وفي آخر تفسير التوحيد بمناسبة ذكر صفات الله تعالى، ذكر سبع عشرة عقيدة من عقائد الشيخية في صفات الله والمعراج والمعاد الجسمانيين وردها جميعاً . .

٣ ـ كتاب الافاضات الرضوية او (فيض الرضا عليه السلام) رد في فصل منه على الشيخية في المعاد والمعراج[4].

الشيخ محسن بن الشيخ محمد حسن بن الشيخ محسن الكبير بن الشيخ محمد الحوزي الحائري آل ابي الحب .

ولد في كربلاء سنة ١٢٠٥ وتوفي بها فجأة صباح اليوم الخامس من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٦٨ ودفن في مقبرة خاصة له في روضة ابي الفضل العباس عليه السلام من جهة الغرب .

آل ابي الحب من الأسر العلمية والأدبية الشهيرة في كربلاء هاجر جدهم

(١) يظن الكثيرون ان هذا البيت هو من نظم سيد الشهداء ابي عبد الله الحسين عليه السلام وانه ارتجله يوم عاشوراء وهذا ليس بالصحيح وهو للمترجم .

(٢) ميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة ص ١٦٠ الطبعة الحجرية الاولى سنة ١٣٠٦ هجرية طهران .

(٣) انظر الذريعة الى تصانيف الشيعة ج ٢ ص ٢٥٥ وج ٢٠ ص ٤٤ وج ٢١ ص ٥٦ دار الاضواء بيروت .

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

الشيخ محمد الحوزي المعروف بابي الحب من قرية الحوزة الايرانية جنوب البصرة في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري وسكن كربلاء بقصد طلب العلم ثم نبغ من الأسرة شعراء وخطباء اشهرهم شاعر أهل البيت عليهم السلام الشيخ محسن بن الشيخ محمد الحوزي الحائري آل ابي الحب صاحب القصائد الحسينية المعروفة ومنهم المترجم له الذي كان كبير خطباء كربلاء في عصره قرأ المقدمات على أفاضل كربلا وأخذ الفقه والأصول والأدب على أبيه ثم اولع بالخطابة والأدب والشعر ونال شهرة واسعة في العراق واحتضنته كربلاء واعتبرته خطيبها الأول

شعره

من قصيدته في رثاء سيد الشهداء ابي عبد الله الحسين (ع):

سبط النبي ابو الأئمة ... من للخلائق جاء رحمة
هذا سليل محمد ... لبني الولا كهف وعصمة
في شهر شعبان علينا ... الخير خالقنا أتمّه
ولد الحسين ونوره ... مذ شعَّ اذهب كل ظلمه
جبريل هنأ جده ... وأباه والزهراء امه
كان النبي إذا رآه ... اليه ادناه وضمّه
وله اجلّ مناقب ... وفضائل في الدهر جمّه
كم قد أفاض على الورى ... من جوده فضلاً ونعمه
قد شع نور جبينه ... فجلى الليالي المدلهمه
رام العدى إطفاءه ... والله شاء بأن يتمّه
بشراكم بولادة السبط ... الحسين ابي الائمه
لهفي عليه لقد غدا ... جثمانه للبيض طعمه
ما راقبوا لمحمد ... في آله إلا وذمه

وله ديوان مطبوع ١٣٨٥ في النجف[1].

الآغا الميرزا محسن المجتهد التبريزي :

ولد سنة ١٢٦٧ في تبريز وتوفّى فيها سنة ١٣٥٢ وهو أخو الآغا ميرزا صادق التبريزي هاجر مع أخيه إلى النجف وبعد تسع سنين عاد هو الى تبريز ومكث أخوه الآغا صادق فيها .

كان المترجم من أكابر فقهاء عصره ومرجعاً في حلّ معضلات الناس وبيته كان كدار القضاء يحكم فيه بين الناس ويقطع دابر الخلافات والخصومات وقضى اربعين سنة من عمره في هذه الخدمة الشعبية الاجتماعية .

وللمترجم له آثار قيّمة منها : تبيين المحجّة إلى تعيين الحجّة وايمان ابي طالب[2].

محيي الدين ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن ابي طريف محمد بن علي يعرف بابن المنكر العلوي الحسيني الزيدي النقيب بمشهد موسى عليه السلام .

هكذا ترجمه ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٣٩٩ رقم ٨٢٣ وقال :

ولي النقابة بمشهد الامام موسى بن جعفر [عليه السلام] وكان من اصحاب النقيب الطاهر رضي الدين ابي القاسم علي بن علي بن طاوس الحسني وهو من اولاد السادات النقباء وله نفس شريفة ولذلك علته الديون في قضاء الحقوق ».

(١) الصالحي .

(٢) السيد ابراهيم السيد علوي .

محمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي .

المعروف بملا صدرا ترجمته مرت في المجلد التاسع وننشر هنا عنه بحثين احدهما مترجم عن الفارسية للسيد محمد حسين الطباطبائي ، والثاني مترجم عن الفرنسية للمستشرق الفرنسي (كوربان) المتخصص بالفلسفة الاسلامية والفكر الاسلامي ، لا سيما منه الفكر الشيعي . وهو محاضرة كان ألقاها في كلية آداب جامعة طهران :

مجمل تاريخ حياته

يعرف صدر الدين الشيرازي في أوساط العامة بـ « ملا صدرا» ، كما يعرف في أوساط أهل العلم وتلاميذ مدرسته بـ « صدر المتألهين » ، ينحدر صدر الدين من أسرة « قوام الشيرازي » الشهيرة . وهو الابن الوحيد لابيه « ميرزا ابراهيم الشيرازي » . وقد كان ابراهيم الشيرازي احد شخصيات شيراز البارزة ، وقيل انه احتل مركز الوزارة ايضاً لدى سلطان زمانه .

ولد صدر المتألهين في حدود عام ٩٧٩ هـ بمدينة شيراز ، وأخذ منذ حداثته بتحصيل مبادىء العلم عند ابيه . وبعد وفاة والده عزم على الرحيل الى اصفهان حيث كانت آنذاك عاصمة الحكم الصفوي ومركزاً علمياً زاهراً ، فعكف على تحصيل العلوم العقلية والنقلية هناك .

لقد تتلمذ صدر الدين واكمل دراسته في ميدان الفلسفة والمنطق « العلوم العقلية » على يد فيلسوف عصره السيد محمد باقر المعروف بـ « ميرداماد » المتوفى سنة ١٠٤٠ هجرية . كما تتلمذ في ميدان الفقه والحديث «العلوم النقلية» على يد الشيخ بهاء الدين محمد العاملي والمتوفى سنة ١٠٣١ هجرية ، وقد كان الشيخ البهائي احد نوابغ عصره .

انهى صدر الدين اقامته في اصفهان بانتهاء تحصيله العلمي ، وتوجه صوب مدينة قم ، فعكف في احدى ضواحي هذه المدينة منقطعاً عن الحياة العامة ، وكانت هذه الضاحية قريةً تدعى بـ « كهك » . وقد أمضى صدر الدين سنين من عمره ، وهو موصد لباب العلاقات الاجتماعية ، ماكثاً في عزلة تربوية لتهذيب السلوك وتصفية الذات ، وقد استطاع عبر سنين من المعاناة الداخلية ان يستشرف حقائق العلم التي انتهى اليها خلال الاستدلال والجهد الفكري ، ولكن عن طريق المكاشفة والشهود هذه المرة ، وبشكل واضح وضوح النور . (كما يشار لذلك في ديباجة كتابه العملاق « الاسفار ») .

وبعد مدة من زمن المعاناة التي حصل بفعلها على ثمار ونتائج رياضته الروحية ، عكف صدر الدين على وضع أسس بحوثه ومدرسته ، وأخذ بزمام القلم ليدبّج ببراعة ما دبج . وقد مضى صدر الدين على هذا المنوال حتى نهاية حياته مؤلفاً معلماً ومربياً .

كان صدر المتألهين تقياً ورعاً عابداً ، وقد اختلف على زيارة العتبات المقدسة في العديد من المناسبات . وكانت له سبع رحلات لحج بيت الله الحرام سيراً على الأقدام ، وقد كانت الرحلة السابعة موافقة لعام ١٠٥٠ هجرية حيث وافته المنية في طريق السفر وكانت محطة وفاته مدينة البصرة حيث دفن هناك .

مراحل حياة صدر المتألهين

في ضوء استيحاء الفقرة السابقة تضحى حياة صدر المتألهين العلمية مصنفة الى ثلاث مراحل محددة :

أ ١ ـ مرحلة الدراسة والتحصيل ، وقد كان صدر المتألهين متابعاً مخلصاً ـ خلال هذه المرحلة ـ لطريقة التفكير العقلي ، جاهداً في سبيل تتبع واستجلاء آراء وأفكار الفلاسفة ، والمفكرين من المعاصرين والسالفين له .

٢ ـ مرحلة الرياضة الروحية والتربية الذاتية ، حيث عكف في هذه المرحلة على العبادة والزهد بمتاع الدنيا في أفق، واهتم بالكشف والشهود في أفق آخر.

٣ ـ مرحلة التأليف والتعليم والاعداد، حيث كانت هذه المرحلة بمثابة نتاج مرحلتيه السابقتين .

مصادر الالهام في فكر صدر المتألهين

في ضوء المستوحى من كلمات صدر المتألهين[1] انتهى صدر الدين في أواخر المرحلة الأولى من حياته الى ان سبيل الوصول الى حقائق العلم وخصوصاً ـ في الفلسفة الالهية ـ لا ينبغي حصره بنهج المشاء الذي يتسم بطابع محدد جاف . بل كما ينتج الادراك الانساني ـ الذي يغطي الأفكار الفلسفية العامة ويشكل منطلقاً لها ـ فكراً ورؤى عن طريق القياس المنطقي ينتج كذلك نماذج أخرى عن طريق الكشف والشهود والوحي .

وكما نضع اليد من بين الأفكار القياسية على امور لا يتطرق الشك لصدقها وواقعيتها ، نلمس هذه الخصوصية ايضاً في مجال الكشف والشهود .

وبعبارة اخرى، بعد أن اتضحت على أساس البرهان العلمي واقعية الرؤية الانسانية ، وثبت بالدليل ان الادراك البشري اليقيني يحكي ويتطابق مع الواقع الخارجي ، فلا يبقى هناك فرق بين البرهان اليقيني ، والكشف القطعي، وتضحى الحقائق التي يحصل عليها الانسان عن طريق المشاهدة والكشف القطعي، والحقائق التي يرقى الانسان لادراكها عن طريق التفكير القياسي سيان .

كذلك بعد أن دعم البرهان القطعي صحة وواقعية الوحي، لا يبقى هناك فرق بين مفردات الفكر الديني التي تتناول المبدأ والمعاد وبين مدلولات البرهان والكشف .

في ضوء هذه الرؤية والنقلة أقام صدر المتألهين وجهة بحوثه العلمية والفلسفية على أساس التوفيق بين العقل والكشف والشرع ، واستلهم مقدمات البرهان ، ومفاهيم الكشف ، ومفردات الدين القطعية في سبيل الوصول الى حقائق الالهيات . ورغم أن جذور هذه الرؤية كانت واضحة في طيّات ما كتبه المعلم الثاني أبو نصر الفارابي، وابن سينا، وشيخ الاشراق، وشمس الدين تركه ، والخواجه نصير الدين الطوسي، الا ان التوفيق حالف صدر المتألهين لتجسيد هذه الرؤية في صورتها المتكاملة .

منهج صدر المتألهين الفلسفي

وضعت المتابعة المستوفية لحقائق الدين ومفاهيم العرفان والكشف وتطبيقها على البرهان القياسي بين يدي صدر المتألهين أدوات وافكاراً مستجدة، وأتاحت له امكانات كبيرة لتطوير وتوسعة البحوث الفلسفية، واستحداث بحوث في متن مفردات الفلسفة، كما أعانته على استبصار افكار ونظريات جديدة، وفي غاية العمق. ولم يكن كل ذلك ممكناً على الاطلاق عن طريق العقل المحض والفكر المجرد .

من هنا كانت الفلسفة في مدرسة صدر المتألهين مجددة لروح الفلسفة العتيقة المتعبة ، بروح اكثر جدة، ازاحت غبار الأعياء عما أصاب الفلسفة منه نتيجة الاجهاد، كما أضافت لأبحاث الفلسفة عدداً يعتد به من البحوث الفلسفية .

افتتح صدر المتألهين فلسفته بمسألة « اصالة الوجود » وعطف عليها مفهوم « تشكيك الوجود». ثم أخذ يستلهم هاتين النظريتين ليبرهن من خلالهما عند كل مسألة من مسائل الفلسفة، وينهض بأساسها على اساس هاتين النظريتين .

يوضح في النظرية الاولى انه ، رغم اننا نقف في الطرف المقابل للسفسطائين والارتيابيين ، ونؤمن بوجود واقع موضوعي ثابت للماهيات ، ونرى ان كل واحد من الأنواع الخارجية له ماهية نوعية ووجود . الاّ أنّه بحكم كون حقيقة كل شيء في الخارج لا تتعدى كونه أمراً واحداً . من هنا كان المتأصل في الواقع الخارجي واحداً من أمرين « الوجود » و « الماهية »، ويكون الآخر ثابتاً ثبوتاً عرضياً .

وبحكم أن العقل يفترض تمايزاً بين ماهية ووجود الأشياء، وبما أن الماهية ـ في نفسها ـ محايدة بالنسبة للوجود والعدم ، وأن الوجود هو عين التحقق والثبوت ، فلا بد اذن من النظر الى الوجود باعتباره عين الواقع وهو الاصيل، والنظر الى الماهية باعتبارها ظاهرة ذهنية ، وظهوراً تصورياً للوجود . وفي الواقع تمثل الماهيات حدوداً عقلية ومفاهيم ينتزعها الذهن ويتصورها جراء ادراكه لمحدودية الوجود. مثلاً الانسان كواقع خارجي ، ووجود عيني، وظاهرة وجودية تقابل العدم. يضع العقل لمفهوم الانسان « الحيوان الناطق » كماهية نوعية وحدٍّ له ، حيث أن العقل يجد ان واقع كل شيء ليس عيناً لواقع سائر الأشياء ولا يتوفر على حقيقتها وواقعها .

يوضح في المسألة الثانية « التشكيك في الوجود » التي تعود لدى التحليل الى مسألتين[2]، ان وجود الأشياء الذي ترجع الاصالة اليه ، وتتحقق الماهية تبعاً له ، يمثل حقيقة وسنخية واحدة. وبحكم كون الأصالة والواقعية نصيباً للوجود فأيّ شيء آخر نفترضه سيكون فارغاً من المضمون ومحكوماً بالبطلان . وتلك الاختلافات التي تقع في الموجودات الخارجية ، نظير الاختلاف في العلية والمعلولية ، والتفاوت من زاوية الوحدة والكثرة ، والقوة والفعل ، والتقدم والتأخر ـ الخ ، اختلافات مشهودة وأمور واقعية حقيقية . كل مفردات هذا التفاوت والاختلاف تعود الى الوجود وتقع في لبه ، وفي المحصلة يكون الوجود حقيقة واحدة، ينطوي على اختلاف وتفاوت في لبه وواقعه ، دون ضم عنصر اضافي له . يعني : ان تلك الحقيقة التي يشترك ويناظر موجودٌ موجوداً آخر في وجوده من خلالها ، تنطوي بعينها على اختلاف وتمايز يقع بين تلك الموجودات .

يمثل صدر المتألهين لهذه الحقيقة بالنور المادي حيث يبدو وضوح الضوء عبره مراتب متعددة من حيث القوة والضعف؛ وبظهوره تظهر الأجسام وتبدو للحس. والتفاوت الحاصل في الأنوار المختلفة ، والذي يبدو للحس درجات من الشدة والضعف ، ولم يحصل جراء كون النور الضعيف مؤلفاً من الضوء والظلمة ، وذلك لأن الظلام أمر عدمي ، ولا يتمتع بشيء من الوجود ، فلا يصير جزء من النور الضعيف ، كما انه ـ أي التفاوت ـ . لم يحصل جراء كون ضعف النور يفضي الى ثلم مفهوم النور، اذ ستفتقد عندئذ حقيقة النور. ولم يأت هذا التفاوت لأن قوة النور في النور الشديد اضافت شيئاً آخر لحقيقة النور فجاءت القوة نتيجة هذه الاضافة ! بل ان النور الضعيف في الحقيقة نور ضعيف بنفس معنى النورية الذي ينطوي عليه ، فهو ضعيف ونور في حدٍ ومرتبة خاصة والنور القوي تعود قوته لعين نوريته ، وهو نور في مرتبة خاصة. وفي المحصلة هناك مرتبتان موسومتان من النور، يشتركان في عين مفهوم النور، ويختلفان في نفس المفهوم بعينه .

وكما ان حقيقة الوجود ذات مراتب مختلفة من حيث الشدة والضعف فلها مراتب كذلك من حيث الكمال والنقص. اعلى مراتب الوجود هي مرتبة الوجود الواجب حيث الكمال المحض والفعلية المحضة، وليس هناك في هذه المرتبة أي لون من ألوان النقص والتحديد. وأسفل مراتب الوجود مرتبة المادة الأولى التي هي بالقوة من كل جهة ، ويعتورها النقص من كل جهة

(١) في ديباجة كتاب «الأسفار» وغيره .

(٢) احداهما وحدة وسنخية حقيقية الوجود، والأخرى الاختلاف والتفاوت الواقع في هذه الحقيقة الواحدة .

ايضاً ، وتنحصر فعليتها في كونها بالقوة فعلاً . وبين هاتين المرتبتين اللتين تقع كلّ منهما عند احد رأسي سلسلة الموجودات . هناك مراتب ـ من وجهة

نظر عقلية ـ تتألف من الكمال والنقص والقوة والفعلية . وكلما صعدنا نحو أعلى السلسلة كان خط الكمال والفعّلية أوفر، وكلما هبطنا أسفل السلسلة تزايد النقص والقوة .

ويدعى المفهوم المتحصل اصطلاحاً بـ « الوحدة التشكيكية للحقيقة » .

لقد استبدل ثبوت هذه النظريات الثلاث ـ بشكل كامل ـ « الاصالة ، الوحدة ، والتشكيك في حقيقة الوجود » التصور السائد لعالم الوجود وكل ما ينطوي عليه . فقد ألغي من أفق الفيلسوف ما كان يحسب على أساس التصور الساذج ، من أن عالم الوجود عبارة عن سلسلة ماهيات ليس بينها أيُّ لون من ألوان الارتباط الذاتي وهي أجنبية بعضها عن البعض الآخر ، وكلّ منها منفصل ولا علاقة له بالآخر. وحل محله التصور الذي تبدو خلاله الحقيقة النورية للوجود، حيث ينبسط بصفة الوحدة وخصوصية الاطلاق ضمن درجات ومراتب مختلفة ، وترتبط ظواهره اكمل اشكال الارتباط في عين كونها مختلفة . فتبدو هذه الظواهر مرتبطة ومختلفة بعضها مع البعض الآخر .

يضحى عالم الوجود ـ وفق التصور الجديد ـ نظير محيطٍ من النور اللامتناهي ، وقد حل مشعل هذا النور في قلب هذا المحيط بفعل قوته اللامتناهيةو غير المتحيزة بمكان وغير المحددة بزمان ، ويضيء هذا المشعل بلمعاته وأشعته باستمرار . وتبدو لمعات هذا المشعل بدرجات مختلفة وأحكام وآثار متفاوتة على أساس القرب والبعد منه .

ومن هنا يفهم جيداً أن الفلسفة التي يتناول بحثها على أساس هذا الطراز من التصور العام لعالم الوجود ستختلف بشكل كامل في طريقة بحثها مع الفلسفة التي تفترض العالم مؤلفاً من سلسلة ماهيات منفصلة دون ارتباط بينها ، وتتناول كل ظاهرة بشكل تجزيئي . ومضافاً للاختلاف في أسلوب البحث وطريقته فسوف تبرز جملة مسائل أساسية وعميقة ، لا يمكن العثور على سبيل لتصورها والاستدلال عليها وفق المنهج التجزيئي على الاطلاق .

لقد أدّى بروز هذا المنهج الفلسفي على مسرح الأبحاث الفلسفية الى خلق مصالحة وانسجام بين الذوق والبرهان . يعني : أوضح هذا المنهج برهانياً جملة من المفاهيم التي تقوم على أساس الذوق. فبعد استلهامها عن هذا الطريق « الذوق » شيد لها صرحاً من البراهين وحشرها في صف مسائل الفلسفة التي تمثل محصلة برهانية . وفي نهاية المطاف وسع رقعة المسائل الفلسفية التي كانت تبحث في مدرسة اثينا والاسكندرية ، حيث بلغت في حدها الأعلى آنذاك «٢٠٠» مسألة ، بينما اضحت وفق هذا المنهج (٧٠٠) مسألة تقريباً .

بعد أن أبان صدر المتألهين هذه المسائل الثلاث بشكل وافٍ، وبعد أن أوضح الأحكام العامة للوجود من قبيل البساطة، وسائر الأحكام السلبية الأخرى، عكف انذاك على بيان التقسيمات العامة ـ الكلية ـ للوجود، وكان من جملتها :

١ ـ تقسيم الوجود الى خارجي وذهني :

فصّل الحديث في هذا البحث حول حقيقة العلوم التصورية والتصديقية، كما أوضح مسألة حصول الماهيات والمفاهيم في الذهن وطريقة تحققها ووجودها .

٢ ـ تقسيم الوجود الى مستقل ورابط :

ضمن هذا البحث تصنف الموجودات الى صنفين متمايزين ، كما يفرز الوجود الرابط، ووجود النسبة، الذي ليس له أي لون من الاستقلال لا على مستوى الذات، ولا على مستوى الآثار والأحكام ، عن الوجود المستقل . ويستخلص من هذا التقسيم في جملة ما يستخلص من نتائج مثمرة ، أن تكون الوجودات الامكانية بالنسبة للوجود الواجب روابط ونسب ليس لها أي لون من الاستقلال في نفسها وآثارها ، وكل ما يشاهد فيها من مظاهر الاستقلال فهي تعود في الواقع للوجود الواجب .

٣ ـ تقسيم الوجود الى لنفسه، ولغيره

الوجود النفسي، والغيري، وبهذا التقسيم تتمايز حقيقة ومفهوم الوجود وصفاته عمّا سواها .

ولم يعهد البحث المستقل لهذه المسائل الثلاث قبل صدر المتألهين .

٤ ـ تقسيم الوجود الى ممكن وواجب :

يتناول خواص الواجب والممكن على نهج الاستقصاء في هذا التقسيم .

٥ ـ بحث الماهية :

يمثل هذا البحث في الحقيقة ادامة لبحث الممكن ، ويدور الحديث فيه حول تقسيمات الماهية ، وخواصها . وقد عكف صدر المتألهين في خاتمة هذا البحث على دراسة مشبعة لمفهوم « أرباب الأنواع » .

٦ ـ تقسيم الوجود الى الواحد والكثير وأقسامهما وخواصهما

٧ ـ تقسيم الوجود الى العلة والمعلول، وأقسامهما وخواصهما.

٨ ـ تقسيم الوجود الى ما بالقوة ، وما بالفعل :

تصنف الموجودات عبر هذا التقسيم الى صنفين : الموجود بالفعل، وهو موجود كامل وتام من ناحية موجوديته ، وآثاره الوجودية ظاهرة وثابتة ، نظير الفرد الكامل من الانسان الذي هو انسان بالضرورة ، والذي تبدو من خلاله آثار الانسانية . والموجود بالقوة، وهو يحمل امكان موجودية خاصة، ولم تظهر بعد الآثار الضرورية لهذه الموجودية، نظير وجود الانسان في النطفة « مادة النطفة » حيث انه نطفة بالفعل، الا انه انسان بالقوة ، وليس له بالفعل الآثار الضرورية للانسانية .

لقد حسب الفلاسفة السالفون خروج الشيء من القوة الى الفعلية على نحوين :

الأول : الخروج الدفعي ، نظير تبدل أحد من جواهر العناصر بعنصر آخر، مثل تحول النار الى هواء، حيث تنتفي صورته العنصرية دفعة وتحل محلها صورة عنصر آخر.

الثاني : الخروج التدريجي، وهو الذي يحصل عن طريق الحركة ، نظير انتقال عرض ـ من جوهر ما ـ الى عرض آخر، كالانتقال التدريجي من كيفية الى كيفية اخرى، أو من وضع الى وضع آخر، أو من مكان الى مكان آخر. وفي المحصلة تنحصر الحركة بأربع مقولات عرضية [الكيف ، الكم ، الوضع ، الأين].

نتيجة النظرية أعلاه هي أن كل موجود مادي يقع تحت قانون الحركة من زاويتي صورته الجوهرية ، وأعراضه . وأن كل موجود ثابت فهو مجرد وعارٍ من المادة والقوة .

ووفق سياق هذه النظرية يضحى تقسيم الوجود الى بالقوة وبالفعل مساوياً لتقسيم عالم الوجود الى قسمين :

الوجود السيّال والوجود الثابت . وان كل وجود مادي ذي قوة وامكان سيّالٌ وواقع تحت قانون الحركة . وان كل وجود غير مادي، حيث لا مجال لأي وجه من القوة والامكان فيه ، هو وجود ثابت ولا حركة فيه . ويشكل عالم المادة بجميع أسسه الجوهرية والعرضية تياراً هائلاً من الحركة يشبه النهر العظيم الذي تستمر فيه حركة الماء الجاري ولا يظل رهن مكان واحد في لحظتين متواليتين .

من هنا صرح صدر المتألهين في أبحاثه بالقول :

فللطبيعة امتدادان[1]. وهذا صريح في انه يرى أفراد الأنواع الجسمانية محدودة بأربعة أبعاد (الطول ، العرض ، العمق ، الزمان) . وكل واحد من هذه الأجسام النوعية ينقسم بحسب انقسامات الزمان ويتكثر ويتفرق . وتحفظ وحدة هذه الأجسام نفوسها المجردة أو أرباب الأنواع .

تقع هذه الحركة بين نقطتي القوة والفعل ، أو المادة والتجرد . ويحمل عالم المادة بواسطة هذه الحركة باستمرار أجزاءً من عالمه الناقص اللامتكامل ليبلغ بها عالم التجرد . وهو يمثل في الواقع مصنعاً لصنع العناصر المجردة ، فبدوران عجلة هذا المعمل يُنضج المواد الأولية عن طريق الحركة ليصل بها الى مرحلة التجرد، وبعد التجريد الكامل ومفارقة المادة، يعكف على تنضيج مواد أخرى، وهكذا . . .

وعبر هذا المسلك نفسه ذهب صدر المتألهين الى اعتبار النفوس جسمانية الحدوث، يعني : ان النفس في أول حدوثها كانت جزءاً من عين البدن المادي، ثم أخذت بالتدريج تتلمس التجرد عن طريق الحركة الجوهرية ، لتنتهي الى مفارقة البدن في نهاية المطاف .

٩ ـ تقسيم الوجود الى حادث وقديم.

احصيت خلال هذا البحث أقسام التقدم والتأخر والمعية الحاصلة في عالم الوجود، ثم عطف على بيان حقيقة الحدوث والقدم وأقسامهما .

ذهب الفلاسفة السالفون الى أن العالم حادث ذاتي، ينتهي الى الواجب تعالى . . . بحكم كون ارجاء العالم معلولاً لمبدأ الابداع، وفي النهاية يكون ذات العالم ووجوده مسبوقين بوجود الواجب . وفي نفس الوقت افترضوا الزمان غير متناه . وكانوا يرون ان « اللا تناهي الزماني » لموجود ممكن لا يتنافى مع كونه معلولاً ، وذلك لان المعلولية نتيجة الامكان والحاجة ، وليست خصوصية الحادث الزماني . من هنا اكتفى الفلاسفة بصدد تفسير العالم بالحدوث الذاتي .

غير ان صدر المتألهين حصل على نجاح بهذا الاتجاه من خلال اثباته لوقوع الحركة في جوهر العالم المادي، فأثبت لعالم المادة حدوثاً زمانياً ايضاً. وذلك لانه عن طريق تخلل الحركة والتحول التدريجي في قلب العالم فسوف يكون العالم ، على أي فرض افترضناه « كلاً أو بعضاً »، مسبوقاً بالعدم الزماني .

١٠ ـ بحث العاقل والمعقول:

تابع صدر المتألهين في هذا البحث أقسام الادراك الحسي والخيالي والوهمي والعقلي وخواصها ، كما أوضح المفاهيم المتعلقة بها . وفي طيات هذا البحث اتفق مع فلاسفة الاشراق بصدد تقسيم العلم الى حضوري وحصولي، فخالف المشائيين الذين حصروا العلم الحضوري بعلم النفس بذاتها ، وذهب الى تقسيم العلم الحضوري الى أقسام ثلاثة : علم المجرد بذاته ، علم العلة بمعلولها ، علم المعلول بعلته .

كما ناصر صدر المتألهين نظرية « اتحاد العاقل والمعقول » التي نقل اجمالها عن « فرفوريوس الصوري» احد تلامذة ارسطو . متخذاً بذلك موقفاً مجانباً لاتجاه سائر الفلاسفة . ودلّل بشكل تفصيلي على نظرية اتحاد المدرك بمدركه (اتحاد الحاس مع المحسوس بالذات ـ والمتخيل مع التخيل ـ والمتوهم مع التوهم ـ والعاقل مع المعقول) . وعلى وجه الخصوص قرّبَ هذا المفهوم في مورد الادراك الخارج من القوة الى الفعل حيث يمنح صاحب الادراك لوناً من الرقي الوجودي. والادراك في الحقيقة نوع انتقال يحصل لصاحب الادراك من مرتبة وجوده الى مرتبة وجود المدرك .

١١ ـ تقسيم الماهية الى جوهر وعرض وبيان أجناسهما وأنواعهما .

١٢ ـ أبحاث واجب الوجود :

يبحث في هذا الفصل عن اثبات ذات مبدأ الابداع ، ووحدانيته ، وصفاته الثبوتية والسلبية ، وخصوصيات أفعاله ، وارتباط العالم بمبدعه ، والنظام المتقن الحاكم على العالم ، والترتيب القائم بين الموجودات .

يتضح عبر مقايسة نظام البحث الفلسفي، وبناء الأبحاث عند صدر المتألهين ، مع بناء الأبحاث عند سائر الفلاسفة أن فيلسوفنا لا يختلف كثيراً عن الآخرين في البناء العام للأبحاث الفلسفية ، بل حتى صدر المتألهين نفسه يصرح بأنه يبحث في كثير من الأحيان على طريقة ونهج الآخرين . انما يكمن سرّ نجاحه ، في عمقه وسبره لأغوار مسائل الفلسفة الأساسية (أصالة الوجود، وحدته، والتشكيك فيه) ، كما يمثل سر انجازاته الفلسفية العملاقة ، نظير الحركة الجوهرية ورواضعها ، والحدوث الزماني للعالم ، واتحاد العاقل بالمعقول، وقاعدة (بسيط الحقيقة كل الأشياء)، وقاعدة (امكان الأشرف) وخصوصيات أخرى تلتمس في طيات كلماته .

آثار ومؤلفات صدر المتألهين

خلف صدر المتألهين آثاراً ومؤلفات كثيرة ، وقد تابع في أغلب هذه المؤلفات أو في جميعها نهجه الخاص في التوفيق بين الشرع والعقل والجمع بين منهجي الذوق، والبرهان . ومما تجدر الاشارة اليه أن هذه الآثار تمثل نتاج المرحلة الثانية والثالثة من حياته .

واليك فهرساً لمؤلفاته :

١ ـ الحكمة المتعالية المشهور بـ « الاسفار الأربعة » في عدة مجلدات .

٢ ـ المبدأ والمعاد.

٣ ـ شواهد الربوبية.

٤ ـ المشاعر.

٥ ـ الحكمة العرشية.

٦ ـ شرح الهداية الاثيرية.

٧ ـ حاشية على الهيات الشفاء.

٨ ـ حاشية على شرح حكمة الاشراق.

٩ ـ حاشية على كتاب «الرواشح» للسيد الداماد.

١٠ ـ رسالة في اتحاد العاقل والمعقول.

١١ ـ رسالة في اتصاف الماهية بالوجود.

(١) الاسفار الأربعة ، ج ٣ ، ص ١٤٠ ، من الطبعة الحديثة .

١٢ ـ رسالة في بدء وجود الانسان.
١٣ ـ رسالة في التصور والتصديق .
١٤ ـ رسالة في الجبر والتفويض.
١٥ ـ رسالة في حدوث العالم.
١٦ ـ رسالة في الحشر.
١٧ ـ رسالة في سريان الوجود.
١٨ ـ رسالة في القضاء والقدر.
١٩ ـ رسالة في التشخص.
٢٠ ـ رسالة في « طرح الكونين».
٢١ ـ رسالة في « المسائل القدسية » .
٢٢ ـ رسالة في « مفاتيح الغيب » .
٢٣ ـ رسالة في « اكسير العارفين» .
٢٤ ـ رسالة في «الواردات القلبية» .
٢٥ ـ القواعد الملكوتية .
٢٦ ـ تفسير سورة الحمد.
٢٧ ـ كسر اصنام الجاهلية.
٢٨ ـ تفسير سورة البقرة (ناقص) .
٢٩ ـ تفسير آية الكرسي .
٣٠ ـ تفسير آية النور.
٣١ ـ تفسير سورة الواقعة .
٣٢ ـ تفسير سورة يس .
٣٣ ـ تفسير سورة الطارق .
٣٤ ـ تفسير سورة الحديد.
٣٥ ـ تفسير سورة الجمعة .
٣٦ ـ تفسير سورة الاعلى.
٣٧ ـ تفسير سورة الضحى.
٣٨ ـ تفسير سورة الزلزال.
٣٩ ـ شرح أصول الكافي .
٤٠ ـ رسالة في شرح حديث (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا) .
٤١ ـ أسرار الآيات .
٤٢ ـ حاشية على تفسير البيضاوي .
٤٣ ـ حاشية على التجريد.
٤٤ ـ حاشية على شرح القوشجي للتجريد.
٤٥ ـ حاشية على الامامة .
٤٦ ـ حاشية على شرح اللمعة الدمشقية .

وهناك كتابان آخران أيضاً ينسبان له وهما حاشية على الشفاء، وشرح حكمة الاشراق، كما هناك رسالة باسم « سر النقطة » ورسالة اخرى في تفسير الآية الشريفة ﴿وترى الجبال تحسبها جامِدَة وهي تمرّ مرّ السحاب﴾ تنسبان لصدر المتألهين، ومن خلال طراز الأفكار التي تشتمل عليها هذه الآثار تضحى نسبتها له محل شك وبحث:

مقال الاستاذ كوربان

لعل بعض الحضور الكرام يذكرون اننا اجتمعنا منذ بضع سنوات في هذا المكان وتحدثنا عن واحد من كبار المفكرين يسيطر اسمُه على ما نسميه اليوم « مدرسة اصفهان ». هذا الحكيم السامي هو « ميرداماد » أحد أبرز شخصيات النهضة الصوفية . بين تلاميذه المتعددين الذين يشكلون اسرته المعنوية يحتل اسم ملا صدرا المرتبة الاولى، حتى لقد غطت آثاره حتى حد ، كتابات استاذه المعروفة بتعقدها وابهامها . واليوم وقد صممت على التحدث عنه ، فاني أفعل ذلك عن قصد مشخص هادف .

ولد صدر الدين الشيرازي ـ استناداً الى ما يمكن استنباطه من حاشية كتبها بنفسه لأحد آثاره ـ حوالي السنة ٩٧٩ او ٩٨٠ هجرية قمرية (اي حوالي ١٥٧٣ ميلادية) ، ونحن الآن (اي خلال سنة ١٩٦٢ ميلادية) نعيش في العام ١٣٨٢ الهجري، اي اننا منذ سنتين خلتا بحساب السنوات القمرية واجهنا ذكرى مرور اربعمئة سنة (٩٨٠ ـ ١٣٨٠) على ولادة هذا الحكيم الكبير وقد احتفل في « كلكتا » في العام الماضي بهذه الذكرى بمساعي المجمع الايراني (انجمن ايران)[١]، وأظن أن جامعة طهران قد نمت عن رغبة في اقامة احتفال مجلل في هذه الحاضرة أيضاً بمناسبة هذه الذكرى، رغم العوائق التي أخرت اقامة هذا الاحتفال.

ان بحثنا ، بناء على هذا ، ليس اكثر من مقدمة ، ولكنها مقدمة يتعذر علي أن أنهيها الى اسماع المستمعين الا مع نوع من العاطفة الشخصية تمنحني العذر في انني سأتصرف في محاضرتي بعض التصرف ، وفي أن أضيف بعض الخواطر الخاصة التي عرضت لي حين جئت ايران لأول مرة منذ سبعة عشر عاماً (في ايلول ـ سبتمبر ١٩٤٥) . ففي ذلك الحين كان قد مضى علي سنوات في تركيا قضيتها في اعداد قسم من كتابات شهاب الدين يحيى السهروردي، ذلك الذي يُعرف في ايران بلقب « شيخ الاشراق » ، والذي استُشهد في حلب سنة ٥٨٧ وهو بعد في الثامنة والثلاثين من عمره .

ولقد كتب صدر الدين الشيرازي ـ كحكماء آخرين ـ شرحاً لكتاب ضمّنه السهرورديُ كلّ أفكاره خلال حياته القصيرة ، وكان شرح ملا صدرا هذا بسطاً وعرضاً لمعتقداته الشخصية الخاصة . ان هذين الاسمين وهذا الأثر غير قابلة للانفكاك عن بعض ، ولذا كنت احس ان السهروردي أخذ بيدي ـ لو امكنني ان أقول هذا ـ وارشدني الى ذلك المكان الذي هو « وطني المعنوي ». ومع ان الشخصيات البارزة التي جرى معها حديث ومباحثات عن السهروردي وصدر الدين الشيرازي كانت كثيرة ولا شك ، الا ان كتابات الحكيمين كليهما كانت لا تزال غامضة بعض الشيء ودون ما هما أهل له من شهرة وتقدير، وها ان الاحتفالات الرسمية التي ارتفعت مشاعلها اليوم تدل على الاهتمام بتلك الآثار وتقديرها . انا لا أريد في هذا الحديث ان أرى لأمر آني سريع الزوال أهمية فائقة ، بل انني افكر بأمر أعمق وأجل ، أمر تظهره وتدل عليه سلسلة من المنشورات .

اريد أولاً ان أظهر تقديري للاستاذ الفاضل العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي استاذ العلوم العقلية في حاضرة « قم » العلمية الدينية على مساعيه وجهوده في الطبعة الجديدة من كتاب « الاسفار » رائعة ملا صدرا الكبرى التي سنتحدث عنها بعد قليل . ثم ان الاستعدادات للاحتفال بذكرى ولادته منذ اربعمئة سنة حملت على طبع تآليفه التي لم تكن قد طُبعت بعد، فقد وضع السيد جلال الدين الآشتياني الاستاذ المساعد بكلية العلوم المعقولة والمنقولة في « مشهد » كتاباً جامعاً عن سيرة ملا صدرا وآثاره وأفكاره الفلسفية ، وطبع احد مؤلفاته العربية ، ثم ألف كتاباً كبيراً مبنياً على افكاره الخاصة عن الوجود[٢]. ونشرت كلية العلوم المعقولة والمنقولة في جامعة طهران من جهة اخرى عدة كتب، كما أن الدكتور السيد حسين نصر

---

(١) عام القاء المحاضرة.

(٢) شرح حال وآراي فلسفي ملا صدرا، مشهد ١٣٤١، هستي از نظر فلسفة وعرفان ، مشهد ١٣٨٠ ، المظاهر الالهية لمؤلفه الحكيم الالهي الفيلسوف الرباني صدر الدين محمد الشيرازي ، مشهد ، ١٣٨١ ، جملكي بقلم ويا تصحيح أقاي سيد جلال الدين آشتياني .

طبع بصورة منقحة لأول مرة رسالة « الاصول الثلاثة » التي وضعها ملا صدرا بـالفارسيـة ، والتي كتبت على الأكثـر للرد على القشـريين والنـاظـرين الى الظواهر[١]. كذلك طبع السيد دانش بجوه رسالـة لم تكن قد طبعت بعـد، وهي رسالة موضوعة للرد على بعض الغلاة من المتصوفة[٢]، وقد نشرت كلية الآداب باصفهان ترجمتين لا مجال هنا لذكرهما[٣].

ولقد ساهم فـرع الدراسـات الايرانية من مؤسستنا الفـرنسية الايـرانية (فـرانكو ايـرانين) في هذه النهضـة لطبع آثار مـلا صدرا بـطبـع « كتـاب المشاعر » طبعة دقيقة ؛ والواقع ان نشر هذا الكتاب هو تكملة للمساعي التي يقوم بها من جهة اخرى قسم العلوم الدينية في مدرسة الأبحاث العليا بجامعة السوربون ، حيث ادخلتُ في بـرامج منبـر « الدراسـات الاسلاميـة » خلال السنوات الأربع الماضية شرح آثار صـدر الدين الشيـرازي ، وافتخرُ بـأنني أعاود إلقاء هذه الدروس مرة أخرى في عدة جلسات خلال فصل الخريف من كل سنة في كلية الآداب بطهران[٤]. من مجموع هذه الفعاليـات تأتي نتيجـة تؤكدها المداولات وتبادل الآراء المتعددة، هي ان انبعاثاً في الحكمة الالهية الاسلامية على شُرُف التكون ، انبعاثاً ينـطلق من آثارِ حكيم كـان هو نفسـه مجدداً حقيقياً .

سيرة ملا صدرا

ولد صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازي ـ الذي يُعرف غالباً بلقبـه المختص به « ملا صـدرا » أو « صدر المتـألهين »ـ في شيراز . أمـا تاريـخ ولادته فلم يكن متحدداً حتى فترة متأخرة ، حين ظهرت في حـاشيةِ نسخـةٍ كانت منقولةً ـ كما سبقت الاشـارة ـ عن النسخة الأصليـة الأولى عبارة كـان كتبها ملا صـدرا تعليقاً على مـوضوع وارد في المتن وفيهـا يقول : « أُفيضَ عليَّ هذا الموضوع ساعةَ طلوع الشمس من يوم الجمعة السابع من جمادى الأولى من سنـة ١٠٣٧ هجريـة ، وكـان لي من العمـر ثمـان وخمسـون سنة »[٥]. وبعملية حسابية بسيطة يتضح ان ملا صدرا وُلد حوالي سنة ٩٧٩ أو ٩٨٠ هـ (١٥٧٢ ـ ١٥٧٣ م) ، وأن تاريخ ولادته هذا وتاريخ رحلته عن هـذا العالم همـا التاريخـان الوحيـدان اللذان يمكن التيقن منهما في سيـرة حياته .

ان ما في حياة ملا صدرا من جمال وجلال ليس في الظروف والأوضاع الخارجية ، بل أن العوامل الخارجية لم يكن لها في حياته الا دور مقلق نتاجُه الاضطراب وعدم الاستقرار، ولم تيسر لـه حياة رافهـة مجللة . ان ترجمـة شخص مثل ملا صدرا تُلتَمس في الواقع في منحنيات حياته البـاطنية ، في تطورات تفكيره وتأليف مصنفاته ، في تعاليمه وفي رابطته بتلاميـذه الذين خلفوا بدورهم آثاراً كانت تسمح لاستاذهم ان يفتخر بها .

في حياة صدر الـدين ثلاث مـراحل واضحـة يمكن تمييز كـل منها من سواها . كان ابوه وهو من المرموقين على حال من اليسار تمكنه من أن يوفر لابنـه كل مـا تتطلبـه تربيتـه وتعليمه ، كمـا ان الابن بما كـان له من نبـوغ واستعداد فكري وصفات خلقية وهب نفسه كذلك لهذه التعاليم . ولم تكن اصفهان في هـذه الفترة عاصمة الصوفيين السياسية فحسب ، بل كانت تُعد كذلك مركز الحياة العلمية في ايـران ؛ فقد كـانت مدارسهـا ـ التي لا يزال بعضها مستمراً حتى اليوم ـ في اوج فعاليتها ، وكان أكبر العلماء قد اجتمعوا فيها وقد شملت تعاليمهم مختلف شُعب العلوم والمعارف ؛ لذا كان طبيعياً أن يترك صدر الدين موطنه الأصلي شيراز وأن يؤم اصفهان ليكمل فيها مرحلة تحصيله . وهنا يجب ان لا نقيس المرحلة الدراسية في ذلك الزمان ببرامج الجامعات الحديثة حيث يمكن بعد بضع سنـوات الحصول على الليسانس والـدكتوراه ، لان مـرحلة درسٍ ما ، كـانت تستغرق قسمـاً كبيراً من عمـر الانسان ، بل لعلها كانت تُقتضي أن يصـرف المرء على بعض العلوم التي يؤمل ان يتعمق فيها عمره كله . ان مرتبة الاجتهاد كانت تحتاج الى عشرين سنة على الأقل .

كان لصدر الـدين في اصفهان ثـلاثة معلمين احتلت اسمـاؤهم مكانـاً وشهرة في تاريخ ايران الفكري والمعنوي . ففي المـرحلة الأولى درس ملا صـدرا على الشيخ بهاء الدين العـاملي (الذي يـدعى عادة الشيـخ البهائي ووفاته ١٠٣٠) العلوم الاسلامية النقلية كالتفسيـر والحديث عنـد الشيعة والفقه وسواها حتى اجازه فيهـا . وكان الشيـخ البهائي يُـظهر طـوال حياتـه صداقة ومـودة بالغتين نحـو ميرامـاد (توفي ١٠٤٠) الاستـاذ الذي سبقت الاشارة اليه في مقدمة هذه المقالـة ، والذي كـان تلاميـذه يدعـونه المعلم الثـالث بعد ارسـطو المعلم الأول والفارابي المعلم الثـاني[٦]ـ والذي كـان يرى ـ كالسهـروردي ـ ان الفلسفة التي لا تؤدي الى كشف معنـوي وتحليل عرفاني انما هي عبث وجهد مضيع . ميرداماد هذا هو الذي كان موجّـه ملا صدرا في فترة تحصيله وأستاذه في الفلسفة النظرية .

ثم ان صـدر الـدين ـ مـع ان الشـواهـد على هـذا الأمـر ليست دقيقـة تمـامـاً ـ كان تلميذاً لشخصية عجيبة غير عادية هي شخصية « مير ابو القـاسم فندرسكي ». ففي هذا الوقت من الزمن كان التنقل بين ايران والهند متواصلاً سـاعد عليـه وسهل منـه اصلاحـات « اكبر »[٧] الـدينية ، وكـان الفـلاسفـة الايرانيون ، وبخاصة منهم اتباع مدرسة السهروردي الاشراقية ، كثيرين في بلاط اكبر؛ ولقد كان لمير أبو القاسم فندرسكي دور فعال في حركة ترجمـة المتون السانسكريتية الى الفارسية التي كـانت لها أهميـة كبرى من النـاحية الثقـافية ، وبـواسطة هـذه الترجمـات بدأ المـذهب الهنـدوكي يتكلم بلغـة

---

(١) رسالة سه اصل، بانضمام منتخب مثنوي ورباعيات صدر الـدين شيرازي ،بتصحيح واهتمام دكتر سيد حسين نصر، طهران ١٣٤٠ .

(٢) كسر اصنام الجـاهليـة، بـه تصحيـح ومقـدمـة اقـاي محمـد تقي دانش بجوه ، طهران ١٣٤٠ .

(٣) الترجمات الفارسية لكتاب المشاعر وكتاب الحكمة العرشية ، بقلم السيد غلا محسين آهني، اصفهان ١٣٤٠ و١٣٤١، ولها في الغالب طابع التفسير .

(٤) كتاب المشاعر، المتن العربي والترجمة الفارسية مع ترجمة فرنسية ومقدمة من السيد هنـري كوربـان، طهران ١٣٤٢، ان هـذا الكتاب الهـام الذي يضم افكـار ملا صـدرا في موضوع الوجود شرح عدة مرات، وقد صحح السيد جلال الدين الاشتياني شرح ملا جعفر لنكرودي وسينشره قريباً .

راجع بشأن المراجع باللغة الفرنسية الصفحات التي ترجمها السيد هنري كوربان عن كتاب الحكمة العرشية في :

La terre Celeste et Corps de resurrection de liran Mazdeen z Iran shi'ite' paris' 1961.

المقرر ان تنشر في كراس ذكرى ملا صدرا الذي سينشره المجمع الايراني في كلكتا.

راجع بشأن شرح اصول الكافي تقرير السيد كوربان (سنة ١٩٥٢ ـ ١٩٦٣)في :

Annuaire de l'Ecule pratique des Hautes — Hautes — Etudes ' Section des Scie —nces religieuses.

(٥) اكتشف هذه الحاشية السيد محمد حسين الطباطبائي اثناء تصحيح متون الأشعار. وقد ذكرت هذه الحاشية ضمن مذكرة اخرى كتبها ملا صدرا على كتابه ، في النسخة التي نقلت سنة ١١٩٧ عن النسخة الاصلية المفقودة اليوم . راجع مقدمة الـدكتور السيـد حسين نصر لرسالة الاصول الثلاثة ، ص ٢ ، الحاشية ٢ .

(٦) راجـع مقـالـة السيـد كـوربـان في Confessions exactiques de Mir Damad maitre de theologie a Ispan Melanges' Louis Massgon' Vol i ' Domas

(٧) راجع ترجمة محمد اكبر في المجلد العاشر من (اعيان الشيعة) .

المتصوفة الفرس (لا ننس ان انكتيل دوبرون Anquetil — Duperron كان يعرف الـ « أوبانيشادات » بصورة ترجماتها الفارسية). ومع ذكر اسم هذا الاستاذ من اساتذة ملا صدرا، يمكننا أن نتخذ فكرة عن المعارف التي اكتسبها في المرحلة الأولى من عمره، مرحلة التلمذة من حياته .

وتبدأ الآن المرحلة الثانية . هنا يجب الا يُظن أن الظروف كانت ملائمة، وخاصة لمن يتبع أفكاره وانفعالاته الداخلية الخاصة بصورة مستمرة لا تعرف المساومة، بل ويعلم انه كلما ازداد تقدماً ازداد يقيناً بأنه سيواجه خصومة المقلدين واتباع الظواهر . لقد عانى ملا صدرا مثل هذه التجربة القاسية، كما يتضح من بضع جمل من كتابه الرئيسي حيث يقول[1] :

« في العهد الماضي، صرفت قواي منذ مطلع شبابي للفلسفة الآلهية، فأطلعت في حدود ما امكنني على مؤلفات الحكماء السابقين وبعدهم الفضلاء اللاحقين، ووقفت على نتائج إلهاماتهم ونظرياتهم وأفدت من ابداعهم وأسرارهم، ولخصت ما وقعت عليه من كتب اليونان وأعلام المعلمين، مختاراً اللباب من كل باب من ابوابها، ومتحاشياً الاطالة والاطناب (ص ٤) . . . الا أن عوائق كانت تمنع من الوصول الى هذا الغرض، وكانت الأيام تمضي واحداً بعد آخر دون أن أبلغ هدفي . . . (ص ٤) .

ولما شاهدت عداوة الدهر في أخلاق الجهلة والأراذل، ورأيت شمول لجهالة والضلالة وسوء الأحوال والأوضاع وقبح الناس، وبليت بقوم امكانية الفهم فيهم معدومة وعيونهم تلقاء أنوار الحكمة وأسرارها عمياء . . . (ص ٤) قادني انكسار الخاطر وجمود الطبيعة أمام عداوة الزمان ومناوأة الأيام الى أن اختار الأنزواء في بعض نواحي الديار وأن اختفي كسير القلب في دنيا النكران وخمول الذكر . . . (ص ٦) واخترت كما أمر سيدي ومولاي ومعتمدي، اول الأئمة والأوصياء وأبو الأئمة الشهداء الأولياء، قسيم الجنة والنار، طريق التقية . . » (ص ٧) .

ان الوضع الذي كان لملا صدرا في ذلك العهد، لم يكن كما لعله كان يظن ـ وقفاً عليه وحده، بل ان فلسفته ايضاً كانت بدورها تواجه وضعاً معقداً مؤسفاً كان يواجهه كل جيل، والسبب في ذلك أن غايته في الحياة التي سنتحدث عن نتائجها فيما بعد إنما كانت تعليم التشيع بمعنى جامع، لذا لم يكن له سبيل للتخلص من كيد الجهلة سوى أن يفارق حياة اصفهان الجياشة ليلجأ الى مكان منزو بعيد، وكان هذا المكان الذي اختاره لخلوته قرية كهك » على بعد ثلاثين كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من مدينة « قم » .

اذا غادر المرء « قم » في اتجاه « اصفهان »، فان عليه بعد مسيرة عدة كيلومترات أن ينحرف عن الجادة ليسلك شرقاً طريقاً ضيقة تنتهي به بعد حوالي خمسة عشر كيلومتراً صحراوية الى سلسلة من الجبال، حيث يتراءى وادٍ مرتفع يعود بالمُشاهد الى خاصة التضاد التي هي من ميزات طبيعة ايران، وكلما اوغل المرء في قلب الوادي تنحى طابع الصحراء الجاف ليخلي مكانه لخضرة النباتات النامية .

ان « كهك » مجموعة من عدة بساتين يقوم بجانبها مسجد صغير من القرن الحادي عشر غريب، التصميم والهندسة، وفيها قلعة قديمة جد شاعرية، وضريح مكتمل الهندسة لسيدة من سلالة الأئمة يطلق عليه ضريح المعصومة . وأن عندي الآن صورة واضحة عن هذه المجموعة كلها لأنني استطعت أن أشاهد تلك الطبيعة التي فيها غرق في عظمة الوحدة حوالي تسع او احدى عشرة سنة للتأمل والتفكير، فقد زرت مؤخراً تلك الطبيعة بصحبة صديقين ايرانيين عزيزين . الا أن من الواجب على من يريد أن يدرك جميع الأوصاف والأحوال العرفانية لهذه الديار، الا يسلك في طريق عودته الى « قم » الجادة الأصلية، بل أن يتجه الى الشرق مرة اخرى في الطريق التي تنتهي الى قرية « جم كران » ليصل الى حرم ينسب الى من كان منذ اكثر من عشرة قرون التاريخ السري للوجدان الشيعي، اعني الامام الثاني عشر الغائب . هناك كنا موقنين أننا سنجد في الغيبة كل الزوار الذين امّوا ذلك المكان قبلنا، لا ميرداماد وملا صدرا وملا محسن فيض والقاضي سعيد القمي فقط، بل كذلك جميع أولئك الذين صنعوا الفكر الشيعي، جيلاً بعد جيل، مع كل ما يتفرد به من معان في تاريخ الانسان .

الا أن هذه الرحبات التي تقوم في جنباتها نقاط وعلائم عرفانية، والتي تقوم منها قبة حرم « قم » المشعة مقام القطب والمركز، ما عتم ملا صدرا أن اضطر مرة اخرى الى مفارقتها ؛ وهنا بدأت المرحلة الثالثة من حياته . وخلال تلك السنوات التسع، او الاحدى عشرة، التي قضاها ملا صدرا في كهك، توصل إلى كشف الحقائق المعنوية، وبلغ مقام المشاهدة الذي ليست الفلسفة إلا مقدمة ضرورية له، وليست في نظره ونظر جميع أتباع مدرسته الا عملاً عقيماً ومحاولة واهية عابثة إذا هي لم تنتهِ إلى هذا المقام .

ان انساناً في مقام ملا صدرا وشخصيته، لا يستطيع مهما حاول أن ينجح في اخفاء سر خلوته واعتزاله، ولذا لم يستطع ملا صدرا أيضاً أن يمنع التلامذة والمريدين من أن يطبقوا عليه ويقبلوا على مجالسه، وأن يحد شهرته من أن تتسع وتنتشر . ولقد حلت تلك اللحظة حين صمم والي مقاطعة « فارس » الله وردي خان[2] على بناء مدرسة كبيرة في شيراز، واستدعى ملا صدرا بموافقة الشاه عباس الثاني طالباً منه العودة إلى بلده الأول والتدريس في المدرسة الجديدة .

ان الغرفة التي كان ملا صدرا يعلم فيها لا تزال تُمكن مشاهدتها في تلك المدرسة المعروفة اليوم باسم « مدرسة خان » وليس عجباً أن تصبح شيراز بسرعة، بسبب انتقال صدر الدين اليها، مركزاً علمياً كبيراً كأصفهان . كان « الأستاذ » يعيش في تلك المدينة، مستغرقاً في التعليم وإعداد الطلبة وتوجيههم، وفي تأليف كتب بقي بعضها ناقصاً للأسف، وان التعاليم الأخلاقية الرفيعة التي كان يعلمها طلابه والتي ظل هو يعيشها ويطبقها، لخير وسيلة لتعريف شخصيته ؛ وهذه التعاليم تتلخص جميعاً في أربعة قواعد سنها لكل من يريد أن يخطو في طرق المعنويات، هي : التخلي عن حب اكتساب الثروة، ترك طلب الجاه الدنيوي، البعد عن التقليد الأعمى، واجتناب كل نوع من أنواع المعاصي[3].

ومع ما أنجز ملا صدرا من أعمال عظيمة، استطاع الحج سبع مرات إلى بيت الله، وفي عودته من حجته السابقة عام ١٠٥٠ هـ . وافته منيته في البصرة وفيها دفن .

(١) نقلاً عن طبعة اسفار العلامة الطباطبائي. ارقام الصفحات في المتن .

(٢) الله وردي خان خلفه ابنه امام قلي خان الذي ولي امور مقاطعة فارس منذ سنة ١٠٠٣ وتوفي سنة ١٠٢١ . راجع مقدمة السيد دانش بجوه لكتاب « كسر أصنام الجاهلية » ص ٢ فما بعد. يمكن الاعتراف ان ملا صدرا اتى شيراز بين ١٠٠٣ و١٠١٠، فبناء على هذا مارس التدريس قريباً من أربعين سنة . ولكن السيد دانش بجوه، استناداً الى بعض السنوات المذكورة في سيرة ملا محسن فيض التي اوردها السيد محمد مشكواة في مقدمة الجزء الرابع من كتاب « المحجة البيضاء » (طهران ١٣٣٩ ش ـ ١٨٦٠ م) ـ أخر تاريخ مجيء ملا صدرا شيراز حتى سنة ١٠٤٢ . والحق ان هذا التاريخ متأخر، ومن المحتمل أن تكون الحقيقة بين هاتين السنتين، ولا يمكن الدخول في بحث التفاصيل في هذا الموضوع، للاسف .

(٣) راجع كسر أصنام الجاهلية، ص ١٣٣ .

مبنى آثار ملا صدرا

ان المؤلفات التي تجعل هذا المفكر العميق المثالي بحق، حاضراً بيننا مستمراً في حياتنا ، جد عظيمة ؛ وقد بلغ مجموعها تقريباً حتى القرن الأخير أربعين مجلداً بطبع حجري[١] . بعض هذه الكتب يشتمل على مئة صفحة ، وبعضها الآخر يضم مئات الأوراق ، أن جميع موضوعات الفلسفة الاسلامية قد بُحثت في هذه الكتابات ، وأن بعض كتبه هي نتيجة بحوثه الشخصية الخالصة ، كما أن بعضاً آخر منها تفاسير وشروح ، الا أنه يوسع دائرة الشرح والتفسير في هذه الكتب ويضمنها من الآراء والتفاصيل المبتكرة ما يقتضي أن نعدها أيضاً في زمرة آثاره الخاصة .

لقد شرح ملا صدرا رائعة ابن سينا « كتاب الشفاء » ، وشرح أهم آثار السهروردي « حكمة الاشراق[٢] » ؛ وفي شرحه لكتاب « اصول الكافي » - أحد كتب الشيعة الأساسية والذي يضم تعاليم أئمة الشيعة (ع)[٣] شرع ملا صدرا في وضع مجموعة واقعية لفلسفة شيعية ، الا ان الزمن لم يمهله للأسف حتى يتمها[٤] كذلك كتب تفسيراً لعديد من سُوَر القرآن الكريم[٥] ، تحرى فيه المعنى الباطني والمعنوي أو العرفاني للآيات ؛ وهذا التفسير يمثل مع التفاسير الأخرى التي كتبها أسلافه وأخلافه ، منبعاً أساسياً للتفكير الفلسفي الاسلامي في التفسير المعنوي للقرآن . وسنرى بعد قليل لمَ يجب أن يكون الوضع هكذا ، وبخاصة في التشيع .

أما المجموعة التي ضمنها ملا صدرا ثمرة جهوده وتحقيقاته وتأملاته جميعاً فكتاب شهير سماه « كتاب الأسفار الأربعة العقلية » ، وهو اثر نفيس ضخم يضم في طبعته الحجرية القديمة أكثر من ألف ورقة مطبوعة الوجهين ، وهذا السفر هو الذي ولد على الأكثر اعجاب المريدين والمفسرين وانفعالهم وحبهم . ان شروح هذا الكتاب تؤلف مجموعة مجللة عظيمة تبدأ بشروح اثنين من أشهر تلامذته المباشرين كانا في الوقت نفسه صهرين له أيضاً ، هما ملا محسن فيض وعبد الرزاق اللاهيجي ، وتستمر جيلاً بعد جيل حتى العصر الحاضر (مجتازة في القرن الماضي ملا عبد الله وملا علي الزنوزي ، وحاجي ملا هادي السبزواري وسواهم[٦] .

وباختصار ، يجب القول ان التحقيق العميق في وضع الشيعة الفلسفي دون معرفة لآثار ملا صدرا وأفكاره ، أمر متعذر ، لأن لهذا الوضع من أوله الى آخره ارتباطاً بتفكير ملا صدرا . ترى ، أية ارادة عميقة كانت تحرك ملا صدرا طوال مدة حياته ؟ اننا نستطيع أن نجد علائمها في مقدمة كتابه الكبير ، تلك المجموعة التي تسمح لنا بأن نقول أن ملا صدرا هو لايران قديس توماها الأكويني لو كان القديس توما يستطيع في الوقت نفسه أن يكون عارفاً وحكيماً مثل ياكوب بوهمه ، إلا أن مثل هذا التركيب لا يمكن أن يتحقق إلا في ايران وحدها .

ان عبارة (الشيعي الجامع) تعلن للفيلسوف الباعث على صراع معنوي في جبهتين ، الصراع الذي هو لأول وهلة مع نفسه ، ثم بالتالي صراعه مع القوى المظلمة لعالم خارجي عدو مناويء . ولقد تحمل ملا صدرا الوجه الأول لهذا الصراع المعنوي في سنوات وحدته في قرية كهك ، وفي هذا الصراع كان الموضوع الرئيسي للغاية من حياة ملا صدرا الخاصة والتطور الذي سينتهي به اليه قدره ، واجتيازه التأمل النظري الفلسفي الى اليقين التجريبي الذي يتذوقه العرفاء ، ففلسفة حقيقية واقعية لا يمكن أن تقوم ما لم يقم اتحاد بين هذين وما لم ينته التأمل النظري الى يقين العارف . أن كل القصد من المعنوية الاشراقية لم يكن منذ عهد السهروردي إلا هذا فقط ، أما عند ملا صدرا - كما هو الحال عند أسلافه وعند اتباعه من بعده - فان هذا الاتحاد إنما يحدث بالفطرة في المعنوية الشيعية . ومن الأفضل أن ندرس هذا الموضوع بدقة أكثر .

ان كلمة (الاشراق) التي كان لها في الفلسفة الايرانية تاريخ عجيب ، استعملت في القرن الهجري السادس على يد السهروردي لبيان حكمة الايرانيين القدامى التي كان يريد أن يحييها . ان الكلمة تعني جلال طلوع الشمس، كما تعني في الوقت نفسه النور الذي يضيء الأسحار، النور الذي تتلقاه الموجودات في تلك الدقائق من بياض الفجر. كذلك تعني هذه الكلمة منطلق هذا النور ومبدأه ، أي الشرق مكاناً وزماناً . والآن يجب نقل هذه التصورات كلها الى عالم ما وراء المحسوسات وأن نفسر المشرق بعالم النور والموجودات النورانية وضياء الفجر الذي يشرق من سلسلة العقول على نفوس الأفراد المبعدين في مغرب عالم الظلام . ان هذه الحكمة التي تنبع من مشرق الروح ، والتي سميت شرقية وفقاً لهذه (الجغرافيا العرفانية) ليست فلسفة وليست علم الهيات (تيولوجي) بالمفهوم الذي تستعمل فيه هاتان الكلمتان اليوم في الغرب حيث يرون فيهما طاقتين مختلفتين متمايزتين ، وحيث يتناولون بالبحث ما بينهما من رابطة ليمكن اتخاذ رأي ما لمصلحة أحدهما .

ان هذه الحكمة المشرقية أو الاشراقية إنما هي حكمة الهية ترادف بدقة الكلمة اليونانية تيوسوفيا Theosophia هذه الحكمة تقود أتباعها من علم الفلسفة الانتزاعي ، الذي هو العلم بواسطة الصور أو المفاهيم ، والذي هو العلم الصوري، الى المشاهدة المباشرة والإشراف الحضوري الذي يطلع من مشرق الروح . هذا العلم الذي ليس بعدُ صوراً ، بل علم حضوري، هو علم مشرقي، لأنه اشراقي، وعلم اشراقي لانه مشرقي . هذا هو المعنى العرفاني لكلمتي مشرق ومشرقي حين يدور الحديث على حكمة الاشراق، وهذه الحكمة هي التي عني زرادشت وحكماء ايران القدامى - كما يقول السهروردي - بتعليمها .

ان كلمة « الاشراقيين » تقابل في اصطلاح اليوم « المشائين » وترادف

---

(١) راجع فهرست المراجع التي ذكرها السيد جلال الدين الأشتياني في كتاب: ترجمة ملا صدرا وآراؤه الفلسفية ، ص ٢١٠ - ٢٢٥ .

(٢) طبع شرحه في المجلد الثاني من الطبعة الحجرية لكتاب الشفاء ، طهران ١٣٠٣ .

٣ - لقد طبع في الجزء الثاني من منشورات « المعهد الفرنسي الايراني »، طهران ١٣٣١ (١٩٥٢ م) متناً منقحاً من كتاب حكمة الاشراق . كما ان السيد جلال الدين الأشتياني يعمل الآن في تصحيح حاشية ملا صدرا . راجع بشأن هذه الحواشي مقالتنا :

Le theme de la resurrection dans le Commentaire de Molla Sadra Shirazi sur la Theosophie Orientale de Sohrawardi' Shaykh al -Ishrag'

(٣) طبع السيد محمد اخوندي مؤخراً كتاب الكليني الكبير طبعتين رصاصتين احداهما تضم المتن العربي صرفاً في ثمانية مجلدات (طهران ١٣٣٤ ش ١٩٥٥ م) والثانية تضم المتن العربي مع ترجمة فارسية وشرح بالفارسية بقلم آية الله محمد باقر كمره اي ظهر منها منذ ١٣٤٠ ش (١٩٦١ م) حتى الآن (١٩٦٢) ثلاثة مجلدات .

(٤) اتيحت لملا صدرا الفرصة لأن يشرح كتاب العقل وكتاب التوحيد فقط وبداية كتاب الحجة (الذي يضم تعاليم الأئمة بشأن مسألتي النبوة والامامة) ، ومع انه لم يستطع أن يشرح أكثر من نحو العشر فقط من هذا الكتاب الأساسي في الفكر الشيعي ، فان الطبعة الحجرية التي نشرت في طهران من هذا الكتاب ، تضم أكثر من ٤٥٠ ورقة مليئة الوجهين . .

(٥) طبعت مجموعة هذه التفاسير ضمن الطبعة الحجرية لتفسيره في شيراز سنة ١٣٢٢ (١٩٤٣) . ولا يمكن أن نفصل عن هذا التفسير كتابيه الأخيرين : مفاتيح الغيب (الذي طبع مع شرح اصول الكافي) واسرار الآيات ، وسنعود بعداً لهذين الكتابين .

(٦) كتب ستة أو سبعة شروح على (المشاعر والحكمة العرشية) ، وقد شرح حاجي ملا هادي السبزواري الشواهد الربوبية والأسفار بصورة مفصلة . راجع كذلك مقدمة السيد دانش بجوه على كسر الأصنام ، ص ٢٣ فما بعد .

« الافلاطونيين » أو « الافلاطونيين الحديثين »، وتاريخ افلاطونيي ايران الاسلامية الحديثين هؤلاء طويل . ان هؤلاء الحكماء مرتبطون بتلك الأسرة التي يرتبط بها الافلاطونيون الحديثون في كل مكان وفي كل زمان . العلمُ الاشراقي أي العلم بتلك اللحظة التي يطلع فيها نور المشرق على الروح ، أو مبدأ الروح ، قبل ورودها على هذه النشأة الترابية ، هو التجربة التي حظي بها ملا صدرا في وحدته المهيبة في كهك .

يقول في مقدمة كتابه الكبير (الأسفار ص ٨) : « حين بقيت مدة طويلة على هذا الحال من الاستتار والانزواء والخمول والاعتزال ، اشتعلت نفسي أثر المجاهدة الطويلة بالنور، وفاض على قلبي نتيجة الرياضات الكثيرة التهابٌ قوي وأنوار ملكوتية ، وانحلت عقدة أسرار الجبروت ، وتبعتها الأنوار الأحدية . لقد أحاطت به الألطاف الألهية ، ووقفتُ على أسرار ما كنتُ قد أدركتها بعد ، وانكشفت لي رموز لم يستطع أي برهان حتى الآن أن يكشفها لي ، بل ان ما كنت قد تعلمته عن طريق البرهان ، شاهدته الآن ورأيته عياناً مع زوائد واضافات » (يجب أن يلاحظ أن الطريقة التي اتخذت لبيان هذه التجزئة المعنوية ، تنطبق تماماً على طريقة السهروردي وميرداماد ؛ وأن هذا التعيين اليقيني لا يستند الى استدلال منطقي ، بل أن منشأه الحضور المباشر الذي يُتذوق بصورة شخصية خاصة ، وفي بعض الموارد بالمشاهدة) .

ويتابع ملا صدرا (ص ٨) : « لقد انبسط عقلي باعتبار جوارحه الظاهرية وغدا ماء سيالاً يفيض، أما باعتبار باطن تعقلاته فقد انقبض لطلاب الحقيقة وصار بحراً مواجاً . فصنفت عندئذٍ كتاباً إلهياً للسالكين العاملين على تحصيل الكمال ، وجلوت الحكمة الربّانية لطالبي أسرار حضرة ذي الجلال والاكرام » .

ان هذا الكتاب هو مجموعة آثار ملا صدرا ، وقد سماه « الأسفار العقلية الأربعة ». ماذا كان قصده من هذا العنوان ؟ لقد أوضح هو نفسه هذا الأمر في ختام مقدمة الكتاب . ان هذا العنوان مستمد من المصطلحات العرفانية الاسلامية المتداولة . فالسفر الأول يبدأ من عالم الخلق وينتهي الى الحق (من الخلق الى الحق) ؛ وفي هذا السفر يُبحث تركيب الموجودات ، والطبيعيات ، والمادة والصورة والجوهر والعرض، ويرتقي السالك الى مرتبة عالم الحقائق الالهية غير المحسوسة . وبناء على هذا فان السفر الثاني هو من الحق (في الحق بالحق) . وفي هذا السفر لا يبعد السالك عن مرحلة ما بعد الطبيعة ، بل يتعرف الى علم الالهيات والمسائل المتعلقة بالذات والأسماء والصفات الالهية . أما السفر الثالث فهو رحلة فكرية ولكن في عكس السفر الأول، أي أنه عودة من (الحق الى الخلق بالحق) . ان هذا السفر يتتبع مراتب صدور الموجودات عن أنور الأنوار ، ويعرف السالك الى العلم بمراتب العقول والعوالم الغيبية التي تحتل ما فوق عالم المحسوسات ، ويبحث في علم التكوين والملائكة . وأخيراً فالسفر يتم بواسطة الله في العالم المخلوق نفسه (بالحق في الخلق) ، ويدور حول معرفة النفس أو الضمير الداخلي (العلم المشرقي) وحول التوحيد بمعناه الباطني ، أي وحدة الوجود بمعنى (من عرف نفسه فقد عرف ربه) ، وكذلك حول مسألة المعاد، أي جميع العوالم اللامتناهية التي تتكشف للانسان بانفتاح باب الموت أمامه[1].

انه لمن المستحيل أن يستطيع الانسان في بضع كلمات أن يعرض أكثر من فكرة تصورية عامة عن هذه المجموعة التي أقام فيها ملا صدرا بناء مجللاً للفكر الايراني . اننا اذا أردنا أن نحكم عليه بعين المؤرخ ، فيجب بصورة عامة أن نقول دون شك أننا مع ملا صدرا أمام واحد من أتباع مدرسة ابن سينا . لقد كان يعرف آثار الشيخ الرئيس عن قرب ، وقد شرحها ، الا أن ملا صدرا هو في الوقت نفسه فيلسوف سينائي مع التفسير الاشراقي متأثر بأفكار السهروردي، تأثراً لا ينعدم فيه فقط كل ما بين ابن سينا والسهروردي من فاصلة وبُعد ، بل أن ملا صدرا نفسه تعبير مشخص عن الالهيات الاشراقية . كذلك تأثر هذا الفيلسوف السينائي الاشراقي تأثراً عميقاً بمعتقدات حكيم الأندلس الكبير، والعارف الذي هو من أكبر عرفاء التاريخ كله ، محيي الدين بن عربي (المتوفى ٦٣٨) . وانه لمن الواجب في هذا الموضوع أن يجري في ايران تحقيق حول ما يمكن تسميته « التشيع السري » لابن عربي ، لأن في حل هذه المسألة أخيراً امكان الوصول الى مفتاح جميع الموضوعات .

ان ملا صدرا هو أكثر من أي شيء مفكرٌ شيعي متأثر تمام التأثر بتعاليم أئمة الشيعة (ع) ، ومؤمن بالاسلام بصورته التي تنطلق من هذا الأساس . لذا ، فانه لمن العبث ـ مهما يكن الأمر مستساغاً ـ أن نهتم بذكر « منابعه » اذا كان قصدنا أن نحل جميع المسائل عن هذا الطريق . أننا نستطيع أن نسجل على ورقة كل الأقوال المرددة والاشارات والصور وكل ما نسميه « المنابع »، الا أن حاصل هذه الأوراق جميعاً لن يكون قط ملا صدرا لو لم يكن هناك قبل كل شيء « ملا صدرا » ينظم هذه « المنابع » في بناء ليس سواه من يستطيع أن يقيمه ويعليه . ان محور هذا البناء هو عقائد أئمة الشيعة (ع) كما هو الحال في « أصول الكافي » للكليني ، ومن هنا أن ملا صدرا ينتقل الى صراعه المعنوي الآخر، الصراع ضد اللاادريين المتقدسين والقشريين وأولئك الذين كان لهم من الدين تعبير ظاهري فقط . ان نوايا ملا صدرا ومقاصده الصريحة عون على فهم الوضع الفلسفي للتشيع ، وكذلك على ادراك أهمية آثار ملا صدرا في الفكر الشيعي في الأيام السالفة وفي العهد الحاضر .

ومهما يكن هذا الموضوع مبحوثاً بصورة سريعة ، فانه يبين لنا أن الفلسفة والمعنوية الاسلاميتين ليستا محدودتين بتلك الفئات الثلاث فقط التي تملأ اليوم الفصل الذي تخصصه تواريخ الفلسفة في العالم الغربي للفلسفة الاسلامية ، أعني تلك الفئة التي أطلقوا عليها اسم الفلاسفة مستمدين اسمهم من سلوكهم اليوناني ، والمتكلمين الذين هم جدليو علم الكلام من السنة ، وأخيراً المتصوفة . أننا نعلم الآن انه كانت ثمة مدرسات أخرى، ونستطيع بصورة خاصة أن نقدر لم أُحييت الفلسفة بصورة مجللة رفيعة في ايران والعالم الشيعي خلال العهد الصوفي ، بينما يسود الاعتقاد كل مكان في العالم الاسلامي أن التطور الفلسفي انتهى مع ابن رشد في القرن الهجري السادس. ان محققاً يُوفق الى أن يجد طريقاً الى قلب الفكر الشيعي سينكشف أمام عينيه أفق جديد، أفق لا شك في أن طرح مسألة وضع الفلسفة في الاسلام وارتباط الفلسفة بالمعتقدات الاسلامية خارج نطاقه وبمعزل عنه ، خطأ فادح .

الا ان الوضع المعقد المحزن الذي واجهه ملا صدرا وكثير من المفكرين قبله وبعده ـ كالسيد حيدر الآملي مثلاً الذي كان يعيش قبله بثلاثة قرون ـ هو أن هؤلاء المفكرين كانوا عرضة للحملات والتهم من قبل أشخاص كانوا يسمون مثلهم شيعة .

ان هذا الوضع المؤسف الذي كان السبب الأصلي لأن ينفي ملا صدرا نفسه نفياً اختيارياً في كهك بعيداً عن القيل والقال وعن تهم المتعصبين القشريين ، قد خلف أثره المليء بالألم في كل مؤلفاته وآثاره . انه مثلاً في

(١) الأسفار طبعة العلامة الطباطبائي، المجلد الأول ص ١٣ فما بعد، مع تحقيق حاجي ملا هادي السبزواري الوارد في حواشي الصفحات ١٣ حتى ١٨ .

مقدمة كتابه « الأسفار »[١] يحكم على الجهلة الذين « لم يرتق فكرهم عن هذه الهياكل المظلمة ودياجيرها » ان هؤلاء الأشخاص في عدائهم للعرفان والفلسفة اللذين لم يفهموهما ينفون حتى أي نوع من أنواع فلسفة العلوم الدينية القديمة ، رغم أن هذا يؤدي الى أن لا يُفهم شيء من الأسرار الألهية التي شرحها الأنبياء بصور من الرمز والتمثيل . أنهم يقولون أن فلاسفة العرفان سقطوا في شبكة أوهامهم الالهية . وفي رسالته « الأصول الثلاثة » (سه أصل) يخاطب ملا صدرا أحد هؤلاء الجهلة بحرارة مجللة قوية قائلاً :

« ألا تفكر أن من الممكن أن يكون ثمة مغرور بالله مثلك ؟ لو كان كل علم كما قد علمت أو كان يجب أن يؤخذ عن طريق النقل والمشيخة ، فلمَ يذم الحقُ تعالى في عدة مواضع من القرآن اؤلئك الذين يقلدون مشايخهم وآباءهم في المعتقدات ويعولون عليهم في الأصول الدينية ؟ لئن كان يجب في كل علم أن يُتعلم بالطريق المتعارف عن استاذ ، فمن أي معلم بشري بالطريق المعهود تلقى أمير المؤمنين عليه السلام ما أخبر عنه من علمه بقوله : « لو شئتُ لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب ؟»[٢] .

اذاً فملا صدرا يذكر المتن نفسه الذي ذكره السيد حيدر الآملي منذ ثلاثة قرون[٣] ، والعرفاء يعتقون المعنى الذي تتضمنه أبيات للامام الرابع زين العابدين (ع) (المتوفى سنة ٨٩٥ م) يقول فيها ما مضمونه : « انني أخفي جواهر علمي خشيةَ أن يرى الحقيقة جاهل فيرفسنا بقدمه . . يا رب ، لو كنت أظهرت واحدة من لآليء معرفتي ، لكانوا قالوا لي : انك لعابد صنم ، ولوجد مسلمون يجوزون اهراق دمي، فما يُعرض لهم من أجمل الحقائق الانسانية يعدونه منفراً مقيتاً » .

اذاً فمن توفقه العناية الالهية لإدراك الأسرار الخفية في الرسالة النبوية معرض لخطر الرجم من قبل الجهلة الغاضبين . ترى ، هل ثمة حاجة لتعمق اكثر في تحري علة هذا الوضع المختل المؤسف ومعرفة أسراره ؟ هل ثمة تعليل آخر لأن أئمة الشيعة (ع) لم يكن حولهم قط اكثر من جمع قليل يعد على الأصابع من الأفذاذ والخلص ؟ .

فبناء على هذا ، ليس من الصعب على ملا صدرا أن يوضح أن هذا العلم الذي يجعل الانسان حذراً وعلى خوف من عداوة الناس وحتى عداوة العلماء القشريين ، ليس جدلاً ولا طباً ولا نجوماً ولا هندسة ولا طبيعيات . أن ما شرحه مفسرو الوجه الظاهري من أمثال الزمخشري وسواه ، ليس هو اطلاقاً علم القرآن الحقيقي ومعرفة الوحي الآلهي معرفة حقيقية . ان علم القرآن الحقيقي أمر آخر[٤] هو الذي يجعل الفلسفة فلسفة مبنية على الوحي .

ولكي يُري ملا صدرا الصراط المستقيم الذي هو بعيد بنفس المقدار عن التعبير الظاهري لوجه الشريعة وعن الأسلوب النافي للفلسفة الاستدلالية الصرف يفسر حالة التفكير الفلسفي في مقدمة شرحه للكتاب الثالث من أصول الكافي للكليني (كتاب الحجة ، في الامام والامامة)[٥] كما يلي : ان الوحي القرآني نور تمكن به الرؤية مع هذا النور اذا لم ترفع تعاليم الأئمة غطاء اللفظ الظاهري الذي يجعل هذا النور مستوراً . أن التفكير الفلسفي عين تشاهد النور وتراه ؛ ولكي يتحقق فعل الرؤية فالنور ضرورة لازمة ، لكن من الواجب كذلك وجود عين يمكنها أن تنظر . فاذا حجبنا هذا النور فلن ترى العين شيئاً بعد ، واذا تعمدنا أيضاً اغماض العين ـ كما هو حال القشريين والناظرين الى الظاهر فقط ـ فكذلك لن يُرى بعدُ أيُّ شيء ، بل ان الظلمة ستكون المنتصرة في الحالين ، وما حال ذي العين الواحدة كذلك أفضل بكثير .

أما على العكس من ذاك ، اذا اتحد التعقل الفلسفي مع الوحي السماوي ، فان ذلك سيكون نوراً على نور ، كما تقول آية النور المباركة ، وجملات هذه الآية اشارة كما نعلم للمعصومين الأربعة عشر . لذا يقول ملا صدرا أن التشيع وحده هو الذي يستطيع في الاسلام أن يقيم هذا التوافق والانسجام بين الوحي الالهي والتعقل الفلسفي ، لأن التشيع يأخذ العلم والحكمة عارية من مشكاة النبوة والولاية ، ولأن الفلسفة الشيعية فلسفة مبنية في الأساس على الوحي .

اننا لا نشبه هذا الوضع بصورة عابرة بأوضاع كانت في أوساط أخرى . لا ضرورة هنا (أي في التشيّع) لاجتياز العقبة المتمثلة في الاختلاف بين الحقائق التاريخية الممكنة الوقوع والحقائق العقلانية الواجبة ؛ كذلك يطرح هنا هذا السؤال : كيف تكون الحقيقة تاريخية وكيف يكون التاريخ حقيقياً (هذه مسألة « الاعتقاد والمعرفة » التي واجهها جميع فلاسفة المسيحية من أريجن حتى لا يبنيتز وهيكل) ؛ كما أن التشيع لم يعرف المقارنة والتباين بين حقائق المعتقدات الدينية التي تعرفها كنيسة من الكنائس والحقائق الفلسفية التي هي نتاج جهد شخصي ، بل أن نور الكتاب السماوي الذي يتجلى بفضل هداية الأئمة وارشادهم يشع مباشرة وبدون أية واسطة على المشاهدة الداخلية للمؤمن . ان الفلسفة والكلام (التيولوجيا) لا يتقابلان هنا في صفين متضادين كقوتين عظيمتين كانتا قد تشكلتا قبلاً ، قوتين تتولد احداهما من الفرد، وتنبع الأخرى من الكنيسة .

لقد عد مفكرونا الشرقيون هذا الموجود النوراني السماوي الذي سماه الفلاسفة العقل الفعال (نوس بويتيكوس nous — poietikos عند اليونانيين) هذا العقل السماوي الذي هو منشأ معرفتنا عدوه والروح القدس شيئاً واحداً . ان هذا الأمر لا يؤدي فقط الى اعطاء الروح وجهاً استدلالياً ، بل ينتهي الى أن يُعد ملك العلم وملك الوحي شيئاً واحداً[٦] ، ولذا يبعد هذا الرأي كثيراً عن عقيدة « الحقيقتين » التي ظهرت في المدرسة الابن رشدية اللاتينية . في الفلسفة « الشرقية » يتحد النوران ويتداخلان ، ومن امتزاجهما تتولد الحكمة الالهٰية ، الحكمة التي هي علم لدنيّ ، وقد كان أئمة الشيعة أول من وضع لها اسم : المعرفة القلبية: ان التشيع وبخاصة التشيع الجامع ، هو في نظر ملا صدرا هذه الحكمة نفسها .

والآن نستطيع أن نفهم لم أن هذا المفكر الذي كان العرفان الشيعي قاعدته وأساس تفكيره هو بصورة عفوية اشراقي أيضاً . ماذا كانت في الواقع تعليمات السهروردي ؟ كانت ان تجربة عرفانية دون قاعدة فلسفية سابقة لا تخلو من خطر الانتهاء الى الخطأ ؛ وعلى العكس من ذاك الفلسفة التي لا تسعى ولا تنتهي الى كشف معنوي شخصي فانها ، كما ذكرنا قبلاً ، ليست اكثر من عبث عقيم ؛ ولذا نرى أن كتاب السهروردي الكبير « حكمة الاشراق » يبدأ باصلاح المنطق وينتهي بنوع من « لحظة وجدٍ وسرورٍ » . ان ملا صدرا بدوره يجعل المعنوية الاشراقية في شرح اصول الكافي[٧] برزخاً

---

(١) الأسفار، الطبعة المتقدم ذكرها، ص ٦ .

(٢) رسالة الاصول الثلاثة، طبع الدكتور السيد حسين نصر، بند ١٢٠ ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٣) راجع بشأن هذا المتن الذي ذكره السيد حيدر الاملي مقالتنا :
' Le Combat spirituel du Shi'isme» Errnos - Zahrbuel °xxx Zurich.

(٤) رسالة الاصول الثلاثة، البند ٢٢ ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٥) شرح اصول الكافي ، طهران، الطبعة الحجرية، ص ٤٣٧ .

(٦) فليراجع شرح اول حديث، الفصل الثاني من كتاب الحجة (في طبقات الرسل والأنبياء والأئمة) شرح اصول الكافي، ص ٤٤٥ فما بعد.

(٧) شرح اصول الكافي، ص ٤٤٦ ، بعد ان يشرح ملا صدرا شرحاً مفصلاً مسألة المعرفة

بين طريقة الصوفيين المحض الذين يهتمون بتهذيب الباطن ، وطريقة الفلاسفة الذين يميلون الى العلم الصرف ، برزخاً يتوسط الطريقتين ويصل ما بينهما ، وهذا الوضع يوضح السبب في أن ملا صدرا يلوم بعنف وخشونة بعض الصوفية الذين يعدون الفعالية العقلانية شيئاً هباء ، هؤلاء العُمي في تحقير الفلسفة عمى أعدائهم الجهلة القشريين . أن ملا صدرا يمثل في الواقع نوعاً من المعنوية الشيعية التي مع استعمال لغة التصوف الفنية لا ترتبط بأية طريقة صوفية ، لأن العرفان الشيعي نفسه يؤلف طريقة ، والرابطة الداخلية مع الأئمة (ع) نفسها مقدمة لدخول مرحلة السير والسلوك .

فلسفة المعاد

من هنا يمكننا الوقوف مرة اخرى على مجموعة الموضوعات الأساسية التي تميز تفكير ملا صدرا وأن ندرك حدود بنائه . من الواجب (في هذه الحالة) أن نقيد أنفسنا ونحدها ببضعة موضوعات ؛ أولها موضوع يقلب فلسفة أصالة الماهية التي كانت رائجة منذ عصر الفارابي وابن سينا . فقد كان الرأي مستقراً في ما سبق على أن الماهية أمر ثابت دون أن يحمل فعل الوجود معنى التحقيق، لأن وجود شيء ما ليس الا ماهيته ، ولا يضيف على الماهية أي شيء ، لأنه ليس مُظهر الماهية . ولقد قلب ملا صدرا هذه النظرية ، وهذا ما سمح له في شرحه للسهروردي أن يعبر عن الحكمة الاشراقية تعبيراً « وجودياً ».

تقوم فلسفة ملا صدرا الوجودية على أن لا ماهية تتقدم على الوجود ، بل أن وجود شيء ما هو يعين ماهيته [1] ؛ وأن الشيء يستطيع بسبب وجوده أن يكون هو ، أي تتحول ماهيته من القوة الى الفعل . طبعاً يجب أن لا نعد ملا صدرا واحداً من فلاسفة « أصالة الوجود » أو « اكزيستانسياليستي » عصرنا الحاضر . أن هذه المقايسة لا تعدو أن تكون مهزلة . ان ما يريد صدر الدين أن يقوله هو أنه بما أن وجود شيء ما هو الذي يعين ماهيته ، فماهية شيء ما ليست فقط شيئاً غير ثابت ، بل انها ـ استناداً الى فعل وجودي ـ تستطيع أن تجتاز مراتب الشدة والضعف التي لا يمكن عملياً تعدادها . اذاً فنحن لا نواجه في فلسفة ملا صدرا ميدان ماهيات ثابتة كما رأينا عند الفلاسفة السابقين ، بل اننا نواجه تحركاً وجودياً (عقيدة الحركة الجوهرية المعروفة) تجتاز الماهيةُ طبقاً له سلسلة من التبدلات الوجودية ، وكلٌ من هذه المراتب مرتبة من عالم الوجود .

مثلاً يمكن أخذ مفهوم الجسم . لا يجب لإدراك ماهية الجسم أن نحد فعل الوجود بالعالم الجسماني فقط، الممكن ادراكه عن طريق الحواس الخارجية . يجب أن نبدأ مفهوم الجسم من العنصر البسيط (بمعنى الطبيعيات القديمة حيث يكون للعنصر طبقاً لها معنى كيفي لا كمي) وأن نتتبعه في التبدلات المتتالية التي تنتقل به من مرتبة الجماد الى النبات فالحيوان ثم الجسم الحي فالناطق القادر على فهم الحقائق المعنوية . أن هناك حركة وجودية عظيمة ، من أعماق الجماد ، حتى الظهور الأرضي للانسان ، ثم ما وراء هذه الصورة بالتالي ، لأن الوجود الانساني في وضعه الوجودي في هذا العالم لا يزال وجوداً برزخياً .

لذا يجب ألا يقع التباس أو اشتباه ، بل يجب الانتباه الى أن نظرية ملا صدرا قد علت نظرية التطور التي غدت اليوم في اوروبا بمثابة عقيدة دينية ، ووُجهِّت وجهة اخرى غير وجهتها ؛ ذلك أن كل شيء في نظرية التطور يقع في جهة مستقيمة أفقية وفي مرتبة وجود واحدة . ان الحديث يرد من هذه الناحية أو تلك عن « معنى التاريخ »، وينسى كثير من الناس أن عليهم اذا أرادوا التحدث عن مثل هذا الموضوع أن يُعدوا المقدمات لعالم معاد. أن حركة العالم في نظرية ملا صدرا وجميع أمثاله من المفكرين ، ليست حركة عالم في حال التطور (بمعناه الجديد) ، بل هي حركة عالم في حال الصعود والارتقاء. ان الماضي ليس وراءنا ، بل تحت أقدامنا . ان اتجاه هذا العالم اتجاهاً عمودياً يمكن القول بمشابهته للأسلوب الكوطي في البناء ، يتوافق مع مفهوم المبدأ والمعاد الذي بواسطته يسخر عالمٌ ما وراء التاريخ عالمَنا .

حين تصل حركة الوجود الصعودية الى صورة الانسان الأرضي يبدأ عهد جديد في التبدلات الوجودية ، لأن الانسان عتبة منها يتحقق صعود العالم الى مراتب أرفع للوجود وصور أعلى . ان الوجود الانساني منذ هذا الوقت هو ـ على الأقل بالقوة ـ في عدة عوالم ، لأن الانسان مؤلف من حقيقة مثلثة : جسم ونفس وروح أو عقل ، هي نفسها حقيقة معرفة الانسان المثلثة في العرفان القديم : سوما Soma بسيكه Psyche بنوما Pneumaوثمة كذلك ثلاثة أنواع من الانسان : إنسان طبيعي وانسان نفساني وانسان عقلاني أو روحاني ، ويوافق كلًا من هذه المراتب الانسانية تلطف تدريجي في مقام الجسم ومفهومه ، فهناك أيضاً جسم مادي، وجسم نفساني، وجسم معنوي أو روحي . أن كلًا من الجسمين الأخيرين مظهر لبعثة أو معاد في المستقبل يختار الانسانُ نوعَه في حياته النفسية على الأرض، ويحدد بنفسه إن كان أهلًا لحياة أفضل، أو أنه سيُغلب ويسقط في أعماق نفسه [2] .

ان من الواجب الانتباه بطور عابر الى المصادر النظرية لهذه الحكمة الالهية . ان هذه الحكمة ، بالامتناع عن تحديد الماهية بالمقولات الثابتة غير القابلة للتغير ، تولد مفهوماً للمادة يختلف تماماً عما يسمى مادة ، على الأقل في اصطلاح اليوم ، لأن المادة في حكمة ملا صدرا مادة أولية هي في نفسها مادة روحانية . . اننا نعلم أن هذا المفهوم للمادة مستمد في الفلسفة الاسلامية من الكتابات المنسوبة الى أنباذ فلس التي استُعملت قبلًا في موارد عديدة في حكمة ابن عربي . أن هذا التفكير يجعل حكمة ملا صدرا متوافقة مع نظرية معاصريه من فلاسفة كمبريدج الأفلاطونيين ؛ فهنري مور Henry More مثلًا يتحدث (لبيان : البعد الرابع) عن « التراكم الروحَاني » Spisstiudo Spiritualis [3] ، كذلك يتحدث في القرن الثامن عشر حكيم

=في نظر أئمة الشيعة (ع) ويبين مراتب الالهام المختلفة ، يشرع في تفصيل طرق الصوفية ويقول : « وأما أهل النظر والاعتبار فلا ينكرون وجود هذا الطريق وامكان الوصول من خلاله الى الهدف في الموارد النادرة ، لأن اكثر احوال الأنبياء (ص) والأولياء (ع) كانت عن هذا الطريق، الا أنهم يرون الأمر متعذراً خارج هذه الموارد، لأن نتيجته تتحقق ببطء ، كما ان اجتماع شرائطه مستبعد . . . ».

ثم يقول ملا صدرا ختاماً أن « السالك الى الله يمزج بين طريقتين ، اذ لا يكون صفاؤه الباطني خلواً من التفكير ، ولا يكون فكره مجرداً من الصفاء، بل تكون طريقته برزخاً بين الطريقتين ، كما هي طريقة الحكماء الاشراقيين واسلوبهم ».

هذا المعتقد تكرار للرأي الذي ذكره السهروردي في مقدمة « حكمة الاشراق ». راجع طبعتنا لهذا الكتاب في : oeucres Philosophiques et Mystiques de Sohrawardi طهران ١٣٣١ (١٩٥٢) ص ١٠ ـ ١٣ .

(١) ان كتاب المشاعر (الذي سبقت الاشارة اليه) متعلق في الأصل باثبات أصالة الوجود مقابل الماهية .

(٢) راجع بشأن ارتقاء الجسم وصعوده هذا شرح اصول الكافي، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ في شرح مبسط بعنوان « تحقيق عرشي وتمهيد مشرقي »، وراجع كذلك مقالتنا :
Le theme de la resurrection dans le Commentaire de Molla Sadra Shirazi sur la Theosophie Orientale de Sohrawardi' Shaykh al - Ishrag.
الفصل الخامس : « La trible croissance de l'homme».

(٣) راجع كتابنا :
Terre celeste et corps de resurrcction de L'Iran Mazdeen airan shi'ite' paris . 1961 . ص ٢٧٥ .

ألمانيا الكبير فريدريك اوتينكر Friedrich Oetinger الذي كان من تلامذة بوهمه Boehme وسويدنبورك Swedenborg عن « جسمانية الروح » Geist lebilich keit . ان ما يحير في هذه النظرية هو الامتناع من قبول ثنوية الروح والجسم ، أو الفكر والامتداد، ثنوية متضادة غير قابلة للتحليل ، الثنوية التي جرّت الفلسفة الى طريق مسدود. لكن يجب ألا نعد ديكارت وحده مقصراً في هذا الأمر، فسوء حظ هذه الثنوية يتبع من مبدأ أقدم . أن أصله يعود في نظري لمجمع الكنيسة الثاني في القسطنطينية سنة ٨٦٤ ميلادية الذي عُدَّت فيه مراحل علم معرفة الانسان الثلاث التي هي ميراث العرفان (وبدون دليل مظنون) عبثاً وباطلاً ، واكتُفي بمفهومي الروح والجسم .

اذا أردنا أن نفهم بعمقٍ ثقافاتنا المعنوية. فعلينا أن ننتبه الى عواقب هذه الأمور، لأننا نرى هنا أن عقيدة بشأن القوة المتخيلة الفعالة تتسع في مرتبة الانسان النفساني و« الجسمانية الروحانية » حتى تهدم النظريات العادية بشأن المعرفة المحبوسة في ثنوية الاحساس والادراك . ان على بساط البحث هنا تخيلاً يختلف تماماً عما نعطيه اليوم هذا الاسم والذي ليس سوى وهم يصدر عن الخيال . هذا التخيل عبارة عن أداة للإدراك والعلم الحقيقي تحتل ما بين الإدراك الحسي والعلم العقلاني ، كما تحتل النفس مرتبة ما بين الجسم والروح . أن ما تدركه هذه الأداة هو بصورة مطلقة من عالَمها هي (عالم المثال ، العالم الذي الأجسام فيه في حالة روحانية ، عالم « الجسم عند البعث والنشور ») عالم بين العالم الأدنى والعالم الأعلى، عالم النفس، أو البرزخ القائم بين عالم المادة وعالم العقول الكرّوبية ، لذا يعد ملا صدرا القوة المتخيلة الفعالية ـ وبدون تردد أو تمهل ـ قوة معنوية كالعقل، قوة متجردة عن جسم الانسان ، لأنها نفسها وبنحوٍ ما جسم النفس اللطيف .

ان هذا العالم البرزخي كله قد فُقد في فلسفة ابن رشد، وكانت نتيجته بالنسبة لدنيا الغرب وخيمة جداً ، لأن الانسان يستطيع بواسطة هذا العالم الوسيط وحده أن يدرك الحقيقة المعنوية لمشاهدات الأنبياء كحقيقة صورية ، وبواسطته يستطيع أن يحصل على اليقين في حقيقة الكشف وشهود العرفاء ، وبواسطة هذا العالم يستطيع أخيراً أن يدرك مسألة المعاد الجسماني ، هذه المسألة التي لا يمكن تصورها إلا اذا كان في اليد مفهوم دقيق للجسم اللطيف، وهذا هو السبب في أن ملا صدرا قد انتقد بشأن هذا الأمر الأساسي ، كلا الغزالي المتكلم وابن سينا الفيلسوف [1] .

ان فلسفة ملا صدرا ، ككل الفكر الشيعي، تستلهم مبدأها من البحث في المعاد، وهذه الفلسفة تتجلى كفلسفة مبنية على الوحي تجعل في يد الانسان أن يختار مستقبله بنفسه . وعليّ أن اعترف ان مما يحير ان الانسان يشاهد اليوم في اوربا نجاحاً لا يخلو من ضجيج في اقامة بناء كلامي وفلسفي مجمل يقوم على أساس من العلوم والصنائع الجديدة ، ويدعي انه يفتح للانسان « أبعاده العالمية »، بينما هو تماماً « غير انساني »، لذا يمكن لحكيم من مدرسة دينية أن يقول في هذا البناء منصفاً كل الانصاف أنه « الهيات غُلبت على أمرها بالمجهر والمنظار والآلة ونتائجها الفلسفية والاجتماعية [1] .

أما في رأي ملا صدرا وجميع أتباعه فانه ، على العكس، لا يمكن التحدث عن « الأبعاد العالمية » للانسان اذا اعتُمد على التجربة الحسية وعلى الانسان الجسماني فقط . ان « الأبعاد العالمية » للانسان تستمد معناها من ارتباطه بالعوالم العليا واحيائه في هذه العوالم . ان من الواجب أن يوضع يوماً كتاب في فلسفة المعاد خاصة عند ملا صدرا . ان بناء الانسان المثلث الذي يشمل الجسم والنفس والروح يوجب أن ينشأ ويرتقي ثلاث مرات على الأقل ، احداها حين يخرج الانسان من هذا العالم ، هذا الخروج الذي نسميه الموت . هنا تُحيا الروح في عالم البرزخ مع جسم لطيف نفساني وروحانيٌ يُسمى الجسم المكتسب وهو يرتبط بوجود النفس وأفعالها وتحركاتها وأميالها ، ويتبعها في عالم البرزخ . هذه المرحلة يُطلق عليها في التعبير الديني القيامة الصغرى . ثم تصل النفس بعدئذٍ أثناء تلك الواقعة في ما وراء التاريخ التي يسمونها القيامة الكبرى الى المقام الكامل للانسان المعنوي . اذاً فما نسميه الجسم يواجه تحولات وتبدلات تطرأ عليه تطابق البناء المثلث للواقعية الانسانية [2] . يقول ملا صدرا في متن جذاب :

« من هذا التجلي الأتم ، يتبدى مظهر أعظم ، ومن هذا المظهر تطلع الأسماء الباطنة ، ومن الأسماء الباطنة يتوسع العرش ، ومن توسع العرش تتوسع دائرة الآخرة ، ومن توسع هذه الدائرة ينشأ الانسان ويرتقي نُشُوّاً وارتقاءً أخرويين تامين » [3] .

ترى ، ايمكن لفكر يبسط أمامنا مثل هذه الآفاق ألا يحمل لدنيانا اليوم أية رسالة ؟ انا موقن أنه يحمل رسالةً ! الا انني أخصكم بخطابي أنتم يا اصدقائي الشبان الايرانيين . انني اعلم أن بينكم أشخاصاً يؤمنون بهذه المعتقدات الرفيعة ويعيشون على أساسها بايمان ولذة عاينتهما بنفسي وأنا عليهما شهيد ؛ ولكنني أعلم كذلك أن بينكم أشخاصاً آخرين ، شباناً أو ممن عبروا سنوات الشباب ، يعكسون عند سماعهم بهذه الأسماء والأفكار رد فعل سلبي ليس أكثر من عذر لجهلهم ، أو انهم ينكرونها ، وذلك في أكثر الموارد أيضاً اعتراف بحزنهم وأساهم على البعد عن هذه المنابع . ان هؤلاء الأشخاص قد جازت عليهم ولا شك خديعة اسطورة « معنى التاريخ » وهم لا يستطيعون أن يفكروا في الوقت الحاضر بشأن ما يعدونه من الماضي ، لأنهم يتوهمون أنهم قد اجتازوه .

انني أريد ان اسأل هؤلاء : اين قَدَّرَ نهر ما ؟ هل يكون هذا القدر في خليج يحله الاقيانوس في خضمه ؟ أو في الصحارى الرملية التي يمّحي فيها هذا النهر ؟ أم تراه يكون في مبتداه وينبوعه ؟؟ ؟ اجل ، ان قدر نهر من الأنهار إنما هو منبعه ومنطلقه . هذا هو الموضوع الذي يمكن التأمل والتفكر فيه حين ننظر الى المسيلات الجافة التي تعبر هضبة ايران المرتفعة . ان الماضي والمستقبل ، والحياة والموت ، ليست حين تكون مرتبطة

(١) راجع الحواشي (٦١٣ ـ ٦١٦ وفق ترقيمنا العام) على البند ٢٤٤ من حكمة الاشراق (القسم الثاني، الكتاب الخامس، الفصل الثالث، ص ٢٢٩ من طبعتنا ، وص ٥٠٩ فما بعد من طبعة طهران الحجرية ، ١٣١٣) وتحقيقنا le theme de ressurection . الفصل الثالث le monde de L»imagination spirituelle et le corps de resurrection فليقارن بالجسم الهورقليائي في مدرسة الشيخية . راجع Ter-re celeste.

(٢) فريد هوف شووان ، ص ٣٩، الحاشيتين ٢ و١٩٦١ :
Frithjof Schwon ، comrendre L»Islam ، Paris.
حول نظريات نايلارد دو شاردان Teilhard de Chardin . هذا الكاتب نفسه يضيف ان نظريات تايلارد دو شاردان هي « سقطة كان يمكن تداركها لو كان ثمة قدر ضئيل جداً من المعرفة العقلانية المستقيمة عن الحقائق المجردة البريئة من المادة » .

(٣) راجع الحاشية الطويلة جداً ذات الرقم ٦٢٨ (حسب ترقيمنا، والصفحة ٥١٨ من طبعة طهران الحجرية، ١٣١٥) على البند ٢٤٧ من حكمة الاشراق التي يجب مقايستها على المتن الوارد في ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ من شرح اصول الكافي تحت عنوان « تحقيق عرشي وتمهيد مشرقي » .

بالروح ، من صفات الأشياء الخارجية ، بل من الصفات المتعلقة بالروح نفسها . نحن أنفسنا الأحياء أو الأموات ، والمسؤولون عن حياة الأشياء وموتها . لقد كان ملا صدرا يعرف جيداً أننا لن نحصل أبداً على المعرفة الا بنسبة ما لنا من قربى الى العشق والمحبة ، وأن معرفتنا هي صورة العشق نفسها ، وكذلك ان ما يسميه الأشخاص العديمو الاحساس والانتباه « الماضي » هو بالنسبة لحبنا في « المستقبل »، الحب الذي هو مبدأ المستقبل ، لأنه واهب الحياة اذاً يجب أن تكون لنا شجاعة ورود ميدان الحب ، وألا يكون بنا خوفُ أن « لا نكون عصريين » ومماثلين للجماعة ، وأمثال هذه من الاصطلاحات المبتذلة ، لأن الحكيم يعرف أن الزمان ليس مركباً مشتركاً بين الجميع على السوية ، بل هو ميزان امتحان كل موجود ، الميزان الذي يمتحن عظمته أو ـ على العكس ـ سقوطه المؤسف .

ولئن كان يدعو للاضطراب والقلق مثل الورطة العميقة التي تفصل بين ما في الانشاءات الجديدة من لهيب وصداع ، (هذه الصنائع الجديدة التي تُستعمل للانتصار على العالم) وبين المساعي والفعالية المعنوية التي بذلها حكماؤنا الذين وُفقوا الى تجاوز حد لم يكن لأي نوع من أنواع الصناعات أن يذلله ، فاني أتذكّر مشهداً مؤلماً له ميزة التمثيل والرمز . ان فكري متجه الى حضور محيي الدين بن عربي تشييع جنازة ابن رشد ؛ ففي سنة ٥٩٥ توفي الفيلسوف الشهير ابن رشد في مراكش التي كان اتخذها معتزلاً التزم فيه الوحدة والانزواء ، وقد نقلت جنازته الى قرطبة ، وحضر مراسم دفنه ابن عربي مع اثنين من أصدقائه ، وهناك رأى الثلاثة مشهداً موجعاً جعلهم حيارى ذاهلين ، ففي جانب من جانبي المركبة كان الناقلون قد وضعوا تابوته ، وفي الجانب الآخر الكتب التي كان ذلك الفيلسوف قد ألفها ووضعها . . مجموعة من الكتب كانت تعادل جسداً ميتاً .

ان ابن عربي لم ينس قط الخاطر الذي قام في فؤاده : « الاستاذ في جانب ، وآثاره في الجانب الآخر ! كم كنت اتمنى أن أعلم هل تحققت آماله ؟ ! [1]» .

قلت منذ هنيهة أن لهذا اللقاء وجهاً تمثيلياً ورمزياً . والحق انه في ذلك الوقت الذي بدأت فيه فلسفة ابن رشد بعد وفاة مؤسسها تَقدُّمَها في ديار الغرب حتى استُبدلت أخيراً في القرن الرابع عشر بما أسموه « الفلسفة الابن رشدية السياسية ، » فارق ابنُ عربي ـ الذي ذكرناه الآن وأحد كبار العرفا والحكماء في التاريخ كله ـ بلاد الأندلس الى الأبد ليختار لنفسه ديار المشرق مقاماً ومستقراً ، ولينبسط تأثيره النافذ القوي لا في أفكار ملا صدرا وحده بل في جميع المذاهب والنزعات المعنوية وحتى اليوم . أن ديار المشرق لم تعرف ابن رشد ؛ أما الغرب فقد كان على معرفة وثيقة بالفلسفة الابن رشدية ونتائجها ، ولكنه جهل ابن عربي . أننا نستطيع أن نتساءل : هل للعلم العصري في نظر ابن عربي وملا صدرا وجميع معتنقي مذهبهما ، هذا العلم الذي تم انتصاره مقابل فوضى الفكر البشري والفلسفة ، والذي يؤدي الى فقدان شخصية الإنسان في جمهور بلا اسم ، وينتهي اخيراً الى قبول العدم دون قيد أو شرط ، هل لهذا العلم في نظرهم قيمة أكثر من قيمة « مجموعة من كتب تحفظ جسداً ميتاً بالتوازن »؟ هل كانوا يؤمنون بتحقق كل أمنية لهم ؟؟

هذا هو السبب ولا شك في أن عصرنا بطريق أولى يتحدث بيأس وأسى عن محبة انسانية جديدة دون أن يعلم أكثر الأحيان في الواقع في أي موضوع يتحدث .

محمد بن ابي حرب بن محمد الحسيني ابو جعفر .

في التدوين للرافعي : كان يعرف طرفاً من فقه الشيعة ويكتب الوثائق لهم وكان سهلاً سليم الجانب وقرأ النهاية لابي جعفر الطوسي على علي بن الحسن الداعي الحسيني الاسترابادي بالري سنة ٥٥٥ وهو يرويها عن ابي عبد الله الحسين عن شيخه ابي علي الحسن بن محمد عن أبيه المصنف .

وترجم له ابن حجر في لسان الميزان ٥/ ١٢٠ وحكى كلام الرافعي الى قوله الطوسي .

اقول : ويظهر ان هذا غير مهدي بن ابي حرب نزار الحسيني ابي جعفر . وان اتحدا في الكنية وكنية الأب فان مهدياً يروي عن ابي علي الطوسي مباشرة كما في أعلام الشيعة

محمد بن ابي علي بن ابي نصر النوقاني .

المولود بنوقان طوس سنة ٥١٦ والمتوفى ببغداد في الثالث من صفر سنة ٥٩٢ ونقلوه الى النجف الأشرف فدفن في مشهد أمير المؤمنين عليه السلام بعد أربعة أيام .

ترجم له المنذري في التكملة برقم ٣٠٩ ووصفه بالامام العالم ابي عبد الله ويقال ، أبو المفاخر . . وقال :

تفقه بنّيسابور على الامام ابي سعد محمد بن يحيى النيسابوري وسمع منه وحدث عنه ببغداد ودرس ببغداد وكان بارعاً في الفقه حسن الكلام فيما يقرره وهو والد شيخنا أبي عبد الله محمد .

الشيخ ابو منصور محمد بن ابي العباس احمد بن يحيىٰ بن زيد بن ناقة المسلي الكوفي .

المولود بالكوفة سنة ٥٣٠ والمتوفى ببغداد في الثالث من جمادى الآخرة عام ٥٩٣ والمدفون بالكوفة .

ترجم له المنذري في التكملة رقم ٣٨٨ فقال : الشيخ الأجل . . . سمع من ابي العباس احمد وحدث وهو منسوب الى بني مسلية وهي احدى محال الكوفة كان ينزلها فنسب اليها وهذه المحلة نسبت الى بني مسلية القبيلة المشهورة من مذحج نزلوها فنسبت المحلة اليهم .

السيد محمد بن احمد بن حسن بن حسين الحسيني .

توفي بعد سنة ١٢٤٤ .

عالم جليل ومحقق مدقق رأيت له بعض التعليقات على كتاب شرح المختصر النافع تدل على سعة اطلاعه كانت مؤرخة في سنة ١٢٤٤ وتوفي بعد هذا التاريخ[2] .

السيد محمد بن ابي طالب بن السيد محمد شيخ الاسلام الحسيني الرامسري .

ولد حدود ١٢٥٩ ، توفي ١٣٢٥ .

ولد في رامسر ودرس المقدمات بها ثم ذهب الى قزوين وأصفهان واشتغل عند اعلامها في الفقه والأصول والفلسفة والنجوم والعلوم الغريبة ثم رجع الى موطنه وعين سنة ١٢٩٦ شيخ الاسلام من قبل ناصر الدين شاه القاجاري وكان شاعراً اديباً وله مكتبة نفيسة فيها كتب خطية نادرة تفرقت بعد وفاته وكان من الأحرار في قضايا الدستور الايراني ـ توفي في جوردية من

---

(١) من اجل الوقوف على قصة هذه الحادثة راجع :
L»imagination creatrice dans le Soufilme d»ibn Arabi ،Paris 1958
ص ٣٢ ـ ٣٨ فما بعد.

(٢) الشيخ محمد السمامي .

ضواحي رامسر ودفن بها[١].

ابو القاسم محمد بن احمد بن مهدي العلوي.

المتوفي في ذي القعدة سنة ٤٦٥ بنيسابور ترجم له في منتخب السياق برقم ١٢٠ وقال: فاضل من دعاة الشيعة عارف بطرقهم وعلومهم سمع وروى. توفي في ذي القعدة سنة خمس وستين واربعمائة ودفن بمقبرة الحيرة.

وترجم له ابن حجر في لسان الميزان ٣٧/٥ رقم ١٢٥ وقال: روى عن ابي عبد الرحمان السلمي وعبد الله بن يوسف وغيرهما. [وروى] عنه زاهر ووجيه ابنا طاهر وعبد الغافر الفارسي وقال: كان من دعاة الشيعة وغلاتهم عارفاً بطريقهم مقدماً فيهم توفي سنة ٤٢٥[٢].

محمد بن احمد بن حمدان المعروف بالخباز البلدي.

نسبة الى (بلد) وهي مدينة بالجزيرة التي منها الموصل.

ترجم له الثعالبي في اليتيمة وقال: كان امياً وكان حافظاً للقرآن يقتبس منه وكان يتشيع.

وترجم له الصفدي في الوافي بالوفيات ٥٧/٢ وأورد له شيئاً من شعره وأورد ابو بكر بن عبد الله بن ايبك صاحب صرخد في كتاب كنز الدرر وجامع الغرر في المجلد الرابع منه في تاريخ الامويين واسمه الدرة اليتيمة شيئاً من شعره وقال: وكان فيه تشيع منها قوله:

ان كان حبي خمسة زكت بهم فرائضي
وبغض من ناواهم رفضا فاني رافضي

وأورد القفطي في إنباه الرواة شيئاً من شعره وله ترجمة في الأمل ونسمة السحر وترجم له القفطي في المحمدون من الشعراء أيضاً ص ٣١ رقم ١٣ قال هو من بلدة يقال لها بلد من بلاد الجزيرة التي منها الموصل وأبو بكر محمد احمد الخباز هذا من حسناتها ومن عجيب شأنه انه كان أمياً وشعره كله ملح وتحف وغرر وطرف ولا تخلو مقطوعة له من معنى حسن أو مثل سائر . . . وكان حافظاً للقرآن مقتبساً منه في شعره.

ثم أورد له شيئاً من شعره ثم قال: وكان يتشيع ويتمثل في شعره بما يدل على مذهبه كقوله:

وحائم نبهنني والليل داجي المشرقين
شمهتهن وقد بكين وما ذرفن دموع عين
بنساء آل محمد لما بكين على الحسين

وكقوله:

جحدت ولاء مولاي علي
وقدمت الدعي على الوصي
متى ما قلت ان السيف امضى
من اللحظات في قلب الشجي
لقد فعلت جفونك في البرايا
كفعل يزيد في آل النبي[٣]

شرف الدين محمد بن احمد بن يعلي الهاشمي.

روي عن محمد بن عبد الله بن حبيب العامري الواعظ كتابه روضة أفهام اولي الألباب في شرح معاني الشهاب في شهر رمضان سنة ٦٢١ بثغر الاسكندرية ورواه عنه معين الدين ابو علي الحسن بن فتوح القرشي ذكره ابن الفوطي في ترجمة معين الدين من تلخيص مجمع الآداب ٦٥٧/٥ رقم ١٤٢٤ وكذا ذكر في ٧٥٢/٥ رقم ١٩٥١ موفق الدين أبا المعالي سعد ابن عبد العزيز القرشي الشافعي وأنه سمع الكتاب على المترجم.

محمد بن احمد بن محمد الملقب ذو البراعين.

قال ابن ناصر: رافضي لا تحل الرواية عنه ! كذا في ميزان الاعتدال.

وقال ابن حجر في لسان الميزان ٦١/٥ رقم ٢٠٣ وهذا ذكره ابن السمعاني وقال كان متصرفاً في عمل السلطان سمع أبا القاسم بن بشران وحدث باليسير روى عنه اسماعيل السمرقندي مات سنة ٤٧٨.

محمد بن احمد بن محمد بن خلف ابو الحسن بن الفحام.

المعروف بابن ابي المعتمر الرقي نزيل دمشق المتوفي سنة ٣٩٩.

قال في لسان الميزان ٢٥١/٢: قرأ على زيد بن ابي بلال وغيره وحدث عن النجاد وطبقته وعنه أبو القاسم الحنائي وأبو علي الاهوازي وآخرون ذكره الداني وقال: كان زاهداً متقشفاً مات سنة ٣٩٩ صنف كتاباً في انكار غسل الرجلين في الوضوء وكتاباً في الآيات النازلة في أهل البيت.

محمد بن احمد بن ابراهيم بن موسى بن جعفر بن ابراهيم بن جعفر بن ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر الطيار أبو الحسن بن ابي طاهر.

المولود سنة ٣٢٤ والمتوفى سنة ٣٨٥.

ترجم له الرافعي في التدوين وقال: كان هو وأخوه أبو القاسم مشغوفين بالصدقات وأعمال الخير وكان اليهما الرئاسة بقزوين وكان الصاحب بن عباد يخصهما بقبول الهدايا اللطيفة نحو المجلدات من الكتب والحلاوى وسمع ابو الحسن الحديث من العليين ابن مهرويه وابن ابراهيم، وسليمان بن يزيد وبالري من عتاب الوراميني وغيره.

وحج سنة ٣٥٧ ففات في تلك السنة الحج لاكثر الناس بسبب إعواز الماء وشدة الوبا فبذل مالاً لبعض الاعراب حتى سار به الى عرفات فحج وفرق هناك اموالاً على الطالبية والبكرية والعمرية. ومات سنة ٣٨٥ وكانت ولادته سنة ٣٢٤ ولم يعقب هو ولا اخوه ذكراً[٤].

محمد بن احمد الحيري

قال الذهبي في سير اعلام النبلاء:

الإمامُ المحدِّث الثقة، النحويُّ البارع، الزاهدُ العابد، مسند خراسان، أبو عمرو محمد بنُ أحمد بن حمدان بن علي بن سِنان الحيْري.

ولد سنة ثلاثٍ وثمانين ومئتين.

وارتحل به والدهُ الحافظ أبو جعفر إلى العجم، والعراق، والجزيرة، والنَّواحي، وسمَّعه الكثير، وطلب هو بنفسه، وكتب وتميَّز، وبرع في العربية، ومناقبُه جمَّة رحمهُ الله.

ارتحل إلى الحسن بن سُفيان النَّسوي في سنة تسع وتسعينَ، وهو ابن ستَّ عشرة سنة، أو أكثر فسمع منه الكثير، وإلى الأهواز فأكثر عن عَبْدان الجواليقي، وإلى الموصل فأكثر عن أبي يَعْلى، وإلى جُرجان فأكثر عن عمران بن موسى بن مُجاشع السَّختياني، وسمع بالبصرة من زكريا السَّاجي، ومحمد بن الحُسين بن مُكْرم، وإلى بغداد فأخذ عن أحمد بن الحسن الصُّوفي، وحامد بن شعيب البلخي، والهيثم بن خلف الدُّوري، ومحمد ابن عبد الكريم الجُرجاني، وابن خزيمة، والسراج، ومحمد بن عبد الله بن جرير الطبري، وروى أيضاً عن أحمد بن محمد

---

(١) الشيخ محمد السمامي.
(٢) السيد عبد العزيز الطباطبائي.
(٣) السيد عبد العزيز الطباطبائي.
(٤) السيد عبد العزيز الطباطبائي.

يوسف الدُّويري، وعبدِ الله بن محمد بن يونس السِّمْناني، وأبي عمرو أحمد ابن نصْـر الخفـاف، وأبي قُـريش محمـد بن جمعـة ، ويعقـوبَ بن حسن النَّسائي، وعبد الـرحمن بن معـاذ النَّسـائي ، وجعفـر بن أحمـد بن نصْـر الحـافظ، وعبد الله بن محمـد بن شيْرويـه، ومحمد بن محمـد بن سليمان الباغندي، وعليِّ بن حمدُويه الطُّوسي ، وجعفر بن أحمد بن سنان ، وعليٍّ بن سعيـد العسكري القطان ، وعبد الله بن زيدان البجلي بالكوفة ، وعلي بن الحسين البشـاري ، وحمزة بن محمـد الكـوفي، ومحمـدِ بن زَنْجـويـه بن الهيثم ، ومحمد بن أحمد بن عبـد الله الراذاني بنسـا ، وأحمد بنِ محمـد بن عُبيدة الثعالبي، وأبي العباس بن عُقدة ، وعبد الله بن محمد بن سيَّار الفَرْهاداني ، وإبراهيمَ بنِ علي العُمري ، ومحمد بن أحمد بن نعيم ، وعبـد الله بن أبي سفيان المَوْصلي ، وأبي بكر بن أبي داود ، والعبَّاس بن الفضل بن شاذان الـرَّازي ، وشعيب بن محمد الـزَّراع ، والحـافظ أبي بكـر أحمـد بن علي وعبد الرحمن بن أبي حاتم ، ومحمدِ بن مخلد الدُّوري ، ومحمد بن هارون ابن حميد ، وأحمد بن محمد بن بشار بغـدادي يعرف بـابن أبي العجوز ، ومحمـد بنِ محمد بن عقبـة الشَّيباني، والحـافظ أحمدَ بن يحيى بن زهيـر التسْتَري ، وغيرهم ، وتفرَّد بالرِّواية عن طائفة منهم .

حـدَّث عنه : أبـو عبد الله الحـاكـم ، وأبو سعيـد النقَّاش، وأبـو حـازم العبدوي ، وأبو العلاء صاعدُ بنُ محمد الهـروي ، وأبو نُعيم الأصبهـاني ، وأبـو الفتـح بنُ أبي الفـوارس ، وأبـو حفص بن مسـرور ، وأبـو الحسين عبـد الغافـر الفارسي ، وأبـو سعد محمـدُ بن عبد الـرحمن الكَنْجـروذي ، ومحمد بن محمد بن حمدون السلمي، وأبو عثمان سعيد بن محمد البَحيري، ومحمدُ بن عبد العزيز النِّيْلي الشافعي ، وآخرون .

قـال الحاكم : ولـد له بنتٌ ، وعمـرهُ تسعون سنـة ، وتُـوفي وزوجتُـه حُبلى ، فبلغني أنها قالت له عند وفاته : قد قربتْ ولادتي ، فقـال : سلمته إلى الله ، فقد جاؤوا ببراءتي من السماء ، وتشهَّد ، ومات في الوقت .
أبي شَيْبة ، ومسند أبي يَعْلى المَوْصلي، ومسند عبد الله بن شِيْرويه ، ومسند السَّراج ، ومسند هارون بن عبد الله الحمَّال .

قـال الحاكم : كـان المسجد فـراشه نيِّفـاً وثلاثين سنـة ، ثم لما عمي وضَعُف ، نُقـل إلى بعض أقاربـه بالحِيْـرة ، وكان من القـراء والنحـويِّين ، وسمـاعاتـه صحيحة ، رحـل به أبـوه ، وصحب الزهـاد، وأدرك أبا عثمـان والمشايخ ، وسمع من محمد بن زنجويه في سنة خمسٍ وتسعين ، ومئتين ، توفي في الثامن والعشـرين من شهر ذي القعـدة سنة ستٍّ وسبعين وثـلاث مئة ، وهو ابن ثلاثٍ وتسعين أو أربع وتسعين سنة ، وصلَّى عليه الحافظ أبو أحمد الحاكم .

وقال الحافظ محمدُ بن طاهر المَقْدسي : كان يتشيَّع .

قلت : تشيُّعُهُ خفيفٌ كالحاكم .

وقع لي جُملة من عواليه ، وخرَّجتُ من طريقه كثيراً .

محمد أولجايتو خدابنده بن ارغون بن آبقا بن هولاكو .

مرت ترجمته في المجلد التاسع ونزيد هنا عليها التفاصيل الآتية :

كـان اولجايتـو في خراسـان يترقب خبـر وفاة غـازان ، وكـان قـد عيّن مراسلين في البلاط ليبلغوه هذا النبأ لذلك فانه عرف بوفاة أخيه قبل أن ينتشر خبرها وتمكن من أن يعقد اجتماعاً مع امرائه ، ويتخذ القرارات التي يعتقد انه لا بد منها ، وفي اول اجراءاته (٢٤ شوال ٧٠٣) كان أمره بقتـل الأمير الافرنك. ثم قرر الاطاحة بالأمير هورقوداق الذي كان يعتبره منافساً له ، ولقد دهش هذا الأمير مما ناله لانه لم يكن قد آذى الحاكم الجديد ولهذا فانه بعد القتال مع امراء الجايتو ، هرب من هناك ، ولكنهم قبضوا عليه واعتقلوه ثم قتلوه بتهمة الخيانة . وكان مصير جميع أفراد عائلته نفس المصير عدا احدى بناته .

توجّه الجايتو عند ذاك نحو الغرب، ولكن الأمطار الغزيرة عرقلت مسيرته الى أن وصل في الخامس من ذي الحجة سنة ٧٠٣ الى اوجـان وجلس في الخامس عشر من ذي الحجة على العرش. وبعد ذلك وحسب العادة اقيمت المآدب التي شارك فيها ممثلون عن الملوك المحليين ، ولم يحضر في هذه الاحتفالات ممثل عن فخر الدين ملك هرات .

الايلخان الجديد عين قتلغ شاه اميراً للأمراء ، وانضمت منطقة كرمان التي كـان حـاكمهـا المحلي قـطب الـدين شاه جهـان سبورغـاميش قـد توفي ، ـ انضمت رسمياً الى اراضي الايلخان .

وكانت ادارة البلاد بأيدي الوزيرين سعد الدين ورشيد الدين واستمرت هذه الحالة ثماني سنوات .

ارسل الجايتو وفداً الى بلاط السلطان المملوك ، وأرسل سلطان مصـر كذلك وفداً يترأسه كل من حسـام الدين المجيـري وابن سكرّي احتـراماً لـلايلخان . وطلب الجـايتو من المبعـوثين المصريين الافـراج عن السجناء المغـول وهددهمـا حسب عادتـه بكلمات وعبـارات نابيـة . علماً بـأن هذه التهديدات لم تكن ذات صلة بالهزائم التي لحقت بالمغول في سوريا . ومما قاله : « الـطريق مفتوح أمـام الرسـل والتجار وكـل شيء حاضـر، اذا وافق الجانبان ، وإذا لم تكن لديهم آذان صاغية ، فالأمر للسيف». وبالرغم من أن الممـاليك ارسلوا رسـولاً في سنة ٧٠٥ الى بـلاط الايلخـان ، الا أنهم هاجموا في نفس الوقت ارمينيا الصغـرىٰ ونهبوا عـاصمتها سيس، واجبـروا تكفـور حاتم على الاستقـالة للمـرة الثالثـة ، ونصبوا مكـانه ابن اخيـه ليون الرابع .

وخـرجت ارمينيا الصغـرىٰ في عهد هـذا السلطان وخلفائـه من هيمنـة المغول وسلطتهم . وفي سنة ٧٠٧ هجرية هاجم مسلمو آسيا الصغرىٰ بقيادة بولارغي، ارمينيا الصغرىٰ . فاستنجد ليون الـرابع بـالملك النـاصـر سلطان مصـر وطلب منه العـون ، فغضب بولارغي من هـذا العمل بحيث قتله في بلاط ملك ارمينيا وهرب أحد أفراد الحاشية من هذه المعركة وأبلغ الأمر الى القادة الأرمن ، مما دفع بهم الى الهجوم على قوات المغول التي كانت في ارمينيا ، وربما كان هؤلاء يعتقدون ان المغـول الذين كـانوا يحكمـون آسيا الصغرىٰ هم السبب لهذا الحادث . فاضطرت القوات المهاجمة للانسحاب الى قيصرية .

في ذلـك الوقت أدرك الجـايتو الأذى الـذي سببه بـولارغي بسبب سوء معاملته ، ولهذا بعث بالأمير ارنجن الى آسيا الصغرىٰ لعزل بولارغي وإلغاء الأوامر التي كان قد أصدرها . الا أن هذا الأمر لم يخفف من التطورات التي كانت قد بدأت في ارمينيا الصغرىٰ .

وفي جمادى الأولى من سنة ٧٠٥ جاء مبعوث من قبل القاآن الى بلاط الجايتو ، وقال ان القا آن يعترف بحكومته وأن الأوضاع في ما وراء النهر على ما يرام . وكان مبعوثو ما وراء النهـر قد حضـروا الى بلاط الايلخـان آنذاك وأقيمت احتفالات خاصة على شرفهم .

كان الجايتـو يهتم كثيراً بـالتنسيق في العلاقـات بين الحكـام المغـول ولهذا فانه ارسل وفوداً الى فيليب الرابـع ملك فرنسـا (١٣١٤ ـ ١٢٨٥ م) وأدوارد الأول ملك انكلترا (١٣٠٧ ـ ١٢٧٢ م) وأبلغهم بالخبر.

وفي سنة ١٣٠٧ م أمر الجايتو ببناء مدينة سلطانية حيث ظلت عـاصمة الايلخانيين الى نهاية حكومتهم في ايران .

بدأ الجايتو بعض الاجراءات لاقامة خطوط مواصلات جيدة مع خراسان ليحقق انتصارات حربية ولم يسبق للملوك السابقين ان فعلوا ذلك : حيث قرر بعد استشارة الأمراء الهجوم على كيلان . وحسب العادة القديمة وجّه الايلخان الدعوة الى اثني عشر أميراً محلياً في تلك المنطقة للمجيء الى بلاطه ، الوحيد الذي استجاب للدعوة كان الديباج ، الا انه ندم بعد فترة قصيرة وهرب بصورة سرية . ففي هذا الوقت زحفت قوات الايلخان ، أما القادة الذين كان الايلخان قد أرسلهم لتقصي الأخبار فذكروا في تقاريرهم انه يمكن الاستيلاء على هذه المنطقة بسهولة وكانوا يعتقدون أن كيلان منطقة مهمة من الناحية الجغرافية وخطوط المواصلات الموجودة فيها .

هاجمت قوات الايلخان منطقة كيلان من أربع نقاط بقيادة جوبان وقتلغ شاه وتوغان ومؤمن تحت اشراف الجايتو ، وشاركت في هذا الهجوم قوات كرجستان بقيادة بكعة ووحدات من أرض آس. وكان ختنك الثالث ملك كرجستان حاضراً في جيش الجايتو الذي تجمع في لاهيجان .

تغلب جوبان وقتلغ شاه على عدد من أمراء كيلان ولكن بالرغم من تعليمات الايلخان نفسه ، فقد تقدم قتلغ شاه بإلحاح من ابنه ، في منطقة خلخال ولكنه هُزم على ايدي المحاربين المحليين في ضواحي رشت وقُتل . وكان الايلخان نفسه قد بدأ هجومه في ذي القعدة سنة ٧٠٦ ، فهزم عدد من الحكام المحليين ولكن لما قررت قوات المغول الاستمرار في اعتداءاتها . اجتمع الحكام المحليون وقرروا الصمود أمام المعتدين واشتدت الحرب بينهم وأسفرت عن هزيمة قوات المغول، الا أن القوات التي كان الجايتو قد أرسلها للانتقام لدماء قتلغ شاه تمكنت من احتلال مؤمن ورشت وتوليم . وبالرغم من أن قوات المغول لم تتمكن من الاحتفاظ بالأراضي التي احتلتها ، الا أن الايلخان كان يتصوران كيلان قد احتلت ، ولكن يجب القول، انه لم يطرأ اي تغيير في الأوضاع في هذه المنطقة :

وفي هذا الوقت بعث الجايتو ، دانشمند بهادر الى خراسان لتأديب فخر الدين ملك هرات لأنه كان قد استمر في أعماله العدوانية عندما كان الايلخان في خراسان كما انه رفض أن يوفد رسلاً عنه الى احتفالات تتويج الايلخان . ولما وصل دانشمند الى مدينة نيشابور ، علم فخر الدين بهذا الهجوم وتمكن من اعداد نفسه للوقوف بوجهه . وفي بداية الأمر رفض ملك هرات طرد نيكوداريان من المدينة ، الا انه وافق بعد ذلك بأن يدخل دانشمند وجماعة من قواته الى المدينة ولكن لما رفض جمال الدين سام أحد أشراف مدينة هرات تكريم الجايتو ، فقد صعب الأمر على دانشمند . كما تمكن دانشمند بصعوبة أن يحصل على موافقة الايلخان على إبقاء فخر الدين حاكماً على المدينة . وفي المأدبة التي أقامها سام على شرف دانشمند ومرافقيه ، شاهد هؤلاء أفراداً مسلحين في تلك المأدبة ، وفي المعركة التي وقعت بينهم قتل الأمير يلدوز قائد قوات المغول واستهزؤوا بزوجته وقتلوا جميع القوات التي كانت معه وأجبروا تلك القوات التي كانت قد استقرت في بوابة المدينة على التراجع والانسحاب ، وفي النهاية ولما كان فخر الدين قد أيد هذه المجزرة فقد كانت الفرصة متاحة أمامه .

ومن جانبه أرسل الجايتو ، بوجاي ابن القائد المقتول الى الشرق للانتقام ، واتحد هذا مع شقيقه توغان ، وأجبر هذان الأثنان ، فخر الدين على المجيء اليهما . وادعىٰ فخر الدين انه بريء من قتل دانشمند بهادر وأضاف أن أهالي هرات ومن بينهم جمال الدين سام لا يسمعون كلامه ولا يطيعونه . وفي النهاية بدأ بوجاي في الأول من شهر شعبان سنة ٧٠٦ بمحاصرة المدينة . وكان مع سام ١٧٠٠ من الجند بينهم عدد من المحاربين البلوش، حيث قام بهجمات دامية على قوات المغول . وفي هذه الأثناء توفي فخر الدين .

قرر يام احمد الذي كان من الرماة وتمكن بالمساعي التي بذلها أن يصبح ضمن مستشاري فخر الدين ، ـ قرر أن يقتل سام وينقذ المدينة . الا أن مؤامرته كشفت وقُتل يام ورفاقه . وفي هذه الأثناء التحقت احدى الفرق التي كان يقودها دولاي ، التحقت ببوجاي ولما كان بوجاي لا يرغب أن يتقاسم الانتصار لفتح المدينة مع القائد الجديد، عقد اتفاقاً مع سام الذي كان قد قتل ابوه ، بأن يتخلىٰ سام عن المدينة لصالح بوجاي، شريطة أن يعفو بوجاي القائد الهراتي من العقوبة . وفي الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٧٠٦ وتحت ضغط سكان مدينة هرات ، سلّم سام المدينة الى المغول. وأمر بوجاي بتدمير برجها وقلاعها . وفي الأيام التالية كاد سام وهو سكران أن يلطخ يده بدم بوجاي، الا أن اصحابه ومن أجل مدينة هرات منعوه من ذلك . ولما كان الكثير من أصحاب سام قد قتلوا تم إعاده الى بين النهرين ، ولكن حياته لم تستمر طويلاً وعادوا به مقيداً بالسلاسل الى هرات وقطعوا رأسه . وتمكن المغول من خلال عدة هجمات أن يسيطروا على خراسان كلها . وبدأ في هذا الوقت في جميع انحاء الشرق بل وفي جميع المناطق التي كان يسيطر عليها الايلخان ، عهد هدوء واستقرار .

وأرسل الجايتو في سنة ١٣٠٨ ميلادية رسلاً الى بلاط قاآن ظلوا في الصين أربع سنوات . مهدوا خلالها لارسال وفد من جانب القاآن الى بلاط الايلخان .

ولقد تم اعتقال أعضاء هذا الوفد في طريق عودته في تركستان .

استمر الايلخان في سياسة غازان المالية واهتم كذلك بالقضايا الدينية ، وفي سنة ١٣١٠ م قبل المذهب الشيعي .

بعد فترة قصيرة في شوال سنة ٧١٠ حصل خلاف بين الوزيرين سعد الدين الساوجي ورشيد الدين حول تعيين تاج الدين علي شاه وزيراً ونائباً مما جعل رشيد الدين يغيب عن الديوان فترة من الزمن . فسأل الجايتو عن سبب هذا الغياب وبعد الاطلاع على ذلك استدعىٰ سعد الدين في يوم الثلاثاء العاشر من شهر شوال سنة ٧١١ وأمر بقتله بسبب الاختلاس. واضطر رشيد الدين بعد ذلك أن يقسم ادارة امور الديوان بينه وبين تاج الدين علي شاه الذي كان صديقه في البداية ولكن حصلت الفرقة بينهما بعد ذلك .

كانت الحدود بين دولة الايلخان والحكومة في مصر هادئة بعد هزيمة بولارغي، واستغل حكام قبجاق وبيزنطة وارمينيا الصغرىٰ وكرجستان هذا الهدوء والاستقرار فأرسلوا وفوداً الى بلاط سلطان المماليك لتعزيز وتثبيت امن بلدانهم . ولم تكن للمغول عند ذاك أية سلطة على أرمينيا الصغرىٰ الا أن كرجستان كانت في ايديهم . ولما توفي ختنك الثالث (في ١٣٠٧ او ١٣٠٨ ميلادية) وداود السادس (١٣١٠ ميلادية) ، عين الجايتو ، جورج السادس ابن داود السادس ملكاً على كرجستان .

وكان الايلخان مضطراً آنذاك الاهتمام بالقوقاز ، حيث أن حكام قبجاق كانوا لا يزالون يدعون ملكية تلك الأرض. وبالرغم من أن تقتغا كان قد أرسل وفداً الى الايلخان في بداية حكومة الجايتو وطلب منه المصالحة والسلام ، الا ان الايلخان اضطر بسبب تحشدات جنود حاكم قبجاق ، أن يرسل جوبان الى دربند عبر طريق كرجستان .

ان الاجراءات والتدابير التي قام بها هذا القائد في المنطقة ، دفعت تقتغا ثانية أن يرسل في التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة ٧٠٩ وفداً الى بلاط الايلخان في السلطانية للمحافظة على السلام . ولكن وبعد أن جلس ازبك على عرش سراي خلفاً لعمه ، ارسل وفداً الى الجايتو وأبلغه الادعاء القديم القائل بتملكه للقوقاز . وكان الجواب في السلطانية هو الرفض طبعاً

ولكن لما كان متعذراً على ازبك أن يحقق غايته بالقوة ، ولما كان الجايتو لا ينوي المصالحة فقد رأى حاكم قبجاق من الأفضل أن يكسب رضا الايلخان. ولذلك ارسل وفداً الى بلاط الايلخان للاعتذار ، ووصل هذا الوفد الى عاصمة الجايتو في الخامس والعشرين من المحرم سنة ٧١٤ وحاول أن يجدد الاتفاق الى حدٍ ما ، الا ان العلاقات بين البلدين لم تعد الى مجراها الاعتيادي، وأرسل حاكم قبجاق بعد ذلك سفراء الى عاصمة الجايتو ولكنه لم يجدد ادعاءه وملكيته القوقاز .

وفي سنة ١٣١٢ ميلادية هاجم الجايتو ، حكومة المماليك . وكان قد جاء اليه حكام كثيرون بينهم شمس الدين قراسنقر حاكم دمشق ، وشجعوا الايلخان على الهجوم على حصن الرحبة عن طريق الموصل . وقام المغول بمحاصرة هذه القلعة واحتلوها في يوم الأحد الثالث عشر من شهر شوال سنة ٧١٢ . ويقول المؤرخ المصري المفضل ان الجايتو بعد التوقيع على الاتفاق اضطر الى مغادرة الحصن بسبب قلة المواد الغذائية . وتفشي بعض الأمراض المعدية . ان الهجوم المضاد للمصريين جاء بعد فترة اخرىٰ .

وبعد هذا الهجوم بدأت الاضطرابات في آسيا الصغرىٰ. حيث أن سلطة ملوك السلاجقة فيها بدأت تتقلص رويداً رويداً والحكومات التركية المحلية بدأت تحصل على استقلالها . وفي سنة ٧١٤ هجرية ثار التركمان والقرامان واستولوا لفترة قصيرة على قونية وملطية ، الا ان الأمير جوبان بالرغم من أن المصريين كانوا يعززون الثوار ، تمكن بمساعدة القوات الكرجية أن ينهي هذه الثورة . كما كانت الحكومات المحلية تسبب مشاكل كثيرة للمغول ولم تتمكن قوات المغول ابداً من أن تقيم لنفسها مواقع حصينة في المناطق الجبلية . ويقال ان غازان كان قد وصف القرامان ذات مرة بأنهم ألدّ أعدائه .

لا يعتقد أن هذه الأمور هي السبب في قطع الايلخان هجماته على حكومة المماليك . ان كبك ويساور وهما حاكمان في ما وراء النهر كانت لهما علاقات مع المصريين ، وكانا قد عبرا نهر جيحون في نهاية شهر رمضان سنة ٧١٣ ، وأن بوجاي الذي كان في خراسان مع جيوشه تمكن بمساعدة جيوش بدخشان ، التي كانت قد جاءت الى تلك الولاية آنذاك ، أن يقابل احد جيوش ما وراء النهر، ولكن لما كانت جيوش ما وراء النهر الرئيسية قريبة الى هناك ، ومن جانب آخر حصلت اضطرابات في فارس، فان القائد المغولي اجتنب الحرب ، الا أن جيوش بوجاي ويساول القائد المغولي الآخر وقفت أمام جيوش كبك على ضفاف نهر مرغاب . وإن بوجاي قتل مع مرافقيه الأوفياء، وأن يساول حسب الظاهر تمكن مع سبعة آخرين أن يهرب من المعركة ، الا أن جيوش ما وراء النهر لم تتمكن من تحقيق ما تريد من هذا الانتصار وأن كبك أفرج عن المعتقلين وسمح لهم بالذهاب .

توجه الجايتو وجيوشه نحو الشرق بسرعة وتقدموا حتى طوس. وجاء يساول الى هذه المدينة ايضاً ، وقتل حاكم المدينة بسبب بعض المشاكل التي أوجدها . ومن هذه المدينة بدأت جيوش الجايتو هجومها على كبك وطردوه من خراسان وأجبروه على العودة الى بخارا ، وفي هذا الوقت أعاد الجايتو النظر في أوضاع خراسان .

ومن اجل تعزيز موقف الحكومة ، كما كانت العادة المتبعة آنذاك، فقد عين الجايتو ابنه أبو سعيد الذي كان شاباً ، على حكومة خراسان . وأرسل معه الأمير سونج بصفته وزيراً . وفي سنة ٧١٥ هجرية أنزل اغول وهو من قبيلة قيدو خسائر واضراراً كبيرة بخوارزم ومازندران . ولما كان الايلخان يعتقد أن حاكم قبجاق هو الذي دفع اغول الى هذا العمل. فقد حصل خلاف بينه وبين حاكم قبجاق.

لقد وقع حادث سهّل قيام الأمن والاستقرار في المناطق الشرقية . حيث انه بعد هجوم كبك ويساور الذي باء بالفشل، حصل خلاف بينهما ، وأن كبك اتهم يساور بتعاونه سراً مع الجايتو ، ولما رأى يساور ان حياته مهددة بالخطر، عبر نهر جيحون واستقر في ضواحي شبورغان . ومن هناك اتصل مع حاكم ايران . وفي (ذي القعدة سنة ٧١٤) تصور الجايتو أن ازبك والملك الناصر قد اتحدا معاً ضد كبك ولهذا فقد رحب بيساور واستقبله وأعلن دعمه له أمام جيوش كبك . وخصص له منطقة بادغيس مخيماً شتوياً لجيوشه .

أما في مسألة ادارة أمور الديوان فان الخلاف بين رشيد الدين وتاج الدين علي شاه ، الذي كان يعادي الأمير توقماق ايضاً ، بلغ حداً بات معه من الضروري فصل وظيفة كل منهما عن وظيفة الآخر ، الا أن الجايتو لم يتمكن من أن يتخذ قراراً في ذلك ، حيث كان يعتقد ان استشارتهما مفيدة له جداً .

كان من الضروري حل هذا الخلاف ولكن الجايتو لم يتمكن من ذلك ، ومن جانب آخر فان جيوشه التي كانت قد توجهت الى آسيا الصغرىٰ لصد هجوم المصريين لم تتمكن من الحيلولة دون نهب مدينة ملطية . وبهذا فان الهزائم المختلفة هددت سلامة الايلخان الى أن مرض وهو في الصيد ، وطلب احضار ابنه أبو سعيد من خراسان ، الا أن أبا سعيد لم يتمكن أن يحظى بمقابلة والده . ويقول المؤرخون المصريون أن الجايتو قتل مسموماً في يوم الأربعاء ٢٧ رمضان سنة ٧١٦.

بعد اولجايتو

كان ابن اولجايتو وولي عهده أبو سعيد في الثانية عشرة من العمر يعيش في مازندران ، عندما وصله نبأ وفاة والده الجايتو . وتوجه سونج الذي يتولىٰ الوصاية على أبو سعيد ، اليه بسرعة وذهبا معاً الى السلطانية عبر طريق الري . وكان سونج وأبو سعيد قد أرسلا وفداً الى قتلغ شاه خاتون زوجة الجايتو والأمير جوبان لتقصي الحقائق . فجاء جوبان الى أبو سعيد بسرعة ، وتمكن بالرغم من عدم رغبة سونج الذي كان يعتقد أن عصر سيادته قد حان ، أن يتقرب الى أبو سعيد . وفي الايام الأولى من شهر صفر سنة ٧١٧ جلس أبو سعيد على عرش آبائه . وأصبح جوبان أميراً للأمراء. وفي السنوات التالية كان في الحقيقة هو الذي يشرف على ادارة شؤون الدولة .

وانتهزت الجيوش الثائرة في ما وراء النهر فرصة تغيير الايلخان وهاجمت ايران .

ومن جانب آخر غضب يساول القائد المغولي الذي كان قد جمع اموالاً كثيرة في الشرق ، غضب من تمكن ابي يزيد بن بوجاي وبوساطة من سونج أن يحصل على قيادة قوات المغول في خراسان . فجمع مستشاريه فاعترفوا بأن أبا يزيد شاب عديم التجربة ، واقترحوا بأن يتولىٰ توغان عمه الحكم وقيادة الجيش، وفي نفس الوقت دعا يساول، يساور حاكم ما وراء النهر الذي كان قد جاء الى ايران في عهد الجايتو ، دعاه الى الطعام ليقتله ، الا أن أحد أقارب يساور أخبره بالمؤامرة التي دُبرت له ومن جانبه حاول حاكم ما وراء النهر أن يقتل يساول، الاّ أن القائد المغولي هرب الى هرات .ولجأ الى غياث الدين كرت . ولدى عودته الى نيشابور ، طاردته مجموعة من الجيش بقيادة مبارك شاه بوجاي في العاشر من ذي الحجة سنة ٧١٦ وقتلوه على ساحل نهر قراسو على مسافة يومين من هرات . وشرحوا الحادث بالتفصيل في بلاط الايلخان وأكدوا أن يساور بادر الى قتل يساول صيانة لحياته .

وبالرغم من اتفاق وقف القتال الذي كان قد وقع بين الجايتو ويساور ،

الا أن الحرب بدأت بين أبو سعيد وحاكم ما وراء النهر. حيث هاجم يساور مع جيوش ما وراء النهر أحد الأمراء الغوريين الذي كان يقود النيكوداريان ، وقد تظاهر أن هذا الهجوم كان من أجل صيانة مصالح الايلخان . وتمكن حاكم ما وراء النهر بسرعة أن يحاصر بعض القلاع في سيستان ونزل مدة من الزمن عند ابنه جوكي، ثم هاجم مازندران .

ولما كانت سياسة الأمير ازن قتلغ القائد المغولي المفوض لحفظ الهدوء والاستقرار في خراسان قد بعثت الشك وتصوروا أنه اتفق مع يساور سراً، فقد استدعوه . ثم توجه القائد حسين ابن الأمير آق بغا مع جيوش جديدة الى الشرق لمحاربة حاكم ما وراء النهر . وكان هذا الجيش الذي قدروا عدده بعشرين الف قد عاد توّاً من الحرب بين ازبك حاكم قبجاق وبين دربند في ربيع سنة ١٣١٩ ميلادية على ساحل نهر جيحون.

ولما انخفض عدد قوات المغول في جبهة القوقاز فان موقفهم قد ضعف ، فعندئذ عاد جوبان الى الشرق بعد أن كان قد ترأس قيادة قوات المغول في كرجستان وحاول بمساعدة حسين القضاء على يساور ، عاد الى الشرق وتسلم قيادة قوات المغول وتمكن من سحق ازبك . وفي هذا الوقت قاوم كل من ناصر الدين امير سيستان وغياث الدين كرت ملك هرات في المنطقة الشرقية ، قاوما أمام يساور، حتى أن هجوم بكتوب لم يمنع يساور من عدوانه .

وقام اهالي مازندران ايضاً بحيث بقىٰ هو وحيداً ، مما اضطره على مغادرة مازندران .

ولما كانت جيوش يساور قد توجهت الى الشرق بسرعة ، لم تتمكن أن تنقل خزانته الى نيشابور ، فهرب يساور الى مشهد وأثار هناك غضب الأهالي بأعماله القاسية وفرضه ضرائب ثقيلة . ولما كان غياث الدين كرت ، على صلة مع جوبان ، فقد وصلته التعليمات بالصمود بشجاعة امام جيوش ما وراء النهر ، حتى تصله المساعدات من الغرب .

ولما سمع يساور أن ملك هرات أرسل جيشاً الى بادغيس لتعزيز قوات أبو سعيد ، اصدر التعليمات الى جيوش ما وراء النهر التي كان يقودها مبارك شاه بوجاي ، لمحاصرة هرات . ولما لم تثمر المحادثات بين بكتوب ويساور ، فقد تسلّم يساور بنفسه في ٢٢ ربيع الأول سنة ٧١٩ قيادة القوات التي كانت قد حاصرت هرات ، واستمر الحصار مدة شهر واحد الى أن سمع أن قوات المغول قد اقتربت من مدينة هرات فاضطر الى فك الحصار عن هرات وتوجه الى كرمسير . فلاحقه كل من غياث الدين والأمير حسين دون فائدة، ثم انهما عادا الى هرات .

ارسل كبك الذي كان ينافس يساور في ما وراء النهر ، جيشاً من ٤٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة أربعة من أمراء جيشه الى الحدود الايرانية ليمنع عودة يساور الى ما وراء النهر . وقد اتحد هذا الجيش مع حسين ولاحقوا العدو ليقاتلوه . فهزمت جيوش يساور واعتقلوه ثم قتلوه . وعاد جيش ما وراء النهر الى الوطن بعد أن حصل على غنائم كثيرة .

وفي هذه الاثناء اشتد الخلاف بين رشيد الدين وبين تاج الدين علي شاه حول ادارة امور الديوان . وكان علي شاه وأنصاره قد قرروا القضاء على المنافس. الا ان جوبان وسونج كانا يدعمان رشيد الدين ولهذا السبب فان اصحاب علي شاه كانوا يبحثون عن تهم جديدة ليتهموا بها رشيد الدين . وقد اتهموه بالفعل بانه هو السبب في وفاة الجايتو . واخيراً جاؤوا برشيد الدين الى المحكمة وحكموا عليه بالموت في الأول من جمادى الاولى سنة ٧١٩ هجرية . وبهذا توفي واحد من أبرز الساسة في ايران في عهد المغول وواحد من أكبر المؤرخين .

لقد حقق علي شاه غايته وأصبح الوزير الوحيد ، ولكن ما زال جوبان وهو يحمل منصب امير الأمراء يظهر الى جانبه كمنافس قوي. ولهذا السبب بدأت المؤامرات ضد هذا القائد . ومن أسباب هذه المؤامرات ان جوبان في الحرب مع ازبك حاكم قبجاق كان قد أدّب بشدة بعض امراء الجيش بمن فيهم قورميشي بن البناق ، حتىٰ انه كان قد قتل عدداً منهم ، حيث كان قد شك في أمرهم ، لتسامحهم في محاربة العدو . ان سوء معاملة جوبان مع أمراء الجيش قد سببت معارضة شديدة له بين الجيش .

ان هؤلاء الامراء الذين كان يترأسهم كل من قورميشي وناصر الدين القراطوغي انتهزوا الفرصة للقضاء على جوبان عندما قام الأخير بمهاجمة كرجستان . الا ان جوبان عاد في الوقت المناسب . ولكن المعارضين اقتحموا منزله دون ان يتمكنوا من القبض عليه ، فاضطر جوبان الى الفرار وأخذ ابنه معه وعاد الى تبريز عن طريق نخجوان . اما علي شاه الذي كان في سلام مع جوبان آنذاك فقد وعده بأن يتوسط له لدى ابو سعيد، وبالرغم من أن بعض أمراء الجيش استأذنوا الايلخان بقتل جوبان ، الا ان علي شاه تمكن بالوساطة لدىٰ ابو سعيد ، ان يحبب جوبان للايلخان فعاد جوبان الى السلطانية .

وأما امراء الجيش الذين كانوا قد غضبوا من تحسين موقف جوبان ، فقد قرروا هذه المرة وبقيادة الأمير ارنجن القضاء على أبي سعيد . حاول أبو سعيد أن يستغل وجود ابنة الأمير ارنجن وهي قتلغ شاه خاتون زوجة الجايتو المتوفى، لاعادة الأمن والاستقرار ، الا ان ارنجن اعتبر سياسة ابي سعيد هذه دليلاً على ضعفه وبدأ الحرب معه علناً . وكان ابو سعيد قد قاد الحرب بنفسه ، فانتصرت جيوشه في هذه الحرب . وكان جوبان وبقية امراء الجيش قد حاربوا ببسالة في هذا القتال . وهلك عدد من قادة جيش العدو في هذه المعركة وأن أبا سعيد قتل بقية القادة الذين كان قد اعتقلهم . وفي شتاء سنة ٧٢٠ هجرية، رشح أحد امراء الجيش المعروفين في كرجستان أحد الأمراء ويدعى غازان اغلان بن توغر يلجا للحكومة ، وان هذا الأمر أثار الناس. فارسل الايلخان ، أحد أمراء الجيش بولادقيا مع جيشه الى تلك الديار . وبعد محاصرة استمرت ثلاثة اشهر ، تمكنت جيوش المغول من اقتحام الحصن الذي كان هذان في داخله . فتمكن غازان اغلان ان يهرب ، الا ان ذلك الأمير الثائر الذي كان قد ثار ضد الايلخان بمساعدة غازان اغلان ، قُتل خلال ذلك .

وبالرغم من كل هذا فقد استمرت الاضطرابات في المناطق المختلفة ، حيث ثار تيمورتاش بن جوبان الذي كان حاكماً على آسيا الصغرىٰ في سنة ٧١٢ هجرية وأقام علاقات ودية مع مصر كما فعل سولايش قبل ذلك . وقد تمكن أن يسيطر على مناطق جديدة بعد انهيار حكومة السلاجقة في آسيا الصغرىٰ. وأضاف مناطق جديدة لأراضي الايلخان .

ومن جهة ثانية شن هجوماً على ارمينيا الصغرىٰ التي اوشكت أن تخرج من سلطة الايلخان وأن تلتحق رويداً رويداً بمصر، ودمرت تلك البلاد .

أما الملوك الأتراك المحليون في آسيا الصغرىٰ فقد قدموا في البداية شكوى الى جوبان من تيمورتاش ولما يئسوا من أية مساعدة منه ، لجؤوا الى ابي سعيد، الا ان الايلخان لم يهتم بشكواهم ، حيث كانت تؤدي الى وقف سياسته التوسعية ، ولكن لما ثار تيمورتاش، فقد طلب والده جوبان من الايلخان أن يسمح له بمحاربة تيمورتاش. ان أصحاب تيمورتاش منعوا الابن الثائر من الحرب وأجبروه على الاستسلام . فجاء جوبان بابنه الى أبي سعيد ، فعفا عنه الايلخان وأرسله ثانية الى آسيا الصغرىٰ. وخلافاً لسياسة تيمورتاش، فان أبا سعيد قدم المساعدات الى ارمينيا الصغرىٰ التي

كان يجب عليها أن تقف آنذاك بوجه هجمات المصريين . ربما كان يأمل بهذا التدبير أن يضم هذه البلاد الى ايران ، وأن يعرقل بذلك العلاقات بين مصر وآسيا الصغرىٰ .

ان المعارك بين القوات التي أرسلها الايلخان وبين قوات المماليك لم تكن عنيفة ، وأن رفض الملك الناصر في سنة ١٣٢٢ ميلادية لاقتراح ازبك حاكم قبجاق للقيام بهجوم مشترك ضد ايران دليل على ان العلاقات بين المغول والمماليك كانت سلمية لفترة قصيرة من الزمن .

وقد انقضت الأعوام التالية بهدوء واستقرار . وفي بداية سنة ٧٢٤ هجرية توفي احد الوزراء المغول في ايران ميتة طبيعية لأول مرة . وكان ابو سعيد قد ذهب لزيارة تاج الدين علي شاه قبل وفاته . وقد خلفه في منصبه اثنان من ابنائه ، اما الابن الاكبر وهو عناية الدين محمد فلم يكن ناجحاً في أعمال الوزارة ، فخلفه ركن الدين صائن (الملقب بالناصر أو نصرة الدين العادل) في الوزارة . وإن الابنية التي أمر هذا الوزير بانشائها ، قد زادت من شهرته

وفي سنة ١٣٢٥ ميلادية ، تم احباط الهجوم الذي قام به ازبك .

لقد تم تبديل الوزير بهدوء، الا ان الفوضىٰ عمت جميع أنحاء بلاد الايلخان بسبب جوبان . وقد بدأ الخلاف عندما أراد أبو سعيد أن يتزوج ابنة جوبان وهي بغداد خاتون التي كانت زوجة الأمير حسن بن حسين بن اقبغا . فصعب الأمر على جوبان . وان المحادثات المتتالية مع ابي سعيد وآخرها كانت عند الصيد ، لم تثمر الى نتيجة .

لم يتمكن أعداء جوبان من تحقيق أي انتصار حتى ذلك الحين للقضاء عليه ، وقد انتهزوا فرصة الخلاف بين الايلخان وجوبان لتحريض وإثارة الايلخان ضد جوبان ، فمثلاً اتهموه بجمع المال بالأساليب غير الشرعية وضبط اموال الآخرين ، كما احتجوا عليه بانه سلم المناصب الحكومية لاقاربه . ومن أجل ان تهدأ الأوضاع فقد طلب جوبان من أبي سعيد أن يسمح له بالهجوم على خراسان وأخذ معه في هذا الهجوم الكثيرين من أمراء الجيش المعارضين له لكي لا يدسوا عليه في البلاط وليكونوا تحت مراقبته مباشرة . وتقدمت جيوش المغول حتى هرات . وهناك سمع جوبان ان ترمه شيرين حاكم ما وراء النهر يعتزم الهجوم على خراسان . وكان من المقرر ان تشارك في هذا الهجوم احدىٰ وحدات جيش حاكم قبجاق . فتمكن الابن الأكبر لجوبان ان يهزم العدو سنة ٧٢٦ هجرية ، ثم عاد الى هرات .

لم يقع أي حادث سوء حتى هذا التاريخ ليعرقل موقف جوبان . الا أن أحد ابناء جوبان ويدعىٰ دمشق خواجه قد سبب تأزم والده . حيث أقام هذا الابن علاقات غرامية مع احدى عشيقات أبو سعيد وهي تقتاي خاتون وكان يدخل الى حرم السلطان مراراً فذات يوم وصل الخبر الى ابي سعيد ان دمشق خواجه موجود في حرمه . ولما كانت علاقات الايلخان مع دمشق خواجه غير مرضية بسبب انانية دمشق خواجه ، فقد أمر بقتله ، وبالرغم من مقاومة دمشق خواجه الا أنهم قتلوه في ٢٤ رمضان سنة ٧٢٧ هجرية . كما صدرت الأوامر بقتل جميع أفراد عائلة جوبان ، كما تم ارسال الجيوش الى آسيا الصغرىٰ للقضاء على تيمورتاش وأخيه محمود . وقد اجتمعت وحدات الجيش الأخرى بالقرب من قزوين .

ان موت دمشق خواجه كان السبب في سقوط ناصر الدين العادل وزير ابي سعيد، الذي لم يكن لـه اي تدخل في هذا الحادث، فتسلم الوزارة غياث الدين محمد رشيد أحد ابناء رشيد الدين المقتول وقد عمل في الأشهر الثمانية الاولى مع علاء الدين محمد في ادارة شؤون الديوان .

وفي هذا الوقت وصلت الانباء الى جوبان عن أحداث خراسان ، فأكد عليه قادة الجيش باتخاذ الاجراءات اللازمة .وتشاور جوبان مع ابنه وأقربائه ، فأكدّ البعض منهم عليه بالهروب . فيما كان البعض الآخر يأمل أن تصل اليه النجدة من ما وراء النهر لمحاربة ابي سعيد ، كما جرت بعض المحاولات لاقامة العلاقات مع قاآن . وقرر جوبان أن يذهب بنفسه الى آسيا الصغرىٰ وكان يأمل ان يتلقى المساعدة من ابنه تيمورتاش وسلطان مصر الذي كان قد اوفد اليه رسولاً . وفي الطريق طلب من الشيخ ركن الدين السمناني ان يتوسط له لدى الايلخان ، الا أن هذه الوساطة لم تثمر أية نتيجة وبالرغم من أن أمراء الجيش في مشهد كانوا قد أقسموا بالاخلاص الى جوبان الا أنهم تركوه لوحده وذهبوا الى معسكر أبا سعيد ورحب بهم خير ترحيب .

أدرك جوبان بأنه لا يتمكن من أن ينتصر على جيوش الايلخان ، وقرر في البداية أن يذهب الى تركستان ، الا أنه ذهب الى هرات ، في حين كان ابنه حسن قد توجه الى خوارزم . وكانوا قد حذروا جوبان من دسائس غياث الدين كرت ملك هرات وأكدوا عليه بالذهاب إما الى الهند أو الصين أو آسيا الصغرىٰ، الا أنه ذهب الى هرات ورحب به ملك هرات في البداية ، ثم سجنه بأمر من أبي سعيد . وقد وافق غياث الدين على قتل جوبان ، ولما سمع جوبان بالعزم على قتله ،أغمي عليه، ولكنهم ضربوا عنقه قبل شهر المحرم سنة ٧٢٨ هجرية . وبعد أن نفذ غياث الدين أمر الايلخان توجه بسرعة الى بلاط ابي سعيد .

وكان مصير عدد من ابناء جوبان التسعة، كمصير والدهم حيث قُتل ابنه الأكبر وهو حسن في حرب اطراف خوارزم . ولجأ تيمورتاش في آسيا الصغرىٰ الى أحد القلاع وجرت بينه وبين سلطان مصر بعض المحادثات ، وأعلن سلطان مصر في النهاية استعداده لقبول تيمورتاش. وهكذا تمكن تيمورتاش من أن يلتحق ببلاط سلطان المماليك ، الا انه بسبب سخائه الكثير أثار غضب الملك الناصر ولما كان سلطان مصر يعتقد أن تيمورتاش يحاول أن ينافسه ، ألقىٰ به في السجن . وقتل بأمر من ابي سعيد في شوال سنة ٧٢٨ هجرية . ويقال انه تم تسليم رأس تيمورتاش الى تيموربغاي مبعوث الايلخان الى بلاط سلطان مصر. (في نهاية سنة ٧٢٨ هجرية) . اما محمود فقد اعتقله أصحابه وجاؤوا به الى تبريز وقتلوه هناك .

وفي كرجستان فبعد جورج السادس في سنة ١٣١٨ ميلادية استولى جورج الخامس (١٣٤٦ - ١٣١٨) لوحده على السلطة واعطىٰ الاستقلال لبلاده . واضافة الى ذلك أعاد ولايتي ايمري وآنجاز اللتين كانتا في ايدي ابناء داود الرابع الى السلطة المركزية . وكانت كرجستان حتى سنة ٧٥١ هجرية تحت اشراف المغول من ناحية السياسة الخارجية فقط ، ويمكن مشاهدة آثار هذا الاشراف من المسكوكات الموجودة .

أما فتوحات تيمورتاش في آسيا الصغرىٰ فقد ذهبت الواحدة تلو الأخرى. وأما شرف الدين محمود اينجو الملقب بالطمطاح الذي كان يحكم اقليم فارس باسم الايلخان فقد اعلنها دولة مستقلة في سنة ١٣٢٥ ميلادية . وكانت حكومة الايلخانيين على وشك الانهيار ، وقد استغل ابو سعيد هلاك وزيره امير جوبان ، فتمكن من ان يرغم الأمير حسن على طلاق زوجته بغداد خاتون وتزوجها بعد انقضاء عدتها .

وبدأت الاضطرابات والفوضىٰ مرة اخرى. فقد أصبح نارين طغاي وهو من أقارب جوبان ـ وكان قد ابتعد عنه قبل وفاته ، حاكماً على خراسان ، ولكنه لم يكن راضياً عن منصبه الجديد حيث كان يأمل أن يحل محل جوبان بصفته اميراً للأمراء. وفي خراسان حصل خلاف بين نارين من جهة وبين غياث الدين كرت ملك هرات وابنه من جهة اخرى. كما تعرضت مدينة

نيشابور للنهب . فأراد نارين طغاي ان يفرض ارادته على الايلخان ، فأخبره بأن جيوش ما وراء النهر بدأت بالتآمر من جديد وطلب قوات جديدة لصد تلك الجيوش، الا أنه بعد وصول القوات الجديدة لم يتجرأ على التمرد، وعاد الى بلاط ابي سعيد وحاول ان يكسب مرة اخرى عطفه . حتى ان علي بادشاه خال ابي سعيد طلب الشفاعة له ، وأخيراً تمكن خواجه بفضل الخدمة التي أداها للايلخان وكسب شعبية عنده ، ان يحصل على أمر الاعتقال نارين طغاي ولكنه تمكن من الهروب على انه بعد أيام وقع في قبضة الامير لولو الذي كان يلاحقه . وكشف أحد أفراد حاشية نارين طغاي عن مكان اختفائه وذلك بعد أن اعتقلوه في ضواحي الري وهو يجمع الزاد لصاحبه . وقتل نارين طغاي في شوال سنة ٧٢٩ : كما ان الايلخان غضب من علي بادشاه بسبب شفاعته له كما غضب من تاش تيمور الذي كان قد أوفد الى خراسان .

لم يقع حادث مهم في السنوات الأخيرة من حكومة ابي سعيد . تلقىٰ ايناق مسافر التعليمات للوقوف بوجه اينجو في فارس: الا ان بعض امراء الجيش تماطلوا في هذا الأمر، ولذلك أُلقي بهم في السجن . كما سُجن حسن بن حسين الذي كان قد اتهم بعلاقاته مع بغداد خاتون ، ولكن بعد مدة ثبتت براءته فافرج عنه، وأرسل حاكماً على بعض المناطق في آسيا الصغرىٰ التي كانت تحت اشراف المغول .

وفي سنة ٧٣٦ هجرية شن ازبك حاكم قبجاق هجوماً جديداً على دربند، وتوفي ابو سعيد في الثالث عشر من ربيع الثاني سنة ٧٣٦ هجرية فجأة بينما كان في حرب مع ازبك . ويقال ان الايلخان كان يحب دلشاد خاتون ابنة اخ بغداد خاتون ، ولهذا السبب فان بغداد خاتون قتلته بالسم . وبعد وفاة ابي سعيد انهارت سلسلة حكومة احفاد هولاكو ، بل ان عصر حكومة المغول انتهى في ايران ايضاً.(١)

محمد بن اسماعيل بن الفضل الحسيني بن العلوي السيد ابو البركات المشهدي.

ترجم له السمعاني في التحبير ٢ / ٩٦ وقال من أهل المشهد الرضوي بسناباد من قرى نوقان طوس علوي مقدم فيما بين السادة العلوية من المعمرين سمع أبا محمد الحسن بن أحمد السمرقندي سمعت منه بالمشهد ومن جملة ما سمعت منه صحيفة علي بن موسى الرضا .

وكانت ولادته سنة سبع وخمسين وأربعمائة ـ توفي بقرية سناباد سلخ ذي الحجة سنة ٥٤١ .

محمد بن اسماعيل بن اميرك بن اسماعيل بن اميرك بن اسماعيل بن جعفر بن القاسم بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام.

السيد ابو المعالي العلوي الحسيني من أهل هراة ترجم له السمعاني في التحبير ٢ / ٩٠ رقم٦٩٧وقال : كان سيداً عالماً زاهداً سنياً : حسن السيرة متواضعاً كثير العبادة والرغبة الى الخير وهو سبط ابي الفتح نصر بن احمد الحنفي .

وكان مكثراً من الحديث سمع أبا اسماعيل عبد الله بن محمد الانصاري وأبا عطاء عبد الرحمان بن محمد الازدي الجوهري وأبا الفضل احمد بن عبيد الله المركب وأبا سهل نجيب بن ميمون الواسطي وغيرهم .

سمعت منه الكثير بهراة ووفاته بها في ذي القعدة سنة ٥٤٦ .

محمد بن جعفر بن محمد ا جعفر القصار الرازي.

المتوفي سنة ٤٤٦ .

ترجم له الشيخ منتجب الدين في تاريخ الري والحافظ بن حجر في لسان الميزان ٥ / ١٠٥ رقم ٣٥٢ فقال : ذكره ابن بابويه في تاريخ الري وقال: شيخ من مشاهير الشيعة سمع أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى الفقيه (الشيخ الصدوق) روى عنه ابو سعيد محمد بن أحمد الرازي وأخوه عبد الرحمان ومات سنة ٥٤٦ .

اقول : هذا التاريخ خطأ مطبعي والصحيح ما أثبتناه ، فان الذي يروى عن الشيخ الصدوق الذي توفي سنة ٣٨١ لا يعيش إلى بعد الخمسمائة.

مجد الدين ابو عبد الله محمد بن جعفر بن محمد بن معية العلوي الحسني.

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥ / ٢٢٥ رقم ٤٥٩ وقال : من البيت المعروف بالشرف والسيادة والأدب والجلالة والتقدم قرأت بخطه : قال بعض الخلفاء لزاهد: عظني فقال : لقد وعظك الله سبحانه احسن العظة فقال : ان الله يأمركم بالعدل والاحسان الى آخر الآية. اقول : اظنه ابن عم محمد بن الحسن بن محمد بن معية الديباجي الحلي وأخيه القاسم بن الحسن المترجمين في أعلام القرن السابع من طبقات شيخنا رحمه الله .

السيد محمد المحقق الشهير بالداماد ابن السيد جعفر.

ولد سنة ١٣٢٥ وتوفي سنة ١٣٨٨ في مدينة قم ودفن فيها هو من أسرة علمية.عرفت بالفضل والتقوى، وقد توفي والده قبل ولادته، كما توفيت امه وعمره ست سنوات .

بدأ دراسته في اردكان ، ثم انتقل الى يزد وتلمذ فيها على كل من السيد احمد المدرس والسيد يحيى الواعظ والسيد حسين باغ كه مي والسيد علي رضا الحائري فدرس عليهم الأدب العربي وشرح اللمعة والقوانين . وتابع دراسته على الشيخ غلام رضا اليزدي في الاصول . وبعد اقامة تسع سنوات في يزد انتقل سنة ١٣٤١ الى مدينة قم فدرس فيها على السيد علي الكاشاني المتوفى سنة ١٣٨٠ والسيد محمد تقي الخونساري المتوفى سنة ١٣٧١ والآغا ميرزا محمد الهمداني المتوفى سنة ١٣٦٥ والسيد محمد الحجة المتوفى سنة ١٣٧٢ وغيرهم .

وفي قم تزوج كريمة مؤسس الحوزة الشيخ عبد الكريم الحائري، فلذلك لقب بالداماد، اي : الصهر .

وقد درس عليه في قم كل من السيد مهدي الروحاني والشيخ ناصر مكارم والشيخ جواد الآملي والشيخ محمد المؤمن والسيد موسى الزنجاني وغيرهم .

تخلف بكل من ولده السيد علي الذي هو اليوم من مدرسي حوزة قم ، والسيد مصطفى من أفاضلها .

محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله المصري.

المتوفى سنة ٤٣١ .

ترجم له ابن حجر في لسان الميزان ٥ / ١٠٦ رقم ٣٥٦ قال : روى عن أبي الطاهر الذهلي وعبد الله بن أبي شعيب الحراني وابن حيوية .

روى عنه أبو اسحاق الحبال وأبو مسلم الأصبهاني وغيرهما وجده عبد الله كان قاضي مصر مالكي المذهب: يعرف بالعمار .

قال الحبال : كان محمد بن جعفر يرمى بالتشيع والغلو وكان لا يسمع هذا منه أصلاً توفي سنة ٤٣١ .

اقول وقال الذهبي في الميزان : يروي عن الحسن بن رشيق، رافضي جلد .

---

(١) بير تولد اشبولر

الشيخ محمد بن حبيب الله العزيزي الشهير بالسبزواري النجفي.

ولد سنة ١٣١٨ في قرية (فريوقد) من قرى سبزوار وتوفي سنة ١٤٠٩ في مدينة قم ودُفن داخل الحرم الشريف قرب الضريح .

درس القرآن والعلوم الأولية في قريته ثم تركها الى مشهد الامام الرضا (ع) وبدأ هناك الدراسة الأولية والسطوح في مدرسة خان في الصحن القديم للامام عليه السلام وهناك اتصل بالمرجع الشهير السيد حسين الطباطبائي القمي فكان من خلصائه وبعد اخراج السيد القمي من المشهد بسبب احتجاجه على ما أراده الشاه رضا بهلوي من خروج على الشريعة الاسلامية في بعض الأمور سافر المترجم له معه الى العراق حيث استقر السيد في مدينة كربلاء فتابع المترجم له الدراسة عنده . وفي مدينة كربلاء وبعد عودة السيد الى ايران تزوج المترجم له حفيدته ، ثم ترك مدينة كربلاء الى النجف الأشرف وتابع الدراسة على كبار علمائها كالشيخ حسين النائيني والسيد عبد الهادي الشيرازي وغيرهما وأُجيز منهما . وبقي في النجف ما يقارب الأربعين سنة يَدرس ويُدرِّس ، وكان مكان تدريسه في مدرسة الآخوند الكبرى فتخرج عليه العديد من الفضلاء الذين يشغلون اليوم المكانة الرفيعة سواءً في الأوساط العلمية أو القيادية . وفي سنة ١٣٨٠ اثر طغيان الحكم التكريتي هاجر من النجف الى مدينة قم وعاود فيها تدريس الفقه والأصول والتفسير وبنى مسجداً كبيراً في نهاية « شارع جهارمندان » وكان يصلي فيه ويلقي دروسه . وهو والد الحاج حامد عزيزي صاحب دار النشر الشهيرة

(دار التعارف) الذي له اليد الطولىٰ في طبع ونشر وتوزيع الكتب الاسلامية الشيعية والذي بفضل جهوده طبعت موسوعة (أعيان الشيعة) بحلتها الجديدة وكذلك الأمر بالنسبة لمستدركاتها وهو لا يزال يوالي ذلك فيما هو مخطوط من المستدركات.

للمترجم له من التآليف كتاب في تفسير القرآن باسم « الجديد في تفسير القرآن المجيد » ويقع في سبعة مجلدات ومختصر هذا التفسير في مجلد واحد ، بالاضافة الى عدة كتب خطية لم تطبع بعد.

ميرزا محمد حسين النيسابوري المشهور بنظيري:

من الشعراء المشهورين في ايران في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الهجريين.

يقول مير تقي الدين الكاشاني ان اصله من جوين ، وسواء صح ذلك أم لم يصح فانه نيسابوري . كان تاجراً وفي الوقت نفسه تعاطى العلم والأدب والشعر، سافر في تجارته الى العراق وآذربيجان ، ولجمعه بين التجارة والشعر والأدب كانت له منزلة خاصة عند العراقيين والأذربيجانيين ، كما يقول مير تقي الدين . وقد اتصل بالشعراء والأدباء في كلا البلدين ، مواصلاً تمرنه في الشعر عندهم ، وكان يقرأ غزلياته في المحافل الأدبية ومن هناك سافر الى الهند ، وفي اكره اتصل بميرزا عبد الرحيم خان خانان ومدحه بأول

قصيدة، ثم لازمه. ويظهر من بعض القرائن ان سفره كان سنة ٩٩٢ أو في ابتداء الذي كان يحب الأدب والشعر، وكان الشاعر يمدحه بشعره . ولما نوى السفر الى الحج أمَّن له خان خانان الزاد والراحلة ، ولكن سرق بعض أمواله في الطريق، فلجأ الى الأخ الرضاعي للملك جلال الدين اكبر، (الخان الأعظم ميرزا) الذي كان هو الآخر مسافراً للحج ومدحه بقصيدة ، فكان ما حصل عليه من الخان ساداً لحاجته في السفر.

وورد في بعض الكتب انه بعد رجوعه من الحج ذهب الى احمد آباد كجرات ، وتاجر هناك وأثرى من تجارته ، وكان بيته ملتقى الشعراء القادمين من كل مكان ، وكان يودّهم ويعطيهم ويمدحهم بأشعاره . كما كان يمدح الأمير مراد ابن الملك الذي كان مولّى على كجرات من قبل ابيه . وفي

الوقت نفسه لم يكن ينس خان خانان في قصائده .

وفي سنة ١٠١٤ تولى نور الدين جهانكير الملك بعد أبيه فطلبه الى قصره ومدحه الشاعر بقصيدة أشار اليها جهانكير في مذكراته ، قائلاً: « انه نظم قصيدته المشهورة بالفارسية ، واعطيته الف روبيّة وجواداً » ا هـ.

وفي سنة ١٠١٩ وهو لا يزال عند جهانكير مدحه بقصيدة أخرى وحصل منه على ثلاثة آلاف بيكه ، من الأراضي.

وهكذا عاش في كجرات تاجراً وشاعراً حتى وفاته . كما كان قد تعلم اللغة العربية والعلوم الدينية ، واللغة الهندية عند الشيخ غوثي المندوي مؤلف كتاب (كلزار البار) . وقد ذكره الشيخ المندوي في كتابه . كما أخذ الحديث والتفسير عن مولانا حسين جومري. وفي سنة ١٠٢٠ رجع الى أحمد آباد كجرات وبقي فيها حتى توفي سنة ١٠٢١ ودفن في محلة تاجيوره بأحمد آباد، وقبره فيها معروف حتى اليوم تعلوه قبه.

وقد ذكر بعضهم ان وفاته كانت سنة ١٠٢٢ أو ١٠٢٣ والصحيح في وفاته هو ما ذكرناه.

يعده عبد الباقي النهاوندي من الأمراء، وذلك : أولاً للحياة التي كان يحياها ، ولعقاراته وثروته التي حازها من أرباح تجارته ومما كان يصل اليه من جوائز على قصائده . ثانياً لاتصاله الدائم بالملك جلال الدين وخان خانان وميرزا اعظم.

وقد كان صلباً في تدينه ، وفي احدى قصائده التي مدح بها الأمير مراد واثنى عليه لايمانه ، هاجم بشدة الملحدين والذين لايعتنون بالدين . وهو في قصائده الاعتقادية يبدأ بحمد الله ثم يمدح النبي (ص) والأئمة (ع)، ثم يأخذ في هجو الملحدين.

كان كريم النفس، صاحب عطايا . بنى قصراً ملوكياً في احمد آباد كجرات جعله دار ضيافة للشعراء والعلماء والأدباء والفضلاء. وكان يعيش عيشة الملوك وكبار الناس. وكان ينفق ما يجنيه من التجارة والهدايا على الأحباب والفقراء. ويصفه بعض الكاتبين بأنه كان أباً وأماً للمنقطعين والفقراء ، وانهم كانوا ينتفعون به اعظم النفع.

وفي اواخر حياته آثر العزلة والانزواء عن الناس.

طبع في الهند وايران ديوانه الذي قدمه الى خان خانان ، وهو يحوي الغزل ومدائح النبي والأئمة ووحي المناسبات ووصف الشعراء والأحباب والملوك . وقد قال أحد مؤرخي الأدب الفارسي عن شاعريته: « انه شاعر رقيق البيان ، دقيق الوصف ، جميل الغزل ، لطيف الكلام ، مع فكر فلسفي عرفاني . كان من اكابر شعراء زمانه انه ليس كسعدي وحافظ، ولكن بعض غزلياته العرفانية الصوفية لا تقل لطفاً وجمالاً وابداعاً عن اشعارهما.

ومن الطرائف في حياة المترجم ان شاعراً معاصراً له يلقب بنظيري نفس اللقب الذي يلقب به هو ، وكان يقال احياناً : نظيري مشهدي، وسافر المشهدي سنة ١٠٠٣ من مشهد الى مكة ومنها الى الهند ووصل الى مدينة بيجابور واتصل بعادل شاه ابراهيم الثاني (٩٨٧ ـ ١٠٣٥) من سلالة العادل شاهية في الدكن ، وأصبح من جملة كتابه ، وكان لا يعرف إلَّا بنظيري، فطلب اليه المترجم ان يغير لقبه ، فوافق على ذلك وحذف الياء من لقبه فصار لقبه (نظير) فدفع له المترجم لقاء ذلك عشرة آلاف روبية. ويبدو أن الحرف (ي) يعادل في حساب الجمل رقم (١٠) ولذلك جعل المبلغ عشرة آلاف.

وصاحبنا نظيري المشهدي (نظير) هو شاعر الغزل . على ان هناك من توهم بان (نظير) هذا هو نظيري الذي عاش في القرن التاسع ، ولم ينتبه الى الفارق الزمني بين الشاعرين[1]

(١) تاريخ أدبيات ايران.

مجد الدين ابو عبد الله محمد بن الحسن بن احمد بن ابي القاسم الحسيني النقيب .

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٢٢٦ رقم ٤٦٢ ولم يزد على أن أورد شيئاً من نص تقليده : (وجعلنا اليه النظر في المشاهد وفسحنا له الذب في الملتجى اليها . . .) .

فيظهر انه كان نقيب المشاهد بالنجف وكربلا .

محمد بن الحسن بن محمد بن مهدي بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليهم السلام .

السيد ابو الفضل العلوي الحسني ترجم له السمعاني في التحبير ٢/١٠٨ وقال : اظنه من أهل اليمن لقيته بأصبهان في سنة ٥٣١ وكتبت عنه قطاعاً من الشعر .

مجد الدين ابو عبد الله محمد بن عز الدين الحسين بن محمد بن عز الشرف ابي الفضل علي بن ابي البركات احمد بن ابي الفضل علي بن ابي تغلب علي بن الحسن الأصم بن ابي محمد الحسن الفارس بن يحيى بن ابي عبد الله الحسين بن احمد العلوي السوراوي .

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٢٣٠ رقم ٤٧٢ ووصفه بالفقيه وقال وقرأت بخطه :

وما زال مغرى بالمكارم والعلى
يرى المجد اعلى من وصال الكواعب
اذا ما سطا قوم لنفع نفوسهم
سعى لسواه في بلوغ المطالب
يدل على معروفه جود كفه
كما دلت السارين زهر الكواكب
اقر له بالفضل بادر حاضر
وأثنى عليه كل ماش وراكب

محمد بن الحسن القمي .

من اعلام القرن السابع أو ما بعده ، له كتاب العقد النضيد والدر الفريد في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام محذوفة الأسانيد ، رأيته عند زميلنا السيد محمد علي الروضاتي الأصفهاني والنسخة من نسخ القرن التاسع ناقصة الآخر صرح المؤلف باسمه في أوله ولم يزد على ما ذكرنا ينقل فيه عن كتب الفتال ومناقب الخوارزمي وأمثالهما ولم نر النقل فيه عن ما بعد القرن السادس .

محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن احمد بن ابراهيم الخزاعي الأنماطي الكوفي الوكيل المعروف بابن داود ٤٠٠ - ٤٧٢ .

ترجم له ابن حجر في لسان الميزان ٥/١٣٥ قال : سمع أبا عبد الله الجعفي : وأبا الطيب القسملي وغيرهما وحدث ببغداد وسمع منه ابو القاسم ابن السمرقندي .

قال السقطي سألته عن مولده فقال سنة أربعمائة وقال ابن خيرون : توفي في شوال سنة ٤٧٢ وكان فيه بعض الشيء وتبين انه حدث بشيء من مناقب الصحابة ولم أسمع منه كان رافضياً .

ذكره ابن السمعاني وقال : كان كوفياً حسن النادرة الا أنه كان سيء المعتقد رافضياً كاشفاً بالطعن على السلف الصالح .

وذكره ابن النجار في الذيل .

مجير الدين ابو عبد الله محمد بن الحسن بن ابي القاسم محمد بن الأكرم بن فضل الله بن ابي الحسن الزاهد بن علي القصير بن ابي القاسم الحسين بن ابي علي الحسن ـ بامل ـ بن احمد بن جعفر بن الأمير احمد العقيقي[1] بن جعفر صحصح بن عبد الله ابي بكر بن الامام الحسين الأصغر ابي عبد الله بن علي زين العابدين [بن] الحسين بن علي بن ابي طالب العبدلي العلوي البزاز المقري .

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٣٠٥ رقم ٦٣٨ وقال :

روى لنا عنه شيخنا جمال الدين احمد بن مهنا العبيدلي وقال : كان شيخاً حسناً كثير المحفوظ متودداً عالماً ، أنشدني عنه :

مفرد في الزمان ليس يدانيه
من الناس مشبه أو نظير
ان يواجه فطود علم ركين
أو يفاوض فبحر علم غزير

المنتجب ابو عبد الله محمد بن الحسن بن مسعود بن احمد الموصلي ثم البغدادي الشاعر .

المتوفى سنة ٦٤٢ . هكذا ترجمه ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٧٨١ رقم ١٧٤٨ وقال :

ذكره شيخنا تاج الدين أبو طالب في تاريخه وقال : كان شيخاً فاضلاً عنده أدب وحكمة وكتابة حسنة يقول شعراً جيداً ، وكان منقطعاً عن الناس غالباً في التشيّع ومن شعره :

للصبر عاقبة ترتجى وتنتظر
فربما بالتأني يُدرلك الظفر
لا يبلغ المجد خوار اخو جزع
ولا ينال الأماني من به ضجر

وله أشعار كثيرة وكانت وفاته في تاسع عشر شهر ربيع الأول سنة ٦٤٢ ودفن بالمشهد الكاظمي .

محيي الدين ابو طاهر محمد بن كمال الدين ابي الفتوح حيدر بن محمد ابن زيد الحسني الموصلي النقيب .

المتوفي سنة ٦٤١ ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٤٠٦ رقم ٨٣٨ وقال :

من بيت معروف بالنقابة والتقدم والعلم والفضل والأدب ، أنشد له شيخنا تاج الدين أبو طالب [ابن الساعي] في كتابه :

تحية مهجور الى خير هاجر
تهيجه الذكرى الى غير ذاكر
على انه لو شق قلبي وجدته
به ماثلاً أو في ضميري وخاطري
وكيف ارى السلوان عمن اعزني
بانعامه الفياض عزة قادر
له من ثنائي ما استطيب سماعه
ومن مدحتي ما حبرته خواطري
ومن دعواتي المستجابة في الدجى
وما باطني والله الا كظاهري

ومولده سنة احدى وسبعين وخمسمائة وتوفي سلخ جمادى الأولى سنة ٦٤١ .

---

(١) قال المعلق هنا : الصحيح المنقدي والعقيقي اخوه محمد .

محمد بن محمد بن طرخان الفارابي .

مرت ترجمته في مكانها وننشر هنا عنه هذه الدراسة المكتوبة بقلم الدكتور عثمان امين .

الفيلسوف ابو نصر الفارابي هو محمد بن محمد بن طرخان ، سمي بالفارابي نسبة الى الجهة التي ولد بها ، وهي ولاية « فاراب » من بلاد الترك فيما وراء النهر . فهو اذن تركي المولد، وان يكن بعض أصحاب التراجم قد ذكر أن أباه كان قائداً ، وأنه فارسي الأصل . ومهما يكن الأمر فالفارابي ، بجملة ثقافته ، ومؤلفاته ، فيلسوف عربي ، بل لقد قال أحد المستشرقين أن الفارابي هو « مؤسس الفلسفة العربية ». ومن قبلُ رأى كثيرون من مؤلفي العرب انه أكبر فلاسفة المسلمين ، وقال فيه ابن سبعين[1]: « هذا الرجل أفهم فلاسفة الاسلام ، وأذكرهم للعلوم القديمة ، وهو فيلسوف فيها لا غير ، ومات وهو مدرك محقق . . ». وقال ابن خلكان : « ولم يكن فيهم (أي فلاسفة الاسلام) من بلغ رتبته في فنونه ، والرئيس ابن سينا بكتبه تخرج ، وبكلامه انتفع في تصانيفه ». وقال بعض المستشرقين : « وليس شيء مما يوجد في فلسفة ابن سينا وابن رشد الا وبذوره موجودة عند الفارابي». وقد كان كتاب العرب يعدون الفارابي أكبر العلماء بعد أرسطو. ولما كانوا يطلقون على أرسطو « المعلم الأول »، فقد أطلقوا على الفارابي « المعلم الثاني ».

وفاته عند سيف الدولة

وقد كان الفارابي مولعاً بالأسفار منذ صغره تنقل في بلاد الاسلام حتى دخل العراق ، وأقام ببغداد فتلقى طرفاً من علوم الفلسفة، وكان من زملائه في التلمذة أبو بشر بنُ يونس النصراني، المشهور بترجمته للكتب اليونانية . وبعد أن أقام الفارابي زماناً في بغداد، ارتحل عنها الى حلب، واتصل بالأمير الحمداني سيف الدولة، ونال الحظوة عنده وتزيًا بزي أهل التصوف، ثم صحب الأمير الى دمشق في حملته عليها ووافته منيته بدمشق، وقد ناهز الثمانين من عمره.

بدأ حياته متفلسفاً، وختمها متصوفاً

وأظهر ما يستوقفنا في حياة الفارابي أنه كان رجلاً يميل الى التأمل والنظر، ويؤثر العزلة والهدوء، بدأ شبابه متفلسفاً، وقضى كهولته متفنناً، وختم حياته متصوفاً. ذكروا أنه كان لا يوجد غالباً الا في مجتمع ماء أو مشتبك رياض، ويؤلف كتبه هناك . والحق لقد كانت حياته الفكرية خصبة جداً : ألف كتباً كثيرة ضاع أكثرها . على أنه اشتهر بين العرب بشروحه على فلسفة أرسطو . ولكن همة الفارابي لم تقف عند الشروح . فقد ألف طائفة من الرسائل أوضح فيها فلسفته الخاصة ، « كفصوص الحكم »، و « احصاء العلوم »، و « الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو»، و « آراء أهل المدينة الفاضلة » و « تحصيل السعادة » وغيرها .

علمه بالموسيقى

وقد كانت للفارابي معرفة بالطب ، وكانت له مواهب بارزة في الموسيقى علماً وفناً : وقد كتب أشهر رسالة في نظرية الموسيقى الشرقية ، ويذكرون من براعته في هذا الفن انه صنع آلة موسيقية شبيهة بالقانون ، عزف عليها مرة فأضحك الحاضرين ، وعزف مرة ثانية ، فأبكاهم ، وعزف مرة ثالثة فأنامهم ، ثم انصرف . . . . ولقد أعجب سيف الدولة بمواهب الفارابي ، وما زال الدراويش « المولوية » يحتفظون في أغانيهم . ببعض الأنغام المنسوبة الى ذلك الفيلسوف الفنان .

فلسفته :

التوفيق بين أفلاطون وأرسطو

كان الفارابي يرى الفلسفة اليونانية رأياً يبدو لنا اليوم عجيباً ، كان يراها فلسفة واحدة في صميمها ، لا اختلاف بين مذاهبها وقضاياها . ولما كان أفلاطون وأرسطو في نظره الامامين الممثلين للفلسفة اليونانية ، فمذهباهما عنده مذهب واحد على الحقيقة . وان كانت هنالك مسائل كثيرة يظهر الخلاف فيها بين الفيلسوفين اليونانيين ، فالفارابي لا يعده خلافاً جوهرياً ما دام الإتفاق واقعاً على الأصول والمقاصد .

وإنما يسلِّم الفارابي باختلاف أفلاطون وأرسطو في أمرين : في منهجهما التعليمي ، وفي سلوكهما العملي .

أما من حيث المنهج ، فالفارابي يلاحظ أن أفلاطون لم يدون كتبه إلا أخيراً ، وأنه عمد الى الرموز والإشارات صوناً للحكمة ، وضنا بها على من لم يكن من اهلها، في حين أن أرسطو جرى على منهج التقرير والتدوين والايضاح والتبيين .

وأما من حيث السلوك العملي، فأفلاطون في نظره رجل تزهد وتخلٍّ عن الدنيا وشواغلها ، في حين أن أرسطو رجل أقبل على الدنيا والتمس أسبابها وخيراتها .

وقد يعجب القارىء العصري للفارابي كيف تورط في نظريته تلك فخلط بين مذهبين متعارضين متميزين ، كالمذهب الأفلاطوني والمذهب الأرسطي ، واحدهما مذهب « مثالي » ممعن في المثالية ، والثاني مذهب « واقعي » يريد أن يخفف من غلواء المثالية الأفلاطونية ! فمن المعلوم أن أفلاطون قد رأى انه لا وجود للأفراد والأشخاص والمحسوسات ، لأنها متغيرة ، وإنما الموجود حقيقة هو « المثال » أي المعنى الكلي العام ، المجرد من المشخصات الحسية . فالمعنى الكلي للانسان ، أو « مثال » الانسان هو « الماهية » الثابتة للناس على اختلافهم . وبهذه المثالية أقام أفلاطون المذهب المثالي المشهور . أما أرسطو فرأى خلافاً لأستاذه أن الموجود ليس هو المعنى الكلي المجرد الذي يشترك فيه أفراد كثيرة ، وإنما الموجود عنده هو الأفراد المحسوسة نفسها : فمثلاً سقراط هو سقراط ، لا بما يشترك فيه مع جميع الناس ، بل بما يخصه ويميزه ممن عداه من الناس . ولذلك كان أرسطو في فلسفته أقرب الى « الواقع » المحسوس وألصق بعالم الشهادة ، في حين أن أفلاطون كان كثير التحليق في « عالم المُثُل ».

وهذا ما فات الفارابي أن يراه من تعارض بين مذهبي الفيلسوفين اليونانيين : ولكن يبطل العجبُ اذا عُلم السبب . والسبب بسيط ، وهو أن الفارابي ـ في محاولته التوفيق بين رأيي الفيلسوفين ـ أخذ يستشهد بكتاب مشهور آنذاك على أنه لأرسطو، وهو الكتاب المعروف باسم « اثولوجيا أرسطو طاليس »، وظن أن هذا الكتاب لأرسطو حقيقة ، ولم يخطر بباله ـ كما لم يخطر ببال أحد من مفكري ذلك العصر ـ ان نسبة الكتاب لأرسطو خطأ ، وإنما هو شذرات من كتاب « التاسوعات » للفيلسوف الاسكندراني « أفلوطين » شيخ المذهب المسمى بالافلاطونية الجديدة .

---

(١) هو ابن سبعين الاشبيلي، فيلسوف عربي وصاحب طريقة صوفية واشتهر بأجوبته التي ردّ على الأسئلة التي وجهها فريدريك الثاني الى علماء سبتة .

التوفيق بين
الفلسفة اليونانية والاسلام

وأعجب من هذا أن نجد الفيلسوف العربي ، بعد أن حاول أن يثبت اتفاق أفلاطون وأرسطو ، باعتبارهما ممثلين للفلسفة القديمة ، يحاول محاولة جديدة ، وهي أن يثبت أن لا خلاف بين الفلسفة اليونانية من جهة وبين عقائد الشريعة الاسلامية من جهة أخرى .

وتعليل ذلك يسير أيضاً : فالفارابي كان فيلسوفاً ومسلماً في آن واحد، أعني أنه كان موقناً بجلال الفلسفة من جهة وكمال الاسلام من جهة أخرى. فالفلسفة والدين عنده أمران متفقان . لأن كلاً منهما حق ، والحق لا يخالف الحق . وأن شئنا قلنا : الفلسفة والدين يعبران عن حقيقة واحدة من وجهين مختلفين ، وكل ما في الأمر أن الفلسفة في سعيها للوصول الى الحقيقة تستعمل وسائل غير الوسائل التي يعمد اليها الدين . ففي حين أن الدين يلجأ الى طرق التخييل والاقناع النفسي، تلجأ الفلسفة الى المعقولات والبرهان المنطقي، وبينا الفلسفة بطبيعتها تتجه الى « الخاصة » أو الى « أصحاب الأذهان الصافية » - كما يقول الفارابي نفسه - نجد الدين إنما يتجه الى « الكافة » والى الجمهور على حسب ما يطيقون .

الفيلسوف الكامل

والآن ما معنى الفلسفة عند الفارابي ؟

يرى الفارابي أن الفلسفة ليست علماً جزئياً ، كعلوم الرياضة والطبيعة والطب وما شاكلها ، وإنما هي علم « كلي » يرسم لنا صورة شاملة للكون في مجموعه . وهذا ما قال به فلاسفة اليونان من قبل . ولكن الفارابي يزيد على فلاسفة اليونان رأياً طريفاً ، فيقول : « ان الفيلسوف الكامل » هو الذي يحصّل هذا العلم الكلي، ويكون له في الوقت نفسه قدرة على استعماله ، يعني أنه هو ذلك « الذي يحصّل الفضائل النظرية أولاً ، ثم الفضائل العملية ببصيرة يقينية » . أما الفيلسوف « الزور » أو « الباطل » فهو ذلك « الذي يشرع في أن يتعلم العلوم من غير أن يكون موطّناً نحوها » .

ذلك أن الفارابي يرى أن للشروع في النظر الفلسفي شروطاً ينبغي توافرها ، وهي في جملتها عبارة عن محبة الصدق والعدل والخير ، وتصفية النفس من شوائب المادة وشواغل الحواس : فان الذي سبيله أن يَشْرع في النظر الفلسفي « ينبغي أن يكون له بالفطرة استعداد للعلوم النظرية ، وهي الشرائط التي ذكرها أفلاطون في كتابه في السياسة (يقصد كتاب « الجمهورية »): وهي أن يكون جيد الفهم والتصور، ثم أن يكون بالطبع محباً للصدق وأهله والعدل وأهله ، غير جموح ولا لجوج فيما يهواه ، وأن يكون غير شَرِهٍ على المأكول والمشروب . . ، تهون عليه بالطبع الشهوات والدرهم والدينار وما جانس ذلك ، وأن يكون كبير النفس عما يَشين عند الناس، وأن يكون ورعاً، سهل الانقياد للخير والعدل، عَسِر الانقياد للشر والجور ، وأن يكون قوي العزيمة على الصواب » . ثم بعد ذلك يكون « قد ربي على نواميس وعلى عادات تشاكل ما فُطر عليه ، وأن يكون صحيح الاعتقاد لآراء الملة التي نشأ عليها ، متمسكاً ، بالأفعال الفاضلة التي في ملته ، غير مخل بكلها أو بمعظمها . . » .

والفيلسوف الباطل هو ذلك الذي « يتعلم العلوم النظرية ولم يزوَّد ولم يعوَّد الأفعال الفاضلة بحسب ملة ما ، ولا الأفعال الجميلة التي هي في المشهور جميلة »، بل « كان تابعاً هواه وشهواته في كل شيء » . ورجل كهذا ، لم يشعر بالغرض الذي التُمست له الفلسفة . . ، فحصل على الفلسفة النظرية أو على أجزاء من النظرية فقط ، وظن هذا كافياً ، بل لعله ظن أن الغرض مما حصّل منها أن ينال بعض ما يظنه عامة الناس سعادات وخيرات ، فأقام علمها طلباً لذلك ، وطمعاً في أن ينال بعض ذلك الغرض » .

وعندنا أن هذه الحدود والتعريفات تبين - لأول مرة في تاريخ الفكر الفلسفي العربي - أن للفلسفة الصحيحة مهمة « جوانية » على الأصالة ، اذ توحد بين « البصر » و « البصيرة »، وتؤلف بين النظر والعمل ، حين تجعل الفعل منبثقاً من الفكر انبثاقاً عفوياً طبيعياً لا قسر فيه ولا أعنات . وتذكرنا هذه الأفكار الفارابية العميقة بأفكار شبيهة بها سيوردها الفيلسوف اليهودي « اسبينوزا Spinoza الذي عاش في القرن السابع عشر، وتأثر بآراء الفارابي تأثراً لا نزاع فيه بشهادة الباحثين الغربيين أنفسهم .

ولعل الفارابي، بين فلاسفة الاسلام القدماء، هو الفيلسوف الحق بالمعنى الذي بيَّنه هو نفسه في كتبه ورسائله : فقد عرفنا من سيرته أنه أراد أن يحيا على وفاق مع المبادىء التي وضعها في مذهبه ، وحاول أن يكون فيلسوفاً في سره وعلانيته ، في جوانية وبرانية ، وفي فكره وسلوكه . وواضح من تأملات الفارابي أن للفلسفة أهلها « الموطئين » نحوها ، أي المستعدين لها . وليس كل حافظ للعلوم فيلسوفاً ، ومن اشتغل بالفلسفة طمعاً في جاه أو رياسة أو مال ، فهو « براني » دخيل عليها ، وليس من أهلها على الحقيقة ، وإنما هو - على قول الفارابي - فيلسوف « زور » و « بُهْرُج » و « باطل »، وخليق به أن يُنبَذ من زمرة « الخاصة » المصطفين ، وأن يُسلَك في عِداد الدجالين المهرجين . .

المدينة الفاضلة أو الدولة المثالية

وفيما أجملنا من فلسفة الفارابي ما يظهرنا على مبلغ عنايته بالأخلاق والحياة الفاضلة . ولكن الفيلسوف العربي كان معنياً بالسياسة أيضاً : كان يحلم بتنظيم العالم تنظيماً شاملاً يجعل منه دولة مثالية ، على غرار جمهورية أفلاطون ، أو « مدينة » صالحة عاقلة ، تكون رياسة الحكم فيها لفيلسوف قد صفت نفسه حتى كاد أن يكون نبياً .

والمدينة الفاضلة التي ينشدها الفيلسوف العربي هي نموذج لمجتمع انساني « متمدن راق ، يؤدي كل فرد فيه وظيفته الخاصة التي تلائم كفاياته واستعداده . وأفراد المجتمع - كأعضاء البدن - متضامنون متعاونون على الأشياء التي تُنال بها السعادة الحقيقية والخير الأفضل والكمال الأقصى . وهم جميعاً يخضعون لرئيس المدينة ويتشبهون به ، لأن ذلك الرئيس قد أوتي من الخصال الرفيعة ما يصعب تحققه في عامة الناس ، فهو سليم البنية ، جيد الذهن ، ثاقب الذكاء ، حاضر البديهة ، ماضي العزيمة ، حصيف صادق ، عادل نزيه ، متجرد من المادة ، مؤثر للذائذ الروحية . ويقرر الفارابي أن « رئيس المدينة الفاضلة ليس يمكن أن يكون أي انسان اتفق ، لأن الرياسة انما تكون بشيئين : احدهما أن يكون بالفطرة والطبع مُعَدّاً لها ، والثاني بالهيئة والملكة والارادة . فهذا هو الرئيس الذي لا يرأسه انسان آخر أصلاً ، وهو الامام ، وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة ، وهو رئيس الأمة الفاضلة ، ورئيس المعمورة من الأرض كلها » .

وتذكرنا الخصال التي يتحلى بها رئيس المدينة الفارابية بصفات الفيلسوف الأفلاطوني في « الجمهورية »، وتذكرنا كذلك ، في صورة أوضح ، بالصفات التي أضفاها الرواقيون على «الحكيم » الذي جعلوه حائزاً جميع الفضائل . وكما كان « الحكيم » الرواقي شخصاً يعسر تحققه على الأرض ، فرئيس المدينة الفاضلة ، عند الفارابي ، شخص يعسر وجوده كذلك . ولكن الفارابي يضيف الى خصال الرئيس التي ذكرناها خصلة

أخرى نادرة : وهي قدرته على الاتصال بما يسميه الفلاسفة « العقل الفعّال » الذي هو أعلى منزلة من العقل الانساني الذي « ينفعل » به ويستفيد منه . فلا جرم أن تكون غاية العقل الانساني وسعادته في أن يتصل بالعقل الفعال، وبهذا الاتصال يقترب الانسان من الله . وليس انسان قادراً على هذا الاتصال بالعقل الفعال وإنما يستطيعه القليلون من أهل الصفاء لم يشغلهم عالم المادة عن عالم الروح ، الى اختراق الأرض، وتطلعوا الى اجتلاء السماء.

وأهل الصفاء عند الفارابي فريقان : (الفلاسفة وفريق الأنبياء . وكل من الفريقين يستطيع ، على طريقته الخاصة : ان يجتلي الأنوار، حين يتصل بالعقل الفعال: فما يستطيعه الفيلسوف بالنظر العقلي والتأمل الميتافيزيقي « المجاوز للمادة » يستطيعه النبي بمخيلة ممتازة وقوة قدسية أودعها الله فيه .

واذن فالفيلسوف والنبي، فيما يرى الفارابي هما أجدر الناس بتولي رياسة المدينة الفاضلة لأنهما ينهلان من منهل واحد رفيع ، ويرميان الى غاية واحدة سامية ، لأن كليهما ، بمواده الخاصة واستعداده لتلقي الأسرار الألهية ، يستطيع الاتصال بالعقل الفعال ، الذي هو منبع الوحي والالهامات السماوية ، ومصدر الشرائع والنواميس الضرورية لسير الجماعات البشرية . والفلسفة والوحي كلاهما ثمرة من ثمرات الوجود الالهي يفيضها الله على من يشاء من عباده الصالحين .

السعادة العليا أو الخير الأسمى

على أن الفارابي يريد أن لا ينسى أن المدينة الأرضية ، مهما يكن كمالها ، ليست غايتها في نفسها ، وإنما هي تدرُّج في السعي للوصول الى السعادة العليا التي هي الخير الأسمى الذي يمكن أن تناله النفوس الزكية في العالم الآخر . « والسعادة هي أن تصير نفس الانسان من الكمال في الوجود بحيث لا تحتاج في قوامها الى المادة ، وذلك أن تصير في جملة الأشياء البريئة عن الأجسام ، وفي جملة الجواهر المفارقة للمواد، وأن تبقى تلك الحال دائماً . . ».

فالنفوس الخيرة العارفة هي التي تبقى وتدخل العالم العقلي، وكلما زادت درجتها في المعرفة والفضيلة في هذه الحياة ، علا مقامها بعد الموت ، وزاد حظها من السعادة في الحياة الأخرى. وكلما كثرت الأنفس المتشابهة ، « المفارقة » للمادة ، واتصل بعضها ببعض، كما يتصل معقول بمعقول ، زاد التذاذ اللاحقين بالماضي ، « وزادت لذات الماضين باتصال اللاحقين بهم ». لأن كل نفس تعقل ذاتها ، وتعقل النفوس الأخرى المشابهة لها ، وكلما زاد تعقلها زادت لذائذها . وتكون تلك حال كل طائفة مضت وكل طائفة لحقت على مدى الزمان الى غير نهاية .

والظاهر من هذه النظرية في السعادة أن الفارابي أراد أن يقول انه حين الخروج من هذه الدنيا ، تذهب النفوس أفواجاً لتلتقي بمواكب الراحلين السابقين ، وتتحد بها اتحاداً عقلياً ، اذ ينضم كل شبيه الى شبيهه . وبهذا النحو من انضمام الروح الى الروح تزيد لذات الغابرين والوافدين .

فكرة فلسفية اسلامية طريفة ، تحتاج الى فنان يقف عندها يستوحيها ، والى شاعر ينظمها قصيدة بارعة ، أو الى موسيقي يصوغها لحناً جميلاً ، أو الى رسام يجعل منها لوحة تسر الناظرين .

خاتمة

تلك صور سريعة من آراء الفارابي . والرجل كما قلنا فيلسوف ، بأجمل ما لهذه الكلمة من معان . رجل جمع بين مَيزَتين : الاخلاص للفلسفة ، والايمان بالدين . وبهاتين الميزتين حاول أن يوفق بين لغتين ، لغة العقل ولغة القلب ، وهما ـ عنده ـ لغتان مفهومتان ، ضروريتان للانسانية التي تريد أن تسمو على نفسها ، ساعية وراء الكمال . وكأن الفارابي قد جاء الى العالم ليؤدي رسالة جليلة ، خلاصتها أن الفلسفة والدين هما النبع الصافي للحياة الروحية ، التي بها يكون المجتمع الانساني فاضلاً ، وبدونها يكون مجتمعاً ضالاً ، فويل للمجتمع اذا تنكر للفلسفة أو انحرف عن الدين ! وما أشقانا اذا طغت علينا المادة ، فخلت حياتنا من مشاغل الروح .

محمد باقر المعروف بالفاضل السبزواري .

ولد في (نامن) أو (نامين) من قرى سبزوار وتبعد عنها بمقدار أربعة فراسخ ونصف الفرسخ ، وجهل تاريخ ولادته وتاريخ وفاته ولكنه كان حياً سنة ١٠٨٣ .

درس في مشهد الرضا ثم هاجر الى أصفهان وفيها وصل الى منصب شيخ الاسلام ، ثم عاد الى مشهد فبقي فيها حتى وفاته ، وقد دفن في سرداب من حجرات مدرسة ميرزا جعفر المتصلة بالصحن الشريف والتي هي مدفن كثير من العلماء.

جدد سنة ١٠٨٣ بناء المدرسة السميعية التي كانت خراباً وجعل مكاناً لتدريسه، وهي معروفة الآن بمدرسة ملا محمد باقر .

من مؤلفاته : كتاب الذخيرة ، وله رسائل في الكلام وبعض الفنون الأخرى

الشيخ محمد باقر بن محمد جعفر الأصفهاني الفشاركي.

ولد في حدود سنة ١٢٥٢ وتوفي سنة ١٣١٤ ودفن في تكية آغا حسين الخونساري في تخت فولاد باصفهان .

أخذ المقدمات على جملة من أفاضل أصفهان ثم تخرج في الفقه والأصول على الشيخ محمد باقر بن المولى محمد تقي الأصفهاني المتوفى سنة ١٣٠١ وغيره ثم تصدر كرسي التدريس والفتيا والامامة والخطابة في جامع محلة نو وجامع القطبية بأصفهان والتف حوله جمع كثير من طلاب العلوم وتخرج عليه جمع من الفضلاء حيث كان له حوزة معمورة . وهو من فحول علماء العصر القاجاري ذكره الميرزا حسن خان في كتابه ألمآثر والآثار بما تعريبه : (الملا محمد باقر الفشاركي كان في طبقات مشاهير علماء أصفهان نزح الى طهران مراراً وهو من أكابر ائمة الجماعة وفحول الخطباء الموثوقين في العصر القاجاري) وقال آغا بزرك الطهراني في نقباء البشر : (كان من تلاميذ الشيخ محمد باقر ابن محشي المعالم وغيره من علماء الدين حتى صار من العلماء الأجلاء الموثوق بهم عند العامة والخاصة في أصفهان كان يباحث خارجاً فيحضر بحثه في المدرسة زهاء مائة من الفضلاء والطلاب ويقيم الجماعة فتأتم به الجماهير الكثيرة وكان خطيباً بارعاً اذا رقي المنبر أرضى الحضور على اختلاف طبقاتهم وأفاد كلا بحسبه وكان يخرج ليلة الجمعة في جمع من أصحابه الى تخت فولاذ وهي(مقبرة في اصفهان كبيرة جداً تضاهي وادي السلام في النجف ،فيحييها الى الفجر بتلاوة القرآن وقراءة الأدعية المأثورة والوعظ والارشاد والبكاء وبعد اقامة صلاة الصبح يدخل البلد . . .) ترك مؤلفات طبع قسم منها[1].

السيد محمد باقر بن السيد علي (صاحب حاشية القوانين المشهورة) ابن السيد اسماعيل القزويني.

ولد في النجف الأشرف سنة ١٢٧٠ وتوفي بكربلاء يوم الأربعين الحسيني سنة ١٣٣٨ ودفن في الصحن الحسيني كان من أكابر علماء قزوين وفحول فقهائها البارزين أخذ المقدمات والسطوح عن ابيه الشهير السيد علي

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

القزويني وجماعة من فضلاء عصره ، ثم تخرج في الفقه والأصول على المولى الشيخ الميرزا حبيب الله الرشتي ومدرس الطف الشيخ الميرزا علي نقي البرغاني الحائري آل الصالحي وأخذ الحكمة والفلسفة عن الشيخ الميرزا علامة البرغاني الحائري آل الصالحي في كربلاء ثم رجع الى موطنه قزوين قائماً مقام والده السيد علي القزويني المتوفى سنة ١٢٩٨ وتصدر المترجم له للتدريس والفتوى والإمامة وكان يصلي الجماعة في مسجد ابيه المعروف في قزوين حتى اليوم بمسجد السيد علي الواقع أمام ساحة السعادة . وذكره شيخنا الاستاذ الامام الطهراني في نقباء البشر الجزء الأول صحيفة ٢١٤ في ترجمة مختصرة دون الاشارة الى مشايخه ومؤلفاته وسائر خصوصياته .

ترك المترجم له مؤلفات في الفقه والأصول منها ١ ـ شرح على فرائد الأصول ، ٢ ـ طرائق الوصول في شرح معالم الأصول ، ٣ ـ خزائن الأصول في شرح قوانين الأصول ، ٤ ـ التحفة الرضية وهي تعليقة على شرح الروضة البهيّة . ٥ ـ مجمع المسائل يشتمل على مجموعة من المسائل المختلفة من الفقه والاصول والفلسفة ، ٦ ـ حاشية المكاسب وهو تقريرات درس استاذه الميرزا حبيب الله الرشتي ، ٧ ـ كشكول في ثلاثة مجلدات جمعها في مواضيع شتى .

وخلف من زوجته الأميرة صغرى خانم بنت الأمير اسد الله ميرزا ابن الأمير اسحق ميرزا بن الأمير علي نقي ميرزا الملقب بركن الدولة ابن السلطان فتح علي شاه القاجاري ولدين عالمين جليلين: السيد علي المعروف بـ آغا بزرك القزويني العلوي والسيد حسين القزويني العلوي وثلاث بنات[1] .

السيد محمد باقر ابراهيم بن السيد علي .

ولد في قرية الدوير (جبل عامل) سنة ١٩١١ م

نشأ متنقلاً مع والده ـ الذي كان معلماً ـ بين الدوير والنميرية وحاروف ودرس دروسه الابتدائية في النبطية ، وفي سن الثامنة عشرة اضطر لترك المدرسة وتولي التعليم في كتاتيب القرى. وفي بداية العام ١٩٤٨ م عُيّن معلماً على ملاك وزارة التربيه في قرية يونين من قرى منطقة بعلبك فانتظمت حياته المادية والنفسية ، ثم تنقل في عدة قرى من جبل عامل الى ان استقر ببلدته الدوير حتى احالته على التقاعد .

وقد استفاد في الدوير من مجالس عمه السيد مهدي ابراهيم فأتقن علوم اللغة العربية . وفي أول وصوله الى يونين بدأت المطارحات الأدبية ، فقال الشيخ باقر زغيب مرحباً به :

من آل ابراهيم وافى سيد
(يونين منتدباً لعلم صغارها
فلعلمه ولفضله أجدر به
من أن يكون معلماً لكبارها

ولما استشهد النقيب محمد زغيب في معركة المالكية في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ قال في رثائه متكلماً بلسانه :

ان غير الموت هذا المنظر الحسنا
أو أخرس الخطب مني المنطق اللسنا
فرب جيش كجنح الليل معتكر
يرمي بنيرانه الامصار والمدنا
قابلته بفؤاد قدّ من حجر
فرداً وعزم لغير الله ما وهنا
والمالكية تنبي انني بطل
ما فُلّ عزمي ولا بأسي الشديد ونى
فسائلوا ان جهلتم امر صاحبكم
هذا الوجود تروا اني الكمي انا

وقال يرثيه ايضاً :

كذا يستسهلُ البطلُ الصعابا
ويفتح للعلى باباً فبابا
تجيش بصدره زهر الأماني
كموج البحر تصطخب اصطخابا
ويقتحم الخطوب فلا يبالي
بنار الحرب تلتهب التهابا
تطير به إلى العلياء نفسٌ
بهام النجم أحكمتِ القبابا
وبيت يعربيٌّ خثعميٌّ
رفيعٌ قد زكا فيه وطابا
فلا والله لا يرضى ذئاباً
تمكن من بلاد العرب نابا
ومن أنشاه ربُّ العرش ليثاً
فلا يخشى بمعتركٍ ذئابا
مضى للحرب بسّام الثنايا
طروب النفس ممتلئاً شبابا
ولكنّ الردى ألقى سهاماً
أصاب بها من الشرف اللّبابا
فخرُّ البدر من أفق المعالي
صريعاً شعّ في الدنيا وغابا
رأى ورد المنون ورود ماء
بعين الله فاقتحم الشرابا
رأى إن مات في الهيجا شهيداً
ورودَ الموت عذباً مستطابا
رأى أنّ الحياة بغير عزٍّ
وإن طالت فلا تعدو السّرابا
مضى لجنانِ خالقه سريعاً
وجرّ عنا الأسى صاباً فصابا
وقد نسجتَ له كف المعالي
من النور الإلهي الثيابا
وخلّد ذكره التاريخ نوراً
يميط به عن الدنيا الحجابا
دم الأبطال يوم الحشر نورٌ
فلا يخشون ناراً أو عذابا
هو الشرف الرفيع لكل حرٍّ
به يرجو من الله الثوابا
عليك صلاة ربك كل حينٍ
فقد أحسنت لله المآبا

ومن طرائفه قوله وهو في يونين :

بيونين فذ شاهدتُ كلَّ العجائبِ
فخذْ من خبيرٍ صادقٍ غير كاذبِ
رأيتُ أناساً يلبسون ثيابهمْ
على اللّحم والأبصار تحتَ الحواجبِ

وكـمْ رجـلٍ والـشـعـرُ يـمـلأ وجـهَـهُ
وكـم غـادةٍ تـبـدو بـدونِ شـوارِبِ

وأعـجـبُ مـن هـذا وذاك سـمـاؤهـم
تـشـعُّ إذا جـنَّ الدجـى بـالـكـواكـب

حـمـيـرُهـم آذانُـهـا -فـي رؤوسـهـا
وأذنـابُـهـا مـن خـلف مـثـل الـثـعـالـب

وقال يرثي شقيقته نجيبة وكانت اكبر منه بثلاث سنين شديدة الحنو عليه ، تعنى بالمجالس الحسينية وتلقي فيها الشعر :

ذكـرتـكِ والآلامُ تـفـري فـؤاديـا
وأجـريت دمعـاً كـان مـن قبـلُ عـاصيـاً

فـمـا كـنـت إلاّ فـي فـم الـدهـرِ بـسـمـةً
ودمـعـاً لأيـام الـمـحـرّم جـاريـا

إذا مـا ذكـرتِ الـطـيـبـيـن بـكـربـلا
تـعـلّمتِ الـخـنـسـاءُ مـنـكِ الـمـراثـيـا

(نجيبـةُ) هـل أنسى من الـدّهـر حقبـةً
بـقـربـك كـانـت مـتـعـةً فـي شـبـابـيـا

كـأنّ الـرّدى مـا حـال دون لـقـائـنـا
وأضـحـو فـأرثـي غـفـلـتـي وشـقـائـيـا

أراكِ بـقـلـبـي يـا نـجـيـبـة دائـمـاً
كـمـا كـنـت والأيـام تـبـدو كـمـا هـيـا

مـلأتِ قـلوبَ الـسّـامـعـيـن فـكـاهـةً
ومـا انفـكَّ في سمعي حـديثـك جاريا

شـقـيـقـة روحي يـا نـجـيـبـة هـا أنـا
أنـاديـك لِـمْ لا تـسـمـعـيـن نـدائـيـا

وكـاد يـفـرُّ الـقـلـب عـن مستقـره
غـداة أتـى الـنـاعـي لـبـيـتـي نـاعـيـا

نـعى الـطهـر والأخـلاق والـنُّبـلَ والـتّقى
فـهـيـج فـي صـدر الـجـمـيـع الـبـواكـيـا

شـقـيـقـة روحي قـد وقـفـت مـؤبّـنـاً
وكـنـتُ لـروحـي عـنـد مـوتـك راثـيـا

فجـاءت من الـشعـر الـحـزين قـصيـدتي
وهـلْ أنـتِ إلاّ قـطـعـةٌ مـن فـؤاديـا

فـطوبى لـك الـجنـاتُ في قـربِ فـاطـمٍ
فكمْ بـالـحسـينِ الـسِّبط صُغتِ الـنـواعيـا

وقال من قصيدة :

هـل الـعـيـدُ إلاّ أن نـكـون أعـزةً
نـشـيـدُ عـلـى هـامِ الـنـجـوم مـبـانـيـا

ونـنـظر فـي تـاريـخ يـعـرب نـظرةً
تـعـيـد لـنـا تـلـك الـعـصـور الـخـوالـيـا

عـصـور الألى قـادوا الـجـيـوش إلـىٰ الـعـدى
وهـزوا بـوجـه الـدهـر تلك الـمـواضـيـا

السيد محمد باقر بن السيد مهدي بن السيد محمد علي الرضوي الكاشاني الدزفولي المتخلص والشهير بآشفته

ولد سنة ١٢١٧ وتوفي في طريق النجف سنة ١٣٣١ ودفن في النجف عالم فاضل أديب شاعر متفنن له نظم في اسلوب متين أصله من السادات الرضوية في كاشان وولد في دزفول وأخذ المقدمات هناك على جملة من فضلائها وأولع بالأدب والشعر فاتقنهما ثم انخرط في سلك الدراويش وأخذ يتجول في انحاء ايران لا سيما مازندران حتى وقع اسيراً في ايدي التركمان ثم تمكن من الهرب وتوجه الى مشهد الرضا (ع) ومكث هناك سنتين في بقعة الخواجة ربيع معتكفاً هناك ومنها سافر الى كرمانشاه ثم سكن طهران ولقبه السلطان ناصر الدين الشاه القاجاري بلقب فصيح السلطنة وعين له راتباً شهرياً تقاضاه من البلاط ثم قصد زيارة العتبات المقدسة في العراق وتوفي في طريق النجف ودفن في النجف ـ كما تقدم ـ . له ديوان شعر في مدح الأئمة الأطهار طبع في طهران . وكان له ولد يسمى محمداً ايضاً وكان كأبيه شاعراً ويتخلص مثله بأشفته فالتبس على شيخنا آغا بزرك هذا التشابه في التخلص الواحد بين الاب والابن فنسب الديوان المطبوع الى السيد محمد، وربما سقطت كلمة (باقر) حين طبع الذريعة[2].

الشيخ محمد تقي ويقال محمد بن الشيخ احمد الاحسائي (مؤسس الفرقة الشيخية) ابن الشيخ زين الدين بن ابراهيم بن صقر بن ابراهيم بن داغر بن رمضان بن راشد بن دهيم بن شمروخ آل صقر المطيرفي الاحسائي .

المتوفى سنة ١٢٧٥ .

هو أرشد أولاد ابيه كان من علماء الأصوليين وكبار الفقهاء وأهل الفضل ومثالاً للورع والتقوى ذكره في اعيان الشيعة مع ترجمة والده فقال : (أولاده كان له ولدان فاضلان احدهما يسمى محمداً والآخر علياً وكان محمد ينكر على ابيه طريقته أشد الانكار نظير ما يحكى عن الميرزا ابراهيم بن ملا صدرا من انكاره على ابيه) والظاهر انه نقل هذه العبارات عن الخوانساري حيث قال في روضات الجنات : وكان له ايضاً ولدان فاضلان مجتهدان سميّا : محمداً وعلياً الا ان الشيخ محمد ولده الفاضل ـ الأكبر ظاهراً ـ كان ينكر على طريقة ابيه أشد الانكار نظير انكار الميرزا ابراهيم بن المولى صدرا على ابيه . . .) اقول : أعقب الشيخ احمد الاحسائي اربعة اولاد هم الشيخ محمد تقي والشيخ علي نقي والشيخ حسن والشيخ عبد الله كلهم علماء والمترجم له اكبرهم وهو مولود في الاحساء احدى المراكز الشيعية في شبه الجزيرة العربية ، وأخذ المقدمات عن جملة من أفاضل الاحساء ثم حضر سنين على والده الشهير وهاجر معه الى ايران وأخذ الفقه والأصول من الشهيد الثالث وشقيقه الشيخ محمد صالح البرغاني وتخرج في الحكمة والفلسفة على الآخوند ملا آغا الحكمي القزويني والآخوند ملا يوسف الحكمي القزويني في المدرسة الصالحية بقزوين والمولى ملا علي البرغاني وله اجازة من ابيه شارك فيها أخاه الأصغر الشيخ علي نقي مؤرخة سنة ١٢٣٦ هجرية وجاء تاريخها سهواً في كشف الحجب سنة ١٢١٦ هجرية[3] وله اجازة ثانية كتبها والده الشيخ احمد الاحسائي للشيخ ملا علي البرغاني اشرك فيها ولده المترجم له والاجازة بخط المجيز موجودة عندنا في قزوين .

والمترجم له ينكر طريقة ابيه أشد الانكار وحينما كان يذكر أقوال ابيه كان يرد عليه ويقول : (كذا فهم عفا الله تعالى عنه) وكان من العلماء الذين شاركوا في مجلس مناظرة أبيه في ديوان الشهيد الثالث بقزوين فوقف موقفاً مشرفاً مخالفاً لأبيه .

من مؤلفاته رسالة في الاجتهاد والاخبار كتبها في جواب سؤال الشيخ

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) الميرزا محمد باقر الخوانساري روضات الجنات ج ١ ص ٩٢ منشورات مكتبة اسماعيليان طهران سنة ١٣٩٠ هجرية .

مسودة لم يخرج أكثرها الى البياض[1].

شمس الدين محمد المعروف بحافظ الشيرازي.

مرت ترجمته في الصفحة ٣٥٦ من المجلد التاسع ، ونزيد عليها هنا ما يلي :

قال آرثر آربري، والترجمة للدكتور سامي مكارم :

عندما ولد حافظ، وهو باتفاق الجميع أعظم شعراء الفرس، كان اقليم فارس ينعم باستقلال حقيقي تحت حكم شرف الدين محمود شاه . وكان الايلخان اولجايتو في الأصل قد عيّن محمود شاه مديراً لشؤون الممتلكات الملكية (اينجو) في تلك الأنحاء ، وفي عهد أبي سعيد، خليفة اولجايتو ، أصاب محمود شاه المزيد من النجاح ، فما بلغ سنة ١٣٢٥ حتى أصبح لا ينازعه منازع الا عصابات اللصوص التي كانت تعيث بالجبال فساداً وتجتاح من وقت لآخر السهول . نزح والد حافظ، على ما يقال، من أصفهان الى شيراز ، عندما كان الأتابكة لا يزالون في أوجهم ، فاشتغل بالتجارة وأصاب قسطاً من النجاح ولكنه في أواخر حياته أخذ باهمال اعماله . فلما مات خلف ارملته وولده الصغير في ضائقة مالية .

لم يكن حافظ قد بلغ العقد الثاني من عمره عندما لقّنه الدهر اول درس في اضطراب الحكم ، هذا اذا كان قد أصبح في تلك السن المبكرة واعياً للأحداث السياسية ، ولا أظنه الا كذلك لكونه فارسياً . ذلك أن أبا سعيد، في آخر عهده ، تنكّر لمحمود شاه وخلعه . أما خليفة ابي سعيد اربا خان فقد احتفل بصعوده على العرش بأن أعدم محمود شاه في تبريز ، وكان ذلك سنة ١٣٣٥ م . وفي السنة التالية سقط اربا ، فابتهج لذلك ابناء محمود ونقلوا جثمان ابيهم الى شيراز ليرقد بالقرب من عظام ابن خفيف المباركة . كان ذلك هو العمل الوحيد الذي قاموا به مشتركين . فما أن انتهت مراسم الدفن حتى دب بين الأخوة نزاع على من سيعتلي عرش والدهم .

بدأ النزاع بأن قتل مسعود شاه اكبر الأخوة الأربعة الابنَ الثاني كيخسرو الذي كان مستأثراً بالعرش اثناء وجود مسعود في المنفى المؤقت ، ثم أمر بحبس الابن الثالث محمد في قلعة سفيد . غير أن محمداً ما لبث أن فر الى بير حسين الجوباني الذي كان معسكراً بالقرب من تلك الأنحاء، وهو ينتمي الى عائلة من الأمراء كان قد قوّى شكيمتها غازان خان . فاستطاع بفضل بير حسين هذا أن يطرد مسعوداً من شيراز . غير ان انتصاره هذا كان قصير الأمد، فما لبث بير حسين ان استهواه هذا النصر فقتل محمداً وفكر بالاستئثار باقليم فارس مما أثار غضب أهالي شيراز فقاتلوه وطردوه ورحبوا بعودة مسعود. وفي العام التالي عاد حسين يعينه على ذلك قريب له يدعى أشرف . ولكن القائدَين منيا بالهزيمة ، فانسحب اشرف برجاله وفر حسين الى ابن عمه الأمير حسن كوجك فباغته هذا الأخير وقتله في الحال .

أما أبو اسحاق الابن الأصغر لمحمود شاه ، الذي كان قد ولي أصفهان من قبل حسن كوجك فقد قرر الآن أن يطالب بشيراز . وكان مسعود بعد أن طرد من العاصمة قد طلب من ياغي باستي أن يستعيد له العرش. في هذه الأثناء طلب أبو اسحاق المعونة من أشرف شقيق ياغي باستي . وأخذ ياغي باستي مسعوداً الى أسوار شيراز ولكنه ما لبث أن قتله هناك . وكان ذلك سنة ١٣٤٣ م . ثم انه أراد أن يحالف أشرف بغية الاستيلاء على شيراز للجوبانيين ، غير أن أمير هؤلاء حسن كوجك رأى في تلك الأثناء أن ينازع ملك بغداد الجلائري ، حسن بزرك ، امارة فارس ، فقتل في المعركة بيد زوجه في ١٥ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٣٤٣ . ثم استحكم الخلاف بين اخوته على من سيخلفه ، فحال ذلك دون ايقاف ابي اسحاق عن التقدم .

تلك كانت الحالة العامة المتلونة التي نشأ فيها حافظ الفتى . ولكنه استطاع أن يحصل على ثقافة جيدة كان منها ان حفظ القرآن عن ظهر قلب (فاستحق لذلك لقب الحافظ) ، وشق طريقه مخاطراً الى دنيا التأليف . ولكن اشعاره لم تجمع الا بعد موته ، لترتّب قوافيها على الاحرف الأبجدية وفقاً لما كانت عليه عقلية الجامعين في تلك الأيام وكلَفهم بهذا النوع من الترتيب . وهكذا ضاع علينا ايجاد اية وسيلة لتعيين تواريخ هذه الأشعار ، ولم يبق لنا الا الدلائل الداخلية . والدلائل الداخلية تفتح باباً للظن والتخمين ، فهي ليست واضحة كل الوضوح كما انها لا تكفي بمفردها . غير انه لدينا قطعة ذكر فيها الشاعر اسم مسعود وهذا خواجوي كرماني (توفي سنة ١٣٥٢) أحد شعراء أبي اسحاق . وكان حافظ يفاخر بأنه يقتدي بشعره . وليس غريباً أن يكون حافظ قد تعرف بخواجوي بواسطة امين الدين الذي توفي سنة ١٣٤٤ فأدخله الى الحلقة الملكية . أما عضد الدين عبد الرحمن بن احمد الأيجي (توفي سنة ١٣٥٥) فقد كان قاضياً ومعلماً في شيراز وضع بالعربية كثيراً من الكتب في الفلسفة وعلم الكلام مما جعله في مصاف كبار الثقاة في هذين الحقلين ، فكانت كتبه تدرّس في مختلف بلاد الاسلام حتى بعد وفاته بمدة طويلة . وقد بلغ كتابه « المواقف » شهرة واسعة ، فوضع عليه كثير من العلماء الشروح وشروح الشروح والتعاليق . ولا شك في أن حافظاً حضر دروسه . وأما حاجي قوام فاسمه الكامل حاجي قوام الدين حسن التمْغْجِيّ. وقد قام بدور كبير في تمكين ابي اسحاق من العرش وكان يبذل ثروته الطائلة بسخاء في تشجيع العلم والأدب . قدّم اليه ابن زركوب كتابه « تاريخ شيراز » كما خصه حافظ بثلاث قصائد على الأقل مدحه فيها مباشرة اثناء حياته ، علاوة على مدحه إياه بصورة غير مباشرة في قصائد أخرى كثيرة ـ كما رثاه سنة ١٣٥٣ . كذلك نظم حافظ قصيدة بليغة رثى بها مجد الدين اسماعيل وذلك حين توفي سنة ١٣٥٥ عن أربع وتسعين سنة ، وهذا مطلعها :

ان مجد الدين السريّ
وسلطان القضاة اسماعيل
الذي كان قلمه الفصيح يسجل خطباً في الشريعة .

برهن ابو اسحاق، الذي تسلم أخيراً العرش بعد محاولات فاشلة عديدة ، على انه رجل طموح فما استتب له الأمر في شيراز وبقية اقليم فارس حتى أخذ يعمل على توسيع ممتلكاته (يشجعه على ذلك ما آلت اليه دولة المغول آنذاك من تفسخ ، شأنه في ذلك شأن الكثير من الأمراء) ، فضم اليه يزد وكرمان . وقد أدى به ذلك الى التصادم مع بني المظفر المجاورين . وهي أسرة أسسها شرف الدين مظفر (توفي سنة ١٣١٤ م). وكانت تحت امرة أرغون وغازان واولجايتو على التوالي ، كما كانت عاصمتها مَيْبُدْ بالقرب من يزد. خلف مظفراً ابنُه مبارز الدين محمد ، وكان في ذلك الوقت فتى في الثالثة عشرة من عمره ولكنه ما عتم حتى أصبح حاكماً حازماً قاسياً ، فاستولى على يزد حوالي سنة ١٣١٨ محافظاً على امارته الصغيرة ضد الثورات الدموية . وقد أفاد هو ايضاً من الفوضى التي نتجت عن موت أبي سعيد فضم اليه كرمان سنة ١٣٤٠ م. وحاول ابو اسحاق مرتين ان يخلص كرمان من قبضة أميرها الجديد ولكنه في المرتين مني بالفشل . وفي سنة ١٣٥٠ م حاول استخلاص يزد فصدّ حالاً . يدلنا على أن حافظاً نظم بعض أشعاره مرضاة للملك قبل سنة ١٣٤٣ . ولكن عبقريته تفتحت حقاً في عهد أبي اسحاق الذي حكم عشر سنوات . وكان حافظ يتذكر هذه الأوقات وفي قلبه حزن عميق :

(١) الشيخ محمد السمامي.

في الحقيقة أن خاتم ابي اسحاق الفيروزجي
قد أومض في بهاء، ولكن دولته كانت متعجلة .

وكان الشاعر يحب أن يتذكر اولئك العظماء الذين شرفوا بمواهبهم المختلفة بلاط آخر بني اينجو . فقال هذه الأبيات التي أصبحت مضرب الأمثال لكثرة ما رددها الناس ترديداً أصيب في بعض الأحيان بشيء من التشويه :

في عهد سلطنة الشاه الشيخ ابي اسحاق
ما اعجب ما كان ملك فارس عامراً بخمسة اشخاص
الأول ملك مثله يمنح الولايات
وقد أعد نفسه حتى أمّن عدالة العيش الرغيد
ثم وليّ الاسلام الشيخ مجد الدين
الذي لا تذكر السماء قاضياً أفضل منه
ثم بقية الأبدال الشيخ امين الدين
الذي حل يُمن همته الأعمال المعقدة
ثم ملك العلم عضدّ الذي في التصنيف
وضع باسم الشاه كتابه « المواقف »
ثم ذلك الكريم القاضي قوام ذو القلب الخضمّ
الذي اكسبته دنيا العطاء والعدالة صيتاً حميداً
اولاء لم يتركوا نظيراً لهم ومضوا
فالله عز وجل يرحمهم أجمعين

باستطاعتنا أن نميز الرجال المشهورين الأربعة الذين ذكرهم حافظ مع ابي اسحاق . فأحدهم مجد الدين اسماعيل الذي قصده ابن بطوطة بصورة خاصة عند زيارتيه الاثنتين لشيراز . فقد زاره في المدرسة المجدية حيث كان يقوم باعطاء الدروس . وهو يروي انه رأى هناك أبا اسحاق نفسه واقفاً بين يدي الفقيه الكبير ممسكاً اذن نفسه في يده ، وهكذا فعْل أمراء التتار عند ملوكهم . وكان والد مجد الدين ، ركن الدين يحيى ، فقيهاً مشهوراً أيضاً وقد مدحه سعدي فلم ينسه ركن الدين في أواخر حياته . ولا بد أن يكون ذلك قد أضرم طموح حافظ الفتى بالذكريات عن عبقريته الشعرية . وأما الشيخ أمين الدين محمد ، وهو ابن الشيخ زين الدين علي الكازروني، خير خلف لخير سلف، وسليل اسرةٍ اشتهرت بتديّنها منذ القدم، فهو بالاضافة الى كونه معلماً بارزاً ، كان ينظم الشعر. ويعد من جملة تلاميذه وبعد سنتين أعاد الكرة على كرمان فمني للمرة الثالثة بفشل ذريع . وقد قوّى هذا النصر النهائي من عزيمة مبارز الدين فنقل المعركة الى معسكر العدو . وفي سنة ١٣٥٣ م استولى على شيراز ، وواصل انتصاراته ليأخذ اصفهان ويقتل عدوه العنيد الشجاع وذلك سنة ١٣٥٧ م .

كان حكم المؤرخين ، كحكم التاريخ ، ضد ابي اسحاق . فقد كان ، على ما امتاز به من صفات محببة الى النفس لم يكن تشجيع الفنون والآداب بأقلها ، ظاهر القساوة الى حد الجنون ، وليس هنالك من يضاهيه في تلك الأوقات العاصفة التي عاش فيها ، لا سياسياً ولا عسكرياً . ففي ذلك العصر الذي امتاز بالحروب المستمرة كلف بفنون السلم كلفاً شديداً . فقد كان في أحسن أوقاته وهو يستمع الى الموسيقى الجميلة ويحتسي خمرة شيراز الحلوة محاطاً بالشعراء ينظمون فيه القصائد ويغالون فيها بمدحه . ذلك كان من صالح الأدب ولكنه لم يكن من صالح الدولة قط . فلم تكن مجالس الشراب ولا قصائد المديح لتستطيع أن تحافظ على دولته المتداعية . فما ان نازل بضعفه قائداً صلباً شجاعاً مثل مبارز الدين حتى تحطمت دولته شر تحطيم . وهكذا قل رواج الشعر الذي كان ينظمه حافظ من خمريات وغزل وغناء. واذا به يصاب بخيبة ، فيجد نفسه (كما تدلنا احدى المخطوطات المؤرخة

سنة ١٣٥٥ م والمحفوظة في (طشقند) وقد صار الى رجل ينسخ أشعار غيره من الناس ليربح قوت يومه . ولنسمعه يندب الأيام الحلوة التي مضت :

لم نعد نرى المحبة ، في احدٍ، فماذا أصاب الأحبة الأعزاء . . . ؟ !
وهل انعدمت الصداقة . . .؟ وماذا أصاب الرفاق والأصدقاء. . .؟!
ولقد تكدر « ماء الحياة » . . . فأين « الخضر » السعيد الأثر . . .؟ !
وفاضت دماء الورد . . . فماذا أصاب نسمات الربيع المنتظر . . . ؟ !

وكانت هذه الديار دياراً للأحبة والأصحاب
فلما انتهى الحب لم أدر ماذا أصاب منازل الأحباب . . . ؟ !

وقد طرحوا ، في وسط الحلبة ، كرة الكرامة والاحسان ولكن أحداً لا يقتحم الحلبة . فماذا أصاب الخيالة والفرسان . . . ؟ !

ولقد اينعت الورود ، ولكن الطير صامت عنها . . . غافل .

فماذا أصاب الطير، وماذا اسكت العنادل والبلابل . . ؟ !
وأحرقت « الزهرة » قيثارتها ، فلم تعد تتغنى بلحن الحب والحنين .
ولم يعد أحد من الناس يشرب على لحنها ، فماذا أصاب الحرّيفة الشاربين . . . ؟ !

فيا « حافظ » . . . ! صمتاً . . . ! فلم يعد أحد يعرف أسرار الإمكان .
ولم تعد لك فائدة من أن تسأل أحداً عما أصاب الزمان . . !!

ودار دولاب الحظ مسرعاً نحو نكبة أخرى. فلم يطل الزمان بالفاتح المقدام لينعم بامبراطوريته الجديدة . ففي سنة ١٣٥٨ وقع في أسر ابنه الشاه شجاع بينما كان على رأس حملة عسكرية استولى فيها لوقت قصير على مدينة تبريز . فأمر ابنه بسمل عينيه تبعاً لتلك العادة البربرية السائدة في تلك الأيام . ثم قضى نحبه سنة ١٣٦٤ م . ويظهر أن حافظاً لم ير من المناسب أن يلتمس فضل مبارز الدين ، ذلك الأمير الفظ ، مع انه نظم قصيدتين يمدح بهما وزيره برهان الدين فتح الله .

لم يكن الحسد الأخوي ومنافسة الدويلات المجاورة ليحولا دون أن يتبوأ الشاه شجاع عرش اقليم فارس لسنوات طالت نسبياً. ففي سنة ١٣٦٣ استولى أخوه محمود على يزد، وقد كان يحكم على أبرقوه وأصفهان . ولكنه ما لبث أن حوصر في أصفهان حتىوصل الأمير الى اتفاقٍ ما كان ليدوم طويلاً . ففي السنة التالية تحالف محمود مع أويس الجلائري الذي كان على بغداد منذ سنة ١٣٥٥ ، ليضرب حصاراً حول شيراز دام أحد عشر شهراً وانتهى باستيلائه عليها . ولكنه لم يلبث أن خسرها ثانية سنة ١٣٦٦ . وفي سنة ١٣٧٥ مات الشاه محمود فاستولى الشاه شجاع على أصفهان . واستطاع في السنة نفسها أن يخضع أويس فظن أمير شيراز أن الوقت قد حان لأن يتوسع بفتوحاته نحو أذربيجان محارباً حسيناً أمير بغداد الجديد. غير أن ما أحرزه الشاه شجاع من انتصارات كان نصيبه الخسران ، فسرعان ما تبيّن له أن الشاه يحيى ابن أخيه يحوك المؤامرات ضده . فأوقف فتوحاته وعقد صلحاً مع حسين ، وأزوج ابنه زين العابدين بابنة صاحب بغداد . غير أن ذلك لم يضع حداً للخلاف بين الأميرين المتجاورين . ففي سنة ١٣٨١ قُتل حسين بيد أخيه احمد، فالتمس هذا صداقة الشاه شجاع ومعونته لكي يتسنى له أن يجابه ما ينتج عن ذلك من مطالب للطامحين بالعرش . ولكنه سرعان ما تنكّر لهذه الصداقة حالما ضمن العرش لنفسه . غير أن سحابة كانت تتجمع في الأفق في تلك الأثناء لتستحيل الى عاصفة سرعان ما كسحت كل تلك المؤامرات الصغيرة لتحيلها الى دمار وترميها في مطاوي النسيان . ولد تيمورلنك ، ذلك الذي أورث الذكريات الرهيبة ، سنة ١٣٣٦ في بلدة كش من بلاد ما وراء النهر، واعتلى العرش بعد أن أراق الدماء فيكون بذلك

عبد الله بن محمد علي القطيفي وأنكر فيها طريقة ابيه وصرح معارضته الحادة له ويطلب من الله المغفرة لأبيه ويرد فيها على أقوال ابيه ثم يقول « كذا فهم والدي عفا الله تعالى عنه » وعندنا منها نسخة .

وسكن المترجم له في قزوين وكان له رياسة معززاً مكرماً[1].

ميرزا محمد تقي المتخلص: بنّير.

ولد سنة ١٢٤٨ في تبريز وتوفي سنة ١٣١٢ .

كان عالماً أديباً شاعراً هاجر من تبريز الى النجف الأشرف وعمره ٢٤ سنة فتابع دراسته على كبار العلماء. من مؤلفاته : صحيفة الأبرار . مفاتيح الغيب . اللآليء المنظومة . ديوان غزليات. مثنوي درخوشاب ، كشف السبحات . رسالة لمح البصر . رسالة نصرة الحق . وله عدة رسائل كتبها الى ميرزا يوسف خان مستشار الدولة فيما يتعلق بألف باء الاسلامية .

كان معتبراً من أمهر الخطاطين ، كما أن له نظماً باللغة العربية .

محمد تقي بن محمد قاسم الجيلاني التنكابني.

ولد حدود ١٢٢٠ وتوفي ١٢٥٧ .

ولد في مدينة رامسر وأخذ المقدمات بها ثم ذهب الى أصفهان برفقة أخيه عبد الواسع وحضر بحث المولى علي النوري والجيلاني رأيت من تأليفاته منظومة في النحو فيها هذا البيت

قد نظم العبد الأقل الأثم
وهو تقي ابن محمد قاسم[2]

المولى محمد تقي بن فقيه علي التنكابني اليوشي.

هو من اعلام القرن الثاني عشر ولد في يوش ونشأ بها ثم ذهب الى أصفهان وتتلمذ على اعلامها ورجع الى موطنه يوش.

رأيت تعليقاته على بعض الكتب الأدبية والفقهية تدل على سعة معلوماته .

ويوش هي قرية بقرب من مدينة نور كانت سابقاً تتبع ناحية تنكابن وحالياً تتبع نور[3].

الشيخ محمد تقي التنكابني بن محمد بن رحيم بن منصور بن رحيم السمامي.

توفي سنة ١٣٢٢ .

ولد في رامسر ونشأ بها وأخذ المقدمات والسطوح من علمائها ثم ذهب الى قزوين وأقام مدة بها مشتغلاً بالتحصيل ثم هاجر الى النجف الأشرف ودرس على أعلامها ثم ذهب الى كربلاء ثم الى سامراء فحضر بحث السيد الشيرازي والسيد اسماعيل الصدر ثم ذهب الى قزوين بأمر استاذه الشيرازي وأقام بها مشتغلاً بالتدريس وإمامة الجماعة وقضاء حوائج الناس

وفي سنة ١٣١٢ ذهب الى سامراء وبقي بها حتى توفي استاذه الشيرازي وبعد ذلك هاجر مع استاذه السيد اسماعيل الى كربلا وأقام مدة بها ولطلب من أهالي قزوين عاد اليها وأقام بها حتى توفي ، له مؤلفات منها :

١ ـ الحاشية على نجاة العباد .

٢ ـ الفوائد العسكرية في اصول الفقه مجلدان .

٣ ـ المصابيح في الفقه رأيت منه ثلاثة مجلدات في الطهارة والصلاة والزكاة والصوم .

٤ ـ الحاشية على عين الأصول .

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٢) السمامي.

(٣) الشيخ محمد السمامي.

٥ ـ تقريرات الميرزا الشيرازي في الفقه والأصول[4].

السيد محمد تقي الجلالي الحسيني ابن السيد محسن.

ولد في كربلاء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٥٥ واستشهد في رمضان سنة ١٤٠٢ .

والده : السيد محسن ولد في سامراء في المحرم الحرام سنة ١٣٣٠ وتوفي سنة ١٣٩٦ في كربلاء. بدأ دراسته الأولى في كربلا ثم انتقل الى النجف الأشرف وحضر بحث كلا من السيد ابو الحسن الأصفهاني والشيخ ضياء العراقي والشيخ محمد حسين النائيني والسيد محمد علي الشاه عبد العظيمي والشيخ صدر البادكوبي . ثم عاد الى كربلاء وحضر بحث كل من السيد محمد هادي الخراساني والسيد هادي الميلاني والسيد مهدي الشيرازي . وفي سنة ١٣٧٢ صار اماماً في الحرمين الحسيني والعباسي .

له عدة مؤلفات منها : مصباح الهدى، حاشية الكفاية ، حاشية على الفوائين ، حاشية على شرح اللمعة .

وجده لأبيه : السيد علي ولد في كربلا سنة ١٢٩٠ وتوفي فيها سنة ١٣٦٧ درس اولاً في كربلا ثم هاجر الى سامراء فدرس على الشيخ محمد تقي الشيرازي ، ولما عاد استاذه الى كربلا عاد معه وصار اماماً في الحرم الحسيني . وجده لأمه : السيد محمد هادي الخراساني ولد سنة ١٢٩٧ في كربلا وتوفي فيها سنة ١٣٦٨[5].

بدأ المترجم له دراسته في كربلا وفي سنة ١٣٧٧ انتقل الى النجف الأشرف فتابع الدراسة هناك على السيد محسن الحكيم والسيد أبو القاسم الخوئي . وقد انتدبه السيد الحكيم سنة ١٣٧٨ للارشاد في ضواحي السماوة والديوانية خلال العطل الدراسية طيلة سنتين . وفي سنة ١٣٨٠ أرسله الى بلدة الزرباطية لمدة سنتين وفي سنة ١٣٨٥ استقر في بلده (القاسم) .

ولما طغى النظام التكريتي كان المترجم من ضحاياه وشهدائه الأبرار فقد اعتقل وعذب ومات في التعذيب . وفوجيء اهله بأن جلاوزة النظام يطرقون باب دارهم في النجف ويقولون لهم بأنه قد تقرر اطلاق سراحه ويطلبون اليهم الذهاب الى بغداد للعودة معه فصدقوا ذلك ، ولما ذهبوا معهم الى سجن ابي غريب في بغداد سلموهم جثته .

له من المؤلفات المطبوعة : البداية في علمي النحو والصرف، موجز تاريخ الروضة القاسمية وغير ذلك . ومن المخطوطة : حاشية على رسائل الشيخ الأنصاري ، شرح على المكاسب، شرح كفاية الأصول، حاشية الحاشية لملا عبد الله ، حاشية على معالم الأصول، شرح الخطبة الشقشقية في سبعة اجزاء، تفسير الفرقان في ثلاثين جزءاً وغير ذلك وهو شقيق العالمين الباحثين المؤرخين السيد محمد حسين والسيد محمد رضا اللذين هما اليوم في الطليعة من رجال البحث العلمي المنظم العميق، وقد برزت لكل منهما بحوث هي موضع اهتمام الدارسين ومصدر موثوق للكاتبين .

الميرزا محمد تقي بن محمد صالح الحكيم التنكابني.

ولد حدود ١٢٢٠ وتوفي اواخر القرن الثالث عشر .

ولد في تنكابن ونشأ بها ودخل المدارس العلمية في تنكابن وقرأ المقدمات والمبادىء بها ثم ذهب الى قزوين ودخل بمدرسة سردار فاخر القزويني وحضر عند اعلامها في الفقه والأصول والحكمة ثم بعد ذلك انصرف الى تعلم الطب وجد في ذلك حتى بلغ درجة سامية واشتهر صيته فيه ثم رجع الى موطنه وبقي فيه حتى توفي. له مؤلفات في علم الطب

(٤) الشيخ محمد السمامي.

(٥) راجع ترجمته في المجلد العاشر من أعيان الشيعة.

الوريث الأصيل لجغتاي والحفيد الحقيقي لجنكيزخان . وبعد أن بقي عشر سنوات في تدعيم حكمه ، اجتاح خراسان سنة ١٣٨٠ ، وفي غضون سنتين استولى على جرجان ومازندران وسجستان . أما الشاه شجاع فقد سلم بهذا الشؤم وابتاع رضى الفاتح العظيم بتقديمه الهدايا الثمينة له وتزويجه ابنته . وفي سنة ١٣٨٤ وافاه الأجل فأراحه من المتاعب المقبلة .

شهد عهد الشاه شجاع تفتح عبقرية حافظ على أكملها . ففي عهده رجع الشيرازيون المتخوفون الى سابق بهجتهم :

في وقت السحر . . . أوصل « هاتف الغيب » الى سمعي هذه الأنباء السارة .

بأن الدورة للشاه شجاع ، فاشرب الخمر في جرأة وجسارة . . . !

فلقد انقضى ذلك العهد حينما كان ينزوي « أهل النظر » وفي افواههم آلاف من ألوان الحديث . . وشفاههم صامتة تنتظر . . . !!

فلنقل الآن هذه الحكايات الطوال على صوت القيثارة فقد ضاق باخفائها صدري ، واضطرب بما فيه من نار حارة . . !!

والملوك وحدهم هم الذين يعلمون مصلحة الملك والسلطان فحذار من أن تنبس ببنت شفة يا « حافظ » فانك سائل مسكين يلازم الأركان .

وكان هذا الحذر في محله . فمع أن حافظاً أفاد كثيراً من الروح التحررية التي كان يتميز بها الأمير الجديد فان العلاقات بين الأمير والشاعر لم تكن دائماً على ما يرام . فالمنافسة على عطايا الملك كانت شديدة كالمعتاد، لا حدود لها يقف عندها المتنافسون في معركة الدهاء التي لا تعرف الرحمة . ذلك ما حدث لحافظ، فوقع فيما لا تحمد عقباه . فقد رأى ان يتآمر على عماد الدين الكرماني ، وكان المفضّل من بين المتصوفين عند الشاه شجاع ، فلم يكن شاعراً وحسب بل كان الى ذلك مشهوراً باجتراح المعجزات . وقد درّب هرّهُ أن يتابعه في الصلاة فيركع اذا ركع ويسجد اذا سجد . وأدهش هذا الأمر صاحب شيراز ، فظن حافظ انه اذا ما تهكّم عليه فقد يبتعد الشاه عن هذا النظير الخطير . فما كان منه الا أن خاطب الشاه بهذه الأبيات : نصب « الصوفي » شباكه وفتح طوايا جعبته الماكرة ووضع بذلك أساس المكر والخديعة مع الأفلاك المشعوذة الساحرة .

ولكن ألعوبة الفلك كسرت له بيضة في قلنسوته لأنه اجترأ على عرض شعوذته على « أهل الأسرار » . . . !!

اما أنت ايتها الحمامة التي تختال في مشيتها . . . الى اين تذهبين . . . ؟ !

قفي . . . ولا تنخدعي اذا أصبح قِط الزاهد بين المصلين . . !!

وأنت يا « حافظ »! لا تلم المعربدين، لأن الله منذ الأزل لم يجعلنا في حاجة الى الزهد والرياء والدجل . . . !!

ولكن بدلاً من أن يشكر الشاه شجاع لحافظ تحذيره هذا ، غضب عليه لنيله من ذكائه ، أو ربما لأن حافظاً شبه الشاه بحمامة كانت العوبة سهلة بيدي هر سارق . ومما زاد الطين بلة حادث آخر اعتبره الشاه حطاً بكرامته ، فقد كان الشاه شجاع ، ككثير من الناس في ذلك الزمان ، يقضي وقته بنظم الشعر، فظن من حقه أن ينتقد حافظاً ، فقال له ذات يوم : « ان واحدة من غزلياتك لا تجري على نهج واحد من أولها الى آخرها . بل اننا نجد في الغزل الواحد بعض الأبيات في وصف الخمر، والبعض الآخر في التصوف والباقي في التغزل بالحبيب، وهذا التلوّن والتنوّع في اغراض الغزل لا يجيزهما البلغاء والفصحاء » . فأجابه حافظ : « ان ما قاله مولاي هو عين الصدق ومحض الصواب ، ومع ذلك فان اشعار « حافظ » يتردد ذكرها في سائر الآفاق ، بينما لا تستطيع أن تتعدى أقوال غيره من الشعراء أبواب شيراز »[٥] . وقد أغضب الشاه شجاعاً هذا الرد اللاذع ، الجريء حتى بالنسبة الى شاعر فارسي ، فما زال يتحيّن الفرص ليتخلص نهائياً من هذا التابع المتمرد. حتى تهيأت له الفرصة عندما نمي اليه أن حافظاً نظم قصيدة ورد فيها هذا البيت :

اذا كان الاسلام هو ما لدى حافظ من معتقد .

فوا ويلاه اذا كان بعد اليوم ، يوم آخر . . . !!

فقال الملك : « لماذا ، ان حافظاً هو مجرد كافر، ينكر البعث . فكفّروه أيها الفقهاء»! فخاف حافظ وأسرع الى زين الدين التايبادي، أحد الأولياء المشهورين ، وقد كان ماراً بشيراز في طريقه الى مكة ، وعرض عليه الأمر، فأشار عليه هذا الصوفي اللبق أن يسبق ذلك ببيت آخر يقرر فيه انه سمع شخصاً يقول البيت المأخوذ عليه . فأخذ حافظ ممتناً بهذه المشورة وعاد الى الشاه شجاع معدّلاً القصيدة :

وما أجمل ما جاء في هذا الحديث الذي سمعته في وقت السحر ووعته أذناي .

عندما أخذ يغنيه « مسيحي » على باب الحانة وعلى نغمات الدف والناي . . . !

قال : اذا كان « الاسلام » هو ما لدى « حافظ » من معتقد على هذه الشاكلة .

فوا ويلاه . . . ! اذا كان بعد اليوم يوم اخر، أو غداة مقبلة . . . !!

ذاك هو نوع الروايات التي دوّنها المؤرخون المتأخرون عن حافظ والشاه شجاع . فليس لدينا أي سجل معاصر لهما . ويبدو أن هذه الروايات هي على الأرجح روايات مختلقة قصد منها توضيح بعض الأمور الغامضة مما ورد في مؤلفات الشاعر المجموعة وتفسير بعض محاولات التقرب الى الأمراء الآخرين . فهناك قصة رويت بالمناسبة مؤداها أن محمود شاه البهمني أرسل الى حافظ يدعوه الى بلاطه في الدكن « ومنحه مبلغاً من المال ينفقه على رحلته . فأنفق الشاعر قسماً كبيراً منه قبل مغادرته لشيراز ، وعند وصوله الى بلدة لار ، في طريقه الى الخليج الفارسي ، التقى بصديق له معدم فأعطاه ما تبقى معه من مال . ثم هيأت له الظروف أن يلتقي بتاجرين فارسيين ، هما خواجه زين الدين الهمداني وخواجه محمد الكازروني ، وكانا في طريقهما الى الهند، فعرضا عليه أن يدفعا له نفقات السفر نظير التمتع برفقته . فسافر معهما الى ميناء هرمز ثم استقل السفينة التي كانت تنتظره هناك ، فما كادت تبحر به حتى هبت عاصفة هوجاء هالته هولاً شديداً وجعلته يعدل عن عزمه ويعود من حيث أتى. فلما رجع حافظ الى شيراز أرسل الى محمود شاه قصيدة نظمها في هذه المناسبة . وقد نقل مؤرخ هندي عاش في القرن التاسع عشر هذه الرواية فأخذها إ.غ . براون على ظاهرها كما فعلت جرترود بل وغيرها . غير أن محمود شاه لم يعتل عرش البهمنيين الا في سنة ١٤٨٢ وهو غلام في الثانية عشرة من عمره وبذلك نكون أمام أمرين : اما ان دعوته وصلت الى حافظ وقد بلغ من الكبر سناً لا تسمح له على الأرجح بالقيام بمثل هذه الرحلة الطويلة ، وأما أن تكون هذه الحادثة ، من قبيل الروايات المسلية .

وتتحدث رواية أخرى، هي أقرب الى الواقع من سابقتها ، عن عزم حافظ على الاقامة في بغداد، وذلك عندما كان السلطان أويس على عرش الجلائريين (حكم من ١٣٥٥ ـ ١٣٧٤) . غير أن حوادث القصة تجعلها أقرب الى وقوعها في السنوات الأخيرة المظلمة من عهد مبارز الدين من وقوعها في عهد الشاه شجاع .

وجوهرك المنقى، غنيّ عن مدحنا .
وماذا تفعل الماشطة، في الحسن الموهوب من الله . . . ؟ !
ولم نصل في « شيراز » الى المقصود والمراد.
فيا حبذا اليوم الذي يرحل فيه « حافظ » الى بغداد . . !!

وعلى هذا النحو أخذ حافظ يتودد الى اويس. وقد كان أويس رجلاً له معرفة بالأدب، لا يتخذ من الشعراء أقل من سلمان الساوجي شاعرية ، فلا بد اذن من أن يغتبط اذا ما انضم حافظ الى بلاطه ، ذلك أن الأمراء الفرس كانوا يقيسون عظمتهم بعظمة حاشيتهم ومنجزاتها ، تماماً كما يقيسونها بانتصاراتهم العسكرية . وكذلك أمل السلطان احمد بن أويس بأن يرحب بالشاعر الشيرازي في بغداد، مما حدا بحافظ الى أن يقول :

احمد الله على معدلة السلطان.
احمد ابن الشيخ اويس من حسن الايلخاني .
الخان ابن الخان والشاهنشاه بن الشاهنشاه الذي يليق بك أن تسميه : « حياة العالم ».

. . . . ولم تنفتح لمتعتي برعمة واحدة من براعم الورد الفارسية .
فيا حبذا دجلة بغداد . . . . ويا حبذا خمرها الريحانية . . . !!

وافعل كالأتراك . . . فصفّف ذؤابتك وهذّب طرتك ففي طالعك الجود « الخاقاني » والنشاط « الجنكيزخاني » . . !!

وهو في قصيدة أخرى يقول مفتخراً :
ولقد اسرتَ ، يا حافظ !! « العراقَ » و « فارس » بالشعر الحلو .

فتعال الآن !! فالنوبة نوبة « بغداد » والوقت وقت « تبريز ».

ولكن عندما تحق الحاقة، لم تكن الصعوبات وخيبة الأمل لتبعده عن موطنه الأصلي الحبيب :

ونسيم « المصلّى » ومجرى نهر « ركناباد ».
لم يأذنا لي بالسير والسفر . . . !!

وكن كـ « حافظ » فلا تأخذ القدح الا على انين القيثارة فانهم قد عقدوا حبات القلوب الى أوتارها الحريرية الطروبة . . . !!

وتذكرنا أماكن الجمال المعروفة هذه في شيراز بقصيدة أبعد شهرة هي « الأغنية الفارسية » لحافظ التي خلدها في الانجليزية السير وليم جونز بلغته الانجليزية الكلاسيكية الرفيعة : لو ان ذلك التركي الشيرازي يأخذ قلوبنا باشارة واحدة من يده.

فانني من اجل خاله الأسود أهبه « سمرقند » و « بخارى».
فيا ايها الساقي ! ناولني الخمر القانية ، فلن تجد في جنة المأوى.
أحلى مكاناً من حافة نهر « ركناباد » وروضة «المصلى».

ولنسمع حافظاً في قصيدة أخرى خفيفة الروح ممتعة يمتزج فيها موضوعا الحب والخمر امتزاجاً بارعاً يخفي ما تتضمنه القصيدة من مديح ، لنسمعه يناظر قصيدة لسعدي فيذكر ممر « الله اكبر » الذي يقع الى الشمال من شيراز :

اي حاجة لحديقتي الى السرو والصنوبر؟!
وهل تقل عنهما شجرة الشمشاد الناشئة عندي في المنزل فيا أيها « الناشىء المدلل »! أي مذهب اتخذت لنفسك بحيث اصبح دمي حلالاً لك أكثر من لبن امك ؟ !

فاذا رأيت الهموم تطل عليك من بعيد، فاطلب الشراب فقد شخّصنا لك داءك ، والمداواة به مقررة .

ولماذا ننسحب ونبتعد عن أعتاب « شيخ المجوس » بائع الشراب . . . ؟ !
والحظ الموفق في ذلك الجناب، والفتح الميسر في ذلك الباب . . . !!
و « احزان العشق » ليست الا قصة واحدة، ولكن ما أعجبها من قصة !!
اسمعها في كل لسان، ولكنها غير مكررة !
وليلة امس، اعطاني الحبيب موعداً بوصاله وكان الشراب يلعب برأسه .
فاليوم ما عساه يقول ؟! وماذا يكنّ لي في رأسه ؟ !
ولا تَعِبْ « شيراز » ونهر « ركناباد » وهذا النسيم البليل .
ولا تحقر أمرها فهي، « الخال » على خد الأقاليم السبع وفرق بين ماء الخضر الذي مكانه في الظلمات
وبين نهرنا الذي منبعه « الله اكبر ».
ونحن لا نضيع شرف الفقر والقناعة
فقل للمليك: «ان القوت اليومي مقرر مقدر. . . !!»
ويا حافظ!! اي طرفة بديعة قلمك الذي هو عود من النبات !!
والذي يثمر من الفاكهة المحببة الى القلب ما هو أحلى من الشهد والسكّر. . . !!

وتنتهي القصيدة بما سمح به للشاعر من فخر تلاعب فيه حافظ تلاعباً فيه الكثير من الابتكار.

وقد ذُكر الشاه شجاع على أقل تقدير في خمس من قصائد حافظ . ويمكننا أن نؤكد بقدر ما يخوّلنا الظن من تأكيد بأن هناك مقطوعات شعرية أخرى كثيرة جداً نظمها حافظ لكي تنال رضى الشاه دون أن يذكر اسمه فيها. هذا ولم ينس حافظ أن يتودد أيضاً الى وزراء الشاه الكبار الذين تمكن بفضلهم وحدهم أن يصل الى الأمير. وهناك اثنان من الوزراء على الأخص كانا هدفاً لسهامه الغنائية المجنحة ، ويُروى ان الوزيرين أجازاه بما يستحق. وقد ذكر حافظ قوام الدين محمداً خمس مرات في شعره . وقوام الدين هذا قام بدور مهم في حملات الشاه شجاع العسكرية . وكذلك نظم حافظ بجلال الدين تورانشاه قصائد كثيرة . وقد بقي جلال الدين هذا في خدمة الشاه شجاع مدة عشرين عاماً ، ومات بعد سيده بستة أشهر . ودرج حافظ على تشبيهه بآصف وهو وزير سليمان ، كما تذكر الأساطير العربية . وتشبيه هذا الوزير بآصف مديح لبق يتضمن بطبيعة الحال أن الشاه شجاعاً نفسه كان حكيماً عظيماً كما كان سليمان .

ولّى الشاه شجاع قبيل موته ابنه زين العابدين علياً على شيراز ، كما ولّى أخاه عماد الدين احمد على كرمان . وما أن تسلم علي الحكم حتى خاصمه ابن عمه الشاه يحيى خصاماً لم ينفع معه عقد الصلح ، فخسر اصفهان وهرب الى يزد . وفي سنة ١٣٨٧ علم يحيى ان عامله على أصفهان مظفراً الكاشي استسلم لتيمور عند مقدمه ، فغادر شيراز الى بغداد وتركها الى الشاه يحيى ليوقع ما يستطيع من شروط مع الفاتح الرهيب . أما أهالي أصفهان فقد بلغ بهم الجهل أن قتلوا رسل تيمور ليدفعوا دماءهم ثمناً لتهورهم هذا في مجزرة رهيبة . وولى تيمور السلطان احمد على اقليم فارس وعلى كرمان . وتوالت على ذلك سلسلة عجيبة من الأحداث تعبّر عن طبيعة الأقدار المتقلبة التي حلت بذلك الزمان . أما زين العابدين علي فقد ضمن صداقة ابن عمه الشاه منصور في ششتر وذلك أثر مغادرته لشيراز . ولكن الشاه منصوراً هذا ما لبث أن هاجمه وأسره وبذلك فُتحت الطريق الى شيراز أمام الشاه منصور . ولم يطل المقام بعلي في الأسر ، فما لبث ان فر بمساعدة حراس السجن ليتحالف مع الشاه يحيى والسلطان احمد ضد الشاه منصور . ولكن هذا الأخير استطاع التغلب على هذا الحلف ليستولي على بلاد العراق بأجمعها . اما علي فقد أركن الى الفرار . غير أن حاكم الري ألقى عليه

القبض وسلّمه الى الشاه منصور فأمر هذا بأن تسمل عيناه . أما منصور فطمح ، مغتراً بانتصاراته ، الى أن يجرّب حظه مع تيمور . ولكن هذا الطموح مني بالفشل ، فزحف الفاتح العظيم على أبواب شيراز وبعد مقاومة يائسة سقط منصور، فأعلن من بقي من بني المظفر ولاءهم لتيمور، ولكن اعترافهم المتأخر بالواقع المحتم لم يمهلهم الا اسبوعاً واحداً لكي يفنوا عن بكرة ابيهم . وكان ذلك في آذار (مارس) سنة ١٣٩٣ . وانتهى بانتهائهم مجد شيراز المظفرية .

كان حافظ قد بلغ الستين حين مات الشاه شجاع ، فاضطر في هذه السن المتقدمة الى أن يبحث عن أمير آخر يلجأ اليه . وكان من طبيعة الحال أن يجد ضالته في ابنه زين العابدين، فمدحه في عدة قصائد ، منها ـ كما يظن قاسم غني ـ « اغنية شيراز » المشهورة . ولهذا الظن مكان جدير بالاهتمام ، حتى ولو قادنا الى الاعتبار ان المقصود من « التركي الشيرازي » هو الملك الفتى نفسه ، لا « الفتاة الجميلة » كما ورد في التفسير الرومنطيقي الذي جاء به السير وليم جونز . وهكذا يكون زين العابدين قد رفض عرض حافظ بأن يلتحق بخدمته بصفة شاعر ومستشار خاص . ولكن رفض زين العابدين هذا لم يقنع حافظاً بأن يذعن له :

فاذا وبختني أو عنّفتني فانني ادعو الله قائلاً :
أيليق الكلام المرير بالشفاه الحلوة الحمراء ؟ !

فيا حبيبي استمع لنصيحتي فان الشبان السعداء يحبون اكثر من انفسهم نصيحة « الشيخ » العارف .

وماذا كانت نصيحة الشاعر ؟
وتحدثْ عن الطرب والخمر، وأقلّ البحث، في اسرار الدهر.
فان احداً لم يحلّ، بالحكمة هذا اللغز المعمى، ولن يكشف عنه احد .

وبالاختصار فقد كانت فلسفة حافظ الخاصة اللاعقلانية العلاج الوحيد لجميع الأمراض والمشكلات . وهذه الفلسفة تقول بالاستسلام الى مسرات الحياة الممتعة فيتخلص المرء بذلك من أوقاته العصيبة ، أي على حد ما يعبر عنه استاذه روزبهان : هي محبة الجمال العابر الذي هو ظل جمال الله الخالد وهو ظل ظاهر للعيان قريب المنال .

ويظهر أن زين العابدين لم يكن بحاجة الى أغاني حافظ ونصائحه فحوّل الشاعر أنظاره الى الشاه يحيى ليدل هذا على أنه تجارة أشد ربحاً . ولكن ما أن طرد الشاه منصورٌ الشاه يحيى من مملكته المقلقلة حتى هرع حافظ الى تقديم الولاء لهذا المنتصر الأخير ، فنظم فيه كثيراً من خيرة أشعاره وأنضجها . وكان حافظ في تلك الأثناء يقضي أيامه الأخيرة . انه لمن المؤسف حقاً أن نرى شاعر الملوك يعيش في مثل هذه الأوقات المضطربة ، فتدعوه الحاجة الى الطواف ببضاعته من باب بلاط متهدم الى آخر. وقد بقي على قيد الحياة حتى شهد مقدم تيمور بأهواله ، فلا عجب اذن اذا تأوه في هذه الأبيات عند رؤيته التتار ينصبون خيامهم عند أسوار شيراز :

يعتزم الدهر فتنة مرة ثانية .
فها أنا والسكر وفتنة عين الحبيب
انني لأعجب من دوران الفلك
ولا اعلم من ذا الذي سيوريه التراب
واذ يوقد شيخ المجوس النار
لا اعلم شعلة من يضيء ويعلي
ان خدعة الحياة قصة واضحة
والليلة حبلى لا أحد يدري من ستلد في السحر
في ساحة القيامة هذه، اريقت الدماء
فاسكب انت في الكأس دماء الدن !

وفي الأيام الأخيرة من عمره ، هذا اذا كنا نثق بما رواه أحد المؤرخين بعد موت الشاعر بما يقارب الثلاثين عاماً، قابل حافظ تيمورلنك الذي تعرف الى شعره وعفا عنه لما أبداه من سرعة خاطر عرفت عنه : « فعندما قدمت بيارق سلطان العالمين ، حامي ديار العالم ، الأمير تيمورغورخان ، وفي أيام أفول دولة السلطان زين العابدين ، صدر الأمان على أهالي شيراز . وكان الشاعر حافظ في جملة سكان المدينة ، يمتلك بيتاً في حي من أحيائها ، ولذلك فقد ورد اسمه في قائمة الذين عليهم أن يدفعوا الفداء ووصلت التعليمات الى الجابي بأن يقبض منه مبلغاً من المال . فشكا الشاعر حاله الى الأمير المذكور معلناً بأنه مفلس معدم . فقال له الأمير: أأنت قائل هذه الأبيات :

لو ان ذلك التركي الشيرازي يأخذ قلوبنا باشارة واحدة من يده.
فاني من اجل خاله الاسود أهبه « سمرقند و « بخارى » .

ان من يستطيع أن يهب بخارى وسمرقند من أجل خال واحد لا يمكن أن يكون مفلساً ، فأجاب حافظ، انه بسبب هذا الاسراف أصبحت مفلساً، فأعجب جلالته بهذا الجواب السريع وأعفاه مما كان متوجباً عليه » .

تختلف روايات المؤرخين الفرس بعض الشيء حول السنة التي مات فيها حافظ ، وأقربها الى الحقيقة هي انه توفي سنة ١٣٨٩ وهو في الرابعة والستين أو الخامسة والستين . وقد دفن في المصلّى الذي كان في يوم من الأيام تلك الحديقة من الورد التي شهرتها قصائده . أما أول من بنى مشهداً على ضريحه فكان الفاتح المغولي بابر، باقتراح من استاذه محمد معمائي . وكان ذلك سنة ١٤٥٢ .

وفي سنة ١٧٧٢ خصص مؤسس الأسرة الزندية كريم خان مبلغاً عظيماً من المال لتكبير المشهد، فوضعت بلاطة من الرخام فوق القبر، وبقيت هذه البلاطة على حالتها تلك ، مع شيء من الترميم الى أن شاهدها إ. غ . براون ووصفها بقوله : « يقع قبر حافظ في وسط حديقة مغلقة ، زرعت بطريقة جميلة بأشجار السرو والبرتقال . أما القبر فتدل عليه بلاطة من الحجر بسيطة ، بيضاوية الشكل حفرت عليها نقوش هي في معظمها مختارات من شعر حافظ ». ثم ذكر براون تلك المقطوعات وأضاف قائلاً : « ان ما يتمتع به حافظ من شهرة لا تعادلها شهرة ، يتجلى بهذا العدد الكبير من القبور التي تحيط بضريحه . فأيُّ فارسي لا يرغب حقاً أن تختلط بقاياه ببقايا هذا الشاعر المجيد ، الذي لو وجد في هذا العصر لعمل التعصب كل ما بوسعه ليحرمه حتى حق مراسم الدفن »؟! غير أن العالم الانجليزي لم يخطر بباله ان بعد ما يقارب الاثنتي عشرة سنة من زيارته لضريح حافظ انتهكت حرمة الضريح وحطمت البلاطة التي أقامها كريم خان ، وذلك اثناء انفجار آخر من التعصب حدث بقيادة أحد المتصوفين . ولكن ، عندما كان على عرش بلاد فارس رضا شاه بهلوي، وكان علي أصغر حكمت وزيراً للمعارف، كفّرا عن هذا العمل الشائن تكفيراً مشرّفاً فشيّد ضريحاً جديداً، يفوق بفخامته المشهد القديم. وماذا اختير من قصائد حافظ ليزيّن بها الضريح ، غير تلك التي يتنبأ بها عن موته وعن خلوده .

اين بشرى وصالك . . . ؟ حتى أهب من رقادي للقائك فانا « طائر القدس» قد افلتُّ من شباك الدنيا على ندائك . . !!

وبحبي لك . . . لو انك دعوتني الخادم الوفي الأمين
لصحوت وأنا سيد الأكوان على دعائك . . . !!
فيا رب . . . ! ادركني بغيب من سحب الهداية
قبلما أهب بغتة من التراب محروماً من آلائك . . . !!

واجلس على تربتي ومعك المطرب والشراب
حتى اهبَّ من لحدي، طمعاً فيك، راقصاً على نغماتك . . . !!

ثم قـم . . . ايها الصنم الجميل! وأرني قدك وخفة حركاتك فانني عند ذلك
اهب راغباً في الحياة ، مصفقاً لبهائك . . . !!
فان كنتُ شيخاً . . . فضمني ليلةً الى صدرك ، وضيّق عليّ العناق.
فانني في وقت السحر . . . اهب غض الاهاب، جمّ الشباب من ضماتك
ثم امنحني مهلةً . . . لكي أراك فيهـا يوم الممـات والرحيـل فقد استـطيـع
كـ « حافظ » ان اهبَّ راغباً في الحياة للقائك . . . !!

ليس هنالك صوفي تحدث عن الاتحاد بالعاشق المعشوق الالهي بمثل هذا الصدق وهذه البلاغة .

الى الآن كان الحديث يدور حول حافظ شاعر الأمراء. أما اذا أردنا أن نوضح العلاقة بين أحوال حياته ومعيشته وبين تاريخ شيراز في آخر عهد لها من الأمجاد في العصور الوسطى فلا بد لنا أن نقول بأن حقيقة عظمة حافظ هي في عبادته الصوفية للجمال ، التي ألهمته في جميع ما كتب . وما علينا الآن الا أن ندرس أولاً خلّقه للجمال في ما هو خارج عما تحت ارادته : اي اللغة الفارسية ، والأوزان والقوافي والصور البيانية في الشعر الفارسي . كان حافظ في هذه الأمور مديناً جداً لأسـلافه ولابن بلدتـه سعدي، فقـد سوّغ وثقف، اكثر من أي شخص غيره ، كـلا اللغة والأسلوب الشعـري، ولكن عبقريته جعلتـه لا يكتفي باتبـاع هذا المثـال بل فـاق عليه، فمفـرداته غنيـة متنـوعة، وهـو يحسن الموازنـة بين لغة الشعب واللغـة العلميـة ، ويتجنب استعمال تلك التعابير الحوشية الثقيلة التي كانت تثقل أبيات شعـراء المدح المحترفين في القرون السابقة ، حتى اننا نستطيع أن نقول بحق بأن ما كتبه إنمـا يفهمه النـاس جميعاً ، فهـو يستعمل مختلف الصنـاعات الأدبيـة التي أذعنت لها اللغة اذعاناً طيعاً ، ولكنه يتجنب الافـراط وما ينتج عنه من ملل وغموض .

وقد احسن التعبير عن هذه النقطة ميرزا محمد قزويني بما سماه « الشعر من الدرجة الأولى، في الفارسية ». قال : « يتألف الشعر، كما هو معروف، من عنصـرين اثنين هما المبنى والمعنى. والشـاعر الحق والنـاظم المجيـد كـلاهما يحـافظان على التـوازن الـدقيق بين هـذين العـاملين ، اي المبنى والمعنى. وهما لا يفرطان ولا يقصران بأي منهما . فهما لا يبالغان بتجميل المبنى وتنميق التعابير وذلـك بأن يستعمـلا الصناعـات اللفظيـة المتأنقـة ، كالتلاعب على الألفاظ والكنايـة وشبه الكنـاية والمقـابلة والترديـد والجناس وتغيير النقاط ونـظم القصائـد التي تؤلف الحروف الأولى من أبيـاتها كـلاماً مفيداً ، واسناد الأجـزاء بعضها الى بعض ، ولـزوم ما لا يلزم ، واستعمـال الحروف المنقوطة وغير المنقوطة ، والمتصلة وغير المتصلة ، وما الى ذلك من فنون هي أشبه ما تكون بألاعيب الأولاد مما هي بأصول بليغ النثر والشعر التي يتقيّد بها الرجال الجادون . هذا والشاعر الحق لا يهتم بتجميل المعاني فينشغل بالأخيلة المنسوجة نسجاً انيقاً وبالأفكار المتضمّنة والتشابيه الغارقـة في الأبهام والاستشهادات الغامضة التي من شأنها تعقيد اللغة وابهام المقصد مما يضطر السامع الى أن يجدّ في التفكير ليدرك ما يقصده الشاعر . وهذا ما يتميز به مثلاً الشعراء « الهنود ». والشاعـر الحق لا يبالـغ باستعمـال الفنون البيانية كالمقابلة والمعادلة والتورية والابهام والاستدراك والتـظاهر والتلميـح والوصل والقطع وما شابه ذلك ، الى حد ارهاق عبارته وأتعاب السامع . انه من الواضح طبعاً ان اجادة استعمال فن من هذه الفنون ، إما وحده وإما مع فن آخر أو فنين ، ليَزيدُ من بلاغة الأسلوب . ولكن ما أن تتكاثر هذه الفنون وما أن يزدحم عدد منها في بيت واحد أو يتقارب بعضها من بعض حتى يتألف شكل في غاية من التصنع هو ، في الحقيقة، اهـانة لفن الشعـر ذاته ، ولا ينتج عنه الا ملل السامعين وارهاقهم ».

وبعد أن يعرض القزويني جميع شعراء الدرجة الأولى من الفرس يصل الى النتيجة التالية : « ان من تحتوي قصائده وتتضمن كل ما يمكن أن يوجد في الشعر من جمال ، سواء أكان في اللغـة أم في المعنى ، وكل صفـة من صفات الخيال أو الواقع التي توجد في الكلام الجميل ، وهـو ، في الوقت ذاته، أبلغ من كتبوا وأشدهم ايقاعاً في كل العصور بما فيها العصور القديمة والحديثة على السواء، ان هذا الرجل، الذي، اذا قيس بكواكب الشعر من الطبقة الاولى، كان شمساً مشرقة ، هو ، بدون أي استثناء وبدون أي شك أو تردد، الخواجا شمس الحق والملة والدين محمد حافظ الشيرازي، قدس الله روحه العظيمة »!

كان حافظ اذاً صانعاً عظيماً للكلمات والصور . وهذه هي المواد الأولية التي يتـألف منها عمليـاً الشعر الصـافي . ولكن الكـلام في الـواقـع، على ضرورته في خلق الشعر العظيم ، لا يكفي وحده وبطبيعة الحال لخلق اعظم الشعر . لم يكن حافظ مجرد صانـع ماهـر يعمل بحـذق لاختراع الأشكـال المعجبة ، فإعطاء هذه الأشكال معاني خالدة يتـطلب فلسفة لا تقـل رقياً ، ويتطلب رؤى شاعر ورسالة شاعر خليقةً بالاستكشاف في أي زمـان وحريّـة بالقبول في أي مكـان . واذا كان حـافظ يتحدث الينـا بهذه النضـارة وبهذا الايحاء، في القرن العشرين ، كما كـان يتحدث الى الشعب الفـارسي في تلك الأزمات الشديدة التي مرت بها حضارته في العصور الـوسطى، فـلأن روحه ارتفعت صعداً فوق الفساد المادي الذي أصيب به ذلك الـزمان وكـل زمان ، ولأنه وجد في عبادة الجمال الخالص الطريق الوحيد لفهم اللاعقلانية المتجلية في مصير البشر. ولنردد ما قاله رضا زاده شفق : « بـالاضافـة الى الحساسية والشعور الحاد اللذين يضيئان من شعر الخواجا يعجب المرء كيف أن هذا الشاعر المتحرر في طبعه استطاع أن يحافـظ على قوة خياله الشعرية وجديته في وجه الحوادث الدامية التي مني بها الزمان الذي عاش فيه . فقد كانت بلاد فارس جمعاء تتمخّض بالثورة والعدوان ، ولا يُستثنى أقليم فارس ولا شيراز ذاتها من هذه المعركة . فقد شـاهد حـافظ بأم عينـه قتل الملوك وتـدمير البيـوت وحروب المغتصبين ، كمـا شـاهـد حتى الخصـام بين بني المظفر ذاتهم . غير انه كان ، على ما يبدو ، ينظر الى هذه الحوادث بجلال روحي كأنها أمواج صغيرة في البحر المحيط. كان نـظره مركـزاً على وحدة أوقيانوس الطبيعة ، على معنى الكون وغايته . صحيح أن فكره كان يثور من حين الى آخر، فتستبد به العاطفة ويقول :

ما هذه الفوضى التي أراها في الجو المتقلب؟
ارى كل الآفاق مدلهمة بالثورة والعدوان .

ولكنه كان دائماً يعود الى رصانته العقلية فيسعى الى طمأنينة القلب في عالم يضطرب تحت أفكاره الواسعة السماوية ».

أما نحن ، أولئك الذين نعيش في أزمة من الحضارة لا تقل يأساً، وفي أيـام يبدو فيهـا أن كثيراً من الشعـراء والفنانين والمـوسيقيين المحـدثين قـد اتخذوا تأليه الفوضى والقبح ديناً لهم ، فيحسن بنا أن نتأمل قضية حافظ هذه المعجبـة . ذلك الشـاعر الـذي ظل مؤمنـاً بالجمـال ، في عالم تستـوطنـه الفـوضى والقبح . يعبـد الجمال ويخلق الجمـال ويُبقي الجمال على قيـد الحياة يؤاسي به ويلهم رفاقه ضحـايا الـظروف المحتمة ، دائم النـظر يشعّ فيضيء أنفسنا والأجيال القادمة على السواء. والآن فلنردد قصيدة أخرى من تلك القصائد الكثيرة التي تتحدث عن ايمانه الـراسخ بـالنظام الالهي والتي تقدم لنا حلّه للغز أسر الروح الخالدة ضمن حدود الزمان والمكان . هنا نرى أبياتاً يتأمل فيها حافظ بما في الاسلام من سر عظيم تجلّى باستشهاد الحلاج ذلك الولي المتصوف :

منذ سنوات وقلبي يطلب مني كأس جمشيد
ويتمنى ما فيه من كل غريب وبعيد
والجوهرة التي خرجت من أصداف « الكون والمكان » كثيراً ما طلبها من الضالين على شاطىء اليمّ . . !!
وليلة امس حملت « مشكلتي » الى « شيخ المجوس »
فهو قادر على أن يحل « المعمى » بتأييد من نظره
فرأيته هاشاً باسماً، في يده قدح من الخمر
وكان يتفرج في مرآتها على مئات من الأشكال
وقلبه كالبرعمة المقفلة يخفي اسرار الحقيقة
ولكنه حشّى أوراق خاطره من نسخة قلبه
فقلت له : « متى اعطاك الحكيم هذه الكأس التي ترى فيها العالم . . . . »؟
فقال : « في اليوم الذي صنع فيه هذه القبة الزرقاء »
والله مع المولّه الواجد في كل الأحوال
ولكنه لم يره ، فظل يناديه من بعيد بقوله : « يا الله »
وهذه الشعوذة التي أحكمها « السامري »
عملها امام عصا موسى ويده البيضاء

فأجاب : « ان هذا الصديق الذي ارتفعت به قمة المشنقة
كان جرمه انه أذاع الأسرار »
وإذا أعانتني روح القدس بالمدد مرة ثانية
فان الآخرين أيضاً يفعلون ما فعله المسيح
قلت له : « وما فائدة هذه السلاسل من جدائل الحسان . . . »؟!
فأجاب : « لأن حافظاً يشكو من قلبه الثائر الولهان . . . . »؟!

الشيخ محمد حسن التنكابني الشاهرودي.

توفي بعد ١٣٢٢ .

هو من العلماء المدرسين . ولد في تنكابن ونشأ بها ثم ذهب الى قزوين وأصفهان والأعتاب المقدسة ثم سكن مدة في شاهرود ـ ولم اطلع على سنة وفاته ومكانها .

رأيت له بعض المؤلفات منها :

١ ـ شرح الفوائد الصمدية .
٢ ـ شرح الكبرى في المنطق ألفها في سنة ١٣٢٢ في مدينة شاهرود[1] .

محمد حسن الفاني الزنوزي ابن الحاج مير عبد الرسول.

ولد سنة ١١٧٢ في بلدة فاخرة خوي .

والزنوزي : نسبة الى زنوز وهي بلدة تابعة لمدينة مرند، قريبة من مدينة خوي بينهما اثنا عشر فرسخاً ، وهي بلدة جميلة مكتظة بالأشجار وعيون الماء والجداول وتخرج الفواكه الكثيرة .

وكان لأهلها مكانة عند السلاطين لتسلطهم على القلاع المهمة كقلعة تفليس ودربند. وفي العام ١١٣٥ عندما هاجم الروم المنطقة بعد تمرد أهلها عليهم كانت الغلبة للروم بعد قتال شديد، فأبادوا أهلها قتلاً وأسراً ولم يسلم من ذلك حتى النساء والأطفال . وممن قتل جد المترجم ، أما ابوه فكان عمره سنتين فأخذه الروم فيمن أخذوا ثم تركوه ، وأصبح بعد ذلك من العلماء سالكاً في هذا طريق ابائه وأجداده . ولما بلغ ولده (المترجم) سن الصبا أرسله الى تبريز ليدرس فيها فتعهده العالم الزاهد الرباني محمد شفيع الدهخوارقاني، ملتزماً بجميع نفقاته .

وبعد ان قضى المترجم مدة في تبريز ذهب الى خوي فبقي فيها اربع سنوات عاكفاً على الدراسة ، فكان من أساتذته فيها : المولى عبد النبي شرف الدين الطسوجي فدرس عليه الأدب والرياضيات . وفي سنة ١١٩٥ سافر الى كربلا فحضر درس كل من آقا محمد باقر البهبهاني والسيد مهدي الشهرستاني . ثم رجع الى خوي ومنها انتقل الى مشهد الرضا متابعاً الدراسة على علمائها ، ثم قصد اصفهان فواصل الحضور على علمائها ، ثم عاد الى خوي .

من مؤلفاته : كتاب (رياض الجنة) ، وهو في التراجم . وله شعر باللغتين : الفارسية والعربية .

ميرزا محمد حسين نجاة بن عبد الغفار التبريزي.

من فضلاء تبريز وأدبائها المجهولي تاريخ الولادة وتاريخ الوفاة .

له قصة : (بوذاسف وبلوهر) وهي في تاريخ حياة (بوذا) ، وكتاب (قطوف الأدب) وهي في الأمثال العربية .

السيد محمد حسن القوجاني المعروف بآغا نجفي القوجاني.

ولد في قرية خسروية من توابع مدينة قوجان سنة ١٢٩٥ وتوفي في مدينة قوجان سنة ١٣٦٣ .

كان عالماً اصولياً فقيهاً محدثاً متكلماً له اليد الطولى في العلوم العقلية والنقلية ومن المعروفين بالفضل والزهد والورع والتقوى قرأ المقدمات في قوجان وسبزوار واكمل السطوح في مشهد الرضا وفي سنة ١٣١٥ هاجر الى اصفهان وأخذ الفقه والأصول عن السيد محمد باقر الدرچه إي والشيخ عبد الكريم الكزي وتخرج في العلوم العقلية على الأخوند ملا محمد الكاشاني المتوفى سنة ١٣٣٣ حتى سنة ١٣١٨ فتوجه الى العتبات المقدسة في العراق واستقر في النجف الأشرف والتحق بحوزة الأخوند ملا محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية وواصل دراسته في العلوم العقلية عند الشيخ محمد باقر الاصطهباناتي وفي سنة ١٣٣٨ رجع الى موطنه قوجان فكان فيها مرجعاً مدرساً .

له مؤلفات وآثار منها (شرح دعاء الصباح) و (عذر بدتراز كناه) كتبه في الدفاع عن الانقلاب الدستوري في ايران المعروفة بـ (المشروطة) (كتاب شرح وترجمة تفاحيه) لارسطو والاصل لبابا أفضل الكاشاني ، وكتاب (سفرى كوتاه به آباديهاي قوجان) كتاب (سياحة غرب) بحث حول عالم البرزخ والأرواح بعد الموت كتاب (سياحة شرق) كتاب (حياة الاسلام) في حياة استاذه صاحب الكفاية . وقد طبعت بعض مؤلفاته[2] .

محمّد حسن فروزانفر الشهير ببديع الزمان.

ولد سنة ١٣٢٢ ببُشرويه من أعمال طبس في بيت علم ودين، وتربّى في حجر والده الشّيخ علي بن الآخوند ملّا محمّد حسن القاضي وكلاهما شاعران طيبان من أحفاد ملّا أحمد التّوني [المتوفّى ١٠٨٣ هـ] من علماء عصر الشاه عبّاس الثاني [١٠٥٣ ـ ١٠٧٧ هـ] المترجم في الأمل ومطلع الشّمس، أخذ المترجم التّعاليم الأوّليّة في « بُشرويه » عند الملّا محمّد حسين الفنّان المجلّد والخطّاط الماهر، وفي المحرّم ١٣٣٨ هـ هاجر إلى مشهد الرّضا (ع) وبعد شهرين حضر عند الأستاذ أديب النّيشابوريّ [١٣٨١ ـ ١٣٤٤ هـ] وتعلّم منه العربيّة والمنطق إلى سنة ١٣٤٢ هـ ، وفي

(١) الشيخ محمد السماعي.

(٢) الصالحي.

تلك الأيّـام أقام الميرزا حسين السبزواري بمشهـد لمدّةٍ محـدودةٍ، استفاد المترجم له من محضـره ، وقرأ الأصـول والفقه مـدّةً على الشّيخ مـرتضى الاشتيانـي ، ومدّةً عند الشّيخ الخالصيّ في منفاه هناك .

ثم هاجر سنة ١٣٤٢ إلى العاصمة طهران وقرأ النّجاة وتمهيـد القواعـد وشـرح الإشارات وكلّيّـات القانـون عند الميـرزا طاهـر التنكّابني ، والفقـه والأصول على الشّيخ حسين النّجم آباديّ، وقرأ تحـرير إقليـدس وقسماً من إلهيّات الأسفـار على الميـرزا مهـدي الآشتيـانيّ وشـرح الجغميني على الأديب البيشاوري ، وكان كثير العشرة لشمس العلماء الكركانيّ وللطف علي صدر الأفاضل والميرزا رضـا خان النّـائينيّ والشّاهـزاده أفسر ومحمّـد علي فروغي [ذكاء الملك] والاستاذ محمّد القزوينيّ بعد رجوعه عن أوروبا .

يعدّ فروزانفر من النّجوم القليلي النظّير في الأدب الفارسيّ القديم منـه والحديث وآثاره في تاريخ الأدب والعرفان تبيّن تعمّقه فيهما .

في سنة ١٣٤٦ درّس المنطق في مدرسة الحقـوق ، وفي ١٣٤٧ درّس العربيّة والمنطق في دار المعلّمين ، وفي ١٣٤٨ عيّن مدرّساً للأدب الفارسيّ بها ، وفي ١٣٥٠ أستاذاً لتفسير القرآن والأدب العربيّ في مدرسة عالي سپه سالار »، وبعد تأسيس كليّة المعقول والمنقول بهـا سنة ١٣٥٣ عيّن معـاوناً لعميد الكليّة ورئيساً لمؤسّسة الوعظ والخطابة ، وبعد تأسيس جامعة طهران عيّن أستـاذاً لـلأدب الفـارسيّ وتـاريخـه بكليّـة الآداب وأستـاذاً للتصّـوف الإسلاميّ بكليّة المعقـول والمنقول . وفي سنـة ١٣٦٣ عيّن عميداً لكليـة المعقول والمنقول . وعند تأسيس المجمع اللّغويّ (فرهنكستان إيران) عيّن فيه عضواً عاملاً ، وكان عضواً في المجلس الأعلى للمعارف (شوراي عالي معارف) خلال سنوات ١٣٥٣ إلى ١٣٧٢ .

سافر إلى بيروت بدعوةٍ من الجامعة اللبنانية لتأسيس كرسيّ لتدريس الأدب الفـارسيّ بهـا ، وإلى بـاكستـان (لاهـور) لـلاشتـراك في المؤتمـر الإسلاميّ ، ثمّ إلى الولايات المتحدّة الأمريكية وبريطانيا لزيارة المؤسّسات الاستشراقيّة فيهما ، وسافر مرتّين إلى تركيا لزيارة مزار مولانـا جلال الـدّين الرّوميّ والمكتبات الغنيّة بإسطنبول ، وثلاث مرّات إلى أفغانستان لمهمـات ثقافيّة حكومية ، وسافر أيضاً إلى السّعوديّة وسوريا والأردن وله من الآثار :

١ : سخن وسخنوران (شرح حال ومنتخب أشعار شعراي خراسان وما ورآء النّهر) مجلّدان ، ط طهران .

٢ : أحاديث مثنوي . ط طهران .

٣ : رسالة در تحقيق أحوال وزند كاني مولانا جلال الـدّين مشهور بـه مولوي . ط طهران .

٤ : دستور زبان فارسي ، مجلّدان ، ط طهران .

٥ : شرح أحوال ونقد وتحليل آثار شيخ فريد الدّين عطّار نيشابوري ، ط طهران [أنجمن آثار ملّي] .

٦ : شـرح مثنوي شـريف ، ثلاثة مجلّدات ، ط طهـران : [كنجينهء تحقيقات إيراني ، رقم ٥٣] .

٧ : فرهنك تازي بفارسي ، ط طهران [فرهنكستان إيران] .

٨ : مـآخذ قصص وتمثيـلات مثنـوي ، ط طهـران [دانشكـاه طهـران رقم ٣١٤] .

٩ : ترجمة رسالة قشيريّة ، ط طهران [بكاه ترجمة ونشر كتاب] .

١٠ ـ ديوان أشرفي غـزنوي ملقّب بـه أشرف ، تصحيـح ، محمّد تقي مدرّس رضوي ، مع إصلاحات لعلي أكبر دهخـدا وفروزا نفر ، ط طهران [دانشكاه طهران] .

١١ : فيه ما فيه ، ازكفتار مولانا جلال الدّين محمّد مشهور به مولوي ، ط طهران [دانشكاه طهران] .

١٢ : كليّات شمس باديوان كبير ، صححه وحقّقه فـروزانفر بـاشتراك الدّكتور أمير حسن يزدكردي وحسين كريمان ، عشرة مجلّدات بالقطع الكبير ، ط طهران [دانشكاه طهران وكنجينهء متون إيراني] .

١٣ : مصبـاح الأرواح : شمس الـدّين محمّـد بـردسيـريّ كـرمـانيّ ، ط طهران [دانشكاه طهران وكنجينهء متون إيراني] .

١٤ : معـارف : برهـان الـدّين محقّق تـرمـذي ، ط طهـران [وزارة فرهنكك] .

١٥ : معـارف (مجموعـة مواعظ وسخنـان سلطان العلمآء بهـاء الدّين محمّد بن حسين خطيبي مشهور به بهـاء ولد) أربعـة مجلّدات ، ط طهران وزارة

١٦ : مناقب : أوحد الـدّين حامـد بن أبي الفخر كـرمانيّ ، ط طهـران [بنكاه ترجمة ونشر كتاب] .

١٧ : زنـده بيدار (حيّ بن يقـظان) لابن طفيـل ، ط طهـران [بنكـاه ترجمة ونشر كتاب ، والطّبعة الثانية تشتمل على ترجمـة حيّ بن يقظان لابن سينا بالفارسيّة وترجمة قصّة غربة الغربيّة للسّهرورديّ بالفارسيّة أيضاً .

١٨ : خلاصة مثنوي رومي ، ط طهران [وزارت فرهنكك][1] .

وله مقالات كثيرة نشر أكثرها في مجلاّت : مهر وآينده ويغما وودانكشدهء أدبيّات ونامهء فرهنكستان ومجلاّت أخرى .

محمد بن الحسن بن باكير الشيرازي كاتب السبيعي ٤٧٧ ـ ٥١١ .

ترجم له ابن حجر في لسان الميـزان ١٣٤/٥ وقال : قـال ابن النجار : كـان سيداً فيـه أدب وفضل وكـان يتشيع روى عنـه ابـو المعمـر الأنصـاري وأبو طالب بن حصين وابو نصر بن الشيرازي .

محمد بن الحسن بن محمد بن القاسم بن المسور ابو الحسن الجهني الكوفي .

المتوفى سنة ٤٧٦ .

ترجم له ابن حجر في لسان الميزان ١٣٦/٥ وقال : كان شيعياً سيء المعتقد : عليّ الاسناد ، سمع من محمد بن عبد الله الجعفي وهو آخـر من حدث عنه .

روى عنـه اسماعيـل بن السمرقنـدي وغيره تـوفي سنة ٤٧٦ ولـه اثنان وثمانون سنة .

السيد محمد حسن الشّخص بن احمد .

ولـد في النجف الاشرف سنـة ١٣٣٧ وتوفي سنة ١٤٠٨ في المـدينـة المنورة خلال رحلته اليها لزيارة النبي (ص) وآل بيته .

من مشاهير خطباء المنبر الحسيني فاضل أديب شاعر .

أسرة (الشخص) معروفة في الاحساء ، ومقرهم قرية (القارة) ، ومنها نزح بعضهم الى (الكويت) و (النجف) ، ولا يـوجد اليـوم في (النجف) منهم أحد فقد عادوا جميعاً الى موطنهم الأول .

وأبرز من عرف منهم السيد محمد باقر بن السيد علي الذي كان من أبرز أساتذة الفقه والأصول في النجف الأشرف ، وهو عم صاحب الترجمة .

نشـأ في النجف وتـرعـرع ، وفي حـدود عـام ١٣٤٢ هـ تـوفي والـده الخطيب السيد أحمد الشخص عن أربعين سنة تقـريباً وكـان عمر صـاحب

---

(١) الشيخ ابوذر بيدار

الترجمة ست سنين فتولى تربيته والعناية به عمه السيد محمد باقر ، وقد درس عليه وعلى عدد من علماء النجف .

ثم بدأ يمارس الخطابة الحسينية وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وقد تتلمذ فيها على عدد من خطباء النجف وهم :

١ ـ الشيخ محمد الكاشي ، وهو أول من تتلمذ عليه .

٢ ـ الشيخ محمد حسين الفيخراني .

٣ ـ السيد صالح الحلي . ثم أصبح من أشهر الخطباء .

وكان له شعر كثير في مناسبات مختلفة خصوصاً في أهل البيت عليهم السلام ، وله عدة مؤلفات أكثرها مرتبط بالمنبر الحسيني[١] .

آقا رضي الدين محمد بن حسن القزويني .

توفي سنة ١٢١٢ .

كان من مشاهير عصره في العلم والفضل ، من مؤلفاته : ضيافة الأخوان وهدية الخلان في تاريخ قزوين . رسالة القبلة ، رسالة المقادير ، كحل الابصار ، رسالة النوروز . وله ديوان شعر .

الشيخ محمد حسن بن الشيخ محسن بن الشيخ محمد الحوزي الحائري آل ابي الحب .

ولد في كربلاء سنة ١٢٥٥ وتوفي في ١٣ شهر شوال سنة ١٣٥٧ ودفن في مقبرة خاصة له في روضة العباس عليه السلام .

من أهل الفضل والكمال وحملة العلم كثير البحث والمطالعة خطيب فقيه أخذ المقدمات على جمع من فضلاء كربلا وتخرج في الفقه والأصول على الشيخ حسن البرغاني والشيخ ميرزا علامة الحائري آل الصالحي والشيخ ميرزا علي نقي الحائري آل الصالحي وأخذ الأدب وفن الخطابة من والده الخطيب والشاعر الشيخ محسن ابي الحب المتوفى سنة ١٣٠٥ ونبغ بها فكان من فحول خطباء كربلاء ومن ائمة الجماعة في صحن العباس ومرجعاً للأمور الشرعية في الحائر الشريف وشارك في الثورة العراقية الكبرى على البريطانيين بزعامة الميرزا محمد تقي الشيرازي الحائري . ومن مؤلفاته رسالة في الارث وتقريرات استاذه الشيخ ميرزا علي نقي في الفقه والأصول وهو والد الشيخ محسن آل ابي الحب الشاعر والخطيب المتوفى سنة ١٣٦٨[٢] .

الشيخ محمد حسن بن الشيخ احمد بن الشيخ عبد الحسين بن الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر .

ولد حدود سنة ١٢٩٣ وتوفي ليلة الاثنين الثامنة من ذي القعدة سنة ١٣٣٥ كان من علماء النجف وأفاضل حوزة درس صاحب الكفاية والعروة .

وكانت له حنكة الشيوخ وقوة الشباب ، درس على الشيخ آغا رضا الهمداني والشيخ كاظم الخراساني والسيد كاظم اليزدي وغيرهم .

وله منظومة في الكلام باسم (جواهر الكلام) ومنظومة اخرىٰ في الأصول [٣] .

محمد بن الحسن بن يعصن القصار .

المتوفى سنة ٥٠٣ .

ترجم له ابن حجر في لسان الميزان ١٣٤/٥ وقال : روى عن ابي علي ابن وشاح وعنه السلفي وابن الأنماطي وغيرهما وقال شجاع الذهلي مات ٥٠٣ .

وقال الذهبي في الميزان روى عن ابي محمد الجوهري وفيه رفض انتهى ملخصاً .

اقول : ولعله الأنصاري المذكور في اللسان ١٣٥/٥ .

محمد بن الحسين البغدادي مقرىء العراق .

المتوفى سنة ٥٢١ .

قال الذهبي في الميزان . سمعت عبد الوهاب الأنماطي ينسبه الى الرفض ، أما الرفض فلا فله ابيات في تعظيم الأربعة الراشدين ان لم يكن نظمها تقية .

الشيخ محمد حسين الدهاقاني

ولد في ١٣٢٧ ، توفي ١٤٠٤ .

ولد في مدينة دهاقان (بقرب من اصفهان) وفي السابعة من عمره تعلم القراءة والكتابة ثم أخذ المقدمات في موطنه وفي سنة ١٣٤٣ ذهب الى اصفهان ودخل في مدرسة الصدر واتم النحو والصرف والمعاني والبيان والعروض والمنطق بها ثم بدأ بقراءة سطوح الفقه والأصول وعندما أكمل اللمعة والقوانين ذهب الى النجف الأشرف وأتم السطوح هناك ثم حضر بحث الشيخ ضياء الدين العراقي والسيد ابو الحسن الأصفهاني في الفقه والأصول وبعد وفاة السيد ابو الحسن لازم ابحاث الميرزا عبد الهادي الشيرازي .

وفي سنة ١٣٩١ هاجر الى ايران وسكن مدينة قم وفي سنيه الأخيرة ابتلي بأمراض عديدة حتى توفي ودفن في احدى حجرات الصحن الشريف في قم .

كان رحمه الله ـ زاهداً منعزلاً عن الناس ، له مؤلفات متفرقة في الفقه والأصول غير مجموعة[٤] .

الشيخ محمد حسين الغريب التنكابني الشهير بالشيخ حسين الرامسري ابن حبيب الله بن باقر علي بن عبد الله بن منصور بن رحيم السمامي .

ولد في ٢٠ صفر ١٢٧٩ وتوفي ١٢ جمادى الأولى ١٣٥٤ .

ولد في رامسر وتعلم المقدمات والمباديء في مدارسها ثم ذهب الى قزوين واشتغل بقراءة السطوح ثم ذهب الى طهران وحضر في المعقول عند الميرزا ابو الحسن الجلوة والآقا محمد رضا القمشه وحضر في الفقه على أعلامها وفي بداية سنة ١٣٠٤ ذهب الى النجف الأشرف فحضر في الفقه والأصول على الميرزا حبيب الله الرشتي والشيخ هادي الطهراني والحاج الميرزا حسين الخليلي ، وفي سنة ١٣١٩ رجع الى موطنه وأقام هناك مشتغلاً بالتدريس والتأليف وقضاء حوائج الناس . واشتهر أمره وتخرج من مدرسته عشرات الفضلاء والعلماء الى أن توفي في جورديه من ضواحي رامسر ونقل جثمانه الى قم ودفن بها ، له مؤلفات منها :

١ ـ جوامع الكلم ـ وهي منظومة في الأصول طبعت في حياته .

٢ ـ العشرة الكاملة ـ (في القواعد الفقهية) .

٣ ـ نان وپنير ـ منظومة فارسية نظير (نان وحلوا للشيخ البهائي) .

٤ ـ تقريرات في الأصول والفقه ـ كتبها في النجف الأشرف في سنة ١٣٠٤ و١٣٠٥ .

٥ ـ الشرح والحاشية على كتاب منطق التجريد .

٦ ـ رسائل متعددة في بعض أبواب الفقه .

---

(١) السيد هاشم الشخص.

(٢) الصالحي.

(٣) السمامي.

(٤) الشيخ محمد السمامي.

وكان ينظم الشعر باللغتين الفارسية والعربية(١).

محمد بن الحسين بن حمزة بن جعفر بن العباس بن ابراهيم الاعرابي ابن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب بن عبد المطلب الهاشمي الطالبي الجعفري .

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٤٩٦ رقم ١٠٥٠ وقال : ذكره شيخنا جمال الدين ابو الفضل احمد بن المهنا العبيدلي في المشجر (ثم أورد نسبه ناقلاً عنه ثم قال)

وقال : كان فقيهاً فاضلاً . قال ومن انشاده :

كانت مجالسنا للانس نبذله ... وللسرور وبسط الوجه والمال
فصارت اليوم ما تعدو مجالسنا ... دفع الهموم وشكوى البث والحال

محمد بن الحسين بن اسحاق بن موسى بن اسحاق بن الحسين بن الحسين بن اسحاق بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام .

السيد ابو الحسن العلوي الموسوي المروزي نقيب الطالبيين بمرو المتوفى سنة ٥٣٨ ترجم له تلميذه السمعاني في معجم شيوخه وفي التحبير ٢/١١٦ رقم ٧٣٠ وقال :

نقيب الطالبيين بمرو ولي الرياسة والنقابة بمرو مدة وكان مع شرف النسب متخلقاً بالأخلاق الحسنة متواضعاً راغباً في الخير وأهل العلم متقرباً اليهم سمع جدي أبا المظفر ووجدت سماعه في جزء من الحكايات التي جمعها جدي فحضرت داره وقرأت عليه وكان مواظباً على الجمعة والجماعات وحضور مجالس العلم وقراءة القرآن واتفق في الاغارة بمرو حمله خوارزمشاه الى خوارزم وكان قد كف بصره قبل ذلك بمدة واسكنه خوارزم الى أن مات بها في المحرم سنة ٥٣٨ وحمل الى كاث ودفن بها مدة ثم نقلت جنازته الى مرو (فدفن) بسنجان احدى مقابر مرو(٢).

السيد محمد بن السيد حسين بن المير عبد المطلب الحسيني الرامسري الشهير بـ (بسمل) .

ولد حدود ١٢٧٠ وتوفي ١٣٠٠ .

ولد في رامسر وفيها تعلم القراءة والكتابة والمقدمات والسطوح وفي ريعان شبابه ابتلي بمرض الأعصاب فانعزل عن الخلق وانزوى ثم اصيب بالفالج واشتد مرضه الى أن توفي بها وله قصائد راقية في رثاء الحسين عليه السلام وكان تخلصه الشعري (بسمل)(٣).

الشيخ محمد حسين بن الشيخ سليمان بن ولي الله بن امر الله بن عبد الله الجندقي المهرجاني الحائري الشهير بالأعلمي .

ولد سنة ١٣٢٠ في قرية مهرجان بايران وتوفي في ٢٣ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٩٣ في قم ودفن في الصحن الجديد في روضة السيدة المعصومة بنت الامام موسى الكاظم عليه السلام .

اخذ أوليات العلوم على والده ثم هاجر مع ابيه الى خراسان وأكمل المقدمات وفي سنة ١٣٤٠ توجه الى العتبات المقدسة في العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى فاستقر في كربلاء واكمل السطوح ثم توجه الى النجف الأشرف والتحق بحوزة الشيخ ميرزا حسين النائيني وآغا ضياء العراقي والسيد ابو الحسن الأصفهاني ثم رجع الى كربلاء وتخرج على السيد آغا حسين القمي والسيد عبد الهادي الميلاني والسيد مهدي الشيرازي وحصل على اجازات من علماء العراق وايران وتصدر لتدريس المقدمات والسطوح في المدرسة الهندية بكربلاء وكان مشغولاً في تأليف كتابه دائرة معارف الأعلمي وقد قام بتأسيس مكتبة ثمينة حوت اكثر من ثلاثة آلاف كتاب من نوادر المطبوعات ومجموعة من المخطوطات كانت في احدى الحجرات الجنوبية في المدرسة الهندية وفي سنة ١٣٩٥ صودرت من قبل النظام التكريتي، الحاكم في العراق وانتقل المترجم له في سنة ١٣٧٤ الى ايران وسكن في المدرسة الفيضية بقم وباشر بطبع الجزء الأول من دائرة معارف الأعلمي المسماة (مقتبس الأثر ومجدد ما دثر) في ثلاثين مجلداً طبع الجزء الأول منها في قم سنة ١٣٧٤ والجزء الثلاثون في سنة ١٣٩٣ وله كتاب تراجم اعلام النساء طبع في مجلدين في بيروت سنة ١٤٠٧(٤).

الشيخ محمد حسين بن محمد جعفر التنكابني .

ولد حدود ١٢٢٠ وتوفي بعد ١٢٧٠ .

ولد في تنكابن وتعلم المقدمات والأوليات في مدارسها ثم ذهب الى اصفهان واهتم بتحصيل العلوم الفلسفية له مؤلفات منها :

١ ـ الذروة العالية ـ في شرح دعاء كميل .

٢ ـ الحاشية على كتاب المشاعر(٥).

الشيخ محمد بن الحسين بن مهدي المهدوي السعيدي اللاهيجي .

ولد في رمضان ١٣١٧ وتوفي في ثالث ربيع الثاني ١٤٠٣ .

ولد في مدينة لاهيجان ونشأ برعاية ابيه الذي كان احد علماء تلك المدينة وقرأ المقدمات على ابيه ثم انتقل الى مدينة رشت وحضر على الشيخ بهاء الدين اللاهيجي والسيد علي اللاهيجي والميرزا كاظم اللاهيجي والسيد اسد الله الكيسمي المطول وشرح الشمسية والمعاني والبيان وفي سنة ١٣٣٧ سافر مع اخيه الشيخ مهدي الى النجف الأشرف فحضر المعالم عند الشيخ علي اكبر الخونساري وشرح اللمعة عند الشيخ شمس القرميني والقوانين والرسائل عند الشيخ حبيب الاربيلي والمكاسب عند الشيخ محمد حسين الطهراني والفلسفة عند الميرزا مهدي الاشتياني والميرزا احمد الاشتياني والأخلاق والعلوم الرياضية والهيئة والتفسير عند الشيخ مرتضى الطلقاني وحضر الكفاية عند الشيخ عبد الحسين الرشتي (صاحب الحاشية على الكفاية) ثم حضر في الفقه والأصول خارجاً على الشيخ احمد كاشف الغطاء والسيد محمد الفيروز آبادي والشيخ مهدي المازندراني والسيد ميرزا آقا الاصطهباناتي والميرزا حسين النائيني والشيخ شعبان الجيلاني والشيخ ضياء الدين العراقي والسيد ابو الحسن الأصفهاني والسيد جمال الدين الكلبايكاني وحضر في الكلام والعقائد على الشيخ محمد جواد البلاغي والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء واجيز بالاجتهاد من اساتذه السيد جمال الدين الكلبايكاني والسيد ميرزا آقا الاصطهباناتي والشيخ شعبان الجيلاني والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والسيد محمد الحسني البغدادي والسيد جواد الطباطبائي التبريزي والميرزا باقر الزنجاني وغيرهم .

رجع الى ايران اثر حادث مؤلم سنة ١٣٩٤ وبقي في لاهيجان الى آن اصيب بمرض القلب وحمل الى طهران فتوفي بها وحمل جثمانه الى مسقط رأسه ودفن في مدرستهم العلمية .

ترك مؤلفات قيّمة يناهز عددها الثمانين منها : (دانشمندان كيلان) في عدة مجلدات (وجغرافياي كيلان) و (رجال دوهرارساله كيلان) وتفسير القرآن الكريم وأخلاق محمدي وغيره . .

---

(١) الشيخ محمد السمامي .
(٢) السيد عبد العزيز الطباطبائي .
(٣) الشيخ محمد السمامي .
(٤) الصالحي .
(٥) الشيخ محمد السمامي .

كان رحمه الله عابداً زاهداً ورعاً لا تأخذه في الله لومة لائم وكان وفياً مع أصدقائه متواضعاً عاشرته عشر سنوات ما رأيت منه مكروهاً قط[١].

الشيخ محمد رضا التنكابني.

توفي بعد ١٠٩٢.

ولد في تنكابن ونشأ بها ثم ذهب الى اصفهان وأقام مدة بها ثم ذهب الى قزوين وحضر بحث المولى خليل القزويني (المتوفى سنة ١٠٨٩) ـ وبعد وفاة استاذه اشتغل بالتدريس له حواشي متفرقة على بعض الكتب الحديثية[٢].

محمد بن حماد بن سلمان بن المحسن ابو غالب العلوي الموسوي من أهل مرو.

توفي سنة ٥٥٨.

ترجم له السمعاني في معجم شيوخه في التحبير ٢/١٢٤ قال : سكن نيسابور وكان مختصاً بوالدي رحمه الله وكان والده من أصحاب الامام جدي وكان صدوقاً صحيح السماع كافياً شهماً من الرجال . . . وهو غال في التشيع والرفض سمع جدي الامام أبا المظفر وأبا القاسم اسماعيل بن محمد الزاهري وأبا القاسم عبد الله بن الحسن القرنيني وغيرهم سمعت منه مجالس من مجالس جدي وكانت ولادته في شهر ربيع الأول سنة ٤٧٨ بمرو وتوفي بنيسابور يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة ٥٥٨.

محمد بن حمزة بن اسماعيل بن الحسين بن علي بن الحسين بن القاسم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب ابو المناقب العلوي الحسني الهمداني ٤٦٦ ـ ٥٣٢.

ترجم له ابن حجر في لسان الميزان ٥/١٤٨ وقال : من أهل همدان طلب بنفسه وكتب الكثير بخطه .

سمع أبا اسحاق الشيرازي الفقيه بهمدان ، وبأصبهان من اصحاب ابي نعيم وببغداد كثيراً من اصحاب ابي علي بن شاذان وابن شبران وابن غيلان .

روى عنه ابن ناصر وابن الخشاب وابن عساكر وغيرهم قال ابن ناصر كان فيه تساهل في الأخذ والسماع وهو ضعيف الحديث عند أهل بلده وغيرهم .

قال ابو سعد بن السمعاني : له معرفة بالحديث حسن الشعر جمع وصنف وكان حسن المعاشرة مليح المحفوظ لقيته بهمدان وسألته عن مولده فقال في صفر سنة ٤٦٦.

توفي في شوال سنة ٥٣٢.

وترجم له الحافظ ابن عساكر في معجم شيوخه الورقة ١٨٦ ب وسرد نسبه كما هنا وذكر كلا من آبائه بكنيته واسمه وقد تقدمت اسماؤهم فاليك كناهم فهو :

ابو المناقب بن ابي المعالي بن ابي عبد الله بن ابي الفضل بن ابي الحسين بن ابي عبد الله بن ابي جعفر بن ابي عبد الله بن ابي محمد ابن ابي الحسين بن ابي محمد بن ابي الحسن امير المؤمنين عليه السلام .

روى عنه قراءة عليه بالمدرسة النظامية ببغداد عن ابي القاسم الفضل بن احمد بن محمد الجرجاني الزجاجي قدم عليه همدان بفاطماباد[٣].

الشيخ محمد رضا الطبسي النجفي ابن عباس .

ولد في ١٨ شعبان ١٣٢٤ ، في مدينة مشهد وتوفي سنة ١٤٠٥ في مدينة قم تلقى المبادىء الأولية في طبس، ثم سافر الى مشهد، لأكمال المقدمات، ثم الى قم فأكمل الفقه والأصول على السيد محمد تقي الخونساري والسيد علي اليثربي الكاشاني، وحضر المعقول على الشيخ علي اكبر اليزدي ، والشيخ محمد علي الشاهابادي، ثم حضر على الشيخ عبد الكريم الحائري ، سبع سنين ، وكان من أفاضل تلامذته .

هاجر الى العراق ، فحضر في النجف على الشيخ محمد جواد البلاغي في المناظرة ، وعلى الشيخ ضياء الدين العراقي في الأصول، وبعد وفاة البلاغي (١٣٥٢ هـ) اتصل بالسيد أبي الحسن الموسوي الأصفهاني ، والشيخ حسين النائيني ، ثم انقطع الى السيد ابي الحسن الأصفهاني ، حتى صار من خواصه ، ومن أعضاء مجلس فتياه ، الذي عقده في سنيه الأخيرة ، حتى توفي أبو الحسن (ره) سنة ١٣٦٥.

من مؤلفاته المطبوعة : منية الراغب في ايمان ابي طالب ، وذرائع البيان في عوارض اللسان ، ومن المخطوطة : ذخيرة الصالحين في شرح تبصرة المتعلمين ، ومقتل الحسين، والأربعون حديثاً من الأربعين، ودروس في العقائد والتاريخ .

المولى محمد زمان بن حاجي مراد خان التنكابني الديلمي .

توفي بعد سنة ١١١٨.

من العلماء الفضلاء وكان يسكن في اصفهان ، ترجم كتاب اسرار الصلاة (للشهيد الثاني) بأمر السلطان حسين الصفوي في سنة ١١١٨ الى الفارسية وله تعاليق على كتاب تلخيص المنطق توجد نسخته في مكتبة مدرسة سبه سالار في طهران[٤].

مجد الدين ابو الحسن محمد بن زكي الدين الحسن بن ابي الفتوح محمد بن عز الدين المرتضى بن اسماعيل بن محمد بن علي بن الحسن بن عيسى الأكبر بن ابي عبد الله محمد بن علي العريضي الحسيني.

المتوفى سنة ٦٧٨.

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٢٢٧ رقم ٤٦٤ ووصفه بالفقيه الامامي وقال :

ذكره شيخنا جمال الدين ابو الفضل بن مهنا الحسيني في المشجر وقال : له فضل وأدب وفقه ونظم حسن توفي ثاني عشر شهر رمضان سنة ٦٧٨.

ابو منصور محمد بن زيد بن محمد بن محمد بن زيد بن احمد امير الحاج بن ابي الفتح محمد بن محمد بن ابي الحسن الاشتر بن عبيد الله بن علي بن عبيد الله بن علي بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين بن ابي عبد الله الحسين بن علي بن ابي طالب (عليهم السلام) .

مجد الدين بن ضياء الدين بن كمال الشرف العبيدلي العلوي الموصلي النقيب بالموصل .

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٢٣٣ رقم ٤٨٠ وسرد نسبه وقال : كانت وفاته في ذي القعدة سنة ٦٦١.

وذكر في موارد الاتحاف ٢/١٨١ : ان له ثلاث بنين ابو عبد الله زيد وكمال الدين حيدرة والمرتضى ، قاله ابن مهنا في التذكرة وفي مشجره .

الشيخ الكبير العالم المعمر مسند وقته ابو علي محمد بن سعيد بن ابراهيم بن سعيد بن بنهان البغدادي الكرخي، الكاتب .

هكذا وصفه الذهبي في (سير اعلام النبلاء) ثم قال : ولد سنة احدى

(١) الشيخ محمد السمامي.
(٢) الشيخ محمد السمامي.
(٣) السيد عبد العزيز الطباطبائي.
(٤) الشيخ محمد السمامي.

عشرة وأربع مئة سمع بعد العشرين من ابي علي بن شاذان وبشرى الفاتني وابن دوما النّعامي وجده لأمه ابي الحسين الصابي ، عُمّر دهـراً طويـلاً ، وألحق الصغار بالكبار ولم يكن سماعه كثيراً .

ثم ذكر من حدّث عنه ، ثم قال : قال السمعاني : هو شيخ عالم فاضل مسنّ من ذوي الهيئـات ، وكـان آخـر من روى عن ابن شـاذان ولي منـه اجازة ، قال ابن ناصر : فيه تشيع وكان سماعـه صحيحاً ، بقي قبـل موتـه ملقى على ظهره لا يعقل ، فمن قرأ عليه في تلك الحالة فقد أخطأ وكـذب عليه فإنـه لم يكن يفهم ما يُقرأ عليه من أول سنـة احدى عشـرة : قال ابن ناصر : وسمعتـه يذكـر مولـده ثم سمعته مـرة يقول : سنـة خمس عشرة ، فكلمته في ذلك فقال : أردت أن أدفع عني العين ، والا فمولدي سنة احدى عشرة .

قال ابو سعد السمعاني : سمعت أبا العلاء بن عقيل يقول : كان شيخنا ابن نبهـان (المترجم) اذا طـوّل عليه المحدّثون قـال : قوموا فان عنـدنا مريضاً ، بقي على هذا سنين ، فكانوا يقولون : مريض ابن نبهان لا يبرأ .

وقال ابن ناصر : كان ابن نبهان قد بلغ ستاً وتسعين سنة ، سمّعه جده هلال بن المحسن في سنة ثـلاث وعشرين ، ولم يكن من أهـل الحديث، وكان اولاً على معاملة الـظلمة ، وكـان رافضياً . والصحيح ان مولـده سنة خمس عشـرة ، وكـذا نقـل الحميـدي، وذكـر انـه وجـده بخط جـده ابن الصابىء، ومات في شوال سنة احدى عشرة (انتهى).

محمد صادق بن حاجي مراد التنكابني.

توفي بعد سنة ١٠٩٩ .

كان من العلماءوالفلكيين ـ له شرح على كتاب الملخص (في الهيئة) اتمه في يوم الثلاثاء ثالث صفر سنة ١٠٩٩ توجد نسخته في مكتبة ملي فارس اقول : يحتمل بأنه اخ المولى محمد زمان بن حاجي مراد[١].

الحاج الشيخ محمد صالح المجتهد التنكابني.

ولد حدود ١٢١٠ وتوفي بعد ١٢٦٠.

ولد في تنكابن وقرأ المقدمات في مدارسها ثم ذهب الى اصفهان وحضر في المعقول على المولى علي النوري وفي الفقه والأصول على اعلامها ثم ذهب الى كربلا وحضر على السيد محمد الطباطبائي في الفقه والأصول ثم ذهب الى النجف الأشرف واستفاد من اعلامها وفي حدود ١٢٤٥ رجع الى موطنه وشيد مدرسة دينية تخرج منها عشرات الفضلاء[٢].

الشيخ محمد صالح بن محمد باقر القزويني المعروف بالروغني.

توفي سنة ١١١٦ في المشهد الرضوي.

كان من علماء الشيعة في العصر الصفوي أديب حكيم عارف نحرير ولد في قزوين وقرأ على جمع من فحول علمائها ثم هاجر الى أصفهان والتحق بحوزة الميرباقر الداماد المتوفى سنة ١٠٤٢ ثم عاد الى موطنه قزوين وتخرج على الشيخ محمد كاظم الطالقاني المتوفى سنـة ١٠٩٤ في مدرسـة النواب بقزوين وفي سنة ١٠٧٥ هاجر الى خراسان وسكن مـدينة مشهـد المقدسـة فكان من كبار علماء خراسان وفي سنة ١٠٧٥ وهو عام هجرته الى المشهـد ألف كتـابه (بـركات المشهـد المقدس) وهـو ترجمـة لكتاب عيـون أخبار الرضا (ع) الى الفارسية وذكر في آخره انه أوجب على نفسه بالعهد واليمين ان لا يفارق المشهد طول عمره واختـطفه القـدر المحتوم في هـذه المدينـة سنة ١١١٦ ودفن بها وظفرت بتاريخ وفاته بخط أحد تلاميذه على ظهر كتاب (حكمت اسلام) الموجودة عندنا. ومن أحفاده في قزوين الشيخ الآغا كريم

(١) الشيخ محمد السمامي.

(٢) الشيخ محمد السمامي.

الروغني القزويني المتوفي سنة ١٢٨٣ من أعلام العصر القاجاري المـذكور في المـآثـر والآثـار[٣]المـار الـذكـر وتعـرف اسـرتـه اليـوم في قـزوين بـآل الأرجمندي . ذكر المترجم له الحر العاملي في كتابه أمل الآمل قال (مولانا محمد صالح بن محمد باقر القزويني المعروف بالروغني عالم فاضل كامل ، له كتب ورسائل منها كتاب ترجمة عيون أخبار الرضـا (ع) ، وترجمـه نهج البلاغة ، وترجمة الصحيفة السجادية ، ومقامـات ، وشرح فـارسي لدعـاء السمات ، ورسالة في اكل آدم من الشجـرة ، وشرح بعض أشعـار المثنوي الـرومي)[٤]أقول : لـه مؤلفات طبع بعض منهـا مـراراً منهـا اكـل آدم من الشجـرة ، بركـات المشهد وهـو ترجمـة لكتاب عيـون اخبار الـرضـا (ع) الامامة ، ترجمة توحيد المفضل ، ترجمة محاضرات الراغب الى الفارسية ، ترجمة عهد نامه مالك الاشتر ترجمة الصحيفة السجادية مع شـرح فارسي، شرح الصحيفة السجادية بالعربية وبها صرح انه تلمذ على المير باقر الداماد، ترجمة مع شرح نهج البلاغـة طبعة سنـة ١٣٢١ بتحقيق الميرزا علي عمـاد لشكر الآشتياني خطأً باسم المولى محمد صـالح البـرغاني قـد سبق لي ان نبهت في مقدمة موسوعة البرغاني في فقه الشيعة ج ١ ص ٣٥ ثم طبعه ثانية سنة ١٣٨٠ في طهران باسم المترجم له وهو من أنفـع وأجل شـروح النهج بالفارسية ، حكمت اسلام طبع مراراً رسـالة في احكـام وشرائط الـدعـاء ، شرح اشعار المثنوي، شرح دعاء السمات ، المقامات ، رسالة في جـواب الرجل المرتد، منثور أدب الهي ودستور العمل كارآكاهي شرح فارسي مبسوط لوصية امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليـه السلام لـولده الامـام الحسن عليه السلام وجميع النسخ موجودة عندنا[٥] .

مولانا محمد صالح الترشيزي.

توفي سنة ١١٦٠ في قرية (قوجد) من قرى ترشيز عن ٥٨ عاماً .

درس في اصفهـان على كبار علمـائها واجيـز منهم ثم عاد الى قـريتـه وانشغل بالعبادة والدراسة . ويقول صاحب (تاريخ علمـاء خـراسان) ان لـه تآليف كثيرة ولكنه لم يذكر شيئاً منها .

الشيخ محمد صالح قفطان بن الشيخ مهدي.

ولد في مدينة الحي (العراق) عام ١٢٩٤ عندما كان والده يتردد اليها . ونشـأ في النجف الأشرف فـأخذ المقـدمات على أسـاتذة عصـره ، ثم ترك النجف متولياً الخـطابة الحسينيـة . وكان ينـظم الشعر فتـرك ديوانـاً شعريـاً مخطوطاً . وكان يتردد على شيوخ الغرّاف وينشدهم الأشعار، وله فيهم الكثير من الشعر .

شعره

من قصيدة له في مدح الامام علي عليه السلام . وفي آخرها يمدح من يسمي (محسن) :

تـبـاً لـقـوم مـا اقـتـفـوا آثـاره
عـمـيـاً ألـم تـرشـدهـم الآثـار

كـلا بـل اتـضـحـت لـهـم سـنـن الـهـدىٰ
مـنـه ولـكـن خـالـفـوه وجـاروا

ان غـاب مـهـدي الـهـدىٰ عـن ديـنـه
فـبـمـحـسـن قـد شـع فـيـه مـنـار

(٣) الميـرزا محمد حسن خـان اعتماد السلطنة المآثر والآثار ص ١٧٩ الـطبعة الاولى الحجرية .

(٤) الشيخ الحر العاملي امل الآمـل تحقيق السيد احمـد الحسيني ج ٢ ص ٢٧٧ الطبعـة الاولى سنة ١٣٨٥ هجرية النجف مطبعة الاداب .

(٥) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

العيلم العلم المفيض على الورى
من رفده أو رشده تيّار
ندب سما خلقاً وخلقاً فانثنى
عن فضله النظّام والنثّار

وله من قصيدة في رثاء الحسين عليه السلام :

وما في الملا كبلا كربلا
فبالحزن جدد اعوامها
فمن دونها شمرّت فتية
شهدن المواقف إقدامها
ذوونجدة انجدت في القراع
كما انجدت فيه اتهامها
رواسي الهياج ببأس شديد
اذا ضعضع الخطب احلامها
اسود الكفاح لها الحتف راح
مواضي الصفاح غدت جامها
فسمرهم قد نظمن الكماة
كما بيضهم نشرت هامها
هم سامروا السمر مذ اعربت
بالحانها البيض انغامها
كأنّ الملاحم غيد الملاح
بها ضاعف الشوق تهيامها
بسوق عكاظ العلى ارخصوا
نفوساً سوى المجد ما استامها
وعاد فريد العلى مفرداً
له تجمع الحرب اقوامها
وأصبح مقدام هيجائها
وقطب رحاها وضرغامها
فيوم الردى كان مطعانها
ويوم الندى كان مطعامها
ترى منه اشوس ليث الشرى
عميد الملاحم مقدامها
وما كرَّ الا وفرَّ العدا
وقد سابق الهام أقدامها
اذا نثر الصيد بتّاره
فخطاره عاد نظامها
وان جمع الشوس خطيّه
فهنديّه كان قسّامها
وان اعجم الرمح تكليمها
فماضيه يعرب اعجامها
هوى فقل الشمس قد كوّرت
ضحىً فاشتكى الأفق اظلامها
وعلّا برأس القنا رأس من
له الشوس كم طأطأت هامها
واعظم ما قد دها غالباً
رزايا تكابد اعظامها
هجوم الأعادي وقد ازعجت
على حرم الله ايتامها
واوروا خباها بنار الضلال
ففرّت تكابد ما ضامها
هواتف هذي اخي ذي ابي
وهاتيك تندب اعمامها
وقد جلببت مذ سلبن البرود
برود المهابة اجسامها
وركبن للسبي عجف الطلاح
تجوب البطاح وآكامها
ورآها يغرّد حادي المطى
ورأس ابن احمد قدامها

وله راثياً مرجع عصره السيد ابو الحسن الأصفهاني :

ما زعزع العرش حتى استوقف القلما
خطب اطلّ فابكى العلم والعلما
خطب له اضحت الاملاك هاتفة
نعياً بقلب المعالي والهدى اضطرما
قوس القضا سددت سهم الردى وبه
قلب المعالي وصدر المكرمات رمى
يا حامياً حوزة الاسلام مجتهداً
من بعد نعشك للدين الحنيف حمى؟
كأنّ نعيك في الآفاق صاعقة
توري الورى ضرماً تجري الدموع دما
كأن نعشك والأملاك محدقة
به الامام عليه العالم ازدحما
سارت تشيعه والوجد يضرم في
احشائها ومآقيها سفحن دما
مدوا الأكف لحمل النعش تحسبها
مدت له تستقى من كفه الديما
نضبت بحراً فمن يروي غليل ظما
وغبت بدراً فمن يجلو لنا الظلما

الشيخ محمد بن صدر الدين محمد بن ابو القاسم التنكابني الشهير بـ (شيخ كبير) .

ولد ١٢٦٠ ، توفي بعد ١٣٣٠ في تنكابن .

ولد في تنكابن ونشأ بها برعاية ابيه ثم اخذ المقدمات وحضر السطوح على أخيه وفي حدود ١٢٨٠ ذهب الى قزوين وأقام مدة هناك ثم ذهب الى طهران وحضر في الفقه والأصول والفلسفة على اعلامها ثم ذهب الى (تاكستان قزوين) وسكن بها ثلاث سنوات بدعوة من اهاليها وبعد ذلك رجع الى تنكابن وسكن (مزردشت) واشتهر صيته وعرف بـ (شيخ كبير) .

خالف والي تنكابن الأمير اسعد بن سبه سالار وأيده السيد صادق الشهير بـ (مجتهد تنكابني) والمولى سليمان الرونقي . وأفتى الشيخ الكبير بأخذ اموال الوالي ـ واشتد الخلاف بينهما ـ ثم اعتقل من قبل الأمير اسعد . فبلغ ذلك علماء طهران . فطلبوا من الحكومة معاقبة الوالي وعلى اثر ذلك عزل الوالي الأمير اسعد عن مقامه[1] .

الميرزا محمد طاهر بن ظفر خان احسن بن الخواجّه ابو الحسن الشاهجهاني التربتي الملقب بعناية خان والمتخلص بآشنا.

توفي سنة ١٠٨١ في كشمير ودفن بها .

(١) الشيخ محمد السمامي .

من رجالات كشمير البارزين وأهل الفضل ومن أرباب الأدب وأقطاب شعراء الشيعة في الهند ولد في كشمير وأخذ العلم والأدب على اعلام الشيعة هناك وتخرج في الشعر وفنون الأدب علس ابيه المولى ظفرخان احسن التربتي الذي كان من رجال البلاط المغولي في الهند ومن أساتذة الأدب الفارسي في كشمير وله دور هام في نشر الأدب والشعر الفارسي في تلك النواحي وكما أن جده الخواجة ابو الحسن التربتي المتوفى سنة ١٠٤٢ كان من الأدباء وناشري الأدب الفارسي في كشمير والوزير الأعلى في بلاط السلطان جهانكير . والمترجم له كان من رجالات بلاط السلطان جهان وفي اواخر أيام حكومته فوض اليه رآسة مكتبة البلاط الملكي حتى اوائل حكومة السلطان اورنك زيب (١٠٦٨ ـ ١١١٨) في كشمير ثم ترك جميع مناصبه ومارس حياته الأدبية ولقبه السلطان بعناية خان ، وقال معاصره الميرزا محمد طاهر النصر آبادي في كتابه (تذكرة نصر آبادي) (. . . لقبه السلطان شاه جهان . بلقب عناية خان وكان حاد الذكاء . . . وأرسل الينا ديوانه مع ديوانه الثاني الحاوي على غزليات خسرو وكتاباً آخر وكان اسلوبه في النظم متيناً رائعاً جداً ويتخلص في شعره بآشنا . . .)[1]اشار الى ديوانه شيخنا الاستاذ آغا بزرك الطهراني في الذريعة الى تصانيف الشيعة الجزء التاسع من القسم الأول ص ٧ كما ذكره صاحب مآثر الأمراء في ج ١ ص ٧٣٧ وج ٢ ص ٧٥٨ و٧٦٢ وغيرهم ويحتوي ديوانه على الغزليات والرباعيات والقصائد في اكثر من ألف بيت ، وكانت اشعاره في اسلوب رائع ، لطيف، سلس، متين ، كما انه مع ابيه وجده من الناشرين للتشيع في تلك النواحي في الهند وكانت دارهم مأوى وملجأ ومسكناً للعلماء والشعراء والأدباء الشيعة المهاجرين من جبل عامل والعراق وايران الى الهند[2].

الشيخ محمد بن عبد الحسين الرشتي النجفي.

ولد في ١٣٣٦ توفي في غرة شوال ١٣٩٣ .

ولد في النجف الأشرف وقرأ المقدمات والسطوح عند بعض الأسانيد ثم حضر في التجويد عند السيد آغا امام التستري والمنظومة عند الشيخ شمس الجنابذي والكفاية عند والده ثم حضر بحث الخارج عند الميرزا عبد الهادي الشيرازي والسيد محسن الحكيم ووالده والميرزا باقر الزنجاني والميرزا حسن البخوردي ثم سافر الى الهند ومصر وايران وكيلاً عن السيد الحكيم ولما طغى النظام التكريتي في العراق كان ممن ناله جوره فهاجر الى ايران وسكن مشهد الرضا وتوفي فيه ودفن في دار الزهراء بقرب من قبر الشيخ البهائي .

له آثار منها :

تحقيق وتصحيح فهرست الشيخ منتجب الدين ومعالم العلماء[3].

معين الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الرزاق بن محمد الجعفري الزاهد.

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٦٨٨/٥ رقم ١٥٠٧ وقال هو ابو عبد الله محمد بن عبد الرزاق بن محمد بن عبد الرزاق بن اميرة ابن ابي المعالي بن ابي منصور بن طالبي بن اسحاق بن محمد بن علي بن الحسن بن احمد بن احمر عينه حمزة بن القاسم بن اسحاق بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب بن عبد المطلب الهاشمي الطالبي الجعفري .

ذكره شيخنا جمال الدين ابو الفضل بن المهنا العلوي في مشجره

(١) الميرزا محمد طاهر النصر آبادي: تذكرة نصر آبادي تحقيق وحيد دستكردي ص ٥٨ طهران منشورات الفروغي .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٣) الشيخ محمد السمامي .

وقال : هو عم الصدر عزيز الدين شرفشاه ووصفه بالزهد والعلم والعبادة .

مختص الدين ابو عبد الله محمد بن عزيز الدين شرفشاه بن محمد الجعفري الاديب.

المتوفى سنة

هكذا ترجمه ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٤٥٦/٥ رقم ٩٥٢ وقال : قدم في خدمة والده وولي والده الأعمال الديوانية باكتساب الأخلاق النفسانية وادب نفسه في التحصيل والأشتغال بالعلوم الأدبية وقرأ الأدب والفقه ، وحفظ كتاب نهج البلاغة ، وذكره لنا شيخنا السيد النسابة جمال الدين ابو الفضل بن المهنا وقال : توفي شاباً سنة ٦٨٠ .

اقول : وأورد ابن الفوطي نسبه في ترجمة عمه معين الدين ابي عبد الله محمد بن عبد الرزاق برقم ١٥٠٧ .

محمد بن عمرو السوسي الكوفي نزيل مصر المتوفى سنة ٢٥٩ .

ترجم له ابن حجر في لسان الميزان ٣٢٨/٥ والذهبي في الميزان وقال عن عبد الله بن نمير قال العقيلي : كان بمصر يذهب الى الرفض حدث بمناكير حدثنا عنه جماعة .

وقال ابن حجر في لسانه : وقال انه كوفي وأخرج له من روايته . . . وهو محدث مكثر روى عن عبد الله بن نمير وأبي معاوية وعيسى بن عيسى الرملي ويعلى بن عبيد ووكيع وأسباط بن محمد وغيرهم .

روى عنه الطحاوي كثيراً ومحمد بن الربيع الجيزي وابو الجهم ابن طلاب وابو الأحمد الامام وأبو العباس بن ملاس وابو الحسن بن جوصا وآخرون .

وذكره ابن يونس في الغرباء فقال كوفي قدم مصر وحدث وكأن انصرافه من الحج فمات في الطريق في بعض المناهل بين مكة ومصر في أول المحرم سنة ٢٥٩ .

وقال ابو سليمان : حدثنا ابو جعفر الطحاوي قال مات ساجداً وقد استوفى مائة سنة .

وقال الطحاوي ايضاً حدثني ابو علي ابن الأشعث انه كان معه وانه قال له انظر هل ترى الهلال ؟ قال فنظرت فقلت له رأيته فقال لي استوفيت مائة سنة ثم نزل فقال : وضئني لصلاة المغرب فوضأته فدخل فيها فسجد سجدة فطال علي امره فيها فوجدته ميتاً[4].

السيد محمد بن السيد عبد الكريم الشهير بمولانا.

ولد في شهر ربيع الأوّل سنة ١٢٩٤ في تبريز وتوفّي فيها سنة ١٣٦٣ .

كان من أكابر علماء تبريز ومجتهديها وكان فقيهاً ، أصولياً، محقّقاً، مدقّقاً، صاحب الفضائل الخلقية والسجايا الحميدة .

هاجر مع والده سنة ١٣١٢ إلى النجف الأشرف وتتلمذ في الفقه والأصول لدى أساتذة العصر: الفاضل الشربياني، شيخ الشريعة الأصفهاني والشيخ هادي الطهراني، والآغا رضا التبريزي .

وأخذ المعقول من الحاج الميرزا أحمد الشيرازي ونال الإجازة منهم ، ثم عاد إلى تبريز في شهر صفر سنة ١٣٢١ .

له تصانيف ، منها : براهين الحق ، مصباح الوسائل في شرح الرسائل ، طريق الهداية في علم الدراية ومفتاح المطالب في شرح المكاسب[5].

(٤) السيد عبد العزيز الطباطبائي .

(٥) السيد ابراهيم السيد علوي .

الامير عز الملك محمد بن عبد الله بن احمد الحراني.

المتوفى سنة ٤٢٠ .

ترجم له اليافعي في مرآة الجنان ٣٦/٣ وقال : الأديب العلامة صاحب التواليف وكان رافضياً له كتاب : القضايا الصائبة ، في التنجيم في ثلاثة آلاف ورقة وكتاب الأديان في العبادات في ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة وكتاب التلويح والتصريح في الشعر ثلاثة مجلدات وكتاب تاريخ مصر

الأفضل محمد بن عبد الكريم بن احمد الشهرستاني ابو الفتوح .

قال الذهبي في (سير اعلام النبلاء) :

برع في الفقه على الامام احمد الخوافي الشافعي ، وقرأ الأصول على ابي نصر بن القشيري وعلى ابي القاسم الأنصاري . وصنف كتاب (نهاية الإقدام) وكتاب (الملل والنحل) . وكان كثير المحفوظ قوي الفهم مليح الوعظ .

سمع بنيسابور من ابي الحسن بن الاحزم . قال السمعاني : كتبت عنه بمرو ، وحدثني انه ولد سنة سبع وستين وأربع مئة . ومات في شعبان سنة ثمان وأربعين وخمس مئة .

ثم قال : غير انه كان متهماً بالميل الى اهل القلاع والدعوة اليهم والنصرة لطاماتهم .

قال في « التحبير » : هو من أهل شهرستانة[1]، كان اماماً اصولياً عارفاً بالأدب وبالعلوم المهجورة . قال وهو متهم بالالحاد، غال في التشيع .

وقال ابن ارسلان في « تاريخ خوارزم » عالم كيس متفنن ، ولولا ميله الى أهل الالحاد وتخبطه في الاعتقاد لكان هو الامام ، وكثيراً ما كنا نتعجب من وفور فضله كيف مال الى شيء لا أصل له ، نعوذ بالله من الخذلان ، وليس ذلك الا لاعراضه عن علم الشرع واشتغاله بظلمات الفلسفة . وقد كانت بيننا محاورات ، فكان يبالغ في نصرة مذاهب الفلاسفة والذب عنهم ، حضرت وعظه مرات ، فلم يكن في ذلك قال الله ولا قال رسوله ، سأله يوماً سائل ، فقال : سائر العلماء يذكرون في مجالسهم المسائل الشرعية ويجيبون عنها بقول ابي حنيفة والشافعي ، وانت لا تفعل ذلك ، فقال :

مَثَلي ومثَلُكم كمَثَل بني اسرائيل يأتيهم المن والسلوى، فسألوا الثوم والبصل.

الى ان قال ابن ارسلان : مات بشهرستانة سنة تسع وأربعين وخمس مئة ، قال وقد حج سنة عشر وخمس مئة، ووعظ ببغداد (انتهى).

،هكذا ترجم الذهبي للشهرستاني صاحب كتاب (الملل والنحل) ، وهو وان كان ينسب الأقوال لغيره فما دام لم يعلق عليها فمعنى ذلك انه يتبناها .

فالشهرستاني هنا هو طوراً متهم بالميل الى اهل القلاع والدعوة اليهم والنصرة لطاماتهم ، وطوراً متهم بالالحاد، وانه غال في التشيع .

والمقصود بأهل القلاع هم الاسماعيليون النزاريون ، اهل قلعة ألموت وغيرها من القلاع التي كانت تحت سلطنتهم .

وتعرف مدى افتراءات الذهبي ومن نقل عنهم ننقل لك ما قاله الشهرستاني نفسه عن الاسماعيليين النزاريين بعد شرح عقائدهم ونقل اقوالهم :

قال الشهرستاني : « وكم قد ناظرت القوم على المقدمات المذكورة ، فلم يتخطوا عن قولهم: أفنحتاج اليك ؟ أو نسمع هذا منك ؟ . او نتعلم منك ؟

(١) الصحيح : شهرستان، وهي مدينة في خراسان .

وكم قد ساهلت القوم في الاحتياج ، وقلت : أين المحتاج اليه ؟ وأي شيء يقرر في الالهيات ؟ . . وما يرسم لي في المعقولات ؟ . . اذ المعلم لا يعني لعينه وإنما يعنى ليعلم ، وقد سددتم باب العلم ، وفتحتم باب التسليم والتقليد ، وليس يرضى عاقل بأن يعتقد مذهباً على غير بصيرة وان يسلك طريقاً من غير بينة »[2] يقول الشهرستاني هذا القول، وهو مع ذلك عند الذهبي ومن لف لفه : يدعو للاسماعيليين النزاريين وينصر طاماتهم !! . .

ويتحامل الشهرستاني على الشيعة ما يتحامل ويخترع لهم فرقاً اختراعاً، ومع ذلك فهو عند الذهبي ومن نقل عن الذهبي غال في التشيع !![3]

ويحمل الشهرستاني على من يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر ، ويندد بالمنافقين ويدافع عن الايمان ، ومع ذلك فهو عندهم متهم بالالحاد !!

والحقيقة ان الذهبي وأضرابه من أمثال ابن تيمية من ذوي العقول السوداء المتحجرة والتعصبات النحلية العمياء يرون في استنارة الأذهان بتلقي العلوم العقلية كالفلسفة لعمههم ضلالاً ، ويرون فيمن لا يقلدهم في نحلهم مباح الكرامة حلال الدم . فلذلك تراهم يجردون أقلامهم لتضليل الناس وتكفيرهم ، والشهرستاني ممن درسوا الفلسفة وعنوا بها حتى لقد قال عنه في هذا العصر الشيخ مصطفى عبد الرزاق « إن الشهرستاني من أهل الفلسفة الاسلامية كابن سينا ، ويستشهد بآرائهما ».

وقال عنه محمد بن فتح الله بدران من علماء الأزهر : « وناقش الآراء الفلسفية في كتابين : نقض شبه ارسطو وابن سينا ، ومصارع الفلاسفة ».

لذلك يرميه الذهبي بما يرميه . ولما كانت تهمة التشيع عنده من أفظع التهم لذلك رأى ان يقذفه بها .

يقول صاحب كتاب (الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة (ج ١ ص ١٤٥ ـ ١٤٦): « كان الناس اذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسوا عليه من رماه بالتشيع فتصادر املاكه وتنهال عليه العقوبات والاهانات حتى يظهر التوبة من الرفض ».

وهذا عين ما أراده الذهبي فيما قاله عن الشهرستاني .

ولتعرف ذهنية هؤلاء السخيفة وعقولهم الخرافية ، ننقل لك بعض ما ذكره عمن سماه ابو الحسن الزاهد. قال وهو يتحدث عن مناقبه : « ان الشيخ استف من صرة، فرآه رجل فأراد أن يستف منه فاذا هو مر، فلما جاء الشيخ، قال : يا سيدي ما في الصرة؟ فناوله منها كفاً، فاذا هو سكر وقالب لوز . . ».

ثم ذكر له منقبة اخرى: « . . . كنا بعسقلان في يوم عيد فجاء ابو الحسن الزاهد الى امرأة معها خبز سخن ، فقال تشتهين لزوجك من هذا الخبز ـ وكان زوجها في الحج ـ فناولته رغيفين ، فلفهما في مئزر ومضى الى مكة، فقال خذ هذا من عند أهلك ، وأخرجه سخناً ورجع ، فرأوه يومئذ بمكة وبعسقلان . . . ».

وذكر له منقبة ثالثة : « . . . كنت مع ابي الحسن الزاهد فقال لناس: اعطوني من ناركم فملؤوا له قطعة جرة ، فقال : صبوها في ملحفتي، فصبوها في ملحفته فأخذها ومضى».

ويسترسل في ذكر مناقبه: « رش ماء على زَمِنَة فمشت ». « اراد لص

(٢) الملل والنحل ج ٢ القسم الاول ص ١٧٨ الطبعة الثانية .

(٣) كان الشهرستاني عند الذهبي غالياً في التشيع لانه قال كلمة طيبة في الامام جعفر الصادق عليه السلام .

أن يأخذ حماره فيبست يده، فلما ابعد عنه عادت ».

ثم هو يطّلع على ما في القلوب: « مضيت الى ابي الحسن الزاهد بحلب، ولم تكن نيتي صادقة، فقال: اذا جئت الى المشايخ فلتكن نيتك صادقة في الزيارة ».

ومثل هذا كثير في كتابه، ونكتفي بأن نأخذ من مناقب رجل آخر هذه المنقبة :

« كنت عند ابي الفتح بن القواس فأخرج جزءاً فيه قرض فأر، فدعا على الفأرة التي قرضته، فسقطت فأرة لم تزل تضطرب حتى ماتت ».

ورواها في نفس الترجمة بشكل آخر راوياً عن تمام بن محمد التريني وغيره :

« سمعنا القواس يذكر انه وجد في كتبه جزءاً في فضائل معاوية قد قرضته الفأرة، فدعا عليها، فسقطت فأرة من السقف واضطربت حتى ماتت . . . »

ولا ندري هل يقصد الذهبي ان هذه منقبة لمعاوية، ام منقبة للقواس، او لكليهما ؟ !! . .

ومن خرافات الذهبي ما ذكره عن علي بن بكار بعد ان وصفه بأنه كان فارساً مرابطاً مجاهداً كثير الغزو، فقد روي عنه انه قال : واقعنا العدو فانهزم المسلمون وقصّر بي فرسي، فقلت : انا لله وإنا اليه راجعون، فقال الفرس : نعم، انّا لله وإنا اليه راجعون، حيث تتكل على فلانة في علفي. فضمنت ان لا يليه غيري .

ونحن نحفظ من قديم بيتاً من الشعر قيل في الذهبي وهو :

سميتَ بالذهبي اليوم تسمية
مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب

ولم نتحقق صدق هذا الشاعر الا حين كنا نطالع هذا وأمثاله في كتاب الذهبي .

هذا هو الذي يكتب تاريخ الاسلام والمسلمين ويتحدث عن عقائد الناس .

محمد بن عبد الله بن عمر بن محمد بن الحسن الفارس ابو الحياة الواعظ البلخي.

المتوفى سنة ٥٩٦.

ترجم له الذهبي في ميزان الاعتدال وابن حجر في لسانه ٢١٧/٥ قال : قيل انه علوي، رحل كثيراً، وطلب بنفسه فسمع أبا شجاع البسطامي وطبقته بخوارزم ونسف وبسطام وهمدان والجزيرة ودمشق ومصر وأقام عند السلفي زماناً طويلاً وكان السلفي يبجله ويعظمه ويكرمه واستوطن بغداد الى أن مات .

سمع منه الحافظ يوسف بن احمد الشيرازي ومات قبله بمدة، وكان يعظ بالنظامية .

قال ابن النجار: كان مليح اللفظ صبيح الوجه وكان يرمي بأشياء . . وكان يميل الى الرفض ويظاهر به اخبرني علي بن محمود . . فحضرت مرة مجلسه فقال : بكت فاطمة يوماً من الأيام فقال علي: يا فاطمة لم تبكين علي ؟ أأخذت منك فيئك اغصبتك حقك افعلت افعلت وعدّ أشياء مما يزعم الروافض ان الشيخين فعلاها في حق فاطمة .

قال فضج المجلس بالبكاء من الرافضة الحاضرين، توفي في صفر سنة ٥٩٦ وترجم له ابن شاكر في عيون التواريخ ١٤/١٢ في وفيات سنة ٥٠٦؟ فقال :

توفي محمد بن عبد الله بن عمر بن محمد بن الحسين بن علي الطريف ابن محمد، الشاه بوري الواعظ من أهل بلخ .

قال ابن البخار : هكذا رأيت نسبه بخط يده . سافر في طلب العلم وجال في خراسان وما وراء النهر وخوارزم والعراق وبغداد والشام ومصر وسمع من جماعة وروى عن شيخه السلفي وكان يعظمه ويبجله ويعجب بكلامه وكان مليح الشكل مليح الوعظ حسن الايراد رشيق المعاني لطيف الألفاظ فصيح اللهجة[1]له يد باسطة في تنميق الكلام

محمد بن علي بن احمد بن الناقد ابو السعادات البغدادي.

المتوفى سنة ٦١٣ ترجم له المنذري في التكملة رقم ١٤٦٥ في وفيات هذه السنة قائلاً :

وفي الثامن والعشرين من جمادى الاولى توفي الشيخ الأجل أبو السعادات محمد بن ابي القاسم علي بن احمد بن الناقد البغدادي بها ودفن من يومه بمشهد الامام موسى بن جعفر عليهما السلام بتربة له هناك ومولده في جمادى الآخرة سنة ٥٤٤.

سمع من ابي الوقت عبد الأول بن عيسى وأبي الفتح محمد بن عبد الباقي بن احمد وكان أحد التجار وسافر كثيراً الى الشام وخراسان وما وراء النهر وعاد وتولى خدما .

أبو احمد محمد بن علي بن عبدك الشيعي العبدكي.

من أهل جرجان، كان مقدم الشيعة وإمام أهل التشيع بها .

سمع عمران بن موسى بن مجاشع الجرجاني وأقرانه، روى عنه الحاكم ابو عبد الله الحافظ البيع وعرفه ونسبه هكذا وقال :

وكان من الأدباء الموصوفين بالعقل والكمال وحسن النظر، استوطن بنيسابور، وبنى بها الدار والحمام المعروف بباب عذرة وتوفي بعد الستين والثلاثمائة بجرجان .

كذا ترجم له السمعاني في الأنساب ١٨٥/٩ بعنوان العبدكي وذكر قبل ذلك ان جده عبدك اسمه عبد الكريم، وعبدك صاحب محمد بن الحسن الشيباني وتفقه عليه، والمشهور بهذه النسبة ابو احمد محمد بن علي بن عبدك . .

وترجم له ابن الأثير في اللباب ٣١٢/٢ بما ذكره السمعاني حرفياً وما ذكر الحاكم ملخصاً وترجم له حمزة السهمي في تاريخ جرجان ص ٥١٩ برقم ٨٧٨ ترجمة موجزة فقال ابو احمد محمد بن عيسى(كذا) بن عبدك الشيعي الجرجاني روى عن محمد بن يزداد الجرجاني وروى عنه ابو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ النيسابوري .

ووصفه الحاكم في خلال اسناد له انه إمام أهل التشيع فقد روي في كتاب الموضوعات ١ /٣٤٧ عن زاهر بن طاهر عن البيهقي عن الحاكم قال حدثني محمد بن علي بن عبدك الشيعي ابو احمد الجرجاني واسم عبدك عبد الكريم، وكان إمام أهل التشيع في زمانه قال حدثنا علي بن موسى الفقيه القمي قال حدثنا محمد بن شجاع الثلجي وهكذا اورده السيوطي في اللئالي ج ١ ص ٣٢٧ وترجم له الشيخ في الفهرست بكنيته(ابن عبدك) .

وترجم له ابن نقطة في الاستدراك في كلمة الشيعي ووصفه بامام أهل

---

(١) السيد عبد العزيز الطباطبائي .

التشيع . حدث عن محمد بن داود الاصبهاني وعلي بن موسى القمي[١].

محمد بن عبد الفتاح سراب التنكابني .

مر ذكره في المجلد التاسع من (الأعيان) ، ونزيد هنا على ما هناك ما يلي :

ولد سنة ١٠٤٠ وتوفي سنة ١١٢٤ ولد في سراب من ضواحي رامسر ونشأ فيها وتعلم المقدمات بها ثم ذهب الى اصفهان وحضر عند الميرزا محمد باقر الخراساني السبزواري والآقا حسين الخونساري والمولى محمد تقي المجلسي وهو يروي عن استاذه السبزواري والشيخ علي بن شيخ محمد المشهدي والمولى علي الاسترابادي والمولى محمد باقر المجلسي وله مؤلفات كثيرة منها :

١ ـ سفينة النجاة.
٢ ـ ضياء القلوب .
٣ ـ رسالة في رؤية الهلال قبل الزوال.
٤ ـ رسالة في صلاة الجمعة والقول بوجوبها العيني في رد المولى عبد الله التوني .
٥ ـ رسالة في النذر والصدقة .
٦ ـ رسالة في علم الكلام .
٧ ـ تفسير آية الكرسي .
٨ ـ الحاشية على المعالم في الأصول .
٩ ـ الحاشية على زبدة البيان في تفسير احكام القرآن .
١٠ ـ الحاشية على شرح المطالع .
١١ ـ رسالة في الأجسام الهندسية .
١٢ ـ رسالة في حل شبه الجذر الاصم .
١٣ ـ الحاشية على آداب البحث للقاضي عضد الدين اللايجي.
١٤ ـ حجية الاجماع وخبر الواحد .
١٥ ـ الحاشية على شبهة الكلامي الكاذب .
١٦ ـ رسالة في تحرير التوحيد .
١٧ ـ رسالة في تحقيق الحركة في المقولات .
١٨ ـ رسالة في وقوع الحركة في الآن .
١٩ ـ الجواب على شبهة القائلين بوحدة الوجود . وغير ذلك .

زار الأعتاب المقدسة في سنة ١١١٥ثم رجع الى اصفهان الى أن توفي ودفن في تخت فولاد وبني على قبره قبة ودفن بعده في تلك المقبرة عدة من أولاده وأعقابه .

اعقب ولدين عالمين الشيخ محمد رضا والشيخ محمد صادق[٢].

محمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن علي بن الحسن بن الحسين ابن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب (عليهم السلام) .

قال في منتخب السياق : الحسني العلوي السيد العالم ابو الحسن البلخي المعروف بنو دولت . شيخ السادة وشرفهم جمال الأفاضل بخراسان من حسنات عصره له الشرف الباذخ نسباً والأدب الظاهر شرقاً وغرباً والشعر والكتابة الفائقة الرائقة هزلاً وجدلاً صار من كبراء أركان الدولة في وقته دخل نيسابور وبلاد خراسان مراراً مع العسكر وروى الأحاديث والأشعار توفي بنيسابور سنة ٤٦٥ وحمل تابوته الى بلخ .

شرف السادة ابو الحسن محمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن علي بن الحسن بن الحسين بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام شرف السادة العلوي الحسيني البلخي .

ترجم له الباخرزي في دمية القصر وطول في ترجمته .

وترجم له الصفدي في الوافي بالوفيات ٤/٢١ رقم ١٤٧٣ وقال : صاحب النظم والنثر، قدم بغداد رسولاً من السلطان البارسلان الى الامام القائم بأمر الله في سنة ٤٥٦ ومدح القائم وحدث عن الفقيه أبي علي الحسن ابن احمد الزاهد روى عنه أبو غالب الذهلي وأبو سعد الزوزني . . . .

ثم أورد شيئاً من نظمه وشيئاً من نثر الباخرزي في وصفه واطرائه.

مجد الدين محمد بن عبيد الله بن الكوفي الصدر العالم .

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب وقال : كان من أعيان الصدور والأكابر بالعراق وكان خصيصاً بالشيخ صدر الدين علي بن محمد بن النيار وكانت وفاته سنة ٦٦٥ ، ودفن بمشهد علي عليه السلام .

محيي الدين محمد بن عبد القاهر بن عبد الرحمان بن حسن بن عبد القاهر بن حسن بن علي بن قاسم بن المظفر بن علي بن قاسم بن عبد الله الشيباني الشهرزوري الموصلي .

ترجم له معاصره الصفدي في الوافي بالوفيات ٣/٢٧٥ ، رقم ١٣١٧ وساق نسبه كما أوردناه ثم قال :

مولده سنة ٦٩٨ وامه من بيت ابن كسيرات ، سألته ان يكتب لي اسمه ومولده ونسبه وشيئاً استعين به على ترجمته فكتب الي بهذه الأبيات الآتي ذكرها .

اشتغل على السيد ركن الدين وقرأ القرآن على ابن خروف وسمع الكثير من زينب وابن تمام والمزي والذهبي ونسخ الأجزاء وعنده مشاركة جيدة وفيه سكون كثير .

ثم أورد له شعره الذي ترجم فيه لنفسه ويظهر منه ان أجداده كلهم كانوا قاضي القضاة حيث يقول فيه :

والكل قاضي قضاة غير ثالثنا
فانه اذ دعي للحكم لم يجب

ويظهر من شعره انه رحل الى دمشق سنة ٧٣٨.

وترجم ابن حجر في الدرر الكامنة ٤/١٣٩ رقم ٣٩٢٤ وساق نسبه كما مر ثم قال :

ابو عبد الله بن الشهرزوري لقبه محيي الدين ، عنى بالحديث وكان مولده في شعبان[٣]سنة ٦٩٨ بالموصل فاشتغل وسمع ببلده على شمس الدين محمد بن عمر بن خروف شرح السنة للبغوي . ودخل بغداد ولم يسمع بها الحديث ثم رحل الى دمشق فسمع الكثير من الشيوخ بعد الثلاثين فكتب الأجزاء وحصل وجمع له ثبتاً وكتب عليه في عدة اجزاء .

وكان جميل الهيئة كثير التلاوة خطه حسن معروف مع الخير والدين والمروءة.

قال ابن رافع سمع مني اجزاء اخرجته لبعض مشايخي وهو من بيت القضاة والرياسة وأنشد له . .

اقول : قوله من بيت القضاة والرياسة قال هو في شعره الذي أورده له الصفدي في الوافي :

---

(١) السيد عبد العزيز الطباطبائي.
(٢) الشيخ محمد السمامي.

(٣) بل مولده مستهل ذي القعدة كما صرح هو في شعره الذي تقدم ذكره حيث يقول:
وقد ولدت بها يوم العروبة في ١ هلال ذي القعدة المشهور في العرب

وبـيـتـنـا فـيـه مـن قـد جـاوز عـدداً
سبعين كـانـوا قضـاة النـاس في الحـقب
وكـم لـنـا غـيـرهـم مـن كـل مـشـتـهـر
بـالـديـن والـعـلم والاحـسـان والأدب
ودارنـا الـموصـل المحـروس جـانـبـهـا
كـنـا اولـى عـزهـا قـدمـا ابـاً عـن اب

وقد عنونه ابن الفوطي في الجزء الخامس من كتابه تلخيص مجمع الآداب بعنوان محيي الدين .

ولكن بيض له ولم يذكر في ترجمته شيئاً .

ولقد عثرت له في مكتبة ايا صوفيا في اسلامبول على مجموعة أدبية لها قيمة رقمها ٤٢٥٠ وهي بخط محمد بن علي بن سليمان بن يوسف الريحاني الموصلي كتبها بالقاهرة سنة ٧٩٠ ولم أعثر على اسم خاص للكتاب سماه به مؤلفه ولا صرح المؤلف باسمه في أوله تقية ولكن في الورقة ٥٧ ب هكذا انه (قـال العبد الفقير الى الله محمد بن عبد القاهر بن الشهرزوري الموصلي . . .

وفيه في مكانين : قال محيي الدين عفا عنه ثم يورد مقطوعة شعرية لنفسه وتشيعه ظاهر في كتابه هذا .

الى ان قال ومن شعره :

دع عـنـك حـديـث مـن يـمـنـيـك غـدا
واقـطع زمـن الـحـيـاة عـيـشـاً رغـدا
لا تـرج هـوى ولا تـعـجـل كـمـدا
يـومـاً تـمـضـيـه لا تـراه ابـداً

وكتب يوماً رقعة الى الحافظ السلفي وكتب على رأسها فراش لمعة فراش شمعة فأعجب السلفي بها وكان يكررها[1].

السيد محمد علي الغريفي البحراني بن السيد عدنان .

ولد سنة ١٣٢٨ في مدينة المحمرة (خوزستان) وتوفي سنة ١٣٨٨ فيها ونقل جثمانه الى النجف الأشرف فدفن في مقبرة الأسرة بوادي السلام .

نشأ يتيم الام ، ثم توفي والده وهو في الثانية عشرة من عمره فكفله وصي والده الشيخ عيسى الجزائري فدرس عليه مقدمات العلوم من نحو وصرف وغيرهما . وفي سنة ١٣٥١ توفي الشيخ عيسى، فرعاه شقيقه السيد علي فدرس عليه علوم البلاغة وبعض الاصول والفقه . وبعد وفاة شقيقه سنة ١٣٥٩ سافر الى النجف الأشرف حيث درس على كل من الشيخ عباس المظفر والشيخ محمد جواد الجزائري والشيخ محمد رضا آل ياسين والسيد ابو الحسن الأصفهاني والشيخ حسين النائيني . وفي سنة ١٣٦٢ ألزمه الامام الأصفهاني بالعودة الى المحمرة لأحداث حدثت في أسرته وجعله هناك وكيله المطلق ، فكان له في المحمرة ومنطقتها الاثر المحمود وعند وفاته رثي بشعر كثير فمن قصيدة للشيخ محمد جواد فرج الله :

ربـع الـمـكـارم بـعـد فـقـدك مـجـدب
واری الـنـدى يـبـكـي عـلـيـك ويـنـدب
والـمـجـد مـن حـزن تـلـفـع بـالاسـى
ودمـوع عـيـن الـفـضـل غـيـث صـيّـب
والـعـبـقـريـة اقـفـرت عـرصـاتـهـا
مـن بـعـدمـا كـانـت بـفـضـلـك تـخـصـب
فـلـتـبـك انـديـة الـمـحـاسـن عـمـرهـا
ثكلىٰ فـوجـه الـحـسـن مـنـك مـغـيّـب
ولـتـلـبس الـعـلـيـا ثـيـاب حـدادهـا
فـلـقـد مـضـى عـنـهـا الـزمـان الأطيـب
أيـام كـان الـحـفـل بـاسـمـك زاهـيـاً
جـمّ الـمـعـارف فـيـضـه لا يـنـضـب
بـك يـسـتـقـيـم ويـسـتـطـيـل جـلالـه
ويـهـيـم فـيـه الـعـبـقـري ويـعـجـب
مـن حـسـن نـطـقـك يـسـتـمـد بـراعـة
فـي الـقـول حـيـن تـقـوم فـيـه فـتـخـطـب
فـقـدت مـحـافـلـنـا بـفـقـدك فـخـرهـا
فـنـشـيـدهـا الـمّ ودمـع يـسـكـب
فـالـشـمس تـغـرب بـعـدمـا قـد اشـرقـت
وشـمـوس فـضـلـك طـلّعٌ لا تـغـرب
رزء ابـن عـدنـان آثـار لـواعـجـي
وأهـاج مـنـي الـحـزن وهـو مـغـيّـب
وهـو ابـن مـن شـهـد الـزمـان بـفـضـلـه
ولـه عـلـى هـام الـثـريـا مـنـصـب
واحـتـل مـن سـامـي الـفـخـار مـكـانـة
عـلـيـاء وهـو الـى الـمـكـارم يـنـسـب
بـحـر الـنـدى والـعـلم مـوفـور الـتـقـىٰ
والـحـلم مـنـهـل فـضـلـه لا يـنـضـب
الـعـالـم الـفـذ الـفـقـيـه ومـن لـه
فـي الاجـتـهـاد يـد تـطـول وتـغـلـب

شعـره

قال من قصيدة تبلغ ١٨٧ بيتاً يمدح بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام :

قـم نـطـلب الـغـيـد فـي واد بـذي سـلم
ونـجـتـنـي الـحـسـن بـيـن الـضـال والـعـلم
فـالـبـان مـا بـيـن مـهـصـور ومـنـعـطـف
والـحـسـن مـا بـيـن مـنـشـور ومـنـتـظـم
وسـرّح الـطـرف فـي وادي الـعـقـيـق فـكـم
لـنـا بـواديـه عـهـد غـيـر مـنـفـصـم
ونـاشـد الـخـيـف عن سـلمىٰ وعـن كـبـد
مـضـاعـة بـيـن ذي الـوديـان والاكـم
حـمّـلـتُ جـسـمـي آلامـاً مـبـرّحـة
لـو حـمـلوا بـعـضـهـا شـهـلان لـم يـقـم
وقـفـت مـلـتـفـتـاً بـالـمـأزمـيـن الـىٰ
ظـعـونـهـم قـارعـاً سـنـي مـن الـنـدم
بـمـقـلـتـيـن كـأن الـوجـد الـبـسـهـا
ثـوبـاً مـن الـدمـع وشّـاه الـهـوىٰ بـدم
وكـم بـه حـسـرات لا اطـيـق لـهـا
دفـعـاً فـسري مـنـهـا غـيـر مـنـكـتـم
روح الـمـولّـه كـالـمـرآة صـافـيـة
مـهـمـا تـلاقـت بـهـا الأشـيـاء تـرتـسـم
قـد ابـعـد الـدهـر سلمى عنـك فـاطـرحـن
ذكـرىٰ سـواهـا وخـذ في الـمـجـد والـكـرم

(١) السيد عبد العزيز الطباطبائي .

فالمجد ضربك بين الجحفلين وان
تمشي بثغر الى الهيجاء مبتسم
واحسن الناس من للناس قد ظهرت
خيراته وبوادي الشر لم يهم
فهذّب النفس بالمعروف مستنداً
للدين والنفس ان قوّمت تستقم
وان أردت من الأديان احسنها
فدين احمد فيه خير معتصم
من كابن هاشم ان عدوا رجالهم
فضلاً ومن كابن عبد الله في الامم
نالت به آل فهر ايّما شرف
ما ناله الناس من عرب ومن عجم
قد كان بدر دياجي الجهل بينهم
وكان دونهم الكشاف للغمم
كم معجزات أرادوها فاظهرها
لهم وهل ينفع الاعجاز قلب عمي
فسل قريشاً هل اسطاعت بباطلها
ان تغلب الحق في سيف وفي قلم
لما رأت عجزها يوم الخطاب مشت
للحرب في كل مقدام وكل كمي
سل يوم بدر وما لاقاه عتبتهم
من ابن هاشم واسأل عن وليدهم
وشيبة شاب منه الرأس فاتخذت
له الأواسي خضاباً من دم عرم
وكم وكم نصبوا اشراك باطلهم
ليطفئوا نور هذا الطاهر العلم
فاصبح النصر للاسلام حين غدت
راياته خافقات في ربوعهم
ما ضر احمد انكاراتهم ولقد
سار اسمه كمسير النور في الظلم
انار ظلمة هذا الكون يوم اتى
وشرّف الأرض منه ايمّا قدم
يفيض علماً عليهم دائماً ولهم
كان الدليل اذا حاروا بأمرهم
كانوا من الفقر في ذل فقادهم
للعز والمجد والخيرات والنعم
كانوا عبيد العصا من قبله وبه
عادوا ملوكاً وأحياهم من العدم
ابقى الكتاب وابقى عترة طهرت
اذ أذهب الرجس عنها بارىء النسم
هذا علي وصي المصطفى وابو
سبطيه وهو لدين الله خير حمي
بسيفه قام هذا الدين وارتفعت
اعلامه وبسيف الغير لم يقم
فهو الخليفة بعد المصطفى وله
دون الأنام مقام القرب والرحم
ما ذنب حيدر عند القوم حين سروا
لحربه وأعدوا كل خيلهم
أفعله يوم بدر في رجالهم
ام يوم افنى بأحد عبد دارهم
حتى قضى وبعينيه القذى ومضى
يشكو بقلب الى باريه مهتضم
وضيعوا فيه قول المصطفى ونسوا
يوم الغدير وزاغوا عن وليهم
فليت شعري علامَ الناس قد نكصوا
عن آل طه وحادوا عن ولائهم
فليت شعري علام الناس قد نكصوا
عن آل طه وحادوا عن ولائهم
هم السفينة للّاجين ان زخرت
امواج بحر من الأوهام ملتطم
هم كالنجوم لأهل الأرض او فهم
كباب حطة فاستمسك بحبلهم
خذها اليك رسول الله قافيةً
سارت بمدحك بين الحل والحرم
راج بيمناي اعطاها اذا ظهرت
صحائف الناس سوداً في شمالهم
واسأل الفوز في الدارين منك اذا
ما راح غيري يستجدي ندى هرم
طاب ابتدائي بحسن المدح فيك كما
بمدح آلك حقاً طاب مختتمي

وقال من قصيدة في مدح امير المؤمنين عليه السلام:

على النأي والهجران قلبي تعودا
وفي الحب لا يزداد الا تجلّدا
سيكتم صبراً ما يجن من الهوى
وان جرّه الكتمان يا مَيُّ للردى
فكم حرق مرّت به ولواعج
وكم ذاق عيشاً مذ تنائيتِ انكدا
بلى هوذا قلبي الذي حكم الهوى
عليه بأن يحيا اسيراً مقيدا
الى الله اشكو ما اكابد من ضنىً
بقلبي وما بين الضلوع توقدا
أيجمل انى يا اميم من الهوى
اروح واغدو في الأنام مشردا
رعى الله قلباً فيك لا زال مغرماً
وجفناً من التعوال لا زال ارمدا
يهيم اذا ما اومض البرق في الدجى
ويزداد شوقاً ما رأى الطير غردا
يبرح بي الشوق اللجوج وفي الهوى
اغار فؤادي يا اميم وانجدا
وكم حاولت نفسي السلو فخانها
ضمير ابى الا الصبابة موردا
تمر بقلبي الذكريات فكلما
تذكرتكم فيه الغرام تجددا
ويهتز للآمال وهي كواذب
وللغصن كم يشتاق منهما تأودا

فقلت السَّما يأن ان تدع الهوىٰ
فان الهوى من قبلك الناس افسدا
وليس يطيب الحب الا لسيد
له البيت بيت الله اصبح مولدا
امام وما بعد النبي ترى له
مثيلاً ولا تلقىٰ سواه مسودا
وقد خصّه الرحمن منه برتبة
لها اصبحت كل البرية سجّدًا
وايدّه بالروح منه فاحمد
على الشرك بالكرار صار مؤيدا
فلولاه ما قامت شريعة احمد
ولم تر منهم من يميل الى الهوىٰ
ولا ارتفعت للدين في الأرض راية
ولم تلق للرحمن فيها موحدا
به نعمة الرحمن تمّت ودينه
بماضيه اضحىٰ في الأنام مشيّداً
امام وكم في الأرض قامت ائمة
له السبق اذ فيه الكمال تفردا
به ا زيّنت هذي الخلافة لا الذي
بها شرفاً بعد الخمول تزيّدا
امام به الرحمن اودع سره
وصيّره للناس مولى وسيدا
اخو المصطفى زوج البتولة والد
الأئمة اعلى الناس مجداً ومحتدا
ملائكة الرحمن ودّت لو أنّها
تكون له دون الأناسي اعبدا
اذا ما تبدّىٰ في المواكب خلته
كبدر ولكن بالجلال تجسدا
بمفرقه تاج الامامة قد زها
وفي كفه ماضي الغرارين جردًا
وكان اخاً للمصطفى لم يجد له
سواه اخاً عند الشدائد مسعدا
وكان اذا استكفاه معضلة رأي
هماماً اذا ما زمجر الخطب اصيدا

* * *

ابا حسن خذها اليك قصيدة
حوت في معانيها الجمان المنضدا
اذا جاز للشعر الخلود فانني
رأيت لشعري ان يعيش مخلدا
لانى على ذكراك انت حبسته
فما كنت الا في معانيك منشدا
وها أنا في ميلادك اليوم لم أزل
لمدحك في أهل الولاء مرددا
فذلك يوم اشرقت فيه (مكة)
وما أشرقت من قبل الا باحمدا
بميلاده البشرىٰ أتت لمحمّد
فوافاه مسروراً ومدّ له يدا
يقول له قد أفلح اليوم كل من
تولاك من دون الورى وبك اهتدىٰ
وأنت وصيي لا سواك وناصري
بك الله هذا الدين احيا واسعدا
فصلىٰ عليك الله يا من بمدحه
لساني على مرّ الليالي تعودا

وله من قصيدة في الامامين موسى بن جعفر وحفيده محمد بن علي الجواد عليهما السلام :

انت مهما دهاك دهرك بالشر
لذ بخير الانام موسىٰ بن جعفر
وتمسك به ولا تخش ضيراً
فهو منجي الوجود طراً من الضر
وهو ظل الرحمن يأوي اليه
كل من خاف ذنبه يوم يحشر
قف على بابه وقوف ذليل
خاشع الطرف واسأل الأجر تؤجر
فهو باب الإله باب رسول الله
باب الطهر البتول وحيدر
قف وقبّل اعتابه وتأمل
رحمة الله عنده كيف تنشر
فهناك الجلال فيه مقيم
وبه نور خالق الكون ازهر
نور (موسى بن جعفر) شعّ فيه
وجمال (الجواد) كالصبح اسفر
ليت شعري ماذا يقال بموسىٰ
وهو اعلىٰ من المديح واكبر
وبفضل (الجواد) انّى يحيط الوصف
هيهات تاه من فيه فكر
فهما في سما المعارف بدران
وما خاب فيهما من تبصّر
بهما تهتدي العوالم طراً
وهما للهدىٰ وللعلم مصدر
وعلى الكون قد اطلّا بوجهٍ
منه هذا الكون العظيم تنور
أو تدري نماهما ايّ جد
من غدت باسمه الوجودات تفخر
خاتم الرسل صفوة الله في العالم
طراً من قبل ان يخلق الذر
وعلي ابوهما وهو مولى
وامير له المهيمن امّر
من أقام الدين الحنيف بماضيه
وللشرك بالمهند دمّر
هاك مني يا كاظم الغيظ مدحاً
فيك لا في سواك يا ابن المطهر
بابنك الطاهر الجواد تشفعّت
وشأن الجواد ان لا يقصر
انما منيتي وسؤليّ في الدنيا
وحرزي من المكاره والشر

وله من قصيدة في رثاء اخيه السيد علي :

هل للفتى العاني الكئيب
يذري المدامع من مجيب
يبكي وليس لديه من
شغل سوى فرط النحيب
صهر الاسى احشاءه
فتراه ذا قلب وجيب
متزمتاً اما رأى
الخلان في ناد رهيب
فاذاتخلى وحده عن
كل ناه او رقيب
اذرى الدموع دماً وناح
على مفارقة الحبيب
يا قلب ما اقواك في
حمل المكاره والخطوب
هل أنت الا مضغة
جياشة بدم نضوب
كم قد ركبت متاعباً
ولكم حملت من الكروب
لو ان ما بك حل يا
قلبي على جبل صليب
لعفا وساخ وانت كم
حملت من امر عصيب
لو صب فوق الشمس رزؤ
ك لاستمالت للغروب
او ذر فوق البدر لم
يشرق وعاد الى القطوب
يا قلب نح ما شئت ما لك في البكا من مستجيب
وابك حبيباً عنك افرط
في التباعد والمغيب
خطفته منك يد البلى
ودعاه علام الغيوب

مؤلفاته

ترك من المؤلفات :

١ ـ (حمزة بن عبد المطلب اسد الله ورسوله).
٢ ـ الحقائق الجلية في شرح الخطبة الشقشقية .
٣ ـ (ديوان الوسائل) في مدح النبي (ص) وآله (ع) ثلاثة مجلدات .
٤ ـ (وحي الشباب) ديوان شعر في مواضيع مختلفة .
٥ ـ (شهيد الإباء) رواية شعرية قد نظم فيها حياة الامام الحسين (ع) من أول حياته حتى شهادته .
٦ ـ (حياة المصلحين) ملحمة شعرية عن حياة النبي الأكرم (ص) تبلغ عدة آلاف من الأبيات .
٧ ـ (احسن ما سمعت) وهو مختارات شعرية لشعراء مختلفين[1].

---

(١) السيد علي العدناني الغريفي .

السيد محمد علي آل خير الدين بن السيد حسين بن السيد محمد علي ابن السيد نوازش علي بن السيد مظفر علي بن السيد خير الدين بن المير خير الله بن السيد رحمة الله بن السيد ابو تراب الحائري الهندي.

ولد في كربلاء يوم الخامس من شهر رمضان سنة ١٣١٢ كما حدثني به وتوفي يوم ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٩٤ ودفن في روضة العباس عليه السلام في حجرة جنوب شرقي من الصحن الشريف .

آل خير الدين ويقال آل خيري من الأسر العلمية المعروفة في كربلاء وقزوين نبغ منها علماء فقهاء أجلاء ، برزت في كربلاء منذ عهد جدها الاعلى السيد مير خير الله بن السيد رحمة الله الهندي الحائري المتوفى سنة ١٢٢٦ وله آثار ومآثر في العتبات المقدسة في العراق وأول من هاجر من الهند مستوطناً كربلاء في القرن الثاني عشر للهجرة هو السيد رحمة الله بن السيد ابو تراب الهندي وكانت هذه الأسرة متجولة في الهند وايران والعراق ومن اعلامهم في قزوين السيد محمود بن السيد حسين شقيق المترجم له ، وطبع من مؤلفاته ١٦ كتاباً . ويذكر كل منهم في محله .

اخذ المترجم له المقدمات على أفاضل علماء كربلاء وحضر في السطوح على والده ثم توجه الى النجف والتحق بحوزة الشيخ ميرزا حسين النائيني وآغا ضياء العراقي والسيد ابو الحسن الأصفهاني وحصل على اجازات من مشايخه المذكورين ثم عاد الى موطنه كربلاء وتصدر للتدريس وإمامة الجماعة في صحن سيدنا العباس (ع) عند باب القبلة ينظم باللغتين العربية والفارسية . له مؤلفات منها كتاب نامهء دانش وجامعهء ستايش مثنوي فارسي في العرفان .

وله ديوان باسم ديم نيسان في خمسة اجزاء مرتبة على الحروف في القوافي . الاول : المدايح والمراثي لأهل البيت عليهم السلام ، والثاني سائر القصايد العربية والثالث القصايد المخمسات والموشحات والأراجيز والرابع القصايد الفارسية والخامس الكتب والرسائل العربية والفارسية شرع بجمعه سنة ١٣٤٢ وله تقريرات درس استاذيه النائيني وآغا ضياء العراقي وجميعها في مكتبته بكربلاء وله قصيدة بعنوان (الحنين الى سامراء) يقول فيها :

عج بالمحصب من مشارف دجلة
حيث الفضا والماء والخضراء
فهناك مربع جيرتي وهناك مفـ
ـزع جيرتي وهناك (سامرّاء)
فاحبس بحيث العز يسحب ذيله
تيهاً وينشر للفخار لواء
واخضع بحيث المجد القى رحله
واخشع بحيث أظلّت العلياء
واجنح الى الحرم المنيع فلو دنا
ملك زوته هيبة وبهاء
تبصر تجلي نور ربك في ثرى
رقدت به ساداتنا النجباء

واعقب المترجم له أربعة اولاد ذكور، هم السيد محمد قام مقام ابيه في الامامة وهو اليوم في سجون النظام التكريتي في العراق والسيد حسين كان من الضباط الأباة في الجيش العراقي وحكم عليه بالاعدام ثم تمكن من الهرب الى خارج العراق وثالثهم المحامي السيد حسن اختطف من قبل السفارة العراقية في باريس ونقل الى بغداد ثم تدخلت الجمعيات العالمية ومؤسسات حقوق الإنسان وحكومة فرنسا فافرج عنه وهو اليوم في فرنسا يواصل

دراسته ورابعهم الدكتور السيد رضا[١].

السيد محمد الحجة التبريزي.

ابن علي الحسني الكوه كمرى التبريزي، ينتهي نسبة الشريف الى رابع الأئمة المعصومين علي بن الحسين زين العابدين (ع).

ولد سنة ١٣١٠ في تبريز وتوفي في مدينة قم سنة ١٣٧٢.

كان المترجم لـه، احد رؤساء الحوزة العلمية بقم بعد وفاة زعيمها ومؤسّسها الشيخ عبد الكريم الحائري.

وكان فقيهاً، محقّقاً، اصولياً، مدقّقاً وصاحب كمالات نفسية وخلقية وكان ورعاً زاهداً.

تتلمذ في تبريز على الاساتذة في شتى العلوم والفنون من فقه وأصول ورياضة وطب وأدب ثم هاجر الى النجف الأشرف لتكميل دراساته الاسلامية وحضر في حلقات درس السيد محمد كاظم اليزدي. وأخذ علم الرجال من السيد ابي تراب الخونساري وتتلمذ في الأصول على شيخ الشريعة الأصفهاني، والميرزا حسين النائيني والآغا ضياء العراقي وغيرهم.

ثم رجع الى تبريز بأمر من والده لمرض اصابه في النجف ثم عاد بعد البرء الى النجف فاشتغل بالتدريس والتأليف وفي سنة ١٣٤٩ ق رجع الى ايران، وأقام ببلدة قم وصار استاذاً عالياً فيها وتخرج على مدرسته كثيرون من الأعلام

وله آثار: المدرسة المسماة باسمه في بلدة قم وبها مكتبة عامة عامرة يراجعها الطلبة ليلاً ونهاراً.

ومن تأليفاته: جامع الأحاديث والأصول وهو كتاب نفيس يحتوي على جلّ أحاديث الشيعة مع بيان المعاني الدقيقة وجمع المتعارضات والاشارة الى بعض المباحث الرجالية.

وكتاب مستدرك المستدرك فيما فات عن صاحب المستدرك[٢].

الشريف ابو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد البطحاني بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب عليه السلام، العلوي الحسني الشجري الكوفي.

ولد في رجب عام ٣٦٧، وتوفي في ربيع الأول سنة ٤٤٥.

ووالده هو علي بن الحسن من العلماء المحدثين بالكوفة يعرف بابن عبد الرحمن ترجم له شيخنا الرازي في طبقات أعلام الشيعة ٥/١١٨، يروي عن ابي العباس المرهبي ومحمد بن الحسين بن سعيد الأزدي، ويروي عنه ابنه ابو عبد الله العلوي في كتبه.

نشأ وترعرع في الكوفة في أسرة علمية فبكر الى سماع الحديث وأدرك جملة من تلامذة الحافظ ابن عقدة فحمل عنهم العلم وخاصة الحديث وفنونه، ثم رحل الى بغداد فدرس فيها ثم رجع الى الكوفة يبث علمه، يدرس ويؤلف حتى أصبح رحلة يقصده بغاة العلم وهواة الحديث.

ومما يدل على ذلك.

١ ـ أن مثل الحافظ الصوري ـ وناهيك به ـ قصده من بغداد الى الكوفة ليقرأ عليه ويسمع منه، فكان ينتخب عليه ويفتخر به[٣].

٢ ـ اشتهاره بـ (مسند الكوفة) فاختص بهذا الوسام وأطلق عليه ووصف به دون غيره من أعلام الكوفة على كثرة من أنجبته من حفاظ ومحدثين هم في الذروة والسنام كابن ابي شيبة ومطين وابن عقدة وأضرابهم وفي عصر العلوي أدرك الصوري بالكوفة أربعمائة شيخ[٤].

له من المؤلفات:

١ ـ الاذان بحي على خير العمل (جزء في..) طبع في دمشق سنة ١٣٩٩.

٢ ـ أسماء الرواة عن زيد بن علي من التابعين، وحديث كل واحد منهم. نقل عنه السياغي في الروض النضير مكرراً، منها في ج ١ ص ١١٧ و٤٤٧.

٣ ـ كتاب التاريخ، نقل عنه ابن نقطة في كتاب الاستدراك في كلمة (بزه) وحكاه عنه في تعاليق كتاب الاكمال لابن ماكولا ١/٢٥٥.

٤ ـ كتاب التعازي، ذكره شيخنا العلامة الطهراني في الذريعة ٤/٢٠٥ وذكر أنه كان عند العلامة المحدث النوري، استكتبه عن نسخة في مكتبة الامام الرضا عليه السلام في مشهد، وذكره العلامة النوري في مستدرك الوسائل ٣/٣٧٠ وعده من مصادره وترجم لمؤلفه.

٥ ـ فضل الكوفة وفضل أهلها، نسخة من الجزء الأول في دار الكتب الظاهرية بدمشق ضمن المجموع رقم ٩٣ من الورقة ٢٨٢ الى ٣٠٨، رواية ابي الغنائم النرسي محمد بن علي بن ميمون المتوفى ٥١٠ عن المؤلف، وعلى النسخة قراءة جماعة لها على أبي الغنائم في سنة ٤٧٤.

٦ ـ الجامع الكافي، في الفقه، وهو في ست مجلدات، وهو الكتاب الذي قال عنه الذهبي في ترجمة المؤلف في سير أعلام النبلاء انه: جمع كتاباً فيه علم الأئمة بالعراق، فاجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره[٥]. وقال ابن الحابس في المقصد الحسن: كتاب الجامع الكافي ست مجلدات هو أوسع كتبهم (الزيدية) آثاراً وعلماً، جمعه أبو عبد الله محمد بن [علي بن عبد الرحمن] الحسني صاحب المقنع، واعتمد فيه على ذكر مذهب القاسم ابن ابراهيم [الرسي المتوفى ٢٤٦] وأحمد بن عيسى والحسن بن يحيى بن

---

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٢) السيد ابراهيم السيد علوي.

(٣) حكى الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة ابي عبد الله العلوي عن بعضهم أنه قال: ما رأيت من كان يفهم فقه الحديث مثله. قال: وكان حافظاً، أخرج عنه الحافظ الصوري وأفاد عنه وكان يفتخر به. وقال في ترجمته أيضاً في تاريخ الاسلام: وانتقى عليه الحافظ الصوري.

والحافظ الصوري هو ابو عبد الله محمد بن علي الصوري المتوفى سنة ٤٤١، ترجم له الخطيب في تاريخ بغداد ٣/١٠٣ وقال: وكان من أحرص الناس عليه (الحديث) وأكثرهم كتباً له وأحسنهم معرفة به ولم يقدم علينا من الغرباء الذين لقيتهم أفهم منه بعلم الحديث.

وترجم له ابن الجوزي في المنتظم ٨/١٤٣ وقال: واكثر كتب الخطيب ـ سوى التاريخ ـ مستفادة منه.

(٤) قال الحافظ السلفي في المشيخة البغدادية ق٤٣ نسخة مكتبة فيض الله تحت عنوان: حديث الشريف ابي عبد الله العلوي:

سألت الشريف أبا منصور (احمد بن ابي الفوارس عبد الله بن محمد، ابن الدبخ الكوفي من تلامذة العلوي ومن شيوخ السلفي) عن الشريف ابي عبد الله هذا؟ فقال: كان من أولاد الحسن بن علي، وكان من أهل الفضل والعفة، وكان يقال له: العلامة الا أنه كان يتشيع....

(٥) وحكاه عنه في التحف شرح الزلف ص ١٢٢.

الحسن بن زيد ومذهب محمد بن منصور علامة العراق ، وإنما خص صاحب الجامع مذهب[1] هؤلاء قال : لانه رأى الزيدية بالعراق يعولون على مذاهبهم ، وذكر أنه جمعه من نيف على ثلاثين مصنفاً من مصنفات محمد ابن منصور وانه اختصر اسناد الأحاديث مع ذكر الحجج فيما وافق وخالف ـ « انتهى ملخصاً ».

ويوجد الجامع الكافي في ميلانو في مكتبة امبروزيانا رقم ١٦٨ . ونسخة أربعة اجزاء في مجلدين في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء المجموع رقم ١٣١٠ .

وللجامع الكافي مختصران ، احدهما للمؤلف فقد اختصره وسماه المقنع ويأتي والآخر للقاضي جمال الدين العفيف بن الحسن المذحجي الضراري وسمى مختصره تحفة الاخوان في مذهب ائمة كوفان ، كما في المقصد الحسن .

٧ ـ المقنع ، وهو مختصر الجامع الكافي ، كما تقدم وقد ذكره ابن حابس في المقصد الحسن .

٨ ـ فضل زيارة الحسين عليه السلام[2] .

ابو غالب فخر الملك محمد بن علي بن خلف .

مرت ترجمته في الصفحة ٤٤٣ من المجلد التاسع ونزيد عليها هنا ما يلي :

قال ابن خلكان في وفيات الأعيان : هو وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي ، وبعد وفاته وزر لولده سلطان الدولة ابي شجاع فناخسرو . كان من أعظم وزراء آل بويه على الاطلاق بعد ابي الفضل محمد بن العميد والصاحب بن عباد . وكان أصله من واسط وأبوه صيرفياً ، وكان واسع النعمة فسيح مجال الهمة جم الفضائل والأفضال جزيل العطايا والنوال . قصده جماعة من أعيان الشعراء ومدحوه وقرضوه بنخب المدائح ، منهم ابو نصر عبد العزيز بن نباتة ، له فيه قصائد مختارة ، منها قصيدته النونية التي من جملتها يقول :

لكل فتى قرين حين يسمو ... وفخر الملك ليس له قرين

أنخ بجنابه واحكم عليه ... بما أملته وأنا الضمين

أخبرني بعض علماء الأدب ان بعض الشعراء امتدح فخر الملك بعد هذه القصيدة، فأجازه اجازة لم يرضها . فجاء الشاعر الى ابن نباتة وقال له : انت غررتني ، وأنا ما مدحته الا ثقة بضمانك ، فتعطيني ما يليق بمثل قصيدي، فأعطاه من عنده شيئاً رضي به ، فبلغ ذلك فخر الملك ، فسيّر لابن نباتة جملة مستكثرة لهذا السبب .

ومن جملة مدّاحه مهيار بن مرزويه (الديلمي) الكاتب الشاعر المشهور ، ومدائحه كثيرة ، ولأجله صنف ابو بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرخي كتاب (الفخري) في الجبر والمقابلة ، وكتاب (الكافي) في الحساب .

ورأيت في بعض المجاميع ان رجلاً شيخاً رفع الى فخر الملك قصة سعى فيها بهلاك شخص، فلما وقف فخر الملك عليها قلبها وكتب في ظهرها : « السعاية قبيحة وان كانت صحيحة ، فان كنت اجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها اكثر من الربح ، ومعاذ الله ان تقبل من مهتوك في مستور ، ولولا انك في خفارة من شيبك لقابلناك بما يشبه مقالك ونردع به امثالك ، فاكتم هذا العيب واتق من يعلم الغيب . والسلام ».

ومحاسن فخر الملك كثيرة . ولم يزل في عزة وجاهه وحرمته الى ان نقم عليه مخدومه سلطان الدولة بسبب اقتضى ذلك فحبسه ثم قتله بسفح جبل قريب من الاهواز لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع واربعمائة .

وقال ابو عبد الله احمد بن القادسي في (اخبار الوزراء) : وكان الوزير فخر الملك قد اهمل بعض الواجبات فعوقب سريعاً . وذلك ان بعض خواصه قتل رجلاً ظلماً ، فتصدت له زوجة المقتول تستغيث، فلم يلتفت اليها ، فلقيته ليلة في مشهد باب التبن وقد حضر للزيارة ، فقالت له : يا فخر الملك ، القصص التي أرفعها اليك ولا تلتفت اليها صرت ارفعها الى الله ، وأنا منتظرة خروج التوقيع من جهته . فلما قبض عليه ، قال : لا شك ان توقيعها خرج . واستدعي الى مضرب سلطان الدولة ، ثم قبض عليه وعول به الى جركاه ، وقد أُحيط على امواله ، وخزائنه وكراعه وولده وأصحابه ، وقتل في التاريخ المذكور . وأخذ من ماله ستمائة ألف دينار ونيف وثلاثون الف دينار. وقيل انه وجد له ألف ألف ومائتا دينار منطبعة .

ومولده بواسط الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة اربع وخمسين وثلثمائة (انتهى) .

وقال الذهبي في (سير اعلام النبلاء) : كان صدراً معظماً جواداً ممدحاً من رجال الدهر . وكان في صباه يتعاطى المكارم والأفضال ويلقبونه بالوزير الصغير، ثم ولي بعض الأعمال، وتنقلت به الأحوال الى ان ولي ديوان واسط، ثم وزر ، وناب للسلطان بهاء الدولة بفارس وافتتح قلاعاً ، ثم ولي العراق بعد عميد الجيوش، فعدل قليلاً، وأعاد اللطم يوم عاشوراء ، وثارت الفتن لذلك ، ومدحته الشعراء ، ودام ست سنين ، ثم أُمسك بالاهواز .

وكان شهماً كافياً ، خبيراً بالتصرف، سديد التوقيع ، طلق المحيا ، يكاتب ملوك النواحي ويهاديهم ، وفيه عدل في الجملة ، عمرت العراق في أيامه ، وكان من محاسن الدهر، انشأ بيمارستاناً عظيماً في بغداد، وكانت جوائزه متوافرة على العلماء والصلحاء.

وقد انشأ في بغداد داراً عظيمة ، وكان يضرب المثل بكثرة جوائزه وعطاياه (انتهى).

ومن مدائحه قول الشريف الرضي :

احق من كانت النعماء سابغة ... عليه من اسبغ النعمى على الامم

واجدر الناس ان تعنوا الرقاب له ... من استرق رقاب الناس بالنعم

اذا سما فإلى العلياء نهضته ... وان مشى فعلى الأعناق والقمم

لله امّ تلقته براحتها ... ماذا تلقَّتْ الى الدنيا من الكرم

في صبية للمعالي كان أوْلَعَهم ... بالمكرمات وألقاهم الى الديم

كم غبت عنه وما غابت مكارمه ... ونمت عنه بآمالي ولم ينم

لا يتبع المال أنفاساً مصاعدة ... ولا يعير العطايا زفرة الندم

يا ممرضاً بالمساعي قلب حاسده ... على العلى ومداوي الفقر والعدم

---

(١) وعن هؤلاء يقول في الروض النضير ١ / ١١٥ : فهؤلاء الذين صار الكوفيون على مذهبهم حتى انتشر مذهب الهادي والمؤيد بالله في آخر الزمان بعد خمسمائة وشيء [من الزيدية].

(٢) السيد عبد العزيز الطباطبائي .

اقبلتها بسياط العزم تحفزها
للطعن لا بعراك العذر واللجم
من دومة بجبال الغور حاملة
حقائب الموت للأعداء والنقم
على قطاهنّ صدّارون عن نهل
من القواضب ورّادون للقحم
طريدة للعلى جلّى فادركها
بعد المطال جناح الأجدل الضرم
أقام سوق المساعي وهي بائرة
مجال عزمك بين السيف والقلم
ففي النزال يدٌ حمراء من علق
وفي النوال يدٌ بيضاء من كرم

وقول مهيار الديلمي :

لكل هوى من رائد الحزم رادع
وحسبكم ما لم يزع عنه وازع
تحل عقول العين مبذولة له
وتُشرح من ضن عليه الأضالع
صفاةٌ على العذّال لا يصدعونها
ولو شقّ شعباً من «أبانَيْن»(١) صادعُ
غرامُ الصبا كيف إلتفتُّ بصبوةٍ
الى غيركم فالقلبُ فيكم ينازعُ
يقولون : حوليُّ اللقاءِ ونظرةٌ
مسارقةٌ، حبّ لعمرك قانعُ
أجيرانَنا «أيامَ جمعٍ»(٢) تعلّةٌ
سلو النَّفْرَ(٣) : هل ماضٍ من النَّفْرِ راجعُ؟
وهل لثلاثٍ طالحاتٍ على «مِنىً»
ـ ولو أنّ من أثمانه النفسَ ـ فاجع ؟
أجِنُّ(٤) «بنجدٍ» حاجةً لو بلغتها
«ونجدٌ» على مرمى العراقيّ شاسعُ
وحلّ لظبي حرّم اللهُ صيدَه
دمٌ ساء ما ضلّت عليه المسامعُ
يفالتُ أشراكي على ضُعف ما به
فطارَ بها قطْعاً وقلبيَ واقعُ
وكم ريع بالبطحاء من متودِّعٍ
وقُلقِلَ ركب للنوى وهو وادعُ
ومشرفةٍ غيداء في ظهر مشرفٍ
له عُنُقٌ في مِقود البين خاضعُ
جرى بهم الوادي ولو شئت مسبلا
جفوني لقد سالت بهن المدامعُ
وبيضاء لم تنفر لبيضاءِ لِمّتي
وقد راع منها ناصلُ الصبغ ناصعُ

(١) أبانين: بالتثنية جبلان يقال لأحدهما : أبان الأبيض وللآخر أبان الأسود وهما بنواحي البحرين .
(٢) أيام جمع : أيام منى.
(٣) النفر: اليوم الذي ينفر فيه من منى الى مكة وهو الثالث من يوم النحر والنفر أيضاً القوم ينفرون معك .
(٤) أجنّ : أستر وأخفي، وفي الأصل «أحن».

رأت نحرَها في لونه فصبت له
وما خلتُ أن الشيبَ في الحبّ شافعُ
عفا «الخَيفُ» إلا أن يعرّج سائلٌ
ـ تعلّةَ شوقٍ(٥) ـ أو يغرّدَ ساجعُ
وإلا شحيجٌ(٦) أعجلَ السيرُ نزعَهُ
عسا(٧) فتعافته الرياح الزعازعُ
وفي مثل بطنِ الراح سُخمٌ كأنها
ثلاثُ بنانات قضاها مقارعُ
وقفتُ بها لا القلب يصدّق وعدَهُ
ولا الجفنُ يرضيني بما هو وادعُ
فيا عجبي حتى فؤادي بودّه
مداجٍ وحتى ماءُ عيني مصانعُ
أبى طبعُ هذا الدهرِ الا لجاجةً
وأتعبُ شيءٍ أن تُحال الطبائعُ
يعزُّ حصا المعزاء(٨) والدرُّ هيِّنٌ
ويشبع عَيْرُ(٩) السرح والليثُ جائعُ
وأودعتُه عهداً فعدتُ أرومهُ
ومن دِينِهِ ألا تردَّ الودائعُ
وأقسم لا إسترجعتُه ولو إنّه
قضى من شبابي أنه لِيَ راجعُ
هَنا المانعين اليوم أنَّ سؤالَهم
مُنىً ما أَملّتها عليَّ المطامعُ
وإني بعنقي من يد المنّ مفلتٌ
وما المنُّ في الأعناق إلا جوامعُ
وفي الأرض أموال ولكن عوائق
من اللؤم قامت دونها وموانعُ
حماها رتاجٌ من صدور شحيحةٍ
وأيدٍ خبيثات عليها طوابعُ
بأيِّ جِمام الماء أرجو عُذوبةً
إذا أملحت طعمَ الشفاهِ الوقائعُ(١٠)
وما خلتني أمشي على البحر ظامئا
وخِمس(١١) فمي منه بما بلّ قانعُ
لعل «لفخر الملك»، آنف نظرةٍ
يعود بها الحقُّ البطيءُ يسارعُ
وكم مثلها مضمونة عند مجده
وفَى لي بها والدهرُ عنها يدافعُ
شفتْ يدُهُ غيظَ البلاد على الصدى
وردّت جُرازَ(١٢) الأرض وهو مراتعُ

(٥) في الأصل «سوق».
(٦) الشحيج : الوتد.
(٧) عسا : قدُم .
(٨) المعزاء: الأرض الصلبة الكثيرة الحصا وقد غلب على الوحشي، و وفي الأصل «غير». وهي نقرة في سهل أو جبل يستنقع فيها الماء. وهو من أظماء الإبل .
(٩) العير : الحمار أياً كان وحشياً أو أهلياً .
(١٠) الجمام جمع جمّ وهو الكثير والوقائع جمع وقيعة.
(١١) الخمس: ورود الإبل الماء في اليوم الخامس.
(١٢) القتاد : شجر صلب له شوك كالإبر .

زكا تحتها الترب اللئيم وأورق الـ
ـقتادُ[1] الجفيفُ[2] فهو ريّان يانعُ
وجرّدها بيضاء واحدة الندى
وخُضر البحار السبع منها نوازعُ
وقد زعموا أن لا مردّ لفائتٍ
وأنّ الردى يومٌ متى حُمّ قاطعُ
وهذي العلا والمكرماتُ مَواتُها
بجودك من تحت التراب رواجعُ
برغم ملوك الأرض أنّ ظهورهم
من العجز عما تستحقّ طوالعُ
تركتَهُمُ ميلاً اليك رقابُهم
فلا تستقمْ من حاسديك الأخادعُ[3]
وقد سبروا غوريك عفوا ونقمةً
فما عرفوا من أين ماءك نابعُ
وكنتَ متى تقدحْ بزندك ثاقباً
سُرى النجم لم تُسدَدْ عليك المطالعُ
وكم قمتَ دون الملك كاشفَ كربةٍ
تيقّظ منها الخطبُ والملكُ هاجعُ
وضيقة[4] الأقطار عمياء ما لها
اذا إنخرقت من جانب الرأي راقعُ
تجانبُ مَشناة[5] النّصوح فتوقُها
اذا وصَلتْ أسبابَها فتقاطعُ
تداركتَها بالحزم لا السيفُ قاطعٌ
حديدته فيها ولا الرمح شارعُ
وَليتَ بصُغْرَى عزمتيك كبيْرَها
كما دبّرْت نزعَ القناةِ الأصابعُ
وأخرى أبتْ إلا القراعَ رددتَها
تذمُّ وترضى ما جنته المقارعُ
ركبتَ اليها السيفَ جسمُك حاسرٌ
وقلبُك من لُبس التصبُّر دارعُ
وفيت بعهدِ الصبر فيها حميَّةً
وقد غدرت بالراحتين الأصابعُ
ومخطوبةٍ بالكُتْب والرُّسْل مهرُها
غرائبُ أبكار الكلام البدائعُ
يقوم الخطابُ الفصلُ والجوُّ ساكنٌ
لديها مقامَ النصلِ والنقعُ ساطعُ
كتبتَ فأمليت الرياضَ وماءها
وكالنار وعظٌ تحتها وقوارعُ
لك النصرُ فإسمع كيف أُظْلَمُ وإنتصرْ
فما تضع الأيامُ من أنت رافعُ
حُرمتُ عطاياك المقسَّمَ رزقُها
وعاقت مديحي عنك منك موانعُ
وحلاّني[6] عن بحر جودك راكبٌ
هواه وقد لاحت لعيني الشرائعُ
ثلاث سنين قد أكلتَ صُبابتي[7]
فغادرتني شِلوا وذا العامُ رابعُ
أرى من قريبٍ شملَ عزّى مبدّداً
وقد كان ظني أنه بك جامعُ
على كل ماءٍ لامعٍ من نداكُمُ
سنانٌ من الحظ المماكِس لامعُ
أيا جابر المنهاض لم يبق مفصلٌ
وإلا ندوبٌ تحته ولواذعُ
أعيذك بالمجد المحسَّد أن يُرى
جنابُك عني ضيّقاً وهو واسعُ
واعجبُ ما حُدِّثْتُه حفظُك العلا
ومثلي في أيام ملكك ضائعُ
أأنطقُ مني بالفصاحة يُجتبى
وأمدحُ إن لفّتْ عليك المجامعُ؟
أبى الله والفضل الذي أنت حاكم
به لِيَ لو قاضى إليك منازعُ
وما الشعر إلا النشر بعداً وصورةً
فلو شاء لم يُطمِعْ يدا فيه رافعُ
وقد أفل النجمان منه فلا يُضَعْ
-على غير سيرٍ- ثالثٌ فيه طالعُ[8]
بقيتُ لكم وحدي وإن قال معشر
ففي القول ما تنهاك عنه المسامعُ
ولو شئت بي أخفَى «زهيرٌ» ثناءهُ
على «هَرِمٍ» أيّام تُجزَى الصنائعُ
وما شاع عن «حَسّان» في «آل جفنةٍ»
من السائرات اليومَ ما هو شائعُ
وكان غبينا من «أميَّةَ» من شَرَى
مديحَ «غِياثٍ» وهو مغلٍ فبائعُ

على كلّ حال أنتَ معطٍ وكلّهم
على سعة الأحوال معطٍ ومانعُ

وقد وهبوا مثل الذي أنت واهب
فما سمعوا بعض الذي أنت سامعُ
ذرائعُ من فضل عليك إتكالها
فما بالها تُدنَى وتقصَى ذرائعُ

وما لكُمُ والله يعطف خصبَكم
على مجدبٍ دنياه منه بلاقعُ

تصان الأسامي عندكم بإشتهارها
وغمض المعاني مهملاتٌ ضوائعُ

وموشيَّةٍ حَوكَ البرودِ صفاتُك الـ
ـحسان تساهيمٌ لها ووشائعُ

---

(١) الجراز : اليابس الصلب .
(٢) الجفيف : ما يبس من النبت .
(٣) الأخادع جمع أخدع وهو عرق في صفحة العنق.
(٤) في الأصل «وصيفيّة».
(٥) المشناة : الحبل من صوف أو شعر أو غيره وفي الأصل «مناه» والنصوح الخائط . .
(٦) حلاّني : منعني الورود .
(٧) الصبابة : البقية .
(٨) يعرض بفقد صنعة الشعر مع موت الشريف الرضي وابن نباتة ولم يبق الا ما يسمع منه .

تـهـبُّ ريـاحـاً فـي عـداك خـبـيـثـةً
وطـيِّـبـاً عـلـيـك ردعُـهـا مـتـسـارعُ

كـأن « اليـمـانـي » حـلَّ منـهـا عـيـابـه
تـفـاوحُ من « داريـن » فـيـهـا الـبـضـائـعُ

مـتى ضـحكت لي مـن سمائـك بـرقـةٌ
حكت لـك أرضي كيف تـزكـو الصنـائـعُ

وإن كـان يـومٌ فـي الـحـوائـج شـافـعـاً
الـى النـجـح ، إن الـمـهـرجـان لشـافـعُ

السيد محمد الامين بن السيد علي .

مرت ترجمته في المجلد التاسع ، الصفحة ١٢٦ .

وأشير فيهـا الى مساهمته في الحركة الاستقلالية العربية الأولى وننشر هنا بعض التفاصيل عن تلك الحركة لارتباط حياة المترجم بهـا ، وقد كتب ذلك عادل الصلح في كتابه (سطور من الرسالة) :

لقد تعددت العوامل التي كانت تتضافر على تفتيت الكيان العُثماني ، منهـا ما هـو داخلي متـأت من النـظم الاستبـدادية المـطبقـة على الأفـراد والجماعات في أراضي الـدولة ، ومنهـا ما هـو خارجي متـراكم على مرور الزمن . والواقع اننا إذا ألقينا نظرة شاملة على المحاولات النظرية في حقول الاصلاح ، لتبين لنا ان المسؤولين في الـدولة العثمـانية كـانوا يحسـون بما يعتمل في الصدور . فقد كانت النفوس متحفزة في بعض العهود ، لا سيما الأخيـرة منهـا ، لـوثبـات تؤدي إلى تبـديـل الأوضـاع وتـدني الحكم العثمـاني ـ قدر الاستـطاعة ـ من النـظم الحديثـة المطبّقـة في بلدان أوروبا وأميـركا الشمـالية . ولـذلك كـان بعض الحاكمين يـطلعون على الشعـوب الخاضعة لهم ، بين حين وآخر، ببيانات وقوانين يضمنونها الحقوق الصريحة والأنظمة الراقية ، ويقطعون في ذلك الطريق على طالبي الاصلاح حتى إذا سنحت لهم الفـرصة ، ورأوا أن دعـاة الحـريـة والعـدالـة والمسـاواة ضؤل شأنهم ، ألغوا ما وضعوه من دساتير وما سنّوه من قـوانين ، وعادوا سيـرتهم الأولى في الاستبداد في إدارة شؤون رعاياهم . وهذا التجاذب الدائم ، بين طمـوح الأحرار ، وأنـانية أصحـاب السلطان ، أوقـع الحكم العثمـاني في مآزق، كثيراً ما جعلته عرضة للمخاطر والمهالك . وكانت العوامل الخارجية في وجوهها المتعددة، تفيد من حالة الاضطراب والقلق هذه ، وتعمل على اذكائها في مساعدة الفساد على التفشي، والظلم على الاستشراء . وتتجاذب القوى العالمية الحاكمين في اتجـاهات متعـاكسة ، فتنشـد من ازرهم حينـاً ، وتقلّص ظلهم أحيـاناً . وتقف بـريطانيـا إلى جـانبهم احتـراسـاً من الخـطر الـروسي وغيره ، وتتحـرك الجيوش الأجنبية فتقضم أطراف السلطنة شيئـاً فشيئـاً . وقد تتوجه بقواها في طريق العاصمة فتهتز عـواصم الغرب، وتلتئم المؤتمرات ، وتعقد المعاهدات ، لتحـول دون انحلال الـدولة وانهيـارها ، فتستمر بفضل التنافس الدولي قـائمة ، ويـظل الاصلاح المنشـود مغفلاً في زوايا الأهمال .

وفي الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، كـانت الاضـطرابـات تعم أكثـر المقاطعـات العثمـانيـة الاوروبية . ففي الجبـل الاسود وبـلاد الصرب ثورات ، وفي سائر المناطق عصيان واضطراب[1] .

وفي عام ١٨٧٧ وقعت الحرب بين روسيا والدولـة العثمانيـة ، وكانت حرباً طاحنة اهتمت لها دول العالم ايما اهتمام ، لارتباط الكثير من المصالح الحيوية لكبريات هذه الدول ، بأحوال الدولة العثمانية . وقد كانت الغلبة في النهاية للجيش الروسي ، الذي وصلت طلائعه ، في إحدى ليالي شهر آذار عام ١٨٧٨ ، إلى سان استفانو[2] . وعند فجر اليوم التالي لوصوله ، فوجيء القواد الروس بالاسطول الانكليزي يقابلهم في البحر . وكان ذلك نذيراً لهم بأن لا يتقدموا أكثر ممـا فعلوا . وتفاوض الفـريقان ، العثمـاني والروسي ، وعقدا معاهدة كانت شديدة القساوة على الدولـة العثمانية ، حتى أصبحت بذلك في حالة قريبة من الانهيار .

وكما كانت الدول الكبرى تسعى للافادة من حالة الاضطراب السائدة في أراضي الدولة ، كذلك كانت القوميات التابعة لها تعمل لخلق كيانات مميزة لها .

قال والدي منح الصلح فيما كان يحدّثني به :

كان الوعي العربي ، قبيل الحرب الروسية العثمانيـة التي تقدم ذكـرها عام ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ وأثناءهـا ، ينمو في سـوريا بـاضطراد، وكـانت الدولـة العثمـانية في هـذه الفترة من الـزمن تبدو مشرفة على الـزوال . فالشعـوب البلقـانية : البلغـار ، والجبل الاسـود، والصرب، والافـلاق والبغـدان[3]، تطالب بمنحها المزيد من مقومات السيـادة الوطنيـة . والأرناؤوط[4] يـطلبون صيانة بلادهم من الاحتلال الأجنبي ، والولايات الأرمنية تطالب باصلاحات إدارية ، والنمسا تطمع بالاستيلاء على ولايتي البـوسنة والهـرسك والـروس يطمعون باحتلال بعض الولايات في شمال شرقي الأناضول الخ . .

فكـان وضع الـدولة المضـطرب، والوعي القـومي النامي في سـوريا، حافزين أهابا بأهل البلاد ليتداولوا في ما يجب عمله لتجنيب وطنهم المصير السيء، ومن أفجع صوره وقوع احتلال أجنبي[5] .

وقـامت لتأمين هـذا القصد حـركة فكـرية ، ثم حـركة عـاملة فـاعلة ، اتخذت لها بيروت منطلقاً . وكان من أسباب هذا الاختيار أن الرجـل الذي

---

(١) نورد هنا فقرة من خطاب العرش الذي ألقاه السلطان عبد الحميد الثاني في جلسة افتتاح المجلس العمومي الأول (الأعيان والمبعوثان) الذي أنشيء بعد اعلان دستور سنة ١٨٧٦ . وفيها وصف للحالة السيئة التي وصلت اليها الدولة العثمانية في ذلك الحين :

«فدواء هذه الغوائل وتعاقبها من الجهة الـواحدة، ومـداركة وانشـاء الأدوات والأسلحة الجديدة الحربية التي هي أعظم أسباب شوكة دولتنا واقتدارها ، وعدم وضع وارداتنا ومصاريفنا = تحت موازنة اقتصادية من الجهة الأخرى، أفضتا إلى انتقاص ادارتنا المالية درجة فدرجة ، فأنتجت ما نحن فيه الآن من المضايقة الخارقة للعادة ، وأعقب ذلك ظهور وقوعات هرسك المنبعثة من أثر الفساد والتحريك التي تجسمت أخيراً ، ثم افتتحت بغتة محاربات بلاد الصرب والجبل الاسود، وظهرت في عالم السياسة أيضاً فتن واختلالات كبيرة . وفي ذلك الزمان الذي فيه تهورت دولتنا في بحران عظيم ، وقع جلوسنا بارادة جناب الحق الأزلية على تخت أجدادنا العظام . ولما كانت درجة المخاطر والمشكلات التي حاقت بأحوالنا العمومية غير قابلة القياس مما تقدمها من الغوائل التي تهورت بها دولتنا حتى الآن ، قد اضطرت لأجل المحافظة قبل كل شيء على حقوقنا ، أن أزيد معسكراتنا في جميع الجهات ، حتى وضعت تحت السلاح نحو ستمائة ألف عسكري » . عن « كنز الرغائب في منتخبات الجوائب » .

(٢) ضاحية من ضواحي استانبول ويطلق عليها اليوم اسم « يشيل كوي » وفيها مطار المدينة .

(٣) رومانيا .

(٤) الألبان .

(٥) من مذكرة المركيز سالسبري ناظر الخارجية الانكليزية إلى سر هنري ليارد سفير انكلترا في الاستانة بتاريخ ٣٠ مايس سنة ١٨٧٨ :

« ان دولة السلالة السلطانية دولة قديمة ، وقد ملكت البلاد تغلباً ، ولم تبرح بمنزلـة الأجنبي عنها ، وأكثر اعتمادها على القدرة لا على ميل من غلبتهم اليها ، فما أصاب عساكرها من الهزيمة وحكومتها من العنت والارتياب من شأنه أن يحمل الناس على أن يعتقدوا انحلالها وحدوث تغيير سياسي سريع . وهو في الشرق أكثر ضرراً من عدم الرضى بثبات حكومتها . فإذا رأى سكان سوريا وآسيا الصغرى والعراق أن الباب العالي ليس له تأمين على بقائه سوى ما بقي له من القدرة ، تشتغل أفكارهم ، بعد أن ظهر من الوقائع ما دل على وهن هذا الأمل بأن الدولة العثمانية لا تلبث أن تسقط فينتظرون من يخلفها » . (كنز الرغائب في منتخبات الجوائب صفحة ٣٥٧ الجزء السادس) .

كان محركها الرئيسي، أحمد الصلح ، مقيماً في هذه المدينة .

وكان أحمد قد اعتمد في سره الحل الذي أيقن انه السبيل الأصلح لبلوغ الغاية المرجوة . وكان يدرك خطورة ما قرر الاقدام عليه ، لذلك راح يكاشف فيه بعض أصدقائه ويجمع من يثق به من خلصائه ، ويعد معهم الخطط السرية التي تؤول إلى إنجاح هذا الحل . وبعد أن قضى ما يقارب الثلاثة أشهر في تهيئة وسائل النجاح ، سافر إلى صيدا يرافقه بعض العاملين المؤيدين ووالدي منح ، وحلوا ضيوفاً في بيت الحاج ابراهيم آغا الجوهري . ثم سافر الوالد إلى جبل عامل ، حيث كان له ولوالده أحمد روابط وصداقات وثيقة ، إلى جانب ما كان لهما من ممتلكات ومزارع ، فاجتمع إلى بعض زعماء الجبل ، وعاد إلى صيدا بصحبة عدد منهم . وفي صيدا مكث الجميع قرابة شهرين في الاجتماع والتداول ، ثم جاء جدي أحمد والسيد محمد الأمين والشيخ علي الحر ووالدي إلى بيروت ، ومنها تابعوا طريقهم بعد استراحة قليلة فيها إلى دمشق ، وتخلف في بيروت الشيخ الحر ضيفاً على الحاج حسين بيهم . ونزل الوافدون إلى دمشق في دار مفتي المدينة ونقيب أشرافها السيد حسن تقي الدين الحصني ، وشرعوا بالاتصال ببعض أصحاب الرأي والمكانة من رجال دمشق ، وعرضوا عليهم الفكرة التي جاؤوا من أجلها ، فلاقوا منهم التحبيذ والتأييد ، ثم قصدوا بعد ذلك إلى دمر ، مصيف الأمير عبد القادر ، وقضوا في ضيافته ثلاثة أيام تباحثوا خلالها معه في الأوضاع المرتبكة في البلاد وعواقب هذا الارتباك ووسائل انقاذها منه .

وكان القصد من هذه الرحلة الشامية ، تبادل الرأي مع الأمير عبد القادر وعدد من الزعماء والتزود بآرائهم في الاجتماعات التي ستجري في بيروت .

وبعدما أتم هؤلاء مهمتهم في دمشق عادوا إلى بيروت . وتابع جدي منها الاتصال بمعظم زعماء البلاد الشامية ، فكان يبعث بالرسائل والرسل إلى من يصح الركون اليه من رجالاتها ، ويدعوهم للحضور إلى بيروت للتشاور .

وسافر والدي يصحبه الأستاذ أحمد عباس الأزهري ، إلى الشمال السوري، فزارا حلب وحمص وحماه واللاذقية، واجتمعا فيها ببعض زعمائها، واتصلا في اللاذقية برؤساء العشائر العلوية ، ثم عادا إلى دمشق وسافرا منها إلى حوران وجبل الدروز للغرض ذاته . وقد لبّى دعوة الجد بالقدوم إلى بيروت أكثر هؤلاء الزعماء[1].

وفي الموعد الذي تقرر لاجتماع بيروت حضر جدي اليها ، وراح مع والدي وسائر الوافدين يعقدون الاجتماعات ، وكانت كلها سرّية ، ويضعون الخطط اللازمة ، ومنها ما قد تستوجبه طوارىء عسكرية ، ويتخذون القرارات التي تقتضيها الأحوال . ومكثوا على ذلك عشرين يوماً رأوا في نهايتها الانتقال إلى دمشق ثانية ، واكمال البحث والمداولة ، فسافروا اليها فرادى، وتابعوا هنالك عقد اجتماعاتهم السرية في دار السيد حسن تقي الدين الحصني .

مؤتمر دمشق

وبعدما تدارس الزعماء الأمر على مختلف وجوهه وأشبعوه تدقيقاً تم الاتفاق على ما يجب السعي لتحقيقه .

ويذكر المؤرخ الأستاذ محمد جابر آل صفا في كتابه « تاريخ جبل عامل » أسماء ممثلي جبل عامل في هذا المؤتمر ، فيقول :

« وكان يمثل جبل عامل، في ذلك المؤتمر ، العالم الجليل السيد محمد الامين ، من الأشراف الحسينيين سكان شقراء (جبل عامل) والنبيل الحاج علي عسيران ، رأس الأسرة العسيرانية المعروفة في صيدا ، والشيخ علي الحر الجبعي ، وشبيب باشا الاسعد الوائلي . وكان هذا المؤتمر أول مؤتمر اشترك فيه الشيعيون للنظر في استقلال سوريا وفصلها عن جسم المملكة العثمانية ، عقد سراً في دمشق، في نهاية الحرب العثمانية سنة ١٨٧٨ »[2].

وكان الأمير عبد القادر قد بلغ في ذلك الحين مقاماً جعله قبلة الأنظار ، وألف الناس في بلاد الشام ، الرجوع اليه كلما وقع فيها أمر جلل أو ألمت بها أزمة خطيرة . وكان للاحترام والتقدير اللذين نالهما في المحافل الدولية ، لا سيما في أعقاب حوادث سنة ١٨٦٠ الشامية ، أثر كبير في المنزلة الرفيعة التي تبوأها في العالمين العربي والاسلامي .

فلما داهمت الدولة العثمانية أحداث سنة ١٨٧٧ أخذ اسمه يروج كرائد للحركة الوطنية ، لأن الصفات التي تميز بها الأمير والمؤهلات التي توافرت له ، تنسجم انسجاماً كاملاً مع مؤهلات الرائد .

وفي الاجتماع الذي عينه زعماء البلاد الشامية لوضع القواعد والأسس للمواضيع التي تدارسوها في اجتماعاتهم ، تقرر العمل لتحقيق استقلال البلاد الشامية (وهي ما تعرف اليوم بسوريا والأردن وفلسطين ولبنان)[3] وقدّم أحمد الصلح اقتراحاً بترشيح الأمير عبد القادر الجزائري ليتولى الملك على هذه البلاد . فوافق المجتمعون على هذا الاقتراح . وبتكليف من المؤتمر حمل جدي القرار إلى الأمير .

وفي ذلك يقول محمد جابر : « ان المؤتمرين أقروا اختيار الأمير عبد القادر الجزائري أميراً على سوريا ونقل القرار للأمير، المغفور له أحمد باشا الصلح » .

لقد اختار أهل الديار الشامية الأمير عبد القادر الجزائري ليكون رأس حركتهم ورئيساً للدولة التي عزموا على انشائها ، وذلك لشرف نسبه ، ولأنه بطل قومي مجاهد، وسياسي قدير فذ، ورجل علم وأخلاق ومكارم ، ولأنه سبق أن أنشأ دولة عربية قوية في بلاد المغرب الأوسط وناضل في الدفاع عنها ضد الاستعمار نضالاً كان اسطورة ذلك الجيل وآيته واعجوبته ، واحتل بذلك في الأمة العربية مرتبة عز نظيرها .

وقد اصطفاه أهل الديار الشامية دون أن يخطر لأحدهم انه ليس من أهل المشرق، وان المشرقي أولى منه بهذه الولاية ، لأن النزعات الاقليمية لم يكن لها أي اعتبار في ذلك الزمن . فكان ابن الجزائر وابن دمشق وبغداد وبيروت وسائر بلاد العرب مواطناً عربياً قبل أي شيء آخر . وقد حلّ عبد القادر في دمشق، مواطناً عربياً كريماً ، أعزه أهلها وأجلوه وأنزلوه منهم منزلة السيد، وولوه مكان الصدارة فيهم ، كما ولاه من قبلهم أهل الجزائر .

وفي اليوم التالي للاجتماع الذي اتخذ فيه قرار تولية الأمير، قصد أحمد

---

(١) طالما حدثني الشيخ أحمد عباس الأزهري، عندما كان يأتي في أواخر الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ إلى منزلنا في ميناء الحصن ، في بيروت ، حين رجا منه والدي أن يدرسنا ، أنا وأخوتي ، اللغة والفقه والتاريخ ، طالما حدثني عن ذكرياته أيام النضال ، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . وكان يروي نبذاً ووقائع عن نشاطه مع والدي في المجال القومي ، وعن دورهما في أعمال الجمعيات السرية التي تأسست في ذلك الحين ، وعن حركة السعي لاستقلال البلاد ، والأمير عبد القادر، وهو حديث مستفيض لا يختلف عن حديث الوالد .

(٢) جابر آل صفا محمد « تاريخ جبل عامل » بيروت سنة ١٩٦٣ ، صفحة ٢٠٨ .

(٣) وكانت ولاية حلب يومئذ تضم علاوة على أراضيها اليوم مدن اسكندرون وأنطاكية وعينتاب ومرعش وأورفة . وهذه المدن تتبع اليوم الدولة التركية . وكانت الولايات العربية في الدولة العثمانية في ذلك الحين هي حلب وسوريا والحجاز واليمن وبغداد وطرابلس الغرب .

باشا اليه في قصره في دمّر ، وأبلغه ما اتفق عليه أعيان البلاد ، ورغم ما احتواه هذا التكليف من ثقة وتقدير، رأى الأمير أن لا يقطع فيه قبل التروي والتبصر .

واقتضى لذلك مشاورات ومفاوضات بين الطرفين كان يقوم بها والدي . ومن النقاط الرئيسية التي جرى البحث بشأنها :

١ ـ الخلافة .

٢ ـ البيعة .

٣ ـ ماهية الاستقلال المنشود.

وكان من رأي الأمير أن يظل الارتباط الروحي بين البلاد الشامية والخلافة العثمانية قائماً ، وأن يبقى الخليفة العثماني خليفة للمسلمين ، وأن تتم للأمير البيعة من أهل البلاد جميعاً .

وقد وافقه على رأيه في موضوع الخلافة أكثر الجماعة ، واتفقوا جميعاً على تحبيذ ما طلبه بشأن البيعة وتعهدوا بتنفيذه .

وأما فيما يتعلق بالبند الثالث، فان المؤتمرين جميعاً اتفقوا على إقرار مبدأ السعي لتحقيق استقلال بلاد الشام ، وتأجيل البت في مدى هذا الاستقلال ، إلى انتهاء الحرب الروسية العثمانية ، وانجلاء وضع الدولة ومصيرها . واعتمدوا في ذلك خطة التريث ، ريثما يتبين لهم الموقف الدولي المشوش ، وتظهر التطورات المتوقع حدوثها في السياسة العامة . وكانت انكسارات الدولة العثمانية في حربها مع الروس، واشتداد الحركات الاستقلالية الانفصالية في بلاد البلقان ، وما كان واضحاً من عطف الدول على هذه الحركات وتأييدها ، واهتمامها بدرس خصائص وأشكال الحريات المراد منحها للشعوب البلقانية . مضافاً الى ذلك ما كان يداخل نفوس الأهلين عندنا من القلق والخوف على مصائر بلادهم ، كل ذلك كان حافزاً لزعماء البلاد على النهوض والسعي لدرء الشر، والعمل على انقاذ الوطن من الاحتلال الأجنبي، قبل أن يطرأ ما يدعو الدول الأجنبية ، إلى بحث شؤون البلاد العربية والبت بقضاياها بشكل لا يتفق ومصلحتها القومية . وكان على هؤلاء الزعماء أن يتابعوا مجرى الاتجاهات السياسية طوال الحرب الروسية العثمانية التي بدأت في ٢٤ نيسان سنة ١٨٧٧ ، واستمرت نحواً من تسعة أشهر ، وانتهت بعقد معاهدة سان استفانو ، وعدلت بعد ذلك بأربعة أشهر في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ .

وكان كذلك على رجال مؤتمر دمشق، أن يراقبوا ما يجري في مؤتمر برلين، ليتخذوا على ضوء ذلك موقفهم الأصوب . وكان يروج بين العاملين انه إذا تبين أن إحدى الدول الأجنبية تهدف إلى الاستيلاء على بلادنا ، كما كانت نية النمسا في البوسنه والهرسك ، وروسيا في بعض الولايات الشرقية من الأناضول : اردهان وقارص وباطوم ، وكما هي نية بريطانيا في قبرص ، فلا بدّ من طلب الاستقلال التام . أما إذا تبين انه ليس ثمة من عزم على احتلال البلاد ، فتكون الغاية تحقيق الاستقلال الذاتي كما هي الحال في مصر وفي بعض بلاد البلقان .

واتفق الأمير والمؤتمرون على المضي في تهيئة الأسباب وتمهيد الأجواء لاعلان استقلال البلاد، عندما تكتمل هذه الأسباب . وأن تكون بداية ذلك قيام الأمير بجولات في المناطق الشامية ، تمهيداً لتنفيذ البيعة المطلوبة ، ثم ارسال وفد إلى الأقطار الأوروبية ، يعمل لكسب تأييد دولها للقضية الاستقلالية .

وكان من الأشخاص الذين تقرر أن يعهد اليهم بهذه المهمة ، رسل ودعاة ممن كانوا يقيمون خارج البلاد ، على أن يعمل هؤلاء في سرية تامة في بادىء الأمر ، وعلى أن يقوموا بالدعاية للقضية في الصحف والمجتمعات ، عندما يحين الوقت المناسب لنشر المطالب والترويج لها .

الجولة الدعائية

وتابع والدي حديثه عما جرى بعد ذلك فقال : انه اعلن اختتام المؤتمر ، وتفرق الأعضاء كل إلى بلده ، وعددهم ثلاثون شخصاً ، وترك الأمير دمشق ليقوم برحلات دعائية في مختلف أنحاء البلاد ، بصحبة بعض أعيانها ووالدي .

وخشية من أن تلفت هذه الجولات المفاجئة أنظار السلطة وتثير تساؤلها ، وخوفاً من تنبه رجالها للغرض الحقيقي منها ، اتخذ المتجولون زيارة الأمير لمواطنيه الجزائريين ذريعة لتنقلاتهم ورحلاتهم . وكان هؤلاء الجزائريون قد نزحوا عن الجزائر مع الأمير خلال غيابه في منفاه ، وبعد قدومه إلى دمشق ، ووفدوا إلى الديار الشامية وانتشروا فيها جماعات ، وقُدّر عددهم بستة آلاف، وكان الأمير ورجال الحركة يعتبرون هذه الجماعة المدربة على القتال نواة لقوة محاربة يستعان بها عند الاقتضاء .

وكان من المدن والمناطق التي رافق والدي الأمير اليها صيدا وجبل عامل[1] وعكا ويافا والقدس ونابلس وبعلبك وغيرها .

وقد حدّثني والدي عن الأثر البالغ الذي تركته هذه الزيارات في نفوس زعماء البلاد ، وكيف أن أهالي المدن التي حل فيها الأمير والقرى التي مَرّ بها أُخذوا بما شاهدوا من ورعه وتقواه ، وبما سمعوا من مناقبه ومكارمه ، حتى أن بعضهم طفق ينسب اليه الخوارق ، ويروي عنه الحكايات على أنها كرامات الأولياء والاتقياء .

اهتمام الدول الأجنبية بحركة الاستقلال الشامية

ويبدو ان القنصليات الأجنبية في المدن الشامية كانت قد تنبهت إلى هذه الحركة وتتبعتها عن كثب وأوقفت حكوماتها على ما بلغها عنها.

ففي ١٩ تشرين الأول سنة ١٨٧٩ ، أرسل قنصل فرنسا العام في بيروت Delaporte إلى وزير الخارجية الفرنسية برقية يقول فيها : « يشاع هنا ان ثمة مؤامرة عربية تدبر في سوريا لها فروع في ولايات حلب والموصل وبغداد ومكّة والمدينة ، هدفها انشاء مملكة عربية ، يرأسها حاكم عربي . إلا انني لست في وضع يمكنني من تأكيد هذه الشائعة . على ان في مثل هذه الفترة التي تسود فيها الفوضى التامة هنا ، اعتقد انه ليس ثمة ما يحول دون تحقيق هذا المشروع . وقد ذكر اسم عبد القادر الزعيم الجزائري الشهير الذي يقيم اليوم في دمشق ، ليكون السلطان المقبل لهذه المملكة[2]».

وهذه الوثيقة تحمل تاريخاً يلي مباشرة تاريخ انعقاد مؤتمر دمشق . ولا شك ان أخبار هذه الحركة بلغت كذلك مسامع سائر ممثلي الدول في دمشق وبيروت ، ونقلها هؤلاء إلى حكوماتهم ، كما بلغت مسامع القنصل الفرنسي في بيروت ، ونقلها بدوره إلى حكومته .

وعلى ذلك ، لا بد أن يكون في دوائر باريس ولندن واستانبول وغيرها وثائق أخرى تتعلق بهذه الحركة .

الشيخ محمد علي الشهير بـ (الحاج الشيخ آقا بزرك الشاهرودي)

ابن الشيخ علي نقي بن الشيخ محمد علي الذي جمع بين الرئاسة

---

(١) روى لنا السيد عبد الرؤوف فضل الله عما سمعه من الشيخ موسى مغنية ، الذي كان حاضراً في بلدة بنت جبيل من جبل عامل زيارة الأمير عبد القادر للشيخ موسى شرارة ، وعن الترحيب الذي لقيه الأمير في زيارته لهذه البلدة ، وقبوله ضيافة الحاج سليمان بزي ، وكيف أن الشيخ محمد حسين مروة الملقب بالحافظ ألقى أمام الأمير في مجلس الشيخ موسى شرارة خطبته (الشقشقية) الشهيرة للامام علي . وغير ذلك من شؤون تلك الزيارة .

(٢) الدكتور زين ، عن الوثيقة الموجودة في وزارة الخارجية الفرنسية .

الدينية والدنيوية في بلدتي شاهرود وبسطام وما والاهما ، ابن الحاج ملا عباس .

ولد في شعبان سنة ١٣٠٧ هـ في قرية صغيرة تسمى بـ (ويرو) من قرى قضاء شاهرود ، تبعد عنها شمالاً نحو ٢٠ كيلومتراً .

ومات والده وهو صغير السن ، فكفلته أمه حتى تعلم القراءة والكتابة ثم انتقل الى شاهرود واشتغل هناك بتحصيل العلوم العربية في مدرسة (بازار) ثم ارتحل في سنة ١٣٢٨ الى مشهد الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام فاستفاد من محاضر علمائه لا سيما الحاج آقا حسين القمي والحاج ميرزا محمد آقا زاده الخراساني .

وأقام في مشهد الرضا عليه السلام الى عام ١٣٤٠ ثم سافر الى الحوزة العلمية الكبرى النجف الأشرف وحضر عند أساطينها ، فأدرك أبحاث الشيخ ضياء الدين العراقي وأبحاث الشيخ الميرزا حسين النائيني وأبحاث السيد أبو الحسن الأصفهاني .

ويقول المترجم له في بعض ما كتبه :

« وحيث كان اشتغالي بالبحث وكتابة الدروس زائداً عن حد الاعتدال في الليل والنهار انحرفت صحتي وأصبحت مريضاً عاجزاً عن الاستمرار في التدريس والكتابة ، وعند ذلك أمر مولانا الاستاذ السيد أبو الحسن الأصفهاني ومولانا الاستاذ الشيخ الميرزا حسين النائيني بالسفر الى ايران لاسترداد الصحة فسافرت في عام ١٣٥٣ الى مشهد الرضا عليه السلام وحيداً بقصد المعالجة وكانت العائلة باقية في النجف الأشرف .

وبعد الورود في المشهد اجتمع الطلاب والفضلاء حولي والتمسوا مني ان اشتغل في مدة مقامي بالمشهد ببحث فقهي ، فأجبتهم الى ذلك وشرعت في تدريس بعض القواعد الفقهية الى أن وقعت الوقائع . . . »[1].

ترك من المؤلفات :

١ ـ دورة كاملة من تقريرات بحوث استاذه الشيخ ضياء الدين العراقي في أصول الفقه .

٢ ـ دورة كاملة من تقريرات بحوث استاذه الشيخ الميرزا حسين النائيني في اصول الفقه ايضاً .

٣ ـ الروائع الفقهية وهي موسوعة فقهية استدلالية اجتهادية كمل منها : كتاب الطهارة الى آخر مباحث الاغسال وكتاب الصلاة وكتاب الخمس والزكاة وكتب المكاسب والبيع والخيارات بتفاصيلها وكتب الغصب والاجارة والقضاء والشهادات .

٤ ـ رسائل في التقية والعدالة وإرث الزوجة .

السيد محمد بن فضل الله الحسيني الاشكوري الجيلاني .

ولد حدود ١١٩٠ ، توفي بعد ١٢٢٠ .

ولد في اشكور من ضواحي تنكابن ـ وتعلم المبادىء والمقدمات في مدارس تنكابن وجيلان ثم ذهب الى كربلا وحضر على أعلامها واختص بالشيخ احمد الاحسائي وفي سنة ١٢٢٠ ترجم ولخّص رسالة الحيدرية التي هي من تأليفات استاذه الاحسائي[2].

(١) حكم عليه وعلى جملة من كبار علماء المشهد لقضايا حدثت فيه بترك الاقامة هناك والذهاب الى بلادهم ! فاقام هو في شاهرود وهناك اهتم بتربية الطلاب ساعياً في إحياء ما اندرس من الآثار والمعالم العلمية .

(٢) الشيخ محمد السمامي .

الشيخ محمد فليح

ولد في كربلا سنة ١٢٧٢ ومات فيها سنة ١٢٩٥ .

ينتهي نسبه الى عشيرة (جشعم) العربية . ترعرع في كربلا بين اسرة أدبية وورث الشعر عن والده الشيخ فليح . وخاله الشيخ محمد علي الشيخ خليل ، وتتلمذ على مشاهير شعراء كربلاء أمثال الحاج محسن الحميري والسيد احمد الرشتي والشيخ كاظم الهر ، ونشأ تحت ولاء عائلة آل الرشتي ، فأعجب به السيد احمد الرشتي ، وأسبغ عليه وعلى اخوانه الشعراء من نعمه : وكما كان الاب ملازماً للسيد كاظم الرشتي كان الشيخ محمد الابن ملازماً للسيد احمد بن السيد كاظم ، ولم يكن حظ الشاعر من مديحه لهذه الأسرة ورفع أعلامها الى الذروة بأقل من حظ أبيه في هذا الميدان ، فقد انصرف الى الاشادة بهذا البيت وتبجيل أعماله الأمر الذي ساقه ان يلقى حتفه هو والسيد احمد في حادثة مروعة فقال خاله الشيخ محمد علي يرثيه ويرثي السيد احمد :

تبت يدا هذا الزمان ولا لعا ... يرمي المهذب والكمي الاروعا
لا زال يطلب شخصهم متعرضاً ... حتى غدوا فوق البسيطة صرعا
لا زال يطلب شخصهم متقنصاً ... لبني الاطايب دائماً متتبعا
نصب الردى شركاً لهم فأصابهم ... حتى غدوا رهن المنية أجمعا
كان البقية منهم مولى الورى ... تاج العلا غوث الأنام لمن دعا
فاعتاقه شرك الردىٰ فقضى به ... صبراً فعاد الخطب خطباً اشنعا
فغدى له المجد المؤثل قائلاً ... هذا قوى الاسلام طراً زعزعا
قد كان غيثاً للعفاف ومخصباً ... يروي الانام تدفقاً وتدفعا
قد كان مأوى للأنام وملجأ ... من كل خوف كان حصناً امنعا
انسى البرية حاتماً بسماحة ... دهر الدهور وذكره لن يقطعا
ليثاً صؤلا من يلوذ بجنبه ... سيفا صقيلا من أراد تروعا
ان صال يوماً في البسيطة خلقه ... اسد الأسود وللشوامخ صدعا
تخشى الاسود مهابة من بأسه ... ان رامها التدمير يوماً اوقعا
ذلت لعظم جنابه امراؤها ... حقا لها من أن تذل وتخضعا
لا سيما عين الفخار محمد ... من قد غدا ظلاً صفيا اروعا
لما رأى افراده بين العدى ... سلت عليه البارقات تشرعا
تأويني همي وفي القلب ساجره ... فبت وبات الدمع تهمي بوادره

تذكرت أيام الوصال فتارة
يبادرني دمعي وطوراً ابادره

ولم أنس معسول الرضاب غزيلا
موارده محبوبة ومصادره

وطلعته صبح وطرته دجى
وأردانه ريا وكحلا نواظره

الى ان حدا حادي الفراق فليته
اتيح له من بطن خفان خادره

فقام وقال للركب قوض راحلا
وموعدنا من عام قابل حاجره

لوى فوق جيدي للوداع يمينه
ويسراه كفت ما تصب محاجره

فأتبعته دمعاً كصوب غمامة
وفي القلب من نار الفراق مساعره

مضى ومضى قلبي وراء ظعونه
يراجعني طوراً وطوراً يسايره

فلولا التسلي للمشوق بوعده
لشقت لما قاساه منه مرائره

وقال من قصيدة :

لمن طلل بأكتبة الأثيل
بوادي الجزع فالربع المحيل

فجونب فالرياض فذات عرق
فحومل فالأبيرق فالدخول

عفى وتناوحت فيه جنوب
من الأرواح من بعد الشمول

بكته من السحائب ساقيات
له من فيض صيبها الهطول

ترحل عنه ساكنه وفيهم
سلوب القلب بالطرف الكحيل

فكم فتقت اخا ثقة ونسك
بسحر اللحظ والخد الأسيل

وقال يمدح السيد احمد الرشتي :

الصبح يحكى وجه احمد
اذ يهش الى الفقير

المفرد العلم المنادى
في عظيمات الأمور

غيث بيوم نزاله
غوث الصريخ المستجير

من معشر شرفوا بنسـ
ـبهم الى الهادي البشير

الضاربي هام العدو
بظبة البيض الذكور

والتاركي كبش الكتيبة
قوت ساغبة النسور

يابن الذين توارثوا كر
ماً وخيراً اي خير

عن امجدين جحاجح
صيد غطارفة بدور

لولاكم آلت معالم
علم احمد للدثور

فالأرض تحكى من صفا
تكم قليلاً من كثير

في صدوركم كرحابها
سعة تعالت من صدور

ورياضها اخلاقكم
حسناً تجل عن النظير

يا احمد الأمجاد يا ذا
الفضل والعلم الغزير

هنيت يا عيد الأنام
بعيدك الوافي الحبور

فالعيد يغدو رائحاً
وتدوم إنت على الدهور

ومن حماسته قوله :

قد نما في كل شهم اشوس
سيد يوم نزال وطعان

مهده ان شملت نائبة
مصقع في نطقة طلق اللسان

سل اذا كذبت عنا حميراً
واخصص منهم بني عبد المدان

كيف اجرينا المهاري شرّباً
تحت صرد صبر يوم التداني

والمنايا خفقت اعلامها
وترآى للنزال الفئتان

فأبدناهم وابنا بالسبي
ورئيس الجيش مكبول يعاني

معشري الشم البهاليل وقد
حق ان أفخر فيهم وكفاني

كيف لا انظر عطفي شامخاً
وسميراي السهى والفرقدان

محمد كاظم بن محمد جعفر الشيرازي المتخلص بـ آشفته.

المتوفى سنة ١٢٨٧ كما في كتاب آثار العجم ص ٤٣٣ سنة ١٢٨٨ كما في فارسنامه ناصريج ٢ص٩٧٣ في شيراز ونقلت رفاته الى النجف فدفن هناك .

كان من أعيان الشعراء وأهل العلم والفضل ورجالات شيراز البارزين ولد في اسرة عريقة لها جاه عريض وثراء وأملاك وعقارات في شيراز ونواحيها قرأ العربية وسائر العلوم على جملة من علماء شيراز وأخذ الخط عن اساتذة هذا الفن ونبغ في الشعر وكان له خط جميل فيالنستعليقوشكسته وعندما فوض منصب ولاية خراسان الى السلطان مراد ميرزا حسام السلطنة في سنة ١٢٧٧ اخذ معه المترجم له الى خراسان وعينه بمنصب (كلانتر) لمدينة مشهد ومكث هناك حتى سنة ١٢٨١ ثم رجع الى موطنه شيراز . ذكر ديوانه شيخنا آغا بزرك الطهراني في الذريعة قال (ديوان آشفته فارسي للحاج كاظم الشيرازي المتوفى سنة ١٢٧٨ والمدفون في النجف . . . وقد رأيت نسخة ناقصة الأول والآخر منه فيها الغزليات والمدايح للمعصومين ومراثي الشهيد المظلوم يقرب من سبعماية وخمسين بيتاً في النجف . ومن قصايده في مدح أمير المؤمنين يوم مولده في العام الذي أعلن فيه ناصر الدين شاه جعله يوم عيد رسمي ، وكان الوالي يومئذ في شيراز مؤيد الدولة ابو الفتح ميرزا وذلك سنة ١٢٧٧ فتخلص هو في آخر القصيدة بمدح ناصر الدين شاه وأمين السلطان ومؤيد الدولة وفي احدى قصايده، ذكر ما حدث من الزلزلة بشيراز ودعا (لاهلها) .

اقول : وقد ذكر مؤرخو الأدب ان عدد أبيات قصائده اكثر من ثلاثين ألف بيت وشعره سهل غير معقد يردده كثيراً خطباء المنبر الحسيني[1] .

المولى الآخوند ملا محمد الكاشاني الاصفهاني.

ولد سنة ١٢٤٩ في كاشان وتوفي سنة ١٣٣٣ في اصفهان ودفن فيها في مقابر تخت فولاذ من علماء الفلسفة والحكمة في عصره.

أخذ المقدمات في كاشان على جملة من اهل الفضل ثم هاجر الى اصفهان وأولع بالفلسفة والحكمة والتحق بحوزة كل من الميرزا حسن نجل ملا علي النوري والمولى الآغا محمد رضا القمشه إي حتى برع وتقدم في

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

ذلك، ترجم له السيد مصلح الدين المهدوي في كتابه تذكرة القبور بما تعريبه (. . . الحكيم العارف الكبير والفيلسوف على الاطلاق المرحوم الآخوند ملا محمد الكاشاني من نوادر الدهر في العلم والعمل والزهد والتقوى والتدريس كان يدرس الحكمة العلمية والعملية فريداً في عصره وفي اوائل هجرته الى اصفهان كان مقيماً في مدرسة (جده كوجك) ثم انتقل الى مدرسة الصدر ينقلون عنه حكايات عجيبة وأحاديث غريبة ولم يتزوج في طول عمره الشريف وعاش ٨٤ سنة .

اقول : تخرج عليه كوكبة من اكابر علماء الشيعة وأساطين الشريعة علماء الحكمة والفلسفة والعرفان منهم الأغا نجفي القوجاني والحاج آغا رحيم الأرباب والسيد حسين البروجردي ، والشيخ محمد الحكيم الخراساني ، والدهقان الساماني ، وآغا ضياء الدين العراقي ، والشيخ هاشم القزويني والسيد حسن مشكان الطبسي ، والشيخ اسد الله الايزدكشت ، والميرزا ارسطو ، والحاج الميرزا حسن الجابري الانصاري وغيرهم من الحكماء والفلاسفة وقد سمعت ان له حواشي على كتاب الاسفار وكتاب المشاعر وكتاب العرشية لصدر المتألهين الشيرازي[١] .

المولى محمد كاظم بن سليمان التنكابني الكلام وري.

ولد حدود ١٣٤٥ ، وتوفي حدود ١٣٠٥ .

ولد في قرية (كلام ور) من قرى تنكابن ودرس المقدمات بها ثم دخل مدرسة الحاج محمد صالح المجتهد وقرأ المبادىء والمقدمات بها . ثم هاجر الى الأعتاب المقدسة وحضر على اعلامها واجيز منهم ثم رجع الى موطنه وانشغل بالتدريس الى أن توفي بها [٢] .

الشيخ محمد كاظم بن عبد العلي التنكابني.

ذُكر في الأعيان: ٣٢/٨ و٣٨١/٩. وكُرر ذكره في المجلد الثاني من المستدرك الصفحة ٣٠٨

اقول: هم شخص واحد[٣].

محمد كريم بن صفي الله بن علي التنكابني.

توفي بعد ١١١٣ .

هو من الفضلاء العلماء، له حواشي على شرح اللمعة وآيات الاحكام تدل على سعة علمه وفضله[٤].

الشيخ محمد كريم بن المولى الشيخ فصيح الدين محمد بن الشيخ عبد الكريم البسطامي الدشت بياضي

من علماء الشيعة في القرن العاشر الهجري وأعلام الرياضيات في عصره تولى منصب القضاء في مدينة دشت بياض وانتهى اليه كرسي الفتوى ورياستها .

ومن أشهر مؤلفاته كتاب شرح نصاب الصبيان المطبوع في سنة ١٣٦٦ مع شرح ملحقات النصاب التي ألحقها به والده المولى الشيخ فصيح الدين محمد وذكره شيخنا في طبقات أعلام الشيعة معبراً عنه بقوله : كان قاضياً في مدينة دشت بياض واحتمل اتحاده مع المولى الشيخ كريم الدين الشيرازي من مشايخ الشيخ ابراهيم القطيفي الذي توفي بعد سنة ٩٤٥ كما جاء في بعض اجازاته وقد ذكر خطأ في احياء الداثر ص ١٩٣ كونه من تلاميذ الشيخ ابراهيم القطيفي والصحيح ما ذكرناه نقلاً عن الذريعة ج ١٤ ص ١٠٦[٥].

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٢) الشيخ محمد السمامي .

(٣) الشيخ محمد السمامي .

(٤) الشيخ محمد السمامي .

(٥) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

المولى آغا مير محمد مؤمن بن جمال الدين مصطفى الانجداني التفرشي القمي المتخلص بـ داعي.

ولد في قم سنة ١٠٦٥ وقيل ١٠٨٠ وتوفي سنة ١١٥٥ وقيل سنة ١١٧٠ في تفرش ودفن بها وقبره مزار معروف يقصده العام والخاص .

كان من أقطاب الأدب الفارسي وأعاظم الشعراء في أواخر العصر الصفوي واسع الخيال سهل البيان متضلعاً في الحكمة والفلسفة والعرفان الالهي وينتهي نسبه مع احدى وثلاثين واسطة الى الامام محمد الباقر عليه السلام .

واخذ المقدمات على جملة من فضلاء قم ثم توجه الى اصفهان احدى المراكز العلمية المهمة في ايران وتخرج على اعاظم علماء عصره في الفقه والأصول والحديث والحكمة والفلسفة والعرفان ونبغ في الأدب والشعر وتبحر في الحكمة والفلسفة والعرفان جامعاً للعلوم العقلية والنقلية والفنون الاسلامية كان أصله من قرية انجودان التي كانت احدى مراكز الاسماعيلية النزارية في ايران بعد سقوط قلعة ـ ألموت ويحتمل ان يكون من الاسماعيلية النزارية وذلك لميله الى التصوف الذي كان يتستر به الاسماعيلية النزارية في مذهبهم حتى العصر القاجاري وتحت هذا الستار ولده المترجم له في قم ثم انتقل الى اصفهان ومنها استقر في مدينة تفرش حتى مات بها ودفن هناك وقبره مزار معروف اختُلف في تاريخ ولادته ووفاته وذكره معاصره آذربيكدلي في كتابه آتشكده ص ٣٧٢ مفصلاً وأثبت تاريخ وفاته سنة١١٥٥ ونقل عنه مولوي محمد مظفر حسين الصبا في تذكرة روزروش وذكر عام وفاته ايضاً سنة ١١٥٥ ثم ادرج قسماً من شعره[٦] ونُشر عنه بقلم بعض المعاصرين تحقيقات هامة واحتملوا كونه من الاسماعيلية النزارية وذكروا تاريخ ولادته ووفاته سنة (١٠٨٠ هـ وفاته ١١٧٠) . وأشار اليه شيخنا الاستاذ آغا بزرك الطهراني في الذريعة قال : (ديوان داعي انجداني تفرشي واسمه المير محمد مؤمن بن جمال الدين وأصله من محال تفرش اشتغل بتحصيل الفنون عدة سنين وكان معاصر هاتف وآذر كذا ترجمه في . . . وأورد جملة من أشعاره وقد جمع ديوانه أبو القاسم المتخلص « بسحاب التفرشي » المولود سنة ١٣٠٤ كما ذكره لي شفاهاً وأنشدني بعض أشعاره . اقول : ترجمه آذربيكدلي في آتش كده ص ٣٧٢ في ضمن من عاصره من الشعراء مفصلاً وقال مات سنة ١١٥٥ عن تسعين سنة وكذا في روضة صفوية . . .)[٧] اقول : ذكره جمع من المؤرخين منهم ميرزا رضا قلي خان هداية في مجمع الفصحاء ج ٤ ص٢٨٩ وأدرج نموذجاً من شعره . وله آثار ومؤلفات هامة منها رائعته الذي تعرف بـ « سلطان القصائد آغا مؤمن تفرشي » وهي في شرح بيان رؤياه (أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام . وله ديوان شعر وجميع قصائد المترجم له طويلة ، ومليئة بدقائق عرفانية ونكات فلسفية مما يدل على تبحره في الحكمة والعرفان والفلسفة[٨] .

السيد محمد بن محمد حسين بن مير محمد رضا الحسيني التنكابني.

ولد حدود ١٢٢٠ وتوفي سنة ١٢٩٣ .

ولد في رامسر وقرأ الأوليات في مدارسها ثم هاجر مع ابيه واخوانه السيد محمد هاشم والسيد تقي الى النجف الأشرف، فتوفي ابوه في النجف ودفن بها واشتغل هو بتحصيل العلوم الدينية عند اعلامها واختص بالشيخ خضر

(٦) المولوي محمد مظفر حسين الصبا تذكره روز روشن تحقيق محمد حسين ركن زاده آدميت ص ٢٥٣ طهران من منشورات مكتبة الرازي .

(٧) الشيخ آغا بزرك الطهراني الذريعة الى تصايف الشيعة ج ٩ القسم الاول ص ٣١٣ بيروت دار الاضواء .

(٨) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

شلال النجفي والشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، ثم ذهب الى طهران وصاهر المولى محمد جعفر الاسترابادي وبقي مدة هناك مستفيداً من أبحاثه ثم سافر الى مشهد الرضا ومازندران وجيلان وهمدان وأقام في مدينة رشت بطلب من اهاليها اجاز السيد اسماعيل الحسيني (مؤلف نظرة الناظرين) ، وذكر فيه مشايخه وهم المولى محمد جعفر الاسترابادي، والشيخ محمد حسن النجفي صاحب الجواهر، والشيخ خضر شلال النجفي والشيخ راضي النجفي والميرزا محمد علي الشهرستاني الحائري، والمولى علي البروجردي ، والحاج نور علي التنكابني ، والسيد محمد الخراساني الشهير بالقصير، والاجازة مؤرخة ٢٣ شوال ١٢٩٣ ـ وتوفي بعد هذا التاريخ .

وصفه السيد اسماعيل في نظرة الناظرين قائلاً : انه عالم فاضل جليل القدر حسن الخلق متواضع له مؤلفات راقية في الفقه والأصول والكلام والتفسير[1].

الشيخ ابو منصور محمد بن محمد بن المبارك الكرخي.

المتوفى ١١ محرم سنة ٥٩٨ ببغداد ترجم له المنذري في التكملة برقم ٦٣٦ ووصفه بالمقريء المؤدب وقال :

ودفن بمشهد الامام موسى بن جعفر عليهما السلام ، قرأ القرآن الكريم بشيء من القراءات ببغداد على ابي محمد الحسن بن علي بن عبيدة وبواسط على أبي بكر عبد الله بن منصور الباقلاني وغيرهما وسمع من أبي الفتح محمد بن عبد الباقي بن احمد وغيره .

محمد بن محمد بن عدنان بن عبد الله بن عمر العلوي الحسني الكوفي

المولود بها سنة ٥٣١ والمتوفى بها سنة ٦١٢ .

ترجم له المنذري في التكملة رقم ١٣٩٠ في وفيات هذه السنة قال : وفي الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول توفي الشريف الأجل النقيب ابو الحسين محمد بن الشريف ابي جعفر محمد بن ابي نزار عدنان بن ابي الفضائل عبد الله بن ابي علي عمر الحسني الكوفي المعروف بابن المختار وهو لقب لأبي علي عمر جد جده بالكوفة ودفن بها ومولده بها سنة ٥٣١، سمع ببغداد من ابي محمد عبد الله بن احمد بن احمد ابن الخشاب وحدث وتولى نقابة الطالبيين ببغداد .

مجد الدين ابو الحسن محمد بن محمد بن محمد بن الضحاك القرشي البغدادي الحاجب.

ترجم له ابن الفوطي في مجمع الأداب ٢٤٧/٥ رقم ٥١١ وقال :

من البيت العريق المعروف بالتقدم والحجابة والرياسة والكتابة وكان مجد الدين احد حجاب المناطق وصهر الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي وجدت سماعه على المقامات الحريرية مثبتاً بخط ابي طالب محمد بن العلقمي سمعها على الأجل زعيم الدين غرس الدولة ابي الحسن علي بن محمد بن السكن في ذي الحجة سنة ٦٢٠ بحق سماعة على منوجمر عن الحريري .

وكانت وفاته يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ٦٥٤ وحمل الى مشهد الحسين بن علي عليهما السلام .

أقول : وأظن ان كمال الدين ابا العباس احمد بن محمد بن محمد بن الضحاك الأسدي القرشي البغدادي الحاجب المتوفى سنة ٦٩٣ والمولود سنة ٦٣١ وحمل الى مشهد علي عليه السلام الذي ترجم له ابن الفوطي في ٥/ رقم ٢٦٣ من حرف الكاف هو ابن هذا .

(١) الشيخ محمد السمامي.

محمد بن محمد بن اسعد بن علي بن معمر بن عمر بن علي بن ابي هاشم الحسين بن احمد بن علي بن ابراهيم بن محمد بن الحسن بن محمد الجواني بن عبيد الله الزاهد بن الحسين الأصغر العابد بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام .

ترجم له المنذري في التكملة برقم ١٦٥١ في وفيات سنة ٦١٦ قال :

وفي التاسع عشر من المحرم توفي الشريف الأجل النقيب ابو عبد الله محمد بن الشريف الأجل النقيب ابي علي محمد بن الشريف الأجل ابي البركات أسعد بن على الحسيني العبيدلي الجواني المنعوت بالعز توفي بمصر ودفن بسفح المقطم.

ولي نقابة الأشراف بمصر بعد ابيه وحدث لقيته ولم يتفق الى السماع منه وقد تقدم ذكر والده .

وجده الشريف ابو البركات اسعد كان يضرب في عدة علوم وأخذ كذا عن غير واحد بمصر واليمن وحدث .

اقول : وترجم لأبيه برقم ١٨٠ في وفيات سنة ٥٨٨ وأورد هناك تمام نسبه فنقلناه من هناك .

وترجم شيخنا رحمه الله لأبيه في اعلام القرن السادس[2].

المولى الشيخ محمد مراد بن درويش على بيك الآشتياني القمي.

توفي بعد سنة ١١٣٠ .

كان من اعلام الشريعة وفحول المفسرين في العصر الصفوي محقق نحرير خطاط ماهر من علمائنا المنسيين اخذ المقدمات في آشتيان ثم هاجر الى قم وحضر على جملة من الفضلاء ومنها توجه الى اصفهان فتخرج على العلاّمة المجلسي الثاني المولى محمد باقر المتوفى سنة ١١١١ جلس للتدريس في اصفهان وكان له خط جميل وكتب بخطه نسخاً من القرآن في احجام مختلفة وله ترجمة للقرآن بالفارسية ومن مؤلفاته تفسير صغير للقرآن الكريم بالفارسية فرغ من تأليفه سنة ١١٢٧ وعندنا منه نسخة بخط المؤلف وجاء في آخره (حرره العبد الضعيف ابن درويش علي بيك آشتياني القمي محمد مراد عفي عنهما في عشرين شهر محرم الحرام سنة سبع وعشرين ومائة بعد الألف . . .)[3].

محيي الدين ابو عبد الله محمد بن المرتضى بن عبد الله الحسني الموصلي .

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٤١٧/٥ رقم ٨٥٩ وقال : من اكابر السادات الأشراف وأولاد النقباء.

المولى محمد بن محمد طاهر الكليجاني التنكابني.

هو من علماء القرن الثالث عشر وكان معظم تلمذته على الشيخ محمد تقي النوري (المتوفى سنة ١٢٦٢) والد صاحب مستدرك الوسائل .

وللمترجم مؤلفات في الفقه وغيره تدل على سعة علمه منها :

١ ـ الدرر المنظومة : وهو شرح كتاب الارشاد جمع في هذا الكتاب آراء استاذه النوري في المسائل الفقهية .

٢ ـ رسالة في العقود والايقاعات .

٣ ـ رسالة في احكام الأعيان النجسة .

٤ ـ اثبات خلافة الامام علي بن ابي طالب بعد النبي صلى الله عليه وآله [4].

(٢) السيد عبد العزيز الطباطبائي.

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٤) الشيخ محمد السمامي.

السيد محمد بن محمد يوسف الحسيني التنكابني.

ولد حدود ١٠٧٠ وتوفي بعد سنة ١١٢٥ .

ولد في تنكابن وقرأ المقدمات في موطنه ثم ذهب الى اصفهان وحضر على أعلامها ثم انصرف الى التأليف . ومن مؤلفاته تفسير القرآن الكريم في مجلدات توجد بعض مجلداته في مكتبة السيد الكلبايكاني في مدينة قم .

مجد الدين محمد بن محمد بن ابي مضر بن سالم بن علي العلوي الافطسي نقيب المدائن ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٢٤٨ رقم ٥١٥ وقال :

انشد له شيخنا تاج الدين في كتاب نزهة الأبصار في معرفة النقباء الأطهار في مدح النقيب الطاهر قطب الدين الحسين بن [الحسن] الاقساسي :

شرفاً ومجداً يا بني الاقساسي : بالطاهرين الطاهر الاغراس
... قطب الدين مولانا الذي ملك الورى بالـلطف والايناس
مولى اذا لاذ الفقير ببابه امنت يداه سطوة الافلاس

منها :

جبلت قلوب العالمين محبة فكأنما ارتضعوا هواه بكأس

محمد بن ابي الهيجاء بن محمد والي دمشق المتوفي سنة ٧٠٠ .

ترجم له الصفدي في الوافي بالوفيات ٥/ ١٧٠ وقال : الأمير الفاضل عز الدين الهذباني الاربلي والي دمشق . ولد سنة عشرين [وستمائة] باربل وقدم الشام شاباً واشتغل وجالس العز الضرير وكان جيد المشاركة في التاريخ والأدب والكلام وهو معروف بالتشيع والرفض . وكان شيخاً كردياً مهيباً يلبس عمامة مدورة ويرسل شعره على كتفيه ولي دمشق فكان جيد السياسة ، مات بالسوادة التي في رمل مصر سنة ٧٠٠ .

محمد بن محمد بن احمد بن السلّال الكرخي .

الوَرّاق الحبّار[1]. له حانوت عند باب النوبي .

هكذا وصفه الذهبي في كتابه (سيرة اعلام النبلاء) . وقال في ترجمته : الامام الفاضل ، سمع ابا جعفر بن المسلمة وأبا الغنائم بن المأمون وجابر بن ياسين ومن ابي علي محمد بن وشاح وأبي الحسن بن البيضاوي وأبي بكر بن سياوش الكازروني ، وتفرد في وقته عن هؤلاء الثلاثة .

مولده في سنة ٤٤٧ قال السمعاني : في خلقه زعارّة ، وكنا نسمع عليه بجهد وهو متهم ، معروف بالتشيع .

قال الحافظ ابن ناصر: كنت امضي الى الجمعة وقد قارب الوقت فأرى ابن السلال في دكانه فارغ القلب ليس على خاطره الصلاة .

قلت : حدث عنه السمعاني وعمر بن طرزد وسليمان الموصلي وأبو الفرج بن الجوزي والنفيس بن وهبان ، وبالاجازة ابو منصور بن عفيجة وأبو القاسم من صصرى .

وعاش اربعاً وتسعين سنة . توفي في جمادى الاولى سنة احدى وأربعين وخمس مئة . (انتهى) .

وابن ناصر الذي يتهمه بعدم صلاة الجمعة يعترف بانه كان يراه وقد قارب الوقت ، لا عند حلول وقت الصلاة ، اي في نفس الوقت الذي لم يكن فيه هو نفسه في الصلاة ، بل في طريقه اليها ، فما ادراه انه لم يذهب فيما بقي من الوقت لاداء الصلاة .

ثم انه يعترف بأن أدلته غيبية اذ يقول بانه كان يراه فارغ القلب، وهل يطلع على ما في القلوب الاعلاّم الغيوب . وكذلك قوله : ليس على خاطره الصلاة، فهل اعطي ابن ناصر قدرة الكشف على ما تجنّه الخواطر ؟ !

السيد محمد المعروف بالسيد القصير ابن ميرزا معصوم .

توفي سنة ١٢٥٥ عن ٧٥ سنة درس المقدمات في مشهد الرضا ثم تابع دراسته في النجف الأشرف على كبار علمائها وبعد أربع سنين هاجر الى اصفهان ، وبعد سنوات سافر الى مشهد الرضا، ثم حج بيت الله الحرام وزار العتبات المقدسة . ثم جاء طهران بعد اصابته بالفالج ليعالج فيها دون جدوى، فجاء مدينة قم وفيها توفي .

ومن مؤلفاته : المصابيح ، دورة كاملة في الفقه . وكتاب في علم الرجال .

الشيخ محمود بن الشيخ مرتضىٰ بن الشيخ حسن الآشتياني.

ولد في طهران سنة ١٣٠٤ ويقال ١٣١٤ وتوفي سنة ١٤٠١ بطهران .

آل الآشتياني من الأسر العلمية المعروفة في طهران بزغ نجمها في أفق طهران منذ عهد جدهم الشيخ ميرزا حسن بن الميرزا جعفر الآشتياني الطهراني المتوفى سنة ١٣١٩ احد أعلام الشيعة ومراجع التقليد في عصره ونبغ من هذا البيت علماء وفلاسفة منهم المترجم له كان من أعلام آل الآشتياني وكبار فقهاء طهران البارزين ومراجع الفتوى ومثالاً للورع والتقوى وأخذ المقدمات على جمع من فضلاء طهران وحضر على أبيه في طهران والمشهد ثم هاجر الى النجف الأشرف وأخذ الفقه والأصول عن الشيخ ميرزا محمد حسين النائيني المتوفى سنة ١٣٥٥ ثم رجع الى ايران والتحق بحوزة الشيخ عبد الكريم الحائري في قم وأخذ الفلسفة العالية عن الميرزا هاشم الاشكوري والميرزا حسن الكرمانشاهي والميرزا الشيرازي وكان من رجال الفلسفة في عصره. له مؤلفات فيها كتاب الصلاة في ثلاثة مجلدات ، وكتاب شرح درر الفوائد وكتاب النكاح ، وكتاب الاجارة كلها بالعربية طبعت في طهران[3].

آغا محمد هاشم بن آغا محمد اسماعيل الشيرازي.

ولد في شيراز ١١٠٩ وتوفي فيهاسنة ١١٩٩ .

ودفن في جوار مرقد حافظ الشيرازي وقبره مزار معروف في شيراز . كان من أقطاب الصوفية ومشايخ السلسلة الذهبية وأعاظم عرفاء عصره . أديب شاعر رئيس أخذ العلم عن فحول علماء عصره ونبغ في الأدب والشعر وانخرط في سلك البلاط الزندي فكان كاتباً خاصاً للسلطان الزندي كريم خان المتوفى سنة ١١٩٣ ثم ترك جميع مناصبه وحضر في العرفان والتصوف على شاه كوثر الهندي من مشايخ السلسلة الطيفورية الشطارية ثم دخل في خدمة السيد قطب الدين محمد النيريزي رئيس السلسلة الذهبية وأصبح من حوارييه وصاهره على ابنته ، وبعد وفاة استاذه المذكور تزعم السلسلة الذهبية الصوفية وانتهى اليه كرسي خلافتها حتى توفي له مؤلفات منها ديوان شعر، مناهل التحقيق ، كتاب ولاية نامه وهو شعر مثنوي[4].

محمد بن موسى الفطري.

قال الذهبي في سير اعلام النبلاء :

---

(١) الشيخ محمد السماوي.

(٢) يبيع الحبر والاقلام .

(٣) الصالحي.

(٤) الصالحي.

المحدث الحجة ، ابو عبد الله المدني مولى القطريين وهم موالي بني مخذوم . يروي عنه : سعيد بن ابي سعيد المقري وعبد الله بن عبد الله بن ابي طلحة ومحمد بن الامام علي وعون بن محمد ويعقوب بن سلمة الليثي وسعد بن اسحاق وغيرهم .

حدث عنه : عبد الرحمان بن مهدي وابن ابي فديك واسحاق بن محمد الغروي وقتيبة بن سعيد .

وثّقه ابو عيسى الترمذي، وقال ابو حاتم : صدوق يتشيع .

ابو عبد الله محمد بن ناصر بن مهدي بن حمزة العلوي الحسني.

ترجم له الصفدي في الوافي بالوفيات ١٠٧/٥ وقال : قدم مع والده الى بغداد صغيراً فنشأ بها وقرأ القرآن والأدب على أبي البقاء الأعمى وتميز وعلت مرتبته وناب عن والده في ديوان المجلس ثم رتب صدراً بالمخزن وناظراً ولم يزل على ذلك الى ان عزل وعزل والده من الغد ونقلا الى دار الخلافة وتوفي هناك والده سنة ٦١٧ واذن لولده اين شاء في السكن وغير زيه وهيئته وطلب الراحة ورغب في الخمول .

تاج الدين محمد بن نصر بن صلايا

ترجم له الصفدي في الوافي بالوفيات ١٢٨/٥ وقال : محمد بن نصر ابن صلايا بن يحيى الصاحب تاج الدين ابو المكارم بن صلايا الهاشمي العلوي نائب اربل الشيعي .

كان نائب الخليفة باربل وكان من رجالات العالم رأياً وعقلاً وحزماً وصرامة . وكان سمحاً جواداً كانت صدقاته وهباته تبلغ في السنة ثلاثين الف دينار وكانّ بينه وبين لؤلؤ صاحب الموصل منافسة فلما احضرهماهولاكو قال لؤلؤ : هذا شريف ونفسه تحدثه بالخلافة ولو قام تبع الناس أمره ، فقتله هولاكو بقرب تورين سنة ٦٥٦ .

وكان عنده أدب وله نظم وكان يشدد العقوبة على شارب الخمر بأن يقلع أضراسه ! وكان قد دارى التتار حتى أنهم اذا دخلوا اربل القوا الخمور التي معهم رعاية له .

كتب اليه عميد الدين بن عباس الحنبلي وكان ناظر الأعمال المجاورة لاربل وبينهما مودة عظيمة :

سلام كأنفاس النسيم اذا سرى … سحيراً ورياها له عطر شمأل
تزرّ على الرائين اذ راء صنوعه … فأرّج منه العرف ارجاء اربل
على العلوي الفاطمي محمد بـ … ـن نصر بن يحيى المنعم المتفضل
شأى الناس تاج الدين حسن مناقب … يفوق بها فخراً على غيره على
او الى علاء في التغالي تشيعا … وان كنت عند الناس احسن حنبلي

فأجابه تاج الدين بقوله :

أتاني كتاب من كريم اوده … وكان كنشر المسك شيب بمندل
ووافى مثال منه خلت كأنه … كلام الأديب الفارسي ابي علي
فقابلت منه مسك ريا ختامه … فيا مرسلا قد جاء من خير مرسل
وغير بديع أن تعبتم امينكم … الي بوحي البر ضمن التفضل
لقد زدت في الحسنى وطبت منابتا … وحزت من العلياء اشرف منزل
وحقك انى لست اخشى تشيعا … عليك ولكن سوف ادعى بحنبلي
فان نفترق في مذهبين فاننا … سيجمعنا صدق المحبة في علي

وترجم له ابن شاكر في عيون التواريخ ٢٠٣/٢٠ فقال ، وفيها سنة (٦٥٦) توفي .

تاج الدين محمد بن نصر بن يحيى بن علي المعروف بابن صلايا نائب الخليفة في اربل قتلته التتار وعمره أربع وستون سنة كان من رجال الدهر عقلاً ورأياً وتدبيراً وعنده فضيلة وله يد في النظم، ولي اعمال اربل مدة سنين عديدة وكان في صورة ملكها وساس الأمور بها سياسة حسنة. . . .[1].

السيد محمد هادي الميلاني.

ولد في ١٣١٣ هـ وتوفّي سنة ١٣٩٥ في مشهد الرضا . هو أحد مراجع الشيعة في أخريات القرن الرابع عشر الهجري .

نشأ في بيت العلم والفضيلة وألقى رحل الإقامة أخيراً في المشهد الرضوي بخراسان وساد وتصدّى لزعامة الحوزة العلمية فيه .

حضر في حلقة دروسه في الفقه والأصول، عدّة من الفضلاء والبارعين وتخرّج على مدرسته كثيرون من أفاضل العصر ودوّن بعض ابحاثه باسم « محاضرات في فقه الامامية » في عشرة مجلدات . حاز الإجازة الروائية من الاعلام : السيد حسن الصدر ، والمحدّث القمي والشيخ آغا بزرك الطهراني .

وكانت له يدٌ طولىٰ في التفسير والدراية والأدب العربي .

طبع له : تفسير سورة الجمعة والتغابن .

ومن نشاطاته الاجتماعية والثقافية تأسيس المدارس وبث الدعاة لنشر دعوة الاسلام في داخل البلاد وخارجها . وله قصيدة في مدح الامام الثاني عشر باللغة العربية طبعت في مجلة نور الاسلام [2]: .

السيد محمد هاشم بن محمد حسين بن المير محمد رضا الحسيني التنكابني .

ولد حدود ١٢١٠ في رامسر، وتوفي ١٣٦٢ في قزوين وحمل الى كربلا ودفن بها .

له ترجمة في أعيان الشيعة :

وأقول : ولد في رامسر ونشأ بها ثم ذهب الى قزوين ومن هناك الى اصفهان وحضر بحوث الشيخ على النوري في الفلسفة وفي الفقه والأصول ثم ذهب الى النجف الأشرف وحضر بحوث الشيخ علي والشيخ حسن كاشف الغطاء وغيرهما وقبل سنة ١٢٥٠ رجع الى ايران وسكن قزوين وحصلت له المرجعية الى أن توفي بها وحمل جثمانه الى كربلا ودفن بها وله مؤلفات منها : ـ

١ ـ تذكرة الأنام في تهذيب الاخلاق .
٢ ـ الاخلاق .
٣ ـ فروق الكلمات ـ في فروق الكلمات والأسماء والصفات .

---

(١) السيد عبد العزيز الطباطبائي.
(٢) السيد ابراهيم السيد علوي.

٤ ـ الاصول ـ في اصول الفقه .
٥ ـ الفقه الاستدلالي .
٦ ـ الاثني عشرية ـ في علم الكلام والاعتقاد .
٧ ـ الحاشية على قوانين الأصول .
٨ ـ كتاب في الامامة[1].

ابو البركات محمد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن ابي الحديد المدائني البغدادي.

المتوفى سنة ٥٩٨ .

ترجم له ابن الدبيثي في ذيل تاريخ بغداد المجلد الاول الورقة ١٣٦ ب وقال :

ابو البركات ابن شيخنا القاضي ابي الحسين بن ابي المعالي يعرف بابن ابي الحديد من أهل المدائن ، كان ابوه ابو الحسين يتولى القضاء بها وسيأتي ذكره ان شاء الله في من اسمه هبة الله .

وأبو البركات هذا كان كاتباً ذكياً فهماً، تولى عدة أشغال تتعلق بخدمة المخزن المعمور وغيره وكان معنا بالمدرسة النظامية أيام نظرنا في أوقافها ، علقت عنه أناشيد واستشهادات كانت تقع بيننا حال المذاكرة ، منها ما أنشدني بقرية من قرى دجيل لبعض المغاربة من حفظه :

ومهفهف صبغ الحياء نجده دمه فظل دمي بذاك طليقا
هذا يروق وذا يراق وانما هذا يروق صفاؤه ليريقا

توفي ابو البركات بن ابي الحديد ببغداد ليلة الثلاثاء حادي عشرين صفر سنة ٥٩٨ وصلينا عليه يوم الثلاثاء ودفن بمشهد الامام موسى بن جعفر عليهما السلام بالجانب الغربي .

اقول : وترجم له المنذري في التكملة لوفيات النقلة ٢/٣٣٣ رقم ٦٥٢ ووصفه بالكاتب المعروف بابن ابي الحديد ودفن بمشهد الامام موسى بن جعفر عليهما السلام حدث بأناشيد وكان ذكياً فهماً كاتباً . ووالده ابو الحسين هبة الله كان قاضي المدائن وخطيبها ويأتي ذكره (في وفيات سنة ٦١٣) .

وترجم له ابن الساعي في الجامع المختصر ٩/٨٨ وقال توفي شاباً عن أربع وثلاثين سنة فتكون ولادته سنة ٥٦٤ والظاهر انه اخو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن ابي الحديد المدائني المتوفى ٦٥٥ شارح نهج البلاغة وترجم المنذري في التكملة ٤/٢٤٥ رقم ١٤٩٤ لوالدهما وانه ولد سنة ٥٣٠ وتوفي ٦١٣ .

واخوهما الآخر موفق الدين ابو المعالي قاسم بن هبة الله توفي قبل اخيه عز الدين بقليل فرثاه اخوه عز الدين بقصيدة[2].

ابو طاهر محمد بن يحيى بن ظفر بن الداعي بن مهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن ابي طالب .

قال السمعاني في الأنساب :

العلوي العمري، من أهل استرآباد، شيخ الامامية بها وهو مقدم طائفته وشيخ عشيرته ، من بيت المحدثين ، ابوه أبو طالب من المحدثين ، وجده ابو الفضل ظفر ورد نيسابور وحدث بها وسمع منه جماعة من شيوخنا .

وجده الأعلى ابو محمد الداعي بن مهدي العمري من المحدثين ايضاً ، روى عنه ابنه ابو الفضل .

وأبو طاهر محمد بن يحيى ، حدث عن جده ، وسمعت منه بأسترآباد، وكانت ولادته في المحرم سنة ٤٦٠[1].

مجد الشرف ابو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد الله العلوي الكوفي النقيب.

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٢٥٦ رقم ٥٣٠ وقال : من السادات النقباء ، قرأت بخطه :

وربّ اشارة عدت كلاماً وصوت لا يعد من الكلام

مجد الدين ابو الفتح محمد بن تاج الدين ابي منصور يحيى بن المظفر بن مجد الدين عمر النقيب العلوي الاشتري الكاتب .

ترجم له ابن الفوطي في تلخيص مجمع الآداب ٥/٢٥٦ رقم ٥٣١ وقال : ذكره شيخنا جمال الدين ابن المهنا في المشجر وقال : حفظ القرآن الكريم في صباه وتأدب وتميز وتصرف في الأعمال الديوانية ثم تاب عن اعمال الديوان وعكف على الزهادة والصلاح وقراءة القرآن وكان يلوح عليه سيماء الشرف وقاعدة السلف وهو عذب المفاكهة حلو المذاكرة وعنده كرم وفضل ومروة .

محمد بن يحيى بن ظفر بن الداعي بن مهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن ابي طالب عليه السلام .

السيد ابو طاهر العلوي العمري الاسترابادي .

من شيوخ السمعاني ترجم له في معجمه شيوخه وفي الأنساب ق ٢٤٧ وفي التحبير ٢/٢٤٩ رقم ٩٠٥ قال : شيخ الامامية بها وهو مقدم الطائفة ، من بيت الحديث ، وهو شيخ متيقظ متودد له معرفة وهيئة وفضل سمع جده أبا الفضل الداعي بن المهدي سمعت منه بأسترآباد وكانت ولادته في المحرم سنة ٤٦٦ باسترآباد وتوفي بها سنة ٥٥٢ .

ابو العلاء محمد بن جعفر بن هبة الله بن يحيى بن الحسن بن احمد بن عبد الباقي ابن البوقي الواسطي المتوفي سنة ٥٩٠ .

ترجم له ابن الدبيثي في ذيل تاريخ بغداد ج ١ الورقة ١٣٦ وقال : تفقه ابو العلاء هذا بواسط على مذهب الشافعي رحمه الله على ابيه وتكلم في مسائل الخلاف وأفتى وشهد عند القضاة . وقدم بغداد مراراً كثيرة وناظر فقهاءها وسمع شيئاً من الحديث . . . وناب عن الوزير ابي جعفر احمد بن محمد بن المهدي في أيام وزارته بديوان المجلس وبعد هلاك ابن البلدي عاد الى واسط وقد كان سمع بها من أبي الكرم نصر الله بن محمد بن مخلد الازدي وأبي علي الحسن بن ابراهيم الفارقي وأبي الحسن عبد السلام لما قدمها وأبي الجوائز سعد بن عبد الكريم الغندجاني والقاضي ابي عبد الله محمد بن علي بن المغازلي وغيرهم .

وكان مؤثراً طلب الدنيا وخدمة السلطان، ترك الاشتغال بالعلم والإهتمام به واذهب عمره بالتنقل من بلد الى بلد رغبة في خدمة ارباب الدنيا حتى استقرت به الدار بالحلة المزيدية ناظراً في سوادها الى ان توفي بها .

لقيته بواسط وبالحلة عند اجتيازي بها للحج وقرأت عليه جزءً واحداً من حديث يحيى بن معين بسماعه من ابي الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام .

وسألته عن مولده ؟ فقال : قال لي والدي : ولدتَ في شهر ربيع الأول سنة ٥١٩ .

قلت : وتوفي بقرية من سواد الحلة يوم الأربعاء ثاني عشر شهر رمضان

---

(١) الشيخ محمد السمامي.
(٢) السيد عبد العزيز الطباطبائي.

سنة ٥٩٠ ودفن بمقبرة مشهد الحسين بن علي رضي الله عنهم(١).

ابو الحسن محمد بن هبة الله بن محمد بن الحسين الحسني.

المتوفى سنة ٥١٧.

ترجم له في منتخب السياق رقم ١٦٣ وقال رجل كبير محترم من بيت السيادة والحديث والرئاسة والنقابة ، كان متسماً بالصلاح والسداد متصلاً بمصاهرة الامام ابي الحسن علي بن الحسن الصندلي توفي فجأة في ذي القعدة سنة ٥١٧.

الميرزا محمّد اليزديّ.

المتخلّص بـ « جيحون » والملقّب بـ « تاج الشّعراء » ولد بناحية « كازركاه » بيزد سنة ١٣٥٠ هـ ونشأ بها ، وينتسب أجداده إلى الشّاه شجاع من سلاطين آل مظفّر [٧٢٣ ـ ٧٩٥ هـ]، ابتدأ بتعلّم النّحو والصّرف والعروض والبديع واللّغة وهو صغيرٌ.

قال ابنه عبد اللّطيف جيحون : إنّ والده جيحون سافر لأوّل مرّة من يزد إلى شيراز ومدح حاكمها فرهاد ميرزا معتمد الدّولة [١٢٣٣ ـ ١٣٠٥ هـ] ومنها ابتدأ أسفاره إلى موانئ عُمان والخليج الفارسي والبصرة والعراق والهند ورجع إلى العراق . ولا يُعلم تواريخ أسفاره دقيقاً ، والمعلوم أنّه سافر مراراً إلى طهران ومدح ناصر الدّين شاه [١٢٦٤ ـ ١٣١٣ هـ] ووليّ عهده مظفّر الدّين وابنه الآخر ظلّ السّلطان حاكم إصفهان ، حيث لقّبه هذا بـ « تاج الشّعرآء » والسّنوات الأخيرة من عمره قضاها في صحبة ناصر الدّين فرما نفر ما [المتوفّى ١٣٠٩ هـ] حاكم كرمان ومات بها .

قال الأديب ملك الكرمانيّ : إنّ جيحون سافر من يزد إلى كرمان سنة ١٣٠٠ وعمره خمسون سنة تقريباً. ودفن المترجم في مقبرة « خواجه خضر ». وهي مزارٌ في مقبرة قديمةٍ إستملكت وبُنيت عليها الدّور والدّكاكين تدريجاً وفي حدود سنة ١٣٦١ هـ قام محمّد ارجمند التّاجر الكرمانيّ ببناء مقبرة جديدة لجيحون قرب بقعة « خواجه خضر » نقل إليها رفات جيحون مع حجر قبره القديم مع حجر نقش عليه سنة وفاة الشّاعر جيحون سنة ١٣٠١ هـ وعليها بيتان للشّاعر نفسه :

أي شه كلكون قبا بنكر بجيحون كزثنات
خويشتن رامالك ديهيم وأفسر ساختـه
شايد أربخشي مرابرتشنه كامان فُرات
زانكه جيحون راخدايت مهرمادرساختـه

وعلى حجر آخر شعر لشاعر إسمه « مشّاق الكرمانيّ » قال فيه :

دريغ وآه كه ازاين جهان فاني رفت
جهان فضل وأدب تاج شاعران جيحون .

ومن آثاره :

١ : ديوان جيحون ، طبع أوّلاً ببمبئي سنة ١٣١٦ هـ بخطّ لطف الله الحسيني الإينجويّ الشّيرازيّ ، وطبع ثانياً بطهران على الحروف سنة ١٣٧٧ هـ

٢ : نمكدان ، بالنّظم والنّثر طبع في آخر ديوانه ببمبئي ١٣١٦ هـ ، ونسخه المخطوطة عرفت في فهرست نسخه هاي فارسي لأحمد منزوي ص ٣٦٤٦ تشبه كلستان لسعدي وأصغر منه .

٣ : ولديوانه مقدّمة لحسين ماهافي موجودة في مكتبة مجلس شوراي ملّي وغيرها .

وله مراث حسينية تقرأ في التعازي(٢).

(١) السيد عبد العزيز الطباطبائي.
(٢) الشيخ ابوذر بيدار.

الشيخ ابو عبد الله محمد بن يوسف بن عبيد الله النيسابوري البغدادي المتوفى سنة ٦٠٨.

ترجم له المندري في وفيات سنة ٦٠٨ من التكملة رقم ١٢١٩ فقال :

وفي التاسع والعشرين من ذي الحجة توفي الشيخ ابو عبد الله . . النيسابوري الاصل البغدادي المولد والدار الكاتب المعروف بابن المنتجب ببغداد ودفن من يومه بمشهد الامام موسى بن جعفر عليهما السلام قرأ الأدب على ابي محمد الحسن بن علي بن عبيدة الكرخي وغيره وكتب خطاً في غاية الجودة وكان يورق للناس ويعلم الخط .

السيد محمد يوسف الحسيني التنكابني .

توفي بعد ١١١٢.

عالم جليل كان معاصراً للسلطان حسين الصفوي وألف كتاب (مقياس العرفان ومفتاح التبيان لمدارك القرآن في تفسير القرآن الكريم) باسم (السلطان حسين الصفوي اتمه في صفر سنة ١١١٢ وله كتاب (القراءات) توجد من التفسير نسخة في المكتبة العامة في اصفهان(٣).

جمال الدين ابو المكارم الحافظ ابو بكر محمد بن يوسف بن موسى بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الله بن المغيرة مسدى الاندلسي الغرناطي الازدي المهلبي المتوفى قتلاً غيلة في سنة ٦٦٣ نزيل مكة المكرمة وخطيبها وإمام المقام الشريف .

ولد يوم عيد الاضحى سنة ٥٩٩ بوادي آش من الاندلس وقرأ على جماعة منهم قاضي قرطبة أبو القاسم بن بقي المخلّدي وجماعة بالمغرب ثم رحل بعد سنة ٦٢٠ فسمع بالثغر من محمد بن (الاسكندرية) الحراني وغيره وبمصر من الفخر الفارسي وأبي القاسم عيسى بن عبد العزيز اللخمي وقرأ عليه بالروايات وأبي الحسن بن المقبر واكثر عنه وجماعة بمصر وبدمشق من أبي القاسم الحسين بن هبة الله بن صصرى وغيره وبحلب من ابي محمد عبد الرحمان بن الاستاذ بن علوان وجعفر الهمداني والموفق عبد اللطيف ابن يوسف البغدادي وغيره ومن أبي البركات عبد الرحمان بن عبد اللطيف الصوفي وجماعة بمكة وسمع بجيان على ابي عبد الله بن صلتان وبمدينة فاس عن ابي البقاء يعيش بن العديم وابي محمد بن زيدان .

واجاز له من شيوخها امامها ابو اسحاق زاهر بن رستم الأصبهاني والشريف يونس بن يحيى الهاشمي ومن بغداد ابن الأخضر وابن سكينة ومن دمشق قاضيها أبو القاسم الحرستاني وأبو اليمن الكندي وجماعة يجمعهم كلهم معجمه الذي خرجه لنفسه في ثلاثة مجلدات كبار وعمل تراجمه مسجوعة وهو سجع متمكن كما قاله الصفدي وقال : سمع الكثير بالمغرب وديار مصر وصنف وانتقى على المشايخ وظهرت فضائله . . . وكان ينشىء الخطب ببلاغة وفصاحة وله مصنفات كثيرة . . .

وقال الذهبي : الحافظ العلامة الرحال . . . . احد من عنى بهذا الشأن كتب عن خلق بالاندلس .

وحكى الصفدي عن الذهبي انه قال : رأيت له قصيدة طويلة تدل على التشيع . . . وطالعت معجمه بخطه وفيه عجائب وتواريخ . . .

وقال في تذكرة الحفاظ ، عمل معجماً في ثلاثة مجلدات كبار رأيته وطالعته وعلقت منه كراريس وله تصانيف كثيرة وتوسع في العلوم وتفنن وله اليد البيضاء في النظم والنثر ومعرفة بالفقه وغير ذلك وفيه تشيع وبدعة !

(٣) الشيخ محمد السمامي.

وقال الجزري في طبقات القراء : امام حافظ مقرىء مكثر مجود، أخذ القرآت عن عبد الصمد البلوي وأبي القاسم بن عيسى ومحمد بن علي السبتي وعني بالقرآت والحديث وسمع الكثير بالبلاد الاندلسية والغربية والمصرية والشامية والحجازية وصنّف وخرّج . . .

تلامذته

روى عنه الامير علم الدين الدواداري ومجد الدين عبد الله بن محمد الطبري والحافظ الدمياطي وأبو اليمن عبد الصمد بن عساكر وعفيف الدين ابن مزروع وأبو عبد الله بن النعمان ورضي الدين محمد بن خليل ، ورضي الدين الطبري ابراهيم بن محمد الشافعي امام مقام ابراهيم وهو آخرهم وفاة وآخر الرواة عنه اجازة مسند الشام في عصره احمد بن علي الجزري وكتب عنه الرشيد العطار ومات قبله .

وفي العقد الثمين : وكان عني بهذا الشأن كثيراً وخرج لنفسه ولغير واحد من شيوخ عصره. . . وكان يكتب بالمغربي والمشرقي خطاً حسناً وكان سريع الكتابة . . . . وذكره جماعة من الحفاظ ووصفوه بالحفظ منهم منصور بن سليم الهمداني وقال : كان حافظاً متقناً والشريف ابو القاسم الحسيني وقال : كان فاضلاً حسن المعرفة بالصناعة الحديثية والقطب الحلبي وقال كان يميل الى الاجتهاد ويؤثر الحديث والحافظ الذهبي قال في الميزان كان من بحور العلم ومن كبار الحفاظ له أوهام وفيه تشيع .

واطراه ابن فرحون بقوله : الفقيه الامام البارع العلامة الاوحد الحافظ الناقد الخطيب البليغ الأديب جمال الدين ابو المكارم .

مذهبه

تقدم قول الذهبي في تذكرة الحفاظ : وفيه تشيع وبدعة وقوله : رأيت له قصيدة طويلة تدل على التشيع وقوله : ينال من معاوية وذويه ، وذكر ان الرضى الطبري كان يمتنع من الرواية عنه : وأكثر دلالة على تشيعه انه كان يتكلم في عائشة[1] وقولهم : كان يميل الى الاجتهاد[2] وانه ذكر في كتابه محرر الائتلاف خلاف الزيدية والامامية وانه كان يميل الى الأخذ بالحديث ولذلك قال عنه ابن ناصر الدين : كان حافظاً علامة ذا رحلة واسعة ودراية ، شاع عنه التشيع . فالظاهر انه في رحلاته قد التقى بغير واحد من علماء الشيعة فناظروه في مذهبه وارشدوه الى الحق والصواب ولعل ذلك كان في مدينة حلب فقد كانت مزدهرة بعلماء الشيعة في القرن السابع وقد تجد ترجمة كثير منهم في هذا الكتاب . أو انه من خلال مطالعاته ومراجعاته للحديث النبوي ومدارسته للتاريخ قد اهتدى الى الحق والصواب فكانت تظهر عليه في فلتات لسانه وتطفح على شعره فقالوا عنه أنه شاع عنه التشيع فانه :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة

متى خالها تخفى على الناس تعلم

ومن أدلة تشيعه ايضاً قتله غيلة على ما يأتي .

شعره

قد عرفت أن له قصيدة نحو ستمائة بيت وأخرى دالية سماها اسمى المنائح لكن لم يصل الينا سوى اول بيت منها . نعم في العقد الثمين تجد قد ذكر فيه شيء من شعره وكذلك الذهبي ذكر له شعراً في تذكرة الحفاظ

مؤلفاته

قال الذهبي : له تصانيف كثيرة وقال الصفدي : وله مصنفات كثيرة وقال الفاسي : وله تواليف كثيرة منها :

١ ـ الأربعون المختارة في فضل الحج والزيارة .

٢ ـ منسك كبير ضخم ذكر فيه المذاهب وحججها وأدلتها وخلاف العلماء وسماه اعلام الناسك بأعلام المناسك .

٣ ـ المسند الغريب جمع فيه مذاهب علماء الحديث .

٤ ـ المسلسلات في الحديث .

٥ ـ محرر الائتلاف بين الاجماع والخلاف ذكر فيه المذاهب الأربعة وخلاف بعض الفرق كالزيدية والامامية وأفتى فيه بفوائد جمة كذا ذكرها بن فرحون .

٦ ـ معجم شيوخه في ثلاثة مجلدات كبار .

٧ ـ أسمى المنائح في اسمى المدائح وهو قصيدة دالية في مدح النبي صلى الله عليه وآله اولها :

اورد ظماك فقد بلغت الموردا

لن يحمد الاصدار من لا اوردا

وفي العقد الثمين انه رئي النبي صلى الله عليه وسلم وعنده جماعة وهم يذكرون قصائد مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم فقال اين أنتم من قصيدة ابن مسدي الدالية .

٨ ـ قصيدة طويلة قال الذهبي في تذكرة الحفاظ: اراني عفيف الدين له قصيدة نحواً من ستمائة بيت ينال فيها من معاوية وذويه . .

وقال ايضاً فيما حكاه عنه الصفدي: رأيت له قصيدة طويلة تدل على التشيع .

مقتله

قتل رحمه الله غيلةً مقطوع اللسان بمنزله بمكة برباط القزويني بالجانب الشمالي من مكة على باب السدة عاشر شوال او حادي عشرة سنة ٦٦٣ ودفن بالمعلاة من يومه ، واتهم امير مكة به جماعة وحلفوا وطل دمه .

وملخص حياته انه ولد بوادي اش سنة ٥٩٩ وتلقى العلوم والحديث عن جماعة بالمغرب منذ حدود سنة ٦١٧ في قرطبة وبجايه وتلمسان وتونس .

ثم رحل الى المشرق بعد سنة ٦٢٠ فجال في الشام وحلب والاسكندرية وسائر البلاد المصرية وأقام بالفيوم وولي بها تصدراً ثم رحل من مصر الى المدينة سنة ٦٤٦ وتوجه الى مكة فحج ذلك العام وأقام بها وولي خطابة الحرم وإمامة المقام بها وكان يداخل الزيدية بها وينشىء الخطب ارتجالاً في الحال واستمر على ذلك الى ان اغتيل وقطع لسانه رحمة الله عليه[3] .

الشيخ ابو عقيل محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف النوقارزي الملقب بالوحيد والمعروف بالبيهقي .

توفي بعد سنة ٧٤٠

كان من علماء عصره شاعر اديب نحوي محقق ذكره شيخنا الاستاذ في الحقائق الراهنة ص ٢٠٩ قائلاً (. . . اديب فاضل شاعر كاتب مصنف دون بخطه مجموعة فيها اثنتا عشرة رسالة عروضية . جملة منها من تأليف نفسه منها (العروض) . . . وقد كتبها من ٧٣٥ الى ٧٤٠ والنسخة في مكتبة (سيهسالار) ذكر في فهرسها ج ٢ ص ٤٤٥[4] .

(١) العقد الثمين ٢/٤٠٦ عن تذكرة الحفاظ.

(٢) العقد الثمين ٢/٤٠٥ .

(٣) السيد عبد العزيز الطباطبائي .

(٤) الصالحي .

السيد محمود بن السيد سلطان علي المرعشي التستري.

ولد في ١٢٠٧ ، توفي في ١٤٠٨ .

ولد في الري (مشهد السيد عبد العظيم الحسني) وهاجر مع ابيه الى النجف الاشرف وفي السابعة من عمره بدأ بقراءة المقدمات ثم قرأ السطوح عند اعلامها ثم حضر بحث الخارج وأدرك قليلاً من بحث الآخوند الخراساني ، ثم حضر بحوث الميرزا حسين النائيني والآقا ضياء العراقي . وسكن شطراً من حياته في سامراء وأخيراً انتقل الى مدينة قم المقدسة وله مؤلفات منها ـ ١ ـ لمعة النور في حل بعض الأمور. ٢ ـ بيداري بشر في الرد على البهائية ـ ٣ ـ رسالة في الامامة ـ ٤ ـ رسالة في التوحيد ٥ ـ شرح دعاء الندبة وغيرها[١].

السيد مرتضى الخسروشاهي بن السيد احمد بن السيد محمد الحسني :

ولد بتبريز في العشر الثاني من شهر شوّال سنة ١٣٩٩ ، وتوفّي سنة ١٣٧٢ فيها ودفن في النجف كان من أعاظم علماء تبريز في عصره وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر شديداً في الله ، لا يخاف في الله لومة لائم .

* هاجر إلى النجف الأشرف في العشرين من عمره ثم رجع إلى تبريز وأقام هناك بقيّة عمره واشتغل بالتدريس والتصنيف والوعظ والتذكير .

له مؤلفات باللغة العربيّة ، منها : ذروة السعادة في نيّة العبادة ، مختصر الكلام في حكم السلام ومعنى حديث الغدير .

قال عنه صاحب « علماء معاصرين » : كان السيد الخسروشاهي في الرعيل الأوّل من العلماء والفقهاء وكان تقيّاً ، نقيّاً ، فاضلاً ذكيّاً متصلباً في الدين [٢] .

السيد مرتضى بن هادي بن محمد رضا الحسيني الرامسري.

ولد ١٢١٩ توفي حدود ١٢٨٠ . في (جورديه) من ضواحي رامسر ودفن بها .

بدأ بتعلم القراءة والكتابة في الخامسة من عمره ثم انصرف الى تعلم المقدمات . وذهب الى قزوين وأقام مدة هناك مشتغلاً بقراءة السطوح وفي حدود ١٢٣٨ ذهب الى اصفهان وحضر في الفقه والأصول على الشفتي الجيلاني والكلباسي وفي الفلسفة على النوري وغيره ثم ذهب الى النجف الأشرف وحضر على الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر وغيره وفي حدود ١٣٥٥ رجع الى موطنه واشتغل بالتدريس وكان يقيم في بعض الشهور بمدينة لاهيجان بطلب من اهاليها ـ وكان يدرّس الفقه والأصول والفلسفة واشتهر صيته وحصلت له المرجعية الى أن توفي في جورديه ودفن بها . وأنجب ثلاثة اولاد من العلماء والفضلاء [٣] .

الشيخ مرتضى بن الشيخ حسن بن الشيخ جعفر بن ميرزا محمد الرازي الأشتياني.

ولد في النجف سنة ١٢٨١ يوم وفاة الشيخ مرتضى الانصاري وتوفي في مشهد الرضا (ع) يوم ٢٤ ذي الحجة الحرام سنة ١٣٦٥ ودفن في الروضة الرضوية عند رجلين الامام في الحرم المطهر. فقيه اصولي محقق ومن رجال التقليد والفتيا وأساتذة الحكمة والفلسفة. كان في طليعة قادة الحركة الدستورية المعروفة بـ « مشروطه » وأعلام اسرته آل الاشتياني البيت العلمي المعروف . كان جده الشيخ جعفر من العلماء الاعلام وأبوه الشيخ حسن من مراجع التقليد في عصره. ترأ المقدمات في النجف على جملة من الأفاضل ثم تخرج في الفقه والأصول على ابيه والشيخ حبيب الله الرشتي والشيخ حسن الخليلي والآخوند محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية وأخذ العلوم العقلية عن ميرزا علامة الصالحي الحائري، ثم هاجر الى طهران وشارك في الانقلاب الدستوري وكان من جملة العلماء الذين تحصنوا في روضة الشاه عبد العظيم في الري وعارض في قضية البنك الروسي والحوادث التي انتهت بالغاء تلك الامتيازات وفي سنة ١٣٤٠ انتقل الى خراسان وأقام هناك قائماً بالوظائف الشرعية وتصدر للتدريس والفتوى والامامة حتى سنة ١٣٥٣ وعلى اثر الحوادث المؤلمة في المشهد نفي الى طهران حتى سنة ١٣٦٠ ثم توجه الى العتبات المقدسة في العراق وسكن كربلا وجلس للتدريس والبحث والفتوى والامامة وفي حدود سنة ١٣٦٤ رجع الى ايران ثم قصد منها الى خراسان واستقر فيها الى آخر عمره في مدينة مشهد، طبع له في سنة ١٣٤٣ كتاب في الفقه (باب الاجارة) وكان نجله الشيخ محمود المتوفى سنة ١٤٠١ من علماء عصره وابنه الثاني الاستاذ اسماعيل الأشتياني المتوفى سنة ١٣٩١ من كبار الرسامين والفنيين في تاريخ الفن المعاصر في إيران [٤].

السيد مرتضى الكشميري.

مرت ترجمته في الصفحة ١٢١ من المجلد العاشر ونزيد عليها هنا ما يلي :

ولد في الثامن من ربيع الأول سنة ١٢٦٨ وتوفي في ١٣ شوال سنة ١٣٢٣ وحمل الى كربلا ودفن في الصحن الحسيني ، وهو نجل العالم الزاهد السيد مهدي شاه ، وكانت والدته معدودة في العلماء واشتهرت بتدريس العلوم الرياضية .

تخرج اولاً في الهند على يد والده وخاله ، فاقرأه نهج البلاغة وشرح الهداية لملا صدرا الشيرازي ، كما درس الرياضيات على المولى تفضل حسين ، والحكمة والمنطق على المفتي محمد عبد الحليم الأنصاري ومحمد يوسف الأنصاري .

ثم هاجر الى النجف بصحبة خاله سنة ١٢٨٤ ، فكان من أساتذته فيها كل من الشيخ الانصاري والسيد مهدي القزويني والسيد حسين البهبهاني والسيد حسين الترك والشيخ محمد حسين الكاظمي والشيخ محمد تقي الهروي والشيخ محمد اللاهيجي .

كما حضر على الميرزا محمد حسن الشيرازي . وتخرج في المعقول على الآخوند ملا حسين قلي الدركزيني الهمذاني .

مؤلفاته

١ ـ حاشية على القوانين .
٢ ـ الحاشية على رياض المسائل .
٣ ـ التعليقة على شرح الهداية للقاضي الميبدي .
٤ ـ الحاشية على شرح اللمعة .
٥ ـ التعليقة على تقويم المحسنين .
٦ ـ رسالة في اعمال الهندسة .
٧ ـ شرح على تحرير سلطان الحكماء .
٨ ـ شرح صفحة الاسطر لاب للبهائي .
٩ ـ رسالة في البعد بين البلاد .

---

(١) الشيخ محمد السماوي .
(٢) السيد ابراهيم السيد علوي .
(٣) الشيخ محمد السماوي .
(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

١٠ ـ تعليقة على الحاشية المعروفة للمولوي غلام يحيى .
١١ ـ تعليقة على حواشي مير زاهد على شرح التهذيب .
١٢ ـ تعليقة على شرح تلخيص الجقميني .
١٣ ـ بحث في الأسطرلاب .
١٤ ـ تعليقة على شرح البرجندي سلطان الحكماء .
١٥ ـ ملحق الرسالة في البعد بين البلاد .
١٧ ـ شرح عبارة المنهاج للمولى الكرباسي حول القبلة .
١٨ ـ تعليقة على رسالة ابن فهد .
١٩ ـ التعليقة على امل الآمل للحر العاملي .
٢٠ ـ شرح مبحث الزوال .
٢١ ـ رسالة في شرح رواية عبد الله بن سنان من أصحاب الصادق عليه السلام .
٢٢ ـ تعليقة على رسالة خلاصة الحساب للشيخ البهائي .
٢٣ ـ تعليقة على منتخب الاتحاف للسيوطي .
٢٤ ـ تعليقة على شرح دراية الحديث للشهيد الثاني .
٢٥ ـ اعلام الاعلام في علم الرجال .

وأغلب مؤلفاته هذه كانت عند خاله السيد محمد باقر ولا يزال قسم منها عند اولاده وأحفاده ، كما تلف بعضها .

مشايخه في الرواية

الشيخ نوح بن الشيخ قاسم الجعفري النجفي والشيخ محمد حسين الكاظمي .
والشيخ محمد حسن ياسين .
والسيد حسن بن السيد محمد رضا بحر العلوم .
والسيد مهدي القزويني الحلي .
والميرزا محمد هاشم بن الميرزا زين العابدين الموسوي الخونساري .
والسيد اسد الله الاصفهاني .
والشيخ زين العابدين المازندراني .

تلامذته

الشيخ علي القمي والشيخ محمد حسين بن محمد خليل الشيرازي العسكري صاحب التعليقة على تفسير البيضاوي .
والسيد علم الهدى النقوي الكابلي
والسيد محمد الموسوي الخلخالي .
والسيد آقا حسين الطباطبائي القمي .
والميرزا أقا جواد الملكي التبريزي
والسيد محمدحسين الغزنوي .
والشيخ حسن علي الأصفهاني .
والشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي .
والآغا بزرك الطهراني صاحب كتاب الذريعة .
والشيخ محمد حسين الكمپاني الأصفهاني .

وفاته

توفي ١٣ شوال عام ١٣٢٣ وحمل الى كربلا ودفن في الصحن الحسيني الايوان الثالث جنب باب الزينبية .

عقبه

ترك خمس بنات وولدين هما :
ـ السيد محمد المتوفى عام ١٣٩٢ .
ـ والسيد علي تقي المتوفى ١٣٩٦ .

ولا يزال العلم متصلاً في بيت المترجم فمن احفاده اليوم كل من : السيد محمد الرضي وولده السيد علي ، والسيد محمد حسن والسيد مرتضى والسيد محمد حسين وغيرهم . وهم ما بين طهران وقم ودبي .

السيد مسلم الحلّي النجفي

ولدحدود ١٣٣٠ ، وتوفي ١٤٠١ .

ولد في الحلة وتعلم المقدمات بها ثم ذهب الى النجف الاشرف وقرأ السطوح ثم حضر بحث اعلامها منهم السيد محسن الحكيم والشيخ حسين الحلّي وغيرهما .

قال احد المدرسين المعروفين بالفضل والتحقيق وكان يقضي اكثر أوقاته في التدريس والتعليم وكان مقر درسه في المسجد الهندي واكثر ما كان يدرس شرح التجريد ومنظومة السبزواري[1] .

الحاج ميرزا مصطفى مجتهدي

ولد سنة ١٢٩٧ في تبريز وتوفي سنة ١٣٣٨ .

درس المقدمات في تبريز ثم سافر الى النجف الأشرف وحضر دروس شيخ الشريعة الأصفهاني والسيد كاظم اليزدي والآخوند ملا كاظم الخراساني . ومع دراسته الفقه والأصول درس العروض والهيئة والرياضيات والأدب .

له من المؤلفات : حاشية على الكفاية . حاشية على كتاب لسان الخواص الآغا رضا القزويني . رسالة في الفلك والرياضيات . رسالة في علم العروض . ارجوزة في علم العروض والقافية رسائل في مباحث الفقه .

وفيه يقول الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء من ابيات :

تبرزت من تبريز رب فصاحة
بها مدنياً قد حسبناك او مكي

الشيخ مصطفى بن الشيخ حسن بن الشيخ جعفر بن الشيخ محمد الأشتياني المتخلص في شعره بصهبا .

ولد في النجف سنة ١٢٨٤ واغتيل في داره جنب روضة الشاه عبد العظيم في الري يوم الأربعاء الثاني من ربيع الأول سنة ١٣٢٧ ودفن في حرم الروضة .

أخذ المقدمات والسطوح على فضلاء عصره وتخرج على والده في الفقه والأصول وبرع في الأدب والشعر وكان يتخلص في شعره بـ « صهبا » لقب بافتخار الحكماء وكان من قادة الحركة الفكرية التحررية في الانقلاب الدستوري في إيران المعروف بـ « مشروطة » وساهم في نهضة المعارضة ضد « المسيونوز » البلجيكي ، وقد اغتيل من قبل زمرة الشاه القاجاري وهو شقيق الشيخ مرتضى الآشتياني وكان والده الشيخ حسن الآشتياني من مراجع التقليد في عصره .

له كتاب (افتخارنامة حيدري) من نظمه على غرار شاهنامة الفردوسي وبنفس الاسلوب ذكر فيها حروب ووقائع امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام طبع في طهران سنة ١٣١٠ وله ديوان شعر مخطوط[2] .

ابو منصور المظفر بن اردشير المروزي العبادي ويلقب بالأمير .

هكذا ذكره الذهبي في (سير اعلام النبلاء) ، ووصفه بالواعظ المشهور المطرب وقال عنه : واعظ باهر حلو الاشارة رشيق العبارة ، الا انه قليل

---

(١) الشيخ محمد السمامي .
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

الدين . سمع من نصر الله الخشماني وعبد الغفار الشيروي وجماعة .

قدم رسولاً الى بغداد من السلطان سنجر سنة احدى وأربعين فأقام ثلاثة أعوام يعظ بجامع القصر وبدار السلطنة ، وازدحموا عليه ، وأقبل عليه المقتفي والكبراء ، وأملى بجامع القصر .

روى عنه ابن الأخضر وحمزة بن القبيطي ومحمد بن المكرم ، وكان يضرب بحسن وعظه المثل .

قال ابو سعد السمعاني : لم يكن بثقة ، رأيت له رسالة بخطه جمعها في اباحة شرب الخمر.

قال ابن الجوزي : له كلمات جيدة ، وكتبوا عنه من وعظه مجلدات . ذهب ليصلح بين ملك وكبير فحصل له منهما مال كثير. ومات بعسكر مكرم سنة سبع وأربعين وخمس مئة .

وقيل كان يخل بالصلاة ليلة حضوره السماع . وذكر ليلة مناقب علي رضي الله عنه وأن الشمس ردت له ، فاتفق ان الشمس غابت بالغيم فعمل ابياتاً وهي :

لا تغربي يا شمس حتى ينتهي
مدحي لآل المصطفى ولنجله
واثني عنانك ان اردتِ ثناءهم
أنسيت ان كان الوقوف لاجله
ان كان للمولى وقوفك فليكن
هذا الوقوف لخيله ولرجله

قال : فطلعت الشمس من تحت الغيم ، فلا يُدرى ما رمي عليه من الثياب والأموال . عاش ستاً وخمسين سنة ، الله يسامحه (انتهى) .

ويبدو جلياً من هذا الكلام ان الرجل كان شيعياً ، وانه كان له مجالس يتحدث فيها بمناقب امير المؤمنين عليه السلام ، وكان منها المجلس الذي أشير اليه فيما ذكره الذهبي .

ومن هنا كان الطعن في دينه ونسبة اباحة الخمر والاخلال بالصلاة اليه . كما يبدو من الأبيات الشعرية الثلاثة انه كان شاعراً جيد الشعر .

وهؤلاء القوم لا يبالون ان يقعوا في التناقض فكيف يمكن أن يكون (واعظاً باهراً) (يزدحم الناس عليه) (يقبل عليه المقتفي والكبراء) و (يكتب من وعظه مجلدات) و (يضرب بحسن وعظه المثل) .

كيف يحصل ذلك لمن هو قليل الدين يبيح الخمر ويخل بالصلاة ؟ !!!

السيد مظفر علي بن السيد خير الدين .بن السيد مير خير الله الهندي القزويني الحائري آل خير الدين . من اعلام القرن الثالث عشر للهجرة .

اخذ العلم عن والده السيد خير الدين وحضر في الفقه والاصول على الشيخ محمد صالح البرغاني المتوفى سنة ١٢٧١ وشقيقه الشهيد وحضر في الحكمة والفلسفة على الآخوند آغا الحكمي القزويني ثم رجع الى موطنه الهند وكان من خواص وزراء السلطان غاز الدين حيدر واقبال الدولة في مدينة لكنهو احدى المراكز الشيعية في الهند وكان من اعيان العلماء سمعت من احفاده ان له مؤلفات ولكن لم أقف عليها وهو أحد اعلام أسرة آل خير الدين من البيوت العلمية في كربلاء[1] وقزوين .

معصومة خاتون بنت الفيلسوف الشهير صدر المتألهين محمد بن ابراهيم بن يحيى القوامي المعروف بملا صدرا .

من ربات الفصاحة والبلاغة في عصرها محدثة عالمة ذات صلاح ودين عابدة زاهدة حافظة للقرآن ولدت في شهر شوال سنة ١٠٣٣ وتوفيت في شهر شعبان سنة ١٠٩٣ ببلدة شيراز ودفنت بها قرأت على والدها ملا صدرا المتوفى سنة ١٠٥٠ ثم أخذت الأدب عن اختها زبيدة وحضرت ايضاً على اختها الأكبر ام كلثوم المارة الذكر حتى حازت مراتب العلم والفضل وهي أصغر بنات صدر المتألهين الشيرازي ولما بلغت سن الرشد زفوها الى الميرزا قوام الدين النيريزي صاحب التعليقات الهامة على الأسفار ومن تلامذة صدر المتألهين الشيرازي ذكرها السيد شهاب الدين المرعشي النجفي في مقدمة معادن الحكمة قائلاً (الفاضلة العالمة الأديبة معصومة خاتون زوجة العلامة الميرزا قوام الدين التبريزي من أجلّة تلاميذ والدها صدر المتألهين وله تعاليق على كتاب الأسفار ولدت في شهر شوال سنة ١٠٣٣ ق وتوفيت في شهر شعبان سنة ١٠٩٣ هجرية ببلدة شيراز)[2].

منصور بن إسماعيل.

قال الذهبي في سير اعلام النبلاء :

العلاّمة ، فقيه مصر، أبو الحسن التّميمي الشّافعي الضرير الشاعر .

قال ابن خلّكان : له مصنّفاتٌ في المذهب ، وشعرٌ سائر، وهذا لَه :

لي حِيْلَةٌ في من يَنُمّ
وليْسَ في الكَذّابِ حِيْلَة
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ ما يَقُو
ل فحيلتي فيه طويلة

قال القضاعي: أصله من رأس عين ، وكان متصرفاً في كل علم ، شاعراً مجوداً ، لم يكن في زمانه مثله ، توفي سنة ست وثلاث مئة .

وقال ابن يونس: كان فَهِماً ، حاذِقاً ، صَنّفَ مختصراتٍ في الفقه ، وكان شاعراً خبيث الهَجْو يتشيّع ، وكان جندياً ، ثم عَمِي .

وقال أبو اسحاق : له مصنفاتٌ في المذهب، أخذ عن أصحاب الشّافعيّ ، وأصحابِ أصحابه ، ثمّ قال : مات قبل العشرين وثلاث مئة .

قلت : بل سنة ستّ وثلاث مئة كما قدّمنا .

الشيخ منصور المرهون :

ولد في (أم الحمام) احدى قرى القطيف الجنوبية سنة ١٢٩٤ وتوفي سنة ١٣٦٢ .

تلقّى علومه في القطيف على يد الشيخ حسن علي البدر (١٢٧٨ هـ ١٣٣٤ هـ) والشيخ محمد النمر (١٢٧٧ هـ ـ ١٣٤٨ هـ) ثم هاجر الى النجف الأشرف في العراق وأقام ١٥ سنة مشتغلاً بالدراسة والعلم عاد بعدها الى وطنه عالماً فاضلاً .

وفي القطيف كان يفكر ويخطط لبناء حوزة علمية تعيدللقطيف شيئاً من ماضيها حيث كانت تسمى النجف الصغرى وقد استفاد من منبر خطابته لبثّ الفكرة وتشجيع الناس على دعمها .

كما تحدّث مع العديد من العلماء والشخصيات حول سبل تنفيذ فكرته

---

(١) الصالحي .

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

وتجسيد طموحه ، وسافر الى البحرين ايضاً ملتمساً دعم الفضلاء هناك لمشروعه .

وحينما علمت الحكومة السعودية بخطته وتحرّكه لبناء حوزة علمية دينية اقتحمت منزله مجموعة من (الفداوية) وأخذوه قسراً مع ولده الشيخ علي المرهون واقتادوهما الى (الرياض) بأمر من الملك عبد العزيز وبقي سجيناً مخفوراً مع ولده يعاني الأذى والألم النفسي وحقق معه الملك عبد العزيز شخصياً ، فأبان للملك بأنه يريد بناء حوزة دينية علمية لا تسبب اي إزعاج أو مشكلة للحكومة ، فالدروس المتداولة فيها هي اللغة والنحو والمنطق والفقه والأصول، ولكن الملك طلب منه التعهّد بعدم التفكير في الموضوع او طرحه وعلى أساس هذا التعهّد أطلق سراحه مع ولده .

ولم يلبث بعد هذا الحادث الاّ شهوراً قليلة حيث وافته المنية .

وخلّف ذرية صالحة تواصل مسيرته الارشادية وفي طليعتهم :

ـ الشيخ علي المرهون وهو أحد علماء وخطباء القطيف المعاصرين إمام مسجد (المسعودية) (القطيف) .

ـ الشيخ محمد حسن المرهون إمام مسجد (الدبابية القطيف) وخطيب معروف .

ـ الشيخ عبد الحميد المرهون يقيم الجماعة في (ام الحمام) ومن أبرز الخطباء .

ـ الملا سعيد المرهون خطيب .

ـ الملاّ عبد العظيم المرهون خطيب وأديب .

ـ الملاّ صادق المرهون خطيب .

الملا مهدي بن الملا عبد علي الشويكي الفلاحي.

قال السيد علي العدناني الغريفي :

ولد في مدينة الفلاحية مركز منطقة الدورق، احدى مدن مقاطعة خوزستان ، ونشأ فيها وأخذ علوم العربية على ابيه الخطيب الملا عبد علي وتتلمذ عليه في الخطابة حيث كان والده خطيباً شاعراً اديباً وكان يرقى المنابر في الدورق غالباً فكان الواعظ والخطيب في مجالس العزاء التي تقام لسيد الشهداء ابي عبد الله الحسين عليه السلام . ولقد سار على خطاه ابنه المترجم له ، فقد كان خطيباً مفوهاً وشاعراً ينظم الشعر في المناسبات المختلفة وله في مدح ورثاء العترة الطاهرة قصائد عدة وكان ظريفاً خفيف الروح مرحها يحبه الناس ويجلونه .

والشويكي نسبة الى الشويكة وهي قرية قرب مدينة القطيف وقد برز من هذه الأسرة (الشويكي) علماء وشعراء وخطباء كثيرون . وقد انتقلت من الشويكة الى البحرين ومنه الى مدينة الفلاحية وقد اتخذوا هذه المدينة محل اقامة لهم الى زماننا هذا .

وقد اختص المترجم له بزعماء امارة كعب العربية التي تقطن الدورق وهو مركزها ومعقلها الحصين وقد مدحهم بقصائده وكانوا ينعمون عليه ويصلونه وكذلك كانت للمترجم صلة بالسيد محمد علي بن السيد عدنان الغريفي في مدينة المحمرة كانت بينهما مودة اكيدة فكان يتردد عليه ويحل ضيفاً عنده كلما هبط مدينة المحمرة وقد رثاه المترجم بقصيدة لما توفي سنة ١٣٨٨ .

توفي المترجم له في شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٣٩٢ في مدينة الفلاحية عن عمر ناهز الثمانين وقد نقل جثمانه الى مدينة النجف الأشرف حيث دفن فيها .

خلف عدة ابناء ذكور وترك ديوان شعر يتضمن قصائد في مدح ورثاء أهل البيت عليهم السلام وهو موجود عند ابنائه وهم يحرصون عليه أشد الحرص وكتب مقتل الامام الحسين وهو كذلك عند ذريته ولم يطبع .

شعره

لم نتمكن من العثور على قصائده في الأئمة الاطهار عليهم السلام وقد عثرنا على قصيدة في رثاء رئيس بني كعب الشيخ جابر بن الشيخ عبد الله الكعبي يقول فيها :

اهاب بنا الناعي عشياً فأظلما
وأوجع منا كلّ قلب واضرما

واورى فؤاد المجد حزناً ولوعة
غداة نعى الناعي الزعيم المعظما

نعى الماجد الضرغام (جابر) ذا العلى
ومن فوق هام الفرقدين تسنما

فقد راع قلب الشعب فقد زعيمه
وأصبح منه الشرق والغرب مظلما

لقد عمَّ هذا الخطب شرقاً ومغرباً
وأبكى الورى طراً فصيحاً وأعجما

فيا نكبة اوهت لكعب مناكباً
وضمّت لها في باطن الأرض ضيغما

وهدّت لها طوداً من العز شامخاً
منيع الذرى لا يستباح له حمى

فلا غرو ان تبكي له (آل ناصر)
دموع دم تحكي السحاب اذا همى

وتغدو عليه (آل ادريس) نوّحاً
ترى الحزن فرضاً والسلو محرما

وتضحى له (النصّار) قرحى قلوبها
تجرّعها الاحزان صاباً وعلقما

فقد كان فيهم طود عز ومنعة
فغادره صرف الردى متهدّما

طوت منه بطن الأرض اسمر لهذماً
وابيض مصقول الغرارين مخذما

وليثاً اذا الأبطال في الروع احجمت
وحادت عن الموت الزؤام تقدما

وغيثاً على العافين يهمي نواله
لدى كل محل يشبه البحر مفعما

اقرّ له بالفضل كل معاند
وابصر منه المكرمات ذوو العمى

فكم رد ظلماً عن ضعيف وكربة
جلاها وكم اغنى من الناس معدما

السيد مهدي الحكيم بن السيد محسن.

ولد سنة ١٩٣٥ م في النجف الأشرف (العراق) ، واغتيل في الخرطوم (السودان) سنة ١٩٨٨ م اتقن القراءة والكتابة في (كتاتيب) مدينة النجف ، ثم انتظم في سلك طلاب العلوم الدينية فدرس على الشيخ محمد تقي الفقيه والسيد محمد علي الحكيم والشيخ حسين الحلي والسيد الخوئي والسيد محمد باقر الصدر .

وكان خلال دراسته يلقي المحاضرات التبليغية في الجامع الهندي على من يحضر من الشبان ، ثم امتد نشاطه الى بلدة (قلعة سكر) مبلغاً داعياً الى الهدى . وفي النجف كان يخطب الجماهير المتجمعة في

(الصحن الحيدري)، في موضوعات الساعة الاجتماعية والسياسية . وفي اوائل سنة ١٩٦٤ م انتقل الى بغداد فسكن الكرادة الشرقية اماماً لمسجد التميمي .

ثم ساهم في انشاء مدارس الامام الجواد عليه السلام في بغداد والكاظمية وكذلك في انشاء كلية اصول الدين التي صار من مدرسيها . كما ساهم في انشاء العديد من المساجد والحسينيات في مناطق بغداد المختلفة . وعندما تم تشكيل (جماعة العلماء) في بغداد والكاظمية كان من اركانها .

ولما الغى النظام التكريتي مشروع جامعة الكوفة وصادر ما تجمع لها من اموال قابل باسم والده الحكام المسيطرين محتجاً على ذلك . وفعل مثل هذا عند تسفير من كانوا من اصل ايراني وإلحاق غيرهم بهم ، وعند إلزام طلبة العلوم الدينية باداء الخدمة العسكرية .

وأرادت السلطة التخلص منه فوجهت اليه تهمة محاولة الاطاحة بالسلطة بقصد القبض عليه ومحاكمته، ولكنه استطاع التواري ثم الانتقال الى خارج العراق ، فوصل الى (الدرعية) في نجد ثم انتقل الى عمان في الاردن ثم الى ايران ، وبعد اقامة اشهر فيها غادرها الى الباكستان حيث أقام في كراتشي ، ثم انتقل منها الى (دبي) في الامارات العربية المتحدة فاستقر فيها ، وعمل على انشاء مسجد الامام علي وإدارة الأوقاف الجعفرية وصندوق البر والاحسان . وبعد اقامة ثماني سنين في دبي انتقل الى سوريا فأقام فيها عاماً واحداً ثم انتقل الى لندن فاستقر فيها نهائياً .

وفي لندن كان من المساهمين في انشاء منظمة حقوق الانسان في العراق ولجنة رعاية المهجّرين العراقيين ، ومركز أهل البيت (ع) الذي تحول الى اسم (رابطة أهل البيت الاسلامية العالمية) التي من انجازاتها الدعوة الى مؤتمرين اسلاميين عالميين انعقدا في لندن .

وكان منشغلاً في أيامه الأخيرة بتجميع فصائل المعارضة العراقية ، وكانت عيون النظام التكريتي تلاحقه فما أن دعي الى حضور مؤتمر اسلامي في الخرطوم كانت الداعية اليه (الجبهة الاسلامية القومية) ووصل اليها حتى كان زبانية النظام يطلقون عليه الرصاص في فندق هلتون يوم ١٧ كانون الثاني سنة ١٩٨٨ فانتقل الى جوار ربه مضرجاً بدمه منضماً الى قافلة الشهداء الأبرار من ابناء وأحفاد السيد محسن الحكيم الذي استحق بحق لقب (ابو الشهداء) .

مراثيه

قال الاستاذ ضياء فرج الله يرثيه :

طالت لياليك فانزف ايّها الوطن
دماً يضيء على مشكاته الزمن
وخلّ جرحك يُدمي ليل غربتنا
عسىٰ يفيق الظلام المُرّ والوسن
مشرّدون .. وتخشىٰ الأرض سطوتنا
ونازفون ومن أوداجنا المزن
يا أيها الوطن المسبيّ معذرة
انْ غال وجهك في ريعانه درن
فداء طلعتك السمراء كلُّ دمٍ
يشبُّ فيه الهوىٰ والوجد والشجن
وحسب ابنائك الغادين يوم غلتْ
لقياك : أنّ لها (مهديّك) الثمن

* * *

الله .. ما وهبت كفّاك طيّعةً ؟
حتّىٰ تعجّبَ منها الممطر الهتِن
أيّ الشرايين روّتْ لِلّظىٰ عطشاً
فاخضرّ بالنزف رملٌ واستوىٰ غصن
وبالشرايين تمشي أنت مبتهجاً ؟
هلّا يُخيفك هذا المركب الخشن
كأنّ موتك عرس في براءته
وأنت للحُبّ مُهرٌ جامحٌ أرِنُ!
غفرانَ جرحك أن نسلو مواجعه
ونرتجي غير ما تهواه يا وطن
وأنْ نُقِرَّ وفي اضلاعنا حُرقٌ
وأن ننام وتغفو العين والأذُنُ
نحنُ الحفاةُ تهزُّ الليلَ صرختُنا
وسوف يهوي علىٰ اصدائها الوثن
للشوكِ اقدامُنا .. للجمر أكبدُنا
أو تستلين لنا منقادةً فتن
وعند بغداد سرٌّ ليس يعرفه
إلّا المحبّون : ـ من ضحّوا ومن فُتنوا
ما هاجرتْ في صهيل الريح مبحرةً
إلّا وعادتْ الىٰ شطآنها السُفُن
والصادقون متىٰ البلوىٰ تُنازلهم
شدّوا القلوب علىٰ البارود واحتضنوا
قومٌ .. دم (الصدر) و (المهديّ) علّمهم
أنّ المنايا اذا ما اطبقتْ مِننُ
كالنخلِ ماتوا وقوفاً في مصارعهم
وهل يُميتُ شموخَ النخلةِ الوهَنُ؟
أخا الرحيل رويداً .. تبتغي ظَعَناً ؟
وكلُّ أهليك في اكفانهم ظَعَنوا!
عشرون طفتَ بها الدنيا فلا أمَمٌ
ضمّتْ جناحيك ـ أفياءاً ـ ولا مُدُن
كنتَ الشريد تجوب الأرض مختنقاً
وزادُك الهمُّ والأوجاعُ والمحن
يا وجهنا المتعبَ الدامي إئتلقْ فَرَحاً
ناداك ربُّك : إنَّ الجنّةَ السكن
سافِرْ الىٰ الله واحمِلْ مُرَّ غُصّتنا
وقل : إلهيْ هذا الوجد والحَزَن
وما أقلّتهُ روحٌ وهي صابرةٌ
يكادُ ينشقّ من آهاتها الكفن
يُهني العذاباتِ مجدٌ أن تنوءَ بها
وقبلُ ناءَ أبوك المحسنُ الحسَنُ!

وقال الشيخ محمد رضا صادق مؤرخاً وفاته :

وجه العراق الحرّ بل مهديّه
وجدي عليه، غيابُه أشجاني
قتلته في السودان غدراً زمرةٌ
بعشية .. فمضىٰ فتىٰ الفتيان
آل الحكيم له أهتضاماً أرخوا
(مهديُنا قد غيل بالسودان)(١٤٠٨)

ووصلنا هذان البيتان ولم نعلم لمن هما، وهما يُؤرخان الوفاة ايضاً :

مــن دولــة الــسـودان وافــانــا الأســىٰ
يــا مسلمــون بــوجــد نعــي محــزن
خــانــوا ضيــافــة ضيفـهـم أرخـت (فــه
بـشـهـادة الـمـهـدي شبـل الـمحـسـن)

الشيخ مهدي بن الشيخ جعفر المعروف بآغا ميرزا كوجك بن الشيخ جعفر بن الشيخ محمد الآشتياني.

ولد في طهران سنة ١٣٠٦ وتوفي بها سنة ١٣٧٢ كان من فلاسفة الشيعة وعـرفاء الامامية وأسـاتذة الفلسفـة العالية المبـرزين النـابهين في طهـران هو من اعلام آل الآشتياني البيت العلمي في طهـران وهو ابن اخ وصهر الشيخ حسن الآشتياني على بنته .

قرأ المقدمات على جمع من فضلاء (طهران) ثم حضر على ابيه الشيخ مسيح الطالقـاني والسيد عبـد الكريم الـلاهيجي والشيخ فضـل الله النوري وأخذ الفلسفة العالية عن الشيـخ حسن الكرمانشاهي والميـر شهاب الـدين النيـريـزي والميـرزا هـاشم الأشكـوري وتخـرج في الـطب على الميرزا أبو القاسم النائيني ، وناظم الأطباء النفيسي وغيرهم حتى سنة ١٣٢٧ حيث قصـد العتبات المقـدسة في العـراق وحضر في النجف الأشـرف في الفقـه والأصول على الشيخ محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية والسيد كاظم اليـزدي صاحب العـروة الوثقى والميـرزا محمد حسين النـائيني وآغا ضيـاء العراقي والسيد أبو الحسن الأصفهاني، ثم رجـع الى موطنـه طهران وكـان استاذ الفلسفة الإلهية العالية في طهران وانحصر به هذا الفن الى آخر عمره وتخـرج عليه كـوكبة من فحـول الفلاسفـة وأكابـر العلماء منهم الميـرزا ابو الحسن الشعـراني والشيخ مـرتضى المطهـري والدكتـور جواد الفـلاطوري والسيد جلال الدين الآشتياني والشيخ علي محمد الجولستاني والشيخ محمد رضا الرباني والدكتور مهدي الحائري وبديع الزمان فروزانفر والدكتور الآيتي وغيرهم ترك آثاراً ومؤلفات هامة في الفلسفة فكان شارح المدرسة الفلسفية في القرن الأخير الا أن مذاقه العرفاني قد غلب في مؤلفاته وتحقيقاته على مشربه العقلي في مدرسته الفلسفية . من مؤلفاته المطبوعة . ١ ـ أسـاس التوحيـد طبعـه في طهـران . ٢ ـ تعليق على منـطق المنـظومـة طبعـه في طهـران ، ٣ ـ تعليق على حكمـة المنظومـة طبعه في طهـران ولـه تعليق على الشفـاء وتعليق على الأسفار لصدر المتألهين الشيرازي وتعليق على الاشارات لابن سيناء ، وله شرح الفصوص ، وشرح مصباح الانس وشرح فصوص الحكمة وغير ذلك من التعليقات والشروح التي يعتبر كل منها كتاباً خاصاً[1].

السيد موسى بن السيد علي بن السيد مهدي بن السيد الميز بزرك بن السيد المير بابا بن السيد المير فاضل الحسيني الزرابادي القزويني.

ولد في قزوين سنة ٢٩٤ وتوفي بها في ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٣ ودفن في الايـوان الشرقي من صحن الشـاه زادة الحسين بن الامام الـرضـا عليـه السلام بقزوين .

كان من أكابر علماء عصره ماهراً في كثير من الفنون لا سيما في الفلسفة والعرفان الألهي قرأه في قزوين على جملة من العلماء منهم الشيخ رضا بن الشيخ عبد الحسين البرغاني القزويني والشيخ ملا علي اكبر السياه داني في المدرسة الصالحية ثم هاجر الى طهران واشتغل في مدرسة الصدر ومدرسة سبهسالار وأخذ الفلسفة والعرفـان من الفيلسوف الشهيـر السيد أبـو الحسن الجلوة المتوفى سنة ١٣١٤ والميرزا حسن الكرمانشاهي المتوفى سنة ١٣٣٦ والميرزا شهـاب الشيرازي والشيخ علي النوري ثم رجع الى موطنـه قزوين وشغل كرسي التدريس وكان من فحول المدرسين خصوصا في العلوم العقلية والعرفان الالهي وتخـرج عليه جمـاعة من العلمـاء أشهرهم الشيـخ الميرزا مجتبى القزويني الخراساني صاحب كتـاب بيان الفرقان والشيـخ علي اكبر الالهيـان . والمترجم لـه هو سبط الشيـخ آغا كـريم الروغني القـزويني وله مؤلفات شاهدتها عند نجله العالم الفاضل السيد جليل الزرابادي في قزوين منهـا ١ ـ حاشيـة على الكفـايـة في مجلدين ، ٢ ـ حـاشيـة على منـظومـة السبزواري . ٣ ـ حاشية على الاشارات قسم الالهيات والمنطق ـ ٤ ـ شرح سلامان وابسال ٥ ـ اصول الدين فارسي . ٦ ـ الاعتقـادات بالعـربية . ٧ ـ المواعظ فارسي وكان المترجم له من رواد مدرسة الشيخ الـرئيس ابن سيناء والفيلسوف الشهير المولى عبد الرزاق اللا هيجي صاحب الشوارق المتوفى سنة ١٠٥١ في اثبات احد الأصلين اي اصالة الماهية وما يترتب عليها وينكر القول بأصالة الوجود التي يقول بها صدر المتألهين ملا صدرا الشيرازي كما رأيته في رسائله ومؤلفاته الفلسفية منها حاشية على المنظومة للسبزواري[2].

الشيخ موسى العصامي بن محسن.

ولد في النجف حدود سنـة ١٣٠٠ وتوفي في كـربلا سنـة ١٣٥٥ ونقل جثمانه الى النجف فدفن فيها .

العصـامي : نسبة الى العصـامات وهم احـد أفخاذ (جليحـة) القبيلة الفراتية الشهيرة ذات الفروع الكثيرة . درس في النجف وبرز فضلاً وخطابة ووعظاً وارشاداً . ويبدو أنه كانت له نقدات قاسية اوجبت نقمة عليـه حتى اضطر لترك النجف والتنقل في العراق من بلد الى بلد حتى وافاه اجله في كربلا .

له من المؤلفات : الدعوة الحسينية ، البيان والتبيـان في الجامعـة بين السنة والقرآن ، وكتاب في علم الكلام ، ومنظومة في الامامة ، وغير ذلك :

شعره

من شعره قصيدة نظمها في كربلا في المرض الذي توفي فيه :

كـم لـيـلـة سـهـرت بـهـا عـيـن امـرىء
سـلـبـتـه ايـدي الـظـالـمـيـن قـراره
يـطوي الـدجى مـتـمـلـمـلاً فـي حـسـرة
فـتّـت مـرارتـه وأذكـت نـاره
وجـلا كـئـيـب الـنـفـس خـاطـر لـيـلـه
بـحـيـاتـه فـيـه وخـاف نـهـاره
لا يـعـرف الـحـلـويـن ايـهـمـا لـه
اهـدى وايـهـمـا يـعـز جـواره
لا يـسـتـغـاث ولا يـرى مـن مـنـجـد
الا دمـوعـاً فكـثـر اسـتـعـبـاره
قعد الزمان واهله عن نصره
ولطالما ملأ الملا انصاره
اتـراه فـي أطـواره اخـتـار الـبـلـى
فـيـهـا ام الـبـاري الـيـه اخـتـاره
ام ان اسـبـاب الـوجـود تـزاحـمـت
اطـوارهـن فـغـيـرت اطـواره
وجـرى الـتـجـارب فـي تـفـاعـلـه لـه
فـي الـكـائـنـات فـبـدلـت افـكـاره
دعـهـا فـتـلـك سـفـاسـف وزخـارف
قـبـلـت بـذات مـثـلـت ادبـاره

(١) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

بـالامس كـان وكـل طـرف طـامـح
لـشـعـوره ويـرى الـرقـي شـعـاره
كـان الـمـفـدى فـي الـنـفـوس اذا بـدا
والـيـوم تـكـره نـفـسـه اخـبـاره
واذا تـتـرسـت الـمـحـافـل خـلـتـه
بـدراً اشـاع بـصـدرهـا انـواره
والـيـوم غـاب الـنـجـم عـنـه ولـم يـغـب
الا عـفـاه فـأنـكـرت آثـاره
اي الـنـفـوس تـرد عـن صـرح الـعـلى
سـقـطـت ويـرقـى غـيـرهـن مـنـاره
واذا الأمـور لـهـا بـصـرف طـبـاعـهـا
حـكـم فـقـد عـم الـورى اجـبـاره
قـف واتـرك المـسـعى فـدونـك حـاجـز
الا اذا مـا بـدلـت ادواره

وقال في يوم الغدير من قصيدة :
لـك فـي الـوجـود حـقـيـقـة لا تكشـف
تـعـب الاولـى لـك حـدوداً او عـرّفـوا
تـاهـت بـمـعـنـاك الـورى وتـحـيـرت
فـيـك الـعـقـول فـلـم تـكـن لـك تـعـرف
ولـقـد تـجـلـت مـن عـلاك اشـعـة
فـي الـخـافـقـين بـهـا الـبـصـائـر تـخـطـف
فـعـمـى بـهـا قـوم وابـصـر مـعـشـر
وجـه الـحـقـيـقـة واسـتـهـام الـمـدفـق
فقـلـتـك طـائـفـة واخـرى فـيـك قـد
غـالـت وقـد هلك الـجـمـيـع واسـرفـوا
حسبتك أنت الله في ملكوته الاعلى
وانت الواحد المتصرف
مـا انـت الا عـبـده ولـيـه
لا سـابـقـاً ازلاً ولا مـسـتـأنـف

الشيخ موسى الهر بن جعفر.

توفي سنة ١٣٦٩ في كربلا.

نشأ في حضن ابيه الفقيه الشاعر فشب بعد ان تلقى عنه وعن اساتذة آخرين علوم العربية والدين ونظم الشعر في عدة مناسبات قال من قصيدة عنوانها (في البقيع) :

مـصـاب دهى الاسـلام والـشـرعـة الـغـرا
فـأمـسـت بـرغـم الـديـن أعـيـنـهـا عـبـرى
مـصـاب لـه شـمـس الـعـلـوم تـكـورت
وانـجـم سـعـد الـديـن قـد نـثـرت نـثـرا
مـصـاب لـه عـيـن الـنـبـي بـكـت دمـاً
وحـيـدرة والـطـهـر فـاطـمـة الـزهـرا
وقـامـت اصـول الـديـن تـنـعـى فـروعـه
بـحـادثـة فـقـمـاء زلـزلـت الـغـبـرا
فـأضحت عيون الـرشـد تـهـمـل بـالـدمـا
وأصـبـح وجـه الـغـي مـبـتـسـمـاً ثـغـرا
فـهـل نـابـهـا مـن فـادح الـدهـر فـادح
اسـال عقيق الـدمـع من مـضـر الحـمـرا
وعـادت لـنـا الأيـام يـوم مـذلـة
بـه أصـبـح الاسـلام مـنـقـصـمـاً ظـهـرا
أجـل جـل رزء الـدهـر هـدم قـبـورهـم
لـه انـبـجـسـت عـين الـورى ادمـعـاً حمـرا
اثـامـن شـوال غـدوت مـحـرمـاً
وقـد نـصـبـت فـيـك الـمـآتم في الشـعـرى

وله تقريض لكتاب « رسالة المعجزة والإسلام في اصول الدين وفروع الدين » للسيد محمد هادي الحسيني الخراساني :

هـادي الانـام ومـرجـع الاحـكـام
نـصـر الـهـدى فـي مـعـجـز الاسـلام
قُسم لـه فـي الـعـلـم أوفـر قـسـمـة
والـعـلـم كـالارزاق بـالاقـسـام
عـلـم الـتـقـى الـهـادي يـضـيء كـأنـه
صـبـح تـبـلـج مـن خـلال ظـلام
فـخـرت شـريـعـتـنـا بـمـفـخـر سـيـد
فـخـر الـشـرايـع فـيـه والأحـكـام
الله اكـبـر انـت اكـبـر آيـة
ظـهـرت بـأكـبـر آيـة الاعـلام
مـا أظـهـر الـبـاري حـقـيـقـة فـضـلـه
الا لـيـظـهـر مـعـجـز الاسـلام
تـقـف الـعـقـول حـواسـراً مـن دولـه
مـا بـيـن اقـدام الـى احـجـام
بـمـبـاحـث لـلـحـق فـي مـيـدانـهـا
احـجـام كـل سـمـيـدع مـقـدام
بـبـلاغـة مـقـرونـة بـفـصـاحـة
تـرمـي فـصـيـح الـقـوم بـالاعـجـام
اقـلامـه افـتـخـرت عـلى سـمـر الـقـنـا
فـرأيـت كـل الـفـخـر لـلأقـلام
لله درك اي در غـصـت مـن
بـحـر الـعـلوم زهـا كـبـدر تـمـام

وقـال مقرضاً كتـاب « نهضة الحسين » للعلامـة السيـد محمد علي هبة الدين الحسيني :

مـرشـد الـحـق الـى الـرشـد دعـا
فـاهـتـدى مـن لـنـداه اسـتـمـعـا
قـائـلاً سـيـروا بـمـنـهـاج الـهـدى
واطـلـبـوا سـبـل الـمـعـالـي اجـمـعـا
كـم لـه نـهـضـة عـز دونـهـا
انـجـم الـخـضـراء تـعـنـو خـضـعـا

قادر ميرزا القاجاري.

ابن بديع الزمان صاحب الاختيار ابن محمد قلي ميرزا بن فتح علي شاه.

مرت ترجمته في الصفحة ٢٠٠ من المجلد العاشر ونزيد عليها هنا ما يلي :

ورد في ترجمته انه بدأ تأليف كتابه (تاريخ تبريز) سنة ١٣٠٣ وفرغ منه في ٢٢ المحرم سنة ١٣١٤.

ولكن جاء في كتاب فارسي في تراجم رجال تبريز أن المترجم ولد سنة ١٢٤٢ وتوفي سنة ١٣٠٣ وانه جاء تبريز وعمره ١٥ سنة وانه درس النحو والصرف على ملا محمد علي ، والعلوم على ملا محمود توجي وأن استاذه هذا كان من افضل فضلاء عصره . وان المترجم يقول في مقدمة كتابه (تاريخ تبريز) : كنت احب تبريز وعلماءها وتعرفت فيها على استاذ أديب متقدم في السنّ اسمه محمد علي كنت اذهب اليه من الظهر حتى الغروب

مع حرص كبير على تعلم النحو والصرف واللغة .

وأن للمترجم من المؤلفات عدا كتابه (تاريخ تبريز) كتباً في علوم النجوم والأمثال العربية وأنه كان شاعراً ، وأن ألف (تاريخ تبريز) في اواخر حياته . وانه كما كان ابوه حاكماً لولاية آذربيجان ، فقد حكم هو قسماً من تلك الولاية وأن الحاكم محمد رحيم خان تسقجي حاربه حرباً شديدة حتى أدى الأمر الى ان هدم داره ونهب امواله وظل على حربه له حتى مات فاستراح المترجم .

السيد ناصر بن احمد البحراني نزيل البصرة .

مرت ترجمته في الصفحة ٢٠١ من المجلد العاشر، وسقطت في السطر العشرين من العمود الثاني بعد كلمة : (في الجودة) هذه الجملة : « فطلب مني انشادها وألح على ذلك ، فقلت له : يا مولانا هي من هذا البحر وعلى هذه القافية » .

كانت بينه وبين السيد جعفر الحلي مراسلات شعرية ، فمن ذلك ما كتبه اليه الحلي :

بـرامـة اوطـان لـنـا وربـوع
سقـاهـن من فيض السحـاب هـمـوع

وروّحـهـا .غض النـسـيـم بـنـافـح
شـذا الشيـح والقيصـوم منـه يضـوع

نـعـمـت صبـاحـاً يـا مـرابـع رامـة
وحـيـاك بسّـام العشـي لـمـوع

الى ان يقول :

عـمـيـد بـنـي الاشـراف مـن آل هـاشـم
يـطـيـب الـثـنـا فـي ذكـره ويـضـوع

تـورث مـن اهـلـيـه ثـوب ريـاسـة
بـه لـخـلـوق الـمـكـرمـات ردوع

كـسـاه بـه مـن البس الـشـمـس بـهـجـة
ولـيـس لـمـا يـكـسـو الالـه نـزوع

تـحـف بـه يـوم الـنـدى اريـحـيـة
تـعـودهـا حـتـى يـقـال خـلـيـع

خـصـيـب حـمـى والـمـحـل مـلـق جـرانـه
يـطـبـق وجـه الأرض مـنـه هـزيـع

فـلا بـمـصـاب الـغـيـث تـوجـد قـطـرة
ولا بـحـمـى الـمـرعـى يـصـاب ضـريـع

تـراه يـطـيـب الـزاد لـلـضـيـف والـروى
اذا الـنـاس طـراً اعـطـشـوا واجيعـوا

إذا الـضـيـف وافـى تـعـلـم الـكـوم انـه
سـيـنـهـل مـن اوداجـهـن نـجـيـع

فـيـا نـاصـر الاسـلام يـا فـرع دوحـة
ضـربـن لـهـا فـوق الـسـمـاء فـروع

سـلـمـت لـنـا ابـيّض نـحـوك شـارع
ومـا طـاب لـلـوراد مـنـك شـروع

ولا زال واديـك الـخـصـيـب تـؤمـه
رذايـا رجـاء وخـدهـن سـريـع

تـنـاخ عـلـى ارجـاء واديـك لـغـبـا
خـمـاصـا فـيـقـريـهـن مـنـك ربـيـع

وجـودك غـوث لـلـعـصـاة مـروع
وجـودك غـيـث لـلـعـفـاة مـريـع

تـشـقّـف فـي يـمـنـاك فـي كـل مـعـضـل
يـراعـاً قـلـوب الـشـرك فـيـه تـروع

فـاسـطـره لـلـمـشـركـيـن سـلاسـل
كـمـا انـهـا لـلـمـسـلـمـيـن دروع

السيد ناصر بن السيد هاشم بن السيد احمد بن السيد حسين آل السيد سليمان الموسوي الاحسائي .

ولد في الاحساء سنة ١٢٩١ وتوفي سنة ١٣٥٨ في الاحساء ودفن فيها .

كان من فقهاء العصر وأكابر علماء الشيعة انتهت اليه المرجعية في الاحساء . قرأ الصرف والنحو والمنطق والمعاني والبيان وسائر المقدمات الى شطر من السطوح على والده في موطنه وفي سنة ١٣٠٩ توفي ابوه الزعيم الرئيس هناك فهاجر المترجم له الى النجف الأشرف وأخذ الفقه والأصول عن الشيخ محمد طه نجف والشيخ محمود ذهب والشيخ ملا هادي الطهراني ثم رجع الى موطنه الاحساء وأخذ الفلسفة هناك على الشيخ محمد بن عيثان وبعد مدة رجع ثانية الى النجف وتخرج في الفقه والاصول على الشيخ ملا محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية وشيخ الشريعة الاصفهاني والسيد ابو تراب الخونساري ومنها قصد الى ايران لزيارة الامام الرضا (ع) ومكث في خراسان مدة ثم رجع الى موطنه الاحساء بطلب من اهلها وبقي فيها حتى وفاته ورثاه جماعة منهم الشيخ محمد السماوي بقوله مؤرخاً عام وفاته :

قـضـى نـاصـر الـديـن الـوحـيـد بـعـصـره
فـنـاح عـلـيـه بـالـشـجـاء مـعـاصـره

فـان يـبـكـه الـديـن الـحـنـيـف فـانـه
عـلـى ذمـة الـتـاريـخ (غـيـب نـاصـره)

وقد أرخ وفاته أيضاً الشيخ جعفر النقدي بقوله :

اضـحـت مـحـاريـب الـهـدى تـبـكـي الـهـدى ومـنـابـره
ديـن الـنـبـي الـطـهـر مـذ ارخـت (غـيـب نـاصـره)

ووصفه الشيخ جعفر النقدي فيما جمعه الشيخ محمد حسن الشخص من اقوال قيلت فيه (كان من اجلاء فقهاء الشيعة ومن خير الأقطاب الذين تدور بعلومهم وآدابهم رحى الشريعة مثالاً للأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة وقدوة صالحة للورع والتقوى والزهد ومكارم الأخلاق وحب العلم وأهله وكان على جانب عظيم من الصراحة في أقواله وأفعاله في معزل عن الدنيا وأهلها وحطامها لم تأخذه في الله لومة لائم ولا يصده عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عذل عاذل ولذلك لاقى في حياته صدمات لا يستهان بها من ذوي الأغراض والأمراض وأنجاه الله منها بحسن سيرته وصفاء سريرته عرفته نور الله مرقده منذ ثلاثين سنة في النجف الأشرف وحضرت مجالسه الموقرة ودرست اخلاقه الكريمة وشيمه الطاهرة فما وجدته في سائر ادواره وأطواره يفتر عن العلم والتحدث به ساعة من الساعات مدرساً ومباحثاً وراوياً وناقلاً الى غير ذلك مما يشتغل فيه أساطين العلماء وأعاظم المحققين وكان آية في الفهم والذكاء والتحقيق والتدقيق . . .) .

وكان الى ذلك شاعراً فمن شعره قوله في رثاء الحسين عليه السلام :

هـذي مـضـاجـع فـهـر ام مـغـانـيـهـا
ام الـسـمـاء تـجـلـت فـي مـعـانـيـهـا

فـحط رحـل الـسـرى فـيـهـا وحـي بـمـا
يـجـري من الـعـيـن دانـيـهـا وقـاصـيـهـا

قـوم عـلـى هـامـة الـعـلـيـاء قـد بـنـيـت
لـهـم بـيـوت تـعـالـى الله بـانـيـهـا

ومعشر للمعاني الغر قد شرعوا
طرقاً بأخلاقهم ما ضلّ ساريها
وأسرة قد سمت كل الورى شرفاً
فلم يكن احد فيه يدانيها
لووا عن العيش اعطافاً ابين لهم
مسّ الدنية تكريماً وتنزيها
فقاربت بين آجال لهم شيم
إذ المنايا طلاب العز يدنيها
رأوا حياتهم في بذل انفسهم
في موقف فيه حفظ العز يحييها
في الهام امست تغني بيضهم طرباً
وسمرهم تتثنى في الحشا تيها
والخيل من تحتهم فلك جرى بهم
في موج بحر دم والله مجريها
والنقع قام سماءً فوق ارؤسهم
آفاقها اظلمت منه نواحيها
لكن أجرامهم قامت بها شهباً
لولا ضياء شباها ضل ساريها
ترمي العدى بشواظ من صواعقها
فلا ترى مهرباً منه أعاديها
وشاء أن يجزي الباري فعالهم
من الجزاء بأوفى ما يجازيها
دعاهم فاستجابوا إذ قضوا ظمأ
بأنفس لم تفارق أمر باريها
فصرعوا في الوغى يتلو مآثرهم
في كل آن مدى الأيام تاليها

وله قصيدة يرثي بها زيد الشهيد بن الامام زين العابدين عليه السلام :

عج بالكناس وعج بربع لم تزل
فيه تحط رحالها الوفاد
وأقم رويداً موقداً نار الاسى
فهنا يحق لناره الايقاد
واندب وقل بعد السلام لمن به
بيت المعالي والحفاظ يشاد
يا « زيد » زدت علا بخير شهادة
هدت لوقع مصابها الاطواد
وهنالك الذكر الجميل سما له
بين الورى علم وقام عماد
لله درك من غيور للهدى
وشديد بأس دونه الآساد
فيك استغاث من العدى مستنجداً
إذ كان منحصراً بك الانجاد
فأغثته بوغى لكأس حمامها
بشبا حسامك تكثر الوراد
وبمعرك ملئت بأجساد العدى
منه رحاب للفلا ووهاد
القيتها حرباً ولوداً للردى
ولها القوابل مرهف وصفاد
افديك من بطل يجود بنفسه
في موقف بخلت به الاجواد

وله قصيدة في رثاء جده امير المؤمنين علي بن ابي طالب ويتخلص برثاء ولده سيد الشهداء الحسين عليه السلام :

لا تلمني فالنفس طال عناها
من غموم يذكي الملام لظاها
لست ادري ولن أراني ادري
اي ذنب لسيد الرسل طاها
يوم خانت عهوده في اخيه
امة قد غوت وطال عماها
أضمرت حقدها له وهو حي
فغدت في اخيه تشفي جواها

ناصيف النصار

مر بحث عنه في الصفحة ٢٠٥ من المجلد الثالث من الاعيان ، كما مر بحث عن تحالفه مع ظاهر العمر وعلي بك الكبير في الصفحة ٢٤٣ من المجلد الأول من المستدركات . وننشر هنا عنه بحثاً آخر بقلم الدكتور محمد حمّود، نتبعه ببحث عن احمد باشا الجزار، ثم ببحث عن علي بك الكبير لارتباط امرهما بأمر ناصيف ارتباطاً متأصلاً :

الحالة السياسية في جبل عامل
قبل ناصيف النصار

عاش جبل عامل قبل ظهور ناصيف النصار نصف قرن في صراع دائم وصدام مستمر مع الأمراء الشهابيين . اذ كان يصر هؤلاء ، يساعدهم على ذلك والي صيدا العثماني على السيطرة على جبل عامل لأهميته الاقتصادية بالنسبة اليهم . فهو يشكل بنتاجه الزراعي متمماً اقتصادياً للشوف الذي تقل فيه زراعة الحبوب . يضاف الى ذلك بعض الاعتبارات المذهبية .

وكانت زعامة آل الصغير في بلاد بشارة تناضل دائماً من أجل تحقيق شكل من اشكال الاستقلال الذاتي للجبل . وكانت الزعامة في هذه المرحلة بعد ١٦٩٧ قد انتهت إلى الشيخ مشرف آل الصغير الذي حاول عن طريق مناصرته للزعامة اليمنية ، المناوئة للزعامة القيسية الجديدة ان يضمن استقلال الجبل . وأعلن العصيان على والي صيدا ارسلان باشا سنة ١٦٩٨ وقبض على جماعة من غلمانه .

استنهض الوالي ارسلان باشا الأمير بشير الشهابي الأول على الشيخ مشرف وأطلق للأمير ولاية صفد ومقاطعات جبل عامل . زحف الأمير على العامليين واستطاع ان يهزمهم قرب قرية « المزرعة » وقبض على زعيمهم الشيخ مشرف وأخيه الحاج محمد ومدبرهما الحاج حسين المرجا وأرسلهم لأرسلان باشا الذي سجن الشيخين وقتل مدبرهما[1] وكان آل صعب وآل منكر العامليين حكام مقاطعة الشقيف وأقليمي الشومر والتفاح قد حضروا الى الأمير وأطاعوه وأظهروا التعصب للقيسية فقبلهم وقررهم على ديارهم ولاة من قبله[2] .

وهكذا خسر جبل عامل جولته الأولى في سعيه للاستقلال الذاتي عن الوالي العثماني وانتهى إلى سيطرة الأمير الشهابي حتى كانت سنة ١٧٠٥ حين تولى الأمير حيدر الشهابي امارة الشوف وعُزل ارسلان باشا عن ولاية صيدا ، وخلفه اخوه بشير باشا فأفرد ولاية صفد وولى عليها ظاهر العمر

(١) الزين.
(٢) حيدر شهاب وطنوس الشدياق.

وأقر آل صعب وآل منكر على مقاطعاتهم وأعاد ال الصغير الى ولاية بلاد بشارة ولاة من قبله[1].

وما ان عاد آل الصغير الى حكم مقاطعاتهم من قبل والي صيدا حتى بدأ حنينهم إلى « الاستقلال » يعود من جديد . فعملوا باخلاص على توحيد صفوف العامليين فانضم اليهم آل منكر وآل صعب « لما بينهم من الاتحاد بالتشيع والتعصب لليمنية »[2].

ولكن الأمير حيدر ما لبث ان تمكن من « شراء » ولاية جبل عامل من والي صيدا . وهكذا أعلن والي صيدا حيدراً الشهابي حاكماً على جبل عامل . رفض العامليون هذا الأمر فنهض اليهم الأمير حيدر من دير القمر سنة ١٧٠٧ وبلغ بلدة النبطية التي اجتمع فيها العامليون استعداداً لقتاله وجرت المعركة بين الفريقين خارج البلدة وتمكن الأمير حيدر من الانتصار على العامليين وارتكب بحقهم ابشع المجازر . وأجلى آل الصغير ثانية عن حكم بلاد بشارة وتولاها محمود ابو هرموش من قبل الأمير حيدر لجباية المال المرتب عليها .

ولئن جعل المؤرخون الشهابيون أسباب هذه الحملة مجرد « مخرقة » العامليين في اطراف بلاد الشوف فان الشيخ علي الزين ذهب بعيداً وجعل : « غزو الأمير حيدر للنبطية جرياً على خطة رسمت للشهابيين في الخفاء يستشفها الباحث من تاريخ سلفه الأمير بشير الأول سنة ١١١٠/١٦٩٨ وتاريخ خلفه الأمير ملحم ١١٤٤/١٧٣٢ ثم خلفه الأمير يوسف ١١٨٥/١٧٧٠ يوم جعل كل منهم باكورة اعماله في حكم الشوف غزو بلاد المتاولة ونهبها [3]» .

ومن يعد إلى المصادر التاريخية يلاحظ أن آل الصغير كانوا لا يطمئنون اطلاقاً للأمراء الشهابيين ، وأثبتت الوقائع التاريخية انهم كانوا على حق في ذلك ـ ولم يكن هم الولاة العثمانيين سوى جمع الأموال . إما رفض العامليين لسيطرة الأمير الشهابي فكان منسجماً مع رغبتهم في الحفاظ على حريتهم وعاداتهم وعقيدتهم لذلك كان اتحادهم لمواجهة حكام الجور وتسلطهم وليس « بدافع التشيع والتعصب لليمنية » فحسب كما علله المؤرخ الشهابي مختزلاً دوافع الكرامة الوطنية :

وبدأت بعد معركة النبطية حكاية أخرى مع محمود أبو هرموش الذي جعل جل همه جمع المال من العامليين لأغناء ثروته . ولكنه ما لبث ان تمرد على الأمير حيدر نفسه وفر بالأموال الى والي صيدا الذي حصل له على لقب باشا من الباب العالي وولاه ولاية جبل لبنان مكان الأمير حيدر الذي ترك الى غزير ليعود من جديد الى دير القمر ويقضي على الحزب اليمني قضاء نهائياً بعد معركة عين دارة ١٧١١ والتي هزم فيها ابو هرموش وولاة الشام وصيدا مجتمعين .

وهكذا بعد خروج ابي هرموش من جبل عامل وبعد معركة عين دارة حضر عثمان باشا أبو طوق وأراد أن يسترضي العامليين فاعاد آل الصغير الى حكم الجبل مع ذلك لم يسلم الجبل من محاولة « شهابي » آخر التحكم به . وبالفعل فإن امير حاصبيا هذه المرة الأمير قاسم الشهابي سنة ١٧١٢ حاول السيطرة على الجبل ولكنه لم يوفق اذ استطاع المشايخ المحليون ان يعودوا إلى حكم مقاطعاتهم وأن يبنوا السرايات في مراكز حكوماتهم .

أثار ازدهار العامليين حفيظة الأمير حيدر وهاله ما اصبحوا فيه من قوة

(١) لبنان في عهد الامراء.
(٢) ن . م .
(٣) الزين .

واستقرار فزحف في سنة ١٧١٩ باثني عشر ألف رجل الى بلاد المتاولة والقبلية وبلاد الشقيف واقليم الشومر ونهب البلاد وقتل نحو أربعين رجلاً وأخذ منهم ألف وحرق البلاد وقطع الأشجار وهدم سرايات الحكومة هدماً مريعاً ورجع إلى موضعه[4] .

وبعودة الأمير حيدر إلى موضعه عاد العامليون إلى حكم بلادهم وعمرانها بعيداً عن تهديد الشهابيين لأن صراعاً كان قد دب في الشوف بين ابناء العمومة والأخوة من الأمراء واستمر حتى تنازل الأمير حيدر إلى الأمير ملحم سنة ١٧١٩ .

وكأنه لم يكف جبل عامل ما لقيه على أيدي الشهابيين اذ ما لبث ان ظهر طامع جديد بحكم الجبل ولكن هذه المرة من الجنوب أعني بذلك ظاهر العمر حاكم بلاد صفد والذي كان « واداً للأمير حيدر لكونه سنياً قيسياً »[5].

استغل ظاهر العمر الظروف السيئة للعامليين بعد هزيمتهم امام الأمير حيدر فسار ومعه امراء صفد ١٧٢٢ لقتالهم ولكنهم الحقوا به هزيمة مرة[6] جعلته يحجم عن مقارعتهم ثانية بل لعلها دفعته إلى السعي لاتخاذهم حلفاء له ـ كما سنرى فيما بعد ـ على مناهضيه داخل بلاده .

أما الأمير ملحم فإنه عندما استتب له الأمر لم يخرج على سنة سابقيه : أمير شهابي جديد يزيد في مال التزام جبل عامل من والي صيدا فيوليه عليه ، فرفض عاملي . . . فحملة تأديبية شهابية تنتهي كسابقاتها بقتل ودمار .

ففي سنة ١٧٣٢ التزم الأمير ملحم جبل عامل من أسعد باشا العظم والي صيدا في ذلك الحين وكان ذلك رداً على ما اسماه شماتة آل الصغير بموت والده « وقيل انهم من سرورهم خضبوا ذيول خيولهم بالحناء »[7].

ورفض العامليون ولاية الأمير ملحم عليهم فقام هذا من دير القمر لقتالهم فمال لجانبه سلمان الصعبي والي مقاطعة الشقيف . . فأطلق له الأمان وبقي سايراً ودهم بني علي الصغير للقتال فالتقى بهم في أرض قرية يارون[8] . . . فحصل النصر والظفر للأمير ملحم وكسرهم واهلك منهم خلقاً وقبض على مقدمهم نصار[9] وفر إخوته إلى جويا فسار خلفهم ففروا إلى القنيطرة فظفر بجماعة من غلمانهم فأهلكهم. ثم أطلق الغارة على تلك الديار فنهب ما فيها وقفل راجعاً إلى ديار لبنان (؟) ومعه نصار الصغيري وولى على ديار بشارة حليفه سليمان الصعبي المذكور

وبعد أيام عاد اخوة نصار وافتدوا أخاهم بمال وافر فأطلق الأمير ملحم سراحه وأعادهم إلى ديارهم ولاة من قبله .

وينعم جبل عامل بشيء من الاستقلال الذاتي . لكن عندما شعر الأمير ملحم بتزايد قوة العامليين قام بعملية كبيرة ذهب ضحيتها العشرات من العامليين سنة ١١٥٦/١٧٤٢ عرفت في التاريخ باسم وقعة انصار والتي يفهم من سكوت المؤرخين عنها والتناقض الذي وقعوا فيه حولها انها ربما كانت لأسباب محض مذهبية .

يقول المؤرخ العاملي السبيتي : « ١١٤٧ (١٧٣٣) صارت وقعة أنصار مع الأمير ملحم وأسر من الشيعة ألف وأربعماية ومات في الكنيف في بيروت ومكث الأسرى وكانت الوقعة بفتوى الشيخ نوح .

(٤) لبنان في عهد الامراء.
(٥) ن . م . (٨) ن . م .
(٦) ن . م . (١٠) لعله يقصد قلعة مارون التي كانت مركز آل علي الصغير وهي قرب سلعا .
(٧) هو والد ناصيف النصار.
(٨) لبنان في عهد الامراء.
(٩) العرفان .

ويتعامل بعض المؤرخين مع هذه الحملة بكثير من الريبة ويرون أن العامليين « أخذوا غدراً واغتيلوا خارج القرية ثم نهبت وأحرقت وقتل جميع من فيها ويلغ عدد القتلى من الطرفين نحو ألف قتيل »[1].

على الرغم من سلسلة الهزائم هذه لم يلبث العامليون ان وحدوا صفوفهم ليحققوا أول انتصار لهم على الأمراء الشهابيين في سنة ١٧٤٣ ! « ففي سنة ١٧٤٣ كانت الوقعة بين المشايخ بني متوال وأهالي وادي التيم ومعهم دروز جبل الشوف وكانت الكسرة على الدروز وعسكر وادي التيم وقتل منهم مقدار ثلاثماية رجل وأحرقت المتاولة جميع قرى مرجعيون ثم اجتمعت المتاولة في قرية النبطية وأرادوا ان يغزوا جبل الدروز فمنعهم وزير صيدا [2]».

ويشير الشيخ سليمان ظاهر الى هذه المعزكة ويعلق عليها بقوله : « وفي هذه المعركة يقول بعض الزجليين :

يـا بـنـت مـردم بـك طـلي وشـوفـي
دخـان مـرجـعـيـون غـطى الشـوفـي [3]

وهكذا مضى نصف قرن على الأقل في وصراع دائم بين العامليين الذين يصرون على استقلالهم الذاتي وبين الأمراء الشهابيين : بشير الأول، حيدر، ملحم ، الذين حاولوا اخضاع الجبل وسلبه خيراته بتواطؤ مكشوف مع ولاة الدولة العثمانية .

ولم يخل هذا النزاع من خلفيات مذهبية وهذا واضح من خلال حضور فوي لرجال الدين العامليين الذين استشهد عدد منهم فى ساحات المعارك دفاعاً عن الكرامة والعقيدة والوجود .

ومع ان العامليين لم يكونوا دائماً موحدي الصفوف إلا ان ما ينبغي تسجيله هو عدم حصول صدام مباشر بين الأسر العاملية . كما ان أياً من الأسر العاملية لم يقاتل مع الشهابيين ضد اشقائه من ابناء الجبل . وكان على الوحدة الحقيقية لأبناء جبل عامل ان تترجم نفسها مع ظهور ناصيف النصار كشيخ مشايخ جبل عامل .

الشيخ ناصيف النصار الانسان

ذكر الشيخ عبد المحسن الظاهر المعاصر ـ وهو من سلالة اسرة ناصيف ـ ذكر نسب ناصيف النصار في مخطوطة له بعنوان : « الدلالة العاملية بتاريخ الأسرة الوائلية » نقلاً عما ذكر الحاج محمد سهيل ، وشبيب باشا الأسود وحسين بك البندر عن حمد البيك وأقره عدد من شيوخ العائلة قال : ناصيف النصار هو ناصيف بن نصار الثالث بن نصار بن أحمد بن نصار بن مشرف بن احمد بن نصار بن حسين بن علي الصغير ثم استرسل الشيخ الظاهر فأوصل النسب الى معد بن عدنان مما لا يعلم حقيقته الا الله . وبعد ايراده النسب قال الشيخ عبد المحسن :

هو اشهر من نار على علم : طائر الصيت عاطر الذكر رأيس (رئيس) عاملة على الأطلاق ، مدبر شؤونها وحامي صونتها ومفرج كربتها ومعيد حريتها ومحطم نير الاستعباد ومبيد الظلم والجور والاستبداد . جمع من المآثر الحميدة . مواقفه في الحروب مشهورة وأعلام ذكره بين الآنام منشورة حيث الرجال بالأفعال لا بالأقوال».

السيد محسن الأمين يذكر في ترجمته في « اعيان الشيعة »: يقال له الشيخ ناصيف النصار جرياً على العادة في ادخال الألف واللام على اسم الأب حين ارادة نسبة الأبن اليه . ولفظ الشيخ أحد القاب الأمراء في بلاد الشام . فأمراء جبل عامل والأمراء الحماديون وغيرهم كانوا يلقبون بالمشايخ والحرافشة والشهابيون كانوا يوصفون بالأمراء . وكانت امرة جبل عامل لثلاث طوائف : فامرة بلاد بشارة لآل علي الصغير وأمرة بلاد الشقيف للصعبية وامرة اقليم الشومر لآل منكر . وكان يطلق على ناصيف شيخ المشايخ أي امير الأمراء .

ويذكر السيد محسن في مخطوط إطلعنا عليه عند نجله السيد حسن الأمين : « زرنا قبره سنة ١٣٤٩ وقرأنا له الفاتحة فوجدناه قبراً بسيطاً قد بني حوله أساس فقط . والعجب من أقاربه الذين ملكوا البلاد بعده كيف لم يبنوا قبره ويشيدوه مع انه أهل لذلك بما كان فيه من جميل الصفات من الشجاعة والكرم وحفظ الجوار وجودة الرأي ومحاسن الأخلاق وتعظيم العلماء وأهل الدين . وقد قتل شهيداً في الدفاع عن استقلال بلاده ورد الظالمين الفراعنة عنها رحمه الله رحمة واسعة ».

بعض المصادر التاريخية التي اهتمت بجبل عامل تذهب إلى القول ان الشيخ ناصيف ولد في قرية مجدل سلم القريبة من تبنين حيث توفي والده وحيث كانت اقامة الأسرة فيما بعد طلوعها من قرية شحور .

وعبثاً نفتش في المصادر التي بين أيدينا عن ذكر للسنة التي ولد فيها ناصيف النصار . غير أن مصادر الشيخ عبد المحسن الظاهر ذكرت عنه قوله : سمعت من بعض شيوخنا عن سلفهم انه لما قتل ناصيف النصار سنة ١١٩٥/١٧٨٠ كان عمره خمساً وستين سنة » فتكون سنة ميلاده ١٧١٥/١١٣٠

وكما كان مولده غامضاً كذلك كانت نشأته اكثر غموضاً إلا انه تجدر الاشارة الى نشأته في بيئة اجتماعية تسودها علاقات اقطاعية تميز فيها الأعيان عن الفلاحين ببعض المميزات الخاصة كتعليم الفروسية وبث روح الشجاعة في اولادهم لأنها كانت من مؤهلات الرئاسة في القوم في ذلك العصر[7].

وكان لكل ولد من اولاد الأعيان خادم أو عبد خاص[5] ومن تقاليدهم ايضاً التزاوج من نساء الأسرة . وقد تخلف ناصيف النصار بستة اولاد هم : نصار وفارس ومحمد وعقيل وشبيب وخليل :

المصادر التي بين ايدينا لا تعطينا فكرة واضحة عن حقيقة ثقافة الرجل . ولكننا نستطيع أن نستخلص فكرة عنها من الاشارات العرضية التي ذكرها بعض المؤرخين . فقد سبق وأشرنا إلى ما ذكره السيد محسن الأمين من تقديم الشيخ ناصيف النصار للعلماء وتميزه بجودة الرأي . والفضل لا يعرفه إلا ذووه على حد ما قالت العرب .

المؤرخون العامليون يرسمون له صورة أقرب الى الكمال فإذا هو القائد المطاع والجندي الباسل الفاتح والمصلح المفكر والأمير الحكيم العليم [6]هذا وقد عرف عن ناصيف النصار تقديره للشعر واكرامه للشعراء فقد كان لكل منهم اعطية لديه . وقد عرف عن أخيه ابي حمد النصار انه كان ينظم الشعر احياناً وله مساجلات مع علي الظاهر بن ظاهر العمر من اكثرها طرافة :

يقول علي الظاهر :

(١) الزين .
(٢) لبنان في عهد الامراء .
(٣) الشيخ سليمان ظاهر.

(٤) جورج ليني .
(٥) محمد جابر.
(٦) الفقيه.

ومن عجب الأيام تنكر صحبتي
وتلحظني شزراً بطرف مريع
كأني وإياها صحائف نظمت
مديح ابي بكر يقلبه شيعي

فأجابه أبو حمد النصار قائلاً :
عجبت لدهر كيف أكمه رشده
ولم يرع بالعتبى مقاماً لصاحب
كأني واياها صحائف نظمت
مدائح أهل البيت في كف ناصبي

وهناك من يذكر ان ناصيفاً كانت تحضره بعض أبيات في مناسبات معينة .

لم يشر المؤرخون وخاصة العامليون منهم إلى تاريخ توليه الحكم على بلاد بشارة . لكن يبدو انه كان خلال سنة ١١٦٣ / ١٧٤٩ ولم يكن بعد هذه السنة لأن المؤرخ العاملي الركيني الذي عاصره وبدأ تدوين تاريخ « جبل عامل في قرن » في هذه السنة لم يشر الى توليه الحكم قبل هذه السنة أو في أوائلها .

وكذلك فإن المخطوطات العاملية التي تحدثت عن معارك مرجعيون ـ القليعة التي جرت في هذه السنة بين العامليين والأمير ملحم الشهابي لم تشر إلى اشتراك ناصيف فيها انما أشارت إلى اشتراك اخويه ظاهر النصار كحاكم ومراد النصار كقائد .

ومن المرجح أن توليه الحكم كان خلال سنة ١١٦٣ هـ أو في أواسطها بعد المعارك السالفة الذكر لأن المؤرخ السبيتي العاملي أشار اليه كحاكم عندما تحدث عن تحصين القلاع العاملية وعن اقتسام مقاطعات بلاد بشارة بين مشايخ آل الصغير فقال : وكانت لناصيف تبنين » [1] .

لكن الشيخ عبد المحسن الظاهر يزعم أن توليه كان سنة ١١٤٥ / ١٧٣١ بعد وفاة والده فاتفقت آراء أعيان آل الصغير على « الشيخ ناصيف لأنه اكبر اولاده وعليه سمة الشجاعة والأباء (وطلبوا من والي صيدا أسعد باشا العظم في تلك الأثناء) فأجاب الباشا طلبهم واسند حكم البلاد الى ناصيف بموجب صك يتعهد فيه بدفع الأموال الأميرية المرتبة على البلاد » [2] .

استشهد ناصيف النصار يوم الاثنين ٥ شوال ١١٩٥ / ١٧٨٠ قرب بلدة يارون في المعركة التي سميت باسم البلدة نفسها بين العامليين ووالي عكا أحمد باشا الجزار ولنا إلى ذلك عودة .

ناصيف النصار : زعامة الأسرة
أو الطريق الى وحدة الجبل

كان على الشيخ ناصيف النصار ان يواجه أهله الأقربين لينطلق من أرض صلبة في محاولته لتوحيد العامليين ازاء المخاطر التي تتهددهم .

وكان أكثر ما يقلقه بادىء ذي بدء الصراع الذي برز بين الشيخ قبلان والشيخ عباس . فقد أعطيت صور اول الأمر للشيخ قبلان فرفض قبولها بحجة انها بلدة خربة لا يوجد فيها إلا مصنع للملح (ملاحة) فأعطيت للشيخ عباس . استلم عباس صور وبنى فيها داراً للحكومة لم تزل عامرة إلى اليوم وموقعها على باب المدينة وشاد فيها مسجد وكنيسة وسوقاً ودوراً كثيرة . واسكن فيها عائلات كثيرة من المسلمين والمسيحيين من سكان جبل عامل وجبل لبنان .

(١) العرفان.

(٢) المخطوط المتقدم ذكره.

وكان يصرف فيها فصل الشتاء ويصيف في قلعة مارون الواقعة في ناحية شحور بالقرب من ديردغيا . ولم يمض أربع سنين حتى غدت صور بلدة تجارية وكثر فيها الأخذ والعطاء وأمت اليها السفن الشراعية لأفراغ شحنها وابتياع حاصلات البلاد من حبوب وتبغ وقطن وزيوت» [3] .

ولما رأى قبلان تقدم العمران في صور ندم على تسليمها لأبن عمه الشيخ عباس ففاوضه باعطائها له فلم يجب طلبه ووقع الخصام بينهما فحدثته نفسه بالاستيلاء عليها قسراً .

اغتنم الشيخ قبلان فرصة غياب الشيخ عباس وولده حسين عن صور في زيارة للشيخ علي الظاهر في الجش (فلسطين) فهاجم صور ونهب دورها ومتاجرها حتى حُلي النساء وأسر الشيخ حمزة شقيق الشيخ عباس وسار به إلى هونين .

وصل الخبر إلى الشيخ عباس فأسرع بخيله ليقطع على المهاجمين الطريق والتقاهم في وادي الحجير وتمكن من الحاق هزيمة قاسية بالشيخ قبلان واقتاده اسيراً إلى قلعة مارون حيث ابقاه عدة أشهر إلى أن تدخل الشيخ ناصيف .

أدمت هذه الأحداث قلب الشيخ ناصيف وهذا واضح في موقفه من اخوة الشيخ قبلان الذين جاؤوا يطلبون شفاعته لأنقاذ اخيهم فرد طلبهم بادىء الأمر وقال لهم : لقد هتكتم ستر العشيرة باعتدائكم الشائن » [4] ولكنه اجاب طلبهم وركب في شرذمة من رجاله وسار قاصداً قلعة مارون فلقيه الشيخ عباس بالحفاوة والترحيب .

« وصل ناصيف تواً إلى باب القلعة فهب الشيخ عباس لاستقباله ولكن ناصيف وقبل أن ينزل عن جواده قال لعباس: هل جازت يا ابن العم ؟ فأجاب عباس: نعم جازت على ما تختار وتريد عدا عمنا الشيخ قبلان . فقال ناصيف : اياه اردت ولسنا بحاجة إلى طعامك وشرابك ولوى عنان جواده يريد الرجوع وتبعته الخيل . فلحقه عباس وقبض على عنان الجواد وقال نعم نعم جازت على القلعة ومن فيها حتى قبلان . وعقد الشيخ ناصيف راية الصلح بيده ولفظ عليها العبارة المأثورة التي يقولها عاقد الراية وهي : « يا أهل المعونة من مكة والمدينة ليعلم الحاضر والغائب والغادي والبادي ان الراية عقدت بين فلان وفلان بكفالة الزعيم فلان » .

وكان الشيخ ناصيف يعرف ان إعادة الأموال المسلوبة غير ممكن وكان من العدل بحيث يعرف ان تركها أمر غير مستحب فقدر الخسائر تقديراً ممكن التنفيذ وكفل ذلك المبلغ بنفسه وانطلق إلى مركزه في قلعة تبنين .

وعندما وصل إلى كفردونين فكر بما حدث وكان يخشى من نكث الشيخ قبلان لالتزاماته ، لذلك أمر ولده عقيلاً بالرجوع إلى قلعة مارون وقال له قل لعمك عباس ان والدي أمرني أن ابقى رهينة عندك في القلعة حتى يفي قبلان بما عليه .

رجع عقيل إلى قلعة مارون وأبلغ عمه عباس رسالة والده فأجابه عباس قائلاً : أو حسبني ابوك خالي المروءة حتى بعثك وانت فلذة كبده رهينة عندي من أجل دريهمات . وأمر كاتبه باحضار السندات الأربع فمزقها وألقاها في النار وقال لعقيل بعد أن أهداه جواداً عربياً مسروجاً بسرج محلى بالذهب والفضة : عد لأبيك وأخبره بما رأيت وقد سامحت قبلان بهذا المال اكراماً له وسأعوض على اصحابها من مالي الخاص .

(٣) محمد جابر.

(٤) ن . م .

وعاد عقيل ومعه خادماه ووراءهما الحصان يقوده سائسه فلحق بأبيه عند « عين المزراب » قرب تبنين فأخبره بما توقع فترنح سروراً وطرباً وأنشد متحمساً قول ابي فراس :

انـا اذا اشـتـد الـزمـان ونـاب خـطـب وأدلـهـم
الـفـيـت حـول بـيـوتـنـا عـدد الـشـجـاعـة والـكـرم
لـلقـا الـعـدى بيض الـسـيـوف ولـلـنـدى حـمـر الـنـعـم
هـذا وهـذا دأبـنـا يـودى دم ويـراق دم[1]

كانت هذه الحادثة منطلقاً لتسليم أفراد الأسرة تسليماً شبه مطلق بزعامة الشيخ ناصيف الذي ما لبث ان التزم ميناء صور من والي صيدا وأصبح هذا الميناء خاصاً بالعامليين ومهماً بالنسبة لتجارة الشيخ ناصيف الذي كان « يتعاطى التجارة والحرب في وقت واحد والذي كان مخيفاً كتاجر كما كان مخيفاً كجندي . . . »[2].

وما أن أحكم الشيخ ناصيف سيطرته على أسرته وعشيرته حتى ضعفت في وجهه مقاومة سائر الأسر العاملية . ويبدو انه تمكن من ارضاء آل صعب بالمصاهرة وأخضع آل منكر .

والثابت انه بعد ١١٨٠ /١٧٦٦ لم يظهر أي صراع عائلي في الجبل وبعد سنة ١٧٦٥ أي صدام عشائري بدليل أن العامليين ظهروا متفقين في اتصالاتهم الودية مع الدروز ١١٧٩/١٧٦٥ . فقد ذكر الركيني انه في شهر رجب المبارك صارت الجمعية بين الشيخ ناصيف والشيخ عباس وعلي فارس والأمير اسماعيل والشيخ علي جنبلاط في حاصبيا[3] .

ويضيف الشيخ عبد المحسن الظاهر في حديثه عن هذا الاجتماع قائلاً : ان الشيخ علي جنبلاط لما لم ير أحداً من اصدقائه من آل منكر طلب الى ناصيف أن يرسل الى ممثلهم الشيخ حسن المنكري ان يكون في الاجتماع . فحضر وقرروا قواعد الأتفاق والمعاهدة على عدم الاعتداء والغدر ببعضهم (أي العامليين والدروز)[4].

بعد انجاز وحدة العامليين كان على ناصيف ان يحمي ما حققه من انجازات وأن يواجه اطماع جيرانه بجبل عامل سواء من الشمال أو من الجنوب وهكذا تبدأ حكايته مع ظاهر العمر .

ناصيف النصار وظاهر العمر

ما ان استتب الأمر للشيخ ناصيف النصار في حكم جبل عامل حتى بدأت التهديدات الخارجية للعامليين تطل برأسها من جديد .

ولكنها كانت هذه المرة من فلسطين ومن ظاهر العمر على وجه التحديد . فقد ظن هذا الأخير ان حروب العامليين مع الأمراء الشهابيين قد أرهقتهم فلا بأس ان يجرب حظه معهم .

ولم يكن ظاهر العمر هذا شخصية عادية في عصره بل كان على ما يبدو رجلاً عصامياً وبطلاً من ابطال الشرق عظيم الهمة ، شديد البأس واسع الحيلة حكيم التدبير علوي النسب[5] .

يقول عنه الرحالة الفرنسي فولني انه مضى زمن طويل على سوريا لم تر رجلاً مثله وكانت أطماعه فوق قدرته . وكانت العدالة ضاربة أطنابها في بلاده لا فارق عنده في شمولها أهل المذاهب المختلفة .

ولد ظاهر العمر سنة ١٦٨٦ وقتل سنة ١٧٧٦ أي قبل أربع سنوات من استشهاد الشيخ ناصيف وقد تولى حكومة صفد وطبريا وما يليها بعد أبيه الشيخ عمر بن ابي زيدان .

وكانت عكا من ملحقات صفد وكانت أشبه ما تكون بقرية حقيرة غير عامرة . ولما استولى عليها ظاهر العمر ١١٦٣/١٧٤٩ بنى ابراجها وشيد حصونها المنيعة وملأها بالمدافع والذخائر وعززها بالسلاح وأحاطها بسور متين . ولم يترك لها إلا بابين . وازدحم الناس فيها من أنحاء سوريا وقبرص مهاجرين اليها وفيهم المسلم والمسيحي وكان يرعاهم بعنايته ويهتم بشؤونهم . ويتساهل بأمور عقائدهم مما لم يكن مألوفاً في ذلك العصر :

استمر نجمه بالصعود وأحكم سيطرته على أجزاء من فلسطين وسوريا بعد أن تمكن من اخضاع البدو سواء بالقوة أو بالمصاهرة .

في سنة ١٧٦٨ منحته الدولة العثمانية لقب شيخ عكا . وأمير الأمراء وحاكم الناصرة وطبريا وصفد وسائر الجليل وفي سنة ١١٨٨/ ١٧٧٤ ورد الفرمان السلطاني باحالة ولاية صيدا لعهدته[6].

وما ان شعر الشيخ ظاهر العمر بتزايد قوته حتى حول وجهه إلى جبل عامل يريد أن يبسط سلطته عليه. « غير أن جبل عامل في ذاك الوقت كان أمنع من عقاب الجو »[7].

تحرش ظاهر العمر بناصيف النصار عميد عشائر جبل عامل « وناهيك بناصيف النصار بطلاً مغواراً وقائداً محنكاً جمع الى الشجاعة والنخوة سخاء الكف وحسن التدبير والغيرة القومية والمروءة المحضة ».

اتخذ الشيخ ناصيف من قلعة تبنين مقراً لحكومته وكانت عامرة بأبراجها الشامخة وحصونها المنيعة . وجدد بناء الحصون وشحنها بالمقاتلة والسلاح وبسط العدل فارتاح له العامليون وأخلصوا له الولاء .

في العام ١٧٦٦ تفجر الخلاف بين الشيخ ناصيف وابن عمه الشيخ قبلان الذي سبق للشيخ ناصيف أن أنقذه من الأسر فظن ظاهر العمر ان الفرصة مؤاتية له ليسفر عن اطماعه بالأرض العاملية . فكتب الى العميد الوائلي يطلب اليه أن يتخلى عن قريتي البصة ومارون بدعوى انهما تابعتان لفلسطين . فرد الشيخ ناصيف رسول ظاهر العمر رداً عنيفاً : « وارسل له الجواب بالرفض واغلظ له القول ومن جملة ذلك قال له : لا تظن إنا نظير سوانا ، فوالله انا عندنا مقابل سيفك سيوف أحدّ منه ، وبازاء كيدك مكائد كثيرة. فالأولى بك ان تدعنا غافلين عنك باعتدائك على جيراننا . والآن والله العظيم انك تندم لأننا نحن طالما بغي علينا فانتصفنا من الباغي . وعاهدنا فقمنا بعهدنا. وكنّا من أعظم أنصار أصحابك فدونكَ الآمرين . وأنت ورأيك ونحن نرى فيما يبدو منك والسلام ».

ولما وصل هذا الجواب إلى الشيخ ظاهر العمر طار صوابه وأعلن النفير العام وطرد عمال الشيخ ناصيف من القريتين ونهض لاجتياح بلاد عاملة .

لم يكن الشيخ ناصيف أقل استعداداً للقاء. فلاقت خيوله ظاهر العمر عند الحدود . ونشبت بين الفريقين عدة معارك أشهرها معركة دولاب ـ طربيخا ١١٨١ /١٧٦٧ .

وفي هذه المعركة أكره ظاهر العمر على التراجع فانقض عليه ناصيف

(١) ن . م .
(٢) لاكروا .
(٣) العرفان .
(٤) مخطوط الظاهر المتقدم ذكره.
(٥) محمد جابر.
(٦) ن . م
(٧) ن . م .

ومكن الرمح من صدره ثم عفا عنه واكتفى بسلبه فرسه المعروفة « بالبريصة » التي قال فيها ناصيف كلمته المشهورة - والتي ذهبت مثلاً - بعد ان استعاد البصة وأعاد البريصة لظاهر : لا بأس ان أعدنا البريصة بعد ان عادت البصيصة (تصغير بصة) . وقد أثارت هذه المعركة قرائح العديد من الشعراء العامليين . من أبرز هؤلاء الشيخ ابراهيم الحاريصي الذي أرسل قصيدة طويلة للشيخ عبد الحليم النابلسي وكانت بينهما مفاخرات ومراسلات أدبية .

ومن أبرز ما جاء في هذه القصيدة قوله :

يا للرجال لمحنة لا يرتجى
غير ابن نصار يحل عقالها
ناصيف من يحمي الثغور ومن به
ابدت سماء المكرمات هلالها
بطل له الفى الزمان قياده
لو طاولته الشامخات لطالها
ويد مقبلة البنان كريمة
مدت على المستضعفين ظلالها[1]

والمساجلات بين هذين الشاعرين واردة بتمامها في أعيان الشيعة « في ترجمة الشاعر العاملي الشيخ ابراهيم الحاريصي » .

اسقط في يد ظاهر العمر ورأى نفسه أمام قيادة جديدة في جبل عامل عليه أن يبدل اسلوبه في التعامل معها . وفي هذا الوقت حصل حادث مريب وملفت للنظر في آن معاً . وذلك أن أحمد آغا الدنكزلي وهو رجل مغربي كان في خدمة ظاهر تسلل خفية وهاجم قلعة تبنين على حين غرة من الحامية القليلة الباقية فيها .

تمكن الدنكزلي في هذه العملية من القبض على ولدين صغيرين في سن المراهقة من ابناء الشيخ ناصيف وفر بهما إلى عكا .

ومن غير الواضح من خلال المصادر التي بين أيدينا اذا كانت هذه العملية تمت بناء لأوامر صادرة عن ظاهر العمر أم أنها تمت بمبادرة شخصية من الدنكزلي هذا . ولكن الثابت ان هذه العملية جعلت ظاهر العمر في موقع اقوى للحصول على معاهدة سلام بشروط مناسبة ولا سيما انه كان راجح العقل : فقد احتفى احتفاء تاماً بابني ناصيف وانزلهما مكرمين معززين في جناح خاص من قصره . وكتب ابنا ناصيف إلى والدهما يصفان ما لقياه من اكرام ظاهر العمر ومروءته . ومع ذلك طلبا اليه تجهيز حملة لتخليصهما من الأسر . فارسل اليهما كتاباً يعاهدهما على ذلك ويتوعد ظاهر العمر ويتهدده . فاعادا الكتاب إلى والدهما بعد أن كتبا عليه :

كتب الزمان عجائباً في جبهة الأيام سطرا
هلا سمعتم أو رأيتم ان نهراً صد بحراً

وكان ظاهر واقفاً على هذه المراسلات فدعا بالغلامين وسرحهما الى ابيهما مكرمين بعد ان اهداهما جوادين من خيرة خيوله .

ثم توسط الأمر بين العميدين الشيخ سعد أخو ظاهر العمر فتصالحا وتصافيا وعقدا محالفة هجوم ودفاع وقعت في عكا يوم الجمعة الواقع في اليوم الثامن من رجب ١١٨١ / ١٧٦٧ وحلفا اليمين على السيف والمصحف ان يكونا وشعباهما متصافيين متضامنين ما دامت الأرض والسماء وأعيدت البصة ومارون إلى ناصيف وبنى بالقرب من الأولى خاناً يعرف للآن بخان ناصيف[2] ويذكر الصباغ بعضاً من تفاصيل المعاهدة اضافة إلى عودة القريتين (البصة ومارون) إلى ناصيف فيقول : انه لا يكون للباشا شأن مع جميع المتاولة في دفع مال الميري وعلى أن يساعدهم ظاهر على كل من ناوأهم كما عليهم ان يساعدوه على من يهاجمه أي تحالفوا معه محالفة هجومية دفاعية . وعقد الصلح بين الطرفين على ذلك . وأسقط ظاهر لناصيف من مال الميري المقرر على بلاد بشارة الربع .

وجدد له ناصيف اليمين على السيف والمصحف وان يكون هو وقومه معه يداً واحدة ففرح المتاولة بذلك لأن الباشا كان يكرههم للدين ويعدهم من الروافض[3].

وبدأ الرجلان معاً مسيرة صعبة في مواجهة الأعداء المشتركين وقد كانا بأمس الحاجة إلى هذا التحالف لأسباب داخلية وخارجية على حد سواء .

ناصيف النصار والثورة على العثمانيين
معركة الحولة - البحرة .

كان لتحالف الشيخ ناصيف مع ظاهر العمر أبلغ الأثر في تقوية وضعه الداخلي والخارجي على حد سواء وقد وصف أحد مؤرخي هذه الفترة الوضع في جبل عامل في ١١٨٣ / ١٧٦٩ بما نصه : « كان أكبر مشايخ بني متوال وأقواهم في المال والرجال الشيخ ناصيف النصار وكان تحت يده حصون وقلع وبلدان وضيع يركبون فداوية وفرسان وأبطال شجعان وقد راق لهم الزمان وتملكوا في تلك البلدان وهجعت عنهم حكام الدروز واستكنت ورقت حالهم واطمأنت »[4] .

وكانت ظروف الدولة العثمانية تسمح بازدياد تطلعات الشيخ ناصيف الاستقلالية : اذ كانت في هذه الأثناء واقعة في مرض الضعف الطبيعي الذي لا ينفع معه دواء ولا له شفاء وذلك ان السلطان كان يقيم بسرايه ويترك الحكم لوزرائه ونسائه وخدامه[5] فكان من الطبيعي ان تصبح هذه الدولة عرضة لمطامع جيرانها خارجياً وعمالها داخلياً .

وكانت روسيا في مقدمة الدول الطامعة باملاك الدولة العثمانية . وهكذا أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وأصبح على الأستانة ان تواجه الخطر الداهم من الشمال دون أن توفق . ثم ما لبث روسيا ان طورت أساليب هجومها وأخذ اسطولها يضرب موانىء الدولة العثمانية في شرق البحر المتوسط كما أخذت تغري بعض عمال الدولة بالثورة عليها من مثل علي بك الكبير في مصر ١٧٦٨[6] .

وكان ظاهر العمر قد اشتد أزره بمحالفته لزعماء الشيعة واعتز جانب الشيعيين وطمحت نفوس الفريقين للاستقلال الناجز فخلعوا نير السلطنة التركية وأبوا دفع الضرائب[7] . وأفلت الزمام من يد السلطان وأطلق الولاة لأنفسهم العنان فعمت الرشوة وانتشر الفساد في الحكم فثارت سوريا كلها تقريباً على الدولة العثمانية[8] .

خافت الدولة العثمانية مغبة التحالف بين ظاهر العمر وناصيف النصار خاصة وان هذا التحالف كان مسبوقاً بتحالف بين ظاهر العمر وعلي بك الكبير حاكم مصر فانتدبت عثمان باشا الصادق والي الشام يعاونه والي صيدا على رأس ثلاثين ألف مقاتل لأخضاع جبل عامل وبلاد فلسطين وهدم سلطة

(١) ن . م .
(٢) محمد جابر .

(٣) ميخائيل الصباغ .
(٤) لبنان في عهد الأمراء .
(٥) تاريخ الجزار .
(٦) يوسف الدبس .
(٧) محمد جابر .
(٨) تاريخ الجزار .

المتاولة وظاهر العمر .

وهنا يختلط التاريخ بالأسطورة والوقائع العسكرية بالعقائد الأيمانية . فقد اجمعت المصادر على الاشادة ببطولة العامليين في المواجهة التي حصلت مع جيش السلطنة . وبالفعل « فقد عسكر الشيخ ناصيف بجنوده في جوار النبي يوشع الواقع في الشرق الجنوبي من جبل عامل . وعقد مشايخ الشيعة ديوان مشورة ورتبوا خطة بالهجوم . وتضرعوا إلى الله ان ينصرهم على العدو الباغي .

وكان مقام النبي يوشع بناية حقيرة فقطع الشيخ ناصيف عهداً على نفسه ان يبني المقام بناء فخماً اذا ظفر بالعدو . ثم كنس المقام بعمامته تواضعاً وتبركاً . ولما احرز النصر بناه كما وعد ورفع فوق الضريح قبة شامخة وفي هذا يقول الشيخ ابراهيم يحيى العاملي في قصيدة أوردها صاحب أعيان الشيعة :

مقام شريف أطلع اليوم شمسه
خليفة نصار المؤيد بالنصر
فلذ بحماه طالباً للذي بني
من الله طول العمر مع وافر الأجر
وقل عند اهداء السلام مؤرخاً
عليك سلام الله يا ثاوي القبر

وانتدب ناصيف النصار فرقة من أبسل جنوده وأوفرها شجاعةً لا تزيد عن خمسمائة فارس فبيتت للعدو وزحفت اليه ليلاً فأحاطت به من جهات ثلاث وأعملت فيه السيف ولم ينج من القتل إلا من القى نفسه في البحيرة ولم يقتل من المهاجمين جندي واحد. وفر الوالي عثمان باشا منهزماً لا يلوي على شيء [1].

وينقل محمد جابر آل صفا عن استاذه السيد محمد علي ابراهيم الحسيني نادرة لطيفة حدثت خلال هذه المعركة « تدل على ما لسلامة الاعتقاد من التأثير » وهي انه لما بدأ ناصيف بالزحف برجاله ليلاً بعد الصلاة والدعاء شاهدوا ظبياً يقفز امامهم بين تلك الروابي وخلفه رجل معمم ينشد أبياتاً اولها :

أيحل لساكنة العلم
تفتي في الحب بسفك دمي

وسرى الخبر بين المهاجمين ونشطهم رؤساؤهم ان الله سبحانه وتعالى قد استجاب دعاءهم ببركة النبي يوشع وأن روحه الشريفة تجسدت هذا الغزال اللطيف وأن الفوز بجانبهم وكان ما أملوا ».

كما ينقل المؤرخ نفسه عن الأمير حيدر الشهابي انه كتب في تاريخه : ان ابطال المتاولة بعد تلك الكسرة الهائلة شاهدوا درويش باشا والي صيدا وهو ابن عثمان باشا والي الشام فخاف على نفسه وكان جباناً ففر منها [2].

وفي معركة البحيرة نظم شعراء جبل عامل قصائد وزجليات نكتفي بذكر أبيات من قصيدة للشيخ ابراهيم الحاريصي :

أكرم بالخيل اذا وفدت
اذ ذاك بناصيف البطل
بحر يحبوك بلجته
والبحر ضنين بالوشل

(١) محمد جابر.
(٢) ن . م.

سل يوم البحرة ما فعلت
كفاه بفرسان الدول . .

وقد أجمع المؤرخون العامليون على اعتبار هذه المعركة معركة عاملية خالصة . واستند هؤلاء في ذلك إلى مؤشرات عدة أبرزها ان عثمان باشا كان يقصد بحملته بلاد المتاولة لأنه عندما اجتاز بعساكره جسر بنات يعقوب جنوب الحولة لم ينحرف بهم نحو بلاد ظاهر العمر في صفد وطبريا بل انحرف بالعسكر إلى شمال الجسر حيث نزل بهم على حدود بلاد المتاولة بين بحيرة الحولة وبين الجبال العاملية المطلة على البحرة وما حولها من سهل الخيط وسهل الخالصة [3] .

يضاف الى هذا أن العامليين جميعاً هم وحدهم الذين واجهوا جيش الوالي العثماني فقد اشترك في هذه المعركة الشيخ حمزة المحمد والشيخ حمد العباس والشيخ علي الفارس الصعبي تحت قيادة ناصيف النصار [4] .

وقد ترتب على هذه المعركة نتائج مهمة . فقد كان انتصار العامليين البارز عاملاً حاسماً في ازدياد ثقتهم بأنفسهم وأصبحوا يتطلعون إلى أبعد من الدفاع عن أنفسهم بل أخذوا بالتوجه نحو صيدا لتحريرها من نير الوالي العثماني .

وبالفعل فإن درويش باشا والي صيدا هرب إلى الشام بعد هزيمة والده في الحولة [5].

أما النتيجة الثانية لهذه المعركة فهي اندلاع الصراع في مصر بين علي بك وأبي الذهب الذي ادعى انه تراجع عن دمشق بسبب تخاذل ظاهر وناصيف في القتال . فجاءت نتائج هذه المعركة لتفضح تآمر ابي الذهب وأرسل علي بك حملة للقضاء عليه .

وأخيراً كان من أهم نتائج هذه المعركة فيما يخص جبل عامل زيادة خوف الدولة العثمانية من هذه الزعامات القادرة القوية فزادت من ضغوطها على الأمير يوسف الشهابي لقتال العامليين . فكانت معركة كفر رمان بينه وبين العامليين بعد خمسين يوماً من معركة الحولة .

معركة كفر رمان

تعامل بعض المؤرخين العامليين مع معركة كفر رمان وكأنها معركة مستقلة بذاتها غير مرتبطة بمعركة الحولة ـ البحرة التي سبقتها ولا بالنتائج التي أسفرت عنها تلك المعركة .

وذهب بعض هؤلاء إلى أن سبب المعركة الحقيقي ان مكاريين من قرية كفر رمان مرا بعنب لهما بقرية نيحا الشوف فاعتدى عليهما بين الكروم بعض اهالي نيحا وسلبوهما وضربوهما ضرباً أليماً قضى على حياتهما . فشكا أهل القتيلين أمرهما إلى الشيخ علي بن أحمد الفارس عميد آل صعب وحاكم المقاطعة وكان مقيماً في قلعة الشقيف . فكتب إلى الأمير يوسف الشهابي حاكم جبل لبنان يومئذ يطلب منه ارسال المعتدين لمحاكمتهم وذكر له اسماءهم . فكتب اليه الشهابي بعدم امكان القبض على الجناة وعرض عليه دية القتيلين توزع على أهالي نيحا . وأصر الصعبي على طلبه وكتب للأمير يوسف كتاباً شديد اللهجة قائلاً : ان الشيعة لم تعتد بيع دماء ابنائها بمال ونحن نعرف كيف نثأر لبني قومنا . واقتحم بعض الشيعيين قرية نيحا فقتلوا أربعة من اهلهابين الكروم في المكان الذي ضرب فيه الرجلان الشيعيان .

(٣) الزين.
(٤) العرفان.
(٥) لبنان في عهد الأمراء.

« واتصل الأمر بالأمير يوسف فاحتدم غيظاً وكان الحقد يغلي في صدره لأرتفاع شأن الشيعة واستفحال أمرهم وتطاولهم على أطراف الشوف ووادي التيم وانذارهم لدرويش باشا والي صيدا منذ انتصارهم في معركة البحرة وهزيمة عثمان باشا التي تلكأ الأمير يوسف عن نصرته فيها . فزحف الأمير يوسف لأكتساح جبل عامل بجيش كثيف يزيد على أربعين الف مقاتل مؤلف من طوائف شتى كما ثبت من تقارير القناصل . ولما دخلوا البلاد من جهة صيدا بدأوا يحرقون القرى ويدمرون المزارع ويقطعون الأشجار ويقتلون من يقع في أيديهم من السكان الآمنين ولا يعفون عن شيوخ ولا صبية ولا نساء [١] .

والواقع ان هذه الحادثة على أهميتها لم تكن سبب الحرب بقدر ما كانت شرارتها الأولى . اذ من الثابت ان ناصيف النصار وحليفه ظاهر العمر قد اتفقا على خلع نير الدولة العثمانية عن كاهلهما . وقد كان لأنتصار الشيخ ناصيف في معركة الحولة أكبر الأثر في دفع عثمان باشا والي دمشق للأمير يوسف الشهابي لقتال الشيخ ناصيف النصار . يضاف الى ذلك ان ناصيفاً نبذ طاعة درويش باشا والي صيدا بعد معركة الحولة وأرسل يهدده طالباً اليه ترك المدينة «فراعه قرب المتاولة منه وفر لدمشق » [٢] لهذه الأسباب، أرسل عثمان باشا ينخي الأمير يوسف على بني متوال » [٣] .

ومن ناحية اخرى فقد كان الأمير يوسف نفسه يرغب في قتال المتاولة الذين أظهروا الشحناء للأمير بسبب توليه مكان عمه الأمير منصور لأنهم كانوا يميلون اليه . وكان اكثرهم هياجاً الصغيرية والصعبية [٤] .

واذا كانت الأمور مرهونة بنتائجها فإن هذه المعركة تبدو وكأنها جزء من خطة مسبقة لتحرير صيدا من النير العثماني من قبل الشيخ ناصيف كما يبدو أن الأمير يوسف كان في حملته في موقع الهجوم الدفاعي .

لهذه الأسباب جميعاً كان لا بد لمعركة كفر رمان ان تقع وكان مقتل « المكاريين » شرارتها الأولى . وكما سبق وأشرنا هجم الأمير يوسف متبعاً في هجومه سياسة « الأرض المحروقة »« وكتب الشيخ علي الفارس الى الشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ جبل عامل يبسط له القضية ويستنجده للدفاع عن البلاد وحماية الطائفة . فهب ناصيف للنجدة وأرسل (الصوات) لجمع الجنود وكتب إلى حليفه الشيخ ظاهر العمر الزيداني صاحب فلسطين يطلب النجدة . . . كان جيش الأمير يوسف يسير في اربع فرق : الفرقة الأولى وهي المقدمة وفيها الأمير يوسف في أول الجيش . الفرقة الثانية وهي الجناح الأيمن كانت تسير في طريق جباع - حومين حبوش - النبطية . الفرقة الثالثة وهي الجناح الأيسر كانت تسير في طريق العرقوب - الميذنة - الجرمق - كفرتبنيت - النبطية .

وأخيراً الفرقة الرابعة وهي القلب كانت تسير في طريق جرجوع - عربصاليم - النبطية .

وكانت قوى الشيخ علي الفارس وأخيه الشيخ حيدر الفارس تعسكر في الضاحية الشرقية الشمالية من النبطية في أرض تسمى (قلادش) ودعيت بعد المعركة « عريض القهوة » لأن جيش الشيعة شرب فيها قهوة النصر والظفر .

قاوم الصعبيون جحافل الأمير يوسف مقاومة شرسة وكان جيش الشيخ ناصيف المؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل يتجه نحو النبطية من طريق زبدين

(١) محمد جابر.
(٢) المقتطف.
(٣) لبنان في عهد الأمراء.
(٤) اخبار الأعيان .

ودخل البلدة من الجهة الغربية ليدهم مقدمة الجيش المخيمة غربي البلدة وسار بخيله إلى ساحة العراك وهجم هجوم المستميت ولم يلبث العدو ان لوى عنانه متقهقراً إلى كفرمان .

لم يثبت في وجه الشيخ ناصيف سوى بعض الفرق بقيادة المشايخ النكديين وهجم الشيعيون بالسلاح الأبيض فانهزم الجيش كله انهزاماً تاماً يصعدون في جبل العرقوب وروابي سجد المطلة على سهل الميذنة وعقبة جرجوع وحراب الشيعة تعمل في اقفيتهم . . . ويقول المؤرخ العاملي الشيخ علي رضا ان الشيخ ناصيف النصار تعقب بنفسه الأمير يوسف الشهابي فأدركه في عقبة جرجوع فقنع رأسه بالرمح وأنزله عن ظهر بغلته إلى الأرض وألبسه الفرو مقلوباً وقال له عفوت عنك رأفة بشبابك واحتراماً لأسرتك وأنا ابن نصار ! فأجابه الأمير يوسف : « قدها اولاد ام علي » . اي انكم أهل للعفو . و « اولاد أم علي » لقب يطلق على الشيعة وكانوا يفخرون به » [٥] .

وقد اختلف المؤرخون في تقدير عدد القتلى فذكر بعضهم انه حوالي الف وخمسماية قتيل [٦] . اما مؤرخو جبل عامل فذكروا أن جيش الأمير يوسف ترك في ساحة المعركة ما يزيد على ثلاثة آلاف قتيل [٧] .

وكما اختلفوا في تقدير عدد القتلى اختلفوا في الأسباب التي أدت إلى هزيمة الأمير يوسف على الرغم من تفوق جيشه من الناحية العددية تفوقاً لا يقبل الشك . فأشار البعض إلى ان جماعة الشيخ علي جنبلاط خذلوا الأمير يوسف نتيجة تحالفهم السابق مع الشيخ ناصيف فقد تخلى هؤلاء عن الأمير يوسف مع بدء المعركة « ولما انفصلوا عن العسكر تقلقلت الصفوف » [٨] . وكذلك فعل الشيخ عبد السلام العماد « الذي راسل المتاولة سراً »[٩] ان يقدموا على الأمير يوسف وانه متى وقعت الواقعة ينكسر قدامهم فيتبعه العسكر وهكذا كان .

أما أدوار لاكروا فيذكر ان طليعة جيش الأمير يوسف كانت تنحدر بسرعة في أكمة فإذا بها أمام خمسماية أو ستمائة خيال متوالياً لأن المتاولة احتدموا غيظاً لنهب قراهم فحملوا على الدروز حملة شعواء فارتدت طليعة جيش الأمير يوسف تتسلق الأكمة التي نزلت منها والحراب تعمل في أقفيتها .

ولما وصلت إلى القمة التقت بالجيش (جيش الأمير) وهذا رآها تصل بكل سرعة فظنها العدو . . . بدأ هو بالركض فكان الانكسار هائلاً [١٠]

ويبدو أن التعبئة العاملية لهذه المعركة كانت عامة وشاملة فقد ساهمت المرأة العاملية فيها بشكل أو بآخر ، فقد كانت الفتيات تمد عسكر الشيعة بالماء والزاد وتسير زرافات من فرقة إلى فرقة تثير نخوة المقاتلة وحميتهم بالزغاريد والأغاني الحماسية كقولهن :

وين راحوا أولاد أم علي ، وين سياج العذارى، وين بني متوال يا عز الرجال »[١١] .

وكذلك ألهمت هذه المعركة عدداً كبيراً من الشعراء والزجالين قصائد طويلة ومن أبرز من أشار إلى هذه المعركة الزجال الفلسطيني « شناعة بن مريح » ح. شعراء ظاهر العمر :

(٥) محمد جابر.
(٦) عيسى المعلوف.
(٧) محمد جابر.
(٨) اخبار الأعيان .
(٩) الزين.
(١٠) تاريخ الجزار .
(١١) محمد جابر.

وين مير الشوف يوسف يوم صال
من عرب صالين على الوادي نزل
في عساكر عدها تسعون الف
أو تزيد عداد خوفاً ان نزل
قادها من حمص لديرة حما
لقرايا الشام صواتو وصل
من أرض بيروت للشوف العريض
من بلاد جبيل كم فارس وصل . . .
وانتخى علي لناصيف يقول
ان هذا الأمر ما عاد ينهمل
ما يخش المير ديرتنا حرام
لو نبت من فوق راياته نخل
لبني متوال ظهر العاديات
من متون الخيل يمضون الصقال
قادها ناصيف كساب الثنا
وافترعها قبل ان جازت فحل
سيفهم ناصيف يا نعم العقيد
شاهراً للسيف في ايدو يفل . . .
صاح مير الشوف هاتولي الحصان
عن عظم ما صار جابولو بغل
وين مير الشوف يوسف وين راح
الذي للحرب راكبلو نغل
يحسبون الحرب هي شلة حرير
ويش يجيب الحرب لغزل الشلل [1] .

تحرير صيدا

بعد هزيمة الأمير يوسف في كفر رمان خاف درويش باشا والي صيدا والشيخ علي جنبلاط « فنزعا بعسكريهما وقاد الواحد حريمه والآخر جيوشه لكن الدروز قبل براحهم للمدينة نهبوها ثم جاءها رجال ظاهر بقيادة المغربي دعنزلي . . فأعادوا نهبها » [٢] .

وان لم تكن هذه الأشارة تشير إلى دور العامليين في احتلال صيدا فإن المؤرخ الشهابي اوضح دورهم بقوله : ان عثمان باشا الكرجي والي الشام حين بلغه ما أظهر المتاولة من العصاوة أعرب إلى الدولة عن تملكهم صيدا [٣] .

الركيني اكد بدوره اشتراكهم اذ ذكر صراحة انه في خامس عشر رجب ١١٨٥ /١٧٧١ وصل الشيخ ظاهر العمر والشيخ ناصيف الى صيدا ونهبوها وأحرقوا اقليم الخروب أجمع وأمروا الغزان يقيموا فيها (أي صيدا) [٤] .

كان تحرير صيدا وطرد واليها عبارة عن مرحلة جديدة من تصعيد ظاهر وناصيف لثورتهم على الدولة العثمانية وتحدياً مباشراً لها .

ولما كانت الدولة منشغلة في حربها مع روسيا لم تستطع أن تعالج أمرها بقواتها الرسمية لذلك فإنها أوعزت إلى الأمير يوسف القيام بهذه المهمة وحضر منها « خط شريف إلى الأمير يوسف في القيام إلى الشيخ ظاهر العمر والمتاولة . . وإن تكون ميري مدينة بيروت ومال ميري الجبل تلك السنة له خرج عسكر » [٥] .

وعلم الثوار بهذا الأمر فسار ظاهر بعسكره وجرد ناصيف ومعه مشايخ جبل عامل والتقوا جميعاً في رأس العين في ٦ شعبان ١١٨٥ /١٧٧١ وفي هذه الأثناء توفي عثمان باشا صادق وخلفه محمد باشا العظم في دمشق فقعد الأمير عن القتال وتراجع ظاهر وناصيف . ثم أرسل عثمان باشا المصري الدالي خليل والجزار ومعهم ألف خيال ومدافع والتقاهم الأمير إلى « عين السوق » وحاصروا صيدا بنحو ٢٠ ألفاً .

وفي هذه الأثناء كان أبو الذهب يحسم نزاعه مع علي بك الكبير في مصر لصالحه فوصل علي بك عند ظاهر العمر ومن ثم طلبا المساعدة من الأسطول الروسي لفك الحصار .

واتجه الأسطول الروسي الى صيدا بينما اتجه ظاهر ومعه ثمانماية من المماليك وألف من المغاربة من رجال علي بك الكبير إلى الحولة ثم إلى بلاد الشقيف حيث التقوا ناصيفاً وساروا بعشرة آلاف نحو صيدا .

وطلب الثوار من يوسف التراجع سلماً فرفض عندها زحفوا إلى سهل الصباغ ونظموا قواتهم فكان جناحهم الأيمن مؤلفاً من رجال ناصيف والمغاربة وكان عليهم صد الدروز وجعل الجناح الأيسر الذي بقيادة علي ابن الشيخ ظاهر العمر مقابل العقال . . . وكان في الوسط العثماني مئة مملوك ووراءهم علي بك والشيخ ظاهر » [٦] .

وضربت السفن الروسية قنابلها فانسحب المحاصرون إلى «سهل الغازية » فضربوا عساكر المتاولة والغز في المدافع والزنبركات وراح منهم مئة قتيل وهجم الدالي خليل والجزار على المتاولة فانكسر عسكر الدروز من خلف الدولة [٧] .

لأن هؤلاء لم يكن تأييدهم للأتراك عن رغبة كبيرة أو نفس طيبة كما يؤكد المؤرخ الشهابي نفسه .

وانهزم الوزراء وتبعهم الآخرون وقتل من الدروز فوق ألف وخمسماية رجل وكان الوجه « للبشارية (سكان بلاد بشارة) والشيخ ظاهر والغز وأخذوا مدافع الدروز والدولة والدالي خليل وغنموا منهم غنيمة عظيمة [٨] .

وهكذا انتهت المعركة لصالح الثوار بعد أن فكوا الحصار عن صيدا الذي استمر ٧ أيام وبقيت صيدا في أيديهم حتى ١٧٧٥ حين قتل ظاهر العمر وجاءها الجزار والياً .

عاد ظاهر وناصيف من صيدا لحصار يافا التي وقفت في وجه علي بك الكبير أثناء هروبه من مصر وفي مطلع ربيع الأخر سنة ١١٨٦/١٧٧٢ سار الشيخ حمد العباس والشيخ ابو حمد المحمود النصار أخو ناصيف بصحبة ظاهر وعلي بك الكبير لحصار يافا ومكثوا هناك شهراً ونصف الشهر [٩] . وما لبث ان بدأ العامليون يعودون إلى جبلهم لأنهم لم يكونوا معتادين الحصارات فكانوا يركبون خيولهم كل وقت ويعودون إلى منازلهم ولم يكن يرجع أحد منهم للحرب إلا بتعب شديد .

ولما أتى وقت الحصار استحال منعهم عن السفر زرافات . لذلك لم يكن الجيش على أتمه قط . بل كان يتناقص إلى ثلاثة أرباعه وطوراً إلى نصفه . . أما المماليك فكانوا بلا فائدة تقريباً [١٠] .

---

(١) ن . م .
(٢) تاريخ الجزار .
(٣) لبنان في عهد الأمراء.
(٤) العرفان .

(٥) لبنان في عهد الأمراء .
(٦) فولني . ((٧) لبنان في عهد الأمراء . (٨) العرفان .
(٩) ن . م . (١٠) تاريخ الجزار.

واستمر الحصار اربعين يوماً سقطت بعده يافا في شباط ١٧٧٢ في قبضة ظاهر بمؤازرة المراكب الروسية . اما علي بك الكبير فقد عاوده حلمه بالعودة إلى مصر فاتجه اليها من يافا بثلاثة آلاف رجل لكن نهايته كانت في هذه الحملة اذ قتله أبو الذهب في معركة الصالحية قرب القاهرة[1] .

ولعل فيما ذكر من تفاصيل حصار يافا ما يلقي ضوءاً جديداً على دور ناصيف وقواته في أحداث تلك الفترة. فعندما كان العامليون يتركون الحصار احياناً ويعودون إلى بلدهم كان يتناقص الجيش إلى ثلاثة أرباعه وأحياناً إلى نصفه وفي هذا دليل على أن قوة ناصيف كانت دائماً تعادل قوة ظاهر . كما ان في استمرار الحصار بدون العامليين أربعين يوماً يعطي صورة عن مدى فعالية العامليين في المعارك الأخرى التي لم ينسحبوا منها .

ناصيف النصار وأحمد باشا الجزار

على الرغم من صدور فرمان سلطاني بالعفو عن ظاهر وناصيف[2] فإن الدولة العثمانية كانت تعمل على الخلاص من كل من تمرد عليها اثناء حربها مع روسيا وهكذا فإن النهاية المأساوية لظاهر العمر حيث قتل غدراً بيد أحد جنوده أثناء محاولته الهرب واللجوء إلى جبل عامل من القوى العثمانية التي حاصرت عكا[3] ان هذه النهاية ترسم المستقبل الصعب الذي كان على ناصيف النصار أن يواجهه فيما بعد .

لسيد جبل عامل الشيخ ناصيف في علاقته مع الطاغية القادم من الجنوب أعني بذلك أحمد باشا الجزار والي عكا الجديد .

ناصيف النصار والجزار
(مرحلة التناصر أو الائتلاف)

كانت سياسة الجزار تقوم على المبدأ الأساسي الذي يطبقه كل طامع ومستعمر وهو فرق تسد ! ولم يحد الجزار عن هذه السياسة وكانت خطته تقضي بتشتت الخصوم وإثارة التنافس فيما بينهم ومساعدة الواحد منهم على الآخر تمهيداً للقضاء عليهم جميعاً .

لذلك قد لا نعجب اذا كانت الظروف قد اجبرت الشيخ ناصيف على ان يكون حليفاً للجزار على الأقل في المرحلة الأولى من حكم هذا الطاغية .

ومما لا شك فيه ان هناك عوامل عديدة دفعت الجزار إلى ممالأة الشيخ ناصيف في بداية الأمر فقد عملت الغزوات المتكررة التي تعرض لها جبل عامل على جعل العامليين يهتمون بتحصين جبلهم للوقوف في وجه الطغاة من هنا كان اهتمامهم بتحصين القلاع وتمتين الحصون كالشقيف وميس وهونين وتبنين ومارون ودوبيه . . . وكانت هذه القلاع تستدعي قوة عسكرية كبيرة لاحتلالها وهذا ما لم يكن متوفراً للجزار في بداية عهده على الأقل .

يضاف إلى هذا طبيعة نظام الحكم الذي كان أقامه ناصيف النصار في جبل عامل والذي كان يعتمد على شكل من أشكال اللامركزية السياسية خلافاً لما كان عليه الامر في جبل لبنان . ففي جبل لبنان كانت دير القمر تشكل العاصمة المركزية حتى اذا سقطت هذه العاصمة سيطر الفاتح على كل جبل لبنان . أما في جبل عامل فإن السلطة السياسية كانت موزعة على عدد من المراكز أبرزها تبنين ، جبع ، هونين ، الشقيف وسواها من المراكز المهمة . وكان هذا التوزيع يعيق عملية اجتياح الجبل .

وربما كان السبب الأبرز ان مبادرة الثورة على الدولة العثمانية كانت من قبل ظاهر العمر وعلي بك الكبير وأن ناصيفاً رأى فيها فرصة مناسبة فشارك فيها .

لم يكن بامكان ناصيف النصار التفلت من سياسة الجزار الجديدة .

ولكن بالمقابل لم يستطع الجزار ايقاعه مبكراً في حبائله . شأنه مع الأمير يوسف الشهابي وأولاد ظاهر العمر لأن ركيزة ناصيف في جبل عامل ومتانة وضعه العسكري والسياسي جعله يصمد فترة قصيرة بالقياس الزمني وطويلة بالمقياس السياسي أمام خطة الجزار . فكانت العلاقات تتقلب لفترة في المواقف المتدرجة في حدتها من الأئتلاف إلى الفتور فالأختلاف والتصادم الذي يقود إلى الاستشهاد .

ومن يدرس طبيعة الأوضاع في تلك المرحلة يلاحظ أن الجزار لم يؤخر صدامه مع الشيخ ناصيف إلا لأنه كان مضطراً أو مكرهاً على ذلك بسبب القوة الذاتية التي امتلكها ناصيف النصار .

فأطراف التجمع العاملي كانوا وحدة متماسكة وقد زاد من تماسكهم تحسبهم لأحداث ستطرأ على المنطقة من قبل الجزار .

كما كان لحكمة الشيخ ناصيف اكبر الأثر في الحرص على تماسك هذه الوحدة حفاظاً على ابقاء الجبل خارج دائرة أطماع الجزار أطول مدة ممكنة .

وليس أدل على قوة ناصيف من محاولة بعض الأمراء الشهابيين ومشايخ الشوف اللجوء اليه خلال نزاعهم مع الأمير يوسف الشهابي . ففي سنة ١٧٧٦ كان حسن باشا ـ قائد الحملة التي قضت على ظاهر العمر ـ والجزار من بعده يلح بمطالبة الأمير يوسف عما تأخر عليه من أموال الميري خلال فترة ولاية ظاهر العمر على صيدا . فوقع الأمير بعجز مالي عالجه بمصادرة أملاك بعض الأمراء الشهابيين . ففر هؤلاء إلى الأمير اسماعيل الشهابي في حاصبيا . وقد استطاع هذا تسوية الأمور وإقناع الأمراء بالعودة إلى دير القمر باستثناء الأمير سيد أحمد وأفندي اللذين « بقيا ثائرين على أخيهما وجعلا يحزبان الأحزاب ويستميلان اليهما ناصيف النصار كبير المتاولة »[4].

وتبدو قوة ناصيف أكبر فيما لو عرف ان استرضاء الأمير يوسف لأخويه في حينه وإعادة املاكهما اليهما يعود ببعض جوانبه إلى خشية الأمير يوسف من الأصطدام بناصيف [5].

وفي سنة ١٧٨٠ جعل الأمير يوسف ينتقم من النكديين ويلحق القهر بهم وخاصة « بالشيخ كليب ففر من دير القمر وأولاده وخواصه هارباً إلى جبل عامل وأقام عند الشيخ ناصيف النصار »[6] . ومكث في جبل عامل فترة طويلة حتى ١٧٨٢ .

من كل ما تقدم نلاحظ حرص الأمير يوسف على عدم التورط في نزاع حقيقي مع ناصيف النصار على الرغم من حرص الشيخ ناصيف على الاستمرار بعلاقة طيبة مع بعض اعيان الشوف . لا سيما مع الذين عرفوا بمناهضتهم للأمير يوسف . وقد تجلى هذا الأمر حتى بالمناسبات الأجتماعية ففي ذي القعدة ١١٩١ / ١٧٧٧ حضر الأمير عثمان بن سليمان باشا الشهابي إلى قلعة مارون وعزى بالشيخ اسعد بن محمد النصار الذي كان قد توفي في يوم الجمعة ١٣ شوال من السنة نفسها .

وفي ٢١ شعبان ١١٩٢ / ١٧٧٨ ذهب جميع مشايخ جبل عامل إلى بلاد الدروز للتعزية بالشيخ علي جنبلاط الذي كان قد توفي في ١٨ شعبان . وفي ذي القعدة من السنة نفسها ذهب عقيل بن ناصيف إلى عند أولاد علي جنبلاط [7].

(١) العرفان.
(٢) لبنان في عهد الامراء.
(٣) تاريخ ظاهر العمر.

(٤) لبنان في عهد الامراء (٥) اخبار الاعيان .
(٦) ن . م . (٧) العرفان

وما هذه الاشارات إلا دليلاً على مدى الأستقرار والطمأنينة التي كان يتمتع بها العامليون .

ويبدو استقرار العامليين وقوتهم واستقلالهم النسبي من طبيعة علاقات ناصيف الخاصة مع آل الحرفوش (شيعة بعلبك) اذ ان أحد امرائهم محمد الحرفوش حضر إلى جبل عامل في أول رمضان ١١٩٣/ ١٧٧٩ وسكن لدى آل الصغير في بلدة شحور العاملية . ثم تطورت هذه العلاقات لتزداد عمقاً وتصل إلى حد التحالف.

وقد عبر الركيني عن ذلك بقوله : في محرم ١١٩٥/ ١٧٨٠ صارت الجمعية بين الشيخ ناصيف والأمير محمد الحرفوش في الطيبة . وركبت خيل الشيخ ناصيف مع الأمير محمد الحرفوش إلى بلاد بعلبك (١) .

وكان ناصيف ككل قائد مجرب يعلم ان الهجوم خير وسيلة للدفاع . وكانت امارة جبل عامل ككل الأمارات في تلك الأيام تعاني من مشكلة غزوات البدو . فلم يهمل الشيخ ناصيف هذا الموضوع . وعرفت تلك الفترة اغارات قام بها العامليون على بعض المناطق المجاورة بقصد الهجوم الدفاعي حيناً أو بقصد تقديم المساعدة لقبيلة على أخرى: ففي ذي القعدة ١١٩١/ ١٧٧٧ هاجم حيدر فارس مرجعيون وغنم منها عدداً من الأبقار وأسر خمسة عشر رجلاً .

وفي ١١٩٣/ ١٧٧٩ ربيع الثاني نهب ناصيف مواشي من الزركشية والتركمان وفي جمادى الأولى ١١٩٤/ ١٧٨٠ غزا حيدر الفارس عرب العزية وقتل منهم رجلاً . وفي ٢٩ رمضان ١١٩٥/ ١٧٨٠ غزا ناصيف قريتين في الحولة ونهب طرشها (٢) .

وأخيراً في ١١٩٣/ ١٧٧٩ حصل خصام بين قبائل عربان عنزة وقبيلة بني حسن (المرؤوسة بآل المزيد) فحضر آل عنزة إلى تبنين واستنجدوا بناصيف . فأرسل ناصيف أخاه أبا حمد بجيش من العامليين وسار قاصداً قبيلة آل مزيد في الجولان حتى وافى الجيدور من أعمال حوران قرب قرية الحارة حيث التقى بالعربان واشتبك معهم وانجلت المعركة عن مقتله ومقتل قاسم المراد ومئة فارس من قوات العامليين ودفن ابو حمد في مكان يعرف بنهر الرقاد (٣) .

عندما وصل الخبر إلى ناصيف زحف للثأر من آل مزيد فهربوا تاركين اولادهم ونساءهم في مضاربهم فما كان من ناصيف إلا ان « حملته الشهامة وحركه الناموس لأن أمر قومه بالأعتزال عن تحلل تلك الربوع . . . ونزل في بيت كبيرهم (فاضل المهنا) ودعا باكبر اولاده وكان دون العشر سنوات فألبسه فروأ ثميناً ثم دعى باولاد الشيوخ ذوي الوجاهة من اولئك القوم وألبس كلاً منهم ما لاق به فضجت عموم النساء والأطفال بالدعاء . . فكانت تلك مأثرة تناقلها الركبان جيلاً بعد جيل من العربان » (٤) .

وكان الشيخ ناصيف كان يدرك أن السياسة تستطيع تحقيق ما قد يعجز السلاح عن تحقيقه .

مع ذلك ، وإذا كان القول ان بعض الناس يدفعون ثمن ضعفهم صحيحاً . فالصحيح ايضاً ان بعضهم الآخر يدفع غالياً ثمن قوته . وهذا ما سيحدث لناصيف النصار الذي وان شارك في هذه الثورات إلا انه لم يبادر اليها .

(١) ن . م

(٢) ن . م . (٣) ن . م . .

(٤) العقد المنضد ويروى ان ناصيفاً بكى في هذه اللحظة لان مروءته منعته من الاقتصاص من النساء والأطفال، وبالتالي حالت بينه وبين الثأر لأخيه .

لهذه الأسباب جميعاً بدأت علاقة الشيخ ناصيف بالجزار بداية طيبة في أول الأمر فقد كان الجزار « ينزل برجاله في جبل عامل (صور ورأس العين) للراحة والتزود بالمؤن ففي ١١٩٠/ ١٧٧٦ ليلة العشرين من صفر جاء الجزار إلى صور ونام عند حاكمها حمد العباس . كما نزل في السنة نفسها في ٢١ جمادى الثانية في رأس العين ونام فيها ليلة ومرة اخرى جاءها في ٧ شوال ١١٩٤/ ١٧٧٩ وقضى فيها ليلة . وكان الشيخ ناصيف يتباحث مع الجزار عند مروره أحياناً في صور ففي سنة ١١٩٠ في عشرين ربيع الأول سار ناصيف ببعض رجاله ومرافقيه إلى صور حيث قابل الجزار » (٥) .

ولكن هذا الأمر لم يدم طويلاً اذ ما أن تمكن الجزار من القضاء على ظاهر العمر حتى شعر الشيخ ناصيف بقوة الجزار المتزايدة ورأى من الحكمة أن يتقدم من طور المودة إلى مرحلة التحالف علّه يحول بين جبل عامل وبين شرب الكأس المرة لذلك فإنه ساهم بالفعل في محاربة على ظاهر إلى جانب الجزار (٦) .

ولكنه عندما رأى ان الجزار يحاول تأديب الأمير يوسف ازدادت شكوكه حول نوايا الجزار التوسعية لذلك أخذ يعد العدة لمحاربة الجزار أن هو حاول الاعتداء على العامليين .

ويروي أحد المؤرخين العامليين نادرة تبين لنا شكوك الشيخ ناصيف حول نوايا الجزار: فقد حدث ان ذهب الشيخ ناصيف مع عدد من مرافقيه لزيارة الجزار. فقال الشيخ ناصيف لهؤلاء : اذا سمعتم الجزار يقول لي انت كشعرة من شاربي فثقوا به واركنوا اليه وإن قال انت كشعرة من لحيتي فيكون قصده الغدر (٧) .

وفي الاجتماع قال الجزار الجملة الثانية من وصية ناصيف . عندها انتهز الوفد فرصة انشغال الجزار لمدة وجيزة وركبوا وعادوا إلى بلادهم طالبين النجاة .

وبدأت العلاقات بالتوتر . وزاد من هذا التوتر ان الجزار طلب من مشايخ العامليين موافاته إلى عكا فرفضوا ذلك قائلين : « انهم يخافون أن يعاملهم كما عامل ابناء ظاهر العمر (غدر بهم بعد أن آمنهم) وما شذ عنهم إلا الشيخ قبلان الذي كان يتطوع للتوسط بين المختلفين فقدم عكا ودبر المسائل بالنيابة عن الآخرين » (٨) .

عملت ظروف عدة على تأجيل المواجهة المحتمة بين الزعيمين بسبب عوامل خارجة عن إرادة الجزار من جهة وبسبب محاولة الشيخ ناصيف تحاشيها من جهة ثانية وذلك بمناصرة الجزار في كل قضية لا تمس من وحدة العامليين ولا تهدد استقلالهم .

فقد كان محمد باشا العظيم يسيطر على وادي التيم ويتحكم بسياسة الأمير اسماعيل الشهابي وكان الجزار يتطلع إلى الأمير يوسف في الشوف ويتحكم بسياسته . لذلك كان الصدام يحتدم بين هذين الواليين على توسيع مناطق سيطرتهما . وقد وقف ناصيف مع الجزار وخاض إلى جانبه عدة معارك ضد ابن العظم .

وبالفعل فقد ذهب الشيخ ناصيف بجمع من رجاله إلى عكا ليزحف مع الجزار لقتال محمد باشا العظم (٩) .

(٥) العرفان . (٦) ن . م .

(٧) مخطوطة الظاهر.

(٨) تاريخ الجزار.

(٩) العرفان.

ولما تهدد موقع الأمير يوسف ـ حليف الجزار ـ كحاكم لبلاد الشوف لم يتردد الشيخ ناصيف في تقديم يد المساعدة للأمير . والوقائع تؤكد أن الأمير يوسف ألمح بعد عودته إلى الحكم إلى رأي ناصيف السديد في كتاب يشكره فيه على مساعدته له في العودة إلى حكم الشوف .

يضاف إلى هذا انه في محرم ١١٩٥/١٧٨٠ كان محمد الحرفوش مجتمعاً بناصيف في الطيبة ومنها اتجها إلى بعلبك وفي عشرين محرم وصل محمد الحرفوش إلى دير القمر ومنها خرج يوسف إلى صيدا ثم إلى صور حيث التقى بناصيف وكليب ابي نكد في ٢٨ محرم ومنها توجه يوسف إلى عكا عند الجزار[١] .

ولما حظي الأمير يوسف بدعم الجزار لقاء مبلغ من المال زوده بقوة من عنده وزحف مع الشيخ ناصيف وحمد العباس لأسترداد امارته . وقد أبلى الشيخ ناصيف بلاء حسناً في معاركه ضد الدروز المناوئين للأمير يوسف الذي ما أن شعر بخضوع الدروز لحكمه حتى كتب إلى الشيخ ناصيف الرسالة التالية : إلى جناب حضرة الشيخ ناصيف المؤيد الموقف المسدد ونطلب من الله العظيم وشعيب النبي الكريم ان لا يعدونا صاحب الهمة العلية والنفس الزكية الرضية ان رأيتم لائقاً من غيرنا غير مأمور على جنابكم الشريف ان تكفوا العسكر عن القتل والنهب والحريق . لأن البلاد بلادكم والرعية رعيتكم وأمر جنابكم ماض علينا في الرخاء والضيق ورفيقنا ورفيق جنابكم فرد رفيق وإن شاء الله عز شأنه الطريق فرد طريق . لأن غيرتكم ورأيكم السديد الذي بدا معنا وبذلتموه لدينا ما سبقكم عليه لا أخ ولا صديق فيجب علينا حفظه على الدوام على ممر الدهور والأيام »[٢] .

ظن ناصيف النصار ان موقعه قد تعزز عند الجزار بعد هذه الحادثة فحاول التوسط لبعض الجنبلاطيين الذين كانوا على خلاف مع الجزار فطلب هذا الطاغية مبلغاً كبيراً من المال « حتى نسمح لهم عن دمهم ونسكنهم في الموضع الذي نريده لا في الموضع الذي يختارونه هم »[٣] ولم يوفق الشيخ ناصيف في وساطته هذه . وربما كان ذلك اشارة من طاغية عكا إلى انتهاء دور الشيخ ناصيف النصار والانتقال بالتالي من مرحلة التناصر إلى مرحلة التناحر !

ناصيف النصار والجزار:
مرحلة التناحر والاستشهاد

كان الجزار مطبوعاً على الغدر، متنكراً للحلفاء لا يقيم للأخلاق وزناً في تحالفاته وعداواته لذلك عندما شعر باحكام قبضته على بعض مناطق فلسطين وأصبح الأمير يوسف الشهابي حاكم جبل لبنان العوبة بين يديه سال لعابه للسيطرة على جبل عامل والقضاء على ما كان يتمتع به من استقلال . وكان يدرك استحالة تحقيق هذا الأمر ما دام الشيخ ناصيف سيد الجبل بلا منازع . وقد عزز هذا الاعتقاد فشله المستمر بتحرشاته بقوات الشيخ ناصيف فقد « ساق عليه جنده وكر على جبل عامل الكرة بعد الكرة فلم يتسن له الفوز . وكان في كل مرة يرجع خائباً وتدور الدائرة عليه »[٤] . فلما تهاوى زعماء جبل عامل الأشداء الواحد تلو الآخر تحت ضربات السنين . فقد توفي عباس المحمد وعلي منصور المنكري سنة ١١٨٧/١٧٧٣ وعلي الفارسي الصعبي ١١٨٩ /١٧٧٥ ومحمود النصار وقاسم المراد وهما ساعدا ناصيف النصار سنة ١١٩٣/١٧٧٩[٥] وعندما تهاوى هؤلاء افتقد جبل عامل تماسكه السابق ، فهناك اشارة سريعة ومقتضبة إلى أن الشيخ حيدر الفارس حاكم بلاد الشقيف « كبس . . . اللزازات في صور ونهب طرشها في صفر ١١٩٥ /١٧٨٠ » فمثل هذه الحادثة لم تكن تحدث أيام اخيه علي الفارس . كما نقل في المخطوطات العاملية عن تواطؤ الشيخ قبلان الحسن حاكم قلعة هونين مع الجزار على ناصيف ظناً منه أن البلاد ستؤول اليه بعد ذهابه[٦] .

ولكن هذه الخلافات رغم أثرها السلبي على قوة العامليين لم تكن من الحدة بحيث تدفع فريقاً منهم للقضاء المباشر على فريق آخر . فبالرغم من هاتين الاشارتين لا يمكن الذهاب في تصور واسع لصراعهم لأنه لم ينقل بتاتاً في المخطوطات المتوافرة عن اشتراك عسكر حيدر الفارس أو عسكر قبلان الحسن مع الجزار في محاربة ناصيف في معركة يارون ١١٩٥/١٧٨٠ بل نقل انه بعد مقتل ناصيف فر قبلان إلى دمشق بعد أن سقطت قلعة هونين بيد الجزار وأن حيدر الفارس حوصر في قلعة الشقيف من قبل الجزار الذي واصل زحفه في جبل عامل[٧] .

ومهما يكن من أمر فقد قرر الجزار الاستيلاء على الجبل وقرر ناصيف الدفاع عنه مهما كان الثمن غالياً . أرسل الجزار جماعة من جنده إلى جهات علما للتحرش فهاجم جند الشيخ ناصيف الذين ما لبثوا أن انسحبوا إلى قرية الزيب حيث جرت معركة لمدة ساعتين قتل على أثرها ستة من جنود الجزار وبدأ بعدها الجزار يضاعف استبداده ويعزز جيوشه في بلاد بشارة[٨] استعداداً لمعركة تقرر نهاية ناصيف النصار .

معركة يارون الاثنين ٥ شوال ١١٩٥/١٧٨٠ :

لقد اختلفت الروايات بشأن هذه المعركة وكيفية حدوثها فمن رواية تفيد انها كانت بين فريقين مهيأين مسبقاً للقتال . إلى رواية تفيد أنها كانت بتواطؤ من قبلان على ابن عمه ناصيف . ومن رواية تزعم أن الجزار تظاهر بأنه يزحف إلى وادي التيم في حين كان يقصد مباغتة جبل عامل ، إلى رواية تزعم أن الجزار كان يقصد حاصبيا فعلاً وليس جبل عامل .

ومن ناحية ثانية فقد اختلفت الروايات في كيفية مقتل ناصيف فمن رواية تفيد أن مقتله كان برصاصة في خاصرته إلى رواية تفيد انه كان « بطبنجة » من أحد رجال الجزار ضرب ناصيفاً بها بعد أن زلت قدم جواده .

محمد جابر آل صفا يروي الحادثة كما يلي : هاجم الجزار جبل عامل بجيش كثيف في سنة ١١٩٥/١٧٨٠ من الجهة الجنوبية متظاهراً بأنه يريد اجتيازه إلى وادي التيم لتأديب العصاة . فأدرك الشيخ ناصيف قصده فأسرع لعنده بشرذمة من خيله لا تزيد عن سبعماية فارس كانت ترابط معه دائماً في حصن تبنين . وكان الشيخ ناصيف بطلاً مقداماً تعود خوض المعارك وممارسة الحروب يهزأ بالمنايا ولا يبالي بالموت . فحملته الجرأة والبسالة على منازلة ذلك الجيش اللجب بخيله القليلة ولم ينتظر وصول بقية الجنود والأعوان المرابطة في القلاع . وزلت قدم جواده على بلاطة يارون وعاجله بعض الجنود باطلاق الرصاص فخر قتيلاً وتشتت جنوده وطويت صحيفة استقلال جبل عامل بعد ناصيف وسقطت بمقتله الحكومة الأولى بحصونها وقلاعها[٩] .

الشيخ سليمان ظاهر يروي الحادثة معتمداً على الأمير حيدر الشهابي

---

(١) ن . م .
(٢) ن . م . (٣) ن . م .
(٤) محمد جابر .
(٥) العرفان .
(٦) ن . م . (٧) ن . م .
(٨) مخطوطة الظاهر .
(٩) محمد جابر .

فيذكر تصميم الجزار الاستيلاء على جبل عامل : « جهز (الجزار) لهم هذه المرة عسكراً عظيماً ولما بلغ الشيخ نصيف النصار قدوم العسكر جمع رجاله ونادى لقبائل بني متوال . فاجتمعوا اليه من القبائل الثلاث (آل الصغير - آل منكر - آل صعب) لأنه كان كبير المشايخ والجميع ينقادون اليه . وسار بتلك العساكر قاصداً عسكر الجزار حتى التقوا بهم . فهجم عليهم الجزار ونشبت بينهم الحرب وحمل في مقدمة العسكر الشيخ نصيف النصار ولم يلبث أن أصابت رأسه رصاصة فقتل . فانهزمت المتاولة وأخلت البلاد ودخل عسكر الجزار إلى بلاد بشارة وتسلموا قلعة تبنين وقلعة هونين وحاصروا قلعة شقيف ارنون وكان فيها الشيخ حيدر الفارس وبعد أيام سلم فأخذها بالأمان ثم قتلوا كل من كان فيها » [١] .

أما الشيخ علي السبيتي فيذكر انه « سنة ١١٩٥ ارسل الجزار عسكراً إلى حاصبيا (؟) فجاء إلى يارون فظن أهل بلاد بشارة ان العسكر يريدهم فحضر ناصيف وصارت وقعة قتل فيها ناصيف وخربت البلاد . وقيل ان عسكر الجزار حضر إلى البلاد بواسطة صاحب قلعة هونين وصار قتل ناصيف بواسطته وظن أن البلاد تضل (تظل) له . فلم يبق (الجزار) أحداً منهم » [٢] .

شبيب باشا الأسعد يروي بأن الجزار كان يقصد جبل عامل مباشرة ويوافق صفا في كيفية حدوث المعركة ويتابع قائلاً : جاء من جانب آخر زنجي وأطلق عليه الرمح فأصابه بجرح ثبت له فانثنى كاراً عليه وضربه بالسيف وقتله فجاءه ثلاثة فوارس فأراد أن يميل عنان جواده نحوهم فزلت نعال جواده على بلاطة . . . فسقطا معاً هو والجواد فحمل اولئك عليه وأطلق أحدهم الطبنجة فأصابته وطعنه الآخر في صدره فغودر عند ذلك قتيلاً ودفن بجانب قرية يارون » [٣] .

الشيخ محمد تقي الفقيه يقول : « استشهد ناصيف في يارون على بلاطة واسعة تعرف اليوم باسمه والظاهر أنها سطح صخرة ضخمة مضمورة بالأرض سطحها يساوي سطح الأرض متصلة بمقبرة يارون رأيتها بنفسي في سنة ١٩٦٣ م ورأيت فيها أثراً يشبه تزلق حافر حصان وكنت أظنه مصطنعاً . ورأيت حمرة بسيطة في نفس الصخرة يزعمون أنها بقايا لون دمه » .

ثم يروي رواية غريبة عن أحد أبناء تبنين مفادها أن ناصيفاً أراد أن يستعمل ضرباً من ضروب الفروسية فأشار إلى جواده باشارة يعرفها فارتفع به عن الأرض ووقف على رجل واحدة وأراد أن يهوي بسيفه على قرنه عند هوي الجواد فتكون الضربة مضاعفة فانزلق به جواده ووقع على الأرض فهجم عليه ثلاثة أو اكثر وتعاونوا على قتله فقتل [٤] .

من خلال جميع الروايات العاملية نلاحظ حرصاً على جعل استشهاد الشيخ ناصيف مميزاً بل واسطورياً مما يدل على مدى تعلق العامليين بشخصية الشيخ ناصيف القائد . كما يبدو لنا الشيخ ناصيف خريجاً « لمدرسة كربلاء » بما فيها من معاني القيادة والأخلاص والايمان القائد إلى الأستشهاد . وقد أرخ المرحوم الشيخ ابراهيم يحيى العاملي مقتل الشيخ ناصيف النصار بهذه الأبيات :

قتل ابن نصار فيا لله من ... مولى شهيد بالدماء مضرج

وتداولتنا بعده أيدي العدى ... من فاجر أو غادر أو أهوج

هي دولة عم البلاد الظلم في ... تاريخها الله خير مفرج [٥]

وإذا كانت نتيجة أي عمل تعتبر جزءاً لا يتجزأ منه فإن النتائج التي ترتبت على استشهاد الشيخ ناصيف وما ارتكبه الجزار من فظائع في جبل عامل تؤكد أن هدف الجزار كان جبل عامل لا سواه .

مآسي الجزار في جبل عامل

اكتسحت جنود الجزار البلاد وأحرقت القرى ودمرت المنازل . وشحن ما في مكاتب جبل عامل من التآليف والمخطوطات النادرة حيث أحرقت في عكا . وشكاه علماء البلاد إلى الأستانة ولكن حكومة الباب العالي أرسلت اليه الشكوى عيناً فانتقم من موقعيها . وأسرف رجاله في ذلك الشعب قتلاً وذبحاً وقبض على فريق من الوجهاء فأماتهم خنقاً في سجون عكا وشرد من بقي منهم إلى البلاد المجاورة . وهاجر العلماء وأهل الفضل للبلاد الاسلامية النائية كالهند والعراق وإيران والأفغان وخدموا فيها الاسلام والشيعة الامامية أجل خدمة . وفر من بقي من الحكام وأبناء العشائر إلى جبال حلب والأناضول وقصد بعضهم « عكار » فأنزلهم حاكمها علي بك الأسعد المرعبي في دار رحبة لم تزل للآن تعرف بدار العشائر . . . وللعلامة الشيخ ابراهيم يحيى العاملي وكان فيمن فر من العلماء وسكن دمشق متستراً قصيدة غراء ألمح فيها لهذه الكوارث :

من لي ببرد مواسم اللذات ... والعيش بين فتى وبين فتات

ورجوع أيام مضين بعامل ... بين الجبال الشم والهضبات . . .

إلى أن قال :

خطب دعاني للخروج عن الحمى ... فخرجت بعد تلوم وأناة

وتركته خوف الهوان وربما ... ترك النمير مخافة الهلكات

وهكذا دامت الحال سنيناً والعامليون يقاسون ضروب العسف والشقاء فحملهم ذلك على الاستبسال والاستماتة في سبيل الدفاع عن حوزتهم فثار الزعماء وأبناء العشائر وألفوا العصابات الثورية ليبدأوا مرحلة من حرب العصابات [٦] .

وقد أطنب المؤرخون في وصف مآسي الجزار التي الحقهابجبل عامل بعد مقتل زعيمه ناصيف النصار . كما أن العامليين لا يزالون يتناقلون الروايات الفظيعة حول ذلك . فقد قضى الجزارعلى الاستقلال الذاتي لجبل عامل الذي كان ينعم به في ظل مشايخه وتابع إنتقامه من العامليين بجيش مؤلف من «الأكراد والأتراك وأعمل السيف بهم واستباح أعراضهم ونهب اموالهم . . . [٧] ولا بدع فهتك العرض واغتصاب العذارى من شيم اللئام » « وصار الأمير اسماعيل يعد النساء ويأخذ عليهم خفراً كما أخذ العداد والخراج وهدمت الدولة القلع وأخذوا الأولاد والنساء » [٨]وكانوا يبيعون المرأة بعشرة مصاري [٩] وكان الرجال يساقون إلى عكا حيث ينتظرهم الموت على الخازوق[١٠]وهرب المشايخ إلى بلاد بعلبك والشيخ قبلان واخوته إلى الشام وجعل الأمير اسماعيل يمسك اتباعهم ويبلغهم بأمر

---

(١) العرفان (٢) ن.م .
(٣) العقد المَنضد.
(٤) الفقيه.

(٥) اعيان الشيعة.
(٦) ن . م . (٧) ميخائيل مشاقة.
(٨) العرفان (٩) دواني القطوف.
(١٠) مشهد العيان.

الجزار . . وجعلت الدولة تأخذ من الرعية الأموال والخيل والسلاح وكانت هذه السنة سنة خوف وجزع وذعر شديد [١].

وفر اولاد ناصيف النصار فارس ومحمد مع بعض مشايخ آل الصغير إلى عكار حيث نزلوا عند آل المرعبي وقيل عند محمد الأسعد حيث اقطعوا ارضاً لا تزال تدعى حتى اليوم « بجبل الأسود » [٢].

أما الشيخ قبلان ففر إلى دمشق حيث كان واليها محمد باشا العظم يكن له احتراماً وصداقة فاقتطع من بلاد الهرمل قريتي القاع ورأس بعلبك ومنحها له لكن الجزار ما عتم ان اصبح والياً في دمشق ففر قبلان إلى بغداد حيث توفي فيها سنة ١١٩٩ هـ .

ومع غياب السلطة السياسية بعد مقتل ناصيف آلت القيادة العامة إلى علماء جبل عامل فأخذوا بالتحريض على الجزار وشكوه إلى الآستانة ولكن حكومة الباب العالي أرسلت اليه الشكوى فانتقم من موقعيها : فكانت نكبة كبرى حلت بجبل عامل على الصعيد الثقافي لأن ظلم الجزار بلغ مبلغاً عظيماً في الضغط على العلماء والكبراء حيث تعقبهم قتلاً وتعذيباً ومصادرة وتشتيت من بقي منهم في الأقطار واستصفى آثارهم العلمية وكان لأفران عكا من كتب جبل عامل ما أشعلها بالوقود اسبوعاً كاملا وكانت هي الضربة الكبرى على العلم وأهله . وما ظنك ببلاد حرص أهلها على طلب العلم حرصاً شديداً ولم ينقطع عنها مدده وجابت علماؤها البلاد النائية في طلبه واقتناء كتبه حتى جمعت لديهم تلك الذخائر في قرون وأجيال كانت بعد ذلك طعماً للنار في مصادرات الجزار [٣].

المقاومة العاملية للجزار

بعد سيطرة الجزار على جبل عامل وهرب مشايخه وزعمائه وتشتت أهاليه جعل الجزار فيه ابراهيم مشاقة متسلماً للأدارة وجعل مركزه قلعة مارون وكانت لانتقائه هذا ما يعلله اذ أن ابراهيم مشاقة كان على خبرة في احوال جبل عامل ونفسية العامليين منذ كان كاتباً لناصيف في صور فنشأت بينه وبينهم علاقات تجارية زاهرة . وقد احسن هذا ادارة الجبل لكن العامليين كانوا لا يرضون عن الاستقلال بديلاً [٤] فبدأوا يضطرمون حقداً على الجزار وينتظرون سانحة للأنقضاض عليه . لجأوا إلى تأليف « عصابات » مقاومة تجوب البراري وتهاجم قوات الجزار السارحة في هذا الجبل وتعيث فيهم قتلاً ونهباً وهي تقصد ايجاد حالة من البلبلة والفوضى لكي لا يدعوا الجزار يستقر في جبلهم [٥].

لكن ثورتهم الكبرى كانت سنة ١١٩٧ / ١٧٨٣ حين اشتد الخصام بين الأمير يوسف الشهابي والجزار بسبب تلاعب وتقلب الجزار في سياسته مع الدروز بين الأمير يوسف والأمير اسماعيل الشهابي . عندها أرسل أولاد ناصيف ورجالهم يعربون ليوسف عن استعدادهم لقتال الجزار اذا أمن لهم السلاح اللازم فوافقهم وحضروا إلى بلاد الشوف ومنها توجهوا الى شحور حيث اجتمع العامليون وتدارسوا الأمر فيما بينهم . وكان الشيخ علي الزين مدير الاجتماع . ورأسوا عليهم حمزة بن ناصيف النصار وتوجهوا بضع مئات وهاجموا قلعة تبنين وقتلوا حاميتها ومتسلمها وهددوا ابراهيم مشاقة الذي فر إلى الجزار طالباً اعفاءه من مهمته لكن الجزار زحف برجاله إلى العامليين

(١) العرفان .
(٢) لبنان في عهد الأمراء.
(٣) العرفان .
(٤) مشهد العيان.
(٥) محمد جابر.

والتقى بهم قرب قرية شحور حيث جرت معركة حامية قتل فيها حمزة الناصيف مع مئة من رجاله [٦].

واستمر الجزار في انتقامه من العامليين مما دفعهم لمؤازرة نابليون حين حاصر عكا سنة ١٧٩٩ وقدموا المؤن لجيشه حقداً على الجزار . لكن تراجع نابليون عن عكا جعل الجزار يستمر ثانية في انتقامه وعسفه وظلمه للعامليين [٧] .

وبقي الحال كذلك في جبل عامل حتى بعد أن خلفه عبد الله باشا في ولاية عكا ، ولم تتغير حاله العامليين هذه إلا بعد أن تولى سليمان باشا سنة ١٨٠٥ على ولاية صيدا حين اعتمد معهم سياسة اللين والعدل فعادوا إلى بلدهم وعاد مشايخهم من آل صعب وآل الصغير (فارس ومحمد الناصيف) إلى التزامه بعد أن عوض سليمان باشا عليهم بعضاً من أملاكهم .

جبل عامل في عهد الشيخ ناصيف النصار

كان جبل عامل قبل المرحلة التي نتكلم عليها يشكل جزءاً من البلاد الشامية التي وقعت تحت سيطرة العثمانيين اثر معركة مرج دابق ١٥١٦ . وكانت الدولة العثمانية تقسم البلاد اداريا وعسكرياً إلى ايالات وسناجق . كما كانت تمنح هذه الأيالات والسناجق بطريق « الالتزام » من يدفع اكثر يحصل على الولاية وله أن يجبي الأموال بالطريقة التي تناسبه وغالباً ما كان « الملتزم » يعتمد على الأعيان والمشايخ في عمله هذا .

في هذا الأطار كان يحكم جبل عامل في ظل العهود العثمانية عدد من الأسر البارزة عن طريق استقلال أحد مشايخ هذه الأسر بالحكم شرط أن يحفظ الأمن ويؤدي الأموال المترتبة لخزينة الوالي .

أما في عهد ناصيف النصار الذي استطاع ان يوحد العامليين ويبعد الشهابيين عن الجبل فقد تراجعت سلطة الدولة العثمانية وأصبحت سلطة اسمية فقط ولم يعد بامكانها التدخل في شؤون البلاد المحلية ولا يهمها إلا قبض الضريبة المفروضة على مقاطعات جبل عامل ومقدارها ستون ألف غرش توزع على المقاطعات الثمانية [٨] .

ويبدو ان اختيار ناصيف تبنين مركزاً لقيادته لم يكن وليد الصدفة اذ تشير المصادر التاريخية إلى انه عندما جدد الأمراء العامليون الوافر من قلاعهم وأحدثوا بعض الحصون في منتصف القرن الثاني عشر الهجري كانت المقاطعات ثمانية : تبنين وهونين وساحل معركة وساحل قانا ومرجعيون والشقيف واقليم الشومر وجباع والمرجع العام للثمانية كانت تبنين والحاكم فيها من آل علي الصغير [٩] .

ثم انتقل ناصيف النصار بجبل عامل إلى مرحلة الاستقلال التام عن الدولة العثمانية عندما أعلن الثورة مع ظاهر العمر سنة ١١٩٠ ـ ١٧٧٥ فكان المشايخ الأقطاعيون العامليون غير ملتزمين « برفع علم الدولة الرسمي في اجتماعاتهم بل كان لهم اعلام خاصة من نسيج حريري ـ اخضر وأحمر ـ كتب عليها بالنسيج الأبيض ثلاثة سطور : لا إله إلا الله محمد رسول الله والثاني : لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار . والثالث : نصر من الله وفتح قريب »[١٠].

أما فيما يختص بالأمور القضائية فقد كانت الدولة العثمانية تعين قضاة

(٦) ن . م . ولبنان في عهد الأمراء ومشهد العيان.
(٧) العرفان .
(٨) جرجي بني.
(٩) دائرة المعارف الاسلامية الشيعية .
(١٠) محمد جابر

من قبلها باسم نائب ونظراً لكون اغلبية العامليين على مذهب الشيعة الأمامية « فقد كان مرجع القضاء والفتوى الحقيقي في جميع أدوار جبل عامل العلماء والمجتهدون العدول » (١) .

وخاصة في قضايا الأحوال الشخصية والفض في المنازعات وقضايا البيع والشراء والميراث وهذا يعني ان التنظيم القضائي والقوانين التي كانت تطبق فيه لم ترد في نصوص اخرجتها السلطة التشريعية كما هي الحال اليوم . وإنما كانت تتبع التعاليم الاسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة على مذهب ائمة آل البيت والأجماع والإجتهاد وان ما نقل عن ناصيف النصار من اكرامه للعلماء وتقديره لهم انعكس تعزيزاً لمنصب القضاء الذي كانوا يشغلونه وبالتالي أصبحت فتاواهم « حكماً مبرماً يوجب على الحاكم الزمني العمل بنصه ولو كان ضد الحاكم نفسه » (٢) .

من الناحية الأجتماعية : عرف المجتمع العاملي فئات ثلاث فئة الأعيان التي تمثل الطبقة الحاكمة وكبار الموظفين وتتمتع هذه الفئة بالشأن الرفيع . وكان الأقطاعي ينفذ في عامة الشعب احكامه « وينظر في شؤونهم على هواه وهم اتبع له من ظله يعضدونه في تعزيز قوته واعلاء مكانته « غير انهم » لم يكونوا عبيداً لأصحاب الأقطاعات ارقاء لهم » (٣) .

فئة رجال الدين وتضم السادة والشيوخ المجتهدين . أما السادة فهم العلماء الذين يرجعون بنسبهم إلى النبي من ابنته الزهراء وينظر إليهم من قبل الشيعة بتقدير واجلال كبيرين لنسبهم الشريف وأما الشيوخ المجتهدون فهم في الأصل من عامة الشعب درسوا العلوم الدينية والفقهية . وقد كان لرجال الدين عامة سلطة معنوية على أفراد الشعب والمشايخ الأقطاعيين على حد سواء . وقد عزز هذه السلطة العصبيات المذهبية التي كانت سائدة آنذاك اضافة الى كونهم على مستوى المرحلة فقد استشهد عدد منهم دفاعاً عن العقيدة والوجود .

أما الفئة الثالثة فقد كانت عامة الشعب من فلاحين ومزارعين . ومعظم هؤلاء كانوا يعانون الفقر لكن احوالهم تحسنت في عهد الشيخ ناصيف بعد ان تمركزت السلطة السياسية في يد قوية أشاعت الأمن والاستقرار وقد تحددت الضرائب على جميع مقاطعات جبل عامل بستين ألف غرشاً سنوياً ! « ولم يعودوا يدفعون الضرائب المتنوعة التي فرضها الترك على الأراضي من ويركو وأعشار ورسوم تمليك . . ولم تكن شبانهم تساق إلى الجندية » (٤)

اضف إلى أن التحالف الذي أقامه ناصيف مع ظاهر العمر أعفى العامليين من كثير من المشاكل التي كانوا يتعرضون لها على يد جيرانهم الفلسطينيين (٥) .

وقد تميز العلماء في عهد ناصيف « بسلطة عليا تفوق كل سلطة تتطأطأ لها الرؤوس وتحنىٰ الرقاب » (٦) .

من الناحية الاقتصادية : كانت الحالة الاقتصادية في جبل عامل في ظل الدولة العثمانية تتصف بالفقر على وجه الأجمال لعدة عوامل ابرزها : موقع جبل عامل المتوسط بين مقاطعات البلاد الشامية مما جعله ممراً للجيوش ومسرحاً لمعارك المتخاصمين ، مع ما يقتضي هذا الأمر من نفقات العسكر المار في الجبل من علائف ومؤن . . فقد كان يرهق الشعب المعدم

(١) خطط جبل عامل.
(٢) محمد جابر .
(٣) جرجي بني .
(٤) محمد جابر.
(٥) ن م. (٦) ن.م.

بمطالبهم حتى أن الفرد أصبح يفر من الغني لأن هذا سيجعله محط رحال العسكر . ويروى عن أحد التجار ان حاكماً وهبه مرة قرية لأيقاعه بهذا المأزق الأنف الذكر، فسعى التاجر بعناء حتى تخلى عن ثلاثة أرباع هذه القرية (٧) .

كما ان حالة الجور والاستبداد التي كان يلقاها العامليون على أيدي حكامه وملترميه من غير العامليين ساهمت بدورها في تردي الحالة الاقتصادية . اضافه إلى حال عدم الاستقرار بفعل هجمات الدمار والخراب التي كان يتعرض لها العامليون على أيدي الشهابيين والولاة العثمانيين . واخيراً عملية الأفقار التي كان يعتمدها الولاة في تحصيل الأموال السلطانية اذ كانوا يوعزون لرجالهم بنهب البيادر والمحاصيل (٨) .

ومن المعروف ان الناس لا يقدمون على الكد في تحصيل معاشهم إلا إذا كانوا على ثقة من التمتع بما يكسبون « لأنهم يفضلون الأكتفاء بالقليل التافه الذي يحصلونه بالتعب القليل على الكثير اذا جنوه بالكد ذهب طعمة للظالمين . فنشأ عن هذا اهمال الزراعة والصناعة والتجارة (٩) .

ومن الطبيعي أن تتغير الحالة الاقتصادية للجبل في عهد ناصيف النصار بعد أن تغيرت الأوضاع السياسية والأجتماعية حيث عرف الجبل مزيداً من الاستقرار السياسي وابتعاداً عن سلطة ولاة الجور .

فقد ازدهرت الزراعة في الجبل بسبب خصوبة أراضيه ونشاط فلاحيه يدل على ذلك مجموعة الآثار والظواهر المتوافرة في الجبل : كثرة معاصر الزيت ومعاصر العنب والخروب والمطاحن المائية على مجاري الأنهار وخاصة نهر الليطاني .

كما كثرت في جبل عامل مزارع الزيتون كمزارع البصة وجاليل : التي كان يقلع منها كل سنة جانب عظيم ويصدر لجميع جهات بلاد بشارة وساحل عكا(١٠) .

كما كثرت كروم التين والعنب في جميع أنحاء هذا الجبل وقد أطنب الرحالة روبنسون الذي زار البلاد في تلك الفترة في وصف لذة عنبها وكبر عناقيدها » (١١).

أما زراعة التبغ فقد كثرت على هضاب جبل عامل وخاصة في ساحل قانا والجبال المجاورة لصور وكان تبغها « يشابه في جودته تبغ اللاذقية ويفوقه احياناً » (١٢).

كما كانت زراعة قصب السكر منتشرة على مجاري المياه في جبل عامل(١٣)أما زراعة الفواكه فقد كانت بساتينها منتشرة حول صور وتروى بمياه رأس العين لكن العناية بها كانت ضئيلة(١٤).

فيما يتعلق بالصناعة يبدو أن الجبل لم يعرف في تاريخه صناعة مزدهرة لذلك اقتصرت الصناعات في جبل عامل على بعض المصنوعات اليدوية كصناعة الآلات الحراثية وصناعة الحصر من مساكب « البابير » وصناعة الزقاق من الجلود قرب الحولة (١٥) .

كما كانت هناك بعض الصناعات التحويلية كتصنيع الزبيب والتين

(٧) المقتطف . (٨) تاريخ ظاهر العمر.
(٩) بني .
(١٠) المقتطف.
(١١) ادوار ربنسون .
(١٢) عارف الزين.
(١٣) يوميات في لبنان .
(١٤) فرنسوا فولني .
(١٥) يوميات في لبنان .

المجفف واستخراج الزيوت من الزيتون والبطم واستخراج الطحين من الحبوب بأنواعها . تدل على ذلك كثرة المعاصر والمطاحن المائية التي ما تزال آثارها ماثلة إلى اليوم . وكان العامليون يلبسون ثيابهم من قطن أرضهم منسوجاً على انوالهم اليدوية.(١) .

هذا بالاضافة إلى تصنيع انتاج المواشي كالألبان والأسمان وقد استعمل العامليون السمن للأنارة . كما قاموا بتربية النحل واستخراج العسل منه . واستخرجوا الملح من مياه البحر على طول الساحل العاملي وخاصة في صور .

أما التجارة فقد حظيت بعناية خاصة من ناصيف النصار لأنه كان مشهوراً كتاجر كما كان مشهوراً كجندي على حد قول أدوار لاكرو (٢) . وقد تمثل ازدهار التجارة الخارجية بالظواهر التالية : تعمير ميناء صور فقد جاء على لسان الرحالة الفرنسي فولني ان المتاولة رمموا هذا المرفأ في سنة ١٧٦٦ وبنوا له سوراً بعلو ٢٠ قدماً . بحيث يمكن للسفن ايجاد ملجأ وهذا المرفأ يفضل على مرفأ صيدا (٣) .

وقد أصبح مرفأ صور مركزاً لتصدير المنتوجات العاملية من جميع مقاطعات الجبل ما خلا المناطق التي جاورت صيدا . كما هيأ هذا المرفأ لأهالي صور بصورة خاصة سوقاً تجارية رائجة وأصبحت حالتهم المعيشية جيدة فقد كنت ترى في بيوتها وسائل الراحة (٤) .

وساهمت حالة الأمن والاستقرار التي سادت جبل عامل سواء لأنكفاء الشهابيين أو لانحسار غزوات البدو اضافة الى قطع دابر اللصوصية في عهد ناصيف على تحويل جبل عامل إلى طريق للقوافل التجارية . فقد كانت تمر البضائع التجارية من سوريا إلى فلسطين عن طريقين : طريق دمشق طبريا وطريق دمشق ـ تبنين .

يضاف إلى هذا : العلاقات السياسية الودية بين ناصيف والشهابيين وظاهر العمر وعلي بك الكبير فقد عززت التبادل التجاري بين جبل عامل وسائر المناطق الشامية .

وساعد موقع الجبل المتوسط بين المناطق المجاورة من ناحية وإشرافه على ساحل البحر المتوسط من جهة ثانية على ازدهار التجارة . وبالفعل فقد تعززت التجارة بين صور ودمياط في مصر فقد ذكر ان جرجس مشارقة كان يتعاطى تجارة التبغ ويصدرها إلى مصر وقد تمكنت « صلته بمشايخ آل الصغير حكام بلاد بشارة والشقيف الشيعيين حيث كان يشتري منهم حاصلات اراضيهم الواسعة من التبغ . . . وفي ١٧٥٧ اضطرته المصلحة أن يقدم من صيدا إلى صور فانتقل اليها لتسهيل تجارته مع مشايخ المتاولة القاطنين في جوارها والذين لهم من اغلالها النصيب الوافر مثل التبغ والحبوب والأخشاب (٥) .

أما التجارة المحلية فقد تمثلت في مجموعة الأسواق المحلية التي كانت تقام في بعض البلدان الكبرى المتوسطة الموقع بين المقاطعات كسوق تبنين ، النبطية ، العديسة الطيبة ، بدياس ، جويا ، بنت جبيل وكان الفلاح العاملي يعرض في هذه الأسواق منتوجاته الزراعية ومشتقاتها وصناعاته اليدوية (٦) .

(١) المقتطف .
(٢) تاريخ الجزار .
(٣) سوريا ولبنان وفلسطين .
(٤) يوميات في لبنان .
(٥) مشهد العيان .
(٦) خطط جبل عامل .

فيما يتعلق بالحالة الفكرية فقد عرف جبل عامل منذ القدم باقبال خاصة من علمائه على نهل العلم وخاصة العلوم الدينية والفقهية نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشهيد الأول محمد بن مكي ١٣٨٤/٧٨٦، الشهيد الثاني زين الدين بن علي ١٥٥٩/٩٩٦ ، الحر العاملي الشيخ محمد بن الحسن بن علي ١٦٩٢/١١٠٤ . السيد جواد المعروف بمحمد الجواد بن محمد ١٨١١/١٢٢٦ وسواهم ممن عرفوا شهرة واسعة في مختلف ارجاء العالم الاسلامي ولا سيما الشيعي منه .

وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادي وبعد أن بدأت هجمات الولاة العثمانيين والملتزمين تتوالى على الجبل فقد شهدت الحالة الفكرية تراجعاً نسبياً وخاصة حركة الشعر وذلك لسببين : الأنشغال في الأهتمامات المعيشية الصعبة ، وجود الحكام الغرباء والذين لا يمكن أن يكونوا من ممدوحي الشعراء العامليين .

ولكن مع ظهور ناصيف النصار في جبل عامل ومع اكرامه وتقديره للعلماء والشعراء ومع انتفاء الهجمات الخارجية ومع بروز الهوية العاملية ومع انطلاقة ناصيف النصار خارج حدود الجبل ومع كثرة المعارك والبطولات . . مع كل هذا ظهرت حركة الشعر واشتهر من شعراء تلك المرحلة الشيخ ابراهيم الحاريصي والشيخ ابراهيم يحيى العاملي . فقد عاصر هذان الشاعران ناصيف النصار وعزفا بطولاته الحاناً تفيض بالعزة والكرامة والعنفوان فكان ناصيف يرد كيد المعتدين والشعراء يردون أقوالهم .

ولما غُيب ناصيف النصار وكانت نكبة جبل عامل على يد الجزار وكان تشرد القادة والعلماء والشعراء جاءت قصائد هؤلاء صورة معبرة عن هذه النكبة فكان شعرهم انيناً وقصائدهم حنيناً .

وخلاصة القول انه : في اواخر القرن الثاني عشر إلى أوائل القرن الثالث عشر للهجرة « تكون النهضة الشعرية في جبل عامل قد تكاملت فتفتحت عن مجموعة من الشعراء الأفذاذ عاشوا أحداث بلادهم بشعرهم وشعورهم فكانوا لسانها الناطق وضميرها الحي وذهنها الوقاد » (٧) .

وقد استمرت هذه النهضة الشعرية حتى تولى حمد المحمود زعامة الجبل « وهو رجل من أنبغ من انجبت أسرته كان فارساً مقداماً وكان أديباً شاعراً . . . وكانت تبنين قاعدة حكمه وفيها ملتقى وفاده وكان قد جدد بناء قلعتها هذه القلعة التي شهدت ازهى امجادها أيام سلفه الشيخ ناصيف النصار . . . . فاجتمع للشعراء : أمير تشوقه المدائح وشاعر يفهم ما يقولون وأمجاد مغرية بالمدح فالتقى في قصر حمد مجموعة من الشعراء لم يلتق مثلها إلا في قصور الملوك السالفين . . . ويخيل اليك وأنت تراجع شعر تلك الفترة ان حياة مصغرة لسيف الدولة الحمداني قد انبعثت في الجبل » (٨) .

ومهما يكن من أمر فإن الحركة الشعرية ازدهرت في عصر ناصيف النصار وربما كانت تستحق وقفة خاصة ودراسة مستقلة فكما كان ناصيف النصار يعزف ألحان البطولة بوقائعه وشهامته ودفاعه عن الحق كان الشعراء يخلدون هذه الألحان بترانيم لغوية اغنت التراث العاملي وسجلت مآثر هذه الأقلية التي عاشت في الجبل ودافعت عن نفسها لتستمر بعقيدتها وحريتها وكرامتها .

وكانت وما زالت تقدم الشهداء من ابنائها ومن قادتها ومن علمائها على حد سواء وهذا أمر سهل الفهم اذا تذكرنا أن العاملي يرضع مع حليب أمه ما حدث في كربلاء .

(٧) عصر حمد المحمود . (٨) ن . م .

الجزار

ولا بد لنا بعد ذلك من التعريف باحمد باشا الجزار الذي جرى ما جرى على يديه من استشهاد ناصيف النصار وخراب جبل عامل وغير ذلك من الأحداث المرتبطة بجبل عامل وغير جبل عامل . وهو تعريف مكتوب بقلم : قسطنطين خمار :

شهدت البلاد السورية في القرن الثامن عشر أحداثاً مروعة وانتابتها ضروب من المظالم وصنوف من المآسي ، نتيجة لاستقلال بعض الولاة والحكام الاقطاعيين بالمقاطعات التي دانت لسلطانهم فعاثوا بها عتواً وبرعاياهم طغياناً .

ذلك أن هؤلاء الولاة الذين كانت اولى واجباتهم فرض القانون وتطبيق النظام كانت كثرتهم من العجز الحربي والسياسي بمكان ، وكثيراً ما كانت الدولة العثمانية تغيرهم باستمرار فمنهم من لم يكن يمكث في الحكم أكثر من سنة أو سنتين فكان همهم الأكبر وشاغلهم الأوحد أن يجمعوا اكبر مقدار من المال يستطيعون ولذا لجأوا إلى سلب الرعية ممارسين أشد أنواع الظلم وأدهى صنوف الاستبداد فلا غرو أن شهدت البلاد في هذا القرن انهياراً في الأحوال الأمنية والاقتصادية وانحطاطاً في حياة السكان كما كان من نتائج هذه الأوضاع السائدة ازدياد تدريجيٌ في أهمية الشيوخ المحليين ، هذا عدا ان الاستبداد بحد ذاته من طبيعة الانسان اذا لم يجد رادعاً يردعه وحائلاً يصده .

وقد بلغ (احمد باشا الجزار) حاكم عكا والمسيطر على سائر البلاد السورية طوال الربع الأخير من القرن الثامن عشر القمة في ذلك وحلق فيه تحليقاً ما عليه مزيد فبز جميع نظرائه قسوة وفاقهم طغياناً مالئاً البلاد جوراً والشعب رعباً حتى ضرب به المثل في القسوة على مر الأجيال التالية فقيل « أظلم من الجزار » .

المولد والنشأة

كان مولد الجزار في أوائل العقد الرابع من القرن الثامن عشر في أحدى قرى البوسنه ـ وقد نشأ وترعرع فيها فتى شرس الأخلاق سيء السلوك ويروي انه ارتكب جرماً اخلاقياً ، قيل انه اغتصاب امرأة اخيه مما اضطره الى الفرار من وجه ذويه طريداً شريداً حتى عاصمة السلطنة العثمانية (الأستانة) حيث عمل حمالاً في الميناء ثم عاملاً في الزوارق . ملاقياً اسوأ معاملة ، فاغتنم فرصة سانحة في رسو المركب الذي كان يعمل فيه في احدى موانيء الأناضول ، وفر منه عائداً الى التسول آناً والسرقة حيناً ، سائراً على غير هدى الى ان باع نفسه أخيراً الى نخاس يهودي صادف مروره في احدى الموانيء فضمه الى ما كان قد ابتاعه من الأولاد وتوجه بالجميع الى القاهرة حيث كانت سوق الرقيق رائجة وحكام مصر كلهم من المماليك . وهناك باعهم الى تاجر آخر أسلم الجزار على يده وتسمى (أحمد) وكان قد أصبح شاباً بهي الطلعة ، طويل القامة ، قوي العضلات ذا وجه مشرب بالحمرة . ولا ريب أن جميع هذه الأهوال التي قاساها وشظف العيش الذي صبغ حياته السابقة قد ولدت فيه عقداً انعكست فيما بعد ، عندما دانت له السلطة ، على تصرفاته من عتو واستبداد ومظالم وكأنه بذلك ينتقم من البشرية جمعاء .

كانت مصر في هذه الفترة مسرحاً لنزاعات مستمرة بين مماليك معظمهم رقيق مشترى في صغره ، حالهم كحاله لا تهدأ بينهم المعارك ولا تفتر المذابح بغية الوصول الى الحكم والثروة ، لا يرعون في ذلك عهداً ولا ديناً . وقد مكنته شجاعته الفائقة من الدخول في خدمة علي بك الكبير حاكم مصر وأعظم مماليكها شأناً ، فنال رتبة (البكويه) ولشدة بطشه وفتكه ببدو اقليم (البحيرة) الذين أيدوا أحد خصوم علي بك اطلق عليه لقب (الجزار) فاصبح يدعى (احمد بك الجزار) . وأصبح الجلاد المفضل لدى سيده ممتهن قطع الرؤوس . وكان هذا اللقب الجديد مدعاة فخر واعتزاز له وبات يشعر بنشوة هائلة كلما رأى رؤوس قتلاه تتدحرج ودماءهم تهرق . واصبح اسمه عند الناس مرادفاً للرعب ولازمه هذا اللقب طوال حياته ، وأغدقت عليه الأموال فأصبح يمتلك الخيل والسلاح والجواري الحسان ويقيم حفلات الأنس والطرب موزعاً المآكل الشهية على فقراء الحي ـ الا أنه عندما رفض أمراً بقتل احد المماليك ـ وكان له صديقاً وتأكد من غضب علي بك عليه وعزمه على اعدامه، فر من منزله متخفياً بلباس احدى جواريه حتى وصل احدى الموانيء فاستقل مركباً متوجهاً الى الآستانة يعرض خدماته على الباب العالي وكان ذلك عام ١٧٧١ م وسنه آنذاك يقارب الأربعين ، إلا أن آماله خابت في الحصول على ما كانت نفسه تحدثه به من مكانة ، فولي وجهه شطر سورية ونزل في ضيافة الأمير يوسف الشهابي في دير القمر ـ وكانت شهرة بطشه وجبروته قد سبقته ، فحمله هذا الأمير كتاب توصية الى عثمان باشا والي دمشق من قبل الباب العالي ، فجعله هذا الأخير قائداً لمفرزة من أربعين رجلاً وسلمه ميناء بيروت فرمم أسوارها بهمة ونشاط فائقين وبنى فيها أبراجاً عدة حتى منحه الأمير يوسف الشهابي لقب (قائد أعلى) ـ الا أنه لما كانت شيمته الغدر، تحصن في بيروت وأغلق أبواب الأسوار دون الأمير يوسف وحرم عليه دخولها ، وزيادة في التهديد والوعيد قبض على رجلين من أتباع الأمير فقطع رأسيهما ثم اجلس كلا من الجثتين على خازوق ونصبهما على الأسوار وأجرى مذابح شنيعة في المدينة وفتناً طائفية حتى أرهب القوم لدرجة لم يعد يفكر بعدها أي منهم بالعصيان ، وبلغ من سخريته بسيده الأمير يوسف ان أمر بصنع (فزاع) على مثاله وعلقه على أحد ابواب المدينة ولما أخذ ببناء سور متين للميناء دفن عشرين رجلاً احياء ضمن السور زاعماً ان هذا يدعم البناء ومخرجاً سواعد هؤلاء الضحايا من بين الأحجار عليها تصلح لربط السفن ـ الا انه أخذ يغدق الهبات على جنوده مشجعاً إياهم على الشراب والعبث والفحشاء ، واهباً إياهم الآلات الموسيقية مبتهجاً بآثامهم ، اذ ان معظمهم كان من الأشقياء والمجرمين وبذلك عم خطرهم وامتلأت المدينة منهم رعباً ودانوا له بالطاعة العمياء ، وقد نجح في حكم المدينة مدة عام واحد وكان سكانها في هذه الفترة لا يزيدون عن ستة آلاف نسمة .

الصراع مع ظاهر العمر

والواقع ان السلطنة العثمانية كانت بحاجة اليه لتنفيذ خططها باعادة (ايالة صيدا) الى الحكم المركزي الفعلي بعد ان قويت شوكة ظاهر العمر حاكم عكا لدرجة أن نفوذه وسلطانه كانا هما السائدين على هذه الأيالة ومعظم فلسطين . فوجدت في الجزار رجلا ذا بأس يمكنها الاعتماد عليه للحد من سيطرة ظاهر . ولكن خصوم الجزار تألبوا عليه وحاصر بيروت دروز الجبل بقيادة الأمير يوسف وساندهم في ذلك الأسطول الروسي بضرب المدينة وجعل في أسوارها ثغرات كثيرة ، ولما لم يتلق من الدولة العثمانية مساعدة عملية ووجد ان المدينة ساقطة لا محالة وأن أيامه باتت معدودة ، لجأ الى الدهاء والخديعة فأرسل من يبلغ ظاهر العمر انه يعترف بخصومته الشريفة وانه على أتم الاستعداد للانضمام اليه ضد قوى السلطنة العثمانية اذ أمنه وحاشيته ، وكان في أثناء ذلك قد أخرج من بيروت ، بطريقة سرية ، الأموال والأمتعة والتحف الثمينة التي كان الأمير يوسف قد أئتمنه عليها . ولما كان ظاهر العمر قد سمع بشدة مراس الجزار وشجاعة جنوده وبأسهم في القتال أجبر حلفاءه قادة الأسطول الروسي والجيوش المحاصرة على السماح للجزار وحاميته بمغادرة بيروت مع المحافظة على شرفها العسكري ، ودخل الأمير يوسف والروس المدينة فوجدوها خاوية على عروشها ، أما الجزار

فأبحر بجنوده الى صيدا ثم صور وكان يفترض ان يسير من هناك بجنوده الى منطقة نابلس لينضم الى جيش ظاهر العمر ليسانده في محاربة العصاة وإخضاعهم ، الا انه كعادته غدر بظاهر ، كما غدر سابقاً بسيده القديم يوسف . وتوجه الى دمشق منضماً لجيوش الدولة العثمانية ، ومجدداً بذلك ولاءه وتبعيته للباب العالي الذي ما زال ناقماً ومصمماً على القضاء على ظاهر العمر الزيداني المتمرد عليه والمنفرد بالسلطة على مناطق واسعة من البلاد ، فرحب بفعلة الجزار هذه وعزم على مكافأته في أول فرصة . .

أرسلت الدولة العثمانية عمارة بحرية بقيادة حسن باشا لضرب المقر الرئيسي لظاهر وهي مدينة عكا ، من البحر كما تقدمت جيوشها من دمشق وتم لها الاستيلاء على المدينة بعد أن فر منها ظاهر وقتل خارج أسوارها ، وعندها استدعي الجزار ، ثقة من الدولة العثمانية انه من أتباعها وولته عكا عام ١٧٧٥ م فوجدها في حالة بائسة أثر الحصار البري والبحري وقد هجرها معظم سكانها الى المناطق المجاورة فطلب من الأهالي الفارين العودة لاستعادة امتعتهم ومقتنياتهم . ولما تأكد من عودة معظمهم حرم عليهم مغادرتها تحت طائلة الاعدام وبذلك امتلأت ثانية بسكانها القدامى، الا أنه بقي في حاجة ماسة الى المال فقام بفرض الضرائب الجمركية على معظم السلع . كما أجبر وكيل القنصلية الفرنسية والتجار الفرنسيين على اقراضه الأموال واحتكر معظم المرافق التجارية . ولما وجد أن خزائنه امتلأت بالأموال شرع باصلاح الأسوار واتقان البنيان وذلك بتسخير أهالي القرى المجاورة للعمل ثلاثة أيام في الأسبوع بالتناوب ثم انشأ اسطولاً صغيراً . كما مكنته موارده المالية من تأليف فرقة فرسان من أبناء البوسنة والبانيا من (٨٠٠) فارس ومن مرتزقة المغاربة ألف جندي من المشاة . ثم أخذ باستقدام اللصوص والفارين من وجه العدالة جاعلاً منهم حرس شرف له وبذلك أصبح لديه قوة مقاتلة فاعلة من مرتزقة البشانقة والأرناؤوط والأكراد والمغاربة .

تسلم ولاية صيدا

وبعد أن فرغ من ذلك وآنس من نفسه القوة العسكرية والمالية تولى أمر ابناء ظاهر العمر فقضى عليهم جميعاً . وبذلك دانت له قطاعات صفد وطبريا التي كانت ما تزال تحت سيطرتهم فسر ذلك الدولة العثمانية فعينته في النصف الثاني من تشرين اول (اكتوبر) عام ١٧٧٥ والياً على صيدا ومنحته رتبة الباشوية !

وفي شباط (فبراير) من عام ١٧٧٦ م منح رتبة (وزير) وأصبحت الدولة العثمانية تخاطبه في جميع الفرامانات والمراسلات باللقب الجديد (الوزير احمد باشا الجزار) وزيادة في اعتراف الدولة بفضله برد سلطتها على جميع المقاطعات التي كانت تابعةللزيداني منحته ما كان يعرف (بالمالكان) أي حق الحكم مدى الحياة وبذا استمر الحاكم على هذه البلاد حتى وفاته عام ١٨٠٤ م أي ما يزيد على ٢٨ عاماً . الا انه على الرغم من ذلك لم يغير مكان اقامته في عكا ، ولم يكن يؤم صيدا (مع أنها كانت المركز الرسمي للايالة) اكثر من شهرين في العام الواحد . وبعد أن دان له معظم الجليل أخذ بمهاجمة الشمال جبل عامل وتسلم بعد معركة بارون وقتل ناصيف النصار قلعة (هونين) وقلعة (الشقيف) وقلعة (جباع) فقتل الكثيرين وسلب الأموال وسبى النساء حتى كانت المرأة تباع بثلث قرش وبعد ذلك أخضع مدينة صور ، كما هاجم جنوده بيروت فهرب معظم سكانها وأحرقوا وقتلوا وباعوا الأسرى وأرسلوا اليه منهم الكثير فقطع رؤوس البعض وأجلس آخرين على الخازوق . .

الحاكم المطلق في الشام

وبعد ذلك ولى وجهه نحو منطقتي نابلس وجنين فاخضعهما. الا انه عجز عن الاستيلاء على قلعة (سانور) في منطقة جنين وكان يسيطر عليها يوسف الجرار على الرغم من محاصرته لها أربعة أشهر ، وعلى الرغم من تكرار مهاجمته لها بعد ذلك . وبذلك ازداد ايمان الدولة العثمانية رسوخاً به لا سيما انه كان لا يتوانى عن ارسال الأموال لها باستمرار فتسلم منها براءة بتعيينه والياً على دمشق عام ١٧٨٠ . وكان من مهام والي دمشق امارة الحج فهو الذي يسير بقافلة الحجيج الى مكة ويحميها من هجمات البدو في الطريق ، وقد تولى هذه المهمة وولاية دمشق أربع مرات في حياته إذ أن الدولة العثمانية كانت تمنح الأيالة لمن يرسل إليها الأموال الأميرية في انتظام فتعزل الواحد لتولي الآخر تبعاً للمبالغ المرسلة . وقد أظهر الجزار سخاء متناهياً بارسال الهدايا والذهب الى السلطان العثماني وحاشيته مما مكنه من الحصول على أيالة طرابلس في تلك الفترة بالاضافة الى إيالة دمشق .

وبذلك خضعت له سوريا بأسرها من أقصاها الى أقصاها ، فانتشر عماله من اللاذقية شمالاً الى غزة جنوباً كما أتم سيطرته على الشوف والجبل اللبناني وكان على أمرائهما وشيوخهما أن يرضوه بالأموال لابقائهم في سدة الحكم ، مما اضطرهم الى ظلم رعاياهم وإثقال كاهلهم بالضرائب ليتمكنوا من جمع ما وعدوا به الجزار الذي كان يبقى عنده ابناءهم ومديري ماليتهم أحياناً رهائن لديه في عكا حتى اذا تقاعسوا عن ارسال الأموال المطلوبة قام باعدام الرهائن ، وكان لهذه الغاية يلقي بذور الشقاق بين أمراء أفراد العائلة الواحدة الحاكمة فكم من مرة فعل ذلك بين الأمير يوسف الشهابي وخاله الأمير اسماعيل ثم بين الأمير يوسف وإخوته كما أخذ فيما بعد يحرض الأمير الفتي بشير الشهابي (الكبير فيما بعد) على الأمير يوسف ثم ابناء الأمير يوسف على الأمير بشير - كل ذلك تبعاً للمبالغ التي يستطيع دفعها كل منهم فمن زادها له سانده وتنكر لغيره وهكذا . . وفي احدى المرات طلب من الأمير يوسف الشهابي ستمائة كيس (وكان الكيس يحتوي ٥٠٠ قرش) وهذه مبالغ باهظة اذا ما تذكرنا قيمة النقد الشرائية في ذلك العهد ، بدليل انه عندما شح المطر في احدى السنين وحصل قحط ارتفع سعر مد القمح الى ثلاثة قروش . . .

ولما زاد الأمير بشير عما دفعه الأمير يوسف سر الجزار منه كثيراً ، وكافأه بوضع الأمير يوسف وخازنه الشيخ غندور وسعد الخوري .

جنون وصواب وقسوة

وكانت حاجة الجزار الى الأموال لا تفتر ليتمكن من الاحتفاظ بجيش قوي، اذ كان هو عماده الوحيد، فولاء هؤلاء الجنود المرتزقة كان يتوقف على انتظام دفع رواتبهم ، ولذا عمد بالاضافة الى ما كان يجبي من الضرائب ويفرض من المغارم ويصادر من الأموال والممتلكات الى احتكار التجارة وكانت أولى خطواته احتكار القطن فحدد اسعاره ومنع بيعه أو شراءه من قبل أية وكالة إلا هو . . وعندما حاول التجار الأجانب تذكيره بالاتفاقات المعقودة مع الدولة العثمانية سخر من ذلك وأفهمهم ان لا سلطان غيره فهو وحده الآمر الناهي، في الأراضي التي يحكمها ، ثم امتد احتكاره الى الحبوب فأجبر المزارعين على زراعة القمح ومنعهم من بيعه أو تخزينه وصدر جميعه الى مصر والمناطق المجاورة .

ولما امتد حكمه الى ولاية دمشق فعل مثل ذلك في غلال حوزان . وأصبح جميع المحصول يباع الى وكلائه في عكا ومنهم فقط يستطيع التجار أن يشتروا ولم يجرؤ أي كائن على الاحتيال اذ كانت سفنه وعيونه تراقب الشواطيء والموانيء بدقة لا سيما وأنه كان قد حظر على أية سفينة مغادرة

الميناء بعد الساعة الثامنة مساء ، وبذلك لم يعد هناك أي مجال للتهريب ، كما كانت أية محاولة من قبل التجار الفرنسيين لشراء القمح من الفلاحين يكون الرد عليها دون رحمة . ومثل هذه المحاولات أدت الى طرده التجار الفرنسيين من عكا وصيدا عام ١٧٩٠ فهو وحده يقرر أي المحاصيل يجب أن تنتج للتصدير . وبذلك كانت موارده المالية تنمو باضطراد بالاضافة الى الرسوم الجمركية الباهظة التي كان يفرضها على جميع الصادرات والواردات هذا عدا الغرامات الخاصة التي كان يفرضها بين حين وآخر على التجار والسكان المحليين ومصادرته الأملاك والمقتنيات الخاصة لسبب او لآخر ، الا ان الدخل الأكبر كان يأتيه من الضرائب المباشرة التي كان يفرضها على الرعية .

كل ذلك جعله على جانب كبير من الثراء حتى قدر القنصل الفرنسي في عكا عام ١٧٩٢ م ثروته بأربعين الى خمسين مليون قرش بينما كان الباب العالي قدر ثروة سلفه ظاهر العمر الزيداني عند وفاته عام ١٧٧٥ م بخمسة وعشرين مليون قرش اي أن الجزار استطاع خلال سبعة عشر عاماً من حكمه مضاعفة ثروته .

فهذه الثروة مكنته من بناء قوته الحربية وحملت اليه ولاية دمشق اربع مرات وقد حصلت عليه ثورة من قبل بعض مماليكه في ٣ أيار (مايو) من عام ١٧٨٩ م فقمعها دون رحمة ، وهذا مما زاد رغبته في جمع الأموال وتقوية جيشه ، اذ رأى نفسه وحيداً ، غريب الدار ، لا جذور شعبية له ، تكتنفه الكراهية من جميع رعاياه لشدة ظلمه وجبروته ولا مكان يلجأ اليه اذا انكسرت شوكته لا سيما بعد أن شعر أن الباب العالي قد شجع هذه الثورة عليه سراً للحد من نفوذه بعد أن تعاظمت قوته كثيراً وجعلته يتطاول على السلطنة ولا يأبه لأوامرها ، كما ساعدت فرنسا على ذلك بطريقة خفية . ولما تأكد من ذلك قام بطرد التجار الفرنسيين من عكا وصيدا كما أسلفنا ومنع أي ممثل لفرنسا من العودة الى عكا ان تمكنه من القضاء على هذه الثورة زاد طغيانه وأصبح يشك حتى في من يصطفيهم وزاد اهتمامه بمرتزقته .

أما مظالم الجزار التي تحدث بها الركبان فكانت اكثر من أن تحصى ، مظالم شملت قطع الرؤوس والشنق والقتل افرادياً وجماعياً بالخناجر والسيوف والفؤوس واستعمال الخازوق . وقد روى شاهد عيان انه شاهد أربعين رجلاً يصطفون أمام الأسوار لاجلاسهم على الخازوق الواحد بعد الآخر ، ولم ينج من بطشه حتى رجال حاشيته فكثير منهم فروا خفية ، أمثال الياس ابراهيم اده الذي فر الى الشوف ويوسف القرداحي الذي فر الى أوروبا . أما مديرا ماليته مخائيل وبطرس السكروج فقتلهما وصادر اموالهما كما أنه جدع انف خازنه حاييم فارحي اليهودي وقلع عينه وأودعه السجن حيث بقي فيه الى حين وفاة الجزار . كما كان يضع الأحياء ضمن الأسوار ويأمر بالبناء عليهم وقد شوهدت فيما بعد كثير من الهياكل العظمية ضمن الأسوار لدى تساقط بعض حجارتها . وعند عودته من الحج في احدى المرات وشكه في خيانة احدى جواريه روى انه نضا عنها ثيابها ثم قطع ثدييها وبعد ذلك بقر بطنها وألقى باحشائها الى السقف ثم أمر باضرام كومة من الحطب حرق فيها ٣٧ من جواريه اذ كان يقبض على الواحدة منهن من شعرها ويلقيها في النار . وفي رواية أخرى انه جعل كلا منهن في كيس وضع فيه ثعباناً وهرة ثم أمر بالقاء الأكياس في البحر .

وبعد حادثة الخيانة هذه داخله شعور بأن الناس يسخرون منه في قرارة نفوسهم وان لم يستطيعوا اظهار ذلك خوفاً ورعباً فتشفى منهم بصلم الآذان وجدع الأنوف وسمل العيون . ويروى انه أمر مرة أحد الحلاقين بسمل عين احدهم فارتجفت يد الحلاق ، فقام الجزار بنفسه في العمل بأن وضع اصبعه في عين المحكوم مقتلعاً عينه وملقياً بها في وجه الحلاق ليعلمه كيف يجيد حرفته . ومما يروى انه كان يقتل على هواه جميع طبقات الناس سواء كانوا من العامة أو من الخاصة أو من أرباب الحرف والصناعات كيفما اتفق ، ثم يطرحهم خارج الأسوار طعاماً للوحوش ثم يأمر المنادين أن يخرج أقرباء القتلى لدفن الموتى دون أن ينبسوا ببنت شفة وأن أية أمرأة تبدي عويلاً تقتل فوراً .

عاش الجزار بعد انتصاره على نابليون في عكا خمس سنوات وكانت وفاته عام ١٢١٩ هـ ـ ١٨٠٤ م فتبارى الشعراء في ذمه وتعداد مظالمه مؤرخين ذلك .

علي بك الكبير

ولمشاركة ناصيف النصار بالحلف الذي قام بين علي بك الكبير وبين ظاهر العمر مشاركة فعّالة كما بيناه في البحث المنشور عن ناصيف في المجلد الأول من (المستدركات) لمشاركته هذه ننشر الدراسة التالية عن علي بك رأس ذلك الحلف ، وعن أبي الذهب وهو المؤثر الكبير فيه وعن وقائع الحلف ونتائجه ليلم القارىء إلماماً كافياً بذلك الحدث .

وما ننشره هنا مكتوب بقلم الدكتور محمد فؤاد ؛ على انه لا بد قبل قراءته من الرجوع الى البحث المنشور في المجلد الأول من (المستدركات) ، لأن الكاتب هنا لم يتطرق الى ذكر مشاركة ناصيف في الحلف المصري الفلسطيني ، في حين أننا ذكرنا ذلك مفصلاً هناك :

يسبق مجيىء الحملة الفرنسية الى مصر ، العهد العثماني ـ المملوكي وهو يبدأ في الثلث الأول من القرن السادس عشر عندما فتح العثمانيون هذه البلاد على يد سلطانهم سليم ، ومنذ أن قرئت الخطبة باسمه في مساجد القاهرة في ٢٤ يناير سنة ١٥١٧ خضعت الديار المصرية لحكم آل عثمان ، فظلت في حوزتهم مدة الخمسة قرون التالية تقريباً ، وفي سبتمبر من العام نفسه غادر سليم مصر وترك في نيابة القاهرة خير بك وهو من مماليك السلطان الغوري ونائبه في حلب، وكان قد انضم إلى العثمانيين ، فاستمر خير بك يشغل هذا المنصب حتى وفاته في نوفمبر ١٥٢٢ ، ثم تعين باشاوات آخرون كانوا يحضرون من القسطنطينية .

ترتيب الديار المصرية :

وفي أثناء إقامته عنى السلطان سليم بوضع القواعد ورسم المبادىء العامة التي قام عليها ترتيب الديار المصرية ، وكانت هذه القواعد والمبادىء العامة تستند على أصول قديمة ترجع إلى عهد يوسف عليه السلام ، ذلك أنها متأثرة في الحقيقة بوقائع الحياة المصرية وظروفها في العصور المختلفة . وأما الفضل في تدعيم هذا الترتيب فيرجع إلى السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦)، إذ حدد قانونه حقوق وواجبات الهيئات المتنوعة التي اضطلعت بشؤون الحكم والإدارة .

وكانت الحكومة في العهد العثماني ـ المملوكي تتألف من الباشا ، وهو الذي يحضر من القسطنطينية لينوب عن السلطان في الحكم ، وهو أيضاً غير الوالي ، « زعيم مصر . . . الذي يتبصر في القاهرة وخدمته إزالة الخواطي وهم النساء الفاحشات ووقوع أولاد الزنا وعليه جرف الخليج الناصري » في كل سنة .

وقد رتب السلطان سليم للباشا « جنوداً وكتخدا [وهو الوكيل عن الباشا] ومهرداراً [أمين خاتمه] وخزنداراً [أمين صندوقه]، وترجماناً ذا فهم وفصاحة ، ورئيس ديوان وأغاوات [وهم الرجال من جند وموسيقيين ورسل في معية الباشا] وجعل سكنه بالسرايا التي هي داخل قلعة مصر [ورتب له أيضاً] ديوان أفندي ، [وصحتها ديوان أفنديسي وهو سكرتير

الديوان أو رئيس كتابه][1].

وإلى جانب الباشا أقام السلطان سليم ديواناً ، استعيض عنه بديوانين في عهد السلطان سليمان القانوني : الديوان الكبير ، والديوان الصغير ، وكان الأول يتألف من رؤساء الأوجاقات وهي الفرق العسكرية العثمانية ، وضباطها الأغوات ، وأمير الحج ورؤساء المذاهب الأربعة والقاضي ، « نائب عن السلطان في الأحكام الشرعية ، يحضر في كل سنة من اسلامبول إلى مصر وخدمته أن يحكم بين الناس بالوجه الشرعي » ، وكان للقاضي التركي نواب في القاهرة وفي الأقاليم ، ثم كبار أصحاب الوظائف والعلماء ، وأما الديوان الصغير فكان يتألف من كتخدا الباشا والدفتردار « وعليه الحضور في كل ديوان لتحصيل الأموال الميرية بموجب دفتر الروزنامجي » ، والروزنامجي « كبير الأفندية والحاكم عليهم ، وخدمته تحصيل الأموال الأميرية وصرفها في مرتباتها المرتبة بموجب دفتر السلطان سليم » ، وكذلك كان يحضر هذا الديوان الصغير مندوبون من الأوجاقات .

وكان الديوان الكبير يفصل في الموضوعات الهامة ، ولا يجتمع إلاّ بأمر الباشا ومع ذلك فقد كانت له سلطة نقض أوامر الباشا نفسه ، وأما الديوان الصغير فكان ينعقد باستمرار للنظر في شؤون البلاد العامة ، وعلى الباشا القيام بتنفيذ قراراته.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الباشا كان مسلوب السلطة فعلاً في كل من الديوانين ، كما أن أصحاب الأثر الفعال في الحكم والادارة ، والعنصر البارز في حكومة مصر في ذلك العهد ، كانت الأوجاقات ، وهذه كانت ستة ، بلغ عدد رجالها عندما ترك سليم البلاد الأثني عشر أو الأربعة عشر ألفاً ، ثم أضاف إليها السلطان سليمان القانوني أوجاقاً سابعاً من المماليك الذين طلبوا خدمة السلطان ، فكان رجال الأوجاقات « هم أصحاب الكلام وعليهم الاعتماد، وهم المديرون بالقاهرة » ، ومن خدماتهم عدا حضور الديوان ، حفظ القلاع في الحدود المصرية وتحصيل الأموال الأميرية ، والإشراف التام في القاهرة على الباشا ورجاله سواء بواسطة كبراء الأوجاقات المقيمين في القاهرة ، أو بواسطة من يقيم منهم في الأقاليم وعلى الخصوص ، الجوربجية ؛ وكان أوجاق (الانكشارية) أهم هذه الأوجاقات السبعة[2] (فالانكشارية هم أوجاق السلطان) ولأغا الانكشارية الرياسة العليا على ضبط القاهرة ، ومنهم كبار أصحاب الوظائف كالتخدا ، والجوربجية [ويطلق في الاستعمال العثماني على ضباط الانكشارية وعلى « مختاري القرى المتقدمين فيها ، أو بعبارة أخرى على أعيان الجهات »] ؛ وخلافهم .

وكان قوام الأداة الحكومية في الأقاليم « الصناجق » ، [مفردها صنجق ، من التركية سنجاق ، وهي العلم والقسم من ولاية كبيرة ، والحاكم على قسم من الولاية] ؛ وهم أصحاب الحكم وعددهم متغير ، يحتفظ السلطان بتعيين صناجق الثغور الهامة ، وهم « قبودان اسكندرية ، وقبودان دمياط ، وقبودان السويس » ثم كتخداء الوزير أو الباشا ويحضرون من القسطنطينية ، وأما بقية الصناجق فيعينون في مصر ، ومنهم صنجق الخزنة وأمير الحج ، وحكام الولايات أو الأقاليم ، والخفر بالقاهرة ، ويلاحظ مما تقدم أن الصنجق لم يكن دائماً من حكام الأقاليم كما كان تعيين الصناجق ووكلائهم ويعرفون باسم (الكشاف) يحدث من بين البكوات المماليك المتنافسين على هذه الصنجقات ، ونتيجة ذلك أن أصبحت الحكومة الأقليمية في الحقيقة في أيدي البكوات المماليك .

فوضى الحكومة

وعلى ذلك فقد شاهد العهد العثماني ـ المملوكي في مصر وجود سلطات ثلاث : الباشا ، والأوجاقات ، والمماليك ؛ ولما كانت حكومة الآستانة تكثر من تولية الباشاوات وعزلهم ، وكان هؤلاء في خلاف مستمر مع رؤساء وضباط الأوجاقات ، وهذا بينما تعوّد الجند العثماني ورجالهم الحياة الهادئة في مصر، فقد انفسح المجال لانفراد المماليك البكوات بالسلطة الفعلية في البلاد تدريجياً ، وبخاصة لأن هؤلاء كانوا أقرب في الحقيقة إلى المصريين في حياتهم وأعرف بشؤونهم من السلطات الأخرى . ومن أواخر القرن السابع عشر استتب للبكوات المماليك الأمر من غير منازع ، بسبب انشغال الدولة العثمانية بحروبها في أوربا وكذلك استفاد البكوات المماليك من حروب تركيا في القرن التالي لدرجة أن طغى نفوذهم على كل سلطة للباشا ، وصارت لزعيمهم الذي عرف باسم « شيخ البلد » الكلمة العليا ، يعزل الباشا ويقيم على حبسه في القلعة ، ثم طمع البكوات المماليك في الانفراد بكل سلطة وطرد العثمانيين من البلاد وقطع صلاتهم بتركيا .

البكوات المماليك

على أن العهد الذي حاول في خلاله هؤلاء البكوات المماليك الاستئثار بالسلطة كان في الحقيقة عهد فوضى واضطراب ، استمر طيلة القرن الثامن عشر . ولعل أهم ما يلاحظ فيه ، ذلك النضال المستمر بين البكوات أنفسهم وجماعاتهم في سبيل التمتع بالحكم مع ما يجره ويسببه هذا النضال من إغفال تام « للباشا » الذي كان يقابل عند تنصيبه وحضوره إلى مصر بكل حفاوة واحترام ظاهرين في مبدأ الأمر، حتى إذا استقر به المقام قليلاً بدت له الحقيقة الواضحة ، وهي أنه مسلوب السلطة والنفوذ الفعلي ؛ ثم إنزال صنوف الإرهاق بالأهالي الذين قد تربطهم الظروف بساحة هؤلاء المتخاصمين ، بينما تظل الأكثرية ، ما دامت بعيدة عن مناطق النزاع ، لا يحيق بها سوى السوء المترتب على هذه الفوضى عموماً . والواقع أنه ما كان يشترك في هذه المنازعات المملوكية سوى البكوات وأتباعهم وأهل بيوتهم . وكان مثار النزاع هو التنافس على « مشيخة البلد » .

وأما تتبع هذا النزاع فهو قصة طويلة[3]، تبدأ بظهور المناقشة بين بيتين من بيوت المماليك : القاسمية وكان منهم شيخ البلد ، وذو الفقارية وكانوا يطمحون إلى المشيخة ، وكثيراً ما لجأ المتخاصمون من أهل هذين البيتين إلى فض منازعاتهم خارج القاهرة في المنبسط القريب من (قبة العرب) ، حتى إذا استلم مشيخة البلد اسماعيل بك ـ وهو من القاسمية ـ استطاع أن يجمع مؤقتاً كلمة المماليك في هدنة على أساس معارضة « الباشا » وبفضل ذلك تمكن اسماعيل بك أن يتمتع بمنصب المشيخة مدة الستة عشر عاماً ، حضر إلى مصر في أثنائها ، ثم غادرها إلى الآستانة ، عدد من الباشوات بلغوا خمسة عشر ؛ ولو أن هذا بطبيعة الحال لم يكن معناه استتباب الهدوء في القاهرة طوال هذه المدة . فقد ظلت الاشتباكات بين المماليك وبكواتهم كما كانت ، حتى قتل اسماعيل بك نفسه في عام ١٧٢٣ . وقد أثار مقتله النضال الشديد بين القاسمية والفقارية حتى استطاع عثمان كاشف ، وكان يتبع الفقارية ، أن يصل إلى مشيخة البلد (١٧٤٠). ومع أنه كان إدارياً ماهراً ، فقد واجهته صعوبات سببها انتشار الوباء ، والمجاعة التي تلت ذلك ، ثم ما كان يخشاه من ازدياد نفوذ ابراهيم كتخدا الانكشارية واسماعيل رضوان كتخدا العرب . وقد استطاع كلاهما الوصول إلى مرتبة

(١) شفيق غربال بك . مصر عند مفرق الطرق ص ١١ . وهامش ٢ من الصفحة ذاتها .

(٢) وهي : متفرقة ، وجاوشان ، وجمليان ، وتفكشيان ، وجراكسة ، ومستحفظان ، وعزبان . راجع شفيق غربال بك ص ١٧ وما بعدها .

(٣) Delaporte . PP. 324 — 363 .

البكوية ؛ وعندما حاول عثمان كاشف التخلص منهما سبقاه إلى العمل واضطراه إلى الهروب إلى سوريا (١٧٤٢) ، ثم اقتسما السلطة فيما بينهما ، فاستولى ابراهيم بك على منصب المشيخة ، واستأثر رضوان بك بأمارة الحج ، ثم تبادلا فيما بينهما هذين المنصبين ، حتى إذا أسرف ابراهيم في إظهار جبروته انتهز الباشا العثماني فرصة غيابه في الحج ، فعضد مكيدة كانت تدبر في الخفاء للتخلص من الصديقين معاً ، وتمكن المتآمرون فعلاً من حبس ابراهيم ورضوان في القلعة ؛ ولكن لم يلبث أن أخفق المتآمرون فخرجا من الحبس ، وعُزل الباشا . وعندما نُصّب الباشا الجديد (١٧٤٤) وهو راغب محمد ، أمره الباب العالي بقتل شيخ البلد والبكوات المناوئين ، وتقرير النظام في مصر . وبالفعل قُتل جماعة من البكوات ، واضطر آخرون ومنهم ابراهيم إلى الفرار ، ولكن راغب محمد باشا لم يلبث أن عُزل واستطاع ابراهيم أن يستعيد المشيخة في عام ١٧٤٧ وفي عام ١٧٥٤ قتل ابراهيم فخلفه في المشيخة رضوان ولكنه لم يلبث أن لقى حتفه هو الآخر . على أن أهم ما يلاحظ في أثناء هذه الفترة التي كان لابراهيم ورضوان في خلالها السلطة (١٧٤٧ - ١٧٥٤) ، أن اختفت الاضطرابات واستتب الأمن وهدأت الحياة نوعاً .

علي بك الكبير

وقد برزت في خلال ما تقدم شخصية ذات أثر في الحوادث التالية هي شخصية علي بك ، أحد مماليك إبراهيم بك . والواقع أن علي بك بفضل الحكومة القوية التي أقامها في السنوات التي خلصت له فيها السلطة ، والشهرة التي تمتع بها بين معاصريه لا يزال يستأثر بانتباه الكتاب والمؤرخين . وينقسم الرأي ويختلف في تقدير آثار حكومته على البلاد وعلى أهلها عامة ، ولعل السبب في ذلك أن مصر خرجت في عهده ، ولفترة قصيرة ، من الدائرة الضيقة التي فرضتها المنازعات أو الفوضى الداخلية حولها فاشرأبت بعنقها إلى ما وراء حدودها ومدت سلطانها إلى البلدان المجاورة ، وكانت لها صلات سياسية مع إحدى الدول الأوربية الكبيرة في ذلك الحين وهي روسيا ؛ الأمر الذي دعا جماعة إلى تحديد غرض علي بك من نضاله المستمر الطويل بالاستقلال عن تركيا تحقيقاً لرغبة « وطنية » وإرضاءً « لشعور قومي » ؛ وقد استند أصحاب هذا الرأي في قولهم على تمجيد صاحب (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، لهؤلاء الأمراء المصريين،عموماً وثنائه على حكومة علي بيك خصوصاً ؛ وما ذكره الرحالة الفرنسي (سافاري) في إحدى خطاباته عن عدالة البيك الصارمة فقال ما معناه « إن المصريين سعدوا ولا شك عدما أصبحت النزاهة عنوان الأدارة الحكومية »، وظفروا تحت حكومة علي بيك بذلك « العصر الذهبي » الذي انتظروه طويلاً[1].

يرون شيئاً من « الوطنية » و« القومية » في نشاط علي بيك ، لأن مصر في القرن الثامن عشر ما كانت تعرف شيئاً عن الوطنية والقومية ؛ ولم يُسبب نوع الحكم الذي أنشأه المملوك الكبير انتشار الرخاء في مصر حتى « يسعد » المصريون في هذا « العصر الذهبي » الموهوم ؛ بل إن الرحالة الإنجليزي (جيمس بروس) الذي زار القاهرة في أثناء أسفاره مرتين في سنتي ١٧٦٨ ، ١٧٧٣ كتب أنه لا يمكن أن يوجد على ظهر البسيطة حكومة أشد قسوة وظلماً وعدواناً وطغياناً من حكومة أولئك الأشرار الذين تتألف منهم حكومة القاهرة[2].

ومع ذلك فإن دراسة تاريخ علي بيك قد لا تخلو من الأهمية لأنها تبين أولاً كيف أن الضعف الذي لحق بالدولة العثمانية في القرن الثامن عشر من

(١) Savary . t . II. Letter XVI. p. 221

(٢) .Bruce . vol . I.p-.102

جراء الضربات التي انهالت عليها من الدول الأوربية وخصوصاً روسيا ، قد أوهن قبضتها على الأقاليم الأسيوية والأفريقية التي تألفت منها أمبراطوريتها ، فاضطربت أحوال العراق والشام ، واستفحل أمر الشيخ ظاهر العُمَر في عكا وفلسطين ، واستقل علي بك بملك مصر ، وانزوى الباشا العثماني في الحجاز بينما تنازع الشريفيون على الأمارة في مكة . والحق إن ثورة علي بيك في مصر ما كانت إلا مظهراً من مظاهر هذا الضعف الذي ألمّ بتركيا ومن آثار المرض الذي أنهك جثمانها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

وزيادة على ذلك ، فقد نجحت حركة علي بيك الاستقلالية في تحويل انتباه أوربا من جديد نحو إحياء الطريق البري للتجارة بين الشرق والغرب عبر برزخ السويس، ولو أن الفوضى التي تلت انقضاء عهد هذا المملوك لم تلبث أن جعلت من المتعذر الاستفادة من الطريق البري فلم يستقم أمره أخيراً إلا في عهد محمد علي باشا منشىء الدولة المصرية الحديثة .

تاريخ علي بك[1] :

ولد يوسف بن داود عام ١٧٢٨ في إحدى إمارات الأناضول من أسرة طيبة فكان أبوه من قسس الكنيسة الرومية وعنى بتربيته ، حتى حدث وهو في سن الثالثة عشرة أن وقع في أيدي جماعة باعته بعد ذلك إلى أحد التجار فأحضره هذا إلى مصر وباعه بدوره إلى إبراهيم بك ، واعتنق يوسف الإسلام وتسمى باسم (علي) ؛ وقد أتيحت لهذا المملوك فرصة الحج إلى مكة مع سيده إبراهيم بك شيخ البلد (١٧٥٠)، فأظهر من ضروب الشجاعة في النضال ضد البدو ما حببه إلى سيده ، فسماه « كاشفاً » ؛ وعندما أوقع الباشا العثماني راغب محمد ببعض البكوات المماليك على نحو ما تقدم ، انتهز إبراهيم بك هذه الفرصة فاستأثر بإحدى البكويات الخالية ، ورفع إليها مملوكه علي بعد أن حرره ، وقد أثار هذا العمل النقمة على ابراهيم من جانب أعدائه ومنافسيه وكان ذلك من أسباب قتله في النهاية . وأما علي بيك فقد صمم على الانتقام لسيده ، وأخذ من ذلك الحين يتذرع بالصبر والحيلة لبلوغ مأربه ، فاشترى العدد الوفير من المماليك ، وأغدق العطايا على الأصدقاء والأعوان ، حتى قوى شأنه لدرجة أثارت عليه حفيظة خليل بك شيخ البلد ، فلم يجد علي بك مناصاً في تلك الآونة من الهروب إلى الصعيد ، وقتل خليل بك جماعة من أتباعه وأصدقائه ؛ ومع ذلك فقد جمع علي بك حوله كثيراً من المتذمرين من شياخة خليل بك ، ونزل بهم في النيل وقاتل خليل بك وأرغمه على الانزواء في طنطا حتى سقطت طنطا في أيدي علي بك ، وانتهى المطاف بشيخ البلد إلى الإسكندرية وهناك مات مخنوقاً ، وبموته انفسح المجال لعلي بك ، فتسلم الشياخة في عام ١٧٦٣ .

شياخته

وانكب علي بك بمجرد استئثاره بالحكم على الانتقام من قتلة سيده ، فنفّر منه قلوب البكوات المماليك وأوجد له أعداء كثيرين ، واضطرّ في النهاية إلى الفرار إلى بيت المقدس ؛ ومع هذا فقد ظل أعداؤه في مصر يخافونه ، وتوسطوا لدى الباب العالي فأمر الأخير حاكم القدس . بتدبير قتل علي بك . بيد أن أحد أصدقائه في الإستانة أسرع بإبلاغه ذلك ونصحه بالهروب من القدس، فغادرها علي بك إلى عكا ، وهناك استقبله حاكمها الشيخ ظاهر العُمَر بالحفاوة والإكرام . وفي عكا استطاع علي بك إنشاء الصلات مع بعض البكوات الموالين له في مصر ، كما كتب الشيخ ظاهر إلى أصدقائه في مصر حتى يسعوا لدعوة علي بك ، وبالفعل رجع علي بك ،

(٣) Lusignan، S. A History of the Revolt of Ali Bey etc.. London 1784، Also، Delaporte pp. 346 — 355 ; Lockroy، E. Ahmed le Boucher. etc. Chap .I.

واستلم مشيخة البلد ؛ ومع ذلك فقد شعر أن مركزه في الشياخة لا يزال مهدداً ووجد أن يعتمد على الإدارة الطيبة الهادئة لضمان الاستقرار في منصبه ؛ على أن أعداءه سرعان ما انتهزوا فرصة وفاة الصدر الأعظم في الأستانة في تلك الآونة وكان من أكبر مؤيدي علي بك وأصدقائه ، فانقلبوا على شيخ البلد ، وأرغموه في عام ١٧٦٥ على الفرار إلى بلاد العرب ، فقضى علي بك هناك زمناً يستطلع أحوال البلاد والمدن الساحلية على البحر الأحمر ، ثم لم يلبث أن ذهب إلى فلسطين في ضيافة صديقه الشيخ ظاهر ، ولبث هناك حتى جاءته الدعوة للمرة الثانية من مصر للعودة إليها فرجع إلى القاهرة (١٧٦٦)، ولم يستقر له المقام بها نهائياً إلا في العام التالي .

وفي مدة السنوات الست التالية استتب الحكم لشيخ البلد ، فأنزل العقاب ببدو البحيرة الذين كانوا قد لجأوا إلى الثورة بمجرد عودته إلى القاهرة فنهبوا وعاثوا فساداً في الوجه البحري ، وعهد علي بك بعقابهم إلى أحد مماليكه (أحمد) فقَتل من البدو الكثيرين حتى لقّب من ذلك الحين (بالجزار) ، وهو أحمد باشا الجزار الذي دانت له فيما بعد باشاوية عكا . ثم طفق علي بك يحكم البلاد حكم المستبد المستنير ، فهو كما يقول الجبرتي[1]: «قدتتبع المفسدين والذين يتداخلون في القضايا والدعاوى ويتحيلون على إبطال الحقوق بأخذ الرشوات والجعالات وعاقبهم بالضرب الشديد والإهانة والقتل والنفي إلى البلاد البعيدة ، ولم يراع في ذلك أحداً سواء كان متعمماً أو فقيهاً أو قاضياً أو كاتباً أو غير ذلك بمصر أو غيرها من البنادر والقرى ، وكذلك المفسدون وقطاع الطريق من العرب وأهل الخوف ، وألزم أرباب الإدراك والمقادم يحفظ نواحيهم وما في حوزتهم وحدودهم وعاقب الكبار بجناية الصغار ، فأمنت السبل وانكفت أولاد الحرام وانكمشوا عن قبائحهم وإيذائهم بحيث أن الشخص كان يسافر بمفرده ليلاً راكباً أو ماشياً ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أية جهة ويبيت في الغيط أو البرية آمناً مطمئناً لا يرى مكروهاً أبداً .» .

وحتى يقوى مركزه أكثر علي بك من جمع الأعوان حوله فرفع في أثناء هذه السنوات الست إلى رتبة البيكوية ستة عشر من مماليكه كما رفع أحدهم إلى مركز أغا الانكشارية ، وكان من هؤلاء محمد بك أبو الذهب واسماعيل بك وطنطاوي بك وغيرهم ، كما زاد عدد مماليكه إلى الستة آلاف، وضم إليهم عشرة آلاف مغربي ، وقد درب علي بك هذه القوة الكبيرة من الجند على النظام الصارم ، كما عنى بتعليم وتدريب مماليك بيته ، وأغدق النعم على الماهرين منهم والمخلصين له ، حتى اشتد بأس جماعته وكذلك لم يغفل علي بك « صالح الشعب » ـ كما يقول (سافاري) ـ فأخضع العربان المنتشرين في الصحراء وعلى الحدود ، واهتم بإنعاش الزراعة ، واستقر الأمن في القرى، واطمأن الناس لعدالته الصارمة . وعندما حاول أعداؤه الوقيعة به (١٧٦٨) كشف مكيدتهم أبو الذهب .

استقلال علي بك :

على أنه سرعان ما حدث من الحوادث ما عكر صفو هذا الهدوء النسبي في مصر، وأدى بدوره أيضاً إلى امتداد نفوذ البك الكبير إلى ما وراء الديار المصرية ، فقد حدث في عام ١٧٦٨ ان قامت الحرب بين روسيا وتركيا ودخلت الأساطيل الروسية في البحر الأبيض، واستعد (شيخ البلد) في مصر ـ كما جرت العادة ـ لإعداد قوة من المقاتلة لمعاونة الباب العالي في هذا النضال ، وبالفعل جهز علي بك حوالي الأثني عشر ألف مقاتل ، ولكن أعداءه انتهزوا هذه الفرصة فأوقعوا بينه وبين الباب العالي عندما أرسلوا بأخبار هذه الاستعدادات إلى الأستانة وذكروا أن غرض علي بك منها إنما هو إرسال الإمدادات للقتال في صفوف الروس الذين عقد معهم شيخ البلد ـ على حد قولهم ـ معاهدة تحالف ضد الدولة العثمانية . وصدق الباب العالي هذا القول فأرسل إلى مصر رسولاً لقتل علي بك ، ولكن أصدقاء شيخ البلد في الأستانة أسرعوا بإخباره ، فكمن رجاله لهذا الرسول في الطريق وقتلوه قبل بلوغه القاهرة ، واستولوا على أوراقه . وعندئذ جمع علي بك مماليكه وأعوانه وأطلعهم على كافة ما جرى ، كما أراهم الفرمان الذي كان يحمل قتله ، ثم أظهر لهم غدر الباب العالي وسوء نيته نحو كافة من تسلموا الشياخة من البكوات المماليك ، وحضهم على الالتفاف حوله ، وضم قواتهم إلى روسيا ، وتخليص الديار المصرية من ربقة الظلم العثماني بزعامته نهائياً ؛ وهكذا نبتت الفكرة الاستقلالية لدى علي بك ، ولو أن الرأي يتفق على أن شيخ البلد كان دائماً صاحب أطماع واسعة منذ أن تسلم الشياخة ، فقد كتب الرحالة الفرنسي (فولني)[1]الذي زار مصر بعد أن انقضى عهد علي بك بسنوات قليلة : « أنه بمجرد أن اجتمعت أسباب السلطة بأكملها في أيدي علي بك عزم على استخدامها لزيادة نفوذه وسلطانه ، فإن أطماعه ما كانت تقنع بلقب الحاكم أو القائمقام ، لأن سيادة الأستانة كانت تجرح كبرياءه ؛ فهو لا يريد أقل من لقب سلطان مصر لنفسه . وعلى ذلك فقد اتجهت كافة أعماله نحو تحقيق هذا الهدف» .

وبالفعل طرد علي بك الباشا العثماني، وامتنع عن دفع الجزية للباب العالي ، ثم صك النقود باسمه (١٧٦٨) ؛ وأسرع بإخبار الشيخ ظاهر بما فعل ووعده بأرسال الجند له من مصر للاشتراك مع جند ظاهر في فتح سوريا .

ولم يلق علي بك في كل ما فعل أية مقاومة من جانب الدولة العثمانية، فسمع أن الباب العالي كان ينقم ولا شك على ضياع البقية الباقية من مظاهر سلطانه في مصر ، فإن مجرد الغضب كان لا يكفي لإرجاع مصر إلى حظيرة الدولة ، وكان يتحتم عليه خوض غمار الحرب ضد شيخ البلد ، الأمر الذي ما كان يستطيعه بسبب ثورة الشيخ ظاهر في عكا والشام ومشاغل تركيا بمسألة بولنده ، وأخيراً بالحرب مع روسيا .

ـ فانتهز علي بك هذه الظروف المؤاتية وشرع يوطدنفوذه في الصعيد حتى استتب سلطانه نهائياً في الوجه القبلي (١٧٦٩) ، وصار يستعد لإرسال الامدادات لحليفه الشيخ ظاهر في الأراضي الشامية .

الشيخ ظاهر [2].

وكان حدوث ثورة الشيخ ظاهر الذي استأثر بالحكم في عكا بين عامي ١٧٥٠ ، ١٧٧٦ مثالاً آخر من أمثلة ضعف الدولة العثمانية وعجزها ، فكما أنها لم تجرؤ على مناصبة شيخ البلد في مصر العداء ، فهي قد اضطرت أيضاً إلى التسامح مع ظاهر العُمَر الزيداني (أو الظاهر عمر)[3] من مدة طويلة ، فتركه يقوي موقع عكا ويبني حولها القلاع ، ويتخذ الوسائل التي تكفل له تدعيم نفوذه من غير ممانعة . وكان الباب العالي يعتمد على باشا الشام عثمان (ابن العظم) ، في كسر شوكة ظاهر ؛ ولكن الأخير لم يلبث ان اشتبك مع والي دمشق في حروب انتصر عليه فيها .

وكان من جراء ما تكلفته هذه الحروب من مال ورجال أن ثارت الرملة ثم غزة ثم يافا ضد الباشا، وحوالي عام ١٧٦٨ طلب الشيخ ظاهر من الباب

(١) الجبرتي ج ١ صفحات ٣٨٤ ـ ٣٨٥ .

(٢) Volney ‹ t.I. p 97: also Delaporte — p 347.

(٣) Volney‹ t.II pp 1 — 15 ; Lammens. La Syrie. t.II. Chap. XV ; Lock — roy. pp.33 — 71 .

(٤) كما سماه الجبرتي. جزء أول . راجع أيضاً كتاب خطط الشام لمحمد كرد علي جـ ٢ : ص ٣٠٠ وما بعدها.

العالي أن يؤيده في حكومة عكا لمدة حياته ، وعلى أن يكون لأولاده من بعده الحكم فيها ، كما زاد على ذلك الرغبة في أن يقيمه الباب العالي حاكماً على الناصرة، وطبرية وصفد، ثم شيخاً على كافة بلاد الجليل إلى جانب شياخته على عكا .

وكان في هذه الظروف أن وعد علي بك الكبير من مصر، على نحو ما تقدم، بإرسال الإمدادات إلى حليفه في عكا .

علي بك وفتح بلاد العرب

على أنه قبل إرسال الإمدادات إلى الشام ، تحول انتباه علي بك نحو بلاد العرب ، فقد رأى في اختلال الأحوال في الحجاز ، وعجز الدولة العثمانية عن تأييد سلطانها في هذه الأصقاع النائية فرصة سانحة لتوسيع أملاكه . فقد سبق أن زار بلاد العرب ووقف على أهمية جـدّه ومخا التجارية ، كما يبدو أنه كان متأثراً لدرجة ما في مشروع فتح بلاد العرب بآراء التاجر البندقي ، كارلو روسيتي Carlo Rossetti ، وكانت له صداقة وثيقة مع علي بك وتأثير عليه[1] فأراد علي بك أن يجعل جدة مقر تجارة الهند فيحول بهذا العمل التجارة الشرقية من طريق رأس الرجاء الصالح إلى الطريق البري القديم عبر مصر كما ذكر (فولني) (جزء أول ص ٩٨) ؛ ولو أنه من المحتمل أن علي بك إنما قصد أيضاً من هذه الحملة إحراز المجد والشهرة بالاستيلاء على الحرمين الشريفين ، أو مجرد أشباع الرغبة في امتلاك الأقاليم الواسعة ولما كان « غرضه الباطني » كما كتب الجبرتي (جـ ١ : ص ٢٥٣) « هو طمعه في الاستيلاء على الممالك » . وعلى كل حال فقد جاء إلى مصر في عام ١٧٧٠ الشريف عبد الله ، وكان في نزاع مع ابن عمه الشريف أحمد على إمارة مكة ، يطلب المعونة من علي بك ، مهيئاً له الفرصة بذلك لتحقيق مشروعاته . فما أن استتب لعلي بك الأمر في مصر، واطمأن على حليفه الشيخ ظاهر الذي أرسل له الرسل بانتصاراته على والي الشام حتى طفق يستعد لحملة بلاد العرب، وعندما كملت هذه الاستعدادات ، خرجت التجريدة في شهر صفر من سنة أربع وثمانين ومائة وألف (مايو : ١٧٧٠) .

وقد قسم علي بك قواته إلى قسمين إحدهما بقيادة محمد بك أبو الذهب ومهمته مهاجمة البلاد الداخلية ، والآخر بقيادة اسماعيل بك ومهمته مهاجمة المدن الساحلية ، كما أعد أسطولاً من السفن لنقل المؤن والذخائر للجيوش، ونجحت التجريدة فانتصر الفاتحون في ينبع وقتل وزيرها المتولي من طرف شريف مكة ، ودخل أبو الذهب مكة وأوقع بالشريف أحمد هزيمة بالغة ففر هارباً ، وجلس الشريف عبد الله في أمارة مكة ونزل حسن بك إلى بندر جدة (ولذلك سمي بالجداوى) وتولى أمارتها عوضاً عن الباشا الذي تولاها من طرف السلطان العثماني .

ورجع القائدان إلى مصر في أكتوبر من السنة نفسها . وقد أعطى الشريف عبد الله ، علي بك ، لقب « سلطان مصر وخاقان البحرين »[2].

الحملة على الشام

وهكذا قويت شوكة علي بك وشجعه نجاحه في الصعيد ثم في الحجاز على المضي في مشروعاته ، وقد أراد الآن بسط سلطانه على «العالم» وبخاصة عندما كان البك يصغي كثيراً لأفراد حاشيته الذين لمسوا فيه الغرور ، فطفقوا يحدثونه عن قوته وجبروته ، وكيف أنه يماثل السلطان العثماني في الأستانة في الجاه العريض والسلطنة ، حتى أصبح المملوك الكبير يمني نفسه بفتح تركيا ذاتها .

وكان مما سهل عليه الاقتناع بامكان ذلك « جهله بالجغرافية » ـ على حد قول فولني ـ ثم العادة التي جرى عليها اتباعه وأعوانه من تشبيه مصر بتركيا ؛ وكان من المنتظر لذلك أن يذكر علي بك وعده السابق لحليفه الشيخ ظاهر ! ولو أنه على ما يبدو لم يكن غرض علي بك مجرد نجدة حليفه ومساعدته وإنما الاندفاع في طريق الفتح لمصلحته ، وإخضاع بلاد الشام كخطوة أولى تمهد في النهاية لغزو تركيا وفتحها ، فالشام قريبة من مصر ، ومن شأن ثورة حليفه ظاهر واضطراب الأحوال في سوريا منذ أن تذمر أهلها خاصة من التكاليف التي فرضتها عليهم حروب والي دمشق مع الشيخ ظاهر ، ثم مشغولية القوات العثمانية في النضال المستمر بين الدولة وروسيا ! فقد كان من شأن ذلك كله أن يجعل غزو بلاد الشام سهلاً ميسوراً .

وقد وجد علي بك وهو مقدم على ذلك الغزو أن ينشيء الصلات السياسية مع روسيا عدوة العثمانيين الكبرى، ويسعى لمحالفتها .

وكان للعلاقات التي أوجدها علي بك مع روسيا بعض الأثر في الحوادث التالية . ذلك أنه كانُ من خطة قيصرة روسيا كاترين الثانية في حربها مع الدولة العثمانية إثارة شعوب البحر الأبيض الخاضعة للحكم العثماني ضد الباب العالي، وتحقيقاً لهذا الغرض ، خرج الأسطول الروسي إلى البحر الأبيض، وكان للكونت الكسيس أرلوف (Alexis Arlow) القيادة العليا، فاستولى الأسطول على جزر الأرخبيل وتجول في مياه البحر الأبيض (١٧٧٠ ـ ١٧٧١)؛ وكان (أرلوف) ببحريته مستعداً لتلبية نداء أعداء السلطان العثماني ومعاونتهم ، وقد طلب علي بك هذه المعاونة في أثناء حملته على سوريا .

ولم يكن من المتعذر على « سلطان مصر » تلمس الأسباب لإرسال الجيوش على الشام ، فهو منذ مارس ١٧٦٧ كان قد كتب إلى الباب العالي يشكو من « عثمان بك ابن العظم والي الشام»، ويطلب عزله بسبب انضمام بعض المصريين المطرودين إليه ومعاونته لهم ؛ واستطاع علي بك بسبب تذمر أهل الشام من ولاية عثمان هذا أن يظهر الآن بمظهر المحرّر لهم من طغيان واليهم . وبالفعل أصدر منشوراً في ديسمبر ١٧٧٠ ، أعلن فيه أنه لما كان المولى سبحانه وتعالى قد بارك جيشه وأغدق عليه نعماءه ـ بانتصار جنده ولا شك في الحجاز والاستيلاء على الحرمين الشريفين ـ فهو مضطر إلى استخدام هذه القوات لتخفيف ويلات أهل الشام والقضاء على طغيان عثمان باشا في سوريا . وأما الجيش الذي أرسله بقيادة محمد بك أبي الذهب للزحف على الشام بطريق الصحراء فقد بلغ الأربعين ألفاً ، بينما رتب في الوقت ذاته سفناً لنقل الميرة من دمياط إلى عكا .

وأحرز جيش المماليك جملة انتصارات ، فوصل أبو الذهب أمام غزة في مارس ١٧٧١ وفتحها ، ثم استولى على الرّملة بعد حصار شهر تقريباً ، ثم حاصر نابلس حتى أنهكتها المجاعة ففتحت أبوابها ، ثم تقدم صوب بيت المقدس، فلم يخلصها سوى اتفاق شيوخها وكبرائها على تسليمها له سلماً إذا سقطت دمشق في قبضته ، فانصرف عنها واتجه صوب يافا واستولى عليها ، ثم ذهب إلى عكا حيث قوبل بكل حفاوة ، وقد لقي أبو الذهب في أثناء هذه الحملة كل تعضيد ومعاونة من الشيخ ظاهر الذي ساعده بالنصح تارة وبالإمدادات تارة أخرى، حتى اضطر العثمانيون إلى القهقرى ووجد عثمان باشا السلامة في الهرب ، واستفاد الشيخ ظاهر بدوره من هذه الانتصارات التي ساهم فيها فائدة كبيرة فدانت له يافا والرملة واللدّ . وأما أبو الذهب فقد استطاع أن يفتح صيدا أيضاً ، قبل الزحف بالاشتراك مع جند

(١) Bruce. vol I. p. 105.

(٢) Savary. t. II. Lettre XVI.p.231

حليفه ظاهر على دمشق نهائياً في ابريل ١٧٧١ .

المحالفة مع روسيـا :

بيد أن علي بك الذي ظل في مصر، كان في أثناء كافة هذه الحوادث يعمل لتأييد مجهوداته العسكرية بالوسائل الدبلوماسية عن طريق الاتفاق والتفاهم مع أعداء الدولة العثمانية . فهو منذ ١٧٧٠ قد أرسل (روستي) التاجر البندقي إلى جمهورية البندقية حتى يعرض محالفة علي بك مع الجمهورية ويدعوها إلى الاستيلاء على الجزر والبلدان التي كانت للجمهورية سابقاً في حوض البحر الأبيض، ويعدها بالمساعدة بكل ما يملك من القوات في مصر كما تعهد بتدعيم تجارتها القديمة في بلاده . وكذلك كتب علي بك إلى الأميرال الروسي الكونت أرلوف في ليفورنه يعرض عليه عقد محالفة مع قيصرة روسيا على أساس أن يمده علي بك بالأموال والمؤن والجند في النضال ضد تركيا ، في نظير أن يرسل إليه الروس المهندسين لاستخدامهم في أعمال الحصار ، كما كان علي بك في حاجة شديدة إلى الضباط الروس لتنظيم جيشه وتدريب جنده على فنون الحرب الأوربية . وقد أسفرت هذه المساعي الدبلوماسية عن فشل ونجاح في وقت واحد؛ فأما الفشل فهو لأن البندقية لم تشأ العمل بالمشروع الذي عرضه عليها (سلطان مصر) ؛ وأما النجاح ـ وكان نسبياً فهو لأن الكونت أرلوف أسرع بالرد على مكاتبات البك وشكره وشجعه على المضي في خطته . وبذل له الوعود الضخمة العظيمة كما تعهد بإرسال مكاتباته إلى قيصرة روسيا .

سقوط دمشق

والحق أن موقف والي الشام كان في غاية الخطورة ، بسبب حرج مركز الأتراك الذين استغرقت الحروب الروسية كافة نشاطهم في الشمال ، فلم يتمكنوا من إرسال النجدات إلى الميادين الشامية ، فكان من واجب عثمان باشا الاعتماد كلية على موارده في الدفاع عن ولايته .

ولكن علي بك الذي شاهد مملوكه يحيط به الرجال والأعوان من كل جانب ، لم يلبث أن فضل السكوت خشية من الاصطدام معه ، وطفق من ثم يدبر في الخفاء وسيلة للتخلص منه ، ومع ذلك فقد أخفقت هذه المساعي واستطاع أبو الذهب الخروج من القاهرة إلى الصعيد ؛ وهناك جمع جيشاً انضم إليه كثيرون من المماليك المستائين من كبرياء علي بك وسطوته ونزل بهذا الجمع إلى القاهرة ، بالقرب من الجيزة . وأما علي بك فقد أرسل جيشاً لمقابلته بقيادة إسماعيل بك ، غير أن إسماعيل انضم إلى أبي الذهب ، وعندئذ لم يجد علي بك مناصاً من الانسحاب والالتجاء إلى حليفه القديم في عكا .

نهاية علي بك

فقد علي بك بسبب خيانة أبي الذهب ثمار المجهودات التي بذلها لفتح سوريا . ومع ذلك فانه لم يفقد الأمل في استعادة هذه الفتوحات ، فاستمر يرسل النجدات إلى الشيخ ظاهر ، وعندما خرج من القاهرة مع ثمانمائة من مماليكه ، سار تواً إلى غزة . بيد أن أهل نابلس ويافا لم يلبثوا أن أغلقوا الطريق دونه ، حتى حضر الشيخ ظاهر فأحضره إلى عكا . وقد اشترك جند علي بك بعد ذلك في تخليص صيدا التي كان يحاصرها الأتراك ، فانسحب العثمانيون ، ثم انهزموا في معركة حاسمة (يولية ١٧٧٢) ، ثم سلمت صيدا ، وانكب الحليفان بعد ذلك على معاقبة أهل يافا فضربوا حولها الحصار حتى سلمت (فبراير ١٧٧٣) ثم فتحت الرملة .

وكان علي بك عندما قرر الخروج من مصر إلى عكا قد أرسل إلى الكونت أرلوف يرجوه إرسال الذخائر وبعض الضباط لانتظاره في الشام ؛ وقد حمل مكاتبات علي بك إلى الأميرال الروسي ، الأرمني يعقوب ، وبالفعل ظهر جزء من الأسطول أمام عكا . فأرسل علي بك إلى أرلوف ثانية يطلب مدافع وبعض المهندسين مع جيش من الألبانيين يبلغ الثلاثة آلاف ، حتى إذا استطاع العودة إلى مصر واستقر به المقام في القاهرة ، أصبحت كافة قواته تحت تصرف الأميرال الروسي . وزيادة على ذلك فقد بعث علي بك أيضاً بخطاب إلى القيصرة كاترين يرجو منها المساعدة ويعرض عليها عقد معاهدة تجارية مع مصر ، وقد أقلعت السفن الروسية من عكا في مايو ١٧٧٢ ومعها ذو الفقار بك « سفير » علي بك . وقد عاد هذا السفير مع الأرمني يعقوب من مهمتهما ، وأرسل الكونت أرلوف خطابات الصداقة إلى علي بك مع ضابطين روسيين وثلاثة مدافع فقط ، استخدمت في أثناء حصار يافا ، كما اشتركت بعض السفن الروسية في ضرب يافا أيضاً ؛ ولكنها لم تلبث أن انسحبت قبل تسليم يافا . وكانت هذه كل المساعدة التي قدمتها له روسيـا .

بيد أن انتصارات علي بك لم تلبث أن أنعشت آمال أعوانه في مصر ، وكانت له صلات مع رؤساء الانكشارية وغيرهم من البكوات الذين ساءهم سلوك أبي الذهب وطمعه وجشعه ، فكتب له رؤساء الانكشارية وهم أصحاب السلطة الواسعة في القاهرة ، يطلبون عودته ، ثم تأثر علي بك بأقوال المعلم رزق الذي أكد له أن النجوم كلها تنبىء بانتصاره الحاسم وانهزام غريمه بمجرد عودته ، وكان علي بك من كبار المعتقدين بصدق المنجمين فقرر العودة إلى مصر ، ولم يستمع لنصيحة الشيخ ظاهر الذي كان من رأيه الانتظار حتى تحضر النجدات الروسية من جهة ، وحتى يمهد الطريق لعودته ببذر بذور الشقاق والانقسام بين البكوات المماليك من جهة أخرى، والتأكد قبل رحيله من ولاء الجند له والاطمئنان على شخصه من الغدر والخيانة .

وعلى ذلك ، جمع علي بك جنده من المدن التي كانوا في احتلالها ، فوصل بهم إلى غزة في طريقة إلى مصر في مارس ١٧٧٣ ، ثم استأنف السير في الشهر التالي ، وكانت تبلغ قوته حوالي الخمسة آلاف مقاتل ويصحبه من أسرة ظاهر ابنه ، وزوج ابنته . وأما أبو الذهب فقد أرسل جيشاً يبلغ الإثني عشر ألفاً ، فتقابل الجيشان بالقرب من الصالحية وانتصر جماعة علي بك في مبدأ الأمر وانفتح الطريق إلى القاهرة ولكن أبي الذهب لم يلبث أن أثار حماس أتباعه من جديد، واتهم علي بك «بالكفر والإلحاد العميق المستقر في قلبه » كما رماه بالتحالف مع « الكفار » لاخضاع هذه البلاد حتى « يقضي على دين الرسول ويرغم أهلها على اعتناق المسيحية[1]» . وفي المعركة التالية حمي وطيس القتال ، وسقط من أنصار علي بك ، كل من طنطاوي ، وابن الشيخ ظاهر ، وعبثاً حاول الشيخ كريم (زوج ابنة الشيخ) إقناع علي بك بالخلاص بنفسه والذهاب معه إلى عكا ، فقد رفض علي بك الانسحاب وظل يقاتل حتى أصيب بجرح في رأسه وسقط عن جواده[2]» ، فأسر وحمل إلى مخيم أبي الذهب الذي « خرج إليه وتلقاه وقبل يده وحمله من تحت إبطه حتى أجلسه بصيوانه » وقد بكى أبو الذهب من تأثره . ولكن علي بك الذي نقل إلى القاهرة لم يلبث أن مات بعد أيام (١٥ صفر ١١٨٧ ـ ٨ مايو ١٧٧٣) متأثراً بجراحه كما يقول البعض ، أو مسموماً على يد أبي الذهب كما يقول آخرون وبوفاته أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها البلاد للتخلص من سيادة العثمانيين قبل عهد محمد علي . فلو أن علي بك استمع لنصيحة الشيخ ظاهر فانتظر النجدات الروسية ـ وقد وصلت هذه في ابريل ـ

(١) Savary .t.IIe Lettre XVI. pp. 248 — 9

(٢) Lusignan. pp. 145 — 153

وبذلت روسيا قبل ذلك مجهوداً أكبر مما فعلت ، لكان لحركة علي بك ولكان لروسيا ذاتها في الشرق شأن آخر . فقد كتب (سافاري)[1] تعليقاً على ذلك كله : « فلو أن روسيا عرفت كيف تستفيد من العروض التي عرضها عليها علي بك فأرسلت له المهندسين وأمدته بثلاثة أو أربعة آلاف من الجند المدربين ، لاستطاع علي بك أن يستأثر بالسيادة في الشام وفي مصر ؛ ولانتقلت بفضل ذلك تجارة العرب والهند إلى أيدي حلفائه الروسيين » . وقد علّل (بروس)[2] عدم إمكان الاتفاق بين روسيا وعلي بك بأن الروس كانوا من جانب ، لا يدركون مدى ما يمكن أن يؤدي إليه اتفاقهم مع المملوك المصري من نتائج بعيدة ، فهم لم يثقوا بعلي بك الثقة التامة ، ولم يوثقوا صلاتهم به ، ولم يزودوا أمراء البحر الروسيين بالتعليمات اللازمة ؛ وهذا بينما لم يوجد لدى علي بك ، من جانب آخر ، المفاوضون الحقيقيون ، والذين يستطيعون التفاهم مع المفاوض الروسي إذا وجد ، وهكذا تلكأ الفريقان ـ أو بالأحرى تلكأت روسيا ـ ، حتى إذا كان الاتفاق على وشك النجاح ، كانت الفرصة قد ضاعت من أيديهم ، وكان أعداؤهم قد انتهزوا ذلك لتعطيل ثمرة أية محالفة روسية ـ مملوكية نهائياً .

نهاية أبي الذهب

أما أبو الذهب فقد اعترف بالسيادة العثمانية كما كانت قبل ثورة علي بك ، ثم برّ الباب العالي من جانبه بوعده ، فأيّده في شياخة البلد ، وحضر إلى مصر خليل باشا ـ الباشا العثماني الجديد ـ وطلع إلى القلعة « على العادة القديمة » ، و « حضر ـ (لأبي الذهب من الدولة) ـ المرسومات والخطابات ووصل إليه سيف وخلعة ، فلبس ذلك في الديوان ونزل في أبهة عظيمة وعظم شأنه وانفرد بإمارة مصر » كما كتب الجبرتي في حوادث سنة ١١٨٩ هجرية ، وهي السنة التي توفي فيها أبو الذهب . وقد بلغ من حسن علاقته مع الباب العالي أنه استطاع التوسط في تعيين مصطفى باشا النابلسي لولاية مصر (يونيه ١٧٧٤) . ـ ثم وطد أبو الذهب العزم على الانتقام من الظاهر عمر ، صديق علي بك القديم ونصيره ، و « لاستخلاص ما بيده من البلاد » ، وطمعاً كما يبدو في ولاية الشام ذاتها ، فاستصدر فرماناً من الباب العالي لمقاتلة الشيخ ظاهر ، وخرج في مارس ١٧٧٥ ، وكان معه مراد بك ، ولم يكن أبو الذهب في هذه الحملة موفقاً ، فإنه لم يكد ينتصر على جند الشيخ ظاهر في يافا بعد حصار شاق عسير وفتكٍ بأهلها ، وتقدم صوب عكا التي تركها وحصونها الشيخ ظاهر ، فاستولى عليها ، حتى توفي فجأة في ٨ يونية ١٧٧٥ ، في الوقت الذي وافق الباب العالي فيه على تسميته لباشاوية مصر ذاتها . فحنطت جثته ونقلها مراد بك ودفنت في المدرسة التي أنشأها أبو الذهب تجاه الأزهر .

الفوضى المملوكية :

وهكذا كانت وفاة علي بك (١٧٧٣) ، ثم وفاة أبي الذهب (١٧٧٥) مؤذنة ببداية عهد من الإضطراب والفوضى في البلاد ، عندما تنازع على السلطة كبار المماليك من جماعة علي بك ومحمد بك أبي الذهب[3] وكان أظهر هؤلاء البكوات اسماعيل ، ومراد وإبراهيم ، وقد استطاع الأخيران الاستئثار بالنفوذ كله (١٧٧٩) ، فاقتسما فيما بينهما مشيخة البلد وأمارة الحج ، واستوليا على موارد البلاد وإيراداتها . ومذ عام ١٧٨٣ تقريباً امتنع البكوات عن إرسال الجزية إلى تركيا بدعوى أن الإيرادات المتحصلة من الضرائب لا تكاد تكفي لنفقات الإدارة ؛ ثم كان من أسباب الفوضى ووقوع الخصام من وقت إلى آخر بين ابراهيم ومراد ؛ وفي آخر الأمر قرر الباب العالي إرسال حملة لإخضاعهما وبخاصة عندما ساد الاعتقاد بأنهما إنما كانا يمعنان في الخروج على سيادة السلطان العثماني بفضل تأييد روسيا لهما . فقد فرغت تركيا من حربها السابقة مع روسيا من مدة ، منذ أن عقد صلح قينارجه (١٧٧٤) ، وتحولت الآن إلى الإقتصاص من الخارجين على سلطتها ، معتمده على مجهودات القبطان حسن باشا الذي أعاد تنظيم البحرية العثمانية فتمكنت تركيا بفضل هذه القوة الجديدة من النضال بنجاح ضد الشيخ ظاهر ومحاصرة عكا ، حتى قتل ظاهر وهو يحاول الفرار من وكره الحصين (في أغسطس ١٧٧٥[4]) ؛ وعلى ذلك فإن الباب العالي لم يلبث أن أرسل الآن الرسل إلى مصر في إبريل ١٧٨٦ ، يطلب من البكوات « الخزائن المنكسرة وتشهيل مرتبات الحرمين من الغلال والصرر في السنين الماضية[5] » ؛ وفي الشهر التالي وصلت إلى رشيد والإسكندرية دوتما عثمانية وجيش عثماني تحت قيادة القبطان حسن باشا لردع البكوات وإخضاع البلاد للسيطرة العثمانية ؛ وقد نزل حسن باشا إلى الإسكندرية في ٢٣ يونيه ، ثم زار رشيد ، وهناك قابله وفد من العلماء ومن الوجاقلية يحملون له الهدايا لمخاطبته وسؤاله « عن مراده ومقصده ، ويذكرون له امتثالهم وطاعتهم وعدم مخالفتهم ورجوعهم عما سلف من أفاعيلهم . » بيد أن هذه المحاولة أخفقت . وكان البكوات المماليك في أثناء ذلك يحاولون جمع الكلمة على المقاومة عندما اشتد قلقهم من مسلك القبطان باشا ، فقد « كتب عدة فرمانات بالعربي وأرسلها إلى مشايخ البلاد وأكابر العربان والمقادم » يستميلهم إليه ويعدهم برفع الظلم عنهم والانتقام « من خائني الدين إبراهيم بك ومراد بك وأتباعهما . » وقد أثبت الجبرتي صورة من هذه الفرمانات[6] . وكان مما قوى عزم البكوات المماليك على المقاومة ، التحذيرات التي كانت تأتيهم من جانب أحمد باشا الجزار .

احمد باشا الجزار

فقد تقدم كيف أن احمد الجزار (١٧٥٠ ـ ١٨٠٤) كان من مماليك علي بك ؛ وقد استمر في خدمته حتى إذا استفحل النزاع بين سيده وبين أبي الذهب ، ولم يجد في خدمة هذا الأخير طريقاً إلى الغنم والشهرة غادر البلاد ، ثم حط به المطاف بعد حياة شاقة في لبنان ، فدخل في خدمة الأمير يوسف بن ملحم الثاني الشهابي حاكم لبنان ، ثم خرج عليه وساعد الدولة في نضالها ضد الشيخ ظاهر بعد ذلك ، حتى كافأه الباب العالي بولاية صيدا ، ثم استولى على أملاك الشهابيين في البقاع . ومنذ عام ١٧٨٢ اتسع سلطانه واشتد بأسه لدرجة أقضت مضاجع رجال الدولة ، حتى إذا عزمت تركيا على معاقبة المماليك في مصر ؛ طلبت من الجزار باشا الخروج بحملة ضدهم . بيد أن الجزار كان لا ينظر بعين الارتياح إلى احتمال وجود القوات المقاتلة العظيمة العثمانية في أرضه خوفاً من انقلاب الدولة عليه ، كما كان من جهة أخرى على اتفاق مع البكوات المماليك في تدبير الثورة والخروج على سيادة العثمانيين . ولذلك فقد ظل يتلمس الأعذار بأحوال لبنان لأرجاء الخروج بحملته ، كما صار يحذر البكوات المماليك في مصر من نيات الباب العالي العدائية نحوهم[7] .

---

(١) Savary . t. IIe Lettre XVI pp.248 —

(٢) Bruce. vol. I. pp . 104 — 105 .

(٣) Saverye t II. Lettre XVII. pp. 258 — 276 ; Delaportee pp. 355 — 363.

(٤) De la jonquieree Histoire de l»Empire Ottoman. pp. 385 — 386

(٥) الجبرتي . ج ٢ : ص ١١٢ ـ ١١٣ .

(٦) الجبرتي . ج ٢ : ص ١١٦ ، ثم بعده صفحات ١١٦ ، ١١٧ .

(٧) Lockroy . pp. 166e 171 — 2 et seq .

ثم انظر كذلك محمد كرد علي . حـ ٢ : ص ٣١٣ وما بعدها ؛ ثم ج ٣ :

الحملة العثمانية وفشلها[1] :

وأخيراً خرج مراد بك لمقابلة حسن باشا قبطان ـ ولكنه انهزم ، ودخل العثمانيون القاهرة في أول أغسطس ١٧٨٦ ، وفر المماليك إلى الصعيد وعندما حاول القبطان باشا إخضاع الصعيد أخفق ، ثم لم يطل به المقام في مصر فاستدعي إلى تركيا بسبب قيام الحرب بينها وبين روسيا (سبتمبر ١٧٨٧). وهكذا استطاع البكوات المماليك استعادة سلطانهم في القاهرة ، وكان كل ما حدث بعد ذلك ، أن تم الاتفاق بينهم وبين صالح باشا (الوالي العثماني) في يونية ١٧٩٥ « على أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيساً موزعة ، وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ، ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق، ويبطلوا رفع المظالم المحدثة والكشوفيات والتفاريد والمكوس ما عدا ديوان بولاق ، وأن يكفوا أتباعهم من امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، ويرسلوا صرة الحرمين والعوائد المقررة من قديم الزمان ، ويسيروا في الناس سيرة حسنة[2] ». بيد أن هذا الاتفاق كان نصيبه الإهمال بعد شهر واحد فقط . وهكذا ظلت البلاد ترزح تحت أعباء هذه الفوضى، وخصوصاً في السنوات القليلة التي سبقت مجيء الحملة الفرنسية بين عام ١٧٩٤ ، ١٧٩٨ ؛ فكتب الجبرتي عن سنة تسع ومائتين وألف « لم يقع بها شيء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم »، وعن سنة ١٢١٠ هجرية « لم يقع بها شيء من الحوادث التي يعتنى بتقيدها سوى فعل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم». وعن سنتي ١٢١١، ١٢١٢ هجرية « لم يقع فيهما من الحوادث التي تتشوف لها النفوس أو تشتاق إليها الخواطر فتقيد في بطون الطروس سوى ما تقدمت الاشارة إليه من أسباب نزول النوازل وموجبات ترادف البلاء المتراسل ».

الشيخ نصر الله بن الشيخ هداية الله الشهير بالحاج مجتهد بن الشيخ صادق بن الشيخ محمد تقي الشهير بالشهيد الثالث البرغاني القزويني آل الشهيدي

ولد في قزوين في يوم الخامس من شهر رجب سنة ١٣٠٩ كما حدثني به وتوفي بها عصر يوم الاثنين ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٩٨ هجرية ونقل جثمانه الشريف الى النجف الأشرف ودفن في وادي السلام ، آل الشهيدي او آل الشهيد الثالث : فرع من آل البرغاني أحد بيوت كربلاء وقزوين العريقة وأسر العلم الشهيرة نبغ فيهم جمع من العلماء والفقهاء والفلاسفة والحكماء والشعراء وبزغ بدرهم أفق قزوين من القرن الحادي عشر الهجري منذ عهد جدهم الشيخ محمد كاظم الطالقاني المتوفى سنة ١٠٩٤ ثم اشتهر إلىٰ هذا البيت في القرن الثالث عشر الهجري بـ آل البرغاني حتى سنة ١٢٦٣ حين استشهد جدهم الشيخ محمد تقي البرغاني على يد البابيه فعرفوا بآل الشهيد الثالث او آل الشهيدي وينتهي نسبهم إلى آل بويه .

أخذ المترجم له المقدمات على جملة من علماء قزوين ثم حضر السطوح في المدرسة الصالحية على الشيخ حسين الأنصاري والشيخ ملا محمد الطارمي وملا علي الطارمي وفي سنة ١٣٢٦ هاجر الى اصفهان والتحق بحوزة السيد مهدي الدرچه إي المتوفى سنة ١٣٦٤ في الفقه والأصول وأخذ الحكمة والفلسفة من الآخوند ملا محمد الكاشاني المتوفى سنة ١٣٣٣ والمولى جهانكيرخان القشقائي المتوفى سنة ١٣٢٨ وفي سنة ١٣٣٢ توجه الى العراق قاصداً الحوزة العلمية الكبرى في كربلاء والنجف ثم سكن كربلاء زماناً ومنها استقر في النجف وحضر على الآخوند الملا محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية والسيد كاظم اليزدي واختص باستاذه السيد اليزدي وأخذ الفقه والأصول ايضاً من آغا ضياء العراقي وشيخ الشريعة الأصفهاني والسيد أبو الحسن الأصفهاني الذي اختاره ضمن حلقته الخاصة المؤلفة من المترجم له والسيد أبو القاسم التقوى القزويني والسيد هبة الله التلاتري القزويني والميرزا أحمد الصالحي القزويني والسيد علي أكبر الخوئي والد السيد أبو القاسم الخوئي والشيخ ميرزا فتاح التبريزي والشيخ حسين التبريزي .

وقد اشترك في الثورة العراقية الكبرى على البريطانيين وفي سنة ١٣٤٠ رجع الى موطنه قزوين وانتهى اليه كرسي التدريس والفتيا والإمامة وعند حركة الإمام الخميني الاولى كان المترجم له في طليعة علماء ايران الناقمين على الشاه فالقي القبض عليه وسجن ثلاثة أشهر ثم نقل الى طهران لمحاكمته في محكمة عسكرية خاصة ثم اطلق سراحه وكان ينظم باللغتين الفارسية والعربية وله ديوان شعر ومن مؤلفاته تقريرات استاذه السيد كاظم اليزدي ، وحاشية على العروة الوثقى لاستاذه السيد اليزدي وكتاب نجاة العباد الموجود حالياً في مكتبة في داره بقزوين [3] .

ملا نظر علي بن محسن الكيلاني .

من عرفاء الاسلام وفلاسفة الشيعة في أواخر القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر الهجري .

هاجر من مازندران الى اصفهان فحضر على جملة من علماء عصره ثم اولع في الفلسفة والعرفان الآلهي واختص بالآغا محمد البيد آبادي المتوفى سنة ١١٩٧ وتخرج عليه كما صرح في مؤلفاته وكان المترجم له من رواد مدرسة صدر المتألهين الشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٠ وممن اهتم بنشر افكار هذه المدرسة الفلسفية . وانتهى اليه كرسي التدريس واشتغل في حياة استاذه المذكور في التأليف والتدريس في كل من أصفهان ومازندران وأذربايجان وغيرهما من المدن الايرانية وترك مؤلفات فلسفية هامة يظهر منها تعمقه وتحقيقاته العلمية الرصينة وتبحره في الفلسفة ، منها تلخيص كتاب المبدأ والمعاد لصدر المتألهين الشيرازي وتعليق عليه ، منه نسخة في مكتبة المجلس الوطني بطهران ، وله كتاب التحفة بالعربية طبع سنة ١٣٩٧ بتحقيق السيد جلال الدين الآشتياني من منشورات (انجمن فلسفة) في ٢٥٠ صفحة ويبحث الكتاب في موضوع العلم بصورة مطلقة وبعض مسائل حول الوجود وحقيقة وحدة الوجود[4] .

السيد هادي الحسيني التبريزي .

ولد سنة ١٣٢٧ في النجف الأشرف وتوفي سنة ١٤٠٦ في الكاظمية ودفن في النجف.

هو من أسرة علمية هاجرت الى النجف وأول من هاجر جده لأبيه السيد حسين وذلك سنة ١٣٥١ .

درس في النجف على الشيخ آقا ضياء العراقي والشيخ ابو الحسن المشكيني والشيخ ميرزا علي الإيرواني ثم على السيد ابي الحسن الأصفهاني . كما درس الفلسفة على السيد حسين البادكوبي ولازم الشيخ مرتضى الطالقاني مدة عشرين سنة متتلمذاً عليه ومصاحباً له .

انتقل الى الكاظمية وهو في الخمسين من عمره واستقر بها مدرساً وإماماً للجماعة . طبع من مؤلفاته : أمالي الهادي ، وهو تقريراته وآراؤه الفقهية الاستدلالية في مباحث الالتزام والمعاملات .

---

(١) انظر تفصيلات مهمة عن هذه الحملة في كتابي F. charles Roux. Aitour. d»une Route etc; Les Origines

(٢) جبرتي : جـ ٢ . ص ٢٧٤ .

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

(٤) الشيخ عبد الحسين الصالحي .

السيد هادي بن الميرزا محمد رضا بن الميرزا محمد حسين الحسيني الرامسري التنكابني (المعروف بـ بزرك).

ولد حدود ١١٨٥ في رامسر، وتوفي ١٢٦٥ في رامسر .

قرأ المقدمات والسطوح في رامسر ثم ذهب الى أصفهان وسكن في مدرسة باب القصر وحضر على أعلامها في الفقه والأصول واختص في درس الفلسفة بالمولى علي النوري ثم رجع الى موطنه وأسس مدرسة ومسجداً في رامسر واشتهر صيته وقام بالتدريس وقضاء حوائج الناس والتأليف حتى وفاته. خلف خمسة أولاد من العلماء والفضلاء ـ وهم السيد صادق والسيد مرتضى والسيد أبو الحسن والسيد علي والسيد مير عبد الباقي[١].

السيد هبة الله بن السيد أبو القاسم بن السيد حسين بن السيد مطهر بن السيد حسين بن السيد محمد جعفر بن السيد شمس الدين الحسيني التلاتري القزويني من أحفاد السيد مير قوام الدين المشهور بـ مير بزرك المرعشي صاحب المزار المعروف في مدينة آمل بـ مازندران ولد في قزوين سنة ١٢٩٤ وتوفي سنة ١٣٦٧ .

أخذ المقدمات والسطوح على جملة من أعلام قزوين منهم الشيخ ملا علي اكبر الجلوخاني المتوفى سنة ١٣٣١ والشيخ ملا علي اكبر السياه داني المتوفى سنة ١٣٤٠ في المدرسة الصالحية ثم هاجر الى العتبات المقدسة في العراق واستقر في النجف وانضم الى حوزة كل من الآخوند محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية والسيد محمد كاظم اليزدي صاحب العروة الوثقى ثم الى حوزة السيد أبو الحسن الأصفهاني وأصبح من خواص تلاميذه حتى سنة ١٣٣٩ فرجع الى موطنه قزوين وتصدر كرسي التدريس والفتيا والإمامة والتف حوله جمع من الطلاب والفضلاء تخرجوا عليه وله مؤلفات منها تقريرات استاذه الآخوند ملا محمد كاظم الخراساني في الفقه والأصول ، تقرير استاذه اليزدي في الفقه والأصول ، تفسير للقرآن الكريم لم يخرج الى البياض ، رسالة في العلوم الغريبة[٢].

الفرزدق : همام بن غالب بن صعصعة .

مر حديث عنه في مكانه من المجلد العاشر ، ونضيف هنا الى ذلك هذه الدراسة مكتوبة بقلم : الدكتور محمد العبد حمود .

كان جده صعصعة عظيم القدر في الجاهلية ، ومن أفعاله اقتداؤه ثلاثين مؤودة .

وأما غالب أبو الفرزدق فكان يكنى أبا الأخطل وكان سيد بادية تميم . وأمه ليلى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس. واستجير بقبر ابيه وهو بكاظمة في حمالة فاحتملها الفرزدق . وكان له اخوة منهم هُميم وسمي الفرزدق باسمه . وكنيته أبو فراس .

في هذه الأسرة الفخور ولد همام في حدود السنة العشرين للهجرة (٢١ كانون الأول ٦٤٠ ـ ٩ كانون الأول ٦٤١) على التقريب وذلك في البصرة على ما في معجم ياقوت . وكان قومه قد نزلوا أرضها زمن تأسيسها سنة ٦٣٥ . إلا انهم ظلوا على بداوتهم ينتشرون من أرض العراق الأسفل إلى نجد وأطراف اليمامة وعلى هذه البداوة المحتكة بالحضارة بعض الشيء نشأ شاعرنا وعليها بقي طول حياته غير متصل بالحضر إلا لماماً .

وكان في جهامة وجهه وضخامة قسماته وآثار الجدري فيه ما لفت نظر معاصريه فلقبوه « بالفرزدق » ومعناه « الرغيف الفخم ». ولعل أباه سماه الفرزدق باسم دهقان الحيرة لأنه كان يشبهه في « تيهه وأبهته ».

والفرزدق من الفارسية برازده بالباء الفارسية أو فرازدة بمعنى الرغيف .

نشأته وشبابه

ولد ونشأ في بيت ورث المجد وفعل المكرمات وكان مألف الأشراف ينتدون فيه يتداولون ما يلم بهم ويتحدثون باخبار أسلافهم ويتذاكرون حياة العرب وأيامها وسير ملوكها ويروون ما قاله شعراؤها . وكان الفرزدق يصغي إلى ما يسمع ويحفظ ما يقال ، قد أوتي الفطنة والذكاء والموهبة .

كان أبوه يؤثر على البصرة الأقامة في بادية بني تميم . فنشأ الفرزدق في مرابع كاظمة نشأة فتيان البادية ورث اخلاقها وفضائلها . وقبل عاداتها راضياً معتزاً . وفي بادية تميم اتيح له أن ينهل الفصاحة من مناهلها . ففتق لسانه وفصح بيانه وأحاط بسر العربية وأوتي القدرة على تشقيق الكلام فقد كانت تميم من أفصح قبائل العرب .

وقد تركت هذه النشأة البدوية آثارها في الشاعر فظل طوال حياته وفياً لها يؤثرها وهي مدارج صباه على ما نعم به من مغاني الحضر ويحن اليها ويجهر بتفضيل عاداتها .

ورأى الفرزدق في أبيه غالب المثل الأعلى فبالغ في تعظيمه وتوقيره وراح يتأثر خطاه وينهج نهجه: أرسله إلى البصرة أيام زياد في عير له وجلب يبيعه ليمتار له ويشتري لأهله كسى ، ولكن الفرزدق نثر الدراهم وأنهبها الناس في المربد حين ذكروه فعال أبيه وكرمه ، يريد أن يقتدي به . ولما بلغ غالباً فعل إبنه وسمع منه قصته يرويها مزهواً سر به ومسح رأسه وهو يقول له مشجعاً فرحاً : « وانك لتحسن مثل هذا ».

واعتز الفرزدق بأبيه اعتزازاً قل ان نجد له نظيراً . بكاه في شعره لما مات أحر بكاء :

ابى الصبر اني لا أرى البدر طالعاً
ولا الشمس إلا ذكراني بغالب

وادعى انه ورث أباه في أخلاقه وفضائله :

ورثت أبي اخلاقه عاجل القرى
وعبط المهاري كومها وشبوبها

ثم تجاوز الحد في المباهاة به وبلغ من تعظيمه إياه ان كان يفاخر به الملوك ويتعالى عليهم وجعل قبره مستغاثاً يلاذ به من مفظعات النوائب . وهكذا قدر لغالب أن يؤثر في حياة ابنه تأثيراً كبيراً وأن يكون احدى الدعائم الكبيرة في بناء شخصيته . ولعل السخاء الذي عرف به الفرزدق حياته كلها ، ينفق لا يبقي على شيء ويعطي سائله ولا يخيب رجاء من رجاه أحد أبرز هذه الآثار .

وقد وفد غالب على الأمام علي عليه السلام ومعه ابنه الفرزدق فقال له من أنت ؟ قال : أنا غالب بن صعصعة المجاشعي . قال : ذو الأبل الكثيرة . قال : نعم قال : فما فعلت ابلك ؟ قال : أذهبتها النوائب وذعذتها الحقوق . قال : ذلك خير سبلها . ثم قال له : يا أبا الأخطل من هذا الفتى ؟ قال : ابني الفرزدق وهو شاعر . قال : علمه القرآن فإنه خير له من الشعر . فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى ألا يحل قيده حتى يحفظ القرآن .

وذلك يمكن أن يعني شيئين اثنين اولهما أن شعر الفرزدق جيد يحسن

(١) الشيخ محمد السمامي.
(٢) الشيخ عبد الحسين الصالحي.

تثقيفه بلغة القرآن. وثانيهما أن شعر الفرزدق رديء فيجب ان يتركه ويشتغل بالقرآن فذلك أعود عليه . وقد أثرت شخصية الامام علي في الشاعر الناشيء تأثيراً عميقاً .

أزواجه وأولاده

كان الفرزدق مزواجاً مطلاقاً يضطرب في عاطفته كما يضطرب في ميله السياسي لا يكاد يخلص لأمرأة ولا تكاد امرأة تصبر على أخلاقه . يعيش مع زوجته مدة فيملها أو تمله فيطلقها أو تهرب منه فتدفعه إلى طلاقها ذكر من نسائه في الشعر الذي وصل الينا اثنتي عشرة امرأة .

ولكن أشهر قصة على الأطلاق في هذا المجال هي قصته مع ابنة عمه النوار ابنة أعين بن ضبيعة المجاشعي وكان علي بن أبي طالب (ع) وجه أباها إلى البصرة أيام الحكمين فقتله الخوارج غيلة ، فخطب النوار رجل من قريش (وأهلها بالشام) فبعثت إلى الفرزدق تسأله أن يكون وليها اذ كان ابن عمها (وكان أقرب من هناك اليها) . فقال : ان بالشام من هو اقرب اليك مني ولا آمن ان يقدم قادم منهم فينكر ذلك علي . فاشهدي انك قد جعلت امرك الي ففعلت ، فخرج بالشهود وقال لهم : قد اشهدتكم انها قد جعلت أمرها الي واني اشهدكم أني قد تزوجتها على مائة ناقة حمراء سوداء الحدق ، فذعرت من ذلك واستعدت عليه وخرجت إلى عبد الله بن الزبير والحجاز والعراق يومئذ اليه . وخرج الفرزدق . فأما النوار فنزلت على خولة ابنة منظور بن زبان الفزاري امرأة عبد الله بن الزبير فرققتها وسألتها الشفاعة لها . وأما الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ومدحه فوعده الشفاعة له ، فتكلمت خولة في النوار وتكلم حمزة في الفرزدق فأنجحت خولة وخاب حمزة . وأمر عبد الله بن الزبير ان لا يقربها حتى يصيرا إلى البصرة فيحتكما إلى عامله فخرج الفرزدق فقال :

أما بنوه فلم تنجح شفاعتهم
وشفعت بنت منظور بن زبانا
ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً
مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

ويتنمر الفرزدق ويصمم على الظفر بالنوار لذلك لم يستمع إلى ابن الزبير حين قال له : ما حاجتك بها قد كرهتك كن لها اكره وخل سبيلها . فخرج وهو يقول : ما أمرني بطلاقها إلا ليثب .

وخضعت النوار يائسة بعد أن علقت منه بحبل محكم العقد . ومكث الفرزدق زماناً لا يولد له فعيرته النوار بذلك فقال :

قالت : اراه واحداً لا اخاً له
يؤمله في الوارثين الأباعد
لعلك يوماً ان تريني كأنما
بني حوالي الأسود الحوارد
فإن تميماً قبل أن يلد الحصى
أقام زماناً وهو في الناس واحد

فولد له بعد ذلك : لبطة وسَبَطة وخبطه ورَكضة من النوار ورزق من غيرها خمس أو ست بنات . على انه لم يكن براً بأولاده ولا يظهر انه أحبهم الحب الوالدي الحق فلم يحبوه . وقد شكا عقوق كبيرهم في آخر حياته .

ويجد الباحث صعوبة في معرفة عدد النساء اللواتي تزوجهن الفرزدق ويذهب عمر فروخ في ترجمته للفرزدق التي استند فيها إلى ما كتبه المستشرق الألماني يوسف هل عن حياة الفرزدق إلى أن أولى زوجاته كانت فتاة زنجية رزق منها طفلة سماها مكية .

أما الفحام فيرى أننا لا نعرف متى تزوج الفرزدق زواجه الأول ولا عدد الأزواج اللائي رضين به قبل النوار ولكنه يذكر زوجة مفداة تلك الزوج التي أحبها الشاعر فبادلته حباً بحب وراح يتغنى بجمالها معتزاً بما تكنه له من حب :

فيا روضة وسمية رجبية
خلت وتحامتها الرياح تحاميا
بأطيب نشراً من مفداة موهنا
اذا ما أرادت للضجيع تعاطيا

ومهما يكن من أمر فإن النوار تبقى المرأة الأبرز في حياة الفرزدق لا يخفي فرحته بمودتها : « خرجنا متباغضين ورجعنا متحابين . وخرجت حائلاً ورجعت حاملاً .

وبدا له أن يبدل سيرته بعد زواجه منها وأن يقلع عن حياة السباب والفحش لينهج طريقاً لا عوج فيه . فيرضي زوجه ويستجيب لنزعة الخير فيه فحج بالنوار أواخر سنة ٦٥ هـ ولما عاد إلى البصرة أعلن توبته وقيد نفسه وحلف ألا يفك قيده حتى يجمع القرآن وهو ما كان يحيك في صدره منذ مقالة الامام علي لأبيه وكان يرى في ذلك طاعة تقربه إلى ربه وتغسل عنه آثامه :

لعمري لئن قيدت نفسي لطالما
سعيت وأوضعت المطية للجهل
ثلاثين عاماً ما أرى من عماية
اذا برقت إلا شددت لها رحلي

وقد نعى جرير على الفرزدق قيده حين نشب بينهما الهجاء وجعله مراءاة وكذباً. وكذلك قال له البعيث :

لعمري لقد ألهى الفرزدق قيده
ودرج نوار ذو الدهان وذو الغسل

وكان البعيث صادقاً في تصوير فرحة الفرزدق بالنوار التي طغت عليه وشغلته عن أشياء كثيرة . وأخذت تحل في مطلع قصائده . يحن اليها اذا نأى ويطرقه خيالها في الصحراء البعيدة . ولكن الأمور لا تستقيم له فقد كان صاحب فسوق لا يصبر عن النساء. أما النوار فكانت امرأة صالحة ترضى عنه حيناً لتخاصمه أحياناً وكانت تقرعه وتذكره انه تزوجها خدعة وتطالبه بطلاقها . ويصور لنا ما يعانيه ازاء هذا الواقع :

لعمري لقد رققتني قبل رقتي
وأشعلت في الشيب قبل زماني
وافصحت عرضي في الحياة وشنته
وأوقدت لي ناراً بكل مكان . . .

وأراد الفرزدق ان يتغلب على النوار التي كانت تضاره وان يغيظها ويذلها لتغدو طيعة منقادة تستجيب لرغباته ولكنه لم يسلك إلى ذلك الطريق الصحيح لأن النتيجة لم تكن كما توقع . فقد أقدم على الزواج من حدراء بنت زيق بن بسطام الشيبانية وكانت إعرابية نصرانية سوداء دقيقة الساقين مهزولة أو هكذا كانت في عيني النوار .

ولكن الفرزدق رد عليها كما يرد الرجال فهو سليل المجد يتطلع إلى الشرف فلا يرى مناصاً ان يفضلها عليها لأنها ابنة بسطام بن قيس ذي الجدين في بيت الشرف من شيبان ثم يغمز النوار التي كانت امها أمة :

لجارية بين السليل عروقها
وبين ابي الصهباء من آل خالد
أحق باغلاء المهور من التي
ربت وهي تنزو في حجور الولائد

وكأنه يريد ان يتشفى منها . فيكرر القول ويبدىء فيه ويعيد . واستثيرت نوار ولجأت إلى جرير تحفزه ان يهجو الفرزدق ويخزيه لينتقم لها واستجاب جرير وغدت حدراء محور ست نقائض وعدة قصائد تقارضها جرير والفرزدق .

ولكن حدراء ماتت وشيكاً ولم ييتئس الفرزدق بموتها كما يظهر من رثائه . ورأى جرير في موت حدراء مناسبة ليخاطب الفرزدق بقوله :

فأقسم ما ماتت ولكنما التوى
بحدراء قوم لم يروك لها أهلاً

بعد موت حدراء تزوج رهيمة بنت غنيم اليربوعية . ولما استخفت بها النوار أخذ يشيد بنسبها ومكانتها ممعناً في إغاظة النوار ومبيناً انها ستكون السبب في استقامتها :

أراك نجوم الليل والشمس حية
زحام بنات الحارث بن عباد
عدلت بها ميل النوار فأصبحت
مقاربة لي بعد طول عباد

وانتقل إلى دارها ودافع عنها وعن أهلها :

لقد حولتني عن تميم وبدلت
رهيمة داري وسط بكر بن وائل

ولم تطل بالفرزدق فرحته فما لبثت النمرية ان كرهته ونشزت به واستجابت لأمها التي كانت تثيرها عليه وكانت له مثل الشوكة في القدم فطلقها وانشأ في هجوها ابياتاً يعارض بها أبيات مدحه لأولى :

ثم تزوج الفرزدق جارية من بني نهشل فحملت منه ثم ماتت بجمع فرثاها وبكى ولده منها .

ولم تنجح كل محاولاته في التقرب من النوار لأنه لم يدرك ان العلة في خلقه ومسلكه وأصرت على الطلاق على يد الحسن البصري فنالته إلا أن الفرزدق ندم بعد ذلك .

وقد عبر عن ندمه بأبيات منها :

ندمت ندامة الكسعي لما
غدت مني مطلقة نوار
وكانت جنتي فخرجت منها
كآدم حين أخرجه الضرار
وكنت كفاقئ عينيه عمداً
فأصبح ما يضيء له النهار
ولا يوفي بحب نوار عندي
ولا كلفي بها إلا انتحار
ولو رضيت يداي بها وقرت
لكان لها على القدر الخيار
وما فارقتها شبعاً ولكن
رأيت الدهر يأخذ ما يعار

وقد ماتت النوار قبل الفرزدق فرثاها، تلك هي قصة الفرزدق والنوار. وقد تركت هذه القصة في نفس الشاعر أبعد الآثار ولونت نظرته إلى المرأة ولم تتح له أن ينعم بالبيت الهادىء المريح ولا أن يرى في المرأة الشريك الذي يزيد الحياة بهجة ويساعد في التغلب على صعابها . اما جرير فقد رأى في قصة النوار موضوع سخرية وتندر فراح يصب عليه سيل التهم وينعته شر النعوت مستغلاً نفور النوار منه وكرهها إياه .

وأقبل الفرزدق الشيخ يدب إلى بيت الهثهاث المجاشعي وكان قد دلف إلى التسعين فخطب ظبية بنت حالم وحل اسمها في مطالع قصائده محل النوار :

وظبية دائي والشفاء لقاؤها
وهل انا مدعو لنفسي طبيبها

شخصيته

كان الفرزدق ضخم التقاطيع مجهم الوجه مستديره صغير القدمين غليظاً قصيراً أصيب بالصلع فكان جرير يدعوه « القريد الأصلع » ويعيره « قصر القوائم » إلا أن الفرزدق كان يؤمن بجماله فيصور نفسه كالهلال يروق النساء . وكان يحتال على ما بقي من شعره فيجمعه في ضفيرتين يخضبهما بالحناء كما يخضب لحيته . حتى اذا شمله الشيب ترك الخضاب فكان مهيب المنظر . وكان يلبس اللباس الفاخر من الديباج والخز عمل أهل اليمن ويعتم بعمامة كبيرة ضخمة . ويبدو انه في الواقع لم يكن على قدر كبير من الجمال بل ربما كان بديناً قبيح الوجه .

ومع ان الفرزدق كان أمياً كأكثر شعراء عصره ولكنه روى أيام العرب وكثيراً من الشعر الجاهلي وقيد نفسه ليحفظ القرآن فكون لنفسه ثقافة لا بأس بها وقد انفرد برواية حديث امرىء القيس يوم دارة جلجل مما دفع طه حسين إلى اعتباره من ابتكار الفرزدق .

كما جمع في ثقافته إلى اساطير الجاهليين حكايات المفسرين فاعتلجت كل هذه المواد في ذاكرته القوية واندفعت متدفقة في شعره بترتيب .

ومن نتائج ثقافته الواسعة في ذلك العصر انه كان كثير الأحاديث حلو القصص عذب الأسلوب . قال ابن قتيبة : كان الفرزدق مِعَنّاً مِقَنّاً يقول في كل شيء وسريع الجواب . وكان إلى ذلك قوي البديهة سريع الجواب حاضر النكتة لاذعها أحياناً يروي لنا ابن قتيبة اخباراً تثبت هذه الصفات نكتفي بايراد واحد منها : جاء عنبسة بن معدان إلى باب بلال فرأى الفرزدق وقد نعس فحركه برجله وقال : بلغت النار يا أبا فراس ؟ قال : نعم ورأيت أباك ينتظرك . وكثيراً ما تتداخل هذه الدعابات ببذاءة اللفظ وفحش القول .

واشتهر الفرزدق بجبنه . وقد أكثرت كتب الأدب من ذكر نوادره . ولم يحارب قط على كثرة فخره وحماسته .

وقد عرف عنه جبنه فكان القوم يداعبونه ويخوفونه ليتنادروا عليه . كان مرة عند سليمان بن عبد الملك وأتي سليمان بأسرى من الروم فقال للفرزدق : قم فأضرب اعناق هؤلاء،فاستعفاه من ذلك فلم يعفه ودفع اليه سيفاً كليلاً فقام الفرزدق فضرب به عنق رجل منهم فنبا السيف فضحك سليمان ومن حوله . . . وكانت هذه الحادثة موضع اهتمام جرير في هجائه للفرزدق .

كما عرف في مجونه وقد تعرض للملاحقة غير مرة بسبب تعرضه لنساء كان ينبغي ان لا يتعرض لهن . ومع ذلك فقد ذكر انه صلى وتاب نادماً كما ذكر عنه انه بكى في المسجد وتأثر في جنازة النوار بكلام الحسن البصري .

على ان ابن خلكان « يرجو له الجنة بمكرمة تنسب اليه » وهي مدحه زين العابدين(ع) .

وملفت للنظر ان يكون رجل هذه صفاته يبلغ الدرجة القصوى من الفخر . جده صعصعة احيا الوئيدات وأبوه غالب معدن الجود يقصد الناس ناره من أقاصي البلاد . حتى اذا مات كان قبره ملاذ العفاة وملجأ الخائفين واخواله بناة المجد وقبيلته خير القبائل فأباؤه لا يقاربهم اباء الخليفة من عبد شمس :

وان تـغـضـب قـريش ثـم تـغـضـب
فـإن الأرض تـرعـاهـا تـمـيـم

اما هو فخلاصة المفاخر كرماً وعلو همة وشاعرية .

وعلى الرغم من كون الفرزدق قد اتصل بالحضر إلا انه ظل شديد التعصب لبدويته كثير الفخر بمآثر آبائه في الاسلام وفي الشرك كذلك . يمدح كبار القوم بمفاخر آبائهم في الجاهلية ويظهر على كثير من جفاء البدو وخشونة طبعهم وقساوتهم . ويتقيد في كل شيء بمظاهر البداوة فيدعو إلى الأخذ بالثأر ويفتخر بالضيافة . وقد ظهر أثر البداوة واضحاً في معظم نتاجه الشعري .

وفاته

رزق الفرزدق عمراً طويلاً تجاوز التسعين في قوله هو وبلغ السادسة والتسعين في قول ابن حبيب شارح الديوان وقارب المائة في قول ابن سلام .

والمشهور ان الفرزدق قد توفي في سنة ١١٠ هـ /٧٢٨ م وهذا هو التاريخ الذي يذكره بروكلمان .

ولكن الدكتور يوسف هل يرى ان وفاته يجب أن تكون في سنة ١١٤ هـ ذلك لأنه رثى الجراح بن عبد الله الحكمي الذي استشهد بمرج اردبيل في المشرق سنة ١١٢ هـ كما ذكر الطبري . ثم ان الأغاني نفسه يتردد في وفاة الفرزدق بين السنوات ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٤ وكذلك ابن خلكان يتردد بين السنوات ١١٠ ، ١١١ ،١١٢، ١١٤ وعلى هذا قبل الدكتور هل التاريخ المتأخر : ١١٤ للهجرة/٧٣٢ م . ويرى البستاني انه ليس من مبرر للحيرة عند من يطالع ديوان الفرزدق فيرى فيه قصيدة قالها الشاعر في مدح خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم والي المدينة . ومعروف ان خالداً المذكور ولي المدينة مدة ثلاث سنوات من السنة ١١٤ إلى السنة ١١٧ واذاً فلا يمكن أن تكون وفاة الفرزدق تقدمت السنة ١١٤ (٣ آذار ٧٣٢ ـ ٢٠ شباط ٧٣٣) وهي السنة التي توفي فيها جرير كذلك .

صلته بالحكام

يقول ابن سلام : قيل لأبن هبيرة من سيد أهل العراق ؟ قال : الفرزدق : هجاني ملكاً ومدحني سوقة .

من هنا علينا ان لا نفاجأ كثيراً بمواقف هذا الشاعر الجريئة والمتقلبة من حكام عصره .

لكن القضية الأولى التي تستحق وقفة مميزة هي حقيقة تشيع الفرزدق لذهاب الباحثين فيها ـ وخاصة المعاصرين منهم مذاهب شتى ـ إلى حد أن بعضهم جعله « عثمانياً » يقول هذا الباحث : التشيع مذهب أول أركانه اعتقاد امامة علي وابنائه فهي حق لهم موروث لا يشركهم فيه سواهم .

ولم يكن الفرزدق من هذا في شيء وكل ما نعرفه عنه يوحي بخلاف ذلك ، فأكثر قومه من مجاشع عثمانية ، وكثرة تميم عثمانية والبصرة التي عاش فيها الفرزدق عثمانية وأشعاره التي قالها تنطق كلها بفضل عثمان خليل النبي وتتمدح برفيع مكانته وتندد بالبغاة الذين قتلوه وتتشفى بهم ان قتلوا بكل ثنية ومدينة وتدافع عن حق بني أمية في الخلافة لأنهم ورثة عثمان الذي نال الخلافة عن مشورة ورضا وتنال ممن نازعهم هذا الحق فتشتد في النيل منه وتثني على ما قام به مروان وبنو أمية من اطفاء الفتن بصفين ومرج راهط ثم تشيد بهم وتعلي مكانتهم وتفضلهم تفضيل الشيعة لأئمتهم وتجعلهم خيرة الله لعباده وأفضل الناس بعد رسول الله وأمناء الله في أرضه . بل أكاد أقول : ان الفرزدق بالغ في رفع أقدار الأمويين مبالغة لا أجدها لشاعر اموي آخر وأفرط في الثناء عليهم وكان وهو يمدحهم يكاد يضفي عليهم صفات الذين اختارهم الله لتبليغ رسالاته .

لن أناقش الدكتور شاكر الفحام في « عثمانيته » أو في « أمويته » فله الحق أن يكون « يزيدياً » اذا شاء ولا في الآراء التي أوردها باستثناء قضية ولاء الفرزدق لآل البيت عليهم السلام .

فالمصادر القديمة تجمع على تشيع الفرزدق وموالاته لآل الرسول : كان الفرزدق سيداً جواداً وجيهاً عند الخلفاء والأمراء هاشمي الرأي في أيام بني أمية يمدح أحياءهم ويؤبن موتاهم ويهجو بني أمية وامراءهم هجا معاوية بن ابي سفيان وزياد بن ابيه وهشام بن عبد الملك والحجاج بن يوسف وخالد القسري وغيرهم (معجم الشعراء ٤٨٧) .

وربما كانت افادة الدكتور عمر فروخ من الترجمة التي كتبها استاذه المستشرق الألماني جوزيف هل لحياة الفرزدق سبباً من أسباب جعل موقفه أكثر موضوعية ازاء هذه القضية من هنا اختلافه في الرأي مع الدكتور الفحام . فقد ذكر ان الفرزدق نشأ على حب آل البيت وعلى الأعتقاد بحقهم في الخلافة دون سواهم فإنه لم يكن يعلن تشيعه حرصاً على أن يتكسب بشعره عند من يهب الجوائز والأموال من سوى آل البيت ايضاً . على ان شعوره هذا كان بادياً في كثير من سلوكه وأشعاره (شعراء البلاد) . كما أن الثابت ان الفرزدق لم يتصل بأحد من الخلفاء قبل الامام علي في الحادثة التي سبقت الأشارة اليها .

بروكلمان بدوره الذي يلاحظ ضعف دينه واستخفافه بالمقدسات يستثني من ذلك ما احتفظ به الشاعر من الوفاء لعلي وأهل بيته في أحوال غير موائمه . (تاريخ الأدب العربي) .

ولعل أفضل رد على الفحام ما يوضحه البستاني حول هذه القضية اذ يذكر فيه موقف الفرزدق من العلويين فيستدل من حياته وشعره انه كان على اخلاص فاق اخلاصه لغيرهم من أرباب الأحزاب وان لم يكن لم يجرؤ دائماً على اظهار عاطفته . هذا اذا جاز لنا ان نتكلم عن الاخلاص بالنسبة الى الفرزدق. كان قومه من ذوي الميل العلوي في الخلاف الناشب بين علي وعائشة اولاً ثم بين علي ومعاوية . حتى اذا قدم علي الكوفة وفد عليه غالب ومعه ابنه وهو يافع اذ ذاك . على ان اخوال الفرزدق من بني ضبة كانوا من حزب عائشة فحاربوا جيش علي يوم الجمل . وهو ما استفاد منه الفرزدق في تزلفه إلى الأمويين . يقول ذلك زلفى وتقرباً ولا سيما بعد ان تحقق قومه قوة الأمويين وشعروا بصولة عمالهم في العراق فأرسلوا اليهم الوفود مبايعين . فمدحهم الفرزدق وبالغ وأغرق. ولا يخفى ان اغراقه هذا وايجاسه الدائم من ولاة أمية لمن الأدلة على اضطراب ميله وارتجاج موقفه . اما اذا ابتعد عن مركزة الولاة فاطمأن إلى أن يد الأمويين لا تطاله وعرضت فرصة فإنه لا يتردد في اظهار عاطفته لآل البيت من ذلك ما ذكر صاحب الأغاني وابن خلكان ومن نقل عنهما ان الفرزدق كان في مكة عندما حج هشام بن عبد الملك وهو ولي عهد فاضطره الزحام إلى الانتظار ووصل زين العابدين حفيد علي فتنحى له الناس حتى طاف واستلم . فسأل أحد رجالات الشام من هذا ؟ فأجاب الفرزدق ذلك الجواب الرائع :

هـذا الـذي تعـرف البـطحـاء وطـأتـه
والبـيـت يـعـرفـه والـحـل والـحـرم

فغضب هشام وأمر بالفرزدق فحبس بين المدينة ومكة فقال يهجوه :

اتحبسني بين المدينة والتي
اليها قلوب الناس يهوى منيبها
يقلب رأساً لم يكن رأس سيد
وعيناً له حولاء باد عيوبها

ثم اشفق عليه هشام فأطلقه . فمدحه بقصيدة طويلة على الروي نفسه .

وملفت للنظر ان هذا الشاعر الذي أمضى عمره يتعرض للأمراء والولاة والعمال يمدحهم راغباً ويهجوهم مهدداً حتى يشتروا منه اعراضهم أحياءاً واموتاً وهو ان لم يوفق إلى الكثير رضي بالقليل فقنع بنحي من سمن مثلاً أو بشربة سويق اذا كان عطشان . ملفت للنظر ان يرد للإمام زين العابدين عليه السلام عشرة آلاف درهم أرسلها إليه اثر موقفه وقصيدته قائلاً : ما قلت ما كان إلا لله وما كنت لأرزأه عليه شيئاً (تاريخ الأدب العربي) فيجيبه الامام زين العابدين بعد أن يردها اليه : قد رأى الله مكانك فشكرك ولكنا أهل بيت اذا انفذنا شيئاً ما نرجع فيه فأقسم عليه فقبلها (أعيان الشيعة) .

بل يرى عمر فروخ ان تشيع الفرزدق كان من أبرز أسباب ملاحقته من قبل ولاة بني أمية حيث يلاحظ أن صلة الفرزدق بالولاة الأمويين كانت سيئة جداً لأسباب مختلفة ظاهرها ان الفرزدق كان فاسقاً ولذلك كانوا ينفونه عن حواضرهم . أما الحق فهو أن الفرزدق كان قيسياً وعلوياً . ولقد كان الولاة يضطهدونه إذا كانوا هم يمنيين أو اذا كانوا امويين متشددين[1].

والثابت انه لم يدع مناسبة إلا وعبر فيها عن تعلقه بآل البيت . يذكر أبو الفرج لقاءه الامام الحسين (ع) عندما كان متوجهاً إلى الكوفة فبادره الامام بالسؤال ما وراءك : قال يا ابن رسول الله أنفس الناس معك وأيديهم عليك أو قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية . ولقد عبر الفرزدق بذلك عن شعوره أيضاً ! ويتوهم بروكلمان خطأ أن هذا قد حدث بين الفرزدق والامام الحسن عليه السلام .

ومهما يكن من أمر فإن الفرزدق لم يتردد أن يكون « شاعر بلاط » ينتمي إلى قبيلة شأنه في ذلك شأن كبار شعراء عصره . وكانت تميم البصرة زبيرية الهوى تقاتل عن ابن الزبير وتدعو له . وكان الفرزدق لسان قبيلته يميل انى مالت فدافع عن مواقف قومه كلها فلا عجب ان نجد في شعره مدحاً لابن الزبير وتأكيداً لحقه .

ولكنه لم يتردد بعد أن تلقى تهديداً من الحكم بن أيوب الثقفي صهر الحجاج وابن عمه وعامله على البصرة من أن يمدح هذا العامل وعبد الملك وأن ينعت ابن الزبير بأنه « كذاب مكة » :

فالأرض لله ولاها خليفته
وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به
كذاب مكة من مكر وتخريب

وأول صدام للفرزدق في الدولة الأموية كان مع معاوية . جاء إلى معاوية شخص من بني مجاشع اسمه الحباب وكان قريباً للفرزدق . وأكرم معاوية الحباب وأعطاه أربعين ألف درهم . ولكن الحباب ما كاد ينفصل عن دمشق حتى مات فجأة . وعرف معاوية بموت الحباب في الوقت المناسب فأمر أن ترد عطيته إلى بيت المال وعرف الفرزدق بذلك فجاء إلى دمشق وتعرض لمعاوية بقصيدة منها :

ابوك وعمي يا معاوي أورثا
تراثاً فأولى بالتراث أقاربه
فما بال ميراث الحتات أكلته
وميراث حرب جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الحكم في جاهلية
عرفت من المولى القليل حلائبه
ولو كان هذا الأمر في غير ملككم
لأديته أو غص بالماء شاربه
ولو كان اذ كنا وفي الكف بسطة
لصمم عضب فيك ماض مضاربه
وكم من أب لي يا معاوي لم يكن
ابوك الذي من عبد شمس يقاربه

وهذه الحادثة كانت سبباً في ملاحقة زياد بن أبيه للشاعر . كما يلاحظ انه لا يتردد في رفع الشكوى إلى الوليد وسليمان ويزيد من معاملة بعض عمالهم .

هجا خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي والي عبد الملك على البصرة ومدح بشر بن مروان والي الكوفة الذي قربه ونادمه وأراد أن يوفق بينه وبين جرير ولكن لم يستطع .

وبعد بشر بن مروان جاء الحجاج بن يوسف الثقفي العراق والياً .وهاب الفرزدق الحجاج هيبة شديدة امتلأت نفسه لها خوفاً فأسرع اليه يمدحه ويشيد به وكثرت مدائحه له وقد أدرك الحجاج تفوق الفرزدق في اماديحه فقال : ما أشعر الفرزدق في قوله لي :

لا يألف البخل ان النفس باسلة
والرأي مجتمع والجود منتشر

واتصل الفرزدق بولاة الحجاج على البصرة الحكم بن ايوب الثقفي والجراح بن عبد الله الحكمي . ولما ولي عمر بن عبد العزيز المدينة قصد اليه الفرزدق فيمن قصده من الشعراء ومدحه وهو في المدينة ومدحه وهو في مكة . كما تحدث الرواة بما كان يلقى الفرزدق عند عبد الله بن جعفر بن ابي طالب في المدينة من البر والأكرام ، بل كانت تأتيه صلات سكينة بنت الحسين عليهما السلام وربما كان في هذا ما يدعم الرأي بحقيقة مشاعر الفرزدق الصادقة تجاه آل البيت وينهض دليلاً اضافياً على تشيعه .

لكن اقامة الشاعر في المدينة أيام ولاية عمر بن عبد العزيز لم تطل اذ نفاه منها لئلا ينشد في مسجدها هجاءه المقذع واستغل خصمه جرير الفرصة فقال :

نفاك الأغر ابن عبد العزيز
بحقك تنفى عن المسجد

ويبدو ان الفرزدق بقي بعيداً عن ملوك بني أمية فلما استتب الأمر لعبد الملك بن مروان عرض لمديحه والأشادة به في مدائح الحجاج بن يوسف والحكم بن ايوب وهجاء ابن الأشقف . ولما تولى الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) كثرت مدائح الفرزدق إياه وعرف لديه شيئاً من

(١) يقول حسن الامين : من اقوى دلائل تشيع الفرزدق قوله لما سمع أبا بردة بن ابي موسى الاشعري يقول : كيف لا اتبختر وأنا ابن احد الحكمين ، فقال الفرزدق : احدهما مائق والآخر فاسق ، فكن ابن ايهما شئت .

الحظوة : ثم اتصل بهشام بن عبد الملك - وهو لا يزال اميراً - ورافقه إلى الحج نحو سنة ٩٠ هـ وفي هذه الحجة وقعت قصة هشام والامام زين العابدين عليه السلام . ومدح الفرزدق زين العابدين بقصيدته الميمية المشهورة فحبسه هشام .

ثم جاء سليمان بن عبد الملك واتصل به الفرزدق وعلت منزلته عنده حتى لقد اصبح شاعر الخليفة حقاً ووجد الفرصة سانحة لتفجير حقده على الحجاج فانهال عليه معدداً مخازيه مبيناً قسوته وطغيانه ومظالمه والدماء التي هراقها :

ولولا سليمان الخليفة حلقت
بهم من يد الحجاج عنقاء مغرب

وثار قتيبة بن مسلم الباهلي في خراسان منتقضاً على سليمان وانتصرت تميم للخليفة وقتل قتيبة وبعثوا إلى الشام برأسه فامتلأ الفرزدق زهواً وأخذ يهجو قتيبة وباهلة ويتشفى من الحجاج ويشيد بسليمان وبتميم . وعاش الفرزدق أيامه الجميلة الحلوة ونعم بصحبة سليمان وكثرت ملازمته إياه . كان يقدم على سليمان اقدام الواثق المطمئن حتى يجاوز المألوف . وفي عهد سليمان مدح الفرزدق آل المهلب .

وعندما تولى عمر بن عبد العزيز لم يفلح الفرزدق في مدحه فتنحى وتنحى معه شعراء كثيرون . فلما تولى الملك يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥) فتح ابوابه للشعراء . وقد بدأ عهده بثورة آل المهلب فانحازت تميم البصرة إلى جانب يزيد الذي تمكن من القضاء على ثورة آل المهلب وكان الفرزدق مبالغة منه في ارضاء يزيد يعيد في مديحه القول في يزيد بن المهلب ويتشفى منه ومن آل المهلب وكأنه يعلن أن هذه نهاية كل عاص .

وفي عهد يزيد اتصل الفرزدق بمسلمة بن عبد الملك والي العراق وخراسان فمدحه . واتصل بالعباس بن الوليد وبالغ في تمجيده ومدح فعاله . وولى مسلمة بن عبد الملك عبد الرحمن بن سليم الكلبي أمر البصرة فجاءه الفرزدق مادحاً .

ولم يطل عهد مسلمة على العراق وخراسان وجاء عمر بن هبيرة الفزاري القيسي والياً عليهما (١٠٢ هـ ١٠٥ هـ) فمدحه الفرزدق ولكنه لم يلبث ان تنكر له وراح يهجوه ويهجو قبيلته .

وطلب عمر بن هبيرة وابنه يزيد الفرزدق وأراد أخذه وسجنه ولكن الفرزدق الحذر لاذ بالفرار ولم يقدرا إلا على حبس امرأته النوار ولحق الفرزدق بالبادية ثم لجأ الى حمى يزيد بن عبد الملك . وفي كنف يزيد لقي الأمن والبر والصلة وكتب يزيد بتخلية النوار وأمان الفرزدق . وأتاح له مقامه بالشام أن يتصل بالوليد بن يزيد يمدحه ويتقرب به إلى ابيه . وتدل الأخبار انه حضر مجالس الوليد وما كان يدور فيها من غناء ولهو . ولعله وجد في كنف الوليد ما أمل من خير ونعمة فأكثر من مديحه والثناء عليه .

وكان من المنتظر ان يكون أشد الولاة عداء للفرزدق بسبب قيسيته وعلويته - زياد بن ابيه والي العراق . من أجل ذلك حرص الفرزدق على ألا يتعرض لزياد فتغافل زياد عنه وتركه وشأنه فأخذ خوف الفرزدق من زياد يتناقص ومغامراته الغرامية تزداد وتتسع . فوجد زياد الفرصة مناسبة فطلبه فهرب منه إلى ان مات زياد .

الفرزدق والشعراء :

الشعر اء منذ صباه فكان يهاجي شعراء قومه في
ىة في شبابه حتى كاد الهجاء يغلب على

سائر شعره .

وعندما تجاوز الأربعين كان الهجاء قد لج اذ ذاك بين جرير والبعيث المجاشعي ونالت شظاياه نساء مجاشع فأقبلن على الفرزدق شاكيات مؤنبات قائلات : « قبح الله قيدك ! (القيد الذي قيد به نفسه ليحفظ القرآن) فقد هتك جرير عورات نسائك فلحيت من شاعر قوم ! » فكن نعم المشجعات على ما كان يصبو اليه . ففض قيده وقال قصيدة أصاب رشاشها البعيث وهدد جريراً . ثم خص جريراً بقصيدة بائية أصابت البعيث كذلك . وكان هذا في عهد الحارث بن عبد الله والي البصرة لابن الزبير (٦٨٤ - ٦٨٦) . ثم توالت النقائض واحدة من جرير واخرى من الفرزدق نحو نصف قرن حتى وفاة الشاعرين سنة ٧٣٢ . والناس من شعراء ومتأدبين منقسمون قسمين : فرزدقي وجريري يتشاحنون حتى العداوة . وقد دخل الأخطل بين الشاعرين في ولاية بشر بن مروان للبصرة بعد ان مر عليهما في الهجاء بضع سنوات ، سأله بشر عنهما فقال : الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر فهاج الحكم جريراً فبدأ عهد الهجاء بينه وبين الأخطل . أما الفرزدق فشكر للأخطل حكمه وأخذ يمدحه وقومه ويعاونه على هجاء جرير .

ومن الشعراء الذين اتصل بهم الفرزدق قليلاً أو كثيراً الحطيئة وكعب بن جعيل اجتمع بهما في مجلس سعيد بن العاص والي المدينة فحكم له الحطيئة اذ سمع انشاده .

وفي المدينة كان يجتمع بكثير وبابراهيم بن محمد الزهري فيتناشدون الأشعار .

ومن الشعراء الذين أصابهم رشاش من هجائه مسكين الدارمي هجاه لأنه رثى زياد بن ابيه . والطرماح الطائي هجاه وهجا قومه . والأصم الباهلي هجاه وقومه ايضاً . كما هجا شاعرة من فقيم فلم تقصر في هجائه . وقد اتصل بذي الرمة سمعه ينشد في المربد فحكم على شعره ثم لم يلبث ان سرق من أبياته كما سرق من شعر الشمردل وابن ميادة وجميل بن معمر . وفي المربد كان للفرزدق حلقة خاصة يجتمع فيها بالراعي وغيره من مريديه .

واجتمع الفرزدق في حضرة سليمان بن عبد الملك بجرير وكثير عزة وعدي بن الرقاع . ففضله سليمان عليهم جميعاً في الفخر . واجتمع مرة ثانية بنصيب ففضل سليمان عليه نصيباً في المدح . فهجا الفرزدق نصيباً . وعرف ليلى الأخيلية فأنشدها وأنشدته . وفي آخر عهده مدح عبد الله بن عبد الأعلى شاعر بني شيبان . فأكثر وأجاد .

الديوان

كان للفرزدق عدة رواة ينشرون شعره في حياته منتقلين به من حي إلى حي ومن مدينة إلى مدينة . وهم أدوات النشر في عصر الأدب الشفهي . فبلغوا بشعره أطراف الجزيرة حتى عُمان بل تجاوزوها إلى مصر . وقد عرفنا منهم أبا شقفل ولعله أشهرهم وعمرو بن عفراء الضبي وهبيرة بن الصلت والطهوي وعبيداً أحد بني ربيعة بن حنظلة .

وللفرزدق ديوان مطبوع في جملة الدواوين الخمسة (النابغة وعروة وحاتم وعلقمة والفرزدق) بمصر ١٢٩٣ . وطبع على حدة في باريس سنة ١٨٧٠ وما بعدها مع ترجمة فرنسية للمسيو بوشر عن نسخة خطية صورت من مكتبة أيا صوفيا في الأستانة وطبعت تتمتها في ميونيخ سنة ١٩٠١ . وفي دار الكتب المصرية نسخة خطية املاء محمد بن حبيب مشروحة .

ومنه نسخ خطية أيضاً في اكسفورد وليدن وغوطا وبرلين ولندن .

ولكن يبدو ان طبعة بوشيه (بوشر) كانت ناقصة فقام المستشرق

الألماني يوسف هيل فأتم هذه الطبعة .

ثم قام عبد الله اسماعيل الصاوي فجمع كل ما ظهر في هذه الطبعات وأضاف اليها متفرقات وقف عليها في بعض كتب الأدب ونشر الديوان مع الشرح في طبعة تحتاج إلى كثير من التدقيق ظهرت بمصر سنة ١٩٣٦ في مجلدين كبيرين .

ويوجد الديوان مخطوطاً برواية السكري في : بودليانا ٢ : ٣٠٦ قسم ٣ المتحف البريطاني . . كما توجد قصيدة الفرزدق في مدح زين العابدين مخطوطة في : جوتا ٢٦ ، ١٤ ليدن ٥٩٠ وطبعت على الحجر في طهران سنة ١٢٧٥ هـ . أشعار متفرقة مخطوطة في برلين . وطبع بشير يموت ديوان الفرزدق طبعة ثانية منقحة في بيروت ١٩٣٧ . كما طبعته دار بيروت للطباعة والنشر عام ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م في مجلدين .

النقائض

«النقيضة» قصيدة يرد بها شاعر على قصيدة لخصم له فينقض معانيها عليه : يقلب فخر خصمه هجاء وينسب الفخر الصحيح لنفسه ولئن اكتفى اللغويون في حد النقيضة بأنها القصيدة التي تنقض معاني سابقتها فإن رواة الشعر والمتأدبين درجوا على أن يعدوا من النقائض ما صدق فيه شرطان :

اولهما ان تتفق القصيدتان بحراً ورويا .

والثاني ان يرد اللاحق على السابق معانيه وينقضها .

قال الأخطل :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا
وازعجتهم نوى في صرفها غير

فأجابه جرير من البحر نفسه (البسيط) وعلى الروي نفسه (الراء المضمومة) :

قل للديار سقى اطلالك المطر
قد هجت شوقاً وماذا تنفع الذكر

وقد تختلف احياناً حركة الروي في النقائض كقول الفرزدق (من البحر الكامل على اللام المضمومة) :

ان الذي سمك السماء بنى لنا
بيتاً دعائمه أعز وأطول

فأجابه جرير (من البحر نفسه ولكن على اللام المكسورة) :

لمن الديار كأنها لم تحلل
بين الكناس وبين طلح الأعزل

فإذا قال أحد الخصمين قصيدة جديدة ـ ولو كانت استمراراً لمهاجاة قديمة ـ فإنه ينظمها عادة من بحر جديد وعلى روي جديد إلا أن خصمه اذا رد على هذه القصيدة تقيد ببحرها ورويها .

وربما اشترك في « المناقضة » بضعة شعراء فمن ذلك مثلاً قول الفرزدق :

يا ابن المراغة والهجاء اذا التقت
اعناقه وتماحك الخصمان . . . .

فقال جرير يرد على الفرزدق :

لمن الديار ببرقة الروحان
اذ لا نبيع زماننا بزمان

وقال الأخطل يرد على جرير ايضاً :

بكر العواذل يبتدرن ملامتي
والعالمون فكلهم يلحاني

والمختار في « النقائض » ان تكون طوالاً وفيها يفتخر الشاعر بنفسه وبقومه وبفضائل نفسه كالشعر والكرم والشجاعة ثم بأحساب قومه كالحروب التي انتصروا فيها والعهود التي وفوا بها والمحاسن التي اتوها من الكرم والدفاع عن الأعراض والقيام بشأن القبيلة وما إلى ذلك .

بعدئذ ينقلب الشاعر عن معائب خصمه وقوم خصمه فيذكرهم جميعاً بالعي والبخل والجبن حقاً أو باطلاً . ويذكر أيضاً الحروب التي هزموا فيها والعهود التي نقضوها والمخازي التي عرضت لهم . واذا اعوزته المخازي أو اعوزه شيء منها لم يتأخر عن اختلاقه .

وفي « النقائض » اقذاع شديد وفحش وبذاءة . إلا ان المتناقضين تعرضوا دائماً للعيوب الخلقية النفسية كالبخل والجبن والغدر والزنا ولم يتعرضوا للعيوب الخلْقية الجسدية كالعرج والعور والأحديداب إلا نادراً كالتعبير بالفقر وضعف الجسد عامة والعور اذ لم يكن هذا محموداً عند النقاد .

وقد يمدح الشاعر خليفة أو أميراً بقصيدة يعرض فيها ايضاً لهجاء خصمه أو للرد عليه فتكون نقيضة .

وقد يرثي الشاعر امرأته ثم يهجو خصومه كما فعل جرير في قصيدته التي مطلعها :

لولا الحياء لعادني استعبار
ولزرت قبرك والحبيب يزار

حيث قال يهجو الفرزدق :

أفأم حزرة يا فرزدق عبتم؟
غضب المليك عليكم القهار

كذب الفرزدق ان عود مجاشع
قصف وان صليبهم خوار

قد يؤسرون فما يفك اسيرهم
ويقتلون فتسلم الأوتار

وقد يتغزل الشاعر في قصيدة طويلة ثم يعطف على خصمه فيهجوه .

بدأت النقائض بين جرير والفرزدق في حدود سنة ٦٦ هـ وبقيت بينهما زهاء ثمانية وأربعين عاماً لم يزالا يتهاجيان حتى اسكتهما الموت سنة ١١٤ هـ .

هذا وتعتبر النقائض في العصر الأموي استمراراً للهجاء القبلي في الجاهلية وكان يبعثها عادة خلاف بين قبيلتين أو اسرتين فينتصر شاعر لقومه أو لأحلاف قومه فيرد عليه شاعر من هؤلاء فيعود الأول للرد عليه حتى يلتحم الهجاء ويستطير . ولقد اذكى هذه النزعة في الشعراء قيام الأحزاب وتقرب هؤلاء الشعراء إلى الخلفاء والأمراء بهجاء خصومهم طمعاً بالمال . اضافة إلى اغراء الحكام الشعراء بتناول بعضهم البعض .

وقد بدأ الهجاء بين الفرزدق وجرير حين لم يستطع البعيث المجاشعي الصمود في وجه جرير مما غم نساء بني مجاشع ففزعن إلى الفرزدق ليقوم بالدفاع عنهن . وكان لهن ما أردن .

واستهوت المعركة الشعراء وزين لعدة منهم ان يشاركوا فيها فانضموا في المعمعة اما موازنين بين الشاعرين أو منحازين إلى تفضيل واحد منهما أو هاجين الأثنين معاً . تدفعهم إلى ذلك الشهرة وحب الصيت أو حوافز

العصبية والشرف أو مقاييس الفن وقيمه إلى ضروب من الأغراء شتى . فاتسعت آفاق المناقضة وجرى في ميدانها أمثال الصلتان العبدي الذي فضل جريراً في الشعر والفرزدق في الشرف . والمنقري الذي هجا الفرزدق وجريراً معاً وثلّث بالبعيث ونال منهم جميعاً . وكان هجّاء . وسراقة البارقي والراعي النميري والأخطل وعمر بن لجأ الذين فضلوا الفرزدق لكرمه وشعره ورفعوه على جرير .

ولكن الشعراء المتصرفين بين جرير والفرزدق لم يثبتوا في أرض المعركة ومنهم من لم يُلتفت اليه احتقاراً لشأنه واستصغاراً فهووا كما هوى البعيث . ولم يبق منهم غير الأخطل .

وكانت فرحة الفرزدق بالأخطل بالغة لقد انضم اليه شاعر فحل يقوى ان يقف امام جرير ليقول :

فان يك اقوام اضاعوا فإنني
وصلت الذي بيني وبين الفرزدق

وقد عبر الفرزدق عن فرحته بالأخطل فخص تغلب بواحدة من روائع قصائده يشيد فيها بمآثرها وأيامها ووقائعها ونسي في غمرة فرحه ان يفخر بقومه من دارم فإذا هي ثناء على تغلب خالص لا يشوبه مدح لغيرهم . ولم يجد جرير ما يقوله سوى التذكير بنصرانية تغلب :

فخرت بقيس وافتخرت بتغلب
فسوف ترى: أي الفريقين أربح

فأما النصارى العابدون صليبهم
فخابوا وأما المسلمون فأفلحوا

والحق ان حب الفرزدق للأخطل قد تملك عليه نفسه وكان صادقاً فيه كل الصدق، دعاه خليله وأخاه في حديثه وشعره وأثنى عليه وجعله من شركائه في وراثة شعر الفحول .

ويبدو أن علاقتهما كانت منذ البداية تقوم على التقدير المتبادل يبدو هذا اذا أخذنا بالرواية التي تخبر عن لقائهما الأول . فقد نزل الفرزدق على الأخطل ليلاً وهو لا يعرفه فجاءه بعشاء ثم قال له اني نصراني وأنت حنيف فأي الشراب أحب اليك ؟ قال : شرابك ثم جعل الأخطل لا ينشد بيتاً إلا أتم الفرزدق القصيدة . فقال الأخطل: لقد نزل بي الليلة شر من انت ؟ قال : شرابك ثم جعل الأخطل لا ينشد بيتاً إلا أتم الفرزدق القصيدة . فقال الأخطل : لقد نزل بي الليلة شر من أنت ؟ قال : الفرزدق بن غالب . قال : فسجد لي وسجدت له. فقيل للفرزدق في ذلك . فقال: كرهت ان يفضلني . فنادى الأخطل : يا بني تغلب هذا الفرزدق . فجمعوا له ابلاً كثيرة . فلما أصبح فرقها ثم شخص .

ولج الهجاء وتكاوح الشر بين الثلاثة وظلوا يتصاولون حتى اختطفت الأخطل منيته سنة ٩٢ هـ فكان من آخر كلماته :

اوصى الفرزدق عند الممات
بأم جرير واعيارها

فلما بلغ الفرزدق خبره جزع لفقده وجعل يحن عليه ويقول : سآخذ بوصية اخي ثم تشمر للدفاع عن تغلب :

أمسى لتغلب من تميم شاعر
يرمي القبائل بالقصيد الأثقل

وخلا الميدان ليجري فيه الشاعران اشواطاً كثيرة فما اوقفهما إلا الموت .

يهجو جرير الفرزدق بأن أهله قيون (حدادون) وأن قومه خانوا الزبير بعد أن كانوا جيرانه ويهجوه ايضاً بجبنه وضعفه .

أما الفرزدق فكان هجاؤه شديد الفحش والأقذاع كثير الغريب بعيداً عن أن يسير على الألسن . وكان يعير جريراً بشظف العيش والفقر وبضعف ابيه عطية في المجتمع وبخله ثم يعيره بضعف بني كليب ويربوع بالأضافة إلى دارم ومجاشع وهو كثير الفخر بنفسه في معرض ذمه خصمه .

وقد ذكر بعض النقاد أن الفرزدق كان أشعر من جرير في الهجاء لأنه أقواهما أسر كلام واجراهما في اساليب الشعر واقدرهما على التطويل وأحسنهما قطعاً .

وكذلك قدمه البحتري على جرير في الهجاء أيضاً من حيث المعاني والأغراض وكان يقول : وجرير لا يعدو في هجائه الفرزدق ذكر القين وقتل الزبير والفرزدق يرميه بكل آبدة » .

ومن مشهور هجاء الفرزدق لجرير قصيدته :

ان الذي سمك السماء بنى لنا
بيتاً دعائمه اعم واطول

والتي رد عليها جرير بقصيدته :

لمن الديار كأنها لم تحلل
بين الكناس وبين طلح الأعزل

هذا وقد مثلت النقائض جانباً من حياة القبائل الاجتماعية والسياسية في العصر الأموي يقوم على المفاخرة والتهاجي فأحيت بذلك ما كمن وتوارى من نزعات الجاهلية .

واصبحت بالتالي خير معرض لأيام العرب وأخبارها ومفاخرها ومعايبها . ومع ذلك فإنها تخالف موروث الجاهلية . اذ كان الجاهليون يعبرون عن وقائع قائمة ومعارك تراق فيها الدماء ويتنازعون نزاعاً هم فيه ألسنة قبائلهم .

أما نقائض جرير والفرزدق فكانت مفاخرة ومهاجاة لا تبلغ أن تثير الأحقاد وتؤجج الأضغان لأنها لم تكن تلبية لحروب ووقائع بل هي مهاداة ومغالبة تروم ان تنتزع الأعجاب وتظفر بالتفوق وتسكت الخصم وكأنها كانت البديل لما كان يقوم في الجاهلية من أيام ومنازعات وخصومة . من هنا كثر في النقائض الأفتراء والكذب حتى كأن النقائض كانت تهدف إلى المغالبة الفنية والانتصار في القول اكثر مما تهدف إلى أي غرض آخر. بل ربما كانت معارك يراد بها اللهو والتسلية .

وخلاصة القول ان النقائض صورت من الناحية السياسية النزاع على الخلافة بين الأمويين وخصومهم . والشعراء الذين دخلوا في هذا النزاع لم يدخلوه وهم يحملون عقيدة اموية أو زبيرية أو علوية وإنما دخلوه للتكسب في الدرجة الأولى . حتى ان الشعراء الزبيريين انقلبوا بعد ذلك أمويين (لانتصار هؤلاء) . وكذلك لم يتحوب الفرزدق ـ وكان يمثل العلويين ـ من أن يمدح بني أمية . وكذلك الأخطل المسيحي فقد مدح ملوك بني أمية مدائح اسلامية الطابع . على ان نفراً قليلاً من الشعراء لم يفعلوا ذلك فقد ظل الكميت العلوي على وفائه لآل البيت . وأما عمر بن أبي ربيعة فإنه لم ينغمس في المناقضات قط .

من الناحية الاجتماعية تكشف لنا النقائض ان البداوة ظلت غالبة على المجتمع الأموي . فالشعر الأموي مملوء بالمفاخر الجاهلية والبدوية كالفخر بالأنساب وبأيام العرب وبالكلام على الثأر . وظل شعراء المناقضات حتى أواخر العصر الأموي يعدّون الحياة الحضرية في باب المعائب فالأخطل هجا الأنصار لأنهم زراعون وجرير ظل لآخر حياته يهجو بني مجاشع لأنهم

قيون (حدادون) ذلك لأن القيانة وسائر الصناعات كان يقوم بها العبيد .

ولكن الشعر الأموي امتلأ ايضاً بالألفاظ الاسلامية والآراء الاسلامية بما في ذلك شعر الأخطل الذي رأى في عبد الملك : خليفة الله يستسقى به المطر . . .

اما ذكر جرير والفرزدق للصلاة والحج واقتباسهما من القرآن الكريم فظاهران . وقد يكون الفرزدق وجرير قد شربا الخمر فعلاً ولكنهما لم يصفاها . بل ان جريراً كان يعير الفرزدق احياناً بشربها .

من الناحية اللغوية الخالصة حفظ شعراء النقائض اللغة العربية صافية كما كانت في الجاهلية . فقد قيل لولا الفرزدق لذهب ثلث اللغة . وقيل بل ثلثاها . وكذلك حفظوا لهذه الألفاظ جزالتها واستعملوا هذه الألفاظ لتدل على معانيها الصحيحة التي لم تكن شوهت بعد بالأختلاط بغير العرب .

فالألفاظ التي حفظت لنا في النقائض اذن كانت كثيرة وكان اكثرها غريباً متصلاً بالمعاني الجاهلية القديمة . بل لعل قسماً من ألفاظ النقائض كان أكثر غرابة من ألفاظ المعلقات . وكذلك اذا نظرنا في التراكيب رأيناها متينة تجري على الأسلوب العربي القديم حتى ليمكن القول ان النقائض كانت مزيجاً من معان قديمة وجديدة ولكن في لغة قديمة .

من الناحية الأدبية كانت النقائض تقليداً واضحاً للمعلقات خاصة تقليداً في شكل القصيدة وفي كثرة أغراضها وطول نفسها وفي كثير من خصائصها الأخرى كالفخر بالأنساب والهجاء القبلي والنسيب في مطالع القصائد .

ومع أننا لا نعجب بالنقائض من الناحية الخلقية والأجتماعية فإننا لا ننكر أن شعراءها قد أضافوا إلى الشعر العربي فناً جديداً هو فن الشعر السياسي أو أنهم على الأصح قد وسعوا هذا الفن الذي ظهرت طلائعه منذ الجاهلية عند النابغة خاصة توسيعاً جعله فناً جديداً .

والنقائض قد قامت على التكسب بخلاف أكثر الشعر الجاهلي . فشعراء النقائض لم يميلوا إلى حزب دون حزب بدافع المبدأ والعقيدة ـ كما هي الحال مع الشعراء العلويين بل مالوا إلى كل حزب كان يفيض عليهم العطايا .

فنونه الشعرية : ـ الفخر

الفخر : ـ لم يدع الفرزدق فناً من فنون الشعر الجاهلية التقليدية إلا تمرس به يافعاً وشاباً وكهلاً بيد أن ما وافق عقليته منها كان الفخر خاصة فكاد يطغى على سائر الفنون وكادت آثاره تظهر فيها جميعاً من المدح إلى الرثاء إلى الهجاء إلى الوصف إلى الغزل . . .

فخر الفرزدق بكرم أصله ونبل عنصره وتفوق قبيلته . يفتخر بقومه بني تميم وبمجاشع ودارم ثم بأهله الأقربين : بجده صعصعة محيي الموؤدات وبأبيه غالب الكريم وبأمه ويفتخر بنفسه : بكرمه وبشاعريته .

وهو أفخر من صاحبيه جرير والأخطل بل افخر شعراء العصر الأموي كله .

وكأنه لم يكتف بكل هذه المفاخر فقد بلغ منه الزهو والخيلاء كل مبلغ ، وأي عجب اعجب من قصيدته التي فخر فيها على معاوية ولم تتم له ثلاثون سنة . وهي تمثل خيلاء الشاعر وعجبه بنفسه واعتداده بآبائه :

ألسْت اعز الناس قوماً واسرة
وامنعهم جاراً اذا ضيم جانبه

وما ولدت بعد النبي وأهله
كمثلي حصان في الرجال يقاربه

وبيتي إلى جنب الثريا فناؤه
ومن دونه البدر المضيء كواكبه

وقد كثر فخره فلم تخل قصيدة قالها في مدح ملوك الأمويين أو ولاتهم من فخره بنفسه . فلا عجب أن نرى الفخر فنه الأول الذي برز فيه وعلا حتى لا يدانيه فيه شاعر في عصره . كان يفخر بمجاشع ودارم وتميم وكان يفخر ببني ضبة اخواله وأخذ يفخر بعد بخندف والخلفاء والنبوة وانتهى إلى الفخر بمضر جمعاء : قيس وخندف .

ومن أفانين فخر الفرزدق بسخائه ان يسلك طريق الحكاية والقص بخيال جميل مبتكر واسلوب هادىء سهل تغريك سهولته . انه يصف قوماً جياعاً لقيهم يصطلون وتبلغ الحكاية ذروتها حين اقبل المصطلون ذوو اللحى :

وقالوا أو هل من فتى مثل غالب
وايـاي بالمعروف قائلهم عني

ويلبي الفرزدق النداء فينحر ناقته وتنتهي الحكاية :

فبات لأصحابي وأرباب منزلي
واضيا فهم رسل ودفء ومشتوى

ولون آخر سلكه الشاعر في التحديث بسخائه هو ما قصه من استضافة الذئب واطعامه وانه لأحساس انساني رفيع أن يشاطر الشاعر ذئبه مطعمه :

فقاسمته نصفين بيني وبينه
بقية زادي والركائب نعس

وعده رفيقه في سفره وتمنى لو باستطاعته ان يزيد في اكرامه :

ولو انه اذ جاءنا كان دانياً
لألبسته لو انه كان يلبس

واننا لا نقع كثيراً على امثال هذا الشعر الجميل بنفحته الأنسانية .

الهجاء

اول شعر قاله الفرزدق ربما كان في الهجاء ويكاد هجاؤه يشارك فخره في الأخلاص . وله روعة مؤثرة في نتاجه بما يمده من سمو العاطفة الفخرية وبما يسمو به من الاعتداد بالنفس وبالمآثر حتى يصبح طبيعياً ان يتكبر الشاعر على مناظره فيراه دميماً صغيراً فيهبط عليه بالأقذاع اللئيم الأليم . وإذا بالهجاء يمتلك شخصية الشاعر كما امتلكها الفخر فيندغمان . فلا يفخر الشاعر بنفسه وبقومه إلا ازرى بخصومه وبقبائلهم . ولا يهجو جريراً أو غير جرير إلا جنح إلى الفخر . وقد بلغ من تغلغل الهجاء في عقليته انه عندما دفع إلى الاقلاع عنه بعامل التوبة كان مفزعه إلى الهجاء نفسه فانتقل من هجو الناس إلى هجو ابليس . وقد اتى الفرزدق الحسن (البصري) فقال : اني قد هجوت ابليس فاسمع . فقال لا حاجة لنا بما تقول . قال: لتسمعن أو لأخرجن فأقول ان الحسن ينهى عن هجاء ابليس. فقال الحسن : اسكت فإنك عن لسانه تنطق .

وملفت للنظر ان قصائد كثيرة من هجاء الفرزدق تناولت جريراً ورهطه من كليب وكأنه لم يكتف بالنقائض وان مضت هذه القصائد على غرار النقائض في المعاني وان لم تكن تساويها طويلاً . بل ربما قلت أبياتها حتى تبلغ البيت والبيتين والثلاثة يثبت فيها الشاعر صورة مرت بخاطره فلم يشأ أن يفلتها . والأقذاع والفحش في هجائه جريراً لا يقصران عنهما في النقائض .

ويبدو ان شاعرة كلبية نتصرت لجرير فبالغ الفرزدق في تعريتها بصور فيها الهزء والأضحاك إلى جانب الأقذاع والفحش .

وقد بلغ غاية الأقذاع في هجاء خولة الدحداحية الفقيمية التي كانت

ترجز به وتعين عليه الأشهب . فما سمعت تشهير الفرزدق بها قالت : لا ارى الرجال يذكرون مني مثل هذا فعاهدت الله ان لا تقول بيت شعر أبداً .

وأكثر اهاجي الفرزدق في فترته الأولى قصيرة فيها البيتان وفيها الثلاثة وقد تبلغ الأربعة والخمسة . وأهاجيه على قصرها لاذعة تؤدي غرضها وتصيب هدفها . ولجودة قصار الفرزدق قال فيه الجاحظ : انك لم تر شاعراً قط يجمع التجويد في القصار والطوال غيره .

نال الفرزدق من سيد بني نهشل يزيد بن مسعود وهزىء بالأشهب . وتبادل الفرزدق والأشهب النقائض في تهاجيهما فكانت اولى تجارب الفرزدق في هذا الفن .

واستعان الفرزدق في طوال أهاجيه بما وعته حافظته من ذكر المثالب والمآثر والأيام وكان حافظاً واسع الرواية يتبع الأخبار ويتقصى الآثار ويتثبت من مواطىء قدميه وهو ينظم أهاجيه ليتقدم ثابت الخطا لا تزل به قدم . حتى قال الجاحظ في وصف الفرزدق : وهو راوية الناس وشاعرهم وصاحب اخبارهم . وقال يونس : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف اخبار الناس .

وقارع الفرزدق مسكين بن عامر أحد بني عبد الله بن دارم الذي رثى زياداً عندما مات فانبرى له الفرزدق وعرض به ونال منه وهجا زياداً لطلبه اياه واخافته له .

ثم نشبت بينه وبين شعراء قيس في أعقاب مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٩٦ هـ معارك هجائية وبينه وبين الطرماح بن حكيم الطائي عقب مقتل يزيد بن المهلب ١٠٢ هـ .

وكان الفرزدق يحسن انتقاء اللفظة الدالة والصورة المعبرة ليؤدي ما يريد من مبالغة :

اذا لبست قيس ثياباً سمعتها
تسبح من لؤم الجلود ثيابها

وقد يرمز الفرزدق إلى ما يريد من فحش رمزاً فيه خبث ومهارة كقوله في هجاء باهلة :

ما الباهلي بصادق لك وعده
ومتى تعدك الباهلية تصدق

وكانت معركة الفرزدق والطرماح آخر المعارك وكان الفرزدق قد طعن في السن وآثر أن يأوي إلى الظل ولعله في هذه الفترة كان قد أعلن توبته وعاهد ربه !

على قسم لا اشتم الدهر مسلماً ولا خارجاً من فيّ سوء كلام . ولم يقتصر هجاء الفرزدق على الشعراء وقبائلهم بل كان له نوع ثان من الهجاء عرض فيه للولاة والأمراء والقواد وإشراف الناس فقد عرض بابني الزبير مصعب وعبد الله تقرباً إلى بني مروان . وهجا المهلب بن أبي صفرة وابنه يزيد وقومهما من الأزد . وهجا خالد بن عبد الله الأموي والي البصرة واخويه أمية وعبد العزيز . وهجا الحجاج بن يوسف بعد موته وقتيبة بن مسلم الباهلي وعمر بن هبيرة الفزاري وخالد بن عبد الله القسري واليا العراق. ومالك بن المنذر بن الجارود العبدي والي الشرطة في البصرة .

وقد سلك الفرزدق في هذا الهجاء طريقين مختلفين سار في أحدهما على خطى نهجه الأول فهو يهجو رداً لأهانة نالته أو اساءة لحقت به فيتسم هجاؤه بالتعرض للمهجو في نفسه وفي قبيلته .

أما طريقه الثاني فهو الهجاء السياسي الاجتماعي يندفع اليه الشاعر استجابة لملابسات السياسة . فإذا عرض بابن الزبير نعته بالكذاب كما كان ينعته بنو أمية ورماه بالألحاد كما كانوا يرمونه وبمعان مستمدة من النزاع الذي نشب حول الخلافة وما كان يحتج به بنو أمية من ثبوت حقهم في الخلافة . كما تتراءى الصور الاسلامية في هجاء الفرزدق حين يعرض لأبن الأشعث وثورته حيث يتحدث عن الحق والباطل والضلال والهدى ويتمجد بذكر اولياء الله من بني أمية واختار الله منهم لعباده وخلافته عبد الملك إماماً . وهذا اللون من الهجاء السياسي والاجتماعي يمثل القيم الجديدة التي ثبتها الاسلام والتي غيرت في حياة الناس وعقائدهم .

الغزل والنسيب

كان في طبع الفرزدق ميل الى اللهو والمتعة تستهويه مغازلة النساء ومفاكهتهن وأتاح له الفراغ والجاه ان يقضي شيئاً من مآربه . وكانت قصص امرىء القيس وأحاديثه واشعاره من أول ما وعاه . ويبدو انه أثر فيه تأثيراً بعيداً ولقي من نفسه استجابة . فقد كان الفرزدق مع طلب المتعة وايثار اللذة يحب ان يتحدث بذلك ويعلنه فعل امرىء القيس . كان يؤثر الفضيحة ويسعى اليها غير آبه للفروق الكبيرة التي فرقت بين عصره وعصر قدوته امرىء القيس .

وعندما تعرف إلى المرأة الحضرية التي اخذت بضروب الأدب واتقنت فن الحديث ومطارحة الشعراء أحسن وصف هذه المرأة التي اعجبه ولها ونعمتها وحسن تغنيها .

وعلى طريقة امرىء القيس يروي لنا مغامرته مع امرأة متزوجة من رجل من أهل المدينة ليدل على مقدرته في اغراء المرأة وشدة تصببه لها . ولكن حب الشاعر لنفسه وإيثاره اياها كاد يجعل حديثه مقصوراً على ما اتى به . ولم يضع على لسان المرأة ما يصف عواطفها وشغفها به كما هي الحال مع امرىء القيس وعمر بن ابي ربيعة .

ويصف لنا الفرزدق العديد من مغامراته الغرامية التي كان يخرجها مخرج القصص الغزلي الماجن لا يتأثم من شيء ولا يهمه الأخذ بأدب أو خلق ، فيفيض بتلك الأوصاف القصصية التي لا تخلو من فن على ما فيها من تعهر يحول بين الذوق وقبولها فضلاً عن استساغتها والأعجاب بها .

ونسيب الفرزدقتقليدي اجمالاً يأتي في مطالع القصائد وهو جاف خشن بعيد عن حسن التعبير ذلك لأن الفرزدق مادي في شهواته بعيد عن الذوق الشعري والعاطفي والانساني إلا صوراً لا ينبو الذوق عنها جملة . والغريب اننا لا نجد للفرزدق مع استهتاره بالنساء وكثرة مغامراته أبياتاً حلوة في النسيب . وتجدر الأشارة هنا إلى أن خصائص الفرزدق الفنية من غرابة الكلمات وتعقيد التركيب احياناً والميل إلى فخامة الكلام لا تعير نفسها للاجادة في الغزل والنسيب .

أما غزل الفرزدق خاصة فغزل بدوي يشبه ما يتطلبه طرفة بن العبد لا ما تطمئن به نفس عمر بن ابي ربيعة : انه تعبير عن الحاجة إلى المرأة من غير اهتمام بمحاسنها .

وللفرزدق قصائد فيها شبه قصص كما في شعر امرىء القيس وعمر ولكن فيها ايضاً خلاعة واستهتار وأقذاع . وهذا ما تنبه له ابن سلام الذي قال : من الشعراء من كان ويتعهر في جاهليته ولا يبقي على نفسه ولا يتستر منهم امرؤ القيس ومنهم الأعشى . وكان الفرزدق اقول أهل الاسلام في هذا الفن .

الوصف

وصف الفرزدق بدوي قليل في ديوانه وان كان هو كثير التشابيه والاستعارات ووصفه حسي في الأكثر ففيه قصص قليل .

ولم يفرد الفرزدق قصائد خالصة للوصف بل كان وصفه مندرجاً في تضاعيف قصائده شأنه شأن كبار المصورين من امثال النابغة الذبياني في الجاهلية وذي الرمة في الاسلام الذين درجوا على أن يكون الوصف جزءاً في بنيان القصيدة يسلم إلى غاية ويؤدي غرضاً من أغراض الشاعر في قصيدته متبعين تقاليد الفن التي رسخت قواعدها وتحدد بها بنيان القصيدة واجزاؤها ووحدتها .

وصف الشاعر ناقته التي تحمله إلى ديار حبيبته وكثرت صور الأبل والخيل والصحراء وما يتصل بها من صور واجهته في رحلاته التي تحمل مشاقها وواكبتها صور أخرى تصف البحر والفرات والجيوش بفرسانها والحرب والأسد والحية .

وقد اشتهر الفرزدق بقصيدة قالها في وصف الذئب وفيها تصوير جميل معجب يمثل سنة الحياة في الصحراء حيث لا تراحم ولا هدنة وإنما هي المغالبة والتزاحم ليفوز الأقوى.

وتغدق الصحراء الشحيحة على الفرزدق صوراً غاية في الروعة والألق لعل من أجملها ما صور به القطا يسعى وراء الماء في الحر اللاهب يريد ان يروي ظمأه وظمأ فراخه التي تتقلب على أحر من الجمر وقد كاد الظمأ يقتلها .

واذا أنت أمام هذه الصورة الرحيمة تمثل لك القطا تمج ما في حواصلها لتسقي الفراخ العطشى :

ويدعو القطا فيها القطا فيجيبه
تـوائم اطفال من السبب المحل
دوارج اخلفن الشكير كأنما
جرى في مآقيها مراود من كحل
يسقين بالموماة زغبا نواهضاً
بقايا نطاف في حواصلها تغلي
تمج اداوى في اداوي بها استقت
كما استفرغ الساقي من السجل بالسجل

واستغل الفرزدق فن الوصف للتحديث بجوده وسخائه وانه يعطي المعتفين ويقري الضيفان ويجبر خلة الأرامل .

ويبدو نمطاً فريداً في شعر الفرزدق وصفه الدرة والغواص فقد استفتح الفرزدق نقيضته ذات الأكارع في هجاء بني جعفر بن كلاب متغزلاً بجبيرة النهشلية وذكر محاسنها وأسلمه الحديث إلى تشبيهها بالدرة ففتح له باب القول يصف الدرة وما لقي غواصها في سبيلها . فقد رمى بنفسه في لجة بحر مهيبة تهول من رآها آملاً في الفوز بها . وكان قلبه يضطرب خوفاً من أن تناله الحية الخرساء الموكلة بحفظ الدر كما نالت من قبله. وقد عجز المنذرون ان يصدوه . كان مصمماً أن يدرك الغني أو يلاقي الموت ولما رأى الدرة اليتيمة زاد تصميمه وأيقن انه الموت أو دنيا ينادي بشيرها .

واهوى لينتزع الدرة التي يحميها نابا الأفعى فلم ينج من عضة سمها زعاف وسريع سورته لا يجدي فيه ترياق فقضى بين يدي اساته ولما اخبرت امه بموته ورأت الدرة التي ظفر بها هان وجدها لما املت من الغنى :

كدرة غواص رمى في مهيبه
بأجرامه والنفس يخشى ضميرها
موكلة بالدر خرساء قد بكى
اليه من الغواص منها نذيرها
فقال الآتي الموت أو ادرك الغنى
لنفسي والآجال جاء دجورها
ولما رأى ما دونها خاطرت به
على الموت نفس لا ينام فقيرها
فأهوى رنا باها حوالي يتيمة
هي الموت أو دنيا ينادي بشيرها
فالقت بكفيه المنية اذ دنا
بعضة أنياب سريع سؤورها. . .
فلما أروها امه هان وجدها
رجاة الغنى لما اضاء منيرها

وانه لوصف تخلله القص والحكاية وهو فن من فنون الفرزدق التي تفوق فيها وأحسن اصطناعها في الوصف والغزل والهجاء فكان فيها عنصراً هاماً هيأ للشاعر ان يتفوق ويفتن فيما عرض له .

ويجيد الفرزدق وصف البادية بما فيها ولقد اشتهر عنده وصف البرد والريح والثلج .

المدح

اتخذ الفرزدق المدح وسيلة إلى التكسب من هنا خرج مديحه عن الأخلاص . مدح الأمويين لكثرة المال لديهم . غالى في مدح بني امية على قدر ما كان ينتظر من نوالهم حتى قال ما خالف مذهبه . فاثبتت حقهم في الخلافة وبذل ماء وجهه في سبيل عطاياهم . دافعه الأساسي للمديح مصلحته المادية أو مصلحة قبيلته . وإلى هذا مرد ذاك الاضطراب البادي في مدائح الفرزدق بين الأمويين وابناء الزبير، بل بين من تتابع من الولاة على البصرة والكوفة كأبناء المهلب والحجاج وخالد القسري وغيرهم . ولم يجد غضاضة في أن يمدح ثم يهجو كما فعل في شأن الحجاج ولا في ان يهجو ثم يمدح كما فعل في شأن هشام بن عبد الملك .

واذا كان ديوان الأخطل يدلنا على المناحي العامة في سياسة الأمويين الداخلية فإن في ديوان الفرزدق دلائل وافرة على تأثير هذه السياسة في ميول الحكام وسكان المدن فوق ما فيه من اشارات إلى بعض الأخلاق الأدارية والاجتماعية كانتشار الرشوة بين الحكام وعادة بعض الولاة في اختلاس اموال الدولة وعنف غيرهم في جباية الضرائب . يذكر ذلك شاكياً متوجعاً محتجاً أحياناً باسم قومه وابناء عشيرته أو بلدته مطالباً بالاصلاح والتعويض .

وللفرزدق في آل البيت عليهم السلام مدحة واحدة قالها في الامام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام وهي قصيدة متينة جميلة تفيض رقة واخلاصاً وصدقاً .

ولها قصة مؤثرة أجمعت المصادر القديمة على روايتها وهي القصيدة التي مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم

وهي من أشهر قصائد الفرزدق على الاطلاق.

وكان من سيئات مديح الفرزدق عند الممدوحين وبعض النقاد انه كان يدخل الفخر بآبائه في قصائد المديح : ويمثل هذا غضب سليمان بن عبد الملك على الفرزدق . وذلك انه استنشده لينشده فيه أو في ابيه (عبد الملك) فأنشد مفتخراً عليه .

الرثاء

الرثاء قليل في ديوان الفرزدق . لأن طبيعة الفرزدق مادية بعيدة عن العاطفة التي تخلقها المعاشرة والمساكنة .

ورثاء الفرزدق نوعان : نوع شخصي يرثي فيه أباه وابناءه . ولا نبالغ اذا قلنا انه مدرجة للفخر ليس غير . ونوع رسمي يرثي فيه أرباب السلطان كسليمان بن عبد الملك وبشر بن مروان والحجاج وأخيه وابنه ولهذا النوع صفة المديح في أكثره إلا ما نراه في رثائه لبشر بن مروان . ولمحمد بن العاص من مظاهر العاطفة المخلصة .

أضف إلى ذلك ان صلابة شعره وفخامة ألفاظه لا تعير نفسها للرثاء . وهو وان أظهر التجلد والتأسي في رثاء أولاده خاصة فإنه قليل المبالاة بموت النساء ولو كن زوجاته . ولقد اشتهر ان النائحات نحن على امرأته النوار بشعر جرير .

وبعد فإنا لا نملك إلا ان نعد الفرزدق متخلفاً في هذا الفن . ولكنه ليس التخلف الذي يبدو فيه بدعاً ذلك بأن الفحول الثلاثة في العصر الأموي : الأخطل والفرزدق وجريراً لم يبرزوا في هذا الفن على تفاوت فيما بينهم . « كان الأخطل اكثرهم تخلفاً وكان جرير سابقهم . والفرزدق بين بين » .

الخصائص العامة
لشعر الفرزدق

أول ما يبدو لقارىء ديوان الفرزدق سعة معجمه واثراؤه . ومقدرة الشاعر أن يجول في ميادين شتى لا يعجزه ما طبع عليه من جزالة الكلم وشدة أسره : لقد قوي على معجم العربية فتراءت في أشعاره الألفاظ والصيغ التي قل استعمالها فبعثها الفرزدق من مرقدها لتتألق في شعره .

كان يجد في احيائها احياء المعنى نفسه لا يؤديه سواها ولعله كان يرى في ثقل صياغة بعضها أو ضخامة اصواتها وخشونة جرسها معيناً لما يريد أن يوحي به من معان أو ما يفيئه من ظلال . وكان يجرؤ على الاشتقاق والتضمين ومغايرة المألوف ليؤدي معناه ويضم إلى ذلك جرأة في اصطناع المجاز يتجاوز به المتعارف الذي درج عليه القول . وتناقلته الألسن . فحفز هذا كله اللغويين ان يسارعوا إلى شعره يستمدون منه الدليل والشاهد.

ونتيجة لذلك . اطبق النحاة واللغويون على نعت الفرزدق بالتعقيد ومداخلة الكلام . فهذا الشاعر الفذ كان يلتوي عليه القول احياناً فيخالف نظام الجملة ويفلت منه النسق المألوف في ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعاني فيقع له من التقديم والتأخير في مواضع الكلم ما يفسد المعنى . كان يهجم على المعنى فإذا استقام له لم يبال بصيغة ألفاظه اقتداراً منه على الشعر واعتداداً بنفسه . فقد كان يحمل في حناياه من الزهو والغطرسة والتعالي ما نأى به ان يعود لقوله فيرتب ألفاظه ويقرب بعيده ويقيم منآده . فكأن هذا التمرد في نظم الجملة صدى لتمرد في نفس الشاعر وجموح في طبعه واحساسه انه وريث الجاهلية في فضائلها وخلقها وفي لسانها وبيانها فهو يتعالى ان يعود لما قال فيهذب حواشيه .

ولكن النحاة لم يقصروا اهتمامهم على جانب التعقيد في شعر الفرزدق بل توفروا على جانب آخر من شعره حظي منهم بعناية أشد ودراسة أطول فقد استمدوا من شعره شواهد كثيرة ايدوا بها ما أصلوه من قواعد ، وفسح لهم في مجال الأخذ أن الفرزدق المحيط بأسرار العربية الخبير بطرائق شتى في التعبير قد ضمن اشعاره فنوناً من القول قل استعمالها ونزر وبدت للنحاة غريبة نادرة فانعكس ذلك كله في شواهدهم التي تدرجت من العام المتعارف المألوف إلى الطريف النادر لا يقوى عليه إلا القلة من الفصحاء الأبيناء وغصت كتبهم بأشعار الفرزدق وأكثروا منها اكثاراً لا نجده لشاعر آخر.

وقد كان تعقيد الفرزدق وشذوذه النحوي مثار جدل بين الرواة والأدباء فمن مدافع عنه رافع لشأنه ومن مهجن لشعره. وحفظت لنا كتب الأدب العديد من هذه المجالس الجدلية . فقد تذاكر عامر ومسمع ابني عبد الملك ابن مسمع - وكانا من أشراف بكر بن وائل ورواتها ونسابيها - الفرزدق وجريراً وكان عامر يقدم جريراً ويفضله وكان مسمع يقدم الفرزدق ويحتج له . فتباحثا في أمرهما . فأخذ عامر يقدم جريراً ويحتج على الفرزدق بما عقد من شعره . فقال اخوه : انت يا أخي لا تعقل تسقطُ الفرزدق بما عقده من شعره شيء تمتحن الرجال فيه عقولها حتى يستخرجوه وسقط جرير عي .

قال الفرزدق الشعر زهاء ثمانين عاماً لم تخب قريحته ولم يتوقف . وديوانه الباقي لا يوازيه غزارة شعر ديوان شاعر من الجاهليين والاسلاميين .

ومضى الفرزدق على غلوائه يجري فرأى انه وريث الشعراء الماضين والحفيظ على تراثهم الفني . ودفعه الزهو وخيلاء الشعر ان يتعالى على الأقدمين ويدعي التفوق عليهم :

قصائد لم يقدر زهير ولا ابنه
عليها ولا من حولوه المخبلا
ولم يستطع نسج امرىء القيس مثلها
واعيت مراقيها لبيداً وجرولا
ونابغتي قيس بن عيلان والذي
أراه المنايا بعض ما كان قولا

فأول ما يلفت النظر في شعر الفرزدق خصب معانيه وغزارتها وتنوعها . عمق المعاني وتدفقها وقدرة الشاعر على الافتنان فيها والتجديد تدل على سمتين من سمات الشاعر : عمق الفكرة وتوقد نفسه . عمق الفكرة يبسط امامه رقعة أوسع ينفذ فيها إلى ما لا ينفذ فيه غيره وتوقد النفس يرفده في المقامات والمناقضة حيث يكون للذكاء الكلمة الأولى وللبديهة والارتجال الموقف الفاصل .

هذا الغنى في المعاني يتصل به قدرة الفرزدق على الأفاضة في معناه . انه يتناول المعنى من جوانب عدة حتى يستوفيه . وفي سبيل استيفاء المعنى كثر عند الفرزدق ارتباط الأبيات وهو ما يسميه العروضيون : التضمين . وقد جعلوه عيباً من عيوب الشعر .

وكان لسعة معارف الشاعر ووفرتها وتنوعها أثر اسعف الفرزدق ان تغزر معانيه وان يفتن فيها وينوع وتجلى ذلك في صور شتى : ظهر في أشعاره الأمثال والحكم يستمدها من معارفه أو يكونان صدى تجاربه وما عاناه في هذه الحياة . وقد أوحى له الموت بطائفة من حكمه المتناثرة !

ارى كل حي ميتاً فمودعاً
وان عاش دهراً لم تنبه النوائب

وكان للقرآن والدين ومجالس الفقهاء والوعاظ أثر في حكمته بارز فهو يوصي المرء بحسن العمل والتزود للآخرة قبل أن يدهمه الموت . وهو يعلنك بقدرة الله الشاملة وعجز الانسان الضعيف تجاهها وما ينتظر الأنسان يوم البعث والحساب :

ألا كل شيء في يد الله بالغ
له اجلاً عن يومه لا يحول
وان الذي يفتر بالله ضائع
ولكن سينجي الله من يتوكل

ويرضى بالقدر ويستسلم لحكمه وقضائه :

وليس بمحبوس عن النفس مرسل
اليها اذا نفس أتاها حمامها

ومن معانيه الدينية حديثه عن اليمين اللغو وتخليد القاتل في النار وأن

الفتنة اكبر من القتل . وقد استقى صوراً قرآنية كنسج العنكبوت وأشار إلى قصص القرآن كقصة يونس وبقرة موسى وناقة صالح وغرق فرعون وخروج آدم من الجنة وكثر في شعره القسم بالهدي وبالكعبة وبخليل الرحمن . .

وقد كان لهذه الثقافة الدينية أثرها وتيقظها حيناً بعد حين كما حدث له عندما مدح الامام زين العابدين عليه السلام بقصيدته الرقيقة الصادقة المشبعة بالروح الدينية الصافية .

ومع ذلك فإن الفرزدق ظل الأمين الحفيظ على تراث الجاهلية وأخلاقها وفضائلها . وكان يجاهر بأعرابيته وبداوته لا يخفي ذلك ولا يستره :

وأنّا أهل بادية ولسنا
بأهل دراهم حضروا القرارا

وكان من ذلك أن كثر في مدائحه ومفاخرة تغنيه بالمثل والفضائل العربية الجاهلية . وكان هجاؤه معرضاً لأوصاف الذم التي عابها الجاهليون . فهو يفخر بنيل الثأر ويعير من رضي الدية كفاء دمه :

كلوا ما جمعتم من ديات فإنهم
بنو محصنات لم تدنس ثيابها

ولقد اوتي الفرزدق قدرة على تضمين الأخبار في شعره وقدرة على القصص حتى قيل : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس .

وكذلك أوتي براعة في السخرية ومهارة في عرض صور هازلة تستثير الضحك وقد مضى في هذا المضمار شوطاً بعيداً يدل على أصالة وموهبة . وتجلت هذه الموهبة في أهاجيه لجرير بشكل خاص. ويأتي له تشابيه بذيئة غايتها الافحاش المضحك .

وأسلوب الفرزدق جزل قوي شديد التلاحم وثيق الاتصال بنفسه المتعالية المزهوة . وله قدرة مميزة على الارتجال والتجويد في آن معاً كما في قصيدته التي مدح بها الامام زين العابدين وان كانت الأخبار تدل على أن الشعر لا يواتي الشاعر في كل وقت . يقول الفرزدق : انا أشعر الناس عند الناس ولربما كان قلع ضرس من أضراسي أهون علي من قول بيت .

وقد افتن الفرزدق في استخدام التشبيه والاستعارة والكناية وان كان يستمد أكثر صوره من حياة البادية .

وتجلى في اسلوب الفرزدق الجزل المتلاحم مقدرة الشاعر على الايجاز وتضمين المعنى الكثير في اللفظ القليل ولذلك قدر الفرزدق ان يكون اكثر الثلاثة الفحول بيتاً مقلداً . والبيت المقلد : المستغني بنفسه المشهور الذي يضرب به المثل : فمن ذلك قوله :

فيا عجباً حتى كليب تسبني
كأن أباها نهشل أو مجاشع

وقوله :

وكنا اذا الجبار صعر خده
ضربناه حتى تستقيم الأخادع

ويتصل بهذا مقدرة الشاعر على اختيار اللفظ الدال على المعنى حتى لا يقع لفظ آخر موقعه .

ويتجلى في شعر الفرزدق ما يميل اليه الشاعر من ايثار التهويل على سامعه والمبالغة ليبلغ ما يريده لمعانيه من التضخيم .

وقال بعض النقاد في المفاضلة بين الفرزدق وجرير وتبيان الوجوه الفنية التي تفوق فيها الفرزدق : الفرزدق أشعر لأنه أقواهما اسر كلام واجراهما في أساليب الشعر وأقدرهما على تطويل وأحسنهما قطعاً » (القطع : القافية) .

وقالوا في الموازنة بينه وبين جرير ايضاً : أما من كان يميل إلى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره فيقدم الفرزدق وأما من كان يميل إلى اشعار المطبوعين وإلى الكلام السمح السهل الغزل فيقدم جريراً .

وقد تناثرت في أشعار الفرزدق الوان من محسنات البديع دلت على مهارة الشاعر . وكان الطباق اكثر الوان البديع التي اصطنعها كما اصطنع الجناس ولكن جرى وراء أسهله وأقله كلفة وهو الجناس الذي يعقده المرء بين اسم العلم ومشتق منه يجانسه من مثل قوله :

جفاف أجف الله عنه سحابه
وأوسعه من كل ساف وحاصب

وفي كتب البلاغة طائفة من أشعاره هي أمثلة لما أتى به الفرزدق من هذين اللونين من ألوان البديع : الطباق والجناس . كما ذكروا له ألواناً بديعية اخرى كرد الأعجاز على الصدور والاستشهاد والاحتجاج والاستطراد والحشو الحسن . ويكفي الفرزدق قول خصمه جرير : نبعة الشعر الفرزدق .

وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي.

مر ذكره في الصفحة ٢٧٤ من المجلد العاشر، قيل فيها عنه ان ابن رستة عده في الأعلاق النفيسة من الشيعة .

وقد ترجم له الذهبي في (سير اعلام النبلاء) ترجمة مفصلة قال عنه في مطلعها بأنه محدث العراق وأحد الاعلام . وان ممن حدث عنه أحد شيوخه سفيان الثوري، وأن والده كان ناظراً على بيت مال الكوفة وله هيبة وجلالة وأنه من بحور العلم وائمة الحفظ .

كما نقل عن احمد بن حنبل بأن مولده كان سنة ١٢٩ .

وكذلك فان مما اورده الذهبي عنه: انه لما مات سفيان الثوري جلس وكيع موضعه ، وان حماد بن زيد رجحه على سفيان . وانه كان يصوم الدهر ويختم القرآن كل ليلة ، وانه مع هذا كان ملازماً لشرب نبيذ الكوفة الذي يسكر الاكثار منه ، فكان متأولاً في شربه ولو تركه تورعاً لكان اولى . وانه عرض عليه القضاء فامتنع ، وانه حدث بدمشق فأخذ عنه هشام بن عمار وابن ذكوان ، قال احمد بن ابي خيثمة : حدثنا محمد بن يزيد ، حدثني حسين اخو زيدان قال : كنت مع وكيع ، فأقبلنا جميعاً من المصيصة او طرسوس ، فأتينا الشام ، فما أتينا بلداً الا استقبلنا واليها ، وشهدنا الجمعة بدمشق ، فلما سلّم الامام اطافوا بوكيع فما انصرف الى أهله يعني الى الليل . قال فحدث به مليحاً ابنه ، فقال : رأيت في جسد ابي آثار خضره مما زُحم ذلك اليوم . وقال محمد بن سعد : كان وكيع ثقة مأموناً عالياً رفيعاً كثير الحديث حجة .

وقال محمد بن خلف التيمي : أخبرنا وكيع قال : أتيت الأعمش فقلت : حدثني ، قال : ما اسمك ؟ قلت : وكيع . قال : اسم نبيل ، أين تنزل من الكوفة ؟ قلت : في بني رؤاس . قال : اين من منزل الجراح بن مليح ؟ قلت : ذاك ابي ، وكان على بيت المال ، قال لي : اذهب فجئني بعطائي ، وتعال حتى أحدثك بخمسة أحاديث . فجئت الى ابي فأخبرته ، قال : خذ نصف العطاء واذهب ، فاذا حدثك بالخمسة فخذ النصف الآخر حتى تكون عشرة ، فأتيته بنصف عطائه فوضعه في كفه وقال : هكذا ؟ ثم سكت . فقلت : حدثني ، فأملى عليّ حديثين ، فقلت : وعدتني بخمسة . قال : فأين الدراهم كلها ؟ احسب ان اباك أمرك بهذا ، ولم يدر أن الأعمش مدرَّب وقد شهد الوقائع ؟ اذهب فجئني بتمامه ، فجئته ، فحدثني بخمسة ، فكان اذا كان كل شهر جئته بعطائه ، فحدثني بخمسة أحاديث .

قال قاسم بن يزيد الجرمي: كان الثوري يدعو وكيعاً وهو غلام فيقول: يا رؤاسي تعال، اي شيء سمعت؟ فيقول: حدثني فلان بكذا، وسفيان يتبسم ويتعجب من حفظه.

قال ابن عمار: ما كان بالكوفة في زمان وكيع افقه ولا أعلم بالحديث من وكيع، وكان جهبذاً سمعته يقول: ما نظرت في كتاب منذ خمس عشرة سنة الا في صحيفة يوماً، فقلت له: عدّوا عليك بالبصرة اربعة أحاديث غلطت فيها. قال: وحدثتهم بعبّادان بنحو من ألف وخمسمئة، أربعة احاديث ليست بكثيرة في ذلك.

قال محمد بن عمران الأخنسي: سمعت يحيى بن يمان يقول: نظر سفيان الى عيني وكيع فقال: لا يموت هذا الرؤاسي حتى يكون له شأن، فمات سفيان، وجلس وكيع مكانه. قال الشاذكوني: قال لنا أبو نعيم يوماً: ما دام هذا التنين حياً ـ يعني وكيعاً ـ ما يفلح أحد معه.

قال ابن عدي: حُدثت عن نوح بن حبيب عن عبد الرزاق، قال: رأيت الثوري وابن عيينة ومعمراً ومالكاً، ورأيت ورأيت، فما رأت عيناي قط مثل وكيع.

وقال بشر بن موسى: سمعت احمد بن حنبل يقول: ما رأيت قط مثل وكيع في العلم والحفظ والاسناد والأبواب مع خشوع وورع. قلت: يقول هذا احمد مع تحريه وورعه، وقد شاهد الكبار مثل هُشيم وابن عيينة ويحيى القطان وأبي يوسف القاضي وأمثالهم.

وقال صالح بن احمد: قلت لأبي: ايما اثبت عندك، وكيع او يزيد؟ فقال: ما منهما بحمد الله الا ثبت، وما رأيت أوعى للعلم من وكيع، ولا أشبه من أهل النسك منه ،ولم يختلط بالسلطان.

قال قتيبة: سمعت جريراً يقول: جاءني ابن المبارك فقلت له: يا أبا عبد الرحمان من رجل الكوفة اليوم؟ فسكت عني ثم قال: رجل المصرين وكيع.

وبعد ان يروي الذهبي عن وكيع جميع ما مر، ينقل عن ابنه سفيان برنامجه اليومي قائلاً:

عن سفيان بن وكيع. قال: كان ابي يجلس لاصحاب الحديث من بكرة الى ارتفاع النهار، ثم ينصرف، فيقيل، ثم يصلي الظهر ويقصد الطريق المشرعة التي يصعد منها أصحاب الروايا فيريحون نواضحهم، فيعلمهم من القرآن ما يؤدون به الفرض الى حدود العصر، ثم يرجع الى مسجده فيصلي العصر، ثم يجلس يدرّس القرآن ويذكر الله الى آخر النهار، ثم يدخل منزله، فيقدم اليه افطاره، وكان يفطر على نحو عشرة ارطال من الطعام (بالرطل البغدادي الذي يزن ٣٧٥ غراماً تقريباً). ثم تقدم اليه قرابة فيها نحو من عشرة ارطال من نبيذ، فيشرب منها ما طاب على طعامه، ثم يجعلها بين يديه، ثم يقوم فيصلي ورده من الليل، كلما صلى شيئاً شرب منها حتى ينفذها، ثم ينام!!

وعن شربه النبيذ يقول الذهبي: ومع هذا فكان ملازماً لشرب نبيذ الكوفة الذي يسكر الاكثار منه فكان متأولاً في شربه، ولو تركه تورعاً لكان اولى به، فإن من توقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، وقد صح النهي والتحريم للنبيذ المذكور، وليس هذا موضع هذه الأمور، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، فلا قدوة في خطأ العالم، نعم، ولا يوبّخ بما فعله باجتهاد، نسأل الله المسامحة.

وعن تشيعه يروي الذهبي: سئل احمد بن حنبل: اذا اختلف وكيع وعبد الرحمان بن مهدي بقول من نأخذ؟ فقال: نوافق عبد الرحمان اكثر وخاصة في سفيان، كان معنياً بحديثه، وعبد الرحمان يسلم منه السلف، ويجتنب شرب المسكر، وكان لا يرى ان يُزرع في ارض الفرات. (انتهى).

والشاهد في قوله: (عبد الرحمان يسلم منه السلف).

ثم يتابع الذهبي قائلاً: مرّ قول احمد: إن عبد الرحمان يسلم منه السلف، والظاهر ان وكيعاً فيه تشيع يسير لا يضر ان شاء الله، فانه كوفي في الجملة، وقد صنف كتاب فضائل الصحابة، سمعناه قدّم فيه باب مناقب عليّ على مناقب عثمان.

ويروي الذهبي: قال حنبل بن اسحاق: سمعت ابن معين يقول: رأيت عند مروان بن معاوية لوحاً فيه اسماء شيوخ: فلان رافضي، وفلان كذا، ووكيع رافضي. فقلت لمروان: وكيع خير منك، قال: مني؟ قلت نعم، فسكت، ولو قال لي شيئاً لوثب اصحاب الحديث عليه. قال فبلغ ذلك وكيعاً، فقال: يحيى صاحبنا، وكان بعد ذلك يعرف لي ويرحّب.

وعن تورعه يقول الذهبي: قال محمد بن علي الوراق: عرض القضاء على وكيع فامتنع. قال محمد بن عامر المصيصي: سألت احمد: وكيع احب اليك أو يحيى بن سعيد؟ فقال: وكيع، قلت كيف فضلته على يحيى، ويحيى مكانه من العلم والحفظ والاتقان ما قد علمت؟ قال: وكيع كان صديقاً لحفص بن غياث، فلما ولي القضاء هجره، وإن يحيى كان صديقاً لمعاذ بن معاذ، فلما ولي القضاء لم يهجره يحيى.

وعن منزلة وكيع يروي: وكيع في زمانه كالاوزاعي في زمانه. ويروي عن احمد بن حنبل: كان وكيع امام المسلمين في زمانه.

ومن طريف ما يرويه عن شربه النبيذ: قال اسحاق بن بهلول: قدم علينا وكيع فنزل في مسجد الفرات، وسمعت منه، فطلب مني نبيذاً فجئته به، وأقبلت اقرأ عليه الحديث، وهو يشرب، فلما نفد ما جئته به، أطفأ السراج، قلت: ما هذا؟ قال: لو زدتنا، زدناك...

وقال ابو سعيد الأشج: كنت عند وكيع فجاءه رجل يدعوه الى عرس، فقال: أثَمّ نبيذ؟ قال: لا. قال: لا نحضر عرساً ليس فيه نبيذ، قال: فاني آتيكم به:

« قال جعفر الطيالسي: سمعت يحيى بن معين يقول: سمعت رجلاً يسأل وكيعاً، فقال: يا ابا سفيان، شربت البارحة نبيذاً فرأيت فيما يرى النائم كأن رجلاً يقول: شربتَ خمراً. فقال وكيع: ذلك الشيطان!..

وفي مقابل ما رواه الذهبي عن تشيعه فقد روى انه: يفتي بقول ابي حنيفة، وكان قد سمع منه كثيراً، وانه يقول: الجهر بالبسملة بدعة. وانه يقول: من شك أن القرآن غير مخلوق فهو كافر، وانه يقول: من زعم ان القرآن مخلوق فقد زعم انه محدث، ومن زعم أن القرآن محدث فقد كفر.

وقد عرّض وكيع نفسه مرة للموت حين روى ان النبي تُرك بعد موته يوماً وليلة حتى ربا بطنه وانثنت خنصراه. فأنكر قوم عليه هذا القول لان جسد النبي بعد موته لا يجري عليه ـ برأيهم ـ ما يجري على أجساد سائر الناس، فرفعوا الأمر الى والي مكة فحبسه وعزم على قتله، ونصبت خشبة خارج الحرم لصلبه عليها، ولم تنفع شفاعة سفيان بن عيينة في انقاذه، لولا ان سفيان هوّل على الوالي قائلاً: اني لك ناصح، هذا رجل من أهل العلم وله عشيرة، وولده بباب أمير المؤمنين، فتشخص لمناظرتهم.

فعمل فيه كلام سفيان فأمر باطلاقه، فارتحل عن مكة.

فكتب أهل مكة الى أهل المدينة بالذي كان من وكيع، وقالوا اذا قدم عليكم فلا تتكلوا على الوالي، وارجموه حتى تقتلوه، فعرض أهل المدينة

ذلك على سعيد بن منصور وبلغه الذي هم عليه ، فبعث بريداً الى وكيع ان لا يأتي المدينة ويمضي من طريق الربذة ، وكان قد جاوز مفرق الطريقين ، فلما أتاه البريد ، ردّ ، ومضى الى الكوفة .

توفي وكيع سنة ١٩٧ فدفن بفيد راجعاً من الحج . وقد عاش ثماني وستين سنة . هذا ولا بد من القول : ان ابن رستة في كتابه (الاعلاق النفيسة) عدّ وكيعاً من الشيعة كما تقدم .

ابو عبادة الوليد بن عبيد الطائي (البحتري)

مرّ الحديث عنه في المجلد العاشر، ونضيف الى ما هنالك الدراسة الآتية مكتوبة بقلم : الدكتور محمد العبد حمود

كانت ولادته في منبجُ من أعمال الشام ، وفي رواية اخرى في قرية بالقرب منها اسمها زَرْدفته . وهو يصف منبج اذا تحدث عنها بأنها وطنه وكانت له فيها ضياع ورثها فيما يظهر لأبنه ثابت الذي عاصر الأصطخري .

اختلفت الروايات في تحديد السنة التي ولد فيها هذا الشاعر ففي بعضها انه ولد في السنة الخامسة بعد المائتين وفي البعض الأخر انه في السنة السادسة بعد المائتين وهو ما عليه أكثر الروايات . وقد انفردت دائرة المعارف الاسلامية وحدها بجعل تاريخ ولادته سنة ٢٠٤ هـ .

وكما اختلف المؤرخون في تحديد عام ولادته اختلفوا كذلك في تعيين عام وفاته فقيل انه عام أربعة وثمانين ومائتين وقيل عام خمسة وثمانين وقيل عام ثلاثة وثمانين ورجح ابن خلكانِ القول الأول .

وقد اعتمدت هذا التاريخ معظم المراجع الحديثة .

وكما اختلفوا في عام وفاته اختلفوا في مكان وفاته فقوم يرون انه مات بمنبج وآخرون على انه مات بحلب ورجح ابن خلكان القول الأول .

نسبه وأسرته

البحتري قحطاني من جهة أبيه إذ انه ينتسب إلى طيء الذي ينتهي نسبه بكهلان من قحطان وعدناني من ناحية أمه التي تنتسب إلى شيبان وهي قبيلة ينتهي نسبها ببكر بن وائل من ربيعة .

أما ان أباه من طيىء فقد عرفناه من التاريخ ومن شعره الكثير مثل قوله مفتخراً :

ان قومي قوم الشريف قديماً
وحديثاً: ابوة وجدودا
ذهبت طيىء بسابقة المجد على
العالمين بأساً وجوداً
فهم قوم تبع خير قوم
لهم الله بالفخار شهيدا

وأما ان امه من شيبان فلم يحدثنا عنه التاريخ وإنما عرفنا به البحتري حين قال :

أعمرو بن شيبان وشيبانكم أبي
اذا نسبت أمي وعمركم عمري

وكان الكهلانيون يسكنون بلاد اليمن حتى اذا أصابهم سيل العرم خرجوا من بلادهم يرتادون المواضع التي تصلح لسكناهم وكان منهم طيىء الذين اختاروا النزول بجوار بني أسد . ثم غلبوا هؤلاء على جبلي أجأ وسلمى واستقروا بهما . وهما جبلان في الشمال الشرقي من المدينة . وظل الطائيون بجبلي اجأ وسلمى حتى كان الاسلام . وكان اسلامهم على يد الامام علي بن ابي طالب عليه السلام اذ بعثه الرسول (ص) بسرية اليهم .

عاش الطائيون في منازلهم هذه حتى جاءت الفتوح الاسلامية فافترقوا في الحجاز والشام ، والعراق . وكان لهم بطون كثيرة منهم بنو بحتر آل شاعرنا البحتري الذين نزلوا سقي الفرات في منبج .

وقد اشتهر من قبيلة طيء طائفة غير قليلة حفظ التاريخ اسماءهم فمنهم حاتم الطائي الذي يضرب المثل بجوده إلى اليوم ومنهم عدي بن حاتم وزيد الخيل الذي لقبه الرسول زيد الخير . ومنهم أوس بن حارثة بن لام الطائي أحد الذين يضرب بهم المثل في الجود. ومنهم أبو تمام الشاعر المشهور واستاذ البحتري .

أما شيبان بن ثعلبة ، قبيلة أمه فينتهي نسبه ببكر بن وائل أحد بطون ربيعة التي قسمتها العصبية إلى فروع أهمها بكر وتغلب ابنا وائل .

وقد اختار بنو بكر الأرض التي تجاور اليمامة والبحرين إلى كاظمة وأطراف العراق مسكناً لهم . فكانوا مجاورين لبني أسد وطيىء . ولكن المنافسة بينهم وبين بني تغلب كانت على أشدها حتى بعد الاسلام ، وان كانوا يتناسونها أحياناً .

وكان البحتري يتخذ ربيعة كلها اخواله ويأسىٰ ان وقعت الحرب بين بطونها :

أسيت لأخوالي ربيعة اذ عفت
مصايفها منها وأقوت ربوعها

انتقل بعض البكريين مع الفتوح الاسلامية إلى ان استوطنوا سقي الفرات حول منبج وما جاورها .

هذا ومن قبيلة شيبان جماعة حفظت الرواية العربية اسماءهم فمنهم جساس بن مرة قاتل كليب وائل وبسطام بن قيس فارس بني شيبان في الجاهلية . ومنهم عوف بن محلم الذي يقال فيه : لا حر بوادي عوف .

ومع اننا لا نعرف شيئاً عن آبائه المباشرين إلا بعض ما ذكره في شعره مفتخراً :

وإذا ما عددت يحيى وعمراً
وابانا وعامراً والوليدا
وعبيداً ومسهراً وجدياً
وتدولاً وبحتراً وعتودا
لم أدع من مناقب المجد ما يقـ
ـنع من هم ان يكون مجيدا
ذهبت طيء بسابقة المجد
على العالمين بأساً وجودا

ويقول :

جدي الذي رفع الأذان بمنبج
وأقام فيها قبلة الصلوات
وأبي أبو حيان قائد طيء
للردم تحت لوائه المنصات
وولي فتح الجسر اذا أغرى به
عمرو وفاعل تلكم الفعلات
وخؤولتي فالحوفزان وحاتم
والخالدان الرافدان حماتي
اذ لم يكن شرف المناسب يشترى
بالمال في اللأواء والـلزبات

واذا كان من الجائز أن الشاعر حين يفتخر بآبائه يزيد من قدرهم ويعظم

من أمرهم فإنه لا يستطيع أن يخلق شيئاً من لا شيء . وينسب اليهم الشرف من غير أن يكون لهم من الشرف نصيب . وبالتالي فإنه يمكن القول ان أجداد البحتري كان لهم نصيب من المجد في قومهم هيأ للبحتري مجال الفخر بهم . ولعل جده كان من قواد المسلمين يوم فتحوا منبج وأخذوها من أيدي الروم . ولسنا نعرف هذا الجد الذي رفع صوته بالأذان في منبج .

اسمه وكنيته ولقبه

سمي بالوليد واشتقاقه من الولادة ظاهر وإياه عنى المعري بقوله :

وقال الوليد : النبع ليس بمثمر
واخطأ سرب الوحش من ثمر النبع

ويشير المعري هنا إلى قول البحتري :

وعيرتني سجال العدم جاهلة
والنبع عريان ما في فرعه ثمر

وللوليد كنيتان : ابو عبادة وأبو الحسن . ونشك في انه اكتنى بكنيتين عند ولادته وأغلب الظن ان والده كناه بواحدة فما هي كنيته الأولى ؟ ولم رغب في أن تكون له كنية ثانية ؟

تقول بعض الروايات انه كان يكنى أبا عبادة ولما دخل العراق تكنى أبا الحسن ليزيل العنجهية والأعرابية ويساوي في مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية إلى أهل النباهة والكتاب من الشيعة . فلما اتصل بالمتوكل وهو يكره الشيعة ويضطهدهم أشير على البحتري أن يتكنى بكنيته الأولى وهي أبو عبادة ففعل حتى اصبحت أشهر كنيتيه وبها عرف .

وتقول رواية أخرى ان كنيته الأولى كانت أبا الحسن فلما اتصل بالمتوكل غيرها إلى ابي عبادة . وإلى هذا نميل نحن لما عرف من محبة البحتري الصادقة للعلويين . وأبو الحسن كنية الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام كما هو معروف .

وأما الأسم الذي اشتهر به في عالم الأدب واستتر تحت شهرته اسمه وكنيتاه فهو البحتري هذه النسبة التي تدل على انه من عشيرة « بحتر » من قبيلة طيء التي كثيراً ما فاخر بمحامدها أو نسبة إلى « بحتر » جده الثاني عشر اذا صحت سلسلة نسبه أو للسببين معاً . والبحتر في اللغة معناه : القصير ، المجتمع الخلق . ولسنا ندري مقدار حظ جده من هذه التسمية . فهل كان قصيراً مجتمع الخلق ؟ أو كانت التسمية من باب الأضداد ؟ أو كانت مطلق تسمية لم يلحظ فيها معنى الوصفية بل اريد الدلالة على الذات فحسب ؟

نشأته

نشأ البحتري وتعلم في منبج . والغالب انه تربى كما كان يتربى نشء المسلمين حينئذ فهم يحفظون القرآن ثم يضيفون اليه حفظ شيء من الشعر والنثر البليغين وتعلم أحكام الدين . ثم اذا ترعرع الفتى اختلف إلى علماء بلده فاخذ عنهم شيئاً من علوم اللغة وأخبار الفتوح والمغازي وأيام العرب وأنسابهم . وقد كان للبادية أثر مميز في نشأة البحتري .

ويبدو أن أول من اتصل به من الشعراء هو ابو تمام . وبعض الروايات التي تتحدث عن أول لقاء لهما أقرب إلى الأساطير منها إلى الواقع كتلك القصة التي تحدثت عن قصيدة قالها البحتري في مديح محمد بن يوسف الثغري ـ وكان ابو تمام حاضراً والبحتري لا يعرفه ـ فادعاها ابو تمام لنفسه وصدقه الأمير لولا أن يعود أبو تمام عن قوله .

والعلاقة بين الشاعرين أصبحت اكثر من جيدة اذ خاطبه أبو تمام بعد أن عرف انه من طيء : لوددت ان كل طائية تلد مثلك وقبل ما بين عينيه وضمه إلى صدره وقال لمحمد بن يوسف : قد جعلت له جائزتي . فأمر الأمير لهما بجائزتين .

وأخبار العلاقة الجيدة بين الشاعرين مبثوثة في حنايا كتاب الأغاني . وقد يرتاب شاك في صحة بعض هذه الروايات أو كلها ويرى لأنصار شاعرنا حيناً وأنصار ابي تمام حيناً آخر اصبعاً في اختلاقها ووضعها رغبة في رفع من يتعصبون له . ولكن ذلك لن يحول بيننا وبين الاعتراف بما كان بين الشاعرين من صادق الحب والوداد خاصة في غياب أية رواية تظهر عكس ذلك .

هذه العلاقة بين البحتري وأبي تمام هي التي جعلته يتبرم بباقي شعراء عصره ويعدهم اصحاب قريحة مضطربة ومعان مستحيلة فيرثي أبا تمام ودعبلاً الخزاعي بقوله :

قد زاد في حزني وأوقد لوعتي
مثوى حبيب يوم مات ودعبل
وبقاء ضرب « الخثعمي » وشبهه
من كل مضطرب القريحة مهمل
أهل المعاني المستحيلة ان هم
طلبوا البراعة بالكلام المقفل

اتصل البحتري اذن بدعبل كما يدل عليه هذا الشعر . ولكن اتصاله به لم يكن في وثاقة اتصاله بأبي تمام . ويبدو ذلك من قلة الأخبار التي رويت عن اتصالهما بالنسبة إلى اخبار اتصاله بأبي تمام . ولسنا ندري أكانت العلاقة بينهما علاقة استاذية من دعبل للبحتري أو علاقة صداقة فحسب .

والواقع ان العلاقة القوية بين الشعراء الثلاثة تقوم على ما كان يربط بينهم من التشيع والولاء لآل البيت .

حبه علوة

أثناء رحلة قام بها البحتري إلى حلب تعرف على غادة فتن بها اسمها علوة . ويذكر بروكلمان في معرض التدليل على شهرة البحتري وديوع شعره بين المتأخرين أن أهل حلب في المائة الخامسة للهجرة عرفوا قبر حبيبته علوة .

وقد حفظ لنا البحتري في شعره بعض أوصاف لها خرجت من قلب مغرم :

هل دَيْنُ علوة يستطاع فيقتضى
أو ظلم علوة يستفيق فيقصر
بيضاء يعطيك القضيب قوامها
ويريك عينيها الغزال الأحور
تمشي فتحكم في القلوب بدلها
وتميس في ظل الشباب وتخطر
وتميل من لين الصبا فيقيمها
قد يؤنث تارة ويذكر . .

أحب البحتري علوة ولسنا ندري السبب الذي من أجله حيل بينه وبين الزواج منها ، غير انه من المرجح انه قد نعم معها بأيام سعيدة كان يستريح لذكراها ويستعيدها في الحين بعد الحين . ولم تنسه حياة الرفاهية والنعمة التي عرفها في ظلال المتوكل والفتح بن خاقان أيامه الحلوة معها وبقي حنينه قوياً إلى الشام وحلب :

قل للسحاب اذا حدته الشمأل
وسرى بليل ركبه المتجمل

عرج على حلب فحيي محلة
مأنوسة فيها لعلوة منزل...

احنو اليك وفي فؤادي لوعة
وأصد عنك ووجه ودي مقبل

واذا هممت بوصل غيرك ردني
وله اليك وشافع لك أول

ويقول في وصف اوقات سعادته بالوصال :

ألام على هواك وليس عدلاً
اذا احببت مثلك ان ألاما

لقد حرمت من وصلي حلالاً
وقد حللت من هجري حراماً

اعيدي في نظرة مستثيب
توخى الهجر أو كره الأثاما

تري كبداً محرقة وعيناً
مؤرقة وقلباً مستهاماً

تناءت دار علوة بعد قرب
فهل ركب يبلغها السلاما

وربت ليلة قد بت اسقى
بعينيها وكفيها المداما

قطعنا الليل لثماً واعتناقاً
وأفنيناه ضماً والتزاماً

وقد علمت بأني لم اضيع
لها عهداً ولم اخفر ذماما

لئن أضحت محلتنا عراقاً
مشرقة وحلتها شآما

فلم احدث لها إلا وداداً
ولم ازدد بها إلا غراما.

وواضح ما في هذه الأبيات ـ وسواها من الأبيات الواردة في الديوان ـ من مشاعر حب رقيقة ازاء علوة .

ومع ذلك فإننا اذا رجعنا إلى نسيب البحتري وجدناه يذكر فيه غير علوة ، زينب وسعاد وسلمى وليلى وأغلب ان هذه الأسماء كان يرمز بها الشاعر إلى حبيبته علوة أو دفعه إلى استخدامها ضرورات القافية والتصريح أو مجرد اقتفاء آثار الأقدمين .

هذا وقد تزوجت علوة من رجل كان صديقاً للبحتري يدعى «الذفافي» فقال يهجوه :

أبلغ ذفافينا رسالة مشـ
ـتاق أسر الشكوى وأعلنها

رب غداة لقصف في حلب
يجني ضحى وردها وسوسنها

لله ازماننا بعلوة ما
أطيب أيامها واحسنها

نبئتها زوجت اخا خنث
أغن رطب البنان لينها

تروم اخوانها ويمنعها
منهم لقد ساءها واحزنها

لو شاء لا بوركت مشيته
بلغها بالطلاق مأمنها

واذا تجاوزنا قصة حبه هذه في محاولة لتلمس الظروف التي طبعت نشأته امكننا الأفتراض بالاستناد إلى المصادر التي بين أيدينا ان البحتري نشأ في ظل أبوين لم يكونا من ذوي اليسار وأن مخايل النجابة قد بدت عليه وهو في ريعان الصبا فاستهواه الشعر فمال اليه وعالجه وهو فتى وقصد به أول ما قصد باعة البصل والباذنجان ومن لف لفهم يمدحهم وينشدهم في ذهابه وإيابه .

كان البحتري في مطلع حياته كثير الأسفار والتطواف فجاب عدداً من المدن السورية وزار الأهواز والعراق وقيل انه قصد مصر ايضاً قام بكل ذلك قبل أن يلقي عصا ترحاله في الحاضرة العباسية سامراء . والحق أن البحتري كان دؤوباً شديد العزم قوي الهمة واسع الآمال وفي شعره كثير من الاشارات التي تنبىء عن ذلك :

وقائلة والدمع يصبغ خدها
رويدك يا ابن الست عشرة كم تسري

فقلت : أحق الناس بالعزم والسدى
طلاب المعالي صاحب الست والعشر

سأخبط وجه الدهر والليل أو أرى
تمزق ثوب الليل في وضح الفجر

وأوثر عني في المهامه والفلا
على قرب عرسي في « السواجير » أو اثري

شخصيته وأخلاقه

ليس لدينا ما يشفي الغليل ويرسم لنا صورة البحتري وأغلب الظن ان وجهه وجسمه لم يكن بهما قبح ولا عاهة ظاهرة . يمكننا استنتاج ذلك من هجاء معاصره ابن الرومي والذي كان بارعاً في التهكم بأصحاب الخلق الممسوخة فإنه لم يجد ما يقوله في البحتري سوى انه كان ذا لحية طويلة :

البحتري ذنوب الوجه نعرفه
وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب

فلو كان به عيب في وجهه أو جسمه أو مشيته لأكثر ابن الرومي من الهجاء به .

واذا كان لنا ان نعتمد على شعره فإن فيه ما يوحي لنا بأنه كان نحيفاً :

فإن تلقني نضو العظام فإنها
جريرة قلبي منذ جرت على جسمي

ويقول :

حملت معالمهن اعباء البلى
حتى كأن نحولهن نحولي

وتذكر بعض المصادر عن الأغاني انه كان من أوسخ خلق الله ثوباً وآلة وأبغضهم انشاداً وأكثرهم افتخاراً بشعره حتى ليروى عنه أنه كان إذا أنشد شعراً قال لمستمعيه : لم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يقدر أحد أن يقول مثله !

ونحن نشك في قضية ثيابه الوسخة اذا علمنا انه كان يجالس ملوك بني العباس وكبار الوزراء والأعيان الذين ينفرون ولا ريب من الثياب الوسخة .

وأبرز ما يميز البحتري عزيمة قوية دفعته إلى التجواب والسفر سعياً وراء المجد والغنى . فلم يكن للبحتري مدينة واحدة يقصدها ولا قطر بعينه يتجول فيه ولكنه يرحل ولا يطمئن به المقام إلا حيث يجد المال الكثير

والحظ الجزيل وهنا تكون تلك البلدة حبيبة اليه :

وأحب آفاق البلاد إلى الفتى
ارض ينال بها كريم المطلب

عقيدة البحتري هذه في الرزق جعلته يشرق في البلاد ويضرب ويجوب أرجاء قسم كبير من المملكة الاسلامية وكان طموحاً لا يرضى بالقليل :

تقاذف بي بلاد عن بلاد
كأني بينها جمل شرود

عشرون قصرها الصبا وأطالها
ولع العتاب بهائم لم يعتب

امسي زميلاً للظلام واغتدي
ردفاً على كفل الصباح الأشهب

فأكون طوراً مشرقاً للمشرق
الأقصى وطوراً مغرباً للمغرب

واذا الزمان كساك حلة معدم
فالبس لها حلل النوى وتغرب

ولقد أبيت مع الكواكب راكباً
اعجازها بعزيمة كالكوكب

والليل في لون الغراب كأنه
هو في حلوكته وان لم ينعب

وهو لا يرى القناعة في المجد والغنى فضيلة بل يرى الفضيلة في الأقدام ومواجهة الصعاب :

ما زال لي من عزمتي وصريمتي
سنداً يثبت وطأتي أن تدحضا

لست الذي ان عارضته ملمة
ألقى إلى حكم الزمان وفوضا

كما كان البحتري متفائلاً لا يرى البلاء قدراً لا فكاك منه بل يؤمن بأن مع العسر يسراً وأن شدة الدهر عما قليل تنجلي :

هل الدهر إلا غمرة وانجلاؤها
وشيكاً وإلا ضيقة وانفراجها

تقضى الهموم لم يلبث طروقها
زماعي ولم يغلق علي رتاجها

وكان عارفاً بقدر نفسه مغروراً بشعره ويظهر ذلك جلياً في معاملته لممدوحيه وفخره بنفسه يقول لأحد ممدوحيه أحمد بن ثوابة :

واعلم ان السبل ما فاجأتكمو
بزور من الأقوام مثلي ولا وفد

يعزز ذلك ما ذكر عنه من تشدقه في القاء شعره وقوله للحاضرين: قولوا أحسنت !

قضية اخرى في شخصيته كانت مثار جدل هي بخله فقد ذكر البعض انه من أبخل خلق الله وذكروا انه كان له أخ وغلام معه في داره فكان يقتلهما جوعاً حتى اذا بلغ منهما الجهد اتياه يبكيان فيرمي اليهما بثمن أقواتهما مضيقاً مقتراً ويقول لهما مع ذلك : كُلا أجاع الله أكبادكما وأطال اجهادكما !

والطريف ان هناك من يذهب إلى ان البحتري لم يكن بخيلاً بل كان مبذراً أحياناً . وأنه لو كان بخيلاً لما فاتت هذه الصفة ابن الرومي ولكان ذكرها في هجائه للشاعر إضافة إلى افتخاره في شعره بكرمه وجوده .

وكما كان بخله موضع اختلاف كذلك أثيرت قضية مدى وفائه . يقول احمد بن طاهر : ما رأيت أقل وفاء من البحتري ولا اسقط . رأيته قائماً ينشد أحمد بن الخصيب مدحاً له فيه فحلف ليجلسن . ثم وصله ، واسترضى له المنتصر وكان غضبان عليه . ثم أوصل له مديحاً اليه وأخذ له منه مالاً فدفعه اليه . ثم نكب المستعين أحمد بن الخصيب بعد فعله هذا بشهور فلعهدي به قائماً ينشده :

لابن الخصيب الويل كيف انبرى
بأفكه المردي وابطاله

يا ناصر الدين انتصر موشكاً
من كائد ومغتاله

فهو حلال الدم والمال وان
نظرت في باطن أحواله

ثم قال ابن ابي طاهر : كأن ابن العلجة كان فقيها يفتي الخلفاء في قتل الناس نزحه الله ثم ختم القصيدة بقوله :

فالرأي كل الرأي في قتله
بالسيف واستصفاء أمواله

في الوقت الذي يجمع النقاد على اعتبار مراثي البحتري اجود من مدائحه . ويروى ان البحتري سئل في ذلك لأن عهد الناس ان تفضل المدائح المراثي معللين ذلك بما أجاب به بعض الشعراء وقد سئل عن ضعف مراثيه فقال : كنا نعمل للرجاء ونحن اليوم نعمل للوفاء وبينهما بعد . أما البحتري عندما سئل عن جودة مراثيه على مدائحه فقد أجاب بأن من تمام الوفاء أن تفضل المراثي المدائح .

وبعد فهل كان البحتري وفياً ؟ أما أنا فاؤكد ذلك والدليل انه كان يذكر النعم التي نالها من ممدوحيه فيجيد رثاءهم ويسجل مآثرهم وان شئت فاقرأ رثاءه لأبي سعيد وابنه يوسف وآل حميد والمتوكل . وأن قوة اتصاله بالمعتز ابن المتوكل دليل وفاء لأبيه الراحل . وإذا كان البحتري قد اضطر إلى أن يتصل بأناس يبدو أن اتصاله بهم يعارض سمة الوفاء ففي مهنته عذر يدفعه إلى هذا النهج من الحياة .

من أخلاق البحتري أيضاً الشجاعة . وقد يشارك في المعارك كما كان يفعل تحت راية أبي سعيد الثغري محمد بن يوسف وابنه يوسف بن محمد ويصور لنا ذلك في شعره :

وانا الشجاع وقد بدا لك موقفي
« بصقر قس » والمشرفية شهدي

ورأيتني فرأيت اعجب منظر
رب القصائد في القنا المتقصد

أسرته

قضى البحتري طفولته في منبج . ثم مضى يضرب في الآفاق باحثاً عن حظه حتى استقر اخيراً في سر من رأى وربما كان يختلف إلى منزله بمنبج في الحين بعد الحين . فلما ولي المعتز استوطن العراق ثانية وعاش في حاشيته ويدلنا على ذلك انه طلب مرة إلى المعتز أن يأذن له في الذهاب إلى الشام مدة شهرين فقط يزور فيهما أهله ويصلح أمر ضيعته اذ قال :

هل أطْلُعنّ على الشام مبجلاً
في عز دولتك الجديد المونق

فارم خلة ضيعة تصف اسمها
والم ثم بصبية لي دردق

شهران ان يسرت اذني فيهما
كفلا بالغة شملي المتفرق

وتزوج البحتري في سن لا نعرفها وأنجب ولداً سماه يحيى كان شديد

التعصب لأبيه وشعر أبيه . وأنجب يحيى هذا ولدين أحدهما عبيد الله والثاني أبو عبادة يقول عنهما ابن خلكان انهما كانا رئيسين في زمانهما قصدهما المتنبي ومدحهما ولعل الثروة التي آلت اليهما من جدهما هي التي وضعتهما بمركز الرياسة .

واستئذان البحتري من المعتز يجعلنا نرجح ان الشاعر لم يكن يصحب زوجه وولده في رحلاته .

وكان للشاعر خدم وغلمان . وقد توسل بأحد هؤلاء ويدعى نسيم بطريقة فريدة للحصول على المال . فهو يغري اخوانه بشراء هذا العبد ثم يشكو فراقه بحرارة حتى يعاد اليه .

عقيدته

كان البحتري في ظاهر أمره يتشيع لبني العباس ويظهر خلافتهم حقاً لا مرية فيه وقد يغالي في ذلك حتى يعد غير مسلم ذلك الذي لا يعتقد ولاية العباسيين وخلافتهم ولو صام وصلى فالخلافة حق للعباسيين ووراثة ما تنزع ورثوا فخرها وشرفها من عم النبي العباس .

وهو لذلك مبتهج كل البهجة برجوع الأمر إلى العباسيين لأن الحق عاد الى نصابه بينما استقر الهوان في بني مروان :

وأنتم بنو العباس عم محمد
يمين قريش اذ سواكم شمالها

وقد سرني ان الخلافة فيكم
مخيمة ما أن يخاف انتقالها

لكم ارثها والحق منها ولم يكن
لغيركم إلا اسمها وانتحالها

وان بني حرب ومروان اصبحوا
بدار هوان قد عراهم نكالها

يغضون ابصاراً مغيظاً ضميرها
ويخفون الحاظاً مبيناً كلالها

ذلك ظاهر أمره فهل كانت عقيدته مطابقة لهذا الظاهر أو كان يسر غيرها ويظهرها ؟

هذا السؤال يطرحه الدكتور أحمد بدوي ويرى مشروعية طرحه في كون الكثير من الناس أيام ملك بني العباس يؤمنون بأحقية العلويين في الخلافة حيث كان كثير من كبار رجال الدولة يؤمنون بخلافة العلويين ويقدمونهم وان كان الجميع يظهرون التشيع لبني العباس .

أما اجابته على السؤال فتتضمن تأكيداً على أن البحتري كان جاداً في عقيدته العباسية اذ لو أن الخلفاء عرفوا فيه نزعة علوية لأقصوه عنهم .

ولا يرى حرجاً باعتبار مظاهر تشيع البحتري على انه لم يكن « ناصبياً »: فإنا لم نعثر في شعر البحتري أيام المتوكل على ما يدلنا انه خاض في علي وسبه . . . بل لعله يتألم لما أصاب العلويين في ذلك العهد (أيام المتوكل) من إضطهاد وعنف حتى اذا جاء المنتصر ورد الحقوق مدحه البحتري بذلك ومضى يعدد الأسباب والدواعي التي توجب عليه تقريبهم لأنهم قرابته بل أشقاؤه . بل كان يحنو على علي بن أبي طالب ويعظمه ويراه أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله يدلنا على ذلك روح قصيدته في المنتصر . . وانه هجا الحسن بن رجاء الذي ذم علي بن ابي طالب فقال له البحتري :

يا سواتا من رأيك العازب
وعقلك المستهتر الذاهب

ان وقفت سوقك أو اكسدت
بضاعة من شعرك الخائب

انحيت كي تنفقها زارياً
على علي بن ابي طالب

ويقول من قصيدة لمحمد بن يوسف :

كنا نكفر من امية عصبة
طلبوا الخلافة فجرة وفسوقا

ونقول: تيم قربت وعديها
امراً بعيداً حيث كان سحيقا

ونلوم طلحة والزبير كليهما
ونصنف الصديق والفاروقا

فأنت تراه يعد الأمويين عصبة كافرة فاجرة ويجد أبا بكر وعمر قد ظفرا بما لم يكونا ليظفرا به ويلوم طلحة والزبير لخروجهما على بيعة علي .

والطريف انه ما من شيعي يستطيع اثبات تشيع البحتري بحجج أبلغ مما تقدم . الطريف هو في الاستنتاج الذي توصل اليه الدكتور بدوي من أن البحتري يدين بعقيدة أهل السنة التي منها الإيمان بالقضاء والقدر - وكأن الشيعة لا يؤمنون بذلك ! - بل ويراه سنياً يخوض لجة الدفاع عن عقيدته ! . .

صاحب أعيان الشيعة ينقل عن عبد الجليل الرازي استاذ ابن شهر آشوب المازندراني : البحتري من شعراء الشيعة وكان خصيصاً بدعبل الخزاعي ومن اصدقائه كما في كتاب اكتفاء القنوع وغيره ، ذكر ذلك في ترجمة البحتري . وخلوص دعبل في التشيع مشهور وإكرام ابي تمام (وكان شيعياً) للبحتري ايضاً كذلك . ويظهر من الشيخ ابي عبد الله أحمد بن عياش في كتابه (مقتضب الأثر في إمامة الأئمة الأثني عشر) ان البحتري وأبي الغوث الطهوي كانا في عصر واحد وكانا من الشيعة الأثني عشرية لكن البحتري يمدح الملوك وأبي الغوث يمدح آل الرسول . وذكر قصيدة لأبي الغوث في مدح الأئمة من آل محمد الأثني عشر قال كان البحتري ابو عبادة ينشدها وتلك القصيدة لا يمكن أن ينشدها إلا من كان من الإمامية منها :

ينابيع علم الله اطواد دينه
فهل من نفاد ان علمت لأطواد

نجوم متى نجم خبا مثله بدا
فصلي على الخابي المهيمن والبادي

هم حجج الله اثنتي عشرة متى
عددت فثاني عشرهم خلف الهادي

واذا عدنا إلى شعره وجدنا اشارات تدل على تشيعه رغم الاضطهاد الشديد للشيعة من قبل ملوك بني العباس والذي عبر عنه شاعر شيعي بالقول :

يا ليت ظلم بني مروان دام لنا
وليت عدل بني العباس في النار

على الرغم من جور العباسيين وعسفهم فالبحتري لم يدع متنفساً يستطيع التعبير فيه عن عقيدته المكبوتة إلا وأفاد منه . يهجو علي بن الجهم الشاعر لا لشيء إلا لأنه كان ناصبياً يعادي آل البيت :

اذا ذكرت قريش للمعالي
فلا في العير انت ولا النفير

وما رغثانك الجهم بن بدر
من الأقمار ثم ولا البدور

لأيـة حـالـة تـهـجـو عـلـيـاً
بـمـا لـفـقـت مـن كـذب وزور

وعلي بن الجهم هذا كان من ندماء المتوكل الـذي كان البحتـري أثيراً لديه وصاحب حظوة عنده وأعتى ملوك بني العباس على الشيعة إلى حد انه أمر بهدم قبر الحسين عليه السلام .

والذي حرك البحتري على هجاء هذا الشاعر هو التشيع .

وما يمكن أن يستدل به على تشيعـه موقفـه من المنتصر بن المتـوكل . والمعروف عن المنتصر انه كان ينكر على ابيه كرهه لعلي بن ابي طالب . وربما كان بعض الندمان يفيض في ثلب علي فينكر المنتصر ذلـك ويتهدده ويقول للمتوكل : ان علياً هو كبير بيتنا وشيخ بني هاشم فإن كنت لا بد ثالبه فتول ذلك بنفسك ولا تجعل لهؤلاء سبيلاً إلى ذلك .

ومع ان البحتري بقي وفياً للمتوكل حتى بعد وفاته ، ومـع ان المنتصر شارك في مقتل والده فإن البحتري مدح المنتصر بقصيدة واحدة هي أقرب ما تكون في مدح العلويين منها في مدح هذا الملك العباسي لا لشيء إلا لأنه أعاد بعضاً من حقوق العلويين اليهم ورفع عنهم الاضطهاد الذي كان مسلطاً عليهم أيام حكم المتوكل . ومما يقوله في هذه القصيدة :

رددت الـمـظالـم واسـتـرجـعـت
يـداك الـحـقـوق لـمـن قـد قـهـر
وآل ابـي طـالـب بـعـدمـا
اذيـع بـسـر بـهـم فـانـذعـر
ونـالـت أدانـيـهـم جـفـوة
تـكـاد الـسـمـاء لـهـا تـنـفـطر
وصـلـت شـوابـك ارحـامـهـم
وقـد اوشـك الـحـبـل ان يـنـبـتـر
فـقـربـت مـن حـظهـم مـا نـأى
وصـفـيـت مـن شـربـهـم مـا كـدر
وأيـن بـكـم عـنـهـم والـلـقـاء
لا عـن تـنـاء ولا عـن عـفـر
قـرابـتـكـم بـل اشـقـاؤكـم
واخـوتـكـم دون هـذا الـبـشـر
ومـن هـم وأنـتـم يـدا نـصـرة
وحـدا حـسـام قـديـم الأثـر
يـشـاد بتقـديمكـم فـي الـكـتـاب
وتـتـلـى فـضـائـلـكـم فـي الـسـور
وان عـلـيـاً لأولـى بـكـم
وأزكـى يـداً عـنـدكـم مـن عـمـر

أما تألمه على المتوكل بعد موته مع نصبه فلأحسانه العظيم اليه وعدم عراقة الشعراء في الدين إلا من قل .

صلته بالأعيان والحكام

بدأ البحتري حياته متكسباً بشعره يقصد باعة البصل والباذنجان ومن لف لفهم يمدحهم وينشدهم في ذهابه وإيابه . ويمدح أبا جعفر القمي يستهديه أضحيـة فلما وصل إلى سامراء بدأت صلته بالكتاب فاتصل باسماعيل بن شهاب الذي كان كاتباً للقاضي أحمد بن أبي دؤاد . وليس هناك ما يدل على اتصاله بالمعتصم أو بالواثق . وان كانت أول علاقة هامة له كانت بأبي سعيد محمد بن يوسف الثغري الذي كـان ينتجعه ويقيم في كنفـه حيث يمدحـه بقصيدة يعزيه فيها بوفاة المعتصم ويهنئه بقيام الواثق .

وللبحتري قصائـد في محمـد بن راشـد الخنـاق أحـد المختصين بالمعتصم . كما له قصائد في الحسن بن سهل وولديه ابراهيم والحسين . وله فيهم خمس عشرة قصيدة ومقطوعـة . ومدح الكـاتب الحسن بن وهب الذي كان يكتب للوزير محمد بن عبد الملك الزيات وزير الـواثق . مدحـه بقصيدتين وعاتبه بمقطوعـة . وقد تـوسله البحتري للوصـول إلى محمد بن عبد الملك الزيات ونجح في ذلـك حيث نجد لـه قصيدة في مـدح الوزيـر المذكور .

وممن اتصل بهم في هذه الأثناء من الكتاب ايضـاً ابو نـوح عيسى بن ابراهيم كاتب الفتح بن خاقان وزير المتوكل وخدينه . ويـظهر أن البحتري جهد ان يوطد صلته بهذا الكاتب ليصل بوساطته إلى هدفه البعيد وهو الفتح ابن خاقان ولهذا فقد انشأ ثماني قصائد في مدحه وعتابه ووصف علته .

وكان البحتري في سبيل الوصول إلى غايته البعيدة يمدح صغار الكتاب والعمالمشيدابهم فنراه ينظم المقطعات والقصائد في أمثال نجاح بن سلمة . وعندما اقتيـد . الثغري إلى السجن قـال البحتري قصيـدتين مستنكراً ذلـك أحدثتا دوياً معيناً وأوصلتا الشاعر إلى بلاط الخلافة .

وفي هـذه الأثنـاء اتصـل البحتـري بعلي بن يحيى المنجم أحـد ابـرز المقربين من الفتح بن خاقان وكان هذا على ما يبدو كثير الحدب على الأدباء والشعراء وكثيراً ما كان يـوصلهم إلى الخلفاء والأمـراء ويستخرج لهم منهم الصلات والهبات فكثر اخدانه منهم وكثر مديحهم له فاتصل شاعرنا ومدحه بثلاث قصائد .

وحقق البحتـري غايتـه أخيراً ووصـل إلى الفتح بن خـاقان وفي أخبـار البحتري للصولي هذا الخبر عن ابن البحتري : حدثني ابي قال : امتدحت الفتح بن خاقان أول أمري فأمرني بالمقام وتأخرت جائزته فكتبت اليه : لك النعماء والخطر الجليل ـ القصيدة . فما كان أسرع ما جاءت جائزته وأمرني بالمقام » .

وقد قضى البحتري في ظل الفتح مدة تناهز أربع عشرة سنة وما وصلنا من شعره فيه يبلغ حوالي تسعاً وعشـرين قصيدة ومقـطعة تربـو على ثلاثين وثمانماية بيت . وأغلب الظن أن مرد قلة هذا النتاج نسبة إلى المدة الزمنية عائد إلى عدم انقطاع الشاعر إلى الفتـح لأنه اتصـل في هذه الأثنـاء برجـل السلطة الأول المتوكل وكان يوزع شعره بين الأثنين . هذا الى انه كان أحياناً يؤم بشعره اناساً آخرين .

وبعد ان وطد البحتري صلته بالفتح التمس من ممدوحه أن يقـدمه إلى المتوكل وهكذا كان . وقد حظي البحتري لدى المتوكل بما لم يحظ به في أي مكـان آخر وانشـأ فيه روائـع مدائحـه وجميل أوصـافه وواكبـه في أكثـر أعماله . ويظهر أن البحتري أصبح شاعر البلاط لأول مرة في عهد المتوكل .

وأصبح نديماً له لا يكاد يفارقه ويبدو انه استهل صلته به بـابدال كنيتـه القديمة وهي أبو الحسن بأبي عبـادة لما عـرف عن المتوكـل من حقد على الشيعة .

وانثالت عليه عطايا المتوكل وهباته حتى أثرى وأفاد وقد سجل الشـاعر الكثير من اعمال المتوكل في خلال الحقبة التي واكبه فيها والتي أربت على اثنتي عشرة سنة . ويبلغ ما انشأه البحتري في هذه الحقبة زهاء تسع وثلاثين قصيدة ومقطعة اشتملت نحو أربع وستين وثمانماية بيت .

بعد المتوكل ولي الأمر ابنه المنتصر . مدحه البحتـري بقصيدة واحـدة أشاد فيها بموقف المنتصر المنصف من الطالبيين .

ولما ولي من بعده المستعين نظم فيه البحتري أربعة مـدائح يبلغ عـدد

أبياتها ثلاثة وثمانين بيتاً تناول فيها إلى جانب مدحه مدح ابنه العباس ومدح وزيره ابن يزداد كما هجا فيها وزيرين من وزراء المستعين وهما أوتامش وأحمد بن الخطيب .

ولما شب النزاع بين المستعين والمعتز هجا البحتري المستعين ومدح المعتز .

وكان من ممدوحي البحتري في عهد المستعين أبو صالح عبد الله بن محمد بن يزداد الذي استوزره المستعين بعد مقتل اوتامش سنة ٢٤٩ هـ .

عندما استقر الأمر للمعتز سنة ٢٥٢ هـ حظي البحتري عنده بمنزلة رفيعة فأثقله بالعطايا والمنح فأخلص له الشاعر كما أخلص لأبيه المتوكل من قبل وقد قال فيه مدائح كثيرة وطويلة على الرغم من اضطراب الحالة السياسية في عهده وقصر مدة خلافته بالقياس إلى مدة خلافة المتوكل . فقد أنشأ البحتري في المعتز الذي بقي في الحكم ما ينيف على أربع سنوات ونصف احدى وثلاثين قصيدة ومقطعة تربو على خمسين وتسعماية بيت .

ولم يكن البحتري يكتفي بتسجيل الحوادث السياسية والأعمال العمرانية التي تحدث في عهود ملوك بني العباس الذين كان يعيش في اكنافهم ويتردد على قصورهم . بل كان أحياناً يشير عليهم ان يولوا اولادهم ولاية العهد كما فعل مع المعتز اذ حثه على تولية ابنه عبد الله العهد . بل يقوم احياناً بتسجيل اعمال أمهات وزوجات الملوك كما فعل عندما تحدث عما قامت به قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز من إطعام الحجيج واسقائهم .

وللبحتري في وصفِ ـ مولى مثل دوراً سياسياً هاماً في أيام المنتصر والمستعين ـ قصيدتان ومقطعة .

بعد المعتز جاء محمد بن الواثق الذي لقب بالمهتدي والذي على الرغم من زهده لم يسلم من النهاية المأساوية التي انتهى اليها اسلافه وقد انشأ فيه البحتري ثلاث قصائد وارجوزة .

بعد مصرع المهتدي جاء الأتراك بجماعة من أولاد المتوكل كانوا محبوسين في الجوسق فاختاروا أحمد وبايعوه بالخلافة ولقب المعتمد على الله وذلك يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين . وقد عانى هذا الملك معاناة شديدة من استئثار اخيه الموفق بشؤون السلطة . وكان على ما يبدو شديد الضعف فقد روي ان أحدى المغنيات غنته فرام اربعمائة دينار يصلها بها فعزت عليه فطلب نصفها فلم تتوفر فقال :

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه
اليه تحمل الأموال طراً ... ويمنع بعض ما يجبى اليه

وملفت للنظر ان البحتري لم ينشيء في المعتمد ـ على الرغم من المدة الطويلة التي حكم فيها وهي التي تربو على ثلاث وعشرين سنة ـ سوى اربع قصائد ومقطعة وأن واحدة من هذه القصائد ينازعه فيها المهتدي . ويبدو ان الشاعر لمح ضعف الخليفة وقلة ذات يده فانصرف عنه إلى غيره . كما انه لم يقل في الموفق سوى قصيدتين ربما لأن هذا الأخير كان قليل العطاء . وعلى هذا فلم يكن للشاعر مندوحة من أن يؤم الوزراء والقواد والولاة بل وحتى الكتاب وعمال الخراج فيمدحهم ويطنب في مدحهم .

ومن ينظر في ديوان الشاعر منذ استخلاف المعتمد في سنة ٢٥٦ هـ الى الحقبة التي غادر فيها العراق قافلاً إلى بلده منبج يرى كثرة القصائد التي دبجها في أولئك الممدوحين مما يعيد الى الأذهان حالته الأولى التي بدأها بالتطواف في المدن والأمصار مادحاً ومنتجعاً .

وقد مدح البحتري المعتمد بعدة قصائد لا ترتفع إلى مستوى شعره الجيد الذي انشأه في المتوكل والفتح والمعتز . كما مدح عبد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المعتمد ابن اخي الفتح بن خاقان بعدد من القصائد .

وممن اتصل بهم البحتري في عهد خلافة المعتمد الحسن بن مخلد بن الجراح وهو من أصل فارسي وللبحتري فيه سبع قصائد .

كما اتصل البحتري بعدد من عمال الخلافة وكان في مقدمتهم ابو اسحاق ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن المدبر الذي أصبح وزيراً للمعتمد وقد انشأ فيه اثنتين وعشرين قصيدة ومقطوعة .

وقد تمكن البحتري من خلال اتصاله بهؤلاء جميعاً وبسواهم ان يجمع ثروة ضخمة ـ على الرغم من شكواه المستمرة ـ كما امكن ملاحظة شيء من التشابه بين حياة البحتري الأولى وبين السنوات الأخيرة منها . وقد مر بنا انه بدأ حياته بامتداح أصحاب البصل والباذنجان في أسواق مدينته . ثم ارتأى الرحلة والتطواف فأم القواد والعمال والولاة في مدنهم يقرظهم وينال هباتهم وعطاياهم حتى تهيأ له ان يحط رحاله في ربوع الحاضرة العباسية « سامراء » وأن يصبح بعد لأي شاعر البلاط حقبة من الزمن .

وفي غضون السنوات الأخيرة من عمره نراه يعيد ما بدأ به حياته الأولى . فأخذ يضرب في الأرض منتجعاً الوزراء والقواد والعمال وصغار الكتاب يمتدحهم ويلتمس جدواهم . بل نراه يؤم حتى عمال الطاسيج بعد أن ضاق من المقام في بغداد :

فأصبحت في بغداد لا الظل واسع ... ولا العيش غض في غضارته رطب
أأمدح عمال الطساسيج راغباً ... اليهم ؟ ولي بالشام مستمتع رغب

نتاجه

ذكر ابن النديم في الفهرست أن شعر البحتري كان على غير الحروف الى أيام الصولي فإنه عمله على الحروف وعمله علي بن حمزة الأصفهاني ايضاً فجوده على الأنواع وله من الكتب كتاب الحماسة على مثال حماسة ابي تمام وكتاب معاني الشعراء .

وتوجد مخطوطات الديوان في برلين وميونيخ وفيينا وبطرسبرج (لينغراد) وباريس. ونشر هذا الديوان في استانبول سنة ١٣٠٠ هـ وفي بيروت ١٩١١ وفي القاهرة ١٣٢٩ هـ ويسمى الديوان احياناً باسم سلاسل الذهب وقد طبعت فقرات من شرح ابي العلاء لهذا الديوان وهو الشرح المعروف بـ « عبث الوليد » في اطقتبس (٥٧) ثم طبع شرح ابي العلاء لديوان البحتري « عبث الوليد » عام ١٩٣٦ .

كتاب معاني الشعراء لم يذكر أحد ـ فيما نعلم ـ انه أطلع عليه بعكس كتاب الحماسة الذي طبع في بيروت سنة ١٩١٠ بعناية الأب لويس شيخو اليسوعي مذيلاً بالفهارس وتمتاز حماسة البحتري عن حماسة ابي تمام من أوجه كثيرة : منها كثرة الأبواب لأن حماسة ابي تمام مؤلفة من عشرة أبواب وحماسة البحتري من ١٧٤ باباً تتضمن معظم المعاني الشعرية وقد رواها عن نحو ستمائة شاعر أكثرهم من الجاهليين والمخضرمين . « وتمتاز على الخصوص بخلوها مما تنبو عنه الأسماع من الألفاظ البذيئة حتى الغزل والنسب فقد تحاشاهما . كأن البحتري قد جمعها لشبيبة هذه الأيام وأطلعنا في المكتبة الخديوية على نسخة من الحماسة المذكورة بالتصوير في ٤٠٠ صفحة عن نسخة خطية محفوظة في مكتبة ليدن ».

وقد روى حماسة البحتري محمد الأحول الذي كان من العلماء باللغة والشعر وقد اختارها للفتح بن خاقان مما يدل على أن وضعه لها كان قبل مقتل الفتح حين كانت سن البحتري حول الأربعين . وطبع كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي في استانبول سنة ١٢٨٧ هـ .

شعره

لم يخرج البحتري في شعره عن الأغراض التي طرقها من سبقه من الشعراء . فجاء شعره في المديح والهجاء والاستعطاف والفخر والرثاء والحكمة والوصف والغزل . . .

المدح

أكثر ما شغل به البحتري شعره المديح فهو جل ما في ديوانه . وكان البحتري يمدح قصداً للمال اذ كان الشعر مهنته التي يعيش على ما يأتي اليه منها . وهنا ينبغي أن نتذكر ايضاً أن الشعر آنذاك كان يقوم بدور وسائل الأعلام في عصرنا هذا فيما يتصل بقضايا السياسة والمجتمع . وإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من شعر المدح كان يصور القيم العليا التي يتعين أن يتصف بها السلوك الاجتماعي السليم امكن لنا أن نخفف شيئاً من نظرات النفور الموجهة إلى شعر المديح . وإذا ما نظرنا لشعر المدح هذه النظرة الواقعية المتسامحة فإننا لن نجده شراً محضاً كما قر في عقول الكثيرين ووجداناتهم بل اننا قد نجد في تضاعيفه كثيراً من الخير وقوة الأسر . واذا تأملنا ما قاله البحتري في المدح نجده في نهاية الأمر يدور على مجموعة من الفضائل النفسية والسلوكية والأجتماعية تؤدي ولا شك إلى رقي المجتمع لو أنها تحققت بين سائر أفراده ومؤسساته .

ووفقاً لمعايير الجودة في القديم يعتبر البحتري من كبار المادحين بل انه عند أبي هلال العسكري اكبر المداحين جميعاً ويورد ابو هلال مدحة للبحتري في الفتح بن خاقان منها قوله .

أغر لنا من جوده وسماحه
ظهير عليه ما يخيب وشافع

ويعقب عليها بقوله : لم يبق وجه من وجوه المدح في الجود والشجاعة وثقوب الرأي ومضاء العزيمة والدهاء وشدة الفكر إلا قد اجتمع ذكره في هذه الأبيات ولا أعرف احداً يستوفي هذه المعاني في أكثر مدائحه إلا البحتري .

وقد مدح البحتري طوائف مختلفة . من الناس فيها الملك ومستشار الملك وفيها الوزير وفيها الكاتب وفيها النديم وفيها القائد وفيها غير أولئك من رجال الدولة وعظمائها وكان لبقاً في مدح هؤلاء جميعاً من ناحية انه يمدح كل من يتصل به بصفاته الخاصة التي تميزه عمن سواه .

وهناك ظاهرة تسترعي النظر في شعره المدحي تلك انه لا يطنب في مدح الملوك وأشباه الملوك ويطيل في مدح الكتاب وأشباههم والسر في ذلك ان الملك ومن قاربه كانوا يسأمون طوال القصائد ويملونها ـ وكثير من العظماء يملون المدح الطويل لأنه لا يعلق بالآذان ولا يسير على ألسنة الرواة . ولا يأتي آخره إلا وقد نسي أوله ويفضلون عليه الموجز الذي يعلق بأذهان الرواة .

بقيت دعوى نقلها الينا صاحب كتاب العمدة اذ قال : ومن الشعراء من ينقل المديح عن رجل إلى رجل ، وكان ذلك دأب البحتري وفعله ابو تمام في قصائد معدودة .

أما ان البحتري كان ينقل المدح من رجل إلى آخر فلا نستبعده وخاصة في بداية حياته الشعرية ، وقد يكون في فعله هذا متشبهاً بأبي تمام . ولكنه مع عدم استبعاده عليه لم يرو له أحد قصيدة نقلها من ممدوح إلى آخر كما حفظ التاريخ ذلك لأبي تمام . وقد يكون نقل الشعر من ممدوح إلى سواه غير مستغرب بين شعراء ذلك العصر . إذا لم يأخذوا نوالاً عليه . والنقاد أنفسهم كانوا لا يرون غضاضة على الشاعر في ذلك اذا لم ينل الثواب على مدحه وإلا كان ذلك قلة وفاء وفرط خيانة .

ومن روائع البحتري في المدح تلك الرائية التي مدح بها المتوكل وصور فيها خروجه لأداء صلاة عيد الفطر والتي مطلعها :

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر
وألام في كمد عليك واعذر

وكان ابن خلكان من السابقين إلى الاشادة بتلك القصيدة اذ يقومها بقوله : وهذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة والسهل الممتنع فلله دره ما أسلس قياده وأعذب ألفاظه وأحسن سبكه وألطف مقاصده وليس فيه من الحشو شيء بل جميعه نحب .

والبحتري الفنان المصور يلون الصورة بما يلائمها ويظهر شموخها من عناصر الطبيعة وصور الحضارة فالجبال تكاد تتحرك والغبار ينعقد والشمس تتألق وتخبو والخيول تصهل والملابس والأسلحة تلمع وتزدهي .

كما استطاع البحتري أن يضمن الكثير من مدائحه ، الهام والغزير من وقائع عصره السياسية والاجتماعية والعسكرية فجاء ديوانه تصويراً فنياً رائعاً لتلك الأحداث الجليلة . يقول الأستاذ محمد مهدي البصير: ان مدائح البحتري تصف الحضارة العباسية وصفاً فائقاً وتصور الوقائع السياسية والحربية المهمة بمنتهى الأمانة والمهارة ويعقب عليها بصورة مؤثرة وبكثرة عجيبة . ولك أن تتصفح ديوانه لترى انه سجل حافل بما حدث للخلافة العباسية في أثناء القرن الثالث للهجرة من حروب ومشاكل سياسية في الداخل والخارج فبينما هو يحدثك عن فتنة بابك الخرمي التي اشتعلت نارها في أوائل هذا القرن اذ هو يحدثك عن تمرد آل الصفار وقيام ثورة صاحب الزنج في أواسطه وبينما هو يحدثك عن فتنة مدينة أو ثورة قبيلة اذ هو يحدثك عن خلع خليفة وأبعاده إلى زاوية من زوايا ملكه بالأمس، وبينما هو يحدثك عن هذه الشؤون الداخلية المضطربة المعقدة أشد التعقيد إذ هو يحدثك عن المعارك الطاحنة التي تدور رحاها في آسيا الصغرى بين المسلمين والروم .

وفي الحق أن المدح ليرتفع شأنه وتبرأ الكثير من نماذجه مما يراه البعض من انه كان وسيلة متهافتة للأرتزاق والتملق حينما تقوم بعض نماذجه الممتازة بما سبقت الأشارة اليه . واذا كانت العواطف والأنفعالات جانباً أساسياً في حياة الأنسان فالذي لا شك فيه ان الدين والأخلاق والسياسة والحرب والسلام هي ايضاً عمد رئيسية لتلك الحياة وتصويرها من خلال الفن ـ هو في حقيقته تصوير لما تتبدى به تلك الحياة في كل زمان ومكان . والشواهد على هذا النمط الرفيع من شعز المديح وفيرة في ديوان البحتري . ولعل ما انشأه في تصوير بطولة محمد بن يوسف الثغري في نضاله ضد بابك الخرمي وضد الروم في الثغور يدل أوضح الدلالة على ما ذهبنا اليه . وأبرز قصائده في هذا المجال القصيدة التي مطلعها :

زعم الغراب منبيء الأنباء
ان الأحبة آذنوا بتناء

والقصيدة التي مطلعها :

يا اخا الأزد ما حفظت الأخاء
لمحب ولا رعيت الوفاء

وفي الحق ان المدح وجد من فنية البحتري وحبه الغريزي للوصف والتصوير ما اعطى لكثير من نماذجه قيمة كبرى وخلوداً .

يكاد ينعقد اجماع النقاد على ان البحتري لبث يتلفع بعباءة البداوة بالرغم من اقامته بين زخارف الحضارة العباسية وقصورها ورياضها . وهم لا ينفكون يرددون مع الآمدي انه : « اعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل ما فارق عمود الشعر المعروف » .

والواقع ان شعره الوصفي لا يظهره لنا في تلك الصورة التي حرص النقاد على اظهاره بها فثمة اختلاف بين وصف البحتري ووصف امرىء القيس مثلاً وسائر الجاهليين . فهو يعايش بيئة تخالف بيئة هؤلاء ويخضع لواقع اجتماعي يخالف واقعهم .

وقد بدا ذلك خاصة في ترابط الصور والمعاني خلال بعض قصائده الوصفية وأحكام التشابيه والابتعاد عن الاستطراد والحبو والتزاحف على حضيض الواقع . ذلك انه قد تأثر بواقع الحضارة بصورة لا واعية فتسربت إلى شعره روح العصر بالرغم من أنه لم ينصرف إلى اقتباسها والتوغل بها انصراف ابي تمام وابن الرومي والمتنبي . فوصفه من هذا القبيل حضري بدائي كنفسه نشهد فيه مادية الوصف الجاهلي دون فوضاه ، كما أننا نلمح أحياناً وجدانية الوصف العباسي وسببيته دون اسرافه بمظاهر البديع المستفاد من واقع النقوش لزخارف في عصره وربما كانت قصيدته التي مطلعها

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها
نعم ونسألها عن بعض أهليها

والتي يصف فيها بركة المتوكل تعطي فكرة واضحة عن النوع الأول من وصفه فهو اذ يصف بركة المتوكل يلم بموضوع جديد منقول عن واقع الحضارة والعمران اللذين يعايشهما . لكن جدة الموضوع لم تجد لديه جدة جذرية في طبيعة الأسلوب والصورة بل نراه يعمد إلى التحديق والتبصر الخارجيين وإلى ما رأته عيناه مكثراً مبالغاً حتى انه يذكرنا في أحيان كثيرة بالجاهليين وان لم يكن وصفه كوصفهم .

ومع ذلك فإن هذه القصيدة عرفت شهرة واسعة ووجدت من يبدي لها حماساً شديداً : « فالشاعر البحتري في هذه القصيدة قد امتلك موهبة الموسيقار والرسام إلى جانب رهافة حس الشاعر وسعة خياله واقتداره على اللغة » .

ويذهب البعض الآخر إلى انها تؤلف ، قطعة واحدة متماسكة هي في اعتقادنا من خير ما قاله الشعراء على الأطلاق - عرب أو افرنج - في وصف منظر من مناظر الطبيعة ، وصف البحتري تدفق ماء النهر في البركة ووصف صفاءها وبياضها وحركة الريح وسطوع الشمس عليها وتهتان المطر وانعكاس الكواكب بالليل كل ذلك في خمسة أبيات عدا . وفي كل بيت بل أكاد أقول في كل كلمة لوحة من التصوير البارع » .

ونحن وان كنا لا ننكر براعة البحتري في وصفه هذا . إلا أن هذا الوصف بقي في الحدود النقلية التصويرية التي تكشف عن نفسية تعجب بحجم الأشياء وتصعق بمظهرها الخارجي .

إلا ان للبحتري فضيلة في الوصف لم تكن تتيسر للشاعر الجاهلي . فهو وان خطر ببعض فلذات من الوصف النسخي المنقول نراه في قصائد أخرى يلم بأوصاف ويجسد حركات وحوادث بتتابع وتصميم وتطور مما لم يكن يتيسر للجاهلي الذي يقوم وصفه على فلذات ونبذ من الصور المتباينة المستقلة كما في وصفه لموكب المتوكل في القصيدة التي سبقت الأشارة اليها في مديحه بمناسبة عيد الفطر .

وفي شعر البحتري بعض الأبيات التي اعترض فيها بالوصف القصصي من ذلك وصفه للعراك بين الفتح بن خاقان والأسد اذ نراه يقبل على ذكر الحوادث معتمداً الدقة منتخباً منها ما يظهر بطولة ابي الفتح وشدته في قتال الأسد . وقد عقدت مقارنات عديدة بين قصيدة البحتري هذه وقصيدة المتنبي في بدر بن عمار والأسد .

ومع أن القاضي الجرجاني كان سباقاً في هذا المجال ورأى أن البحتري قد استوفى فيه المعنى وأجاد في الصفة ووصل إلى المراد إلا انه في حكمه النهائي يفضل وصف المتنبي لتركيزه على ابراز القوة الرهيبة للأسد مما يعلي من شأن بدر .

ولقد ذهب النقاد الذين توالوا على نقده الى انه يتولى المعاني القديمة ويأخذ بتأديتها وفقاً لتوليد وتوقيع جديدين فيؤثر كما يؤثر سواه من الشعراء بالمعاني والصور الجديدة كما في وصفه لقصر الفتح بن خاقان في القصيدة التي مطلعها :

حلفت لها بالله يوم التفرق
وبالوجد من قلبي بها المتعلق

حيث تمتاز أبياته بالدقة والنغم الشجي المتآلف الذي ما برح البحتري يبدع في توقيعه عبر الأبيات جميعاً حتى يخيل الينا في أحيان كثيرة اننا نتأثر بالنغم قبل أن نلج إلى المعنى وهذا ما تنبه له من قال : أراد البحتري أن يشعر فغنى .

ومن قصائد البحتري المشهورة في الوصف قصيدته في وصف الذئب والتي مطلعها :

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد
اما لكم من هجر احبابكم بد

وهو ذئب لقيه الشاعر في الفلاة ودارت بينهما معركة انتهت بانتصار الشاعر . وقد بدأ البحتري قصيدته بالغزل وانتقل منه إلى الفخر بشجاعته وبعد همته . ثم وصف الذئب الذي قابله تلك الليلة ليقرر بعد ذلك .

كلانا بها ذئب يحدث نفسه
بصاحبه والجد يتعسه الجد

وتنتهي المعركة فيخر الذئب صريعاً فيشويه الشاعر على النار ويأكل منه ما شاء ويترك باقيه .

ويرفع الدكتور عبده بدوي قيمة هذه القصيدة إلى الذروة ويقول : اذا كانت قريش قد قالت في قصيدة علقمة بن عبدة التي يقول فيها : هل ما علمت وما استودعت مكتوم . انها سمط الدهر فإننا نستطيع أن نقول أن هذه القصيدة المحكمة سمط العصر الذي عاش فيه البحتري .

وواقع الحال أن مقارنة متأنية بين بركة البحتري وبحيرة لأمارتين وبين ذئبه وموت ذئب الفرد دي فيني كافية لأبعادنا عن بعض الأحكام العامة المتسرعة وكافية لتبيان الفوارق بين الوصف التقريري الحافل بالمبالغة وبين الوصف الوجداني الذي نرى بعضاً منه عند البحتري في وصفه لايوان كسرى وذلك في القصيدة التي مطلعها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي
وترفعت عن جلا كل جبس

فإننا نجد الشاعر وقد اعتراه الأسى المبهم الذي يفيض فيضاً من أعماق النفس ويستبد بها دون أن تدري كنهه أو تقوى على التحرر منه . كما نجد عنده شعوراً حاداً بالقنوط والبؤس ونعياً لمصير الأنسان في الوجود . وعلى الرغم من الاطار الوصفي الخالص لقصيدته هذه فقد جاءت غناء وتأملاً واعترافاً بما يخطر له ويعانيه . من هنا تضمينها الكثير من الفلذات الوجدانية والآراء في الحياة والموت . يقول في وصف الأيوان :

وكأن الأيوان من عجب الصنعة
جوب في جنب أرعن جلس

يتظنى من الكآبة أن يبدو
لعيني مصبح أو ممسي
مزعجاً بالفراق عن انس ألف
عز أو مرهقاً بتطليق عرس
عكست حظه الليالي وبات المشتري
فيه وهو كوكب نحس
مشمخر تعلو له شرفات رفعت
في رؤوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فما
تبصر فيها إلا غلائل برس
ليس يدري أصنع انس لجن
سكنوه أم صنع جن لأنس...

فهذا الوصف يمثل لنا الفرق بين الوصف الجاهلي والوصف في شعر البحتري . انه أعمق تحسساً وأوغل في ضمير الأشياء إذ اعترى الأيوان وشخصه فإذا هو انسان مكمد الوجه ، كأنه يعيش في مأساة البعد والبراح .

ولا عجب أن يعتبرها البعض : أجل قصيدة في الشعر العربي وتعد بحق من آيات الشعر الخالدة . وان يقول ابن المعتز ليس للعرب سينية مثلها . ومما لا ريب فيه ان البحتري بغير « سينية » يرقى إلى مصاف فحول الشعراء ولكن سينيته زحزحت ذلك الحد الدقيق الذي يفصل بين الفحولة والعبقرية فأصبح يحمل لواء الشعر بعد الملك الضليل !

وللبحتري قصائد ومقطعات في وصف مظاهر الحضارة العباسية كالقصور ومنها « الجعفري » و« الصبيح » و« المليح » و« الفرد » و « الساج » و« الكامل ».

فقد وصف الكامل في القصيدة التي مطلعها :

لو كان يعتب هاجر في واصل
أو يستقاد لمغرم من ذاهل

وهو قصر بناه المعتز . ويصف قصر الجعفري الذي بناه المتوكل في قصيدة مطلعها .

ان الظباء غداة سفح محجر
هيجن حرّ جوى وفرط تذكر

كما وصف مجالس المسرات التي عرفتها الحياة العباسية كما في القصيدة التي مطلعها :

هل فيكم من واقف متفرس
يعدي على نظر الظباء الأنس

وأولع البحتري بوصف مظاهر الطبيعة وجمالاتها وربما كانت أبياته في وصف الربيع التي جاءت في قصيدته التي مطلعها :

أكان الصبا إلا خيالاً مسلما
أقام كرجع الطرف ثم تصرما

ربما كانت هذه الأبيات أفضل ما يمثل طول باع الشاعر في هذا المجال .

كما اشتهر البحتري بوصف المعارك والخيل وتصوير البحتري للحلبة والخيول والفرسان والمدربين والمشاهدين تصوير يتسم بالرقة والدقة والشمول معاً . ونجد وصفاً للفرس يجمع بين الدقة والرقة للفرس في قصيدته التي مطلعها :

طفقت تلوم ولات حين ملامه
لا عند كبرته ولا احجامه

وكان البحتري وصافاً قديراً للحرب في البر والبحر ولأدواتها من سيوف ورماح .

وخلاصة القول ان البحتري ألم بنوعين من الوصف الوصف النقلي التقريري والوصف الوجداني الذي يتجاوز حدود الأشياء ومظاهرها . إلا أن هذين النوعين لا يصفوان لديه فهو في النقلي ليس جاهلياً كما انه في الوجداني لا يعرف الحلولية . ففي الأول نشهد لديه من الترابط والتماسك ما لم نكن نشهده في الشعر الجاهلي . وفي الثاني نراه يفترض افتراضاً ويتظنى تظنياً .. وهكذا فإن شعر البحتري في الوصف هو كثقافته عامة ليس بدوياً ولا حضرياً يترجح في منزلة بين المنزلتين لا يبلغ وجدانية ابن الرومي كما لا يرسف في مادية امرىء القيس المسرفة .

الفخر

توفر للبحتري عاملان رئيسيان هيئا له التألق وطول الباع في الفخر. أولهما انتماؤه الثابت إلى واحدة من أعظم القبائل العربية وهي طيء وثانيهما انه كان أعظم شعراء عصره دون منازع أو هو على الأقل واحداً من أبرز شعراء عصره .

على ذلك يمكننا القول بأن عناصر الفخر عند البحتري هي تعداد أمجاد قومه والتغني بمناقبهم وبشرف اليمن موطنهم وكذلك الأدلالة بعزته الشخصية المستمدة من أصوله الراسخة ومن موهبته الفنية المتفوقة وهي عناصر وجد البحتري من قوة الحقيقة فيها ومن قدرة الفنان في موهبته ما مكنه من صياغتها على وجه رائع في اشعار فخره .

وقد اشتهر للبحتري قصيدتان فرغ تماماً في كلتيهما للفخر . مطلع الأولى :

إنما الغي أن يكون رشيداً
فانقصا من ملامه أو فزيدا

ومطلع الثانية :

أحبب إلي بطيف سعدي الآتي
وطروقه في أعجب الأوقات

والطابع الغالب على فخر البحتري في قصيدته الأولى هو فخره بقومه بينما يغلب على القصيدة الثانية فخره بنفسه وبما حققه من مجد أدبي واجتماعي رفيع تمثل في منادمته للملوك ونفوذه ومكانته عندهم وشفاعته في جلائل الأمور لديهم . هذا الفخر بالنفس والأعتداد بقيمة الشاعر نجده اقوى نفساً وأعلى ايقاعاً من الفخر القبلي بقومه .

كما نجد ابياتاً في الفخر مبثوثة في حنايا قصائده كما في تلك القصيدة التي سبق وأشرنا إليها في وصف معركته مع الذئب حيث يفتخر بما يحمل بين جنبيه من قوة الشكيمة وما توافر لديه من شجاعة نادرة وقدرة على القتال فذة .

والبحتري في موضوع الفخر ،لم يخرج على المعاني المتداولة في التراث الشعري العربي وان كان قد طبع هذه المعاني بطابع اسلوبه المميز .

العتاب

كان للبحتري منافسون وحساد وذلك أمر طبيعي لشاعر نال حظوة مميزة عند الحكام والأعيان . وكان يتدارك وقائع هؤلاء في شعره الاستعطافي الذي كان يجيده على ما يبدو حتى عد استاذاً فيه .

فالروح السائدة في عتابه هي روح الرقة التي تجعل هذا العتاب مقبولاً لدى النفس محبباً اليها . يصف هو عتابه بقوله :

البحتري برقته وأنغام موسيقاه وأشجانه رثائي النزعة محزوناً .

وقد لاحظ ابن خلكان من قبل ان البحتري كثيراً ما كان ينشد أبياتاً محزونة ملتاعة منها :

حمام الأراك ألا فاخبرينا
لمن تندبين ومن تعولينا
لشققت بالنوح منا القلوب
وابكيت بالندب منا العيونا
تعالي نقم مأتماً للهموم
ونعول اخواننا الظاعنينا
ونسعدكن وتسعدننا
فإن الحزين يواسي الحزينا

وتعتبر رائيته في التي قالها في المتوكل من أهم ما قال في هذا الغرض الشعري والتي بدأها بالوقوف على أطلال « الجعفري » قصر المتوكل والتي مطلعها :

محل على القاطول اخلف دائره
وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

حيث يلم البحتري بما يمكن أن نسميه رثاء الحضارة كما في قصيدته في رثاء ايوان كسرى وفي قصيدة معاصره ابن الرومي في رثاء البصرة واذا تأملنا قصيدته هذه وجدنا مفرداته قوية جزلة وكذلك صوره فإنها قاتمة دامية عنيفة وموسيقى البحر والألفاظ تتسق مع الموضوع تماماً فهي هادرة صاخبة وكأنها تحكي صخب الأسلحة التي استخدمت في مقتل المتوكل ويرى البعض ان هذه القصيدة كتبت بعد تسلم المعتز الملك اثر مقتل المنتصر لما فيها من تعريض واتهام لهذا الأخير بالمشاركة في قتل والده تقرباً للمعتز . ويذهب البعض الآخر إلى ان القصيدة قيلت اثر مقتل المتوكل وأضيفت اليها الأبيات التي تعرض بالمنتصر أيام المعتز .

ومن أقوى قصائد الرثاء لدى البحتري رثاؤه في محمد بن يوسف بن عبد الرحمن المعروف بأبي سعيد الثغري القائد العسكري الذي أبدى بطولة كبرى في حرب بابك الخرمي وذي المكانة المرموقة لدى المعتصم . وكذلك رثاؤه في ولده يوسف الذي خلفه في ولاية أرمينية وأذربيجان وقد اكتسبا لقبهما الثغريين لارتباطهما الوثيق بالثغور الأسلامية ولبلائهما الحسن في الدفاع عنها ضد غزوات الروم .

والثغريان ينتهي نسبهما بنبهان بن عمرو وهو أخو سلامان جد البحتري ومعنى ذلك انهما ينتميان كما ينتمي البحتري إلى طيء . وكان البحتري كثيراً ما يذكر هذه القرابة وانه انما يمدح نفسه عندما يمدحهما ويعجب منهما كيف يعطيانه على مديحه :

واني متى اعدد معاليك اعتدد
بها شرفاً اذ كل فخرك لي فخر
ولم ار مثلي ظل يمدح نفسه
ويأخذ اجراً ان ذا عجب بهر

وكان لما اشتهر به الوالد والأبن من بطولة عسكرية بالأضافة إلى صلة القرابة تلك اثر عميق في الرثاء الذي رثاهما به فجاء نضاحاً بكل الصدق معبراً عن مشاعر الأحساس بالفقد والحزن الكثيف . ومن أبرز قصائده فيهما قصيدته في رثاء محمد بن يوسف الثغري والتي مطلعها :

انظر إلى العلياء كيف تضام
ومآتم الأحساب كيف تقام

ورثى ولده يوسف بن محمد عندما قتله الثائرون من أهل أرمينية بقصيدة مطلعها :

أقول لعنس كالصلاة أمون
مخبرة في تسعة ووضين

حيث ينهي البحتري رثاءه الدامع بأبيات تثير في النفس عواطف الحزن وتدل اوضح دلالة على مدى صدقه ولوعته :

أأنساك أم أنسى مصابك بعدما
علقت بحبل من نداك كتين
ولو كنت ذا علم بفرط صبابتي
وما علم ثاو بالتراب دفين
تيقنت ان العين جد غزيرة
عليك وان القلب جد حزين
اذ انا لم اشكرك نعماك بالبكا
فلست على نعمى امرىء بأمين

وفي الحق اننا لنبهر بقوة رثاء البحتري خاصة ما رثى به المتوكل والثغريين وقد لمسنا في رثائه للثغريين شعراً يتوافر فيه الصياغة وتدفق المشاعر وتألق المعاني جميعاً . ونحن نعلم ان الرثاء قد ينصرف إلى تجسيم حزن الشاعر وتصوير مصابه بفقد من يرثيه ويكون هذا الرثاء للبكاء لا لتخليد المرثي ومن هذا النمط كان رثاء البحتري للمتوكل ، فهول الكارثة قد أذهله إلا عن مشاعره الجريحة الحزينة فإذا ما اهتم الشاعر بمناقب من يرثيه وعني بتصوير جليل أعماله وعظيم صفاته كان الرثاء للتخليد والملاحظ ان رثاءه للثغريين قد جمع بين النمطين مما دفع البعض إلى اعتبار رثائه لهما من عيون المراثي في الشعر العربي .

ولقد ربط البحتري بآل حميد عرى وثيقة من الصداقة والود وذكريات السعادة وجل افراد تلك الأسرة من القادة المشاهير الذين دفعوا حياتهم ثمناً للمجد وسقطوا في ساحات القتال في الأطراف الشاسعة للدولة . فوقف ابو عبادة أمام قصرهم ببغداد وقد خلا من شخوصهم فرثاهم رثاء الدامع الموجع الذي اعتورته مصائب فادحة في قصيدة مطلعها :

أقصر جميل الاعزاء لمغرم
ولا قصر عن دمع وان كان من دم

وبعد أن يعدد مآثرهم ويبكيهم يقرأ السلام على أرواحهم مؤكداً انه لا يقلل من شأنهم أو يرفع من أعدائهم أنهم صرعوا فحمزة وعلي قد صرعا من قبل وحشي وعبد الرحمن بن ملجم :

فحربة « وحشي » سقت « حمزة » الردى وحتف علي « في حسام بن ملجم ».

وفي الرثاء الذي انشأه البحتري في سن الشيخوخة نجده يمزج رثاءه الموتى برثاء نفسه والبكاء من المشيب والوهن ويتحسر تحسراً موجعاً لضياع الفتوة والشباب كما في رثائه لغلامه قيصر في القصيدة التي مطلعها :

ملامك انه عهد قريب
ورزء ما عفت منه الندوب

حيث نراه يبكي نفسه فيقول :

فإن ست وستون استقلت
فلا كرت بطلعتها الخطوب
لقد سر الأعادي فيَّ اني
« برأس العين » محزون كئيب
واني اليوم عن وطني شريد
بلا جرم ومن مالي حريب

عتاب بأطراف القوافي كأنه
طعان بأطراف القنا المتكسر
فأجلو به وجه الأخاء واجتلي
حياء كصبغ الأرجوان المعصفر

وقد أشاد ابن المعتز باعتذارياته في الفتح كما قرر أبو هلال العسكري للنابغة الذبياني فضل زيادة هذا القسم إلى أقسام الشعر الجاهلي ثم قال : ولا أعرف احداً من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحتري فإنه قد أجاد القول في صنوفه وأحسن وأبلغ ولم يذر مزيداً حتى قال بعضهم هو في هذا النوع النابغة الثاني .

أما ابن رشيق فيرى أن البحتري أحسن الناس طريقاً في العتاب ويقول : وأحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة أبو عبادة البحتري .

وقد سلك البحتري طرقاً كثيرة للعتاب فأحياناً يمزجه بالمدح وهو الغالب عليه . وحيناً يلتمس لمن يعاتبه العذر على جفائه ولا ينسى أن يذكر من يعاتبه بسالف الود وما كان بينهما من صفاء ويحدثه بما يضمره له في قلبه من حب واجلال . وحيناً يهدد بالهجاء المقذع المر حين تشتد ثورة نفسه وعزتها . ولا ينسى في عتابه الاعتزاز بنفسه ومعرفته بقدرها بل يدل بقيمته الأدبية ومكانته السالفة وما يجب أن يكون له من اجلال وتقدير .

ومن جميل أبياته في هذا الموضوع ما قاله في قصيدة مدح بها المتوكل مطلعها :

شوق اليك تفيض منه الأدمع
وجوى عليك تضيق منه الأضلع

ينهيها بقوله :

هل يجلبن الي عطفك موقف
ثبتت لديك اقول فيه وتسمع
ما زال لي من حسن رأيك موئل
آوي اليه من الخطوب ومفزع
فعلام أنكرت الصديق وأقبلت
نحوي ركاب الكاشحين تطلع
وأقام يطمع في تهضم جانبي
من لم يكن من قبل فيه يطمع
الا يكن ذنب فعدلك واسع
أو كان لي ذنب فعفوك أوسع

وتتميز اعتذارياته وعتابياته بميل قوي إلى التحليل والاستقصاء وبتعبير رقيق عن الانفعالات والخلجات النفسية كما في قصيدته التي يعاتب بها الفتح ويعتذر منه والتي مطلعها :

يهون عليها ان أبيت متيماً
أعالج وجداً في الضمير مكتما

حيث يصور لنا تردد الفتح بين الرضا والغضب وانعكاس ذلك عليه . ثم تتملكه عزة نفسه ويشعر بقيمته كشاعر فنان وبقيمة شعره الذي قاله في الفتح فترتفع حدة عتابه ويقترب من ايقاع التهديد ليعود بعدها إلى اللين والأستعطاف فيقول :

لي الذنب معروفاً وان كنت جاهلاً
به ولك العتبى علي وأنعما

ومن أرق عتابياته تلك الموجهة إلى الفتح أيضاً والتي استند اليها وإلى سابقتها ابن رشيق في تقديم البحتري على الشعراء المحدثين في العتاب القصيدة التي مطلعها :

لوت بالسلام بناناً خضيبا
ولحظاً يشوق الفؤاد الطروبا

أما عتاب البحتري لأصدقائه المقربين من غير الحكام فينهج فيه الشاعر نهجاً آخر . فهو يعمد احياناً الى الشدة والتعنيف والأنذار بالقطيعة وذلك تعبيراً عن احساسه بالغضب والصدمة لتغير ذلك الصديق كما في قصيدته التي مطلعها :

تعود عوائد الدمع المراق
على ما في الضلوع من احتراق

وخلاصة القول ان البحتري قد تفوق في العتاب والأعتذار تفوقاً ينبع من تمييزه بين شخوص من يوجهه اليهم . وينبع ايضاً من أن التألق في ذلك الفن يتطلب الرقة والعذوبة في المشاعر وطرق الأداء جميعاً وقد توافر ذلك في أجلى صورة لدى البحتري .

الغزل

لقد تغزل البحتري وأنشد للحب شعراً كادت كلماته أن تجنح من فرط الرقة والعذوبة واتصل غزله فيما يشبه الظاهرة المطردة بوصف الخيال والحبيب في مرحلة من حياته هي العراقية والسؤال هو هل انشد البحتري للعواطف عن تجربة صادقة ومعاناة حقيقية ؟ أم ترى غزله كان قياماً بتقاليد القصيدة العباسية التي حل وصف الحبيب والتغني بعاصف الأشواق في مقدمتها محل الوقوف على الديار وبكاء الأطلال في مقدمة القصيدة القديمة .

لقد اختلفت الآراء في ذلك على الرغم من أن ارتباط الشاعر العاطفي بعلوة الحلبية ثابت ومتفق عليه والكثير من مقطوعاته في الحب ينشده الشاعر في وصفها أو في وصفه طيفها الذي يرفرف عبر صحراء الشام ليزوره في العراق .

فيرى البعض انه على الرغم من ان أكثر ما انشأه البحتري من الغزل كان مقدمة لأغراض أخرى إلا انه استطاع ان يحدثنا عن كثير من عواطف الحب في حالتي الرضا والسخط والقرب والبعد .

ورأى البعض الآخر انه اذا قلنا غزل البحتري فقولنا هذا يصدق على كل شاعر من مداحي العصر العباسي وهو على الغالب نوع من الفن الكلامي يصدرون به قصائدهم تمهيداً لما يقصدون ، ومع ما قد تجده فيه من رشاقة لا ينظم عادة بثاً لوجد متقد أو تصويراً لخوالج شخصية صادقة . كان الأقدمون يجعلون لقصائدهم مقدمات من الوقوف على ديار الحبيب والبكاء على آثارها ثم الرحيل عنها إلى حيث يقصدون فحول المولدين ذلك إلى مقدمات غزلية يصفون بها الحبيب ويذكرون أشواقهم ثم يتخلصون إلى المدح أو سواه . وقد لا يكون بين المقدمة الغزلية وسائر القصيدة من رابطة فكرية أو حسن تخلص وعلى هذا كثير من شعر البحتري وفيه يقول ابن الأثير: انه لم يوفق في التخلص من الغزل إلى المديح بل اقتضبه اقتضاباً ولقد حفظت شعره فلم أجد له من ذلك شيئاً مرضياً إلا اليسير .

ومن ظاهرة عدم حسن التخلص هذه عند البحتري ينطلق البعض ليؤكد صدق البحتري في غزله ويرى أن التفسير المقبول لتلك الظاهرة هو أن البحتري كان يرضي عواطفه ويعبر عما يعانيه من مشاعر وانفعالات صادقة في مقطوعات مستقلة ثم يتخذ بعضاً منها مقدمات لقصائده نزولاً على تقاليد الشعر آنذاك فكانت القصيدة في الواقع كأنها مركبة من قصيدتين واحدة يفرغ فيها عواطفه في الغزل وأخرى لغرض المدح أو غيره من الأغراض فكأن البحتري كان يضم احدى القصيدتين إلى الأخرى من غير أن يعنى بالربط

بينهما ولذلك أرجح ان كثيراً من هذا الغزل الذي بدأ به قصائد مدحه كان غزلاً صرفاً أنشأه البحتري ارضاء لعاطفته الشخصية وإلا فإنه من غير المعقول ان شاعراً محباً كالبحتري لا يكون له في الغزل إلا ثلاث قطع صغيرة ولا نستطيع تعليل ذلك إلا بأنه قد اشبع نفسه غزلاً بهذا الغزل الذي بدأ به المدح .

ونحن قد لا نبتعد كثيراً عن مثل هذا الرأي إذا عدنا الى بعض مقدمات قصائد الشاعر الغزلية التي استهل بها مدائحه ولا سيما تلك المقدمات التي يخص بها حبيبته علوة كما في القصيدة التي مطلعها :

خيال يعتريني في المنام
لسكرى اللحظ فاتنة القوام

والقصيدة التي مطلعها :

ألا هل أتاها بالمغيب سلامي
وهل خبرت وجدي بها وغرامي

والقصيدة التي بدأها بقوله :

قل للسحاب اذا حدته الشمأل
وسرى بليل ركبه المتحمل
عرج على حلب فحي محلة
مأنوسة فيها لعلوة منزل

والقصيدة التي مطلعها :

عهد لعلوة باللوى قد أشكلا
ما كان أحسن مبتداه وأجملا

والتي مطلعها :

شوق اليك تفيض منه الأدمع
وجوى عليك تضيق منه الأضلع

والتي مطلعها :

بودي لو يهوى العذول ويعشق
فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق

وسواها من القصائد حيث عرف البحتري كيف يلتقي بالعذاب من مفردات اللغة ويصوغها في أرق تعبيراتها ليصور مشاعر الحب وهي مشاعر مستسلمة إلا انها نوع من الحب يصوره من خلال الحسن الأسر المستبد والدلال الطاغي من الحبيب الذي لا يقبل من حبيبه إلا الاستسلام لأهوائه ويحرم عليه الشكوى من العذاب . يقول :

أميرتي! لا تغفري ذنبي
فإن ذنبي شدة الحب
يا ليتني كنت انا المبتلى
منك بأدنى ذلك الذنب
حدثت قلبي عنكم كاذباً
حتى قد استحييت من قلبي
إن كان يرضيكم عذابي وان
أموت بالحسرة والكرب
فالسمع والطاعة مني لكم
حسبي بما يرضيكم حسبي

وله مطالع غزلية غاية في الرقة والعذوبة :

لي حبيب قد لج في الهجر جدا
وأعاد الصدود منه وأبدا
عذيري فيك من لاح اذا ما
شكوت الحب حرقني ملاما

وقد سبقت الأشارة إلى بعض أبيات هذه القصيدة في كلامنا على حبه لعلوة .

أما مفاهيم البحتري ومقاييسه الجمالية فهي نفسها المأثورة في الشعر العربي بعامة . يعجبه الجفن الفاتر المريض الساحر الساجي ، الأحور الأسر ، والقوام المرهف اللين المتثني والجسم الأبيض الناصع كأنه اللؤلؤ قد دق منه الخصر وضخم العجز وسمنت يداه ورجلاه وطال عنقه في جمال وحسن . أما الفم فأبيض ذو اسنان دقيقة كأنها الأقحوان ويزين ذلك كله مشية فيها لين ودلال فيه سحر .

والبحتري في غزله كان حسياً يتطلب اللذة والمتعة . بل انه في المواقف التي تثير الحزن ينفعل اذا كان فيها مكان لمتعة .

وقد ضمنا وشك التلاقي ولفنا
عناق على اعناقنا ثم ضيق
فلم تر إلا مخبراً عن صبابة
بشكوى وإلا عبرة تترقرقي
فأحسن بنا والدمع بالدمع واشج
تمازجه والخد بالخد ملصق
ومن قُبَلٍ قبل التشاكي وبعده
نكاد بها من شدة الوجد نشرق
فلو فهم الناس التلاقي وحسنه
لحبب من أجل التلاقي التفرق

فقد انسته لذة العناق قسوة الفراق ! وربما كان حب اللذة عنده هو السبب الذي غيب مسحة الحزن عن غزله بشكل عام .

هذا إلى عواطف اخرى كثيرة حدثنا عنها في شعره فصور لنا كيف يعشق الحبيب مع هجره ودلاله ، بل كيف يتفانى المرء في حب حبيبه وكيف ان الحبيب في نظر من يحبه أجمل مخلوق يراه . وكيف يتدلل الحبيب ويغضب ان شكا أليه قسوته وعنف حبه وكيف ان النفس التواقة إلى الجمال يشوقها الجمال دائماً فتتلمسه في كل مكان وكيف يتذلل المحب لحبيبه ويخضع له ويستعطفه وان كان هو الجاني المذنب وكيف أن الحب للحبيب الأول مهما طال الزمان إلى آخر ما هنالك من شؤون المحبين وشجونهم .

ويكثر في غزل البحتري ذكر الطيف والخيال حتى عرف به بين الشعراء . قال الحصري : كان البحتري اكثر الناس ابداعاً في الخيال حتى صار لأشتهاره مثلاً فيقال : له خيال البحتري ..

وللبحتري بضع قطع انشأها للغزل خاصة ولم يجعلها فاتحة مدح وهي قطع قصيرة ذكر في واحدة منها ما لاقاه في حب علوة . وفي قطعة ثانية يحدثنا عن موعد ترقبه من علوة قبيل الصبح حتى اذا أقبلت ثم عليها المسك والعنبر. وفي قطعة ثالثة يحدثنا عن تمكن الهوى في قلبه وازدياد الحب جدة وقوة في نفسه بعد المشيب .

الرثاء

اثر عن البحتري قوله : من تمام الوفاء أن تفضل المراثي المدائح وقد رثى البحتري ملكاً ووزيراً وجماعة من القواد وجماعة أخرى من ذوي المناصب الكبيرة في الدولة كما رثى غلامه وقومه وشبابه .

وقد اختلفت الآراء في تقويم رثاء البحتري فذهب البعض إلى أن البحتري ليس من المشهورين في الرثاء وان يكن له فيه ما يستطاب . وذهب البعض الآخر الى أن الصداقة كانت تقوم مقام الحب عند البحتري وانه كان يتأثر بوحيها في بكاء أصدقائه وغلمانه والأمراء الذين احسنوا اليه وبالجملة في شعره الرثائي فقد أوسع في بكاء الصحب والأيام والديار. لقد كان

تعاظمت الحوادث حول حظي
وشبت دون بغيتي الحروب
على حين استتم الوهن عظمي
واعطى في ما احتكم المشيب . . .
اتوب من الاساءة ان ألمت
واعرف من يسيء ولا يتوب

وفي مثل هذا الرثاء للنفس ينضاف لعناصر الأجادة في رثاء الوليد عنصر انساني جديد وهو الأحساس بالكآبة والحيرة والأضطراب . تلك المشاعر التي تسيطر على الأنسان وقد أخذ يدنو حثيثاً من لحظات الغروب في حياته . فالقرابة والصداقة والمشاعر القوية والشيخوخة اذن هي العناصر الأنسانية المؤثرة والأنغام الشجية الحزينة التي عزفها البحتري في سمفونيته الرثائية .

الهجاء

وأقل بضاعة البحتري في ديوانه الهجاء . وهنا يختلف صاحب الأغاني عن المرزباني . فالأول يقص علينا سبباً لذلك القصة التالية نقلاً عن الأخفش عن أبي الغوث (ابن البحتري) : ان الشاعر لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال له اجمع كل شيء قلته في الهجاء ففعل : فأمره باحراقه . ثم قال له : يا بني هذا شيء قلته في وقت فشفيت به غيظي . وكافأت به قبيحاً فعل بي . وقد انقضى أربي في ذلك وان بقي روي . وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة وأخشى ان يعود عليك من هذا شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك فيه . قال فعلمت انه نصحني وأشفق علي فاحرقته . ويعقب على ذلك الأصفهاني بأن : اكثر هجائه ساقط ركيك لا شاكل طبعه ولا يليق بمذهبه ولا يعرف له هجاء جيد إلا قصيدتين احداهما في ابن أبي قماش والثانية في يعقوب بن الفرج .

وقد سبقت الأشارة إلى ان المرزباني نسب إلى البحتري سوء العهد وخبث الطريقة في الهجاء لأنه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم .

ومهما قلنا في مذهبه الهجائي فالهجاء ولا شك ضئيل في ديوانه والذي وصل الينا منه لا يدل على علو كعب الشاعر فيه .

ومع ذلك فقد وصلنا من هجائه ما يزيد على ستين قطعة تقرؤها جميعها فتخرج بنتيجة واحدة تلك هي ان البحتري شاعر غير مطبوع على الهجاء . إلا في القليل وان الهجاء فن لم يجده البحتري ولم يتقن أسبابه إلا نادراً وانك تلمس في هجائه ظاهرتين : احداهما قصر نفسه فيه فجل أهاجيه مقطوعات قصيرة لا تزيد غالباً على خمسة أبيات أو ستة وكثيراً لا تزيد على البيتين والثلاثة . وليس قصر النفس وحده كافياً للدلالة على ضعف شاعرنا في الهجاء بل يضاف اليه قلة المعاني التي يحويها . وثانيتهما صراحة هجائه فهو يدعو من يهجوه حماراً تارة وكلباً اخرى وثوراً حيناً وابن كلب حيناً آخر . والهجاء القوي هو الذي يلجأ إلى التهكم الباعث على السخرية بالمهجو فإذا لجأ إلى المعاني المألوفة ادخل فيها ما يجعلها طريفة محبوبة .

وربما كانت للشهرة التي عرفها البحتري وللحظوة التي نالها عند الحكام اضافة إلى رغبته في عدم الرد على الشعراء الذين هجوه كي لا يتمادوا في فعل ذلك واتقانه فن العتاب والأعتذار وكراهته ان يشهر بالهجاء كلها عوامل حالت بين البحتري وبين طول باعه في الهجاء وحسناً فعل .

واذا رجعنا إلى القطع التي انشأها البحتري للهجاء خاصة وجدنا أسبابها تعود إلى خمسة أولها عدم اعطاء ممدوحيه له نوالاً على شعره ، ثانيها غيظه من الحجاب وما كان يناله من تعجرفهم وسوء معاملتهم وثالثها تعرض بعض الناس لشعره أحياناً بالنقد وأحياناً بالسرقة ورابعها عدم شكران الضيعة التي يؤديها هو إلى صحبه . وخامس الأسباب ألم النفس من حادثة خالفت الخلق والعادة أو أمر شذ عن الأجماع كما في هجائه لأبي الدردام والمعلم الأعرج .

أما قصيدة البحتري في هجاء ابن أبي قماش والتي أعجب بها القدماء والمحدثون فمطلعها :

مرت على عزمها ولم تقف
مبدية للشنان والشنف

وهي تدور حول سخرية البحتري من الحسن بن ابي قماش لما كان من كلف جاريته بأحمد بن صالح بن شيرزاد الذي كان بدوره يعشقها وقد اخذها ابن أبي قماش إلى بيته . وكان ابن ابي قماش يدعي العلم بالتنجيم وقد ادار البحتري سخريته وتهكمه حول هذه العناصر . واعتمد البحتري على اسلوب التهكم والسخرية والتصوير الكاريكاتوري في ابراز مساوىء ابن ابي قماش وقبح منظره . وقد وفق فنياً في هجائه لأنه لم يعمد إلى ما عرف عنه من الشتم الصريح وانما اعتمد على التلميح والسخرية اللاذعة .

وهذه السخرية اللاذعة المعتمدة على الحقائق المتصلة بابن ابي قماش في عمله وما عرف عنه من هواية الفلك والزيج وصداقته لأحمد بن صالح وما كان من انصراف جاريته عنه إلى هذا الأخير كل ذلك اضفى على الهجاء في تلك القصيدة طابعاً فنياً لا بأس به .

أما قصيدته الثانية فهي هجاء يعقوب بن الفرج ومطلعها :

تظن شجوني لم تعتلج
وقد خلج البين من قد خلج

ولعل هجاء الشاعر في بني ثوابة وبني عبد الأعلى من هجائه القوي الذي لم يلجأ فيه إلى القذف والسب وانما غلبت عليه روح السخرية المؤلمة ويبدو ذلك في قصيدته التي مطلعها :

قصة التل فاسمعوها عجابة
ان في مثلها تطول الخطابة

وخلاصة القول ـ ولحسن حظ الشاعر في الأغلب ـ انه كان خافت الصوت في الهجاء . وكأن عصره يكفيه روائع ابن الرومي في هذا الميدان .

الحكمة

« أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري » . عبارة نسبت إلى المتنبي فهل قصد أبو الطيب إلى تجريد نفسه وابي تمام من الشاعرية وتجريد البحتري من الحكمة . أغلب الظن أن كلهم شاعر وكلهم حكيم ولكننا نقرأ حكمة البحتري عارية ونقرأ شعر الآخرين حكمة وعللاً .

وكلمات البحتري في الدنيا والحياة والموت كثيرة ومنتشرة في ثنايا ديوانه الفخم .

وللأستاذ صالح حسن اليظمي « قراءة » مميزة لقصيدتي البحتري في وصف معركته مع الذئب وفي وصفه ايوان كسرى تستحق الأطلاع عليها في معرض تبيان الأبعاد الحكمية لهاتين القصيدتين لا سيما فيما يتعلق بشؤون الأنسان والحياة والموت .

حيث يصبح الذئب رمزاً للمعوقات والرعب والشر في هذا العالم ويصبح تماسك البحتري أمام ايوان كسرى مظهراً من مظاهر صراع الأنسان مع الدهر .

وعلى كل حال بالأمكان رؤية نظرات البحتري الحكمية المتعمقة مبثوثة

في الكثير من قصائد الديوان . وله أبيات عرفت واشتهرت وأخذها عنه شعراء آخرون من مثل قوله :

ليس يحلو وجودك الشيء تبغيه التماساً حتى يعز طلابه وقوله :

اذا المرء لم تبدهك بالحزم كله
قريحته لم تغن عنك تجاربه

وقوله :

وأحب آفاق البلاد إلى الفتى
ارض ينال بها كريم المطلب

وقوله :

متى احرجت ذا كرم تخطى
اليك ببعض اخلاق اللئيم

وقوله :

ما كان في عقلاء الناس لي أمل
فكيف أملت خيراً في المجانين

وقوله :

متى أرت الدنيا نباهة خامل
فلا ترتقب إلا خمول نبيه

كما نراه في قصيدة قالها في صاعد بن مخلد مطلعها:

معاد من الأيام تعذيبنا بها
وأبعادها بالألف بعد اقترابها

يصور الحياة تصوير معاناة وتجريب :

متى تستزد فضلاً من العمر تغترف
بجلبك من شهد الخطوب وصابها
تشذ بنا الدنيا بأخفض سعيها
وغول الأفاعي بلة من لعابها
يسر بعمران الديار مضلل
وعمرانها مستأنف من خرابها
ولم ارتض الدنيا أوان مجيئها
فكيف ارتضائيها أوان ذهابها
وهل انت في مرسومة طال أخذها
من الأرض إلا حفنة من ترابها

ومن يفتش عن الحكمة في شعر البحتري يجدها وان لم يكن باعه طويلاً فيها كأبي تمام أو المتنبي .

الخصائص العامة لشعر البحتري

كلفتمونا حدود منطقكم
في الشعر يلغى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمـ
ـنطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفي اشارته
وليس بالهذر طولت خطبه. . .
واللفظ حلي المعنى وليس يرـ
ـيك الصفر حسناً يريكه ذهبه

هذه الأبيات الواردة في قصيدة البحتري التي مطلعها :

لا الدهر مستنفد ولا عجبه
تسومنا الخسف كله نوبه

تبين لنا إلى حد بعيد نظرية البحتري في الشعر ، بخاصة اذا تذكرنا انه كان معاصراً لأبي تمام وابن الرومي . فقد نشأ البحتري نشأة بسيطة في عشيرة بحتر الطائية فلم يتثقف بالثقافات الفلسفية وغير الفلسفية التي عاصرته وظل ذوقه في جملته لا يأبه للتنميق المسرف كما ظل يفهم الشعر على انه طبع وموهبة . وعبر الآمدي عن ذلك بقوله : انه أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل وما فارق عمود الشعر المعروف .

وعلى الرغم من لقاء الشاعر لأبي تمام وروايته لشعره نجده يقف في الصف المقابل له في صناعة الشعر وفهمه . فقد كان يقف في صف « الصانعين » من أمثال بشار وأبي نواس بينما كان يقف ابو تمام في صف « المصنعين » من أمثال مسلم بن الوليد بل لقد بلغ عنده مذهب التصنيع غايته من التنميق العقلي والتأنق اللفظي . وكأن البحتري لم يستطع أن ينهض بما أداه أبو تمام للشعر من صناعة وزخرف .

كان البحتري يستخدم أحياناً بعض أدوات التصنيع ولكن في يسر وسهولة ودون أن يعقد فيها كما نرى عند جماعة المصنعين فهو من أصحاب الصنعة وهو لذلك لا يستطيع أن ينهض بشعره إلى الغاية التي حققها أصحاب التصنيع .

لقد استخدم البحتري التصوير والجناس والطباق ولكنه استخدام ساذج يخالف استخدام أبي تمام له . فقد كان ابو تمام يستخدم الطباق استخداماً فلسفياً وهذا ما يفرق بين طباقه وطباق البحتري . لم يكن البحتري يعتمد في شعره على فلسفة وثقافة يعقدان في أدواته وكان يعرف ذلك من نفسه وعبر عنه بالأبيات التي سبق وذكرناها . ومع ذلك فإن دراسة شعر البحتري تثبت انه حاول استيعاب الوسائل الحديثة في صناعته من الطباق والجناس والتصوير إلا انه لا يستطيع أن يستخدم الأداة العقلية الخالصة أداة المنطق والفلسفة لأنه ليس من أهل المنطق ولا من أهل الفلسفة . ونجد دائماً شيئاً من المنطق ينقص البحتري في فنه . فإذا نظرنا في صياغته فإننا نراه لا يعنى بتنسيق أفكاره وترتيب معانيه ترتيباً منطقياً دقيقاً . وبون بعيد جداً بينه وبين شاعر كأبي تمام في هذا الجانب فإنك تحس عند الأخير بوحدة القصيدة واضحة كما تحس بتسلسل الأفكار . أما عند البحتري فإنك ترى دائماً خنادق وممرات بين أبياته . وتتبع الباقلاني عنده هذه الظاهرة في قصيدته :

أهلاً بذلكم الخيال المقبل
فعل الذي نهواه أو لم يفعل

ولاحظ أن التسلسل المنطقي فيها مضطرب وأن التفكير فيها غير منتظم وذكر غيره من النقاد أن البحتري لا يحسّن الخروج من موضوع إلى موضوع في الشعر وانه يجنح دائماً إلى ما يسميه ابن رشيق طفراً وانقطاعاً .

امتاز البحتري بجودة المطلع وجودة المنتهى . فمطالعه أول ما تطرق اذن سامعه وأغلب مطالعه في الغزل والنسيب . وقد يكون المطلع نظرات في الحياة . وربما بدأ غرضه من غير مقدمات . والبحتري يأتي بأكثر مطالعه مصرعة يماثل آخر حرف في الشطر الأول آخر حرف في الشطر الثاني . وقد يأتي بذلك التصريح مرتين أو أكثر في القصيدة الواحدة . وهذا الأمر اضافة إلى حرص شديد على الموسيقى الداخلية في الشعر . وما تستتبعه من المشاكلة بين الألفاظ والمعاني والتوافق الصوتي بين الحروف والحركات والكلمات حتى لكأنه يوفر وقته جميعه للصوت فهو يطلق الموسيقى ويدعها تؤثر في أعصابنا كما يريد ويشتهي . هذا كله دفع البعض إلى القول انه « أراد أن يشعر فغنى » أو أن شعره « سلاسل الذهب » أو « . . . وأما الشاعر فالبحتري » .

وإذا كان البحتري مجيداً في المطلع ومجيداً في المقطع فإنه غير مجيد

في انتقاله من الغزل إلى الغرض الذي يقصده من الشعر بل هو على وجه الأجمال مغتصب ينتقل طفرة واحدة من الغزل إلى غيره فهو لا يحسن التخلص إلا نادراً ». ولعل كثيراً من سوء التخلص يعود إلى أن كثيراً من غزل البحتري في مقدمات قصائده كان غزلاً مقصوداً لذاته. يرسم فيه عواطفه واحساس نفسه فكانت القصيدة في الواقع كأنها مركبة من قصيدتين. واحدة يفرغ فيها عواطفه في الغزل وأخرى لغرض المدح أو غيره من الأغراض.

وقد اتبع البحتري أبا تمام في استعمال البديع في الشعر ولكنه لم يفرط في هذا الاستعمال وعدل في أكثر احواله الى الصوت والصنعة في الموسيقى لأنها الجانب القديم الذي يستطيع أن ينميه دون حاجة إلى ثقافة أو فلسفة. وهو على كل حال مع اقتدائه بأبي تمام لم يكن يتعمد ادخال البديع في شعره تعمداً. ولكن اذا هيئت له فرصة استعمال البديع استعمله بلا افراط.

وشعر البحتري متسق في تركيبه متناسب في أسلوبه لا نلحظ في قصيدته تبايناً قوياً بين أبياتها في القوة والضعف بمعنى انه لا يرتفع ارتفاعاً قوياً في بعض أجزاء قصيدته ثم ينحط انحطاطاً معيباً في الأجزاء الأخرى بل يسير على مستوى واحد. وهو مع تناسب أسلوبه جميل في هذا التناسب. والبحتري لم يشتهر في شيء شهرته بجمال الأسلوب وموسيقاه.

كما كان حريصاً على الابتعاد عن حوشي اللفظ وغريبه وان كنا لا ننكر انه استخدم بعض الألفاظ القليلة الاستعمال وبعض الألفاظ الوحشية الثقيلة وحتى بعض الكلمات الأعجمية ولكنها قليلة نادرة لا تكاد تذكر.

وخلاصة القول ان نتاج البحتري هو نتاج بدوي تلفع برداء الحضارة. فهو بدوي أعرابي رحل إلى المدينة وتحضر. ولكن هذا التحضر لم يتغلغل « في عقله ولم ينفذ إلى اعماق نفسه فلم يستطع أن يستخدم الثقافة في عمله كما انه لم يستطع التعقيد في أدوات حرفته.

البحتري شاعر الأطياف

ونترك الكلام هنا للدكتور حسين عطوان:

لم يكن وصف الطيف من الموضوعات الأساسية في الشعر العربي من الجاهلية حتى أواخر العصر العباسي الأول، وانما كان موضوعاً ثانوياً يأتي لماماً في أوائل القصائد أو في تضاعيفها، ثم أخذ الشعراء بمعانيه، مرددين أن أطياف صواحبهم تزورهم في النوم وتؤرقهم، عاجبين من اهتدائها اليهم على بعد ما يفصل بينهم وبين محبوباتهم من المسافات البعيدة، والطرق الوعرة والمسالك الخفية.

وينهض البحتري في العصر العباسي الثاني بهذا الوصف نهضة واسعة ورائعة، اذ أكثر من افتتاح قصائده به، كما بث خطوطاً منه في غير قليل من قصائده. على أن البحتري لم يستكثر من وصف الطيف فحسب بل افتن افتناناً عظيماً في توليد معانيه، واستنباط اللطيف والطريف منها، بحيث لفت أنظار القدماء، وجعلهم يسلّمون له بأنه السابق في هذا الميدان، دون منازع.

يقول أبو علي القالي: « هو أحد المحسنين في القول في طروق الخيال حتى قيل طيف البحتري ».

ويقول الحصري القيرواني: « كان البحتري أكثر الناس ابداعاً في الخيال، حتى صار لاشتهاره مثلاً يقال له طيف البحتري ».

ويقول الآمدي: « أما البحتري فانه أُولع بذكر الخيال فقال فيه وأكثر وأجاد وأبدع، وتصرف في معان لم يأت أحد بمثلها، واستفتح قصائد كثيرة بذكر الخيال لشدة شغفه به، فأحسن في ابتداءاته كلها، وزاد على الاحسان ».

ويقول ابن رشيق القيرواني: « البحتري أرق الناس نسيباً، وأملحهم طريقة، لا سيما اذا ذكر الطيف، فانه الباب الذي شهر به ».

ويقول الشريف المرتضى: « كان البحتري متيماً بالقول في الطيف، فأكثر فيه، وأغزر منه، مع تجويد واحسان وافتنان. وتصرف فيه تصرف المالكين، وتمكن القادرين ». ويقول مرة أخرى: « لأبي عبادة في وصف الخيال الفضل على كل متقدم ومتأخر، فانه تغلغل في أوصافه، واهتدى من معانيه الى ما لا يوجد لغيره. وكان مشغولاً بتكرار القول فيه، لهجاً بابدائه واعادته.

واذا نظرنا في قصائده وجدنا فيها خير دليل على ذلك، اد يلقانا تصويره اللطيف في مقدماتها، وفي أثنائها، وهو حيناً يحافظ فيه على المعاني الجاهلية، والصور القديمة الموروثة من ذكر الليل والسرى والسهول، والحزون والوديان، عاجباً من اهتداء طيف صاحبته اليه، ومتمنياً لو زارته على الحقيقة، وهدأت بزيارتها له نفسه الثائرة، وأطفأت أشواقه المضطرمة، على ما نرى في قوله بمطلع قصيدته الهمزية في مديح عيسى بن ابراهيم.

طيف الحبيب ألمّ من عُدَوائه ... وبعيدِ موقع أرضه وسمائه

جَزَعَ اللِوَى عَجِلا ووجَّه مُسرعا ... مِن حَزْنِ أَبرقِهِ إلى جَرعائه

يُهدى السلام وفي اهتداء خياله ... من بُعده عجبٌ وفي إهدائه

لو زار في غير الكَرَى لشفاك من ... خَبَلِ الغرام ومن جَوَى بُرحائه

فهو يستقصي استقصاء دقيقاً الأماكن التي مر بها الطيف حتى انتهى اليه. فقد سرى اليه من مكان بعيد، مجتازاً في سرعة مناطق مختلفة: كثباناً من الرمل، الى تلال ومرتفعات تغطيها حجارة صغيرة منثورة فوقها، حتى وصل الى غايته في أرض مبسوطة مستوية. ويعجب منه كيف قطع تلك الأميال الطويلة لكي يلم به ويحييه، ويود لو ألم به في غير النوم لكي يخفف ما به من الوجد الشديد، والشوق المتقد. ومن هذا النوع قوله في صدر مدحته للفتح بن خاقان:

أجِدَّكَ ما ينفكُّ يسرى لزينبا ... خيالٌ إذا آب الظلام تأوَّبا

سرى من أعالي الشام يَجلُبه الكَرَى ... هُبُوبَ نسيم الروض تَجلبه الصبَّا

وما زارني إلاّ ولِهْتُ صبابةً ... إليه وإلا قلت أهلا ومرحبا

وليلتَنَا بالجزع بات مساعفا ... يريني أناةَ الخطو ناعمة الصبا

ولو كان حقا ما أتته لأطفأتْ ... غليلا ولافتلّتْ أسيراً معذبا

فقد أصبح ليله شركة بين الاغفاء وبين طيف محبوبته، اذ لا يكاد الليل يرخي استاره، ولا يكاد هو يأخذ في النوم حتى يطير إليه طيفها طيراناً، وكأنما الليل قطب يجذبه إليه، ويدنيه منه، كما يقترن النسيم العليل بريح الصبًا. فيرحب به، ويسلم عليه، وتهدأ نفسه قليلاً. غير أنه سرعان ما ينتبه الى أنه يعيش في غرور وزور، وأن خيالها هو الذي ألمَّ به دونها.

فالخيال دائماً يُطيف به ، غير انه لا يسدُّ مسد الزيارة الحقيقية ، وهو في الغالب يصف سُراه وما قطع من القفار ، ومجاهل الأرض حتى اهتدى اليه ، كما يحدد الوقت الذي يزوره فيه ، وهو آخر الليل .

وتلك هي بعض المعاني التقليدية ، والصور البدوية التي عني بها وأذاعها في كثير من مقدمات قصائده التي وصف فيها الطيف . غير أن له معاني عديدة مبتدعة ، وصوراً مخترعة ، ولعل من أدل الشواهد على ذلك هذه الأبيات التي قدم بها لقصيدته التائية في الافتخار بنفسه ، وعتاب قوم من أهل بلده ، والتي تنساب على هذا النمط :

أحـبـبْ إلـيّ بـطـيـف سُـعـدَى الآتـي ... وطـروقـه فـي أعـجـب الأوقـاتِ

أنّـى اهـتـديتِ لمُـحـرمـيـن تصوّبـوا ... لسُـفـوح مـكـة مـن رُبَـى عـرفـات

ذكّـرتـنـا عـهـدَ الـشـآم وعـيـشـنـا ... بـيـن الـقِـيـان الـسـود والـهَـضـبـات

إذ أنـت شَـكْـل مـخـالـف ومُـوافـق ... والـدهـر فـيـك مـمـانـعٌ ومُـوات

لـولا مـكـاثـرة الـهـمـوم ونـحـتـهـا ... مـن جـانـبـيّ لـكُـنـت مِـنْ حـاجـاتـي

وهذا معنى جديد تتمثل جدته في متابعة خيال صاحبته له وملاحقته اياه حتى في أيام حجه ، ووقت احرامه ، اذ سرى اليه من بلده بالشام وما زال يجوب الفلوات حتى وقع عليه وهو في ثياب الاحرام ، يؤدي مناسك الحج التي فرغ من اداء بعضها في عرفات ، وانحدر لكي يكمل سائرها . ولا يتمادى معه في الوصال والعبث، بل يبعث في نفسه الحنين الى موطنه ، والى ايامه التي قضاها بين سهوله وقلل جباله ، ويشغل عنه بالبعد والغربة والهموم المطبقة .

وقد أفاض الآمدي في الثناء على الأبيات ، حتى فضلها على ابيات قيس بن الخطيم المشهورة المذكورة التي أولها :

إنّـي سَـرَيـت وكـنـت غـيـر سَـروب ... وتُـقـرب الأحـلامُ غـيـرَ قـريـب

ومثل ذلك المعنى في الجدة والطرافة قوله :

قـد كـان طـيـفـك مـرة يُـغـرى بـي ... يـعـتـاد ركـبـي طـارقـاً وركـابـي

فـالآن مـا يـزدار غـيـرَ مُـغَـبَّـةٍ ... ومـن الـصـدود زيـارة الإغْـبـاب

فقد كان خيالها في أول الأمر يسرى اليه ، ولا ينقطع عنه ، غير انه لم يلبث ان ابتعد عنه ، ولكنه لم يهجره هجراً متصلاً ، وإنما أخذ يزوره في الحين الطويل بعد الحين . أرأيت اليه كيف يتلاعب بالألفاظ ؟ أرأيت اليه كيف يفتن في استخراج المعاني ؟ أما قوله : « ومن الصدود زيارة الاغباب ». فمن ألطف الكلام ، وأشده وصولاً الى كل قلب ، كما يقول الشريف المرتضى .

وأغرب من هذا المعنى وأطرف قوله :

أمـا الـخـيـال فـانـه لـم يـطرق ... إلا بـعَـقْـب تـشـوُّق وتـشـوُّق

قـد زار مـن بُـعـد فـبـرَّد مـن حـشـاً ... ضَـرِمٍ وسكّـن مـن فـؤاد مُـقْـلَق

ولـربـمـا كـان الـكـرى سـبـبـاً لـنـا ... بـعـد الـفـراق إلـى الـلـقـاء فـنـلـتـقـي

فقد فصل بينه وبين صاحبته ، وانعدمت الوسائل الى الوصل بينهما ، ولم يعد له حيلة الا أن يهيىء نفسه لعلها تنام قليلاً ، فيزوره طيفها ، ويظل يغالب نفسه حتى أخذتها سنة من النوم ، واذا خيالها يطيف به ، ويبل صداه . على أن البيت الثالث ، هو الذي جود فيه غاية التجويد، اذ جعل النوم سبباً للوصل بينه وبين محبوبته بخيالها الذي يزوره ويحقق له اللقاء بها . ومن أجل ذلك قال الشريف المرتضى : أن لهذا البيت ما شاء الله من قبول وحلاوة وطلاوة :

ومن معانيه المبتكرة قوله :

أجِـدَّكَ إنّ لـمّـات الـخـيـال ... لـمُـذكـرتـي بـأيـام الـوصـال

تـؤرقـنـي إذا الـرقـبـاء نـامـوا ... أنـاةُ الـخـطـو فـاتـنـةُ الـدلال

فكثيراً ما صرح الشعراء بأن أطياف محبوباتهم تلم بهم ، وتذكرهم بالأيام الخالية ، ولكن في أعماق الصحراء ، وبعد نوم الرفاق . أما هو فيزوره طيف صاحبته ، لابعد أن يهجع أصدقاؤه ، بل بعد أن يغط في النوم غطيطاً رقباؤه .

ولم تقتصر محاولاته على ابتداع المعاني، بل حاول اختراع الصور النادرة الغريبة ، ومن ذلك قوله :

أهـلا بـذلـكـم الـخـيـال الـمـقـبـلِ ... فـعـلَ الـذي نـهـواه أو لـم يَـفـعـل

بـرقٌ سـرى مـن بَـطْـن وَجْـرَةَ فـاهـتـدتْ ... بـسـنـاه أعـنـاقُ الـركـاب الـضُـلَّل

فقد جعل طيف محبوبته قبساً من نور يتوهج ، ويبدد ظلمات الليل، ولا يضيء دروب الصحراء لنفسه فحسب، بل ايضاً للقوافل الضاربة في جوف الصحراء ، والسائرة على غير هدى ، فإذا هي تهتدى بنوره الساطع ، ولا تضل طريقها . واذا أبو بكر الباقلاني على تعصبه ضد الشعراء لا يملك إلا أن يقول مستحسناً لصنيعه هذا ومثنياً عليه : « هذا البيت عظيم الموقع في البهجة ، وبديع المأخذ ، حسن الرُّواء ، أنيق المنظر والمسمع ، يملأ القلب والفهم ، ويُفرح الخاطر ، وتسرى بشاشته في العروق ، وكان البحتري يسمى نحو هذه الأبيات عروق الذهب ».

ولعل من أروع مقدمات قصائده التي تظهر فيها مقدرته على وصف الطيف ، وتفريعه في معانيه ، وابتداعه في تصويره قوله :

بـتُّ أُبـدي وجـداً وأكـتـم وجـدا ... لـخـيـال مـن الـبـخـيـلـة يُـهـدَى

أُقـسـم الـظن فـيـه أنّـى تـخـطّى الـ ... ـرمـل ومـن عـالـجٍ وأنّـى تـهـدّى

خـطـأً مـا أزارنـاه طـروقـا ... أم تَـوخّـيـه لـلـزيـارة عـمـدا

جـاء يـسـري فـأشـرقـت أرض نـجـد ... لـسـراه وواصـل الـغـيـثُ نـجـدا

لا تـخـيـب الـبـلاد تَـخـطـر فـيـهـا ... رسـل الـشـوق مـن خـيـالات سُـعـدَى

وعـدتـنـا فـمـا وفـت بـوصـال ... ووفـت حـيـن أوعـدت أن تَـصُـدّا

قـرَّب الـطـيـفُ مُـنْـتـواهـا فـأصـبـحـ ... ـتُ حـديـثـا بـنـاقض الـعـهـد عـهـدا

سكن لي إذا دنا ازداد لِيَا
نا وبُعدا فازددت بالقرب بُعدا

اذ تتضح فيه براعته في تشقيق المعاني، وعرضه لها بأعذب الألفاظ وأسهلها، على قلتها، وعلى تناوب الشعراء عليها، وعلى فتنته بها، وكثرة ترجيعه لها، دون أن تَغْمُض معانيه، أو يلتوي أسلوبه، فضلاً عن المعاني الطريفة التي كان يستخرجها، والصور اللطيفة التي كان يرسمها، كذلك الضوء الذي نشره طيف صاحبته على أرض نجد لمروره بها، وذلك المطر الذي أنهل عليها لاجتيازه إياها، وذلك الخيال الذي جعله رسول الشوق يحمل معه الخير والبركة للأماكن التي يسير فيها.

وله بعد ذلك أوصاف كثيرة للطيف تفوق في كثرتها وفي جدة معانيها ودقة صورها ما لغيره من الشعراء السابقين والمعاصرين له، بحيث نستطيع أن نسميه شاعر الطيف في العربية، فقد حقق لوصفه مجموعة من التقاليد الفنية، وأصّلها، من مثل تحديد الساعة التي يلم الطيف فيها، والمسافة التي يقطعها بين أنجاد وأغوار، الى مفارز وقفار، ومن مثل ترقُّبه له، وانتظاره إياه، ومن مثل وصفه له بأنه يبذل في النوم ما يضنُّ به في اليقظة، ومدحه بأنه يعلل المشتاق، وذمه بأنه سريع الزوال، وشيك الانتقال، وأنه يهيج الشوق الساكن، ويضرم الوجد الخامد، الى غير ذلك من المعاني التي رددها والتي وجد الشريف المرتضى فيها مادة غزيرة أقام عليها جزءاً كبيراً من كتابه: «طيف الخيال».

أبو تراب يحيى بن ابراهيم بن ابي تراب الكرخي اللويزي[1].

وصفه الذهبي في الصفحة ٦٣ من الجزء ٢٢ من كتابه (سير اعلام النبلاء): بالشافعي الرافضيّ وقال في ترجمته:

ولد سنة ست وعشرين وخمس مئة وتفقه على ابي الحسن بن الخل وسمع من الارموي والكروخي وابي الوقت وجماعة. وحدّث بدمشق وبغداد. روى عنه ابن الدبيثي وابن خليل والقوصي، فقال القوصي: اخبرنا المفتي قوام الدين يحيى معيد العماد الكاتب، اخبرنا ابن الزاغوني ـ فذكر حديثاً.

وقال ابن نقطة: دخلت عليه سنة سبع وست مئة فرأيته مختلاً، زعم أن الملائكة تنزل عليه بثياب خضر، في هذيان طويل، وحدثني بعض أصحابنا انه كان اذا ضجر لما قُرِىء عليه الترمذي يشتمهم بفحش.

وحدثني ابن هلالة قال: دخلت على ابي تراب فقال: من اين أنت؟ قلت من المغرب، فبكى، وقال: لا رضي الله عن صلاح الدين ذاك فساد الدين، أخرج الخلفاء من مصر، وجعل يسبه فقمت.

مات في شعبان سنة اربع عشرة وست مئة (انتهى).

ولا ندري كيف يجمع الذهبي بين صفة (الشافعي) وصفة (الرافضي). واذا كان مختلاً فكيف يجالسونه ويقرؤون عليه، واذا كان يشتم تلاميذه بفحش فكيف يستمرون في القراءة عليه؟!

وما دام الرجل شيعياً فيجب ان لا نستغرب اي قول يقال فيه لا سيما من الذهبي.

أبو جعفر يحيى بن أبي زيد العلوي النقيب.

مرّ الحديث عنه في المجلد العاشر ونزيد هنا على ذلك ما يلي مكتوباً بقلم الدكتور مصطفى جواد.

نبغ بالبصرة في القرن السادس للهجرة بيت من البيوتات العلوية الحسنية، كانوا يعرفون ببني أبي زيد وأبو زيد هذا هو محمد بن أبي عياش أحمد بن أبي علي عبيد الله بن أبي الحسن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع).

أشتهر هؤلاء بالعلم والفضل وجمعوا الى شرف السيادة العلوية شرف العلم، وجمال الأدب، والبصرة وان لم تكن مدينة علوية الهوى استطاع أن يثور فيها على المنصور إبراهيم بن عبد الله الحسني قتيل باخمرا[2] وأن يخرج فيها على بني العباس باسم العلويين علي بن محمد صاحب الزنج وأوّل محرر لهم في الشرق، والعلوي بطبيعته وسياسته يندر أن لا يكون متشيعاً أو قائلاً بالامامة المنصوصة والخلافة الموروثة.

وبنو أبي زيد العلويون البصريون كانوا كما يستبين لنا. زيديين، وقد نبغ منهم في أواسط القرن السادس «قطب الدين أبو طالب محمد بن محمد بن محمد بن علي بن أبي زيد المذكور آنفاً» وكان مولده بالبصرة في خلافة المقتدي بأمر الله العباسي وسلطنة ملكشاه السلجوقي، ونشأ هناك نشأة السادة الأشراف وكان شيخ الأدب بالبصرة أبو محمد القاسم الحريري مؤلف المقامات الخيالية وشيخ الأدب في سواد البصرة أبو القاسم عبد الله بن محمد الخوارزمي المعروف بالكامل مؤلف كتاب «الرحل» وهي المقامات الحقيقية وكتاب «الفصول» في الأدب.

ولعل الشريف أبا طالب محمد بن أبي زيد هذا قرأ المقامات أو سمعها على مؤلفها الحريري، وللقراءة والسماع على المؤلف شأن عظيم في دراسة القوم في تلك العصور، وأقبل الشريف على كتب الحديث يسمعها على الشيوخ الثقات، فقد سمع كتاب «سنن أبي داود» سليمان بن أشعث السجستاني، وهو من امهات كتب السنة، على الشيخ أبي علي محمد بن أحمد التستري، أحد التجار البحريين بالبصرة، ممن جمع بين بضاعة الدنيا والآخرة، وذلك أنه كانت له ثروة ومراكب في البحر وحفظ القرآن الكريم وسمع الحديث النبوي الشريف وكان حسن العقيدة، صحيح السماع موثوقاً بروايته ـ على ما ذكر بعض المؤرخين ـ توفي سنة «٤٧٩».

كان عمر الشريف أبي طالب بن أبي زيد عشر سنين حين بدأ بسماع كتاب السنن على أبي علي التستري ولعل هذا الشيخ الثقة مرض في أثناء حضور الشريف مجالسه الحديثية، فقد علمنا أن الشريف المذكور روى عنه الجزء الأول سماعاً أي سمعه عليه حضوراً وروى الجزء الثاني إجازة فقد أجاز له التستري روايته عنه، والاجازة عندهم من نوع الهبات العلمية تستدعيها الثقة بالتلميذ قبل كل شيء، ولم يكن الشريف قد بلغ من العمر والدراية ما يستحق الثقة، ولذلك ظننا أن خوف الموت هو الذي استخرج هذه الهبة الثمينة، وأن مرض التستري هو الذي رشح الشريف لذلك.

وسمع الحديث أيضاً على الشيخ أبي طاهر محمد بن علي بن العلاف من مشهوري المحدثين هو وأبوه وجده، وسمع أيضاً على الشيخ أبي طاهر جعفر بن محمد القرشي العباداني، وكان شيخاً صالحاً إلا أنه كان أمياً توفي سنة «٤٩٣» هـ بالبصرة، وأهل الحديث في ذلك الزمان ينظرون الى عمر الشيخ وما سمعه من الكتب، والصدق والاستقامة ولا يلتفتون إلى الأمية ولا الى الثقافة ولا الى غيرهما.

وسمع الشريف أبو طالب على غير هؤلاء الشيوخ وبرع في الفنون الاسلامية وظهر فضله واشتهرت معرفته، وولي نقابة الطالبيين بالبصرة، في أيام نقيب نقبائهم أبي عبد الله أحمد بن علي بن المعمر العلوي الحسيني

---

(١) نسبة الى محلة اللويزية، محلة مشهورة كانت بشرقي بغداد.

(٢) باخمرا قرية كانت قرب الكوفة جرت عندها الوقعة بين الجيشين جيش ابراهيم وجيش المنصور سنة ١٤٤ هـ.

المتوفى سنة « ٥٦٩ » المدفون بالمدائن « سلمان باك » في مشهد أولاد الحسن بن علي (ع) .

كانت الطبقات المتميزة[3] « الارسطقراطية في ذلك العصر » ثلاثاً : طبقة العباسيين وطبقة العلويين ومن جرى مجراهم من آل أبي طالب وطبقة الأنصار ولكل منها نقيب عام يقيم ببغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ولكل من هؤلاء أعوان من النقباء في المدن والبلدان والقرى والمشاهد، فكان الشريف أبو طالب محمد بن أبي زيد يتولى ادارة أمور العلويين بالبصرة ويرعى مصالحهم ، ومن يقرأ التوقيع « الأمر الاداري » الذي يكتب لنقيب من النقباء يعلم أن منصب النقابة كان خطيراً كبيراً كثير الشواغل والمهمات ، فهو مثل ما سمي بالامتيازات « التميزات » الأجنبية في الشرق للدول الأجنبية .

وكان الشريف أبو طالب مع ما يستحقه منصبه العظيم من الزمانة والوقار، ظريفاً مطبوعاً ، خفيف الروح ، حسن التصرف بالأحاديث حتى أتهم بالتزيد و « ما مالت الأشراف تهجى وتمدح ». وقد ذاع صيته بالعلم والفضل فاستقدمه الوزير الكبير بل سيد الوزراء عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة الحنبلي ، وزير الخليفة المقتفي لأمر الله وابنه المستنجد بالله الى بغداد وسمع عليه كتاب « سنن » السجستاني، ورحل اليه رحلة طويلة أبو الفتح بن المصري فسمع عليه سنن السجستاني المذكورة ورواها عنه ببلاده ، وطبقت شهرته الآفاق وتلفعت روايته على العراق.وغير العراق، وممن روى عنه الامام برهان الدين نصر بن محمد بن الـ ري البغدادي الحنبلي المقريء المحدث المشهور . ومنحه الله تعالى عمراً طويلاً ورواية المعمرين عند طلاب الحديث هي الاكسير الأكبر في علم الحديث .

وروى عنه الشيخ الصالح أبو منصور سعيد بن أحمد بن علي المعروف بابن محاوش البصري المالكي سنن أبي داود . وكما برع الشريف أبو طالب في الادارة والنقابة والرواية والدراية فكذلك مهر في الكتابة، ومما وجدنا له من ترسله تهنئة بعث بها إلى بعض الوزراء ولعله عون الدين بن هبيرة المذكور يقول فيها :

« أسعد الله حضرته بهذا الموسم الشريف ولا زالت كعبة تحجها شفاه التهاني ولا زالت أبوابه السامية للرعايا مراد الأماني، وثغور الاسلام مؤيدة محروسة بشريف آرائه، وشرور الأعوام محبوسة بمجدد آلائه، ما سرت نسمة وما ابتسم الزهر بروض يبكي عليه الغمام ».

وفي شهر ربيع الأول من سنة « ٥٦٠ » هـ توفي الشريف السيد أبو طالب محمد بن محمد بن أبي زيد بالبصرة عن احدى وتسعين ، وخلف من الذكور - على ما وصل اليه علمنا - عبد الباقي بن محمد بن أبي زيد وشرف الدين أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد ، وهو الذي عقدنا هذه الترجمة في الاعراب عن فضائله ومجمل سيرته ، وقد أومأنا إلى ذلك من قبل ولعله كان أسن من أخيه .

ولد أبو جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد هذا بالبصرة سنة « ٥٤٨ » في السنة الأولى من استقلال الدولة العباسية وخلاصها من كابوس السلطنة السلجوقية ، ولد في عهد الحرية ورجوع دولة العرب اليهم ، في بيت ذي سيادة عريضة وشرف وطأ الله مقاعده وأحصف معاقده ، وفي كنف النقابة العلوية والجاه الطالبي، ونشّأه والده تنشئة الأشراف ، وقرأ الأدب على أديب بصري يعرف بأبي محمد بن الأحمر الحماني ، لا نعرف من حاله شيئاً كحال كثير من الأدباء الذين قصر التاريخ في أمرهم ولا سيما أدباء البصرة فليس لهذه المدينة العظيمة تاريخ يرجع اليه ولا تسجيل يعتمد عليه ولولا

(٣) استمد هذا التميز من القرب من نسب الرسول (ص) ومن الانتماء اليه ومن خدمته اي خدمة الاسلام .

خروج جماعة من الأدباء منها وخروج متأدبين تأدبوا فيها ما وقع الينا اسم أبي محمد بن الأحمر شيخ مترجمنا ولا غيره من أسماء أدباء البصرة ، ولا نعني بذلك النادر كأبي محمد القاسم الحريري البصري، فانه قد كان اشتهر شهرة خرجت عن سلطان خمول البصرة، ومع ذلك قصد بغداد فطار صيته في العالم الاسلامي .

قلنا إن أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد العلوي البصري درس الأدب بالبصرة ولا نستطيع أن نعين للقاريء الكتب التي قرأها أو سمعها تحت سمة « الأدب » فالدواوين الشعرية كديوان امريء القيس وديوان الأعشى وديوان النابغة الذبياني وديوان الفرزدق وديوان جرير وديوان الأخطل كانت في مقدمة الدواوين التي قرأها أو سمعها هناك . ويدخل في الأدب الأخبار والأنساب، ففي الأخبار أيام العرب ومقاماتهم وأخلاقهم وعاداتهم ومجموع تواريخهم ، والأنساب من أول ما يدرس العلوي من الفنون العربية في ذلك الزمان ، فشرف العلويين وجاههم وتميزهم على غيرهم واختصاصهم بعناية الدولة واحترام الناس قائمة على الأنساب، نضيف الى ذلك أن التاريخ ذكر أن هذا السيد الشريف درس كتاب « جمهرة النسب » لابن الكلبي وسمعه على أحد الشيوخ ولعله ابن الأحمر المذكور، ولا نظننا مبعدين بأن نقول إنه درس أدب الكاتب لابن قتيبة وأخبار البصرة لعمر بن شبة ، وديوان بشار بن برد الشاعر البصري الرقيق المقتدر ومقامات الحريري فانها على كونها كتاباً بصرياً كانت في أيام هذا الشريف قد أصبحت من أمهات كتب الأدب التي يدرسها المستأدب فيكتسب ثروة لغوية من مفرداتها وثروة إنشائية من عبائرها ، وكذلك القول في كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ و « الكامل » لأبي العباس المبرد، فهذان الكتابان إلى كونهما بصريين أيضاً لم يؤلف مثلهما في هذا الفن ، وكيف يهمل المتأدب البصري تأليفهما الأخرى كالحيوان للجاحظ والروضة للمبرد ؟

وفي أيام صباه لمعت شخصيات أدبية بالبصرة منهم فخر الدين أبو زيد المطهر بن سالار المشاني، أحد كبار الأدباء، وهو من تلاميذ الحريري ولتعليمه صنف المقامات وأخذ كنيته « أبا زيد » فركب المقامات عليها ، ولكنه نسبه الى « سروج » تعمية لأمره ، وابنا الحريري أبو العباس محمد وأبو القاسم عبد الله ولكن عبد الله ترك البصرة وسكن بغداد ، وشهاب الملك أبو المرتجى البصري والدكيشي أبو علي الحسن بن علي من عبد القيس ومحمد بن يحيى القرشي والفضل بن أحمد بن سلمان والكافي سناء الدولة وغيرهم ممن لا نحب الاطالة والاملال بذكر أسمائهم ، ولم يذكر التاريخ صلة للشريف أبي جعفر بهم ، ولعل اكثرهم ماتوا ودرجوا والشريف لم يذرف للثانية عشرة سن عمره . أما ابن[1] ماري الطبيب الأديب فقد كان معاصراً له .

وكنا ذكرنا قبل هذا أن للشريف أبي جعفر أخاً اسمه عبد الباقي واسترجحنا أن يكون عبد الباقي أصغر من أخيه ، والسبب في ذلك الاسترجاح أن أبا جعفر ولي نقابة الطالبيين بالبصرة بعد وفاة أبيه سنة « ٥٦٠ » على عهد الخليفة الهمام المستنجد بالله وقد جرت العادة عند القوم أن يتولى الأبن الاكبر ما كان يتولاه الأب ما لم يمنع ذلك مانع كالعتاهية والآنة والجنون والفسق المشهود، على أن والده مات وعمره اثنتا عشرة سنة .

وعني أبو جعفر بالشعر وبرع في نظمه ومال الى الأدب، زيادة على ما استعاده من آلة النقابة كالفقه والخلاف والمقالات والجدل والأحكام

(١) هو أبو العباس يحيى بن سعيد النصراني المعروف بابن ماري المسيحي، كان كاتباً أديباً شاعراً طبيباً حكيماً مفتناً، يتكسب بالطب والكتابة ويمتدح الأكابر والأعيان وله كتاب « المقامات الستين » المشهور، توفي بالبصرة سنة «٥٨٩».

والكلام ، وليس من شك في أنه استفاد كثيراً من أبيه أبي طالب محمد بن أبي زيد ، فقد جاء في التاريخ أنه روى الحديث عنه ولكننا نستبعد أن يكون باشر النقابة بنفسه بعد أبيه وعمره اثنتا عشرة سنة ، ففي مثل هذه الحال يجب أن يكون له نائب يباشرها بالوكالة .

وفي أيام صباه كان أمير البصرة كمشتكين أحد المماليك من الأتراك وكان أميرها قبل ذلك منكوبرس من الجنس المذكور، ولكن الخليفة المستنجد بالله أمر بقتله سنة « ٥٥٩ »، واشتدت أطماع الأمراء في البصرة فان الأمير ابن شنكا التركماني وهو ابن أخي شملة التركماني صاحب خوزستان « عربستان » قصد بجيشه البصرة سنة « ٥٦١ » ونهب قراها وقتل كثيراً من جند أمير واسط حظلوبرس مؤسس المدرسة الحظلوبرسية هناك ، وأسر كثيراً ، وفي سنة « ٥٦٢ » عاد بجيشه الى البصرة ونهب البلد نفسه وخربه من الجهة الشرقية ، وعاث فساداً في بلدان اخرى من جنوبي العراق وفي مثل هذه الأحوال يكون موقف النقباء والخطباء والعلماء حرجاً ، فمنهم من ينقلب على دولته وينصر العدو، فاذا هرب العدو في آخر الأمر فاما الهروب معه وأما التعرض لعقاب شديد، ومنهم من يبقى على موالاته بين الأمن والخوف. ولم يذكر التاريخ شيئاً في هذا، فقد كان ابو جعفر صغيراً لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة .

وكانت سنة « ٥٧٥ » مبدأ عصر عظيم في الدولة العباسية، وكان للفرد الحاكم المسيطر في ذلك الزمان أثر بالغ في سيرة الأمة ومعيشتها وتقدمها او تأخرها ، ففي تلك السنة استخلف الامام أبو العباس احمد بن الحسن الملقب بالناصر لدين الله ، ذلك الذي يكاد الباحث يجزم بانه لم يل الخلافة خليفة عباسي مثله في الذكاء وفي السياسة وفي حقيقة السلطة ورعاية مصالح الدين والأمة ، ولا نريد أن نذكر في هذه الموازنة غير الخلفاء العباسيين وان كان لنا مجال في ذلك .

لقد كانت مبايعته بالخلافة فاتحة العدل والرخاء والحكمة والتبرير وخاتمة عهد التعصب الشنيع والحكم الفظيع، فقد اعترت الأمة في عهد ابيه المستضيء المستضعف سكرة الحيرة وتردت بالخنوع والخضوع واستمر عليها سوط العذاب والظلم يبرح بظهورها تبريحاً ، ونجم في الدولة ـ كما هو الحال في كل دولة أفلت شمسها وحل تعسها ـ رجال لا تستطيع أن تجد لهم من الأوصاف المنكرة ما يعرب عن حقائقهم الخبيثة وأخلاقهم الشرسة الدنيئة ، وهؤلاء وأمثالهم ليس لهم دواء الا التخليد في السجون وازالة شخوصهم الرذيلة عن العيون ، والا السيف فهو الذي يريح البشرية بأقصر الطرق وأسلمها من النكس والعكس اللذين يريد اولئك المجرمون أن يعرواها ، فيشلاها ، فتصبح شلاء بعد أن صحت وبرئت من وحشية الماضي وجفاء القدم . ولم يكد يستخلف هذا الامام الهمام حتى خمدت سورة الظلم وتطامنت الأشباح الهائلة الهوّلة ، ونكص الجور على عقبيه وتجددت حياة الأمة وانطلقت الأنفاس المكظومة والنفوس المزمومة وتنفس الحق كما يتنفس الصبح بعد ليلة ليلاء ، وتباشرت الوجوه بالهناءة والرخاء ، وانتقم الشعب من جماعة من القوم الذين كانوا يسومون خسفاً ويحكمون فيه عسفاً ويقتلون فيه ويصلبون ويحرقون ، كأن نيرون روما قد حل فيهم او كأن كلاً منهم قد استحج او استزيد[1]، وتفرعن وطغا وتجبر.

وكان أبو جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد نقيب البصرة في الوفود التي وفدت على الخليفة الجديد، تهنئة بالخلافة وتعزيه عن الخليفة الفقيد، وكان أدبه قد ذهب في البلاد كل مذهب وشرق شعره وغرب، فقال فيما قال من المدحة التي مدح بها الخليفة في اليوم الثالث من البيعة وقد رخصت الأسعار وهطلت الأمطار :

وليت وعام الناس أحمر ما حل

فجدت وجاد الغيث وانقشع المحل

وكم لك من نعماء ليس بمدرك

لها حاسب إلا اذا حسب الرمل؟!

وانما قال ذلك لأن عادة الخلافة ورسومها قد جرت منذ عصور بأن يخلع على الوفود والرسل المهنئين والبطانة والحاشية وغيرهم في أيام المبايعات والمواسم والأعياد، ويعطوا من المال مبالغ تبلغ آلاف دنانير أحياناً ، فهذا تأويل قوله « وكم لك من نعماء ليس بمدرك لها حاسب » .

لقد كان عمر أبي جعفر النقيب سبعاً وعشرين سنة يوم بويع الناصر لدين الله بالخلافة ، وكان عمر الناصر لدين الله اثنتين وعشرين سنة ، فلم تسمح الرسوم ولا الأحوال ولا أعمارهما بأن يجتمعا أو يرى أحدهما الآخر في مثل تلك الأيام التي يكثر فيها التقاصف ، وتختلط فيها جماهير الناس وتكثر حركات أرباب الدولة وأعيانها للقيام بالرسوم ، وتمشية أمور البيعة على الوجه الأكمل وفي السبيل الأفضل وأين يقع الشريف أبو جعفر من هذا البحر الطامي من الرجال الذين أصبحوا يتدافنون ويتداهون ، ويتنافسون في السبق الى السيطرة الجديدة على الخليفة الجديد ، كما جرت العادة البشرية بين أرباب السلطان في كل زمان ومكان ، ولكنهم خابت ظنونهم وساء تقديرهم وحبطت آمالهم وكعت نفوسهم فهذا خليفة تزدان الخلافة به ويليق الحكم بأعطافه فكأنه خلق ليكون خليفة .

ولما انتهت الرسوم وختم الاحتفال ورفعت معالم الزينة انصرفت الوفود والرسل وكان في وفد البصرة العائدين الشريف أبو جعفر بن أبي زيد ، ثم عاد إلى مزاولة شؤون النقابة الطالبية هناك ، ورئاسة آل أبي طالب والرئاسة عبء ثقيل لا كما يظن فريق من البعيدين عن معالجة أمورها .

وكان عهد الناصر لدين الله عهد الكفايات والقابليات ـ كما هو شأن كل عهد صالح ـ فالمجال مفتوح للكفاة والمجتهدين والدهاة المقتدرين والأذكياء المخلصين ، وقد يندس بينهم أحد المرائين او المتمنسين لاصطياد المال والمراتب، ولكن الأيام كفيلة بالكشف عنه ، فان صلاح رأس الدولة هو رأس كل صلاح فيها ، وكان من الرجال الذين توسم فيهم الناصر لدين الله ـ وتجاربه تزداد حكمة سنة بعد سنة ـ أبو المعالي سعيد بن علي بن احمد الأنصاري الحنبلي المعروف بابن حديدة من ولد قطبة بن عامر بن حديدة أنصاري رسول الله (ص) ، اصله من كرخ سامرا وسكن بغداد منذ صباه وكان أحد الموسرين وذوي المال والجاه والمكانة والسيرة الحسنة والزلفى عند الدولة العباسية مع فضل ظاهر، ولم يزل ملحوظاً بعين الاعظام والإكرام من ديوان الخلافة ، مشمولاً بسوابغ الانعام الى أن اقتضت إرادة الناصر لدين الله تأهيله للوزارة فأمر باستدعائه من داره يوم السبت لسبع خلون من شعبان سنة « ٥٨٤ » الى دار الخلافة على شط دجلة في شارع المنتصر الحالي ، فمثل بباب حجرة الخليفة ، وهذه الحجرة أشرف موضع يبلغه ذو مرتبة عالية في الدولة ، وحضر أرباب المناصب والولايات والحجاب واتباع ديوان الخلافة والقضاة والأعيان ، وخرج الأمر من الامام باستيزاره ، وخلع عليه هناك خلعة الوزارة ـ على العادة ـ وهي قميص من القماش المعروف بالأطلس وفرجية من النوع[2] الممزج وعمامة قصب[3] كحلية ذات أعلام

(١) استحج : صار حجاجاً ، واستزيد: صار زياداً ، وهما فعلان قياسيان ، والغالب في قياس الثاني (استزاد) الا اننا حملناه على (استصوب) في احدى صورتيه . في قياس الثاني « استزاد » الا أننا حملناه على « استصوب » في احدى صورتيه .

(٢) الفرجية منسوبة الى رجل اسمه « فرج » وهي تشبه الجبة المعروفة في هذه الأيام باللبادة ، والممزج من التمزيج وهو النسيج الصوفي الحريري .

(٣) عمامة القصب هي عمامة الكلبدون أي خيوط الذهب وهي تشبه الكشيدة الحالية في النقش والوشي . والاعلام هي الخطوط العريضة في القماش.

ذهب، وقلد سيفاً مزيناً ، واركب فرساً من خيل الخليفة وسلم اليه عهد الوزارة ، وبدل لقبه بأن جعل « معز الدين » فركب ابو المعالي من هناك ومشى بين يديه سائر أرباب الولايات حتى وصل الى الديوان وجلس في دست الوزارة بالإيوان الذي يجلس فيه الوزراء .

ولي هذا الوزير الحنبلي بعد وزير حنبلي قبله هو جلال الدين ابو المظفر عبيد الله بن يونس وكان هذا أخفق في وزارته لأن الناصر لدين الله كان قد بعثه بجيش عباسي الى بلاد العجم لمحاربة السلطان طغرل الثالث بن أرسلان بن طغرل الثاني بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، وأمره بأمور لا بد منها للقائد فخالفها وسبب هزيمة الجيش العباسي وسقط هو أسيراً في السنة المذكورة « ٥٨٤ ».

كانت وزارة معز الدين ابي المعالي سعيد بن حديدة الانصاري الحنبلي هذا فاتحة خير ونجاح فقد بعث الناصر في أيام وزارته جيشاً ثانياً يقودهم مملوك العباسيين مجاهد الدين خالص الحبشي الذي رآه ابن جبير الرحالة ببغداد أيام قدومه اليها فوجده من عجائب الدنيا ، ثم واقع مجاهد الدين خالص ذلك السلطان السلجوقي في بلاد ايران وكسر جيشه وأخرجه من همذان وأصفهان فهرب السلطان الى قلعة الكرخيني « كركوك » واستجار بأمير التركمان هناك حسن بن ففجاق وطلب اليه أن يسترضي الناصر لدين الله ويتشفع له عنده ، ففعل وتاب السلطان توبة موقوتة ، ليس من شأننا هنا أن نذكر عاقبتها ونستطرد أكثر من ذلك الاستطراد . وانما يعنينا أن نذكر أن هذا الوزير قام بمراسم الخدمة الناصرية وبسط العدل وقرب أهل العلم واستجلب الأدعية الكثيرة للخليفة[1].

وفي أيام وزارة هذا الوزير قدم الشريف أبو جعفر يحيى بن أبي زيد النقيب الى بغداد متظلماً إليه من ناظر البصرة ، وحسبك من هذه الشكاية أن الشريف يترك بلده البصرة وشؤون النقابة ويأتي بغداد ليرفع شكواه بنفسه ، فهذا يدل على الظلم الذي أجحف به ، وسوء المعاملة التي لقيها من ناظر البصرة ، ولم يمنعه الوزير العادل عن حضور مجلسه وبسط شكاته بحضرته ، فلما دنا منه أنشده قصيدة ضمنها تلك الشكاة ، وباح بالمظلمة التي نالته ، وهاج عروبة الوزير ونخوته واستعدى ديانته وأمانته ، ومن تلك القصيدة قوله يشير الى نسب الوزير الصريح وما فعله الأنصار لرسول الله (ص) من الايواء والنصرة :

وقبائل الأنصار غير قليلة
لكن بنو غنم هم الأخيار
منهم ابو ايوب حل محمد
في داره واختاره المختار
أنا منه في النسب الصريح وأنت من
ذاك القبيل فلي بذلك جوار
ولقد نزلت عليك مثل نزوله
في دار جدك والنزيل يجار
فعلام اظلم والنبي محمد
انمى اليه وقومك الأنصار ؟

فلما سمع الوزير هذه القصيدة التي تستخرج العطف استخراجاً وترقق القلوب القاسية فضلاً عن قلب هذا الوزير النبيل الدين الصيّن ؟ أجل لما سمعها رق له وانحدرت دموعه على خديه وأشكاه ووعده دفع المظلمة عنه ، ثم أمر فخلع عليه خلعة ، ووصله بصلة وقضى حاجته وأنصفه من ناظر البصرة وعزله . ولم نستطع معرفة ذلك الناظر الظالم .

وفي هذه القدمة التي قدم بغداد فيها رأى الخليفة الناصر لدين الله - على ما استرجحت أنا - وكان من رسوم الخلفاء في تلك الأيام أن لا يواجه الخليفة عظيماً من العظماء الزائرين أو ملكاً من الملوك الوافدين أو اميراً من الأمراء المتشرفين أو شريفاً من الأشراف القاصدين إلا بالليل ، وقد توصل الشريف أبو جعفر النقيب أن يتشرف برؤية الناصر[2] ليلاً، فلما رآه وكلمه وجد نفسه بين يدي خليفة تنقطع الأوصاف دون بلوغ معانيه ، وتقصر الامامة منه على خبر انسان، يقوم بخلافة رسول الله (ص) اذ ذاك فكأنه النبأ العظيم ، والسيد المنتظر، فلم ينشب وهو بين الدهش والاعجاب والسرور والرهب ان انشأ يقول :

ليلتي هذه كليلة موسى
حين ناجى الإله فوق الطور
لم يكن خوفه كخوفي ولا سر
بلقيا الإله مثل سروري

ولعل القاريء يستغرب هذين البيتين ويعدهما من المبالغة الشنيعة ، ولكن المثل السائر هو « فما راء كن سمعاً ». ولقد رأى أبو جعفر النقيب ذلك الخليفة العظيم ، فامتلأت نفسه فرحاً ورعباً، وسمع كلامه فرأى آية من آيات الله - تعالى - تسحر بالايمان والبيان وتستند الى الدين والفرقان وتستمد مما لا يتبينه الانسان ، ولم يكن الشريف أول محبور مسحور برؤية ذلك الخليفة ولا آخر مجذوب مغلوب، فقد سحر الناصر العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، وأدهش الملوك والأمراء، وملأ النفوس اسمه وهيبته وعدله ثم جدد الاسماعيلية الباطنية إسلامهم على يديه ، فلا لوم على الشريف أبي جعفر .

ولم يقتصر انجذاب هذا الشريف نحو الناصر لدين الله على ذلك فقد عزم على ترك البصرة موطن أهله ومسقط رأسه ومدرجته الأولى وملعبه الأول ومنشأه ، لمجاورة الخليفة ببغداد ، وكيف لا يفعل ذلك وقد شاهد ما شاهد والتاريخ يشهد أن ناساً كثيراً من أنحاء العالم الاسلامي اخذوا يأرزون الى مقر الامامة العباسية ، كما تأرز الحية الى مدخلها ، ففيها السعادة والعدل والهناءة وحسن المباءة والعيش الرخي. وكيف تكون الهجرة من مدينة الى مدينة لولا العدل والهناءة والعز والحرية ؟

انتقل الشريف ابو جعفر الى بغداد قبل سنة « ٦٠٥ » هـ وكانت حافلة بالعلماء والأدباء والرواة والشعراء، والحكماء والأطباء، فمن العلماء صفي الدين محمد بن معد العلوي الموسوي وهو حلي علوي مثله ترك الحلة وسكن بغداد وأجاز له الناصر لدين الله رواية « مسند احمد بن حنبل» عنه ، ومنهم فخار بن معد بن فخار العلوي الموسوي الحائري من أهل كربلاء، والحسن بن حمدون الكاتب الأديب ويحيى بن زيادة الكاتب المقدم ذكره وصفي الدين محمد بن جميل الكاتب اللبيب ومحمد بن سليمان بن قتلمش الفيلسوف العجيب وعبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي الحكيم ويوسف بن اسماعيل اللمغاني الحنفي، مدرس جامع السلطان - وقد ذكرناهما من قبل - واسماعيل بن علي الحنبلي وقد أشرنا اليه ، وأبو الخير مصدق بن شبيب النحوي وأبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري صاحب اعراب القرآن ، والمبارك بن المبارك بن الدهان الضرير، ويحيى بن الربيع الواسطي ويحيى بن القاسم التكريتي ومحمد بن يحيى بن فضلان وكل منهم كان مدرس النظامية ، وعبد الرحمن بن شجاع وأحمد بن

(١) مات أبو المعالي ابن حديدة الحنبلي الوزير سنة « ٦١٠ » هـ ودفن بمشهد الامام علي بن أبي طالب.

(٢) قيل ان الذي سعى له في ذلك فخر الدين أبو علي الحسن بن هبة الله بن الدوامي حاجب الحجاب ثم صدر المخزن « وزير المالية »، توفي سنة « ٦١٦ » ودفن بمقبرة الشونيزي وهي مقبرة الشيخ جنيد الحالية.

مسعود التركستاني وقد كانا يدرسان بمدرسة ابي حنيفة ، وعلي بن علي الفارقي مدرس مدرسة السيدة زمرد خاتون أم الناصر لدين الله قرب مدفنها المعروف اليوم بقبة الست زبيدة ، وكان شافعياً ، ويعقوب بن صابر المنجنيقي الشاعر ومحمد بن عبد الملك الوظائفي وعيسى بن نصر النميري الشاعر، وأبو علي الحسن بن محمد بن عبدوس الواسطي ثم البغدادي الشاعر وأبو القاسم احمد بن علي بن بختيار ، وأبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز بن النطروني الاسكندري الأديب الشاعر ، وقوام الدين نصر بن ناصر بن مكي المدائني وياقوت الرومي الشاعر المتسمي بعبد الرحمن ، وأبو محمد الحسن بن يحيى بن عمارة الكاتب الشاعر وأبو عبد الله محمد بن المهنا البشيناني والمؤيد أبو البركات محمد بن زيد التكريتي ، وأحمد بن المؤمل بن الحسن البغدادي ، وأبو الشكر محمود بن سليمان الموصلي وأبو علي الحسن بن محمد بن طوق الكاتب الشاعر وأبو المعالي هبة الله بن الحسين بن المطلب المنبوز بالجرذ .

وما حط الشريف أبو جعفر رحله ببغداد حتى قصده طلاب الأدب وأهل الحديث ، ورواة الشعر والأخبار والأنساب، فقد كان في كل ذلك علماً من الأعلام وإماماً من الأئمة، ولم تستغن بغداد عن علمه وأدبه على كثرة العلماء والأدباء فيها ، لأنه كان يجمع الى ذكائه سلامة التفكير وحسن التعليل، وصدق التحليل، فهو فيلسوف الأدب والأخبار ، وكان من أقرب التلاميذ اليه وأكثرهم اختلافاً الى مجلسه عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المعروف بابن أبي الحديد الشافعي. صاحب شرح نهج البلاغة ، فقد قرأ عليه كتاب « جمهرة الأنساب »[1] لابن الكلبي وكتب المغازي وأخبار الدول الاسلامية وكتب الشعر والأدب وفاتشه في امور كثيرة ، كانت تعتلج في صدره فلا يرى لها حالاً ولا معللاً ، ورأى الشريف في عز الدين بن ابي الحديد موضعاً للثقة ومعدناً للوفاء فأفضى اليه بأحاديث ، كانت ضرورية للثقافة الاسلامية وللتاريخ ، وكان من براعة شارح نهج البلاغة أن سجل تلك الأحاديث بألفاظها تارة وبمعانيها تارة أخرى، وهو غير مليم في ذلك ، فانه شرع في تسجيلها بعد أكثر من ثلاثين سنة ، والعجب من حافظته القوية كيف حافظت على المعاني فضلاً عن العبارات ! ولعل الشريف لم يكن يظن أن تلميذه هذا سيثبت آراءه في كتاب من الكتب، لأن شأنه السماع لا الايداع .

وأثنى ابن أبي الحديد عبد الحميد على استاذه بما يستحق من المدح وذكر أنه كان ثقة مأموناً متين الديانة جم العلم واسع الفهم وانه وان كان علوياً لم يكن ذا هوى تعصبي ولا ذا جنف وانه لم يكن امامياً حتى يقال انه يذب عن نحلته ويدفع عن مذهبه ، ودونك بعض ما قال في استاذه الشريف العلامة أبي جعفر .

قال في موضع من شرح نهج البلاغة : « وكان النقيب أبو جعفر -رحمه الله - غزير العلم صحيح العقل منصفاً في الجدال غير متعصب للمذهب » الى أن قال « وكان ابو جعفر - رح - لا يجحد الفاضل فضله والحديث شجون » .

وقال في موضع آخر : « كان ابو جعفر - رح - مع ما يذهب اليه من مذهب العلويين ، منصفاً وافر العقل » .

وقال في موضع ثالث: « وقد ذكرت في هذا الفصل خلاصة ما حفظته عن النقيب أبي جعفر ولم يكن امامي المذهب ولا كان يبرأ من السلف ولا يرتضي قول المسرفين من الشيعة ، ولكنه كلام أجراه على لسانه البحث والجدل بيني وبينه على ان العلوي لو كان كرامياً[2] لا بد ان يكون عنده نوع من تعصب وميل على الصحابة وان قل » . وقال في موضع رابع « سألت النقيب وكان بعيداً عن الهوى والعصبية » .

وهذه الأقوال وغيرها لا تثبت قيمتها الا بما سنذكر من البينات التي هي من آثار الشريف ابي جعفر بن ابي زيد، والا فما أسهل ان يدعي مدع لنفسه أو لغيره انه بعيد عن التعصب الذميم حتى اذا رأيت أعماله وقرأت أقواله وجدته تضج الانسانية من تعصبه الشديد وتفكيره الباطل البليد، وهذه عادة الاحتراف بالدين، والاتجار باليقين ، وقلما تجد مجرماً لا يدعي بين يدي الحاكم انه بريء طاهر الذيل صالح الأعمال، بعيد عن سيرة الأرذال .

ولم يكن اقبال الرواة على شعر الشريف ابي جعفر بأقل من إقبالهم على أدبه الأخباري ومسموعاته ، فقد كان شاعراً رقيق الأشعار رائق المعاني ، رشيق الألفاظ وقد قدمنا شيئاً من شعره . وذكر ابو المظفر يوسف بن قزاغلي المعروف بسبط ابن الجوزي ان الشريف أجاز له رواية شعره ، ومن شعره أوائل قصيدة يمدح بها الخليفة الناصر لدين الله وهي :

هذا العقيق وهذا الجزع والبان ... فاحبس فلي فيه اوطار وأوطان
آليت والحر لا يلوي أليته ... ان لا تلذ بطيب النوم أجفان
حتى تعود لياليناا التي سلفت ... بالأجرعين وجيراني كما كانوا
يا حبذا شجر الجرعاء من شجر ... وحبذا روضه المخضل والبان ؟ !
إذا النسيم سرى سالت ذوائبه ... كأنما الغصن الممطور سكران
فللنسيم على الأغصان هينمة ... وللحمام على الأفنان الحان
وبارق لاح والظلماء داجية ... والنجم في الأفق الغربي حيران
هدءاً يذكرني هيفاء ضاحكة ... فلم أنم وغدي هم وأحزان[3]
كتمت حبك والأجفان تظهره ... وليس للحب عند العين كتمان
درت بالغدر في الاحشاء نار جوى ... وقد هجرت ففيض العين غدران

وهو من الطبقة الأولى من الشعر الصناعي، ولسنا نطمع من السيد النقيب أن يكون شعره في النسيب والغزل صحيحاً بعيداً عن الصناعة ، فليس ذلك من الإنصاف ، وليس في الامكان أبدع مما كان ولكننا يجوز لنا أن نقول : لعل الشريف أحب في أيام شبابه ، وذكرى الحب لا تبليها السنون الكثيرة فهي ألذ ما في الحياة من الذكريات .

وفي شهر رمضان من سنة « ٦١٣ » توفى الله علامة عصره وفريد دهره وشاعر آل ابي طالب أبا جعفر محمد بن أبي زيد ودفن في مقابر قريش عند مشهد الامام موسى بن جعفر « الكاظمية » وغاب ذلك العالم الفاضل الأديب الكامل الشاعر البارع ، وكانت الحسرات عليه كثيرة والأسف شديداً ، فآفة

(١) وكان عالما بالنسابين حدث قال « لم يكن تحت السماء أعرف من أبي علي عبد الحميد بن التقي « الأنساب » وكان يحدث عن معرفة هذا النسابة بالعجائب ، كذا قال الصفدي في ترجمة عبد الحميد .

(٢) الكرامِيّة بتشديد الراء اتباع محمد بن كرام من اصحاب المقالات ، كان يعد الله جسماً كالأجسام .

(٣) في هذا البيت بعض التصحيف ، ولم نجد وجهاً أقرب للسلامة من هذا الذي هو عليه الآن .

الانسان هذا الموت الذي يهدم البنيان ، ويفسخ التدبير ويبدد الآمال ، ولم أعرف من ذرية أبي جعفر الذكور الا تاج الدين أبا زيد اسماعيل ، ولعله كان قد ترك له نقابة الطالبيين بالبصرة وانتقل الى بغداد ، فقد ذكر في كتب الأدب أن الأمير علي بن مقرب العيوني الشاعر مدحه بعد منحدره من بغداد ، الى البصرة أما بغداد فقد دخلها العيوني مرتين الأولى سنة « ٦١٠ » والأخرى سنة « ٦١٤ »، وأما البصرة فغير مرة قال بعض الأدباء :

وكان ابن مقرب قد حضر مجلس الشريف تاج الدين اسماعيل بن أبي زيد هذا للسلام عليه ، فخلع عليه ثوبين لهما قيمة ثمينة ، قبل أن ينشد المدح بل قبل أن يعلم انه عازم على مدحه ، وذلك من شيم أهل الفضل والكرم فانهم يأتي برهم ابتداءاً لا استدراراً ولا استخراجاً ، ومما قال في مدحه :

يخفي الصبابة والألحاظ تبديها
ويظهر الزهد بين الناس تمويها
ويستر الحب كيما لا يقال صبا
شيخاً فتعلنه الأنفاس تنويها
وأهالها من ليال لو تعود كما
كانت وأي ليال عاد ماضيها !!
فاقت جميع الليالي بالبهاء كما
فاق البرية « تاج الدين» تشبيها
من يدع يوماً أبا زيد لحاجته
فقد دعا دعوة ما خاب داعيها
إليك يا ابن رسول الله شاردة
بكراً يطول رواة الشعر راويها

وهي طويلة تجتزىء منها بهذا .

وقد نشأت بين الشريف تاج الدين اسماعيل والأمير البحراني الشاعر ألفة وصحبة واقترح عليه مرة ، وقد مرض مرضاً خفيفاً أبياتاً من الشعر فقال فيما قال :

اعيذك أن تسمو اليك الحوادث
وأن تتغشاك الخطوب الكوارث
سليل العلا لا زلت في ظل نعمة
لك المجد ثان والسلامة ثالث
وحزت المدى في خفض عيش وعزة
يدين لها سام وحام ويافث
لعمري لقد أشبهت فضلاً وسؤدداً
أباك علياً حين تبدو النكائث
جزى الله تاج الدين خيراً فانه
به تدفع الجلى وتكفى الهنابث
فدى لأبي زيد رجال قلوبهم
عن الخير غلف والحبال رثائث
ودونكها يا ابن النبي غريبة
تخبر أن العائبيها هلابث

وهي طويلة أيضاً ، أراد بها أن يظهر براعته في الاستكثار من قافية الثاء ولكنه أسف وأغرب وأبهم وما أعرب ، فليس هذا بالشعر الذي يدخل الآذان بلا استئذان ، وتقرؤه العيون كما تستقري زهر الرياض .

ولا يتهيأ لنا أن نقول شيئاً في « بيت أبي زيد » نقباء البصرة اكثر مما قلنا ، سوى ان ابن أخي الشريف ابي جعفر كان اسمه « عبد الباقي » ويلقب بكمال الدين ؛ فولد له ابن سماه « علياً » وولد لعلي هذا ابن سماه يحيى ولقبه بعماد الدين ، فآخر رجل منهم وقع الي تاريخه هو « عماد الدين يحيى بن علي بن عبد الباقي بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن ابي زيد العلوي الحسني » . وقدم هذا بغداد سنة « ٦٨٧ » على عهد السلطان أرغون بن أباقا بن هولاكو الايلخاني وزاره جماعة من العلماء ، وكان نازلاً عند السيد غياث الدين أبي المظفر عبد الكريم بن طاووس بالمشهد الكاظمي أو زائراً له .

هذا موجز سيرة الشريف أبي جعفر يحيى بن ابي زيد النقيب الذي سنراه واضح الصورة في آثاره النبيلة وان كانت قليلة ، ولعل ما جئت به هو أكثر ما عرف من سيرته المجهولة لقلة المراجع التاريخية .

يوسف اعتصامي .

توفي سنة ١٣١٦ .

اصل ابيه من آشتيان جاء في شبابه الى تبريز فولد له فيها ولده المترجم ودرس علوم اللغة العربية والأدب والأصول والمنطق والحكمة . وكان يجيد اللغة الفرنسية واللغة العربية والتركية الاصطنبولية . وكان خطاطاً يكتب التعليق والنسخ ، والمكسورة ، والسياق .

من مؤلفاته : (قلائد الأدب في شرح أطواق الذهب) طبع في مصر، وكتاب (ثورة الهند) طبع ايضاً في مصر . كما ان له عدة مؤلفات أخرى .

انتخب نائباً عن تبريز وتولى ادارة مكتبة المجلس النيابي ووضع لها فهارس بلغت ثلاثة مجلدات طبع منها اثنان في حياته ، وطبع الثالث بعد وفاته . وآخر آثاره ترجمته لكتاب السياحة لفيثاغورس .

هو والد الشاعرة (بروين اعتصامي) صاحبة الديوان المشهور التي كانت من مفاخر الأدب الفارسي المترجمة في مكانها من هذا الكتاب .

يحيى بن ابي طي .

مرت ترجمته في الصفحة ٢٨٦ من المجلد العاشر ، ومر في ذكر مؤلفاته ان له أخبار الشعراء الشيعة ، وكتاب الحاوي ذكر فيه رجال الشيعة وعلماءهم وفقهاءهم وشعراءهم وأئمتهم المصنفين في مذاهبهم .

وقد رأينا في الصفحة ١٦٦ من الجزء ٢١ من (سير اعلام النبلاء) للذهبي ، قول الذهبي عن أسامة بن منقذ : « قال يحيى بن ابي طيء في تاريخه : كان امامياً حسن العقيدة » .

وقد علق محققا الكتاب في الحاشية على هذا القول بما يلي : « كتابه الذي ينقل الذهبي منه هو تاريخ الشيعة ، قال : وهو مسودة في عدة مجلدات نقلت منه كثيراً » (انتهى) .

ويبدو لنا أن الكتب الثلاثة هي كتاب واحد وان ذكرت باسماء مختلفة . على ان المهم هو ما ورد عن الذهبي منقولاً عن كتابه (تاريخ الاسلام) من أن الكتاب هو في عدة مجلدات .

ولا شك انها خسارة كبرى للتاريخ والعلم والأدب وللفكر الانساني أن يكون هذا الكتاب قد فقد فيما فقد من آثار الماضين .

يحيى بن زيد بن علي بن الحسين .

قال جعفر الخليلي :

ان تطور الحوادث السياسية في الشام والعراق وانعكاسها على خراسان لتشابه التركيب الاجتماعي بين العراق وخراسان بصورة خاصة في البينية والأوضاع العامة في السياسة والاقتصاد، أدت تلك الحوادث الى انشغال نصر بن سيار عن تكملة خطته الاصلاحية التي أعلن عنها ، بتسوية الأمور والحوادث الجديدة التي حدثت في خراسان بعد الانفجارات السياسية التي

حدثت في الشام ، وأهم تلك الحوادث ، هي حركة يحيى بن زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن ابي طالب ، وحركة الأزديين التي كان يترأسها جديع بن علي الكرماني (الأزدي) .

كان الوضع السياسي العام في خراسان بعد وفاة هشام بن عبد الملك ـ حسب ما رأينا ـ يساعد على ظهور أي اتجاه سياسي معاكس لسياسة الامويين ـ وعلى نمو أية حركة تطالب باسقاط الحكم الأموي لها في خراسان فحسب بل في اكثر أقاليم الدولة ، وعلى هذا عندما قتل زيد بن علي بن الحسين في الكوفة في عام ١٢٢ هـ/ ٧٤٠ هرب ابنه يحيى بن زيد متستراً عن طريق نينوى ، ـ المدائن الى خراسان ، وهو طريقها انذاك ، معتمداً على جمع الشيعة هناك والخروج على بني امية في اقليم يساعده على ذلك ، فوصل الى بَلْخ وأقام فيها عند الحَرَشي بن عمر بن داود حتى مات هشام بن عبد الملك وولي الوليد بن يزيد ، الا ان عيون يوسف بن عمر اكتشفت الأمر ، فكتب الى نصر بن سيار « ابعث الى الحَرَشي حتى يأخذ بيحيى أشد الأخذ فبعث نصر الى عقيل بن مَعْقِل الليثي ، وهو عامله على بَلْخ ، أن يأخذ الحَرَشي فلا يفارقه حتى تزهق نفسه أو يأتيه بيحيى بن زيد ، فدعا عُقيل فضرَبه ستمائة سوط ، وقال : والله لأزهقن نفسك أو تأتيني به ، فقال : والله لو كان تحت قدمي مارفعتُها عنه فاصنع ما أنت صانع ، فوثب ابن الحَرَشي فقال لعُقَيل : لا تقتل ابي ، وأنا آتيك بيحيى فوجه معه جماعة فدلهم عليه » ، فوضع يحيى في الحبوس ، وكتب بذلك الى الوليد بن يزيد ، فأمر باطلاق سراحه وجماعته ، فأطلق نصر سراحه وأمر له بألفي درهم ، وأن يلحق بالوليد ، وقيل « بل احتال يحيى بن زيد حتى هرب من الحبس وصار الى بيهق من ارض أَبْرشَهر فاجتمع اليه قوم من الشيعة فقالوا حتى متى ترضون بالذلة واجتمع معه نحو مائة وعشرين رجلاً » ربما كان هرب يحيى بن زيد من سجن نصر بن سيار أقرب الى الحقيقة من منحته النقدية وأمر الوليد ابن يزيد باطلاق سراحه ، الذي أمر بالانتقام من جسد أبيه المعلق على جذع نخلة خاوية في كُناسة الكوفة بأن يحرق وينشر مع الريح فوق وجهة نهر الفرات ، على كل حال ، سار يحيى بن زيد الى سرَخْس فأقام بها ، وكان نصر بن سيار يراقب حركاته بدقة ، حتى وصل الى الجَوزجان وهناك اعلن الثورة على الحكم الأموي ، فظهر يحيى مجاهداً زاهداً ورعاً يدعو لنفسه بعد ان أذاع في الناس منهج ثورته وهو منهج ثورة زيد بن علي ، ويتلخص ذلك المنهج في « البيعة على كتاب الله وسنة رسوله ، والدفاع عن الضعفاء ورد العطاء الى من سلب منهم ، وتوزيع الفيء بعدل بين مستحقيه ، واعادة المجاهدين في الجهات النائية الى بلادهم والدفاع عن آل الرسول » . ويكاد منهج ثورة يحيى بن زيد يتلاقى في نقاطه الأساسية مع منهج ثورة الحارث بن سريج ، المعتصم في اقليم ما وراء النهر ، ولعل البعد الجغرافي ووعورة المنطقة حالت دون التقاء يحيى بالحارث ومقاومة الأمويين معاً في المرحلة الأولى من الثورة على الأقل ، وللاختلاف الجذري في موضوع الخلافة بين الثورات العلوية على اختلاف فرقها وثورة الحارث ، حيث ان الحارث لم يطرح موضوع الخلافة صراحة في ثورته في خراسان .

حاول يحيى بن زيد أن يجمع حول رايته الثوّار من كل اتجاه سياسي معاد للأمويين لذلك حاول قبول « المُحَكِّمة » من فرق الخوارج ، لتحمسهم الشديد ضد الأمويين « فنهاه يزيد بن عمرو وقال : كيف تقاتل بقوم تريد أن تستظهر بهم على عدوك وهم يبرؤون من علي وأهل بيته ، فلم يطمئن اليهم غير انه قال لهم جميلاً » وفي « هذا دلالة على ما كان يشعر به الخوارج من اتفاق مع الزيدية في الخروج على الامام الظالم » وبدأت الحرب بين يحيى وجماعته وجيوش نصر بن سيار بالقرب من نيسابور بقيادة عمرو بن زُرارة ، وكان النصر ليحيى بن زيد إلا ان نصر بن سيّار سيَّر اليه أشجع قواده سَلم بن احْوَز ، فلحقه بالجوزجان فقاتله قتالاً شديداً حتى قتل يحيى بن زيد وقيل قاتله سَلم بن احوز المازني (من بني تميم) دون هراة ، فقتله سَوْرة بن محمد بن عزيز الكندي ، وصلبه بالجوزجان في طاق ، وصلب بازائه رجلاً من العرب يقال له مُطرّ بن مُطرف ، فما زال مصلوباً حتى خرج أبو مسلم الخراساني فأنزله وواراه وتولى الصلاة عليه ودفنه ، وأمر بالنياحة عليه في خراسان ، وقيل ان الذي انزل جسم يحيى بن زيد وغسله وكفنه ، وحنّطه ثم دفنه هو خالد بن ابراهيم ابو داود البَكري وقد جاء في معجم الأدباء ما نصه « وكان سَلْم بن احوز والي بَلْخ والجوزجان من يده (أي يد نصر بن سيار) وهو الذي قتل يحيى بن زيد بن علي بن الحسين وجهم بن صفوان الذي ينسب اليه مذهب جهم ووجه برأسيهما الى مرو الى نصر بن سيّار ، فنصبا علّى باب تُهذُز مرو فكان سلم بن احوز يقول « قتلت خير الناس وشر الناس» ، والمتفق عليه في كتب التراث وبلا خلاف ان جهم بن صفوان قتله مَسلم بن احوز أيام ثورة الحارث بن سُرَيج عام ١٢٨ هـ بينما قتل يحيى بن زيد في أواخر عام ١٢٥ هـ أو في أوائل عام ١٢٦ هـ ولما « بلغ الوليد قتل يحيى كتب الى يوسف بن عمر: خذ عجيل اهل العراق فانزله من جذعه ، يعني زيداً ، وأحرقه بالنار ثم انسفه باليم نسفاً» . لم تنته حركة يحيىٰ بن زيد بمقتله ، لأنها عميقة في المجتمع الخراساني ولها جذورها ومواطنها في هذا الاقليم ، وقد تبلورَت تلك الجذور وانتشرت بمقتل زيد بن علي في الكوفة ، ومبايعة بعض أهل خراسان له عندما خرج على هشام بن عبد الملك ، ولا بد كان ليحيى في خراسان من الأعوان والجماعات والقوة مما دفعته الى اعلان الثورة على الأمويين في الجوزجان وتحقيق بعض الانتصارات على جيوشهم الكثيرة العدد ، والمجرَّبة لتلك المواطن الوعرة ، والمتكاملة العدة للحرب والمِران عليه . وبعد فشل حركة يحيى التف الشيعة بصورة عامة والزيدية معهم حول راية علوية اخرى جديدة بالرغم من عدم انتساب صاحبها الى العلويين بخط مستقيم ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، وقد خرج على السلطة عام ١٢٧ هـ ، وكان الوضع في العراق يساعد على الثورة آنذاك ، وقد التف الزيديون حول راية عبد الله بن معاوية وانضموا تحت لوائه يحاربون الأمويين بعقيدة راسخة ، لأن في مبادىء الزيدية الخروج على الامام الظالم الجائر ، وقد قام الزيدية في ثورة ابن معاوية بدور فعّال ، فغلب على ماه الكوفة اولاً ثم على ماه البصرة[1] ، بعد ان فشل في العراق ، وبعد أن اتسع ميدان معاركه وسيطرته ، امتدت المناطق التي سيطر عليها الى هَمَدان وقم والري ، واصبهان ، وفارس ، وجعل قاعدته مدينة اصفهان ، ثم كوّن حكومته ووزع عماله « واستعمل اخاه الحسن على إسطَخر ، وأخاه يزيد على شيراز ، واخاه علياً على كرمان وأخاه صالحاً على قُم ونواحيها ، وقصدته بنو هاشم جميعاً منهم السفّاح والمنصور ، ومن بني امية سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وعمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، فمن أراد منهم عملاً قلده ومن أراد صلة وصله » فاستطاع أن يبسط سلطانه على منطقة شاسعة في شرق الدولة الاسلامية ، ومن الخوارج الذين طردهم مروان بن محمد في الموصل التحقوا به .

قدر مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية خطورة حركة عبد الله بن معاوية في العراق وامتدادها في ايران للاضطرابات السياسية المعادية فيها وبصورة خاصة في اقليم خراسان حيث تجمّع الشيعة العَلوية والعباسية والزيدية والخوارج لذلك بادر الى القضاء على حركة ابن معاوية ليحُول دون تجمع القوى المعارضة والمناوئة للأمويين تحت قيادته وقد تمكّن من طرده من العراق وثابر على مطاردته في ايران ، بأن امر الجيوش المقاتلة في

(١) يراد بماه البصرة (نهاوند) ، وماه الكوفة (الدينور) .

الجزيرة ان تطارده ، فاندحر أمام عامر بن ضُبارَة وهرب الى خراسان . وقد انهكت الحروب نصر بن سيّار مع الحارث بن سُريج التميمي ومع جُدَيْع بن علي الكرماني الأزدي ومؤامرات ابي مسلم الخراساني المستمرة تزيد في تعقيد الوضع السياسي فيها مما أنهك جهاز الدولة بصورة عامة وحكومة خراسان بصورة خاصة . وصل عبد الله بن معاوية في هذه الأزمة الحادة الى خراسان ، وقد ظهر الحزب الهاشمي يعمل ويدعو لنفسه علناً بقيادة أبي مسلم الخراساني ، وقد سيطر على عاصمة الأقليم مرو ، بعد أن هرب عنها نصر بن سيار ، وكان عبد الله بن معاوية يطمع في أن ينحاز اليه شيعة بني العباس الا ان أبا مسلم القى القبض عليه وقتله خنقاً بالأغطية ، أو سمّه ، ووجه برأسه الى ابن ضُباره ، فحمله الى مروان ، وقيل : سلمّه حياً الى ابن ضُباره فقتله وحمل رأسه الى مروان

الشيخ يعقوب بن محمد بن رحيم بن منصور بن رحيم السمامي الرامسري.

ولد حدود ١٢٥٠ في رامسر، وتوفي حدود ١٣٠٠ .

كان في رامسر من العلماء المدرسين وكانت أغلب استفاداته العلمية في النجف الأشرف وأعقب ولدين فاضلين الشيخ محمد والشيخ علي[١].

الميرزا يوسف آغا المجتهد التبريزي بن الميرزا علي بن المولى محمد علي القره داغي.

ولد في تبريز سنة ١٢٧٩ وتوفّي في العراق في زيارة له إلى الأعتاب المقدسة عند الوصول إلى الكاظمين عليهما السلام ودفن في الرواق الشريف من ذلك الحرم .

هاجر الى « النجف الأشرف » سنة ١٢٩٩ هـ ومكث في هذه الحوزة اثني عشر عاماً وتتلمذ لدى المولى محمد الفاضل الايرواني ، الشيخ هادي الطهراني وغيرهما ثم عاد الى تبريز سنة ١٣١١ .

قال صاحب « علماء معاصرين » : « كان شديد الذكاء ، طود العلم والأدب وكان بحّاثاً ومناظراً محجاجاً واستاذاً في الوعظ والتذكير » اهـ .

وللمترجم له مؤلّفات عدة مطبوعة ومخطوطة .

وله ديوان شعر ، جَمَعَه أحد أحفاده وعندي منه نسخة مصوّرة .

نموذج من أشعاره في رثاء السبط الحسين بن علي عليه السلام :

مَا لِلعُيونِ أبَتْ بِغَيرِ سُهَادِهَا ... وَنَفَتْ مِنَ الأجْفانِ طِيبَ رُقَادِهَا

مُستَعبرات لَيس يَرقَى دَمْعُها ... فَكَأنَّهَا اكتَحَلَتْ بِشَعرِكَ قَتَادِهَا

فَلَعَلَّهَا رَأتِ المَنَازِلَ قَدْ خَلَتْ ... عَنْ أهلِهَا فَاسْتَعْبَرَتْ لِبِرادِهَا

ذَكَرَتْ مَنَازِلَ مَعشرٍ حَلُّوا بِهَا ... وَتَرَحَّلُوا عَنْهَا إلَى مِيعَادِهَا

وله ايضاً في هذا الديوان اشعار في مدح الامام علي بن ابي طالب والامام الثاني عشر ومدائح مختلفة في موارد متفاوتة[٢].

[١] الشيخ محمد السمامي.

(٢) السيد ابراهيم بن السيد علوي.

ملحق بالمستدركات

يرى القارىء في هذا المجلد بحثاً عن الملك الايلخاني محمد خدابنده او لجايتو الذي كانت عاصمته مدينة (السلطانية) . وقد قمت في شهر نيسان من سنة ١٩٨٩ برحلة الى بقايا هذه المدينة دونت وصفها بما يلي :

خرجنا من مدينة **قزوين** قاصدين سلطانية محمد خدابنده **أولجايتو**[١]»

وفي الذهن صور شتى من الماضي البعيد الذي انطوى في تلك الارض بما فيه من صليل السيوف وجلجلة الوغى ورهج القتال ، إلى جانب ما حفل به من ندوات العلم واسمار البحث وشروح الفقه وترتيل الشعر.

فإذا كانت قد مرت من هنا جحافل المغول مدمرة مروعة ، فقد مر من هنا إيضا العلامة الحلى الحسن بن المظهر بمدرسته السيارة الحاشدة . . .

فما أروع ما تبعث في النفس هذه الارض وما يليها من أرض وأرض - ما أروع ما تبعث في النفس من أسس طورا، ومن هوى **طوراً** آخر.

وما أشجى ما يثير نسيمها هذا الذي يتهاوى على وجناتنا وجباهنا - ما أشجى ما يثير من هول الدماء المراقةوما أحلى ما يهيج من تناجى العقول الخلاقة . . .

ومضت السيارة بين بساتين قزوين، بساتين قزوين التي يتكاثف فيها الشجر مورقاً ناضراً، ليخرج بعد حين اللوز والفستق. كانت البساتين الآن الىٰ يمين الطريق، وكانت الارض الزراعية المديدة تترامى باخضرارها الى ابعد الآماد.

ولم تلبث ان طلعت لنا بلدة(ساغارآباد) منتشرة بيوتها على جانبي الطريق. أما بساتينها الخضر فكانت الى يساره. وبعد ساغرآباد لم تكن تلمح العين إلا السهول الزراعية التي لا حد لها ، تتخللها احياناً دساكر في بضعة بيوت. ثم لاحت لنا من بعيد على يسار الطريق بلدة(رحمةآباد)ثم مررنا بقرية (كهل) المكتظة بالبساتين، ثم وصلنا مدينة (تاكستان) التي كان **اسمها من** قبل (سيادهن)ثم أبدل الى (تاكستان). ويوم كانت تحمل في القديم اسم **(سيادهن) كانت تخرج فقهاء ينتسبون اليها، وعندما كان يمر اسم (السيادهني)** في الاوراق أمامي كنت استغرب هذه النسبة وأتساءل إلى أي شيءتنتمي فاذا بي الساعة امام (سيادهن) وجهاً لوجه، وإذا بها تحل لي الاشكال. .

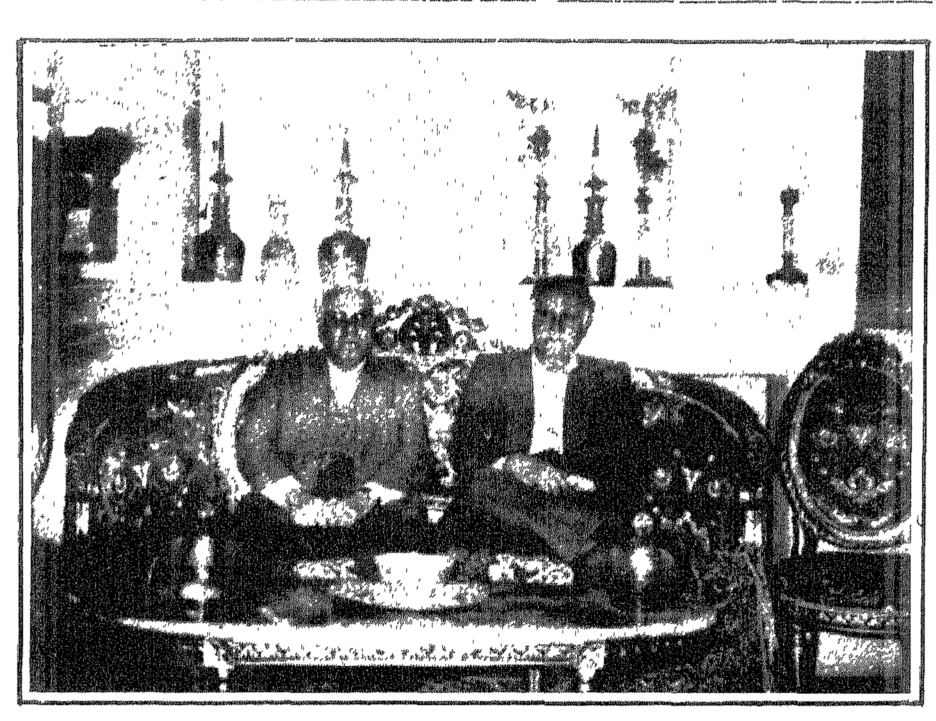
سلام على الفقهاء السيادهنيين الذين انطوت اسماؤهم في بطون الماضي، **وبرزت في ورقات الحاضر . إنني اذكرهم هنا بكل خير وأبعث اليهم في** اجداثهم بأطيب التحيات ، **ولئن اتعبوا بالأمس أناملي بما دونت من أخبارهم ، فقد اراحوا اليوم عيني بما شاهدت من حسن مدينتهم . . .**

وبعد تاكستان تتابعت السهول الزراعية الى ان وصلنا في الطريق الى مكان انشطر فيه هذا الطريق الى شطرين : شطر يأخذ الى مدينة (همذان) ومنها الى العراق، وشطر يؤدي الى مدينة (تبريز) ومنها الى تركيا وأوربا.

مشينا في الثاني في سهول زراعية مديدة إلى أن طلعت إلى يسار الطريق قرية (ضياءآباد) المحاطة **بالبساتين**والمشهورة**بالعنب والجوز، ثم قرية** (فارسجين) المغمورة هي الاخرى بالبساتين، ثم قرية (قروه) التي تضم معملا كبيرا لصنع الموكيت. ثم مررنا بمجمع بنائي حديث كثير البنايات قيل لنا أنه مكان ضخ النفط إلى مدينة تبريز، ثم وصلنا معملا كبيرا للنسيج ثم إلى قرية شريف آباد التي تقوم على جانبي الطريق محاطة بالبساتين والزروع، ثم كان بين بساتين مدينة (أبهر) ، ثم اخترقنا شارع القسم الحديث منها الذي هو طريقنا المستقيم ماضين بالبساتين على الجانبين.

وإذا كان المرور **بمدينة أبهر** أثار ذكرى الفقهاء الابهريين ، فإنه إلى

(١) بدأ بانشاء (السلطانية) ارغون واتمها ابنه محمد خدابنده اولجايتو سنة ٧٠٤ هـ (١٣٠٥ م) وجعلها قاعدة الدولة وهو الذي سماها (سلطانية) .



في قزوين في منزل المؤرخ المحقق الأستاذ عبد الحسين الصالحي علائية سفر السلطانة .

ذلك آثار ذكرى تاريخية أخرى. فبخروجنا من أبهر نكون قد اجتزنا ما بين أبهر وقزوين، وها هنا ما بين المدينتين سفك دم آخر حكام الاسماعليين النزاريين (خورشاه)

فإن هولاكو بعد أن استسلمت له (ألموت) قاعدة النزاريين، وكان قد استسلم له حاكمها (خورشاه) من قبل ـ تقدم في اتجاه قزوين حيث نزل في **٢٧ ذي الحجة سنة ٥٦٤ هـ على بعد سبعة فراسخ منها. ثم أرسل خورشاه الى بلاط أخيه منكوقاءان، وقبل** أن يصل أرسل منكوقاءان من قتله في الطريق بين أبهر وقزوين، وقتل معه أسرته رجالا ونساء وأطفالاً

فنحن في مسيرنا هذا منذ خروجنا من قزوين ، إنما نسير في أعماق التاريخ ، ونوغل في صميم القرون الخوالي التي شهدت زحفاً من شر ما عرفت الدنيا من زحوف . أنه زحف هولاكو، وحسبك ما اقترن به هذا الاسم من فجائع وفظائع . . .

ومما ذكرت به أبهر في كتب الأقدمين ما ذكره ابن حوقل في المئة الرابعة من أن أبهر مأهولة بالاكراد كثيرة المياه والاشجار، ويكثر فيها القمح .

أما الاشجار فشهدناها، وإذا كنا لا نرى المياه، فقد رأينا ما يدل عليها وهو البساتين الزاهرة. **وأما الأكراد فإننا لا ندري ان كانت لا تزال مأهولة بهم** أم لا، وورد ذكر أبهر في شعر عربي قديم، قال عبد الله بن خليفة .

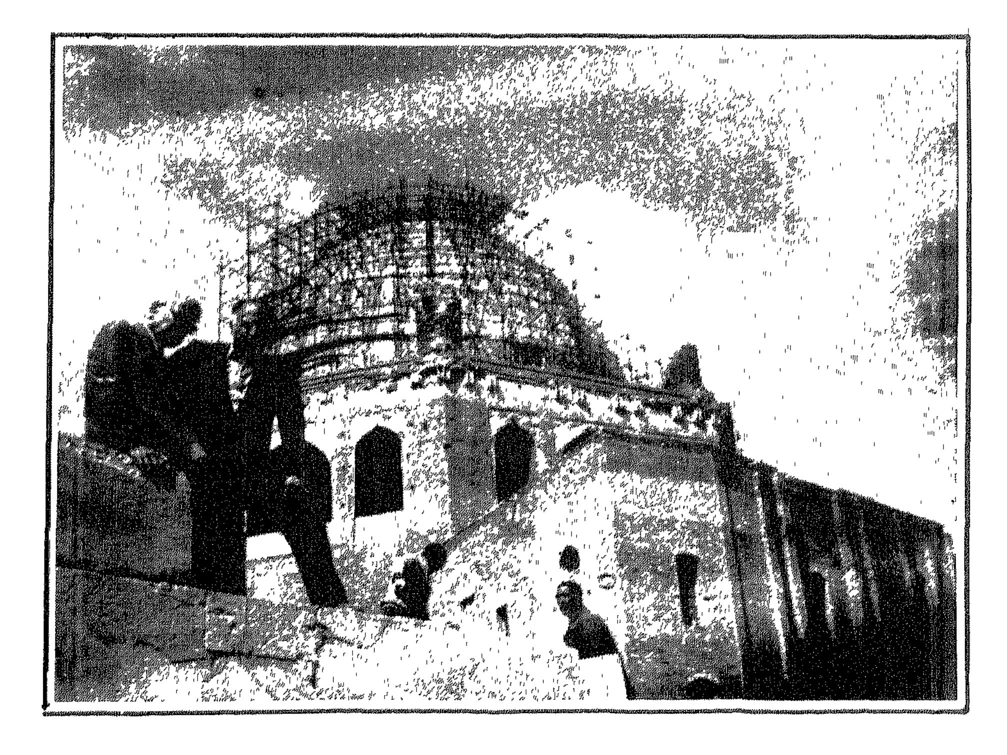
كأني لم اركب جوادا لغارة	ولم اترك القرن الكمي مقطرا
ولم اعترض بالسيف خيلا مغيرة	إذا النكس مشّى القهقرى ثم جرجرا
ولم استحث الركب في اثر عصبة	ميممة عُلْيا (سجاس) وابهرا

وسجاس بين أبهر وهمدان على قول ياقوت

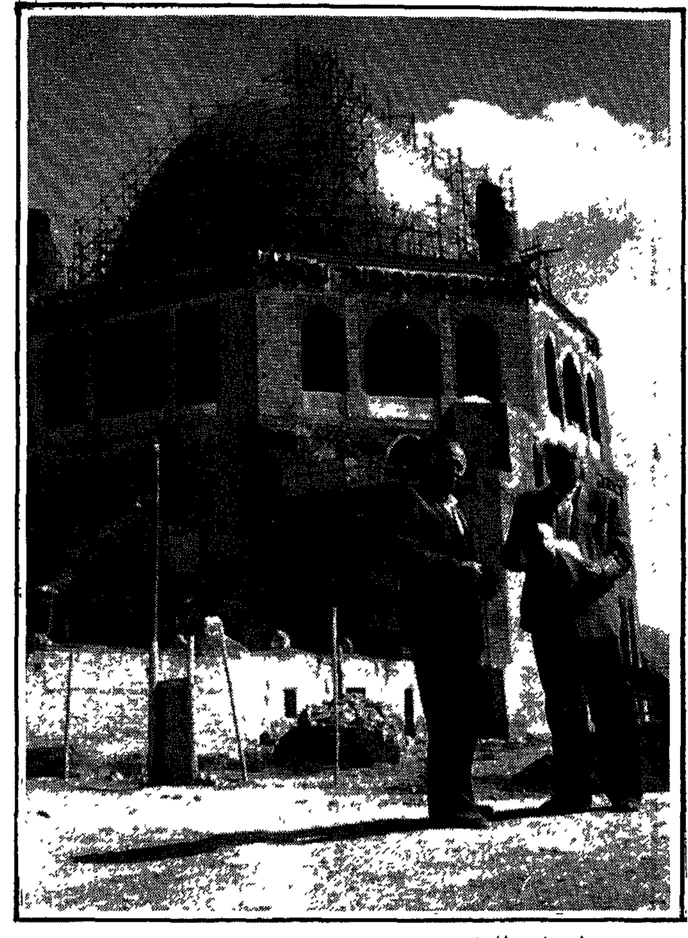
وقال بعض اهل قزوين بذكر أبهر.

ندامای من قزوين طوعا لأمركم	فاني فيكم قد عصيت نهاتي
فأحيوا اخاكم من تراثكم بشربة	تندي عظامي أو تبل لهاتي
اساقيني من صفو (ابهر) هاكه	وان يك رفي من هناك فهاتي

وممن عرفوا أبهر من الماضين ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق في رحلته الى خراسان عن طريق آدربيجان حيث اجتاز بحوي وتبريز ومرند وسمع من مشايخها، ثم بزنجان، ثم بأبهر، وفيها سمع من الشيخ أبي قاسم الحمامي، كما سمع من هذا الله بن أبي الهيجاء شيئاً من الشعر. ومن البديهي أن الشعر الذي سمعه هو شعر عربي مما يدلنا على مكانة اللغة



قبة خدابنده ،
ومدرسة العلامة
الحلي المتصلة بها ،
وجانب من السور



منظر جانبي للقبة

العربية وآدابها هناك في ذلك العصر أواسط القرن السادس الهجري، إذ كانت عودته إلى دمشق سنة ٥٣٣.

ويقول إبن عساكر عن أبهر: (هي مدينة عظيمة مشهورة تقع بين المدن الثلاث: قزوين وزنجان وهمذان.). ثم كنا نجتاز بساتين بلدة (خرم دره)، ثم البلدة نفسها بين منازل حديثة على جانبي الطريق.

وهذه المنطقة التي نجتازها الآن هي أكبر مصادر لحوم البقر والدجاج والحليب في إيران. وظللنا بعد (خرم دره) بين البساتين والزروع حتى بلغنا قرية(القلعة الحسينية)، وكانت على يسارنا من بعيد مدينة (هيدج) مغمورة بالبساتين، وظللنا بين الزروع والبساتين حتى قرية(نصير آباد) ثم قرية (صاين قلعة) ويقول المستوفي أن اسمها (فهود) وأن المغول سموها (صاين) ، وأنه يقال لها أيضاً (باتوخان).(١)

السهول الزراعية لا تنقضي ، وصرنا نرى فيها هنا أحياناً قطعان الماعز والغنم حتى قرية(سقا) المحاطة بالبساتين وصارت السهول بعد ذلك تتخللها الدساكر احياناً حتى قرية(عميد آباد). لقد أنستنا هذه السهول الخضراء وتلك البساتين الشجراء ما كنا نقصده وهو مدينة (السلطانية) عاصمة الامبراطورية الايلخانية، وشغلنا ما نبصره من نضارة الارض أمامنا وبناعة الدنيا حولنا عن التفكير فيما نحن سائرون اليه حتى لمحنا فجأة إلى يسارنا من بعيد القبة الشامخة ترتفع إلى أعلى ما يمكن أن ترتفع إليه القباب، فانتقلنا بالذهن حالا من الحاضر الداني إلى الماضي القاصي. انتقلنا إلى أولجايتو محمد خدابنده أحد أشهر أباطرة المغول الايلخانيين وصاحب مدينة(السلطانية) ومثبت بنيانها ورافع أركانها.

وكان قد صار بيننا وبين السلطانية مسافة ثمانية كيلومترات، ولكن هذه المسافة لا تمضي مستقيمة بل أنها بعد أن تستقيم تعود فتنحرف إلى اليسار لتصل إلى الغاية المقصودة، وهكذا بعد أن وازينا السلطانية ورأيناها، أو بالأحرى رأينا قبتها العالية من بعيد عدنا فخلفناها وراءنا حتى بلغنا مفترق الطريقين: طريقنا الدولي الذي نسير فيه، والطريق الفرعي الموصل الى السلطانية، فانحرفنا الى الثاني سائرين فيه إليها في سهل زراعي مديد ترعى فيه قطعان البقر، ثم كنا في السلطانية . . .

وإذا كانت السلطانية فيما تقدم من العصور العاصمة التي كان يحكم منها شطر كبير من العالم وكانت قاعدة الامبراطورية المغولية الايلخانية، فلا تحسب أنك ترى من هذا الوصف شيئاً فيها اليوم، لا بمعنى أنها ليست عاصمة، وأنها ليست مقراً للامبراطور. بل بمعنى آخر: هو أنها لم تعد ذات الدور القوراء ، والقصور المتعالية، ولا ذات الشوارع الرحبة والباحات الواسعة ، ولاذات مئات الالوف من السكان، وعشرات الالوف من العساكر. . .

إنها اليوم قرية بسيطة تتكون من بيوت طينية خابية واطئة لا يزيد عدد سكانها عن ٦٠٠٠ نفس.

وبعدما كان يحكمها (امبراطور)، عاد يحكمها اليوم من يعرف في العراق وسورية بلقب (مدير ناحية). والناحية هي اصغر وحدة إدارية تتبعها عدة قرى، وهي ما يعرف في إيران باسم (بخشداري).

وإذا كانت القرية قد لفتت نظرنا في شيء فهو: المقايسة بين الحاضر والماضي، وإلا فليس فيها ما يلفت النظر، اللهم إلا ما بقي من ذاك الماضي مما يدل على عظمته وروعته، وهو ما نفضل أن نطلق عليه إسم (قبة خدابنده) لا إسما آخر. . . . وتفضيلنا هذا الاسم كان لأن الناس اختلفوا في حقيقة ما تحت القبة: فبعضهم زعم بأن البناء أقيم في الاصل لينقل إليه (خدابنده) رفاة علي عليه السلام من النجف الأشرف، فيجعل قبره في عاصمته، ولكن العلامة الحلي الحسن بن المطهر منعه من ذلك وأصر على منعه فامتثل لهذا المنع.

وبعض قال: إن فيها قبر خدابنده نفسه.

ونحن هنا إذاكنا ننفي الافتراض الاول استنتاجا لا استناداً إلى نص، وإذا كنا لا نأخذ بالقول الثاني، بالاستنتاج أيضاً لأنه من غير المتصور أن يبني أحد لأحد بعد موته مثل هذا الضريح المتناهي في الفخامة، إذاكان القائلون بهذا الرأي يرون أن البناء اقيم على قبر خدابنده بعد موته.

كذلك من غير المتصور أن يبنى أحد لنفسه مثل هذا القبر في حياته انتظاراً للموت الذي لا بد منه. . . هذا فضلاً عن أنه لم يظهر أثر لأي قبر داخل البناء، كما أخبرنا بذلك مدير الناحية الذي صحبنا في جولتنا.

ويبقى الافتراض الثالث وحده هو القائم بالرغم مما يعترضه هو الآخر من فجوات. . .

ونحن هنا سنصف ما رأينا، ثم نترك للقارىء أن يستنتج ما يشاء:

هو بناء عال فوقه قبة يبلغ ارتفاعه في الداخل من الارض الى نهاية جوف القبة ٥٦ مترا، وهو مدور ذو ثمانية أضلاع يبلغ طول قطره ٢٦ متراً، وعرض كل جدار من جدرانه سبعة أمتار وأربعين سنتمتر، ويبلغ قطر القبة مترين وعشرة سنتيمترات.

وحول البناء بقايا متهدمة بينها بقايا سور محكم بقي قليل من قواعده، وتحوط البناء اليوم البيوت القروية، وتفصله في الجانب الغربي عن البيوت بقايا حديقة حديثة، أما في الجانب الشرقي فهو متصل بالبيوت، والجدران في الداخل متاكلة ذهبت نقوشها الا بقايا تدل عليها.

(١) باتوخان: هو حفيد جنكيز.



في الطابق الأرضي من البناء الذي تحت القبة

وفي الجنوب في الداخل باب مرتفع يفضي إلى قاعة مستطيلة يؤكد أحد مرافقينا أنها المكان لذي أعده خدابنده للعلامة الحلي ليلقي فيه دروسه بعد أن كان يلقي هذه الدروس في مدرسة سيارة من الخيام كان يرافق بها خدابنده في ترحاله. ومما يؤكد هذا الرأي أن هذه القاعة تبدو لمن يراها من الخارج أنها ملحقة بالبناء ولم تكن من أصله، لأنها وإن اتصلت به فهي خارجة عنه، محدثة بعده، وهي وإن كانت تحتوي على محراب عريض عال يبدأ طولاً من أرضها الى سقفها مما يمكن أن يشير إلى أنها مسجد الحق بالبناء، لا يمكن أن تكون مسجداً لأن في الجانب الآخر من البناء مسجداً غير كبير ملحقاً به مبنياً بعده فلا يمكن أن يكون هناك مسجدان. وهذا المسجد يطلقون عليه إسم مسجد العلامة الحلي.

إذن فنحن أمام أثر بارز من آثار الحسن بن المطهر، العالم العظيم الخالد. وإذا كنا قد دخلنا قاعة تدريس العلامة الحلي وبتركنا بالمكان الذي كان يجلس فيه ملقيا دروسه، وأصغينا في الخيال إلى صوته يتدفق بالعلم والأدب والحكمة والفقه والتاريخ، فإننا لم نستطع الوصول إلى داخل مسجده فنتشرف بالسجود في محرابه حيث كان يسجد، لأن المسجد كان مقفلا في تلك الساعة فاكتفينا بالوصول الى صحنه والتطلع إلى داخله.

ويبدو أن القاعة التي قلنا أنها كانت مكان تدريس العلامة الحلي، كانت مخصصة لطبقة المتقدمين من الطلبة، فإن إلى الشرق صفاً من الغرف وإلى الغرب صفا آخر وبين الصفين ساحة مملوء ببقايا الأحجار، وإلى الجنوب حجرة كبيرة متهدم سقفها وأرضها مملؤة بالركام، ، وملتصق بها بقايا مسجد صغير مهدم السقف، وإلى الغرب حجرة اخرى كبيرة تشبهها.

قيل لنا ان الغرف التي يبلغ عددها ١٢ غرفة كانت غرفاً للطلبة، وهي صغيرة مربعة وان الحجرتين الكبيرتين كانتا مكاناً للتدريس. فنحن هنا في مدرسة العلامة الحلي التي أصبحت كما قلنا ثابتة بعد ان كانت سيارة.

تحت القبة ساحة (مبلطة)، ومنها تمشي في سرداب تنزل اليه في اربع عشرة دركة فتصل الى مستطيل صغير بجانبه درج آخر ذي ثلاث دركات، وهناك تتشعب سراديب متداخل بعضها في بعض، يفضي الواحد منها الى الآخر.

ليس البناء طابقاً واحد، فعدا الطابق الأرضي فان فيه ثلاثة طوابق. صعدنا الدرج الى الطابق الأول، فإذا هو مجموعة اروقة وشرفات تدور مع البناء وبعضها في صفين.

وصعدنا الطابق الثاني، وهو كالأول ولكن اروقته وأوانيه وشرفاته اكثر اتساعاً وفخامة. وكنا قد عيينا من الصعود، فلم نصعد الى الطابق الثالث.

وكان قد بقي من آثار السلطانية عدا قبة خدابنده قبتان أخريان، تراءتا لنا في السهول من بعيد في طرفين مختلفين، هما قبة الصوفي سلطان شلبي، وقبة العالم حسن الكاشي، فكان لا بد من السير اليهما.

أما الأولى فتبعد عن قبة خدابنده نحو مئة متر الى الجنوب الغربي، وتاريخها سنة ٧٢٨ هـ كانت أولاً خانقاه للصوفية، ثم أقيم فيها قبر الشلبي وعندما تصلها تمشي في حجر الى باحة (مبلطة) في وسطها القبر بقبته الآجرية. وتبدو بقايا الخانقاه بجدرانها الحجرية الصلدة.

وأما الثانية فتقع في الغرب وفيها القبر بقبته المميزة عن قبة الشلبي بانها لا من الآجر، بل من الكاشي الأخضر وتحتها غرفة مهملة وتدور حولها أواوين، ويقابلها في الجانب الآخر بناء ربما كان مدرسة.

هذا كل ما بقي من السلطانية القديمة، فسبحان من لا يدوم إلّا هو.

****

مستدرك على المستدركات

أحمد أبو العلاء المعري :

مر في هذا المجلد كلام عن علاقة الكوميديا الإلهية لدانتي برسالة الغفران لأبي العلاء المعري .

وقد ألف الدكتور صلاح فضل كتاباً بعنوان (تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي) علق عليه عبد السميع المصري بعرض هو في صميم ما ذكرناه فيما تقدم من هذا المجلد في موضوع رسالة الغفران والكوميديا الإلهية ، ونحن نأخذ هنا هذا العرض لنرى الآراء المتباينة في هذا الموضوع :

« تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي » . دراسة جادة في الأدب المقارن « تعطي لنا دفعة قوية من الثقة المدعمة بالبراهين العلمية في ثقافتنا القومية وتحفزنا إلى الإعتزاز الواعي بتراثنا وتساعدنا على التخلص من حساسية المتخلف الذي يخشى عواقب الإتصال الفكري على أصالته مع أنه شرط جوهري لتغذيتها وإنمائها .

وليس أدل على ضخامة الجهد الذي بذل في هذا الكتاب من قول مؤلفه الدكتور صلاح فضل في مقدمته « من هنا نشبت ضرورة هذا البحث الذي حاول أن يستوعب بشكل مباشر المادة العلمية المقارنة التي استخدمت في الدراسات الأوروبية - على سعتها - ويطلع على نصوصها العربية الأصيلة - على كثرتها - ثم يقدم إعادة ترجمة وعرض لوثيقة المعراج التي أصبحت البرهان الأخير في القضية . ويبحث عن نماذج لنظائرها في التراث متفرقة حتى يعثر عليها مجتمعة » .

وقد مهد المؤلف لبحثه بفصل عن الأدب المقارن عرف فيه هذا الأدب بقوله أنه « العلم المنهجي الذي ينشد دراسة روابط التشابه والقرابة والتأثير بين الأدب ومظاهر المعرفة الإنسانية الأخرى أو بين النصوص الأدبية نفسها ، مما قد يبدو للوهلة الأولى متباعداً في الزمان أو المكان ، يشرط أن ينتمي إلى لغات أو ثقافات عديدة ، حتى ولو كانت تدين لتراث مشترك واحد ، وتنحو هذه الدراسة إلى وصف ظواهر الإلتقاء الأدبي وفهمها وتذوقها بأكبر قدر من التعمق والإستبصار ، مما يجعلها تتخذ منهج الوصف التحليلي والمقارنة المنظمة التي لا تلغي الفروق بين الأشياء ، بل تبرزها وتؤولها كظواهر أدبية تقوم بين اللغات والثقافات المختلفة استجابة لعوامل تاريخية ونقدية وفلسفية . كل هذا بهدف النفاذ إلى فهم الأدب ووظائفه الحيوية في خدمة الروح الإنساني العام » .

لكنه يسارع إلى التحذير من البحث عن المكاسب والإنتصارات الفنية للعمل المؤثر نتيجة لسبقه الزمني فحسب ويطالبنا بافتراض مجرد التوافق العفوي لا سيما ونحن نعالج أثر الثقافة الإسلامية في واحدة من قمم الإبداع الأوروبي في العصور الوسطى . . فلا نغرق في البحث عن عوامل الفخر القومي أو الحماس لمؤثراتنا فيه .

ثم يدعونا في هذا الفصل إلى عدم التخوف أو الاعراض عن التراث الإنساني والتأثر به الذي يختلف عن التقليد « لأن الشعوب لا تثري على أساس الفروض الشكلية وإنما اعتماداً على استصفاء المبادىء التي تجدد حياتها الفكرية وامتصاصها بروية وتمهل وعندما يحدث تماس بين حضارتين مختلفتين ويبتل ريق شعب بحلاوة الآخر فإن المزيج الذي يتكون منهما لا يدانيه شيء في قوته المخصبة الخلاقة لكن عندما يقتصر الأمر على مجرد التقليد فإنه لا ينبت من ذلك سوى الأزهار الصناعية المفتعلة » .

وإذا أثبتت الدراسة التي بين أيدينا مدى تأثر دانتي بالثقافة العربية والإسلامية . . ودانتي هذا هو الذي تدين له الآداب الأوروبية في العصر الوسيط بالشيء الكثير . . لاتضح لنا مدى اتصال التراث الإنساني وتشابك علاقاته مما يدعونا لأن نكون أكثر حرية في الأخذ من هذا التراث اليوم دون أدنى حساسية .

ثم يفرد الدكتور صلاح بعد ذلك فصلاً لتاريخ اتصال دانتي بالثقافة الإسلامية وتأثره بها فيروي كيف أن المستشرق الأسباني أسين بالاثيوس (١٨٧١ - ١٩٤٤) هو أول من تعرض لهذا الموضوع منذ ستين عاماً باعتباره فرضاً علمياً قضى سنوات عديدة يجمع الأدلة والبراهين لاثباته ، لكنه لا يستطع أن يحسم الأمر لافتقاده الدليل المادي الذي يثبت اطلاع دانتي على التراث العربي لكن بعد وفاته بخمس سنوات ظهرت ترجمة قديمة لرواية مطولة عن معراج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسرى به من مكة إلى بيت المقدس كتبت باللاتينية والفرنسية القديمة مما رجح اطلاع دانتي عليها . ومنذ ذلك التاريخ أصبح الموضوع مسلماً به في الأدب المقارن كنموذج واضح للتأثير الإسلامي في الأدب الأوروبي وأصبحت القضية كلها مسلماً بها ومفروغاً منها في الأوساط العلمية والأدبية في العالم كله .

وفي عام ١٩٤٩ قام كل من الباحث الأسباني مونيوث سندينو والباحث الإيطالي انريكو تشيرولي بنشر الترجمات اللاتينية والفرنسية لوثيقة « معراج محمد » دون اتفاق مسبق بينهما من مخطوطات مكتبات أكسفورد بانجلترا والمكتبة الوطنية بباريس ومكتبة الفاتيكان وغيرها من دور الكتب .

كما عرف العالم من هذه الوثيقة أن ملك أسبانيا ألفونسو العاشر كان قد أمر إبراهام الحكيم الطبيب اليهودي الذي كان يعمل في بلاطه بترجمة قصة المعراج الإسلامية من العربية إلى القشتالية عام ١٢٦٣ وكانت هذه الترجمة أصلاً لترجمة أخرى إلى اللاتينية والفرنسية قام بها بونا فينتورادي سينا الموثق الإيطالي الذي كان يعمل أيضاً في بلاط الفونسو سنة ١٣٦٤ أي قبل ميلاد دانتي بسنة واحدة .

وفي الفصل التالي من الكتاب المعنون « عوامل التأثير ومستوياته » يحاول الدكتور صلاح تقديم المزيد من الأدلة ليؤيد قضيته الثقافية فيمهد لذلك بقوله « إن الثقافة إنما هي كل معقد متشابك يشمل المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين والعادات وجميع مظاهر الخلق التي يبدعها الإنسان ويكتسبها في مجتمع من المجتمعات ومن هنا فإن الآداب سواء كانت رسمية أو شعبية والمعتقدات سواء كانت دينية أو اسطورية . . مسجلة كتابة أو متداولة شفاها . . كل ذلك يدخل من باب الثقافة العريض . . وفي ضوء هذا المفهوم نرى بوضوح أن المؤثرات الإسلامية في الكوميديا الإلهية ذات طابع ثقافي شامل ، فهي لا تقتصر على نصوص أدبية بذاتها ولا على الأفكار الدينية المعتد بها ، بل تخللتها عناصر فولكلورية شعبية ، لعب خيال الناس فيها دوراً هاماً وأشبعها بقدر كبير من المبالغة والتحرر » .

ويضيف أن معرفة دانتي للتراث الإسلامي وتصور المسلمين لمجالي العالم الآخر حفزته إلى اتخاذ نموذج الرحلة إلى عالم الغيب قالباً فنياً لعمله ، خاصة عندما بهرته المشاهد الإسلامية بما تحفل به من تنظيم دقيق وصور فنية ولم تكن محاكاة النماذج القديمة شيئاً معيباً في عصر دانتي بل كانت قانون الكلاسيكية العام وروحها الغالب . . تكتسب بها الأعمال الفذة لوناً من مشروعية الوجود وتبرير النهج » .

ومن المسلم به أن قنوات الإتصال بين أوروبة والعالم الإسلامي التي سهلت التبادل الثقافي بينهما وساعدت على تأثر الأدب الأوروبي بصفة خاصة بالثقافة الإسلامية . . هذه القنوات بدأت تتفتح منذ القرن الثامن الميلادي متمثلة في الحركة التجارية المتنامية ثم حركة الحجيج من أوروبة إلى بيت المقدس ثم الحروب الصليبية وما أدت إليه من إنشاء إمارات مسيحية يحكمها أوروبيون في قلب الشرق الأدنى . . ثم منارات العلم الإسلامي في صقلية

والأندلس على سبيل المثال والتي كانت قبلة لكل راغب في العلم من أهل أوروبة . . ثم ذلك الدور المنقطع النظير الذي قامت به الأندلس الإسلامية سواء في الترجمة أو احتضان وفود الدارسين من أنحاء أوروبة ونقل التراث الإسلامي إليها مترجماً . . .

ولقد حفظ التاريخ كثيراً من الترجمات التي تمت في تلك الفترة الثرية لا سيما ما بين القرن الحادي عشر الميلادي والقرن الثالث عشر عندما بلغت حركة الترجمة قمة ازدهارها في عهد الفونسو العاشر ملك قشتالة . الذي كان يسمى بالعالم لاهتمامه الشخصي الكبير بترجمة العلوم الإسلامية والتي كان من بينها مؤلفات الخوارزمي والفرغاني وابن سينا والزرقالي وغيرهم ، حتى فاض العلم الإسلامي على أوروبة وملأها خصباً .

وإذا كان دانتي منذ ولد عام ١٢٦٥ وكتب الجزء الأول من الكوميديا الإلهية عام ١٣٠٧ في وقت كانت الترجمات اللاتينية والفرنسية لقصة المعراج لها شهرتها في الأوساط الأدبية ، فلا شك أنه قد وجد الفرصة للإطلاع عليها ودراستها الدراسة التي تركت بصماتها على عمله العظيم ولا سيما إذا علمنا أن كثيراً من رواد الترجمة كانوا يكثرون من التردد على إيطاليا وخاصة فلورنسا موطن دانتي والحوار والمشافهة كانت وما زالت من عوامل انتشار الثقافة .

كما أن هناك قسيساً يدعى سان بدرو باسكوال معاصراً لدانتي وعاش في فلورنسا له مؤلف بعنوان « تفنيد مزاعم الطائفة المحمدية » أورد فيه قصة المعراج بالتفصيل ، وقد اشتهر كتابه هذا في جميع الأوساط المسيحية الأوروبية وكان في متناول دانتي مما يرجح لدى بعض الباحثين أن هذا الكتاب كان الوسيلة التي تعرف دانتي من خلالها على القصة الإسلامية .

كل هذه المراجع والإتصالات الشخصية بين دانتي ومعاصريه من المهتمين بالعلوم الإسلامية والتوافق التام بين كثير من عناصر الكوميديا وقصة المعراج ، جعل المفكرين الإيطاليين أنفسهم يؤكدون أنه لم يعد هناك مجال لأي شك في إطلاع دانتي على قصة المعراج التي كانت مترجمة بثلاث لغات أوروبية هي لغات العلم في عصره . . وتأثره بها . .

« الكوميديا » ورسالة الغفران

ولا يكتفي الدكتور صلاح فضل بهذه الأدلة فيقدم لنا مقارنات طريفة ممتعة بين الكوميديا « ورسالة الغفران » التي كتبها أبو العلاء المعري في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، والتي تعتبر من أنضج نماذج الثقافة الإسلامية والعالمية .

ورسالة الغفران ـ وكذلك الكوميديا الإلهية ـ رحلة للعالم الآخر تتميز بخلوها من عناصر الخوارق والمعجزات التي تحفل بها روايات الإسراء والمعراج الأخرى .

« فباستثناء الفكرة الأساسية للرحلة ـ التي تقع في نطاق المعجزات ـ تمضي الحوادث بعد ذلك على نسق أقرب ما يكون إلى منطق الحياة المألوفة . . فالمسافر عند أبي العلاء ليس نبياً ولا ولياً ولا من كبار الأبطال ، ولكنه مجرد إنسان عادي يقترف الذنوب ويسعى في الأرض مثله في ذلك مثل دانتي بطل الكوميديا . كما أن الشخصيات التي تقوم بالأدوار الثانوية ليست في معظمها من الأنبياء أو القديسين وإنما هم أناس عاديون منهم المؤمن والكافر مثل الذين نجدهم أيضاً عند الشاعر الإيطالي . وعلى هذا فإن الخاصية الإنسانية الواقعية الأرضية في الكوميديا تجد سابقتها الأدبية الكبرى عند شاعر المعرة العربي » .

ويتفق دانتي مع أبي العلاء في معاني التسامح وسعة الأفق في معاملة الأرواح وفي خروج بعضها إلى الجنة بعد رحلة التطهر .

بل إن التشابه في بعض أجزاء العملين يصل إلى درجة التطابق فنجد في رسالة الغفران قصة لقاء ابن القارح بحوريتين من الحور العين يبهره جمالها ، فيقبل كل واحدة منها ويرتشف رضابها ويتمثل في حسنها بأبيات لامرىء القيس فتستغرقان في الضحك وتقول إحداهما « أتدري من أنا يا علي بن منصور ؟ فيقول أنت من حور الجنان اللاتي خلقهن الله جزاء للمتقين . . فتقول ، أنا كذلك بأنعام الله العظيم ، غير أني كنت في الدار العاجلة أعرف بحمدونة وأسكن في باب العراق بحلب وأبي صاحب رحى وتزوجني رجل يبيع السقط فطلقني لرائحة كرهها من فيّ ، وكنت من أقبح نساء حلب فلما عرفت ذلك زهدت في الدنيا الغرارة وتوفرت على العبادة فصيرني ذلك إلى ما ترى » .

وبعيداً عن أسلوب المعري الساخر في هذه القصة نرى الشبه الكبير بينها وبين بعض الوقائع عند دانتي كلقائه مع بياسينا في المطهر ومع بيكاردا الفلورنسية في سماء القمر . والأولى تنعي حظها التعس وشقاءها مع زوجها مثل حمدونة أما بيكاردا فتبدو رائعة الحسن رغم دمامتها في الدنيا وكلاهما تذكر لدانتي قصتها في الدنيا وموطنها واسمها الدنيوي .

وغير ذلك من التشابه الذي يبلغ درجة التطابق بين الكوميديا ورسالة الغفران كثير مما ذكره الدكتور صلاح ولا سيما صور العبور على الصراط يوم القيامة .

وبعد ذلك ينتقل الدكتور صلاح في رياض كتابه ليحدثنا عن العناصر الصوفية في الكوميديا الإلهية فيقول « ان الكوميديا الإلهية ـ طبقاً لهذا الفهم ـ تعبير مجازي عن حياة دانتي الشخصية وعن خلاص البشرية . فدانتي نموذج للإنسان الذي أضله الجهل وأعمته الشهوات لكنه يستطيع أن يتحرر من عبودية الشر بهداية من عقله وفضل من الله تعالى ، وذلك عن طريق التطهر والتوبة من الذنوب ، هذا التطهر الذي يرمز إليه بالرحلة إلى الجحيم والمطهر . وعندما يظفر بهذا الكمال الخلقي يصعد ـ عن طريق التأمل وبنعمة من الله ـ إلى السعادة الخالدة التي تتمثل في لذة الإستمتاع برؤية الذات العلية . . . فدانتي إذن مثل المتصوفة المسلمين عامة وابن عربي بصفة خاصة يستخدم معراج الإنسان إلى السماوات ، ليرمز به إلى الدراما الصوفية للتجدد الأخلاقي للأرواح بالإيمان والكمال والصلاح » .

ثم يفرد الدكتور صلاح بعد ذلك أطول فصول الكتاب « للتحليل المقارن لأجزاء الكوميديا الإلهية » ولما كان الكتاب رحلة في العالم الآخر فإن دانتي يبدأ رحلته من « الليمبو » أي الأعراف التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ويحددها دانتي بأنها منطقة تقع فوق الجحيم مباشرة أي أنها البهو المفضي إليه وتنقسم إلى شطرين أولها ما يلي الجحيم وتسكنه أرواح الأطفال ومن ماتوا دون أن يعملوا خيراً أو شراً .

أما الشطر الثاني فهو سهل عميق تحف به الأشجار ويحميه من حوله جدول جميل وفيه تسكن أرواح من ماتوا على الفطرة قبل الأديان وأرواح الحكماء والفلاسفة والأبطال ممن لم يعتنقوا المسيحية عند دانتي بالرغم من نبلهم وحكمتهم . ولا يعاني هؤلاء من العذاب سوى الحرمان من الجنة والشوق الذي لا يحدوه أمل .

وظهور الأعراف في الفكر المسيحي بدأ بدانتي . ومعنى ذلك أن المصدر الوحيد له في تصورها هو الثقافة الإسلامية ، التي تفننت كتبها في رسم صور شائقة للأعراف ومكانها ونوع العذاب الوحيد الذي يعانيه سكانها وهو شوقهم إلى الجنة وحرمانهم منها إذ لم يدخلوها وهم يطمعون .

كما يجمع الباحثون على أن « كل أوصاف الجحيم الواردة في العهد القديم ـ التوراة ـ والأدب الكلاسيكي وفي العصور الوسطى الأولى السابقة لدانتي كانت أوصافاً بسيطة مبهمة لا لون لها . ولا تشبه بحال تلك الصورة

الغنية المجسمة التشكيلية الواضحة التي رسمها دانتي للجحيم . . . لذلك أدركوا عند اكتشاف تأثير الثقافة الإسلامية عند دانتي أنها هي المصدر الحقيقي الذي نهل منه دانتي كثيراً من أوصافه دون أن يطعن ذلك في مدى أصالته أو يقلل من قيمته . . » .

ولقد اتبع دانتي أيضاً النموذج الإسلامي الذي يقسم الجحيم إلى طبقات عامة تحتوي على تقسيمات فرعية تخدم الهدف الأخلاقي للقصة . . وقد سمّى شراح دانتي هذا التقسيم بالبناء الأخلاقي للجحيم .

كما تتطابق أوصاف « مينوس » خازن النار عند دانتي وحواره معه مع ما جاء في قصة المعراج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن لقائه مع مالك خازن النار وحديثه معه .

عن رحلة المطهر

ثم يمضي الدكتور صلاح متتبعاً فصول الرحلة فصلاً فصلاً وما فيها من وصف لأنواع العذاب التي يسامها المذنبون والعصاة مظهراً ما فيها من تطابق أو تقارب شديد مع القصة الإسلامية . . حتى عذاب رجال الدين والعلماء يكاد يتطابق مع ما جاء في صحيح البخاري من حديث « يجاء بالرجل يوم القيامة فيطرح في النار فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى فيطوف به أهل النار فيقولون : أي فلان . . ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه » .

ويختتم الدكتور صلاح هذا الفصل بقوله « بهذا يتضح لنا أن كثيراً من المواد الأولية التي صاغ منها دانتي صورة وتصوراته عن الجحيم مستقاة من التراث الإسلامي وإذا كانت القدرة الشعرية تعتمد أولاً على عبقرية الصياغة والسياق الفلسفي والفكري الجديد ، فأن هذا التأثير لا يقلل بحال من قيمة الشاعر الإيطالي بل يوضح طبيعة إبداعه ومدى أصالته » .

لكن الدكتور صلاح يعود بعد ذلك ليفرد فصلاً شائقاً عن رحلة المطهر في الكوميديا وهي الرحلة التي يقطعها دانتي بعد خروجه من الجحيم عبر جبل المطهر الذي ينقسم إلى سبع درجات متصلة فيما بينها تسكنها أرواح بريئة من الكبائر وذنوبها مما تسعه رحمة الله تعالى . . وفي هذا الجبل ترعاها الملائكة وتقودها في دروبه إلى الصعود التدريجي حتى تصل إلى السماء بعد أن تكون قد تطهرت بالصلاة والابتهال والدعاء وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » ويمضي الدكتور صلاح في دراسته المقارنة لرحلة المطهر حتى يصل إلى لقاء دانتي مع بياتريس حبيبته السابقة في الدنيا التي تأخذ بيده وترافقه باقي رحلته . . وهو أمر ترفضه الكنيسة لمجافاته لروحها في التهوين من شأن العلاقات العاطفية واتهامها بالمادية .

لذا فالدكتور صلاح يرى « إن هذا الحب الفردوسي المثالي الذي غذي خيال دانتي مدين بدوره للتصور العربي الإسلامي للحب العذري كما تبلور لدى الشعراء والمفكرين العرب في المشرق والمغرب وانتقل عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية إلى أوروبة » .

ثم يسهب الدكتور صلاح في وصف هذا اللقاء ، وما جاء من أوصاف الحور العين في الروايات الإسلامية وما يقابلها أو يشبهها في كوميدية دانتي ليؤكد الحضور القوي لهذا العالم الذي صورته المأثورات الإسلامية في خيال دانتي عندما كتب رائعته .

وأخيراً فإني أتساءل مع الدكتور صلاح فضل :

لماذا أثمر هذا التراث الخصب من المأثورات الدينية والأدبية والشعبية واحدة من أهم الملاحم الدينية في الآداب الأوروبية وأثمر شيئاً قريباً من ذلك في الملاحم الفارسية من سنائي إلى إقبال ثم عقم الأدب العربي عن احتضان هذه الخمائر والإفادة منها ؟ ثم ألا سبيل أمامنا للإفادة الرشيدة من هذا التراث العظيم بكل طاقاته الروحية وإمكاناته الشعرية وقدرته الهائلة على تجسيد الوجدان الشعبي في أعمال فنية فذة ؟

عبد الرحمن الكواكبي

مرت ترجمته في هذا المجلد ، ونضيف إلى ما تقدم الدراسة الآتية ، مكتوبة بقلم سامي الكيالي :

نشأ الكواكبي في بيئة ضيقة لا يتسع نطاقها للعمل الحر . وكان منذ نشأته الأولى ثورة مشتعلة . فحاول الإصلاح في موطنه من طريق الكتابة في الصحافة . . . ولكن قيود العهد الحميدي كانت ثقيلة . وكان أعوان عبد الحميد ورجاله يحاسبون المرء على الهمس ؛ فما كان منه ، بعد أن استنفد كل ما يملك لمقاومتهم ، إلا أن هجر وطنه إلى مصر وفي نفسه جيش من الآمال الكبيرة ، وفي فؤاده نزوات ممضة من صلف الحكام ، وجراحات دامية من عنت المستبدين . فأطلق في مصر لأفكاره العنان يكتب في دك عروش الإستبداد وتقويض سلطة المستبدين ، وما زال إلى أن قضى ، بعد أن ترك ذلك الأثر النفيس الذي يقرؤه القارىء اليوم فيجد فيه هذه الصيحات العالية المنبعثة من قلب مليء بالإيمان ، ونفس حرة تكره العبودية ، وتريد الحرية المطلقة لجميع الأوطان ، وللشرق ، وطنه الغالي ، بصورة خاصة .

ولد السيد عبد الرحمن الكواكبي من أبوين كريمين في الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ١٢٦٥ هـ - ١٨٤٩ م - وقد تعلم القراءة والكتابة في المدارس الإبتدائية - وهي المعروفة بالكتاتيب لذلك العهد ، وبعد أن استوفى حظه منها استحضر له والده أستاذاً خاصاً لتعليمه التركية والفارسية ، وكانت التركية اللغة الرسمية للدولة ، فبرع فيها ؛ ثم انتسب إلى المدرسة الكواكبية - المنسوبة إلى أسرته - حيث درس العلوم العربية والفقه والمنطق ؛ وكانت في نفسه هذه النزعة للإحاطة بشتى العلوم ، فعكف على دراسة الرياضة والطبيعة بالمراجعة والدرس على بعض الأساتذة ؛ وكان ذكاؤه الحاد من العوامل التي جعلته يحيط إحاطة شاملة بالكثير من فروع العلوم وشتى أنماط الثقافة ، وعرف منذ صغره بالتفوق ، وبالكثير من السجايا الكريمة . ويصفه الشيخ كامل الغزي ، مؤرخ حلب وصديق الفقيد ، بأنه كان منذ حداثة سنه تلمع في محياه مخائل النجابة والشهامة وعلو الجنان ، ويزيد على ذلك بقوله : « كان سخي الطبع ، لا قيمة عنده للمال ، ولوعاً بالتفضل على أقرانه وخلانه ، لا يرضى أن يسبقه بالبذل عليهم غيره ، يأنف من الكذب والتدليس والغيبة والنميمة ، ويرى التلبس بهذه الخلال الذميمة دناءة وغدراً وخوراً في الطبع ؛ وكانت نفسه العزيزة تأبى عليه الخضوع لأهل المجد الباطل ، ولا يرى شيئاً يطفىء نار غضبه منهم أفضل من قهرهم وإذلالهم » . بهذه الكلمات الموجزة ، ذات المعاني الكبيرة ، وصف لنا الأستاذ الغزي - وهو رفيقه في الدراسة وخدينه في الحياة - نشأة السيد الكواكبي وطرفاً من خلقه وسجاياه . ونلمس من هذه الكلمات أن الكواكبي كان منذ حداثة سنه ، ذا صفات مرموقة . أخصها أنفته وكرامته وكرمه وحدة طبعه ، مع نزوع إلى الحرية ، وإيمان بالمثل العليا ، فما كان يتجاوز دور الطفولة إلى عهد الشباب حتى لفتت هذه المواهب أنظار كبار رجال الدولة في حلب ، فعين وهو في الثامنة والعشرين من عمره محرراً في الجريدة الرسمية -

جريدة « الفرات » ـ وكانت تصدر بالعربية والتركية ؛ وإذ كان الكواكبي يجيد اللغتين فقد وقع الإختيار عليه للقيام بهذه المهمة ، رحدد راتبه الشهري بثماني ليرات عثمانية ذهباً . وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمعدل الرواتب في ذلك العصر ، وكأن الدولة أرادت بإسناد هذا العمل الرسمي إلى السيد الكواكبي ، أن تشتري قلمه ، وأن تكم فمه ، ولكن ظنونها ذهبت بدداً . ولم يطق العمل في الجريدة الرسمية التي تلزمه أشياء تتنافى وطبعه ومنازعه ؛ وسرعان ما ترك العمل في الجريدة الرسمية وانصرف للأعمال الحرة .

وقد كان لاعتزاله العمل الحكومي أثره في نفوس رجال الحكم ، وخشوا أن يفلت من أيديهم ، وقدروا ما سيكون لنشاطه ، وهو غير مقيد ، من أثر في إلهاب النفوس ، فاحتالوا عليه وأعادوه إلى البيئة الرسمية . فعينوه في ديوان المعارف ، ثم نقلوه إلى كتابة العدل ، ثم إلى مديرية التنفيذ ، ثم إلى مديرية مطبعة الولاية ، ثم رفعوه إلى رئاسة بلدية حلب ، فرئاسة كتاب المحكمة الشرعية ، فمفتشية انحصار الدخان ، فرئاسة غرفة التجارة ، فرئاسة المصرف الزراعي . وقد يعجب القارىء من هذا التنقل من فرع إلى فرع ، ومن دائرة إلى أخرى . ولكن عجبه سيبطل إذا عرف أنه ما يكاد يتسلم دائرة من الدوائر حتى يباشر الإصلاح فيقلب عاليها سافلها ، ويعمل على تعديل أوضاعها . أي أنه كان في جميع الرئاسات التي تقلدها ذلك المصلح الثائر على الكثير من القيود والطرق المعوجة . فكان يصطدم مع أولي الأمر ، وكان خلافه معهم على سنن الإصلاح هو الذي يحدوهم إلى نقله من دائرة إلى أخرى . وما زالوا إلى أن قرروا نقله من حلب إلى راشيًا ، فعينوه قاضياً شرعياً فيها ، أي أرادوا نفيه بصورة غير مباشرة للتخلص من نزعاته الإصلاحية وميوله الحرة .

ومن يمعن النظر في الوظائف التي شغلها ، وهي ذات اتجاهات مختلفة ، من التجارة إلى الشريعة ، ومن الكتابة والتحرير إلى أمور التبغ والدخان مثلاً ، لا يجد تعليل ذلك إلا أن كفايته الذهنية كانت قابلة لاستيعاب كل عمل . وهذا شأن الأذكياء الذين لا يهابون المسؤوليات ، بل يقدمون على العمل بجنان قوي للوصول به إلى أسمى غاياته ، وكان الكواكبي من هذا النفر .

وقد كان تمسكه بوجهات نظره ، ومحاولته التجديد والإصلاح ، من الأمور التي أثارت عليه حفيظة الولاة ورجال الدولة ، فناصبوه العداء واتهموه بتهم كثيرة كادت تودي بحياته .

ومن أبرز أعماله في حلب اشتغاله بالصحافة ، وهو أول صحفي مارس هذه المهنة في حلب : فقد أصدر جريدة « الشهباء » سنة ١٢٩٣ هـ ، وجعلها منبراً عالياً للصيحات الحرة . . . ولكن أنى لهذه الصيحات أن تأخذ طريقها إلى قلوب الجماهير ، والحرية مكبلة بالسلاسل ، والكابوس الحميدي يحاسب المرء على الكلمة والهمسة ، لذلك لم تعش الجريدة طويلاً ، فقد عطلتها الحكومة ؛ واستطاع بعد سنوات أن يصدر جريدة ثانية أسماها « الاعتدال » ، ولم يكد يصدر منها عدة أعداد حتى أقفلتها الحكومة ، وقد جعل منهاجها كزميلتها ، وهو التنديد بسياسة الدولة العثمانية ، وظلت الميول الإصلاحية حبيسة في نفسه بعد تعطيل الجريدتين ، إلى أن أتيح لها أن تنطلق تحت سماء مصر ، والتي احتواها كتابه « طبائع الاستبداد » وهو فصول ومقالات نشرت متتابعة على صفحات « المؤيد » كبرى جرائد مصر والشرق آنذاك .

لقد كان الكواكبي من الأذكياء الذين سبقوا زمنهم ، فحاول إصلاح الدولة في بيئة لم تكن لتسمح له أن يبوح بآرائه حرة طليقة فوقف الحكام له بالمرصاد ، وكانت بينه وبينهم منازعات وخصومات . ولا يتسع المجال لإيراد الكثير من هذه الحوادث التي كانت من أسباب هجرته ، وكلها تنتهي عند هذه الغاية التي استهدفها ، وهي مناصبته طغاة الولاة الذين كانوا يحافظون على العهد الحميدي بأبشع صوره ، وقد اتهم اتهامات باطلة وزج في السجن وحوكم وحكم عليه ، واتهم بالعمل مع الأجنبي ضد الدولة العثمانية ؛ وكانت جميع هذه التهم باطلة ، وهي من عمل الوشاة والجواسيس . ولما ضاق ذرعاً بهذا الجو الموبوء بالوشايات قرر النزوح عن حلب . وقبل أن نشير إلى قصة فراره نلخص الحادثة التي اتهم بها ، ودخل من أجلها السجن ، وكاد يبقى في ظلماته سنوات طويلة ، لولا العناية الإلهية .

ففي سنة ١٣٠٧ هـ عينت الدولة عارف باشا ، أحد كبار رجال الدور الحميدي ، والياً على حلب ، وكان سيء الإدارة ، منهمكاً بالرشا ، يقول الشيخ الغزي الذي روى هذه القصة : « إن السيد الكواكبي تسلط عليه ـ أي على الوالي ـ جرياً على منهاجه الذي كان يسير عليه مع أمثاله من الولاة ، فطفق يتتبع سقطاته ، ويفضح عوارته ، ويندد به في صحف الإستانة وبيروت ، ويكتب بمساوئه إلى المراجع العليا ، حتى نكد عيشه ، وسلب راحته ، وصار الوالي يتمنى أن لو ظفر له بسقطة يتسلط بها عليه لينتقم منه ، فلم يظفر له بشيء من ذلك .

وحدث في يوم ما أن قنصل دولة إيطاليا في حلب السنيور إتريكو ويتو بينما كان راكباً عربته ، ماراً في محلة الجلوم ، التي هي محلة السيد عبد الرحمن الكواكبي ، إذ وقع على ظهره حجر عاثر صدمه صدمة عنيفة تألم منها جداً ، بحيث اضطرته أن يعود إلى منزله وأن يرسل إلى الوالي تقريراً ، يطلب فيه منه البحث عن الضارب ، وإجراء العقوبة القانونية » .

هذه الحادثة فتحت للوالي باباً يلج منه إلى إلصاق هذه الجناية بالسيد الكواكبي ، لا سيما وقد كانت الحادثة في محلته ؛ وعلى مقربة من داره . وفي الحال أوعز إلى بعض شياطينه بأن يرفع إليه تقريراً فحواه أن الكواكبي منضم إلى عصابة أرمنية ـ وكانت ثورات الأرمن في تلك الأيام كثيرة ـ وأنه قبل يومين أغرى بعض الناس فرشق على قنصل إيطاليا حجرة أصابت ظهره ، محاولاً بذلك إحداث ثورة بين الأرمن والمسلمين بحلب ؛ وحالما قدمت هذه الإخبارية إلى الوالي أمر رئيس الشرطة بالذهاب إلى منزل السيد عبد الرحمن ، والدخول إليه قسراً ، وتفتيش مكتبه وخزانة أوراقه . فتوجه رئيس الشرطة على الفور إلى منزل الكواكبي ، وكان غائباً عنه ، فدخله قسراً ومعه طائفة من أتباعه ، وقصدوا خزانة كتبه وألقوا فيها ورقة مزورة استحضروها معهم ، وهي تركية العبارة ، محررة بحروف أرمنية ، مضطربة التركيب ، يفهم منها أن أحد زعماء الأرمن يعد السيد عبد الرحمن بأنه عما قريب يقوم بإحداث ثورة بين المسلمين وبين الأرمن في حلب ! . فقبض الشرطي على هذه الورقة وطار بها إلى الوالي ، فتسلمها منه ، وفي الحال أصدر أمره بإلقاء القبض على الكواكبي وزجه في السجن ، وما أسرع ما أخرج من السجن مخفوراً ، وأجلس على كرسي المحكمة لإصدار الحكم عليه . وكان رئيس المحكمة رجلاً متهالكاً بالتقرب إلى الولاة وكبار الموظفين ، فحكم على السيد الكواكبي بالإعدام ، على أن يكون الحكم قابلاً للإستئناف ثم للتمييز ، فتلقى السيد الكواكبي الحكم بالرضى ، وشرع يطلب من المراجع العليا أن تكون محاكمته الاستئنافية في محاكم بيروت لعداوة شخصية بينه وبين الوالي ، فأجيب طلبه ، ونقل مع أوراق الدعوى إلى محكمة بيروت ، فتحقق لها أن الدعوى مزورة من أساسها ، ولا أصل لها ، وقد برأته ، وعاد إلى وطنه وهو أكثر اعتزازاً بدعوته إلى الحق ومناصبته العتاة المستبدين .

لقد مل المقام في وطنه وهو في هذا الجو الموبوء بالدسائس والوشايات ، فوطن نفسه على الهجرة . . ولكن إلى أين ؟ .

قال لنا الأستاذ الغزي ، وهو أوثق من يروي سيرته للصداقة الوثيقة التي كانت بينهما : « . . . وقبل سفره بيوم واحد زارني في منزلي يودعني ، وأخبرني أنه عازم في غده على السفر إلى استانبول لتبديل نيابته - أي نيابة قضاء راشيا - وكنت عالماً بكتابه « جمعية أم القرى » ، وقد شعرت منه العزم على طبعه ، فوقع في نفسي أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره ، إذ لا يمكنه أن يطبعه في غيرها ، فحذرته من ذلك ، وقلت له : إياك يا أخي والسفر إلى مصر ، فإنك متى دخلتها تعذر عليك الرجوع إلى وطنك ، لأنك تعد في الحال من الطائفة المعروفة باسم « جون تورك » لا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة ، لما اشتهرت وعرفت به من شدة المعارضة ، وانتقاد الأحوال الحاضرة . . فقال : لم أعزم إلا على السفر إلى استانبول للغرض الذي ذكرته لك - وقد كتم سر سفره حتى عن أعز أصدقائه - ثم ودعني ومضى ، وأنا أسأل الله تعالى أن يرعاه بعين رعايته ، وأن يجعل التوفيق رائده ، والنجاح مرشده وقائده . وكانت مبارحته حلب في أوائل سنة ١٣١٦ هـ ، وبعد أن مضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوماً لم نشعر إلا وصدى مقالاته في صحف مصر ، وأخذت جريدة « المؤيد » تنشر تفرقة كتاب « طبائع الاستبداد » الذي لم يطلعنا عليه مطلقاً ، بخلاف كتاب « جمعية أم القرى » فقد أطلعنا عليه مراراً . . ثم إنه طبع الكتابين المذكورين ، وقام لهما في « المابين السلطاني » ضجة عظيمة ، وصدرت إدارة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك العثمانية ، بيد أنهما رغماً عن ذلك كله وصلا إلى حلب على صورة خفية وقرأناهما في سمرنا المرة بعد المرة » .

وفي مصر شعر أنه في وطن عربي حر ، فأخذ يرسل صيحاته المدوية التي انتظمها كتابه « طبائع الإستبداد . ومصارع الإستعباد » وهو كما قال : « كلمات حق وصيحة في واد ، إن ذهبت اليوم مع الريح ، فقد تذهب غداً بالأوتاد . . » .

ويصف لنا الصحفي إبراهيم سليم النجار الفترة التي قضاها الكواكبي في مصر بقوله :

« اتصل المرحوم الكواكبي بالمرحوم الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » ، فتمكنت بينهما روابط الصداقة والود . فكنا نجتمع كل يوم في حلقتنا المعروفة في القاهرة ، فكنت والكواكبي ورفيق العظم والأستاذ كرد علي نؤلف حلقة مستقلة ، ولا نفترق ليلة إلا لنعود إلى الإجتماع في الغد . وحدث أن صدر « المؤيد » ذات يوم يحمل إلى قرائه كتاباً غريب الشكل واللهجة والأسلوب والموضوع ، لم يسبق للمقطم أو سواه من الصحف التي عرفت يومئذ بكتاباتها الحرة أن كتبت مثله ، فلفت الكتاب إليه الأنظار ، وشغل الخواطر ، وأخذت الدعوة الحرة تلبس شكلاً جديداً ، وأخذ الكتّاب والقراء والناس يتساءلون عن صاحب هذا الأثر البديع في جريدة « المؤيد » ، التي سلكت مسلك الصحف الحرة على رغم اتصالها الشديد بالخديو عباس الثاني وبالإستانة ، ويقولون : ترى من يكون صاحب كتاب « طبائع الاستبداد » ؟ . . فاعتقد الجمهور - لأول وهلة - أنه من نتاج قلم وتفكير الشيخ محمد عبده ، لولا الجفاء الذي كان مستحكماً بين صاحب المؤيد وبينه - حتى قبل حادثة الموقوذة - ولولا بعد الشيخ محمد عبده ، عن كل من يتصل بالخديو قريباً وبعيداً ، فلم تمض أيام على انتشار ذلك الكتاب في « المؤيد » حتى عرف الكتاب الكواكبي ، فوضعوه دفعة واحدة في الدرجة الأولى بين رجال التفكير والقلم ، وأنزلوه منزلة الشيخ محمد عبده ، فعرفوا منزلته وأعلوا قدره » .

ولا يتسع المجال للإفاضة بالكلام عن كتاب « طبائع الإستبداد » فهو في متناول كل يد ، ولا تخلو منه مكتبة أديب ، وهو آيات سامية في بذر بذور الحرية في نفوس الناشئة وهدّ كيان المستبدين . وقد أعلمني نجله الدكتور أسعد الكواكبي أن والده قد أضاف على الكتاب بعد طبعه إضافات كثيرة ، والهوامش التي يحتفظ بها بقلم والده نؤلف كتاباً مستقلاً بحجم الكتاب المطبوع . وهو يعتزم طبع هذه النسخة الجديدة قريباً ، ليطلع العالم العربي على ثمرة أفكار والده في الحرية والاستعباد.

والمعروف عند قراء العربية أن الكواكبي لم يترك غير كتاب « طبائع الاستبداد » وسجل مجموعة « أم القرى » مع أنه كتب كتاباً كبيراً عنوانه « صحائف قريش » وهو من أثمن ما جادت به قريحته . . . ولكن أين هذا الكتاب ؟ لقد فقد ولا يعلم أولاده عنه شيئاً . . ومن يدري فقد تكون الأيدي الأثيمة التي سطت على أوراقه عقب وفاته هي التي أضاعت على العالم العربي هذا الكتاب الثمين . . وإذ نعرف أن السيد الكواكبي بعد مكثه في مصر ، قد قام برحلة كبيرة إلى بلاد العرب وشرقي إفريقية وبعض بلاد الهند . . فمما لا شك فيه أنه دوّن الكثير من آرائه عن هذه الرحلة . وهذه الصحائف أيضاً قد عبثت بها أيدي المستبدين ، فخسرت العربية أثمن ما كتبه رحالتنا الكبير بعد أن هجر وطنه إلى بلاد الحرية ، وبعد أن طوف في مختلف أرجاء العالم الإسلامي .

كان الكواكبي يهدف في جميع اتجاهاته إلى تقويض سلطان الظلم وبذر بذور الحرية وإصلاح العالم الإسلامي ، وكان يصرخ من الأعماق :

« الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء ، أكثر هولاً من الحريق . أعظم تخريباً من السيل ، أذل للنفوس من السؤال . داء إذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادي : القضاء القضاء . والأرض تناجي ربها بكشف البلاء . كيف لا تقشعر الجلود من الإستبداد ، وعهده عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء . وأسعدهم بمحياه الجهلاء والفقراء ، بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الأصحاء » .

« لو كان الإستبداد رجلاً وأراد أن يحتسب وينتسب لقال : أنا الشر ، وأبي الظلم . وأمي الإساءة ، وأخي الغدر ، وأختي المسكنة ، وعمي الضر . وخالي الذل ، وابني الفقر ، وبنتي البطالة ، ووطني الخراب ، وعشيرتي الجهالة » .

« يعيش الإنسان في ظل العدالة والحرية نشيطاً على العمل ، أما أسير الإستبداد فيعيش خاملاً خامداً ضائع القصد ، حائراً لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ، ويدرج أيامه وأعوامه ، كأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب » .

« من طبائع الإستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكراً وأوتاده عملاً ، فهم ربائط المستبد ، يذلهم فيئنون ، ويستدرهم فيحنون . ولهذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها . أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ، ويتحبب إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرأفة ، يقصد بذلك أن يغضب أيضاً قلوبهم التي لا يملكون غيرها ، والفقراء كذلك يخافونه خوف دناءة ونذالة ، خوف البغاث من العقاب ، فهم لا يجسرون على الافتكار فضلاً على الإنكار ، كأنهم يتوهمون أن داخل رؤوسهم جواسيس عليهم ، وقد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أن يسرهم فعلاً رضاء المستبد عنهم بأي وجه كان رضاؤه » .

« الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان ، حتى إنه قد مكن بعض القياصرة والملوك الأولين من التلاعب بالأديان ، تأييداً لاستبدادهم .

وقد وضع الناس الحكومات لأجل خدمتهم ، والإستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة ، وقد قبل الناس من الإستبداد ما ساقهم إليه من

اعتقـاد أن طـالب الحق فـاجـر ، وتـارك حقـه مـطيـع ، والمشتكي المتـظلم مفسد ، والنبيه المدقق ملحد ، والخامل المسكين هو الصـالح الأمـين ، وقد اتبع الاستبداد في تسمية النصح فضولاً ، والغيرة عداوة ، والشهامة عتواً ، والحمية جنوناً ، والإنسانية حماقة ، والرحمة مرضاً ، كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة ، والتحيل كياسة ، والدناءة لطف ، والنذالة دماثة » .

« قد يبلغ فعل الإستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقي إلى طلب التسفـل ، بحيث لـو دفعت إلى الـرفعـة لأبت وتـألمت ، كـما يتـألم الأجهر من النور ؛ وإذا ألزمت بالحرية تشقى ، وربما تضنى . . . يطيب لـه المقام على امتصاص دم الأمة فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها » .

ويـطول بنا المجـال لو رحنـا نقتطف هـذه الكلمات الـذهبية التي جـاءت عرضاً في الفصول التي كتبها محللاً طبيعة الاستبداد وطغيـان المستبدين . هـذه الفصول التي اختتمها بصيحات من الأعماق ، أهاب بالشرق أن يستيقظ وأن يثـور ، ليؤدي رسالتـه السامية التي أداهـا أسـلافـه للحضـارة ، فمن هـذه الصيحات قوله :

« يا قوم : هداكم الله ، ما هذا الشقاء المديد ، والنـاس في نعيم مقيم وعز كريم ؟ أفلا تنظرون ! ومـا هذا التـأخر ، وقـد سبقتكم الأقوام ألـوف مراحل أفلا تتبعون ؟ . . وما هذا الانخفـاض ، والناس في أوج الـرفعة ، أفلا تغارون ؟ .

« يا قوم : وقـاكم الله من الشر ، أنتم بعيدون عن مفـاخر الإبـداع ، وشـرف القدوة ، مبتلون بـداء التقليد والتبعيـة في كل فكـر وعمل ، وبـداء الحـرص على كـل عتيق ، فلمـاذا تقلدون أجـدادكم في الخـرافـات والأمـور السافلات ولا تقلدونهم في محامدهم ؟ . . أين الـدين ؟ أين التربيـة ؟ أين الإحساس ؟ أين الغيرة ؟ أين الجسارة ؟ أين الثبات ؟ أين الـرابطة ؟ أين المناعة ؟ أين الشهـامة ؟ أين النخـوة ؟ أين الفضيلة ؟ أين المواسـاة ؟ هل تسمعون أم أنتم نائمون ؟

« يـا قوم ، سـامحكم الله ! لا تظلمـوا الأقدار ، وخـافـوا غيـرة المنعم الجبـار ، ألم يخلقكم أحـراراً لا يثقلكم غـير النـور والنسيم ، فـأبيتم إلا أن تحملوا على عواتقكم ظلم الضعفاء وقهر الأقوياء ؟ .

« يـا قوم ، جعلكم الله من المهتـدين ، كـان أجـدادكم لا ينحنـون إلاّ ركوعاً لله ، وأنتم تسجـدون لتقبل أرجـل المنعمين ولـو بلقيمة مغمـوسة بـدم الإخوان ! وأجدادكم ينـامون الآن في قبـورهم مستوين أعـزاء ، وأنتم أحياء معـوجـة رقـابكم أذلاء ! البهـائم تـود لـو تنتصب قـامتهـا ، وأنتم من كثـرة الخضـوع كادت تصـير أيـديكم قـوائم ! . . النبـات يـطلب العلو ، وأنتم تطلبون الإنخفاض ! لفظتكم الأرض لتكونوا على ظهرها ، وأنتم حريصـون على أن تنغرسـوا في جوفهـا ! فإن كـانـت هذه بغيتكم فـاصبروا قليـلاً لتنامـوا طويلاً » .

بهذه الصيحات كان ينبه الشرق ويثيره ، ويبذر في حقوله بذوره الصـالحة لينشأ أفراده على بغض الاستبداد وتقديس الحرية والإيمان بالمثل العليا .

وقـد ذهب البعض إلى أن كتـاب « طبـائـع الاستبـداد » منقـول عن الإيطالية ، ومنهم من قال إنه معـرب عن جان جـاك روسو ، وذهب غيـرهم إلى أن هذه الآراء هي آراء بطل الحرية مدحت باشـا ، إلى آخر مـا ذهب إليه المغـرضون الـذين لا تهدأ ثـائرة ضغـائنهم إلاّ إذا جردوا أصحـاب المواهب من مزاياهم وفضائلهم ، وقد رد كثيرون على هذه التهم الباطلة .

ويقول الأستاذ النجار بهذا الصدد :

« سبق لي أن قرأت في شبابي كتـاب « الكونتـرا سوسيـال » لجان جـاك روسو ثم انقطعت عن الرجوع إليه ، فلما قرأت كتاب « طبائـع الاستبداد » أعـاد إلى ذاكرتي كتـاب الكاتب الإفرنسي العظيم . ولـو كان الشيـخ العـربي يعرف ولو قليلاً اللغة الفرنسوية لاعتقدت بـأنه أخـذ عنه أو احتـذى حذوه .

ولكن الحقيقـة هي أن العقول النيـرة ، والقلوب الكبيرة نيـرة وكبيرة ، مهـما اختلفت لغاتها وبـلادها وأقـاليمها . ولـو ملكت سلطة في هذا الشـرق العربي لأوجبت تـدريس هذا الكتـاب في جميع المـدارس ، لأنه ينشيء الشبـاب عـلى حب الحرية ومقاومة الظلم والإستبداد أنى كان مصدرهمـا وعمن صدرا ، دون تعصب ذميم ، ولطبعت ألوف النسخ عنه ووزعتها على النـاس في هذه البـلاد الضعيفـة الخانعـة المستكنة ، ففي بعض الكتب شعـاع من أرواح الأنبيـاء ، وقبس روحاني من أقباس السماء » .

والواقع أن الكواكبي كان صاحب رسالة حرة ، فمـذ نشأتـه إلى أن طواه القدر ظل هذا المفكر الحر الذي يرسل صيحاته المدوية في الحرية والاستبداد ، دون أن يهلع فؤاده أو يضطرب جنانه ، ودعوته كدعـوة المصلحين الأحـرار ، لم تـذهب صيحة في واد . لا . . . فقـد كان لهـا اثرهـا المـدوي . واستيقظ الشـرق ، وهـو يـذكـر اليـوم لهـداتـه المصلحـين يـدهم في هـذا التحـرر والبعث . . . والكواكبي من هؤلاء الهداة الذين عملوا في سبيل نـزع الغشاوة عن عقـل الشرق ، ليهب ويستيقظ ، ويستعيـد مجده السـالف ، ثم ليبدع ويعمل في بناء دعائم الحضارة من جديد .

ومن المؤسف أن الكـواكبي لم يعمـر طـويـلاً ، فقـد مـات في نضـوج كهولته ، أي في الخمسين من عمره . ولو مد الله في حياته لترك للجيل العربي الكثير من المؤلفات في شتى قضايا المجتمع ، ولكنه توفي في ظروف غـامضة ، اختلف الناس في تأويلها ، ومنهم أصدقـاؤه وذووه الذين لا يـزالون يعتقـدون أن يداً مجرمة هي التي دست إلى طعامـه السم ، وأن هذه اليـد قد امتـدت من قصر يلدز ، أو ممن يمت بصلة إليـه من مواطنيـه ، ويـريـدون أن يقـولـوا إن للسيد أبي الهدى الصيادي يداً في هذه النهاية .

ولا بأس من أن أختتم مقالي هذا بكلمة للأستاذ إبـراهيم سليم النجار ، قال .

« لقد حدث لي في حيـاتي الصحفية الـطويلة في مصر وسوريـا والإستانـة والغرب أن حدثت كثيرين من أهل الـرأي والعلم والسياسـة في شؤون جمة ، فأقول ، وأشهد الله على ما أقوله : إنني لم أعرف كثيـرين من الذين حـدثتهم كانوا في مثل إطلاع الفقيد على شؤون الشـرق وسعة علمـه ، وجلاء رأيـه ، وقوة حجته ، وصلابة يقينـه ؛ ولقد كـان يصرح لي بـآراء أعترف اليـوم على رؤوس الأشهاد بأنني لا أجرؤ على الجهر بها » .

تصويب أخطاء

في حاشية الصفحة ٢٧ :

ترتيب أرقام الحاشية هكذا :

(١) السيد علي العدناني

(٢) الشيخ محمد السمامي

(٣) الشيخ عبد الحسين الصالحي

في الصفحة ٤٥ العمود الثاني ، السطر ٣٥ :

كلمة : نرضى والصحيح : ترضى

في حاشية الصفحة ٦٣ :

أمام رقم (٢) يوضع اسم الشيخ محمد السمامي

في الصفحة ١٦٨ العمود الثاني سطر ٣٢ :

بشر بن سعد والصحيح : بشير بن سعد

في الصفحة ٢١٧ :

تـرجمة السيـد محمد بـاقر القـزويني هي بقلم الشيخ عبـد الحسين الصالحي

في الصفحة ٢٦٧ في السطر ٣١ :

كلمة الأسود : صوابها : الأسعد

في الصفحة ٢٧٤ في السطر ٢١ :

التناصر أو الائتلاف ، صوابها : التناصر والائتلاف

في الصفحة ٢٦٣ ، العمود الثاني :

قادر ميرزا القاجاري : صوابها نادر ميرزا القاجاري

الفهرست

